موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

ندوات تلفزيونية

قناة سوريا الفضائية

الاسلام والحياة

الايمان هو الخلق

الفقه الحضاري

دروس تلفزيونية

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (01-20) : أركان النجاة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-01-04

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم، أعزائي المؤمنين، إخوتي المشاهدين، السلام عليكم ورحمة الله و بركاته.
الإنسان أيها الإخوة هو المخلوق المكلف، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات: الآية 56]

هذه اللام لام التعليل، أي أن علة وجود من على سطح الأرض أن نعبد الله، ولكن ما تعريف العبادة ؟ إنها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، إنها غاية الخضوع، وغاية الحب، فمن أحب الله، ولم يطعه لا تعد هذه عبادة، ومن أطاع الله، ولم يحبه لا تعد هذه عبادة، فالعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.
أيها الإخوة الأحباب، العبادة علة وجودنا على سطح الأرض، من خلال هذا التعريف يتضح أن في العبادة جانباً معرفياً، فالمعرفة هي الحاجة العليا في الإنسان، والإنسان لا يؤكد إنسانيته إلا إذا طلب الحقيقة، وطلب الحقيقة يجعله إنساناً، والمؤمن شخصية فذة، ذلك أن في الإيمان مرتبة علمية، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى في الكون، وانسجم معها، فلابد للمؤمن من أن يكون على علم، وهذا هو العلم الذي أراده الله عز وجل.

أيها الإخوة الأحباب، الإيمان مرتبة علمية، ومرتبة أخلاقية، ذلك أن المؤمن يخضع لمنظومة قيم عالية جداً، لا تجد مؤمناً يخالف القيم الأخلاقية إلا أن يكون ضعيفاً في إيمانه، والمؤمن يمكن أن يكون في مرتبة جمالية، لأنه عرف أصل الجمال.

أيها الإخوة الأحباب، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، بل يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا، فيربحهما معاً، والذي لم يطلب العلم يؤثر الدنيا على الآخرة، فيخسرهما معاً.

ولكن أيها الإخوة، أي علم هذا المنجي ؟ هناك علم بخلق الله، فكل الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والطبية، وكل حقائق التاريخ و لجغرافيا، وما إلى ذلك هذا علم بخلقه، وجامعات العالم كلها متخصصة في تعليم الطلاب القوانين التي تنتظم خلق الله عز وجل، هناك علم بأمره، افعل ولا تفعل، وهذا منوط بكلية الشريعة في العالم الإسلامي، هناك علم بخلقه، وهناك علم بأمره، وهناك علم به.

أيها الإخوة الأحباب، العلم بخلقه، وبأمره يحتاج إلى مدارسة، أي إنه لابد من معلم، لابد من كتاب، لابد من قراءة، لابد من حفظ، لابد من أداء امتحان، لابد من نيل شهادة، لابد من أن تعمل بهذه الشهادة، هذه كلها ما تعنيه كلمة مدارسة، لكن العلم بالله شيء آخر، ثمنه باهظ، ونتائجه باهرة، العلم بالله يقتضي مجاهدة، جاهد تشاهد:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

[سورة العنكبوت: الآية 69]

أنت حينما تعرف الله عز وجل تحبه، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه، ثم لا تحبه:

تعصي الإله و أنت تظهر حبه   ذاك لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

إذاً مستحيل أن تعرفه، ثم لا تحبه، ثم مستحيل أن تحبه، ولا تطيعه، الأصل أن تعرف الله، بل إن أزمة أهل النار، وهم في النار هي العلم:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

فالإنسان مفطور على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، ويشقى الإنسان حينما يخطئ وسائل السعادة ، وحينما يخطئ الهدف.

أيها الإخوة الأحباب، العلم هو الذي يشرف الإنسان، العلم هو الذي يؤكد في الإنسان إنسانيته، وفي العبادة جانب معرفي، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، أو على كل مسلم ومسلمة، أو على كل شخص مسلم، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه.

وفي العبادة جانب معرفي، وحينما تعبد الله عز وجل على علم تسلم من الشيطان، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي، ابن ماجه]

هذا الجانب المعرفي هو الأصل، لأنه ما من حركة يمكن أن تتحسسها إلا من خلال العلم، لذلك كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك.

في العبادة أيها الإخوة جانب سلوكي، والجانب السلوكي هو الأصل، أي الإسلام من دون التزام، من دون انضباط، من دون تقيد بمنهجه، من دون إتباع لسنة نبيه الإسلام يصبح ظاهرة فردية، صوت عال، وليس هناك شيء يمكن أن نقطف ثماره، وهذه مشكلة كبيرة يعاني منها المسلمون في العالم الإسلامي، ذاكرة صوتية، يمكن أن تكون المظاهر صارخة، لكن حقيقة الإسلام هو الانصياع لأمر الله عز وجل، وقطف ثماره، فلابد من السلوك الصحيح، إن العلم الحقيقي يفضي إلى السلوك الصحيح.

هناك مبدأ في علم الاجتماع، هذا المبدأ يضبط تعامل الإنسان مع البيئة، إدراك، تأثر ، وسلوك، لو أن الإنسان رأى حشرة قاتلة، فإدراكه أنها حشرة قاتلة يجعله يضطرب، وينفعل، وانفعاله الصحيح يجعله يسلك سلوكاً صحيحاً، فنحن حينما يصح إدراكنا يصح انفعالنا، وانفعالنا يقودنا إلى السلوك، ففي العبادة جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، الإنسان عرف أصل الجمال:

و لو شاهدت عيناك من حسننـا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا

و لو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلا بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمـت غريباً و اشتياقاً لقربـنا

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولتــه قلنا له: قد جفوتنـا

إذاً كلمة مؤمن تعني أن صاحب هذا اللقب على علم، وعلى خلق، وعلى انغماس في جمال لو وزع على أهل بلد لكفاهم، لذلك قال بعض العلماء: في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

[سورة الرحمن: الآية 46]

أيها الإخوة الكرام،هناك في العبادة نوعان كبيران: عبادة تعاملية، وعبادة شعائرية، فالعبادة التعاملية هي المنهج التفصيلي الذي أمرنا أن نتبعه، لقد أمرنا بالصدق، وأمرنا بإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، أمرنا بالأمانة، أمرنا بالعفة، هكذا قال سيدنا جعفر حينما سأله النجاشي عن الإسلام قال: " أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف صدقه، وأمانته، وعفته، ونسبه ".

[أحمد عن أم سلمة]

هذه أركان الأخلاق، إن حدثك المؤمن فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف.

أيها الإخوة الأحباب، قال: " أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف صدقه، وأمانته، وعفته، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكف عن المحارم والدماء، وحسن الجوار ".

هذا هو الإسلام، منظومة أخلاقية، مجموعة قيم أخلاقية، من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان. وثمة أحاديث صحيحة كثيرة تؤكد أن الإيمان هو الصدق.

أيها الإخوة الكرام، هذه العبادة التعاملية، لكن العبادة الشعائرية أن نقف، ونصلي، وأن نصوم رمضان، وأن نحج البيت، وأن نؤدي الزكاة، ما العلاقة بين العبادة التعاملية والشعائرية ؟

لو أننا مثلنا العبادة التعاملية بالعام الدراسي، يوجد دوام، يوجد إصغاء إلى المحاضرات، يوجد كتابة وظائف، يوجد أداء مذاكرات، أداء امتحانات، يوجد نشاط الطالب في العام الدراسي هو العبادة التعاملية، أما العبادة الشعائرية فهي هذه الساعات الثلاث التي يؤدَّى فيها الامتحان ما لم يداوم، ما لم يدرس، ما لم يذاكر، ما لم يحفظ، ما لم ينضبط لا معنى لهذه الساعات الثلاث، ذلك أن العبادة الشعائرية لا تصح عند الله إلا إذا صحت العبادة التعاملية، إليكم الأدلة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي، أحمد]

أرأيتم إلى علاقة العبادة التعاملية بالعبادة الشعائرية ؟

شيء آخر في الحديث الصحيح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ))

[أحمد]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا، وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[البخاري، مسلم، الدارمي]

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا ؟ جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

هؤلاء يجعل الله أعمالهم هباء منثوراً، وإن الذي يحج بيت الله الحرام بمال حرام يضع رجله في الركاب، ويقول: لبيك اللهم لبيك، يناديه مناد: أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك، وإذا أنفق الإنسان مالاً من حرام:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

[سورة التوبة: الآية 53]

بل إنك إذا قلت: لا إله إلا الله، يقول عليه الصلاة والسلام: من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة قيل: و ما حقها يا رسول الله ؟ قال: أن تحرزه عن محارم الله.

أرأيت إلى العبادة التعاملية والشعائرية ؟ لا تصح العبادة الشعائرية عند الله، عليك أن تؤديها، شئت أم أبيت، ولكن لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر في العبادة، العبادة ذات مفهوم شمولي، هناك عبادة هوية، أي من أنت، أنت غني، عبادتك الأولى إنفاق المال، أنت قوي عبادتك الأولى أن تنصف المظلوم، وأن تحق الحق، أنت عالم عبادتك الأولى أن تعلم العلم، أنتِ امرأة عبادتك الأولى أن تحسني رعاية زوجك وأولادك، فقد جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال لها:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

إذاً هناك عبادة الهوية، أقامك الله غنياً عليك أن تنفق المال، أقامك الله عالماً عليك أن تعلم العلم، أقامك الله قوياً عليك أن تأخذ بيد الضعيف، وأن تنصفه من القوي، أقامك الله امرأة عليك أن تحسني رعاية زوجك وأولادك.

هناك معنى آخر من معاني العبادة، عبادة الظرف، لا سمح الله ولا قدر لك أب مريض، عبادتك الأولى رعاية الأب، عندك ضيف، عبادتك الأولى إكرام الضيف، ابنك عنده امتحان، عبادتك الأولى أن ترعى هذا الابن، لأنه بضع منك، إذاً هذه عبادة الظرف، ثم إن هناك عبادة من نوع آخر، سماها بعض العلماء عبادة الوقت ، الطرف الآخر إذا أراد أن يفقرنا نحن المؤمنين فكسب المال وإنفاقه في حل مشكلات المسلمين هو مسح دموع البائسين، وإكرام اليتامى، وإكرام الأرامل، ومعالجة المرضى، إنفاق هذا المال الحلال في خدمة المؤمنين هو العبادة الأولى، لأن أحد الصحابة الكرام يقول:

حبذا المال أصون به عرضي وأتقرّب به إلى ربـي

لقد جعل الله المال قوام الحياة، فمن كسبه حلالاً، وأنفقه في وجوهه كان بالنسبة إليه عبادة الوقت، أي إذا كان الطرف الآخر يريد إفقار المؤمنين فكسب المال ينبغي أن يكون من صنف العبادة، بل إن أيّ

عمل يعمله الإنسان إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلك به طرقاً مشروعة، وأراد به كفاية نفسه وأهله، وخدمة المؤمنين، ولم يشغله عن واجب ديني انقلب هذا العمل إلى عبادة.

أيها الإخوة الأحباب، أعمال المؤمن العادية إذا رافقتها نوايا عالية تنقلب إلى عبادات، بينما عبادات المنافق الخالصة تنقلب إلى سيئات، هذه حقيقة مهمة جداً، فأنت حينما تكسب المال الحلال، وتنفقه في سبيل الله هذا عبادة، ولكن إذا طريق كسب المال سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

لأن خيارات المؤمن الغني القوي أكثر رحابة من خيارات المؤمن الضعيف، ولكن إذا كان طريق كسب المال محفوفاً بالمعاصي والآثام فينبغي أن تكون بعيداً عن المعاصي والآثام، عندئذ أنت معذور عند الله، هناك فقر الكسل، وهذا عند الله مذموم، وهو فقر القدر، وهذا عند الله معذور، وهناك فقر الإنفاق، وهذا عند الله مستحسن.

أيها الإخوة الكرام، ثم إن الطرف الآخر إذا أراد إذلالنا فترسيخ حقائق الدين، توضيح عقيدة المسلمين، نشر الفضائل الإسلامية، بيان أحكام الكتاب والسنة، هذا يعد أول عبادة إذا كثرت الضلالات، وشاعت الترهات، ودخل الحق في الباطل، لابد من توضيح الحق:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأحزاب: الآية 39]

إذاً حينما توضح معالم الدين، تأتي بالدليل التفصيلي ، ترد على الشبه، ترد على الضلالات، حينما تتوضح معالم الدين فهذه أول عبادة، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم:

((ما من كلمة أحب إلى الله من كلمة الحق))

[ورد في الأثر]

الإنسان أحياناً من كلمة صادقة ينشر هداية في الآفاق:

(مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

[سورة إبراهيم]

وحينما يريد الطرف الآخر إفسادنا عن طريق هذه المناشط التي تفسد الأخلاق، وعن طريق أجهزة، وأدوات تحطم القيم لابد من أسلمة هذه الأجهزة والأدوات، ولابد من مناشط نظيفة تحفظ لأجيالنا خلقها وقيمها وعقيدتها، إذاً حينما يعم الفساد في الأرض كما قال الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

[سورة الروم: الآية 41]

حينما نعيش فتناً، وحينما نعيش ضلالات، وحينما نخشى على أبنائنا الانحراف ينبغي أن نهيئ لهم مناشط نظيفة تقي عقيدتهم، وتقي سلوكهم من الانحراف، وهذا أيضاً عبادة من العبادات.

وحينما يريد الطرف الآخر أن يذلنا لابد من أن نعتز بإيماننا، لابد من أن نضع تحت قدمنا كل مصالحنا، سيدنا عمر رحمه الله تعالى ورضي عنه جاءه ملك من ملوك الغساسنة، اسمه جبلة بن الأيهم، سر به عمر، لأن النبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

سرّ به، ورحب به، في أثناء طوافه حول الكعبة داس بدوي من فزارة طرف ردائه، فما كان من هذا الملك الذي أسلم حديثاً إلا أن ضرب هذا البدوي ضربة هشمت أنفه، ماذا يفعل هذا البدوي ؟ ذهب إلى عمر، وشكاه، سيدنا عمر استدعى جبلة، قال: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال: لست ممن ينكر شيئا، أنا أدبت الفتى، أدركت حقي بيدي، هذا الحوار صيغ شعراً، قال: يا ابن أيهم، أرضِ الفتى، لابد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك، قال: كيف ذاك يا أمير، هو سوقة، وأنا عرش وتاج ؟ كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً ؟ قال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية، قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً، قال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني، قال: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

أيها الإخوة، لقد علّق بعضهم على هذا الحادث بأن عمر رضي الله عنه وأرضاه ضحى بملك، ولم يضح بمبدأ، وأن الإيمان مجموعة مبادئ.

أيها الإخوة الأحباب، شيء آخر، هذا الطرف الآخر إذا أراد اجتياح الأرض ينبغي أن نقاومه، ينبغي أن نبذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس في سبيل إحقاق الحق.

الإنسان أيها الإخوة بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة، ذلك أن الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، وهذا الزمن الذي هو أثمن شيء نملكه، وهذا الثمن الذي هو رأس ماله الوحيد، هذا الثمن هو الذي ينبغي أن يستهلكه استهلاكاً استثمارياً، لا استهلاكاً تافهاً، الزمن ينفق استهلاكاً، وينفق استثماراً، فإذا أكلنا، وشربنا، واستلقينا، وذهبنا إلى النزهات فقط، ولم

نحمل رسالة، ولم نحمل هماً، ولم نؤدِ واجباً، ولم نحقق شيئاً، نحن أنفقنا الزمن استهلاكاً، أما إذا آمنا بالله، وعرفنا الحقيقة العظمى، وعملنا وفق توجيهاتها، ودعونا إلى الله دعوة كفرض عين، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ::

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...))

[البخاري، الترمذي، أحمد، الدارمي]

ثم تعرفنا إلى خالقنا جل وعلا نكون قد أنفقنا هذا الوقت استثماراً، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال عن هذه السورة: " إنها تكفي المؤمن، لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم "، وقال عن قوله تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 3]

هذه أركان النجاة، فلا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً.

أيها الإخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون قد أفدنا جميعاً من هذه الحقائق، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (02-20) : مقومات التكليف
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-02-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزائي المؤمنين، إخوتي المشاهدين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة، لقول الله عز وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: الآية 72]

فالإنسان قبل حمل الأمانة إذاً أصبح عند الله مخلوقاً أولاً، والأمانة أيها الإخوة نفسها التي بين جنبيه، إن عرفها بربها، وحملها على طاعته سعد في الدنيا والآخرة، وإن غفل عن ربه، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه شقي في الدنيا والآخرة، فالناس رجلان، لا غير، إنسان عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان تفلت من منهج الله، لأنه غفل عنه، فشقي في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الأحباب، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

الفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز، والتفوق كل التفوق، والعقل كل العقل في أن تعرف الله، وأن تحمل نفسك على طاعته، وأن تتقرب إليه بالأعمال الصالحة، عندئذ تسعد في دنياك وفي أخراك، والله سبحانه وتعالى كلفنا حمل هذه الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض، ولكن ما كلفنا حمل الأمانة إلا وقد أعطانا مقوماتها.

أولا: مقومات حمل الأمانة أن هذا الكون الذي ينطق كله بوجود الله، وينطق بوحدانيته، وينطق بكماله، وقد جعل الله الكون مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فحيثما نظرت تجد آية دالةّ على عظمته.

فمثلاً: أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم يقطع في الدقيقة ؟ وكم يقطع في الساعة ؟ وكم يقطع في اليوم ؟ وكم يقطع في السنة ؟ هذه المسافة التي بيننا وبين الأرض لو أردنا أن نقطعها بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام لنقطع المسافة بمركبة أرضية بيننا وبين أقرب نجم ملتهب إلى الأرض.

كم هي المسافة بيننا وبين نجم القطب ؟ أربعة آلاف سنة ضوئية، كم هي المسافة بيننا وبين مجرة المرأة المسلسلة ؟ مليونا سنة ضوئية، بل إن علماء الفلك اكتشفوا قبل سنوات أن هناك مجرات تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75))

[سورة الواقعة: الآية 75]

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: الآية 28]

بل إن صياغة هذه الآية تعني أن العلماء وحدهم، ولا أحد سواهم يخشى الله.

أيها الإخوة الأحباب، لو أن عالمَ فلك قرأ هذه الآية، ودقق في كلماتها لوجد أن كلمة (موقع) لا تعني أن صاحب الموقع في الموقع، فهذه المجرة التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية كانت في هذا الموقع قبل عشرين مليار سنة ضوئية، وسرعتها تقترب من سرعة الضوء، مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، أين هي الآن ؟ هذا عالم الفلك لو دقق في كلمات الآية لخر ساجداً لله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

ذلكم الله رب العالمين.

أهذا الإله العظيم يعصى ؟ أهذا الإله العظيم تخترق منهياته ؟

شيء آخر أيها الإخوة، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثمانية دقائق، والأرض أصغر من الشمس بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أو أن الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، أي إن الشمس تتسع في جوفها لمليون وثلاثمئة ألف أرض، انظروا إلى حجم الأرض، وإلى حجم الشمس، وإلى المسافة بينهما، والآن دققوا فيما سأقول: إن في برج العقرب نجماً صغيراً أحمر اللون متألقاً، اسمه قلب العقرب، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس: الآية 101]

هذا الكون ما جعله الله بهذا الإعجاز إلا كي نعرف الله منه، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

[سورة آل عمران: الآية 190-191]

في القرآن الكريم أيها الإخوة ألف وثلاثمئة آية كونية، لابد من أن يكون لهذه الآيات أهدافاً عظيمة جداً، إنها سبيل معرفة الله عز وجل، فأنت في الكون تعرفه، وبالشرع تعبده، ويقول الله عز وجل:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

[سورة فصلت: الآية 53]

في الإنسان غدة صغيرة جداً، هي ملكة الغدد، اسمها الغدة النخامية، لا يزيد وزنها على نصف غرام فقط، هذه الغدة مرتبطة بمئة وخمسين ألف عصب، إنها ملكة الغدد فعلاً، تفرز تسع هرمونات، لو أن هرموناً من هذه الهرمونات لم يفرز بالحجم المناسب والكمية المناسبة لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، إن هذه الغدة تفرز هرمون النمو، وهذا الهرمون مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضًا أمينيًّا، وذرات الكون كما يقول بعض العلماء لا تكفي لصنع ذرة من حمض أميني صدفةً، هذا الهرمون مؤلف من مئة وثمانية وثمانين حمضًا أمينيًّا، يجب أن يكون في الدم بنسبة عشرة ميكروغرامات في كل لتر، إن نقصت هذه النسبة تقزّم الإنسان، وإن ارتفعت تعملّق الإنسان، قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

[سورة فصلت: الآية 53]

وهذه الغدة التي هي ملكة الغدد، والتي تحكم كل الغدد الصماء في الجسم تفرز هرموناً آخر اسمه هرمون الكظر.

الدماغ أيها الإخوة ملك الجهاز العصبي، والغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني، لو أن إنساناً شاهد أفعى في بستان تنطبع صورة الأفعى على شبكية العين إحساساً، وتنتقل هذه الصورة إلى الدماغ إدراكاً، يدرك الخطر بحسب المفهومات التي تلقاها في مدرسته، ومن خلال تجاربه، ومن خلال مسموعاته، فالدماغ ـ وهو ملك الجهاز العصبي ـ يدرك الخطر، فيعطي أمراً لملكة الجهاز الهرموني أن تتصرف، ملكة الجهاز الهرموني تتصل بالكظر، الغدة التي فوق الكلية، ماذا يفعل الكظر ليواجه هذا الخطر ؟ يفرز هرموناً يسرع ضربات القلب، فالخائف تزداد ضربات قلبه، ثم يفرز هرموناً يسرع وجيب الرئتين، فالخائف تخفق رئتيه أكثر من ذي قبل، ثم إن هذا الكظر يفرز هرموناً ثالثاً يضيق لمعة الأوعية المحيطية في الجسم، كي يوفر الدم إلى العضلات، فالخائف تراه مصفر اللون، ثم إن هذا الكظر يفرز هرموناً يأمر الكبد أن يطرح كمية من السكر إضافية، إذاً لو فحصنا دم الخائف لوجدنا نسب السكر مرتفعة، ثم إن هذا الكظر يفرز هرموناً خامساً كي يزيد من هرمون التجلط، لئلا يسيل الدم كله إثر ضربة واحدة، هذا كله يتم في ثوانٍ، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

[سورة الذاريات: الآية 21]

إذاً أول مقوم من مقومات الأمانة، أي من مقومات حمل الأمانة هذا الكون بسماواته وأرضه، بخلق الإنسان، بخلق الحيوان، بخلق النبات، ينطق كله بوحدانية الله وبكمال الله.

فالكون أيها الإخوة أحد مقومات حمل الأمانة، ثم إن الله سبحانه وتعالى أودع فينا العقل كأداة للمعرفة، وكمناط للمسؤولية، فللعقل مبادئ ثلاثة:

أول هذه المبادئ: مبدأ السببية، فالعقل لا يفهم شيئاً من دون سبب.

وثاني هذه المبادئ: مبدأ الغاية، والعقل لا يفهم شيئاً من دون غاية، هكذا برمج، وهكذا تعد خصائصه.

ثم مبدأ الهوية: العقل لا يقبل التناقض، ومن حكمة الله البالغة أن مبادئ العقل تتوافق مع قوانين الكون، فإذا أعمل الإنسان عقله في الكون فلابد أن يصل إلى الله عز وجل إلا قلة قليلة ركبت رؤوسها، وتجاوزت خصائصها.

أيها الإخوة الأحباب، الدين في الأصل نقل، ولأن أخطر ما في النقل صحته، تعدّ صحة النقل أخطر شيء في الدين، لذلك مهمة العقل مع النقل أن يتحقق من صحة النقل أولاً، وأن يفهم النقل ثانياً، هذه مهمة العقل، أما أن يكون العقل وحده مقياساً للمعرفة فهذا لا يقره القرآن الكريم، ذلك أن العين مهما دقت رؤيتها فهي بحاجة إلى نور يتوسط بينها وبين المرئي، كذلك العقل مهما كان متفوقاً فلابد من وحي إلهي يعينه على معرفة الحقيقة العظمى.

أيها الإخوة الكرام، العقل أداة معرفة الله، ومناط التكليف.

شيء آخر من مقومات التكليف: إنها الفطرة، الإنسان جُبِل جبلّة راقية جداً، هذه الجبلّة تعرف ذاتها بذاتها، تعرف خطأها بنفسها، قال تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

[سورة الشمس: الآية 7-8]

أي إنها إذا اتقت ألهمت أنها متقية، وإن فجرت ألهمت أنها فاجرة، فالإنسان بحكم فطرته يعرف ما إذا كان على صواب، أو إذا كان على خطأ، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذا الدين العظيم دين الله عز وجل متوافق توافقاً تاماً مع فطرة الإنسان، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم: الآية 30]

فلذلك الإنسان حينما يخرج عن مبادئ الدين يشعر بالكآبة والضيق، يشعر بالذنب، تضيق نفسه، قال بعضهم: إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

بالعقل تعرف الله، وبالفطرة تكشف خطأك، وهذا من فضل الله علينا، كل مولود يولد على الفطرة، بمعنى أن الإنسان فطره الله عز وجل على حب الكمال، فهو لا يسعد، ولا يستريح، ولا يطمئن، ولا يهدأ إلا إذا كان على منهج الله عز وجل، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم: الآية 30]

فتوافق الفطرة مع مبادئ الدين توافق تامٌّ، لكن لحكمة بالغةٍ بَالغةٍ جعل الله بعض أوامر الدين، أو بعض التكاليف متناقضاً مع الطبع، لا مع الفطرة، فالإنسان يميل إلى أخذ المال، والتكليف يأمره أن يدفعه، والإنسان يميل إلى إطلاق البصر، والتكليف يأمره أن يغض البصر، والإنسان يميل إلى النوم، والتكليف يأمره أن يستيقظ، والإنسان يميل إلى أن يخوض في قصص الآخرين، والتكليف يأمره أن يصمت.

أيها الإخوة الكرام، التكليف يتناقض مع الطبع، ليكون هذا التناقض ثمناً للجنة، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

[سورة الليل: الآية 5-7]

إذاً حينما أخالف الهوى أدفع ثمن الجنة، لأن الإنسان في الأصل خُلق لجنة عرضها السماوات والأرض، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: الآية 119]

فالإنسان حينما يستقيم على أمر الله يتفق مع فطرته، ترتاح نفسه، يطمئن قلبه، يشعر بسعادة لو وزعت على أهل بلد لكفتهم.

أيها الإخوة الأحباب، المقوم الآخر من مقومات التكليف:حرية الاختيار، فالإنسان جعله الله حراً في اختياره، قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

[سورة الأنعام: الآية 148]

فالإنسان جعله الله حراً ليثمن عمله، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطع مكرَهاً.

أيها الإخوة الأحباب، لمجرد أن تلغي الاختيار، وأن تؤمن بالجبر فقد فسدت عقيدتك، أنت حينما تؤمن بالجبر، وبأن الإنسان مسيَّر، وليس في حياته اختيار إطلاقاً، معنى ذلك أنك ألغيت التكليف، وألغيت

حمل الأمانة، وألغيت الثواب، وألغيت العقاب، وألغيت النار، وألغيت الجنة، الإنسان لا شك أنه مخير، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

[سورة الإنسان: الآية 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 148]

جيء برجل شارب خمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: يا أمير المؤمنين، إن الله قدر علي ذلك، فقال هذا الصحابي الجليل، الخليفة الراشد: أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار، أنت مخير.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إيّاك أن تبتل بالماء

أيعقل أن نبني حائطين على عرض كتف إنسان، وهو يمشي بين الحائطين نقول له: الزم اليمين، هذا لا معنى له، لمجرد وجود الأمر والنهي في القرآن والسنة معنى ذلك أن الإنسان مخير، والإنسان لا يكسب ثواب الجنة، ولا يستحق النار إلا لأنه مخير، ولا يكرم المؤمن، ولا يسفه غير المؤمن إلا لأنهما مخيران.

أيها الإخوة الكرام، الاختيار من مقومات التكليف.

شيء آخر من المقومات: هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان، هذه الشهوات كما قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ)

[سورة آل عمران: الآية 14]

هذه الشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرقى بها مرتين، مرةً صابرين، ومرةً شاكرين إلى رب الأرض والسماوات، إن هذه الشهوات سلماً نرقى بها، أو دركات نهوي بها، إنها حيادية، كالوقود السائل في المركبة، إذا وضع في مستودعاته المحكمة، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب ولد حركةً نافعة، أما إذا خرج عن مساره، وأصاب المركبة شرارةٌ أحرقت المركبة ومَن فيها، فالشهوات حيادية، ترقى بها مرةً إذا سلكت بها الجانب المشروع، وتهوي بها إلى دركات النار إذا سلكت بها الجانب غير المشروع.

أيها الإخوة الأحباب، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص: الآية 50]

بالمعنى المخالف أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، ليس في الإسلام حرمان، ولكن في الإسلام تنظيم.

أيها الأخ الكريم، أنت إذا كنت تسير في مكان مترامي الأطراف، ورأيت لوحة كتب عليها: حقل ألغام، هل تحقد على واضع هذه اللوحة، أم تثني عليه ؟ إن هذه اللوحة ليست قيداً لحريتك، ولكنها ضمان لسلامتك، أنت حينما تفهم أحكام الدين على أنها ضمان لسلامتنا تقبل عليها، وتسعد بالأخذ بها، وتشكر المولى جل جلاله على أنه شرعها لك، إذاً الشهوات حيادية نرقى بها شاكرين إن أخذناها بالوجه المطلوب، ونهوي بها هالكين إن سلكنا بها الوجه المحرم، هي حيادية، ويمكن أن تتحرك من خلال الشهوات مئة وثمانين درجة، لكن زاوية معينة مسموح بها أن تسلك بها هذه الشهوة، فالشهوات ما أودعها الله فينا إلا لأنها قوى محركة، إلا لأنها سلم نرقى بها إلى أعلى عليين، أما إذا تحركنا من دون منهج نسير عليه هوينا بها إلى أسفل السافلين.

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر متعلق بمقومات التكليف: إنها القوة، لقد أودع الله فينا قوةً من أجل أن نحقق من خلالها اختيارنا، ومن أجل أن تكشف عن طويتنا، ومن أجل أن نأخذ أبعادنا:

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

[سورة الأنفال: الآية 42]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: الآية 2]

لقد أعطانا الله قوة نحقق بها ذواتنا، نحقق بها اختيارنا، يمكن أن نأخذ بها أبعادنا، لكن الله سبحانه وتعالى في أي لحظة يسلبها منا، وإذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه، وهذه القوى التي أودعها الله فينا أودعها فينا كي يمتحننا، أنت ممتحن مرتين، ممتحن فيما أعطاك، ممتحن فيما زوى عنك، وفي بعض أدعية النبي عليه الصلاة و السلام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي]

أيها الإخوة الأحباب، هذه مقومات التكليف.

بقي المقوم الأخطر: إنه الشرع، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، إذا كان العقل ميزاناً، وإذا كانت الفكرة ميزاناً فالشرع ميزان على ميزاني العقل والفطرة، بل إن ميزان العقل لا يصح إلا إذا توافق مع الشرع:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19))

[سورة المدثر]

وإن ميزان الفطرة لا يستقيم إلا إذا توافق مع الشرع، بل إن الحق دائرة تخترقها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وأنا أؤكد على النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، هناك نقل غير صحيح، أو هناك فهم لنقل غير صحيح، وهناك العقل الصريح، والعقل الصريح هو العقل الذي يعدّ قائداً لا مقوداً، ما العقل الذي يقابله ؟ العقل التبريري، الإنسان إذا أراد شهوة، ومعه عقل يستخدم هذا العقل كي يغطي انحرافه، إذاً النقل الصحيح، والعقل الصريح، والفطرة السليمة، والإنسان أحياناً تطمس فطرته فلا يستفيد منها، ثم إن هذه الفطرة أيضاً تحتاج إلى واقع موضوعي، الواقع الموضوعي الحقيقي، والنقل الصحيح، والعقل الصريح، و لفطرة السليمة، هذه خطوط أربعة تتقاطع في دائرة الحق، إذاً الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا يعد الخطأ في العقيدة أيها الإخوة خطأ بسيطاً، إنه خطأ جسيم، ذلك أن الخطأ في العقيدة خطأ في الميزان، و الخطأ في الميزان قلما يصحح، بينما الخطأ في السلوك خطأ في الوزن، والخطأ في الوزن قلما يتكرر، فإذا أردنا أن نعرف حقيقة وجودنا، وغاية وجودنا، ونعرف الرسالة التي أنيطت بنا ينبغي أن نتعرف إلى الله، لأن معرفة الله حاجة عليا في الإنسان، والإنسان لا يؤكد إنسانيته إلا إذا عرف أنه المخلوق الأول، وقد خلقه الله عز وجل لجنة عرضها السماوات و الأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أيها الإخوة الأحباب، إلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (03-20) : المصائب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزائي المؤمنين، إخوتي المشاهدين - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المسلمون في محنة، وكل محنة للمؤمن يتبعها منحة من الله جل جلاله، والمسلمون في شدة، وكل شدة للمؤمن وراءها شَدَة لله جل جلاله، ذلك أن الله جل جلاله يقول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

(سورة البقرة)

الإنسان نظرته قاصرة على الدنيا وعلى مصالحه، لكن الله جل جلاله خلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، فإذا أراد الله حمله على طاعته وساقه إلى باب عبادته عن طريق لعله مكروه عند المؤمن، فهذا هو محض الخير، من هنا قال عليه الصلاة والسلام في حديثه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ: قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

(مسند الإمام أحمد)

هذه السلاسل هي أشياء لعل الإنسان يكرهها، لكن عقباها حميدة، في قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

يعني أن المؤمن يستسلم لقضاء الله وقدره بعد أن يؤدي الذي عليه، ثم إن بعض المفسرين رحمهم الله تعالى يفسرون قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان)

قال بعض المفسرين: النعم الباطنة هي المصائب، يبدو أن الله سبحانه وتعالى يطمئننا حينما يقول:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الأحباب، هذه السيارة التي هي أداة نستخدمها جميعاً، لماذا صنعت ؟ ما أصل علة صنعها؟ إنها السير ! أليس فيها مكابح ؟! أليست المكابح تتناقض مع علة صنعها ؟ صنعت لتسير، والمكابح توقفها، أليست هذه المكابح ضماناً لسلامة ركابها ؟!

فإذا قست المصائب بحياة الإنسان التي في الأصل حياة ينبغي أن تكون سعيدة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود)

خلقهم ليرحمهم، ويسعدهم، فإذا غفلوا عنه، وانحرفوا عن سواء السبيل فلابد من معالجة كريمة من رب رحيم، فهذه الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للمؤمنين إنما هي شدائد تعقبها خيرات حسان لا يعلمها إلا الله.

في القرآن الكريم آية دقيقة جداً يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة القصص)

هذه الباء في الآية باء سببية، بسبب ما قدمت أيديهم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

فهذه الآية حينما يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

قبل أن أشرح هذه الآية لابد من آية أشرحها كمقدمة لهذه الآية، حينما قال الله عز وجل:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)

(سورة غافر)

كأن سياق الآية: إن الذين يستكبرون عن ، من هنا استنبط عليه الصلاة} عَنْ عِبَادَتِي {دعائي فجاءت الآية: والسلام أن الدعاء هو العبادة وأنه عبادة ومخ العبادة، هذا أسلوب قرآني.

فحينما يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

فكأن الشدائد التي يسوقها الله للمؤمنين رسالات من الله عز وجل.

مرة صنعت سفينة من أكبر السفن اسمها (التايتانيك)، وقد وزع على ركابها نشرة كتب فيها: " إن القدر لا يستطيع أن يغرق هذه السفينة "، فغرقت في أول رحلة لها بين أوروبة وأمريكة ! فقال بعض القساوسة: " إن غرق هذه السفينة رسالة من الله إلى البشر ".

فأحياناً تأتيك رسالة مكتوبة، وأحياناً تأتيك رسالة عملية، فغرق هذه السفينة نوع من الرسالة في بلد إسلامي أصابه زلزال كبير شديد أطاح بعشرات الألوف، في مركز الزلزال، وهو أشد الأماكن تدميراً بقي مسجد، وله مئذنة عملاقة، ومعهد شرعي، وما حولهما ركام في ركام ! فكتب بعضهم: " إن بقاء هذا المسجد والمعهد رسالة من الله إلى البشر ".

نعود إلى الآية:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

هذه المصائب وهذه الشدائد والمحن رسالة من الله إلى بني البشر.

(فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

أيها الإخوة الأحباب، تصوروا أن أباً قال له ابنه: يا أبتِ، لا أحب أن أدرس، فعلى أول طلب من الابن سمح الأب لابنه ألاّ يدرس، فهذا الابن نام إلى منتصف النهار، وارتاح من أعباء الدراسة، ومن شدة المعلم، وكتابة الوظائف، فعاش كما يحلو له، فلما أصبح في سن الرشد وجد أصدقائه في مراكز مرموقة، بعضهم طبيب، وتاجر، ومهندس، ورأى نفسه خاليا من حرفة، ومن شهادة، ومن صنعة، فحقد على أبيه، وقال له: يا أبتِ، لمَ لم تؤنبني أشد التأنيب ؟ لمَ لم تؤدبني أشد التأديب ؟ حينما طلبت منك ألاّ أدرس ؟

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

فهذه المصائب التي يسوقها الله للمؤمنين هي محض فضل، ونعمة باطنة عند المؤمنين، لكن عند السذّج وضيقي التفكير يرونها مصيبة.

أيها الإخوة الأحباب، مصيبة وقعت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وأي مصيبة أشد من أن تتهم زوجته الطاهرة السيدة عائشة، أن تتهم في أثمن شيء تملكه المرأة ؟! اتهمت بالفاحشة، وكان هذا الاتهام قد جاء في القرآن في εحديث الإفك، وبقي الوحي منقطعاً عن رسول الله أربعين يوماً، ليس عند النبي دليل إثبات ولا دليل نفي، والمرجفون في المدينة أشاعوا هذا الخبر.

إنها محنة ما بعدها محنة، وشدة ما بعدها شدة، فماذا قال الله عز وجل ؟ قال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور)

كلمة: (خير) تعني أن الشدائد والمصائب والمحن للمؤمنين مؤداها خير، لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، بعض أصحاب النبي الكريم يقول: "والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ".

أي إن يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء، ولهذا الصحابي الجليل قول آخر قال: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي ".

نخلص من هذا إلى أن الشدائد والمحن أساليب تربوية رفيعة يستخدمها الله عز وجل ليرد عباده إليه، وليسوقهم إلى باب عبادته.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

لكن لئلا يتوهم متوهم أن التوحيد يلغي المسؤولية، نقول: التوحيد لا يلغي المسؤولية، بعدئذ يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

فأنا حينما أوحد، وأعزو الأمر إلى الله عز وجل هذا لا يلغي مسؤوليتي عما أفعل، من هذا نخلص إلى حقيقة دقيقة: أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، لا يعقل أن يقع في ملك الله مالا يريد، لا يقبل، ولا يعقل إلاّ أن يكون الإله مهيمناً مسيطراً جباراً، قوياً حكيماً غنياً، بيده ملكوت كل شيء.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال)

هو الخالق والآمر وله الخلق والأمر.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55))

(سورة هود)

كما قال بعض الأنبياء:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

لا يعقل أن يقع في ملك الله مالا يريد، فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالخير المطلق، وبالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق ، ذلك أن الإنسان قد لا يكون حكيماً، إن كان هناك نقص في علمه، وقد لا يكون حكيماً إذا تحمل ضغطاً شديداً، وإذا أغراه شيء، ففي الضغط والإكراه ونقص العلم يكون الإنسان غير حكيم، لكن الله جل جلاله وهو الذات الكاملة الكمال المطلق لا يمكن أن يكون في أفعاله غير حكيم.

فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران)

لم يقل بيدك الخير والشر، قال:

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

وما هذا الشر الذي نسميه شراً إنما هو شر نسبي بالنسبة لنا، ولدنيانا فقط، ولنظرتنا القاصرة.

أما لو تعمقنا لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويمنح ويسلب، ويعز ويذل، بيده الخير، هذا هو التوحيد، وهذه هي عقيدة المسلم.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

أيها الإخوة الكرام، لذلك نقول استناداً لهذه القاعدة الأصولية في علم التوحيد لكل: واقع حكمة، قد يكون الموقع مجرماً وقد يكون طاغية، لكن لكل واقع حكمة، مادام الشيء قد وقع إذاً أراده الله، لأنه لا يعقل أن يقع في ملك الله مالا يريد، الله عز وجل يسمح له أن يقع لحكمة يريدها.

بل إن هناك ينبغي أن تكون واضحة لدى إخوتنا الأكارم: خطة الله تستوعب خطة الكافر ! فالكافر يفعل من دون أن يشعر، ومن دون أن يريد فعلاً فيه ضغط على المؤمن، ولكن المؤمن ينتفع منه كثيراً، لذلك قال بعض الشعراء:

عداتي لهم فضل علي و منة فلا أذهب عني الرحمن الأعاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

نعود إلى قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

أيها الإخوة الأحباب، حينما يقول الله عز وجل:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال)

ما معنى سبقوا ؟ ما معنى أن يسبق الكافر الله عز وجل ؟ قال علماء التفسير: سبقوا بمعنى أنهم فعلوا شيئاً ما أراده الله، وسبقوا بمعنى أنهم تفلتوا من عقاب الله عز وجل.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله.

إخوتنا الكرام، هذا الذي حدث قد يفهم فهماً سطحياً لمن البطولة أن تفهمه فهماً عميقاً، أضرب لكم هذا المثل، ولعله مطابق لما يعانيه المسلمون اليوم:

إنسان يركب مركبته، تألق في لوحة البيانات ضوء أحمر، هذا الضوء تألق، أو لم يتألق ليست هي المشكلة، لأن راكب المركبة رأى بأم عينه تألق هذا الضوء، ولكن المشكلة أن يعلم راكب هذه المركبة لماذا تألق هذا الضوء، ليست المشكلة أن يعلم أنه تألق، لقد تألق، ورآه بأم عينه، لكن المشكلة أن يفهم سبب تألقه.

دققوا أيها الإخوة، إن فهم هذا التألق أنه تألق تزييني، فتابع السير، فاحترق المحرك، ويلزمه أن يدفع مبلغاً كبيراً جداً، وضاعت عليه الرحلة، والهدف منها، أما إذا فهمه ضوءاً تحذيرياً، وشتان بين الفهمين أوقف المركبة فوراً، وأضاف الزيت، وسلم المحرك، وتابع الرحلة، وحقق الهدف.

فبربكم، هل البطولة أن نستمع للأخبار فقط ؟ أن نرى ماذا يحدث ؟ أم أن نفهم لم هذا الذي يحدث يحدث؟

ينبغي أن نملك إضاءة قرآنية من وحي السماء لما يحدث، هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن يفهم الأحداث التي حوله فهماً قرآنياً.

مثلاً: هذه الأحداث التي تجري في بقاع متعددة من بلاد المسلمين إن فهمناها قهراً فهناك مشكلة كبيرة، هذا الفقر يقتضي الخنوع واليأس والاستسلام، أما إن فهمناها تسليطاً من الله عز وجل:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء)

إن فهمناها تسليطاً فالموضوع يختلف اختلافاً كلياً، الكرة في ملعبي إن ذلك أن الأقوياء والطغاة في العالم إنما هم عصي بيد الله ! أيعقل لإنسان تلقى ضربة بعصا، يحقد على العصا يكون أحمقَ، لابد من أن يتألم من الضارب، وإذا كان الضارب هو الله، والله ذات كاملة، وكماله مطلق، معنى ذلك أن في

حياتي خللاً ينبغي أن أبحث عنه، وأن أصلحه، حينما أوحّد، وأفهم الأمر تسليطاً لا قهراً، إن فهمته قهراً أستسلم، وأخنع، وتضيع، قوتي ومعنوياتي.

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139))

(سورة آل عمران)

المؤمن الصادق يشعر بأعماق أعماقه أن الله لا يتخلى عنه.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران)

بين أن أفهم الأحداث قهراً ينبغي أن أستسلم وأيأس، بينما إن فهمتها تسليطاً من الله عز وجل لحكمة بالغة، ولرحمة من الله عز وجل لهذا الذي سلط عليه هذا الأمر، اقرؤوا قوله تعالى:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4))

(سورة القصص)

الآن دققوا أيها الإخوة،

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

أيها الإخوة الكرام، الله عز وجل له سنّة في دعوة عباده إليه، الله جل جلاله يبدأ عباده بما يسمى الدعوة البيانية، أنت معافى سليم، وأمورك على ما يرام، تأتيك دعوة من الله من خلال تلاوة ، أو من خطبة تسمعها،εصفحات من كتاب الله، أو قراءة بعض أحاديث رسول الله أو محاضرة تصغي إليها، أو من كتاب ديني تقرأه، هذه دعوة من الله.

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

الحياة الحقيقية أن تعرف الله، وتأتمر بأمره، وتنتهي عما عنه نهى، فهذه الدعوة البيانية هي المرحلة الأولى، وأكمل ما في الدعوة البيانية أن تستجيب لله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

استجيبوا لله في قرآنه، واستجيبوا للنبي في سنته، فأنت حينما تستجيب لاشيء عليك، وفي الحديث عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

(متفق عليه)

لو أن هذا الإنسان لم يستجب، أغرته الدنيا، وضعف أمام شهواته، ولم يستجب لله عز وجل، عندئذ يخضع لأسلوب آخر من أساليب الله عز وجل، إنه التأديب التربوي، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

فإن لم نستجب فهناك تأديب تربوي، وهناك شدائد منوعة في مستويات ومجالات عديدة، الله عز وجل لا يدع عباده من دون تأديب أو تربية.

قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

لكن لو أن هذا الإنسان لم يرجع، دعاه الله دعوة بيانية فلم يستجب، ساق له بعض الشدائد فلم يتب، هناك أسلوب آخر هو الإكرام الاستدراجي، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

لذلك قال بعض العلماء: إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره ! فهذا الأسلوب الثالث اسمه الأسلوب الاستدراجي، يقتضي أن تشكر، في الدعوة البيانية يقتضي أن تستجيب، في التأديب التربوي يقتضي أن تتوب إليه، في الإكرام الاستدراجي يقتضي أن تشكر، فإن لم تؤثر فيك دعوة بيانية، ولا تأديب تربوي، ولا إكرام استدراجي فلابد من القصم، عندئذ يقصمهم الله عز وجل.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ

(كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

إخوتنا الكرام، المصائب تتنوع بحسب الإنسان، فالإنسان الشارد الغارق في المعاصي والآثام، الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، الذي يبني حياته على قتلهم، كما ترون وتسمعون، الذي يبني غناه على إفقارهم، الذي يبني أمنه على خوفهم، هذا الإنسان إما أن يعطيه الله مهلة، أو أن يقصمه، فمصائب المنحرفين أشد الانحراف مصائب قصم أو ردع، لكن المؤمن مصائبه من نوع آخر.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

عنى ذلك أن مصيبة المؤمن هدفها الدفع، قد يمشي بسرعة بطيئة، والله عز وجل يحب له الخير، فتأتيه شدة فتدفعه إلى الله، لذلك قالوا: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر ! صار هو المصيبة ! هذا الذي لا يتأثر بالمصيبة، ولا يفهمها فهماً عميقاً، ولا يرجع إلى الله، ولا يعيد حساباته، ولا يرتب أوراقه الداخلية هذا الذي تصيبه المصيبة، فيفهمها فهماً أرضياً لا فهماً توحيدياً، فهماً متعلقاً بالظروف، هذا الإنسان يعد هو بنظر مقاييس الدين مصيبة.

فمصيبة الدفع، وهناك مصيبة الرفع، قد يكون الإنسان ذا إمكانات تقتضي أن يكون في مستوى أعلى، لذلك ربنا عز وجل مع أن المسلم مستقيم يسوق له شدة لترفعه، قد يسوق له شدة لتدفعه، وقد يسوق له شدة لترفعه، لكن الأنبياء صلوات الله عليهم الشدائد التي تصيبهم لتكشف حقيقتهم، فهذا النبي الكريم حينما سافر إلى الطائف مشياً على قدميه ليعظ أهله، ويدلّهم على الله، ويأخذ بيدهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة كذبوه، وبالغوا في الإساءة إليه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

(البخاري، ومسلم)

فالمصائب للشاردين المنحرفين العتاة المجرمين قصم أو ردع، والمصائب للمؤمنين دفع أو رفع، والمصائب للأنبياء والمرسلين كشف لحقيقة نبوتهم ورسالتهم، والكمال الذي حصلوه.

أيها الإخوة الأحباب، عن قتادة قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:

((لا يصيب رجلا خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر))

(السيوطي)

وما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة.

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نلتقي بكم في لقاء آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (04-20) : حمل هموم المسلمين - غلبت الروم في أدنى الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول ربنا جل جلاله يقول:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5))

(سورة الروم)

أيها الإخوة الأحباب، ماذا تعني هذه الآية ؟ لعل ما تعنيه هذه الآية أن من خصائص المؤمن أن يهتم أشد الاهتمام بما يجري حوله، فعلامة انتماء المؤمن إلى إيمانه، وانتماء المسلم إلى إسلامه أنه يحمل هم المسلمين، ويتألم لآلامهم، ويفرح لأفراحهم، ويأسى لمآسيهم.

فهؤلاء المؤمنون في زمن النبي عليه الصلاة والسلام حينما غلبت الروم تألموا، لأنهم أهل كتاب، ولأن قواسم مشتركة كثيرة تجمعهم بهم، لكن الله سبحانه وتعالى طمأنهم:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

ويقول:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ)

أي النصر، وعدم النصر بيد الله من قبل ومن بعد، لكن الذي يلفت النظر في هذه الآية أن الله أثبت أن المؤمنين يفرحون بنصر الله، فرحوا لأهل الكتاب لأنهم انتصروا على عبّاد الوثن، فلأن يفرح المؤمنون بنصرة إخوتهم المؤمنين من باب أولى.

فكأن الله يريد أن يلفت نظرنا إلى أن من علامات المؤمن الانتماء للمؤمنين أنّ همّه هم المؤمنين، مشاركته الحقيقية في مصابهم، فلذلك من ألطف ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام حديثُ النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

(صحيح البخاري)

وهذا الذي نشهده في شتى بقاع المسلمين، وفي البلاد العربية نشهده من حركة الشارع العربي لنصرة إخوتهم في الأراضي المحتلة، وهذا مما بشر به النبي عليه الصلاة والسلام فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ))

(الترمذي)

وقد روي:

((الخير فيّ وفي أمتي إلى قيام الساعة))

(لا أصل له)

من علامة إيمانك، وإسلامك أن تحمل هم المسلمين والمؤمنين في شتى بقاع الأرض، وهذا الذي حدث يبشر بخير.

أيها الإخوة، في حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام متوعداً:

((من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))

(الجامع الصغير عن ابن مسعود)

وهذا وعيد شديد من رسول الله ،

((ومن لم يمس ويصبح ناصحاً لله ولكتابه ولرسوله ولإيمانه ولعامة المسلمين فليس منهم))

فهذه الحقيقة التي تقول: ما إن تستقر حياة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، فهذا الإنسان الذي لا يعنيه أمر من حوله، ولا يتألم لألمهم، ولا يفرح لفرحهم ليس منهم، ومن أكبر الوعيد النبوي لهذا الإنسان المنسلخ من أمته وإسلامه وعروبته أنه ليس من هذه الأمة.

من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يمس ويصبح ناصحاً لله لطاعته والصلح معه ولكتابه ولتطبيق منهج القرآن، وإلى إيمانه وإلى عامة المسلمين فليس منه.

أيها الإخوة الأحباب، لاشك أن النصر شيء محبب لأقصى درجة، ولكن هذا النصر بيد من ؟ يقول الله عز وجل في آية جامعة مانعة واضحة جلية قطعية الدلالة:

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة الأنفال)

فحينما نعلق الآمال لغير الله، ونتجه لغير الله، ونعقد الآمال ـ كما قلت قبل قليل ـ على جهات أرضية يخيب ظننا، وقد خاب ظننا، قد نجد أن أعداءَنا لا يتحدثون عن السلام إلا كسباً للوقت، وإلا مراوغة وكذباً.

عندما نجد أن النصر الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه بيد الله وحده، وأن الله عز وجل له شروط، وله أثمان ينبغي أن ندفعها لهذا النصر.

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

لعل أكبر سبب وضعه الله للنصر المبين العزيز هو قوله تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد)

من هنا قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال)

حار علماء التفسير في هذه الآية ! ما دام النبي بين ظهرانيهم هم في مأمن من عذاب الله، فإذا انتقل إلى الرفيق الأعلى فما معنى الآية ؟ قال علماء التفسير: وما كان الله ليعذبهم وسنتك يا محمد مطبقة في بيوتهم، وأعمالهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وفي حلهم وترحالهم، وفي سرهم وضرائهم.

أعمالنا في كسب أموالنا في قضاء أوقات فراغنا، فنحن في مأمن من عذاب الله، ويقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

هم في بحبوحة أخرى وفي مأمن آخر، فمادام هؤلاء يستغفرون إذا أخطؤوا، هم أيضاً في مأمن آخر.

هذا النصر الذي هو من عند الله حصراً وقصراً.

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

ثمنه:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

إن أردنا التفاصيل، يقول الله عز وجل:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الروم)

الله جل جلاله أنشأ على ذاته العلية حقاً لنا، هو ينصرنا ولكن أي إيمان هذا ؟ حينما نقرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا)

(سورة النساء)

يعني أن هناك إيمانًا غير مقبول، وأنّ هناك إيمانًا مقبولا ومنجيًا، فإذا كنا في إيمان غير مقبول، وغير منج فينبغي أن نبحث عن إيمان مقبول ومنج، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً هذه الأمة:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران)

أنتم حينما جاءتكم الرسالة، واستجبتم لهذه الدعوة السماوية أصبحتم بهذه الاستجابة خير أمة أخرجت للناس، أما إن لم نستجب فشأننا شأن أية أمة أخرى شاردة عن الله عز وجل هذه حقيقة.

لذلك علماء المسلمين قسموا أمة محمد أمّتين، أمة الاستجابة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وأمة الدعوة والتبليغ، فإن بلغت، ولم تستجب فشأنها كشأن أية أمة في الأرض ، لذلك الشيء الأول هو أن الله عز وجل يقول:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

أي إيمان هذا ؟ الإيمان الذي يحملنا على طاعته، ويجسد سلوكاً في حياتنا، ويجعلنا وقافين في حياتنا، الإيمان الذي يجعلنا لا نأكل درهماً حراماً، الإيمان الذي يحملنا ألا نظلم بعضنا بعضاً، وأن نتقن أعمالنا، ونتقن لأمتنا كل خير.

هذا الإيمان الذي يترجم سلوكًا وانضباطًا وخيرًا وعطاءً هو الإيمان الذي يستحق أن ينصرنا الله عليه، لكن لا يكفي هذا، لابد من أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، والله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

طبعاً المخاطَب هو المؤمن، والله عز وجل هو المخاطِب، لكن الله عز وجل يقول للطرف الآخر:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

ينبغي أن تستنفذوا كل الجهد.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

وهذه (من) تفيد استغراق أجزاء الشيء، كل أنواع القوة ينبغي أن نعد لها، وما أكثر أنواع القوة فالإعلام قوة، ومعرفة خبايا العدو قوة، والتماسك الداخلي قوة، والوحدة الوطنية ـ وهذه بحمد الله ـ قوة، والإعداد الجيد قوة، واستخدام الأسلحة الحديثة قوة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

هذا عند علماء التفسير عطف الخاص على العام، في عهد النبي كان رباط الخيل هو القوة، وقد يأتي وقت آخر يكون المنجنيق هو القوة، وقد يأتي وقت آخر تكون المدرعة هي القوة، وقد يأتي وقت آخر تكون المعلومات هي القوة والأقمار والأسلحة البالغة الدقة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

قد يكون السلاح غير مستعمل، لكن له فائدة كبيرة، وهذه الفائدة في قوله تعالى:

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

وينبغي أن يكون عدوكم عدواً لله في وقت واحد.

أيها الإخوة الأحباب، من فضل الله علينا أنه ما كلفنا أن نعد القوة المكافئة لأعدائنا، قد يكون هذا مستحيلاً، لكنه كلفنا أن نعد القوة المتاحة، فنحن إذا آمنا بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته، وأعددنا لعدونا العدة المتاحة لنا فهذان شرطان كافيان للنصر، لكن أحدهما يعد شرطاً لازماً غير كافٍ للنصر.

لو كان إيماننا في أعلى مستوى، ولم نعد لأعدائنا العدة المتاحة، أو أعددنا لهم العدة المتاحة، ولم نؤمن الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله لا يتحقق النصر.

إخوتنا الكرام، كلكم يعلم أن المسلمين في موقعة أحُد وحنين لم ينتصروا، لو حللنا سبب عدم الانتصار في هاتين الموقعتين: الحقيقة في أحد عصى الرماةُ أمْرَ النبي ، فلو أن الله نصرهم على معصيتهم لسقطت طاعة النبي ، ولم يكن لها من قيمة، وأما في حُنين فسبب المعصية قضية فكرية وتوحيدية،وقضية في العقيدة، قال أصحاب النبي وهم مُثُل عليا:

لن نغلب اليوم من قلة، اعتمدوا على قوتهم الذاتية، ونسوا الله عز وجل، فالمسلمون لم ينتصرون في أحد لأسباب سلوكية تكتيكية، ولم ينتصروا في حنين لأسباب عقائدية.

الشيء القاطع الجامع المانع أننا ينبغي أن نؤمن الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله، ونعد لأعدائنا العدة التي ينبغي أن تكون متاحة لنا.

إذا حققنا ما علينا يتولانا الله عز وجل بالنصر، لذلك قالوا: هناك نصر استحقاقي، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

وهناك نصر تفضلي، كقوله تعالى الآية التي بدأت بها هذه الحلقة:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

وهناك نصر كوني، لا علاقة للنصر إلا بالقوة التي بيد الفريقين، هناك نصر استحقاقي، كانتصار المسلمين في بدر، وهناك نصر تفضلي، كانتصار الروم على الفرس، وهناك نصر كوني، هو بين فئتين شاردتين دعواهما واحدة، وأهدافهما قبرة.

أيها الإخوة الأحباب، نحن في أمسّ الحاجة إلى النصر، والله عز وجل يقول:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

وقد قيل: المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، لكن بين باطلين لا تنتهي، وهذه مشكلة.

أيها الإخوة الأحباب، لابد من أن نعد العدة المتاحة، ولابد من أن نؤمن الإيمان المنجي حتى نستحق أن ننتصر، ولكن المسلمون في شتى بقاع المسلمين، والعرب في شتى بلادهم ما واجبهم تجاه هذه الانتفاضة المباركة التي بدأت ؟ ونرجو الله سبحانه وتعالى أن تنتهي بالنصر.

أقول لكم أيها الإخوة، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

(صحيح البخاري)

وهذا من فضل الله علينا.

أيها الأخ الكريم، ألا تستطيع أن تقتطع من دخلك مبلغاً ترسله في قناة نظيفة آمنة بعد البحث عنها إلى إخوتك الكرام في الأراضي المحتلة، وقد هدمت بيوتهم، ودمرت ممتلكاتهم، وجرفت حقولهم، وأتلفت أدويتهم، وقطعت عنهم الكهرباء، فتلفت مدخراتهم الغذائية، وقطعت عنهم المياه فشربوا المياه المالحة، لقد أعدم رجالهم، وسيق شبابهم إلى السجون والمعتقلات، هؤلاء في محنة شديدة، وأرجو أن يكون ورائها منحة من الله عز وجل، ألا يقتضي انتمائك لهذه الأمة أن تمد لهم ببعض ما عندك ؟

أيها الإخوة الأحباب، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، أترضى أن تعيش، وأنت وادعاً في أهلك، وفي أولادك، عندك قوت يومك، آمن في سربك، وإخوانك يعانون الأمرّين ؟ ألا ترى إلى أحوالهم بأم عينك ؟ ألا تستمع إلى أقوالهم وأخبارهم بأذنك ؟

أيها الإخوة الأحباب، شيء آخر، حصلت في موقع معلوماتي على الإحصاء التالي، وشيء لا يصدق: شركة دخان واحدة من شركات الدخان في بلد يدعم أعداءنا أرباحها الصافية من مبيعاتها في العالم الإسلامي ثمانون مليون دولار يومياً ؟! يذهب إلى الكيان الصهيوني من هذا المبلغ تسعة ملايين دولار كل يوم، أنت حينما تعلم هذه الحقيقة تتساءل، فما القول في بقية أرباح شركات الدخان في هذا البلد الذي يدعم أعداءنا ؟

ما هي أرباح شركات المياه الغازية التي تعد فلكية ؟ ما هي أرباح المطاعم المنتشرة في شتى بقاع المسلمين وبقاع العرب ؟ كم أرباحها ؟ ما هي أرباح شركات السيارات التي تتصدر الإعلانات عنها المحطات الفضائية العربية ؟ لو أنك امتنعت ذاتياً عن شراء بضاعة من بلد يدعم أعداءنا بأسلحة فتاكة نبيد بها الشعب الفلسطيني، لو أنك امتنعت ذاتياً، من يجبرك في أي مكان في العالم على أن تشتري هذه البضاعة ؟ من يسألك لمَ لمْ تشترِ هذه البضاعة، هذا موقف يستطيعه كل إنسان عربي مسلم في شتى بقاع الأرض، هذا نوع من الدعم لإخوتنا في الأراضي المحتلة، لأن المصلحة المادية هي إله يعبد في هذا العصر.

فإذا انخفضت مبيعات من يدعم أعدائنا إلى الثلث، أو إلى العشر عندئذ لعلهم يراجعون قراراتهم، ويغيرون سياستهم، أن نمتنع ذاتياً عن شراء أية بضاعة مصنعة في بلد يدعم أعداءنا هذا واجب إسلامي ووطني وقومي.

شيء آخر، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

إذا كان إخوتنا الكرام في الأراضي المحتلة لهم أبناء في الجامعات، وقد قطعت عنهم الإمدادات بسبب سياسة الحصار والإفقار التي يتبعها العدو الصهيوني، أنت إذا خلفت هؤلاء الطلاب في أهلهم بخير لك مثل أجرهم، وهذا نوع من الأعمال الطيبة التي تدعم بها إخوتنا في الأراضي المحتلة.

أنا متألم ممَّن يقول: ماذا أعمل ؟ ثم لا يعمل شيئاً ! يقول: ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، تستطيع أن تقاطع بضاعة من صنع بلد تدعم أعداءنا، وتستطيع أن تقدم شيئاً من دخلك لهؤلاء الذين دمرت بيوتهم، وتستطيع أن تخلف هؤلاء أهلهم بخير، هذا كله متاح لك.

شيء آخر، حينما تنتمي لهذه الأمة التي حينما استجابت لله عز وجل جعلها خير أمة أخرجت للناس، فلما قصرت في حمل رسالتها إلى بقية الأمم، وقصرت فيما أمرها الله به أصابها وعيد الله عز وجل في قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

وقد أصاب المسلمين ذلك الغي لأنهم أضاعوا الصلاة، ولا تعني إضاعة الصلاة تركها، بل أنها فرغت من مضمونها.

أيها الإخوة الأحباب، هذه قنوات سالكة إلى الله عز وجل في دعم إخوتك في الأراضي المحتلة، ينبغي أن يكون انتمائك لهذه الأمة على شكل أن تمتنع عن كل بذخ وترف، هذه الحفلات التي تقام في الفنادق وأبهاء المطاعم وحدائق المزارع، والتي تكلف أموالاً طائلة ، هذه لو حولت إلى هؤلاء المجاهدين الذين يقاتلون عدواً شرساً لعل الله سبحانه وتعالى يرحمك، ويحفظ لك أهلك وأولادك.

أيها الإخوة الأحباب، شيء آخر، لابد من أن نعرف من هو عدونا ؟ عثرت في موقع معلوماتي على تصريح لكبير مجرمي اليهود يقول لصحفي إسرائيلي في عام ألف وتسعمئة واثنين وثمانين يقول: لن يكون أفضل من ترومان الذي قتل نصف مليون إنسان بقنبلتين جميلتين، ربما سيكرهني العالم، وسيخشاني بدلاً من أن أشتكي إليه، ربما يخاف من الضربات الجنونية بدلاً من أن يعجب بروحي الجميلة، وليرتجف مني، وليعاملني كبلد مجانين، وليقل أننا متوحشون، ونمثل خطر الموت لجميع الجيران، وإننا جميعاً غير أسوياء، ونستطيع أن نغرس أزمة فظيعة إذا قتل طفل منا، وأن نفجر آبار البترول جميعها في الشرق الأوسط، هذا قول كبير مجرمي العدو متى ؟ قبل عشرين عاماً.

إذاً ينبغي أن نعرف كيف يفكر أعدائنا، وقال مندوب صحيفة هي واحدة من أشهر صحف ثلاث في بلد يدعم أعدائنا يقول: لا توجد قيم، ولا أخلاق، إنما هي القوة، والقوة وحدها، ومنذ خمسة آلاف سنة والقوي يفرض إرادته، وكلما أمعن في القوة كسب أكثر، فنحن جميعاً استأصلنا الهنود الحمر والإنجليز

حينما استأصلوا سكان استراليا الأصليين، نجحنا في حسم المعركة، بينما البيض في جنوب أفريقيا لأنهم كانوا أرحم، ولم يستأصلوا هم بالكلية انقلبوا عليهم، وانتصروا في النهاية.

جزء من الإعداد لأعدائنا أن نعرف كيف يفكرون، وأن نعرف خططهم المستقبلية.

أيها الإخوة الأحباب، لكن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإيمان يصنع القوة، وهم يعتقدون أن القوة تصنع الحق، لكننا من وحي السماء نعتقد أن الإيمان يصنع القوة، وأن الأمر بيد الله وحده، بل إن هناك مقولة رائعة: أنت قوي، وهذا سر ضعفك، وأنا ضعيف، وهذا سر قوتي، فنحن إذا رجعنا إلى ربنا، وعرفنا حدوده، ووقفنا عنده، لعل الله يرحمنا، وأعود، وأقول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ((216)

أيها الإخوة الأحباب، كبير مجرمي العدو من دون أن يشعر، ومن دون أن يريد وحّدنا، وقرّب فيما بيننا، ودفعنا إلى طاعة الله وطاعة رسوله، إنه يسعى دون أن يشعر، ودون أن يريد أن نصحو من غفلتنا، وأن نقف بعد قعود، ونتعاون بعد تنافس، ونتسامح بعد خصام، هذه كلها آثار إيجابية، لقد قفز الدين إلى بؤرة الاهتمام، لقد كشفت الأقنعة المزيفة عن كل الوجوه، هذه من إيجابيات الذي حدث.

نرجو الله تعالى أن يكون إيماننا أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

أيها الإخوة الأحباب، إلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (05-20) : سورة الليل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزائي المؤمنين، إخوتي المشاهدين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من سور القرآن ذات الدلالات العظيمة سورة، الليل فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

[سورة الليل: الآية 1]

ولا يخفى أن هذه الواو هنا هي واو القسم، والإنسان عادةً يقسم بعظيم، وهل من شيء في الكون أعظم من الله عز وجل ؟ إذاً يمكن أن تكون هذه الواو تشير، أو تلفت نظرنا إلى عظم هذه الآيات الذي أقسم الله بها.

فالليل والنهار من آيات الله الدالة على عظمته، بل إن اختلاف الليل والنهار آيتان دالتان على عظمة الله، الأرض تتحرك، وكل كوكب في الكون، وكل نجم في الكون يتحرك، ولولا حركة النجوم لأصبح الكون كتلة واحدة، ذلك أن هناك تجاذبًا بين النجوم، فالكتلة الأكبر تجذب الأصغر، ولولا حركة قائمة مع كل نجم لأصبح الكون كتلة واحدة، إن الحركة التي يحركها النجم نحو نجم آخر ينتج عنها قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة.

إذاً هذا الكون بوضعه القائم أساسه حركتان متوازنتان، حركة الجذب، وحركة النبذ ، فالله سبحانه وتعالى يقسم بالليل، فالليل هو حركة الأرض نحو ذاتها.

لكن أيها الإخوة، مادام الليل والنهار من آيات الله الدالة على عظمته فينبغي أن نفهم أن هذه الأرض، لو أنها تدور على محور موازٍ لمستوى دورانها حول الشمس لما كان ليل ولا نهار، الأرض تدور هكذا، والشمس من هنا، نهار سرمدي، وليل سرمدي، لو أن الأرض دارت على محور موازٍ لمستوى دوران الأرض حول الشمس لانعدم اختلاف الليل والنهار، نهار سرمدي، وليل سرمدي، والله سبحانه وتعالى ذكرنا لو أنه لو كان النهار سرمدياً لانعدمت الحياة.

أيها الإخوة، شيء آخر، لو أن هذه الأرض تدور حول نفسها على محور متعامد مع مستوى دورانها حول الشمس لانعدمت الفصول، فمن دورتها حول نفسها بمحور غير موازٍ لمستوى دورانها يكون الليل والنهار، ولو أنها دارت على محور متعامد مع مستوى دورانها لانعدم تبدل الفصول، صيف أبدي، وشتاء أبدي، وخريف وربيع أبديان، ولكن شاءت حكمة الله أن تدور الأرض حول محور مائل، هذا الميل ينتج عنه اختلاف الفصول، تكون الشمس عمودية على قسم الكرة الشمالية في الصيف، فإذا

انتقلت الأرض إلى الطرف الآخر تكون الشمس عمودية على القسم الجنوبي من الأرض، فإن اختلاف الليل والنهار رحمة للإنسان، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

[سورة الطارق: الآية 11]

وهذه الآية تعطي الكون صفة تنطبق على كل جزئياته، فما من كوكب إلا ويدور حول كوكب آخر، هذا الكوكب الآخر الذي يدور حوله ينطلق من مكان نسبي، ويرجع إلى مكان انطلاقه، إذاً:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

وكلما تقدم العلم كشفت جوانب عظمة هذه الآيات الكونية.

أيها الإخوة الأحباب، دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنها اختلاف الليل والنهار، والميل المحوري الذي تدور حوله الأرض ينشأ عنه تبدل الفصول، وهاتان الآيتان دالتان على عظمة الله، فالله سبحانه وتعالى جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

أيها الإخوة الأحباب،

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2))

[سورة الليل: الآية 1-2]

الليل إذا غشي الأرض يغطي كل شيء، والنهار إذا تجلى أيضاً أوضح كل شيء، وكشف كل شيء، فالليل والنهار آيتان من آيات الله الدالة على عظمته.

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3))

[سورة الليل: الآية 3]

أيها الإخوة، انظروا إلى هذا التصميم الرائع، الذكر والأنثى، فالذكر له خصائص جسمية ونفسية واجتماعية و خلقية هي كمال في المهمة التي أوكلها الله إياه، والمرأة لها صفات جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية هي كمال في المهمة التي أوكلها الله إياها، إذاً يقول الله عز وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: الآية 36]

الأنثى لها خصائص متميزة، والذكر له خصائص متميزة، ولكن هذه خصائص في الذكر والأنثى متكاملة، ومن تكامل خصائص الذكر مع الأنثى ينشأ هذا الميل الذي أودعه الله في قلب الإنسان اتجاه زوجته، والميل الذي أودعه الله في قلب الزوجة اتجاه زوجها.

يقول الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم: الآية 22]

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6))

[سورة يونس: الآية 6]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: الآية 21]

إذاً هذا السكن يسكن الزوج إلى زوجته، لأن صفاته تتكامل مع صفاتها، وتسكن الزوجة إلى زوجها، لأن صفاتها تتكامل مع صفاته،

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3))

[سورة الليل: الآية 3]

امرأة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه زوجه، قالتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ {))

(ابن ماجه)

أيها الإخوة، تقول هذه المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات تقول: يا رسول الله، لي أولاد، إن ضممتهم إليه ضاعوا، أنا أربيهم، وإن ضممتهم إلي جاعوا، هو ينفق عليهم، كأن هذه المرأة أشارت إلى أن كل من الزوجين له خصائص، وله مهمة أوكله الله إياها، وهذا التكامل في الخصائص فيه حكمة بالغة، هذه الحكمة تجعل كل طرف ينجذب إلى الطرف الآخر، وكما أن السماوات والأرض آيتان من آيات الله الدالة على عظمته، وكما أن الليل والنهار وكما، أن الشمس والقمر، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: الآية 21]

أيضاً هذه آية كبرى من آيات الله الدالة على عظمته، ولكن إذا قلنا كما قال القرآن الكريم:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: الآية 36]

من حيث اختلاف الخصائص العقلية والنفسية والاجتماعية، هذه الخصائص إذا اختلفت تتكامل، والتكامل يسبب هذا الانجذاب، ولكن الحقيقة الصارخة التي نؤمن بها جميعاً، والتي جاء بها القرآن الكريم، وأقرها النبي عليه أتم الصلاة والتسليم هي أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، هي مكلفة كما هو مكلف، مكلفة بأركان الإيمان، وأركان الإسلام، وهي مشرفة كما هو مشرف، وهي مسؤولة عن بيتها، وعن زوجها، كما هو مسؤول عن بيته وعن أهله.

لذلك هناك حقيقتان ثابتتان في الإسلام مأخوذتان من القرآن والسنة، أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، لكن خصائصها الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية متوافقة تماماً مع المهمة التي أوكلها الله إياها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام يخاطب المرأة مطلقاً يقول عليه الصلاة والسلام: اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله

(ورد في الأثر)

وأية امرأة باتت وزوجها عنها راض فهي معي في الجنة، كما قال عليه الصلاة والسلام.

إذاً الذكر والأنثى متساويان في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية.

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

لكل خصائصه، وليس من صالح الحياة الاجتماعية، ولا من صالح متانة المجتمع أن نلغي هذه الفوارق بين الجنسين، لكننا نعتمد المساواة التي جاء بها الدين الحنيف.

أيها الإخوة الأكارم،

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

[سورة الليل: الآية 3 -4]

يعني أن الإنسان له سعي، له حركة في الحياة، يأكل، ويشرب، وينام، ويعمل، ويذهب، ويعود إلى البيت، ويخاصم، ويغضب، هذا السلوك مع المنطلقات النظرية التي سببته بمجموعه نسميه حركة الإنسان في الحياة، الإنسان له حركة في الحياة، يعمل، وفي عمله يصدق أو يكذب ، يخلص أو يخون، يقسو أو يرحم، ينصف أو يظلم، في بيته قد يكون زوجاً مثالياً، وقد يكون زوجاً سيئاً، في تربية أولاده، في حله وترحاله، في أوقات فراغه وأوقات عمله، في علاقاته، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ)

[سورة الليل: الآية 4]

كأن السعي هنا حركة الإنسان في الحياة.

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

[سورة الليل: الآية 4]

متباين مختلف، هناك المؤمن، وهناك الكافر، هناك المستقيم، وهناك المنحرف ، وهناك الصادق، وهناك الكاذب، هناك المخلص، وهناك الخائن، هناك العفيف، هناك المنصف، وهناك الجاحد، إذاً هذا السعي مختلف، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمة أرادها هذا السعي المختلف، وقد يختلف هذا السعي باختلاف البشر، ولكنه عند الله صنفان لا ثالث لهما، وسوف تأتي الآيات تبين هذين الصنفين.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4))

[سورة الليل: الآية 1-4]

أيها الإخوة الأكارم، هذان النموذجان هما الثابتان عند الله، والناس مهما اختلفت أعراقهم وأجناسهم، ومللهم ونحلهم، ومذاهبهم ونزعاتهم وميولهم، مهما اختلفوا فهم عند الله صنفان لا ثالث لهما، والحقيقة أن هذا التقسيم تقسيم إلهي، وهذا التقسيم تقسيم رباني، وهذا فنحن إذا اعتمدناه حلت معظم مشكلاتنا، ما هو النموذج الأول ؟ قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

[سورة الليل: الآية 5-6]

الحقيقة أن لترتيب هذه الفقرات حكمة دقيقة، هو صدق بالحسنى، هو آمن أن الإنسان مخلوق للجنة، مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أيها الإخوة، هناك دائرة المرئيات، أنت قد ترى بلداناً عدة، مدناً عدة، لكن لم ترَ كل بلدان العالم، دائرة المرئيات دائرة محدودة، لكن دائرة المسموعات دائرة أوسع بكثير، أنت قد تستمع في الأخبار إلى مئات المدن في العالم، لكن لم تزر إلا بعضها، فدائرة المسموعات أوسع بكثير من دائرة المرئيات، أما دائرة الخواطر فلا حدود لها، قد يخطر على بالك إنسان طوله من الأرض إلى الشمس هذا خاطر، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: } فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ {))

(متفق عليه)

فالإنسان مخلوق للجنة، والدنيا سماها الله حياة دنيا لأنها دنيا، فيها متاعب، فيها قلق، فيها خوف، فيها أمراض، فيها خصومات، فيها حروب، فيها فقر، فيها قهر، هذه الحياة الدنيا هي إعداد للحياة الآخرة، فإذا أيقن الإنسان أن هذه الحياة الدنيا هي الحياة الوحيدة وقع في إشكال لا ينتهي ، هذه الدنيا إعداد للآخرة،

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

آمن أنه مخلوق للجنة، وأن للجنة ثمناً، ثمنها أن تؤمن بالله الإيمان الذي يحملك على طاعته، وثمنها أن تستقيم على منهج الله، أن تطيع الله فيما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، وثمنها أيضاً أن تعمل الصالحات التي تتقرب بها إلى الله، فالعقيدة أخطر شيء في حياة الإنسان، لا يمكن لأية عقيدة نعتقدها إلا أن تنعكس سلوكاً، فأي عقيدة فاسدة تنعكس سلوكاً فاسداً منحرفاً، لذلك لو أن العقيدة ليس لها أثر في السلوك فاعتقد ما شئت، ولكن لأن هناك تلازماً حتمياً بين ما تعتقد وما تعلم كانت هناك خطورة بالغة

فيما تعتقد، فالذين ينحرفون في سلوكهم، ويأخذون ما ليس لهم يعتقدون أن هذه الدنيا هي كل شيء، وأنه لا حساب بعد الموت، أما إذا اعتقدت اعتقاداً جازماً أنك سوف تسأل عن كل شيء كما قال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر: الآية 92-93]

عندئذ تنضبط، إذاً هذا المؤمن، أو هذا الصنف الأول الذي وصفه الله عز وجل وصفه بأنه مصدق للحسنى، والحسنى هي الجنة، أي أن الإنسان مخلوق للجنة، وقد قال الله عز وجل:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس: الآية 26]

والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، نحن في الدنيا لا نرى الله، لأن طبيعتنا لا تحتمل، لا تدركه الأبصار، ولكن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

[سورة القيامة: الآية 22-23]

أيها الإخوة، هذا المؤمن، أو هذا الصنف الأول من التقسيم القرآني الرباني الإلهي مصدق بالحسنى، ولأنه صدق بالحسنى فهو منضبط وفق منهج الله، منهج الله افعل، ولا تفعل، منهج الله منهج الصانع، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

وأنت أيها الإنسان أعقد آلة في الكون من دون استثناء، ولهذه الآلة المعقدة، طبعاً أقول معقدة وأعني به تعقيد الإعجاز، لا تعقيد العجز، أنت أيها الإنسان أعقد آلة في الكون، ولك صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم كتاب كريم، هو تعليمات الصانع، أو تعليمات التشغيل والصيانة، كما تشاء أن تسمي هذا الكتاب، فلذلك الذي آمن أنه مخلوق للجنة، وأن ثمن الجنة أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، وأن تعمل الصالحات، كثمن لهذه الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

المؤمن صدق بالحسنى، واتقى أن يعصي الله، ليس الولي الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وجه الماء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك هذا هو الولي.

الصفة السادسة من صفات الصنف الأول في التقسيم القرآني أعطى، يعني بنى حياته على العطاء، أعطى من وقته، أعطى من ماله، أعطى من علمه، أعطى من خبرته أعطى من جاهه، المؤمن له

خصيصة ثابتة، أنه يعطي، إن أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يسعدك، أن تعطي أم أن تأخذ ؟ المؤمن يسعده أن يعطي، لذلك مثله الأعلى هو النبي الكريم e، النبي الكريم أعطى، ولم يأخذ، الأنبياء جميعاً أعطوا، ولم يأخذوا شيئاً، أعطوا من علمهم، ومن رحمتهم، ومن حكمهم، أعطوا كل شيء، لذلك أقسم الله بعمر النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

[سورة الحجر: الآية 72]

جاء الحياة، وغادرها، وترك الفضيلة والخلق والحق منتشراً في الأرض.

يا أيها الإخوة الكرام، عندما نعتمد التقسيم القرآني نسعد في حياتنا، فأما من أعطى واتقى أن يعصيه، وصدق بالحسنى، لذلك الأنبياء أعطوا كل شيء، ولم يأخذوا شيئاً، والذين يقابلونهم أخذوا كل شيء، ولم يعطوا شيئاً، الإنسان إذا بنى حياته على العطاء فهو من أتباع الأنبياء، وإن بنى حياته على الأخذ فهو من أتباع الأقوياء، الأنبياء ملكوا القلوب بكمالهم، والأقوياء ملكوا الرقاب بقوتهم، وإن أردت أن تملك القلوب فعليك أن تعطي، تعطي من عطفك، من حنانك، من رحمتك، من علمك، من خبرتك، من كل شيء وهبه الله لك، وقدوتك الأنبياء والمرسلون، أما إذا بنيت حياتك أيها الأخ الكريم على أن تأخذ فأنت من أتباع الأقوياء، لا من أتباع الأنبياء.

النموذج الأول: أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، الرد الإلهي كيف، يكافئك الله في الدنيا قبل الآخرة، ذلك أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، يقول بعض العلماء: بستاني في صدري، إن أبعدت فإبعادي سياحة، وإن قتلت فقتلي شهادة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

[سورة محمد: الآية 6]

عرفها لهم في الدنيا، يعني ذاقوا طعمها، قال تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

[سورة الرحمن: الآية 46]

جنة في الدنيا هي جنة القرب من الله عز وجل، وجنة في الآخرة هي الجنة الموعودة.

الرد الإلهي على هذا الصنف الأول الذي صدق بالحسنى، واتقى أن يعصي الله، وأحسن إلى عباده، بنى حياته على العطاء، هذا الصنف الأول جزاءه في الدنيا أن ييسر لليسرى ، يعني ييسر الله له زواجه، تأتيه زوجة تسره إن نظر إليها، وتحفظه إن سافر عنها، وتطيعه إن أمرها، يأتيه الله أولاد أبرار، لأنه اتقى الله في تربيتهم، فكانوا له أبراراً، تأتيه زوجة صالحة، لأنه اتقى الله في اختيارها، من تزوج المرأة لجمالها فقط، دون أي عامل آخر أذله الله، من تزوجها لمالها أفقره الله، من تزوجها لجاهها وحسبها زاده الله دناءةً، كما ورد في بعض الآثار، فعليكم بذات الدين، كما قال عليه الصلاة والسلام.

أنت حينما تتقي الله في اختيار زوجتك تسعدك زوجتك، وحينما تتقي الله في تربية أولادك يبرك أولادك، هذا الصنف الأول أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، أي يسر الله له شأن زواجه، وعمله، وصحته، وسمعته، وصفائه، وراحة باله، لذلك قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

[سورة الأنعام: الآية 81-82]

وما من شيء يتعب النفس كتعسير الأمور، كالإحباط، كالإخفاق، أنت حينما ييسر الله لك حياتك ودنياك، وعملك وزواجك، وتربية أولادك، وحينما تؤدي ما أمرك الله أن تؤديه من الواجبات، وأن تحفظ الحقوق، وأن تتقي الله عز وجل يهبك الله سبحانه وتعالى في الدنيا عطاءً متميزاً، مثلاً قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

[سورة الأنعام: الآية 81-82]

والأمن أثمن نعمة ينعم الله بها على المؤمن، لكن الذي يبتعد عن الله، ويشرد عن منهجه يلقي الله في قلبه الخوف، وأنت من خوف المرض في مرض، ومن خوف الفقر في فقر، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها.

أيها الإخوة الأحباب، هناك نقطة دقيقة، هي أن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة سبب بنتيجة، إذا وضع الإنسان يده على المدفأة، وهي مشتعلة تحترق يده، فالعلاقة بين وضع اليد على المدفأة واحتراقها علاقة علمية، هذا شأن العبادات، وشأن المنهج الإلهي، أما شأن ترتيبات البشر فقد تكون علاقة وضعية لا علاقة علمية بين السلوك والنتيجة، لكن في العبادات، وفي منهج الله سبحانه وتعالى هناك علاقة علمية بين السبب وبين النتيجة.

شيء طبيعي جداً أن تغدو حياة المؤمن سعيدةً، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

[سورة الجاثية: الآية 21]

أما الطرف الثاني، الطرف الثاني بخل، واستغنى، وكذب بالحسنى، الطرف الثاني آمن بالدنيا فقط، ولم يؤمن بغيرها، والإيمان بالآخرة كما يقول بعض العلماء إيمان إخباري، لكن بعض العلماء يقول: هو إيمان عقلي، ذلك أنه يستحيل على الله أن يكون غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفا، ووسيما ودميما، وذكيا ومحدودا، وظالما ومظلوما، وأن تنتهي الحياة هكذا بلا شيء، هذا مستحيل، وألف ألف مستحيل، لابد

من يوم تسوى فيه الحسابات، لابد من أن يؤخذ للمظلوم من الظالم، لابد من أن يعطى المؤمن عطاءً استثنائياً.

الطرف الثاني، الصنف الثاني كذب بالحسنى، لم يؤمن بها، لذلك بني على هذه العقيدة الفاسدة أنه استغنى عن طاعة الله، تفلت من منهجه، وبني على هذه العقيدة الفاسدة أيضاً أنه بخل، أخذ ولم يعطِ، استهلك جهد الآخرين، ابتز أموالهم، اعتدى على أعراضهم، النموذج الثاني، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

[سورة الليل: الآية 8-10]

يعني لا يحقق النجاح في حياته، حياته ضنك، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة طه: الآية 124]

أيها الإخوة الأحباب، هذان النموذجان صارخان، أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، جزاءه التيسير، بخل، واستغنى، وكذب بالحسنى، جزاءه التعسير، لكن لماذا بخل ؟ من أجل أن يجمع المال، والمال مادة الشهوات، يقول الله له:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11))

[سورة الليل: الآية 11]

إذا دخل في القبر ماذا ينفعه ؟ ينادى الإنسان في أول ليلة يوضع في قبره: أن عبدي قد رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبقَ لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

أرجو الله تعالى أن نكون جميعاً قد أفدنا من هذه الحقائق القرآنية أرجو وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (06-20) : سورة العصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزائي المؤمنين، إخوتي المشاهدين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
في القرآن الكريم سورة لو تدبرها الناس لكفتهم، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، إنها سورة العصر، يقول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (1))

[سورة العصر: الآية 1]

يقسم ربنا جل جلاله بالعصر، والعصر عند بعض المفسرين مطلق الزمن، الزمن لو حرّكنا نقطة لرسمت خطاً، لو حركنا خطاً لرسم سطحاً، لو حرّكنا سطحاً لكان حجماً، لو حرّكنا حجماً لكان زمناً.
قال بعض العلماء: الزمن هو البعد الرابع للأشياء، الأشياء المادية لها طول، وعرض، وارتفاع، أو عمق، فإذا تحركت كان لها بعد رابع، هو الزمن.
أيها الإخوة، أحد كبار علماء الفيزياء جاء بحقيقة، مفادها أن الأشياء إذا سارت بسرعة الضوء أصبحت ضوءاً، سرعة الضوء التقريبية ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، فالأجسام المادية لها طول وعرض وعمق أو ارتفاع، إذا تحركت بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية، أي سرعة الضوء أصبحت ضوءاً، أي أصبحت كتلتها صفراً، وحجمها لا نهائي، يبنى على هذه الحقيقة أننا لو افترضنا أننا سبقنا الضوء، عندئذ يتراجع الزمن، لو أننا ركبنا مركبةً افتراضاً، وكانت سرعتها أسرع من الضوء، ينبغي أن نرى معركة بدر، ومعركة القادسية، ومعركة اليرموك، إذا سبقنا الضوء تراجع الزمن، فإذا قصرنا عن الضوء تراخى الزمن، هذه الحقيقة سماها العلماء النسبية، وقد جاء بها علم كبير من علماء الفيزياء.
نحن نريد أن نقرأ القرآن، وقد قلت لكم من قبل: إن النبي عليه الصلاة والسلام أحجم لحكمة أرادها الله عن تفسير الآيات الكونية في القرآن، كنت أقول: لو فسرها تفسيراً بسيطاً يفهمه من حوله لأنكرنا عليه، ولو فسرها تفسيراً عميقاً نفهمه نحن لأنكر عليه من حوله، لذلك تركت هذه الآيات التي تقترب من ألف وثلاثمئة آية لتكون إعجازاً علمياً في القرآن الكريم، فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز القرآن الكريم.
الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

[سورة الحج: الآية 47]

يخاطب الله العرب في هذا القرآن، والعرب يعدون السنة القمرية،

((وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

القمر يدور حول الأرض دورةً كل شهر، لو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر، ووصلنا بينهما بخط، ما هو هذا الخط ؟ القمر يدور حول الأرض دورةً كل شهر، لو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر، ووصلنا بينهما بخط لكان هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، بحساب بسيط يتقنه طالب الثانوي، لو ضربنا هذا الرقم باثنين أصبح القطر قطر هذه الدائرة، لو ضربنا في (ب) 3.14 لعرفنا المحيط، بحساب بسيط نعرف محيط الدائرة التي هي مسار الأرض حول القمر، فالقمر يقطع رحلة شهرية حول الأرض، فإذا حسبنا كم يقطع القمر في هذه الرحلة من الكيلو مترات، وضربنا هذا العدد في اثني عشر لعرفنا كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في عام، لو ضربناه بألف لعرفنا كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، لأن الآية تقول:

((وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

[سورة الحج: الآية 47]

الآن اليوم كم ثانية ؟ ستين ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ستون ثانية تساوي دقيقة، وستون دقيقة تساوي ساعة، واليوم أربع وعشرون ساعة، الآن الشيء الذي لا يصدق أننا لو قسمنا الرقم الذي نتج عن حساب نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض مضروباً باثنين ثم مضروباً 3.14، ثم مضروباً باثني عشر ثم بألف، كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، هذه المسافة لو قسمناها على الزمن ثواني اليوم لكانت النتيجة التي لا تصدق، إنها سرعة الضوء، ليست التقريبية، ولكن الدقيقة تسعمئة وتسعة وتسعين ألف وسبعمئة واثنين وخمسين كيلو متر في الثانية، أي إنما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد، إنها سرعة الضوء الدقيقة لا التقريبية.

لكن قد يقول قائل: هناك آية تتحدث عن أن الملائكة يعرجون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، لم يقل الله عز وجل في هذه الآية مما تعدون، هذه سرعة الملائكة، لكن سرعة الضوء واضحة جداً في هذه الآية:

((وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

[سورة الحج: الآية 47]

أيها الإخوة الأحباب، أنا لا أبالغ إذا قلت لكم: إن أخطر شيء في حياة الإنسان هو الزمن، لأنه زمن، لأنه بضعة أيام، لأنه كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، لأنه ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن

آدم، أنا فجر جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، إنك أيها الإنسان بأدق تعاريفك بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك.

أيها الإخوة الأحباب، الإنسان الموفق في حياته لا يعد زمنه عداً تصاعدياً، يعد عمره عداً تنازلياً، أنت إذا سافرت إلى مدينة حمص مثلاً، ترى لوحات المرور تتناقص مئة كيلو، متر ستون، أربعون، عشرون، حمص ترحب بكم، فينبغي أن نعد عمرنا عداً تنازلياً، كم بقي ؟ هذا سؤال دقيق جداً، هل بقي بقدر ما مضى ؟

يا إخوتنا الأحباب، مركب في أعماق الإنسان أن الوقت أسلم من المال، بدليل أن الإنسان إذا أصابه مرض عضال، واقتضى عملية جراحية عالية الثمن تكلفه ثمن بيته الذي لا يملك غيره، لا يتردد ثانية واحدة في بيع البيت، وإجراء العملية، متوهماً أن هذه العملية الجراحية قد تمد في أجله بضع سنوات، إذاً باع كل ما يملك من أجل الزمن، إذاً لو رأيت إنساناً يأتي بمئة ألف ليرة، ويحرقها أمامك، ماذا تحكم عليه ؟ تحكم عليه بالسفه، والسفيه يحجر على تصرفاته.

بربك أيها الأخ الكريم، إذا كان الوقت أثمن من المال، وإتلاف المال يوصف صاحبه بالسفه، ويحجر على تصرفاته، فكيف بإتلاف الوقت ؟ إن أثمن شيء نملكه هو الزمن، الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

أيها الإخوة الأحباب، لبعض الخلفاء الأمويين، وهو سيدنا عمر بن عبد العزيز كلمة رائعة يقول: " الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما "، لو أن واحداً منا أخذ صورة له قبل عشرين عاماً، له وجه، له ملامح غير الملامح التي هي الآن، معنى هذا من فعل الزمن، من فعل التقدم في السن، الليل والنهار يعملان فيك، لذلك ترد على هذا التغيير القسري من قبل الزمن، أن تعمل في الزمن عملاً تنتفع فيه بعد مضي الزمن، الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيها.

ثم يقول: " والليل والنهار يأخذان منك فخذ منهما "، يأخذان من نشاطك، ومن صحتك، ومن قوامك، ومن شكل وجهك، ومن حالتك العامة، ومن حالة أجهزتك، الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما، لذلك كان عليه الصلاة والسلام حينما يستيقظ يقول:

((الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ إِلَيَّ رُوحِي))

(الترمذي عن أبي هريرة)

فكم من إنسان ينام، ولا يستيقظ، ثم يقول عليه الصلاة والسلام:

((الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

(الترمذي عن أبي هريرة)

أنت حينما تملك الصحة، وتملك الفراغ، وتملك القوة والشعور بالأمن، هذه نعم كبرى ينبغي أن تستغلها، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك))

(الجامع الصغير عن عمرو بن ميمون)

أيها الإخوة الأحباب، يقول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (1))

[سورة العصر: الآية 1]

يقسم بالزمن، أي بمطلق الزمن لهذا المخلوق الأول، الذي هو في حقيقته زمن، يقول تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر: الآية 1-2]

جواب القسم أن الإنسان في خسارة، ما هي هذه الخسارة ؟ من أدق تعريف هذه الخسارة أن مضي الوقت وحده يستهلك الإنسان، مضي الليل والنهار، مضي الأسابيع، مضي الشهور، مضي العقود، مضي الأحقاب يستهلك الإنسان.

هو كائن متحرك إلى نقطة ثابتة، فكل دقيقة تقربه من هدفه، فالإحساس بالزمن إحساس مهم جداً في حياة الإنسان، إن الإنسان لفي خسر، الله عز وجل يقول:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: الآية 37]

الإنسان عمِّر عمراً كافياً كي يعرف الله، وعمِّر عمراً كافياً كي يتوب إليه، وقد يصطلح معه، فالإنسان يتمتع بنعمة الحياة، ونعمة الحياة تعني أنه بإمكانك أن تتوب، بإمكانك أن تستغفر، بإمكانك أن تطلب العلم، بإمكانك أن تحسن، بإمكانك أن تؤدي ما عليك من حقوق ، بإمكانك أن تلبي طلب الآخرة، هذا وأنت حي، فإذا انتهت حياة الإنسان انتهت هذه الفرصة الذهبية.

إذاً الحياة نعمة، وقد يكون الإنسان مريضاً، فالصحة نعمة كبرى، بإمكانك أن تتحرك، أن تعمل الصالحات، وقد تكون حريتك نعمة، هناك أناس مقيدون، فأنت حر، تذهب إلى أي مكان تشاء، وهناك عقل، وهذه نعمة.

فنعمة الصحة، ونعمة الحياة، ونعمة الحرية، ونعمة العقل نعم كبرى، قد لا ننتبه إليها.

أيها الإخوة الكرام،

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: الآية 37]

ما هو النذير ؟ قالوا: القرآن هو النذير، وقالوا: النبي عليه الصلاة والسلام هو النذير، وقالوا: سن الأربعين، الإنسان إذا دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، الميزان مالَ بعد الأربعين، وقيل: سن الستين، وقيل: شيب الشعر هو النذير.

ورد في بعض الآثار: أن عبدي قد كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وشاب شعرك، فاستحي مني، فأنا أستحي منك.

إلى متى أنت في اللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

الخسارة الحقيقية أن تخسر الآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ)

[سورة الشورى: الآية 45]

(ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

[سورة الزمر: الآية 15]

فنحن في بضعة أيام محسوبة علينا الفاصلة، حركاتنا، سكناتنا، رضانا، غضبنا، صلاتنا، قطيعتنا، كل شيء تفعله مسجل عليك.

جاء أعرابي للنبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله عظني، ولا تطل، تلا عليه قوله تعالى: } وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ {، فتبسم عليه الصلاة والسلام فقال: فَقُهَ الرجل، لم يقل: فَقِهَ، قال: فَقُهَ، أي أصبح فقيهاً، آية واحدة كفت هذا الأعرابي.

أيها الإخوة الأحباب،

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر: الآية 1-2]

مضي الزمن وحده يحقق له هذه الخسارة، لأن مضي الزمن وحده يستهلكه، لأن مضي الزمن وحده يقربه من أجله، لأن مضي الزمن وحده يجعله ضعيف الإمكانات، إذاً المؤمن ينتبه إلى قيمة الوقت، والوقت له إدارة، والموفقون في الحياة وأعلام أهل الأرض أحد أسباب نجاحهم أنهم عرفوا كيف يديرون أوقاتهم، الله عز وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر: الآية 1-2]

هو خاسر خسارةً محققة، لأن مضي الزمن يستهلكه، ولكن رحمة الله بنا تجلت في أن الله يقول:

(إِلَّا)

[سورة العصر: الآية 3]

هناك أعمال أربعة إن فعلتها فلا تعد خاسراً، لذلك أنا مضطر أن أوضح لأخوتي الكرام المشاهدين ما الفرق بين إنفاق الوقت إنفاقاً استهلاكياً، وبين إنفاق الوقت إنفاقاً استثمارياً ؟ نأكل، ونشرب، ونستمتع بالحياة، ونسمر، هذا استهلاك للوقت من دون معاصٍ، لا أقول: إنسان يعصي الله حينما يعيش حياةً عادية من دون رسالة، وبلا هدف، وبلا عمل صالح، وبلا انضباط، هذا مستهلك للوقت، ينفق الوقت إنفاقاً استهلاكياً، والوقت رأس مال الإنسان، وأي تاجر أنفق رأس ماله خسر، لكن الإنفاق الذي يسعده هو الإنفاق الاستثماري، أي أن يفعل في الوقت فعلاً ينفعه بعد مضي الوقت، هنا النقطة، فالله عز وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر: الآية 1-2]

لأن مضي الزمن يستهلكه إلا إذا فعل في هذا الزمن المحدود عملاً ينفعه بعد مضي الزمن، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 3]

لذلك ورد في بعض الأدعية: " لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً "، مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان، فإذا مضى الزمن مضي ساذجاً تافهاً لا معنى فيه، لذلك قالوا: أتفه أعمار الإنسان عمره الزمني، والعمر الحقيقي هو مجموع العمل الصالح الذي مكنك الله منه في الدنيا، لذلك الاستثناء:

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

حينما تقطتع في الدنيا وقتاً كي تعرف الله، وكي تعرف حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة وجودك، كي تعرف أن الله موجود، وأنه واحد، وأنه كامل، وتعرف أن الله خالق، ومربٍّ، ومسيِّر، كي تعرف أن الأمر كله بيده، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: الآية 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

[سورة الكهف: الآية 26]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: الآية 84]

حينما تعلم أن الله موجود، وهو معك أينما كنت، معك بعلمه إذا كنت مستقيماً، معك بتوفيقه، ومعك بالنصر والتأييد، والتوفيق والحفظ، إذاً لابد من أن تقتطع وقتاً لمعرفة الله، العمل الذي يأكل كل وقت

فراغك خسارةٌ محققة، أنت مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، فحينما تؤمن أنت بإيمانك، أو بالوقت الذي تنفقه من أجل إيمانك تستثمر الوقت ولا تستهلكه، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة العصر: الآية 3]

الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، لا إيمان كإيمان إبليس الذي قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (81))

[سورة ص: الآية 82]

(مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (75))

[سورة ص: الآية 76]

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14))

[سورة الأعراف: الآية 14]

ثم إن إبليس غارق في المعاصي والآثام، الإيمان الذي يحملك على طاعة الله هو الإيمان المطلوب في هذه الآية.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة العصر: الآية 3]

طبعاً كيف تؤمن ؟ من خلال خلقه، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

[سورة آل عمران: الآية 190-191]

إذاً تفكرك في خلق السماوات والأرض يعرفك بالله عز وجل التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله، وأوسع باب تدخل منه على الله، التفكر في خلق السماوات والأرض أحد أسباب الإيمان الكبرى، يمكن أن تعرفه من كلامه، من قرآنه الكريم، إذا تدبرت آيات القرآن الكريم، قرأتها، وفهمتها، وتدبرتها، وطبقتها فأنت قد عرفت الله سبحانه وتعالى.

ويمكن أن تعرفه من أفعاله، لكن أحياناً لأن ما كل أفعاله تتجلى لك حكمتها، لذلك تقرأ قوله تعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)

[سورة البقرة: الآية 216]

يعني ينبغي أن تقتطع من وقتك الثمين وقتاً لمعرفة الله، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: الآية 63]

يعني لا يسمحون لأعمالهم ومشاغلهم، ومشكلاتهم واهتماماتهم أن تلغي إيمانهم، أو أن تلغي عملهم للآخرة، أو أن تلغي سعيهم إلى السلامة والسعادة، لذلك قال الله عز وجل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)

[سورة النور: الآية 37]

أيها الإخوة الأحباب، العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وأردت من خلاله كفاية نفسك وأهلك، ونفع الناس، ولم يشغلك عن فريضة، ولا عن واجب، ولا عن طاعة، ولا عن طلب علم، وكنت مخلصاً في أدائه انقلب هذا العمل إلى عبادة، لذلك المؤمن عاداته عبادات، بينما غير المؤمن عبادته الصرفة سيئات.أيها الإخوة،

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة العصر: الآية 3]

ينبغي أن تؤمن، ينبغي أن تطلب العلم من مظانه،

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذي استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(مسند الشهاب)

إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

لابد من الدليل، ولابد من التعليل، ولا بد من أن تجري مراجعة لما تعتقد، هل هذه العقيدة فاسدة أم مغلوطة ؟ ينبغي أن تبحث عن الحقيقة، والبحث عن الحقيقة يلبي حاجة الإنسان.

أيها الإخوة،

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة العصر: الآية 3]

العمل الصالح هو مجموع حركتك في الحياة، إتقان عملك عمل صالح، إخلاصك في عملك عمل صالح، أداؤك الواجبات عمل صالح، أداء الحقوق عمل صالح، تربية أولادك تربية صحيحة عمل صالح، أن تكون زوجاً مثالياً عمل صالح، أن تكون جاراً مثالياً عمل صالح، أن تؤدي ما أمرك الله به عمل صالح.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر: الآية 3]

الحق له دوائر، إذا توسعت ضيقت دوائر الباطل، أما إذا لم يتوسع ضيقت عليه دوائر الباطل، فلذلك الدعوة إلى الله في الأصل فرض عين على كل مسلم، في حدود ما تعرف، ومع من تعرف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ::

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...))

[البخاري، الترمذي، أحمد، الدارمي]

والله عز وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: الآية 108]

فإن لم تدعُ إلى الله على بصيرة في حدود ما تعرف، ومع من تعرف فلست متبعاً لرسول الله e، فإن لم تكن متبعاً لرسول الله فأنت لا تحب الله، بدليل هذه الآية:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة: آل عمران: الآية 31]

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أن تؤمن بالله موجوداً، واحداً، وكاملاً، خالقاً، ومربياً، ومسيراً ، صاحب الأسماء الحسنى، والصفات الفضلى، أن تؤمن بالله، وأن تعمل صالحاً يرضاه، والعمل الصالح الذي يرضاه الله عز وجل كما قال الفضيل بن عياض: أن يكون خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 3]

الحياة فيها ابتلاءات، وفيها مصائب، ينبغي أن تصبر تأكيداً، أن تصبر على طاعة الله، لأن الأمر التكليفي ذو كلفة، يحتاج إلى جهد، وينبغي أن تصبر عن الشهوة، وعن شيء حرمه الله عز وجل، وينبغي أن تصبر على قضاء الله وقدره، ينبغي أن تصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى قضاء الله وقدره.

فحينما يمضي اليوم في معرفة بالله، وطاعة له، ودعوة إليه، وصبر على كل أولئك فأنت قد استثمرت الوقت، ولم تستهلكه، عندئذ تكون قد نجوت من الخسارة المحققة، الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول:

" لو تدبّر الناس هذه السورة لكفتهم ".

وقد أثر عن الصحابة الكرام أنهم إذا التقوا لا يتفرقون إلا إذا تلوا هذه السورة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 1-3]

أيها الإخوة الأحباب، أرجو الله سبحانه وتعالى أن تترجم هذه المعاني الدقيقة التي تنطوي عليها السورة الكريمة إلى سلوك يومي، وإلى موعظة بالغة، فالإنسان كما قلت: بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (07-20) : معرفة المشكلة ومواجهتها أهون من الوهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-05-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

أعزائي المؤمنين إخوتي المشاهدين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ننطلق في هذا اللقاء الطيب من حقيقة مسلم بها وهي أن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، الإنسان الموفق يواجه المشكلات ولا يقفز عليها ثم إننا معنا وحي السماء، معنا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، معنا تعليمات الصانع والجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

أيها الإخوة الأحباب:

إن كان هناك مشكلة يعاني منها المسلم أو يعاني منها مجموع المسلمين ينبغي بادئ ذي بدء أن تحدد هذه المشكلة، بل ينبغي أن يعلم أن هناك مشكلة ثم ينبغي أن تحدد هذه المشكلة ثم ينبغي أن نبحث عن حل لهذه المشكلة وبعد ذلك ننطلق إلى تنفيذ الحل ذلك أن قضية العلم هي القضية الأولى في حق الإنسان ذلك أن أهل النار وهم في النار إنما مشكلتهم الأولى العلم، قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

هذه مقدمة ولكن لو أردنا أن ندخل في التفاصيل، لو قرأنا كتاب الله وقد قال الله عز وجل:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: الآية 1]

يعني الكون.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: الآية 1]

فالكون في كفة وهذه الكتاب الذي بين أيدينا في كفة فماذا يقول هذا الكتاب الكريم ؟ يقول الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ)

[سورة النور: الآية 55]

هذه وعود الله عز وجل وعدهم بالاستخلاف ووعدهم بالتمكين ووعدهم بالتطمين وقال أيضاً:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47))

[سورة الروم: الآية 47]

وقال أيضاً:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

[سورة الصافات: الآية 173]

وقال أيضاً:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

[سورة النساء: الآية 141]

قد يتساءل المرء هذه وعود الله عز وجل والحق أن زوال الكون أهون على الله أن لا يحقق وعوده للمؤمنين هذه وعود في كتابنا الكريم، وعد الله المؤمنين أن يستخلفهم ووعدهم أن يمكنهم ووعدهم أن ينصرهم ووعدهم أن يطمئنهم ووعدهم أن جندهم هم الغالبون ووعدهم أنه لن يستطيع كافر أن يكون له عليهم من سبيل.

فإذا نظرنا إلى الواقع والواقع مر وكما قلت في مقدمة هذا اللقاء الحقيقة المرة أهون ألف مرة من الوهم المريح، كيف نوفق بين واقع المسلمين المؤلم والمر وبين وعود الله في القرآن الكريم ؟ وكما ألمحت قبل قليل إن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين، ماذا نفعل ؟ كيف نوفق بين وعود الله وبين واقع المسلمين وواقع المؤمنين بعامة ؟

أيها الإخوة الأحباب:

لو أننا تأملنا هذه الآية الأولى يقول الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: الآية 55]

أين الاستخلاف ؟ كما استخلف الذين من قبلهم، يبدو أن هذا الاستخلاف قانون إلهي.

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: الآية 55]

يقول الله عز وجل:

(يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: الآية 55]

يعني هذه الوعود الثلاثة منوطة بأن نعبده، والعبادة كما تعلمون هي معرفة يقينية ثم طاعة طوعية ثم سعادة في الدنيا والآخرة، النبي عليه الصلاة والسلام سأل سيدنا معاذ رضي الله عنه قال يا معاذ: ما حق الله على عباده ؟ قال: الله ورسوله أعلم. سأله ثانية وثالثة ثم أجابه قال: يا معاذ حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

العبادة حق لكن النبي عليه الصلاة والسلام بعد قليل قال يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه ؟ لعل الله جل جلاله أنشأ للمؤمنين حقاً عليه وهذا من فضله وكرمه.

قال يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أن لا يعذبهم.

إذاً نحن حينما نعبده يستخلفنا ويمكننا ويطمئننا وينصرنا هذه النقطة الأولى، فمالم يعبد المؤمن ربه فالله سبحانه وتعالى في حل من هذه الوعود الثلاثة هذه نقطة أولى دقيقة جداً.

النقطة الثانية أيها الإخوة:

قال تعالى:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: الآية 55]

أي دين وعدهم أن يمكنه لهم ؟ هذا الدين الذي وعدهم أن يمكنه لهم مقيد بصفة لهذا الدين:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: الآية 55]

طبعاً يستنبط بشكل منطقي أنه إن لم يمكنهم معنى هذا أن دينهم لم يرتضيه لهم الدين الحق هو أن تستقيم على أمر الله قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا قَالَ: ثَوْبَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي، أحمد]

إذاً:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: الآية 55]

فإن لم يمكنهم معنى ذلك أن دينهم لم يرتضيه لهم، قد يكون دين مظاهر دين لقاءات دين حفلات دين مؤتمرات دين أعمال شكلية لا تقدم ولا تؤخر، لو دخلت إلى بيوت المسلمين لا تجد الإسلام فيها مطبقاً لو دخلت إلى أعمال المسلمين لا تجد منهج الله مطبقاً في أعمالهم فحينما يكتفي المسلم بعباداته الشعائرية ويطبق في حياته العملية منهجاً آخراً، منهجاً غربياً أو منهجاً لا يرضي الله عز وجل فالله سبحانه وتعالى في حل من تمكين دينهم في الأرض:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

[سورة النور: الآية 55]

ينبغي أن تبحث عن الدين الذي يرتضيه الله عز وجل دين الصدق دين الأمانة دين العفة دين الالتزام دين أداء الحقوق دين أداء الواجبات هذا الدين الذي وعدنا الله أن يمكنه لنا قال بعض العلماء: ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام.

فهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الدين فهماً دقيقاً فهموه ورعاً عن الحرام وفهموه خدمة للأنام بل إن الآية الكريمة حينما قال الله عز وجل:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31))

[سورة مريم: الآية 31]

هذه الآية الجامعة المانعة الموجزة لخص الله الدين كله، إحسان إلى الخلق واتصال بالحق، أوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا.

فإن لم نمكن في الأرض ينبغي أن نبحث عن حقيقة الدين عن الدين الذي أراده الله عز وجل ألا تذكرون أيها الإخوة أن سيدنا جعفر حينما التقى النجاشي سأله النجاشي عن الإسلام قال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الرحم ونسيء الجوار حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء.

هذا هو جوهر الدين، جوهر الدين أن تكون إنساناً ملتزماً بالأمر والنهي، جوهر الدين أن تكون أخلاقياً، جوهر الدين أن تكون نظيفاً، جوهر الدين أن تكون مستقيماً، جوهر الدين أن تكون محسناً، فإذا طبقنا جوهر الدين ينفذ الله وعده في تمكين هذا الدين لنا فإن لم نمكن معنى ذلك أن ديننا الذي نحن عليه لم يرتضيه الله لنا هذه نقطة ثانية.

النقطة الثالثة أيها الإخوة:الله عز وجل حينما قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: الآية 55]

جاءت بعض الآيات تفسر لماذا لا تحقق وعود الله للمؤمنين فقال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

[سورة مريم: الآية 59]

أيها الإخوة:

أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

[سورة مريم: الآية 59]

أعيد وأكرر أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها بل يعني تفريغها من مضمونها الصلاة أيها الإخوة هي الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال لأن الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين.

كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة.

الصلاة أيها الإخوة العبادة الأولى هي درة العبادات، هي عصام اليقين، هي عماد الدين ماذا قال الله عنها ؟ قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

[سورة العلق: الآية 19]

الصلاة قرب من الله عز وجل.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة مرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمـت غريباً واشتياقاً لقربنا

الصلاة قرب واسجد واقترب، آية أخرى، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

[سورة طه: الآية 14]

أنت حينما تصلي تذكر الله وقد أمرك الله عز وجل في آيات كثيرة وفي مقدمتها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (41))

[سورة الأحزاب: الآية 41]

بل إن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران: الآية 102]

قالوا: حق تقاته أن تذكره فلا تنساه وأن تطيعه فلا تعصيه وأن تشكره فلا تكفره.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

[سورة طه: الآية 14]

بل إن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: الآية 45]

ما معنى ذكر الله أكبر ؟ قال بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما فيها. وقال بعضهم الآخر: إن ذكر الله لك وأنت تصلي أكبر من ذكرك إياه إنك إن ذكرته اطمأننت وسعدت بقربه لكنه إن ذكرك ألقى في قلبك السعادة ألهمك رشدك أراك رؤية صحيحة ألهمك الحكمة، عطاءات اله من خلال الصلاة لا تقدر بثمن لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة والذكاء والجمال والمال للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

إذا أردت أن تذكره فقم فصلي لأن الصلاة الذكر، إن أردت أن تحدثه فادعه، إن أردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، وأفضل قراءة للقرآن أن تقرأه في الصلاة فلذلك الصلاة ذكر فهذا الذي يسهو في صلاته ويلهو يعني هو عطّل الثمرة الكبرى من الصلاة.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: الآية 45]

أية ثانية مع أنها منسوخة الحكم:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: الآية 43]

فهذا الذي يصلي وهو لا يعلم ما يقول فهو في حكم السكران، ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها أنت حينما قرأت قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

[سورة الفاتحة]

إنك تنتظر توجيه الله عز وجل يقول الله لك:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: الآية 53]

تأتي أوامر القرآن الكريم في الصلاة وكأنها استجابة لدعائك اهدنا الصراط المستقيم فالصلاة عقل وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

أيها الإخوة الأحباب:

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ...))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

لا يعقل أن يكون المصلي حاقداً أو مخادعاً أو كذاباً إن الصلاة هي في حقيقتها اتصال بمنبع الكمال مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً أنت حينما تتصل بالرحيم تغدو رحيماً بدليل قوله تعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: الآية 159]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم فلما كنت ليناً لهم التفوا من حولك ولو كنت منقطعاً عن الله يستقر في قلبك القسوة وتنعكس القسوة غلظة وفظاظة عندئذ ينفض الناس من حولك، فالصلاة سبب اتصاف المسلم المصلي بمكارم الأخلاق فالصلاة طهور الذي يصلي حقيقة لا يمكن أن يكذب أو أن يخادع أو أن يضلل أو أن ينافق لأنه اتصل بالكامل وهذا الكمال الإلهي انعكس في تصرفاته إذاً الصلاة طهور كما قال عليه الصلاة والسلام.

والصلاة نور، مشكلة الإنسان أنه يقدم على عمل وهو يتوهم أنه لصالحه، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

[سورة الكهف]

الإنسان في أصل جبلته وفطرته يحب وجوده ويحب سلامة وجوده ويحب كمال وجوده ويحب استمرار وجوده لكنه يشقى حينما يتوهم سعادته في شيء آخر غير دين الله عز وجل، الله عز وجل يقول:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

[سورة الرعد: الآية 28]

فالقلوب لا تسعد إلا بذكر الله:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه: الآية 124]

فأنت حينما تصلي يلقي الله في قلبك النور وهذه الحقيقة تؤكدها آية كريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: الآية 28]

أنت ترى الحقيقة ترى الحق حقاً فتتبعه وترى الباطل باطلاً فتجتنبه وأصل شقاء الإنسان رؤية مغلوطة، أصل شقاء الإنسان في الأرض أنه يرى سعادته في الشر فيقبل عليه فيدمر وهذا الذي قاله أهل النار في النار، قال تعالى:

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

[سورة الملك: الآية 10]

ثم إن الصلاة حبور، الصلاة سعادة كبيرة كان عليه الصلاة والسلام يحدثنا كما تقول السيدة عائشة ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

[سورة مريم: الآية 59]

أيها الإخوة الأحباب:

معنى لطيفاً جداً الصلاة عماد الدين فيها من معنى الصيام الذي هو ترك الطعام والشراب، ترك الطعام والشراب والكلام والحركة، فيها من معنى الزكاة أنك تقتطع من وقتك وقتاً كي تصلي والوقت أصل في كسب المال، فيها من معنى الحج أنك تتجه إلى بيت الله الحرام، فيها نطق بالشهادتين في القعود، إذاً الصلاة لها من كل أطراف أركان الإسلام اتصال إنها عماد الدين، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية: أن ليس كل مصل يصلي إنما تقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل له الجهالة حلما والظلمة نورا يدعوني فألبيه ويقسم علي فأبره أكلأه بقربي وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها ولا يتغير حالها.

الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

[سورة المعارج: الآية 19]

هذا ضعف في أصل خلقه لصالحه، إن الإنسان خلق هلوعا كي يلجأ إلى باب الله عند الشدة لولا هذا الهلع الذي في قلبه لا يتوب المؤمن.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

[سورة المعارج: الآية 19-22]

المتصل بالله له صفات عالية جداً وما لم تكن هذه الصفات متوافرة في المصلي فصلاته لم يقطف ثمارها وليست الصلاة التي أرادها الله له.

أيها الإخوة الأحباب:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

[سورة مريم: الآية 59]

الشهوة ما أودعها الله في الإنسان إلا ليرقى بها إلى الله يرقى بها مرتين، يرقى بها صابراً إذا ابتعد عن ما نهاه الله عنه ويرقى بها شاكراً إذا أقبل على ما أمره الله به، فالشهوات في أصلها ترقى بالإنسان إلى رب الأرض والسماوات إنها سلم نرقى به إلى الله أو دركات نهوي بها في النار، إنها حيادية أنت حينما تمشي في حقل وترى لوحة كتب عليها حقل ألغام ممنوع التجاوز أنت لا تحقد على واضع هذه اللوحة بل تشكره لأنه ضمن سلامتك بهذه اللوحة وأنت حينما تفهم أوامر الله ونواهيه ضمان لسلامتك وليست قيد لحريتك تكون قد فقهت معنى الدين.

أيها الإخوة الأحباب:

قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء: الآية 88-89]

القلب السليم هو كل قلب سلم من شهوة لا ترضي الله والقلب السليم هو كل قلب سلم من عبادة غير الله والقلب السليم هو كل قلب سلم من تحكيم غير شرع الله، والقلب السليم هو القلب الذي سلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، والقلب السليم أثمن إنجاز يحققه المؤمن في حياته وحينما يلقى الله بقلب سليم فله جنان الخلد، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء: الآية 88-89]

أيها الإخوة:

الإنسان حينما يضع كل شهوة لا ترضي الله وحينما يحكم اتصاله بالله يستحق وعود الله، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور: الآية 55]

طبعاً فرداً ومجتمعاً، يجب أن نعتقد أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناةً نظيفة تسري من خلالها، دققوا أيها الإخوة المركبة فيها وقود سائل إذا وضع هذا الوقود في مكانه الصحيح وسال في الأنابيب المحكمة وانفجر في المكان المناسب في المحرك وفي الوقت المناسب ولد حركة نافعة أخذتك وأهلك إلى مكان جميل، أما إذا خرج هذا الوقود السائل عن مساره وأصاب المركبة شرارة

أحرق المركبة ومن فيها، هذا الوقود السائل يمثل الشهوة إذا استعملت وفق منهج الله عز وجل ولدت خيراً كثيراً، إذاً الشهوات سلماً نرقى به إلى الله أو دركات نهوي بها إلى جهنم وبئس المصير.

يا أيها الإخوة الكرام:

عود على بدء العبرة أن نعرف حقيقة المشكلة وأن نواجهها لا أن نقفز عليها، والحقيقة المرة أهون ألف مرة من الوهم المريح ووعود الله عز وجل في القرآن قطعية لأنه قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

[سورة النساء: الآية 87]

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: الآية 111]

ولكن حينما نقصر نحن في تطبيق ما أمرنا به قد لا نستحق تحقيق وعود الله لنا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس 08 - 20 : مقاييس التفوق التي ينبغي أن يعتمدها الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-05-27

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذا اللقاء مقاييس التفوق التي ينبغي أن يعتمدها الإنسان، فالإنسان في التعاريف الدقيقة عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، يوجد فيه جانب إدراكي، وجانب انفعالي، وجانب مادي، والإنسان المتفوق هو الذي يربي هذه الجوانب، لا أن يربي جانباً، ويدع جانباً آخر، لذلك جاء تعريف العبادة متوافقاً مع تعريف حقيقة الإنسان، فالعبادة: طاعة طوعية، أي سلوك، أساسها معرفة يقينية، أي إدراك، تفضي إلى سعادة أبدية.

أيها الإخوة، العقل غذاؤه العلم، والعلم مادة أساسية في حياة الإنسان، إنها الحاجة العليا فيه، إنها الحاجة التي تؤكد إنسانيته، إنها الحاجة التي تسمو به، إنها الحاجة التي تسعده في الدنيا والآخرة، وقلب يحب، الإنسان عواطف، هذا الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يحب، ولا أن يُحب ليس من بني البشر، الحب جزء أساسي من حياة الإنسان، وهذا الجسم أيضاً يحتاج إلى طعام وشراب، ننتقل إلى موضوع دقيق هو فطرة الإنسان.

فطرة الإنسان جبلته، خصائصه النفسية، هذا الجانب الذي أغفله العالم اليوم، العالم اليوم أي الحضارة الغربية اعتنت عناية لا حدود لها بالجانب المادي للإنسان، ثم غفلت جوانبه الأخرى، سمعت قصة أحد كبار المهندسين في العالم، بعد أن أنجز جسراً يعد ثاني جسر في العالم ألقى نفسه في البحر، وغرق، ذهبوا إلى غرفته في الفندق، فوجدوا ورقة كتب عليها: ذقت كل شيء في الحياة، فلم أجد لها طعماً، أردت أن أذوق طعم الموت، الإنسان حينما يعتني بجسمه فقط دون أن يعتني بروحه، دون أن يعتني بقلبه، دون أن يعتني بنفسه، فقد جَانَبَ الصواب، فالإنسان له فطرة، أي جبلّة، هذه الفطرة فطره الله عليها.

لو شرحنا هذه الفطرة: " يا داود، ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها "، فمن فطرة الإنسان أن تحب المحسن، ومن فطرة الإنسان أن تكره المسيء، من فطرة الإنسان أن تحب التفوق، أن تحب الأقوى، أن تحب الأجمل، أن تحب الأكثر، أن تحب الأعلى، هذا كله من فطرته، فالله عز وجل فطر الإنسان فطرةً تعينه على أن يعرف ربه، وأن يسعد بقربه، ولكن هذه الفطرة متوافقة توافقاً تاماً مع منهج الله، والدليل على ذلك قول الله عز وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم: الآية 30]

الإنسان فطر على معرفة الله وطاعته، وعلى السعادة بالقرب منه، فإذا لم يعرفه ضل سواء السبيل، إذا لم يطعه شقي في الدنيا والآخرة، إذا لم ينعم بقربه شقي بالبعد عنه.

إذاً أيها الإخوة، فطرة الإنسان تقتضي أن تعبد الله، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

[سورة الشمس]

لا يمكن أن يكون معنى الآية أنه خلق فيها الفجور، لكن معنى الآية أن فطرة النفس العالية لمجرد أن تقع في خطأ تعذبه نفسه عذاباً ذاتياً، وهذا معنى الضمير، إن صح التعبير، أو معنى الشعور بالكآبة، أو معنى الشعور بالذنب، النفس تعذب صاحبها.

لذلك الإنسان حينما يؤدي واجبه، وحينما يطيع ربه، وحينما تضبطه قيم دينية واضحةٌ يسعد سعادة لا توصف، لذلك قالوا: في قلب المؤمن من السعادة ما لو وزعت على بلد لكفتهم، فالفطرة مجموعة خصائص للنفس، من هذه الخصائص كما ذكرت أن تحب الأعلى، الأقوى، الأجمل، أن تحب التفوق، أن تحب النجاح، والفلاح، أن تحب التوفيق في حياتك، هذا كله من فطرة الإنسان.

ولكن للإنسان فطرة وله طبع، الطبع يأخذ الجانب المادي في الإنسان، فالجسم يحب أن ينام، والجسم يحب أن يأكل، وأن يشرب، وأن يستمتع، فللجسم خصائص، وللنفس خصائص، الشيء الدقيق أن خصائص النفس متوافقة مع منهج الله، فالإنسان إذا صلى ترتاح نفسه، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَا بِلَالُ، أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود، أحمد]

فإذا لم يصلِّ الإنسان عذبته نفسه، الإنسان إذا كان صادقاً ترتاح نفسه، فإذا كذب على الناس، ولو انتزع إعجابهم زوراً وباطلاً تعذبه نفسه، الإنسان خلق خلقاً كاملاً، وفطر فطرةً سليمة، فنفسه تعذبه، لذلك قالوا: الحق هو دائرة يمر عبرها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي، فهذه النفس الإنسانية جبلت على حب من أحسن إليها، جبلت على حب التفوق، وحب النجاح، وحب الفلاح، وحب التوفيق في الأعمال، لذلك تبحث عن النجاح بمقاييس، هنا دخلنا في موضوع هذا اللقاء، ما المقاييس المنتزعة من حركة الحياة ؟

المقاييس التي اعتمدها الإنسان، والتي استنبطها من حركة الحياة مقياس المال، الناس يعظمون رب المال، مقياس القوة، الناس يعظمون القوي، مقياس الوسامة، الناس يعظمون الوسيم، مقياس الكبر

والعلو، هذه كلها مقاييس مستنبطة من حركة الحياة، ولكن ما المقاييس التي اعتمدها الله في القرآن ؟ هنا المشكلة، أن تأتي مقاييس المؤمن في التفوق متوافقة مع مقاييس القرآن الكريم.

أيها الإخوة، مثلاً، عمير بن وهب مرةً كان مع صفوان بن أمية، فقال: والله، لولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها لذهبت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، فانتهز صفوان هذه الفرصة، وقال: أما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت، وأما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر، فاذهب لما أردت.

سقى عمير سيفه سماً، وجهز راحلته، وانطلق إلى المدينة تحت غطاء أن ابنه أسيرٌ عند المسلمين، فلما وصل المدينة رآه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، هذا عدو الله، جاء يريد شراً، فقيَّده بحمالة سيفه، وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا عمر، أطلقه، فأطلقه، قال: ابتعد عنه يا عمر، فابتعد عنه، قال: ادن مني يا عمير، دنا منه، قال النبي عليه الصلاة و السلام: يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال: جئت أرجو فكاك هذا الأسير الذي في أيديكم، قال: فما بال هذه السيف التي على عاتقك ؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال عليه الصلاة والسلام: يا عمير، ألم تقل لصفوان في فناء الكعبة عند الحجر: لولا دين علي، و عيال عندي لخرجت، وقتلت محمداً، وأرحتكم منه، فتحمل عنك صفوان دينك وعيالك على أن تقتلني، واللهُ حائلٌ بيني وبينك، فذهل عمير، وقال: أشهد أنك رسول الله، لأن خبري مع صفوان لم يعلم به أحد، إلا أنا وهو والله، ثم شرح صدره للإسلام، وأسلم عمير، وأصبح من أصحاب رسول الله.

الإنسان يبحث عن السعادة، يبحث عن النجاة، يبحث عن التفوق، لكن رؤيته قد تكون غير صحيحة، فحينما يرى رؤية غير صحيحة تنحل مشكلته، ويقبل على ربه.

أحد زعماء غطفان كان في خيمة يعسكر بها ليحارب النبي عليه الصلاة والسلام في موقعة الخندق، جلس هذا البطل زعيم غطفان اسمه نعيم بن مسعود، قبل أن يسلم جلس في خيمته، وأجرى مع نفسه حواراً ذاتياً، قال: يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ جئت تقاتل هذا الرجل الطيب، هل سفك دماً ؟ هل انتهك عرضاً ؟ هل سلب مالاً ؟ أين عقلك يا نعيم ؟ أيليق بك أن تفعل هذا ؟ حوار ذاتي نقله نقلةً من شقاء أبدي إلى سعادة أبدية، فقال: انطلقت إلى رسول الله، فلما رآه النبي e قال: نعيم ؟ قال نعيم: جئت مسلماً، ولهذه القصة تتمة رائعة...

لقد أجرى الله على يديه النصر في معركة الخندق، لأنه دخل بين الفريقين، وأوقع بينهما، وضعف اتحادهما، وتفرقوا عن هذه المعركة بعد أن جاءتهم رياح قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم.

فالإنسان يبحث عن الحقيقة، فإذا وجدها يسعد بها، فالإنسان فطرته تدعوه إلى طاعة الله، تدعوه إلى

الإقبال عليه، تدعوه إلى أن يسعد بقربه، وجسمه يدعوه إلى النوم، يدعوه إلى إطلاق البصر، يدعوه إلى أخذ ما لا يملك، تناقض التكاليف مع طبع الإنسان هو ثمن الجنة، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

[سورة النازعات]

أوضح هذه الحقيقة ببعض الأمثلة:

الإنسان يحب أن ينام، طبعه يدعوه إلى النوم، لكن التكليف يدعوه إلى أن يستيقظ، فحينما يعاكس هوى نفسه، ويستيقظ، ويصلي ترتاح نفسه، لأن النفس متوافقة مع منهج الله عز وجل، ولأن الطبع متناقض معه، من خلال هذا التناقض يكون ثمن الجنة.

أيها الإخوة الأحباب، ما مقاييس القرآن الكريم ؟ نحن من حركة الإنسان في الحياة يستنبط أن الجمال قيمة، وأن القوة قيمة، وأن الغنى قيمة، وأن العلو قيمة، ولكن الله عز وجل ما المقاييس التي اعتمدها ؟ الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

طاعة الله عز وجل هي مقياس الفوز في القرآن الكريم، لذلك من أوتي القرآن مثلاً فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله، إذا كنت مطيعاً لله عز وجل، قائماً بأمره، منتهياً عما نهاك فأنت الفائز، وأنت المتفوق، وأنت الذي ينبغي أن تسعد في دنياك، هذا المقياس الأول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

مقياس آخر، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية 113]

أيها الإخوة الأحباب أيها، دققوا في قول الله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: الآية 77]

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[سورة القصص: الآية 60]

الله عز وجل يصف الحياة الدنيا أنها هينة، لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو أنها تعدل عند الله ما سقى الكافر منها شربة ماء، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه:

((الغنى والفقر بعد العرض على الله))

رجل من رجال التاريخ يصفه من حوله بأنه كان قصير القامة، أسمر اللون، ضيق المنكبين، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيما غضب، معنى ذلك أن الرجل قيمته في عمله، قيمته في استقامته، قيمته في محبته للآخرين، قيمته في إنصافه، ما لم نعتمد مقاييس القرآن الكريم في التفوق فلن نفلح في حياتنا الدنيا، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية 113]

لو دققنا في القرآن الكريم لوجدنا أن المقاييس التي اعتمدها تختلف عن المقاييس التي اعتمدها الناس، فالإنسان قد يقع في حيرة إن أخذ بمقاييس الناس، هذه مقاييس الناس للدنيا فقط، فإذا جاء الموت ألغيت كل هذه الإنجازات، كل شيء يضعه الإنسان في ثانية واحدة، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

كل ابن أنثى و إن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة ... فاعلمْ بأنـك بعدها محمـول

أيها الإخوة الأحباب، قارون كما يروي القرآن الكريم خرج على قومه في زينته:

(يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص: الآية 79]

هؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا اعتمدوا مقاييس الأرض، الغنى، القوة، الوسامة، العلو، لكن المؤمنين اعتمدوا مقاييس القرآن، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص: الآية 80]

المشكلة أن تعتمد مقاييس القرآن كي تتفوق، فالمقياس الأول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية 113]

لو أن طفلاً صغيراً قال لك: أنا معي مبلغ عظيم، كم تظن هذا المبلغ ؟ وإذا قال لك غني كبير: عندي مبلغ عظيم، فكلمة عظيم تتناسب مع القائل، فإذا كان خالق السماوات والأرض يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: الآية 113]

ثم إن الله عز وجل في آية أخرى يقول:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: الآية 132]

أي حجمك عند الله بحجم عملك، والعمل الصالح هو المقياس الوحيد الذي يحاط بالمؤمن، فضلاً عن مقياس العلم، مقياس العلم والعمل، المقياسان اللذان اعتمدهما القرآن الكريم في تقييم الناس. أيها الإخوة الأحباب، هناك آية دقيقة جداً تقول:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

زحزح فعل ثنائي مضعف، كقولك: زلزل، وعسعس، ودمدم، وقلقل، فالثنائي المضعف يعني التكرار، فزحزحة الإنسان عن النار يحتاج إلى جهد كبير.

وقد ورد في بعض الأحاديث:

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ...))

[أحمد عَن ابْنِ عَبَّاسٍ]

تصور إنسانا يركب دراجة، يمشي بها على طريق مستوٍ، وصل إلى مفترق طريقين، طريق هابطة وطريق صاعدة، الطريق الهابطة مريحة لراكب الدراجة، والطريق معبدة، ولها أشجار، والطريق الصاعدة طريق صعبة على راكب الدراجة، وفيها حفر، وأكمات وغبار، لكن لوحة كتب عليها هذه الطريق الهابطة تنتهي بحفرة ما لها من قرار، فيها وحوش جائعة، والطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف، هو لمن وصل إليه.

هذا الجواب ألا يغير قرار الإنسان ؟ راكب الدراجة بحكم الواقع، وبحكم دراجته ينبغي أن يختار الطريق النازلة، لأنها مريحة، ولا يختار الطريق الصاعدة، لأنها متعبة، لكن حينما يقرأ هذا البيان يجب أن يتخذ قراراً آخر، يختار الطريق الصاعدة لما ينتظره من عطاء كبير، وهذا حال المؤمن، الإنسان حينما يلغي عقله، وحينما لا يطلب العلم بحكم طبيعته، وبحكم طبعه كما ذكرت قبل قليل يختار الدنيا، يختار الشهوات التي بين يديه، فحينما يقترب من الموت فيرى فداحة اختياره، وسوء اختياره، يندم ندماً لا حدود له، أما حينما يقرأ البيان، واستجاب إلى هذا البيان، وسلك الطريق الصاعدة وصل إلى هذا القصر المنيف.

لذلك:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

أيها الإخوة الأحباب، النبي عليه الصلاة والسلام في معركة مؤتة عيّن قوادا ثلاثة، عين القائد الأول سيدنا زيد، والقائد الثاني سيدنا جعفر، والقائد الثالث سيدنا عبد الله بن رواحة، يبدو أن المعركة صعبة جداً، فالقائد الأول حمل الراية، وقاتل بها حتى قتل، ثم استشهد، أخذ الراية القائد الثاني سيدنا جعفر، وقاتل بها حتى قتل، ثم استشهد، فلما جاء دور عبد الله بن رواحة، وكان شاعراً تردد ثلاثين ثانية، قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت و إن توليت فقد شـقيت

وأخذ الراية، فقاتل بها حتى قتل، النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة حدث أصحابه عما جرى في مؤتة، فقال: أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم تابع حديثه فقال: ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت النبي سكوت النبي حتى أقلق أصحابه الكرام على أخيهم عبد الله فقالوا: يا رسول الله ما فعل عبد الله ؟ ثم قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، وقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه.

أيها الإخوة الأحباب، لأنه تردد ثلاثين ثانية، وقد أخذ الراية، وبذل روحه في سبيل الله، أرأيتم إلى قيمة الوقت أولاً، ورأيتم إلى أن هذا الفوز العظيم الذي يناله الإنسان حينما يعده الله بالجنة، قال: وأخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه.

فمقياس العلم، ومقياس العمل مقياسان أساسيان يعتمدهما القرآن الكريم في الترجيح بين البشر، لكن مقاييس أهل الدنيا لا علاقة لها بمقاييس القرآن.

أيها الإخوة، آية أخرى، يقول الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15))

[سورة الأعلى]

تزكية النفس لعلها الهدف الأول من خلق الإنسان، لعلها الأمانة التي أوكله الله بها، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: الآية 72]

الأمانة التي كلف الله الإنسان بحملها إنها نفسه التي بين جنبيه، كلفه أن يعرفها بربها، وكلفه أن يحملها على طاعته، وكلفه أن يحملها على التقرب إليه بالعمل الصالح، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: الآية 110]

فلذلك مقياس التفوق أن تزكي نفسك، أن تطهرها، أن يكون قلبك سليماً، فنحن عندما نقرأ القرآن يجب أن نقرأه، وأن نراه بكل جوارحنا، وكل مشاعرنا، وكل ذرة في ذرات أجسادنا، أنه كلام الله، وأن الله عز وجل حينما يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة البقرة: الآية 104]

يجب أن تتذكر هذا العقد الإيماني بينك وبين الله، كأن الله عز وجل يقول: يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بوحدانيتي، يا من آمنتم بكمالي، يا من آمنتم بمحبتي، لكن افعلوا هذا، ولا تفعلوا هذا، فكأن بين المؤمن والله عقداً إيمانياً، وكأن الأمانة التي كلفه الله حملها هي نفسه التي بين جنبيه، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

الشقاء كل الشقاء في أن تبقي نفسك جاهلة، في أن تتفلت من طاعة الله، والسعادة كل السعادة في أن تحملها على طاعته.

أكاد أقول أيها الإخوة: الناس رجلان، لا ثالث لهما، رجل عرف الله سبحانه وتعالى، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل آخر غفل عن الله، وتفلت من منهج الله، وأساء إلى خلق الله، فشقي في الدنيا والآخرة، لذلك الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وانتماءاتهم وأعراقهم وأجناسهم لا يزيدون على رجلين، بر تقي كريم على الله، و فاجر شقي هيّن على الله:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[سورة الشمس: الآية 9]

لو عدنا إلى نقاط هذا اللقاء الطيب:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: الآية 71]

خالق الكون يقول هذا فوز عظيم:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة: الآية 105]

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: الآية 132]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: الآية 11]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

سيدنا إبراهيم عليه السلام قال:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

[سورة البقرة: الآية 126]

قال الله عز وجل:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[سورة البقرة: الآية 126]

أيها الإخوة الأحباب، البطولة أن تأتي مقاييس الفوز والنجاح عندك متطابقة مع مقاييس القرآن، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (09-20) : مولد الرسول صلى الله عليه وسلم- 1

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-06-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

إخوتي المؤمنين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم من المناسب أن نضع بين أيدي الإخوة المشاهدين الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى مستنبطة من قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: الآية 33]

ففي حياة النبي صلى الله عليه وسلم مادام النبي الكريم بين ظهراني أمته فهم في أمان من عذاب الله، لأنهم ضمن مرحلة التكليف، ولكن بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم ما معنى هذه الآية ؟ قال علماء التفسير: } وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ {، أي: سنتك مطبقة في حياتهم، مطبقة في بيوتهم، مطبقة في أعمالهم، مطبقة في كسب أموالهم، مطبقة في أوقات فراغهم، مطبقة في لهوهم، مطبقة في أوقات فراغهم، مطبقة في مناسباتهم الحزينة والمفرحة، مطبقة في علاقاتهم، فما دام المؤمنون مطبِّقين منهج النبي صلى الله عليه وسلم فهم في مأمن من عذاب الله .

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

(متفق عليه)

إذاً المسلمون اليوم إن أرادوا أن يكونوا في مأمن من عذاب الله، وأن يكونوا أعزة كراماً، وأن يحققوا أهدافهم، ويضمنوا سلامتهم وسعادتهم فعليهم من خلال هذه الآية أن يطبقوا منهج النبي صلى الله عليه وسلم، لأن هذا المنهج هو في حقيقته تعليمات الصانع، والصانع هو الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 21]

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر: الآية 14]

والخالق هو الخبير، والصانع هو الحكيم، وتعليماته ينبغي أن تتبع.

فالمسلمون في مأمن من عذاب الله إذا كان النبي ، أو كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم ونهجه الذي هو وحي يوحَى، والذي هو من عند الله، إذا كانت هذه السنة وهذا المنهج مطبقاً في حياتهم.

أيها الإخوة الأحباب،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: الآية 33]

هناك بحبوحة أخرى، وهناك مأمن آخر، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

[سورة الأنفال: الآية 33]

فالإنسان إما أن يكون على منهج الله مقيماً، أو أنه إذا أخطأ عليه أن يستغفر، في هاتين الحالتين هو في مأمن من عذاب الله، هو في بحبوحة، في سلامة، أما حينما يرتكب خطأً، ويصر عليه، ولا يستغفر، ولا يندم، عندئذ يكون قد عرّض نفسه لتأديب الله ولعذابه.

أيها الإخوة الأحباب، الله عز وجل يخاطب الأمة العربية التي شرفها الله بحمل رسالة الإسلام، قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)

[سورة آل عمران: الآية 110]

قال علماء التفسير: أصبحتم خير أمة بحمل هذه الرسالة.

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: الآية 110]

أي إن علة خيرية هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان بالله، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة التي ألزمنا الله بها، وقد أهلك الله الأمم السابقة لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فهذه الخيرية التي شرف الله بها الأمة المحمدية خيرية معللة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، فإن كف المسلمون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدوا خيريتهم، وكانوا أمةً كأية أمة أخرى، لذلك العلماء قسموا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمتين، أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، فإن استجبنا لله إذا دعانا إلى ما يحيينا، وقطفنا ثمار هذا الإيمان فنحن بنص هذه الآية الكريمة خير أمة أخرجت للناس، أما إذا لم نستجب، ولم نعبأ بهذا المنهج القويم، ولم نعبأ بكتاب الله الكريم، وإذا هان أمر الله علينا هنا على الله.

أمة الاستجابة غير أمة التبليغ، الأمة الشاردة هي أمة التبليغ، هي أمة كأي أمة، ليس لها أي فضل على بقية الأمم، بينما أمة الاستجابة هي التي استجابت لله وللرسول حينما دعاها إلى ما يحييها، والحقيقة أن الإنسان لا يكون حياً بالمعنى الذي يليق به.

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

لا يكون حياً حياةً أخلاقية، حياةً عقلية، حياة سامية إلا إذا تعرف إلى الله، وسلك طريق منهجه الذي يوصله إلى سلامته وسعادته.

أيها الإخوة الأحباب، هناك من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه، فيقول الله عز وجل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: الآية 18]

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى استنبط من هذه الآية الدقيقة أن الله لا يعذب أحبابه، فلو أن الله قبل دعواهم أنهم أبناء الله، وأحباؤه فلمَ إذاً يعذبهم بذنوبهم ؟ لو قبل دعواهم لما عذبهم بذنوبهم، إذاً نحن حينما نطبق منهج النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن في ذكرى مولده الشريف، نحن في مأمن من عذاب الله، ونحن أمة مختارة خير أمة أخرجت للناس، أما إذا شردنا عن الله، وعن منهجه فنحن أمة كبقية الأمم، لها ما لها، وعليها ما عليها، لذلك هناك مقولة رائعة: هان أمر الله على الناس فهانوا على الله، ولو أنهم عظموا أمره لحفظهم الله عز وجل، وأكرمهم، وأعلى مقامهم، وسلمهم في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الأحباب، هذه الحقيقة الأولى، أن النبي صلى الله عليه وسلم منهجه القويم منهج نجاة، ومنهج سعادة، لأنه من عند خالق الأكوان، لأنه من عند خالق الإنسان، لأنه من عند الصانع، وتعليمات الصانع أولى أن تطبق من غيره.

الحقيقة الثانية: النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده من أن يخطئ، معصوم في أقواله، ومعصوم في أفعاله، ومعصوم في إقراره، ومعصوم في أحواله، لذلك الله جل جلاله أمرنا أن نأخذ منه، وأن ننتهي عن ما عنه نهانا وزجرنا، والنبي صلى الله عليه وسلم:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

[سورة النجم]

وعاؤه فرغ من أية ثقافة أرضية، قال تعالى:

(وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

[سورة العنكبوت: الآية 48]

أميته وسام شرف له، لأن الله تولى تعليمه، قال تعالى:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5))

[سورة النجم: الآية 5]

لكن أميتنا وصمة عار في حقنا، لأننا لا نتعلم إلا عن طريق الآخرين، فالنبي صلى الله عليه وسلم صانه عن كل ثقافة أرضية، ليكون كل ما يلقيه على إخوانه وأصحابه وأمته من بعده وحي السماء، لذلك العلماء قالوا: هناك وحيان، وحي متلو هو القرآن الكريم، ووحي غير متلو هو سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أو ما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أيها الإخوة الأحباب، هذا اعتقاد أي مسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده، من أن يخطئ في أقواله، وفي أفعاله، وفي إقراره، وفي أحواله، لكن أمته معصومة بمجموعها، فَعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

(ابن ماجه

فالمسلمون بعضهم لبعض نصحة متبادلون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم، وهذا جزء من عقيدة المسلم، النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، ولأنه معصوم بمفرده فقد أمرنا الله جل جلاله أن نأخذ منه، وأمرنا الله جل جلاله أن ننتهي عما عنه نهانا، فقال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: الآية 7]

هناك حقيقة في علم الأصول، أنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة، فكل أمر في القرآن الكريم كما يقولوا علماء الأصول يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، يقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: الآية 7]

إذاً لابد تتميماً لتنفيذ هذا الأمر أن نعرف ماذا أمرنا، وعن أي شيء نهانا، إذاً معرفة سنة النبي القولية فرض عين على كل مسلم، كما أن المسلم يصلي، لأن الصلاة فرض، هو يتوضأ قبل الصلاة، لأن الوضوء من لوازم الصلاة، إذاً هو فرض أيضاً، وكما أن الله أمرنا أن نأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم كل أوامره، وأن ننتهي عن كل نواهيه، هذا الأمر يقتضي الوجوب، ومن لوازم هذا الأمر أن نتعرف إلى منهج النبي ، وإلى سنته القولية والعملية.

إذاً يكاد يقول علماء الأصول: إن معرفة سنة النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم، لأن الأمر الإلهي لا يحقق إلا إذا عرفنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم القولية.

أيها الإخوة الأحباب، شأن آخر، حينما يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

[سورة الأحزاب: الآية 21]

نحن نسأل: كيف يكون النبي أسوة لنا إن لم نعرف سيرته ؟ إن لم نعرف أحواله في بيته ؟ مع زوجته؟ ومع أولاده ؟ ومع إخوانه ؟ ومع أصحابه ؟ ومع جيرانه ؟ ومع من يلوذ به ؟ في سلمه ؟ في حربه ؟ في كسب ماله ؟ في تعامله مع الأشياء ؟ في رفقه بالحيوان ؟ في وفائه ؟ في رحمته ؟ في عدله ؟ في إنصافه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21))

[سورة الأحزاب: الآية 21]

إذاً نحن ملزمون أن نتعرف إلى سنة النبي القولية، وإلى سيرته العملية، فحريٌّ بأي مسلم أن يكون في بيته كتاب سنة صحيح، وكتاب سيرة صحيح، ليكون هذا الكتاب وتلك السيرة إضاءة لما في القرآن الكريم من توجيهات قويمة، ذلك أنهم يقولون: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ

((سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

(أحمد)

أيها الإخوة الأحباب، حقيقة ثالثة في هذا اللقاء الطيب، في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم، الله جل جلاله لا يقبل دعوى محبته إلا بالدليل، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: الآية 31]

فأنت إذا قلت: أنا أحب الله، معنى ذلك أنك تتبع رسول الله ، وهذه علامة محبة الله عز وجل، ودليل محبته، أما أن يكون الحب دعوى كما قال الشاعر:

تعصي الإله وتظهر حبــه ذلك لعمري في القياس شنيع

لو كانت حبك صادقاً لأطعته إن المـحب لمن يحب يطيع

فالله جل جلاله لا يقبل دعوى محبته إلا بالدليل، والدليل القاطع على محبة الله عز وجل الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتباعه، فاتباع النبي دليل محبة الله عز وجل.

أيها الإخوة الأحباب، من لوازم اتباع النبي الدعوة إلى الله، قال تعالى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: الآية 108]

فمن لم يدعُ على بصيرة فليس متبعاً لرسول الله.

أيها الإخوة الأحباب، الدعوة إلى الله نوعان، دعوة هي فرض عين على كل مسلم، ومعنى كونها فرض عين، أي في حدود ما تعرف، ومع من تعرف، ولا تكلف فوق ذلك، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...))

(البخاري)

في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، هذه الدعوة فرض عين، إن استمعت إلى خطبة، إلى درس، إلى حديث، فيجب أن تنقل الذي استمعت إليه إلى أخ كريم، إلى جار، إلى صديق، إلى زميل، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، أما الدعوة إلى الله التي هي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكل فهي دعوة من نوع آخر، حينما تتبحر في العلم، وحينما تتفرغ له، وحينما تتخصص فيه، وحينما تنهض بنشر هذه الدعوة على أوسع نطاق، وحينما ترد على كل الشبهات، وتأتي بكل البينات والأدلة، فهذه دعوة فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، فقد قال الله عز وجل:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104))

[سورة آل عمران: الآية 104]

ولكن أيها الإخوة، حقيقة دقيقة وخطيرة، من دعا إلى الله بمضمون هزيل، من دعا إلى الله دعوة متناقضة، دعوةً غير متماسكة، أو دعا إلى الله دعوةً قوية ومتماسكةً، ولكن بأسلوب غير علمي، وبطريقة غير تربوية، أو من دعا إلى الله دعوةً متماسكة قوية بأسلوب علمي، وبطريقة تربوية، لكن المدعو لم يجد مصداقيةً في الداعي، قال بعض العلماء: هذا المدعو بهذا المضمون الهزيل، وهذا المضمون الضحل أيضاً، وبهذه الطريقة غير التربوية، وبهذا الأسلوب غير العلمي، وبعدم المصداقية لا يعد عند الله مبلغاً، لأن الإنسان مركب في أعماقه أن دين الله عظيم، فكما أن الله عظيم فينبغي أن يكون دينه في مستوى عظمة الله عز وجل.

ما من حرفة تتذبذب بين أن تكون خطيرة جداً كصنعة الأنبياء، وبين أن تكون تافهةً، فإذا اتخذت حرفةً وسبب رزق فهي حرفة لا تستدعي إلا عدم الاهتمام، أما إذا كانت خالصة، وكانت عميقة، وكانت بأسلوب علمي، وطريقة تربوية، كانت هذه الدعوة أخطر شيء في حياتنا، بل إن المسلمين في أمسّ

الحاجة إلى دعاة صادقين، يجعلون حقائق الإسلام في متناول عامة الناس، وأساليبه الناجحة في الحياة بين أيديهم.

أيها الإخوة الأحباب، شيء آخر، من حقائق ذكرى المولد النبوي الشريف، وهو أن المديح والتبرك ينبغي أن لا ننكره، جميل بنا أن نمدح النبي صلى الله عليه وسلم، فهو سيد الخلق، وحبيب الحق، جميل بنا أن نتبرك بآثاره، ولكن أن نكتفي بالمديح دون أن نتبع النبي صلى الله عليه وسلم فهذه مصيبة المصائب، لو أن أباً عليماً عالمياً جليلاً حكيماً، له ابن على نقيضه، لو أن الابن أمضى كل حياته في مديح والده، يبقى الأب حيث هو، والابن حيث هو، لا يرقى الابن إلى مستوى والده إلا إذا سار في طريقه.

لو أن حاجباً لعالم جليل في غيبة هذا العالم جلس في مكانه، هل ترقي مرتبته ؟ إطلاقاً، أما إذا سار في طريق سيده فطلب العلم ترتقي مرتبته.

فنحن ـ والحمد لله ـ نمدح النبي صلى الله عليه وسلم مديحاً رائعاً، ومديحاً مؤثراً، ولكن إذا اكتفينا بهذا المديح، ولم نقرن القول بالعمل، ولم نتبع سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهذا المديح قد لا يقدم ولا يؤخر، النبي صلى الله عليه وسلم يرى يوم القيامة أمته، وقد سحبت إلى النار، عَنْ سَهْلٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ، وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[البخاري، مسلم، أحمد]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: } وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ { دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ، وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

(مسلم)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19))

[سورة الزمر: الآية 19]

أيها الإخوة، فرضاً لو أن النبي صلى الله عليه وسلم أفتى لواحد بشيء، ومن فمه الشريف صلى الله عليه وسلم، فإن فتوى النبي صلى الله عليه وسلم على عظمتها إن لم يكن صاحبها محقاً لا ينجو من عذاب الله، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري، مسلم، النسائي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد، مالك]

أيها الإخوة الأحباب، الشيء الدقيق أن الاستجابة إلى رسول الله هي عين الاستجابة لله، يقول الله عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: الآية 50]

إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، طاعة رسول الله هي عين طاعة الله، ذلك لأنهم كما يقولون اليوم: يوجد شفافية، فحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام تشف عن حقيقة الذات الإلهية، حقيقة النبي عليه الصلاة والسلام هو الحق الصرف، الكمال البشري الرائع، فلذلك الاستجابة إلى رسول الله هي عين الاستجابة إلى الله، وطاعة رسول الله هي عين طاعة الله، وإرضاء رسول الله عين إرضاء الله، لقوله تعالى:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة: الآية 62]

أيها الإخوة الأحباب، بقيت حقيقة خطيرة، هي أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: الآية 120]

إذا كان قلب النبي عليه الصلاة والسلام يزداد ثبوتاً لسماع قصة نبي دونه، فلأن يزداد إيماننا نحن مؤمنين بسماع قصة سيد المرسلين فمن باب أولى، لذلك قال تعالى:

(مُنْكِرُونَ)

[سورة المؤمنون: الآية 69]

قال تعالى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69))

[سورة المؤمنون: الآية 69]

قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

[سورة سبأ: الآية 46]

إذاً أن نجتمع في بيوتنا، وفي مساجدنا، وأن نتلو سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن نتحدث عن شمائله، وعن خصائصه، وعن فضائله، وعن منهجه، وعن كماله، هذا من صلب الدعوة إلى الله، وأن نتحدث عن شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وعن صفات النبي ، وعن منهج النبي ، وعن أخلاق النبي طوال العام، هذا من صلب الدعوة إلى الله، فلذلك الله عز وجل يقول:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

[سورة المؤمنون: الآية 69]

الله عز وجل يقول:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود: الآية 120

إذاً أيها الإخوة، لا ضير من أن نتعرف إلى رسول الله في أية مناسبة، وفي أي يوم من أيام العام، بل إن المثل العليا لا تعيش إلا بالمثل، والعظمة الرائعة للأنبياء والمرسلين أنهم كانوا مثلاً عليا متحركة أمامنا، وما أشد حاجة المسلمين إلى مسلم متحرك يرون إسلامه في سلوكه، وفي عمله، وفي ورعه، وفي عفته، وفي استقامته النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء أصحابه كانوا يعرفون صدقه، وأمانته، وعفافه، ونسبه.

إذاً الدعوة إلى الله لا تقوم إلا على فكر نير، وخلق قويم.

أيها الإخوة الأحباب، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعني وإياكم بهذه الحقائق المتعلقة بذكرى مولد النبي عليه الصلاة، والسلام، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (10-20) : مولد الرسول صلى الله عليه وسلم -2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2002-07-01

بسم الله الرحمن الرحيم

إخوتي المؤمنين ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، لازلنا في ذكرى مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن لابد من مقدمة ذلك أن المتأمل في الكون ، في السماوات والأرض يجد حقيقة قاطعة ، وهي أن لهذا الكون إلهاً عظيماً كاملاً واحداً ، وأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، أي إن هذا الإله العظيم لابد من أن يرسل رسلاً ، وينزل كتباً هداية لعباده من الضلالة والتيه.

أيها الإخوة ، حينما يرسل الله جل جلاله رسولاً لابد من أن يكون مع هذا الرسول منهج ، هذا المنهج يقتضي أن تفعل ، ولا تفعل ، شيء مباح ، وشيء واجب ، وشيء فرض ، وشيء مكروه ، وشيء محرم ، فمع الأنبياء أو منهج واحد ، جاء بصيغ متعددة ، لذلك الناس حينما يدعون إلى التقيد بمنهج الله عز وجل قد لا تطيب نفوسهم بهذه المناهج ، ماذا يفعلون ؟ أهون شيء أن يكذبوا الأنبياء والمرسلين ، فكيف يبين الله لعباده الغافلين الشاردين أن هذا الإنسان الذي أرسله الله هو رسوله ، لابد من أن يدعم هذا الرسول الكريم بشهادة تشهد للناس أنها رسوله ، إنها المعجزات ، فالمعجزات في حقيقتها شهادة الله للرسول أنه رسول الله.

الرسول يفعل شيئاً خارقاً للعادة غير مألوف ، كأن فعل الرسول في خرق قوانين الأرض شهادة الله لهؤلاء الناس أنه رسول الله ، الأنبياء السابقون معجزاتهم معجزات حسية ، بمعنى أنها وقعت ، ولن تقع مرةً ثانية ، أصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، فهي كعود الثقاب تألق مرةً واحدة ، ثم انطفأ ، فأصبح خبراً يصدقه المصدق ، أو يكذبه المكذب ، إلا أن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ، ونحن في ذكرى مولده من نوع آخر ، إنها معجزة علمية ، إنها معجزة عقلية ، هي في القرآن الكريم ، وتستمر هذه المعجزة إلى أبد الآبدين ، كلما تقدم العلم كشف عن حقائق جاءت في القرآن الكريم ، وكأن الله عز وجل يقول:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

[سورة فصلت: الآية 53]

أيها الإخوة الأحباب ، في القرآن الكريم ما يزيد على ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون ، وعن خلق الإنسان ، وعن خلق الحيوان ، وعن خلق النبات ، هذه الآيات كأنها تعريف بعظمة الله تعريف ، وبكماله ، وتعريف بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

إذاً معجزة النبي عليه الصلاة والسلام هي في القرآن ، والقرآن مع أمة النبي إلى نهاية الدوران ، ولحكمة بالغة لم يفسِّر النبي عليه الصلاة والسلام آيات الكون في القرآن ، إما باجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ، أو بتوجيه من الله عز وجل ، ذلك أنه لو فسر هذه الآيات الكونية تفسيراً مبسطًا يفهمه من حوله لأنكرنا عليه ، وقد تقدم عندنا العلم ، ولو فسرها تفسيراً مطولاً يتناسب مع تقدم العلم لأنكر عليه من حوله ، لذلك تركت هذه الآيات للكشوفات العلمية فكلما تقدم العلم كشف عن جانب من جوانب هذه الآيات.

أيها الإخوة الأحباب ، قبل سنتين عرض موقع معلوماتي يمثل أكبر محطة فضاء في الأرض صورةً ، إذا تأملتها لا تشك ثانية واحدة أنها وردة جورية ، لا تشك ثانية واحدة أنها وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة ، وبوريقاتها الخضراء الزاهية ، و بكأسها الأزرق في الوسط ، هي في الحقيقة ليست وردةً جورية ، إنما هي نجم اسمه عين القط ، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، هذا النجم أصابه انفجار ، فكان بهذا الشكل ، لو قرأت قوله تعالى:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

[سورة الرحمن]

صدقوا أيها الإخوة ، أنكم إن طالعتم معظم التفاسير حول هذه الآية:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

[سورة الرحمن]

لا تجد تفسيراً واحداً يشفي الغليل ، بل إن هذه الصورة هي التفسير الحقيقي لهذه الآية ، هذا مصداق قول الإمام علي كرم الله وجهه: " في القرآن الكريم آيات لما تفسر بعد ".

إذاً القرآن الكريم فيه إعجاز ، هو في الحقيقة معجزة النبي عليه الصلاة والسلام.

أيها الإخوة الأكارم ، يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

[سورة التين: الآية 4]

العصب الشمّي ينتهي بعشرين مليون عصب ، وكل عصب من هذه النهايات العشرين مليون تنتهي بسبعة أهداب ، والأهداب مغطاة بمادة مخاطية تتفاعل مع الرائحة ، ويتشكل من تفاعل الرائحة مع المادة المحيطة بأهداب الأعصاب الشمية ، شكل هندسي ، هو حقيقة الرائحة ، هذه تشحن إلى الدماغ ، وتعرض على ملف فيه ما يزيد على عشرة آلاف بند من بنود الذاكرة الشمية ، فإذا توافق شكل مع شكل البنود عرفت أن هذه الرائحة رائحة ياسمين ،

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان)

[سورة الرحمن: الآية 38]

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

[سورة التين: الآية 4]

الإنسان إذا كان يمشي في الطريق ، وسمع بوق مركبة ، فإنّ صوت البوق ينتقل إلى الدماغ عن طريق الأذنين ، فهناك أذنان ، ولابد من أن الصوت يصل إلى إحدى الأذنين قبل الأخرى ، في الدماغ جهاز يقيس تفاضل وصول الصوتين إليه ، هذا التفاضل لا يزيد على واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءًا من الثانية ، عندئذ يعرف الإنسان من خلال هذا الجهاز البالغ التعقيد ، ومن خلال الأذنين جهة الصوت فيتجه إلى الجهة المعاكسة ، ولولا هذا الجهاز البالغ التعقيد في الدماغ لكنا في حالة صعبة جداً.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

[سورة اتين: الآية 4]

والإنسان حينما يرى حشرةً مؤذية قاتلة تنطبع صورتها على شبكية العين ، وهذه الصورة تنتقل إلى الدماغ إدراكاً بحسب المفهومات التي تلقاها الإنسان في مراحل تعليمه ، ومن خلال خبراته ، أو مشاهداته ، أو من خلال قصص سمعها ، فإذا رأى أفعى في بستان انطبعت صورتها على شبكية العين إحساساً ، وانتقلت هذه الصورة إلى الدماغ إدراكاً ، الدماغ ملك الجهاز العصبي ، والغدة النخامية ملكة الجهاز الهرموني ، وبينهما ضابط اتصال هو جسم تحت السرير البصري ، ضابط اتصال بين ملك الجهاز العصبي ، وهو الدماغ ، وبين ملكة الجهاز الهرموني ، وهي الغدة النخامية ، الغدة النخامية تأمر غدتين فوق الكليتين اسمهما الكظر ، الكظر يعطي خمسة أوامر خلال ثوان ، أمرًا إلى القلب ، فترتفع ضرباته ، الخائف يزداد وجيب قلبه ، وأمرًا إلى الرئتين ، فيزداد وجيبهما ، والخائف يلهث ، ثم أمرًا إلى الأوعية الدموية المحيطة بالجلد ، فتضيق لمعتها ، فالخائف يصفر لونه ، هو في حاجة إلى الدم ، لا إلى لون وردي ، وأمرًا رابعًا يذهب إلى الكبد ، فيطلق كمية إضافية استثنائية من السكر ، وأمرًا خامسًا يأمر الكبد بإفراز مادة تعين على التجلط ، هذا كله يتم في ثوان معدودة.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

[سورة التين: الآية 4]

أيها الإخوة الأحباب ، يقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: الآية 26]

هذه البعوضة زودها الله بجهاز رادار ، ففي الليل وفي الظلام الدامس تتجه إلى جبين النائم ، وزودها الله بجهاز تحليل للدم ، فما كل دم يناسبها ، فقد ينام أخوان على فراش واحد يستيقظ أحدهما ووجهه ممتلئ بلسعات البعوض ، والثاني ليس به شيء.

إذاً عندها جهاز رادار ، وعندها جهاز تحليل للدم ، ثم عندها جهاز تخدير ، البعوضة تخدر من تقف على جلده لئلا يقتلها ، وهي تمص من دمه ، ثم عندها جهاز ما يسميه العلماء تمييع الدم ، كي يسير الدم في خرطومها الدقيق ، جهاز رادار ، وجهاز تحليل ، وجهاز تمييع ، وجهاز تحليل ، وجهاز تخدير.

والبعوضة لها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وقلب لكل جناح ، وجناحا البعوضة يرفان أربعة آلاف رفة في الثانية ، هذا الرفيف اسمه الطنين ، والبعوضة لها مخالب ، إذا وقفت على سطح خشن تستخدم المخالب ، ولها محاجم ، إذا وقفت على سطح أملس تستخدم المحاجم ، أساسها الضغط ، والبعوضة تشم رائحة عرق الإنسان من مسافة تزيد على ستين كيلو مترًا ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

[سورة البقرة: الآية 26]

أيها الإخوة الكرام ، آيات كثيرة تدل على عظمة الله ، يقول الله عز وجل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

[سورة الروم]

قبل اكتشاف أشعة الليزر التي تقاس بها المسافات في دقة بالغة لم يكن يعرف أن أعمق نقطة في الأرض هي غور فلسطين ، فحقائق التاريخ تؤكد أن المعركة التي جرت بين الروم والفرس كانت في غور فلسطين ، فالله عز وجل يقول:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)

[سورة الروم]

أدنى مكان في الأرض غور فلسطين أدنى وأدنى مكان في البحر خليج مريانة في المحيط الهادي أدنى فهذه الآية من إعجاز القرآن العلمي.

أيها الإخوة الكرام أدنى ، ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

[سورة الحج: الآية 27]

لم يقل: من كل فج بعيد ، لأن الأرض كرة ، فالإنسان إذا ابتعد عن إحدى نقاطها لابد أن يكون الخط منحنياً ، فجاءت كلمة عميق بدل كلمة بعيد ، إشعاراً بكروية الأرض.

(وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

[سورة الحج]

أيها الإخوة الكرام ، بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، لو حسبنا بحساب بسيط كم تستغرق رحلة إلى هذا النجم بمركبة أرضية ، لكان الجواب حوالي خمسين مليون عام ، والمسافة بيننا وبينه أربع سنوات ضوئية فقط ، فكم تستغرق رحلة لنصل بها إلى نجم القطب ؟ الذي يبتعد عن الأرض أربعة آلاف سنة ضوئية ، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر ، فكم يقطع في الدقيقة ؟ فكم يقطع في الساعة ؟ فكم يقطع في اليوم ؟ فكم يقطع في العام ؟

إذاً بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، وبيننا وبين نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وبيننا وبين مجرة المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية ، لكن العلماء اكتشفوا حديثاً مجرةً تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: الآية 28]

هذا النجم كان في هذا الموضع ، وأرسل ضوءاً إلى الأرض ، بقي هذا الضوء يمشي عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا ، النجم الذي أصدر هذا الضوء أين هو الآن ؟

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة: الآية 76]

لو سمع هذه الآية عالم فلك لخر ساجداً لله عز وجل من كلمة موقع ، الموقع لا تعني أن صاحب الموقع في الموقع ، لأن النجوم البعيدة قد تقترب سرعتها من سرعة الضوء ، فقبل عشرين مليار سنة كانت هذه المجرة في هذا المكان ، فأين هي الآن ؟

أيها الإخوة ، بيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر ، يقطعها الضوء في ثماني دقائق ، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، أي إن جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، بيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر ، والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض.

الآن وطنوا أنفسكم لسماع هذه الحقيقة ، في أبراج السماء برج اسمه برج العقرب ، وفي هذا البرج كوكب متألق صغير أحمر اللون ، اسمه قلب العقرب ، قلب العقرب نجم في برج العقرب ، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما.

أيها الإخوة الكرام ،

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

[سورة الذاريات: الآية 47]

هذه حقائق قبل أن تعصي الله ، هل تعلم من هو الله ؟ إذا عرفت الله ، ثم عرفت أمره تفانيت في طاعته ، أما إذا عرفت الأمر ، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

أيها الإخوة الكرام ، الله جل جلاله يقول:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

[سورة الرحمن]

حار علماء التفسير في هذه الآية ، إلى أن اكتشف من خلال السفن الفضائية أن بين كل بحرين برزخًا يحول بين اختلاط مياه البحرين ، فكل بحر له مكوناته ، وله ملوحته ، وله كثافته ، وعند اتصال البحرين كباب المندل ، وقناة السويس ، ومضيق جبل طارق ، عند اتصال البحرين لا تختلط مياه البحرين ببعضهما ، هذه الحقيقة اكتشفت حديثاً ، بدءاً من مركبات الفضاء ، ثم تحقيقاً من علماء البحار ، يقول الله عز وجل:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

[سورة الرحمن]

أيها الإخوة الأحباب ، هناك آية قرآنية ثانية يقول الله عز وجل:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53))

[سورة الفرقان: الآية 53]

فسر العلماء الحجر المحجور بأن أسماك المياه العذبة لا تنتقل إلى المياه المالحة ، وأن أسماك المياه المالحة لا تنتقل إلى المياه العذبة ، فبين البحرين برزخ ، وبين البحرين حجر محجور.

أيها الإخوة الكرام ، هذه بعض الحقائق التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، لماذا ذكر الله في القرآن الكريم ألفاً وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون ، تتحدث عن السماوات والأرض ، تتحدث عن خلق الإنسان ، تتحدث عن خلق الحشرات ، تتحدث عن خلق الحيوان تتحدث عن الأمطار ، تتحدث عن الجبال ، تتحدث عن البحار ، تتحدث عن الأنهار ؟ هذه الآيات الكونية هي في الحقيقة طريق إلى الله ، فالكون في حقيقته أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب تدخل منه على الله ، والإنسان لا بد أن يعظم الخالق ، يقول الله عز وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

يستنبط من هذا أن العلماء وحدهم هم الذين يخشون الله عز وجل ، فالله عزوجل يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر: الآية 28]

أيها الإخوة الأحباب ، في رأس الإنسان شعر ، من يصدق أن لكل شعرة عصبًا ، ووريدًا ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، في رأس الإنسان أحياناً ثلاثمئة ألف شعرة ، لكل شعرة عصب ، ووريد ، وشريان ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية.

يا أيها الإخوة الكرام ، إذا تفكرنا في خلق السماوات والأرض خشعت قلوبنا ، إذا تفكرنا في خلق السماوات والأرض أنابت قلوبنا إلى الله عز وجل.

إن مرحلة مكة في الدعوة إلى الله مرحلة مهمة جداً ، كل الآيات المكية فيها تعريف لذات الله ، تعريف بعظمته ، تعريف بكماله ، فنحن حينما ندقق في خلق الإنسان ، وفي خلق الحيوان ، وفي خلق النبات ، نتعرف إلى الصانع ، فالصانع نعرفه من صنعته ، والخالق من خلقه ، والحكيم من حكمته ، والمسير من تسييره ، والمبدع من إبداعه ، كل هذه الحقائق ينبغي أن نعرفها كي نتعرف إلى الله ، فالله عز وجل خلق السماوات والأرض بالحق ، أي إن الحق لابس خلق السماوات والأرض:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

[سورة الأنعام: الآية 73]

بمعنى أن الحق لابس خلق السماوات والأرض ، والحق هو الشيء الثابت والهادف ، فالباطل شيء زائل ، والباطل شيء عابث ، خلق السماوات والأرض بالحق ، لهدف عظيم وثابت ، والباطل زائل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (81))

[سورة الإسراء: الآية 81]

والباطل عابث:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً)

[سورة ص: الآية 27]

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16))

[سورة الأنبياء: الآية 16]

فالله سبحانه وتعالى نفى اللعب والعبث عن خلق السماوات والأرض ، إذاً خلق السماوات والأرض كان بالحق ، لو عدنا إلى الآيات التي بينها الله في القرآن الكريم والمتعلقة بالإنسان ، أو بالحيوان ، أو بالنبات لوجدنا العجب العجاب ، الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

[سورة البلد]

العين وحدها من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله ، العين في شبكيتها ما يزيد على مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط في قعر العين ، هذه من أجل تأمين دقة الرؤية ، بل إن العين السليمة يمكن أن تفرق بين درجتين من ثمانمئة ألف درجة ، لو درجنا اللون الأخضر ثمانمئة ألف درجة لاستطاعت العين السليمة أن تفرق بين درجتين.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8))

[سورة البلد: الآية 8]

إنك ترى الصورة بحجمها الحقيقي ، وبألوانها الدقيقة مباشرةً من دون إرجاع ، فالعين آية دالة على عظمة الله.

الأذن آية دالة على عظمة الله ، الشعر آية دالة على عظمة الله.

الدماغ أيها الإخوة ، فيه أربعة عشر مليار خلية قشرية ، وظائف الدماغ تستند إلى مئة وأربعين مليار خلية استنادية سمراء ، لم تعرف وظيفتها بعد ، بل إن الدماغ أعقد ما في الإنسان ، بل إن الدماغ عجز عن إدراك نفسه.

إذاً الدماغ آية كبرى من آيات الله ، الأعصاب آية ، الأوردة والشرايين آية ، القلب البشري يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة ، كل إنسان يضخ قلبه ثمانية أمتار ، في عمر متوسط يمكن للقلب البشري أن يضخ ما يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ، هذا القلب تلك العضلة التي تعقد المؤتمرات من أجل معرفة أسرارها.

أيها الإخوة الأحباب ،

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

[سورة آل عمران]

يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِي هَذِهِ الآيَةِ))

[ابن حبان في صحيحه عن عائشة]

نخلص من هذا العرض السريع لبعض آيات القرآن الكريم الكونية الدالة على عظمة الله أن أرقى أنواع العبادات التفكر في خلق السماوات والأرض ، لأنك إذا تفكرت في خلق السماوات والأرض عرفت عظمة الله عز وجل ، وإن عرفت عظمة الله عز وجل خشعت له ، واستجبت لأمره.

إذاً عرفت الآمر ، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الحقائق باعثاً لنا جميعاً على التفكر في خلق السماوات والأرض، وعلى مزيد من معرفة الله عز وجل ، وعلى مزيد من طاعته ، فلعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا ، وإلى لقاء آخر ، إن شاء الله سبحانه وتعالى

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (11-20) : ولا تأكلوا أموالكم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

وردت آية كريمة في سورة النساء، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: الآية 29]

إلى آخر الآية.

أيها الإخوة المؤمنون، جرت العادة في القرآن الكريم أن يخاطب الله الناس بأصول الدين، وأن يخاطب المؤمنين خاصة بفروع الدين، ذلك أن الإنسان في الأصل مخير، والاختيار أحد مقومات التكليف الذي كلفه الله به، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: الآية 72]

رضي أن تكون نفسه أمانة بين يديه لذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

[سورة الشمس]

تزكية النفس تعني أن يعرفها صاحبها بالله عز وجل، وأن يحملها على طاعته، عندها تزكو، فتغدو أهلاً لدخول الجنة، فالله سبحانه وتعالى يخاطب الناس عامةً بأصول الدين، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: الآية 21]

يخاطب المؤمنين بفروع الدين، فإذا جاء في أول الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

معنى ذلك أن المؤمن الذي آمن بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، آمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، لابد أن يكون لهذا الإيمان من التزامات.

من التزامات الإيمان أن تطيع الله عز وجل فيما أمر، وأن تدع ما نهى عنه وزجر، فلذلك أن يكون الإنسان مخيراً فالتخيير يثمن عمله، والتخيير يجعل من إيمانه إيماناً أساسه المحبوبية، وأساسه المبادرة، فلذلك يقول الله عز وجل:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

[سورة الأنعام:الآية 148]

هذه الآية أصل في نفي الجبر، وحينما يشيع في المسلمين عقيدة فاسدة هي الجبر فإن التكليف لا معنى له، وإن الثواب يبطل، والعقاب يبطل، ولا معنى للجنة، ولا معنى للنار، ولا معنى للمسؤولية، حينما نلغي الاختيار من عقيدة المسلم تبدو الحياة تمثيلية، لا معنى لها، الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية 29]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

[سورة الإنسان: الآية 3]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 148]

حينما نلغي الاختيار من حياة الإنسان فلا معنى لا للجنة ولا للنار، ولا للمسؤولية، ولا للثواب ولا للعقاب، ولا للخير ولا للشر، ولا لكل ما من شأنه أن يرفع من قيمة الإنسان، فالإنسان مخير بنصوص قرآنية كثيرة، ذكرت بعضها، أما حينما نقرأ آيةً قرآنية، ونشم منها رائحة الجبر، قال علماء التفسير: الآيات التي يشم منها رائحة أن الإنسان مجبر لابد من أن تحمل على أن هذا الإجبار هو بمعنى أن الإنسان اختار أن يبتعد عن الدين، اختار ألا يؤمن، فكان الذي حصل له تحصيل حاصل، الإنسان حينما يظن أن الله أضله فهذا الإضلال هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف: الآية 5]

لابد من أن نؤكد هذه الحقيقة الدقيقة والخطيرة والأساسية في عقيدة المسلم، أن الإنسان مخير.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

[سورة الإنسان: الآية 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 148]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: الآية 29]

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

[سورة الأنعام:الآية 148]

هذه الآيات كلها تؤكد أن الإنسان مخير، وإذا توهم متوهم أن الله سبحانه وتعالى يضل عباده فهو الإضلال الجزائي، المبني على ضلال اختياري.

أرأيت لو أن طالباً دخل إلى الجامعة، فلم يداوم إطلاقاً، ولم يحضر أية محاضرة، ولم يدرس، ولم يراجع، ولم يقدم امتحاناً، أنذرته إدارة الجامعة مرات عديدة، فلما أصرّ على مقاطعة الجامعة وحضور دروسها، وتأدية امتحاناتها صدر قرار بترقين قيده، أيقول هذا الطالب: لقد طردوني، لقد أرادوا أن أبقى جاهلاً ؟ لا، هذا القرار تجسيد لاختيار الطالب، هذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، لأنك إذا توهمت أن الله أجبرك على سيئاتك وقعت في إشكال كبير، لا معنى للحياة، لا معنى للمسؤولية، لا معنى للثواب، لا معنى للعقاب، لا معنى للجنة، لا معنى للنار، كل هذه المعاني الدقيقة السامية التي خص الله الإنسان بها تغدو لا معنى لها.

يروى أن سيدنا عمر جاءه شارب خمر، فقال: أقيموا عليه الحد، قال: والله يا أمير المؤمنين، إن الله قدر عليه ذلك، فقال سيدنا عمر: أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الإضرار.

إذاً الإنسان مخير، حينما يختار أن يدخل في الدين، هناك منهج، هناك أمر، وهناك نهي، وهناك عقاب في الدنيا، وهناك عقاب في الآخرة، في الأصل: } لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ {، أنت مخير، أنت مخير أن تدخل في الدين، أو لا تدخل، إنك إن دخلت في الدين فأنت ملزم أن تطبق أحكام الدين، هناك منظومة واسعة جداً من الأحكام المتعلقة بكسب المال، وإنفاق المال، والمتعلقة بعلاقة المؤمن بالنساء، والمتعلقة بكل مناحي حياته، وفروع حياته، لو أن هذا الإنسان اختار ألاّ يدخل في الدين فإن اختياره يعاقبه.

تصور أن إنساناً يقود شاحنة، وصل إلى جسر، كتب على هذا الجسر: " الحمولة القصوى عشرون طناً "، ومعه أربعون طنًّا، إذا فكّر أن هناك من يخالفه، هل هناك شرطي يضبطه، يكون حينئذٍ أحمق، لأنه لو اختار أن يخالف هذه اللوحة فاختياره يعاقبه.

لو أن إنساناً رأى تياراً كهربائياً عالي التوتر، وقد كتب من بعيد: " ممنوع الاقتراب من التيار "، حينما يظن أنه يخالَف دون أن يضبط فهذا وهم كبير، إنه إذا اقترب من التيار أصبح قطعة من الفحم.

فالإنسان مخير أن يدخل في الدين، أو ألاّ يدخل، فإذا دخل في الدين فهو ملزم أن يطبق أحكام الدين، الأحكام الإلهية في الدين مُفادها افعل ولا تفعل، أمر يقتضي الوجوب، ونهي يقتضي الترك.

هذه المقدمة أيها الإخوة سقتها كي يتوضح أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول: } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا {، أي: يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بوجودي، يا من آمنتم بوحدانيتي، يا من آمنتم بكمالي، يا من آمنتم برحمتي، يا من آمنتم بعلمي، يا من آمنتم بحكمتي، يا من آمنتم أن هذه الدنيا ليست دار قرار، إنها ممر، وليست مقرًّا، يا من آمنتم أن هذه الدنيا دار تكليف لا دار تشريف، وأن هذه الدنيا دار عمل لا دار جزاء، وأن هذه الدنيا دار كد وسعي، لا دار استمتاع ورخاء، طبيعة هذه الدنيا أنه يدفع الإنسان فيها ثمن الجنة، فلذلك الإنسان مخير، ولأنه مخير فكل الحظوظ التي آتاه الله إياها حيادية، يمكن أن ترفعه، أن يصعد بها إلى أعلى عليّين، ويمكن أن يهبط بها إلى أسفل سافلين.

نعود إلى الآية: } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا {، وكأن عقداً بينك وبين الله، كأنك تقول: يا رب، سمعاً وطاعة، أنا آمنت بك، اهدني صراطك المستقيم، يقول الله لك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: الآية 29]

في الحقيقة أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، فلما يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

، هذه لام الأمر، هل يعقل أن يأمرنا الله جل جلاله أن نكفر ؟ هذا أمر تهديد.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

[سورة البقرة: الآية 187]

هل هذا الأمر يقتضي الوجوب ؟ العلماء قالوا: هذا أمر إباحة.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

[سورة النور: الآية 32]

هذا أمر ندب، في الأصل أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، وكل نهي في القرآن الكريم يقتضي الترك، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، نحن أمام آية كريمة مصدرة بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وكأن بينك وبين الله عقداً إيمانياً،

(لاَ تَأْكُلُوا)

لما قال:

(تَأْكُلُوا)

كأنه شبه المال بالطعام، وحذف الطعام، وبقيت بعض لوازمه، وهو الأكل، أو بوجه الشبه أن الطعام محبب للإنسان، وأنه قوام حياته، والمال أيضاً محبب للإنسان، وهو قوام حياته.

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان شهوة المال، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران: الآية 14]

هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان ما أودعها في الإنسان إلا ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، إنها حيادية، وأشدِّد على كلمة حيادية، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليّين، ويمكن أن تكون دركات يهوي بها الإنسان إلى أسفل سافلين، المال حيادي، إن كسبته حلالاً، وأنفقته حلالاً ارتقيت به، وإن كسبته حراماً، وأنفقته حراماً هويت به، فالشهوات حيادية، أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، والمال أحد الشهوات التي زينت للإنسان.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران: الآية 14]

فـ:

(لاَ تَأْكُلُوا)

، شبه المال بالطعام، لأنه يؤكل يومياً، وشبه المال بالطعام، لأنه محبب للإنسان، فجاءت الآية الكريمة:

(لاَ تَأْكُلُوا)

المال كما قلت قبل قليل قوام الحياة، ولعلك إذا رجعت إلى أحكام الفقه وجدت أن تسعين بالمئة من أحكام الفقه متعلقة بالمال وبالنساء، شهوتان لصيقتان بالإنسان، فلابد من تنظيم كسب المال، وتنظيم إنفاقه،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أيها الإخوة الأحباب، في كلمة أموالكم، جاء المال جمعاً، والجمع يقتضي كل أنواع الأموال، الأشياء التي يقتنيها الإنسان، ويحرص عليها هي مال، والمال يعني النقد، ويعني المزروعات، ويعني البساتين،

ويعني البيوت، ويعني المركبات، كل شيء يحرص الإنسان عليه، ويمكن أن يستخدمه لصلاح حياته يعد مالاً في المفهوم الواسع.

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

لماذا جمع المال ؟ ليشير إلى كل أنواع المال، أما حينما قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

هل هناك من معنى أن أنهى أن آخذ ورقة مالية من جيبي الأيمن لأضعها في الأيسر، ليس هذا هو المعنى، ذكر الله المال، وأضافه إليكم لحكمة بالغة، هذا المال مال إخوانكم، مال إخوانكم في الإنسانية، مال المسلمين، أنتم منهيّون عن أكله، فلماذا قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أي هو مالكم من زاوية واحدة، وهي ضرورة المحافظة عليه، وكأنه مالكم، هذا المعنى الأول حينما قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

مال أخيك مالك، مال الإنسان مالك، مال الأخ الذي يسكن معك هو مالك، مال من حولك هو مالك، من زاوية وجوب الحفاظ عليه، وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله حراماً، أو اغتصاباً، أو احتيالاً، أو قهراً فمن باب أولى، فالتوجيه الأول: لا تأكل مالك، أي لا تأكل مال أخيك، لأنك في الأصل يجب أن تحافظ عليه، وكأنه مالك، فلأن تمتنع عن أكله اغتصاباً، أو احتيالاً، أو قهراً فمن باب أولى، هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: أيها الإخوة الكرام، أنت حينما تتجرأ، وتأكل مال أخيك فهو سوف يتجرأ، ويأكل مالك، فكأنك مهدت السبيل لأكل مالك، حينما تأخذ من أخيك مالاً من دون حق فقد جرأته أن يأكل من مالك من دون حق، ودخل المجتمع في فوضى كبيرة، لذلك الإمام الشافعي سئل من قِبل أحد الشعراء:

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وُدِيَتْ   ما بالها قُطِعَتْ في ربع دينار

فأجاب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذلّ الخيانة فافهم حكمة الباري

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

المعنى الثاني، حينما يقول الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

أي إنكم إن أكلتم أموال إخوانكم تجرؤوا على أكل أموالكم، ودخل المجتمع في فوضى، من هذا المنطلق يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة النساء: الآية 29]

أي إذا قتلت أخاك فلابد من أنْ تقتل بسبب هذه الجريمة، فكأنك قتلت نفسك:

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

[سورة الحجرات: الآية 11]

أي لا تحقر أخاك، إنك إن حقرته فسوف يحقرك، لا تأكل مالك، أي لا تأكل ماله، لأنك إن أكلت ماله فإنه سوف يأكل مالك، هذا هو المعنى الثاني:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

المعنى الثالث: أخوك إن شئت في الإنسانية، وإن شئت في الدين، وإن شئت في الوطن، هذا أخوك، إن قوي قويت معه، وإن ضعف ضعفت معه، فإن أضعفته بأكل ماله فأنت ملزم في النهاية أن تعينه حين يضعف، فلا معنى أن تأكل ماله، فيغدو ضعيفاً، فيبحث عن كسب غير مشروع، فيقلقك، إنك ضعفت نفسك بأكل ماله، وهذا المعنى دقيق جداً، متعلق بالتكافل الاجتماعي، أنت حين تأكل ماله تضعِفه، فإذا أضعفته كان عبئاً عليك، وربما أكل مالك، إذا أضعفته ربما سلك مسلكاً غير مشروع من أجل أن يعيش، فحينما تأكل مال أخيك تضعفه، وحينما تضعفه سوف يقلقك، وسوف تضطرّ في النهاية أن تؤمِّن له حياته، وهذا المعنى كما قلت قبل قليل متعلق بالتضامن الاجتماعي.

المعنى الرابع: أيها الإخوة، الحقيقة:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

الله أراد أن يكون للأمة بمجموعها سلطة على هذا المال، مادمت تكسبه حلالاً، ومادمت تنفقه في طرق مشروعة، فهو مالك، أما حينما تبذره في المعاصي والآثام، أو حينما تنفقه سفهاً بطراً، حينما تتلفه فلابد للأمة من أن تحجر على تصرفاتك، لأنك بهذا تبدد مالاً لابد للأمة أن تنتفع به في النهاية، فهذا المعنى الرابع يشير إلى أن الأمة بمجموعها لها سلطان على هذا المال، بمعنى أنك إذا أنفقته في وجوه المشروعة فلا شيء عليك، أما حينما تنفقه إسرافاً وتبذيراً، أو حينما تتعامل مع المال بتعسف شديد عندئذ لابد للأمة من أن تتدخل، وأن تأخذ منك هذا المال الذي لم تنفقه في الوجه الصحيح، ذلك أن أحد الصحابة الكرام يقول: " حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي "، بل إن القرآن الكريم أشار إلى أن المال قوام الحياة.

أيها الإخوة الأحباب، معنىً آخر، حينما قال الله عز وجل:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

الحقيقة أن المجتمع حينما يضمن للإنسان أن يقطف ثمار عمله فإن الحياة تتوسع، وإن الاقتصاد يتنامى، وإن الأمور تجري بوسع، عندئذ ينتعش المجموع، حينما نضمن لكل إنسان أن يكسب مالاً مشروعاً، وأن نضمن له ثانية أن يقطف ثمار جهده، عندئذ ينطلق الناس إلى الأعمال، بدل أن يكون المال عن طريق المال يكون المال عن طريق الأعمال، وفرق كبير بين أن يلد المالُ المالَ، وبين أن تلد الأعمال المال، إن المال إذا ولد المال تجمع في أيدي قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة، أما إذا ولدت الأعمال المال توزع بين الناس.

المعنى الأخير السادس فيما أذكر:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

أي احرصوا على أن تضمنوا لكل إنسان أن يقطف ثمار عمله، إذا قطف ثمار عمله تفوقت الأمة، ونما اقتصادها، وعاش الناس في بحبوحة.

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

ما هو الباطل ؟

أيها الإخوة الكرام، هناك حقيقة جامعة مانعة، المال الحرام هو مال أساسه أن منفعة نالها إنسان بُنِيَتْ على مضرة، وأوضح مثلٍ لها السرقة، السارق أخذ مالاً من دون تعب، والمسروق بذل جهداً كبيراً، وضاع المال، فحينما تبنى منفعة على مضرة فالمال حرام.

ومنه القمار، ومنه الربا، كل مال يبنى على مضرة يعد كسبه حراماً، وهذا أصل في كسب المال الحرام، أما كل منفعة متبادلة بين اثنين فالمال بهذا المعنى كسب حلال.

المضاربة، لو أن إنساناً لا يحسن أن يستثمر ماله، وإنساناً آخر يحسن استثمار المال، ولا يملك المال، فتعاون الأول مع الثاني، وكان الربح بينهما، فهذه منفعة متبادلة، نال صاحب المال ربحاً، وأصاب صاحب الجهد ربحاً.

إذاً حينما يبنى الكسب على منفعة متبادلة فهو الكسب الحلال، وحينما يبنى الكسب على منفعة أساسها مضرة فهو الكسب الحرام.

أيها الإخوة، سيدنا عمر رضي الله عنه قال مرةً لأحد ولاته: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً، فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، قال: يا هذا، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

أيها الإخوة الأحباب، كلمة } بَيْنَكُمْ { لابد من وقفة سريعة، التصميم الإلهي للمال أن يكون متداولاً بين مجموع أفراد الأمة، فإذا كان معظمه في أيد قليلة، وأقله في أيدٍ كثيرة وقع الاختلال، لذلك يقال في بعض الإحصاءات: إن عشرة بالمئة من سكان الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثرواتها، هذا خلل في الكسب، وفي الإنفاق، يسبب ما تعانيه البشرية اليوم من مآسٍ لا تنتهي.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (12-20) : ولا تتمنوا ما فضل الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

في سورة النساء آية كريمة هي قوله تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة النساء: الآية 32]

في هذه الآية توجيه دقيق وعميق وشمولي لكل أفراد المجتمع، ذلك أن الإنسان أيها الإخوة كما قلت في حلقة سابقة مخير، والاختيار أساس التكليف، وأنت مخير فيما كلفت، ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً .

أيها الإخوة، لأن الإنسان مخير فكل حظوظه في الدنيا حيادية، وأنا أشدد مرة ثانية على كلمة حيادية، المال حظ، والجمال حظ، والقوة حظ، والذكاء حظ، وإن الله يعطي الصحة والجمال والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

فالحظوظ مع تفاوتها هي في الأصل وزعت في الدنيا توزيع ابتلاء، الله جعل هذه الدنيا دار ابتلاء، قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30))

[سورة المؤمنون: الآية 30]

وقال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: الآية 2]

إنها دار ابتلاء، والآخرة دار جزاء، إن الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف، فنحن في دار الابتلاء، فالحظ الذي آتاني الله إياه هو مادة ابتلائي، أي مادة امتحاني، أُعطيتُ المال، فامتحانك في المال، فإذا أُعطيتَ المال، هل أنت متواضع ؟ هل تنفقه بسخاء ؟ هل تنفقه في الوجوه المشروعة ؟ هل تعتقد أن الله مكنك في الأرض بهذا المال ؟ فينبغي أن تجعله أداةً لرخاء المجتمع، أنت ممكن في الأرض بهذا المال، لك حساب خاص، حسابك الخاص أن تبتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة، أن تجعل من هذا المال أداة خير لمن حولك، أنت ممكن بالذكاء، هل تجعل هذا لخدمة الخلق، أم لأخذ أموالهم بالباطل ؟ هل

تجعل هذا الذكاء لنشر الحق، أم لنشر الباطل ؟ أنت ممتحن بالذكاء، أنت ممتحن بالقوة، هل هذه القوة تجعلها قوةً غاشمة تعتدي بها على الخلق، وتقهر بها الضعفاء، أم أن هذه القوة مع الحق والعدل ؟

الحظوظ التي يمنحك الله إياها مواد امتحانك مع الله، إما أن ترقى بها إلى أعلى عليين، وإما أن تهوي بها إلى أسفل سافلين، إذاً هي حيادية، الحظوظ حيادية وزعت في الدنيا توزيع ابتلاء، أنت مبتلى فيما أعطيت، مبتلى فيما أخذ منك، إن هذه الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، فالرخاء مؤقت، ولم يحزن لشقاء، والشقاء مؤقت، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي .

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، لو افترضنا افتراضاً أن إنسانيين عاشا عمراً واحداً، امتحن الأول بالغنى، فرسب، وامتحن الثاني بالفقر، فنجح، وماتا، واحد في الجنة إلى أبد الآبدين، وواحد في أشد العذاب .

إذاً العبرة في هذه الحياة الأبدية التي نحن مقبلون عليها الخسارة الحقيقية، أن تخسر الحياة الأبدية، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له .

أيها الإخوة الكرام، الحظوظ مواد امتحانك، إن كانت إيجابية، أي فيما نلت منها، أو كانت سلبية فيما حرمت منها، هي مواد امتحانك مع الله، فحينما تنجح في امتحانك، ولو كان الامتحان سلبياً فزت بجنة عرضها السماوات والأرض، والتي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

أيها الإخوة، شيء آخر، الشهوات التي أودعها الله في الإنسان حيادية، يمكن أن تكون سلماً نرقى به، أو دركات نهوي به .

إذاً خصائص الإنسان كلها حيادية، الحظوظ حيادية، الشهوات حيادية، خصائص الإنسان كلها حيادية، من هذه الخصائص موضوع هذه الحلقة، التمني .

الإنسان يتمنى ما عند الآخرين، يرى قصراً جميلاً، يتمنى أن يكون له، يرى مركبةً فارهة يتمنى أن تكون له، فحينما يتمنى الإنسان ما عند الآخرين فهذه خصيصة فيه، هي حيادية، يمكن أن ترقى بها إلى أعلى عليين، ويمكن أن تهوي بها إلى أسفل سافلين، سمِّها إن شئت الغيرة، سمّها إن شئت التمني، سمّها إن شئت الحسد، سمّها إن شئت الغبطة، على كلٍّ أن تتشوق لما عند الآخرين هذه خصيصة في كل إنسان، كائناً من كان، لماذا فطرنا عليها ؟ أصل التصميم أن تتمنى ما عند الآخرين من خير الآخرة، أن ترى إنساناً طلب العلم الشرعي، إنساناً فهم كتاب الله، إنساناً له أعمال طيبة كثيرة، ينبغي أن تغار منه، تتمنى أن تكون مثله، هذا الوجه الإيجابي لخصيصة الغيرة، أما حينما ترى ما عند الناس من عرض الدنيا، وتتمنى أن يكون هذا لك هذا الوجه السلبي لخصيصة الغيرة والتمني .

أيها الإخوة الكرام، حينما ترى على أخيك نعمةً، وتتمنى أن تتحول منه إليك فهذا هو الحسد بتعريفه الدقيق، بل هذا هو الحسد في الدرجة الأولى، أما حينما تتمنى أن يتحول هذا الخير إلى غيره دون، أن يصل إليك، فهذه درجة أشد من الأولى، أما حينما تسعى بكلتا يديك، حينما تكتب، حينما تهمس من أجل أن ينصرف الخير عن أخيك، فهذا هو الحسد بدرجته الكبيرة، المشكلة أن الحسد ينبع من تمنٍّ، تمنيت عرض الدنيا، وتمنيت أن توقع الأذى بأخيك، هذا هو الوجه السلبي، أما حينما ترى إنساناً متفوقاً في العلم، متفوقاً في العمل، يتمتع بخلق عظيم، له باع طويل في خدمة الخلق، رفعه الله سبحانه وتعالى إلى مكان عالٍ، وتتمنى أن تكون مثله دون أن تنصرف النعمة عنه فهذه هي الغبطة، وقد استعمل النبي عليه الصلاة والسلام كلمة الحسد مكان الغبطة لحكمة دقيقة جداً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ))

[البخاري، أحمد]

معنى ذلك أن الإنسان حينما يتمنى الخير هذا الوجه الإيجابي للتمني، هذا الوجه الإيجابي لخصيصة الغيرة التي في الإنسان، الآن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة صمم الجنس البشري ذكراً وأنثى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)

[سورة الحجرات: الآية 13]

الذَّكَر خصه الله بخصائص عقلية ونفسية واجتماعية وجسمية هي كمال للمهمة التي أناطها الله به، وخصص المرأة بخصائص نفسية واجتماعية وجسمية وفكرية هي كمال للمهمة التي أناطها الله بها، لكن حينما نقرأ آيات القرآن الكريم نشعر أن الرجل مساوٍ للمرأة، وأن المرأة مساوية للرجل في أشياء كثيرة، في التكليف، هي مكلفة أن تؤمن كما هو مكلف، ومكلفة أن تسلم كما هو مكلف، ومكلفة بما أمرها الله به كما هو مكلف، فهما متساويان في التكليف و أي آية قرآنية موجهة إلى الذكور موجهة حكماً إلى النساء، المرأة و الرجل متساويان في التكليف، وهما أيضاً متساويان في التشريف، هي مشرفة كما هو مشرف، لها عند الله مكانة كما له عند الله مكانة، يمكن أن ترقى إلى أعلى عليين كما يمكن أن يرقى إلى أعلى عليين، يمكن أن تدخل الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين، كما يدخل هو مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ورد في بعض الأحاديث، يقول عليه الصلاة والسلام:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني، تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهم))

تنازع رسول الله دخول الجنة، لذلك المرأة مشرفة كما أن الرجل مشرف، الله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: الآية 97]

يقول الله عز وجل:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

[سورة آل عمران: الآية 195]

بل إن في السيرة النبوية ملمحاً رائعاً، هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة، ودعاه أهل مكة إلى أن يستضيفوه، ماذا قال ؟ فيما تروي بعض الروايات قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، وركز لواء النصر أمام قبرها، ليشعر العالم كله أن لهذه المرأة البطلة نصيب في هذا الفتح المبين، كانت سنده من الداخل، كانت وراءه في كل مواقفه وبطولاته .

أيها الإخوة الأحباب، المرأة مساوية للرجل في التكليف، مساوية له في التشريف ، مساوية له في المسؤولية، صديقة النساء كانت امرأة فرعون، قال الله عز وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

[سورة التحريم: الآية 11]

أي فرعون بجبروته وطغيانه وقوته وادعائه الألوهية لم يستطع أن يقنع زوجته بما يقول للناس، إذاً دين المرأة مستقلّ عن دين زوجها، لو أمرها بمعصية ينبغي أن تقول لا، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فالمرأة مساوية للرجل في التكليف وفي التشريف، وفي المسؤولية، ولكن يقول الله عز وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: الآية 36]

لكل نوع من الجنس البشري خصائص هي كمال له، وحينما جعل الله الرجل سكناً للمرأة، أي يكمل بها نقصه، وتكمل به نقصها، إنهما متكاملان، وليسا متشابهين، خصائصها الفكرية والجسمية والعقلية والاجتماعية كمال رائع للمهمة التي أوكلت إليها، وخصائصه الفكرية والجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية كمال رائع للمهمة التي أناطها الله به، حينما نتجاهل هذه الفوارق، وحينما تختلط الأوراق نقع في فساد عريض .شيء آخر، فالمرأة مساوية للرجل في التشريف والتكليف والمسؤولية،

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

بمعنى أن لكل منهما خصائص، لو أن امرأة تمنت أن تكون رجلاً ما الذي يحصل ؟ تتشبه بالرجال، فيقع الفساد في الأرض، تتشبه في ثيابها، وفي مشيتها، وفي حركتها، وقد ذكر بعض العلماء أنه من

علامات اقتراب الساعة أن يُنزع الحياء من وجوه النساء، وأن تذهب النخوة من رؤوس الرجال، فلا نخوة في رؤوس الرجال، ولا حياء في وجوه النساء .

هذا هو اختلاط الأوراق الذي ذكرته قبل قليل .

أيها الإخوة، حينما تتمنى المرأة أن تكون رجلاً فلا بد من أن تتشبه بالرجال، والتشبه بالرجال في نصوص السُّنة المُطهَّرة من أكبر الكبائر، وحينما يتمنى الرجل أن يتشبه بالمرأة فقد خالف منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من الكبائر، ذلك أن الله تعالى جعل لكل جنس من الذكور والإناث وسائل يرقى بها إلى أعلى درجات الجنة، وهذا مضمون قوله تعالى:

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)

[سورة النساء: الآية 32]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حُسْن تبعُل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ مَاتَ، وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ))

لمرأة حينما تُحسن رعاية زوجها وأولادها فهي في مرتبة المجاهد في سبيل الله، لأن المرأة إذا حافظت على أنوثتها، وحافظت على مكانتها التي منحها الله إياها، ورعت زوجها وأولادها فهي في أعلى درجات الجنة، إذاً لا ينبغي أن يتمنى كل طرف أن يكون مكان الطرف الآخر، كما لا ينبغي أن يسلك كل طرف سلوك التشبه بالطرف الآخر، عندئذ نقع في فساد عريض في المجتمع:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: الآية 32]

قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: } قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ {))

[ابن ماجه]

أنا أربيهم، مهمتي الأولى تربية الأبناء، وفي بعض البلاد الغربية حينما تقرأ على هوية المرأة أنها سيدة منزل معنى ذلك أنها في أعلى مرتبة، إنها تربي أولادها، من علّم فتاة علم أسرة، إنها تقود أولادها إلى أن يكونوا مواطنين صالحين منضبطين، قالت: إن زوجي تزوجني، و أنا شابة ذات أهل ومال

وجمال، فلما كبرت سني، ونثرت له بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي قال: أنت عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، هو يطعمهم، وأنا أربيهم، هناك أدوار متبادلة، كيف أن الأسرة الأب في العمل، والأم تطبخ، والبنت تنظف، و لابن يأتي بالأغراض، أما في الظهيرة فيجلسون جميعاً على مائدة واحدة، ولهم مكانة عالية جداً فيما بينهم، إذاً أن يتمنى نوع من الجنس البشري أن يكون مكان نوع آخر، وأن يسلك سبيل التشبث به، هذا مما نهى عنه القرآن الكريم، ونهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيِ اللَّه عَنْهمَا قَالَ:

((لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

[البخاري، الترمذي، أبي داود، ابن ماجة، أحمد، الدارمي]

أيها الإخوة الكرام، هناك تمنٍّ بين أفراد النوع الواحد، هذا الذي تفوق في جانب سأل الله بصدق، ودفع الثمن، جاء في البيت الشعري:

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

ما الذي يمنع أن نعدِّل هذا البيت:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

حينما يكون هناك تمنٍّ بين أفراد النوع الواحد فينبغي أن نقرأ هذه الآية:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: الآية 32]

أيها الإخوة الكرام، التفضيل لا يعني الأفضلية، أي أنت حينما يذهب ابنك إلى الجامعة تعطيه مبلغاً من المال أكثر من الذي تعطيه لابنك الذي ذهب إلى الحضانة، المبلغ الكبير الذي أخذه الكبير لا يعني أنه أفضل من الصغير، لكن يقتضي مصروف طالب الجامعة أن يكون أكثر من مصروف طالب الحضانة، فقال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: الآية 32]

هناك نقطة دقيقة في الآية، وهي:

(مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء: الآية 32]

أحياناً طبيب يأتيه مريض في هذا المكان، وفي هذا الظرف، وفي هذا الموقف الطبيب مفضَّل على المريض في علمه، هو الذي يعلم حقيقة هذا المرض، وحقيقة الدواء، المريض مفضول، والطبيب

مفضَّل في هذا الموقف، أما حينما يذهب الطبيب إلى إنسان يعمل في السيارات، ويسأله عن قضية في مركبته، في هذا الموقف الطبيب مفضول، وصاحب هذه الحرفة مفضَّل .

فأنت أيها الإنسان في مواقف كثيرة تكون تارة مفضلاً، ولا يعني أنك أفضل من الذي أمامك، وتكون تارة مفضولاً، قال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)

[سورة النساء: الآية 32]

قد نفهم الآية التمني فيما بين النوع الواحد، أي هذا الذي تفوق في اختصاصه بذل جهداً كبيراً، ما هو فيه له علاقة بكسبه، والكسب اختيار وعمل، فأنا حينما أقرأ هذه الآية أتمنى على كل أخ كريم أن يقتنع أن الله سبحانه وتعالى أعطى كل إنسان ما يستحق، أي أعطاه ما يناسبه أيضاً .

هناك قصة أخرى أيضاً، أن سيدنا شعيب حينما أرسل ابنته، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26))

[سورة القصص]

قال علماء التفسير: ما الذي يلفت نظر الرجال بالنساء ؟ قالوا: الحياء، وما الذي يلفت نظر النساء بالرجال ؟ قالوا: القوة والأمانة:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26))

[سورة القصص: الآية 26]

سُقت هذه القصة القرآنية لأؤكد أن التفضيل لا يقتضي الأفضلية، لكن الله سبحانه وتعالى أعطى كل إنسان ما يناسبه من الخصائص، ومن الحظوظ، حيث تكون معواناً له على بلوغ دار السلام .

أيها الإخوة الأحباب، ما الحل إذا كان التمني عند الله مذموماً ؟ الحل هو:

(وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ)

[سورة النساء: الآية 32]

الذي أعطاه يعطيك، والذي أكرمه يكرمك، والذي رفعه يرفعك، والذي وفقه يوفقك، والله سبحانه وتعالى رب العالمين .

لا أنسى كلمة قالها سيدنا عمر لسيدنا سعد بن أبي وقاص، وسعد ابن أبي وقاص ما من صحابي من صحابة رسول الله فداه النبي بأمه وأبيه كسيدنا سعد، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ:

((يَا سَعْدُ ارْمِ، فِدَاكَ أبي وَأمِّي))

[متفق عليه]

سيدنا سعد كان إذا دخل على النبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا خالي، مداعباً له، أروني خالاً مثل خالي .

له عند الله وعند رسول الله مكانة عالية جداً، ومع ذلك عثرتُ على نص لسيدنا عمر يقول له فيه: " يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله ، فالخَلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

فبدل أن تحسد ينبغي أن تسأل الله من فضله، الله عز وجل جعل عطاؤه بين أيدي الخلق جميعاً، بشرط أن يسألوا، وأن يعملوا، لا أن يقعدوا دون أن يعملوا، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[الترمذي]

إن الله يحب من عبد أن يسأله ملح طعامه، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها، من لا يدعني أغضب عليه .

قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

[سورة الفرقان: الآية 77]

بدل أن تحسد اسأل الله من فضله، وليكن سؤالك مرتبطاً بالعمل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19))

[سورة الإسراء: الآية 19]

الله جعل عطاءه مرتبطًا بالعمل، وجعل عطاءه مرتبطاً أيضاً بالسعي:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

[سورة التوبة: الآية 105]

أما التمني:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: الآية 123]

فالتمنيات مضائق الحمقى .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يُلهمنا الرشد والصواب، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (13-20) : حلاوة الإيمان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

أيها الإخوة الكرام، هذا حديث مهم جداً في علاقة المؤمن مع ربه، فالنبي عليه الصلاة والسلام ذكر حلاوة الإيمان، وقد وردت هذه الكلمة في أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأنما يقابل هذه الكلمة حقائق الإيمان، هناك حلاوة الإيمان، وهناك حقائق الإيمان، فأي إنسان أودع الله فيه عقلاً يمكن أن يدرك حقائق الإيمان، ولكن حلاوة الإيمان لها ثمن، وربما كان ثمنها باهظاً، لكن النتائج باهرة.

حلاوة الإيمان هي في الحقيقة ثمرة الإيمان، ذلك أن العبادة في أدق تعاريفها، طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أي إن العبادة غاية الخضوع لله عز وجل، وغاية الحب، فمن أطاع الله، ولم يحبه فما عبده، ومن أحبه، ولم يطعه فما عبده، إذ إن حلاوة الإيمان هي ثمرة العبادة، فالعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، في هذا التعريف الدقيق جانب معرفي، وجانب سلوكي، وجانب جمالي، فالجانب السلوكي هو الأصل، ما لم يستقم الإنسان على أمر الله، ما لم يلتزم، ما لم يكن له موقف، ما لم يطبق ما أمر، ما لم ينته عما عنه نهي وزجر، ما لم يتحرك:

(وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: الآية 72]

الأصل في التدين الصحيح أن يلتزم الإنسان الأمر والنهي، من مشى على وجه الماء، ومن طار في الهواء، ولم يكن عند الأمر والنهي فهذا الذي يتحدث الناس عنه لا قيمة له إطلاقاً، الولي كل الولي الذي تجده عند الأمر والنهي، أن يجدك الله حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فالأصل في العبادة الطاعة، والأصل في العبادة الطاعة الطوعية، ولكن لن تستطيع أن تحمل نفسك على طاعة الله إلا إذا عرفته، فأصل الدين معرفته، وهذه الأفكار تحدثت عنها قليلاً، بينما ثمرة العبادة تلك السعادة التي يشعر بها المؤمن، والتي تملأ قلبه اطمئناناً، ورضى، وتفاؤلاً، والتي تشعره أنه قريب من الله عز وجل، والتي تطمئنه على مستقبله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: الآية 51]

هذه الحلاوة حلاوة الإيمان هي ثمرة الإيمان، الثمرة جمع، يعرفونه، فيطيعونه فيسعدون بقربه في الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة الأحباب، حلاوة الإيمان ثمرة الإيمان، الهدف الأكبر من الإيمان، وهذا الإيمان له هدف في الدنيا، وله هدف في الآخرة، في الآخرة تدخل جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال بعض العارفين:

فلو شاهدت عيناك من حسننـا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

و لو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

و لو نسمت من قربنا لك نسمة لمـت غريباً و اشتياقا لقربنـا

أيها الإخوة الأحباب، حلاوة الإيمان، وحقائق الإيمان، يمكن أن نشبه حقائق الإيمان بخارطة دقيقة مبنية على علم دقيق لقصر منيف، وإنسان لا يملك كوخاً، لكنه يملك هذه الخرائط، في كل هذه الخرائط تفاصيل دقيقة عن حجم القصر، وعن طوابقه، وعن اتساع الغرف، وعن حدائقه، وعن إطلالاته، ولكنه حبر على ورق، هذه حقائق الإيمان يدركها كل إنسان، ولكن حينما تذوق حلاوة الإيمان فكأنك سكنت في هذا القصر، وملكته، فرق كبير وبون شاسع بين أن تدرك حقائق الإيمان و أن تتذوق حلاوة الإيمان، لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة، عَنْ الْعَبَّاس بْن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا))

[مسلم، الترمذي، أحمد]

أيها الإخوة، أنت حينما تتصل بشيء من خلق الله عز وجل، ولو كان طعاماً، أو فاكهة، أو منظراً جميلاً، أو وردة رائعة، إنك تتصل عن طريق الحواس، عن طريق العينين، أو عن طريق الأذنين، أو عن طريق اللمس، ما الذي حصل ؟ ما هي المتعة ؟ هي اتصال إنسان بمخلوق منحه الله جل جلاله مسحة من جمال، ذلك أن الإنسان في الأصل فطر على حب الجمال، وعلى حب الكمال، وعلى حب النوال، الإنسان حينما يتصل بمخلوق منحه الله مسحة من الجمال يسعد بهذا الاتصال، فكيف إذا اتصل بأصل الجمال، كيف إذا اتصل بخالق السماوات والأرض ؟ كيف إذا اتصل بمبدع الكون ؟ كل ما تراه عينك من جمال إنما هو أثر من جمال الله عز وجل، من هنا نفهم قول النبي عليه الصلاة و السلام:

((... إنّي أبيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي)).

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

من هنا نفهم قول بعض العلماء: " في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة "، هذا المعنى تؤكده الآية الكريمة:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

[سورة محمد: الآية 6]

من هنا نعلم ما ينتاب المؤمن إذا دخل إلى بيت من بيوت الله، و كيف أن الرحمة تتنزل على قلبه، من هنا ندرك حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ يَشْهَدَانِ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغَشَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[الترمذي، ابن ماجه]

هذا الجانب الجمالي الذي يشعر به المؤمن، والذي يكاد يطير به من الفرح حينما يكاد يتنزل على قلبه سكينة من عند الله، هذا الجمال الذي يحرص عليه المؤمن، هو الذي يجعله بطلاً، إن حلاوة الإيمان شيء نفيس جداً، إنها ثمرته الحقيقية، قد تدرك أمر الله التكليفي، قد تعلم علم مخلوقاته، علم الكون، ولكن لا تذوق حلاوة الإيمان، وقد تتعلم علم الأمر والنهي، ومع ذلك لا تذوق حلاوة الإيمان، ولكن إذا عرفت الله سبحانه وتعالى، واتصلت به ذقت حلاوة الإيمان، لذلك يمكن أن نفهم ما قاله بعض الملوك الذين انقطعوا إلى العبادة، وعرفوا الله عز وجل، فقال أحدهم: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".

الحقيقة أن الذي يفتقده الناس في العصور المتأخرة هي حلاوة الإيمان، هذه المرأة الأنصارية التي ذاقت حلاوة الإيمان، وبلغها أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قُتل في أحد، ذهبت لتطمئن عليه، رأت في الطريق زوجها قد قُتل، فقالت: لا ضير، إلا أن وقعت عينها على رسول الله e، فقالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، ذاقت حلاوة الإيمان، فآثرت هذه الحلاوة على كل شيء، ليس معنى ذلك أن زوجها لا قيمة له عندها، إنها رأته قد استشهد، لكنها كانت تريد أن تطمئن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما يذوق الإنسان حلاوة الإيمان، وهو في ساحة المعركة، ويصاب بجرح بليغ يكاد يودي بحياته، ويطلب الماء، فيأتي من يسقيه، فيسمع أنين أخيه إلى جواره، فيقول: اسق أخي، لعله أشد حاجة إلى الماء مني، الثاني يسمع أنيناً ثالثاً، يؤثِر أخاه الثالث، فيجده الساقي قد مات، فيعود إلى الثاني، فيجده قد مات، ويعود إلى الأول فيجده قد مات.

أيها الإخوة الأحباب، حلاوة الإيمان تجعل من الإنسان بطلاً، حلاوة الإيمان تجعل الإنسان يواجه الشدائد بعزم وثبات منقطع النظير، حلاوة الإيمان تحمل الإنسان على البذل، الذي ذاق حلاوة الإيمان يبني حياته على البذل، يرتاح للعطاء يعطي، يسعد إذا أعطى، ألم يقل الله عز وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

[سورة الليل]

ما الذي يؤكد في المؤمن إيمانه ؟ الذي يؤكد في المؤمن إيمانه حبه للعطاء، لأنه ذاق طعم القرب، هذا الجانب الجمالي الذي حينما يفتقده الإنسان يغدو الدين ثقافة ليس غير، يغدو الدين أفكاراً تتوارد إلى ذهنه، أما إذا ذقت حلاوة الإيمان عندئذ تعرف حقيقة ما فعله الصحابة الكرام حينما فدوا رسول الله بأنفسهم وأرواحهم، ألم يسأل أبو سفيان أحد الصحابة الذين أرادوا أن يقتلوه: يا خبيب، أتحب أن يكون محمد مكانك، وأنت في أهلك ؟ فقال خبيب: و اللهِ لا أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً صلى الله عليه وسلم.

مظاهر الدين صارخة في هذه الأيام، ولكن هذا الحب الذي كان يملأ أصحاب رسول الله، وقلوب التابعين، وقلوب تابعي التابعين، وقلوب العلماء العاملين، هذا الحب الذي يجعل من الإنسان بطلاً، هذا الحب الذي يدفعك إلى التضحية، يدفعك إلى مقارعة الأعداء، هذا الحب الذي يملأ القلب طمأنينة وسعادة ورضى وتفاؤلاً واستبشاراً، هذه حلاوة الإيمان، وكما بينت في المثلين السابقين أن هناك فرقًا كبيرًا بين أن تملك خارطة قصر، وأنت تسكن في مداخل الأبنية، وعلى كراسي الحدائق، ولا تملك كوخاً، وبين أن تتملك هذا القصر، وأن تسكنه، حلاوة الإيمان تجعل الإيمان يتنامى في الإنسان، أما حقائق الإيمان فقد تدركها، وقد تنساها، وتعيش واقعاً آخر.

أيها الإخوة الكرام، حلاوة الإيمان لها ثمن، هل يعقل أن يتاح لإنسان أن يصف نفسه بلقب علمي دون أن يدرس السنوات الطويلة من أجل أن يوضع إلى جانب الاسم كلمة دكتور ؟ كم سنة يدرس من حصّل هذه الدراسة ؟ أتريد أن تكون الجنة بلا ثمن ؟ ألا إن سلعة الله غالية، من طلب الجنة من غير عمل فقد وقع في ذنب آخر.

أيها الإخوة، حلاوة الإيمان، وقد تحدثت عنها قليلاً، وليس من ذاق كمن سمع، حلاوة الإيمان لها ثمن، ثمنها ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: يقول عليه الصلاة والسلام:

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

وقد يفهم هذا الكلام النبوي الشريف فهماً بسيطاً سطحياً، لو سألت كل المسلمين في العالم: ألا تحبون الله ورسوله أكثر من أي شيء آخر ؟ لقالوا: نعم، أظن أن المعنى ليس هذا، أن يكون الله في قرآنه، أي في أوامره، في نواهيه، في منهجه، وأن يكون الرسول e في سنته الصحيحة أحبَّ إلى الإنسان مما سواهما عند التعارض، أي حينما تتعارض مصلحتك المادية، أو مصلحتك المتوهمة، أو مصلحتك القريبة مع الحكم الشرعي، مع النص الشرعي، مع الأمر الإلهي، مع النهي الإلهي، تضحي بمصلحتك الموهومة أو القريبة، وتلتزم طاعة الله عز وجل، وتقول: إني أخاف الله رب العالمين، فقد دفعت حينئذٍ ثمناً باهظاً، وضعت مصلحتك المتوهمة، أو وضعت مصلحتك المادية تحت قدمك، وأردت أن ترضي الله عز وجل، فحينما تتعارض حاجاتنا وشهواتنا ومصالحنا مع الأحكام الشرعية، ونؤثر الأحكام الشرعية، ونؤثر طاعة الله عز وجل، ونسير في رضاه دفعنا ثمناً باهظاً، عندئذ تتنزل علينا رحمة الله، عندئذ تتنزل علينا سكينة الله، عندئذ نذوق حلاوة الإيمان، ومن ذاق عرف، كما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة و ليتك ترضى و الأنام غضاب

وليت الذي بيني و بينك عامر و بيني و بين العالمين خراب

وليت شرابي من ودادك سائغ و شربي من ماء الفرات سراب

أيها الإخوة الكرام، الثمن الأول لحلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله، أي أن يكون أمر الله في قرآنه، وأن يكون أمر رسوله في سنته أحب إلى المؤمن مما سوى ذلك، من مصالحه ونزواته وشهواته ورغباته، وما يحب أن يفعله.

أيها الإخوة، لهذا الحديث أصل كبير في القرآن الكريم، الله جل جلاله يقول، وهي آية في سورة التوبة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

[سورة التوبة: الآية 24]

معنى الآية أيها الإخوة، أي إذا آثر الإنسان إرضاء أبيه في معصية الله، أو آثر أن ينبت لحم ابنه من الحرام كي يراه في صحة جيدة، و في مكان عالٍ:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ)

[سورة التوبة: الآية 24]

أي حينما تؤثروا أحداً من هؤلاء، حينما ترضي أحداً من هؤلاء في معصية الله، حينما تؤثر هؤلاء على طاعة الله:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا)

[سورة التوبة: الآية 24]

أي تجارة فيها شبهات، بضاعة محرمة، سلوك في العمل التجاري لا يرضي الله عز وجل، حينما تؤثرون أهواءكم، و مصالحكم على طاعة ربكم:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

[سورة التوبة: الآية 24]

قد تكون التجارة مبينة على معصية، وقد يكون في بعض أنواع التجارة إفساد للشباب، وإفساد للمجتمع، فأي تجارة محرمة، أو أي عمل في تجارة محرم معنى ذلك أنك آثرت هذه التجارة، وتلك الأرباح، وهذه الصفقة على طاعة الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

[سورة التوبة: الآية 24]

أذكر أنني قرأت عن صحابي جليل طلبت منه زوجته مطالب كثيرة، لا يملك ثمنها، فلما ألحت عليه قال: " اعلمي أيتها المرأة، أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها، نور الشمس و القمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلك ".

كانت الصحابية الجليلة تقف مودعة زوجها، تقول: " اتق الله، فإننا نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام "، بينما المرأة الغافلة والجاهلة تضغط على زوجها حتى تحمله على كسب المال الحرام، فتكون سبب شقائه في الدنيا والآخرة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24))

[سورة التوبة: الآية 24]

أي كأن الطريق إلى الله ليس سالكاً، ذلك لأن الإنسان حينما آثر مخلوقاً، وعصى خالقاً صار الطريق إلى الله مغلقاً.

نحن نقول دائماً أيها الإخوة في افتتاح صلواتنا وفي الأذان: الله أكبر، ما معنى الله أكبر ؟ الإنسان إذا أطاع مخلوقاً، وعصى خالقاً، إذا أطاع زوجته في معصية الله إرضاء لها، وعصى الذي خلقه من عدم، إذا أطاع مخلوقاً، وعصى خالقاً، إذا غش المسلمين في بضاعتهم، أي رأى أن الربح الذي يأتي من الغش أثمن من طاعة الله عز وجل، هذا الإنسان ما قال الله: أكبر، ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة.

أيها الإخوة الأحباب، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، أن يكون أمر الله في قرآنه، وأمر نبيه في سنته أحب إليه مما سواهما.

أيها الإخوة، دائماً هناك قواعد وقوانين تستنبط من حركة الحياة، أنا أقرض إنساناً، القرض إن كان ربوياً يعود المبلغ مع الزيادة، وإن كان قرضاً حسناً يعود بلا زيادة، ومع التضخم النقدي يغدو القرض خسارة، فهذا القانون العلمي المستنبط من حركة الحياة، والذي تحكمه الآلات الحاسبة يؤكد أن القرض الربوي أفضل من القرض الحسن، ولكن الله عز وجل يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 276]

ما معنى ذلك ؟ لو وجدت قانوناً، أو قاعدة مستنبطة من حركة الحياة، أنت حينما تؤثر طاعة الله عز وجل يخضعك الله لمنظومة قوانين لا يعلمها معظم الناس، قوانين العناية الإلهية يؤكدها قول الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 276]

هذا البند الأول، الثمن الأول.

الثمن الثاني:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

هذا هو الولاء والبراء، أن تحب المؤمنين، أن تحمل همومهم، أن تدافع عنهم، أن تخفف عنهم المصاب، أن تنتمي إليهم، أن تقدم لهم كل ما في وسعك، أن تعتز بهم، وأن تتبرأ من الكفار والمشركين الذين أرادوا أن يوسعوا دائرة الشر.

أيها الإخوة الأحباب،

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّار))

هو في الأعماق، هو لا يعبد الله على حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، هو يعبد الله في الأعماق،

((واللهِ يا عمُّ، لو وضعوا الشمس في يميني، و القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

أيها الإخوة الأحباب، هذا حديث دقيق جداً، وأصل من أصول الدين، لا تقطف ثمار الدين إلا إذا ذقت حلاوة الإيمان، ولا تذوق حلاوة الإيمان إلا إذا دفعت ثمن حلاوة الإيمان، أن تؤثر طاعة الله على مصالحك، وأن يكون ولاؤك للمؤمنين، وأن تكون في الأعماق، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (14-20) : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

محور هذا اللقاء الطيب إن شاء الله تعالى قوله تعالى في سورة النساء:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (36))

[سورة النساء: الآية 36]

أيها الإخوة الكرام ،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

آية ثانية:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء: الآية 23]

معنى ذلك أن العبادة لله وحده ، وأن الإحسان إلى الخلق لا العكس ، العبادة لا تكون إلا لله ، ولا تكون لمخلوق ، كائناً من كان على وجه الأرض ، العبادة لله ، العبادة قاصرة على الخالق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 21]

والإحسان إلى الخلق ، لذلك من أدق الآيات قوله تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31)،)

[سورة مريم: الآية 31]

حركة نحو خالق الكون ، اتصالاً ، وإنابة ، وتوكلاً ، وإخلاصاً ، وحركة نحو الخلق ، إحساناً ، وانضباطاً ، العبادة لله.

أيها الإخوة ، العبادة علة وجودنا ، تصور طالباً أرسله أبوه إلى بلد غربي لينال درجة الدكتوراه ، علة وجوده في هذا البلد الدراسة ، لذلك ينبغي أن تكون كل جزئيات حياته في هذا البلد متعلقة بالدراسة ، يختار البيت القريب من الجامعة ، يختار الصديق الذي يعينه على تعلم لغة البلد ، يختار من الطعام ما يعينه على أداء واجباته الدراسية ، يختار من الكتب ما يزيده ثقافة في اختصاصه ، فكل جزئيات حياة هذا الطالب في هذا البلد منوطة بنيل الشهادة العليا ، علة وجوده ، لو أن إنساناً سافر إلى بلد معين ،

ونزل في أحد الفنادق ، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول ، وسأل: إلى أين أذهب ؟ سؤال عجيب ، قل له أنت: لماذا أتيت إلى هنا ؟ إذا جئت إلى هنا للسياحة فاذهب إلى المقاصف والمتنزهات ، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات ، وإذا جئت طالب علم فاذهب إلى المعاهد والجامعات ، أي إن حركتك في بلد معيّن قد سافرت إليه لا تصح إلا إذا عرفت سبب مجيئك إلى هذا البلد ، إلا إذا عرفت علة وجودك في هذا البلد ، لو كبرنا المثل ، ما علة وجودنا على وجه الأرض ؟

أيها الإخوة ، لا يمكن أن يصح عملنا إلا إذا عرفنا علة وجودنا ، كما أنه لا نسعد إلا إذا جاءت حركتنا مطابقة لهدفنا.

مثلاً لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري ، وقبل أيام من هذا الامتحان أخذه أصدقاؤه إلى مكان جميل ، أطعموه أطيب الطعام ، واستمتع بأجمل المناظر ، هو على مشارف امتحان مصيري ، يبنى على نجاحه تعيينه في وظيفة مرموقة ، ثم زواجه ، لماذا يشعر بانقباض شديد مع أنه في مكان جميل ؟ مع أنه مع أصدقاء يحبهم ، ويحبونه ؟ هذه الحركة نحو المكان الجميل ، ونحو النزهة لا تتناسب مع هدفه.

نستنبط أيها الإخوة من هذين المثالين أن الإنسان لا تصح حركته إلا إذا عرف سر وجوده ، أو علة وجوده ، كما أنه لا يسعد إلا إذا جاءت حركته مطابقة لعلة وجوده أو لهدفه ، نحن في الدنيا من أجل أن نعبد الله ، بالنص القرآني الصريح القطعي الدلالة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات: الآية 56]

ولكن أيها الإخوة ، يفهم معظم المسلمين كلمة عبادة على أنها العبادات الشعائرية كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والنطق بالشهادتين ، هي من العبادات ، هذا التصنيف الفقهي ، الفقهاء صنفوا الإسلام إلى عقائد ، وإلى عبادات ، ويقصدون بها الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وإلى معاملات ، الأحكام الشرعية التعاملية ، وإلى آداب ، العبادة في القرآن معناها غير المعنى التصنيفي للفقهاء ، معناها طاعة الله في كل ما أمر ، قد يفهم الناس أن منهج الله خمسة أوامر ، ثم هو يفصل بين هذه العبادات وبين حياته ، لا ترى في بيته منهج الله مطبقاً ، لا ترى في تجارته منهج الله مطبقاً ، لا ترى في أفراحه منهج الله مطبقاً ، لا ترى في تعامله مع الآخرين منهج الله مطبقاً ، وكأن هذا الإسلام العظيم الذي هو تعليمات الصانع ، الذي هو منهج الخالق ، الذي هو طريق السعادة ، وكأنه ضُغط إلى خمس عبادات قد تؤدى أداء أجوف.فلذلك أيها الإخوة ، حينما يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

أي إن علة وجودكم هي عبادة الله ، والعبادة تشمل الأحوال كلها ، ذلك بأنه ما من شيء تتعامل معه في الحياة إلا وتحكمه الأحكام الفقهية ، قد يكون فرضاً ، وقد يكون واجباً ، وقد يكون سنة ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً كراهة تنزيهية ، وقد يكون مكروهاً كراهة تحريمية ، وقد يكون محرماً ، فالأحكام الفقهية تعتبر كل شيء ، تتعامل معه في الأرض ، عبادة الله تعني غاية الخضوع لله في كل أوامره.

اسمحوا لي أن أقول: لعل مجموع أوامر الله عز وجل قد تزيد على مئة ألف في كل شؤون حياتك ، في أدق علاقاتك ، في علاقاتك الحميمة ، في بيتك ، في غرفة نومك ، في تربية أولادك ، في قضاء وقت فراغك ، في نزهاتك ، في أفراحك ، في تزويج أولادك ، في كسب مالك ، في حلك في ترحالك ، منهج الله يغطي كل شؤون حياتك ، فالعبادة لا تعني أن نكتفي بالعبادات الشعائرية ، العبادات الشعائرية ثمرة العبادات التعاملية ، وإذا جمعنا العبادات التعاملية من صدق وأمانة وأداء للواجب ، وتواضع وإنصاف، لو جمعنا العبادات الشعائرية مع العبادات التعاملية لكانت في مجملها أوامر الله عز وجل ، فحينما يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

أي ينبغي أن ننصاع لأمره مع محبته.

ولكن أيها الإخوة للعلماء أقوال سديدة في موضوع العبادة ، ينبغي أن تعبد الله فيما أقامك ، إذا أقامك عالماً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى تعليم العلم ، فإذا أقامك غنياً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى إنفاق المال ، وإذا أقامك قوياً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى إنصاف الضعفاء ، وإذا أقامك امرأة ينبغي أن تكون عبادتك الأولى حسن رعاية زوجك وأولادك ، هذه العبادة فيما أقامك ، في هويتك ، في أدق خصائصك ، هناك عبادة أخرى في الظرف الذي وضعك الله فيه ، لك قريب مريض ، لك أب مريض ـ لا سمح الله ـ عبادتك الأولى عنايتك بأبيك ، لك ابن يؤدي امتحاناً ، عبادتك الأولى أن تهيّئ له الجو المناسب لأداء الامتحان ، أن تعبده في الظرف الذي وضعك فيه ، ثم أن تعبده في الزمن الذي أظلك ، فإن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل.

أيها الإخوة الأحباب ، ينبغي أن تكون العبادة في سلم الأولويات على الشكل التالي ، الطرف الآخر إن أراد إفقارنا ـ إفقار المسلمين ـ العبادة الأولى كسب المال الحلال ، وحل مشكلات المسلمين ، أن ننمي ثرواتنا ، أن نصنع حاجاتنا بأيدينا ، أن نكتفي ذاتياً ، إذا كان الطرف الآخر يريد إفقارنا فعبادتنا الأولى كسب المال ، وتصنيع الثروات ، والاكتفاء الذاتي ، سيدنا عمر مر على بلدة فلم يجد أصحاب الفعاليات الاقتصادية من المسلمين ، فقال بنظرة عميقة جداً: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ كأن هذا الخليفة

الراشد رأى أن المنتج قوي ، وأن المستهلك ضعيف ، فحينما يراد لنا أن نفتقر فينبغي أن ننمي وارداتنا، وأن نصنع حاجاتنا ، وويل لأمة تأكل ما لا تزرع ، وتلبس ما لا تنسج.

أيها الإخوة ، وإذا أراد الطرف الآخر إضلالنا فالعبادة الأولى أن نوضح حقائق الدين ، أن نبين دقائق هذا الشرع العظيم ، أن نعطي الأدلة القوية ، أن نرد على كل الشبهات ، والدلالات هي العبادة الأولى إذا أريد لنا أن نضل عن ديننا ، وإذا أريد لنا أن نفسد العبادة الأولى أن نصون أخلاق أبنائنا من كل انحراف وضلال ، وإذا أرادوا أن يجتاحوا أرضنا ينبغي أن نقف مقاومين أشداء ، لأن هذا من الدين ، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: الآية 60]

فصار من معاني العبادة أن تعبده فيما أقامك ، وأن تعبده في الظرف الذي وضعك فيه ، وأن تعبده في الزمان الذي أظلك ، وأن تعبده أيضاً في الظروف البعيدة المحيطة بالمسلمين.

أيها الإخوة الكرام:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

لكن ينبغي أن نعبد الله وحده ، ينبغي أن نعبد الله فيما شرع ، لا وفق أمزجتنا ، ينبغي أن نعبد الله فيما قسم لنا من منهج تفصيلي.

أيها الإخوة الكرام ، لذلك قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

ينبغي أن نعبده ، وينبغي أن نعبده وحده ، وينبغي ألا نعبد أحداً سواه ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

كأن الله أنشأ لنا حقاً عليه

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

أليست عبادة الله فرعاً من وجودك ؟ طبعاً ، من هما سبب وجودك ؟ الوالدان ، لذلك رفع الله الأمر بالإحسان للوالدين إلى مستوى عبادته ،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لعل لعلماء اللغة تعليقات لطيفة: الواو واو عطف ، تقتضي المشاركة ، بمعنى أنك لا تقول: اشتريت بيتاً وملعقة ، لا يتناسبان ، تقول: اشتريت بيتاً وأرضاً ، اشتريت بيتاً ومركبة ، أما اشتريت ملعقة وشوكة ، فكأن الواو فضلاً عن أنها حرف عطف تفيد أن بين المتعاطفين قاسمًا مشتركًا بينهما ، فلذلك:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

هذه الباء عند علماء اللغة باء الإلصاق ، هي حرف جر ، لكن معناها الإلصاق ، أي أن الابن ينبغي أن يكون ملتصقاً بأبيه ، أن يكون معه ، أن يكون كظله ، بل إنك إن أردت أن تبر أباك فينبغي أن تبره بنفسك ، لا بواسطة أحد هذا معنى ،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

بل إن بعض العلماء استنبط من قوله تعالى:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43))

[سورة هود: الآية 43]

أي إن الله سبحانه وتعالى رحمة بالأب ما سمح له أن يرى ابنه وهو يغرق:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43))

[سورة هود: الآية 43]

بل إن العرب قبل الإسلام إن أرادت أن تهجو أحداً تقول له: لا أبا لك ، بل إن الله عز وجل حينما قدم الآباء على غيرهم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ)

[سورة التوبة: الآية 24]

كان هذا تقديم أهمية ، أي إن الإنسان ينبغي أن يعتز بأبيه.

إذاً اللذان كانا سبب وجودك ينبغي أن تحسن إليهما ، قال:

(وَ بِالْوَالِدَيْنِ)

ولم يذكر ما وضعهما ، ولم يذكر التزامهما بالدين ، مطلق الوالدين ، مؤمنين كانا أو غير مؤمنين ، ملتزمين كانا أو غير ملتزمين ، وبالوالدين إحساناً ، والباء تفيد الإلصاق ، أي أن تكون لصيقاً بهما ، أن

تكون معهما ، أن تكون كظلهما ، وإذا أديت لهما خدمة ينبغي أن تؤديها بنفسك إكراماً لهما ، ثم وسع الدائرة فقال

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

كأن في الإسلام تضامناً عظيماً هذا التضامن أساسه القربى ، وأساسه الجوار ، تضامن مكاني ، وتضامن نسبي ، أصل التضامن بين المؤمنين ، أصل التعاون بين المؤمنين ينبغي أن يبنى على علاقة نسبية ، وعلى علاقة جغرافية ، فلذلك قال:

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

النبي عليه الصلاة والسلام يبين أن الإنسان إذا أدى صدقة لأقربائه هي عند الله صدقة وصلة في وقت واحد ، بل إن العلماء يقولون: لا تقبل زكاة مال إنسان مؤمن وفي أقربائه محاويج ، لأن الناس هو لهم، وغيره لهم ، لكن أقرباءه من لهم غيره ، هو يعرفهم ، يعرف مشكلاتهم ، يعرف قضاياهم ، يعرف نقاط ضعفهم ، يعرف حاجتهم إلى المال قال: } وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى { ، وسع الدائرة ، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214))

[سورة الشعراء: الآية 214]

خطاب إلهي لسيد الخلق ، لماذا:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)

لهم حق عليك أولاً ، وليس بينك وبينهم جدار قلق ، ثانياً ، أنت لا تستطيع أن تقول لإنسان لا تعرفه: اذهب معي إلى المسجد ، لكن أخاك تقول له ذلك الكلام ، وهو مطمئن لك ، إذاً ينبغي أن تستغل هذه الصلة بينك وبين أقربائك ، وأن تأخذ بيدهم إلى الله عز وجل ، فالإحسان إلى القربى شيء دقيق جداً ، قد نظنه جهلاً منا ، أن تزوره في العيد ؟ لا ، ينبغي أن تزوره ، وينبغي أن تتفقد أحواله ، أحواله المعيشية أحواله الاقتصادية ، أحواله الاجتماعية ، أحوال أولاده التربوية ، ينبغي أن تأخذ بيده لحل مشكلاته ، ينبغي أن تأخذ به إلى الله عز وجل ، هذه صلة الرحم التي قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام في أنها تزيد في الأجل:

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

أما اليتامى هؤلاء الذين فقدوا الأب ، أو فقدوا الأم ، أو فقدوا الأب والأم معاً ، ولكن الذي يتألم له الإنسان أن يرى طفلاً في حكم اليتيم ، أن ترى له أماً تخلت عنه ، أو أباً مشغولاً ، هناك يتم حقيقي ، وهناك يتم حكمي ، فهذا الذي فقد الرعاية ، وفقد التوجيه ، وفقد الإنفاق ، وفقد العطف ، والحنان يحتاج إلى عطف المجتمع ، فلذلك إن الله يحب كل بيت فيه يتيم مكرم.

أيها الإخوة ،

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...))

[مسلم ، ابن ماجه ، أحمد]

وفي أحاديث يقول:

((اللهم احشرني مع المساكين))

[ورد في الأثر]

والتوفيق بينهما أن الإنسان إذا كان طليق القوة ، وطليق الغنى سالكاً أمامه وفق منهج الله ينبغي أن يكون قوياً ، وينبغي أن يكون غنياً ، ذلك بأن القوة في العلم والغنى هذه تتيح لك أعمالاً صالحة ، لا تعد ولا تحصى ، أي خياراتك في العمل الصالح تزداد إذا كنت قوياً أو غنياً ، إذا كان طريق الغنى أو طريق القوة محفوفاً بالمعاصي فعندئذ ينبغي ألا تعصي الله إطلاقاً ،

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

، المساكين إذا انفردت تعني الفقراء والمساكين ، وإذا انفردت كلمة الفقراء تعني الفقراء أو المساكين ، أما إذا اجتمعا تفرقا ، وإن تفرقا اجتمعا ، فالفقير هو الذي لا يجد حاجته ، أما المسكين فهو الذي ألمت به مصيبة أقعدته عن العمل ، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى)

الجار الذي إلى جانبك لعله قريبك ، له عليك حقان ، لعله جار مسلم ، له عليك حقان ، حق الإسلام ، وحق الجوار ، لعله جار قريب مسلم ، له عليك ثلاثة حقوق ، حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق القرابة ، } وَالْجَارِ الْجُنُبِ { ، مطلق الجار ينبغي أن تحسن إليه ، مطلق الجار ، أي جار كان ، إذا استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن مرض عدته ، وإن مات شيعته ، ولا تستطل عليه بالبناء ، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، و لا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك ، إلا أن تغرف له منه ،

(وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى)

الذي له عليك أكثر من حق ،

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ)

مطلق الجار ،

(وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هذا زميل العمل ، مدرس في ثانوية ، طبيب في مستشفى ، مهندس في مؤسسة ، هذا الجار الصاحب بالجنب ، وقال بعض العلماء: هو الجار الطارئ رفيق السفر أحياناً ،

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

أيها الإخوة الأحباب ، هذه الآية أصل من أصول المعاملات ، ينبغي أن تتجه إلى الله بالعبادة ، وأن تعبده وحده ، وينبغي أن تحسن إلى خلقه وفق هذا الترتيب ، الوالدان قبل كل شيء ، الأقرباء بعد الوالدين ، ثم اليتامى ، فالمساكين ، فالجار ذي القربى ، فالجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل الذي انقطع في الطريق ، ولا يملك ثمن العودة إلى بلده ، وقد نجد طلاباً كثيرين انقطعت بهم الأحوال ، وأقعدهم فقدُ مالهم عن العودة إلى بلادهم هذا مما يقتضي أن نعينهم.

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

لها بحث طويل ، إن شاء الله في لقاء قادم.

أرجو الله سبحانه و تعالى أن ينفعنا بهذه التوجيهات القرآنية ، فعظمة الإسلام أنه نظام اجتماعي في أعظم درجة ، يحقق التكافل الاجتماعي ، إن عن طريق الجوار ، وإن عن طريق النسب ، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (15-20) : أسباب الشقاق الزوجي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات الله عز وجل :


المودة والرحمة بين الزوجين

يقول الله جل جلاله في كتابه العزيز :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الروم : 22]

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

[سورة فصلت: 37]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

[سورة الروم : 21]

فكما أن خلق السموات والأرض آية كبرى دالة على عظمة الله عز وجل ، كذلك أنه خلق من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها ، وجعل بيننا مودة ورحمة ، آية دالة على عظمة الله عز وجل ، الأصل في العلاقة بين الزوجين أن يسكن كل منهما إلى الطرف الآخر ، وأن تكون المودة والرحمة بينهما ، هذا هو الأصل ، والحقيقة أن تماسك الأسرة له دور خطير في تماسك المجتمع ، ونمو الأسرة له أثر واضح في نمو المجتمع ، لذلك الشرائع السماوية دعّمت الأسرة ، وصانتها من الخطر والزلل .

حقيقة الإنسان وأخلاقه تتبدى في بيته :

أيها الأخوة ، ولكن الإنسان العاقل الواعي إذا بدا عن بُعدٍ أن هناك ملامح للشقاق الزوجي ينبغي أن يستعد لمعالجة الخلل ، فقد قال الله عز وجل :

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا)

[سورة النساء: 35]

أي إنه ينبغي أن تكتشف بوادر الشقاق قبل أن يقع ، وهذا من البطولة أن تكتشف الشيء قبل أن تعاينه ، لذلك سيكون موضوع هذا اللقاء الطيب حول أسباب الشقاق الزوجي ، إنه موضوع حيوي ، واجتماعي ، ويمس كل أسرة .

اصعب شيء ان تكون اخلاقيا في بيتك

بداية أيها الأخوة ، النبي عليه الصلاة والسلام جعل خيرية الإنسان داخل بيته ، أصل خيريته العامة ، ذلك أن الإنسان خارج البيت يحرص على مكانته وسمعته ، لذلك يظهر من التصرفات ما هو مقبول عند المجتمع ، أما إذا دخل إلى البيت فلا رقابة ، ولا مسؤولية ، لذلك حقيقة الإنسان وتدينه وأخلاقيته تتبدى في بيته ، من هذا المنطلق قال عليه الصلاة والسلام :

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ، وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

أرأيتم أيها الأخوة أن الإنسان إذا امتحن لينال شهادة سوق القيادة يمتحن في أصعب أطوار القيادة ، فإذا نجح في الشيء الصعب كان السهل عليه سهلاً ، لذلك أصعب شيء أن تكون أخلاقياً في بيتك ، حيث لا رقابة ، ولا خشية ، ولا سمعة ، من هنا أعيد على أسماعكم قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ، وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

أسباب الشقاق الزوجي :

1 ـ الجهل :

إذا حللنا أسباب الشقاق الزوجي هناك أسباب عديدة نحاول في هذا اللقاء الطيب إن شاء الله تعالى أن نشرح بعضها .

يقع في رأس هذه الأسباب الجهل ، فهو أعدى أعداء الإنسان ، فالجاهل عدو نفسه، ويفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، الإنسان انطلاقاً من حبه لوجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، حينما يعلم وسائل سلامته وسعادته يقبل عليها بلا تردد ، أين الأزمة ؟ إنها أزمة

العلم ، حتى أهل النار وهم في النار يقولون :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردت حياة زوجية ناجحة عليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كله ، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً .

أيها الأخوة ، ما من عقد قران وإلا ويقول العاقد : على كتاب الله وسنة رسوله ، فهل عرف الزوجان ما في كتاب الله وفي سنة رسوله من أحكام الزواج ؟ هل عرف الزوج حقوق زوجته وواجباته تجاهها؟ هل عرفت الزوجة حقوق زوجها وواجباتها تجاهه وتجاه أولادها ؟ النبي عليه الصلاة والسلام يخاطب النساء عامة من خلال امرأة قال :

((اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

لذلك أيها الأخوة ، لابد من أن تعرف واجباتك أيها الزوج ، ولابد من أن تعرفي أيتها الزوجة واجباتك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء ، والله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم))

[ابن عساكر عن علي]

وفي بعض الزيادات على بعض الروايات يقول عليه الصلاة والسلام :

((يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ابن عساكر عن علي]

يقع في رأس قائمة أسباب الشقاق الزوجي الجهل الذي يهيمن على الأسرة ، حقوق الزوجة وواجباتها ، وحقوق الزوج وواجباته ، الحدود التي ينبغي أن يقفوا عندها ، الحكم فيما بينهم من مشكلات ، الحكم الذي ينبغي أن يرجعوا إليه ، المرجعية التي ينبغي أن تحكم علاقتهما ، هذا كله مفقود في أسرة تفقد العلم الشرعي .

2 ـ ضعف الإيمان :

أيها الأخوة ، السبب الآخر هو ضعف الإيمان ، ذلك أن الزوجين المؤمنين يشعران أن الله بين الزوجين ، فكل طرف منهما يخاف الله أن يظلم الآخر ، وكل منهما يتقرب إلى الله بخدمة الطرف الآخر ، فإذا كان الزوجان مؤمنين فإيمانهما بالله ، وأنه يراقبهما، وبأن الله سبحانه وتعالى سيكافئهما على عملهما ، هذا أكبر ضمانة لنجاح الزواج في ظروف الإيمان .

وقد قال بعضهم : زوِّج ابنتك للمؤمن ، إن أحبها أكرمها ، وإن لم يحبها - لا سمح الله - لن يظلمها .

أيها الأخوة ، القناعة شيء ، وأن تحمل نفسك على أن تفعل ما أنت مقتنع به شيء آخر ، هناك من يعرف الحلال والحرام ، والواجبات والحقوق ، لكنه أضعف من أن يقوم بهما ، فقوة الإيمان تقوي الإرادة ، فإذا قوي إيمانك قويت إرادتك ، فإذا سألنا هذان زوجان يعلمان الحقوق والواجبات ويعلمان حدود الشريعة فلماذا الشقاق بينهما ؟ لأن كلاً منهما مقصر مع الطرف الآخر ، وهذا التقصير هو الذي يسبب الشقاق بينهما .

على كلٍّ هناك حديث شريف ينطبق على هذا الموضوع انطباقاً تاماً :

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَاهُنَا ، وَقَالَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ، وَمَا تَوَادَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا حَدَثٌ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا ، وَالْمُحْدِثُ شَرٌّ ، وَالْمُحْدِثُ شَرٌّ ، وَالْمُحْدِثُ شَرٌّ))

[أحمد عن أبي هريرة]

لا يكفي أن أتعلم الحقوق والواجبات والحدود والقيود لابد من أن أملك إرادة قوية على تطبيق ما أنا مقتنع به ، هذه الإرادة القوية من نتائج قوة الإيمان ، فإذا قوي إيمان الزوجين قويت إرادتهما ، وقوة إرادتهما تعينهما على أن يطبقا ما تعلماه من منهج الله عز وجل .

3 ـ سوء التصرف :

أيها الأخوة الأحباب ، هناك سبب ثالث للشقاق الزوجي هو سوء التصرف ، أنا مقتنع تماماً أن المؤمن له عطاء من الله لا يقدر بثمن ، هذا العطاء قد لا يبدو جلياً واضحاً لعامة الناس ، إنه الحكمة ، فقد قال الله عز وجل :

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

الحكمة أن تضع الشيء في موضعه ، وأن تقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب ، مع الشخص المناسب ، بالقدر المناسب ، الحكمة أعظم عطاء إلهي على الإطلاق ، إنه خاص بالمؤمنين .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد : 1]

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل]

الحكمة ضالة المؤمن ، ومن ثمار الإيمان .

أيها الأخوة ، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ، وبالحكمة تعيش بمال محدود ، وتقلب الأعداء إلى أصدقاء ، وبانعدام الحكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، وبنقص الحكمة تبدد المال ، وتجعل الأصدقاء أعداء ، لذلك الصفة الأولى التي يتميز بها المؤمنون حكمتهم التي منحهم الله إياها .

حسن اختيار الزوجة من اسباب السعادة

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

[سورة البقرة: 269]

الحكمة لا تؤخذ ، لكنها تؤتى ، تؤتى للمؤمن كنتيجة لطاعته لله عز وجل ، وكانصياع لأمر الله ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق: 2]

أي إنه من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاق الزوجي ، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوق أولاده ، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من تبديد المال ، فحينما تطبق منهج الله إنك تطبق تعليمات الصانع ، وما من جهة يمكن أن تلتزم بتعليماتها إلا الجهة الصانعة ، لأنها الخبيرة ، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

4 ـ التعالي :

أيها الأخوة الكرام ، شيء آخر من أسباب الشقاق الزوجي هو التعالي ، أحياناً يتعالى الزوج على زوجته ، أو تتعالى الزوجة على زوجها ، والتعالي معول يهدم السعادة الزوجية ، إذا دخلتَ إلى البيت فأنت واحد من أهل البيت ، إذا دخلتِ إلى البيت فأنت واحدة من أهل البيت ، أما أن أستعلي على

التكبر يهدم السعادة الزوجية

شريكي في الحياة ، أو أن أستعلي على شريكتي في الحياة ، وقد يكون هناك تفاوتٌ لبعض الشيء بين مستوى الأسرتين ، ولكن هذا الزوج هو والد أولادك ، وهذه الزوجة هدية الله إليك أيها الزوج ، فإذا دخلنا في عش الزوجية فلا ينبغي أن يكون هناك تعالٍ .

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها يوم زفافها :

أيها الأخوة الأحباب ، امرأة قبل الإسلام اسمها أمامة بنت الحارث ، أوصت ابنتها يوم زفافها ، فقالت: أي بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدبٍ تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، أو لشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقن ، ولهن خُلِق الرجال ، أي بنية ، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجتِ ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً ، كوني له أمَة يكن لك عبداً ، أي بنية ، خذي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وأجراً : الصحبة بالقناعة ، أعظم النساء بركة أقلهن مؤونة ومهراً ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، المرأة إذا صلت خمسها ، وصامت شهرها ، وأطاعت زوجها ، وحفظت نفسها دخلت جنة ربها ، والتفقد لمواضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينك منه على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، ولا كحل إلا أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود .

أيها الأخوة ، ثبت أن لرائحة الجلد رائحة عطرة ، يكفي أن ينظف فله رائحة ، وهذه الحقيقة أشير إليها في هذه الوصية ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتراس لماله والرعية على حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التدبير ، وفي العيال حسن التقدير ، ولا تعص له أمراً ، ولا تفش له سراً ، فإنك إن عصيت أمره أوغرتِ صدره ، وإن أفشيت سره لن تأمني غدره ، ثم يا بنيتي ، إياك والفرح بين يديه إن كان ترحاً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً ، فإن الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، واعلمي أنه لن تَصلي إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت ، والله يختار لك .

أيها الأخوة الكرام ، التعالي معول يهدم السعادة الزوجية ، أراد الله أن يكون بين الزوجين الود والرحمة ، فالود هو تصرف يعبر صاحبه به عن الحب ، والرحمة هي الشفقة، فأراد الله لهذا الزواج أن يستمر ، وينمو بالود والرحمة معاً أو أحدهما فلابد من وجودهما بين الزوجين .

5 ـ التقليد الأعمى :

أيتها الأخوات الكريمات ، أيها الأخوة الكرام ، التقليد الأعمى معول آخر يهدم الحياة الزوجية ، حقيقة دقيقة جداً أنه في حياتنا سعادة ولذّات ، اللذّات منبعها خارجي ، فتأتي من طعام نفيس ، من بيت واسع ، ومناظر خلابة ، وأطفال نجباء ، لكن السعادة تنبع من الداخل ، اللذّات تحتاج إلى مصادر خارجية ، وأموال طائلة ، واللذّات ليست مستمرة ، بل متناقصة ، وإن لم تكن وفق منهج الله تبعتها كآبة ، أما السعادة فتنبع من قلب الإنسان ، ويملكها ، وفي متناول يده ، وتسعده ، ولا علاقة لها بالشروط المادية التي تحيط بالإنسان ، فحينما توازن امرأة نفسها مع امرأة أخرى ، والفرق الاقتصادي كبير ، هذا معول آخر يهدم الحياة الزوجية ، ذلك أن أساس الحياة الزوجية السكن ، قال تعالى :



الرحمة هي الشفقة

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

و لحكمة أرادها الله جعل الزوجين متكاملين ، وليسا متشابهين ، فكل طرف يكمل نقصه بالطرف الآخر ، فيسكن إليه ، الزوجة تكمل نقصها بزوجها القوي الأمين، فتسكن إليه، والزوج يكمل نقصه العاطفي بزوجته الجياشة العاطفية ، فيسكن إليها ، وهذا من حكمة الله ، أما حينما تأتي امرأة لتقلد امرأة أخرى لها وضع ومستوى آخر فإنها بهذا التقليد الأعمى تهدم السعادة الزوجية فيما بينها وبين زوجها ، فلذلك قيل : إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

6 ـ الغياب الطويل :

أيها الأخوة الأحباب ، شيء آخر من أسباب الشقاق الزوجي الغياب الطويل ، مادامت الزوجة بحاجة لزوجها كي تسكن إليه ، وما دام الزوج بحاجة إلى زوجته كي يسكن إليها ، متى تكون هذه السكنى ؟ إذا كان غيابه عن البيت طويلاً ، العشرة الزوجية أصل في الزواج ، فإذا امتص العمل كل وقت الزواج فهذا العمل مهما كان الدخل فيه كبيراً فهو في الحقيقة خسارة ، لأنه فقد شريكة حياته ، وفقدت شريك حياتها ، ضاع الأولاد ، وربوا تربية ليست سليمة ، فالغياب الطويل عن المنزل له مضاعفات خطيرة ،

قد تكون له مضاعفات معتدلة بين زوجين منضبطين ، وقد تكون له مضاعفات خطيرة بين زوجين غير منضبطين ، حينما تفتقر الزوجة إلى الأنس وعطف زوجها ووجوده إلى جانبها فقد تضعف نفسها أمام خبيث من خبثاء الأرض .

أيها الأخوة الكرام ، عدم الإقامة في البيت لفترة معقولة أحد أسباب الشقاق الزوجي .

7 ـ السكوت وعدم الاهتمام بالطرف الآخر :

شيء آخر ، الأزواج أحياناً لا يهتمون لشأن زوجاتهم ، عدم اهتمامهم يتبدى في عدم اهتمامهم بمظهر زوجاتهم ، قد تعتني بنفسها ، وتظهر بأبهى زينة أمامه ، لا يلتفت إلى ذلك ، قد تعد له طعاماً نفيساً لا يشكرها عليه ، قد يرى الأولاد في أحلى حالة لا يثني عليها بهذا ، قد يرى البيت رائعاً لا ينتبه إليه ، عدم الاهتمام بالزوجة ، بمظهرها ، وبعملها ، وبإدارة بيتها ، وبطعامها ، وبنظافة وتربية أولادها ، هذا يضعف العلاقة بين الزوجين ، فلذلك الزوج الناجح هو الذي يثني على زوجته من حين إلى آخر حتى تشعر أنه يعم قدراتها وما عندها من خير .

8 ـ الابتعاد عن الكلمة الطيبة :

أيها الأخوة الكرام ، شيء آخر في العلاقة الزوجية ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَاً)

[سورة البقرة: 83]

أيهما أحق بكلامك الطيب الناس عامة أم هذه التي هي في البيت أم شريكة حياتك؟ الكلمة الطيبة صدقة.


الود هو الحب

كان عليه الصلاة والسلام زوجاً ناجحاً ، كانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر: يا رسول الله كيف حبك لي ؟ فعبر النبي عن حبه الشديد لها بمثلٍ قال : حبي لك كعقدة الحبل ، فأصبح هذا رمزاً بينهما ، تسأله من حين لآخر : كيف العقدة ؟ فيقول: على حالها .

أنت تهتم بالزوجة ، وتثني على فعلها ، وهندامها ، وإدارة بيتها ، وطعامها ، وتربية أولادها ، وتسمعها كلمة طيبة ، وتعبر لها عن حبك ، هذا من أسباب السعادة الزوجية، بل إن من عكس ذلك من أسباب الشقاق الزوجي

أضرب لكم مثلاً ينسحب على هذه الحالة : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فِي اللَّهِ ، قَالَ : فَأَخْبَرْتَهُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَأَخْبِرْهُ ، فَقَالَ : تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ : فَأَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ))

[أبو داود ، أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

إذا كان هناك ود بينهما ، فلِمَ يبخل الزوج بكلمات الحب والود لزوجته ؟ ولم تبخل الزوجة بكلمات الحب لزوجها ؟ هذا أيضاً السكوت وعدم الاهتمام بالطرف الآخر من أسباب الشقاق الزوجي .

9 ـ الطمع المالي :



شيء آخر : من أسباب الشقاق الزوجي الطمع المالي ، هذا العقد بين الزوجين هو أقدس عقد في الأرض ، يقول الله عز وجل :

(وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

[سورة النساء : 21]

هذا الميثاق الغليظ يفسده الاتجاه المالي ، فحينما يطمع الزوج بمال زوجته، أو حينما تطمع الزوجة بما عند زوجها لتقتنصه لأهلها هذا يفسد العلاقة بين الزوجين ، فالمادة تفسد العلاقة ، وإن جعلتها تحت قدمك تكسبها ، وإن كانت أمامك تخسرها ، وأكبر خسارة أن تخسر الزوجة زوجها أو أن يخسر الزوج زوجته .

10 ـ بخل الزوج :

أيها الأخوة الكرام ، ومن أشد معاول هدم السعادة الزوجية بخل الزوج ، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

وقد قال بعض الصحابة الكرام : " حبذ المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي " ، إلا أن الصحابية الجليلة حينما تودع زوجها تقول : اتق الله فينا نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام ، أما المرأة التي تضغط على زوجها كي يكسب المال الحرام فهي شريكته في الإثم .

11 ـ سوء الظن :

أيها الأخوة الأحباب ، من أسباب الشقاق الزوجي سوء الظن ، وهو حزم إذا كان هناك دليل ، وإن لم يكن هناك دليل فهو إثم ، فينبغي أن نحسن الظن إن لم يكن هناك دليل على سوء الظن ، أما إن كان هناك دليل فالحزم سوء الظن .

12 ـ خروج المرأة من دون إذن زوجها :

شيء آخر أيها الأخوة ، خروج المرأة من دون إذن زوجها ، يقول الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق: 1]

أصغر مشكلة إذا خرجت الزوجة من بيت زوجها ونشزت تغدو أكبر مشكلة ، وقد تنتهي بالطلاق ، وأكبر مشكلة بين الزوجين إذا بقيت الزوجة في بيت الزوجية قد تنتهي إلى الوفاق .

أيها الأخوة الكرام ، هذه بعض أسباب الشقاق الزوجي ، فالشقاق الزوجي معول يهدم الأسر ، وإذا ضاعت الأسر ضاع المجتمع ، بل إن بعض أقطاب الحضارة الغربية يقول: نحن مهددون بتفكك الأسرة ، وشيوع الجريمة ، وبالانحراف الأخلاقي .

فيا أيها الأخوة الأكارم ، عظمة هذا الدين أنه منهج قويم يبدأ من الأسرة ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، فالزوج والزوجة إذا بنيا بيتهما على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين ، أما إذا بنيا منزلهما على معصية فيتولى الشيطان التفريق بينهما .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (16-20) : أسباب السعادة الزوجية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-09-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحلقة السابقة تحدثنا عن أسباب الشقاق الزوجي، وفي الحقيقة هو موضوع سلبي، ولكن هذه الحلقة إن شاء الله تعالى سنتحدث فيها عن أسباب السعادة الزوجية، والحقيقة أنه ينبغي أن نتلافى أسباب الشقاق، ثم أن نفعل موجبات السعادة الزوجية، لو عدنا إلى كتاب، ومنهج الله، وتعليمات الصانع، وكلام الخبير فإننا نجد الله عز وجل يقول:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء)

ما معنى كلمة معروف ؟ المعروف تعرفه الفطر السليمة بداهة، إذا قال الله عز وجل:

(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة آل عمران)

ما المعروف ؟ الشيء الذي تعرفه النفوس بداهة يقول هكذا فطرت يقول وجبلت عليه، ألم يقل الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

يعني أنها إذا اتقت تعلم أنها اتقت من دون أن ينبّهها أحد، وإذا فجرت تعلم من دون أن ينبهها أحد، هذه هي الفطرة، وهي متوافقة تماماً مع منهج الله، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

أي أن تقيم وجهك نحو الدين، أن تشدّ همتك إلى تطبيق الحق، هو ما جبلتَ أنت عليه في الأصل، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

الشيء الذي تعرفه النفوس فطرة وابتداء وبداهة من دون توجيه، والفطرة أيها الإخوة شيء مهم جداً في الدين.يقول الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (19))

(سورة النساء)

نحن في دار ابتلاء، لا في دار استواء، وفي منزل ترح، لا منزل فرح، ومن عرف الدنيا لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي.

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

قالوا: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها.

أيها الإخوة الكرام، روت كتب الأدب والسيرة أن قاضياً شهيراً اسمه شريح لقيه صديقه الفضيل، فقال له: يا شريح، كيف حالك في بيتك ؟ قال: والله منذ عشرين عاماً لم أجد ما يعكّر صفائي، قال: وكيف ذلك يا شريح ؟ قال خطبتُ امرأة من أسرة صالحة، فلما كان يوم الزفاف وجدتُ صلاحاً وكمالاً، يقصد صلاحاً في دينها، وكمالاً في خُلقها، فصليتُ ركعتين شكر على نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت من صلاتي وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر شكري، فلما خلا البيت من الأهل والأحباب دنوتُ منها، فقالت لي: على رِسلك يا أبا أمية، ثم قامت فخطبت، وقالت: أما بعد، فيا أبا أمية، إنني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، ولا ما تكره، فقل لي ما تحبه حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله . ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتّق الله بي، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة)

ثم قعدتُ ! قال: فألجأتني إلى أن أخطب، فوقفت وقلت: أما بعد، فقد قلتِ كلاماً إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه يكن لكِ ذخراً وأجراً، وإن تَدَعيه يكن حجة عليك، أحِبُّ كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنة فانشريها، وما وجدتِ من سيئة فاستريها.

أيها الإخوة، وصف النبي عليه الصلاة والسلام المرأة الصالحة بأنها ستّيرة، والمرأة الفاجرة فضّاحة، وقال في بعض الأحاديث: إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها.

وعَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[الترمذي]

ولا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها، وهي لا تستغني عنه، وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها، قالت: كيف نزور أهلي وأهلك ؟ ما رأيك في هذا الموضوع ؟ قال: نزورهم غباً، مع انقطاع بين الحين والحين لئلا يملُّوا، وفي الحديث الشريف:

((زر غباً تزدد حباً))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

قالت: فمَن مِنَ الجيران تحب أن أسمح لهن بدخول بيتك ؟ ومن تكره ؟ قال: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك، يقول شريح: ومضى علي عام عدت فيه إلى البيت، فإذا أم زوجتي عندنا، رحبت بها أجمل ترحيب، وكانت قد علمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، قالت: يا أبا أمية، كيف وجدت زوجتك ؟ قلت: والله هي خير زوجة، قالت: يا أبا أمية، ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، ثم التفت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة، ومضى علي عشرون عاماً لم أجد ما يعكر صفائي إلا ليلة واحدة كنت أنا الظالم.

ألم أقل لكم في الحلقة السابقة: إذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، أما إذا بني على معصية الله يتولى الشيطان التفريق بينهما، إذا أطاع المؤمن ربه ألهمه الحكمة، فعاش مع زوجته حياة سعيدة، وإذا عصى الرجل ربه ألهم الحمق، فكم من إنسان يحفر قبره بيده، ويهدم سعادته بيده، إنه حينما ينقطع عن الله عز وجل فيحرم من الحكمة، الآية الأولى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (19))

أيها الإخوة، شيء آخر، الله عز وجل بين الزوجين وهو أروع ما في الزواج الإسلامي، كل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرف يرجو رحمة الله بخدمة الطرف الآخر، هذا من خصائص الزواج الإسلامي، الآن يقول الله عز وجل:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة)

كما أنك تحب أن تحترم أهلك هي تحب أن تحترم أهلها، كما تحب أن تراها بمظهر أنيق هي تحب أن تراك بمظهر أنيق، كما تحب أن تكون صادقة معك هي تحب أن تكون صادق معها، كما تحب أن تقدر شعورك تحب أن تقدر شعورها.

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

والمعروف ما في الفطرة ما ركز في أهل الفطرة، وما جبل عليه الإنسان، أما هذه الدرجة التي للزوج فهي درجة واحدة، درجة القيادة، لأن الزواج والبيت مؤسسة لا بد لها من قائد واحد، وصاحب قرار، لكن الزوج ينبغي أن يستشير زوجته أحياناً، والدليل أن الله عز وجل يقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديبية استشار أم سلمة، وأشارت عليه، ونفذ استشارتها، وحلت المشكلة، ينبغي أن تستشيرها، وتستشيرك، وتتبادلا الآراء، ولكن هذه المؤسسة تحتاج إلى صاحب قرار، الله عز وجل يقول:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

فهذه الدرجة درجة القرار، لأن الذي يراه الزوج قد لا تراه الزوجة، والذي يعرفه الزوج من الظروف المحيطة بالبيت قد لا تعلمها الزوجة، أما أن يظن الزوج أن له كل شيء، وليس لها شيء، فهذا جهل فاضح في حقوق الزوجة.

أيها الإخوة الكرام،

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

هناك فكرة دقيقة، وهي أن هذه الدرجة درجة الخدمة والرؤية والحزم والقرار، وليست درجة التعسف، ولا درجة الاستبداد، بل درجة السلامة، ودائماً وأبداً كلمة (لا)عنوان السلامة، وكلمة (نعم) عنوان الهلاك، فالذي يملك قيادة البيت هو الزوج.

شيء آخر، المرأة أيها الإخوة في القيم الإسلامية، والفكر الإسلامي، وفي النصوص الإسلامية مساوية للرجل تماماً في التكليف، فهي مكلفة كما هو مكلف، وفي التشريف، هي مشرفة كما هو مشرف، وفي المسؤولية هي مسؤولة كما هو مسؤول، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي بعض الروايات حينما فتح مكة دعي لبعض بيوتاتها، فقال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، من خديجة ؟ زوجته الأولى، ويروى أنه نصب الراية أمام قبرها ليشعر الناس جميعاً أن هذا الفتح المبين لها جزء كبير من الفضل فيه، كانت رضي الله عنها سنده من الداخل، فلذلك أشار النبي إلى فضلها، وما تتمتع به من حرص لنجاح الدعوة، لذلك أشعر الناس أن لهذه المرأة العظيمة التي كانت عند النبي عليه الصلاة والسلام، والتي عاش معها ربع قرن كان لها فضل كبير حتى في هذا الفتح المبين.

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

أما قوله تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء)

قوَامون جمع قوَام، قوَام صيغة مبالغة اسم الفاعل، شديد القيام، يفهمها بعض الناس أن قوامة الرجل سيطرة، وعنجهية، واستعلاء، واستبداد، وتعسف، لا، أبداً، بل قوامة الرجل جهد كبير في داخل البيت

وخارجه، متابعة للأمور، تصحيح للمسار، تصويب للأخطاء، هذه قوامة الرجل، فالله سبحانه وتعالى أناط مسؤولية الأسرة بالرجل، لأنه بحسب تكوينه الفكري والجسمي والاجتماعي والنفسي، لعله أقدر على قيادة هذا المركب من الزوجة، فلذلك حينما يقول الله عز وجل:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

بمعنى أنهم يتحملون مسؤولية سلامة، ونمو هذه الأسرة.

أذكر أن سيدنا عمر مرة قال: لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً، وينبغي أن يقول الزوج: لست خيراً من واحد من أسرتي، ولكنني أثقلهم حملاً، هذا معنى قوامة الزوج:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

فهي تكليف، وليست تشريفًا، هي إشراف، وخدمة، وحرص، ودأب، وجهد، وسعي، وليست استعلاء وغطرسة، وتحكماً، وتعسفاً، واستبداداً.

آية أخرى تنظم العلاقة والسعادة الزوجية، هذه المرأة الصالحة التي قال عنها الله في بعض الأدعية: } رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {، قالوا: حسنة الدنيا المرأة الصالحة، التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا أمرتها أطاعتك، المرأة الصالحة شيء لا يقدر بثمن، هي سبب سعادة زوجها وأولادها، ألم أقل لكم في الحلقة السابقة: يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

أليست العبادة بالمفهوم الواسع أن تعبد الله فيما أقامك ؟ إن أقامك أيها الرجل غنياً فالعبادة الأولى إنفاق المال، وإن أقامك عالماً فالعبادة الأولى تعليم العلم، وإن أقامك قوياً فالعبادة إنصاف الضعيف، وإن أقامكِ امرأة فالعبادة الأولى حسن رعاية زوجك وأولادك.

(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)

(سورة النساء)

المرأة الصالحة تحفظ نفسها وفق منهج الله، لا وفق مزاجها وتصوراتها الضعيفة، ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.

أيها الإخوة الكرام، بقيت آية من آيات الله التي تنظم العلاقة بين الزوجين، يقول الله عز وجل:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال)

هذه الآية تفهم على مستويات ثلاثة:

أولاً: أن أصلح علاقتك مع الله، فإن صلحت علاقتك معه صلح معك كل شيء، حتى إن بعض العارفين يقول: إني أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، إذا كانت علاقته بالله قوية يلهم الله الزوجة أن تنصاع له، وتعتني به، وتحبه وتكون في خدمته، أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

أنت حينما تطبق منهج الله عز وجل تكون كبيراً في نظر زوجتك، وذا هيبة كبيرة، وعندئذ تنصاع لك، وتتودد إليك، وتتقرب منك، وأصلحوا العلاقة بينكم وبين جهة أخرى، وهل من جهة أقرب إليكم من زوجاتكم ؟ أي أصلحوا العلاقة ين الزوجين، والخطأ يصحح، مادام الإنسان حيًّا يرزق، ومادام القلب ينبض فكل شيء يصحح، الخطأ يصحح، يمكن أن نعتذر، أن نقدم هدية.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

والمعنى الثالث: ينبغي أن تصلح العلاقة بين كل اثنين، مع الله أولاً، فإن صلحت علاقتك مع الله صلح معك كل شيء، " ابن آدم، اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، ابن آدم، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، ابن آدم، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، نصلح علاقتنا مع الله أولاً، ثم مع زوجاتنا ثانياً، ونصلح أية علاقة بين اثنين ثالثاً، هذه آية أخرى تنتظم العلاقة الزوجية.

أيها الإخوة الكرام، هناك بعض القواعد الاجتماعية من شأنها أن تديم الحب بين الزوجين، وأن تديم حرارة العلاقة بين الزوجين، وأن تديم الود بينهم والرحمة، وكلها مستنبطة من نصوص الكتاب والسنة، إما مباشرة، أو بشكل غير مباشر.

أيها الإخوة، إن كنت تحب زوجتك فلمَ لا تعبر عن هذا الحب ؟ ألم يقل النبي لأحد الصحابة: هل أعلمته أنك تحبه ؟ قال: لا، قال: أعلمه.

مَن أولى الناس أن تعبر لها عن حبك ؟ حينما تعبر لزوجتك عن محبتك فهذا سبب من أسباب السعادة الزوجية، ويديم الحب بين الزوجين، وحرارة اللقاء بينهما.

أيها الإخوة، أن تثني على عملها كما قلت في الدرس السابق، بيتها نظيف، طعامها طيب، مظهرها أنيق، أولادها مرتَّبون، هذه الإنجازات التي تفعلها ينبغي أن ترى صداها عندك، فحينما تثني على ما عندها، على عملها، واهتمامها، فهذا يديم السعادة الزوجية، وقد ورد في بعض الأحاديث أن من سعادة المرء أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبرارًا، ورزقه في بلده، ومنزله واسعاً، ومركبه وطيئاً.

شيء آخر، أن تجلس معها، وتنصت إليها، وتسألها عن يومها، هذا اهتمام بها، في أيام الخطبة قد تستمر المكالمة ست ساعات بعد حين من الزواج لا ينطق ولا بكلمة، ولا يتكلم، ولا تتكلم هي، ما هذه

القطيعة ؟ ينبغي أن تجلس معها، وتنصت إليها دون أن تتشاغل بمجلة أو جريدة، أن تعطيها من اهتمامك، وتقبل عليها، وتسألها عن يومها، عمّا حدث لها، عن شؤونها، عن إنجازاتها، هذا يعني أنك مهتم بها حتى تهتم بك.

أيها الإخوة الكرام، كان عليه الصلاة والسلام في مهنة أهله يخدمهم، فعَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ ؟ قَالَتْ:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ))

[البخاري]

أحياناً إن رأيتها مشغولة، أو مريضة، أو متعبة فحاول أن تعينها على أعباء المنزل، وأن تقدم لها شيئاً، وتأتيها بطعام جاهز، وتعفيها من بعض المهمات، هذا يؤكد الود بينكما، وهذا أيضاً من سنن النبي عليه الصلاة والسلام.

أنا أقول لكم أيها الإخوة: إن ضغط العمل، وضغط عمل المنزل، والحياة الرتيبة، والضغوط النفسية الشديدة، هذه تفضي إلى توتر شديد، النزهة المنضبطة وفق منهج الله أساسية في تجديد النشاط، وتمتين العلاقات، لا تنسى أن تأخذ أهلك إلى نزهة من حين لآخر، على أن تكون النزهة منضبطة، هذا أيضاً من أسس العلاقة الزوجية.

ما الذي يمنع أن تتصل بها مراراً، وأنت في عملك كي تطمئن عنها ؟ أن تتصل بها هذا يشعر أنك تحبها، وهي في بالك، وأنك تحبها، فاتصالك الهاتفي من خلال عملك بها تسألها عن أحوالها، تعلمها ببعض الأفكار والحالات، هذا جزء من حسن العلاقة بين الزوجين.

أيها الإخوة، إذا كنت سوف تتأخر فينبغي أن تعلمها عن طريق اتصال هاتفي، أما أن تنتظر، وتنتظر إلى بعد منتصف الليل، وقد تكون معذوراً، لكن الاتصالات الآن جيدة جداً، فهذا الذي لا يكلف نفسه أن يتصل بزوجته كي يعلمها أنه متأخر فهذه حالة مَرَضية تسبب عدم المبالاة بين الزوجين.

أيها الإخوة الكرام، هذا من بعض ما تقتضيه الحكمة التي قال الله عز وجل عنها:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة)

أعود وأقول: أنت بالحكمة التي يهبها الله لك كمكافأة على إيمانك به، وطاعتك له قد تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة قد تشقى بزوجة من الدرجة الأولى.

أيها الإخوة، من هذه القواعد الاجتماعية إذا سافرت خارج البلدة فينبغي أن تتصل بها، وتخبرها عن رقم هاتفك، وأنك وصلت بالسلامة، وتتيح لها أن تتصل بك، هذا شيء من الود بين الزوجين، هي تحب

من يهتم بها، ويسأل عنها، بل إنك إن سافرت بعيداً فينبغي أن تخبرها أنك تفتقدها، وأن لها دورًا خطيرًا في حياتك، وأن الحياة من دونها لا تطاق، هذا من حكمة الزوج.

بل كما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا تدخل إلى بيتك من بعد سفر إلا بعد أن تعلمها عن موعد قدومك كي تهيئ نفسها.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما يكون في الغزوات لا يأتي أزواجه مباشرة، يقيم خارج المدينة يوماً، ويُعلِم من في المدينة أنهم قد حضروا، هذا من حكمة الزوج، لا تفاجئ زوجتك بدخول البيت عقب سفر طويل، لابد أن تعلمها مسبقاً عن موعد قدومك.

أيها الإخوة، تعاطف مع مشاعرها، إنه بدت متعبة، أو شعرت بالضيق، فالكلمة الطيبة صدقة، حينما تتعاطف مع مشاعرها في حال الضجر فهذا التعاطف هو العلاج والحل، والذي يمتص ضجرها، وقلقها، وتبرمها، ثم إنك إن فاجأتها بهدية من حين إلى آخر فهذا جيد، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ:

((تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ...))

(سنن الترمذي)

فهي رسالة محبة ورمز المودة، فعَنْ عَطَاءِ بْن أبي مُسْلِمٍ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيِّ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الْغِلُّ، وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا، وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ))

(موطأ مالك)

ليس القصد أن تكون الهدية ثمينة، بل أن تكون معبرة، ليس غير، فمن حين إلى آخر لا تنسَ أن تقدم لها هدية، ليست البطولة أن تبلغ القمة، بل أن تبقى في القمة، ليست البطولة أن تتزوج، بل أن يبقى الزواج ناجحاً، ليس البطولة أن تحب زوجتك في أيام الخطبة، بل أن يدوم هذا الحب، ويتنامى بعد العرس، وأن يكون خطك البياني صاعداً، لا أن يكون نازلاً، ففاجئها بهدايا صغيرة من حين لآخر، فإن الهدية كما قال عليه الصلاة والسلام:

((تذْهَبِ الْغِلُّ))

((وَتَهَادَوْا تَحَابُّوا وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ))

إذا كانت مريضة اسألها عن حالها، تفقد شأنها، واسألها عن تطور المرض، وعن الأدوية التي تأخذها، حاول أن تذكرها بأوقات الأدوية، هذا اهتمام منك بها، أما إذا جرحت مشاعرها فما الذي يمنع أن تعتذر لها ؟ وتقول لها: سامحيني لقد أخطأت معك، فهذه كلمة تنسيها كل الألم والضجر، فلذلك:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

أيها الإخوة، حينما تنجح في إسعاد زوجتك وتربية أولادك تستطيع مواجهة المشكلات الخارجية، كنت أقول دائماً: لو بلغت أعلى منصب في العالم، وجمعت أغلى ثروة في الأرض، ولم يكن بيتك كما تتمنى فأنت أشقى الناس، أما إذا كنت سعيداً في بيتك فكل شيء يهون.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذا النهج المحمدي السليم في زواجنا وبيوتنا، وفي علاقتنا مع زوجاتنا، وتربية أولادنا، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الاسلام والحياة - الدرس (17-20) : إضاءة قرآنية لما بعد أحداث 2001

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-10-2002

بسم الله الرحمن الرحيم

محور هذا اللقاء الطيب إن شاء الله تعالى قوله تعالى في سورة النساء:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (36))

[سورة النساء: الآية 36]

أيها الإخوة الكرام،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

آية ثانية:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء: الآية 23]

معنى ذلك أن العبادة لله وحده، وأن الإحسان إلى الخلق لا العكس، العبادة لا تكون إلا لله، ولا تكون لمخلوق، كائناً من كان على وجه الأرض، العبادة لله، العبادة قاصرة على الخالق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 21]

والإحسان إلى الخلق، لذلك من أدق الآيات قوله تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (31)،)

[سورة مريم: الآية 31]

حركة نحو خالق الكون، اتصالاً، وإنابة، وتوكلاً، وإخلاصاً، وحركة نحو الخلق، إحساناً، وانضباطاً، العبادة لله.

أيها الإخوة، العبادة علة وجودنا، تصور طالباً أرسله أبوه إلى بلد غربي لينال درجة الدكتوراه، علة وجوده في هذا البلد الدراسة، لذلك ينبغي أن تكون كل جزئيات حياته في هذا البلد متعلقة بالدراسة، يختار البيت القريب من الجامعة، يختار الصديق الذي يعينه على تعلم لغة البلد، يختار من الطعام ما يعينه على أداء واجباته الدراسية، يختار من الكتب ما يزيده ثقافة في اختصاصه، فكل جزئيات حياة هذا الطالب في هذا البلد منوطة بنيل الشهادة العليا، علة وجوده، لو أن إنساناً سافر إلى بلد معين، ونزل في

أحد الفنادق، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، وسأل: إلى أين أذهب ؟ سؤال عجيب، قل له أنت: لماذا أتيت إلى هنا ؟ إذا جئت إلى هنا للسياحة فاذهب إلى المقاصف والمتنزهات، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإذا جئت طالب علم فاذهب إلى المعاهد والجامعات، أي إن حركتك في بلد معيّن قد سافرت إليه لا تصح إلا إذا عرفت سبب مجيئك إلى هذا البلد، إلا إذا عرفت علة وجودك في هذا البلد، لو كبرنا المثل، ما علة وجودنا على وجه الأرض ؟

أيها الإخوة، لا يمكن أن يصح عملنا إلا إذا عرفنا علة وجودنا، كما أنه لا نسعد إلا إذا جاءت حركتنا مطابقة لهدفنا.

مثلاً لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري، وقبل أيام من هذا الامتحان أخذه أصدقاؤه إلى مكان جميل، أطعموه أطيب الطعام، واستمتع بأجمل المناظر، هو على مشارف امتحان مصيري، يبنى على نجاحه تعيينه في وظيفة مرموقة، ثم زواجه، لماذا يشعر بانقباض شديد مع أنه في مكان جميل ؟ مع أنه مع أصدقاء يحبهم، ويحبونه ؟ هذه الحركة نحو المكان الجميل، ونحو النزهة لا تتناسب مع هدفه.

نستنبط أيها الإخوة من هذين المثالين أن الإنسان لا تصح حركته إلا إذا عرف سر وجوده، أو علة وجوده، كما أنه لا يسعد إلا إذا جاءت حركته مطابقة لعلة وجوده أو لهدفه، نحن في الدنيا من أجل أن نعبد الله، بالنص القرآني الصريح القطعي الدلالة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات: الآية 56]

ولكن أيها الإخوة، يفهم معظم المسلمين كلمة عبادة على أنها العبادات الشعائرية كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والنطق بالشهادتين، هي من العبادات، هذا التصنيف الفقهي، الفقهاء صنفوا الإسلام إلى عقائد، وإلى عبادات، ويقصدون بها الصلاة والصوم والحج والزكاة، وإلى معاملات، الأحكام الشرعية التعاملية، وإلى آداب، العبادة في القرآن معناها غير المعنى التصنيفي للفقهاء، معناها طاعة الله في كل ما أمر، قد يفهم الناس أن منهج الله خمسة أوامر، ثم هو يفصل بين هذه العبادات وبين حياته، لا ترى في بيته منهج الله مطبقاً، لا ترى في تجارته منهج الله مطبقاً، لا ترى في أفراحه منهج الله مطبقاً، لا ترى في تعامله مع الآخرين منهج الله مطبقاً، وكأن هذا الإسلام العظيم الذي هو تعليمات الصانع، الذي هو منهج الخالق، الذي هو طريق السعادة، وكأنه ضُغط إلى خمس عبادات قد تؤدى أداء أجوف.

فلذلك أيها الإخوة، حينما يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

أي إن علة وجودكم هي عبادة الله، والعبادة تشمل الأحوال كلها، ذلك بأنه ما من شيء تتعامل معه في الحياة إلا وتحكمه الأحكام الفقهية، قد يكون فرضاً، وقد يكون واجباً، وقد يكون سنة، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً كراهة تنزيهية، وقد يكون مكروهاً كراهة تحريمية، وقد يكون محرماً، فالأحكام الفقهية تعتبر كل شيء، تتعامل معه في الأرض، عبادة الله تعني غاية الخضوع لله في كل أوامره.
اسمحوا لي أن أقول: لعل مجموع أوامر الله عز وجل قد تزيد على مئة ألف في كل شؤون حياتك، في أدق علاقاتك، في علاقاتك الحميمة، في بيتك، في غرفة نومك، في تربية أولادك، في قضاء وقت فراغك، في نزهاتك، في أفراحك، في تزويج أولادك، في كسب مالك، في حلك في ترحالك، منهج الله يغطي كل شؤون حياتك، فالعبادة لا تعني أن نكتفي بالعبادات الشعائرية، العبادات الشعائرية ثمرة العبادات التعاملية، وإذا جمعنا العبادات التعاملية من صدق وأمانة وأداء للواجب، وتواضع وإنصاف، لو جمعنا العبادات الشعائرية مع العبادات التعاملية لكانت في مجملها أوامر الله عز وجل، فحينما يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

، أي ينبغي أن ننصاع لأمره مع محبته.
ولكن أيها الإخوة للعلماء أقوال سديدة في موضوع العبادة، ينبغي أن تعبد الله فيما أقامك، إذا أقامك عالماً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى تعليم العلم، فإذا أقامك غنياً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى إنفاق المال، وإذا أقامك قوياً فينبغي أن تكون عبادتك الأولى إنصاف الضعفاء، وإذا أقامك امرأة ينبغي أن تكون عبادتك الأولى حسن رعاية زوجك وأولادك، هذه العبادة فيما أقامك، في هويتك، في أدق خصائصك، هناك عبادة أخرى في الظرف الذي وضعك الله فيه، لك قريب مريض، لك أب مريض ـ لا سمح الله ـ عبادتك الأولى عنايتك بأبيك، لك ابن يؤدي امتحاناً، عبادتك الأولى أن تهيّئ له الجو المناسب لأداء الامتحان، أن تعبده في الظرف الذي وضعك فيه، ثم أن تعبده في الزمن الذي أظلك، فإن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل.
أيها الإخوة الأحباب، ينبغي أن تكون العبادة في سلم الأولويات على الشكل التالي، الطرف الآخر إن أراد إفقارنا ـ إفقار المسلمين ـ العبادة الأولى كسب المال الحلال، وحل مشكلات المسلمين، أن ننمي ثرواتنا، أن نصنع حاجاتنا بأيدينا، أن نكتفي ذاتياً، إذا كان الطرف الآخر يريد إفقارنا فعبادتنا الأولى كسب المال، وتصنيع الثروات، والاكتفاء الذاتي، سيدنا عمر مر على بلدة فلم يجد أصحاب الفعاليات الاقتصادية من المسلمين، فقال بنظرة عميقة جداً: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ كأن هذا الخليفة الراشد رأى أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، فحينما يراد لنا أن نفتقر فينبغي أن ننمي وارداتنا، وأن نصنع حاجاتنا، وويل لأمة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تنسج.

أيها الإخوة، وإذا أراد الطرف الآخر إضلالنا فالعبادة الأولى أن نوضح حقائق الدين، أن نبين دقائق هذا الشرع العظيم، أن نعطي الأدلة القوية، أن نرد على كل الشبهات، والدلالات هي العبادة الأولى إذا أريد لنا أن نضل عن ديننا، وإذا أريد لنا أن نفسد العبادة الأولى أن نصون أخلاق أبنائنا من كل انحراف وضلال، وإذا أرادوا أن يجتاحوا أرضنا ينبغي أن نقف مقاومين أشداء، لأن هذا من الدين، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: الآية 60]

فصار من معاني العبادة أن تعبده فيما أقامك، وأن تعبده في الظرف الذي وضعك فيه، وأن تعبده في الزمان الذي أظلك، وأن تعبده أيضاً في الظروف البعيدة المحيطة بالمسلمين.

أيها الإخوة الكرام:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ)

و لكن ينبغي أن نعبد الله وحده، ينبغي أن نعبد الله فيما شرع، لا وفق أمزجتنا، ينبغي أن نعبد الله فيما قسم لنا من منهج تفصيلي.

أيها الإخوة الكرام، لذلك قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

[سورة الكهف: الآية 28]

ينبغي أن نعبده، وينبغي أن نعبده وحده، وينبغي ألا نعبد أحداً سواه، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

كأن الله أنشأ لنا حقاً عليه

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

أليست عبادة الله فرعاً من وجودك ؟ طبعاً، من هما سبب وجودك ؟ الوالدان، لذلك رفع الله الأمر بالإحسان للوالدين إلى مستوى عبادته،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

لعل لعلماء اللغة تعليقات لطيفة: الواو واو عطف، تقتضي المشاركة، بمعنى أنك لا تقول: اشتريت بيتاً وملعقة، لا يتناسبان، تقول: اشتريت بيتاً وأرضاً، اشتريت بيتاً ومركبة، أما اشتريت ملعقة وشوكة، فكأن الواو فضلاً عن أنها حرف عطف تفيد أن بين المتعاطفين قاسمًا مشتركًا بينهما، فلذلك:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

هذه الباء عند علماء اللغة باء الإلصاق، هي حرف جر، لكن معناها الإلصاق، أي أن الابن ينبغي أن يكون ملتصقاً بأبيه، أن يكون معه، أن يكون كظله، بل إنك إن أردت أن تبر أباك فينبغي أن تبره بنفسك، لا بواسطة أحد هذا معنى،

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

بل إن بعض العلماء استنبط من قوله تعالى:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43))

[سورة هود: الآية 43]

أي إن الله سبحانه وتعالى رحمة بالأب ما سمح له أن يرى ابنه وهو يغرق:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43))

[سورة هود: الآية 43]

بل إن العرب قبل الإسلام إن أرادت أن تهجو أحداً تقول له: لا أبا لك، بل إن الله عز وجل حينما قدم الآباء على غيرهم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ)

[سورة التوبة: الآية 24]

كان هذا تقديم أهمية، أي إن الإنسان ينبغي أن يعتز بأبيه.

إذاً اللذان كانا سبب وجودك ينبغي أن تحسن إليهما، قال:

(وَ بِالْوَالِدَيْنِ)

ولم يذكر ما وضعهما، ولم يذكر التزامهما بالدين، مطلق الوالدين، مؤمنين كانا أو غير مؤمنين، ملتزمين كانا أو غير ملتزمين، وبالوالدين إحساناً، والباء تفيد الإلصاق، أي أن تكون لصيقاً بهما، أن تكون معهما، أن تكون كظلهما، وإذا أديت لهما خدمة ينبغي أن تؤديها بنفسك إكراماً لهما، ثم وسع الدائرة فقال

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

كأن في الإسلام تضامناً عظيماً هذا التضامن أساسه القربى، وأساسه الجوار، تضامن مكاني، وتضامن نسبي، أصل التضامن بين المؤمنين، أصل التعاون بين المؤمنين ينبغي أن يبنى على علاقة نسبية، وعلى علاقة جغرافية، فلذلك قال:

(وَبِذِي الْقُرْبَى)

النبي عليه الصلاة والسلام يبين أن الإنسان إذا أدى صدقة لأقربائه هي عند الله صدقة وصلة في وقت واحد، بل إن العلماء يقولون: لا تقبل زكاة مال إنسان مؤمن وفي أقربائه محاويج، لأن الناس هو لهم، وغيره لهم، لكن أقرباءه من لهم غيره، هو يعرفهم، يعرف مشكلاتهم، يعرف قضاياهم، يعرف نقاط ضعفهم، يعرف حاجتهم إلى المال قال: } وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى {، وسع الدائرة، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214))

[سورة الشعراء: الآية 214]

خطاب إلهي لسيد الخلق، لماذا:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ)

؟ لهم حق عليك أولاً، وليس بينك وبينهم جدار قلق، ثانياً، أنت لا تستطيع أن تقول لإنسان لا تعرفه: اذهب معي إلى المسجد، لكن أخاك تقول له ذلك الكلام، وهو مطمئن لك، إذاً ينبغي أن تستغل هذه الصلة بينك وبين أقربائك، وأن تأخذ بيدهم إلى الله عز وجل، فالإحسان إلى القربى شيء دقيق جداً، قد نظنه جهلاً منا، أن تزوره في العيد ؟ لا، ينبغي أن تزوره، وينبغي أن تتفقد أحواله، أحواله المعيشية أحواله الاقتصادية، أحواله الاجتماعية، أحوال أولاده التربوية، ينبغي أن تأخذ بيده لحل مشكلاته، ينبغي أن تأخذ به إلى الله عز وجل، هذه صلة الرحم التي قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام في أنها تزيد في الأجل:

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

أما اليتامى هؤلاء الذين فقدوا الأب، أو فقدوا الأم، أو فقدوا الأب والأم معاً، ولكن الذي يتألم له الإنسان أن يرى طفلاً في حكم اليتيم، أن ترى له أماً تخلت عنه، أو أباً مشغولاً، هناك يتم حقيقي، وهناك يتم حكمي، فهذا الذي فقد الرعاية، وفقد التوجيه، وفقد الإنفاق، وفقد العطف، والحنان يحتاج إلى عطف المجتمع، فلذلك إن الله يحب كل بيت فيه يتيم مكرم.

أيها الإخوة،

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

وفي أحاديث يقول:

((اللهم احشرني مع المساكين))

[ورد في الأثر]

والتوفيق بينهما أن الإنسان إذا كان طليق القوة، وطليق الغنى سالكاً أمامه وفق منهج الله ينبغي أن يكون قوياً، وينبغي أن يكون غنياً، ذلك بأن القوة في العلم والغنى هذه تتيح لك أعمالاً صالحة، لا تعد ولا تحصى، أي خياراتك في العمل الصالح تزداد إذا كنت قوياً أو غنياً، إذا كان طريق الغنى أو طريق القوة محفوفاً بالمعاصي فعندئذ ينبغي ألا تعصي الله إطلاقاً،

(وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)

المساكين إذا انفردت تعني الفقراء والمساكين، وإذا انفردت كلمة الفقراء تعني الفقراء أو المساكين، أما إذا اجتمعا تفرقا، وإن تفرقا اجتمعا، فالفقير هو الذي لا يجد حاجته، أما المسكين فهو الذي ألمت به مصيبة أقعدته عن العمل، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى)

الجار الذي إلى جانبك لعله قريبك، له عليك حقان، لعله جار مسلم، له عليك حقان، حق الإسلام، وحق الجوار، لعله جار قريب مسلم، له عليك ثلاثة حقوق، حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة، } وَالْجَارِ الْجُنُبِ {، مطلق الجار ينبغي أن تحسن إليه، مطلق الجار، أي جار كان، إذا استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن مرض عدته، وإن مات شيعته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، و لا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منه،

(وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى)

الذي له عليك أكثر من حق،

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ)

مطلق الجار،

(وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

هذا زميل العمل، مدرس في ثانوية، طبيب في مستشفى، مهندس في مؤسسة، هذا الجار الصاحب بالجنب، وقال بعض العلماء: هو الجار الطارئ رفيق السفر أحياناً،

(وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

أيها الإخوة الأحباب، هذه الآية أصل من أصول المعاملات، ينبغي أن تتجه إلى الله بالعبادة، وأن تعبده وحده، وينبغي أن تحسن إلى خلقه وفق هذا الترتيب، الوالدان قبل كل شيء، الأقرباء بعد الوالدين، ثم اليتامى، فالمساكين، فالجار ذي القربى، فالجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل الذي انقطع في الطريق، ولا يملك ثمن العودة إلى بلده، وقد نجد طلاباً كثيرين انقطعت بهم الأحوال، وأقعدهم فقدُ مالهم عن العودة إلى بلادهم هذا مما يقتضي أن نعينهم.

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

لها بحث طويل، إن شاء الله في لقاء قادم.

أرجو الله سبحانه و تعالى أن ينفعنا بهذه التوجيهات القرآنية، فعظمة الإسلام أنه نظام اجتماعي في أعظم درجة، يحقق التكافل الاجتماعي، إن عن طريق الجوار، وإن عن طريق النسب، وإلى لقاء آخر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (01-95) : تمهيد لموضوع الإيمان هو الخلق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-09-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

أيها السادة المشاهدون ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وأهلاً ومرحباً بكم في أول حلقة من هذا البرنامج الذي يأتيكم إن شاء الله بمثل هذا الموعد من كل أسبوع ، هذا البرنامج الذي تحت عنوان : " الإيمان هو الخلق " ، وهذا العنوان أخذ من قول شهير لإمام وعالم كبير هو ابن القيم الجوزية .

الإمام ابن القيم عندما قال : " الإيمان هو الخلق " كان يختصر معاني كثيرة ، وكان له مرامي من وراء هذا العنوان ، والأخلاق هي التي تضبط إيقاع المرء في حياته ، وتضبط سلوكه في حياته ، وهي التي تثمر الخير ، وتثمر الاستقامة ، الأخلاق والخلق العظيم هو أفضل ما مدح به ربنا عز وجل نبيه الكريم حيث قال :

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

[سورة القلم : 4]

لن أطيل ، سيكون هذا البرنامج في رحلة مديدة مع أستاذنا البحاثة الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي، أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين ، لنبحث في هذا العنوان إن شاء الله تعالى ، وفي طياته ، وفي مراميه ، وفي مآله ، وكيف تكون الأخلاق ضوابط ومنابع ودوافع للخير ، واستقامة حياة الإنسان في أسرته ، في مجتمعه ، في وطنه ، ليكون فاعلاً ، ليكون بانياً .

أستاذنا الدكتور راتب ، قبل كل شيء هذا العنوان أخذ من أن اخترته حضرتك من قول ابن القيم الجوزية ، نبدأ بالتعريف ، الخلق تعريفاً .

مقدمة مهمة : دوافع الإنسان في الحياة : الوجود ـ النوع البشري ـ التفوّق :

الدكتور راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الإنسان كائن متحرك ، لماذا يتحرك ؟ لأن هناك دوافع عديدة ، من أبرزها أودع الله فيه رغبة في أن يأكل ويشرب ، وأودع الله فيه رغبة أن يتزوج ، وأودع فيه رغبة ثالثة أن يكون متفوقاً ، فالدافع الأول حفاظاً على الوجود ، على وجوده ، و الدافع الثاني حفاظاً على النوع البشري ، و الدافع الثالث حفاظاً على الذكر سماه العلماء تأكيد الذات ، فالإنسان بدافع الطعام والشراب ، وبدافع الزواج ، وبدافع التفوق هو مقرور في أن يتحرك ، و لولا هذه الدوافع لما وجدت شيئاً على وجه الأرض ، كل هذا الذي تراه من معامل ، من مؤسسات ، من طرق ، من جسور ، من جامعات ، تعود إلى هذه الدوافع الثلاثة ، وهذه الدوافع حيادية .

إذاً : أستخلص من هذه المقدمة أن الإنسان له حركة في الحياة ، مِن هذه الحركة الخُلق ، لابد من مثل : لو أن إنساناً سافر إلى بلد ، وليكن باريس ، ونزل في أحد الفنادق ، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول ، وسأل سؤالاً عجيباً غريباً فقال : إلى أين أذهب ؟ نسأله نحن : لماذا أتيت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم فاذهب إلى المعاهد والجامعات ، وإن جئت سائحاً فاذهب إلى المقاصف والمتنزهات ، وإن جئت تاجراً فاذهب إلى المعامل والمؤسسات ، ماذا نستنبط ؟ أن حركة الإنسان في مكان ما لا تصح ، ولا تثمر إلا إذا عرف سر وجوده ، وغاية وجوده .

أستاذ علاء ، أجري بحث علمي فوجد أن ثلاثة بالمئة فقط من البشر يعرفون أهدافهم ، فإما أن ترسم لك هدفاً واضحاً ، وإما أن تكون رقماً لا معنى له في خطة الطرف الآخر ، إما أن تخطط ، أو أن يُخطط لك ، فهذا الإنسان الذي ذهب إلى باريس إذا كان هدفه واضحا جداً ، نيل الدكتوراه مثلا ، الآن مليون جزئية من تصرفاته اليومية متعلقة بهذا الهدف ، مثلاً : يستأجر بيتاً قريباً من الجامعة توفيراً للوقت والجهد والمال ، يصاحب صديقاً يتقن اللغة الفرنسية ليتعلم منه ، يشتري مجلة متعلقة باختصاصه ، يأكل طعاماً يعينه على الدراسة ، حينما يتضح الهدف كل جزئيات الحياة ، أو حركة الإنسان في الحياة مرتبطة بهذا الهدف .

الأستاذ علاء :

إذاً دكتور ، ساحته الحيوية التي يتحرك فيها هي مقيدة بالهدف .

صحة الحركة ثمن السلامة والسعادة :

الدكتور راتب :

إذاً : إن صحت حركةُ الإنسان سلم وسعد ، ولو شققنا على صدر ستة آلاف مليون من بني البشر لما وجدت عندهم إلا طلب السلامة والسعادة بمفهومهم طبعاً ، إذاً : من أين يأتي الشقاء ؟ من الجهل ، الجهل أعدى أعداء الإنسان ، لذلك الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإن أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ، حتى إن أزمة أهل النار و هم في النار هي العلم ، الدليل :

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

[سورة الملك : الآية 10]

فلذلك حينما يعرف الإنسان سر وجوده ، وغاية وجوده تصح حركته ، فإن صحت سلم وسعد ، وهذا مطلب بشري ، مطلب إنساني ، ولا يأتي الشقاء إلا من الجهل ، ذلك أن في الإنسان حاجات عليا ، وفيه حاجات دنيا .

الحاجات الدنيا نحن وبقية المخلوقات فيها سواء ، لكن الحاجات العليا هي التي ميز الله بها الإنسان .

الأستاذ علاء :

من هنا أتى التكليف ؟

عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ

الدكتور راتب :

نعم :

الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ

[سورة الرحمن]

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن : أيعقل في المنطق أن يُعَلَّم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ؟ أجاب بعض العلماء : هذا الترتيب ليس ترتيباً زمنياً ، بل هو ترتيب رتبي ، بمعنى أن وجود الإنسان في الدنيا لا معنى له من دون منهج يسير عليه .

سأضرب مثلاً : لو أتينا بجهاز ثمنه خمسين مليوناً لتحليل الدم آلياً ، ولم يأتنا مع الجهاز تعليمات الصانع ، إن استخدمناه من دون تعليمات أتلفناه ، وإن لم نستخدمه جمدنا ثمنه ، أليست التعليمات أهم من الآلة ؟

أستاذ علاء ، الإنسان مفطور على حب ذاته، على حب وجوده ، و على حب سلامة وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ، وعلى حب استمرار وجوده ، وهذا لا يتحقق إلا إذا اتبع تعليمات الجهة الصانعة ، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها ، لا لأنك تعظمها هي عظيمة جداً ، ولا لأنك تحبها هي محسنة جداً ، و لكن لأنك تحب ذاتك ، وانطلاقاً من محبة الإنسان لذاته ، وحفاظاً على وجوده ، وسلامة وجوده ، واستمرار وجوده ، وكمال وجوده يتبع تعليمات الصانع ، قال تعالى :

وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

[سورة فاطر : 14]

هذه نقطة ، إذاً لا تصح حركتي في الحياة إلا إذا عرفت سر وجودي ، وغاية وجودي .

متى يَسعَد الإنسان ؟

الآن متى أسعد ؟ لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري ، امتحان التخرج ، وعنده أصعب المواد بعد يومين ، وجاء أصدقاؤه الذين يحبهم ، وأخذوه إلى مكان جميل ، واستمتع بالمناظر الرائعة ، وأكل أطيب الطعام يشعر بانقباض لا حدود له ، لماذا ؟ هو في مكان جميل ، والطعام طيب ، وهؤلاء الذين حوله يحبهم ، لأن هذه الحركة لا تتناسب مع غايته ، فلو جلس في غرفة قميئة ، وقرأ الكتاب المقرر ، واستوعبه لشعر براحة ما بعدها راحة .

إذاً : يسعد الإنسان إذا جاءت حركته مرتبطة بهدفه .

أستاذ علاء ، التاجر الآن إذا لم يوجد بيع وشراء بمكتبه الكولا والقهوة والشاي والصحف والمجلات يشعر بألم لا حدود له ، أما إذا كان الموسم جيدا ، ونسي أن يأكل ، وبقي واقفاً عشر ساعات هو في قمة السعادة .

تصح حركةُ الإنسان في الحياة إذا عرف سر وجوده ، ويسعد إذا جاءت هذه الحركة مطابقة لهدفه ، فالخلق هو الانضباط و العطاء .

الأستاذ علاء :

أي الانضباط والعطاء كوابح و دوافع .

الخُلق هو انضباط وعطاء وكوابح و دوافع :

الدكتور راتب :

أول كلمة سلبية : المؤمن لا يكذب ، يقول لك : لا أكذب ، لا أقترف المعصية ، لا آكل مال غيري ، لا أعتدي على عرض غيري ، كله لاءات ، أما العطاء فإيجابيات ، يعطي من وقته ، من ماله ، من خبرته ، من اهتمامه ، من كل شيء منحه الله إياه ، فإذا أردنا أن نضغط الخلق كله بكلمتين فهو الانضباط ، وطابعه سلبي ، والعطاء وطابعه إيجابي .

الأستاذ علاء :

دكتور راتب ، من خلال هذا التعريف ، وهذه المقدمة الجميلة التي مشيت بنا في مسيرتها نقلة نقلة مع الأمثلة لتوصلنا إلى الغاية في التعريف ، انضباط وعطاء ، الأول كوابح سلبي ، والثاني إيجابي ، هو لا يفعل ، لا كذا ، لا كذا ، لأنه يتمتع بالأخلاق ، لكن الأخلاق في طرفها الآخر هي دوافع ، وحوامل نحو العطاء والخير ، والتقدم نحو الآخرين في مد يد العون والمساعدة .

الآن هذا الانضباط والعطاء ، وهذا التعريف الذي أخذناه للبرنامج هل له صلة في القرآن والسنة وعند العلماء ؟

صلة الأخلاق بالعبادات الأخرى :

الدكتور راتب :

طبعاً ، أولاً أخذ عنوان هذا البرنامج من قول لعالم كبير جداً لعل معظم العلماء في عصر النهضة كانوا عالة على إنتاجه ، هو ابن قيم الجوزية رحمه الله ، يقول : " الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان " .

فعنوان هذا البرنامج أخذ من قول لأكبر علماء المسلمين الذين تعد مؤلفاتهم مرجعاً كبيراً لكل الدعاة إلى الله .

الأستاذ علاء :

أنا لا أقطع التسلسل ، دكتور راتب ، إذاً " " من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان " ، نحن تصور الناس بشكل عام أن الزيادة ومقياس الزيادة هي العبادة ، أن شخصاً أكثر من الآخر عبادة ، أكثر من الآخر تهجداً ، أكثر من الآخر تمسكاً بأوقات الصلاة ، هذا التمايز ، لكن من خلال كلام ابن القيم لاحظنا بأن الأخلاق هي مقياس الزيادة بكل معنى الكلمة .

الدكتور راتب :

سأقدم لك الدليل ، العبادات خمسة :

1 – الشهادتان :

نبدأ بالنطق بالشهادة ، يقول عليه الصلاة و السلام :

((من قال : لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل : وما حقها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الجامع الصغير]

إذاً : كلمة الإسلام الأولى التي بها تدخل إلى الإسلام لا تصح ، ولا تقبل إلا إذا كانت ثمرتها الابتعاد عن كل معصية .

2 – الصلاة :

الصلاة التي هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال ، التي هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين .عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : إنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

الأستاذ علاء :

مِن هنا يؤكد حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

((مَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الجامع الصغير]

الدكتور راتب :

لأن الله قال :

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

[سورة العنكبوت : 45]

أستاذ علاء ، في الأديان الوضعية طقوس هي حركات وسكنات ، وتمتمات وإيماءات ، و إيحاءات لا معنى لها ، وليست منطقية ، لكن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أشار إلى أن العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخلق .

كلام رب العالمين :

إِنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

[سورة العنكبوت : 45]

فهذا الحديث ربط الصلاة بالاستقامة .

حديث آخر ، عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :

((لَأَعْلَمَنّ أَقْوَامًا مِنْ أُمّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللّهُ عَزّ وَجَلّ هَبَاءً مَنْثُورًا ـ شيء عجيب ، أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباء منثوراً ـ قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

سقطت عبادتهم .

الأستاذ علاء :

إذاً : العبادة لم تحجبهم أبداً عن المحارم ، وعن الأذى ، فبالتالي سقطت ، وذهبت هباء منثوراً .

الدكتور راتب :

هذه أكبر فرض عبادي ، عماد الدين ، هذه الصلاة تسقط ، طبعاً أنا ماذا أقول ؟ أنا أقول كلاماً رائعاً : يجب أن تصلي ، لأنها فرض ، ويجب أن يسبق الصلاة استقامة كي تقطف ثمارها ، ولن تقطف ثمار الصلاة إن لم يسبقها استقامة .

3 – الحجٌ :

من حجّ بمال حرام ، ووضع رجله في الركاب ، وقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، ينادى : أن لا لبيك ، ولا سعديك ، وحجك مردود عليك .

إذاً : الحج إن لم ترافقه توبة واستقامة لا يقبل .

4 – الصيام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري ، الترمذي أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

رُبّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش .

5 – الزكاة :

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ

[سورة التوبة : الآية 53]

الأستاذ علاء :

هذا الكلام سيدنا يقودنا إلى قضية هامة ، أن كل هذه العبادات مرتبطة بمؤدى تصبّ في خانة الأخلاق .

لا تصح العبادات الشعائرية إلا بصحة العبادات التعاملية :

الدكتور راتب :

هذا الكلام يترتب عليه أن العبادات الشعائرية لا تقبل ، ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية .

قال أحد العلماء : لَتَرْكُ دانق من حرام ـ والدانق سدس الدرهم ـ خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((والله ، لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر ، واعتكافه في مسجدي هذا))

[الجامع الصغير]

شيء لا يكاد يصدق ، لذلك العبادة لا تقبل ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية .

أستاذ علاء ، أنا مضطر لمثل آخر : نحن عندنا عام دراسي فيه تسعة أشهر ، فيه دوام ، وانتباه للمعلم، وكتابة وظائف ، ومراجعة الدروس ، هذا النشاط كله أهمله الطالب ، فلم يداوم ، ولم ينتبه للمدرس ، ولا كتب وظائفه ، ولا ذاكر ، جاء يوم الامتحان ومعه ستة أقلام في جيبه ، معه مشروبات ساخنة حتى ينتعش ، معه أسبرين ، وكل أموره المادية ميسرة ، لكن ماذا يكتب ؟ ما قيمة هذا الامتحان من دون دراسة ، ثلاث ساعات الامتحان هي العبادة الشعائرية ، والعام الدراسي هي العبادة التعاملية ، فإذا لم يكن هناك دوام ، و لا انتباه للمدرس ، و لا كتابة وظائف ، ولا مذاكرة للدروس فهذه العبادة الشعائرية لا ينتفع منها إطلاقاً ، ماذا يكتب ؟ مع أن كل وسائل الكتابة معه .

الأستاذ علاء :

فيزيائياً حضر إلى مكان الامتحان ، وجاء بمساعدات الخدمة ، ومساعدات الكتابة .

الدكتور راتب :

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[البخاري ، مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، مالك]

السيدة الأولى السيدة عائشة قالت عن أختها صفية إنها قصيرة ، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ :

مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا ، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا ، قَالَتْ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا ، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً ، فَقَالَ : لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

لذلك من عدّ كلامه من عمله نجا ، الإنسان يتكلم بكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً.

قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة ، فالإسلام انضباط ، الإسلام عطاء ، الإسلام أخلاق ، هذه حقيقة دقيقة جداً .

نستنبط من هذا الذي ذكرته أن العبادات الشعائرية هي فرائض لابد من أن تؤدى ، لكن لا يمكن أن نقطف ثمارها ، أو نؤجر عليها ما لم تسبقها استقامة في العبادة التعاملية ، هذا الذي جاء به الإسلام ، و أنا أقول دائماً والله ، وأقسم : لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن لما خرج من مكة المكرمة، أما أن يصل إلى الصين شرقاً ، و إلى مشارف باريس غرباً فبهذا بالخلق .

لكن لابد من وقفة دقيقة ، قد نجد إنساناً متفلتاً من العبادات وله أخلاق .

الأستاذ علاء :

سيدنا ، هل الأخلاق مرتبطة بالدين والتدين ، أم هنالك أخلاق تأتي من غير متدين ، ومن غير متمسك؟

هل نجد الأخلاق عند غير المستقيين ؟

1 ـ أخلاق العبادات :

الدكتور راتب :

الجواب : نعم ، ولا ، في نفس الوقت ، سأشرح لك ، حينما يعرف الإنسان الله ، وحينما يعرف سر وجوده ، وحينما يعرف غاية وجوده ، وحينما يتجه إلى الله متصلاً به يشتق منه الخلق الحسن ، لأن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً ، فمِن المستحيل أن تتصل بالرحيم ولا تَرحم ، ومستحيل أن تتصل بالعدل ولا تنصف ، ومستحيل أن تتصل بالعفو ولا تعفو ، هذه الأخلاق الأصيلة التي لا تتأثر لا بإقبال الدنيا ولا بإدبارها ، ولا بفقر و لا بغنى ، هذه أخلاق الدين ، أخلاق العبادات ، أخلاق الاتصال بالله ، أخلاق السمو النفسي .

2 ـ أخلاق المصالح :

لكن الإنسان قد يكون ذكياً جداً يكتشف أنه إذا كان صادقاً نجح في الحياة ، وإذا كان منصفاً أحبه من حوله ، وإذا كان عفواً علا عن مرتبة الانتقام ، فبدافع من حبه للنجاح في الدنيا فقط ، بدافع من حبه لنفسه ، من حبه لإكثار ماله ، من حبه لنجاح شركته ، للأنانية يستقيم ، و يصدق ، ويعفو فيرقى في الدنيا .

الآن أقدم لك مثلاً : لو أتينا بمؤسسة كبيرة ، وعلى رأسها مدير ملحد بوجود الله ، لكنه ذكي جداً ، يصدق ، و نصف ، ويعفو ، ويرحم يتألق ، تزداد أرباحه ، يلتئم حوله العمال ، لكن هذا الإنسان أراد من هذا الخُلق مصالحه في الدنيا ، وماله في الآخرة من خلاق ، لو راقبناه ، وراقبنا إنساناً مدير عام آخر مؤمنا إيمانا بالله ، وأخلاقه عبادية ، وليست مصلحية لدهشنا أن النتائج واحدة .

3 ـ أوجه الاتفاق والاختلاف بين أخلاق العبادة وأخلاق المصالح :

يلتقي العمل العبادي مع العمل الذكي في النتائج ، ويختلف عنه في البواعث ، هذا أراد الدنيا فنالها ، الله عز وجل عدلٌ ، هذه الدنيا لمن يدفع ثمنها ، أنا حينما آخذ أسباب الدنيا أتملكها ، ولو كنت غير مؤمن بالله ، وهذا الذي نشاهده نحن أحياناً ، إذا أخذت بأسباب الدنيا تتملكها ، ولو لم تكن مؤمناً بالله ، وقد

قيل: " الدنيا تصلح بالكفر والعدل ، ولا تصلح بالظلم والإيمان " ، وهذا كلام خطير ، هذه الدنيا الذي يدفع ثمنها ينالها مؤمن وغير مؤمن ، أما الآخرة فلا تصلح إلا بالإيمان والاستقامة .

أخلاق المصالح تجري مع المصالح وجودًا وعدَمًا :

إذاً : هذا قادنا إلى أن هناك خلقاً أساسه الذكاء ، لذلك المجتمعات المتقدمة جداً حينما تمس مصالحها تنقلب إلى مجتمعات متوحشة ، إعجاب أهل الأرض بجهة قوية جداً طرحت قيماً رائعة جداً ، والحقيقة أن هناك إعجابا كبيرا ، لكن بعد أن ضُربت مصالحها فعلت الأفاعيل ، فأنا أقول دائماً : كان الغرب قيمة حضارية كبيرة ، لكن بعد حين سقط كحضارة ، وبقي كقوة غاشمة .

أخلاق المؤمن ثابتة لا تغيرها الطوارئ :

أما أخلاق المؤمن فأخلاق أصيلة لا تتبدل لا بالمصالح إن تحققت ولا إذا لم تتحقق ، ولا تتبدّل بالاستفزاز .

صلاح الدين الأيوبي لما فتح القدس ، حينما احتلت من قبل الإفرنجة ذبحوا سبعين ألفاً في يومين ، أما صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله تعالى ـ فلم يسفك قطرة دم ، لأن الإيمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن .

أنا أؤمن أن الذي يلجمني أن أفعل وفق هواي هو خوفي من الله ، أنا لا أصدق أشياء أخرى ، إن أردت أن تكون أخلاقياً تنفعك هذه الأخلاقية في الدنيا والآخرة فاختر أخلاق التدين ، أخلاق العبادة ، أخلاق الاتصال بالله ، أما إن أردت أن تكون أخلاقياً لتحقيق المصالح فهذا الشيء يحتاج إلى ذكاء .

إنّ الإنسان الذكي ينتزع إعجاب الآخرين ، وينجح في حياته ، وله الدنيا ، لكن الله عز وجل قال :

وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ

[سورة البقرة : 200]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (02-95) : التمهيد لموضوع الإيمان هو الخلق 2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-09-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة وتذكير :

قلنا : إن العنوان أخذ من قول العالم الجليل ابن القيم الجوزية الذي قال : " الإيمان هو الخلق " ، و مقياس الاستزادة في الإيمان هو مقياس التفاضل في الإيمان بين الناس ، ومن زادك خلقاً ، ومن زادك سلوكاً قويماً زادك إيمانا ، وتبينا ذلك مع أستاذنا الدكتور محمد راتب النابلسي أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين ، أهلاً وسهلاً دكتور ، تبينا من خلال تعريفك للأخلاق، تعريفك للخلق في التمهيد الأول في الحلقة الماضية تبينا مسألتين ، الخلق انضباط ، و عطاء ، و تبينا بأن الإنسان على هذه الأرض وجوده و خلقه مرتبط بأخلاقه ، ومرتبط بأهدافه ، وأن الإنسان يسعد إذا توافقت حركته مع هدفه ، ويشقى إذا تباينت ، ولم تتسق حركة سيره مع حركة هدفه ، وعدنا إلى هذا التعريف في القرآن الكريم والسنة ، وعند العلماء ، وتبينا في الحلقة الماضية بأن الكثير من الناس يعتقد بأن الإيمان هو العبادات ، و أن الميزان التفاضلي الكثرة في العادات ، فقلت : إن العبادة هذه الشعائرية إن لم ترتبط بغاياتها لماذا وجدت ؟ و لماذا فرضها الله ؟ ولماذا كان التكليف بها جعل الله منها هباء منثوراً ؟ ونستذكر حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

الآن دكتور راتب نريد أن نتابع ما بدأناه ، ونريد أن نتلمس مسألة الأخلاق والخلق من خلال الكتاب والسنة ، ومن خلال سير الصحابة الكرام ، الرعيل الأول في هذا الموضوع ؟

الإنسان في حقيقته زمنٌ :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، النقطة إذا تحركت رسمت خطاً ، والخط إذا تحرك رسم سطحاً ، والسطح إذا تحرك شكل حجماً ، والحجم إذا تحرك شكل زمناً ، فمن أدق تعريفات الزمن أنه البعد الرابع للأشياء ، و قد نستغرب أن من أدق تعريفات الإنسان المخلوق الأول أنه زمن ، هو بضعة أيام ، هذا التعريف للإمام

الجليل الحسن البصري ، الإنسان بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، لأنه كائن متحرك نحو هدف ثابت ، الآن اركب قطاراً إلى الزبداني ، وانظر إلى ساعتك ، كل ثانية تمضي تقترب من الهدف ، إذاً : هذه الرحلة زمن ، والإنسان زمن ، الإنسان في أدق أدق تعريفاته أنه زمن ، أو أن أثمن شيء يملكه هو الزمن ، أو أن رأسماله هو الزمن ، بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

فكيف يقول الله عز وجل في سورة يقول عنها الإمام الشافعي : " لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم " ، هي سورة العصر ، خالق السماوات و الأرض يقسم لهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن ، يقسم له إنك خاسر :

وَالْعَصْرِ

[سورة العصر : 1]

جواب القسم :

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

[سورة العصر : 2]

وأقسم الله بمطلق الزمن لهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن ، قال له : إنك خاسر ، إله يقسم ، فما معنى الخسارة ؟ معنى الخسارة أن مضي الزمن يستهلكه ، لذلك الإنسان العاقل يعد عمره عداً تنازلياً لا عداً تصاعدياً ، فلا يقول : أنا بلغت من العمر خمسين ، يقول : كم بقي لي ؟

لو ذهبنا إلى حمص مثلاً اللوحات تنازلية مئة وستون ، مئة وأربعون ، مئة وعشرون ، مئة ، ثمانون ، ستون ، أربعون ، عشرون ، عشرة ، خمسة ، واحد ، حمص ترحب بكم ، فالإنسان البطل يعد عمره عداً تنازلياً ، وفي أكثر دورات البرمجة اللغوية العصبية ، وهي شائعة الآن شيوعاً كبيراً ، وهي عبارة عن قواعد مستنبطة من الناجحين في الحياة ، هذه الدورات اسمها الدورة العصبية اللغوية ، أحد قواعد هذه البرمجة : " ابدأ من النهاية " ، إذا بدأت من النهاية يأتي عملك منسجماً مع هذه النهاية ، يقول الله عز وجل :

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

[سورة العصر]

لأن كل الذي يحصله الإنسان في الدنيا يخسره في ثانية واحدة ، كل عظمة الإنسان، وهيمنته ، وقوته ، وحجمه المالي، والذين حوله متوقف على ميلي وربع قطر شريانه التاجي ، فإذا ضاقت هذه اللمعة دخل في متاعب لا تنتهي ، وكل عظمة الإنسان ، وإمكاناته ، وهيمنته ، ومن حوله ، وماله متوقف على سيولة دمه ، فإذا تجمدت نقطة دم كرأس الدبوس في مكان ما من دماغه ، ففي مكان يصاب بالشلل ، وفي مكان يصاب بالعمى ، وفي مكان يفقد ذاكرته ، فكل عظمة الإنسان مبنية على سيولة دمه، وكل

عظمة الإنسان المتأله ، هذا مصطلح استوردناه من الأجانب ، وفي الحدث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

[أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

فكل عظمة الإنسان متوقفة على نمو خلاياه ، فإذا نمت نمواً عشوائياً دخل في الورم الخبيث ، وانتهت حياته .

إذاً : الإنسان خاسر لا محالة ، لأنه لو مات موتاً طبيعياً كل شيء جمعه في حياته يخسره في ثانية واحدة :

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ

[سورة العصر]

أين رحمة الله ؟ رحمة الله في قوله :

إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

[سورة العصر : 3]

رحمة الله لا في أن تنفق الوقت الذي هو أثمن شيء تملكه ، لا في أن تنفق الوقت الذي هو أنت ، لا في أن تنفق الوقت الذي هو رأسمالك الوحيد إنفاقاً استهلاكياً ، بل ينبغي أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً ، هذا هو الفرق بين الأخلاقي وغير الأخلاقي .

غير الأخلاقي ينفق وقته إنفاقاً استهلاكياً ، يأكل ، ويشرب ، ويستمتع ، وعمله متكرر ، يستمتع ، يتابع الأخبار ، له تعليقات معينة ، يسهر ، يسافر ، يتنزه ، ثم يفاجأ بالموت الذي ينهي كل شيء .

الأستاذ علاء :

يأتيه بغتة ، وكأنه لم يحسب لذلك الموقف .

ثم يأتي الموت بغتة !!!

الدكتور راتب :

كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت :

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

****

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبـــور جنازة فاعلم بأنك بعدهــا محمول

***

حينما نبدأ من النهاية في البرمجة اللغوية العصبية الآن تنسجم مع هذه النهاية .

الأستاذ علاء :

يتسق عمل الإنسان والحركة مع النهاية .

عملُ الإنسان وحركته تتسق مع النهاية :

الدكتور راتب :

مرة كنت في مطار شيكاغو ، أعجبني شريط متحرك ، إذا وقفت عليه يمشي بك ، إذا مشيت عليه سرعتك تتضاعف ، وإن بقيت واقفاً عليه تمشي مع المشاة ، لكن التفكر في الموت ، وأن تبدأ من النهاية هذا يصونك عن أن تخرج عن منهج الله ، وهذا يسرع خطاك إلى الله .

الموت له وظيفة إيجابية كبيرة جداً ، لك أن تؤسس شركة ، ولك أن تنال دكتوراه ، ولك أن تتزوج ، ولك أن تسهم في بناء الأمة ، ولك أن تكون إيجابياً معطاء ، ومع ذلك تفكر في الموت ، لأن الموت فيه حساب ، إذا فكرت في الموت ، وأن فيه ينتهي كل شيء تنضبط وفق منهج الله ، لأن الشهوات محرك، و العقل مقود ، و المنهج طريق ، فمهمة العقل الحفاظ على البقاء في الطريق عن طريق المقود ، الحركة شهوة ، والعقل مقود ، والطريق هو الشرع ، فلذلك حينما يعرف هذا الإنسان ماذا بعد الموت ينجح .

الركنان المتلازمان في القرآن : الإيمان بالله واليوم الآخر :

بالمناسبة ، أستاذ علاء ، ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله واليوم الآخر ، و أنا أقول لك بصدق : حينما تؤمن باليوم الآخر إيماناً حقيقياً كما أراد الله فلابد من أن تنعكس موازينك مئة وثمانين درجة ، يصبح العطاء هو الهدف عندك ، ترقى بالعطاء لا بالأخذ ، ترقى بخدمة الخلق لا باستخدام إمكاناتهم لصالحك ، ترقى بأن تكون نموذجاً تبحث عن هدف ، وقيمة لا عن مصلحة وحاجة ، فحينما يستهلك هذا الإنسان وقته استهلاكاً دون جدوى يصاب بصعقة عند الموت ، فيتمنى فيها لو كان تراباً :

وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً

[سورة النبأ : 40]

أما حينما ينفق وقته إنفاقاً استثمارياً أي يفعل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد مضي الوقت ، الآن :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة العصر : 3]

ما لم تبحث عن الحقيقة ، ما لم تبحث عن سر وجودك ، ما لم تبحث عن غاية وجودك ، ما لم تبحث عن منهج ينتظم حركتك في الحياة ، ما لم يكن لك هدف واضح فإنك في خسارة :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة العصر : 3]

وهذا البحث يحقق الحاجة العليا في الإنسان ، والإنسان لا ينتمي إلى إنسانيته إلا إذا بحث عن الحقيقة ، من خلقني ؟ لماذا أنا في الدنيا ؟ أين كنت ؟ ماذا بعد الموت ؟ ما الشيء الذي إذا فعلته سلمت وسعت ؟ هذه الحقائق خطيرة جداً ليس البحث عنها استهلاكاً للوقت ، بل هو استثمار للوقت ، قال تعالى :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة العصر : 3]

الحقيقة وحدها لا قيمة لها إطلاقاً ، إنسان معه مرض جلدي ، ونصحه الطبيب أن يعرض نفسه للشمس، وجلس في غرفة قميئة مظلمة فيها رطوبة ، وقال : يا لها من شمس ساطعة ، إنها شمس تشفيني ، إنها شمس تأخذ بالألباب ، لو بقي إلى يوم القيامة يثني على الشمس ، وهو قابع في غرفة مظلمة لا ينتفع منها ، لأنك ماذا فعلت ؟ أنت حينما تؤمن بالله ما زدت على أن أقررت بحقيقة صارخة وناصعة :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

[سورة العصر : 3]

هل تصدق أستاذ علاء أن الله عز وجل لخص القرآن كله بآية واحدة :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً

[سورة الكهف : 110]

أي ما لم تتحرك ، ما لم تلتزم ، ما لم تستقم ، أتمنى أن أوضح الفكرة بمثل من التجارة :

التجارة كم نشاط لها ؟ مئات الألوف ، شراء مستودعات ، شراء مكاتب ، تعيين مندوبي مبيعات ، استيراد بضاعة ، مراسلة شركات ، بيع البضاعة ، الإعلان عن البضاعة ، عشرة آلاف نشاط ، هل تستطيع أن تضغط التجارة كلها بكلمة واحدة ، أنا أضغطها في الربح ، فإن لم تربح فلست تاجراً .

إذاً الآن : الدِّين مؤتمرات ، ومساجد ، وكتب ، ومؤلفات ، وندوات ، وفضائيات ، ونشاط إسلامي ، إن لم يضغط بكلمة استقامة فلا قيمة له ، بل يصبح ثقافة ، الآن هناك من يقول : أنا عندي خلفية إسلامية ، وأرضية إسلامية ، ونزعة إسلامية ، وتفكير إسلامي ، واهتمام إسلامي ، لكنه ليس مسلماً .

هناك شاب درس في أمريكا ، وأعجبته فتاة إعجاباً لا حدود له ، فاستأذن والده أن يتزوج منها ، أقام عليه الدنيا ، وهدده أن يتبرأ منه لو تزوجها ، لأنها ليست مسلمة ، فخطرت في بال هذا الشاب أن يستأذن والده لو أنها أسلمت ، أتسمح لي بالزواج منها ، فقال له : أسمح لك ، فاختل توازنه من الفرح ، اشترى لها عشرين كتاباً باللغة الإنكليزية ، وهي ذكية جداً ، قالت له : أنا لا أقرأ هذه الكتب وأنت معي لئلا تضغط علي ، طلبت إجازة أربعة أشهر كي تقرأ هذه الكتب ، إما أن تسلم ، وإما ألا تسلم ، وعدّ هذا الوقت لا بالأشهر ، ولا بالأسابيع ، ولا بالأيام ، ولا بالساعات ، بل بالثواني ، وكادت روحه تخرج من جسمه ، فلما التقى بها بعد أربعة أشهر نطقت بالكلمة التي اختل توازنه لها ، قالت : لقد أسلمت ، ولكني لن أتزوجك ، لأنك لست مسلماً بحسب ما قرأت .

الأستاذ علاء :

عندما عرفت ، وتبينت ، لأنها قارنت به وقالت له : لست مسلماً ، أي ما قرأته أردت أن ينطبق عليك فلم ينطبق عليك ، فأنت خرجت من هذه الدائرة ، فسلوكه ، وأخلاقه لم تنطبق مع معطيات الإسلام .

تفادي الخسارة بالعمل الصالح في كل الأوقات :

الدكتور راتب :

فلا يمكن أستاذ علاء أن تتلافى الخسارة إلا بحالة واحدة ، أن نعمل في الزمن الذي سينقضي عملاً ينفعنا بعد انقضاء الزمن :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة العصر : 3]

رحمة الله في (إلاّ) ، وما لم ترفق عملك بسلوك ، وما لم ترفق إيمانك بسلوك فلا قيمة لهذا الإيمان إطلاقاً ، الدليل إبليس مؤمن ، والدليل قال له :

فَبِعِزَّتِكَ

[سورة ص : 82]

آمن به رباً ، و آمن به عزيزاً ، وآمن به خالقاً ، قال له :

خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ

[سورة الأعراف : 12]

وآمن باليوم الآخر فقال :

أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

[سورة الأعراف : 14]

ومع ذلك فهو إبليس ، فأن تعتقد في شيء صحيح دون أن ينعكس على سلوكك لا قيمه له ، لذلك ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

[سورة العصر : 3]

لابد من أن ينعكس إيمانك سلوكاً وانضباطاً وعطاء ، والدليل :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا

[سورة الأنفال : 72]

بين الإيمان الحقيقي وإيمان الشكليات :

ما لم تأخذ موقفاً ، ما لم تعطِ لله ، ما لم تمنع لله ، ما لم تصل لله ، ما لم تقطع لله ، ما لم ترض لله ، ما لم تغضب لله فلست ملتزماً .

نحن الآن عندنا مشكلة ، عندنا إيمان اسمه إيمان صالونات ، إيمان يتكلم به فقط ، إيمان مؤلفات ، أحياناً نتزين به ، لأن ثمة لآن توجها نحو الدين عاليا جداً ، هناك من يركب هذه الموجة ، أنا عندي أرضية إسلامية ، و خلفية إسلامية ، و نزعة إسلامية ، لكن هو ليس مسلماً ، قالت له : لن أتزوجك ، لأنك لست مسلماً بحسب ما قرأت :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

[سورة العصر : 3]

إذاً يمكن أن نضغط الدين كله بكلمة واحدة (الاستقامة) .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

[سورة فصلت : 30]

الآن :

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

[سورة العصر : 3]

الحركة نحو الخَلق بعد معرفة الحق :

أنت بعد أن عرفت الله أحببت من حولك ، هؤلاء من بني البشر ، إخوانك في الإنسانية:

إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

[سورة العصر : 3]

أي ما لم تبحث عن الحقيقة ، وما لم تعمل بها ، وما لم تدعُ إليها ، وما لم تصبر على البحث عنها ، والعمل بها ، والدعوة إليها فأنت خاسر :

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

[سورة العصر]

إذاً : أنا متى أستقيم على أمر الله ؟ و متى أبني حياتي على العطاء ؟ حينما أعرف سر وجودي ، و غاية وجودي ، و إلا أكون خاسراً بنص القرآن الكريم ، و كان الصحابة الكرام لا يتفرقون إلا على هذه السورة :

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

[سورة العصر]

لو كنت بائعاً ، و الغلة اليومية مليون ليرة ، ولم تبحث عن الحقيقة ، و لم تعمل بها ، و لم تدعُ إليها ، و لم تصبر على البحث عنها و العمل بها ، و الدعوة إليها بنص هذه الآية فأنت خاسر ، والإنسان يحب الربح ، لذلك قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

[سورة الصف]

الأخلاق لها أصل عَقديّ :

إذاً : قضية الأخلاق لها أصل عقدي ، لها أصل إيديولوجي بالتعبير الحديث ، ما لم يكن فهمي لسر وجودي ، وغاية وجودي ، ما لم فهمي للكون ، ولحقيقة الحياة الدنيا ، ولحقيقة الإنسان وأنت مخلوق أول ، أنت مخلوق مكرم ، أنت مخلوق مكلف ، ما لم أعرف من أنا فلن أستطيع أن أكون أخلاقياً ، بذكاء مني أفعل شيئاً أنتزع إعجاب الآخرين ، فإذا أتيحت لي فرصة أعتدي على أموالهم وأعراضهم أخرج عن أخلاقي ، ليس هذا هو الخلق ، لأن سيدنا عمر رأى راعيا قال له : << بعني هذه الشاة ،

وخذ ثمنها ، قال له : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، قال له : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله >> ؟

أستاذ علاء ، هذا الأعرابي لا عنده مكتبة ، ولا عنده مكتبة أشرطة ، ولا درس في الجامعات ، ولا معه (ا ف ا ر س) ، ولا (بورد) ، ولا معه دكتوراه ، وليس معه ماجستير ، بثقافة محدودة جداً وضع يده على الدين .

أنا أقول كلمة : كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، و كفى به جهلاً أن يعصيه ، هذا الأعرابي وضع يده على جوهر الدين ، ولكن أين الله ؟

أنا أقول لك كلمة : لا يمكن أن تستقيم حياتنا من دون إيمان بالله ، إنسان لو دخل إلى دورة مياه ، ولم ينظف أصابعه تماماً ، وكان معه مرض كبد وبائي يمكن أن يعدي ثلاثمئة إنسان يأكل في هذا المطعم بمرض قاتل ، فما لم يكن هناك انضباط ذاتي فلا تستقيم الحياة .

مرة كنت في أمريكا ، فسمعت صوتاً غريباً يصدر من المركبة ، سألته : ما هذا ؟ قال : هذا الصوت ينبهني أنه بعد حين هناك جهاز يكشف السرعات الزائدة ، واضع القانون ذكي ، والمواطن أذكى ، فصنع جهازاً لكشف هذا الجهاز الذي ينبئ بالسرعة الزائدة .

الآن الدولة هناك في طور أن تصنع جهازاً يكشف ما في السيارات من أجهزة تناقض هذا الجهاز ، هذه معركة بين عقلين ، أما حينما نؤمر بالصيام فهل يستطيع إنسان أن يدخل إلى بيته ، و يغلق الأبواب ، ويضع في فمه قطرة ماء واحدة ؟ أبداً ، الحياة لا تنضبط إلا بالخوف من الله ، ولا تنضبط إلا بمراقبة الله ، ولا تنضبط إلا إذا شعرت أن الله معك ، واعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من خلال ما قدمت أعود إلى هذا العنوان مرة ثانية ، ونعود إلى أصوله في الكتاب و السنة ، ونعود إلى ما جرى مع النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته في بداية الدعوة ، ونعود إلى قضية كيف النبي عليه الصلاة والسلام ملك قلوب الناس ، وقلوب البشر من غير جاهٍ ، ومن غير سلطان مادي عليهم ، وكيف صبغ أتباعه وصحبته بالأخلاق ، وحملهم بالأخلاق إلى الاستقامة التي هي عين الكرامة ، كما قالوا ، ودافعوا عن ذلك المنهج ، ودافعوا عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وعن إيمانهم حتى الموت ؟ يمكن أن نرسم اللوحة إن سمحت ؟

الصورة الأخلاقية في النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه :

الدكتور راتب :

النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح يقول : إنما ، وقبل أن أتابع إنما أداة قصر وحصر ، إذا قلت : إنما شوقي شاعر ، هو شاعر فقط ، ليس كاتباً ، و ليس تاجراً ، وليس قاضياً ، إنما شوقي شاعر، أما إذا قلت : إنما الشاعر شوقي فها له معنى آخر ، لا شاعر إلا شوقي ، إنما تفيد الحصر والقصر ، فإذا قال سيد الخلق وحبيب الحق :

((إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد]

معنى ذلك أن فحوى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام مكارم الأخلاق ، وهذا عنوان هذا البرنامج الطيب إن شاء الله .

بالمناسبة ، الناس لا ينجذبون إلى الشخص بعباداته ، بل بأخلاقه ، لا يتحلقون حول إنسان لأنه يصلي مئة ركعة في الليل ، يتحلقون حوله لأنه متسامح معهم ، لأنه يحب الخير ، لأنه كريم ، لأنه بنى حياته على العطاء ، فالذي يجذب الناس إلى هذا الدين ، ويجعلهم يدخلون في دين الله أفواجاً هو الخلق ، والذي يجعل الناس ينصرفون عن الدين ، ويخرجون منه أفواجاً هو التطبيق السيئ لهذا الدين ، هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً في هذا اليوم .

الأستاذ علاء :

تماماً ، لذلك الله عز وجل خاطبه وقال :

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

[سورة القلم : 4]

هذه لها بحث طويل ، دكتور هل في الحلقة القادمة إن شاء الله نستمر في موضوع التمهيد ، وربما يأخذ معنا حلقتين حتى نستكمل التمهيد لهذا العنوان .

الدكتور راتب :

هذه تسمى الآن المنطلقات النظرية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (03-95) : ثناء الله على أخلاق منحة للنبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-10-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالسابق وربط باللاحق :

الحقيقة أنك قد بسطت في الحلقتين عن مسألة تغيب عن الكثير منا ، عندما شرحت كلام ابن قيم الجوزية : " الإيمان هو الخلق " ، واخترت لهذا البرنامج هذا العنوان مقتبساً من ابن القيم في قوله ، وتبينا في الحلقتين الماضيتين بأن ميزان التفاضل بين الناس إيماناً من خلال الخلق ، فمن زاد على أخيه في خلقه زاد عليه في الإيمان ، وتبينا في تعريف الخلق والأخلاق بأنها انضباط وعطاء ، الانضباط هو الكابح المعنى السلبي ، العطاء هو المعنى الإيجابي ، الدفع نحو البذل والخير والجود والكرم ، أما الانضباط فلا أؤذي ، فلا أشتم ، فلا أتناول أحداً في مكروه ، إذاً كبح أو منع ثم عطاء ، هذا هو التعريف الذي وصلنا إليه من خلال بسطتم في الحلقتين الماضيتين ، وتبينا أن العبادة طاقة وطاعة ، وأن العبادة توصل إلى مراتب علية ، وأن العبادة إن لم ترطبت بأهدافها فتذهب هباء منثورا ، ولا يستفيد منها من قام بالطاعة ، رغم أن الطاعة يجب أن يؤديها ، ولكن لا يقطف ثمارها .

جئت بمثال أستاذنا ، كمَن يدخل الامتحان ولم يحضر دروسه ، ولم يحضر لمواده ، ولم يداوم ... وجاء إلى الامتحان ، وقد وضع مجموعة من الأقلام الصفراء والخضراء ، وأتى بكل عُدده المساعدة ليتقدم إلى الامتحان هو حضر ، أدى الشكل ، لكنه لم يجِب عن أي سؤال ، ولم ينجح .

وصلنا إلى مسألة هامة جداً عندما امتدح الله عز وجل خاتم أنبياء بمديح ، هذا المديح يعتبر ثناء ، ويعتبر وساماً ربما تفرد به النبي عليه الصلاة والسلام عن بقية الأنبياء والرسل ، وقال :

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

(سورة القلم)

توقفنا في الحلقة الماضية عند هذا المحض ، كيف نفسح فيه ، وسننتقل منه إلى مفاصل أخرى .

ثناء الله على أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام :

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاء الله خيراً ، الله عز وجل منح نبيه الكريم خصائص كثيرة لا تعد ولا تحصى ، منحه الوحي ، منحه المعجزات ، منحه الفصاحة ، منحه البيان ، منحه التأييد ، منحه الجمال ، منحه أشاء كثيرة ، لكن الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى حينما أثنى عليه لم يثن عليه لكل هذا الذي منحه إياه ، بل أثنى عليه لخلقه العظيم .

سأوضح المعنى بمثل : لو أنك قدّمت لابنك مركبة ، هل يعقل أن تقيم حفلا تكريميا له لأنك قدمت له هذه المركبة ؟ لا معنى لهذا الحفل ، لكن إذا نال الدرجة الأولى في الثانوية تقيم له حفلا تكريميا ، لأن التفوق من كسبه ، ومن اجتهاده .

1 – الخُلُق جُهدٌ بَشريٌّ :

فالخُلق جهد بشري ، عملية ضبط ، الخلق عطاء ، الخُلق أن تخرج من ذاتك ، الخلق أن ترحم من حولك ، الخلق أن تكون قدوة لهم .

2 – تزويد الله نبيَّه بأدوات الدعوة :

إن الله عز وجل أعطى نبيه الكريم أدواة الدعوة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((أنا أفصح العرب بَيْد أني من قريش))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

أعطاه فصاحة اللسان ، أعطاه ذاكرة تفوق حد الخيال .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى

(سورة الأعلى)

أعطاه المعجزات ، أعطاه الوحي ، أعطاه القرآن ، عرج به إلى السماء ، إلى سدرة المنتهى ، ولم يذكر الله هذه العطاءات لأنها من الله عز وجل ، وقد تلقاها بفعل أنه هيأه الله ليكون الداعية الأول في العالم .

3 – وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ :

لكن حينما أثنى عليه ، أنثنى على خلقه :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أما نحن فقد نجد أحدنا ذا خلق ، ولكن لا كما وصف النبي :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(على) تفيد الاستعلاء .

أنا أحياناً أُستفز ، أدخل في صراع مع نفسي ، أنتقم لا أنتقم ، فإذا انتقمت ما النتيجة ؟ قد أنتصر في النهاية على نفسي ، فإذا انتصرت على نفسي فأنا ذو خلق ، لكن لا على خلق عظيم ، مع أنه متمكن إلى درجة أنه لا يدخل في الصراع ليكون أخلاقياً متمكنا من أخلاقه لدرجة كأنه في قمة جبل ، لكن نحن على الساحل ، قد تأتي موجة فتأخذنا إلى البحر ، فنحاول أن نتفلت منها ، نحن في صراع ، وقد كان عليه الصلاة والسلام على خلق في قمة جبل .

تقريباً : إذا كان هناك ميزان ، في الكفة الأولى شهوات الإنسان ، وحاجاته وغرائزه ، وفي الكفة الثانية قناعاته ، لو تصورنا أن شهواته بوزن خمسة كيلو ، وكلما سمع درسا ، أو سمع محاضرة ، يوضع في الكفة الثانية خمسة غرامات أو عشرة غرامات ، مادامت الشهوات والحاجات والميول والغرائز لها ثِقل كبير فهو مع المعصية والإثم والتفلت ، إلى أن تصبح الكفة الثانية فيها قناعات بوزن شهواته ، هنا دخل في الصراع ، أذهب لا أذهب ، أنتقم لا أنتقم ، أخالف لا أخالف ، أما إذا أصبحت القناعات مئات الكيلو غرامات والشهوات خمسة كيلو دخل في الأعماق ، لذلك قال تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ

(سورة الحج الآية : 11)

فأقلُّ إغراء يأخذه إلى المعصية ، أو أقلّ ضغط ، أما المؤمن إذا كان في الأعماق فلا تثنيه عن هدفه لا سبائك الذهب اللامعة ، ولا سياط الجلادين اللاذعة ، هذا هو الثبات ، أحدٌ أحد ، كما قال سيدنا بلال .

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

الأنبياء قِمم البشر :

إذاً :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

شيء رائع جداً ومتمكن ، هو ليس في صراع في الأعماق ، بل هو في قمم الجبال ، لذلك الأنبياء قمم البشر ، ولا ينبغي أن نقبل قصة وردت في بعض التفاسير من الإسرائيليات تأخذ من مكانتهم ، أو تأخذ من كمالهم ، هم قمم البشر ، وقدوة لبني البشر ، ونبينا عليه الصلاة والسلام على رأس هؤلاء القمم من البشر .

المذيع :

أستاذنا ذكرت ما قاله تعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

كأكبر وسام وضع على هامة النبي عليه الصلاة والسلام ، نأتي إلى ما قبل ذلك بقليل ، عند بداية الوحي ، وعند نزول الوحي ، ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام يتحنث في الغار ، وجاء وقال :

((دثّروني دَثّروني))

[مسلم عن جابر]

وموقف السيدة خديجة أم المؤمنين في حوارها مع النبي في تثبيته ، لأنه شيء جديد نزل عليه ، قالت له مجموعة أشياء ، تصب في بوتقة وخانة ولوحة :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

الإنسان مفطور على التديُّن :

الدكتور :

والله هناك ملمح رائع جداً قد يغفل عنه بعض الناس ، مَن علّمها ؟ ولم ينزل الوحي بعد ، أن الله لم يخيبه ، وفي الجاهلية لم يخزه ، لأنه يصل الرحم ، ويحمل الكَلَّ ، ويَقري الضيف ، ويعين على نوائب الدهر، من علمها هذه الفطرة ؟ هذا أكبر شاهد على أن الإنسان مفطور على التدين ، وبفطرتها أدركت أن هذا الإله العظيم لا يمكن أن يخزي إنساناً محسناً يقري الضيف ، يحمل الكَلّ ، يعين على نوائب الدهر ، يصل الرحم ، بفطرتها ، لم يأتِ الوحي بعد إطلاقاً .

لا يستوي المحسن مع المسيء : مع السيدة خديجة :

وأنا والله أقول من أعماقي لكل شاب مؤمن ، لكل شابة مؤمنة : تفاءل ، وثق بالله عز وجل .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

(سورة الجاثية)

أستاذ علاء ، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل يتناقض مع وجوده ، أن يستوي المحسن مع المسيء ، الصادق مع الكاذب ، المستقيم مع المنحرف ، المنصف مع الجاحد ، هذا شيء مستحيل وألف ألف ألفِ مستحيل أن يكون .

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

قد نتوهم هذا في الآخرة ، لا ، في الدنيا .

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

مكانة المؤمن بيته ، زوجته ، أولاده ، وصحته ، تألقه ، هذا في حساب ، هذه مكافأة الله في الدنيا .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ

(سورة الرحمن)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

(سورة القلم)

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

(سورة القصص)

والله الذي لا إله إلا هو ، وأقول هذا الكلام ، وأنا أعني ما أقوله كلمة كلمةً : أن يستوي عند الله المحسن مع المسيء ! والمستقيم مع المنحرف ! والصادق مع الكاذب ! هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، وإنما مع وجوده ، ويجب أن نطمئن ، وأن أطمئن كل شاب وشابة ، وكل مشاهد لهذا البرنامج ، أنه إذا استقام على أمر الله فله معاملة خاصة ، أكدَّها بدء الوحي من خلال السيدة خديجة ، لم يأتِ شيء من الوحي بعد ، لم تتعلم شيئاً من النبي ، لكنها بفطرتها أدركت أن هذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض لا يمكن أن يعامَل إنسانٌ يصل الرحم ، ويحمل الكَلّ ، ويَقري الضيف ، ويعين على نوائب الدهر ، كما يعامَل إنسانٌ منحرف ، متفلت ، مسيء للبشر .

المذيع :

ونعود في هذه المحطة ، حتى المشركون قالوا عنه : الصادق الأمين ، ولما خرج أبو سفيان على قيصر ، وقال : أخبروني عن صاحبكم ، فشهد بأخلاقه ، وشهد بأنه يؤدي الأمانة ، وأنه على خلق كبير، وأنه يتحلى بأشياء لا يتحلى بها غيره من الناس .

حُسنُ خُلق النبي وسلوكُه السوي مع الطرف الآخر :

الدكتور :

لذلك المسلمون حينما فهموا دينهم فهماً مغلوطاً ، واستباحوا أموال الطرف الآخر ينقدهم النبي بسلوكه ، قبل أن يهاجر ترك ابن عمه علياً رضي الله عنه ، وخاطر بحياته من أجل أداء الأمانات ، وأموال المشركين ليسوا مؤمنين ، أرأيت إلى هذه الدقة ؟ هذا الذي يستبيح أموال الطرف الآخر بدعوى أنه ليس مسلماً ، فلنأخذ ماله يخالف منهج النبي عليه الصلاة والسلام ، بل إن النبي لما قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة]

في رواية :

((من غشَّنا))

لو غششت غير مسلم تقع في إثم كبير ، لأن الطرف الآخر إذا أسأت إليه لا يقول : فلان أساء إلي ، يقول : الإسلام سيء ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

كل مسلم سفير الإسلام ، والله وأنا أقول : لو أن الجاليات الإسلامية في العالم طبَّقتْ منهج الله لكان موقف الغرب من الإسلام غير هذا الموقف .

المذيع :

الآن سيدي الكريم ، ننتقل إلى ما بعد أن امتدحه الله عز وجل بقوله :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

فقد بدأت الدعوة ، وبدأ الاحتكاك مع الصحابة الكرام ، ومع العالم ، وبدأ المجتمع مِن حوله يكبر ، وبدؤوا يعركون شخصية النبي عليه الصلاة والسلام في تماس يومي مع النبي عليه الصلاة والسلام ،

في المعاملات ، في الطاعة ، في التوعية ، في الحياة اليومية ، معه لساعات طويلة ، نزلت الآية الكريمة التي تقول :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

(سورة آل عمران الآية : 159)

نقف عند هذا المعنى .

معادلة رياضية :

1 – رحمة ـ لين ـ التفاف :

الدكتور :

هذه الآية معادلة رياضية ، معناها أي يا محمد بسبب رحمة استقرت في قلبك من خلال اتصالك بنا ،

(لِنْتَ لَهُمْ)

فلما

(لِنْتَ لَهُمْ)

التفوا حولك ، إذاً : رحمة ، لين ، التفاف .

2 – فظاظة ـ غلظة ـ انفضاض :

ولو كنت منقطعاً عنا لقسا قلبك ، فانعكس قلبك غلظة ، فانفضوا من حولك ، رحمة ، لين ، التفاف ، قسوة ، غلظة ، انفضاض .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

هذا المخاطب نبيٌّ فكيف بإنسانٍ دونَه ؟!

لكن هنا ملمح رائع ، يا محمد أنت أنت ، على كل ما أوتيت من علم ومعرفة ، ووحي ، ومعجزات ، وفصاحة ، وبيان ، وجمال ، وحكمة ، كل خصائصك على ما أنت فيه من هذه الميزات المذهلة ، أنت أنت بالذات ، مع هذا :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

فكيف بإنسان لم تؤتَ الوحي ، ولم يؤتَ الفصاحة ، ولا الوسامة ، ولا الحكمة ولا المعجزات ، وفظ غليظ .

جاء واعظٌ بعضَ الملوك ، قال له : سأعظك، وأغلظ عليك ، قال له : ولِمَ الغلظة يا أخي ؟ لقد أتى مَن هو خير منك إلى من هو شر مني ، أرسل الله موسى إلى فرعون فقال له :

فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى

(سورة طه)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف))

[أخرجه البيهقي ، عن ابن عمرو]

فهذا العنف ، وتلك القسوة في الدعوة إلى الله مخالفة لسنة النبي عليه الصلاة والسلام .

المذيع :

اسمح لي آخذ هذا المعنى إلى جانب هو إكرام للنبي عليه الصلاة والسلام صاحب الخلق الرفيع والرحمة ، وعدم الغلظة ، لما قال الله عز وجل في كتابه :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

(سورة الأنفال الآية : 33)

الإكرام لهذا الخلق ، حتى لو أساءوا فبوجودك بينهم :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ : آية فيها حلٌّ لمشكلات المسلمين :

1 – معنى الآية بعد وفاة النبي :

الدكتور :

أرأيت إلى هذه الآية ؟ لعل فيها حلاً لمشكلات المسلمين ، إضافة إلى المعنى الذي تفضلت به ، يعني يا محمد ، ما دامت سنتك ومنهجك قائمة في حياتهم بعد موتك ففي وجودك إكرام لك ، فلِمَ يعذبون ؟ ولن يُعذَّبوا ما دمت فيهم ، أما إذا غادرت الدنيا فما كان الله ليعذبهم وسنتك قائمة فيهم ، في بيوتهم ، في أعمالهم ، في كسب أموالهم ، في إنفاق أموالهم ، في حلهم ، في ترحالهم ، في لهوهم ، في أحزانهم ، في أفراحهم ، ما دام منهج النبي قائماً في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله ، ونحن في بحبوحة ، وهناك بحبوحة أخرى :

وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

(سورة الأنفال)

إما أن تكون على منهج الله فأنت في مأمن ، وإما أن تخطئ فتندم فأنت في مأمن ، هاتان بحبوحتان وأمنان من الله لأمة النبي عليه الصلاة والسلام :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

المذيع :

دكتور ، نأتي إلى مسألة الضبط الذاتي ، أن ينضبط الإنسان بخلق أصيل مرتبط بالسماء ، أو أن ينضبط كما تفضلت في حلقات سابقة بالذكاء والعقل ، ولكن هذا الذي ينضبط بالذكاء والعقل ، وهو غير مؤمن ، وليست البواعث الأخلاقية لديه ، كانت اصطباغية سماوية بذكاء وعقل ، هذا إذا ما استنفرته ، أو ما أتيت عليه ، أو دست على طرفه خرج عن كل قيمة وغال ، وتعسف في الرد ، واستباحة حرمات الآخرين .

الآن نأتي إلى آية قرآنية نتبين من خلالها مسألة الضبط ، ومسألة العلم بالشيء ، وآلية الضبط عند الإنسان ، الله عز وجل يقول :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً

(سورة الطلاق)

القدرة والعلم ، والانضباط مع القدرة والعلم .

الضبط الذاتي :

1 – نظام الكون وانضباطه على سلوك منتظم :

الدكتور :

أستاذ علاء ، السؤال الأكبر : مثلاً : هناك نجم يبعد عن الأرض عشرين مليار سنة ضوئية ، هذا الكون العظيم ما علة ووجوده ؟ بنص هذه الآية :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

هذه اللام لام التعليل :

(لِتَعْلَمُوا)

من أجل أن نعلم ، من أجل أن نعرف الله ، من أجل أن نحبه ، من أجل نطيعه ، من أجل أن نسعد بقربه،

(لِتَعْلَمُوا)

لكن متى تسعدون بقربه ؟ إذا أطعتموه ، كيف تطيعونه ؟

2 – انضباط المخلوق مع مخلوق مثله يطوله علمُه وقدرتُه :

لا بد من مثل : مواطن يركب مركبته ، وقف عند الإشارة الحمراء ، والشرطي واقف ، والشرطي الآخر على الدراجة ، ونقيب في الشرطة في سيارة ، هو مواطن عادي ، لا يمكن أن يتجاوز هذه الإشارة ، لماذا لا يمكن ؟ لأنه مركّب في أعماقه أن علم واضع قانون السير يطوله من خلال هذا الشرطي ، وأن قدرته تطوله من خلال جهاز المركبة ، فمادام علم واضع قانون السير يطوله من خلال هذا الشرطي ، وأن قدرته ، وصلاحية وزير الداخلية تطوله من خلال حجز المركبة ، ولا بد أن يدفع الغرامة ، فلا يمكن أن يعصي المواطن هذا القانون إلا بحالتين ، في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، حيث لا يطول علم واضع القانون هذا المواطن ، فقد يتجاوز ، أو إذا كان هذا المواطن أقوى من واضع القانون فيتجاوز ، أما إذا كنت موقناً أن عِلم واضع القانون يطولك ، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه .

الآن : لمجرد أن توقن أن الله يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب ، لا يمكن أن تعصيه وهذا أصل في الأخلاق ، الأخلاق انضباط ، آلية الانضباط أن تعلم أن علمه يطولك ، وأن قدرته تطولك انضبط الإنسان .

مثل آخر : مواطن يستورد ما دام تذهب نسخة من المعاملة إلى المالية ، فلابد من أن يُعلن للمالية عن هذه الصفة ، وإلا أهدرت حساباته ، ودفع مبالغ طائلة ، فالمواطن حفاظاً على سلامته ، وعلى ماله يُبلغ المالية عن كل صفة يستوردها ، فإن لم يبلغ أهدرت حساباته ، أي مواطن ، في أي نبد ، في أي نظام ، إذا أيقن أن واضع القانون يطوله علمه وتطوله قدرته لا يخالف ، يخالف إذا ظن أن علمه لا يطوله ، أو إذا ظن أن قدرته لا تطوله .

3 – آلية الانضباط :

فأنت حينما توقن وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه .

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ

(سورة الحديد الآية : 4)

إذا علم أن الله معه ، وأنه يعلم ، وأنه سيحاسب ، وأنه سيعاقب لا يمكن أن يعصيه .

المذيع :

الآن بما تبقى من وقت دكتور هل نستطيع أن نقف عند مفصل أخير في حلقتنا عندما نأتي إلى أركان الإسلام ، الأركان الخمسة ، نتبين من هذه الأركان الضوابط والبواعث ، وكيف تصب في لوحتنا التي نتحدث عنها الإيمان هو الخلق ؟ .

حقيقة الإسلام وحقيقة الجاهلية في نص حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

الدكتور :

سأقدم للإخوة المشاهدين خطبة خطبها صحابي كبير جداً أمام النجاشي حين قال للصحابة : حدِّثونا عن هذا النبي الذي جاء به نبيكم : فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أحمد عن أم سلمة]

هذا مضمون دعوة الله .

الإسلام بناء من خمسة قواعد ذو مضمون أخلاقي :

الآن أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، إذا قلنا : بني الإسلام على خمس ، الإسلام أين هو ؟ هذه لا الخمس ، هذه عبادات شعائرية ، أما مضمون الإسلام فهو مضمون أخلاقي ،

((وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

هذا مضمون منهج الله في الأرض ، وما العبادات الشعائرية إلا مناسبات لتلقي الجائزة على العبادات التعاملية ، وما الامتحان إلا مناسبة إلا لعرض قدرة الطالب العلمية التي حصلها في العام الدارسي كله، والعام الدراسي كله هو العبادة التعاملية ، وساعات الامتحان الثلاث هو العبادة الشعائرية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (04-95) : أخلاق المسلم سامية لا تتأثر بالطوارئ
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-10-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لثلاث حلقات سابقة :

ومن خلال هذه الآطرة : " الإيمان هو الخلق " ، توقفنا في الحلقة الماضية عند خطبة سينا جعفر بن أبي طالب ، وأود أن ألخص بكلمتين ما دار في ثلاث حلقات ، تحدثنا أستاذنا عن تعريف هام للأخلاق، الانضباط والعطاء ، والعبادة يجب أن تؤتي أوكلها وثمارها وأهدافها ، وإلا ذهب الله بها هباء منثورا ، كما جاء في حديث النبي عليه الصلاة والسلام .

إن الأخلاق تهدي إلى البر ، وتهدي إلى الإحسان ، وتهدي إلى كل تعامل طيب وتهدي إلى كل ما يربط أبناء المجتمع ، وما يقرب أبناء المجتمع من بعضهم بعضا ، وما يجعل من المجتمع نسيجاً واحداً ، لكي يكون في لوحة جميلة متسقة ، هذه اللوحة اعتراها ظلمٌ وحيف ، أثّر على اللوحة بكاملها ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))

[متفق عليه]

((إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن النعمان بن بشير]

أعود إلى أن الله عز وجل كرم النبي بوسام تفرد به :

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

(سورة القلم)

نعود إلى ما فسرت :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

(سورة آل عمران الآية : 159)

ونعود إلى قول السيدة خديجة في بداية الوحي ، عندما وصفت أخلاقه بالفطرة ، عرفت أن الله لن يخزيه طالما أنه على هذا الملتقى الخلقي العالي .

نتوقف عندما أمر صحابته بالهجرة إلى الحبشة ، بعد أن اشتد الظلم عليهم في مكة ، قال لهم : اذهبوا إلى النجاشي ، فهذا الرجل لا يظلم عنده أحد ، وسوف يبسط الأمانة عليكم ، ثم جاء قريشًا الخبرُ ،

وعلِموا ، فأرسلوا وفداً لتعكير الصفو ، وإفساد هذه الهجرة ، ولكي يسلمهم جعفراً ومن مع جعفر من الذين هاجروا إلى الحبشة ، وقف جعفر بعد أن تملك يبدو لي في ذلك الوقت عمر بن العاص الذي خطب أمام النجاشي تملّك قلبه ، فوقف سيدنا جعفر ليقول ، وليشهد للنبي ، نعود إلى هذه المحطة الهامة، والتي كما قلت في الحلقة القادمة : لخص فيها جعفر الدين .

الدكتور :

قواعد مهمة : إذا أردت معرفة الإسلام فارجع إلى ينابيعه الصافية :

1 – إذا أردتَ معرفة حقيقة الإسلام فارجع إلى ينابيعه الصافية :

ولكن أنا أريد أن أوضح للإخوة المشاهدين أنك إذا أردت أن تعرف حقيقة هذا الدين ، يجب أن تعود إلى ينابيعه الصافية ، انظر إلى نهر بردى مثلاً في ينبوعه ، إنه ماء عذبٍ صافٍ زلال ، لو ذهبت قريبًا من مصبه لرأيت ماءً أسود اللون .

فنحن إذا أردنا أن نعرف حقيقة الدين ينبغي أن نعود إلى ينبوعه الصافي ، إلى الكتاب والسنة ، وإلى السيرة .

2 – معنى التجديد في الدين : نزعُ ما علق به مما ليس منه :

هناك نقطة مهمة جداً ، من أدق التعريفات التجديد في الدين أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه ، هذا هو التجديد ، ذلك لأن الدين توقيفي ، الدين دين الله عز وجل كمال الله المطلق .

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً

(سورة المائدة الآية : 3)

والصفوة دائماً من المفكرين يفرقون بين الإسلام والمسلمين ، وبين الدين والمتدينين ، وبين أصل الفكرة وسوء تطبيقها .

أركان الأخلاق :

نريد أن نعود الآن إلى ينابيع الدين الصافية ، فهذا صحابي كبير ، وهو يقف موقف الحديث عن حقيقة هذا الدين أمام ملِك ، فقال :

((أيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قوْمًا أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

[أحمد عن أم سلمة]

أستاذ علاء ، هذه أركان الأخلاق ، يعني هذا الإنسان المؤمن الأخلاقي إن حدثك فهو صادق ، وإن عاملك فهو أمين ، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف ، وإن حدثك فهو صادق ، إن عاملك فهو أمين ، إن استثيرت شهوته فهو عفيف ، الآن تتوج هذه كلها بنسب عظيم ،

((نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ))

خالق السماوات والأرض ، لا إلى إله من تمر لما جاعت من تعبده أكلت ربها ، لا إلى إله يبول الثعلبان على رأسه ، فقد ضل من بالت عليه الثعاليب .

فهذا الذي يعبد خشباً ، أو حجراً ، أو شمساً ، أو قمراً ، ونسي خالق السماوات والأرض هو في ضلال مبين .

إذاً :

((فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ))

الكون كله ينطق بوجود الله وكماله ، ووحدانيته ،

((وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ))

الآن المنهج :

((وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

هذه قيم أخلاقية ، منهج أخلاقي ، منهج انضباط منهج عطاء ، منهج إحسان ، لذلك نشير إلى حديث رسول الله الصحيح :

((بني الإسلام على خمس))

[متفق عليه عن ابن عمر]

هناك أعمدة ، وهناك إسلام ، فكأن الإسلام منظومة هذه القيم الأخلاقية ، لكنها يجب أن تبني على إقامة صحيحة ، على حوامل ، أنا أحياناً أكون أخلاقياً لهدف أرضي دنيوي محض آني طارئ ، فإذا استثيرت مكانتي ، أو ضُربت مصلحتي انقلب الإنسان إلى وحش كاسر ، هذه الأخلاق لا تعنينا في هذا البرنامج ، نريد الأخلاق التي نتجت عن اتصال بالله ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ)

((إن محاسن الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله عبدا منحه خلقا حسنا))

[أخرجه الحكيم عن العلاء بن كثير]

أخلاق المسلم لا تتأثر بالطوارئ :

الأخلاق العبادية الناتجة عن إحكام اتصال بالله هذه أصيلة ، وثابتة ، ولا تتبدل ولا تتغير ، ولا تتأثر بالظروف الطارئة ، والمستجدات ، والشبهات ، والشهوات ، هذه فوق كل ذلك ، هذه الأخلاق التي ندعو إليها في هذا البرنامج إن شاء الله ، لا أخلاق الأذكياء أخلاق المصالح ، أخلاق المساومات ، أخلاق ركوب الأمواج ، أخلاق استرضاء الناس ، هذه كلها أخلاق ساقطة عند الله ، قد تجد لها من يقدرها من بين البشر ، لكنها عند الله ساقطة .

المذيع :

وهي غير مقبولة .

دكتور لو أتينا إلى قوله تعالى :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى

(سورة الليل)

البشر بين تقسيمات الأرض وتقسيم الإسلام :

الدكتور :

أستاذ علاء ، أقول لك بصدق وبتجرد : إن الناس على اختلاف مللهم ، ونحلهم وأديانهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، وانتماءاتهم ، وكل ما يخطر في بالك من تقسيمات من صنع البشر ، دول الشمال ، دول الجنوب ، أبناء الريف ، أبناء المدن ، العرق الأبيض ، العرق الملون الأنكوسكسوني ، السامي ، الآري ، هذه تقسيمات جملة وتفصيلاً ليس لها وجود في منهج ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((كلكم بنو آدم وآدم من تراب))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ورواه الترمذي عن ابن عمر]

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[الحجرات : 13]

هؤلاء الناس يتمايزون بقيم ترجّح بعض الناس على بعض ، هذه لم يعتمدها القرآن أبداً ، فماذا اعتمد القرآن ؟ تقسيم خالق السماوات والأرض للبشر ورد في هذه الآية التي ذكرتها .

نماذج البشر :

البشر على كل اختلاف تقسيمات الأرض لا يزيدون على نموذجين :

النموذج الأول :

الأول : صدَّق أنه مخلوق للجنة ، وأنه في الدنيا من أجل أن يدفع ثمنها والجنة :

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

والإيمان بالجنة وباليوم الآخر جزء كبير وأساسي من عقيدة المسلم ، وما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كركن الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهذا الإنسان حينما يؤمن أنه مخلوق للجنة ، هذا الإيمان يبنى عليه أنه يتقي أن يعصي الله ، ويبنى عليه أنه يعطي ،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الترتيب معكوس ، صدق بالحسنى ، وقد قال الله عز وجل :

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ

(سورة يونس الآية : 26)

الحسنى هي الجنة ، هذا الإنسان صدق بالحسنى ، بنى على تصديقه العميق أنه يتقي أن يعصي الله ، وبنى على هذا التصديق أن حياته بنيت على العطاء ،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

بعد قليل أشير إلى النتيجة ، أو إلى رده له .

النموذج الثاني :

الآن النموذج الثاني : كفر بالجنة وآمن بالدنيا ، لم يعبأ بما بعد الموت ، هذه الدنيا محط رحاله ، ومنتهى آماله ، من كان غنياً فهو في جنة ، ومن كان قوياً فهو في جنة ، وهذه الدنيا فلا شيء سواها .

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى

(سورة الليل)

لأنه كذب بالحسنى استغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ .
أستاذ علاء ، النملة عندها جهازان ، جهاز مص ، وجهاز ضخ ، فإذا التقت نملة شبعى بنملة جائعة تعطيها من عصارة هضمها عن طريق جهاز الضخ ، فالنملة تأخذ وتعطي ، بينما الذي كفر بالآخرة ، وآمن بالدنيا يبني حياته على الأخذ فقط ، يأخذ ولا يعطي ، أما المؤمن الذي بنى حياته على الإيمان باليوم الآخر فيعطي ولا يأخذ ، أو يأخذ ويعطي ، لكن في النهاية يمكن أن نتلمس في بني البشر شيئين كبيرين نبيًّا وقويًّا .

البشر تَبَع لنبيّ أو قويّ :

تاريخ البشرية شهد أقوياء كثر ، فالنبي أعطى ولم يأخذ ، القوي أخذ ولم يعطِ ، النبي ملك القلوب ، والقوي ملك الرقاب ، النبي عاش للناس ، والقوي عاش الناس له ، النبي يمدح في غيبته ، ولو بعد ألف عام ، والقوي يمدح في حضرته فقط ، أعطى ولم يأخذ ، أخذ ولم يعطِ ، ملك القلوب ، ملك الرقاب ، عاش للناس ، عاش الناس له ، يمدح في غيبته ، ذاك يمدح في حضرته ، والناس جميعاً على امتداد العصور والأزمان أتباع لنبي أو قوي .
فالذي يستخدم كماله ، وعلمه ، وأدبه ، وعفته ، وعطاءه ، وكرمه ، واستقامته ليؤثر في الآخرين هذا من أتباع الأنبياء ، والذي استخدم سلطته ، أو حتى الشرطي استخدم دفتر الضبط كسلاح يملكه ، هذا من أتباع الأقوياء ، فالبطولة أن تكون من أتباع الأنبياء ، وأن تملك القلوب ، وأن تعطي ولا تأخذ ، وأن تمدح في غيبتك .
هذه الآية رائعة جداً ، هذا تصنيف خالق البشر للبشر :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

تعليق :

هذا الذي أيقن أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، رد الإله له أنه ييسره للجنة ، يعطيه أسبابها ، يعطيه الإيمان ، يعطيه الصحة يعطيه القوة ، يعطيه المال ، كي تكون وسائل لدخول الجنة ، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك ، فأعظم عطاء إلهي أن تسير إلى الجنة ، وأكبر عقاب إلهي أن تسير لغير ما خلقت له ،

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

لا ينفع مال يوم القيامة :

حينما استغنى عن طاعة الله ، وحينما بنى حياته على الأخذ طبعاً جمع أموالاً طائلة قال تعالى له :

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى

(سورة الليل)

الإنسان في ثانية واحدة يصبح خبراً بعد أن كان رجلاً ، قال تعالى :

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

(سورة المؤمنون الآية : 44)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلــى القبور جنازة فــاعلم بأنك بعدها محمول

***

فهذه الآية هي تصنيف من قِبل خالق السماوات والأرض لبني البشر ، ولن تجد إنساناً ثالثاً .

المذيع :

هل هناك غير هذا التصنيف ، لأن هذا التصنيف يصنف البشر مثل ما تفضلت إلى أقوام ، أري ، وسامي ، وملون ، وخلاسي ، وزنجي ، ونورمندي .

تقسيمات الأرض سبب الفرقة والشتات :

الدكتور :

ما أنزل الله بها من سلطان ، عنعنات جاهلية ، سبب فرقتنا ، وسبب ضعفنا ، وسبب تخلفنا ، وسبب حروبنا .

قرأت إحصائية قبل أيام أن ما يصيب الإنسان في الأرض الآن في اليوم من ثمن أسلحة فتاكة تقريباً خمسة آلاف ليرة باليوم، لو وزعنا كلفة التسليح في الأرض على أهل الأرض نصيب كل واحد خمسة آلاف في اليوم ، لدمار البشر ، ولإفقار البشر ، الإنسان مع تقدمه التقني الآن هو في الحضيض أخلاقياً، هو في الحضيض اجتماعياً ، هو في الحضيض إنسانياً ، يقول عليه الصلاة والسلام عن آخر الزمان:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((سِتٌّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مَوْتِي ، وَفَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَمَوْتٌ يَأْخُذُ فِي النَّاسِ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، وَفِتْنَةٌ يَدْخُلُ حَرْبُهَا بَيْتَ كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَأَنْ يُعْطَى الرَّجُلُ أَلْفَ دِينَارٍ فَيَتَسَخَّطَهَا ، وَأَنْ تَغْدِرَ الرُّومُ فَيَسِيرُونَ فِي

ثَمَانِينَ بَنْدًا تَحْتَ كُلِّ بَنْدٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا))

[أحمد]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ))

[مسلم]

الآن نشاهد كل يوم آلاف الضحايا ، وما ارتكبوا ذنباً ، قال تعالى :

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

(سورة التكوير)

أشهد الله أن ما من قطرة دم تهرق ظلماً إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة ، كائناً من كان .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ

(سورة إبراهيم)

المذيع :

لذلك نعود أستاذنا إلى التقسيم الذي جاء في الآية الكريمة :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

إذاً : التقسيم ثنائي لا ثالث له ، على مستوى البشرية .

الدليل على تقسيم القرآن للبشر :

الدكتور :

الدليل الآخر :

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ

يا محمد :

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ

(سورة القصص الآية : 50)

فهما خطان لا ثالث لهما ، إما أن تستجيب لوحي السماء ، ولمنهج خالق الأرض والسماء ، وإما أن تستجيب لهوى نفسك ، وشهوتك ، ومصالحك .

المذيع :

الآن الأستاذ الدكتور راتب من المعلوم أن الإنسان هو المخلوق الأول ، وهو المكرم وهو المكلف ، الله عز وجل يقول :

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

(سورة الإسراء الآية : 70)

و يقول الله عز وجل في كتابه العزيز :

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً

(سورة الأحزاب)

نحن نقف عند هذا المخلوق الذي كُرم ، لماذا كُرم ؟ والذي كُلف ، لماذا كُلف ؟

الإنسان بين التكريم والتكليف :

الدكتور :

أولاً : يجب أن نبدأ بالآية التي مطلعها :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)

ـ يعني السماوات والأرض ـ

(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

إن الإنسان قال : أنا لها ، تصدى لها ، وقبل حملها ، فلما قبل بحملها قال الله له :

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً

(سورة الإسراء)

ما الأمانة ؟

أستاذ علاء ، لأن الإنسان قبل حملَ الأمانة فصار المخلوق الأول ، لو سألتني : ما الأمانة ؟ في أدق التعريفات والتفسيرات أنها نفسه التي بين جنبيه ، أطلقت يده في نفسه .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا

(سورة الشمس)

فالذي يُعرّف نفسه بربها ، ويحملها على طاعته ، ويحملها على التقرب إليه بالعمل الصالح هذا زكى نفسه فاستحق الجنة ، وهو ثمن الجنة .

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي قبل حملَ الأمانة :

في القرآن آيات ثلاث لا تزيد على ذلك :

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

(سورة الأعلى)

نال الفلاح ، فالنجاح كل النجاح ، والذكاء كل الذكاء ، والتفوق كل التفوق ، والعقل كل العقل في أن تزكي نفسك ، لهذا أنا أقول : ما كل ذكي بعاقل ، قد تجد إنسانا يحمل اختصاصا نادرا جداً ، وفي أعلى مستوى من الذكاء ، لكنه يعصي الله ، فهو ذكي غير عاقل .

إن النبي عليه الصلاة والسلام رأى مجنوناً في الطريق ، فسأل أصحابه سؤال العارف : من هذا ؟ قالوا: هذا مجنون ، قال : لا ، إنه مبتلى ، المجنون من عصى الله .

ما كل ذكي بعاقل ، الذكاء موضعي ، وجزئي ، قد تحمل أعلى شهادة مثلاً في الفيزياء النووية ، وقد تحمل أعلى شهادة في الفَلَك ، إن لم تعرف من الذي خلقك ، وماذا بعد الموت ؟ وأين كنت قبل أن تحيا في الدنيا ؟ ولماذا جاء الله بك إلى الدنيا ؟ وما هو سبب سلامتك وسعادتك ؟ فأنت لست بعاقل ، ما كل ذكي بعاقل ، فلذلك أنا حينما أُعرّف الناس بخالق الأرض والسماوات أدفعهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

فهذه النقطة الأولى ، الإنسان هو المخلوق الأول ، لأنه قَبِل حمل الأمانة ، فلو أن أبا عنده عشرة أولاد، قال : كلكم له عندي بيت ، ومصروف شهري ، أما الذي يقبل أن يذهب إلى بلد بعيد ليأتي بدكتوراه أعطيه نصف معملي ، فأحدهم قال : أنا أذهب ، هل يعد هذا الابن الطموح ظلوماً جهولا ؟ لا ، بالعكس هو يعد عالماً منصفاً لنفسه ، عرف قيمتها أما إذا ذهب إلى هناك ، ولم يدرس ، وتبع المعاصي والآثام، يعد ظلوماً جهولاً ، فالآية فيها ملمح دقيق :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

حينما قَبِل حمل الأمانة هل هو ظلوم جهول ، لا والله ، هو طموح ، أراد أن يكون فوق الملائكة .

سيدنا علي يقول : << رُكّب الملك من عقل بلا شهوة ، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل ، وركّب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة >> .

فالذي تصدى لحمل الأمانة ، وقبل حمل الأمانة كأنه في الآية استفهاما ،

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

لا ليس

(ظَلُومًا)

ولا

(جَهُولًا)

وفي بالآية إقرار إن ذهب إلى هناك ولم يدرس ، وتبع المعاصي والآثام

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

لأنه ما عرف قدره .

أستاذ علاء ، أنا أحياناً أرفض شيئاً لأنني أحتقره إلا إذا رفضت الدين فأنا أحتقر نفسي .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ

(سورة البقرة الآية : 130)

الإنسان هو المخلوق الأول ، ولأنه كان مخلوقاً أول كرمه الله .

أنواع تسخير الكون :

الآن هناك فكرة مهمة جداً : كرمه بأن :

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ

(سورة الجاثية الآية : 13)

تسخير التعريف وردُّ فعْل العبد نحوه :

الآن المُسخر له أكرم من المسخر ، بديهية ، الله عز وجل سخر الكون تسخيرين ، تسخير تعريف وتكريم ، لما قال النبي :

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن رافع بن خديج]

أي أن هذا الهلال يرشدني إلى الله ، وفضلاً عن ذلك أنتفع به .

فالآن رد فعل التعريف أن تؤمن .

تسخير التكريم وردُّ فعْل العبد نحوه :

وردّ فعل التكريم أن تشكر ، فإذا آمنت ، وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك ، عندئذٍ تتوقف المعالجة ، قال تعالى :

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ

(سورة النساء الآية : 147)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

حينما تؤمن ، وتشكر حققت الهدف من وجودك ، لماذا العذاب ؟ لماذا القهر ؟ لماذا القلق ؟ لماذا الخوف ؟

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

لذلك سأل النبي الكريم مرة بعض أصحابه : عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ : عُفَيْرٌ ، فَقَالَ :

((يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ، قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ : لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه]

لذلك الذين قالوا :

نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ

بماذا رد الله عليهم ؟

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

(سورة المائدة الآية : 18)

وإذا توهم المسلمون اليوم أنهم أمة سيدنا محمد يأتي الرد الإلهي :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ

(سورة المائدة الآية : 18)

لذلك استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابه أبداً ، ولو أنه قبل دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه لما عذبهم .

المذيع :

ونريد أن نبين قضية للمشاهد حتى لا تختلط عليه الأمور ، كما نقول : الإنسان المخلوق الأول في الرتب ، وليس في الوجود على الأرض ، هناك من سبقه من الكائنات وإنما رتبة ومكانة علية .

الإنسان المخلوق الأول رتبة وليس وجودا :

الدكتور :

يوضح هذا الإمام علي : فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، يؤكد هذا يقول الله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

(سورة البينة)

إطلاقاً .

والطرف الآخر :

أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ

(سورة البينة)

الآية الثانية تحتاج إلى لقاء مطول ، كلفه أن يعبده ، والحديث في اللقاء القادم عن العبادة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (05-95) : تعريف الطاعة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2005-10-31

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد بدأنا في رحلة من حلقات أربع مع الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين ، رحلة مطولة خلال أربع حلقات عن الأخلاق ، ومعنى الأخلاق ، ومعنى الخلق ، وتبينا دكتور من خلال هذه الحلقات الماضية بأن الأخلاق انضباط وعطاء ينضبط المعنى السلبي ، هو الكبح والمنع ، ثم الأخلاق هي دوافع للعطاء وللتقديم الخير .
ومررنا من خلال الحلقات الماضية عن الإنسان ، سر وجود الإنسان على الأرض ، كيف لازمه الخلق ، كيف الخلق يساعده في استقامة حياته ، يفتح له الطريق يحرك له كل طاقاته باتجاه البناء والإعمار .
مررنا في الحلقة الماضية عن الإنسان المخلوق الأول رتبة ، المكرم الذي سخر له ربه ما في السماوات وما في الأرض ، واليوم نحط معك الدكتور حول مسألة الإنسان المكلف ، ونستذكر الآية الكريمة حيث يقول الله تعالى :

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ

(سورة الأعراف الآية : 26)

إذاً : كما يستر اللباس عورات الإنسان جسداً ، ومفاتن الإنسان جسداً ، هنالك التقوى ، يستر اعتوار الإنسان وزواياه الضعيفة ، يأتي الخلق ، التقوى العبادة بمفهومها بمؤداها لتستر اعوجاج الإنسان طريقاً وسلوكاً ، وممارسة وعملاً .
الآن نتوقف دكتور عند الإنسان المكلف بالعبادة ، نعرف العبادة للسادة المشاهدين .

التفكر في الكون من أرقى العبادات :

الدكتور :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، لا بد من مقدمة تسبق تعرف العبادة ، أنا حينما أدخل إلى جامعة ، وأطاع على المباني ، وعلى المخابر ، وقاعات التدريس ، والحدائق وبيوت الطلبة ، أستنبط استنباطات عديدة جداً ، أن وراء هذا البناء مهندسا ، ومصمما ، وله خبرة عريقة في الجامعات ، وفي حاجات الطالب الجامعي ، وله خبرة عريقة في طريقة إلقاء الدروس ، صممت القاعات على شكل مدرجات ، فيها عوازل ، وتكبير للصوت ، حينما أدقق في جامعة وفي أبنيتها ، وفي مرافقها ، وفي مخابرها ، وفي قاعات التدريس فيها أستنبط أشياء كثيرة جداً ، ها الاستنباط يكون عن طريق العقل ، لكن هل يمكن مهما كنت عبقرياً أن أعرف من هو رئيس الجامعة ، ومن هم عمداء الكليات ، وما نظام القبول ، وما نظام النجاح والرسوب لا بد من كتاب ؟

فالتفكر في خلق السماوات والأرض أرقى عبادة على الإطلاق ، لأنك بالكون تعرفه ، لكن لماذا خلقني؟ ولماذا أوجدني ؟ ولماذا كلفني ؟ لا بد من أرجع إلى وحي السماء إذاً أنا أتفكر في الكون في أتعرف إلى عظمة الله ، إلى قدرته ، إلى علمه ، إلى رحمته ، إلى حكمته ، أما حينما أقرأ القرآن أعرف من خلاله لماذا خلقني ، وماذا يريد مني ، وما المنهج الذي ينبغي أن أسير عليه ، وما أسباب سلامتي ، وما أسباب سعادتي .

علّة خَلق الإنسان العبادة والطاعة :

إذاً القرآن الكريم يقول :

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

(سورة الذاريات)

أي أن علة وجود الإنسان على سطح الأرض أن يعبد الله ، تماماً لو سافر طالب إلى باريس ، وله هدف واحد لا ثاني له ، أن ينال الدكتوراه ، الهدف وحيد ، وواضح ، وجلي ، فلأن هذا الهدف واضح جداً فكل حركة وسكنة وهو في باريس متعلقة بهذا الهدف ، فيستأجر بيتا قريب من الجامعة ، ويصاحب الصديق متقن الفرنسية ، يشتري المجلة المتعلقة باختصاصه ، يأكل الطعام المناسب لدراسته.

إذاً : يقول الله عز وجل في القرآن الكريم :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

هناك آلاف المقولات ، إما الشاردة أو التائهة ، أو المنحرفة ، ولكن الذي خلق هو وحده الذي ينبغي أن نتبع تعليماته ، هو يقول لنا : خلقتكم للعبادة ، والعبادة يعني الطاعة والطاعة يعني القرب ، والقرب يعني السعادة في الدنيا والآخرة .

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

(سورة هود الآية : 119)

خلقنا ليرحمنا ، خلقنا ليسعدنا في الدنيا والآخرة ، ويأتي الشقاء من الجهل .

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ

(سورة الملك)

تعريف العبادة :

أما تعريف العبادة : هي طاعة طوعية ، ولم تكن العبادة طاعة قسرية ، طاعة طوعية ، لو أن الله أرادها قسرية لكان كذلك ، لكن هذه الطاعة القسرية لا ينتج عنها سعادة إطلاقاً .

لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً

(سورة الرعد الآية : 31)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ

(سورة يونس الآية : 99)

ولكن أراد أن نأتيه طائعين ، بمبادرة منا ، باختيار منا ، بدافع الحب له ، أراد أن تكون العلاقة بينه وبين العباد علاقة محبوبية ، لذلك قال :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

العبادة طاعة طوعية ، ولم تكون قسرية ، الأقوياء قد يلزمون أتباعهم على الطاعة القسرية ، هذه لا ينتج عنها سعادة ، ولا تألق ، ولا نمو نفسي ـ هذه الطاعة بالقوة ـ لا قيمة لها إطلاقاً ، لذلك :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ

(سورة البقرة الآية : 256)

الذي خلق الإنسان ، وبيده حياته ، موته ، ورزقه ، ما أجبره على أن يعبده .

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

الآن طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، فما عَبَد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطيعه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   ذاك لعمري في المقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته   إن الـمحب لمن يحب يطيع

***

لذلك ابن القيم صاحب المقولة الشهيرة : " الإيمان هو الخلق " قال : " من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه " ، فلابد من طاعة الله عز وجل ، الطاعة الطوعية، الممزوجة بالمحبة القلبية .

في حلقة سابقة أستاذ علاء ـ جزاك الله خيراً ـ بينت أن الله سبحانه وتعالى سخر لنا ما في الكون تسخير تعريف وتكريم ، فكل شيء خلقه الله من أجل أن نعرفه من خلاله ، وذكرت قوله تعالى :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا

(سورة الطلاق الآية : 12)

فعلة خلق السماوات والأرض أن نعرف الله ، فأعطانا الكون ، أعطانا الوجود ، أعطانا الإمداد ، أعطانا الإرشاد ، أعطانا الأسرة ، أعطانا الزوجة ، أعطانا الأولاد ، أعطانا البحار ، أعطانا الأسماك ، الأطيار ، كل شيء بالحياة ، فهذا العطاء يقتضي الشكر ، لذلك لمجرد أن تؤمن به ، وأن تشكره حققت الهدف من وجودك ، الهدف الأكبر ، وعندئذٍ تتوقف المعالجة .

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ

(سورة النساء الآية : 147)

إذاً هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

جوانب العبادة : معرفي ـ سلوكي ـ جمالي :

هذا التعريف أستاذ علاء ـ جزاك الله خيراً ـ يقال عنه : جامع مانع ، فيه جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، السلوكي هو الأصل ، يعني الدين كله بكل نشاطاته ، بكل اتجاهاته ، بكل تنوع طلب العلم فيه ، يجب أن يصب في خانة واحدة ، أن تستقيم على أمر الله ، وما لم تستقم على أمر الله فلن تقطف من ثمار الدين شيئاً ، يغدو ثقافة كأي مثقف آخر ، وما لم تستقم على أمر الله فلن تقطف من ثمار الدين شيئاً .

سُئل الإمام الغزالي رحمه الله تعالى عن إنسان حفظ كتاب الأم للشافعي ، كتاب مِن تسعة أجزاء ، كتاب حفظه شبه مستحيل ، وقد حفظه ، وابتسم ، وقال : " زادت نسخة " .

إذاً : هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، المعرفة هي السبب ، والسلوك هو الأصل ، والجمال هو الثمرة ، الإنسان عنده حال إلى الجمال ، لكن الجمال درجات ، إما أن تتعلق بجمال مادي فانٍ ، أو تتعلق بجمال مطلق ، جمال الله عز وجل ، لذلك :

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لـــــغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب الـــعجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الـذي أضحى قتيلاً بحبنا
ولـــو نسمت من قربنا لك نسمة لـمت غريباً واشتياقاً لقربنا

***

فكل إنسان عنده حاجة إلى الجمال ، الجمال الذي يفنى يعقبه كآبة كبيرة ، لأن هذه النعم المادية التي نحن فيها إما أن تفارقنا ، وإما أن نفارقها ، نفارقها بموت ، وتفارقنا بأن يفقد الإنسان حركته أحياناً ، أو سمعه ، أو يصره ، لذلك من أدعية النبي الرائعة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو فَيَقُولُ :

((اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي ، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ يَظْلِمُنِي ، وَخُذْ مِنْهُ بِثَأْرِي))

[الترمذي]

لذلك أنا أرى أن من أبلغ تكريم الإنسان ، أن يجعل الله له نعم الدنيا متصلة بنعم الآخرة .

الدين استقامة :

إذاً : النقطة الدقيقة جداً أن الاستقامة هي مركز الثقل في الدين ، وما لم تستقم على أمر الله فلن تقطف شيئاً من ثمار الدين ، وعندئذٍ يغدو الدين ثقافة ليس غير ، هذا معه ثقافة حقوقية ، هذا ثقافة علمية ، هذا ثقافة طبية ، هذا ثقافة دينية ، لا تقدم ولا تؤخر ، الدين منهج ، الدين التزام ، الدين صدق ، الدين أمانة، الدين عفة ، الدين رحمة ، الدين عفو الدين إنصاف ، هذا هو منهج هذا البرنامج .

المذيع :

دكتور مررت على محطة أشممتنا شيئاً ، ثم غدوت بنا إلى مكان آخر ، وهذه المحطة هي جميل أن يقف عند شجرتها الإنسان ، هي قضية المحبة ، المحبة التي تورث السلوك ، والطاعة ، وتحسس الإنسان بعلم الجمال ، حبذا لو نوسع في هذا الموضوع كما قال عمر بن الفارض :

على نفسه فليبك من ضاع عمره سدىً وليس له فيها نصيب ولا سهم

***

هذه الحالة التي شاعت بين كثير ، بين اتجاه ، بين مدرسة طويلة عند أهل التصوف ، عندما تلذذوا ، واستشعروا ذلك الحب ، وهذا الحب أثمر طاعة ، وأثمر تذوقاً لعلم الجمال كما تفضلت الجمال المطلق.

طعم المحبة في الطاعة :

الدكتور :

أستاذ علاء ، أنت حينما تأكل الفاكهة ، الاستمتاع بطعم الفاكهة لثوان معدودة في أثناء البلع ، هناك أعصاب حس في سقف الحلق ، ففي أثناء البلع تمس هذه اللقمة أعصاب الحس فتشعر بطعم التفاحة ، أو طعم الطعام النفيس ، أو طعم الطعام العادي ، ما هو شعور الجمال في حياتنا ؟

أنت تتصل بشيء جميل ، قد يكون منظر البحر جميلا ، أو منظر الجبل الأخضر مع البحر جميل ، أو عندك طفل جميل جداً ، كلما ألقيت النظر على هذه امتلأ صدرك راحة ، فإذاً : الإنسان يحب الجمال ، وبالمناسبة ويحب الكمال ، ويحب النوال ، هذه في فطرته ، الجمال كل شيء جميل يحبه ، والكمال الموقف الأخلاقي ، لو أنك لا علاقة لك به لكن تترنم به ، لذلك بذكر الصالحين تتعطر المجالس ، ولو أنك ذكرت إنساناً لئيماً قاسياً ظالماً في مجلس لتعكر المجلس كله .

وأنا أنصح إخوتنا الكرام إذا جلسوا في رمضان ، وبعد رمضان ، أن يتذاكروا قصص البطولات ، قصص الأبطال ، قصص الأخلاقيين ، هؤلاء تملأ قصصهم النفس الطمأنينة ، الإنسان يثق بالإنسان ، أما إذا كنت تستمع إلى قصص اللؤماء فشيء آخر ، ألم يقول سيدنا علي : << والله ، والله ، مرتين ، لحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز بريشتين ، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ـ هذه كلها مستحلات ـ أهون عليّ من كلب حاجة من لئيم لوفاء دين >> .

حينما تحب إنساناً أخلاقياً أنا أشبه ذلك بقطعة لحم طازجة مشوية ، وأنت جائع ، وأمامك قطعة لحم أخرى متفسخة ، رائحتها تجعلك تخرج من جلدك ، والقطعتان قطعتا لحم واحدة ، تنفر منها نفوراً لا حدود لها ، والثانية تتمنى أن تأكلها ، والإنسان كذلك إذا اتصل بالله عز وجل اشتق منه الكمال ، والرحمة ، والود ، واللطف ، والعطف ، والإنصاف ، والعدل ، والعفة ، أنا لا أؤمن بأخلاق حقيقية أصيلة إلا عن طريق الاتصال بالله عز وجل .

حينما تستمتع بمنظر جميل ، أو بأكلة طيبة ، وبوجه طفل بريء لا شك أن أشياء جميلة جداً أخذت من جمال الله مسحة ، أصل الجمال هو الله ، فكيف إذا اتصلت بمطلق الجمال ؟

المذيع :

إذا اتصلنا بانعكاسات الصور على المرآة .

أثر حب الله في المسلم :

الدكتور :

أحيانا تجلس في فندق ، وأمامك برٌّ أخضر ، وبحر ، لا ترتوي من هذا المنظر الجميل .

أحياناً تجد فاكهة لها شكل جميل جداً ، الفاكهة لها هدف جمالي ، غير تذوق طعمها ، الله عز وجل جميل يتجلى على بعض مخلوقاته بالجمال ، فأنت بحاجة إلى الجمال ، أما المؤمن عرف أصل الجمال، والله حي باق على الدوام ، أما الذي يتعلق بجمال أرضي موقت فهذا عند الفراق يموت قبله .

لذلك أستاذ علاء ، إسلام من دون حُب جثة هامدة .

مرة خطر في بالي مثل : انظر إلى وردة مصنوعة من البلاستيك ، تضعها في البيت ، بعد أيام تملّ منها ، انظر إلى وردة حقيقية ، برائحتها الفواحة ، بألوانها المنسجمة ، بنعومتها ، بملمسها ، بتناسقها .

هناك فرق بين المسلم الذي يعرف الحب والي لا يعرف الحب ، فالثاني عبارة عن أفكار ومعلومات فقط ، قناعات ، أدلة ، هذا متصحر ، أو وردة بلاستيك ، تصور وردة حقيقية ، الآن الزنبق له رائحة فواحة عطرة تملأ البيت بهجة ، لذلك فرق كبير بين إنسان يحب الله والذي لا يحب .

أنا أقول لك بكلمة واضحة : الصحابة الكرام الذين فعلوا المعجزات ، لأنهم أحبوا الله بالحب ، الحب يفجر الطاقات ، الحب يصنع إنساناً بطلاً ، الحب يجعل الواحد كألف ، ومن دون حب يكون الألف كأف.

أستاذ علاء ، سيدنا الصديق جاءه رسالة من سيدنا خالد ، يطلب منه المدد ، لأنه كان يواجه جيشا من 300 ألف ، هو عنده 30 ألفا ، طلب منه خمسين ألفا مددا ، فانتظر حتى جاءه المدد ، رجل واحد ، اسمه القعقاع بن عمرو ، قال له : أين المدد يا قعقاع ؟ قال له : أنا المدد ، قال له : أنت ؟ قال له : أنا ، معه كتاب ، قرأ الكتاب ، يقول سيدنا أبو بكر : << فو الذي بعث محمد بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم >> ، إنه شيء مثل الخيال ، ويقسم بالله أن جيشاً فيه القعقاع بن عمر لا يهزم ، والواحد رجح كفة المعركة .

الإنسان بالحب يكون الواحد كألف ، وبل كمليون ، والمليون كأف ، هذه هي المشكلة ، فإذا أهملنا الحب ، أهملنا الاتصال بالله ، أهملنا الإخلاص ، أهملنا التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة بقي الإسلام ثقافة ، معلومات ، كتبا ، مراجع ، أشرطة ، أقراصا ، مؤتمرات ، أبنية فخمة ، أقواس إسلامية ، أخذنا من الدين شكله فقط ، والقلب فيه حسد ، وفيه غيبة ، وفيه نميمة ، وفيه بغضاء ، وفيه كبر ، وفيه استعلاء ، وفيه أنانية .

أقسام الدعاة إلى الله : داع إلى الله وداع إلى الذات :

لهذا أنا أقول دائماً : الدعاة إلى الله نوعان :

1 – سمات الداعية المخلص :

داعية مخلص ، من سماته الأساسية الاتباع لا الابتداع ، التعاون لا التنافس ، الاعتراف بالطرف الآخر ، والثناء عليه .

2 – سمات الداعية إلى الذات :

أما الداعية الذي يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله فهذا يبتدع ولا يتبع ، يتنافس ولا يتعاون ، هذا يلغي الطرف الآخر .

حينما تحب الله تحب عباده ، تحب المؤمنين جميعاً ، وأنا أقول كلمة دقيقة جداً : لا يمكن أن يعد الإنسان عند الله مؤمناً ما لم يكن انتماءه لمجموع المؤمنين ، هذا الانتماء لفقاعات صغيرة في الإسلام ، هذه الانتماءات الصغيرة تفرق المسلمين ، أما فأنا أنتمي لمجموع المؤمنين في الأرض ، هذا المؤمن أخي ، أما حينما أدخل في حظوظ ، ومصالح ، وأهواء ، طبعاً أتنافس ، فالإخلاص يورث التعاون .

الإنسان بين الطبع والتكليف :

بالمناسبة ، هناك قضية دقيقة جداً ، الإنسان له طبع ومعه تكليف ، مثلاً : طبعه أن يخلد إلى النوم ، والتكليف أن يستيقظ ، طبعه أن يملأ عينه من محاسن المرأة ، والتكليف أن يغض البصر ، طبعه أن يأخذ المال ، والتكليف أن ينفقه ، طبعه يقتضي أن يخوض في فضائح الناس ، والتكليف أن يكف لسانه، يبدو من هذه المفارقات أن التكليف ذو كلفة مجهد ، لأنه يتناقض مع الطبع ، أما التكليف فيتوافق مع الفطرة ، فحينما تستيقظ إلى صلاة الفجر ترتاح نفسك ، وحينما تستر إنساناً ، وتصمت ، ولا تتكلم في مشكلته تشعر أنك إنسان كبير ، حفظت سره ، وحينما تنفق المال ، والمال محبب للنفس هذا الإنفاق يجعلك تتألق .

التطبع فردي والتكليف جماعي :

الآن تمهيد لفكرة : التطبع فردي ، والتكليف جماعي ، فإذا عاد الإنسان إلى طبعه يحب أن يعيش وحده، وأن يبني مجده على أنقاض الآخرين ، ويبني حياته على موتهم ، وأن يبني أمنه على خوفهم ، وعزه على ذلهم ، وغناه على فقرهم ، أما حينما تتصل بالله عز وجل تقوي الجانب العبادي ، وهو التعاون ، قال الله تعالى :

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

(سورة المائدة الآية : 2)

أنا أقيس الإنسان ، أقيس إخلاصه بتعاونه ، وأقيس عدم إخلاصه بتفلته من التعاون ، وفرديته المقيتة . نحن الآن بحاجة إلى تعاون ، وهذا يعبر عنه أحيان بالوحدة الوطنية ، لأن الطرف وضعنا في سلة واحدة جميعاً ، إذا ينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد .

المذيع :

إذاً دكتور ، من خلال ما تقدمت من الحديث التكليف هو ضوابط وكوابح الطبع ، والتكليف عودة بالإنسان الذي يحمل طبائع إلى الفطرة السليمة ، لأن الحاجز بين الفطرة وأن نمارس هذه الفطرة الإنسان في حياته ، الطبع الذي يقف حاجزاً بين فطرته ، وبين ما هو مطلوب منه أن يكون عليه ، لذلك جاء التكليف ليكبح ، أو ليقلل هذا الحاجز الذي يكمن بين الفطرة وبين الإنسان .

بين السعادة واللذة :

الدكتور :

أريد أن أقول كلمة أستاذ علاء ، وأنا لا أبالغ إطلاقاً ، ما لم تقل : أنا أسعد الناس جميعاً ، أسعد من كل الناس إلا أن يكون أحد أتقى مني فأنت لم تذق طعم الإيمان ، لأن الإيمان قرب من الله ، الكمال كله عند الله ، والقوة كلها عند الله ، والعدل كله عند الله ، عز وجل ، فحينما تتصل بالله الاتصال الحقيقي الذي أراده الله فأنت أسعد الناس ، فالسعادة لا تنبع من الخارج تأتي من الداخل .

خصائص السعادة واللذة وشروط وجودهما :

بالمناسبة هذا موضوع دقيق جداً ، اللذائذ تأتي من الخارج ، أنت تحتاج إلى مال ، تحتاج إلى وقت ، تحتاج إلى صحة ، ولحكمة بالغةٍ بالغة أن هذه الشروط الثلاثة للذة غير متوافرة معا ، دائماً هناك واحدة ناقصة .

الإنسان في بداية حياته صحته جيدة ، ومعه وقت فراغ ، لكن ليس معه مال ، والمال مادة الشهوات ، وفي منتصف حياته أسس عملا فوق عمله ، الصحة موجودة ، والمال موجود ، لكن ليس لديه وقت ، وفي خريف العمر صار عنده وقت ، و مال ، لكن ليس عنده صحة ، فاللذائذ تحتاج إلى مال ، وإلى صحة ، وإلى وقت .

أما السعادة فلا تأتي من الخارج ، وإنما تنبع من الداخل ، اللذة تحتاج إلى إنسان ، إلى مال ، إلى مركبة ، إلى بيت جميل ، إلى مكانة ، أما السعادة فتأتي من الداخل .

لذلك قال أحد العارفين بالله : " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (06-95) - الاحتفالات الدينية: أصل الفرح في العيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-11-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

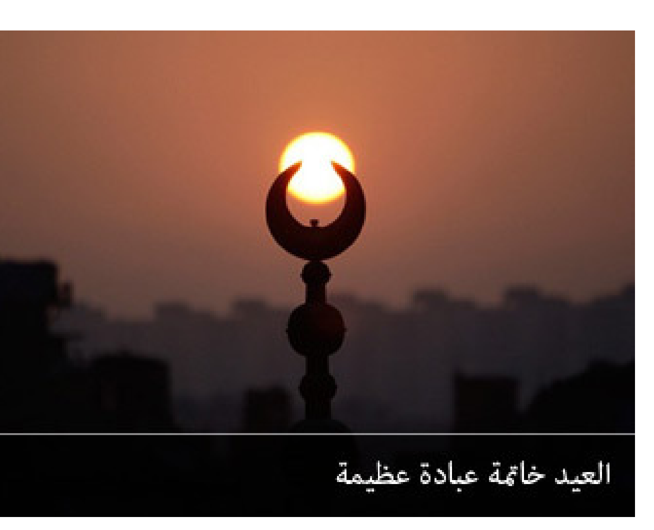
مدلولات العيد ومفهوماته :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

صعد النبي عليه الصلاة والسلام منبره فقال آمين ، الحديث طويل ، نأخذ منه فقرة واحدة، فلما انتهت الخطبة قالوا : يا رسول الله ، علام أمّنت ؟ قال : جاءني جبريل فقال لي : رغم أنف عبد أدرك رمضان ، ولم يغفر له ، إن لم يغفر له فمتى ؟

1 – العيد خاتمة عبادة عظيمة :



العيد خاتمة عبادة عظيمة

معنى ذلك أن العيد في عالمنا الإسلامي يأتي عقب عبادة من أرقى العبادات ، فالذي أدى العبادة بالتمام والكمال ، و الذي صام رمضان إيماناً و احتساباً ، و الذي قام رمضان إيماناً واحتساباً ، والذي ابتعد في رمضان عن كل ما يسخط الله عز وجل ، ونوى أن يتابع هذه الاستقامة ليكون رمضان قفزة نوعية في سلوكه ، الذي فعل هذا يحق له أن يفرح ، فيغلب على العيد طابع السرور والسعادة .

2 – العيد أيام فرح وسرور :

ولكن كما أرى أن الفرح نفسه له منطلق فكري ، قل لي ما يفرحك أقل لك من أنت ، هناك من يفرح بالطعام ، هناك من يفرح بالشراب ، هناك من يفرح بجديد الثياب ، هناك من يفرح بشهادة عليا ينالها ، هناك من يفرح بعمل عظيم يقدره الله على يديه ، هناك من يفرح برضوان الله ، هناك من يفرح بأنه في طريق سعادته الأبدية ، فلذلك الفرح أنواع ، ولابد و نحن في هذا العيد أعاده الله على كل المسلمين باليمن والبركة ، لابد من أن نبحث في أصل الفرح ، و هذه عادتي في البحث عن الأصل العميق لما ينتاب الإنسان من مشاعر .

أستاذ علاء ، لحكمة بالغة قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج]

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء : 28]

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

[سورة الإسراء : 11]

الهلع والضعف والجزع من صفات الإنسان الجبلّية :

فالإنسان هلوع ، وعجول ، وضعيف ، وشيء يلفت النظر أن هذه نقاط ضعف في تكوينه ، ولا يحاسب عليها ، خلق الإنسان ضعيفاً ، و خلق عجولاً ، و خلق هلولاً ، إذا مسه الشر كان جزوعاً ، وإذا مسه الخير كان منوعاً ، الحقيقة هذه نقاط الضعف في أصل خلق الإنسان بمنزلة ما يسمى في الآلات بالفيوز، وصلة ضعيفة جداً ، فإذا جاء تيار قوي لئلا يحرق الآلة ، وتخسر ثمنها ، هذه الوصلة الضعيفة تسيح ، وينقطع التيار ، وتنجو الآلة من العطب .

فهذه نقاط الضعف الثلاث التي في خلق الإنسان هي نقاط وقاية له ، أي عوامل أمان لأنه يخاف ، لأنه يجزع ، لأنه يحرص على ما في يديه ، لأنه يحب الشيء العاجل ، لأنه يشعر بالضعف ، إذاً : يبحث

عن إيمان عظيم يقوي ضعفه ، يبحث عن إله عظيم يثبته ، يبحث عن إله عظيم يطمئنه ، يلجأ إليه ، يركن إليه ، يدعمه ، ينصره ، يوفقه ، هذا هو أصل التدين في الجنس البشري ، حاجة الإنسان إلى الدين كحاجته إلى الهواء ، لكن بين من عرف الإله الحقيقي ومن عبد حجراً أو شمساً أو قمراً أو بقرة فرق كبير جداً ، حتى الذي عبد الحجر هو يظن أنه ينجيه من الخطر ، أي يستقوي به :

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

[سورة النساء : 28]

شقاء الإنسان باستغنائه عن الله :

من معبودات الإنسان الضعيف : الأبراج والتنجيم :

خلق ضعيفاً ليبحث عن إله عظيم يتقوى به ، يلجأ إليه ، يطمئنه ، يبشره ، يوفقه ، ينصره ، يدعمه ، حتى أولئك الذين ما عرفوا الله أصلاً يلجؤون إلى المنجمين عندهم خلل و ، قد يكون شخصية كبيرة في العالم الغربي يلجأ إلى منجم ، يقول له : ماذا سيصيبني ؟ والآن يوجد برامج كثيرة ، قضية الحظ ، و قضية التنجيم ، والأبراج .

الأستاذ علاء :

التنجيم والأبراج عند الأوربيين أيضاً ليس عندنا فقط .

الدكتور راتب :

معنى أن الإنسان خُلق ضعيفا :



خُلق الانسانُ ضعيفا

هذه عبارة عن تلبية حاجة الأساسية في الإنسان هي الضعف ، لكن أهم نقطة أن الإنسان خلق ضعيفاً ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته ، فشقي باستغنائه ، خلق ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره .

الأستاذ علاء :

إذاً : باستغنائه يشقى .

الدكتور راتب :

يشقى :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق]

والحقيقة أن الدنيا إذا أقبلت على إنسان بمال وقوة وجمال ومكانة ينسى الله ، وحينما تزداد الضغوط على مجتمع ما هذا المجتمع يتجه إلى الله ، فتكون هذه الضغوط بشكلها الظاهر مؤلمة ، لكنها في نتائجها مسعدة ، لأن المجتمع الغارق في المتع الرخيصة ، الغارق في المعاصي والآثام ، والأمور ميسرة عنده ، يشعر بأمن ، يشعر بتفوق ، يشعر باستعلاء ، بغطرسة ، هذا المجتمع قد يستغني عن الله، فيشقى باستغنائه ، بينما المؤمن حينما يشعر بضعفه يفتقر إلى الله فيسعد بافتقاره ، وحينما يشعر بقوته فيستغني بها عن الله ، فيشقى باستغنائه ، هذه حكمة أن الإنسان ضعيف ، وإذا دخلت إلى مسجد ، ورأيت آلافاً مؤلفة في المسجد أنا أعتقد ، ولا أبالغ أن تسعين بالمئة من هؤلاء الذين اصطلحوا مع الله بسبب ضعفهم ، وخوفهم من بعض المصائب ، بسبب خوفهم من شبح بعض المصائب اصطلحوا مع الله ، ولجؤوا إليه ، فأكرمهم الله .

إذاً : بالضبط ، كما لو أن ابناً في أمسِّ الحاجة إلى أبيه ، وأبوه عنده كل شيء ، فإذا أعطى ابنه مبلغاً يكفيه طوال حياته لن يأتي إليه إطلاقاً ، استغنى عن أبيه ، فكأن حاجة الإنسان إلى الله متجددة ، هذا معنى أنه خلق ضعيفاً .

معنى الهلع في الإنسان :

أما :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً)

[سورة المعارج]

الجزع يسوق الانسان الى باب الله

كيف يؤدب الله الإنسان ؟ لأنه يخاف على صحته ، فإذا ظهر في التحاليل شيء مخيف ، ورم مثلاً ، نسبٌ زائدة ، يقلق أشد القلق ، يبادر إلى الصلاة ، هو خلق هلوعاً ، يقلقه جسده ، يقلقه دخله ، يقلقه عمله ، يقلقه من حوله ، إذاً قضية الجزع أيضاً طريق لتربية الإنسان ، لأنه يساق إلى باب الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري]

مراحل الدعوة الربّانية للإنسان :

من باب الطرفة ، مرة سألني أحدهم : ما ملخص دعوتك ؟ قلت له كلمتان : إما أن تأتيه مسرعاً ، أو أن يُؤتي بك مسرعاً ، فالبطولة أن تأتيه باختيارك ، بمبادرة منك ، وأنت محب له .

1 ـ الدعوة البيانية والموقف المناسب للعبد فيها :

بالمناسبة ، الله عز وجل حكيم ، يبدأ بالدعوة البيانية ، وأنت صحيح معافى ، في أعلى درجة من السعادة ، يدعوك الله إليه بكلمة ، بخطبة ، بلقاء ، بندوة ، بكتاب ، بصديق ، بنصيحة ، بموعظة ، يدعوك إليه ، فالبطولة في هذه المرحلة أن تستجيب ، فإن لم تستجب فهناك أسلوب أصعب ، يقول الطبيب للمريض : معك التهاب حاد في المعدة ، يشفى بالحمية ، فإن لم يستجب المريض ، وأجرى الحمية فهناك عمل جراحي ز

2 ـ التأديب التربوي :

المرحلة الثانية : التأديب التربوي :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة : 21]

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

يعطيه الدنيا .

4 ـ القصم :

كل البطولة أن نستجيب لله بدعوته البيانية فالإنسان خلق هلوعاً .

الآن معه مال ، كيف يرقى إلى الله ؟ لو أن المال لا قيمة له عنده سيرقى إلى الله ، لكنه حريص على المال ، فإذا أنفقه ارتقى إلى الله ، أيضاً هذا لصالح إيمانه ، هذه نقاط ضعف لصالح إيمانه ، لماذا خلق

عجولاً ؟ يحب الشيء الموجود ، يحب أن يعيش لحظته ، أما حينما يلغي اللحظة الحالية ، ويبحث عن هدف بعيد يخالف أصل تكوينه ، فيرقى بهذه المخالفة .

الأستاذ علاء :

أي يستعجل الأشياء قبل أوقاتها ، وقبل أن تحين ، وهذا في الجبلة ، أي في أصل تكوينه ، لكن إذا غالب هذه الأشياء ، ونظر إلى البعيد ارتقى بهذه المغالبة ، وبمغالبة هذا المسألة في أصل تكوينه .

نوع الفرح في العيد :

الدكتور راتب :

أنا أقول : في العيد نفرح ، لكن ما نوع هذا الفرح ؟ هناك فرح بسيط جداً ، يوجد طعام طيب ، و ثياب جديدة ، ولقاءات ، وعطلة ، هذا فرح بسيط جداً ، هذا الفرح من مستوى الأطفال ، أما المسلم فيفرح بطاعة الله ، يفرح برضوانه ، يفرح أنه في الطريق إلى الجنة ، يفرح أنه في طريق خدمة الخلق .

بين الفرح والسعادة واللذة :

إذاً : قضية الفرح والسعادة واللذة تحتاج إلى وقفة متأنية .

شعور اللذة متناقص

أستاذ علاء ، يمكن أن أفرق بين شيئين كبيرين : بين اللذة و السعادة ، اللذة إحساس مادي يأتيك من طعام طيب ، من منظر جميل ، من بيت مريح ، من جو مكيف ، من مركبة فارهة ، من امرأة جميلة زوجة ، هذه لذائذ كلها ، إلا أن هذه اللذائذ مكلفة ، البيت الجميل غال جداً ، والمركبة الفارهة غالية جداً ، والبحث عن حياة مريحة يحتاج إلى دخل فلكي ، المشكلة الكبيرة أن اللذائذ أولاً آنية ومتناقصة ، لو اشتريت بيتاً بمبلغ فلكي أول أسبوع يختل التوازن من الفرح ، لكن بعد شهر يصبح البيت عاديا جداً ، هكذا في البيت والمركبة والزواج والدخل والطعام الطيب والثياب ، هذه الأشياء المادية لحكمة بالغة لم يسمح الله لها أن تمدك بشعور مستمر ، بل متناقص ، فإن كانت في معصية وعلى حساب الآخرين يعقبها كآبة ، وكل شخص منا بعد الزواج ، وبعد فترة طويلة يصير الزواج شيئاً

عادياً ، المركبة ، البيت ، الشهادة العليا ، لقب دكتور ، هذا كله بعد حين يصبح شيئاً عادياً ، من أجل أن نتعلق بالهدف الكبير الذي خلقنا من أجله .

الوقت والصحة والمال :

النقطة الدقيقة والطريفة أن هذه اللذائذ تحتاج إلى شروط ثلاثة ، تحتاج إلى وقت ، و إلى صحة ، و إلى مال ، ولحكمة بالغة دائماً ينقص الإنسانَ أحدُ هذه الشروط ، ففي البداية الصحة جيدة ، والوقت كاف ، لكن لا يوجد مال ، و المواد تحتاج إلى مال ، في منتصف العمر يوجد صحة ، ويوجد مال ، لكن لا يوجد وقت ، على رأس عمله دوام مستمر ، في خريف عمره سلّم أولاده المعمل ، يوجد وقت ، ويوجد مال ، لكن لا يوجد صحة .

الأستاذ علاء :

لذلك دائماً هذه الأسس الثلاثة واحد منها غائب .

الدكتور راتب :

من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه ، وهو لا يشعر ، خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً.

الأستاذ علاء :

سيدي ، تسمح لي إن تفضلت ، ونحن في العيد ، تكلمت عن اللذة ، نأتي إلى مبعث الفرح من السعادة ، السعادة تسمح لي أن أقدم لك هذا المثال العملي الذي ودعناه قبل أيام ، موائد الرحمن في المسجد الأموي التي تنصب يومياً على مائدة الإفطار ، بدأت بثلاثمئة صائم ، انتهت بحوالي تسعة عشر ألفاً من الصائمين يومياً على موائد الرحمن ، كانت تفترش رواق الجهة الغربية ، ثم الصحن بكامله ، وكل الأروقة الذين يقومون على هذا العمل المتطوعون من أهل الخير ، سعادتهم عندما كنت ألتقي بواحد منهم هو يدفع المال ، ويخدم الصائم ، ويعين العمال والمشرفين ، يقول لي : أنا أسعد إنسان الآن ، أنا ما شعرت بهذه السعادة طوال عمري ، رغم أنه لديهم من المال والإمكانات ما يستمتعون بها ، ليس في سورية ، في دول أوربا ، وفي دول اسكندنافية ، لكن هنا في هذه الموائد قال : لم أشعر بمثل هذه السعادة في حياتي ، يمكن أن تشرح لنا ما هذه الحالة يا سيدي ؟

مبعَث السعادة في الفرح :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، الحقيقة أن الإنسان نفس وجسد وروح ، الجسد وعاء النفس ، والروح قوة محركة ، أما النفس فهي ذات الإنسان ، هي التي تشعر ، هي التي تسعد ، هي التي تشقى ، هي التي تخاف ، هي المكلفة ، هي المحاسبة ، هي المعاتبة ، هي ذات الإنسان ، هذه النفس بشكل قطعي سعادتها بالقرب من الله ، كما تفضلت هذا الذي يدفع من ماله الشيء الكثير ، ويجهد بتقديم الطعام لهؤلاء الصائمين ، لأنه في طرق رضوان الله تأتيه من الله سكينة وسعادة لا توصف .

أنا أقول دائماً : هذا الذي يدخل إلى ملهى لماذا يدخل ؟ هو يتوهم أن لذته في هذا الدخول ، يبحث عن لذة ، ومشروب ، وراقصة ، و مغنٍّ ، لكن لو عرف هذا الإنسان أنه إذا مشى في طاعة الله تجلى الله على قلبه بسكينة يسعد بها ، و لو فقد كل شيء ، ويشقى بفقدها ، ولو ملك كل شيء .

يعطي الله السكينة للمؤمنين

إذاً : إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خَلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين ، يؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل :



[سورة الرعد : 28]

قلبُ النفس وقلب الجسد :

قلبُ النفس ليس قلب الجسد ، قلب النفس :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الأعراف : 179]

قلب النفس لا يطمئن إلا بذكر الله ، وإذا رأيت واحداً في الأرض سعيداً بالمعنى الحقيقي ، وهو بعيد عن الله فهذا شيء يبدو مستحيلاً :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه : 124]

هذه هي حقيقة السعادة :

قال أحدهم : ما بال الأغنياء معهم ملايين مملينة ؟ ما بال الأقوياء بيدهم كل شيء ؟ فأجاب بعض العلماء : " ضيق القلب " ، ففي قلب المعرض عن الله من الضيق والقلق والخوف والهم والتشاؤم والإحباط ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، وفي قلب المؤمن من السعادة والسكينة ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم .

بعضهم قال : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن سجنوني فسجني خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟

بل هذا العالم نفسه قال : " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، هي جنة القرب " :

جنة الدنيا تكون بالقرب من الله

فلو شاهدت عيناك من حسننـــا الذي رأوه
لما وليــت عنا لغيرنا
و لو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجــب وجئتنا
و لو ذقت من طعم المحبـة ذرة عذرت الذي أضحى قتيــلاً بحبنا
ولـو نسمت من قربنا لك نسمة لمـــت غريباً واشـــتياقاً لقربنا
أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنـــا
و لذ بحمانا واحتــم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقـنـــا
و عن ذكرنا لا يشغلنك شاغل و أخلص لنا تلقى المسرة و الـــهنا

***

أستاذ علاء ، السعادة لا يعرفها إلا من ذاقها ، هناك نص أنا لست واثقاً من تصديق المستمعين والمشاهدين له ، لكنه واقع :

هناك ملكٌ اسمه إبراهيم بن الأدهم ، كان ملكاً ، فاعتزل الملك ، وصار عارفاً بالله ، قال : ـ أنا أصدق هذا الإنسان وحده لأنه كان ملكاً ـ قال : " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .

الأستاذ علاء :

من اللذة و السرور .

الدكتور راتب :

أنت مع الله ، وتخشى أحداً ؟ أنت مع الله ، وتخشى الفقر ؟ وتخشى الظلم ؟ يا رب ماذا فقَدَ من وجدك ، و ماذا وجد من فقدك ؟ و إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إذا كان الله معك يسخر عدوك ليخدمك ، و إذا كان عليك يسمح لأقرب الناس إليك بالتطاول عليك ، فالسعادة أولاً : تتنامى ، وثانياً : لعلها تتصل بنعيم الآخرة .

الأستاذ علاء :

هل هي مرسال لنعيم الآخرة ؟

السعادة نموذج لدخول الجنة :

الدكتور راتب :

نعم ، هي نموذج لدخول الجنة ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، لأن الله هو الجمال المطلق ، نحن نتمتع بالطعام لأنه طيب ، نتمتع بالمنظر الجميل ، نتمتع بالنسيم العليل ، بالصوت المريح ، بامرأة زوجة جميلة ، هذه مسحة جمال من الله ، فكيف إذا اقتربت من مطلق الجمال ، لذلك هؤلاء الصحابة فعلوا المعجزات ، إذا دخل حبُّ الله عز وجل إلى قلب الإنسان فأي شخص كمليون ، أنا لا أصدق أن يستجير سيدنا خالد بسيدنا الصديق ، كان هناك معركة بنهاوند ، معه ثلاثون ألفا ، واجه ثلاثمئة ألف ، طلب النجدة منه ، بعث له بواحد ، هو القعقاع بن عمرو ، قال له : أين النجدة ؟ أين المدد ؟ قال له : أنا ، قال له : أنت ؟ معه كتاب ، يقول فيه : يا خالد ، والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم .

المسلمون الآن مليار وأربعمئة مليون مسلم ، لأنهم ما دخل الحب إلى قلوبهم ، وعندهم مشكلة كبيرة في حياتهم ، يصيبهم الوهن .

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أبو داود]

لذلك :

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

يجتمع في أي مسجد عشرة آلاف ، لن تغلب أمتي ، لأن المعركة بين حقين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدد ، وبين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة البقرة : 249]

أما بين باطلين فلا تنتهي .

حينما ننحي الإيمان ، والصلة بالله فلأقوى ينتصر ، الذي معه سلاح متطور ينتصر .

الأستاذ علاء :

إذاً السعادة شيء من الداخل وتزيد .

وسائل السعادة بيد كل إنسان :

الدكتور راتب :

ووسائلها بيد كل إنسان ، اللذة تحتاج إلى مال ، الليلة بفندق اثني عشر ألف دولار .

الأستاذ علاء :

السعادة بيد كل إنسان ، فقير وغني ، كبير وصغير ، يستطيع أن يكون سعيداً إذا ما تلمس الطريق إلى ذلك الجمال المطلق .

الاصطلاح مع الله يقودك إلى السعادة

الدكتور راتب :

بمجرد أن يصطلح مع الله أزيحت عنه هموم كالجبال ، قال تعالى :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه]

أي أن تكون لك علاقة مع الله ، هو القوي ، هو الغني ، أعداؤك بيده ، من حولك بيده ، من فوقك بيده ، من تحتك بيده ، صحتك بيده ، الزوجة بيده ، الأولاد بيده ، بيده كل شيء .

الأستاذ علاء :

سيدي ، ونحن نعيش أيام الجائزة ، العيد الذي جاء جائزة بعد صيامنا وقيامنا إن شاء الله ، وهذا العيد الذي سنّ فيه الصلاة والتكبير ، ولكي يتزاور الناس ، ويلتقي الناس ، ولكي يلبس الناس أفضل ثيابهم ، ويتعطرون إلى مساجدهم ، ويزورون قبورهم ، بالتالي هنالك مسائل تتطلب منا وقفة عند صلة الأرحام؟

حقيقة صلة الأرحام :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، أنا يؤسفني أن تمسخ هذه العبادة التعاملية إلى اتصال ، أو إلى زيارة عابرة ، أو إلى وضع بطاقة ، أنا أتصور صلة الأرحام شيئا آخر :

أولاً : أن تزور أرحامك ، أما أن تكتفي بالزيارة ، ولا تفعل شيئاً فليست صلة أرحام ، ينبغي أن تتفقد أحوالهم ، ينبغي أن تمد لهم يد المساعدة ، في أحوال المعيشية ، في الأحوال التربوية ، في الأحوال الأخلاقية ، في الأحوال الاجتماعية ، في الأحوال الدينية ، في الأحوال العلمية ، هؤلاء أرحامك ، بل إن التضامن الاجتماعي في الإسلام بني على أساس النسب ، فأن تتفقدهم ، أن تساعدهم ، أن تأخذ بيدهم إلى الله ، و المجتمع المسلم مجتمع متماسك هل .

تصدق أستاذ علاء أن زكاة الإنسان المسلم لا تقبل ، وفي أقربائه محاويج ؟ الأقربون أولى بالمعروف ، فنحن حينما نتفقد أحوال بعضنا بعضاً نفلح ، لذلك قال تعالى :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

[سورة التوبة : 103]

تطهر الغني من الشح ، والفقير من الحقد ، والمال من تعلق حق الغير به .

الآن :

(وَتُزَكِّيهِمْ)

[سورة التوبة : 103]

إذا تفقد الإنسان أرحامه ، ووصلهم ، ومنحهم من عطائه يشعر أنه فعل مع الله شيئاً عظيماً ، تنمو نفسه، إذا قام إنسان بعمل كما تفضلت قبل قليل ، هذا الذي أطعم العشرين ألفا ، ويتعب ، لماذا هو متألق جداً ؟ يشعر بقيمته عند الله ، يشعر أن الله يحبه ، يشعر أن خالق السماوات والأرض راض عنه :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم : 96]

هذا الود لا يقدر بثمن ، أحياناً يكون إنسان شخصا مهما ، قال له : هذا هاتفي ، يذكرها للناس ألف مرة، فكيف إذا كان خالق السماوات والأرض يحب هذا العبد ؟ هذا يحتاج لعمل صالح ، فلذلك نحن بالعيد يجب أن نصل أرحامنا ، أن نزورهم ، أن نتفقد أحوالهم ، أن نساعدهم ، أن نأخذ بيدهم إلى الله ، أصبحت هذه العبادة الاجتماعية التعاملية دعوة إلى الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (07-95) - العبادة - الفرق بين العالم والعابد ـ التدبر في الإنفاق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-11-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد شرحنا كثيراً هذا العنوان : الإيمان هو الخلق ، الذي هذا العنوان أخذ من العالم الجليل المفكر ابن القيم الجوزية الفقيه ، وتحدثنا في رحلة البرنامج عن معنى الخلق والأخلاق ، ولماذا كان هذا الشيء ملازماً ، ويجب أن يكون مصاحباً للإنسان في حركاته ، وسكناته ، وفي عيشه على هذه البسيطة ، وفي علاقته بأخيه الإنسان ، وفي علاقته بربه وفي علاقته بالكون ، تحدثنا عن الإنسان المخلوق الأول رتبة ، ثم تحدثنا الإنسان المخلوق المكرم ، ووقفنا في الحلقة الماضية عند الإنسان المكلف ، لماذا كلف ؟ وكلف بشيء هو علة خلقه كما تفضلت في الحلقة الماضية :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علة الخلق العبادة ، وعرفت لنا العبادة ، والآن دكتور نريد أن نتبين الفرق بين العالم وبين العابد ، وأن تعطينا هل العبادة مقصورة على الصلوات الخمس ؟ مقصورة على الحج والزكاة ؟ مقصورة على الفرائض ؟ أم العبادة هي أوسع من ذلك ؟ نعم .

المفهوم الواسع للعبادة :

الدكتور:

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، أنا حينما أفهم العبادة عبادة شعائرية عندئذ يصبح الإنسان العابد هش المقاومة ، لا يصمد أمام ضغط أو إغراء ، أما حينما افهم العبادة مفهوما شموليا تدور مع الإنسان حيثما تحرك ، وتغطي كل نشاطاته ، أكون قد اقتربت من مفهوم العبادة الصحيح الذي أراده الله .
أستاذ علاء ، بادئ ذي بدء :

((لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

[رواه البيهقي عن أبي هريرة]

((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر سائر الكواكب))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية عن معاذ]

((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم))

[أخرجه الترمذي عن ابي أمامة]

كم هي المسافة كبيرة جداً بين مقام سيد الأنبياء والمرسلين ومقام أدنى مؤمن ؟ فالعابد مقاومته هشة لا يصمد أمام ضغط ، ولا أمام إغراء ، بل هو :

(يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

(سورة الحج الآية : 11)

أما العبادة بالمفهوم الشمولي فتنطوي على العلم أيضاً ، أنا حينما أعبد الله هناك عدة أنواع للعبادة ، هناك عبادة الهوية ، أنا من ؟ إن كنت غنياً فعبادتي الأولى إنفاق المال ، لأن الله حينما جعلني غنياً أراد أن أرقى إليه بإنفاق مالي ، وهذا المال حيادي ، إما أن يكون سلما نرقى به ، أو دركات نهوي بها ، إما أن ينفق في طاعة الله فيكون درجات إلى الجنة ، أو أن ينفق في معصية الله فيكون دركات إلى النار ، إذاً هو حيادي .

لذلك لو سألتني هل المال نعمة ؟ أقول لك : لا ، هل هو نقمة ؟ أقول لك : لا ، المال موقوف على طريقة كسبه وإنفاقه ، فأنا حينما امتحن بالمال ، إذاً أنا امتحاني الأولى هو المال ، فإذا أنفقت منه على حاجاتي إنفاقاً معقولاً ، ثم تقربت إلى الله بإنفاق المال على المساكين والمحتاجين ، ورد في ببعض الآثار القدسية :

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول : يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ، فيقول الله له : ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت في ؟ يقول : يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين ، لثقتي بأنك خير حافظاً ، وأنت أرحم الراحمين ، فيقول الله له : أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

إذاً : هذا المال في الحقيقة هو قوام الحياة ، وقوة كبيرة جداً ، كما قال النبي الكريم :

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

[رواه مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه]

المال قوة ، فإذا كان كسبه حلال ومشروعاً ، وإنفاقه في وجوه الخير ، وصل صاحبه إلى أعلى المراتب ، بل إن صاحب المال الذي ينفقه في وجوه الخير ينافس كبار العلماء ، يؤكد هذا قول النبي الكريم :

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ : رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَارِ ، ورَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ))

[متفق عليه]

أنا أعجب من هؤلاء الذين وهبهم المال الكثير ، كان بإمكانهم أن يَصِلوا إلى أعلى درجات الآخرة .

المذيع :

أود أن أتوقف دكتور حتى لا يلتبس الأمر على بعض المشاهدين ، بالطبع المال يستوجب الإنفاق لكل محتاج ، وهي العبادة الأولى :

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

وبالتالي الغني عبادته الأولى إنفاق المال ، لكن مر في الحديث القدسي معنى قد يتراءى للمشاهد أنه ينفق كل ماله ، وأن لا يدع لورثته من بعده ، فالنبي عليه الصلاة والسلام أوصى في التركة بالثلث ، وقال : الثلث والثلث كثير ، وأن يبقي من بعده أقرباءه وورثته وعلى حالة من اليسر ، هذا أفضل من أن يبقيهم ، كيف نوفق بين المعنيين ؟ .

كيف التوفيق بين إنفاق المال وترك الورثة أغنياء ؟

الدكتور : قال تعالى :

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

(سورة البقرة الآية : 195)

إن أنفقتم كل مالكم ، والمعنى الآخر ،

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

إن لم تنفقوا أصلاً ، فالإنسان هالك إذا أنفق ماله كله ، وهالك إن لم ينفق ، فالفضيلة بين طرفين .

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

(سورة الإسراء)

وهذا الفرق بين التبذير ، والاعتدال في الإنفاق والإسراف ، الإسراف في المباحات ، والتبذير في المعاصي والآثام ، والإنفاق المعتدل هو صفة المؤمنين .

عبادة الهوية : يجب أن تعبد الله فيما أقامك :

من أنت ؟ أنت غني ، فالعبادة الأولى إنفاق المال ، يصلي ، ويصوم ، ويحج ، ويزكي ، لكن لأنه غني امتنع عن إنفاق المال ، وجلس ليصلي قيام الليل ، نقول : لا ، إنفاق المال قبل قيام الليل ، لأن الله أقامك غنياً ، وينبغي أن تعبده وفق هويتك .

إذا كنت قوياً بكلمة واحدة تحق حقاً ، وتبطل باطلاً ، تقر معروفاً ، وتزيل منكراً ، أنت قوي بجرة قلم، فعبادتك الأولى إحقاق الحق ، ونصرة المظلوم ، وإنصاف الضعيف ، ما أقامك الله قوياً إلا كي تعبده وفق ما أقامك ، فبإمكانك أن تزيل منكراً بتوقيع ، أو بأمر شفهي ، ما دمت قوياً فالعبادة الأولى إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ونصرة الضعيف ، وإنصاف المظلوم ، هذه مهمة .

سأل سيدنا عمر أحد الولاة : " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ فبحسب الشرع الإسلامي قال له : أقطع يده ، قال للوالي : إذاً إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك ، إن الله قد استخلفنا عنهم خلقه لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر له حرفتهم ، فإن وفرنا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها ، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل ، فإن لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية " ، فهم عميق جداً .

وإذا كنت عالماً فعبادتك الأولى تعليم العلم ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

أستاذ علاء الداعية ، والعالم له مئات الصفات ، يصلي ، ويصوم ، ويزكي ، ويحج ، وينفق ماله ابتغاء وجه الله ، وهو صادق ، وأمين وعفيف ، لكن الله استغنى عن كل هذه الصفات ، وأبقى له صفة واحدة ،

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

لو أن هذا الذي يبلغ رسالات الله خشي غير الله ، فسكت عن الحق خوفاً من هذا القوي ، أو نطق بالباطل إرضاءاً له ، ماذا بقي من دعوته ؟ انتهت دعوته ، علماء البلاغة يصفون هذه الصفة بأنها صفة مترابطة مع الموصوف ترابطا وجوديا ، فإذا ألغيت الصفة ألغي الموصوف ،

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

هذه العبادة الثانية للعالم ، والقوي إحقاق الحق ، والغني إنفاق المال .

الآن أقامكِ امرأة ، العبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد .

((انصرفي أيتها المرأة ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

المرأة حينما ترعى زوجها وأولادها ، وحينما تربي أولادها ، تطرح في المجتمع عناصر نظيفة ، متماسكة ، أخلاقية ، معطاءة ، لقد عبدت ربها فيما أقامها ، لذلك يمكن للمرأة أن تصل إلى الجنة وهي في بيتها ، حينما ترعى زوجها وأولادها ، هذه عبادة الهوية .

مَن أنت ؟ قوي ، لك عبادة ، غني لك عبادة ، عالم لك عبادة ، امرأة لك عبادة .

المذيع :

وحتى نقف عند هذا المعنى رعاية الزوج والأولاد ليس المقصود أن تقدم لهم الطعام ، وأن تكنس البيت ، هذا جانب بسيط ، أن تربي ، وعندما تربي الأولاد هي تربي جيلاً ، وهي تربي أمة ، وهي تربي هوية ، وترسم هوية للمجتمع بكل معنى الكلمة .

الدكتور :

لذلك قالوا : من علم شاباً علم شاباً ، ومن علم فتاة علم أسرة .

المذيع :

الآن دكتور عندنا عبادة الظرف ، الهوية ، ثم عبادة الظرف التي هي مقدمة على غيرها من العبادات .

عبادة الظرف :

الدكتور :

عندك ابن مريض ـ لا سمح الله ـ أو أب مريض ، العبادة الأولى رعاية هذا المريض ، عندك ضيف العبادة الأولى إكرام هذا الضيف ، عندك ابن في الامتحان العبادة الأولى تهيئة جو مناسب للدراسة ، ألغ الولائم ، ألغ السهرات ، ألغ اللقاءات الاجتماعية ، هيئ البيت بجو دراسي حتى يأخذ الشهادة ، حتى يحقق وجوده في المجتمع .

فأنا حينما أكون في ظرف معين تتوجه العبادة إلى هذا الظرف ـ إذا جاءني ضيف دكتور ؟ ـ العبادة الأولى إكرام الضيف ، إذا كان عندي مريض رعاية فالمريض العبادة الأولى ، عندي مشكلة حل المشكلة قبل كل شيء .

فلذلك العبادات متنوعة هنا ، أنت حينما تقوم بواجبك خير قيام فأنت في عبادة الله .

هناك كلمة دقيقة جداً : ليست العبرة ألا تصاب بمصيبة ، لكن البطولة أنها إذا أصابتك أن تقف منها الموقف الكامل ، فترتاح عندئذٍ .

الجامعة لا تقاس بمَن نجح ، تقاس أن تأتي النتائج وفق المقدمات ، الذي لا يدرس لا ينجح ، مقياس الجامعة هكذا ، والله قال :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

كل إنسان عنده مشكلات ، أما حينما يدرسها ، أو يحدد أبعادها ، ويفكر في حل لها ، ويسعى باتجاه الحل يكون أيضاً في عبادة .

بقيت عبادة الوقت .

المذيع :

إذا تكرمت دكتور قبل أن ننتقل إلى عبادة الوقت وهذه محطة جميلة ، هل نعتبر أن العبادة هي مرتبطة بالحكمة ، وفعل ما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، على الشكل الذي ينبغي ، هنا العبادة المقدمة عن بقية الأشياء كما تفضلت أن يكون في الظرف ، فأن يعالج هذا الظرف ، وأن يحل هذا الظرف ، وهذه المشكلة بكل مقدرة واقتدار دون أن تقتلعه هذه المشكلة ، أو تجرفه .

علاقة الحكمة بالعبادة :

الدكتور :

لكن هذه الحكمة كما تفضلت أستاذ علاء هي تكريم للمؤمن ، لقوله تعالى :

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

الحكمة توهب ولا تؤخذ ، هي مكافئة للمؤمن ، وغير المؤمن يرتكب حماقة ما بعدها حماقة ، ولو كان ذكياً ، ما كل ذكي بعاقل أساساً ، يرتكب حماقة ما بعدها حماقة ، لذلك أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة العاشرة ، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، بالحكمة تسعد بمال قليل تحسن إنفاقه ، من دون حكمة تبدد المال الكثير ، بالحكمة يكون أولادك أحب الناس إليك ، من دون حكمة يكونوا أعداء لك ، فأنا لا أجد في الدنيا عطاء يفوق من أن يكون حكيماً ، وهذه الحكمة من صفات المؤمن ، وهي مكافئة للمؤمن ، أما غير المؤمن فالله عز وجل قال :

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

وهو في أعلى درجات الذكاء ، وهو بأعلى درجات اليقظة والحذر ، يرتكب حماقة لا يرتكبها طفل .

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[رواه الخطيب في التاريخ عن ابن عباس]

يعاقبه بأن يأخذ لبه ، فيرتكب حماقة ما بعدها حماقة ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

المذيع :

ننتقل دكتور إلى العبادة العصرية المرتبطة بالوقت .

عبادة العصر :

الدكتور :

عبادة العصر ، إذا أراد الطرف الآخر إفقارنا ، فالعبادة الأولى استخراج الثروات ، وتطوير الصناعات ، وحفر الآبار ، واستصلاح الأراضي ، وإقامة السدود ، وتهيئة فرص عمل ، وحل مشكلات المجتمع ، هذه العبادة الأولى إذا أراد الطرف الآخر إفقارنا .

وإذا أراد الطرف الآخر إفسادنا ، أو إضلالنا فالعبادة الأولى ترسخ معالم الدين ، وتعزيز قيم الإسلام ، والدعوة إلى الله ، بعلم وبصيرة .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية : 108)

أما من دعا إلى الله بأسلوب ومضمون سطحي غير متماسك ، فيه الخرافات ، وفيه المنامات ، والشطحات ، والكرامات ، من دعا إلى الله بمضمون هش ، غير متماسك غير منطقي ، غير علمي ، أو بأسلوب غير علمي ، وغير تربوي ، أو لم يجد المدعو في الداعية المصداقية ، فهذا المدعو بهذه الطريقة ، وبهذا الأسلوب ، وبعدم المصداقية لا يكون عند الله مبلغاً ، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة .

إذاً هذه العبادة عبادة مهمة جداً ، إذا أراد الطرف الآخر إفسادنا ينبغي أن نحصن شبابنا ، وشاباتنا ، أن نهيئ لهم مناشط تتوافق مع مبادئنا وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا ، إذا أراد إفقارنا فكسب المال الحلال ، وحل مشكلات المسلمين أول عبادة ، وإذا أراد إضلالنا تعزيز قيم الإسلام ترسيخ مبادئ هذا الدين هو أول عبادة .

وإذا أراد إفسادنا تحصين شبابنا وشاباتنا أول عبادة ، وإذا أراد إذلالنا يجب أن نبذل الغالي والرخص ، والنفس والنفيس .

المذيع :

دكتور إذا أراد أن يكون سوقاً استهلاكية ؟.

الدكتور :

ينبغي أن نصنع ، لأن سيدنا عمر أستاذ علاء لقطت لقطة من كلامه لا ينسى ، مشى ببلدة فرأى كل الفعاليات ليست من المسلمين ، فعنفهم تعنيفاً شديداً ، فقال أحدهم كما يقول بعض من أتاهم الله المال : إن الله سخرهم لنا ، فقال سيدنا عمر : فكيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ، أدرك هذا الخليفة الراشد قبل 1400 عام أن المنتج قوي ، وأن المستهلك ضعيف .

الآن أستاذ علاء عندنا حرب قطع الغيار ، يمكن أن يعطّل أسطول طيران بكامله حينما أمنع عن هذا البلد قطع الغيار ، المنتج قوي جداً .

أنا مرة قلت : تعمير محرك طائرة خمسة ملايين دولار ، أربعة محركات بعشرين مليون ، مليار ليرة، كم طنًّا من القمح ، هم يبيعوننا خبرتهم ، وتقنيتهم بأغلى الأسعار ، ويأخذون المواد الأولية بأرخص الأسعار ، كيلو الصوف يبيعه بسعر ، يعود إلينا مصنعاً بـ1750 ، ضعف ، لذلك نحن الحل الوحيد أن نصنع ، أن نصنع ثرواتنا ، أن نقيم معامل صناعات غذائية ، ويلٌ لأمة تأكل ما لا تزرع ، وويلٌ لأمة تنسج ما لا تنسج ، أنا أضيف قاعدة ثالثة : وويلٌ لأمة تستخدم آلة لا تصنعها .

الآن عندنا عقود إذعان ، أنت عندك مركبة ، تعطلت بها قطعة ، يمكن أن يبيعوك الأتعاب بمئة ضعف، وأنت تذعن ، لأنك مضطر ، كذلك السلاح ، أكثر عقود قطع الغيار والسلاح عقود إذعان ، لا عقود تراضٍ إطلاقاً ، فما لم نصنع ثرواتنا ، ما لم نستخرج ثرواتنا ، نطور صناعاتنا ، ما لم نكتفِ بصناعاتنا فأمرنا ليس بيدنا ، وأنا أرى أن هذه عبادة أولى .

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

المذيع :

دكتور الآن بين يدينا موارد في وطننا ، هذه الموارد توزع ، سواء كانت موارد مياه ، موارد كهرباء، الهاتف ، الأشياء المبسوطة بين يدينا ، عودة إلى ما تفضلت في قصة الإسراف والتبذير ، وما إلى ذلك، أنا كمواطن في منزلي ، وعندي أسرة أمام الموارد الموجودة بين أيدينا ما هي العبادة المقدمة ؟

استعمال الموارد برشد وعدم إسراف :

الدكتور :

النبي الكريم توضأ من قعب ، إناء ماء توضأ منه فضلت فيه فضلة قال : ردوها في النهر ينفع الله بها قوماً آخرين ، هذا توجيه النبي ، فلا تسرف في استخدام الماء ، الماء حياة ، فنحن حينما تكون صنابيرنا معطلة ، أو فيها خلل ، وتسرب الماء ، هذا يجمع كميات فلكية ، الماء قوام الحياة ، فكل الإسراف مرفوض .

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف الآية : 31)

في الآية ملمح ، ما قال : لا تسرفوا في الطعام والشراب ، قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

في كل شيء ، فأنا حينما أوجه الإنسان المؤمن إلى أن يقتصد في استعمال المياه ، وإلى أن يعيش مشكلات الآخرين ، هذا الذي لا يعيش مشكلات الآخرين إنسان بعيد عن أن يكون في المستوى المقبول عند الله ، وعند الناس ، ينفع الله بها قوماً آخرين ، فضلت فضلة في القعب قال : ردوها في النهر .

أحياناً ورقة ، كلفت مبلغا ضخما استخدمها الموظف لينشف يديه ، ورقة مطبوعة عليها ترويسة ، ومكلِفة ، وورق جيد ومستورد ، هذا الورقة تستخدمها لتنشيف يديك ؟! يمكن أن أكتب بورقة كلمتين فقط ، ثم أمزقها ، أستخدم أوراقا صغيرة .

الاقتصاد أستاذ علاء كمال ، الله عز وجل غني ، كن فيكون ، ومع ذلك يموت في الثانية الواحدة 2،5 مليون كرية حمراء ، لا تطرح ، بل يعاد تصنيعها ، تفكك في الطحال إلى هيموكلوبين وحديد ، يذهب الحديد إلى معامل الدم في نقي العظام ، والهيموكلوبين يذهب ليكون الصفراء في الكبد ، وهذا نظام اقتصادي ، هذا الدرس لنا ، أنا أعد الاقتصاد فهما عميقا جداً للدين .

المذيع :

الذي يترك أنوار بيته مضيئة ، والذي يترك المدفأة مضيئة في مكان ، لو كان غنياً ؟ .

الدكتور :

يسهم في إضعاف الطاقة وقت الذروة ، نحن بحاجة إلى وعي باستهلاك الكهرباء ، وباستهلاك الماء ، باستهلاك الموارد البشرية ، بالقرطاسية ، وقد نستخدم من المبيدات الزراعية 8 أمثال حاجتنا بعدم الوعي ، وأكثرها مسرطن .

المذيع :

هذا ينعكس على البيئة والتربة ، ولا تستطيع تفكيكه التربة حتى في سنوات طويلة .

الدكتور :

أنا أقول : الإسلام هو الحياة ، الإسلام ينبغي أن تعيش حياة متوازنة ، حياة تنتظمها قيم ، مبادئ ، وأهداف .

المذيع :

سنعود إلى هذه المسائل إن شاء الله من خلال برنامجنا القادمة ، ونقف عندها وقفات ملية .

الآن دكتور تحدثت عن أنواع العبادات ، هنالك أنواع ، وهنالك أشكال ، وكما تعلمنا من أشكال العبادات هناك شعائرية ، وهنالك تعاملية ، نتحدث عن أشكال العبادة ونتحدث عن شقيها الشعائرية ، والتعاملية .

العبادات الشعائرية والعبادات التعاملية :

الدكتور :

العبادات الشعائرية كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، نقف ، نقرأ الفاتحة ، نقرأ سورة ، نركع ، نسجد ، ثم نقف ثانية ، هذا أحكام الصلاة ، والحج نذهب إلى بيت الله الحرام ، ونطوف ، ونسعى ... إلخ ، والصيام دع الطعام والشراب .

لكن هناك عبادة تعاملية ، أن نكون صادقين ، أن نكون أمناء ، أن نكون أعفى ، أن نكون منصفين ، أن نكون محسنين ، أن نكون رحماء ، أن نكون ، أن نكون ، هذه العبادات التعاملية هي الأصل في الدين ، وهي موضوع هذا البرنامج ، الإيمان هو الخلق ، وما لم تصح العبادة التعاملية لا تقبل العبادة الشعائرية ، أربع أدلة .

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله من لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمّتِي مَنْ يَأتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا، فيقعُدُ فَيَقْتَصّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ ، ثُمّ طُرِحَ فِي النّارِ))

[البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

انتهت الصلاة ، الآن الصيام :

((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة]

انتهى الصيام ، الآن الزكاة :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

انتهت الزكاة ، الآن الحج :

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك ؛ قال الله عز وجل : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك))

[رواه الشيرازي وأبو مطيع عن عمر]

لا تصح العبادات الشعائرية إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

إذاً العبادات الشعائرية ومنها الصلاة والصيام والحج والزكاة لا تقبل ، ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، وهذا أخطر شيء يغيب عن المسلمين ، مشكلة المسلمين الأولى أنهم توهموا أن الدين هو العبادة الشعائرية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (08-95) - الأمانة - أصول التصورات الإسلامية التي تضبط الإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

الأستاذ علاء :

أستاذنا الدكتور راتب ، مرّ معنا من خلال حلقات البرنامج في تعدادها أن الخلق ينقسم إلى قسمين ، أو يعرف من خلال ما تبينا بالبحث معكم بأنه انضباط ثم عطاء ، إذاً الأخلاق هي كوابح لجماح النفس الإنسانية ، لتصرفات الإنسان المنزلقة أو المتهورة ، أو التي تكون في غير اتزان ، و غير موزونة ، بعد هذا الضبط والكبح والمنع بكل معنى الكلمة يأتي العطاء ، لذلك هو باعث للعطاء ، وباعث للهمة ، وباعث لكل نهضة ، ولكل خير ، فيستحيل هذا الإنسان في مجتمعه من إنسان غير فعال ، من إنسان فوضوي ، من إنسان أناني ، من إنسان يحمل خلقاً أو خلالاً لا تحبها الناس إلى إنسان عندما يتحلى بالخلق إنسان منضبط ، ثم إنسان يسارع إلى العطاء ، هذا تبيناه من الحلقات السابقة .

الآن في حلقة اليوم لابد أن نقف عند مسألة ، يقول الله تبارك و تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب : 72]

هنا من خلال هذه الآية الكريمة نتبين أن الأمانة لها حمل ثقيل ، مَن هو في الكون أقدر على التحمل رفض أن يحملها ، فتحملها الإنسان ، ما هي الأمانة ؟ ولماذا تصدى لهذه المهمة ؟ وبالتالي كيف تصدى لهذه المهمة اتساقاً مع مسائل التكليف ، ومقومات التكليف ؟

كلُ حركةٍ يسبقها تصورٌ :

الدكتور راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ علاء ، ما من حركة يتحركها الإنسان إلا ويسبقها تصور ، ولو أن سلوك الإنسان لا يتعلق بتصوراته ، بل لا يتعلق بعقيدته لهان الأمر كثيراً ، ولكن ما من خطأ في التصور إلا وينعكس خطأ في السلوك ، وما من

خطأ في السلوك إلا وسببه خطأ في التصور ، ومادام البرنامج يتحدث عن الخلق ، والخلق كما تفضلتم انضباط وعطاء ، أي حركة ، حركة سلبية ، وحركة إيجابية ، إذاً وراءها تصور ، فنحن إذا أردنا أن نصحح الأخلاق ينبغي أن نبدأ من التصور ، تماماً كما لو عالج طبيب طفلاً ارتفعت حرارته ، الطبيب الناجح لا يعطيه خافض حرارة ، يبحث عن أصل الداء ، الأصل هناك التهاب ، يعالج الالتهاب ، فتنخفض الحرارة ، ونحن إذا أردنا أن نعالج الأخلاق بمعزل عن التصور لا نفلح ، إذا أردنا أن نعالج الأخلاق بمعزل عن العقيدة ، عن التصور لا نفلح ، حتى الذي أقدم على انحراف خطير يتصور أن هذا شيء ممتع ، و أنه شيء يحقق سعادته في الدنيا ، حتى الذي بذل جهداً كبيراً في خدمة المجتمع هو يتصور أن الله يرضى عنه ، وإذا رضي الله عنه ملك الأبد وسعادة الآخرة.

إذاً : ما من حركة مهما بدت صغيرة إلا وراءها تصور ، فإن صحّ التصور صحّ السلوك ، ذلك لأن كل إنسان فطر على حب وجوده ، و على حب سلامة وجوده ، و على حب كمال وجوده ، و على حب استمرار وجوده ، يشقى من خطئه في التصور ، الله عز وجل يقول عن أهل النار :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك : 10]

إذاً : هي أزمة تصور ، أزمة فهم خاطئ ، أزمة فهم منحرف ، فما من إنسان إلا و يسعى لسلامته و سعادته ، لكن الخطأ في التصور يقود إلى خطأ في السلوك ، ثم يدمر الإنسان في الدنيا والآخرة .

الأستاذ علاء :

دكتور راتب ، هذا يدفعني إلى تصور آخر ، عندما يفشل الإنسان في عمل ما ، في مشروع ما ، في قضية ما ، في دراسة ، في شأن من شؤون الحياة ، هذا مرده إلى أنه خطط لهذا المشروع بشكل غير سليم ، و الدراسة كانت غير سليمة ، والتصور لهذا المشروع على أرض الواقع كان غير سليم ، فبالتالي جاءت النتائج غير سليمة ، لأن التخطيط و التصور كان غير سليم ، بالتالي إذاً هذه المسائل كانت عن تصور غير سليم ومشوش ، لذلك أدت إلى نتائج سلبية :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك : 10]

إذاً : لو كان لدينا التصور الصحيح ، والفهم الصحيح للحياة ، وما بعد الحياة ما كنا في أصحاب السعير .

التخطيط الخاطئ يُفضي إلى نتائج غير سليمة :

الدكتور راتب :

هذا الطالب الذي يتصور مستقبلاً باهراً ، أي مكانة ودخلا و زوجة وأولادا ، يراها في الدراسة ، فيحمل نفسه على دراسة شاقة ، و يبتعد عن كل الملهيات ، لأنه يتصور مستقبله ، وهذا الذي يعيش لحظته ، وعطل تصور المستقبل يمتع نفسه بمتع رخيصة ، فإذا تقدمت به السن شعر بالخسارة الفادحة.
إذاً : أنا أصر ، ونحن في برنامج " الإيمان هو الخلق " على أن أصل التصرف و الحركة و العطاء و الانضباط تصور صحيح ، لذلك إن شاء الله سنمضي حلقات متتابعة حول أصول التصورات الإسلامية التي تضبط الإنسان أولاً ، و تجعله يعطي ولا يأخذ .

الأستاذ علاء :

إذاً : دكتور راتب ، الآن الإنسان هذا المخلوق العاقل الذي أكرمه الله بالعقل والتفكير ، وبالتمييز ، وأكرمه بمعرفة الأشياء ، أعطاه الله الأمانة كما تفضلت ، وهي نفسه التي بين جنبيه ، بالإضافة إلى هذه الأمانة التي حمل ثقلها في أن يجعلها مثلاً في جانب الأبرار ، أو في جانب الأشرار ، لما أعطى الله عز وجل العقل للإنسان أعطاه التكليف ، وكلفه بوجود هذا العقل ، هل لنا أن نتبين مقومات ، وأسس التكليف ؟

تحمُّل الإنسان للأمانة :

الدكتور راتب :

كلامك صحيح ، لكن لابد من الوقوف عند الآية ، قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب : 72]

تماماً كما لو أن أباً عنده أولاد عدة ، عرض عليهم من يأتي بدرجة عالية من جامعة متفوقة جداً ، وله نصف المعمل ، فإذا أبى أحد أولاده فله دخل محدود ، وله بيت وزوجة ومركبة ، أما إذا أراد أن يكون طموحاً فلابد من أن يأتي بشهادة عالية جداً ، أحد أولاده قال أنا لها :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب : 72]

تعبير يشمل الكون كله :

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب : 72]

الإنسان قال : أنا لها يا رب ، فإذا أدى الأمانة لم يكن ظلوماً ولا جهولاً ، بل كان طموحاً ومتألقاً ، وإذا خان الأمانة كان ظلوماً جهولاً .

نفس الإنسان أمانة فلابد من تزكيتها :

إذاً : الأمانة في رأي معظم العلماء هي نفسك التي بين جنبيك :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس]

كيف نزكي النفس ؟

تزكية النفس أن تعرفها بربها ، وأن تعرفها بسر وجودها ، وغاية وجودها ، من أين ، و إلى أين ، و لماذا ؟

تزكية النفس أن تعرفها بمنهج ربها ، تزكية النفس أن تحملها على طاعته ، تزكية النفس أن تجعلها تتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة ، فتزكية النفس ثمن الجنة ، ثمن سعادة عرضها السماوات و الأرض، ثمن جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ، و لا أذن سمعت ، و لا خطر على قلب بشر ، هذا كلام خالق لأكوان ، و مع الأسف الشديد معظم الناس لا يدخلون في حساباتهم الدار الآخرة ، ولا يدخلون في حساباتهم الجنة ، ذلك أن الإنسان يعيش فيما حوله ، و لا يفكر في المستقبل البعيد ، والإنسان كلما ازداد عقله ازداد بُعْدُ نظره ، تماماً كما لو أن إنساناً يركب مركبة ليسافر بها إلى حمص ، فإذا بلوحة كتب عليها : الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في مدينة النبك ، يرجع ، قرأ اللوحة ، و فهم الواقع ، و اتخذ موقفاً من خلال هذه اللوحة ، لو أن دابة تمشي لم تقف إلا عند الثلج ، الذي يحكمه النص والمستقبل البعيد كان إنساناً راقياً ، والذي يحكمه الواقع ، وتحكمه الشهوات ، وتحكمه المصالح ، ويعيش للحظته هو إنسان عطل عقله ، ودفع الثمن باهظاً ، هبط بمستواه الإنساني إلى مستوى لا يليق به ، الإنسان خلق لمعرفة الله ، خلق ليسعد بجنة عرضها السماوات و الأرض ، خلق ليكون لله .

أستاذ علاء ، أي إنسان يكون لغير الله يحتقر نفسه :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة : 130]

أنت مخلوق لله ، لكن الأشياء مخلوقة لك ، أما أنت فمخلوق لله عز وجل ، فلا يليق بإنسانيتك ، ولا بكرامتك ، ولا بكونك المخلوق الأول ، ولا بكونك حملت الأمانة ، ولا بكونك تحمل رسالة أن تكون تابعاً لأحد ، أو أن تكون خطأ من أخطاء إنسان آخر ، أنت لله ، فهذا التوحيد يسمو بالإنسان من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، يسمو بالإنسان من عبادة الأشخاص إلى عبادة خالق الكائنات ، هذا الذي يرقى بالإنسان .

الفلاح والفوز يوم القيامة :

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة ، لذلك الآية الدقيقة :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن]

الشيء الذي يلفت النظر أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ؟ هذا الترتيب رتبي ، وليس ترتيبا زمنيا ، فلا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه ، وهذا هو الخُلُقُ ، أن تصح رؤيتك فيصح سلوكك ، إذاً : الأمانة النفس ، وأقوى دليل على ذلك :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[سورة الشمس : 9]

أي الفلاح كل الفلاح ، والنجاح كل النجاح ، والعقل كل العقل ، والذكاء كل الذكاء ، والتفوق كل التفوق في تزكية النفس ، وتأهيلها لجنة ربها ، لأن الإنسان إذا وافته المنية ، وعرف مكانه في النار يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا :

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر : 24]

والمؤمن حينما يرى مكانه في الجنة ومقامه عند الله :

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر : 55]

يقول : لم أر شراً قط ، فلذلك البطولة فيمن يضحك آخراً ، كثيرون ممن يضحكون أولاً ، ويبكون كثيراً ، لكن البطولة فيمن يضحك آخراً .

حينما يولد الطفل كل من حوله يضحك ، وهو يبكي وحده ، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي ، فإذا كان بطلاً فليضحك وحده :

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس : 26]

هذه الدنيا ساعة ، اجعلها طاعة ، والنفس طماعة ، عودها القناعة ، ولئلا يندم الإنسان ندماً لا يحتمل فيقول :

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

[سورة الفجر : 24]

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)

[سورة الفرقان : 27]

هكذا يصف الله عز وجل حال الإنسان عندما يفارق الحياة الدنيا .

أستاذ علاء ، كما تفضلتم هذه الأمانة التي حملها الإنسان ما حمله إياها إلا وقد أعطاه وسائل أدائها أو مقوماتها .

مقومات التكليف :

أولاً : الكون :

أكبر شيء ثابت لا يتزعزع هو الكون ، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، الكون ينطق بوجود خالق عظيم ، ينطق بكمال هذا الخالق ، ينطق بوحدانيته ، الكون ينطق بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

***

يكفي أن نعلم أن الله عز وجل حينما قال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر ، كم يقطع بالدقيقة ؟ ضرب ستين ، كم يقطع بالساعة ؟ أيضاً ضرب ستين ، كم يقطع في اليوم ؟ ضرب أربع وعشرين ، كم يقطع في السنة ؟ ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ، كم يقطع في أربع سنوات ؟ ضرب أربعة ، معنا رقم كبير جداً ، ويحسن حسابه أي طالب في الصف التاسع ، لو أردنا أن نصل لهذا الكوكب بمركبة أرضية ، أو لهذا النجم سرعتها مئة قسمنا هذا الرقم على مئة كم ساعة ؟ على أربع وعشرين كم يوما ؟ على ثلاثمئة و خمسة وستين كم سنة .

هل تصدق أستاذ علاء أن أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يحتاج كي نصل إليه بمركبة أرضية إلى خمسين مليون عام ، متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى بعض المجرات التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ؟ الأربع سنوات ضوئية تحتاج إلى خمسين مليون عام بالسيارة إليه بسرعة مئة ، أما هذه المجموعة من النجوم فتبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية :

الآن قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة]

أكبر عالم فيزياء في أوربا أنشتاين قال : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، عليمة هي علم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، هو إنسان حي ، و لكنه ميت ، فالإنسان يحيا قلبه بمعرفة الله ، ويموت بالبعد عنه .

إذاً : هذا الكون أكبر شيء ثابت يدعم الإيمان ، هذا الكون وراءه إله عظيم ، صفاته عليا ، و أسماؤه حسنى ، رحمة ، و علم ، و قدرة ، و حكمة ، و إنصاف ، و عدالة ، فلذلك إذا بدأ الإنسان بمعرفة الله من خلال خلقه ، ثم ثنى بمعرفة الله من خلال كلامه ، ثم ثلث بمعرفة الله من خلال أفعاله يكون قد عرف الله ، وإذا عرفت الله عرفت كل شيء ، ابن دم ، اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، فالكون له إن شاء الله حلقة كاملة ، نتحدث عن الكون ، و عن السماوات والأرض ، و عن الأرض بما فيها ، و عن المخلوقات ، و عن الحيوانات ، و عن الأطيار ، والأسماك ، و عن نواظمها ، و عن ضوابطها ، لكن أكبر شيء يدل على الله هو الكون ، والكون قاسم مشترك بين كل الناس ، بين كل الملل والنحل ، الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، الكون أحد أكبر مقومات التكليف ، والكون لغة عالمية ، ينطق بوجود خالق عظيم ، ينطق بوجود خالق حكيم .

هذه العين ، لو سافر أحدنا إلى بلاد في الشمال ، الحرارة سبعون تحت الصفر ، فيها ماء العين ، أنت تغطي رأسك وجسمك ، لكن لن تستطيع أن تغطي عينيك كي تمشي في الطريق ، فماء العين يلامس سبعين تحت الصفر ، إذاً : ينبغي أن يتجمد فوراً ، وأن يفقد الإنسان بصره ، من أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟

الحقيقة الخوض في الكون أقصر طريق لمعرفة الله ، وأوسع باب ندخل منه إلى الله :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران]

الأستاذ علاء :

إذاً : سيدي ، كما تبين بأن التكليف يقتضي العقل والفهم والتفكر لأولي الألباب ، هذا التكليف أهم مقوم من مقوماته أن ينظر الإنسان إلى هذا الكون .

التفكر في المخلوقات كلها :

الدكتور راتب :

إلى طعامه ، إلى شرابه ، إلى أولاده .

الأستاذ علاء :

إلى السماء ، إلى الأرض ، إلى الماء ، إلى هذا الإعجاز الكبير الذي يدل إلى الرسالة التي تنبئ عن مرسلها :

الدكتور راتب :

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

[سورة الطارق : 5]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

[سورة عبس : 24]

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس : 101]

وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب .

هذا الكون .

الأستاذ علاء :

هذا بالنسبة للكون ، وهذا سنفرد له حلقة كما تفضلت إن شاء الله من حلقات هذا البرنامج ، نأتي إلى العقل .

ثانيا : العقل :

الدكتور راتب :

أما العقل فهو القوة الإدراكية التي أكرم الله بها الإنسان ، و ميزه على بقية المخلوقات ، و ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة فقد هبط عن مستواه الإنساني .

في الإنسان حاجات سفلى هي محققة الآن في أعلى درجة ، وفي أكمل درجة ، لكن حاجته العليا ليست محققة ، يعيش للدنيا ، يعيش لشهوته ، يعيش لمصالحه ، و لا يعيش لحقيقة آمن بها ، ولا لفكرة اعتقدها، ولا لهدف نبيل يسعى إليه .

من مبادئ العقل :

1 ـ العقل لا يفهم شيئا بلا سبب :

إذاً : العقل أداة معرفة الله ، ولكن عظمة الله عز وجل اقتضت أن تكون مبادئ العقل موافقة لقوانين الكون ، فعقلك لا يفهم شيئاً بلا سبب ، لو رأيت شيئاً قد فتح ، وأنت قد أغلقته لا تصدق إلا أن إنساناً دخل إلى البيت في غيبتك ، وفتح الباب .

العقل لا يفهم شيئاً بلا سبب ، كما أنه لا يفهم شيئاً بلا غاية ، إن اقتنيت جهازاً ، ورأيت فيه حاجة ، قلتَ : لماذا هذه القطعة ؟ ماذا أفعل بها ؟ لماذا صنعت هكذا ؟ لماذا وضعت هكذا ؟ هذا سؤال أبدي .

2 ـ العقل لا يقبل التناقض :

والإنسان لا يفهم شيئاً مع التناقض ، إنسان في الشام ، وفي مكة في آن واحد ، لا يقبل العقل ذلك .

الأستاذ علاء :

القيام والعقود في آن واحد هذا شيء مستحيل .

الدكتور راتب :

3 ـ مبدأ الغاية :

إذاً : العقل مبادئه مبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، وهذه المبادئ متوافقة مع قوانين الكون ، وهدفها أن تصل إلى الله بلطف ، هذه البيضة من الدجاجة ، أم الدجاجة من البيضة ؟ إذاً : من خلق

الدجاجة الأولى ؟ نقلك الله بلطف إلى مسبب الأسباب ، لو أن الله خلق الكون بلا أسباب كذلك لا تعتقد أن لهذا الكون إلهاً هو أعطاك عقلاً لا يفهم شيئاً بلا سبب ، والله مسبب الأسباب ، هذا المقوم الثاني .

ثالثا : الفطرة :

لعل هناك مقوما ثالثا هو الفطرة ، قال تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[سورة الشمس : 7]

الآن الآلات الحديثة ، المركبات الحديثة ، الطائرات الحديثة ، إذا وُجد خللٌ يظهر على الشاشة ، هي تنبئك بالخلل دون أن تبحث عنه ، الفطرة هي :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[سورة الشمس : 7]

ألهمها حينما تفجر أنها فجرت ، وألهمها حينما تتقي أنها اتقت ، فراحة الإنسان في صلحه مع فطرته ، وشقاؤه في خصامه معها ، وما مرض الكآبة الذي هو المرض الأول في لعالم إلا لأن الإنسان خرج عن مبادئ فطرته ، لأن الفطرة متطابقة تماماً مئة بالمئة مع منهج الله في الأرض ، وسواء أعصى الإنسان ربه أم خالف فطرته يشعر بالكآبة ، وسواء أطعت الله أم طبقت مبادئ الفطرة تشعر براحة ، فالفطرة لها أيضاً حلقة مستقلة إن شاء الله .

الأستاذ علاء :

الفطرة هي غير الجبلة .

بين الفطرة والجِبِلَّة :

الدكتور راتب :

هي نفسها هي أسماء لمسمى واحد ، جبلة ، فطرة .

الأستاذ علاء :

وهذه التي تكون لوحة الإنسان صافية فيها ، وميزانها صحيحا ، ودقيقة جداً ، هي التي تشعره بأنه أخطأ أو أصاب .

إقامة الدِّين حنيفا من الفطرة :

الدكتور راتب :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

[سورة الروم : 30]

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هو نفسه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، الله أمرك أن تكون صادقاً ، وأنت في أصل تكوينك ، وفي أصل جبلتك تحب الصدق .

الأستاذ علاء :

نأتي إلى المقوم الرابع الشهوة .

رابعا : الشهوة :

الدكتور راتب :

الشهوة كالمحرك في المركبة ، فلا حركة بلا شهوة ، ولولا أن الله أودع فينا حب الطعام والشراب ، وأودع فينا حب الطرف الآخر للزواج ، وأودع فينا رغبة تأكيد الذات ، لما وجدت على وجه الأرض شيئاً ، فمن دون محرك السيارة ليست سيارة ، بل هي وقافة ، قطعة معادن فقط ، أما المحرك فهو الذي يحركك ، لذلك كتشبيه مريح : المحرك هو الشهوة ، والعقل هو المقود ، والشرع هو الطريق ، فمهمة العقل أن ينطلق بالمحرك ، وأن يبقي المركبة على الطريق ، وألا ينحاز عنه ، وللشهوة إن شاء الله أيضاً حلقة مستقلة .

الأستاذ علاء :

أنا لا أدري إذا كنا نستطيع أن نأخذ المقوم الأخير إذا سمحت .

خامسًا : الاختيار :

الدكتور راتب :

حينما يكون الإنسان مخيراً يثمن عمله ، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، لو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، إذاً العمل لا يثمن إلا بالاختيار ، لكن العقل قد يضل :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

[سورة المدثر]

الشرع مقياس الفطرة والعقل :

والشهوة والفطرة قد تنطمس ، فما المقياس الذي نقيس به صواب العقل وصواب الفطرة ؟ الشرع ، فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، وكل هذه الحركة تحتاج إلى وعاء هو الوقت ، و للوقت حلقة مستقيلة .

نحن أمام سبع مقومات للتكليف : الكون ، العقل ، الفطرة ، الشهوة ، الاختيار ، الشرع ، الوقت ، هذه بالمستقبل القريب إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (09-95) - مقومات التكليف : الكون - معجزات الكون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-12-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بتعريف الخلق :

ونعود لنلخص بومضة إن صح التعبير عندما عرفتم الخُلق بأنه انضباط وعطاء في معنى السلب ، الكبح ، ثم العطاء ، وهذا الكبح والسلب يقطّر للعطاء سلوكه الصحيح ، ويضبط إيقاعه بكل معنى الكلمة .

والخلق هو ثمرة من ثمرات التكليف ، لهذا الإنسان المكرم الذي كرمه الله عز وجل وفضله على جميع المخلوقات ، وقال :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ)

(سورة الإسراء الآية : 70)

ومر معنا في الحلقة السابقة ، أو في حلقتين سابقتين تلخيص موجز لمقومات التكليف ، بأننا أمام مجموعة من مقومات التكليف تبدأ بالكون ، ثم العقل ، الفطرة الشهوة ، الاختيار ، التشريع ، الوقت ، ووعدنا السادة المشاهدين بأننا سوف نقف عند كل مقومة من مقومات التكليف في محطة واسعة إن شاء الله .

الآن نبتدئ بالمقوم الأول من مقومات التكليف : الكون ، ماذا يعني الكون ؟ وكيف يُقسم ؟ هل يُقسم إلى الأجرام ، والعوالم ، وذلك الفضاء الفسيح ، أم أنه يحتوي أيضاً من على هذا الفضاء ، أو من على هذه الأجرام ، من الإنسان وغيره من المخلوقات .

مقدمات هامة في مقومات التكليف : الله لا تدركه الأبصار :

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ الله لا تدركه الأبصار :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، بادئ ذي بدء : الله عز وجل يقول متحدثاً عن ذاته العلية :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية : 103)

حواسنا الخمس لا يمكن أن تستطيع أن تدرك الله عز وجل ، ولكن العقول تصل إليه ، لا أقول تحيط به ، تصل إليه ، وفرق كبير بين أن تصل إليه ، وبين أن تحيط به .

المذيع :

العقول هي أعلى من الحواس في مقدراتها ؟

2 ـ العقول أقوى من الحواس :

الدكتور :

نعم ، لأن الحواس تكتشف شيئاً ظهرت ذاته ، وآثاره ، بينما العقل يكتشف شيئاً غابت ذاته ، وبقيت آثاره ، هذه نقطة دقيقة جداً ، فلذلك الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، يمكن أن ترى قدرته ، رحمته ، لطفه ، حكمته ، جبروته ، جماله ، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[أخرجه ابن حبان عن أبي ذر]

كلما ازددت تفكيراً في آلاء الله ازددت تعظيماً له ، ومع التعظيم يكون الانضباط وفق المنهج ، هذه نقطة مهمة جداً في هذا اللقاء الطيب .

المذيع :

إذاً دكتورنا معرفة الأثر ، ومعرفة دقائق هذا الأثر ، وهذا المخلوق ، والتعرف على نظامه في الكون، يدلنا على العظيم المطلق .

3 ـ معرفة الآمر قبل معرفة الأمر :

الدكتور :

لأن أصل الدين معرفة الله ، إن عرفته عرفت كل شيء ، وإن فاتك فاتتك معرفته فاتك كل شيء ـ المعرفة إذاً تولد الانضباط ـ وإذا عرفت الآمر ، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر .

أكاد أضع يدي على مشكلة العالم الإسلامي ، عرفوا أمره ، ولم يعرفوا ذاته العلية ، فتفلتوا من منهجه.

4 ـ الكون مظهر لأسماء الله الحسنى :

هذه حقيقة دقيقة جداً ، فلذلك الكون مظهر لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى بل إن معرفة الله يمكن أن تسلك في طرق ثلاثة : التفكر في مخلوقاته ، قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

التفكر جاء بصيغة المضارع الذي يدل على الاستمرار ، وأكاد أقول : إن التفكر أعظم عبادة على الإطلاق .

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ)

(سورة القدر)

((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

[أخرجه النسائي وابن ماجة عن ابن عباس]

((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب))

[أخرجه أبو نعيم في الحلية عن معاذ]

فإذا عرفت الله تفانيت في طاعته ، إذا عرفت الله زهدت فيما سواه ، إذا عرفت الله سعدت في الدنيا والآخرة ، أنا أركز على معرفة الله ، يمكن أن تكون من خلال خلقه تفكراً ، ومن خلال كلامه تدبراً ، ومن خلال أفعاله نظراً .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

الآيات الدالة على عظمة الله :

فهذه الحلقة إن شاء الله مخصصة للتفكر في خلق السماوات والأرض ، يمكن أن نبدأ ببعض الآيات التي تشير إلى عظمة هذا الكون ، الآية الأولى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

الآية الأولى : بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

أستاذ علاء ، بين الأرض وأقرب نجم ملتهب إليها أربع سنوات ضوئية ، ماذا تعني عند الإخوة المشاهدين ؟ ماذا تعني أربع سنوات ضوئية ؟ الضوء يقطع في الثانية الواحدة 300 ألف كم ، كم يقطع في الدقيقة ؟ ضرب 60 ، في الساعة ضرب 60 ، في اليوم ضرب 24 ، في العام ضرب 365 ، في أربع سنوات ضرب أربعة ، معنى رقم كبير جداً هذا الرقم لو قسمناه على 100 ، لماذا ؟ لو أردنا أن نصل إلى هذا الكوكب بمركبة أرضية الناتج كم ساعة نحتاج ؟ لو قسمناه على 24 ، كم يوما نحتاج ؟ لو قسمنا على 365 كم سنة نحتاج ؟ من أجل أن نصل إلى هذا النجم الذي هو أقرب نجم ملتهب إلى الأرض بمركبة أرضية نحتاج إلى 50 مليون عام بسرعة 100 كم ، أقرب نجم ملتهب إلى الأرض نحتاج أن نصل إليه بمركبة أرضية إلى 50 مليون عام ، أربع سنوات ضوئية تعني 50 مليون عام في قيادة سيارة .

متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى المرأة المسلسلة ؟ مجرة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ، متى نصل إلى نجم اكتشف حديثاً يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ؟

الآن إذا قرآنا قوله تعالى يقشعر جلدنا :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

ولكن عالم الفلك لو وقف عند كلمة مواقع لخر ساجداً لله ، لماذا هذا النجم الذي أطلق ضوءه إلينا من عشرين مليار سنة سرعته 240 ألف كم في الثانية ، أين هو الآن ؟ فهذا المكان ليس نجماً هو موقع ، لأن كلمة موقع أن صاحب الموقع ليس في الموقع .

لو فرضنا النص : فلا أقسم بالمسافات التي بين النجوم ، هذا ليس قرآناً ، لأن النجم متحرك ،

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

لذلك قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

هذه آية .

الآية الثانية : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ

آية ثانية : بين الأرض والشمس 156 مليون كم ، يقطعها الضوء في 8 دقائق ، الشمس تكبر الأرض بمليون و300 ألف مرة ، أي أن مليون و300 آلاف أرض تحتويها جوف الشمس ، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

الأرض في دورتها حول الشمس تمر بالبروج ، أحد هذه البروج برج العقرب ، فيه نجم صغير متألق أحمر اللون ، اسمه قلب العقرب ، هذا النجم الصغير الأحمر ، المتألق يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ، 156 مليون كم .

لذلك لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت ، أنت تعلم عندما يعصي الإنسان الله من هذا الذي يعصيه ؟ لذلك : رأس الدين معرفة الله ، وما لم نعرف الله ما قطفنا من ثمار الدين شيئاً ، لأن الإنسان إذا عرف الله أصبح بطلاً صار الواحد كمليون ، أما إذا ما عرف أحدنا الله عز وجل المليون كأف ، لا نقدم ولا نؤخر ، هذه ناحية .

الآية الثالثة : إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ أنْ تَزُولاَ

ناحية ثانية تأخذ بالألباب : أن الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي بيضوي ، وهذا المسار الإهليلجي يعني أن هناك قطرين ، قطرا أدنى ، وقطرا أعلى ، الأرض الآن في القطر البعيد ، اقتربت من القطر الأدنى ، لما قلّت المسافة بينها وبين الشمس زادت الجاذبية ، فهناك احتمال أن تنجذب الأرض إلى الشمس ، وإذا انجذبت إليها تبخرت في ثانية واحدة ، لأن حرارة جوف الشمس عشرون مليون درجة ، فتفنى الأرض بأكملها ، فهي مادة غير عاقلة ، ماذا يفعل الله بها وقد اقتربت من أن تنجذب إلى الشمس ، تزداد سرعتها لينشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فتبقى في مسارها .

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر الآية : 41) .

أن تنحرف عن مسارها ، إذا انحرفت عن مسارها نحو الشمس تبخرت في ثانية واحدة .

إذاً : من أجل أن تبقى الأرض على مسارها تزداد سرعتها ، فينشأ من هذه الزيادة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة ، إذاً تبقى على مسارها ، لكن العظمة هنا يبدو اسم الله : (اللطيف)، أما هذا التسارع فيكون بتباطؤ ، تزداد السرعة شيئاً فشيئاً ، ولو أنها ازدادت فجأة لهدم كل ما على الأرض ، ولم يبقَ

على سطحها منشأة ، التسارع بطيء ، كيف أن السائق يسارع بمركبة بشكل لطيف ، يبقى الراكب مرتاحا ، لو أنه أقلع بها فجأة لزلزلت به السيارة .

الآن تتابع الأرض مسارها حول الشمس ، فتقترب إلى القطر الأطول ، هناك خطر ، طبعاً لما زادت المسافة ضعفت الجاذبية ، إذاً هناك إمكان للتفلت من مسارها حول الشمس ، فإذا سارت في الفضاء الخارجي أصبحت الحرارة 270 درجة تحت الصفر ، فانتهت الحياة ، إما أن تتبخر في ثانية ، وإما أن تتجمد كلياً .

فأي قدرة تمسك الأرض أن تبقى على مسارها ؟ إنها قدرة الله عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

هناك كتاب وقع تحت يدي ، الذي ألفه يؤمن بأنه (لا إله)، يقول : لو أنها تفلتت ، هو يبين للطلاب قارئي الكتاب كم هي قوة انجذاب الأرض نحو الشمس ، احتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي ، قطر الحبل خمسة أمتار ، والحبل الفولاذي الذي قطره خمسة أمتار يحتمل قوى شد مليوني طن ، الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جاذبية تساوي مليوني ضرب مليون مليون طن ، كل هذه القدرة الفلكية من أجل أن تحرف الأرض عن مسارها حول الشمس 3 مم كل ثانية ، انحراف الأرض 3 مم كل ثانية يشكل مسار مغلق حول الشمس ، مليونان ضرب مليون مليون طن هي قوة انجذاب الأرض نحو الشمس ، من أجل أن تنحرف3 م كل الثانية ترسم مسارا إهليلجيا حول الشمس .

الآن لو غرسنا هذه الحبال على سطح الأرض لاكتشفنا حقيقة المليون مليون حبل ، فإن بين الحبلين خمسة أمتار فقط ، وتغطي هذه الحبال كل الكرة الأرض ، عندها حجبت الشمس ، فلا مواصلات ، ولا بحار ، ولا مدن ، انتهى كل شيء .

الآية الرابعة : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

لذلك تأتي الآية الكريمة :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد الآية : 2)

يعني بعمد لا ترونها ، قوى الجاذبية عاملة ، لكننا لا نراها ، ونحن نمشي خلالها ، وهذا من لطف الله عز وجل ، هل بإمكان الإنسان أن يبني بناء من مئة طابق من دون ما يكون متصلا بالأرض ؟ بينه وبين الأرض عشرة أمتار يمشي خلاله ، هذا غير معقول ، هكذا الكون :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

قال بعض المفسرين : بعمد لا ترونها ، هي قوى التجاذب .

المذيع :

تسمح لي سيدي الكريم ، بين ما قدمت من إعجاز يقف الإنسان رغم ما أوتي من قوى العقل ، والتفكير، والسعة ، والتخيل ، يقف عاجزاً عن تخيل هذه الحقائق العلمية الموجودة ، سيدي الكريم هذا الكلام نزل من 1400 سنة على الصحابة الكرام ، وعلى أمة العرب ، حيث لم تكن هنالك مراكز الاستشعار عند بُعد ، ولم تكن هنالك يا سيدي لا تليسكوبات ، ولم تكن هنالك مركبات تسيح ، تتلمس هذه الحقائق ، وتقربها إلى الأذهان كما نحن نعيش في التقانة الحديثة ، كيف قبل الصحابة الكرام ، وتقبلوا هذه المعاني وفهموها ، فالتزموا بأمر ذلك العظيم الذي خلقها ؟

كيف قبل الصحابة الكرام ، وتقبلوا هذه المعاني وفهموها ؟

الدكتور :

الحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم له آلاف الحديث عن القضايا التعبدية ، لكنه لم يؤثر عن النبي أنه شرح الآيات الكونية ، لحكمة كبيرةٍ كبيرةٍ كبيرة ، بليغةٍ بليغةٍ بليغة لو أنه شرحها شرحاً مبسطاً يفهمه من حوله لأنكرنا عليه ، ولو شرحها شرحاً مفصلاً نفهمه نحن لأنكروا عليه ، تركت هذه الآيات كأداة أعجاز لهذا القرآن ، يكشف هذه الآيات كل عصر بحسب تقدمه ، فكلما تطور العلم كشف عن آية لم تكن معروفة من قبل ، إذاً : 1300 آية في القرآن دليل قطعي على أنه كلام الله ، ولا يقبل إنسان واحد على وجه الأرض فيه ذرة عقل أن هذه الآيات الكونية كان تعلم أبعادها وقت نزول الوحي ، الآن عُلمت .

هذا القرآن كلام الله ، لأن كل كتاب سماوي رافقه معجزة حسية ، والمعجزة الحسية كتألق عود الثقاب، تتألق مرة ، وتنطفئ ، فتصبح خبراً يصدقه من يصدقه ، ويكذبه من يكذبه ، أما هذه فمعجزة علمية ، كلما تقدم العلم اكتشف أن هذا الكلام من عند خالق الأكوان .

أهمية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لإقناع الناس بهذا الدين :

الإعجاز العلمي في القرآن هي الآن المادة الأولى ، هي المادة التي تقنع أي إنسان من دون استثناء ، أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، لأن هذا القرآن لكل البشر ، ولكل الأمم والشعوب ، ولآخر الدوران ، لا بد من أن تكون أداة إقناع الناس به معه ، لا بد من أن تكون أداة إقناع الناس به معه فالـ 1300 إن شاء الله في لقاءات قادمة نبين حكمة بعض هذه الآيات ، لكن الآيات الكونية 1300

آية ، سدس القرآن ، عبارة عن سبق علمي مذهل ، بعد 1500 سنة جامعات ، وعلماء ، ومخابر ، ودراسات ، وإحصائيات ، يتوصلون إلى معنى آية وردت قبل 1400 عام .

فلذلك القرآن معه دليل أنه كلام الله ، هذه نقطة دقيقة جداً ، فالنبي إما باجتهاد منه أو بتوجيه الله له ، لو شرحها شرحا مبسطا لأنكرنا عليه ، لو شرحها شرحا بحسب ما أراده الله لأنكر عليه أصحابه ، هذه تُركت ، أما أصحابه حينما وصلوا إلى الله استغنوا عن كل شيء ، كما لو أنك في البحر ، كل خلية في جسمك تشعر بماء البحر ، فأنت بهذه لا تحتاج إلى دليل أبداً ، وصلوا إلى الله ، نحن لم نصل إليه ، نحتاج إلى أدلة ، وإلى إقناع ، وإعجاز ، هم وصلوا إليه .

الإنسان أستاذ علاء ، حينما يعمل لا يسأل ، أما حينما يعمل يسأل ، وحجم الأسئلة يتناسب مع العمل ، وحينما يعمل يقطف الثمار ، صار معه الدليل .

الاصطلاح مع الله سبيل التوفيق والاطمئنان :

أنا أقول كلمة لا أدري مدى قبولها : الذي أراه أن الذي يشد الإنسان إلى الدين ليس أفكار الدين ، مع أن أفكار الدين رائعة ، الدين قدم للإنسان تفسيرا تصوريا عميقا دقيقا ، متناسقا للكون والحياة والإنسان، ومع ذلك الذي يشدك إلى الدين ليس أفكار الدين فقط ، أنت حينما تصطلح مع الله ترى معاملة من الله مذهلة ، ترى التوفيق ، ترى الراحة النفسية ، ترى التفاؤل ، ترى الثقة بالنفس ، ترى القوة ، ترى الجرأة ، لا تنافق ، لا تحابي ، حر ، لك موقف ، تحس بقدسية الإنسان ، فالذي يشد الناس إلى الدين حينما اصطلحوا مع الله تلقوا من الله معاملة مذهلة ، الدعم الكامل ، فهذا الدعم أنساهم كل شيء ، والصحابة في تصوري حينما وصلوا إلى الله لا يحتاجون إلى طرح سؤال .

مسك رجل بيده الجوهرة ، هناك جوهرة في اسطنبول ثمنها 150 مليون دولار ، وصل إلى الجوهرة، فاستغنى عن أي سؤال آخر .

فالذي لم يمسك بيده الجوهرة له مليون سؤال ، فهذا الذي يفسر أن الصحابة الكرام خففوا من الأسئلة لأنهم وصلوا إلى الله .

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء " .

ويا رب ، وماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجدك من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك من معك ؟

والمسلمون اليوم في أمسّ الحاجة لهذه المعاني ، الله لا يتخلى عنهم ، ولكنه يعالجهم ، فإذا فهموا على ربهم حكمته من هذه الشدة ، وهذا الضيق اصطلحوا معه ، لذلك إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض : أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

المذيع :

نعود الآن بعد هذه المحطة التفسيرية التي كان لا بد أن أسألك عنها ، يخطر في بال كثير من المشاهدين التي وقفنا عندها التي نكمل في آيات الكون .

النظرية النسبية لإنشتاين وسبق القرآن لها :

الدكتور :

أنشتاين يعد من أكبر علماء الفيزياء في القرن العشرين ، وجاء بنظرية النظرية النسبية ، هذه قلبت مفاهيم الحركة والفيزياء في الأرض ، السرعة المطلقة في الكون سرعة الضوء ، وأي جسم سرى مع الضوء أصبح ضوءاً ، كتلته صفر ، وأبعاده لا نهائية .

هل تصدق أستاذ علاء أن في القرآن الكريم آية تنطوي فيها نظرية أنشتاين ، وقد عرضت في مؤتمر الإعجاز العلمي الخامس الذي عقد في موسكو ، هي الآية الكريمة :

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة الحج)

والعرب تعد السنة القمرية ، الآن القمر يدور حول الأرض ، دورة كل شهر ، لو أردنا أن نحسب كم يقطع من الكيلو مترات في هذه الدورة ، الحساب سهل جداً ، نأخذ مركز الأرض ومركز القمر ، نصل بينهما بخط ، هذا الخط طوله نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما ، طالب من طلابنا يحسبه ، ضرب 2 قطر ، ضرب 3،14 المحيط ، ضرب 12 بالسنة ، ضرب ألف بألف سنة ، طالب من طلاب المرحلة الإعدادية بآلة حاسبة يمكن أن يحسب لنا كمن يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، الآية تقول :

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

أي أن ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد ، لو قسمنا هذا الرقم على ثواني اليوم لكانت سرعة الضوء الدقيقة 299752 بالدقة البالغة ، وإن شاء الله نعرض بعد قليل هذه النظرية على شكل مشاهد إن شاء الله .

المذيع :

الحقيقة دكتورنا نود أن نستمر الحقيقة في هذه المعاني الكونية ، التي جاءت من خلال الكتاب الكريم ، الوقت أدركنا لكن بقي معنا دقيقة واحدة نجمل فيها الكلام .

الوردة الجورية : فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

الدكتور :

وكالة ناسا الفضائية أضخم وكالة فضائية في العالم ، عرضت صورة قبل عشر سنوات هذه الصورة وردة لا تشك ثانية واحدة أنها وردة جورية ، بأوراقها الحمراء الداكنة ، ووريقاتها الزرقاء الزاهية ، وكأسها في الوسط ، هذه الوردة الجورية هي في الحقيقة انفجار نجم ، اسمه عين القط ، يبعد عنا 3000 سنة ضوئية ، أقرأ الآية :

(فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

(سورة الرحمن)

هذه الآية حار فيها المفسرون ، ولا تفسر إلا بالصورة التي سأعرضها ،

(فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

الآيات الكونية لا تعد ولا تحصى ، والله عز وجل ينتظر من عبده أن يفكر .

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (10-95) - مقومات التكليف : الإنسان - إعجاز الله تعالى في خلق جسم الإنسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-12-2005

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب

ذكرنا من مقومات التكليف التي هي الخلق ، أنها ثمرة من ثمرات مقومات التكليف ، ومقومات التكليف كما مر في الحلقات السابقة الكون ، العقل ، الفطر ، الشهوة ، الاختيار ، والتشريع ، والوقت ، بدأنا بالكون .

وفي محطتنا الماضية في الحلقة الماضية أوسعت شرحاً في مسألة الكون ، ومن خلال ما قدمت يبدو أننا نستطيع أن نستغرق مئات الحلقات ، ونحن في حيز الكون ، ولم ننتقل من مظلته إلى الأنفس ، إلى الإنسان الذي يعيش في هذا الكون .

لكن اسمح لي أن نبتدئ هذه الحلقة قبل :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ)

(سورة الذاريات الآية : 21)

ونختم في مسألة الكون ، وإذا تكرمت في كل الحلقات حبذا لو نضيء على مسألة الإعجاز في الكون ، تسمح لي أن أقف وأبتدئ عند الآية الكريمة :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

ماذا عن هذه الآية ؟

ماذا عن قوله تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ...؟

الدكتور :

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، أحد علماء الفضاء من أصل عربي ، كان في قاعدة فضاء في العالم الغربي كبيرة جداً ، وقد أطلقت مركبة إلى الفضاء ، إذا في رائد الفضاء يصيح فجأة لأقد أصبحنا عميان ، لأنه حينما تجاوز الغلاف الجوي دخل في منطقة الظلام الدامس ، ذلك لأن الضوء فيه ظاهرة

الانتثار ، لأن أشعة الشمس حينما تسلط على الهواء ذرات الهواء تعكس بعض الأشعة علة ذرات أخرى ، لم تصبها أشعة الشمس ، في الأرض شيء اسمه ضياء ، وشيء اسمه أشعة ، في مكان تجد أشعة الشمس ، فإذا تجاوزنا الغلاف الجوي تنعدم هذه الظاهرة ، تنعدم كلياً ، فنحن أمام جو مظلم هالك، لا نرى شيئاً ، إلا نقاط مضيئة هي الكواكب فقط ، فهذا الرائد لما دخل في الفضاء الخارجي ، وتجاوز الغلاف الجوي قال : لقد أصبحنا عمياً ، هذه قبل سنوات ، أو قبل عشرين سنة ، أما أن تجد في القرآن آية تقول :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

فهذه الآية لم تفهم إلا الآن ، لأنه قبل أن يصعد الإنسان إلى الفضاء الخارجي هذه لم يُفهَم ويكتَشف معنى لها ، هذا يؤكد كلام سيدنا علي رضي الله عنه ، قال : " في القرآن آيات لما تفسر بعد " ، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من عظمة هذا الكون .

فلذلك قالوا : الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي ، هناك قرآن تخضع له رقاب أهل الأرض ، هو الكون ، أي إنسان من أي ملة ، من أي فئة ، من أي طائفة ، من أي دين ، من أي مذهب ، لو أنه يعتقد لا إله يخضع لهذا الكون ، هو قرآن صامت ، تجسيد لعظمة الله ، مظهر لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فالتفكر في خلق السماوات والأرض أرقى عبادة على الإطلاق ، بل هي عبادة معرفة الله ، وإذا عرفته عرفت كل شيء .

المذيع :

انتقلنا الآن من الكون إلى الإنسان الذي يعيش في حاضنة هذا الكون على سطح البسيطة ؛ الأرض .

الإنسان : سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ

الدكتور :

لأن الآية الدقيقة :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت الآية : 53)

لكن الإنسان له ميزة ، أنه إذا فكر في جسمه هو أقرب شيء إليه ، هو يعيش بحواسه الخمس ، يعيش بأجهزته ، يعيش بخصائص جسمه ، فالله عز وجل يقول :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

يقدر العلماء أن في رأس الإنسان تقريباً 300 ألف شعرة ، لكل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، لكل شعرة ، من نعم الله العظمى أن ليس هناك عصب حسي في الشعرة ، لو كان فيها عصب حسي لاضطررنا إلى عملية جراحية مع تخدير كامل لحلاقة الرأس ، أعصاب محركة .

إذاً : الشعر آية من آيات الله الدالة على عظمته ، وقد يخسر الرجل كل شعره ، أما المرأة فلا يمكن أن تخسر كل شعرها لحكمة بالغةٍ بالغة ، وهذا شيء يلفت النظر ، قد تخسر شعرها ، لكن لا تخسر شعرها كله ، أما الرجل فقد يخسر شعره كله ، هذا من رحمة الله بالمرأة .

المذيع :

لأن هذا الأمر قد يكون مقبولاً عند الرجل ، ولا يقبل عند المرأة ، ويصبح أجرد من صلعة ، والصلعة هي الصخرة الملساء التي لا نبت فيها .

الآن سيدي يقول الله عز وجل :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

خلق الإنسان في أحسن تقويم :

الدكتور :

من يصدق أن في دماغ الإنسان 140 مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد ؟ وفي 14 مليار خليفة قشرية فيها المحاكمة ، والتفكير ، والتصور ، والاستدلال والمناقشة لذلك :

(لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ)

(سورة العلق)

الناصية مكان المحاكمة ، وهذا الشقاء الذي شقيه الإنسان بسبب خطأ اتخذه في دماغه ، هنا المحاكمة ، واتخاذ القرار .

(لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)

(سورة العلق)

هنا أخطأ في الحكم والتقدير ، لأن أزمة أهل النار وهم في النار أزمة علمية فقط .

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

أهمية عنصر العلم في معرفة الله :

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطته بعضك لم يعطك شيئاً .

الإنسان أستاذ علاء ركب الله فيه قوة الإدراكية ، وما لم يبحث عن الحقيقة فإنه يلغي إنسانيته ، لأن في الإنسان حاجات عليا ، وحاجات سفلى ، في الحاجات السفلى هو والحيوان سواء ، لكن بشكل راقٍ ، لكن في الإنسان قوة إدراكية عليا ، إن لم تلبَّ هذه الحاجة إلى المعرفة هبط الإنسان عن مستوى إنسانيته ، فلذلك :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله .

المذيع :

لذلك بتفكرهم ، وبمعرفتهم ، وبعلمهم وصلوا إلى ما وراء هذه المظاهر ، وهذه الآثار ، فتعرفوا إلى الله ، فكانت خشيتهم بلا حدود .

الدكتور :

مكان الذاكرة لا يزيد على حبة العدس ، فيها من ستون إلى سبعين مليار صورة في عمر متوسط ،

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

(سورة التين)

إن لم يتعرف إلى ربه ، ولم يصطلح معه ، ولم يطبق منهجه ، رد إلى أسفل سافلين ، ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، وركب الإنسان من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

المذيع :

الآن أستاذنا في مسألة التقويم ، هذا لو توقفنا عند هذه الذاكرة التي لا تتجاوز في جرمها وحجمها حبة العدس ، فيها ستون مليار صورة ، كيف يستدعي هذه الصور من ذاكرته الإنسان ؟ وما هذه السرعة التي تستغرق ليستعيد حدثاً معين ، أو ليتخيل ؟

كيف يستدعي الإنسان الصور من ذاكرته ؟

الدكتور :

سأوضح لك هذا يمثل : قدمت لك رائحة شممتها ، خلال ثانية تقول : هذا ياسمين ، مثلاً ، ما الذي حدث ؟ حينما شممت هذه الرائحة هناك عشرون مليون نهاية عصبية شمية ، كل نهاية فيها سبعة أهداب ، الأهداب مغمسة بمادة تتفاعل مع الرائحة ، إذا شُكل من هذا التفاعل شكل هندسي يشحن إلى الدماغ ، وفي الذاكرة الشمية عشرة آلاف بند تقريباً ، يعرض هذا الرمز على عشرة آلاف رمز ، حيثما توافق الرمزان تقول : هذا ياسمين ، لو في الأكل كمون ، شيء لا يصدق ، السرعة لا تصدق ، فلذلك قال الله عز وجل :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية : 88)

طريقة تغذية العين :

أستاذ علاء ، قرنية العين تتميز بخاصة تنفرد بها ، أن خلايا القرنية تتغذى عن طريق الحلول ، لا عن طريق الأوعية الشعرية ، ولو تغذت عن طريق الأوعية الشعرية لرأينا ضمن شبكة ، شبكة الأوعية ، شفافية تامة ، بفضل خاصة تنفرد بها القرنية ، وهي الحلول .

المذيع :

وهي ظاهرة فيزيائية تتسرب إلى الخلف .

الدكتور :

إذا الخلية الأولى تأخذ غذائها وغذاء جارتها ، وينتقل عبر الغشاء الخلوي ، لكن بغير أوعية شعرية من أجل تحقيق الرؤيا التامة .

في العين ماء نحن إذا ذهبنا إلى فلندا الحرارة سبعون تحت الصفر ، فأنا بإمكاني أن أضع قبعة على رأسي ، أرتدي قفازات صوفية ، أرتدي ألبسة صوفية ، يمكن أن أغطي كل أنحاء جسمي بالصوف ، عدا العين ، أمشي في الطريق ، الآن العين تجاور هواء درجته 70 تحت الصفر ، فشيء بديهي جداً أن يتجمد ماء العين ، وأن نفقد البصر هناك ، من الذي أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد ؟ الله جل جلاله ،

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

أستاذ علاء ، أعلى آلة تصوير الآن ثمنها بالملايين ، الآلة الرقمية الاحترافية ، الذي يملكها كبار المصورين ، هذه الآلة فيها بالميليمتر المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، الصورة هي مجموعة نقاط مضيئة ، فكلما كثرت هذه النقاط في المساحة أصبحت الصورة دقيقة ورائعة ، وفي شبكية العين مئة مليون مستقبل ضوئي ، العين البشرية تفرق بين 8 ملايين لون ، ولو درجنا اللون الواحد إلى 800 ألف درجة لفرقت العين السليمة بين درجتين ،

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

و

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

المذيع :

سيدي الكريم ، مررنا على الشعر ، مررنا على الدماغ ، مررنا على العين ، مررنا على الشم ، كما تفضلت في مسألة الروائح ، وكيف تفسر بشكل هندسي ، ويمر على عشرة آلاف في الكون ، نأتي إلى السمع .

الأذن آلة السمع :

الدكتور :

تمشي في الطريق تستمع إلى بوق سيارة ، فتنحرف نحو اليسار ، لِمَ انحرفت نحو اليسار ؟ ولم تنحرف نحو اليمين ؟ ما الذي يحصل ؟ هناك جهاز بالغ التعقيد في الدماغ ، لأن هناك أذنين ، وبالأذن الواحدة تسمع الصوت ، وبالأذنين معاً تعرف جهة الصوت ، الصوت دخل إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن ، الفارق واحد على ألف و 620 جزءا من الثانية ، إذا كان هناك بوق مركبة من الجهة اليمنى أصدر هذا الصوت ، فيدخل الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى لواحد على ألف و620 جزءا من الثانية ، وفي الدماغ جهاز يحسب تفاضل الصوتين ، فيكتشف جهة الصوت ، فإذا سمعت بوق مركبة من الخلف تنحرف نحو الجهة المعاكسة دون أن تشعر ، والأغرب من ذلك أنني كنت في طريقي من حمص إلى دمشق أركب مركبتي فأمامي قطيع غنم ، أطلقت بوق مركبتي فاتجه نحو الجهة المعاكسة ، حتى عند الحيوانات وعند البهائم ،

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

المذيع :

دكتور ، بالنسبة لهذا الإعجاز مسألة السمع ، كما هو معروف أن الإنسان له عتبة دنيا ، وعتبة عليا للسمع ، ما بينهما يسمع الاهتزاز ، ويسمع الصوت ، ويفسر ذلك الصوت ، ويتعامل مع هذه الساحة الحيوية المجال المغلق بين العتبة الدنيا والعتبة العليا ، ماذا لو كان الإنسان يسمع تحت هذه العتبة الدنيا، أو يسمع فوق العتبة العليا .

ماذا لو سمع الإنسان تحت العتبة الدنيا ، أو فوق العتبة العليا ؟

الدكتور :

لا ينام الليل ، بشكل مبسط : ضع إصبعك في أذنيك ، تستمع إلى دوي ، لأن الصوت ينتقل عبر الأجسام الصلبة بأضخم وأسرع من انتقاله عبر الأوساط الهوائية ، كما لو أن الإنسان سمع دقات قلبه .

أنا حدثني أخ ركّب دساما صناعي ، على أساس كرة معدنية ، قال لي : والله لا أنام الليل ، لأن هذه الكرة المعدنية استمع إلى حركتها طوال الليل ، أما في النهار مع الضجيج فلا يسمع الصوت .

الإنسان له عتبة سمع ، لو زادت أو قلّت لفقد حياته ، أو فقد أن يعيش حياةً هانئة ، وأحيانا تجرح إصبع الإنسان ، يأكل طعاما فيه مادة حامضية فيشعر بحرقة ، حتى الحواس كلها ، ماذا قال الله عز وجل ؟

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر)

الآن الرؤيا ، لو ترى كل شيء في الماء لم تشرب الماء ، فيه ملايين البكتريا ، تمسك بكأس ماء عذب صافٍ ، هو ليس كذلك ، بل في الماء الصافي الصالح للشرب ملايين الأجسام ، لكنك لا تراها ، فمن رحمة الله بنا أن جعل لهذه الحواس عتبات .

مثلاً : الصوت يتخامد ، الموجة الكهرطيسية لا تتخامد ، الإنسان أرسل مركبة إلى كوكب المشتري ، وبقيت تمشي في الفضاء الخارجي ست سنوات بأعلى سرعة صنعها الإنسان ، وهي أربعون ألف ميل بالساعة ، ومع ذلك وهي في المشتري أرسلت موجات كهرطيسية وصلتنا للأرض ، فالموجة لا تتخامد، أما الموجة الصوتية فتتخامد ، ولولا هذا التخامد كانت الحياة لا تطاق ، كل أمواج البحر نسمعها ، كل المعارك في كل أنحاء العالم نسمعها ، حتى صوت النحاسيين عندنا نسمعه ، ولو كنا بعيدين عنه .

إذاً هذه العتبة من فضل الله علينا ، ومن رحمته بنا ، ومن حكمته ، ولطفه ، لأن الأمواج الصوتية تتخامد .

النسيان نعمة كبيرة ، أحيانا موقف غير معقول إطلاقاً يقفه الإنسان يومين أو ثلاثة يتمزق من الألم ، لو بقي يذكره طوال حياته لأصبح شقياً ، فالنسيان نعمة .

المذيع :

سيدي الكريم ، مثل ما تفضلت ، هذا السمع عُزل في الحد الأعلى ، وفي الحد الأدنى ، والبصر ، لو كان الإنسان يسمع تحت هذه العتبة كما تفضلت لسمع جريان الدم في أوعيته ، وحركة الأمعاء ، وحركة الاستقلاب ، والهدم ، والبناء ، وكان مستيقظاً طول وقته .

ماذا لو أوكل الله إلينا عمل آليات الجسم ؟

الدكتور :

هناك نقطة أستاذ علاء دقيقة : أنك تأكل ، والجسم يقوم بآليات معقدة جداً في الهضم ، لو أوكل الهضم إليك تلغي عملك ، تأكل ، الآن تنام ، هناك مركز تنبيه للرئتين ، مركز نوبي ، لو أوكل الله لنا التنفس لم نستطع أن ننام ، الذي ينام يموت ، حتى إن هناك مرضا نادرا جداً ، هذا مركز التنبيه للرئتين النوبي يتعطل ، فالموت مصير كل إنسان أصيب بهذا المرض .

الآن اكتشف دواء غالٍ جداً يجب أن تأخذه كل ساعة ، تأخذه الساعة التاسعة حبة ، تضع أربع منبهات، تستيقظ العاشرة لتأخذ حبة ثانية ، تأخذ الساعة الحادية عشرة حبة ثالثة ، حبة رابعة الثانية عشرة ، وهكذا ، وهناك طبيب في دمشق أصيب بهذا المرض ، فجلب الدواء من أمريكا ، واستعمله ، جاء ابنه من أمريكا في هذا اليوم ، فرح بلقائه لم يستيقظ ، وجدوه ميتاً صباحاً .

لو أوكل الله لنا تنفسنا لانتهت الحياة ، لا ننام ، القلب لا إرادي ، التنفس لا إرادي الهضم لا إرادي ، مليون عملية تتم في الجسم وأنت نائم .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية : 108)

إنها نعمة عظيمة : وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

لأن وزن الجسم ، وزن الهيكل العظمي مع ما فوقه من عضلات يضغط على ما تحته ، فالأوعية تضيق ، فتضعف التروية ، وأنت نائم مستغرق في النوم يأتي أمر من الدماغ فتقلب ، تصور إنسانا نائم وقد تقلّب 38 مرة ، مرة على اليمين ، ومرة على اليسار ،

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

المذيع :

حتى تأخذ الأوعية وضعها ، وتأخذ حصتها من التروية ، وهذه الأنسجة تأخذ كميتها من الدماغ ، حتى لا تتم عملية إنهراس أو ضغط على هذا المكان .

وماذا عن اللعاب وأنت نائم ؟

الدكتور :

عند طبيب الأسنان إذا كان عملية طويلة يضع له الأنبوب المائي ، الإنسان وهو نائم يتجمع اللعاب في فمه ، تذهب إشارة من الفم إلى الدماغ أن كمية اللعاب كثرت فيأتي أمر من الدماغ ليغلق طريق الهواء، ويفتح طريق المريء فيبلع الإنسان ريقه وهو نائم ، ويحدث هذا عشرين إلى أربعين مرة وأنت نائم مستغرق في النوم ، لسان المزمار يغلق طريق التنفس ، ويفتح طريق المريء كي يذهب اللعاب إلى المعدة ،

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

هذا الإله العظيم يعصى ؟ هذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى رحمته ؟ ألا تخشى ناره ؟ أنعرض عنه ؟ أنهجر قرآنه ؟ نهجر طاعته ؟ .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

(سورة الجاثية)

المذيع :

عند هذا الخلق هذا الإنسان في تكوينه المعجز لو تلمسنا مراحل نشأته ، وهو عند أبويه قبل أن يتراسلا، ثم حصل التراسل واللقاء ، ولقحت تلك البيضة ، وحملت الأم هل لنا من مرور ؟

يا أيها الإنسان العاقل ماذا عن الغشاء العاقل ؟

الدكتور :

أستاذ علاء : في شيء اسمه الغشاء العاقل في المشيمة العقول لا تصدق عظمة هذا الغشاء ، سموه غشاء عاقلاً ، لأن المشيمة هي بالتعبير العامي (الخلاص)وهو قرص لحمي تجتمع فيه دورة دم الأم ، ودورة دم الجنين ، ولا يختلطان ، وكل دم له رمز خاص ، وزمرة دموية خاصة ، ومعروف عند علماء الطب أن من بديهيات الطب أنك إذا أعطيت إنساناً دماً من غير دمه يموت فوراً بمرض اسمه انحلال الدم ، الشيء الذي لا يصدق أن المشيمة يجتمع فيها دم الطفل ، ودم أمه ، وكل دم زمرة ، ولا

يختلطان ، بينهما غشاء ، يقوم بمهمات يعجز عنها أطباء الأرض مجتمعين ، وغشاء المشيمة يأخذ المواد السكرية من دم الأم فيطرحها في دم الجنين ، الآن حتى يحترق السكر بدرجة منخفضة يأخذ الأنسولين من دم الأم فيطرحه في دم الجنين ، حتى يحترق يحتاج إلا أوكسجين ، يأخذ الأوكسجين من دم الأم ، ويطرحه في دم الجنين ، صار الغشاء العاقل هو جهاز تنفس ، والأنسولين ، والسكر .

يمنع الغشاء العاقل دخول المواد السامة من دم الأم إلى دم الجنين ، الأم تسممت بمادة غذائية سامة لا ينتقل السم إلى دم الجنين ، بل يمنع .

تنتقل عوامل مناعة الأم عبر الغشاء العاقل إلى دم الجنين ، والغشاء العاقل يختار الغذاء المناسب ، البروتين ، الشحوم ، السكريات الفيتامينات ، لا يستطيع أطباء الأرض مجتمعين أن يعرفوا ما يحتاج الجنين كل ساعة ، هذه النسب تتبدل كل ساعة ، والغشاء العاقل يتولى نقل هذه النسب من دم الأم إلى دم الجنين .

إذا حدث احتراق سكر في دم الجنين يعود الغشاء العاقل ثاني أوكسيد الكربون من دم الجنين إلى دم الأم كي يطرح عبر التنفس ، فحدث الاستقلاب ، كما يعيد الغشاء العاقل حمض البول من دم الجنين إلى دم الأم يطرح مع الكليتين .

يقوم هذا الغشاء العاقل بمهمة جهاز التنفس ، وجهاز الهضم ، وجهاز الكليتين ، وجهاز المناعة المكتسب ، شيء لا يصدق ، والكبد ، يقوم بمهمات الأجهزة كلها ، ويستطيع أن يفعل شيئاً لا يستطيعه أطباء الأرض ، لذلك سمى الأطباء هذا الغشاء المشيمة الغشاء العاقل ، وهنا تتبدى عظمة الله عز وجل.

المذيع .

أستاذنا من خلال هذا التبحر ، وهذه المسحة البانورامية إن صح التعبير على إعجاز الخلق ،

(وَفِي أَنفُسِكُمْ)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

من خلال هذا الوقوف أمام العظمة والإعجاز ماذا يمكن أن نقول في نهاية حلقتنا ، وبقي لدينا دقيقتان ، بعد هذه الحالة من التفكر والاندهاش أمام الدقة والعظمة ، ماذا علينا ؟ هل نقف مشدوهين مندهشين ؟ لهذه العظمة أو يجب أن تترجم هذه المسألة في حياتنا إلى مسائل أخرى .

الدماغ ملك الغدد :

الدكتور :

إلى طاعة وإقبال ، لكن لا بد من وقفة قليلة جداً :

هناك إنسان يمشي في بستان ، رأى ثعبانا ، ما الذي يحصل ؟ تنطبع صورة الثعبان على شبكية العين إحساساً ، تنتقل إلى الدماغ دركاً في مفهومات الثعبان ، تلقاها في المدرسة ، وسمع قصة من جدته ، ورأى ثعبانا مرة ، فتجمع عنده مفهوم مخيف للثعبان ، لدغته قاتلة ، فالدماغ أدرك الخطر ، التمس ، وهو ملِك الجهاز العصبي ، التمس من ملكة الجهاز الهرموني الغدة النخامية أن تتصرف ، الغدة النخامية ملكة ، عندها وزير داخلية ، هو الكظر ، أمرته أن يواجه الخطر ، الكظر يصدر خمس أوامر، أمر إلى القلب يرفع النبض إلى 180 نبضة ، فالخائف يزداد وجيب قلبه ، وأمر للرئتين يزداد وجيب الرئتين كي يتناسب الهواء معه ، وأمر إلى الأوعية المحيطية تضيق لمعتها ، فيصفر لون الخائف ، وأمر إلى الكبد ليطلق كمية سكر إضافية ، وأمر إلى الكبد ليطلق هرمون التجلط ، هذا يتم في ثوانٍ ، فالخائف يصفر لونه ، يزداد نبض قلبه ، يزداد وجيب رئتيه ، تضيق أوعيته ، ويزداد السكر في دمه ،

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (11-95) - مقومات التكليف : العقل - مكانة العقل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كما مر معنا أستاذنا الكريم في الحلقات السابقة بأن التكليف ومقومات التكليف للإنسان المكرم على الأرض تنقسم إلى عوامل عدة ، مررنا على بعضها ، وعددناها ، وهي : الكون ، العقل ، الفطرة ، الشهوة ، الحرية ، الشرع ، وكذلك الوقت ، وقفنا عند الكون وقفة ملية ، والآن في الموقف الثاني لمقومات التكليف نقف عند العقل ، ويبدو أن هذا البحث ، أو هذا المبحث سيستغرق أكثر من حلقة ، وهنالك إشكالية يتجادل بها الناس : هل هو العقل الأساس أم الدين الأساس ؟ هل العقل هو ميزان للدين أم الدين هو الميزان للعقل ، أو هنالك مربع مشترك للميزان بين العقل والدين ؟

ثمة كثير من القضايا الجدلية التي تطرح في الندوات والمنتديات والمحافل والكتب والمقالات ، وما إلى ذلك ، نبتدئ سيدي الكريم بمسألة العقل ، إن صح هل هناك من تعريف أجمع عليه الباحثون للعقل، وهل العقل هو أصل في الدين ؟

مقدمة حول العقل :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ علاء جزك الله خيراً الإنسان نفس وروح وجسد ، نفسه ذاته هي المؤمنة وهي الكافرة ، هي الرحيمة هي القاسية ، هي المطالبة ، هي المعاتبة ، هي ذاته لا تموت ، لكنها تذوق الموت ، والروح هي القوة المحركة ، لكن العقل جهاز بين يديها يكشف لها الحقائق ، وأداة معرفة الله عز وجل، ومناط التكليف ، لذلك أستاذ علاء الآيات القرآنية التي تتحدث عن العقل والتفكر ، والتذكر والعلم ، تقترب من ألف آية ، لأن الإنسان في الأصل عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، العقل غذاؤه العلم ، والقلب غذاؤه ، الحب ، والجسم غذاؤه الطعام والشراب ، وما لم تلب هذه الحاجات الثلاث نقع في التطرف ، فإذا غذيناها معاً نقع في التفوق ، وفرق كبير بين التطرف والتفوق ، ذلك لأن النتاج

البشري هو علم وفلسفة وفن ، فالعلم ما هو كائن أداته العقل ، والفلسفة ما يجب أن يكون ، والفن ما هو ممتع ، فلذلك العقل متعلق بالعلم ، وفي الإنسان حاجة عليا هي معرفة الحقيقة ، وما لم تلب هذه الحاجة هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به ، لكن هذا المقوم الخطير ، خطير لأن الناس منه من عدّ العقل أصلاً ، وقاس به كل شيء .

الأستاذ علاء :

أصل مطلق .

الدكتور راتب :

وقاس به كل شيء ، وهذا ما وقع به الغرب ، ومنهم من عدّ النقل أصلاً ، وألغى دور العقل ، وقع أيضاً في التطرف ، لكن هذه الحلقتين إن شاء الله إن وفقنا الله عز وجل سوف نوضح الانسجام والتناغم والتماسك التام بين العقل وبين النقل .

أستاذ علاء ، أول فكرة خطيرة لهذا الموضوع أن العقل أداة المعرفة ، لكنها محدودة المهمة .

الأستاذ علاء :

محدودة المهمة ، أم محدودة الملكات ؟

العقل محدود المهمات :

الدكتور راتب :

محدودة كيف ؟ أنا عندي بقالية ، أشتري ميزانًا بالغ الحساسية بالغ الدقة ، فيه شاشات ، فيه ذواكر ، فيه تقنية عالية جداً ، لكن هذه التقنية العالية تصب في النهاية بعتبة بين خمس غرامات وخمسة كيلو .

الأستاذ علاء :

إذا كانت بقالية بسيطة .

الدكتور راتب :

كل هذه الملكات والقدرات والتقنيات العالية والشاشات والذواكر محدودة الاستعمال من ، خمس غرامات إلى خمسة كيلو ، فلو خطر في بالي أن أزن سيارتي في هذا الميزان أكسره ، الخطأ ليس في الميزان ، وليس في الذي صنع الميزان ، الخطأ في سوء استخدامه ، فأنا حينما أعد العقل أداةً مطلقة أقيس بها كل شيء أقع في خطأ كبير ، الخطأ ذكرته الآية الكريمة :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

[سورة المدثر]

فالعقل أداة مهمة أن أبحث في الواقع ، وأن أكتشف بعقلي ما غاب عن الواقع ، أداة استبيان أداة استنباط فلا يمكن أن أعمل عقلي بالمغيبات ، العقل ممنوع أن يخوض في هذه المساحة .

الأستاذ علاء :

لأنه هو محدود بالواقع ، وبالمادة إن صح التعبير .

العقل مرتبط بالواقع وبالمصالح :

الدكتور راتب :

نعم ، المشكلة أن العقل مرتبط بالواقع وبالمصالح ، فإذا كانت منه قوة مطلقة للمعرفة وقعنا في خطأ كبير ، هذا الموضوع ينقلنا إلى ما يسمى بالعقل التبريري ، وبالعقل الصريح ، العقل التبريري ، أنا أفعل ما أشاء ، وأرتكب من الأخطاء ما أشاء ثم أبحث عن من يبرر لي أخطائي ويغطيها بطريقة ، وهذا ما يجري في العالم ترتكب أكبر الجرائم بحق الشعوب ، وتغطى بكلام معسول ، هذا عقل تبريري ساقط عند الله ، وعند الناس ، وهذا العقل التبريري إذا تابعناه كفر الناس بالعقل ، إذا اتسعت مساحته كفر الناس بالعقل ، فالعقل بادئ ذي بدء أداة معرفة الله ، والعقل أداة معرفة واستدلال ، والعقل محدود المهمة ، والعقل يمكن أن يكون أداة لبلوغ سعادة الدنيا والآخرة ، والعقل مناط التكليف ، الدليل إن الله إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب ، والآيات التي تتحدث عن العقل وعن التذكر والتفكر والتدبر والعلم تقترب من ألف آية .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، العقل له مبادئ ، ويرتكز على هذه المبادئ ، ويعمل من خلال هذه المبادئ ماذا عن هذه المبادئ ؟

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، هناك نقطة دقيقة جداً تتفرع عن الفقرة الأولى في هذا اللقاء ، وهي أنت إذا دخلت إلى جامعة ، فلك عقل راجح ، وتأملت في قاعات التدريس الحديثة ، المدرجات مع عزل للصوت ، سبورات متحركة ، إضاءة ، أرض عليها سجاد يمنع صوت الحركة ، تعجب بالمهندس ، نظرت إلى الحدائق ، فإذا بالحدائق في وضع لا يوصف من شدة الجمال ، نظرت إلى المخابر نظرت إلى المكاتب، فأنت لك أن تستنبط من تجولك في الجامعة آلاف الأفكار عن الذين صمموها وصنعوها ، لكن مهما كنت ذكياً ، مهما كنت متفحصاً ، مهما كنت متأملاً فلا تستطيع أن تكتشف من هو عميد الكلية ، ومن هو رئيس الجامعة ، وكم كلية في الجامعة ، ولا تعرف ما النظام الداخلي لها ، ولا تعرف نظام النجاح،

ونظام الرسوب ، وشروط القبول ، هذه كلها لا يمكن أن تعرفها بعقلك ، لا بد من أن تقرأ كتاباً عن الجامعة .

الأستاذ علاء :

لا بد من دليل يبسط أمام العقل ما لم يستطع كشفه بملكاته وبقدراته ، إذاً لا بد من الدليل ، والدليل في الحياة هنا من القرآن الكريم ، الوحيد ليكتشف العقل ما لم يستطع اكتشافه .

الدكتور راتب :

العقل والوحي يتكاملان ، لا بد من دليل تقرأ فيه عن تاريخ الجامعة ، وعن مؤسس الجامعة ، وعن رئيسها الحالي ، وعن الرؤساء السابقين ، وعن عمداء الكليات ، وعن المقررات ، وعن نظام النجاح ، ونظام الرسوب ، وعن نظام القبول ، هذا لا يمكن أن تكتشفه بعقلك ، تكتشف روعة البناء ، جمال الحديقة ، دقة التصميم ، عصرية القاعات ، هذا كله تكشفه بتأملك ، بعقلك ، أما تفاصيل الجامعة فلا بد من كتاب تقرأه .

الأستاذ علاء :

هذا ينجر على مسألة المخترعات الحديثة ، ربما خاصة الإلكترونيات ، طرحت بين يدي المستهلك دون تعليمات ، ليقف بعقله ، ويداور في هذا الجهاز من هنا وهناك ، كيف يشغل ، كيف يعمل ؟ لا يستطيع .

الدكتور راتب :

لعله يقبل عندك ، وهو أنك إذا اقتنيت جهازاً حاسوباً لتحليل الدم ، وقد يبلغ ثمنه مئات الملايين ، ولم ترسل لك الشركة تعليمات التشغيل والصيانة إن شغلته من دون تعليمات أعطبته ، وإن لم تشغله جمدت ثمنه ، أليست التعليمات أهم من الجهاز ؟

الأستاذ علاء :

بكثير .

الدكتور راتب :

هذا المعنى ذكره القرآن الكريم ، حينما قال تعالى :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن]

أيعقل يا رب أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ، جاء الترتيب عكسيًا .

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[سورة الرحمن]

قال علماء التفسير : هذا ليس ترتيباً زمنياً ، لكنه ترتيب رتبي ، بمعنى أنه لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه .

الأستاذ علاء :

إذاً وصلنا إلى أن العقل يقف عند حدود معينة عند غرز معين يرتد خلفه ، لا بد من معين للعقل ليستدل به ، وليهتدي به ، وكان الوحي من السماء إلى الأرض ، فنزلت الكتب السماوية ، ونزل القرآن الكريم في الرسالة الخاتمة ليكون دليلاً للعقل ليتفحص ، وليعرف ، وليخدم تلك العلائق الموجودة في الكون التي غابت عنه .

لا بد للعقل من شرع يهتدي به :

الدكتور راتب :

لذلك أستاذ علاء قال عليه الصلاة والسلام :

((تفكروا في المخلوقات ، ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

العقل يصل إلى الله ، لكنه لا يحيط به ، فلا بد من خطوط حمراء يجب أن يقف عندها العقل ، العقل إذا وصل إلى ذات الله يقع في خطأ كبير ، ذات الله عز وجل ، والمستقبل البعيد ، والماضي السحيق ، وخصائص الكون ، هذه ينبغي أن نقرأها في كتاب الله .

هناك حقيقة دقيقة جداً ، أن كل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به ، لأن ميزان البقالية لا يمكن أن تزن به سيارتك ، الشركة الصانعة محترمة جداً ، كتبت لك على طرف السيارة وزنها ، مادام ميزان البقالية لا يستطيع وزن السيارة فالشركة الصانعة كتبت لك وزن السيارة ، كل شيء عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به ، الله أخبرنا عن بدء الخلق ، وماذا بعد الموت ، أخبرنا عن ذاته ، الشيء الذي يصعب أن ندركه بعقولنا أخبرنا الله عنه ، إذاً ليتمم النقص لا بد من خطوط حمراء يقف العقل عندها ، أما إذا تجاوزها يدمر ذاته ،

((تفكروا في المخلوقات ، ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا))

العقل حصان تركبه على قصر السلطان :

قالوا : العقل حصان تركبه إلى باب السلطان ، فإذا دخلت إلى قصر السلطان دخلت وحدك ، كيف ؟ الإنسان ـ لا سمح الله ولا قدر ـ بحاجة إلى عملية جراحية ، يستخدم عقله ، يبحث عن طبيب متفوق

يحمل أعلى شهادة ، أخلاقي ، رحيم ، سعره معتدل ، هذه كلها بعقله ، الآن دخل إلى غرفة الطبيب ، فقال له : لا تحتاج إلى عملية ، لا يمكن أن تناقش الطبيب ، لأن عقلك أوصلك إلى عيادته ، أما إذا دخلت إلى عيادته فينبغي أن تدع عقلك .

الأستاذ علاء :

تماماً ، وأن تسمع من صاحب الخبرة من هو أعلم منك .

الدكتور راتب :

فالعقل ينقلك إلى قصر السلطان ، فإذا دخلت قصره دخلت وحدك .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، أنت مع من يقول : إن العقل محدود بالماديات ، وأن التفكير بما وراء المادة كما تفضلت كمن يحمّل الميزان فوق طاقته ، وهو لا يستطيع أن يخترق ما وراء الماديات ، لذلك لا يمكن للعقل أن يتصور الخالق ، أو أن يفكر في ذات الخالق ، أو أن ينتقل من مادة إلى أخرى كما تنتقل المادة من حالة وجودية كتلة مادية إلى حالة طاقة عندما تمشي بسرعة ضوء مثلاً .

دائرة المحسوسات ودائرة المعقولات ودائرة الإخباريات :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، أنت أثرت قضية أساسية في هذا البرنامج ، والحقيقة أن أمام الإنسان ثلاث دوائر : دائرة المحسوسات ، ودائرة المعقولات ، ودائرة الإخباريات .

1– دائرة المحسوسات :

دائرة المحسوسات تبحث في كل شيء ظهرت عينه وآثاره ، أنا أرى الضوء المتألق بعيني ، وأشم الرائحة الزكية بأنفي ، وألمس القماش بيدي ، وأسمع الصوت بأذني ، هذه الدائرة لا خلاف فيها لا علاقة لها بهذا اللقاء الطيب .

2 – دائرة المعقولات :

لكن الدائرة الثانية دائرة المعقولات تبحث في شيء غابت عنك ذاته ، وبقيت آثاره ، فالكهرباء تغيب عنا ، لكن آثارها كتألق المصباح ، وتكبير الصوت ، ودوران المروحة ، وعمل المسجلة ، وعمل البراد ، وعمل المكيف ، أنا أرى آثار الكهرباء ، لذلك عقلي يستنبط يقيناً مئة بالمئة أن في هذا البناء

كهرباء ، أنا لم أر كُنه الكهرباء ، رأيت آثارها ، لذلك أعرابي بسيط جداً تحدث عن العقل ، فقال : " الأقدام تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، والماء يدل على الغدير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على السميع الخبير ؟" .

معنى ذلك أن العقل مرتبط بالمادة ، ومرتبط بالواقع ، ومرتبط بالمحسوس ، لكنه يستطيع أن يكتشف من المحسوس ما هو غير مرئي له ، لذلك العقل أداة معرفة الله ، كل الكون يدل على الله ، كل الكون يجسد أسماء الله الحسنى ، الكون مظهرة لأسماء الله الحسنى ، الله عز وجل يقول :

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

[سورة الأنعام : 103]

ولكن العقول تصل إليه من خلال الآثار التي خلقها الله عز وجل ، هذا معنى آيات ، يعني علامة تدل على وجود الله ، وتدل على كماله ، وعلى وحدانيته ، وهناك آيات كونية ، وآيات تكوينية أفعاله ، وآيات قرآنية ، فكماله علامات ، وخلقه علامات ، وأفعاله علامات ، فلذلك العقل مهمته الأولى أن ينظر في الواقع ليكتشف ما وراء الواقع ، أن ينظر بالمادة ليتحقق من صفات صانع المادة ، العقل منوط بالواقع ، إذاً الدائرة الثانية دائرة المعقولات .

3 – دائرة الإخباريات :

أما الثالثة فتتعلق بشيء غابت ذاته ، وغابت آثاره معاً ، لا يمكن أن يستطيع العقل معرفة شيء عن هذه الدائرة غابت الذات والآثار .

في الدائرة الأولى المحسوسات ظهرت فيها الذات والآثار ، الدائرة الوسطى المعقولات غابت الذات ، وبقيت الآثار ، في الدائرة الثالثة غابت الذات ، ولا سبيل لمعرفة ما في هذه الدائرة إلا الخبر الصادق ، لذلك أكبر خطأ يقع فيه الدعاة أحياناً أنه يحدث إنسانا لم يؤمن بعد بوجود الله يحدثه عن الجن ، يقول له: أين الجن ؟ يحدثه عن الملائكة ، يحدثه عن الدار الآخرة أحياناً .

الأستاذ علاء :

ينتقل للدائرة الثالثة .

اثر البدء بالدائرة الثالثة على الدعوة :

الدكتور راتب :

هذا خطأ كبير في الدعوة ، لأنك تعطي الطرف الآخر حجة قوية على إنكار ما تقوله .

الأستاذ علاء :

مباشرة يرفض ، بدل أن ينتقل من دائرة إلى دائرة تسلسلياً كما تفضلت ، من المحسوسات ، إلى المعقولات ، ثم إلى الإخباريات ، يبتدئ من الحلقة الأخيرة ، كم يقفز من على السلم .

الدكتور راتب :

أنا أنصح الإخوة المشاهدين والإخوة الدعاة إذا أرادوا أن يحاوروا طرفاً إيمانه بالله مهزوز ، أو يمتنع بشكل جازم عن كل قضية إخبارية في الدين مستحيل ، لأنك تعطي الطرف الآخر دليلاً على تكذيبك ، الدائرة الثالثة هي للذين آمنوا ، لذلك الله عز وجل خاطب الناس بأصول الدين ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة : 21]

أما قضايا التشريع ، قضايا الجن ، قضايا الملائكة واليوم الآخر ، والصراط ، هذه قضايا إخبارية ، هذه لا يخاطب بها إلا من آمن بالله ، يا من آمنتم بي هناك آخرة ، هناك حساب ، إذاً الدائرة الثالثة دائرة الإخباريات ، هذه ممنوع أن تعرض على إنسان اهتز أصل الإيمان عنده .

الأستاذ علاء :

أن يكون عنده أرضية لكي يحمل هذا الإخبار .

الدكتور راتب :

ذلك ورد في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة آية تقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بوجودي ، يا من آمنتم بوحدانيتي ، يا من آمنتم بكمالي ، يا من آمنتم بعلمي بحكمتي ، كما أخبركم أن هناك جنا هناك ملائكة ، هناك دار آخرة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هل نقربها مثلاً بطفل مازالت خبرته في الحياة لا تؤهله لحمل معلومة معينة ، أو لحمل قضية معينة فتحجب عن طفلك هذا الأمر ، وتنتظر حتى يشب ، وتكتمل تجربته ، ويكتمل العقل ، إن صحّ التعبير لتحمله هذه المعلومة .

الدكتور راتب :

كما يقول بعض المفسرين : لما حاور سيدنا إبراهيم النمرود حاوره ، فقال تعالى :

(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

[سورة البقرة : 258]

ظن النمرود أنه يقتل إنساناً فيميته ، يبقيه حياً فيحييه ، لم يتابع معه الحوار ، قال تعالى :

(فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

[سورة البقرة : 258]

قضايا الغيب لا يمكن أن تعرض على إنسان اهتزت عنده حقائق الوجود .

الأستاذ علاء :

الحقيقة ، يبدو لي أن هذا المبحث سيدي سوف يأخذ معنا أكثر من حلقتين ، لأنه بقي في هذه الحلقة ما يقل عن ثلاث دقائق ، إذا سمحت لي أن نقف عند مبادئ العقل ، كما تفضلت ، ونختم بها هذه الحلقة ، لنبتدئ إن شاء الله في الحلقة القادمة .

مبادئ العقل : السببية والغائية وعدم التناقض :

الدكتور راتب :

مبادئ العقل : السببية والغائية وعدم التناقض ، هذا الجهاز الذي أودعه الله فينا لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا سبب ، كما أنه لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا غاية ، كما لا يمكن أن يقبل فكرة متناقضة مع أختها ، إنسان في دمشق وحلب في آن واحد مسألة مرفوضة .

مثلاً : إنسان ذهب إلى اللاذقية ليمضي الإجازة ، وأحكم إغلاق البيت ، وأطفأ الأنوار بإحكام ويقين ، فلما رجع بعد أسبوع رأى ضوءاً متألقاً في البيت ، ينخلع قلبه ، لماذا ؟ لأن عقله لا يقبل أن هذا المصباح تألق من ذاته ، لو أن زوجته قالت : أطفئه ، يقول : ليس الموضوع أن أطفئه ، الموضوع من دخل إلى البيت في غيبتنا ؟ فالعقل لا يقبل شيئاً بلا سبب ، وهذا المبدأ ينقلك إلى وجود الله بلطف ، البيضة من الدجاجة ، والدجاجة من البيضة ، من خلق الدجاجة الأولى ؟ لو فرضنا أن الله عز وجل خلق الكون بغير نظام السببية لما آمنا بالله إطلاقاً ، فكأن الله دفعك إلى أن تؤمن به عن طريق مبدأ العقل والسببية ، لكن أعظم شيء في هذا الموضوع أن الله خلق في عقلك مبدأ السببية ، ونظم الكون على أساس السببية ، فتوافق العقل والكون شيء مدهش ، كما أن عقلك لا يقبل شيئا بلا سبب ، ولا شيء في الكون بلا سبب .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (12-95) - مقومات التكليف : العقل - مبادئ العقل سببية وغائية وعدم تناقض
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-01-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وترحيب :

كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية وقبلها موضوعاً ، وهو مقوّم من مقومات التكليف ، موضوع الاختيار ، عرفنا الاختيار ، وكيف أن الإنسان مخير في أفعاله ، وفي تصرفاته وفيما كلف به ، هو مخير في المهمة التي كلف بها هو مخير ، وكيف أن الإرادة له والمشيئة له في أن يمشي هذا الطريق ، أو يمتنع عنه ، ويمشي الآخر أو يمتنع عنه .
وتبينا بأن الاختيار يقتضي الحساب ، ويقتضي النتيجة ، مثوبة أو عقاباً ، وتبينا أن الاختيار يثمن العمل ، ويرفع من قيمة العمل ، وإلا لو فرض العمل على الإنسان بشكل جمعي لما كان له قيمة أو ثمن، وإنما كان يؤدي هذا العمل بشكل تلقائي .
نصل إلى نقطة سيدي الكريم في مسألة الدين ، هل الإنسان يختار الدين ؟ هل الإنسان له الأحقية في أن يختار الهداية ؟ أو ألا يختار ؟ هل هناك إكراه في الدين ؟ أو إلزام وجذب إلى هذا الجانب أو إلى ذلك الجانب ؟ ماذا عن هذه المسألة سيدي .
الدكتور راتب :

الأصلُ أنّه : لا إكراه في الدين :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الأصل أن العقيدة نستقيها من كتاب الله ، وفي آية واضحة جليلة قطعية الدلالة يقول الله عز وجل :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)
هذا الذي يقول وهو لا يفقه ما يقول : إن الدين انتشر بحد السيف ، قلب الإنسان كالصندوق الحديدي ، لا يمكن أن يفتح بسيف ، ولا ببندقية ، ولا بصاروخ ، ولا بقنبلة نووية ولا بطائرة ، لا يفتح إلا بالحق،

يفتح بالرحمة ، يفتح بالعدل ، يفتح بالحب ، فالإنسان مغلق بإمكانه أن ينافق ، بإمكانه أن يمثل ، بإمكانه أن يداري ، أما أن يؤمن ؟ لا يؤمن إلا بما هو قانع به ، لذلك في الأصل :

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لأن الإنسان صندوق مقفل لا يفتح إلا وفق مبادئ فطرته ، ويحب العدل يفتح بالعدل ، يحب الرحمة يفتح بالرحمة .

لذلك العمل الذي فيه عدل يلفت نظر الناس جميعاً ، الذي فيه رحمة ، البطولات في التاريخ نقرأها مراراً وتكراراً لا نمل منها ، لأنها تتناغم مع فطرنا .

لذلك العصور السابقة مع أنها خشنة في معداتها ، وفي أساليب العيش فيها ، لكنها متفوقة في فضائلها، والحياة المعاصرة فيها تقنية عالية جداً ، أدوات التحكم عن بُعد على الطاولة كثيرة ، لكن لا سعادة فيها، ولا فضيلة ، ولا عمل صالح ، ولا تضحية ، ولا مبادئ ، ولا قيم ، ولا مادة ، لذلك قالوا : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

حينما يشرد الإنسانُ عن الله عز وجل يضيع ، ومشاعر المؤمن أنه تعرف إلى الله ، واستقام على أمره، واصطلح معه ، وهذا شيء لا يكاد يصدق ، لذلك لا يمكن أن يكون الدين إكراهاً ، هو اختيار ، هو اتخاذ قرار من أعماق الإنسان ، لو كان إكراهاً لفسدت الحياة ، الدليل بعض الآيات :

الأدلة القرآنية على الاختيار في الدين وعدم الإكراه :

الآية الأولى :

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

مستحيل ، وآية واضحة جداً

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)

كلهم توكيد وجميعاً .

أستاذ علاء ، لو أن رئيس جامعة وزع على الطلاب أوراق الإجابة ، وقد كتبت عليها الإجابة الكاملة ، وكتب عليها 100 على 100 ، وكلف الطالب أن يكتب اسمه فقط ، ما قيمة هذا النجاح ؟ هذا النجاح لا يسعد إطلاقاً ، لو أنه يسعد لفعله الله عز وجل ، لا يسعد إلا أن تأتيه طائعاً ، من مبادرة منك ، بمحبة .

لذلك الله عز وجل جعل العلاقة بينه وبين الخلق علاقة محبوبية ، الأصل في العلاقة الحب ، وإيمان بلا حب جسد بلا روح .

مرة وردة طبيعية فواحة ، ألوانها رائعة ، يهفو القلب إليها ، ووردة بلاستيك تملها .

الإسلام من دون حب لا معنى ، هو له طقوس ، وعادات ، وتقاليد ، أما الصلاة فهي صلة بالله .

((أرحنا بها يا بلال))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الآية الثانية :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة النحل الآية : 93)

هو مخير ، يشاء تعود على الإنسان .

الأستاذ علاء :

نقف عندها سيدي لو سمحت ، الكثير من الناس في مفهومهم ، في تخيلهم ، في تصورهم أن متى شاء يشاء الله ، فالفاعل هو الله ، لكن نريد أن نتبين من هو الفاعل يشاء ؟

الدكتور راتب :

بين مشيئة العبد ومشيئة الله :

الإنسان يضل من يشاء الضلال ، إنسان آثر الشهوة ، آثر المادة ، آثر الدنيا فقط هذا اختياره ، فلما اختار هذا الاختيار أصبح بعيداً عن حقائق الدين .

أنت ذاهب إلى حلب ، وفي طريقين ، وأنت عند المفترق لا تعرف إلى أين الجهة في تقسيم من إدارة المرور ، واقف واحد ، قلت له : أين حلب ؟ قال لك : من هنا ، فقلت له : جزاك الله خيراً ، فقال لك : انتظر ، أمامك تحويلة ، أمامك مشكلة ، طريق ضيق ، جسر يصلح ، أعطاك معلومات كثيرة ، لمَ قبلت استشارته ؟ لو قال له أحدُهم : أنت كذاب ، هذا يضل .

إن الإنسان اختار الدنيا ، اختار شهوته ، اختار مصلحته ، اختار مالاً من طريق غير مشروع ، اختار التمتع بالنساء بطريق غير مشروع ، فهذا اختياره ، إذاً : هو حُجِب عن الدين ، حجب عن كل ميزات الدين ، حجب عن السلامة والسعادة ، حجب عن الحكمة ، عن الطمأنينة ، عن الشعور بالأمن ، عن الراحة ، كل ثمار الدين بطاعة الله عز وجل ، فلما رفض طاعة الله خسر كل هذه الثمار هذا اسمه

إضلال حكمي ، له في لقاءات قادمة بحث طويل جداً ، فحيثما عُزي الإضلال إلى الله فهو إضلال جزائي المبني على ضلال اختياري .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

حينما يُشم من الآية أن الإضلال عُزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال الاختياري ، على كلٍ :

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء)

الضلالة ، هذا اختيار .

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

أنتم أصحاب المشيئة .

آخر قسم في الآية يلقي الضوء على من يشاء ، لذلك القرآن مثاني ، تنثني الآية ، تفسر أختها ،

(وَلَتُسْأَلُنَّ)

لو كان المشيئة لله ، الآية ما لها معنى ، دقيقة جداً .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إيّاك أن تبتل بالماء

***

الآية الثالثة :

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآآتَاكُم)

(سورة المائدة الآية : 48)

أنتم مخيرون ، وكما قلت قبل قليل : الإنسان مخير فيما كلف ، والحقيقة أن الواقع كذلك ، جنابك تذهب لتصلي باختيارك ، وبإمكانك ألا تصلي ـ لا سمح الله ـ أحياناً يؤدي الإنسان شهادة صادقة ، وبإمكانه أن يكذب .

مرة جاء شاهد زور إلى المحكمة ، فاتفق مع الذي كلّفه بخمسة آلاف ليرة ، فلما وجد المصحف قال له: أريد عشرة آلاف ، هذا مصحف .

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآآتَاكُم)

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة المائدة الآية : 48)

أنتم مخيرون .

الآية الرابعة :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(سورة الشورى)

ما الذي أدخله في رحمته ؟ الذي لم يظلم ، واضحة الآية ، معنى ذلك :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يجبر الله عباده على المعصية .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

لأن الله عز وجل لا يجبر عباده على المعصية ، هذا مستحيل وألف ألف مستحيل ، بيده الخير ، بيده السعادة ، والأمن ، والسلامة .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)

(سورة النحل الآية : 90)

معقول الله ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويجبر عبده على فعل الفحشاء والمنكر ؟! مستحيل ، كما قلت قبل قليل ، عقيدة الجبر عقيدة فاسدة شلت الدين الإسلامي ، وشاعت هذه الفكرة بين أوساط العوام ، هذا الفهم للدين المشوه أبعدهم عن العمل .

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ ، وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

الأستاذ علاء :

هذه تنفي وتدحض فكرة الجبرية ، وعقلية الجبرية .

الدكتور راتب :

عقيدةُ الجبرية باطلة نقلا وعقلا ومنطقا وواقعًا :

ما من إنسان على الأرض يستحق النصر كرسول الله ، ومع ذلك أخذ بالأسباب استأجر دليل ، رجح فيه الخبرة على الولاء ، هيأ من يأتيه بالأخبار ، هيأ من يمحو الآثار ، هيأ من يأتيه بالطعام ، ما من ثغرة ما سدها ، هذا هو الإسلام ، نحن حينما ألغي العمل أصبحنا في مؤخرة الأمم .

الأستاذ علاء :

سيدي ، إلغاء العمل ، أو هذا الفكر دخل إلينا من أعدائنا ؟ هل كان هذا الفكر بمخطط ليسري بيننا حتى نقعد عن العمل ؟ وحتى تستولي ، وتهيمن علينا القوى في الدنيا ؟ .

الدكتور راتب :

الوضع الاستسلامي والتقاعس غير مقبول :

مستحيل ، سيدنا عمر رأى رجل من الأعراب جمله مصاب بالجرب ، قال له : << يا أخا العرب ، ماذا تفعل بهذا الجمل ؟ قال : أدعو الله أن يشفيه ، قال له : هلا جعلت مع الدعاء قطرانا ؟ >> .

إنسان توقفت مركبته ، فيدعو قائلاً : يا رب أصلحها ، هذا كلام فارغٌ ! افتح الغطاء ، قد يكون خطأ ، ثم قل : يا رب ، ألهمني معرفة مكان الخطأ ، وأحيانا يلهم اللهُ الإنسانَ موضع الخطأ .

فالوضع السلبي الاستسلامي للكوارث هذا صفة غير لائقة بالإنسان .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ))

[رواه أبو داود عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

يستسلم للمصيبة ، ما عمل شيء ، ماذا نفعل ، انتهينا ، هذا قدرنا ، هكذا الله يريد هذا كله كلام غلط .

((وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

[رواه أبي داود، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

تحرك ، اسعَ ، اتفق مع أخوك ، حاول ، قدم استدعى ، اعترض ، حاول تنقذ نفسك ، الآن :

((فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

[رواه أبي داود، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

لا يجوز أن تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، إلا بعد استنفاذ الجهد ، غير معقول لطالب لا يدرس ويقول : هكذا الله يريد ، هو كتب لي ألا أنجح .

الأستاذ علاء :

لذلك مثلما تفضلت سيدي ، من بداية نزول الدعوة ، ونزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام إلى انتقاله للرفيق الأعلى ، ثم إلى الصدر الأول من الإسلام ، إلى الخلافتين ، لن نشاهد هذا الفكر ، أو هذا المنهج له وجود ، وإنما كان العمل .

الدكتور راتب :

لابد من الحركة والعمل :

العالم الغربي يعمل ليلاً نهاراً في الظلام ، والمسلمون نائمون في ضوء الشمس ، وهناك إحصاءات مخيفة ، الإنسان في دولة متخلفة يعمل في النهار ثلاثين دقيقة فقط ، 27 دقيقة بالضبط ، وهذه إحصاءات رسمية ، يقسمون الدخل القومي على أفراد المجتمع فيصبح ثلاثين دقيقة ، وفي بعض البلاد يعمل الإنسانُ ثماني ساعات ، أمة تعمل لا يمكن أن تسوى عند الله بأمة لا تعمل ، فنحن العمل جزء من حياتنا .

سيدنا رسول الله أمسك بيد عبد الله بن مسعود ، وكانت خشنة قال :

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

خشنة من العمل .

ورأى شابًا يعبد الله في وقت العمل ، فقال له : مَن يطعمك ؟ قال له : أخي ، قال له : أخوك أعبد منك.

هذا الدين دين عمل ، دين تفوق ، دين تجد فيه الصناعي الكبير ، والمزارع عنده مزارع ضخمة ، يقدم للأمة حاجاتها ، نستغني عن الاستيراد ، نريد مواطنين قمما في الصناعة ، في التجارة ، في الزراعة ، هيئوا فرص عمل للناس .

أنا بصراحة لي مقولة لعلها لا ترضي : نحن الآن في وقت إن لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك، يجب أن تكون الطبيب الأول ، المهندس الأول ، المدرس الأول ، بالضبط والدقة والتفوق ، وأنت تصلي الآن تحترم صلاتك ، هذا من دون دليل ، لكن أنا هذا شعوري ، نحن في عصر إن لم تكن متفوقاً في اختصاصك ، تقدم للأمة شيئًا ثمين جداً ، تحل مشكلات أمة ، حاملا همّ المؤمنين ، حاملا همّ الناس ، وحياتُك مبنية على العطاء لا على الأخذ ، أنت بقلوب المئات من إحسانك ، إن فعلت هذا الآن فإنه يحترم إلى أعلى درجة تدينك وعبادتك .

الأستاذ علاء :

هذا يسوقني إلى المثال الذي نعرفه في التاريخ إندونيسيا ، وماليزيا وجنوب شرق آسيا التي فيها أكثر العالم الإسلامي هنالك ، لم يدخلها فاتح فارس ، أو جيش ، وإنما بعمل وأخلاق التجار الذين دخلوا .

الدكتور راتب :

الدعوة الصامتة :

نحن الآن بحاجة إلى ما يسمى بالدعوة الصامتة ، اسكت ، وليكن عملك دعوة ، وإتقان عملك دعوة ، الصدق دعوة ، الأمانة دعوة ، العفة دعوة ، حب الخير دعوة لله عز وجل ، الآن نحن لا نريد دعاة فصحاء ، نريد دعاة عاملين ، مطبقين لمنهج الله عز وجل كيف أن الكون قرآن صامت ، وكيف أن قرآن كون ناطق ، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، نحن نريد مسلما يمشي ، مسلما ملء السمع والبصر ، المسلم شخصية فذة ، مرتبة علمية ، مرتبة أخلاقية ، مرتبة جمالية ، لما يكون المسلم متفوق باختصاصه منضبط بأخلاقه ، نير بأفكاره ، عنده قيم واضحة جداً ، يفترق عن غير المؤمن بشيء صارخ ، لا بالصلاة فقط يفترق ، إذا حدث فهو صادق ، إذا عومل فهو أمين ، إذا ائتمن فهو عفيف ، هذا المسلم يمكن أن يكون منار دعوة ، وهو صامت .

آيات الهداية :

هناك نقطة دقيقة ، حينما تحدثنا على من يعود فعل يشاء ، الآن عندنا آيات قطعية الدلالة ، يقول الله عز وجل :

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 88)

واضح مثل الشمس .

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام)

آية ثانية فيها ملمح لطيف :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة الآية : 105)

تتمة الآية تنبئ أن (يشاء)تعود على العبد .

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة)

لكل الخلق ، هذه الرحمة لكل الخلق ،

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

الإنسان لا حجة له .

أنا أتمنى مرة ثانية على الإخوة المشاهدين أن ينتبهوا ، أنت مخير ، وأعمالك من كسبك ، وأنت محاسب عنها ، ولكنك ترتاح لما تعزو كل شيء للقضاء والقدر ، هذه واللهِ بضائع الحمقى ، بضائع الكسالى ، لأنه يقول : أنا هكذا قدّر الله علي ، تحرك .

مرة ذكرت قصة ، أن إنسانًا أرسل ابنه إلى الأزهر ، ورجع خطيب مسجد ، فأول خطبة يخطبها أمام أبيه بالقرية بكى الأب ، بكى بكاء شديدا ، توهم الناس أنه بكى فرحًا بابنه الخطيب العالم ، والحقيقة عكس ذلك ، بكى تأسفاً على نفسه ، كيف أمضى هذا العمر بالجهل ، عمره 55 سنة ، القصة من الممكن أن تصدق ، لأن الراوي صادق ، أما هي فصعب تصديقها ، ركب دابته من صعيد مصر إلى القاهرة شهرا حتى وصل ، سأل : أين الأزعر ؟ لم يعرف اسمه ، دُل على الأزهر ، وتعلم القراءة والكتابة ، وقرأ القرآن ، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر في الـ96 .

الله تعالى لا يتعامل بالتمنيات :

إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام ، إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان ، واللهُ عز وجل لا يتعامل مع التمنيات .

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء الآية : 123)

الله يتعامل مع الصدق .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر)

(سورة الأحزاب الآية : 23)

فالإنسان إذا صدق ، أنا أرى أن علاقة العبد بربه مبنية أن العبد إذا شاء الخير الله يشاء له الخير .

الأستاذ علاء :

لذلك قال أهل العقيدة : إن مشيئة الله مقترنة بمشيئة عبده .

الدكتور راتب :

هذا الكلام رائع ، لكن له آية :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الإنسان الآية : 30)

ما تشاءون إلا أن يشاء الله تنفيذاً لمشيئته .

الأستاذ علاء :

إذاً مشيئة الله لا تقف أمامنا .

الدكتور راتب :

مشيئة الله لا تقف عائقا أمام مشيئة العبد :

أبداً ، بالعكس ، الأب هدفه الأول أن يكون أولاده علماء كبار ، يمنعهم من المدرسة ؟ مستحيل .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم الآن قلت ، ومررنا على ،

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين)

ومررنا على

(يَهْدِي مَن يَشَاء)

ومررت على ملمح أن الذين قالوا : إن الإسلام انتقل بالسيف ، انتقل بالقوة ، انتقل بالعنف ، انتقل بالقسوة ، بالقسر ، وكل فترة وفترة يخرج لنا من هنا وهناك إلى مقالات إلى محاضرات ـ ما ضر السحاب نبح الكلاب ـ لكن هنالك واقع نعيشه ، وهنالك منهج سار عليه أتباع هذا الدين ، وهذا المنهج فعلاً ،

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين)

والذين دخلوا في الإسلام دخلوا طواعية ، وحباً كما تفضلت من العمل الصالح دخلوا في الإسلام ، ومن العدل دخلوا في الإسلام ، ومن حالات تناسب الفطرة دخلوا في الإسلام ، أن البلاد التي فتحها وجاءها المسلمون بقي بها الديانات الأخرى ، ولم يكرهوا على الدخول ، وإنما كانوا إتماماً للوحة الجميلة .

الدكتور راتب :

الإسلام دين وسطي يقبل بالطرف الآخر :

الحقيقة أن الإسلام دين العصر ، دين الوسطية ، دين قبول الآخر ، دين التسامح دين السلامة ، دين السعادة ، هذا الشيء بديهي عند المسلمين ، لكن نتمنى الطرف الآخر أن ينتبهوا لهذه الحقائق .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، الآن يبدو لي أنّ وقت الفقرة العلمية حان الآن ، كنا نود أن نتبين في هذه الحلقة مسألة هامة هي التخيير بين المغفرة ، والعقاب لكن في الحلقة القادمة إن شاء الله سنوسع لها وقتاً كافياً ، ماذا اخترت لنا ؟ .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الرحمة والحنان عند الطيور :

الفلم أيضاً الرحمة والحنان عند الطيور ، يعد الوالدان في الطيور الأكثر تضحية في عالم الأحياء ، الطائران الأب والأم يعملان دون توقف لأجل الصغير الخارج من البيضة ، بعض أنواع الطيور تحضر الطعام لصغارها باستمرار طوال 24 ساعة ، عمل الصغار الوحيد هو فتح أفواهها انتظاراً للطعام الذي سيحضره الأب والأم ، فالصغار بحاجة إلى رحمة الوالدين ، وإيثارها ليبقوا على قيد الحياة ، وإن ترك الفراخ تعيش وحدها يعد موتًا محققًا لها ، هذه الطيور الغواصة تضحي بنفسها لأجل صغارها ، فالعش الذي بنته خلف الشلال الصغير كما يرى على الشاشة أمين وبعيد عن الأعين ، يجمع الوالدان الطعام لصغارها من دون كلل ، وفي كل عشر دقائق يأتي الطعام إلى العش ، هذه الكائنات ليست بشراً ، بل هي طيور ، والمنتظر من كل حيوان الاهتمام بنفسه ، وإشباع بطنه وحسب ، ولكن الأمر هنا بالعكس تماماً ، فالأمهات تهتم بصغارها قبل نفيها ، بل تضحي بنفسها من أجلهم .

تقوم كائنات كثيرة بتضحيات أكبر وأجلّ لصغارها ، فأتان الوحشي تخاطر بحياتها لحماية صغارها ، هذه الأتان الوحشي تضع نفسها كالجدار الواقي بين المفترس وصغارها عند أي هجوم ، تتظاهر أنها بطيئة ، من أجل صغارها على الرغم أنها أسرع من هذه الصغار ، وهذا عند وصول الحيوانات المفترسة ستنجو الصغار ، وقد تموت الأم ، هذه مغامرة خطيرة ، وأحياناً تخسر الكائنات حياتها من أجل أولادها .

هنا في سواحل أوربا الشمالية أيضاً طبعاً الأتان الوحشي تخاطر بحياتها من أجل صغارها ، وأمهات كثيرات يحتجن إلى مثل هذا الدرس ، هنا سواحل أوربا الشمالية ، طيور البحر المسماة الكلموس تبني أعشاشها في الصخور العالية ، على طول هذه السواحل ، عند مجيء شهر آب تقوم صغار الطيور بأول تجربة طيران لها ، وتحاول الطيران باتجاه البحر وهذه تجربة شاقة بالنسبة لها ، فالبحر بعيد عن الصخور ما يقارب كم واحد ، والعش عالٍ جداً .

وأخيراً يُلقي أول الصغار من العش إلى الجو باتجاه الأسفل ، يحلق نحو البحر بإشراف الطيور الكبيرة، وبهذا تتم أول تجربة للطيران بنجاح ، ثم تليه بقية الصغار ، ومع إن هذا الطيران خطير جداً

في البحر ، ولكن لا بد لها من التدرب على طيران فيه لتأمين حياة الصغار ، فالثعالب المتربصة بها موجودة في الساحل .

في إحدى تجارب التدريب على الطيران لم يصل هذا الصغير إلى البحر ، واضطر إلى النزول الإجباري بالساحل ، لكن أمه لم تتركه وحده كما ترون ، فهي تحاول الأم بكل قوتها توجه الصغير بسرعة نحو البحر ، لأن الثعالب قد رأتها ، تدفع الأم الصغير إلى البحر باستمرار ، ومن جهة أخرى ترفرف بجناحيها لتشد انتباه الثعالب إليها ، من أجل أن تصرفهم عن صغيرها ، توشك الثعالب أن تصل إلى الصغير ، تقوم الأم بتضحية مثالية نادرة لا شبيه لها لتكسب الصغير المزيد من الوقت وتنقذه، فتلقي بنفسها أمام الثعالب ، لتفتدي صغيرها بحياتها ، علّها تستطيع إنقاذه ، الصغير الذي لا علم له بما جرى من الحوادث خلفه ينجح بالوصول إلى البحر ، الطائر الصغير ينادي أمه ، فبقاءه في الحياة وحده مستحيل ، وتجيب لندائه الطيور الأخرى ، وتقبله بين صغارها ، هناك تفسير واحد فقط لقيام هذا الحيوان بتصرف عاطفي ، وإثاره بهذا الشكل ، بل وتضحية بحياته لأجل صغاره ، الله تعالى خلق هذا الكائن ، وألهمه التضحية ، التي قام بها لحماية صغاره دروس نتعلمها من هذه الكائنات .

الأستاذ علاء :

الكونُ مجموعة من دروسٍ :

والكون عبارة عن مجموعة دروس ، لا نجد فيه فطوراً وشقوقًا .

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (13-95) - الاحتفالات الدينية: الغاية من العيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-01-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

المذيع :

الأستاذ الدكتور محمد راتب ، نحن في اليوم الثالث من أيام عيد الأضحى المبارك ، أعاد الله هذا العيد علينا جميعاً ، وعلى أمتنا ، وشعبنا ، وقائدنا بألف خير ، وباليمن ، واليسر والبركة .

هذا هو اليوم الثالث من أيام عيد الأضحى ، وهو بالنسبة لترتيب أيام التشريق فيختلف بالنسبة للحجيج، الذين يؤدون مناسكهم في الديار المقدسة .

العيد أطل علينا ، عندما ننطق بكلمة عيد مباشرة يخطر للذهن معنى الفرح ، معنى البهجة ، معنى السرور ، معنى كما يقولون : من يستريح أو يكافئ بعد عمل دؤوب طويل ، العيد هو مجال للتزاور ، للنبذ الخلافات ، والشحناء ، والبغضاء ، وأحياناً الحكك الاجتماعي بين الناس يأتي العيد ليصفي هذه الأجواء ، كيف نتلمس معاني العيد ، ولماذا يأتي العيد ؟ بعد ماذا يأتي العيد ؟ ثم لماذا قال عليه الصلاة والسلام :

((وزينوا أعيادكم بالتكبير))

[أخرجه الطبراني عن أنس]

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعيد الأمين .

ماهية العيد :

أستاذ علاء ، العيد بتعريف جامع مانع عودة إلى الله .

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلان فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

والذي أراه أن أعظم إنجاز يكتسبه الإنسان في حياته الدنيا أن يتعرف إلى الله .

((ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

أنا حينما أتعرف إلى الله أملك الحكمة ، أملك الغنى ، أملك الحرية ، والذي أراه أن أعظم إنجاز ، أنا حينما أتعرف إلى الله أملك الحكمة ، أملك الغنى ، أملك الحرية ، أملك السعادة ، أملك أسباب سعادتي في الدنيا والآخرة .

إذاً : يا رب ، ماذا فقد من وجدك ، وماذا وجد من فقدك ؟

العيد أستاذ علاء ، عيد الفطر السعيد عقب شهر الصوم ، عيد الأضحى المبارك عقب الحج .

ولكن لي كلمة صغيرة :

لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري ، يتوقف هذا الامتحان في إنجازه ، وتتوقف سبل رزق هذا الشاب ، تعيينه في وظيفته ، وزواجه ، وشراء بيت ، كل آماله العريضة متوقفة على نجاحه في هذا الامتحان ، فإذا بفريق من أصدقائه يأخذونه إلى مكان جميل من أجمل الأمكنة ، وتمتع بأجمل المناظر ، وأطعموه أطيب الطعام ، قبيل الامتحان بأيام ، لماذا يشعر بانقباض ما بعده انقباض ؟ لأن هذه الحركة لا تتناسب مع هدفه ، أنا أتيت بمثل صارخ ، فلو قبع في غرفة قميئة ، وقرأ الكتاب المقرر ، واستوعبه شعر براحة ما بعدها راحة .

إذاً : أنا حينما أقترب من هدفي ، أو حينما أحقق سر وجودي في الأرض ، وغاية وجودي أشعر بفرح.

أنا أقول دائماً : قل لي ما الذي يفرحك أقلْ لك من أنت ، هناك أناس وهم قلة عرفوا سر وجودهم ، وغاية وجودهم ، فإذا ساروا في طريق أهدافهم كانوا من أسعد الناس .

مرة قرأت كلمة في مجلة ، أحياناً تنتهي المقالة في أول الصفحة ، يضعون حكمة ، هذه الكلمة قرأتها من ثلاثين عام تقريباً : " إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين " .

أنا حينما تسمو أهدافي لخدمة الخَلق ، لإدخال الفرح في نفوس الخلق ، للتخفيف من أعباء الناس ، أنا حينما أعيش للناس ، ولا أعيش لذاتي ، أشعر بسعادة ما بعدها سعادة .

بادئ ذي بدء :

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلان فقد اصطلح مع الله))

وبشكل واقعي ، أنا حينما أهنئ إنسانا بشراء بيت ، هذا البيت مؤقت ، لا بد من أن يغادره ، كل مكتسبات الدنيا تنتهي بالموت ، وكأن الموت ينهي كل شيء ، ينهي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني ، وفقر الفقير ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، وذكاء الذكي ، ومحدودية المحدود ،

ينهي كل شيء ، أما إذا عرفت الله فهذه المعرفة تسعد بها إلى الأبد ، وأنا دائماً أوازن بين الحياة الدنيا والأبد .

ضع واحداً في الأرض وأصفارًا إلى الشمس ، وكل ميليمتر صفر ، ما هذا الرقم ؟ 156 مليون كيلومتر ، لو كان هذا الرقم صورة ، والمخرج لا نهاية الأبد قيمته صفر ، فالدنيا صفر .

لذلك الإنجاز الحقيقي ، المكسب الحقيقي ، الفرح الحقيقي ، البشر الحقيقي ، حينما تصل إلى هدفك ، وهو معرفة الله عز وجل ، وأصل الدين معرفة الله ، فأنا يتراءى لي أن سر فرح الناس بالعيد أنه جاء عقب الصيام .

((من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه))

[متفق عليه]

ويأتي عقب الحج رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، إذاً :

العيد يأتي في إسلامنا العظيم عقب عبادات كبرى ، والإنجاز الذي تحقق عقب هذه العبادة ، هو مضمون فرح العيد ، هذا لا يمنع أن ألتقي بأصدقائي ، وإخواني ، وأقربائي ، جيراني ، وأحبابي ، وأن ألبس الجديد وأن آكل ، أنا أعبر عن فرحي بهذا الإنجاز بهذه المظاهر التي تدخل الفرحة إلى قلوب من حولي .

إذاً : العيد فرح ، والكلمة الدقيقة قل لي ما يفرحك أقل لك من أنت ، هناك إنسان يفرح بخدمة الخلق ، هناك إنسان يعيش للناس ، هناك إنسان إذا رسم بسمة على وجه طفل صغير يفرح أشد الفرح ، إذا وفق بين زوجين يفرح أشد الفرح ، إذا زوج شاباً طهراً نقياً بشابة طاهرة نقية ، يفرح أشد الفرح .

حينما أخرج من ذاتي ، وأحقق وجودي لخدمة الخلق ، أنا عندئذٍ أشعر أنني وجدت نفسي ، ذلك لأن فطرة الإنسان متوافقة توافقاً مذهلاً مع منهج الله عز وجل ، فكل شيء أمرك الله به ينعكس عندك راحة نفسية ، والدليل :

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

[سورة الحجرات الآية : 7]

الإنسان الشارد التائه الضال يمتع حواسه بمتع حسية زائلة ، لكن تعقبها كآبة لا يحملها ، يكاد يكون المرض الأول في العالم الكآبة ، النفس تعاقب نفسها ، هي عقاب ذاتي الجلب الذاتي ، الشعور بالنقص، تأنيب الذات ، الشعور بالصغار .

أستاذ علاء ، تقدير الذات أحد أسباب السعادة ، أنت حينما تكون صادقاً ، ومستقيماً وذا خير عميم ، وكل من حولك يحبك ، ويثني عليك ، أنت حينما تشعر أنك مصدر سعادة للناس ، مصدر إيناس ، مصدر أمن لهم .

أنا أذكر أن المؤمن حينما يموت يستريح من عناء الدنيا ، ولكن الطغاة حينما يموتون تستريح منهم البلاد والعباد والشجر والدواب ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، عَنْ أبي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ :

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه]

المذيع :

من هنا يأتي قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ ...))

[أخرجه أحمد عن أبي أمامة]

الدكتور :

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به :

ما من شيء أمر الله به ونفذته إلا وتشعر براحة ما بعدها راحة ، أريد أن أعقب على هذه الملاحظة بمثل :

عندنا قاعدة في علم الأصول : [الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به] كيف ؟

إنسان جاهل لا يقرأ ولا يكتب ، عنده مكيف ، فتح المكيف فجاءه هواء بارد ، فاستمتع به ، يأتي إنسان يحمل دكتوراه في التكييف ، ضغط الزر فجاءه هواء بارد ، فالأول لا يفقه شيئا من آلية التكييف أبداً .

فعظمة هذا الدين أنك إذا طبقت أحكامه تقطف ثمارها ، سواء أعرفتَ حكمتها أم لم تعرفها .

الشيء الدقيق في الدين يفهمه كبار العلماء ، وكبار المفكرين والعباقرة ، وإذا طبقه إنسان بسيط جداً يقطف كل ثماره ، فإذا كان صادقاً يحبه الناس ، وإذا كان نظيفاً يألفه الناس ، وإذا كان رحيماً تكون محبته في قلوب الناس .

إذاً : نحن في العبد نفرح أننا عرفنا الله عز وجل ، وحققنا إنجازين كبيرين ، ونعقد علاقات طيبة مع من معنا ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إياكم وفساد ذات البين ، إنها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن أقول حالقة الدين))

[الترمذي]

ودائماً وأبداً للإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، فالعقل محل القناعة والإدراك ، والقلب محل الحب ، والجسم محل الطعام والشراب ، يأكل ليتحرك ، فما لم تلبَّ هذه الحاجات الثلاثة معاً فلن تكون السعادة .

حينما يأتي العيد ، دعك من خبراتك ، من اختصاصك ، من شهاداتك ، من قناعاتك ، من تحليلاتك الدقيقة ، أنت في العيد إنسان حولك زوجة وأولاد ، وأقارب فالابتسامة ، والكلمة الطيبة صدقة ، والزيارة جبر لكسر هؤلاء الأقارب الضعاف الفقراء أحياناً ، فالعيد أعمال صالحة .

المذيع :

الآن سيدي سوف نفسح المجال لهذا الموضوع ، نأتي إلى مسألة ما معنى التكبير في العيد .

((وزينوا أعيادكم بالتكبير))

الدكتور :

مصداقية الكلمة :

لا بد من مقدمة ، الكلمة في اللغة إذا كثر استعمالها مع مضي الزمن تفقد مدلولها ، قد لا يؤمن الإنسان بالله ، نسأله : كيف حالك ؟ يقول لك : الحمد لله ، هذه استخدمت بشكل كثير ففقدت معناها ، أنا أقول : الله أكبر ، هذه أخطر كلمة في الدين ، وحينما أطيع مخلوقاً ، وأعصي خالقاً ، وأقول : الله أكبر ، ألف مرة ما قلتها ولا مرة ، لأنني توهمت أن طاعة هذا المخلوق أكبر من طاعة الله .

حينما يغش الإنسان المسلمين ، أو يغش الناس في البيع والشراء ، ويقول يوم العيد : الله أكبر ، فما قالها ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه رأى أن هذا الربح الزائد من غش الناس هو الأكبر من الله عز وجل ، هذه حقيقة مُرّة أنا أرى أنها أفضل ألف مَرة من الوهم المريح .

اعلم ما تقول ، قال : والله أني لأحبك ، إنسان قال هذا للنبي الكريم ، قال له : انظر ما تقول ، قال : والله إني لأحبك ، قال له : انظر ما تقول ، قال : والله إني لأحبك ، قال له : إذا كنت صادقاً فيما تقول للفقر أقرب إليك من شرك نعليك .

أنت معك مال ، وحولك فقراء ؟ إذا كنت تحب الله فعلاً يجب أن تنفق من هذا المال ، أما أن تبقى بالمشاعر المجردة من دون عمل ، من دون حركة الله عز وجل فقد قال تعالى :

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال الآية : 72]

فما لم تتحرك ، ما لم تصل لله ، ما لم تقطع لله ، ما لم تعطِ لله ، ما لم تمنع لله ، ما لم يكن ولاءك للمؤمنين ، ما لم تكن براءتك لغيرهم ، ما لم تأخذ موقف ، ما لم تلتزم فكيف يكون الإيمان مجسداً .

نحن في الإسلام ليس عندنا إعجاب سلبي ، وهناك حالة عند الناس أنه معجب بالإسلام ، معجب بهذا الدين ، معجب بالقرآن ، لكن إذا دخلت بيته أو إلى عمله لا تجد أحكام الإسلام مطبقة ، هذا اسمه إعجاب سلبي ، لا يقدم ولا يؤخر .

حينما أدرك أن هذا المرض الجلدي شفاءه الوحيد التعرض لأشعة الشمس ، فمهما تحدثت عن الشمس، وعن عظمتها ، وعن شفائها لهذا المرض ، وأنا قامع في غرفة قميئة ومظلمة ، هذا الكلام ما له معنى إطلاقاً .

لئلا يصبح الإنسان ظاهرة صوتية لا معنى لها ، أنا أريد يكون في مقابل هذا قناعات ، وسلوك حركي، فكلمة الله أكبر حينما يؤذن المؤذن ، وتقوم إلى الصلاة يعني أن تلبية نداء المؤذن أكبر عندك من كل شيء ، وحينما أتعرض لصراع بين أن أعصي الله وأربح مبلغاً كبيراً ، وبين أن أستقيم على أمره ، ويكون الدخل معقولاً ، وأوثر الدخل القليل مع طاعة الله على الربح الكثير ، وأقول : الله أكبر ، أنا فعلاً تمثلت هذه الكلمة ، أنا رأيت أن طاعة الله أكبر عندي من كل دخل كبير .

فالقضية خطيرة ، لئلا تفقد كلمات المسلمين الكبرى مضمونها ، وتصبح جوفاء ، وتكون في الدرجة الدنيا ، ولئلا نفقد أسباب تولي الله لنا ، كنت أقول دائماً : حينما تطبق أمر الله يحق لك أن تطالب الله بحقك ، كيف هذا الكلام ؟

النبي الكريم كان أحد أصحابه وراءه فقال :

((يا معاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه))

وأنا أعني القسم الثاني ، فلما سأله :

((ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ـ سأله ثانية ، وثالثة فالرابعة قال له ـ قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم))

[البخاري عن معاذ]

يجب أن تستفيد من حق أنشأه الله على ذاته العلية ، الذين قالوا :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

فأجابهم الله عز وجل :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية : 18]

والإمام الشافعي استنبط أن الله لا يعذب أحبابه ، فكيف تشعر إذا كان خالق الكون معك ، يدافع عنك ، ويحبك .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم]

إذا كانت لك علاقة بإنسان قوي تزهو بهذه العلاقة ، وتبرز الصورة معه ، وعندك هاتفه ، وتقول : إنْ أردتُ حاجة أتصل به ، مع إنسان من بني جلدتك ، وهو يموت ، فكيف إذا كانت لك علاقة مع الواحد الديان ؟.

إذاً : الله أكبر ، كلمة أستاذ علاء كبيرة جداً ، إذا فهمنا معناها ، إذا سمعنا الأذان : الله أكبر ، الآن إذا صلينا الله أكبر ، يجب أن تكون الهموم كلها وراء ظهر الإنسان المصلي ، الآن نحن أمام صراع ،شيء مغرٍ يحقق لي نجاحا كبيرا جداً ،لكن بمعصية ، فإذا قلت : الله أكبر ، أنا أؤثر طاعة الله على هذا الشيء ، لذلك :

((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهم))

[متفق عليه]

لو سألت أستاذ علاء مليارا و300 مليون مسلم : ألا تحبون الله أكثر من أي شيء ؟ لم يتردد أحد في ذلك ، ليس هذا هو المعنى ، المعنى أن يكون الله في قرآنه ، والنبي في سنته عندما يتعارض أمامك شيئان ، أحدهما يرضي الله ، والثاني يضر بمصلحتك ، وتؤثر طاعة الله ، الآن يمنحك الله حلاوة الإيمان ، حلاوة الإيمان شيء نفيس جداً ، أن يكون الله في قرآنه والنبي في سنته أحب إليك من أي مكسب مادي إذا بني على معصية الله .

مفهوم التقوى :

وهذا يؤدي بنا إلى مفهوم التقوى ؟ نعم هذه التقوى ، أنا أؤمن بصحةِ قول :

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

ذلك أن القوي متاح له من الأعمال الصالحة التي هي علة وجوده ، ما لم يتح للضعيف ، إذاً ـ الآن دقق ـ ينبغي أن أكون قوياً إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ، وينبغي أن أكون غنياً إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ، لأن القوة والغنى تتيحان أن أعمل أعمالاً لا يستطيع الضعيف ولا الفقير .

ولكن إذا كان طريق القوة على حساب طاعة الله فالضعف وسامة شرف ، وإذا كمان طريق الغنى على حساب طاعة الله فالفقر وسام شرف لي .

أنا أقول إذاً : هناك فقر الكسل ، هذا الفقر المذموم ، وهناك فقر القدر ، لكن فقر الطاعة ، أنا أحياناً لتشبثي بقيمة أخلاقية ، لتشبثي بمبدأ عظيم قد أخسر بعض المكاسب التي يحصلها المنافقون ، أنا ضعفي وقلة ذات يدي هي وسام شرف بالنسبة لي .

المذيع :

وهذا ما يرفع الإنسان المؤمن في هذا الموضع ، سيدي الكريم نعود إلى مفهوم العيد ، والمظاهر نعاينها في العيد ، وهي مظاهر حسنة ، وحالة صحية في الحقيقة ، تزاور ، تبادل الزيارات ، صلة الأرحام ، أحياناً هنالك أناس يستغلون مواسم العيد لإصلاح ذات البين بين الناس ، فتكون مناسبة لكسر الجمود ، أو لقضية حدثتْ بين أشخاص ، فيأتي العيد مناسبة لاختراق هذا الجدار من سوء ذات البين ، ماذا عن هذه المعلومة ؟

الدكتور :

أولاً : العيد مناسبة لإصلاح ذات البين :

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث أن أصفه أنه يقسم الظهر يقول :

((إياكم وفساد ذات البين ، إنها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن أقول حالقة الدين))

[الترمذي]

أكبر مرض يصيب المجتمع فساد ذات البين ، الخصومات .

أستاذ علاء ، هناك آية اسمح لي أن أقول لك : إنها تنطبق على الزوجين ، وعلى الأخوين ، وعلى الجارين ، وعلى الشريكين ، وعلى الأسرتين ، وعلى الحيين ، وعلى القبيلتين ، وعلى الشعبين ، وعلى الأمتين ، وعلى الحضارتين ، من فردين إلى حضارتين :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة الآية : 14]

حينما يعصي الإنسان الله ، حينما يتجاوز حدوده ، حينما يأخذ ما ليس له ، حينما يعتدي على أعراض الآخرين تنشأ العداوات والبغضاء بشكل لا يوصف .

لذلك فساد ذات البين سببه المعصية ، وصلاح ذات البين سببها الطاعة ، أنا حينما أستقيم على أمر الله، وتستقيم أنت يكون اللقاء والود والمحبة حتميًا :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

إذاً :

العيد مناسبة لإصلاح ذات البين ، المناسبة الأولى في العام كله لإصلاح ذات البين ، تبدأ بزيارة ، تبدأ ببطاقة ، تبدأ بهدية ، تبدأ باتصال هاتفي ، تبدأ بدعوة إلى طعام ، فتزول الأحقاد ، النبي الكريم علمنا أن الهدية تذهب بوحر الصدر ، ففي الخصومة مع شخص من أقربائي أقدم له هدية ، أبادله الزيارة ، أو أبدأه بالزيارة ، فهذا الألم قد يختفي ، وقد يحل محله السرور .

إذاً :

العيد مناسبة لإلغاء فساد ذات البين ، ولكن عند بعض العلماء فساد ذات البين ثلاث مستويات ، أما مهمتي .

الأولى :

أن أصلح علاقتي مع ربي ، صلاح ذات البين مع الذي خلقك وأوجدك إذا العلاقة صلحت مع الله تصلح مع الخلق .

ثانياً :

صلاح العلاقة مع الخلق .

ثالثاً :

أنا مهمتي أن أصلح أي علاقة فاسدة بين اثنين .

أنا في المستوى الأول طرف ، في المستوى الثاني طرف ، أما في الثالث وسيط فحينما قال الله عز وجل :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا)

[سورة الأنفال الآية : 1]

أي أصلح علاقتك مع الله ، ثم علاقتك مع الخلق ، ثم أصلح أية علاقة فاسدة بين اثنين ، هذا يكون في العيد ، والعيد مناسبة كبيرة جداً .

المذيع :

الحديث الذي يجب أن يدور في مجتمعات العيد ، أن يركز في شكل أساسي على هذه المسائل ؟

الدكتور :

ثانياً : العيد مناسبة لوصل الأرحام :

لقد أَلِف الناس أن يفهموا صلة الرحم موضوع زيارة فقط ، زيارة لدقائق ، والغني مستكبر ، مستعلٍ ، والفقير متطامن ، لا ، الزيارة يجب أن تكون مستمرة ، العيد مناسبة للزيارة ، وتفقُّد ذوي الأرحام من أعظم العبادات ، لأنه هو التضامن الاجتماعي ، و أساسه عندنا في الإسلام جغرافي ونسبي ، الله عز وجل أوصى بالجار من خلال سنة النبي الكريم ، وأوصى بصلة الرحام ، حتى إذا أعطيت قريباً لك محتاجا صدقة فلك أجران ، أجر الصدقة ، وأجر الصلة ، لذلك حينما أزور أقربائي بالعيد ، هناك اتصال هاتفي ، وزيارة ، وتفقد أحوال ، لهم أحوال معيشية متدنية مثلاً ، عندهم مشكلة بين الأولاد ، بين الأولاد والأب ، مشكلة بين الزوج والزوجة ، يتفقد الأحوال المعاشية ، الأحوال الاقتصادية ،

الأحوال العلمية ، يحتاج إلى دورة ، لا يملك أقساط هذه الدورة ، والزائر ميسور الحال ، يقول : لا أنت ابني ، ابن أخي ابني ، هذه هدية مني لك ، فهناك تفقُّد أحوال معيشية تفقد أحوال اجتماعية ، أحوال علمية .

الآن يأتي الدور الأساسي ، خذ بيدهم إلى الله ، أعطهم كتاباً ، دلهم على الله ، دلهم على مبحث ، على برنامج ، أو على شريط ، قربهم من الله عز وجل ، أنا أقول : صلة الرحم تبدأ باتصال هاتفي ، ثم بزيارة ، ثم بتفقد ، ثم بمساعدة ، ثم أن تهديهم إلى الله عز وجل ، هذه الصلة التي أرادها الله ، وهي نوع من التضامن الاجتماعي .

الشيء المضحك أن الإنسان عنده قائمة طويلة ، ومعه بطاقات ، مهمته أن يضع البطاقات في البيوت ، ويسأل الله ألا يجده ، فإذا وجده وقع في مشكلة ، هو يريد أن يقدم البطاقات لرفع العتب فقط .

أنا أتمنى على الإخوة المشاهدين بدل تراشق الزيارات غير المجدية أن يجلسوا في إحدى الليالي مع بعضهم ساعتين أو ثلاثًا ، أفضل بكثير ، أن نلتقي ونتحدث ونتشاور في أمورنا ، نتحدث عن بعض مكتسباتنا .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (14-95) - مقومات التكليف : العقل - ما يتعلق بالعقل ـ خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، في الحلقات الماضية تحدثنا عن مقومات التكليف ، وبدأنا بالكون وأفردنا للكون مساحات واسعة الحقيقة ، ثم بدأنا بمحطة هامة ، من محطات التكليف التي من خلالها كلف الله الإنسان، وحمله أمانته ورسالته على هذه الأرض ، ليستعمرها بالشكل السليم في الخير ، وما يصلح لنفسه ولغيره ولسكناه ، وقبل كل ذلك أن يصلح علاقته بالله عز وجل .
تحدثنا في محطات كثيرة من خلال الحلقات الماضية عن العقل ، وبقي أن نختم هذا المقوم التكليفي في هذه الحلقة في مسائل مختلفة ، منها ما يتعلق بالمحبة ، ومنها ما يتعلق بالذكاء ، ومنها ما يتعلق بالهوى، ومنها ما يتعلق بالجهل ، ولدنيا في نهاية كل حلقة إن شاء الله محطة علمية إعجازية لنتدبر ، ولنتفكر ، وللنظر إلى بديع صنع الله .

مقدمة حول العقل :

الدكتور راتب :
ولأن العقل أداة معرفة الله تأتي هذه الفقرة الأخيرة حول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

1 – الإنسان مفطور على الحب :

أستاذ علاء ، بادئ ذي بدء ، الإنسان يحب ولا شك ، لكن من الناس من يحب بعقله ، ومن الناس من يحب بحواسه .
مرة كنت مسافراً ، وأتيت إلى دمشق ، فرأيت إنساناً في الشارع يجري ، والأمطار منهمرة ، والبرد قارس ، ومعظم الناس في بيوتهم وراء المدافئ ، يأكلون ويشربون ، ما الذي في عقل هذا الإنسان حتى حملته قناعته على أن يجري في البرد وفي المطر ؟ قناعته أن القلب قوام حياة الإنسان ، وأن القلب قوته بالجري .

فأحياناً هذا لا يحب بحواسه ، لو أحب بحواسه لجلس إلى المدفأة ، وأكل أطيب الطعام ، لكنه رغم كل ذلك جرى في المطر ، وفي البرد .

2 – الحب بالعقل أرقى من الحب بالحواس :

كلما ارتقى الإنسان أحب بعقله ، لآخذ أمثلة بسيطة : أحياناً في أطعمة طيبة جداً ، ولكنها تضر بالجسم، وتؤذيه ، فبنما هي من حيث الطعم رائعة جداً ، لكن العاقل يأخذ منها باعتدال شديد .
مرة عثرت على نص أدبي أعجبني ، يقول بعض الأدباء : " لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظّمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، فكان خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا تكلم بزّ القائلين ، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جدّ الجدُ فهو الليث عادياً ، أردت من هذا النص فقرة واحدة كان خارجاً عن سلطان بطنه .
فالذي يحب بحواسه يأكل كثيراً ، ويتحمل متاعب لا حصر لها ، والذي يحب بعقله يأكل قليلاً ، ويأكل طعاماً يفيده ، له نتائج طيبة جداً ، هذا في الطعام والشراب .
الإنسان أحياناً يحب الدراسة بعقله ، الراحة أقرب إلى فطرة الإنسان من التعب ، فيدرس لأنه أحب أن يكون شخصية مهمة في المجتمع ، أحب أن يعطي أمته شيئاً ثميناً ، فلابد من العلم ، الدراسة متعبة وشاقة ، فالذي يقبل على الدراسة هو إنسان يحب بعقله ، الذي يقبل على أداء العبادات ؛ الصلوات ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، الذي يقبل على الأعمال الصالحة يحبها بعقله ، من حيث علاقة الأعمال بالراحة الجسمية الراحة أولى ، فهو يخالف طبعه .

3 – الإنسان بين الطبع والتكليف :

بالمناسبة ، الإنسان معه طبع ، ومعه تكليف ، دائماً هناك تناقض بين الطبع والتكليف ، الآن الذي ينام باكراً يستيقظ نشيطاً ، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول :
الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ
وَفِي البَاب عَنْ جَابِرٍ وَعَائِشَةَ قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الحَدِيثَ وَقَالَ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سمح لي أن أعيش يوماً جديداً .

كلما ارتقى إدراك الإنسان وارتقت مرتبته عند الله يحب بعقله .

مرة كنا في جلسة ، ومعنا طبيب قلب ، فقُدم له طعام نفيس جداً ، فاعتذر ، قال : والله أنا أحبه أكثر منكم جميعاً ، لكن لكثرة ما أرى الشرايين المسدودة في أثناء العمليات الجراحية أكره الأطعمة الدسمة .

فالإنسان قد يحب طعاماً بعقله ، وليس بإحساسه ، وكلما هبط مستوى الإنسان يحب بأحاسيسه .

الأستاذ علاء :

إذاً : الذي يخالف شحه في الذل والعطاء .

الدكتور راتب :

4 – التناقض بين التكليف والطبع ثمن الجنة :

لذلك التكليف يتناقض مع الطبع ، وتناقض التكليف مع الطبع ثمن الجنة .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

الذي يدخن لا تبتعد كثيراً ، هو ألفَ الدخان ، لكن أحياناً حينما يفاجئ بالنتيجة الصاعقة بورم خبيث برئتيه ، هو لماذا وصل إلى هذه النتيجة ؟ لأنه أحب بحواسه ، أما لو فكر وترك لم يصل إلى هذه النتيجة .

5 – العاقل يتعامل مع النص والجاهل يتعامل مع الواقع :

أنا أضرب مثلا أعمق : لو أن إنسانا يمشي في طريق ، وله هدف في نهاية الطريق ، والطريق مغلق بسبب تراكم الثلوج في مكان معين ، فإنه يرجع ، أما الدابة فتمشي إلى أن يوقفها الثلج .

العاقل يتعامل مع النص ، بينما الجاهل يتعامل مع الواقع ، هو العاقل هو يرى الشيء قبل أن يصل إليه ، في من أروع الآيات الله عز وجل يقول :

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

(سورة النحل الآية : 1)

أتى فعل ماضٍ ، قال :

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل الآية : 1)

معناه لم يأتِ ،

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

المؤمن العاقل المفكر الموفق يتلقى وعيد الله وكأنه وقع ، لذلك قالوا : أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه ، أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسمك .

6 – سؤال العاقل لنفسه : هل يقبل الله من ي عملي ؟!

حينما أؤمن باليوم الآخر في كل حركة وسكنة في حياتي اليومية أسأل هذا السؤال : هل يقبل الله مني هذا العمل ؟ هل أرضي الله بهذا العمل ؟ أما ما دمت أفكر في النهاية فأنا لي بداية مشرقة ، وبالبرمجة العصبية اللغوية يقال : ابدأ من النهاية ، النهاية مغادرة الدنيا .

يمكن أن أسس شركة ، أن أنال دكتوراه ، أن أتزوج ، أن أمارس حياتي بشكل طبيعي ، ومع أنني مؤمن أنني سأموت ، التفكير بالموت يحفظ انزلاقي يمنة ويسرى ، والتفكير بالموت يسرع خطاي إلى الله عز وجل ، أما حينما ابدأ من النهاية فإني أنسجم مع هذه النهاية .

دائماً المشكلة أن يأتي الإنسانَ شيءٌ غير متوقع ، أما إذا توقع الإنسان النهاية الطبيعية ، وانسجم معها فلن يفاجأ .

من أدق تعريفات الذكاء : هو التكيّف ، تعريف للذكاء جامع مانع هو التكيف .

ما الحدث الواقعي الحتمي الذي لا ينجو منه إنسان كائناً من كان ، نبياً كان أو طاغياً ؟ الموت ، هذه النهاية اليومية الحتمية ، ما التكيف ؟ ما الذكاء ؟ التكيف مع هذا الحدث ، أن أتوب إلى الله ، وأن أستقيم على أمره الله ، وأن أعمل صالحاً .

الأستاذ علاء :

هل هذا يلخص الكلام الحديث النبوي عندما قال عليه الصلاة والسلام :

((الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم ، عن شداد بن أوس]

الدكتور راتب :

7 – موقف العاقل والعاجز من الموت :

أكبر مصيبة عند الناس هي عرس عند المؤمن ، وصف النبي الكريم الموت بأنه عرس المؤمن ، وصف النبي الكريم الموت بأنه فرح المؤمن ، لأن كل هذه الحياة من أجل أن يلقى الله ، وقد نجى من

الشرك والمعصية ، وما يسبب شقاءه في الآخرة ، فإذا وصل إلى هذه النتيجة فهو أسعد الناس .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي بدأت بنقطة في تعريف الذكاء ، عرفت الذكاء بأنه بالاختصار هو التكيف ، معرفة الواقع ، والنتائج ، أو ما سيجري بالحتمية ، والعمل بمقتضى هذا العلم ، إذاً : هنا من أشياء العقل ، أو من القضايا التي يفرزها العقل السليم الذكاء ، والذكاء يقتضي التكيف ماذا عن هذا الموضوع ؟

الدكتور راتب :

8 – بين العاقل والذكي :

لكن أريد أن أنوه قبل أن أقول هذا الكلام ، الإنسان الآن عنده مستجدات ، ما لم يتعامل مع المستجدات تعاملا جديدًا فهو لا يسمى عاقلاً ، بحياتنا العامة ، بحياتنا الدولية مستجدات ، ما لم نتعامل مع المستجدات تعاملا جديدًا فنحن بعيدون عن العقل الناجح .

إنسان تاجر في مرحلة ما ربح أرباحاً كثيراً بكميات من البضاعة كبيرة ، فإذا تابع استيرادها ، وقد ضعف السوق ، وأصبح فيه كساد كبير لا يكون عاقلا ، لكن قيل : ما كل ذكي بعاقل ، كأن الذكاء يتوجه إلى الجزئيات .

أنا قد أدرس الطب النووي ، قد أدرس الكيمياء الذرية ، قد آتي باختصاص نادر ، يحتاج إلى عقلية كبيرة جداً ، وقد يحقق لي هذا الاختصاص النادر دخلا فلكيا ، فأشتري أجمل بيت ، واشتري أجمل سيارة ، وأتزوج بأجمل زوجة ، مثلاً ، ولكن حينما أغفل عن آخرتي ، وعن مصيري بعد الموت ، حينما أغفل عن سر وجودي ، وغاية وجودي ، حينما لا أتبع منهج الله عز وجل ، حينما لا أعلم أن الله سيحاسبني ، حين لا أعلم أن الله سوف يحاسبني على أدق الصغائر ، فأنا لست عاقلاً ، أنا ذكي ، ولست بعاقل .

لذلك مر النبي عليه الصلاة والسلام في الطريق مع أصحابه برجل مجنون فسأل سؤال العارف : من هذا ؟ قالوا : هذا مجنون ، قال : لا هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله . لذلك قال تعالى :

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

لذلك ثمة آية دقيقة جداً :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود الآية : 28)

الأمور واضحة كالشمس ، والآن والله الأمور واضحة كالشمس في العالم كله ، كان هناك مساحة كبيرة جداً رمادية بين الأبيض والأسود ، هذه التطورات الأخيرة في العالم ضيقت هذه المسلحة الرمادية ولم تبق إلا لونين ، أبيض ناصع ، وأسود داكن ، الأمر واضح جداً ، أنت أمام خيارين لا ثلاث لهما ، إما أن تكون صادقاً أو غير صادق ، مخلص أو غير مخلص ، رحيم أو قاسيا ، منصفا أو جاحدا ، المساحة الرمادية اضمحلت ، وبقي لونان كبيران أبيض وأسود .

فلذلك الإنسان حينما يغفل عن سر وجوده ليس عاقلاً :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

مقابل هذه البينة والوضوح :

(وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

قد يكون المؤمن في سعادة لا توصف ، قد يكون في توازن نفسي لا يوصف ، قد يكون في راحة قلبية، قد يكون في قوة ، قد يكون في عزة ، في كرامة ، لكن هو مقيد بمنهج الله عز وجل ، يأتي إنسان متفلت لا يرعى حقاً ، ولا قيمة ، ولا منهجاً يظن أنه أسعد منه بكثير ، وهو محصور متقوقع .

الأستاذ علاء :

دعني أتكلم ، يقولون : فلان أجدب ، أي أنه لا يعرف من ملذات الحياة شيئا ، ولا يعرف كذا ، سيدي الكريم اسمح لي أن أتكلم بأسلوب المجتمع ، ما يقال في بعض الأوساط أنه الذي لا يمد يده إلى سرقة ، أو لا يمد يده أن يستغني ، أو أن يكون صاحب مال من طرق ملتوية ، هذا غير عاقل ، هذا لا يفهم ، هذا أجدب ، المفترض يكون غير هذا ، حتى يجمع ثروة ، ويجمع مال ، ماذا نقول في هذا الموضع ؟ .

الدكتور راتب :

العبرة بالحقائق لا بالصور والمظاهر :

هذا :

(وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

أنا بها سعيد ،

(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ)

فلذلك العبرة أن يكون الإنسان مع الحقائق لا مع الصور .

((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))

[أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

مرة زرت إنسانا يعمل في إصلاح المركبات في أيام مطر وشتاء ووحل ، ونزل تحت المركبة ، ويلبس ثيابًا كان لونها سابقاً أزرق من الوحل والزيت والشحم ، لم بعد لها لون ، وفك القطعة ، وأصلحها ، وأخذ مبلغا معتدلا ، فهذا أنا سميته ذا عمل نظيف ، مع أن العمل غير نظيف ، شحم ووحل ، ومطر ، وماء ، زيت ، وحينما ترى إنسانا يكسب المال الحرام ، ويعتدي على أعراض الناس، وهو في محل أنيق جداً ، فيه تزيينات مذهلة ، و نعومة بالغة ، وعطور فائقة ، هذا عمله قذر ، فالبطولة أن أكون مع الحقيقة ، أن أكون مع النتيجة .

فكلما تعمق الإنسان في فهم حقائق الإيمان أحب بعقله ، وأبغض بعقله ، وكلما بسر وجوده كان عاقلاً ، لذلك ما كل ذكي بعاقل ، الذكي جزئي ، يحمل شهادة عليا ، عنده قدرة فائقة ، أما العقل فهو إدراك شمولي ، إدراك شمولي لحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الدنيا ، وحقيقة الإنسان ، هذا العقل ، لذلك ما كل ذكي بعاقل .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي ، الصراع الذي يعتور الإنسان بين عقله وبين هواه ؟ .

حقيقة الصراع بين العقل والهوى :

1 – طريقان لا ثالث لهما : طريق المصلحة وطريق المبدأ :

أنا أؤمن أن هناك طريقي لا ثالث لهما ، فإن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر الدليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

هما طريقان لا ثالث لهما ، طريق المصلحة ، وطريق المبدأ ، طريق القيم الأخلاقية وطريق الانخفاض والابتزاز ، فأنت بين القيمة والحاجة ، بين المصلحة والمبدأ ، فإن لم تكن مستجيباً لمنهج الله عز وجل فالإنسان على الخط الثاني حتماً .

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)

لمنهج الله الذي من عند الخالق ،

(فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

الآن :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

2 – المتَّبع لهواه وفق منهج الله لا حرج عليه :

هناك معنى رائع أستاذ علاء ، الذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه ، الإسلام لا حرمان فيه ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، إذاً ليس في الإسلام حرمان ، لكن فيه تنظيم ، فيه بناء أسرة ، لكن ليس فيه زنا ، فيه كسب مال حلال ، لكن ليس فيه سرقة، ولا غش ، ولا معاصي كسب المال .

الأستاذ علاء :

كيف نجد معنى الغاية تبرر الوسيلة هنا في هذا الموضع ؟ .

للدكتور راتب :

مقولة إبليسية : الغاية تبرر الوسيلة :

ليست واردة إطلاقاً في الإسلام ، الأهداف النبيلة لا نسلك إليها إلا وسائل نبيلة الهدف النبيل وسيلته نبيلة ، الحقيقة فرعون قال :

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر الآية : 29)

هذا ادعاء .

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 4)

كل إنسان في رأسه فكر يضفي على جرائمه ، كلام مزخرف ، العبرة بالواقع ، فلذلك إذا كان للإنسان هدف نبيل يجب أن يسلك له الوسائل النبيلة ، ولا يوجد هدف نبيل يوصل إليه بوسائل غير نبيلة ، وغير خيرة ، تنبع الوسيلة من جنس الهدف ، فالأهداف النبيلة وسائلها شريفة ، والأهداف الخسيسة التي أعلن عنها أنها أهداف نبيلة وسائلها خسيسة .

العقلُ والجهل :

لذلك الآن دخلنا في آخر فقرة ، العقل والجهل ، نحن نتوهم أن الجاهل وعاءه العلمي فارغ ، لا ، قد يكون ممتلئًا ، لكن كل المعلومات خاطئة .

مثلاً : عند رجلٍ قناعة أنه كلما أكل ملحاً أكثر هبط ضغطه ، هذه معلومة خاطئة هذه الفكرة قد تتسبب بموته ، إذاً : الجاهل هو الذي يملك معلومات كثيرة جداً ، لكنها مغلوطة .

مثلاً : إذا عدّ الإنسان أن كسب المال الحرام شطارة ، هذه معلومة غلط ، إذا عدّ العدوان على الناس قوة ، إذا عدّت الفتاة أن تفلتها الشديد حضارة ، إذا عدّ المنافق نفسه لبقاً ، أحياناً يتوهم الإنسان سلوكًا منحرفا ، لكن يضفي عليه عنوانا براقًا .

الأستاذ علاء :

كأننا وصلنا إلى المحطة التي سوف نكون معكم ، ومع الإخوة المشاهدين فيها لنتدبر خلق الله .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : العنكبوت :

1 – التفكُّر في الكون طريق إلى الله :

أستاذ علاء ، التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعنا أمام عظمة الله ، وأصل الدين معرفة الله ، وإذا عرف الإنسان الله ، ثم عرف أمره تفانى في طاعته ، أما إذا عرف الأمر ، ولم يعرف الآمر تفنن في التفلت من الأمر ، فنحن في مرحلة مكية أمضيناها كلها في التعريف بالله ، ثم جاءت المرحلة المدنيّة مرحلة التشريع ، الآن في الدعوة إلى الله إذا أغفلنا المرحلة المكية ، وعرفنا دقائق التشريع قد لا ننصاع إلى أمر الله ، لأن معرفة الآمر قبل معرفة الأمر ، وإذا بالغنا في معرفة الآمر تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا لم نتعرف إلى الآمر تفننا من التفلت من الأمر .

2 – حقائق عن شبكة العنكبوت :

سوف نشاهد مقطعاً من موسوعة علمية عن العنكبوت ، الحقيقية العنكبوت هناك حقائق عنها قد لا تصدق ، فشبكة العنكبوت واحدة من خوارق التصميم ، ما من بيت ، ما من مكان إلا فيه العنكبوت ،

في زوايا البيت ، فهذا العنكبوت له شبكة تعد واحدة من خوارق التصميم ، ولها مخطط معماري متميز، والله عز وجل يقول :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

الكون كله ينطق بوحدانية الله ، وبوجود الله ، وبكمال الله ، بل الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى .

الحقيقة أنّ شبكة العنكبوت إحدى العجائب ، لو كبرنا العنكبوت إلى حجم الإنسان لكانت شبكة العنكبوت تساوي ناطحة سحاب مؤلفة من خمسين طابقًا ، ارتفاعها 150 مترًا ، ولو استطاع العنكبوت أن يصنع شبكة عرضها 50 مترًا لحالت هذه الشبكة بين أن تخترق من طائرة نفاثة .

بعد قليل سأبين أن خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ بخمسة أضعاف ، أمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المضفور ، تصنع منه المصاعد الكهربائية ، والتلفريك .

العنكبوت يرسم مخططًا ، ويبحث عن مكان لاستناد هذا البيت ، ثم يرسل خيطاً ، الخيط هو لعابه ، هذا الذي يساوي خمسة أضعاف متانة الفولاذ ، هو لعاب يخرج من فمه ، ويتجمد في الهواء ، فالعنكبوت ترسل خيطًا إلى الهواء ، وتربط هذا الخيط بجهة متينة ، ثم تصمم البيت ، ترسل خطوط من المركز إلى الخارج ، وبعدها ترسم الحدود البعيدة لهذه الشبكة ، الآن ترسم هذه الصورة مسرعة ستين مرة ، وتستغرق في بناء العش ساعة ، هي مسرعة ستين مرة ، بعد أن رسمت الحدود البعيدة ، الآن بدأ ترسم الخطوط الداخلية من الخارج نحو الداخل .

3 – وَإِنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ :

الحقيقة أن شبكة العنكبوت من الأشياء المدهشة ، من حيث دقة الصنع والمتانة لكن حينما يقول الله عز وجل :

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

(سورة العنكبوت الآية : 41)

قال العلماء : الوهن اجتماعي ، العلاقات سيئة جداً بين العنكوبتة وزوجها ، وبين العنكوبتة وأولادها ، فضعف البيت ناتج عن ضعف اجتماعي .

4 – الهندسة المعمارية في بيت العنكبوت :

الآن لو تابعنا مشاهدة صنع هذا الخيط ، صنع هذه الشبكة لوجدنا أنها مبنية على هندسة ، كأنه في مخطط .

الآن وصلنا إلى خيط العنكبوت ، أتينا بكبل فولاذي ، وخيط عنكبوت ، فقدرة خيط العنكبوت على تحمل قوى الشد خمس أضعاف خيط الفولاذ .

لو جئنا بخيط عنكبوت قطره 30 مليمترا لأمكن أن يحمل 150 سيارة ، الإنسان قلد خيط العنكبوت بخيط اسمه الكفلر ، منه تصنع الدروع الفولاذية ، المعلوم أن طلقة المسدس تنطلق الرصاصة بسرعة 150 مترا في الثانية ، هذه تخرق كل شيء ، إلا هذا النسيج المصنوع من خيط تقليدا لخيط العنكبوت ، وخيط العنكبوت أمتن منه عشرة أضعاف ، العنكبوت أمتن من الفولاذ خمسة أضعاف ، أمتن من خيط صنعه الإنسان تقليداً لخيط العنكبوت ، الكفلر أمتن بعشر مرات ، من هذا الخيط تصنع الألبسة المضادة للرصاص .

الحقيقة أن خيط العنكبوت أدق من الشعرة ، وأخف من القطن ، وأمتن من الفولاذ .

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية : 11)

نحن في حياتنا الصناعية عندنا متانة وقساوة ، الماس أقسى عنصر لتحمل قوى الضغط ، الفولاذ أمتن عنصر لتحمل قوى الشد ، وعندنا عنصر يتحمل قوى الضغط ، أعلاها الماس ، وعندنا عنصر يتحمل قوى الشد ، الجسور مصنوعة من الفولاذ ، هذا من آيات الله الدالة على عظمته ، والتفكر في خلق السماوات والأرض هو أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله .

الأستاذ علاء :

وهذا التفكر يكون أساسه أحد مقومات التكليف ، ألا وهو العقل أداته ، ولذلك يصل إلى الله عز وجل الإنسان من خلال إعمال هذا العقل في الجانب السليم ، وبآيات الكون ، وبأن يتدبر ، لذلك قيل : كان كثير من الصحابة ، الكثير من التابعين يذهب ليتفكر ، وليتدبر ويعتبر هذه المسألة من أجل العبادة .

الدكتور راتب :

التفكر أساسه العقل :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ)

(سورة آل عمران)

فعل مضارع ، يعني مستمر .

(فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (15-95) - مقومات التكليف : العقل - العلاقة بين العقل والوحي علاقة تكاملية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-01-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

أستاذنا الكريم ، كنا قد تحدثنا في حلقات سابقة عن مقومات التكليف ، تحدثنا عن الكون ، ثم حططنا الرحال عند العقل في حلقتين متتابعتين ، وإن شاء الله نتجاوز العقل إلى مسألة الفطرة ، وبعد ذلك الشهوة والاختيار ، إلى الشرع ، ثم إلى وعاء العمل والوقت .
وقفنا عند العقل في محطتين واسعتين ، ولكن هذا الأمر الذي هو مقوم أساس من مقومات التكليف التي كلف الله بها خلقه ، كلف بني آدم ، وهو يعيشون في هذا الكون على ، هذه البسيطة لعمارتها ، وقد حملهم الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال ، ولكن تصدى لها الإنسان ، وحمل هذه الرسالة .
ومن مقومات حمل الرسالة أو التكليف العقل ، الجوهرة التي وهبه الله للإنسان ، به يميز ، وبه يختار.
الآن نتابع رحلتنا مع العقل في مسألة موقف العقل من الوحي ، أو الوحي من العقل ، ما هي العلاقة ؟ هل علاقة إلغائية ؟ هل العقل يلغي الوحي ؟ هل الوحي يلغي العقل ، أم هنالك بين العقل والوحي علاقة تكاملية ، علاقة يقف العقل عاجزاً في مرحلة ما ليتمم نقصه وعجزه ذلك الوحي المنزل من السماء ، ثم نتحدث بعد ذلك عن مسألة العقل والنص ، والعقل والجهل ، والعقل والذكاء ، إن أسعفنا الوقت في سرد هذه الموضوعات في هذه الحلقة .
الدكتور راتب :

العلاقة بين العقل والوحي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .

1 – ما هو العقل ؟

أستاذ علاء ، جزاكم الله خيراً ، العقل بالتعريف الدقيق أداة معرفة الله ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى في أول سورة أنزلت قال :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

القراءة مقيدة بالإيمان .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

(سورة العلق)

إذاً هذه قراءة بحث وإيمان ، ثم هناك قراءة شكر وعرفان .

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

(سورة العلق)

منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، ثم يقول الله عز وجل :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

2 – مهمة العقل :

فالله عز وجل أعطانا العقل لكن مهمة العقل محدودة ، لا يحسن العقل تحقيق ما خُلق من أجله إلا إذا استند إلى واقع ، واستنبط من الواقع حقيقة لا تراها العين ، الاستنباط والاستدلال من مهمات العقل ، فكأن الأشياء في الأرض شيء ظهرت ذاته وآثاره ، الحواس الخمس أداة معرفة ، ضوء متألق ، صوت مرتفع ، قماش ناعم ، وشيء غابت ذاته ، وبقيت آثاره ، هنا منطقة العقل ، العقل يبحث عن شيء غابت ذاته ، وبقيت آثاره ، أما إذا حكّمنا العقل في الغيبيات فالعقل ليس له مجال إطلاقاً ، فالعقل أداة محدودة المهمة ، وهذه الحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل إنسان .

3 – العقل ميزان :

العقل ميزان دقيق جداً ، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

في بعض تفسيرات الميزان أنه العقل ، أعطاك الميزان ، لكن هذا العقل مهمته محدودة ، فما عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به ، كيف ؟

عندنا ميزان في مركز بيع متقدم ، هذا الميزان مصمم للاستخدام بين خمس غرامات ، وخمسة كيلو ، وفيه ذواكر ، وأشياء دقيقة ، فإذا أردت أن تزن به مركبة كسرته ، لأن صانع المركبة أعطاك وزنها بالدقة في مكان ما من المركبة ، فإذا عجز ميزان البقالية عن وزن مركبتك فصانع المركبة أخبرك بوزنها .

4 – ما عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به :

إنّ ما عجز العقل عن إدراكه أخبرك الله به ، تماماً كما تفضلتم العلاقة بين العقل والوحي علاقة تكاملية .

إذا دخلت إلى جامعة ، وأنا لا أعرف عنها شيئاً من أبنيتها ، وقاعات التدريس فيها ، ومخابرها ، ومن حدائقها ، وبيوت الطلبة فيها ، ومن موقعها أستنبط مئات الحقائق ، أن وراء هذه الجامعة مهندسا متألقا، خبيرا بأمور الجامعات ، هيأ لكل وظيفة للجامعة مكانا ، يمكن أن استنبط آلاف الحقائق من تأملي في الأبنية ، لكن مهما كنت ذكياً ، ومهما كان تحليلي عميقاً ، ومهما كان تأملي دقيقاً فلا أستطيع أن أعرف نظام الجامعة ، ولا من يسمح له بالانتساب لها ، نظام الامتحانات ، نظام القبول ، من هو عميد الكلية ؟ من هو رئيس الجامعة ؟ ما نظام التفوق في الجامعة ؟ هذا لا بد من كتيب .

فلذلك أنت في التفكر في خلق السماوات والأرض تصل إلى حقائق ، أن هذا الكون لابد له من خالق ، لكن الخالق أخبرك بالوحي ، أنك المخلوق الأول ، وأنك خُلقت للجنة ، وأن الدنيا دار تكليف لا دار تشريف ، ودار عمل لا دار أمل ، الخالق أعطاك توجيهات رائعة جداً بالوحي ، فأنت بالكون والعقل تعرف الله ، وبالشرع الذي هو الوحي تعرف منهجه ، إذاً لا يستغنى عن العقل بالنقل ، ولا بالنقل عن العقل ، إنهما متكاملان .

ودائماً وأبداً قضية التفرد هذه قضية مفتعلة مصطنعة ، الحياة متكاملة ، ونحن إذا قسمنا ما في الحياة إلى أبواب هذا تقسيم مدرسي ، أما العقل فله مهمة ، والوحي له مهمة ، ولكن هذا الذي يذكرني بمثل شهير :

لو أن الإنسان له عينان بالغتا الدقة ، أحياناً يكون الفحص 12 على 10 هاتان العينان البالغتان الدقة لا معنى لهما من دون ضوء يكون وسيطاً بين العين والمرئي .

وأنا أؤمن بكل قطرة في دمي ، وبكل خلية في جسمي أن العقل لا معنى له من دون الوحي لأنه :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

(سورة المدثر)

5 – العقل والوحي متكاملان :

فالعقل لا يستغني عن الوحي ، والوحي يحتاج كي تعرف دقائقه إلى عقل .

إذاً : العقل والوحي يتكاملان ، والخطأ الكبير أن حضارة اعتمدت العقل ، فوقعت في الإباحية ، وزنى المحارم ، والمخدرات ، والخمور ، حتى يقول بعض زعماء العالم الغربي : إن هناك أخطار تهددنا ، أنا كنت أظن قبل أن يتابع كلامه بأخطار الصين ، أو أخطار التجمع الأوربي ، الذي يهدد تفسخ الأسرة، وشيوع المخدرات ، وارتفاع الجريمة .

فحينما اعتمدنا العقل وحده وقعنا في مشكلات لا تعد ولا تحصى ، إذاً العقل والوحي يتكاملان ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، هل يصح أن يكون العقل ميزاناً للوحي ؟ أن أزن ما جاء في الوحي بالعقل ، أم أن يكون الوحي ميزاناً للعقل ؟ .

لن يكون العقل ميزانا للوحي :

الدكتور راتب :

1 – العقل مرتبط بالواقع :

لا يمكن بحال أستاذ علاء أن يكون العقل حكماً على النقل ، السبب أننا لو اخترنا من بين الموتى أحداً من أكبر العلماء ، ويتمتع بأعلى ذكاء ، وترك 200 مؤلف ، لو أعطيناه قرصًا مدمجا ، قلنا له : في هذا القرص خمسة آلاف كتاب ، ويمكن أن تقرأه في ثلاث ثوانٍ ، لا يصدق ، بل يتهمنا بالجنون ، وكان ألمعية ، وترك 200 مؤلف ، لأن العقل مرتبط بالواقع .

الآن نحن عندنا أشياء لو أخبرت إنسانا قبل مئة عام يمكن أن ترسل رسالة إلى أقصى مكان في الدنيا في ثوان بالفاكس لا يصدق ، كانوا يركبون الجياد ، ويسرعون شهرًا ليصل البريد ، الآن ما يحدث في العالم نعرفه بعد ثوانٍ .

إذاً : العقل مرتبط بالواقع .

2 – الوحي مرتبط بالحقيقة المطلقة :

أما الوحي مرتبط بالحقيقة المطلقة ، لذلك لا يمكن أن يكون العقل حكماً على النقل ، بل النقل حكم على النقل ، لأن النقل وحي السماء ، بينما العقل مقياس أودعه الله فينا ، لكن محكوم بالظروف التي يعيشها.

الأستاذ علاء :

محاط بظروف ، ولا يستطيع أن يجتاز ذلك السور أو الغرز الذي وضع حوله ، لذلك هو يتحرك ضمن هذا المجال وهذا الحيز .

الدكتور راتب :

حتمية توافق العقل السليم مع النقل الصحيح :

هذا ينتج عن هذا السؤال جزاك الله خيراً ، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى ، قال : " حتمية توافق العقل مع النقل " ، لا بد من أن يتوافق العقل مع النقل ، لماذا ؟ لأن العقل مقياس أودعه رب الأرض والسماوات فينا ، والنقل كلامه ، وكلاهما فرعان من أصل واحد ، فمادام الفرعان من أصل واحد فلا بد من أن يتساويا ، ولكن لو ظهر تناقض كما تفضلت ، كيف نفسر هذا التناقض ؟ لعدم قطعية أحدهما، إما أن الحديث موضوع ، أو أنه حديث ضعيف ، أو حديث فيه إشكال كبير عند علماء الحديث ، لا يتوافق مع العقل ، أو الآية وهي قطعية الثبوت تأويلها غير صحيح ، فإمّا عدم قطعية أحدهما ، أو أن القضية التي جاء بها العقل ليست صحيحة ، ليست حقيقة ، بل نظرية ، فإذا لم يتوافق العقل مع النقل فبعدم قطعية أحدهما .

ولو فرضنا جدلاً أن الحقيقة العلمية مطلقة ، وأن النص مطلق في ثبوته ، وفي تأويله فالتوافق حتمي 100 % ، وهذا أعظم ما في هذا الدين العظيم ، نحن ديننا دين عقل ودين نقل ، ودين فطرة ، ودين حياة ، نحن ديننا لا يغفل شيئاً من الحياة ، هناك حضارات ألقت الوحي وراء ظهرها ، وهناك حضارات نبذت العقل وراء ظهرها ، وكلا الحضارتين لم يحسنا صنعا ، لا بد من اعتماد النقل على أنه توجيهات من عند الخالق ، ولا بد من اعتماد العقل بفهم النقل .

مهمة العقل أمام النقل : التأكد من صحة النقل ثم الخضوع له :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، هناك علاقة ثانية : علاقة العقل مع النقل ، العقل له مهمتان ، مهمة قبل النقل ، ومهمة بعد النقل ، المهمة التي قبل النقل للتأكد من صحة النقل لأن هناك حديثا ، نحن مشكلتنا أن كل إنسان سمع حديثاً منقول عن النبي الكريم من إمام مسجد ، من خطيب ، من إنسان غير متعمق يعده حديثاً صحيحاً ، وقد يبنى عليه أحكام غير صحيحة ، فالعقل مهمته أن أتأكد من صحة النقل، بما أن الدين نقل أخطر ما في النقل صحة النقل .

كم من خطبة ألقيت بنيت على حديث موضوع ؟ وكم من تعصب أعمى انحاز إلى جانب أساسه نص موضوع ؟ أو فتوى غير صحيحة ؟ فالعقل مهمته التأكد .

منهج البحث في الإسلام : إن كنت ناقلاً فالصحة ، و إن كنت مدّعيا فالدليل ، إن جئت بشيء جديد فأعطني الدليل من أصول الدين على صحته ، وإن نقلت عن إنسان شيئاً هل كنت متأكداً من هذا ؟ لولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، منهج البحث في الإسلام أنا أراه أهم من مفردات الدين .

الأستاذ علاء :

سيدي إن كنت من هنا جاء علم مصطلح الحديث ؟

الدكتور راتب :

الإسلام فيه منهجية للبحث :

نعم لأن منهج البحث هو الميزان ، بينما الخطأ في الميزان لا يصحح ، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر ، لو أن في ميزان في إحدى كفتيه وزن زائد ، لو استخدمته مليون مرة كل الأوزان خطأ ، بينما لو توهمت أن هذا كيلو مكان كيليين ممكن مرة تصبح ، الخطأ في الوزن لا يتكرر ، أما الخطأ في الميزان لا يصحح .

فلذلك نحن بحاجة إلى أن نصحح النصوص ، أنا أقدر داعية أو خطيباً لا يلقي على منبره إلا النص الصحيح ، النص الصحيح أرض صلبة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عنه :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النجم)

كلامه وحي غير متلو ، فإذا صح هذا عن رسول الله فهو مغطى من قبل الله عز وجل ، لذلك قال الله عز وجل :

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

فلذلك نحن حينما نعتمد السنة الصحيحة ، والتأويل الصحيح ، نجتمع لا نتفرق .

الأستاذ علاء :

إذاً : نعمل العقل في مهمته الأولى السابقة .

الدكتور راتب :

من أسباب الوحدة اعتمادُ النصوص الصحيحة :

أنا قناعتي أن أحد أسباب وحدتنا الإسلامية اعتماد النصوص الصحيحة ، نجتمع على الصحيح ، ونختلف في الموضوع .

أستاذ علاء ، الفرق الضالة في العالم الإسلامي بدءاً من عبد الله بن سبأ وإلى نهاية الزمان تعتمد النصوص الموضوعة والضعيفة ، وتؤلّه الأشخاص ، وتخفف التكاليف ، وذات نزعة عدوانية ، الأحاديث الصحاح توحدنا ، وفي الصحاح غنية ، لكن الكلام موجه إلى الإخوة الدعاة جزاهم الله خيراً: أحياناً الحديث الصحيح مألوف ، مألوف جداً ، يشعر الداعية دون أن يشعر برغبة أن يتحف الناس بشيء جديد ، فيغوص في الضعاف ، على ظنه أن هذا شيء جديد يمتع السامعين ، ابقَ في الصحاح ، ولو أنها مألوفة ، وعمق شرحها ، وعمق الاستنباطات منها ، وعمق فهمها ، لأن كلام خلق الكون ، وكلام نبيه لا حدود لفهمه .

بدل أن آتي بشيء جديد يمتع الناس على حساب الصحة ، أنا آتي بشيء مألوف عند الناس ، لكن أعمق فهمه ، فإذا اعتمدنا الصحاح توحدنا ، وإذا غرقنا في الموضوعات تفرقنا ، والقاعدة المهمة ، هذا الدين كما قال الله عز وجل :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة الآية : 3)

هذا الدين توقيفي ، لا يحتمل الزيادة ولا النقصان ، لأنه من عند الله ، من عند المطلق ،

(أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

الإكمال نوعي ، أي طريقة معالجة أي موضوع عالجها الإسلام كاملة معالجة ،

(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

والإتمام عددي ، عدد القضايا التي عالجها الإسلام تام عدداً ، فأية إضافة على الدين اتهام له بالنقص ، وأي حذف من الدين اتهام له بالزيادة ، وإذا قلنا : التجديد في الدين فيعني إلا أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه ، هذا هو التجديد .

أستاذ علاء :

وأن نعود إلى جوهره ، وأن ننفض الغبار الذي تراكم في الفهم .

الدكتور راتب :

هذا هو التجديد :

الآن إذا أضفنا ـ دقق ـ تقاتلنا ، وإذا حذفنا ضعفنا ، كلمة بكلمة ، إذا أضفنا على هذا الدين الذي هو وحي السماء إذا أضفنا تفرقنا ، أصبحنا شيعاً وأحزاباً وطوائف ، وإذا حذفنا منه ما هو معلوم بالضرورة أصبحنا في مؤخرة الأمم ، فهذا الدين لا يقبل الزيادة ، ولا النقصان .

هذا هو التجديد :

أحكام الشرع فيها حكمة بالغة :

الآن هنا فكرة دقيقة : أن الذي ذكره الله في الوحيين في القرآن ، وأمر النبي أن يقوله في السنة ، له حكمة ما بعدها حكمة ، والذي سكت عنه النبي وراء سكوته حكمة ما بعدها حكمة .

1 ـ الحكمة من عدم شرح النبي للآيات الكونية :

مثلاً : في بالقرآن 1300 آية في الإعجاز العلمي ، سدس القرآن قضايا كونية ، والنبي الكريم في أي موضوع تعبدي ذكر مئات الأحاديث ، في بموضوع التجارة 400 حديث لرسول الله ، أما الشيء العجيب أن النبي لم يشرح ولا آية كونية ، ولا حديثا ، هذه حكمة ما بعدها حكمة ، هذه هي قضايا في الإعجاز العلمي في القرآن ، لو أنه شرحها شرحاً مبسطاً يفهمه من حوله لأنكرنا عليه العالم ، ولو شرح هذه الآيات شرحاً واسعاً ، لأن الله أراه من آياته لأنكر عليه أصحابه ، تركت هذه الآيات من دون شرح ، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من عظمة هذه الآية ، إذاً سكوته حكمة ، فالذي سكت عنه الدين لا يتعلق لا بالخير ولا بالشر .

2 – مهمة النبي هداية الناس :

عندنا قاعدة : الحقيقة الأولى في الكون هي الله ، مهمة الأنبياء أي شيء يقربك إلى الله ذكره النبي به ، ولو كان واحدا بالمليون ، وأي شيء يبعدك عن الله ذكره النبي به ، لكن أن لا أصدق أن يعلم النبي جهاز هضم الضفدعة مثلاً ، ليس من شأنه أن يعلم هذا ، هذا شيء متعلق بأصحاب العلوم والخبرات ، فهذا الذي يضع بمقام النبوة أشياء غير معقولة كأنه يؤلّه النبي عليه الصلاة والسلام ، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام بشر ، وجاء بالوحي وحي السماء ، وكل شيء يقربنا إلى الله ذكره ، وكل شيء يبعدنا ذكره ، أما مكانيك التربة مثلاً فليس من شأن هذا الإنسان العظيم أن يضيع وقته في هذا الموضوع ، هذا موضوع ترك للخبراء ، إذاً الذي يقربنا إلى الله ذكره النبي ، والذي يبعدنا ذكره ، أما قضايا الطعام ، كل بيئة لها طعام لها شراب ، لها تقاليد على الطاولة ، على الأرض ، الثياب ، كل شيء لا يمس القرب من الله ، أما ثياب المرأة فمذكورة في أحاديث ، فكل شيء يقرب أو يبعد في نصوص ، وهناك أشياء حيادية .

الأستاذ علاء :

لذلك عليه الصلاة والسلام عقد اللواء من نبي مخزوم ، قادة حرب ، وهم أصحاب خبرة ، وترك لهم ، وعقد الرفادة ، والضيافة لبني هاشم هم أصحاب هذا الاختصاص ، وللعلاقات العامة من بني أمية ، وكل هذه الاختصاصات أقرها النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الدنيا .

الدكتور راتب :

لابد للناس من وسطية في التعامل مع العقل :

أنا الذي يؤلمني أن هناك من طلق العقل ، والعقل أصل في الدين ، وهناك من لم يعبأ بوحي السماء ، اعتمد العقل ، فمن الحضارات حضارة اعتمدت العقل ، وقد أخطأت خطأ كبيراً ، والآن تعاني ما تعاني، وحضارة طلقت العقل فتخلفت ، ليس في الكون تناقض أبداً ، كل شيء خلقه الله له وظيفة ، فأنت كما تفضلت في بداية هذا اللقاء الطيب وقلت : العلاقة بين العقل والنقل علاقة تكاملية ، وهذا هو الصواب .

الأستاذ علاء :

تحدثت أستاذنا عن مهمتي العقل ، قبل النص وبعد النص ، وفرق التثبت من صحة النص ، وبعد النص فهم هذا النص ، وفهم مكنونات هذا النص ، ولماذا كان هذا النص .

الدكتور راتب :

أحياناً يقول لك أحدهم : أنه ورد في الحديث أن الشياطين تصفد في رمضان ، أيْ تقيَّد ، يأتي العقل ويقول : ربي لو تابعت تقييدها طوال العام لارتحنا منها ، لكن يقول لك بعض العقلاء : إن الإنسان حينما يمتنع عن المعصية يقيَّد الشيطان ، أنت تقيده ، فأنت تابع تقيده بعد رمضان ، أنت من تمسكه ، أنت الذي تقيده عملياً ، فأحيانا يأتي تفسير العقل للنص الصحيح عميق جداً ، ويكون هذا التفسير متألقاً، ويأخذه الإنسان كالغذاء .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، بقي في هذه الحلقة دقيقتان ، هل العقل يفسر النص له مهمتان كما تفضلت ، التثبت من النص ، ثم فهم هذا النص ، هل هذا الفهم يختلف باختلاف الأزمان ، وباختلاف الحواضن العقلية ، بالاختلاف المساحة التي تحيط بالعقل ضيقاً واتساعاً بزيادة المعارف .

الدكتور راتب :

هل يختلف الفهم والاستنباط باختلاف الأزمان والأشخاص والظروف ؟!

أولاً : أستاذ علاء ، السلف الصالح قدموا علوم لتفسير النصوص واستنباط الأحكام منها رائعة جداً ، هذا مجموع في باب أصول الفقه ، قواعد أصول الفقه كلها قطعية ، العقل ليس مسموحاً له أن يستنبط على مزاجه ، هناك قواعد وضعها علماء الأصول ، وقد قيل : إن علماء المسلمين أمام علماء الأصول عوام ، فنحن نفهم النص بعقلنا وفق علم الأصول ، هذه واحدة .

لكن النص قد يكون قطعي الدلالة ، قد يكون ظني الدلالة ، إذا كان قطعي الدلالة يغطي الثوابت في الإنسان ، وإذا كان ظني الدلالة يغطي المتغيرات في الإنسان ، هذا يحتاج إلى شرح إن شاء الله ، نتحدث عنه في لقاء قريب .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (16-95) - مقومات التكليف : العقل - العقل الصريح مع النقل الصحيح ـ تضحية طائر البطريق تجاه صغاره
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-02-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وترحيب :

سيدي الكريم ، كنا قد تحدثنا عن مقومات التكليف ، أنا في كل بداية الحلقة أريد أن أربط ما جرى ، وما تحدثنا عنه ، وحوله من الحلقات السابقة كي أذكر الذين ينضمون إلينا مثلاً في بداية هذه الحلقة ، ولم يتابعوا أين هم من البرنامج .

تحدثنا عن مقومات التكليف في الكون والعقل ، وأفردنا للعقل مساحات واسعة ، وما زلنا في العقل ، وتحدثنا في الحلقة السابقة عن قضية العلاقة بين العقل والوحي ، ما هي هذه العلاقة ؟ وتبينا بأن العلاقة هي علاقة تكاملية ، فما عجز العقل عن إداركه وفهمه جاء به الوحي ليخبره بالنص الثابت عن ذلك الذي عجز ، وقصر عن إدراكه .

وتحدثنا عن علاقة العقل بالنص ، وقلت لنا : إن للعقل مهمتين ، المهمة الأولى ما قبل النص ، التأكد من صحة النص ، المهمة الثانية هي فهم وإدراك هذا النص .

نتابع في مسألة النص والواقع ، جاءنا نص ، جاءنا العقل ، فقال : هذا النص مثبت صحيح ، وفهمه العقل لهذا النص ، نأتي بالنص مقارنة بالواقع ، ما علاقة النص بالواقع ؟ ومن يؤثر على الآخر ، ثم نتحدث عن مسائل أخرى إن شاء الله .

ما علاقة النص بالواقع ؟

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ لا يُعطَّل العقل أبدا :

أستاذ علاء ، النص والواقع ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً فاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ـ وفي رواية أنه كان ذا دعابة ـ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا ، فَجَمَعُوا ، فَقَالَ : أَوْقِدُوا نَارًا ، فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا ، وَيَقُولُونَ : فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))

[متفق عليه]

العقل لا يعطّل أبداً ، يؤكد هذا قول الله عز وجل :

(وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ)

(سورة الممتحنة الآية : 12)

2 ـ لا لتأليه الأشخاص :

الطاعة في المعروف ، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم صلى على أصحابه القتلى من الرماة ، الذين عصوه في أحد ، قال كتاب السيرة : لأنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، وهذه القصة وردت في البخاري ومسلم ، لو اقتحمتموها لازلتم في إلى يوم القيامة ، الذي يعلم الناس ينبغي أن يعطيهم منهج البحث .

سيدنا الصديق قال : << أطيعوني ما أطعت الله ، يعني راقبوني ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم>>.

أنا أذكر هذا لئلا يؤخذ الناس أحياناً بتأليه شخص لا يحكمون عقولهم فيما يأمرهم وينهاهم ، هذا يقع في بعض الحلقات أحياناً ، في بعض الجماعات ، يعطل العقل عندهم ، لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة ، إنما الطاعة في معروف .

حينما يكون العقل يقظاً ، والنص صحيحاً ، وهما في الأصل متوافقان نكون في خطى سريعة نحو التقدم ، إذا كان العقل منضبطاً ، وكان النص صحيحاً يتكاملان كما تفضلتم في الحلقة السابقة .

لكن أضرب بعض الأمثلة ، يقول ابن القيم رحمه الله ، والذي سميت هذه الحلقة بكلمة له مأثورة ، يقول : " لو أنك اطلعت على نص ينبئ أن الله يضع أعداءه الذين ناصبوه العداء طوال حياتهم في الجنة، وأن أولياءه الذي أفنوا حياتهم في طاعته في النار ، هكذا ورد في النص ، وكلا الأمرين عندك سواء ، ولا تعرف صحة أحدهما من الآخر إلا بدلائل صحة النص ، قال : فأنت لا تعرف الله ، لا تعرف الله إطلاقاً " .

أنا أردت أن اشرح هذا بمثل : إنسان مقيم بدمشق سافر إلى أمريكا ، دخل إلى أعظم جامعة في واشنطن ، دخل إلى قسم الجغرافيا ، اطلع على أكبر أطلس ألفه عشرون دكتورا ، يحمل أعلى شهادة ، فتح على الشرق الأوسط فإذا دمشق فوق بيروت ، وهو ابن دمشق ، وعلى الساحل ، هذا الخبر لا يقبله، ولو كان ألف دكتور ألف الأطلس .

3 ـ قد يكون الواقع أقوى من النص :

أحيانا يكون الواقع أقوى من أي نص ، ما لم يكن وحياً طبعاً ، مستحيل الوحيان الكتاب وما صح من السنة ، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يناقض الواقع ، ولكن الواقع أحياناً أكبر من أي نص لم نتأكد من صحته .

فكما أنني ابن دمشق ، حينما أذهب إلى بلاد بعيدة جداً ، وأرى أكبر مرجع في الجغرافيا ، وأرى مدينتي على الساحل لا أصدق كذلك ، وهذا الذي خلق السماوات والأرض أسماءه كلها حسنة ، صفاته كلها فضلى ، عدل مطلق ، كمال مطلق ، رحمة مطلقة ، عدل مطلق ، عطف مطلق ، يضع عباده الذين ناصبوه العداء طوال الحياة في الجنة ، وأولياءه في النار ، قال تعالى :

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي ، عن أبي الدرداء]

" خيري إلى العباد نازل ، شرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليه ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شركي أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها " .

[ورد في الأثر]

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف الآية : 58)

أما أنت يا محمد فأرحم الخلق بالخلق .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط :

هناك فكرة دقيقة جداً ، الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي ، وتعمدت أن أصف كل كلمة بصفة ، قلت: النقل الصحيح ، لأن هناك نقلاً غير صحيح ، وقلت : العقل الصريح ، لأن هناك عقلاً تبريرياً ، تخرج من جلدك حينما تسمعه ، قتل ، وسلب ، ونهب ثروات ، وإذلال ، وحرية ، من أجل الحرية ، هذا عقل تبريري ، ساقط عند الله ، وعند الناس .

فالعقل صريح ، والنقل صحيح ، والفطرة سليمة لم تنطمس ، والواقع موضوعي ليس مزوراً ، فحينما يأتي النص الصحيح حتماً يجب أن يوافق الواقع ، لأن الواقع خلقه ، والنص كلامه ، والفطرة مقياسه ، والوحي كلامه ، هذه كلها من عند الله عز وجل .

أنا أريد هذا التلاؤم ، والتلاقي ، والتوافق ، بين معطيات العقل ، ومعطيات النقل ، فإذاً : حينما يكون الواقع مناقضاً لنص الواقع أقوى ، أما حينما يكون العقل مناقضاً للنقل ، فالنقل أقوى ، إذا ناقض العقلُ النقلَ فالعقل محدود بواقع ، فالنقل أقوى ـ أما إذا كان الواقع يناقض النص ـ النص العادي لا يرقى به إلى مستوى النص الصحيح ، لا نرقى به إلى النقل الصحيح .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، هل يرفع الواقع النص العادي إلى ثبوتية أعلى إن صح التعبير ؟

هل يرفع الواقع النص العادي إلى ثبوتية أعلى ؟

الدكتور راتب :

والله هذا الكلام من بعض الجوانب مقبول ، أحياناً الناس يستمرؤون معصية معينة ، وتشيع هذه المعصية لدرجة أنها تصبح هي الأصل ، فإذا جاء الوحي بنص آخر ينهى عن هذه المعصية ، أنا لا أستطيع أن أجعل شيوع هذه المعصية ، أو أنّ الناس ألفوا هذه المخالفة ، أو أن الناس أصبحت عندهم عادة ، فأن أعدّ هذا الواقع الذي هو في الأصل مخالف للنص الثابت الوحي ، مع نص الوحي أنا أعطل عقلي .

أنت مع طبيب ، ويحمل شهادة (البورد)، وله مكانة كبيرة ، ولك ثقة بإيمانه ، وورعه واستقامته ، وعمله ، وتفوقه لا تناقشه أبداً .

أما مع الوحي ، الوحي من عند الخبير ، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع توجيهاتها ، لذلك بعضهم قال : علّةُ أي أمر أنه أمر .

أنا لا أنسى كلمتين : الأولى : إنسانة دكتورة في الجامعة في مصر كانت في برنامج في إذاعة بريطانية حول التعدد ، فسُئلت عن رأيها في التعدد ، والأنثى لها موقف معروف من التعدد ، فقالت :

كيف أدلي برأي في التعدد وقد سمح الله به ؟

الله الذي خلق الكون ، وأبدع هذا الكون هذا كلامه .

الموقف الثاني الذي أحب أن أذكره : أن عالماً مسلماً ذهب إلى بلاد بعيدة ، والتقى بعالم بأعلى درجة من العلم هداه الله إلى الإسلام ، وطُرح موضوع لحم الجنزير ، فهذا العالم المشرقي تحدث عن مضار لحم الخنزير ، وعن الدودة الشريطية ، وعن ، وعن ، وعن ، ساعة ، فكان جواب العالم الآخر أنْ قال له : يكفي أن تقول لي : إن الله حرمه ، وانتهى الأمر .

1 – النص بين المعنى الاحتمالي والمعاني المتعدِّدة المقصودة :

حينما نرى نصاً من الوحيين ، القرآن قطعي الثبوت ، وبعضه قطعي الدلالة ، وبعضه قطعي الثبوت ، وهذا ينقلنا إلى أن النص القطعي في دلالته يغطي الثوابت في الإنسان ، وإلى أن النص الظني في دلالته يغطي المتغيرات في الإنسان ، لكنني أنا كمتكلم أحياناً أستخدم نصًّا احتماليا ، بالضبط كما لو قلت : أعطِ فلاناً 1500 درهم ، هذا النص قطعي الدلالة ، لا يحتاج لا إلى مفسر ، ولا إلى فقيه ، ولا إلى مجتهد ، أما لو قلت : أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه ، هنا مشكلة ، هذه الهاء على من تعود ؟ على الدرهم أن على الألف ؟ .

هذه قضية احتمالية ، أنا حينما أستخدم نصاً احتمالياً أنا أقصد معناً واحداً في هذا النص الفضفاض ، لذلك كلما صدر قانون تؤلّف لجان لتحديد مفهومات القانون ، قد يكون العبارة فضفاضة تحتمل معاني كثيرة ، يأتي المفسر ويضع معنى محدد .

لكن خالق الكون حينما يأتي في كلامه نص احتمالي يحتمل معاني كثيرة فقد أراد كل المعاني لتغطي كل المتغيرات ، وكل البيئات ، وكل الأزمات .

جاء :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ)

(سورة النور الآية : 56)

لو أعطيت إنسانا في دمشق كيسَ قمح ماذا يفعل به ؟ أين يغسله ؟ أين يطحنه ؟ أين يخبزه ؟ الإنسان في دمشق يعطى مبلغاً من المال ، أما الإنسان في الريف فالطاحونة جاهزة ، والتنور جاهز ، وهذا الكيس يكفيه سنة للخبز ، فأحياناً تقدم الزكاة عيناً في بيئة ، ونقداً في بيئة ثانية ، قال تعالى :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ)

ترك الموضوع احتمالي ، فلما يكون الإله النص في كلامه الله وكلام نبيه احتماليا يقصد به كل المعاني التي تغطي كل المتغيرات .

2 – الجانب الاجتهادي المسموح به :

هناك ملمح آخر دقيق جداً ، الحقيقة هناك حديث شريف حير العلماء :

((خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ))

[رواه حيى بن جعفر عن أبي هريرة]

من أجمل ما قرأت عن هذا الحديث أن لكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض صفاته ، فالله عز وجل فرد ، لذلك الإنسان بقزحية عينه فرد ، في الستة آلاف مليون إنسان كلّ فرد برائحة جلده ، بنبرة صوته، بصمة إصبعه ، بزمرته النسيجية ، فالفردية واضحة تماما ، والآن في بعض البحوث الحديثة بنطفته فرد .

الآن الإنسان لكرامته عند الله سمح له أن يشرع ، فجعل بعض النصوص ظنية الدلالة ، تحتاج إلى مجتهدين ، وكان من الممكن أن تكون كل النصوص قطعية الدلالة ، لا نحتاج لا إلى مفسّر ، ولا إلى عالم ، لكن لحكمة أرادها الله عز وجل سمح للإنسان أن يجتهد ، وقد قبل الله منا أن نعبده باجتهاد المجتهدين ، طبعاً في للاجتهاد ضوابط دقيقة جداً .

الآن : الله عز وجل مريد ، والإنسان أعطاه حرية الإرادة ، والإنسان مخيَّر .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

إذاً : الإنسان فرد ، ومبدئ ، ومشرع ، ومخير ، مبدع عن طريق الجينات ، الآن هناك وردة سوداء ، هناك فواكه مأخوذة من أصناف متباينة ، فالله عز وجل لكرامة الإنسان عند الله ، لأنه قبل حمل الأمانة سخر له ما في السماوات وما في الأرض ، وسمح له أن يكون فرداً ، وأن يكون مريداً ، وأن يكون

مبدعاً ، وأن يكون مشرعاً ، وقد قبل الله أن نعبده باجتهاد المجتهدين ، أليس هناك مذاهب في الفقه ؟ أنا حنفي ، وأنا شافعي ، وأنا مالكي ، وأنا حنبلي ، هذا اجتهاد المجتهدين ، وكل مجتهد معه دليل . فلذلك هذا الدين دين فيه أصالة ، وهو يصلح لكل زمان ومكان .

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 59)

من أجمل ما قاله الإمام الشافعي عن أولي الأمر قال : " العلماء والأمراء "، معاً العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر ، يتكاملان .

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

معهم :

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ)

في قرآنه :

(وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء الآية : 51)

في سنته ، أن يرجعك الله إلى أصلين ، وتجد فيهما بغيتك ، أيعقل أن يخلو هذا الدين من تشريعات مع الأزمنة المتجددة ، مع التطورات الهائلة ، إنه دين الله .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة الآية : 3)

أنا قبل أسبوع ألقيت كلمة في مؤتمر البيئة ، الشيء المدهش ، وشيء لا يصدق أن تجد في ديننا كمًّا كبيرا من التوجيهات القرآنية والنبوية للحفاظ على البيئة ، فنحن عندنا عقدة نقص ، كل شيء يأتينا من الغرب نعجب به أشد الإعجاب .

العقل هو أداة معرفة الله عز وجل ، وهذا الكون الذي تحدثنا عنه سابقاً كله ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، والآن نشاهد مقطعا من فيلم علمي عن طائر البطريق بعيش في القطب الجنوبي .

الأستاذ علاء :

نتابع مع السادة المشاهدين ، ونود من حضرتك أن تشرح عن ما يحتفظ به ، وما مكان الله هذا الطائر من خلال وصفات .

الموضوع العلمي : طائر البطريق :

الدكتور راتب :

1 – أين يعيش البطريق ؟

القطب الجنوبي أبرد منطقة في العالم ، يبقى الشتاء فيها ستة أشهر ، وتربية الصغير في بيئة صعبة كهذه البيئة ، التي تحتاج إلى تضحية كبيرة يصعب تخيلها .

2 – رحلات البطريق مشيًا :

تقوم هذه البطاريق في رحلة إلى المكان الذي سيتحقق فيه اللقاء الكبير ، تستمر هذه الرحلة أسابيع عديدة ، والمسافة التي تقطعها أكثر من مئة كيلومتر ، تقطعها مشياً كما ترون ، وزحفاً كما ترون ، لهذا السبب تقطع طريقها مشياً أحياناً ، وبالتزحلق على بطنها أحياناً أخرى ، تمشي جميعها إلى الجهة نفسها بشكل معجز .

في نهاية هذه الرحلة ستلتقي آلاف البطارقة في مكان معين بشكل محير .

3 – الهدف من رحلة البطريق اللقاءُ الزوجي :

لهذا اللقاء هدف كبير جداً ، لأن هذه المنطقة التي سوف يصلون إليها يتحقق فيها اللقاء الكبير ، وفي هذا المكان ستولد فيه صغارها ، هذه الرحلة الشاقة هي بداية المصاعب التي تواجهها والتضحيات التي تقوم بها ، والصعوبة الأساسية تبدأ بعد وضع الأنثى بيضها ، لأنه بعد وضع الأنثى بيضها بفترة قصيرة يهجم الشتاء ، الحرارة في هذا الشتاء تنخفض إلى خمسين درجة تحت الصفر ، وتهب رياح حاملة معها الثلج والبرد بسرعة مئة كيلومتر في الساعة .

4 – وضعُ البيض وطريقة حمايتها وحضانتها :

الشيء العجيب أن هذه الإناث تترك البيض عند الذكور ، وتعود إلى البحر ، كي تصطاد لهذه البيضة بعد أن تخرج من البيضة ، وتوكل مهمة حضن البيض للذكور المضحية يجتمع البطارقة هكذا ، بآلاف مؤلفة ، وبدرجة حرارة خمسين تحت الصفر ، يضع البطريق البيضة على رجليه ، ويغمرها بفروته ، فلو أن البيضة وقعت على الأرض لمات ما فيها فوراً التضحية التي تقوم بها تجتاز حدود الخيال .

والبطاريق هؤلاء لا تتغذى أبداً طوال أربعة أشهر ، ولا تدع البيوض تصل إلى الأرض لحظة واحدة، يمشي مشية خاصة ، لأن البيضة على رجليه ، وقد غلفت بفروته ، بل تبقى واقفة لأجلها على الدوام ، أربعة أشهر لا تأكل ولا تشرب حفاظاً على البيضة والحرارة خمسين تحت الصفر ، والرياح سرعتها مئة كيلومتر ، وتحمل معها الثلج والبرد .

5 – الصعوبات التي تلاقيها البطاريق في العيش :

تصطف البطاريق على شكل دائري ، كي تحتمي من الرياح القاسية ، كل ما تستطيع فعله خلال الشتاء هو الصبر .

بعد الأشهر الأربعة الصعبة يبدأ الربيع مرة أخرى ، فالبيوض تفقس ، علامات الأزهار في القطب الجنوبي ، الآن البيوض فقست ، وفتحت الصغار أعينها إلى الدنيا حديثاً وما زالت على أقدام آبائها حتى الآن لعدم تكون الطبقة الدهنية التي تحميها من البرد ، الشيء العجيب أن أول غذاء يتلقاه هذا الصغير غذاء محفوظ في حوصلة أبيه من أربعة أشهر ، وأبوه في أشد الحاجة إلى الغذاء ، ويؤثر ابنه على نفسه ، وهذه تعلمنا دروساً في رعاية الأبناء .

6 – عودة إناث البطاريق من البحر إلى البر :

الآن تعود الإناث إلى الأرض ، كانوا في البحر أربعة أشهر ليجمعوا الصيد لصغيرهم ، في هذه الفترة ترجع الأنثى من البحر الواسع إلى الشاطئ لم تبقَ أيضاً هي بلا عمل طوال أربعة أشهر ، بل كانت تخزن الغذاء في حواصلها لأجل الصغار لاصطياد المستمر ، وبمجرد رجوع الإناث تسرع ذكور البطريق التي صبرت على الجوع أشهر إلى البحر ، الآن الذكور تنزل في البحر بالتناوب ، بقيت بلا طعام أربعة أشهر ، وبمجرد إشباع ذكور البطريق ترجع إلى العش ، وتتابع تربية الصغار مع الأم .

7 – نمو صغار البطاريق :

بعد مدة قصيرة تنمو صغار البطريق ، الصغير نما ، وصار قريب من أمه ، وتصل إلى حجم تستطيع التنزه مع آبائها المضحية ، لا يأكل البطريق الأب طوال أربعة أشهر لأجل صغاره ، يبقى واقفاً باستمرار كي لا تمس البيوض الأرض لحظة واحدة .

الغايةُ من التفكر في السماوات والأرض :

التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق لمعرفة الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأنه يضعك وجها إلى وجه أمام عظمة الله .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

لأننا في موضوع العقل ، العقل أداة معرفة الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (17-95) - مقومات التكليف : الفطرة - الفطرة وخصائص النفس ـ حيوان القندس
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد تحدثنا في كل مقومات التكليف ، وبسطنا لها حلقات كثيرة ، تناولنا الكون بتفصيلاته ، وجزئياته، كمؤثر ومقوم من مقومات التكليف ، وتحدثنا عن العقل ، وأيضاً بسطنا له الكثير من المجال، الآن نحط رحالنا عند الفطرة .

من مقومات التكليف : الفطرة :

1 – الأدلة القرآنية على الفطرة :

واسمح لي أن أذكر ببعض الشواهد من القرآن الكريم ، ومن أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، هذه الفطرة التي أوجد الله الإنسان عليها ، ونحن نستخدم كلمة فطره الله على كذا ، أوجد الفطرة هي سمو الجبلة ، أو ما أوجد الله عليه هذا الكائن المكرم ، مثلاً الله عز وجل يقول :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

وأيضاً في موضع آخر يقول تعالى :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم)

ويقول تعالى :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

ثم ويقول تعالى في موضع آخر من كتابه الكريم :

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

2 ـ الأدلة الحديثية على الفطرة :

والنبي عليه الصلاة والسلام أورد من الكثير من الأحاديث الصحيحة في هذا المجال ، حيث قال عليه الصلاة والسلام :

((البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))

[أخرجه البخاري وصحيح مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان]

وفي موضوع الجبلة والفطرة سوف نأتي عليها في حديثكم ، قبل كل شيء سيدي الكريم ما تعريف الفطرة ؟

مقدمات مهمة حول الفطرة :

المقدمة الأولى : الله واجب الوجود :

قبل أن أعرّف الفطرة أستاذ علاء ـ جزاك الله خيراً ـ ينبغي أن أقدم بمقدمة :

الله جل جلاله واجب الوجود ، وما سواه ممكن الوجود ، الكون كله سوى الله فواجب الوجود ، من هذا التعريف الجامع المانع موجود حتماً ـ يعني حتمية وجوده ـ وإنما ما سواه ممكن الوجود ، أي يمكن أن يوجد أو أن لا يوجد .

المقدمة الثانية : خصائص النفس البشرية :

شيء آخر ، فإذا وجد يمكن أن يكون على ما هو عليه ، أو على خلاف ما هو عليه ، أي أن الله خلق الأشياء وأعطاها خصائص ، فنحن ندرس في الطب خصائص الجسم ، حاجته إلى الماء ، إلى الهواء ، أجهزته كل خصائص الجسم معروفة عند علماء الطب ، ولكن هذا اللقاء الطيب يتوجه إلى خصائص النفس ، هذه النفس التي بين يدي الإنسان ، هذه النفس التي كرمها الله ، هذه النفس التي كلفها الله ، هذه النفس ، هذه النفس التي أعد الله لها جنة عرضها السماوات والأرض ، هذه النفس بادئ ذي بدء لا تموت ، لكنها تذوق الموت ، وفرق كبير بين أن تموت وأن تذوق الموت ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران : 185 ـ الأنبياء : 35 ـ العنكبوت : 57)

هذه النفس من خصائصها الكبرى : أنها تحب الكمال ، والجمال ، والنوال ، أي إنسان على وجه الأرض ، أي إنسان من الستة آلاف مليون ، هم سكان الأرض الآن يحب الكمال ، الكمال لو لم يصل إليه ، لو لم يكن متحلياً به ، لو لم يكن طرفاً به ، يحب الكمال المجرد ، أي عمل بطولي ، أي موقف فيه وفاء ، في نجدة ، فيه إنصاف ، في رحمة ، في حكمة ، هذا الموقف محبوب من قبل الخلق جميعاً .
وهذه الحلقة إن شاء الله سوف أبين القواسم المشتركة بين كل البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، ومذاهبهم ، وطوائفهم ـ من خلال خصائص النفس ـ طبعاً .

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(سورة النساء الآية : 1)

خصائصها واحدة ، إلى أي مكان ذهبت في العالم ، النفس تحب الإحسان وتكره الإساءة ، ورد في الأثر القدسي :

((داود ذكر عبادي إحساني ، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

هذا الدرس يعطينا حقيقة راسخة في التربية ، إن أراد الأب أن يحبه أبناءه فليكن محسناً لهم ، كل أب محترم في الثقافة الإسلامية ، لكن ما كل أب يُحب ، يُحب الأب بالإحسان ، إن أرد المعلم أن يحبه طلابه فليكن محسناً .

أحد كبار العلماء الإغريق سقراط التقى مع ولي أحد طلابه ، قال له : خذ ابنك عني فإنه لا يحبني .
فالحب أساس العلاقة بين المعلم والمتعلم ، وما من إنسان يقود مجموعة يجب أن يكون محبوباً ، والحب ثمنه الإحسان ، الإحسان قبل البيان ، قبل أن تتحدث ، قبل أن تخطب قبل أن تلقي كلمة ، قبل أن تلقي محاضرة ، قبل أن تلقي توجيه ، الإحسان قبل البيان ، لأن بالإحسان تملك القلوب ، وبعدها تنفتح العقول لكلامك ، بالإحسان تملك القلوب ، وبعدها تنفتح العقول لسماع بيانك .

إذاً من خصائص هذه النفس البشرية أنها تحب الكمال ، والكمال فكرة دقيقة جداً الإنسان غير الكامل يحب الكمال ، ليس شرطاً أن تكون أنت كاملاً ، أي إنسان ولو غارق في الانحرافات ، يحب الكمال ، لذلك قد نجد مفارقة عجيبة أن الذين ينحرفون يحبون لأولادهم الكمال ، يضعونهم في مدارس ، يتوهمون أنها في أعلى درجة من الكمال .

إذاً أن تحب الكمال جزء أساسي من فطرتك ، هذه خصيصة ، كيف أن جسمك يحتاج إلى هواء ، وكيف أن جسمك يحتاج إلى ماء ، وإلى طعام وشراب ، وإلى زوجة ، كذلك النفس تحب الكمال ، تهفو إليه ، تتأمله ، تعجب به ، تذوب محبة له ، الكمال والنوال ، النوال هو العطاء ، هناك من يعطي ، هناك من يأخذ ، إن أردت أن تلتف حولك الناس فكن معطاء ، الإنسان يحب العطاء ، ويكره أن يسلب

منه شيء ، وهذا درس بليغ لكل من يقود مجموعة ، أنت قيمتك في التاريخ البشري لا بقدر ما تأخذ ، بل بقدر ما تعطي .
لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء عاشوا للناس ، الأقوياء عاش الناس لهم ، وفرق كبير بين أن تعطي وبين أن تأخذ .
إذاً هذه النفس البشرية أنا لا أتصور إنساناً يستطيع أن يؤثر فيها إلا بخصائصها معرفة الخصائص يحتاجها الأب ، والمعلم ، مدير الجامعة ، مدير المستشفى ، مدير المؤسسة ، مدير معمل ، يحتاجها أي إنسان يقود مجموعة من البشر .

المذيع :

إذاً يجب أن يعرف كأرضية لحاضنة خصائص النفس لكي يتعامل مع الآخرين .

الأستاذ راتب :

ولذلك لو أن إنساناً بأعلى درجة من الذكاء قاد مجموعة لوجدناه يتطابق في سلوكه مع إنسان مؤمن ، لأن المؤمن قاده ذكاءه إلى هذه التصرفات ، لأن الإنسان غير المؤمن قاده ذكاءه ، والمؤمن قاده دينه إلى هذه التصرفات .

المذيع :

اختصر عليه الطريق .

الأستاذ راتب :

أبداً ، فلذلك أنت إذا أردت أن تقود الناس على مستوى معلم صف ، على مستوى مدرس ، على مستوى أستاذ بالجامعة ، على مستوى مدير معمل ، على مستوى مدير مؤسسة الإنسان يحب الكمال ، والكمال الإنصاف ، الرحمة ، الحكمة ، ويحب العطاء ، ينبغي أن تعطي قيمة الإنسان فيما يعطي لا فيما يأخذ ، لأن هذه الدنيا مزرعة الآخرة ، الإنسان في الدنيا يعطي ويأخذ في الآخرة ، وهناك أناس غُشيت أعينهم بالشهوات ، فبنوا حياتهم على الأخذ لا على العطاء .

المذيع :

سيدي أستوقفك هنا عند نقطة ، كما تفضلت بأن الإنسان يستصنع قيمته من خلال العطاء ، لا من خلال الأخذ ، هل هذا مرده إلى أنه يغالب شح نفسه فيقدم ، وفي حالة صراع إن صح التعبير لمغالبة هذه الزاوية الضعيفة في النفس وهي الشح ، وأن يتجاوز هذه النقطة وأن يتجاوز هذا النقطة وأن يقدم ، وأن يصبح كريماً معطاء جواداً.

في أصل فطرة الإنسان ضعفٌ خُلقي :

الأستاذ راتب :

إن شاء الله هذا الموضوع سيكون مفصلاً في الحلقة القامة إن شاء الله ، الإنسان لأن في أصل فطرته ضعف خلقي ، بهذا الضعف الخلقي يتقرب إلى ربه ، بهذا الضعف الخلقي يستطيع دخول الجنة :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

معنى هلوعا يعني مَنوعًا ، يستأثر بما عنده ، يمسك ما عنده ، لذلك إذا أراد إرضاء ربه يجب أن يبذل، ولذلك قيل : الطبع يتناقض مع التكليف ، وبهذا التناقض يكون ثمن الجنة ، فالإنسان يحب الكمال، ويحب النوال ، ويحب الجمال ، الجمال مطلب أساسي في حياة الإنسان ، والجمال من فطرة الإنسان ، لذلك الإنسان حينما يكون بيته جميلاً لا أقول : غالياً ، ولا فخماً ، بل جميل ، مرتب ، نظيفاً ، محله التجاري نظيف ، مرتب ، نظيف ، مركبته نظيفة ، ثيابه نظيفة ، يحب الجمال ، يحب الابتسامة ، يحب النظر الجميل ، يحب الإطلالة الجميلة ، هذا شيء من فطرة الإنسان .

المذيع :

سيدي هل تجتمع النفوس في كل هذه المعمورة على قواسم مشتركة ، في معايير الجمال ؟ أم معايير الجمال هي مختلفة ؟ يقولوا : أن الجمال نسبي .

القواسم المشتركة في النفوس من ناحية الجمال :

الأستاذ راتب :

أنا أرى أن هناك قاسم مشترك بين كل البشر ، في محبتهم للجمال ، وهناك فروق فردية في التفاصيل ليست في أصل هذه القواسم ، هذا هو الجواب الدقيق ، إذاً يحب الإنسان الجمال ، يحب الكمال ، يحب النوال ، الإنسان يقدّر القوي ، القوي مقدر محترم ، ويقدر الغني .

الخصائص البشرية حيادية :

شيء آخر ، الإنسان يتمنى ما عند الآخرين ، هناك فكرة خطيرة جداً ؛ أن هذه الخصائص حيادية ، معنى حيادية يمكن أن تكون سلّماً نرقى به ، أو دركات نهي بها ، كيف هي حيادية ؟ أنا أتمنى ما عند الآخرين ، لو أن هذا الإنسان أمامي تفوق في العلم ، فأحد أسباب سعيّ إلى العلم أنني غرت منه ، هذا الجانب الإيجابي طبعاً ، الإنسان يتمنى أن يكون أخلاقياً كصديقه فلان ، يتمنى أن يكون متفوقاً في العلم

كزميله فلان ، فهذه خصيصة حيادية يمكن أن تكون سلماً أبلغ به أعلى عليين ، ويمكن أن تكون دركات أهوي بها إلى أسفل سافلين .

أنا حينما أتمنى انحرافاً أخلاقياً ، وحينما أتمنى ما أراه من سقوط في وحل المعصية والآثام ، فهي خصيصة حيادية توظف في الخير ، وتوظف في الشر .

المذيع :

هل في هذه الخصيصة عند الإنسان مما أودع الله في نفس البشر ؛ أن يتمنى ما عند الناس ، أن يشتهي أن يكون مثل الذي هو أفضل منه ، في تصوره ، لكن المسألة لها طريقان ، إما أن يتشبه بالذي كان قد انحرف ، أو بالذي كان قد في مواضع الخير والعطاء .

الأستاذ راتب :

القدوة وأثرها في النفس :

سأعزز هذه المقولة التي تفضلتم بها بقوله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

فالذي يرجو الله واليوم الآخر قدوته الأنبياء والمرسلون ، الأصحاب الكرام المتفوقون ، المؤمنون ، الأبطال ، الرحماء ، المنصفون ، يسعى إليهم ، والذي يتمنى الدنيا فقط قدوته الأغنياء المترفون ، الذين لم يعبؤون لا بقيمة ولا بمنهج ، ولا بمبدأ ، قل لي ما تتمناه أقل لك من أنت ، هذه حقيقة .

المذيع :

إذاً سيدي هنالك في خصائص النفس الحيادية كما تفضلت أن يتمنى ما عند الغير ، لكن هنالك قضية الشرع ميز في شقيها ، قضية الغبطة وقضية الحسد .

الإنسان بين الغبطة والحسد :

الأستاذ راتب :

لذلك قال عليه الصلاة والسلام وهو يعني الغبطة :

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ : رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ))

[البخاري عن ابن عُمَرَ]

الحقيقة أن تتمنى ما عند الآخرين هذه حقيقة ، لكنها لا تقيم لا بالخير ولا للشر ، بل تقيم بطريقة توجهها ، أنا أتوجه إلى بطل ، فأنا أتمنى أن أكون مثله ، هذه بطولة ، وهذه إحدى البواعث الراقية بالإنسان .

المذيع :

ولكن لا أتمنى أن تزول عنه هذه الصفاة .

الأستاذ راتب :

الحسد : ماهيته ومجالاته ومراتبه :

الآن لو دخلنا إلى شق آخر شق فقهي : الحسد في أمور الدنيا لا في أمور الآخرة ، في أمور المكاسب لا في أمور العلم ، في أمور العطاءات المادية ، لا في أمور العطاءات الروحية .

هذا الحسد ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى :

المرتبة الأولى أن تتمنى أن تزول هذه النعمة عن أخيك وتأتي إليك ، هذا أبسط أنواع الحسد ، الحسد : أن تزول هذه النعمة عن أخيك وتأتي إليك .

المرتبة الثانية :

والأسوأ منها أن تتمنى أن تزول هذه النعمة عن أخيك دون أن تأتي إليك ، من أجل أن تشمت به فقط ، دون أن تأتي إليك ـ هذا الحسد الأسود ـ الأسوأ والأسود.

وفي حسد أسوأ وأسوأ بأول مستوى تمني ، والثاني تمني .

المرتبة الثالثة :

أن تشي به ، أن تكتب فيه تقريرا ، أن تفسد عليه علاقته مع من هو ينتفع منه ، الثالثة جريمة .

الأولى صفة خسيسة ، لكن لا ترقى إلى الثانية ، الثانية أن تزول عنه من دون أن تصل إليك ، لمجرد أن تزول عنه يرتاح الإنسان ، أما الثالثة فأن أسعى بجهد ، بكيد ، بمكر ، بخداع ، بوشاية ـ بتشويه صورته ـ لذلك كأن الحسد اختص بأمور الدنيا ، بالمكاسب المادية بالمراتب الإدارية فرضاً ، ما عند

الناس من متع من أشياء ، أما الغبطة فتتعلق بأعمال الآخرة ، تتعلق بالعلم ، تتعلق بالبطولة ، وكل إنسان يتمنى أن يكون بطلاً .

المذيع :

سيدي الكريم ، نحن تعرفنا على خصائص الفطرة ، أو خصائص النفس من خلال ما قدمت ، بقي قبل أن ننتقل إلى الجانب العلمي في حلقتنا ، أن نعرف الفطرة للناس .

ما هي الفطرة ؟

الأستاذ راتب :

الفطرة ؛ جبلة جبل الناس عليها ، تتوق إلى الكمال ، والجمال ، والنوال :

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية : 30)

تتوق إلى الكمال ، والجمال ، والنوال ، في أدق تعريفاتها ، وهناك أدلة قرآنية وأدلة نبوية .

المذيع :

هل المخلوقات غير الإنسان من خلال الفطرة ربها يرشدها إلى مسائل ، أحياناً لا يقدر عليها الإنسان؟.

هل في المخلوقات الأخرى فطرة تقوم عليها أفعالهم ؟

الأستاذ راتب :

أعط قطة قطعة لحم تأكلها أمامك ، لو أنها خطفتها تأكلها بعيدة عنك ، هذه الفطرة .

المذيع :

وما يقوم المخلوقات من أعمال ، أعمال إعمار في عالم النمل ، في عالم النحل في عوالم البحار ، تأتيهم من خلال الفطرة ؟

الأستاذ راتب :

حيوان القندس آية في الفطرة :

نعم ، وسوف نرى الآن شيء لا يصدق عن حيوان اسمه القندس ، يقوم بأعمال بأعلى درجة من الذكاء والخبرة ، فالقندس معماري بارع ، بل يرقى إلى مستوى أكبر المهندسين ، هذا القندس يبني بيته

في ماء راكد ، فإن وجد ماء جاري كهذا الماء الذي يجري أمامنا لا بد من أن ينشئ سداً ، يجعله بحيرة تمهيداً لبناء بيت بهذا الماء ، الآية الدقيقة :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

هداه على مصالح ، هداه إلى حاجاته ، هذا القندس يقطع الشجر ليجعل منه سداً يحول الجدول من الماء إلى بركة هادئة ساكنة ، وقد زوده الله وقبل أن يقطع الأشجار يتغذى على أوراق الأشجار كما نرى في هذا الفيلم ، بعدئذٍ يتجه إلى جذوع الأشجار ، ويقضمها بأسنان صممت خصيصى كي تقضم الأشجار كما نرى تماماً ، أسنان القندس تنمو باستمرار ، لأن أكثر شيء يستهلكه أسنانه ، لكن الشيء الذي لا يصدق أنه في أثناء قضم هذه الأشجار يجعل بطريقة معقدة جداً تنحدر نحو الماء باتجاه الماء ، كما انحدرت الشجرة ـ تهوي الشجرة باتجاه الماء لا باتجاه الآخر ، لأنه لا يستطيع أن يجرها ـ هو يجرها ، لكن هو يوفر الوقت والجهد ، الآن انحدرت نحو الماء ، القندس يسبح في الماء سباحة راقية جداً عنده قوائم ليس فيها فرق بين أصابعه كالبطة تماماً ، وعنده مجداف في ذيله ، مجداف كبير جداً ، هو الآن يأخذ هذه الشجرة ، أولاً يأخذ منها أغصانها ، وينقلها إلى مكان السد ، ثم يأخذ جذع الشجرة ، ويضعه هنا ، الشيء الذي نراه يفوق حد الخيال ، حيوان ليس عنده عقل ، ولكن لأن الله فطره هكذا ، الآن يضع هذه الجذوع في أماكنها ، ويتابع العمل .

أستاذ علاء ، القندس مع زوجته يقطعان في العام 400 شجرة ، في العام الواحد من أجل تشكيل سدود، تحول الجداول إلى برك ساكنة ، تمهيداً لإنشاء البيت ، طبعاً هذه الشجرة بعيدة عن الماء ، مالت إلى الأرض ، الآن يقطع أغصانها ، ويأخذ هذه الأغصان لتعينه على تشكيل السد ، ثم يسحب جذعها ، هو وزوجته فقط ، بعد قليل نرى هذا الجدول أصبح بركة ماء ساكنة ، أما الشيء الذي يلفت النظر أن أسنان القندس تنمو باستمرار .

قد يفوق الحيوان ببعض خصائصه الإنسانَ :

أنا لي ملاحظة : أحياناً الحيوان يفوق ببعض خصائصه الإنسان ، فقد يرى 8 أمثال الإنسان ، والكلب يشم مليون ضعف عن شم الإنسان :

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

التكليف أرقى خصائص الإنسان :

الحقيقة أن خصائص المخلوقات شيء مدهش ، الله عز وجل خلق المخلوقات ، وأعطاها خصائص ، إلا أن الإنسان مكلف ، والتكليف أرقى هذه الخصائص ، مكلف أن يعرفه ، وأن يعرف منهجه ، وأن يستقيم على أمره ، وأن يسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

الحيوان له عالم آخر ، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " رُكِبَ المَلَك من عقل بلا شهوة ، ورُكِبَ الحيوان من شهوة بلا عقل ، ورُكِبَ الإنسان من كليهما ، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان " .

شيء آخر ، تسبح هذه القنادس في الماء سباحة بدقة بالغة ، وتعيش في البر لكن الشيء الغريب أن بيتها يجب أن يبنى في الماء الراكد وهو فوق الماء ، مدخله الوحيد من الماء ، وكأنها في حصن حصين ، مدخل البيت من الماء ، أما هو فوق الماء ، بعد قليل نرى هذا البيت .

شيء آخر : بعد نشاط يدوم أشهراً هذا السد قد يكلف القندس عدة شهور لبنائه ليأتي جذوع الأشجار ، مع أغصان الأشجار ويضعها فوق بعضها منسقاً ، من حين لآخر يصحح بعض ما فعله في الحين الماضي حتى يكون السد منيعاً ومحكماً ، وهو يفعل هذا بتصوير طبيعي .

المذيع :

وهو يعرف أن ضغط الماء في الأسفل يكون أكثر من ضغط الماء في الأعلى لذلك تكون الكمية والسماكة في الأسفل أكبر .

الأستاذ راتب :

لكن شيء آخر ـ لقد تعلم الإنسان بناء السدود من القندس ـ أما الآن فنرى سداً صنعه الإنسان متوافقا تماماً مع السد الذي صنعه القندس ، الإنسان يحمل دكتوراه بالهندسة ، وعنده علم مكانيك التربة ، وعنده خصائص المياه ، وضغوط المياه ، نظرة إلى هذا السد الذي صنعه القندس يطابق تماماً السد الذي صنعه الإنسان ، إذاً الآية مرة ثانية :

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

هذه القنادس ملهمة منذ ولادتها على أن تبني هذه السدود ، مجهزة بأسنان تنمو باستمرار ، وهذا شيء ليس سهلاً ؛ أن تنمو الأسنان باستمرار .

أستاذ علاء ، هناك مخلوقات لو قطعت يدها تنمو لها يد أخرى ، وهذا فوق طاقة البشر ، هناك بعض الديدان لو قطعتها نصفين ينمو نصفها الأول الذي فيه الرأس ذنباً ، وينمو الذنب الذي بغير الرأس رأساً.

إذاً هذا يبين قدرة الله عز وجل ، هذا بيت القندس ، البيت فوق الماء لكن مدخله من تحت الماء ، ليكون في حماية ـ يعني الفوهة من تحت الماء ـ وعنده في البيت عدة غرف ، وحاجاته مؤمنة ، ويعيش حياة هادئة وديعة مع أهله .

لذلك مرة سأل ملك وزيره من الملك ؟ قال : أنت ، قال : لا الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ومسكن يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإنا إن عرفناه جهدنا في إحراجه .

الآن هذا السد مقعر من الداخل ، تماماً كما يفعل القندس ، هذا من آيات الله الدالة على عظمته ، وقد قال الله عز وجل :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

هذا الإله العظيم يعصى ؟ هذا الإله العظيم يُكفر ؟ ألا تبتغى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

((يا ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

الحقيقة أنه في الأرض آيات لمن أراد اليقين ، أنا أرى أن التفكر في خلق السماوات والأرض ، هو أوسع باب ندخل منه على الله ، وأقصر طريق إلى الله .

إن في خلق السموات والأرض آيات :

المذيع :

هنا بعض مشاهد من هذا السد ؟

الأستاذ راتب :

نعم هذه بعض مشاهد من هذا السد الذي صنعه القندس .

المذيع :

لاحظ سيدي حتى جعل له أماكن لتفريغ المياه ، وتخفيف ضغط المياه حتى لا تأخذ المياه هذا السد في طريقها نتيجة حالة الضغط والانجراف .

الأستاذ راتب :

والآية الدقيقة في هذا الموضوع :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران الآية : 190)

هذا بيته من الداخل ، هنا يدخل من الماء إلى بيته ، وفي عنده عدة غرف في بيته طبعاً متى بنى هذا البيت ؟ بعد أن أقام هذا السد ، والسد يحتاج إلى أربعة أشهر ، ويحتاج إلى عدد كبير من الأشجار يقطعاها بأسنانه ، الله عز وجل يقول :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 1)

يدعونا الله إلى أن نعرفه ، هذا القندس .

المذيع :

إذاً من خلال ما شاهدناه ، ومن خلال هذه الوثائق التي سجلتها كاميرا الإنسان تتلمس فيها القدرة والعظمة لله عز وجل في مخلوقاته التي تكون دون البشر ، فيكيف ألهم هذا القندس لكي يبني هذا البناء المحكم ؟

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

الأستاذ راتب ، آخر كلمة :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون الآية : 115)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (18-95) - مقومات التكليف : الفطرة - منهج الله عز وجل متطابق مع الفطرة ـ الجنين في بطن أمه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-02-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد بحثنا في حلقات ماضية مقومات التكليف ، ووصلنا إلى الفطرة ، وبدأتم بالفطرة ، فعرفتم الفطرة ، وخصائص الفطرة ، خصائص النفس كما للجسد خصائص ، فإن للنفس خصائص .
الآن الحقيقة ، وكنا قد وعدنا السادة المشاهدين أن نتحدث في هذه الحلقة عن الخواطر الضعيفة في الإنسان التي من خلالها يتقرب إلى ربه ، ومن خلالها يرتقي ، ومن خلالها سدها ، وجبرها ، ومن خلال مغالبتها يرتفع مقامه عند الله عز وجل ، لكن يبدو لي أن ما بدأناه في الفطرة يحتاج إلى إكمال ، وإلى هذه الحلقة حيث نقف هذه الحلقة بعد ما بسطت أستاذي الدكتور في مسائل خصائص النفس ، الآن نود أن نقف عند التوافق بين خصائص النفس البشرية ومنهج الله عز وجل ، كيف يكون هذا الاتساق ؟ هذا التوافق ، وكيف يصبح الإنسان في موضع وفي ساحة الاختلال .

التوافق بين خصائص النفس البشرية ومنهج الله عز وجل :

الدكتور :
أبدأ بمثل : هناك خارطات لسوريا بلاستكية نافرة ، مجسمة ، لو أحطناها بإطار خشبي ، وصببنا فوقها الجبصين السائل ، وبعد جفاف الجبصين نجد قالبا مطابقا تماماً 100 % على مستوى معشار الميلي بين القالب والأصل .
أنا أعتقد ، ومعي أدلة أن منهج الله عز وجل متطابق مع الفطرة تطابقا تاماً ، فسواء أعصى الإنسان ربه في بند من بنود المنهج ، أو خرج عن مبادئ فطرته ، تعاقبه فطرته بحالة نفسية متعبة جداً ، هي الكآبة ، ولأن الناس توسعوا في الخروج عن منهج الله ، وعن مبادئ فطرتهم السامية ، المرض الأول في العالم هو الكآبة ، هناك من يعالج نفسه عدة مرات من الكآبة ، بل إن بعض الأطباء النفسيين يعالجون عند زملائهم من الكآبة ، لأن الكآبة مرض العصر .

لذلك لما ألّف كتاب في أمريكا " دع القلق وابدأ الحياة " ، من شدة القلق الذي ينتاب النفوس من بُعدهم عن ربهم ، أو بُعدهم عن مبادئ فطرتهم ، الطبعة الأولى خمسة ملايين نسخة ، وقد نفذت ، هناك قلق عام .

الإنسان مبادئ فطرته كبنود منهج ربه تماماً ، الله عز وجل أمرنا بالصدق ، فإذا كذب فيحتقر ذاته ، ويشعر بالصغار ، ويشعر بالذنب ، ويتألم ، ويكتئب .

المذيع :

هذا الذي نقول له الرض ؟

الرضّ النفسي عقاب الفطرة :

الدكتور :

بالضبط ، الرض النفسي عقاب الفطرة ، فحينما يطيع الإنسان الله يطمئن قلبه ، قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

وحينما يصطلح مع ربه يصطلح مع نفسه ، وحينما يطبق منهج ربه يعطي نفسه السكينة ، والسعادة ، لذلك قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا)

وحدهم ، الدليل :

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

(سورة الأنعام الآية : 81)

لم يقل الله : أولئك الأمن لهم ، لو قال : الأمن لهم لكان الأمن لهم ولغيرهم ، ولكنه قال :

(لَهُمُ الْأَمْنُ)

وحدهم ، خصهم بالأمن ، فأنت من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف المرض في مرض ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها ، وإذا عصى الإنسان الله يتوقع كل شر ، وإذا أشرك بالله يقذف في قلبه الرعب .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

وحينما يبتعد الإنسان عن الله تنشأ عنده أمراض لا تعد ولا تحصى ، أنا أسميها أعراض الإعراض عن الله ، كلها أعراض لمرض واحد ، هو البعد عن الله ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

المذيع :

إذاً طمأنينة تأتي من الخشية ، ومن الذكر ، ومن القربة إلى الله .

الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به :

الدكتور :

وعظمة هذا الدين أنه موضوعي ، بمعنى أن إنساناً لا يؤمن بأصوله لو طبق مفرداته لشعر بسعادة ، إنسان لا يؤمن بأصول الدين ، بل طبق دقائقه قناعة أن هذا هو الموقف الكامل ، يشعر بسعادة ، لأنه منهج موضوعي ، سواء من طبقه ، من يعلم أومن لا يعلم ، لذلك قالوا : الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، بمعنى قد يأتي إنسان أميّ لا يقرأ ولا يكتب يشتري مكيفا ، يضغط المفتاح فيأتيه هواء بارد ، قد يشتري مكيفا دكتور في التكييف ، فإذا ضغط المفتاح جاءه الهواء البارد ـ تساويا في المثال ـ عظمة الدكتور قد يكون معلما ، بإمكانه أن يعلم ، أما المنتفع غير متعلم فبإمكانه أن ينتفع فقط .

لذلك قيل : هناك عُباد ، وهناك علماء ، الذين يطيعون الله على نوعين ، عابد وعالم ، لكن العابد مقاومته هشة ، لا تصمد أمام الضغوط ، ولا أمام المغريات ، بينما العالم العلم سلاح ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد))

[أخرجه البيهقي والخطيب عن أبي هريرة]

الشيء الدقيق أن كل دقائق منهج الله ، منهج الخالق ، منهج الذي فطر الإنسان متوافقة تماماً توافقاً تاماً مع خصائص النفس ، فما من طريق لسعادة النفس إلا أن يصطلح الإنسان مع الله .

لذلك هذا الذي هداه الله إلى الإسلام في بلد غربي بعيد ، وهو عالم كبير ، وزار الجالية الإسلامية في بريطانيا ، قال : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور، لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لا لأنهم أقوياء ، هم ضعفاء الآن ، لأن خلاص الإنسان في الإسلام ، وهذا الذي يفسر إقبال الناس على الدين ، مع أن العالم كله يحارب الدين ، مع أن حرباً عالمية ثالثة معلنة على المسلمين ، ومع ذلك الدين الأول نمواً هو الإسلام ، لأنه فيه خلاص الإنسان من الشقاء ، كما يقول السيد المسيح : " ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان " ، فلو كنتَ في بيت فخم ، ولك مركبة فارهة ، دخل فلكي ، فالإنسان يسعد بقربه من الله ، ويسعد باصطلاحه مع مبادئ فطرته .

سأقول مرة ثانية : سواء عصى الإنسان خالقه ، أو خرج عن مبادئ فطرته يشعر بالكآبة .
المذيع :
هذا هو عدم التوافق ؟

المعصية سبب عدم التوافق بين الفطرة ومنهج الله :

الدكتور :
هذا هو ، أضرب مثل : مركبة من أعلى مستوى ، من أضخم المعامل ، بأحدث الأجهزة ، هذه مصممة لطريق معبد ، فلو مشيت بها في طريق وعر ، سمعت أصوات وتكسرت ، ولم تؤدِ أي ميزاتها، لو انتقلت بها إلى طريق معبد اختفت الأصوات ، حركة انسيابية رائعة ، شيء لطيف ، نقول : هذه المركبة صممت لطريق معبد ، فلما استخدمتها على طريق معبد اصطلحت مع خصائصها ، أما المدرعة مصممة إلى طريق وعر ، لها جنزير ، تتلافى كل الحفر ، والأكمات ، والصعود ، والهبوط ، بأصل التصميم المركبة السياحية مصممة للطريق المعبد ، وأنت في أصل تصميمك الفطري مصمم الفطري مصمم لطاعة الله .
بالمناسبة ، يتوهم الناس أن طاعة الله هي حرمان ، لا ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الإسلام يغطي كل حاجات الإنسان ، الإسلام دين الفطرة ، الإسلام دين الواقع ، دين الوسطية ، الإسلام من عند خالق الإنسان ، وهو الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)
الآن عندنا مشكلة ، إذا خرج الإنسان عن مبادئ فطرته يشعر بالكآبة ، وهناك مصطلح نفسي جديد هو " اختلال التوازن " ، الإنسان متوازن ، دائماً وأبداً يبحث عن التوازن النفسي ، فإذا عصى ربه عمداً ، أو سهواً ، أو إذا كان بعيداً عن أصول أي دين ، وخرج عن مبادئ فطرته ، أو أساء لأخيه الإنسان يشعر بضيق .
لذلك الذين يبنون مجدهم على أنقاض الآخرين ، يبنون غناهم على إفقار الآخرين ، يبنون عزهم على إذلال الآخرين ، عندهم أمراض نفسية كبيرة ، من مظاهر هذه الأمراض القسوة البالغة ، رد الفعل العنيف غير المعقول ، الضجر ، ردود فعل قاسية ، موقف غير مقبول .
المذيع :
يصل إلى الانتحار دكتور ؟

الانتحار مرض نفسي ناتج عن الخروج عن الفطرة :

الأستاذ راتب :

طبعاً يصل .

المذيع :

يعني تودي به عدم التوافق ، أو الاختلال إلى أن ينهي حياته بيده .

الدكتور :

لذلك أنا حينما أدعو الإخوة المشاهدين إلى معرفة الله وإلى طاعته ، أدعوهم إلى السعادة ، أدعوهم إلى الشعور بالأمن ، إلى الشعور بالتوازن ، إلى الشعور الاستقرار ، إلى الرضا عن الله ، ضغوط الحياة كبيرة جداً ، قد لا تحتمل الآن ، العالم يغلي في كل بقاعه ، فيه تطرف ، وقسوة ، وضغوط . الإنسان بأمسّ الحاجة إلى أن يتعرف إلى الله ، وأن يصطلح معه ، وأن يصطلح مع نفسه ، لكن حينما يعصي ربه ، حينما يخرج عن مبادئ فطرته يشقى .

مرة بفندق بألمانيا ، أحد أصدقائي نزل فيه ، رأى مكتوبا على السرير : إن لم تنَم هذه الليلة فالعلة ليست في فروشنا ، إنها وثيرة ، وإنما في ذنوبك .

مرض الهستيريا

درسنا في علم النفس أن هناك مرضا اسمه الهستيريا ، على خلاف ما يفهم منه ، الهستريا شلل عضوي لسبب نفسي ، نفحص المريض كل أجهزته تامة ، وجاهزة وسليمة ، لكنه مصاب بشلل ، هذا عقاب النفس للجسد ، الهستريا مرض نفسي ، أعراضه الكبرى شلل عضوي بسبب نفسي ، علاجه أن تقنع الإنسان أنه لم يخطئ .

أنا أذكر أن إنسانا دهس طفلا في مدينة عربية ، والساعة الثانية ليلاً ، أرسله أبوه لجلب حاجة من محل فدهسه ، ولا أحد يعرف أنه دهسه ، وكُتب الضبط ضد مجهول ، لم يذق هذا السائق طعم النوم أربعين ليلة ـ من تأنيب النفس ـ ذهب إلى طبيب نفسي فأقنعه أن يدفع دية لأهل الطفل ، والدية مجزية ، حتى يرتاح .

لا أحد ينتبه ، نحن حينما نعصي الله نشقى .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

نحن حينما نخرج عن مبادئ فطرتنا نكون أشقى الناس ، وحينما نلبي حاجات فطرتنا في الاستقامة ، في العدل ، في الإنصاف نسعد ، وحينما يقوم الإنسان بعمل أخلاقي يبقى أحياناً أسابيع وهو منغمس في سعادة لا توصف ، كان أخلاقيا ، كان منصفا ، كان رحيما ، كان حكيما ، كان متواضعا ، وهؤلاء الطغاة حينما يزوّرون الحقائق ، ويقلبون المقاييس ، هؤلاء هم أشقى الناس ، وأنا أصنف الطغاة مع الأغبياء ، لأنهم في الأصل تجاهلوا وجود الله عز وجل ، وتجاهلوا أن الله سيحاسبهم ، وتجاهلوا أنه ما من قطرة دم تراق في الأرض إلا ويتحملها القاتل يوم القيامة ، لذلك :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

المذيع :

لذلك سيدنا قال عليه الصلاة والسلام :

((إذا سرتك حسنتك ، وساءتك سيئتك ، فأنت مؤمن))

[أخرجه أحمد ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أبي أمامة]

الدكتور :

الآن إذا اختل توازن الإنسان هناك من يستعيده بطريقة خاطئة .

المذيع :

قبل أن ننتقل إلى اختلال التوازن سيدي ، هل هنالك مخلوق ، إنسان من بني البشر لا توجد عنده التوافقية فاختل ، فخالف فطرته ، فعصى ، وأذنب ، اعتدى على الناس وسرق ، وشتم هذا ، واختلس من هذا ، وهذه الحالة أصبحت حالة طبيعية في نفسه ، وهل وافقته نفسه عليها ، هل هنالك من مخلوق؟ أم هذه القضية مرفوضة عند كل أنفس البشر ؟

هل اختلال التوازن يصبح أمرا طبيعيا ؟

الدكتور :

في الأصل مرفوضة ، لكن المداومة عليها إلى أمد طويل جداً تنشأ حالة اسمها انطماس الفطرة .

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة المطففين)

في الأصل مرفوضة ، معها عذاب ، لكن لو استمر عليها ، وكانت الشهوات مستعرة ، والمكاسب كبيرة جداً ، عندئذٍ نقول : هذا الإنسان انطمست فطرته ، وفي التعبير القرآني هو الران ، هذا ميت لا خير فيه إطلاقاً ، لذلك قال الله :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

وقال الله عز وجل :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

صممت تصميما رائعا ، حيث إنها إذا فجرت تكتشف أنها فجرت ذاتياً .

الآن أرقى الطائرات ، العدادات كلها صفحة بيضاء ، إذا وجد خلل يظهر على الشاشة ، وهناك مركبات الآن حديثة جداً صفحة بيضاء فيها لوحة كمبيوتر ، إذا حدث خلل يظهر على الشاشة .

فالإنسان مصمم أعلى تصميم .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

أما الآية :

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

(سورة يونس الآية : 105)

فيها دقة بالغة ، أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذا العمل هو نفسه .

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية : 30)

تطابق 100 % .

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة الروم الآية : 30)

الخطوط الأربعة : نقل صحيح ـ فطرة سليمة ـ عقل صريح ـ واقع موضوعي :

وأي دين ليس فيه خط هو نقل صحيح ، وقلت : صحيح كي أتجنب النقل غير الصحيح ، الموضوع أو التأويل الغير الصحيح ، وفطرة سليمة ، تجنبت انطماس الفطرة ، وعقل صريح ، تجنبت العقل التبريري ، وواقع موضوعي ، تجنبت الواقع المزور ، هذا هو الحق :

فطرة سليمة ـ وعقل صريح ـ وواقع موضوعي ـ ونقل صحيح ، هذه خطوط تلتقي في دائرة الحق ، فإذا تخلف عنها خط واحد الحق في شك .

المذيع :

حصل الخلل .

موقف الإنسان السلبي بعد اختلال التوازن :

الدكتور :

الآن إذا اختل التوازن ـ اختل التوازن بين خصائص النفس ومنهج الله ـ فهناك سلوكان خاطئان ، وسلوك صحيح .

السلوك الأول الخاطئ :

السلوك الأول الخاطئ أن أبحث عن فكرة أرتاح لها ، كطالب كسول عنده قلق مستمر ، قال له صديقه: الأستاذ قبل الامتحان بيوم يعطيك الأسئلة مقابل هدية ثمينة ، الفكرة غير صحيحة ، لكن أراحته ، فتمسك بها ، قبل الامتحان بيوم طرق باب أستاذه فصفعه على وجهه ، وطرده ، هنا الطامة الكبرى ـ إذاً ارتاح لمرحلة كإبرة المخدر ـ .

لذلك العقائد الزائغة تتسرب إلى النفوس بشكل عجيب ، لأنها تريح الإنسان ، طبعاً أكبر انحراف أن تبني مجدك على أنقاض البشر ، هذا يحتاج إلى إلحاد ، إنكار الذات الإلهية كلياً ، والإنسان الذي يمكن أن يبني مجده على أنقاض الشعوب يجب أن يكون ملحداً ، لذلك الكفر مبني على نظرية : الإنسان أصله قرد ، وليس هناك يد خليقة ، الآن النظرية بدأت أؤمن بها ، لكن معكوسة ، كان الإنسان فأصبح قرداً ، هذا أول سلوك مرضي لرأب خلل التوازن .

السلوك الثاني الخاطئ :

أن أطعن في الصالحين والمتفوقين ، تجد المخفق عنده حسد عجيب ، أي إنسان تفوق يطعن في نياته ، يطعن في قدراته ، يقول : له حظ ، هذا مرد مركب النقص ، مركب النقص معه حسد ، ومعه إنقاص من قيمة الآخرين ، فكلما رأى إنسانا تفوق قلل من قيمته ، وطعن به ، وغمز ولمز ، هو عنده شعور بالنقص ، وتوازنه مختل ، اختل توازنه فقلّل من قيمة الناجحين ، الناجح يقدر الناجح ، والأخلاقي يقدر الأخلاقي ، أما اللاأخلاقي فيعد الأخلاقية ضعفا ، أو بالتعبير العامي سذاجة ، أو أجدب .

المذيع :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا يعرف القدر لأهل القدر إلا ذووه))

[ورد في الأثر]

الدكتور :

هذا السلوك الأول الطعن بالصالحين والمتفوقين والناجحين من صفات من اختل توازنه ، فعنده شعور بالنقص دائم .

أحيانا يضع الإنسان أربعة أقلام في جيبه ، ويكون جاهلا ، وقد يضع مكتبة في بيته ، وهو لا يقرأ ، ولا يكتب ، هذا شعور بالنقص .

التوبة هي السلوك الصحيح عند اختلال التوازن :

أما السلوك الصحيح إذا اختل توازن الإنسان هو الصلح مع الله ، العودة إلى الله ، إنسان اختل توازنه فيتوب ، باب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة ، وتجُّب ما قبلها .

المذيع :

إذاً التوبة هي علاج مركب النقص والكآبة .

الدكتور :

من رحمة الله بنا يرد أن يتوب علينا ، الحقيقة أن النبي بيّن في الحديث الشريف الفطرة :

((والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس))

[أخرجه البخاري في الأدب وصحيح مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان]

ما من إنسان يغش الحليب أمام الزبون ، لذلك قال النبي الكريم :

((إياكم وما يعتذر منه))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر]

هذه الفطرة .

((إياكم وما يعتذر منه))

كل شيء تضطر أن تعتذر فهو منه خلاف الفطرة .

((إياكم وما يعتذر منه))

أنا أدعو إلى السعادة ، بكل الظروف أنت حينما تصطلح مع فطرتك ، ومع ربك تكون أسعد الناس .

المذيع : سيدي إذاً لا جدال في أن الفطرة هي فطرة سليمة التي أودعها الله في نفس كل إنسان كل مولود يولد على الفطرة ، في آخر الحديث يقول عليه الصلاة والسلام وهو ما جاء في مثال للعرب :

((كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء))

[رواه حاجب بن الوليد عن الزبيد ، عن الزهري عن أبي هريرة]

هل تجدونها من جدعاء ؟ ـ نعم ـ الذي يجدع البهائم ليميز قطعانهم عن قطعان غيرهم ، هم أصحابها ، إما بجدع الأذن ، أو الأنف كعلامة ، أما الله عزوجل فيبعثها كاملة الأوصاف ، وجميلة ، ورائعة .

كلّ مولود يولد على الفطرة :

الدكتور :

كل مولود يولد على الفطرة ، لذلك الأطفال في العالم بريئون ، يحبهم الناس جميعاً ، بل إن آلامهم يتقطع لها القلب في العالم كله .

والله مرة كنت في جنوب السودان ، رأيت شقاء عند الصغار لا يوصف ، حدثت نفسي ، وجاءني خاطر : ما دين هؤلاء ، لاحتقرت نفسي ، هم على الفطرة ، إن الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

المذيع :

تحدثنا عن التوافق في الفطرة ، ثم تحدثنا عن الاختلال في التوازن ، وما ينجم عنه من أمراض نفسية، لا يكون صلاحها والشفاء منها إلا بالصلح مع الله ، والتوبة ، وبالعودة إليه .

الآن لدينا متسع لشيء قبل أن نحط عند محطتنا العلمية ، الآن محطتنا العلمية عمَّ تتحدث أستاذنا ؟

من آيات الله : الجنين في بطن الأم : أحواله وتقلّباته :

الدكتور :

الجنين في بطن أمه يبدأ بخلايا ، هذه الخلايا تتكاثر ، لو لم يكن هناك خالق حكيم وإله عظيم ، ورب كريم لنمت هذه الخلايا على شاكلة واحدة ، لرأيت الجنين قطعة لحم أو قطعة عظم ، أو قطع أعصاب فقط ، أما ملايين الخلايا كيف تنسجم مع بعضها لتشكل شبكة أوعية يزيد طولها على 40 ألف كم ، هو محيط الأرض ؟ الآن خلايا تجتمع ، وتجتمع ، وتجتمع إلى أن تشكل أنبوبا مغلقا ، أما جدارها الداخلي فهو من الثقالة حيث لا يصدقه الإنسان من أجل ألا تترسب المواد عليها ، لذلك الشدة النفسية تثقب هذا الجدار الداخلي ، الشدة النفسية وراء معظم الأمراض ، فهذه ملايين الخلايا تجتمع مع بعضها بعضاً كي تشكل دورة شريانية وريدية مغلقة محكمة يزيد طولها على 40 ألف كم ، هو محيط الأرض ، يد من صنعت هذا الإنسان في بطن أمه ؟ .

الآن هناك خلايا تتشكل لتكوّن القلب ، الخلايا تضطرب ، وتنبض ، ولا تزال خلايا إلى أن تشكل القلب ، وهذا النبض يستمر إلى الممات ـ إذاً الخلايا في الأصل واحدة ، ثم تمايزت ، ثم انقسمت ، لتشكل الأعضاء والنسج ـ كيف ؟

الآن هذا الطفل في الأسبوع السادس انظر إلى طرفه ، هذا الطرف ينتهي بيد ، اليد على شكل دائرة ، ما الذي الهم الخلايا أن تنتحر ؟ وأن تتلف نفسها كيف تتشكل الأصابع ، اليد هكذا كانت ، هناك خلايا تميت نفسها ، أو بالتعبير المعاصر تنتحر ، انتحارية أو استشهادية ، لا نعرف ، فهذه الخلايا تنتحر كي تشكل فراغات بين الأصابع ، يد من صنعت هذه اليد في بطن الأم ؟ إنه شيء لا يكاد يصدق ، الطفل في بطن أمه ليس هناك مكان يجري فيه أو يمشي ، من صنع له الساق والقدم ؟ وسوف نرى هذه اليد كيف انتحرت الخلايا فكونت الأصابع ، هذه اليد شُكلت في بطن الأم في أسابيع معينة ـ كانت كتلة واحدة ، دائرة فرغت هذه بين الأصابع ، وأصبحت تكوّن لها حركة ومفاصل ـ .

الحقيقة أن خلق الإنسان معجزة ، والله عز وجل يقول :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة الإنسان)

إذاً الطفل تُشكل له الأعضاء والأرجل من أجل أن يمشي في الأرض ، وهذه اليد لولاها لما كانت حضارة ، لما بنيت حضارة ، الآن الرحم ليس فيه ضوء ، فلماذا للجنين عين ؟ هذه العين فيها قرنية ، وفيها حدقة ، وفيها عدسة ، وفيها شبكية ، وفيها عضلات وفيها أعصاب ، وفيها أشياء مدهشة ، فلذلك لو فكر الإنسان في خلقه لآمن ، والله عز وجل قال :

(وَبَنِينَ شُهُوداً)

(سورة المدثر)

هذا الطفل الجنين في الأسبوع الرابع له هذا الوجه ـ في حالات التمايز والتشكل ـ الآن هاتان الحفرتان ستكونان العينين ، والعين كما تعلم ـ أستاذ علاء ـ يعني بأدق آلة تصوير ، بأغلى آلة تصوير احترافية [ديجتل]، في الميليمتر الواحد عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، أما العين البشرية ففي الميليمتر مئة مليون مستقبل ضوئي ، من أجل أن تميز بين الألوان ، والعين البشرية تميز بين 8 ملايين لون ، لو دُرج اللون الواحد 800 ألف درجة لاكتشفت العين السليمة الفرق بين درجتين .

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

هذا الذي جعل لك العينين ألا يراك ؟ ألا يرى أعمالك ؟ ألا يرى أنك تبني مجدك على أنقاض الآخرين؟.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

قال ابن عباس : الثديين ، إذاً العين تُشكل في بطن الأم هكذا ، والعين من أجمل ما في الوجه . ليس في بطن الأم أصوات ، لكن تشكّل الأذن ، حتى الآن هناك من يجهل دقائقها ، فيها أجهزة تكبر الأصوات ، وتخمدها في وقت معاً ، بل إن الأذن البشرية يمكن أن يعرف الإنسان جهة الصوت ، قال تعالى :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (19-95) - مقومات التكليف : الطبع - الميل المتناقض ـ النظريات الخاطئة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

أستاذي الدكتور ، تحدثنا في حلقات سابقة عن مقومات التكليف عند الإنسان ، تحدثنا في الكون ، وفي عناصر الكون ، وتحدثنا في العقل ومقومات العقل ، وأقسام العقل ، وما يؤول إليه العقل ، وكيف يفكر العقل في ميزان العقل ، وصلنا إلى الطبع .

يقولون في الدراسات : لأن الإنسان يميل إلى تصديق ما يريحه ، وإلى تكذيب ما يزعجه ، هذا في المنظور العام ، عندما تكون أهواءه تنطبق مع ما يشاع ، وما يقال فهو يرتاح ، ويصدق هذه الإشاعة أو هذا القول ، إذا سمع إشاعة تضر بمصالحه ، أو تخالف هواه فإنه يميل مباشرة إلى تكذيبها ، الله عز وجل يقول في كتابه المحكم :

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة النور)

هل هذه الآية بهذا المعنى تأتي لتشرح لنا هذه الحالة التي بسطت أمامك بهذه الحلقة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

مقدمة في توافق خصائص النفس مع منهج الله :

أستاذ علاء بادئ ذي بدء ، لا بد من تذكير الإخوة المشاهدين بأن هناك توافقاً تاماً بين خصائص النفس، أي بين فطرتها ، وبين خصائص منهج الله عز وجل ، فالحكمة بالغةٍ بالغةٍ بالغة ، حينما أمرنا أن نكون صادقين فطرنا ، أي جُبلنا على محبة الصدق ، وإذا أمرنا أن نكون أمناء جبلنا ، وفُطرنا على حب الأمانة ، وإذا نُهينا عن الكذب جُبلت نفوسنا على كراهية الكذب ، هذا المعنى يستنبط من قوله تعالى :

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

هناك منهج لله عز وجل ، له أوامر ونواه ودقائق ، وهناك شريعة منزلة من الله عز وجل عبر الكتب السماوية ، وعلى أنبيائه ورسله ، دقائق الشريعة تتوافق توافقاً تاماً مع دقائق الفطرة ، فسواء أخرج الإنسان عن أمر ربه أم خرج عن مبادئ فطرته تعاقبه نفسه بالكآبة ، سَمّها كآبة ، سَمّها ضيقا ، أنا أسميها الآن اختلال توازن ، كل إنسان يسعى كي يتوازن .

سأضرب مثلا لعله يكون مدخلاً لهذا الموضوع الدقيق :

إنسانان يريدان أن يشتريا سيارة ، أحدهما اشترى ، والثانية تريث ، ثم سرت إشاعة في البلد أن هناك قانوناً سيخفض الرسوم الباهظة على السيارات ، الذي اشترى دون أن يفكر ، ودون أن يتحقق ، ودون أن يسأل يُكذب هذا الخبر ، لأنه اشترى ، والذي لم يشترِ دون أن يتأكد ، ودون أن يتحقق ، ودون أن يسأل يُصدق هذا الخبر ، فكَذب الخبر من دون تحقق ، وصُدق من دون تحقق ، لأن الخبر الأول مزعج للذي اشترى السيارة ، بينما يريح الذي لم يشترِ .

فالإنسان يبحث عن مصلحته ، الإنسان فُطر على حب وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب استمرار وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ، هكذا فُطر الإنسان فُطر كما قلت في حلقة سابقة على حب الكمال ، وحب الجمال ، ومحب النوال .

فالإنسان بشكل أو بآخر يميل إلى تصديق ما يريحه ، فالإنسان يخالف منهج الله في كسب المال ، فإذا قرأ قوله تعالى :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

يميل إلى أن يفهم أن النهي ليس عن نسب قليلة ، وإنما عن العالية فقط ، مع أن هناك آيات تؤكد أن الربا بكل أنواعه محرمة .

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 279)

إنسان يخالف منهج الله في بيع الناس فيغش في البضاعة ، فإذا سمع حديثاً من دون أن يفهم أبعاده الدقيقة عن أن النبي يشفع للمؤمنين يصدق هذا الحديث ، ويتمسك به ، ويطرب له ، وأنه يريحه ، فالإنسان بعقله الباطن أميل إلى تصديق ما يريحه ، وبعقله الباطن أميل إلى تكذيب ما يزعجه ، هذه من حقيقة النفس البشرية ، لكن العقل هو المصحح ، الإنسان إما أن يكون عاطفياً ، وإما أن يكون علمياً ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم .

إنكار النبي عليه الصلاة والسلام للأوهام المريحة :

1 – كسوف الشمس :

أضرب مثلا : الصحابة الكرام لشدة تعلقهم بسيد الأنام ، حينما توفي ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ورافق وفاة ابنه كسوف الشمس ، توهموا أن الشمس كُسفت لموت إبراهيم ، هذا موقف عاطفي ، وأنا أدافع عنهم ، لأن محبتهم الشديدة لرسول الله دفعتهم لهذا التفسير ، لكن النبي أمين وحي السماء ، جمع أصحابه وقال :

((إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت واحد من خلقه))

[البخاري]

هذا التفسير العلمي تصحيح للعقل .

2 – الطاعة في المعروف :

أما التصحيح للعلم فلهذه الحالة بكل معنى الكلمة أن النبي الكريم أمر بسرية وأمّر عليها صحابياً قال عنه كتاب السيرة : كان ذا دُعابة ، فلما خرجوا من المدينة أمر بإضرام نار عظيمة ، وقال لهم : ألست أميركم ؟ قالوا : بلى ، قال : أليست طاعتي طاعة رسول الله ؟ قالوا : بلى ، قال : اقتحموا النار ، فالصحابة ترددوا ، قالوا : كيف نقتحمها ، وقد آمنا بالله فراراً منها ؟ علة إيماننا بالله أن نفر من النار ، كيف تأمرنا أن نقتحمها ؟ حكموا عقولهم ، على كلٍ لما بلغ النبي هذا الخبر قال :

((والله لو اقتحمتموها لازلتم فيها إلى يوم القيامة ، إنما الطاعة في معروف))

هناك مبادئ ، وفطر ، وقواعد ، ومناهج ، وقوانين ، الدين ليس مزاجياً ، هذا الذي قنن القوانين خالق الأرض والسماوات ، هذا سن السنن ، أفيعقل أن تكون العلاقة معه مزاجية ؟ هناك أمر وهناك نهي ، والأمر له دليل ، والنهي له دليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء .

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[أخرجه الحاكم ، عن أنس السجزي عن أبي هريرة]

((ابن عمر ، دينك دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ـ في عقائدهم ـ ولا تأخذ عن الذين قالوا))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

بين خطأ الميزان وخطا الموزون :

المشكلة ـ أستاذ علاء ـ أن الخطأ في الميزان خطير ، أما الخطأ في الوزن ليس بشيء ، الخطأ في الميزان لا يصحح ، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر ، فأفضل ألف مرة أن تخطئ في الوزن من أن تخطئ في الميزان ، فالإنسان يميل إلى أن يصدق ما يريحه .

الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح :

مثلاً : لو أن طالباً كسولاً سمع فكرة أعجبته ، أن الأستاذ قبل الامتحان يعطي الأسئلة بهدية ثمينة ، فهذا ارتاح طوال العام الدراسي ، أروع فكرة سمعها في هذا العام تلك الفكرة ، وسكنت نفسه ، وصدقها ودافع عنها ، وأشاد بالأستاذ بقلبه الرحيم ، وعطفه على الطلاب ، فلما طرق بابه قبل يومين من الامتحان صفعه على وجه صفعة أنسته كل المتعة التي أستمتع بها طوال العام .

لذلك أنا أقول دائماً : الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، حينما يعصي الإنسان الله عن وعي ، أو حينما يخرج عن مبادئ فطرته عن غير وعي تعاقبه نفسه .

تماماً كما لو ركبت مركبتك الأنيقة الجديدة على طريق وعر ، لا تنطلق أصوات تكسير ، لأنها عير مصممة لهذا الطريق الوعرة ، هي مصممة لطريق معبد .

فلذلك أنت حينما تطيع الله عز وجل تصطلح مع فطرتك ، حينما تطيع الله عز وجل تنام قرير العين ، تشعر بالرضا ، تشعر بالتوازن ، تشعر بالتألق ، بالتفوق ، لأنك حققت الهدف من وجودك ، لأنك أديت الرسالة التي أُمرت أن تؤديها ، لأنك تمتعت بخصائص نفسك ، فلذلك :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

قال بعض المفسرين : الآية واضحة ، لكن ما بال الأغنياء والأقوياء ، معهم أموال لا تأكلها النيران ، فأجاب هذا المفسر : إنه ضيق القلب ، هذا الضنك ، في القلب شدة وقلق ، وإحباط ، وخوف ، لو وزع على أهل بلد لكفاهم ، إذاً حينما يصطلح الإنسان مع الله يصطلح مع نفسه .

المذيع :

يصطلح مع فطرته ، ويعيد التوازن لنفسه بكل معنى الكلمة

الدكتور :

هذا الذي قاله الله عز وجل :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد الآية : 28)

الآن نعالج قضية نفسية ، أن إنسانا خرج عن منهج الله ، أقول : عن وعي أو عن غير وعي ، أو خرج عن مبادئ فطرته ، عن وعي أو عن غير وعي ، لأن هذه الفطرة مصممة على منهج الله ، إذا خالف الإنسان منهج الله يشعر بضيق ، هذا الضيق يعبر عنه بالكآبة ، يعبر عنه بالقلق ، يعب عنه بالإحباط ، يعبر عنه بأشياء كثيرة ، وله آثار مؤلمة جداً ردود الفعل قاسية جداً ، اضطراب شديد ، إذا عاقب بقسوة غير معقولة ، في اضطراب داخلي ، في نفس كالمرجل تغلي عن بعدها عن الله ، أو أنا سأقترح وصفاً لهذه الحالة اختلال توازن .

المذيع :

هذا الاصطلاح جميل ودقيق في كل معنى الكلمة .

الدكتور .

أربعة أشياء في حياة الإنسان :

الإنسان أحياناً ، وأنا أقول دائماً : هناك أربعة أشياء في حياة الإنسان ، علاقته بربه ، وعلاقته بأهله ، أقرب الناس إليه ، وعلاقته بعمله ، وعلاقته بصحته ، فأي خلل أصاب أحد هذه الأركان الأربعة ينعكس على الثلاثة ، شئنا أو أبينا ، لذلك أنا أقول دائماً : النجاح شمولي ، أنا لا أقبل أن ينجح الإنسان في عمله ، ويخفق في بيته ، لا أقبل أن ينجح في بيته ، ويخفق في عمله ، لا أقبل أن ينجح في بيته وعمله ، ولا يعتني بصحته ، لا أقبل أن ينجح في بيته وعمله وصحته وعلاقته مع ربه مقطوعة .

المذيع :

لا يمكن أن تفهم هذه المسألة .

الدكتور .

إذا أردت أن أضع بين إخوة المشاهدين هذه الحقيقة الدقيقة : يجب أن نتحرك على خطوط أربع ، أن نصلح علاقتنا مع الله ، تأتي السكينة ، يأتي الرضا ، تأتي السعادة تأتي الثقة ، يأتي التفاؤل ، يأتي البشر ، أن نصلح علاقتنا مع أهلنا ، أقرب الناس إلينا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

أنا أقول كلمة أتمنى أن تكون واضحة : إبليس همه الأول أن يفرق بين الزوجين ، يكره الإنسان بأهله، ويغريه بغير أهله ، هذا هو الفساد ، إنما المؤمن يسعد بأهله النبي عليه الصلاة والسلام حمد الله على حب عائشة ، قال :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

ابستامته ، مودته ، تواضعه ، يرفض إيناسه لأهله ، لذلك النبي الكريم جعل علاقة المرء بأهله هي الخير المطلق قال :

((خيركم خيركم لأهله ـ اسم تفضيل ـ خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة ابن ماجة عن ابن عباس الطبراني ، عن معاوية]

لأن الخير خارج البيت بالتعبير الحديث [بزنز]والإنسان حريص على سمعته وعلى مكانته ، وعلى هيمنته ، على شعبيته ، تجده لبق ، لطيف ، يعتذر ، يبتسم ، أنيق ، لكن البطولة أن تكون في البيت ، بهذا المستوى .

((خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي))

المذيع :

سيدي سؤال ، الآن كما تفضلتم من خلال البداية بأن الإنسان يميل إلى تصديق ما يريحه ، وإلى تكذيب ما يزعجه ، أيضاً في مسائل أخرى أن هنالك أناسا يدّعون أنهم متدينون ، فإن كانت مصلحتهم تقتضي المقاضاة والاحتكام للشرع هُرع إلى الشرع ، وهُرع إلى العلماء ، ليفض الخصام مع غيره من خلال أحكام الشريعة الإسلامية ، إذا كان في هذا الاحتكام ما يدر عليه المصلحة ويجلب المنفعة ، وإذا ما كان الشرع يجافي هواها ومصلحتها ، وإنما يأخذ بالقسطاس ، يأخذ بالعدل ويحكم بالغير ، فنقول : لا أخي نريد القانون ، ونريد المحاكم المدنية ، ماذا نقول في مثل هذه الحالة ؟

استخدام الدين للمصالح الشخصية والأهواء :

الدكتور : هذا الشيء أولاً فيه تناقض ، وما من صفة قبيحة في الإنسان كالتناقض ، فنحن لا نكشو إلا من مكايله المزدوجة ، نحن لا نشكو من الغرب إلا أنه يستخدم مكاييل عديدة ، يكل بها في نفس الحالة.

أنا أرى مثلاً ، قبل صدور تعديل قانون الإيجار فكل إنسان يحاول أن يسترجع بيته يلجأ إلى العلماء ، يقول : الشرع ، الدين ، الحق ، أما المرأة التي طُلقت في بلد غربي إذا لجأت إلى العلماء أعطوها مهرها ، أما إذا لجأت إلى قاض غربي أعطاها نصف ممتلكات زوجها .

فحينما يكون الإنسان هواه في جهة يميل إليها ، هذا هو الموقف الذي لا يرضي الله ، هذا هو الموقف المصلحي لا المبدئي ، هذا هو الموقف الشهواني لا القيمي ، هذا اختلال التوازن ، والتناقض ، وإذا اختل توازن الإنسان يلجأ إلى عقيدة ، أو إلى فكرة ، أو إلى تصور ، تريحه ، وسوف نوضح بعد قليل كيف أن الإنسان حينما يعتقد عقيدة معينة قد تبنى على إنكار الذات الإلهية ، هذه تريحه جداً ، لأنه غير محاسب صار ، له أن يفعل ما يشاء له يبني مجده على أنقاض الآخرين ، له أن يبني حياته على موتهم،

له أن يبني عزه على ذلك له أن يبني غناه على فقرهم ، له أن يبني أمنه على خوفهم ـ وله أن يدمر العالم ـ نعم ، لذلك بقدر الانحراف ، الانحراف الواسع جداً يحتاج إلى إنكار للدين أصلاً .

المذيع :

سنتابع بعد قليل هذا الفيلم ، الفيلم هو هذه الفكرة التي تفضلت بها ، نتابع .

معجزة الكون :

الدكتور :

إن المتأمل لهذا الكون الذي نعيش فيه يرى كوناً فسيحاً قوامه أكثر من 250 مليار مجرة ، وكل مجرة تحوي وسطياً على 300 مليار نجم ، وفي كل جزء من أجزاء الكون تصميم ، وتنظيم ، وتوازن رائع ومذهل ، الله جل جلاله واجب الوجود ، والكون ممكن الوجود ، الكون ما سوى الله يمكن الوجود ، ممكن أن يوجد ، وممكن ألا يوجد ، ممكن أن يوجد على ما هو عليه ، أو على خلاف ما هو عليه ، والكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، وقد قال الله عز وجل :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

لكن الأرض هي كوكبنا ، الذي يشغل حيزا صغيراً في هذا الكون الهائل ، ويملك سطحاً صالحاً للحياة، وليس من بين الكواكب السيارة ، ليس من كواكب المجموعة الشمسية كوكب تصلح في الحياة إلا الأرض ، قال تعالى :

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

(سورة الرحمن)

أما المياه التي تغطي معظم أجزاء كوكبنا فهي من أهم شروط الحياة ، وقد صممت حرارة كوكبنا ، وحركة كوكبنا ، وسطح كوكبنا بشكل خاص لتكون صالحة للحياة ، يحتوي هذا الكوكب على أنواع غنية جداً من الأحياء ، مليون نوع من السمك ، فهناك الملايين من مختلف أنواع النبتات ، والحيوانات، حيث تعيش جميعها بتلاؤم تام ، وهذا التلاؤم متين ومدهش ، إلى درجة أنه يستطيع الاستمرار دون أي انقطاع ، طالما بقي بعيداً عن تدخل الإنسان ، فما شأن هذه النظم وهذه الأحياء ؟ عندما مشاهدة الأحياء التي فوق كوكبنا نلاحظ وجود تصميم دقيق وواضح ، إذ جُهز كل حي نظم معقدة جداً لكي يقوم بموهمته على أفضل وجد .

إن الحياة تشف عن علم مطلق ، وعن قدرة مطلقة ، وعن حكمة مطلقة وعن رحمة مطلقة ، يقول أحد أكبر علماء الفيزياء في القرن العشرين : انشاتين : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، عليمة هي أعلم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، هو إنسان حي ، ولكنه ميت .

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الحشر)

بطلان نظرية داورين شرعا وعلما وفطرة وعقلا وواقعا وأخلاقا :

الحقيقة أن الشيء الذي لا يكاد يصدق أن نظرية ظهرت في القرن الـ19 ، هذه النظرية أنكرت هذه الحقيقة الصارخة ، الواضحة ، الثابتة ، التي جاءت بها رسالات السماء ، هذه النظرية زعمت أن جميع أنواع الأحياء الموجودة على الأرض لم تخلق من قبل الله ، بل ظهرت نتيجة المصادفات ، كان واضع نظرية التطور عالم الطبيعة " دارون " ، وقد شرح هذا العالم نظريته عام 1859 في كتابه أصل الأنواع ، والحقيقة هذا الكتاب نال شعبية ، وانتشاراً واسعاً جداً في مدة قصيرة ، ولم يكن نجاحه مستنداً إلى قيمته العلمية ، فهو ينكر الحقائق التي عُرفت بالفطرة والعقل على مدى التاريخ البشري ، بل استندت شهرت هذا الكتاب إلى محتواه الذي ينكر رواية الكتب السماوية لأصل الخلق .

فقد أعطى هذا المؤلف للفلسفة المادية الملحدة سنداً قوياً جداً ، لذلك قام أنصار هذه الفلسفة بتأييد هذه النظرية بحرارة بالغة ، مالوا إلى تصديقها ، لأنها تعفيهم من المسؤولية هذا محور هذا اللقاء الطيب .

المذيع :

يقال : إنها كانت خلية مصادفة ، تطورت كل الأنواع تطورت من بعضها ، وخلق الإنسان قردا .

الدكتور :

والحقيقة أن خطأ " داروين " ليس خطأ علميا فحسب ، بل هو خطأ أخلاقي ، لأن المؤلف قال بخلاف ما يعلم ، انتصاراً بعقيدة الإلحاد ، والحقيقة أن الإلحاد بنظر داروين أتت من سلف واحد مشترك ، وتنوعت نتيجة لتغيرات طفيفة تراكمت ضمن شريط طويل من الزمن ، ولم يستطع دارون تقديم أي برهان يعتد به إثبات نظريته هذه ، ولكنه كان على وعي لكثير من الحقائق التي تناقض نظرية ، هو هو الأصل ، كان على وعي عميق لكثير من الحقائق التي تناقض نظريته ، واضطر إلى التصريح بهذا، في الفصل الذي أضافه في كتابه تحت عنوان مشكلات نظرية ، ولكنه كان بأكل أن يتجاوز هذه المشكلات مع تقدم العلم ، والذي كان على نقيض ذلك ، مع تقدم العلم نقضت كل ادعاءات " داروين "

واحدة بعد الأخرى ، هو كان يظن أن الديدان تنشأ من اللحم الفاسد ، الحقيقة في بيوض تبيضها الديدان، كان يظن أن الفأران تُخلق من الوحل ، والحقيقة بعكس ذلك ، فكل شيء طرحه العلم أكد عكسه .
ثم كان يقول : ما لم تأت المستحثات إثبات نظريتي فهي باطلة ، والمستحثات التي وجدت قبل 530 مليون عام أثبتت أن الأحياء هي هي ما تغيرت .

ولكن كيف نشأ أول كائن في الوجود ؟ هو أخفى شيء خطير جداً ، كيف نشأ أول كائن إلى الوجود ؟ لم يتطرق " داروين " إلى هذا الأمر في كتابه ، فقد فاته أن هذا سيثير مشكلة كبيرة لنظريته ، كما أن تخلف العلم في عصره أدى إلى ظهور نظرية الظهور التلقائي للحياة ، هذه النظرية مضحكة ، لا يقبلها إلا السذج .

شيء دقيق جداً ، أن في بداية القرن العشرين كان العالم الروسي المعروف " ألكسندر أوفر " أول من تناول نشوء الحياة وأصلها ، وكانت غايته القيام بشرح كيفية ظهور الخلية الأولى التي زعمت نظرية التطور أنها سلف المشترك لجميع الأنواع ، ولم تنجح هذه المحاولات وباءت جميعها بالفشل ، لكن نخلص من هذا العرض السريع إلى أن النفس الإنسانية ، ونحن بصدد الحديث عن فطرة الإنسان تميل إلى تصديق نظرية تريحها من المسؤولية ، وتعفيها من المحاسبة ، بصرف النظر عن صحة النظرية أو خطئها ، فالذين يبنون مجدهم على أنقاض الآخرين ، ويبنون غناهم على إفقار الآخرين ، ويبنون أمنهم على إخافة الآخرين ، ويبنون عزهم على إذلال الآخرين ، هؤلاء يتمسكون بهذه النظرية .

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

المذيع :

لم يخلق الإنسان عبثاً ، وسيعود إلى الله عز وجل ، وسوف يحاسبه على كل ما أتى ، وكل ما فعل .

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

(سورة طه الآية : 15)

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

(سورة الكهف)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (20-95) - مقومات التكليف : الطبع - يعالج الله تعالى الإنسان من خلال صفاته ـ الخلية الحية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-03-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

أستاذنا في الحلقة الماضية تحدثنا عن مقومات التكليف التي مررنا عليها في الحلقات السابقة ، حتى وصلنا إلى الطبع ، وكيف أن الإنسان يصدق ما يريحه من الأقوال والإشاعات ، ويكذب ما يزعجه ، وكيف أن الإنسان كيف اعتنق فكرة الإلحاد ، وحتى نظرية التطور التي أتى بها " داروين " على أن الأصل والنشوء والتخلق والتخليق كان عبثاً أو صدفة ، أو كان عن غير قانون إلهي ، ولم يخلق هذا الكون الفسيح بدقائقه ونظمه ، كل هذا الاعتقاد ليتفلت الإنسان من ضوابط الحساب والمسؤولية ، ومن التكليف ، وليتفلت الإنسان من كل الإيقاع المنتظم لسيره في الحياة ، ولتحركه في ساحته الحيوية التي أوجدها الله له .

نأتي اليوم لنتحدث عن مسألة ، هذه المسألة تتعلق بخصوصيات الإنسان ، وبتكوين الإنسان ، هل هذه في الجبلة ؟ بالطبع ؟ هل هذه بالفطرة ؟ النقاط أو الخواطر أو الزوايا الضعيفة في النفس الإنسانية .

الله عز وجل يصف الإنسان في القرآن الكريم بالهلع ، وبالضعف ، وبالعجلة ، كيف نتلمس هذه المسألة في نفسية وتكوين الإنسان ؟ .

كيف نتلمس الهلع والضعف والعجلة في نفسية وتكوين الإنسان ؟

الدكتور :

الحقيقة أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، أن هذه النقاط نقاط الضعف هي كمال مطلق الدليل :

حينما أقتني آلة غالية جداً ، وذات نفع كبير جداً ، وتركيبها معقد جداً ، صلاحها صعب جداً ، يضعون في الآلة نقطة ضعف على طريق إمدادها بالكهرباء ، فإذا جاء تيار كهربائي مفاجئ يمكن أن يحرقها ، هذه النقطة الضعيفة تسيح ـ الفيوز ـ وينقطع التيار ، هل هذه القطعة التي اسمها الفيوز كمال أم نقص ؟ لا ، كمال مطلق ، لأن هذه النقطة الضعيفة حمت الآلة من العطب حماية كاملة .

فلذلك الله عز وجل خلق الإنسان هلوعاً ، وخلقه ضعيفاً ، وخلقه عجولاً ، وهذه نقاط ضعف في أصل خلق الإنسان لا يحاسب عليها ، هذه جبلته ، وهذه فطرته ، ولكنها ضمان بسلامته ، وضمان لسعادته .

1 – صفة الهلع :

نبدأ بالنقطة الأولى ، وهي :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

والله عز وجل فسر هذه الكلمة فال :

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج)

فهو حريص على ما في يديه ، ينهار عند خبر سيء ، لماذا ؟ هذا ضعف في خلق الإنسان ، لو تصورنا أن الإنسان لا يجزع ، كيف يعالجه الله عز وجل من الضياع إلى الهدى ؟ كيف يأخذ بيده إلى بابه ؟ كيف يحمله على التوبة ؟ كيف يجعله يؤدي العبادات ؟ كيف يجعله يسير على منهج الله الصحيح، هذا كله بسبب أن الله سبحانه وتعالى خلق فيه هذا الضعف ، إذاً :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

الحقيقة التي أتمنى أن تكون واضحة هي أن الإنسان حينما يشعر أن شيئاً يزداد حجمه في جسمه تنهار أعصابه ويسارع إلى طبيب ، يصوِّر ، يأخذ خزعة ينقلها إلى بلد أجنبي ، لولا أنه جزوع ما فعل هذا ، ثم يدعو الله ، ثم يتصدق ، ثم يبدأ يصلي ، لولا هذا الضعف في الإنسان لما تاب هذا الإنسان ، ولما عاد إلى الله إنسان ، ولما أقبل على الله إنسان ، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه فيسعد بافتقاره ، ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته ، فشقي باستغنائه .

هناك حِكَم بالغة جداً لا نعرفها إلا عند فقدها ، هناك نِعَمّ كثيرة نظنها نقائص هي في الحقيقة نِعَم .

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

أولاً .

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

إذاً الطريقة الوحيدة إلى التوبة ، وإلى الصلح مع الله ، وإلى الإقبال عليه ، وإلى تطبيق منهجه ، وإلى أداء الواجبات ، وإلى تحقيق الأهداف النبيلة التي خُلق من أجلها أساسها أنه جزوع ـ إذا أصابته صدمة

يعود ويتذكر ـ الله عز وجل لأنه هو رب العالمين ، إذا ساق له شدة يلقي في روعه أن هذه من أجل كذا، إذا أتلف له ماله يلقي الله في روعه أن هذا الإتلاف للمال بسبب أنك كسبت مالاً حراماً على حساب ما يصلح المؤمنين ، أو الذين اشتروا هذه البضاعة ، البضاعة فيها فساد ، فيها غش ، مواصفاتها ليست جيدة ، أوهمهم أنها من أعلى مصدر ، فيأتي إتلاف ماله كتأديب له على أنه أساء في علاقته مع الآخرين ، لولا أنه جزوع لما تاب إنسان ، ولما اصطلح مع الله إنسان ، ولما أقبل إنسان ، ولما عاد إنسان إلى الحق .

أنا أقول ، وأنا متأكد من قولي : إنك إذا دخلت إلى مسجد ، ورأيت فيه آلاف مؤلفة ، فتسعة أعشار هؤلاء ساق الله لهم بعض الشدائد حتى عادوا إليه ، واصطلحوا معه ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

((ما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم الآية : 41)

البعض وليس الكل .

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

الإباحية انتشرت ، فجاء الإيدز ، الآن يخاف الإنسان من هذا المرض ، هذا هو :

(بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

إذاً : أن يكون الإنسان جزوعاً هذه نعمة مبطنة ، لولا هذه النعمة لما اصطلح إنسان مع الله .

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

إذا أجرى تحليلا ، وكان في التحليل خبر سيء جداً لا ينام الليل ، ثم يحاسب نفسه ، ثم يراجع نفسه ، ثم لعله ينهج طريقاً آخر ، لعله يقلع عن معصية استقر عليها ، إذاً : من نعمه الكبرى أن الإنسان في أصل فطرته جزوع .

أمّا أنه منوع فالمال لا قيمه عنده ، فإذا أنفقه يرقى به ، لو لم يكن للمال قيمة ، للراحة قيمة ، وللمسكن الواسع قيمة ، وللمركبة الفارهة قيمة ، ولما امتحن ، ولما نجح في الامتحان ، المال له معنى كثير ، أنت حينما تنفق المال ، وأنت في أمسّ الحاجة إليه ، حينما تؤثر أن تقدم شيئاً لأخيك المحتاج ، حينما تؤثر القيمة على المصلحة ، والمبدأ على الشهوة ، أنت ترقى عند الله عز وجل ، لو أن المال لا قيمة له

فلا معنى لإنفاقه إطلاقاً ـ بالمخالفة يرقى ، بمخالفة النفس يرقى ـ بمخالفة المنع ، لولا أن للمال قيمة كبيرة جداً عند الإنسان لما امتُحِن ، والدليل :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران)

لولا أن الإنسان يشتهي المرأة كيف يكون عفيفاً ؟ يبذل جهد كبير حتى يكون عفيف حتى يرقى عند الله. سيدنا يوسف بلغ أعلى المراتب حينما قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

إذاً لولا أن الإنسان حريص على ما بيده ، فإذا أنفقه في سبيل الله ارتقى إلى أعلى عليين ، على درجة الإنسان حريص على حياته ، فهؤلاء الذين يضحون في حياتهم على سبيل مبدئهم ، وفي سبيل أمتهم ، هؤلاء يرقون عند الله رقي كبير جداً .

إذاً :

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

هذا استثناء دقيق جداً .

بالمناسبة أستاذ علاء ، أنت إذا قلت : إنسان ، فهذه الكلمة تنطبق على ستة آلاف مليون ، فإذا أضفت صفة واحدة لها ، وقلت : إنسان مسلم ، مليار ونصف ، كنا ستة مليارات فأصبحنا مليارا ونصفا ، فإذا أصفت وقلت : إنسان مسلم عربي ، 300 مليون ، فإذا قلت : إنسان مسلم عربي مثقف ، 100 مليون، فإذا قلت : إنسان مسلم عربي مثقف طبيب نصف مليون ، فكلما أضفت صفة ضاقت الدائرة .

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج)

ضاقت الدائرة ، هذه أول صفة :

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

(سورة المعارج)

المذيع :

ضيق الدوائر بدوائر أخرى حتى وصل إلى الخلاصة .

الدكتور :

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكف شهواته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي ، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له حلما ، والظلمة نورا يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، ويقسم علي فأبره ، أكلأه بقربي ، وأستحفظه ملائكتي ، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[رواه الديلمي عن حارثة بن وهب]

وهناك صفات كثيرة لهؤلاء المصلين ، نرجو الله في حلقات قادمة أن نعود إليها .

إذاً نقطة الضعف الأولى في الإنسان أنه هلوع .

الهلوع لها شقان :

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

إنها نقاط ضعف في أصل بنائه النفسي ، وهي لصالحه ، وهي كمال مطلق له .

المذيع :

كحاسة اللمس ، عندما تقترب اليد من منبع نار فيه حرارة عالية ، مباشرة وبأمر لا إرادي ترتد اليد حتى لا تصاب بالهلاك ، وتتحسس البرودة بنفس الشيء ، هذه الخاصية عند الإنسان هي ليست نقصا ، وإنما هي كمال ، وتمام الخلق ، كما تفضلت ، فهلوع من عوامل أمان لتمام كماله بكل معنى الكلمة .

الدكتور :

أؤكد لك هذا المعنى بأن الإنسان هداه الله بادئ ذي بدء لمصالحه ، فالإنسان أكل طعاماً ساماً يتقيؤه ، لو مال قليلاً يصحح استقامته ، بفعل دوائر الأذن الداخلية ، دوائر التوازن ، فالإنسان في البداية هداه الله إلى مصالحه ، ثم هداه إليه ، ثم هداه إلى الجنة .

المذيع :

جئنا بعد الهلع إلى مسألة الضعف .

2 – صفة الضعف :

الدكتور :

الإنسان ضعيف ، مثلاً : بعد عمر معين يضعف بصره ، يضعف سمعه ، قد يحلل دمه فإذا فيه علل كثيرة ، تلتهب مفاصله ، يشعر بآلام في ظهره ، كان من الممكن أن يبقى الإنسان بأشد حالاته إلى ساعات موته ، ولكن هذه التطورات التي تصيب جسمه بعد سنٍ معينة هي إشارات لطيفة جداً ، رسالة من الله ، أن يا عبدي قد اقترب اللقاء بيننا ، فهل أنت مستعد له ؟ قضية الإنسان عندما ينحني ظهره ، ويضعف بصره ، ويشيب شعره قضية مصيرية .

((عبدي كبرت سنك ، وانحى ظهرك ، وضعف بصرك ، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

تعصي الإله وأنت تظهر حب ه ذاك لعمري في الـمقال شنيع

لـو كان حبك صادقا لأطعته إن المــحب لمن يحب يطيع

***

فـوا خجلي منه إذا هو قال لي يا عبدنـــــا ما قرأت كتابنا

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمـعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً فانتظر به مــــا جاء عهدنا

فـأحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعنا

فلو شاهد عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنـــا لغيرنا

ولـو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب الـعجب و جئتنا

ولـو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الـذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولـو نسمت من قربنا لك نسمة لـــمت غريباً و اشتياقاً لقربنا

فـما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قـــلنا له قد جهلتنا

***

الحكمة مِن خلق الإنسان ضعيفا :

إذاً : الإنسان ضعيف ليكون قريباً من الله ، ليفتقر في ضعفه .

أستاذ علاء ، كلام دقيق جداً ، خُلق الإنسان ضعيفاً ليفتقر إلى الله بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه ، والآية تقول :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

فأحياناً القوة والغنى تعمي الإنسان ، تعمي بصره ، يصبح طاغية ، فلذلك الضعف سبيل إلى الافتقار إلى الله .

مرة سأل وزير ملِكا : بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منِعت عنك ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : فإذا منع إخراجه ؟ قال : بنصفي ملكي الآخر .

كل إنسان في رمضان ، ولا سيما إذا كان رمضان في أشهر الصيف ، بعد الساعة الثانية عشرة كل خواطره في الماء ، والشراب ، وأحياناً الإنسان في رمضان يعرف ضعفه ، أنه يكون شخصية مهمة جداً على أعلى مستوى من العلم ، كل أهدافه كأس ماء يشربه ، فالإنسان ضعيف ، خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، ويسعد بافتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته ، وشقي باستغنائه .

المذيع :

الصفة الأخيرة ؟

3 – صفة العجلة :

الدكتور :

متى يرقى الإنسان ؟ حينما يخالف طبعه ، طبعه عجول ، يحب الشيء الآني الحالي ، الآن معظم الناس يعيشون لحظتهم ، بصرف النظر عن صواب عملهم أو خطئه ، يعيشون لحظتهم ، أما المؤمن فيفكر في المكان البعيد ، قد يختار الجنة ، قد يختار الآخرة .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً)

(سورة الإسراء)

فإذا مشى الإنسان مع طبعه يختار الشيء العاجل ، لأنه عجول ، يختار المكسب السريع ، والمال ، ولو كان من حرام ، إذا كان وفيراً يختاره ، أما المؤمن فإنه يعاكس فطرته ، من هنا يختار هدفه البعيد،

يختار الجنة ، يختار الآخرة ، فهذا الذي يرقى بالإنسان ، الإنسان لا يرقى لو أن طبعه مُهُول ، لا يرقى باختيار الجنة ، لكنه يرقى باختيار الجنة إذا كان طبعه عجولا .

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

(سورة الإسراء)

المذيع :

سيدنا إبراهيم :

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

(سورة طه)

المعنى الإيجابي للعجلة :

هذا المعنى الآخر ، يبادر بالأعمال الصالحة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((بادروا بالأعمال سبعا : ما ينظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال ـ الذي يدعي الحرية ، ويسفك الدماء ـ فإنه شر غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

هنا نأخذ معنى آخر :

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

(سورة آل عمران الآية : 133)

المذيع :

الآن في محطتنا العلمية لهذه الحلقة ، ماذا اخترت لنا سيدي الأستاذ ؟

الخلية الحية آية من آيات الله وليست وليد الصدفة :

الدكتور :

الحقيقة عندنا مشكلة ، أن أكبر مشكلة تواجه نظرية التطور التي نحن في صددها هي أن بنية الخلية الحية معقدة إلى درجة كبيرة ، حيث يستحيل ظهورها بعوامل المصادفة ، إن أكبر مشكلة تواجه نظرية التطور هي أن بنية الخلية الحية معقدة إلى درجة كبيرة بحيث يستحيل ظهورها بعوامل المصادفة . أستاذ علاء ، لو وضعنا عشر ورقات بكيس مرتبة من واحد إلى عشرة ، احتمال أن يأتي طفل ،

ويسحبها فتأتي مسلسلة واحد على عشرة آلاف مليون حالة ، لذلك قال بعضهم : ذرة الحمض الأميني لا تكفي ذرات لتصنعها صدفة ، مبدأ الصدفة مبدأ تحت الأقدام ، لا يعقل ولا يقبل ، ولا يقبل به أي عاقل.
شيء آخر ، تتكون جميع أجزاء الخلية من دقائق في غاية التعقيد ، قديماً لم تكن هناك مجاهر عميقة ، الآن عندنا مجهر الكتروني يكبر 400 ألف مرة ، المجاهر التقليدية ظهرت خلية قطعة مقسمة ، كما بدت هنا ، البنية المعقدة للخلية المعقدة معروفة حديثاً ، فتبدو هذه الخلية تحت المجاهر الحديثة معقدة غاية التعقيد ، مؤلفة من آلاف الأقسام التي تعمل معاً كبنك معلومات ، ومصنع ، ومخزن ، وتصريف إدارة ، حتى إن لها غشاء عاقلا يمنع دخول ما لا تريد .
شيء آخر ، أنه لكي تستطيع الخلية الاستمرار في الحياة كان من الضروري وجود جميع هذه الأعضاء والأجزاء بنفس الوقت ، أما ظهور هذا النظام المعقد جداً مصادفة فأمر مستحيل تماماً ، ولا تستطيع المختبرات الأكثر تطوراً إنتاج خلية حية واحدة من مواد غير حية ، مستحيل وألفُ ألفِ ألف مستحيل أن تظهر خلية حية من أشياء غير حية ، نظرية " داروين " تقوم على هذا ، أن الخلية الحية ظهرت طفرة من أشياء غير حية ، وبدت استحالة هذه العملية إلى درجة أدت إلى تركها كلياً ، وعدت المحاولة بقيام أي تجربة بهذا الصدد محاولة عقيمة ومستحيلة ، أما نظرية التطور فتدعي أن هذه العملية التي عجزت عقول البشر جميعاً مع كل تقنياتهم المتقدمة عن تحقيقها قد تمت سابقاً عن طريق المصادفات العشوائية .
العلماء يقولون : إن ظهور خلية حية في الوجود نتيجة المصادفات يشبه ظهور طائرة بوينغ 747 عن طريق انفجار تم مستودع للحديد ، أو ظهور قاموس (لاروس)منتجات في مطبعة ، إنه شيء مضحك.
الحقيقة أن علماء الكيمياء الحيوية اكتشفوا الحموض الأمينية التي نعبر عنها بـ (دي آي إي)فيها تعقيبات تفوق حد الخيال ، والتصميم المذهل لهذه الأشياء قد لا يصدقه العقل ، وقد اعترف العالم فرانسيسكو الذي حاز على جائزة نوبل لاكتشافه أن هذه البنية معقدة مثل بنية (دي آي إي)لا يمكن أن تظهر إلى الوجود نتيجة المصادفات ، وقد اضطر إلى هذا الاعتراف مع أنه من أنصار " داروين " ، إن جزئي (دي آي إي)جزئية عملاقة موجودة في نواة كل جزئية حية ، والخواص المادية جميعها التي يملكها كل مخلوق حي مربوطة بشكل شفرات في الجزئية الحلزونية ، فبدأ من لون أعيننا ، وبنية جميع أعضائنا الداخلية ، وانتهاء إلى شكلنا ، ووظائف جميع خلايانا ، نراها موجودة بشكل مبرمج في الأقسام التي يطلق عليها اسم الجينات في هذه الجزئية ، كل صفات أصلها معلمات مبرمجة في نواة خليته ، حوالي خمسة آلاف مليون معلومة ، شيء لا يصدق .
تتألف هذه الشفرة شفرة (دي آي إي)من تماس أربعة جزئيات مختلفة ، فإذا قمنا بتشبه كل جزئية من هذه الجزئيات الأربعة بحرف فإن (دي آي إي)هو بنك معلومات مكون من أربعة أحرف ، وقد تم

خزن جميع المعلومات العائدة إلى الجسم في بنك المعلومات هذا ، ولو قمنا بتسجيل المعلومات الموجودة في (دي آي إي)وكتابتها على الورق لاحتجنا أستاذ علاء إلى مليون صفحة تقريباً من صفحات دوائر المعارف ، وهذا يعدل أربعين ضعفا من دائرة المعارف البريطانية التي هي من أكبر دوائر المعرفة للإنسان في العالم .

المعلومات المثبتة على النواة في الخلية (دي آي إي)تساوي أربعين ضعف المعلومات في الموسوعة البريطانية .

الآن ملعقة فيها من هذه العناصر تكفي لكل ما ألف وطبع من آدم إلى يوم القيامة ، شيء لا يصدق ، هذا لن يكون صدفة .

(خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

هناك من يعتقد أنهم خلقوا صدفة ، أما الله عز وجل فيقول :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

شيء آخر ، إن نظرية التطور تحاول إرجاع جميع الكائنات الحية إلى المصادفات تبقى عاجزة عجزاً مطلقاً أمام الترتيب المذهل لجزئيات (دي آي إي)من الواضح أن البروتينات والجزئيات (دي آي إي)والخلايا ، وجميع الأحياء ليست إلا نتيجة وأثراً لخلق في درجة الكمال ، وما دام هناك مثل الخلق المذهل والكامل فلا بد أن هناك خالقاً متصفاً بالقدرة ، وبالعلم المطلق اللانهائي .

أستاذ علاء ، حينما يتأمل الإنسان أي كائن حي في الطبيعة إلى مدى عظمة الخالق ، فكل كائن حي من ملايين الأحياء الموجودة في الطبيعة نموذج من نماذج الفن الرائع والجمال الفني البديع ، هذه الأحياء تشير إلى خالقها ، وتعرفنا به ، وتشير إلى الله عز وجل خالق السماوات والأرض وما بينهما .

ولله في كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

ما استمتعنا به قبل قليل هو دليل واضح ، وفي كينونة الإنسان لا يمكن أن ينكر ، ولا يمكن أن ينكر الخالق هذه العظمة التي هندست ، وخلقت ، ورتبت ، ونظمت ، لا يمكن أن يشيح بوجهه عن هذا الإنسان إلا الاستكبار أو لمصلحة ، كما تفضلت ـ هذا محور هذا اللقاء ـ .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (21-95) - مقومات التكليف : الفطرة - الفطرة والصبغة – سمك السلمون
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-03-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكيرية :

أستاذنا ، نحن تحدثنا في الحلقات السابقة عن مقومات التكليف ، بدأنا بالكون ، وأفردنا له الكثير ، والعقل وأفردنا له الكثير ، ووصلنا إلى الفطرة ، وكنا قد تحدثنا عن الفطرة ، وهذه الفطرة أو هذه الجبلة التي خلق الله الإنسان عليها ، وتحدثنا في هذه الفطرة ، وفي هذا التخليق ، وفي هذا الخلق ، هنالك نقاط ضعف عند الإنسان .

الدكتور راتب : هي كمال مطلق .

الأستاذ علاء : التي تحدثنا بأن تبينا من خلال الحديث معك بأنها كمال مطلق ، حيث تحدثنا في مسائل الضعف عند الإنسان ، وهو هلوع ، كما وصفه القرآن الكريم ، الهلع يقسم قسمين ، كما فسرت في الحلقة الماضية الجزوع والمنوع ، ثم الضعيف ثم العجول ، وفي كل هذه الصفات التي تبدو للعيان مباشرة بأنها هي صفات ارتكاس ، أو عدم كمال ، أو هي صفات تعني الضعف ، وتعني عدم الكمال في الخلق ، تبينا بأن هذه الصفات هي أساسية ، وهي ضرورية لهذا المخلوق لكي يكتمل خلقه ، ولكي يكتمل تشكيله ذاتياً نفسياً ومادياً ، وبالتالي فيها الكمال مع أن ظاهر هذه الصفات هو النقص .

الدكتور راتب :

ليحقق الهدف من وجوده .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الكريم نتحدث عن الفطرة ، وهنالك من يقول : هل الفطرة هي الصبغة ؟ هل الصبغة هي الطبع ؟ هل الفطرة والصبغة والطبع هي مقومات التكليف ، أو ما علاقة هذه الصفات بالتكليف ؟

الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ

الدكتور راتب :

شكراً أستاذ علاء ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، هذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب الله عز وجل فيه كل شيء ، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، الله عز وجل يقول :

(الرَّحْمَنُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن]

أي لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه ،

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

أي أنزله ، وكلف النبي الكريم أن يبينه .

(خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

هذا ترتيب رتبي ، وليس ترتيباً زمنياً .

معنى الترتيب الرتبي :

الأستاذ علاء : الترتيب رتبي وليس زمني .

الدكتور راتب : أي لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه ، الآن القرآن يقول :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

عذاب الفطرة عند الخروج عن منهج الله :

صممت تصميماً رائعاً ، لأنها مجبولة بتوافقية عجيبة مع منهج الله ، فإذا ما خرجت عن منهج الله تكتئب ، وتتألم ، وتتيه ، فلذلك مقياس الإيمان الراحة النفسية ، مقياس البعد عن الله الضجر والقلق والعذاب النفسي والإحباط ، لكن الفطرة هي التي تعذب النفس ، لو أن الإنسان فطر على حب الكذب ، مثلاً يكذب ولا يتألم ، لو فطر الإنسان على الظلم لظلم ، ولا يتألم ، مِن أروع ما في الفطرة أنها مرجع، الفطرة مقياس ، فأنت لو لم تطلب العلم ، لو لم تتعلم ، لو لم تفقه شيئاً عن كتاب الله ، لو لم تتابع دروس العلم فأنت حينما تخرج عن منهج الله لأن فطرتك متوافقة توافقاً تاماً مع منهج الله هي المرجع ، فالكآبة هي عذاب حينما تبتعد عن منهج الله ، إذاً الفطرة لا تعني أن الإنسان كامل إطلاقاً ،

الفطرة تعني أن الإنسان يحب الكمال ، وفرق كبير بين أن يكون الإنسان محبا للكمال فحسب ، وبين أن يكون كاملاً ، لا تعني الفطرة أن الإنسان عادل ، لكنه يحب العدل ، فإذا ظلم تعذبه فطرته ، كأن الله سبحانه وتعالى جعل الفطرة مرجعاً أخلاقياً لنا ، قال تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)

[سورة الشمس]

فألهمها حينما تفجر إلهاماً داخلياً أنها فجرت ، من دون تدخل خارجي ، لو أن الإنسان جلس في جزيرة لم يتلقَ أية معلومة عن منهج الله ، فإذا ظلم أمه مثلاً يشعر بالضيق ، هذه من نعم الله الكبرى ، لذلك فقد منح الله الإنسان عقلاً كافياً لمعرفته ، منحه فطرة كافية لمعرفة خطئه .

الأستاذ علاء :

لتصحيح خطئه ، إذاً سيدي التفسير :

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

استطعت أن أفهم من حديثك تفسير ألهمها أي بمعنى علمها كيف تتحسس بالخطأ ، وكيف تتحسس للتقوى ، وتسر بها ، وليس ألهمها كما يظن العوام والعياذ بالله المعنى الجبري .

المعنى الجبري مرفوض عقلا وشرعا :

الدكتور راتب :

ولا شل الأمة الإسلامية في عصور تخلفها كعقيدة الجبر ، النقطة الدقيقة جداً أن الإنسان مخير ، وفي اللحظة التي نتوهم خلاف ذلك ألغينا الجنة ، ألغينا النار ، ألغينا الثواب ، ألغينا العقاب ، ألغينا العدل ، ألغينا الرحمة ، ألغينا التكليف ، ألغينا حمل الأمانة ، وأصبحت الحياة تمثيلية سمجة ، لذلك لما سأل سيدنا عمر عن إنسان يستحق إقامة الحد عليه في شرب الخمر قال : والله يا أمير المؤمنين ، قدر عليّ ذلك .

بالمناسبة أستاذ علاء ، الإنسان يرغب أن يعزو أخطاءه إلى القدر فقال : << أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> .

مرة ثانية ، في اللحظة التي يتوهم فيها الإنسان أن الله أجبره على أفعاله كلها هذه اللحظة تعني ألغي التكليف ، ألغيت الأمانة ، ألغي الثواب ، ألغي العقاب ، ألغيت الجنة ألغي النار .

ألقاه في اليم مكتوفاً و قال له إيّاك إياك أن تبتل بالماء

***

الأستاذ علاء :

ما دور العقل مع الجبر ، لا معنى للعقل مع الجبر .

دور العقل مع الجبر :

الدكتور راتب : أنا ما سمعت إنساناً حقق تفوقاً قال : إن الله قدّر لي هذا التفوق ، لماذا في الأمور الإيجابية ينسبها إلى ذاتك ، وفي الأمور السلبية تنسبها إلى الله عز وجل ؟ قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأعراف : 28]

هناك كلمات يقولها العوام هي الكفر بعينه ، يقول لك : " طاسات معدودة بأماكن محدودة " ، كأن الله أجبره على أن يشرب الخمر ، تقول له : أدِ ما عليك من عبادات ، فيقول لك : حتى يأذن الله ، وكأن الله لم يأذن له ، وهذا كله خلاف نصوص القرآن الكريم ، لذلك أنا أنصح الإخوة المشاهدين أن يجروا جرداً لمعتقداتهم ، هناك معتقدات وصلت إلينا من كلام العوام ، من دعاة لا يعرفون حقيقة الدين ، هذه تشل الإنسان .

إن الطالب يأتيه من يقول له : إن المدرس سوف يعطيه الأسئلة ، فانتهت دراسته ، لا يدرس ، والفكرة لا أصل لها .

أستاذ علاء ، لولا أنه ما من شيء تعتقده إلا وينقلب إلى سلوك لولا هذه الحقيقة لقلتُ : اعتقد ما شئت، لكن ما من عقيدة ، ما من تصور ، ما من فهم ، ما من شيء استقر في ذهن الإنسان إلا ويترجم إلى سلوك ، لذلك كما قلت في الحلقة السابقة : الخطأ في الميزان لا يصحح ، أما الخطأ في الوزن فلا يتكرر .

إذاً : لولا أن النفس فطرت فطرة كاملة لما كانت مرجعاً للأخلاق .

الأستاذ علاء :

أنا أخذت من وقت الحلقة في هذا الموضوع لأهميته .

الدكتور راتب :

أضرب بعض الأمثلة ، أليس هناك حيوانات تعيش في المياه المالحة السوداء ، وهي في أشد حالات الراحة النفسية ؟ معنى ذلك أن هذه الحيوانات جبلت على هذه المياه المالحة ، الخنزير يأكل القطائس ، يأكل الجيف ، وعندنا أمثلة في الخلق .

هناك حيوان يأكل الشيء الذي يستقذره الإنسان ، معنى ذلك أن له جبلة خاصة ، فالإنسان لأنه مكرم عند الله فطره فطرة عالية هي مرجع له ، وهي محاسب له ، وهي كما تفضلت سبب لتصحيح سلوكه ،

فالفطرة لا تعني أن الإنسان كامل ، لكنه يحب الكمال ، الإنسان المتفلت يقدس إنسانة ملتزمة ، مع أنه يريدها متفلتة ليحقق شهوته ، لكنه يقدس الملتزمة .

مرة رجل من أكبر الملحدين في سان فرانسيسكو أستاذ رياضيات ، هذا الرجل بسبب أنه انتقد أستاذ الديانة سابقاً طرده والده من البيت ، واعتنق الإلحاد ، لكنه على مستوى من الذكاء مذهل ، فكان الأول في الرياضيات ، وكان أستاذه يقول له : اخرج من القاعة ، ولك علامة تامة ، لأنه كان يربكه ، وهو في أعلى منصب في جامعة سان فرانسيسكو تأتيه طالبة شرق أوسطية متحجبة ، يقول في كتاب ألفه ، وترجم إلى اللغة العربية : هذه الإنسانة شعر أنها تنطوي على مبادئ وقيم نادرة ، فالفتيات في الصيف في أمريكا شبه عرايا ، إنها محجبة حجاباً تاماً ، فقال : أنا رأيتها إنسانة قديسة ، ولم أستطع أن أحدّق في وجهها ، ولأنها تحضر دكتوراه في الرياضيات ، فأنا أخذت فكرة أخرى عن فتيات الشرق الأوسط، وعكف من توه على قراءة القرآن الكريم ، وصل إلى آية :

(فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

فاعتبر هذه الآية من أغلاط القرآن الكريم ، فاتصل بصديقه موريس بوكاي رئيس المشرحة في فرنسا، وقال له : هذه الآية ما تفسيرها ؟ قال : هذا الذي قال الله عنه :

(فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

جيء به إلى هذه المشرحة ، ورممته ، ورأيت آثار الملح في فمه .

الأستاذ علاء :

وهو فرعون الذي تبع سيدنا موسى .

الدكتور راتب :

الإنسان يحب الكمال ، وليس ضرورياً أن يكون كاملاً :

هذا جيفري لنك الملحد أستاذ الرياضيات ، هو الآن أكبر دعاة أمريكا الإسلاميين ، لأنه رأى إنسانة عندها قناعات تنطلق من فكر ، من مبادئ ، من قيم ، فأنا أقول لك أستاذ علاء : معنى الفطرة أن الإنسان يحب الكمال ، وليس ضرورياً أن يكون كاملاً ، الإنسان يحب الكمال ، يحب الصدق ، يحب الأمانة ، يحب الوعد الصحيح ، يحب الإنصاف ، يحب العدل ، هذه فطرة الإنسان في كل زمان ومكان، من آدم إلى يوم القيامة ، حتى الذي يسرق يوزع السرقة على فريق عمله بالتساوي بالعدل ، كما قلت البارحة : الفطرة لا أن تكون كاملاً ، أن تحب الكمال ، والفطرة مرجع أخلاقي ، إذا صح أن

العقل مقياس علمي فالفطرة مقياس أخلاقي ، الآن أحدث الطائرات والمركبات الفارهة جداً العدادات لوحة بيضاء في خلل يظهر على الشاشة ، والإنسان بأعلى درجة من الإتقان :

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل : 88]

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

فالفطرة لا تعني الكمال ، لكنها تعني حب الكمال ، التفوق إلى الكمال ، وأشد الناس بعداً عن الله أشد الناس انغماساً في الرذائل وفي المعاصي والآثام يحب الكمال .

إن امرأة بغي إذا رأت إنسانة تحمل ولدها ، وهي ربة أسرة ، أنا أتأكد أنها تذوب شوقاً إلى أن تكون سيدة منزل شريفة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، حتى لا تحب لابنتها ما كان عليه حالها .

الدكتور راتب :

هناك شيء يكاد لا يصدق ، الذي له موقع في محاربة الدين يحرص على أن تكون ابنته متدينة ، شيء عجيب ، هذه الفطرة .

الأستاذ علاء :

نأتي الآن الصبغة ، ما الفرق بين الفطرة والصبغة ؟

الفرق بين الفطرة والصبغة :

الدكتور راتب : إذا كانت الفطرة أن تحب الكمال ، ولا يعني أن تكون كاملاً فالصبغة هي أن تكون كاملاً ، وخزائن مكارم الأخلاق مجموعة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً ، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تتصل بالرحيم ، وأن تكون قاسياً ، قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران : 159]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد عند اتصالك بنا كنت رحيماً ، مستحيل أن تتصل بالعدل ، وأن تكون ظالماً ، مستحيل أن تتصل بالحكيم ، وأن تكون غير حكيم ، مستحيل ـ أستاذ علاء ـ هي الثمرة الكبرى من الصلاة أن تتخلق بالكمال الإلهي ، لكن هذه الصلاة كما قلت البارحة : ليس كل مصل

يصلي ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكفّ شهواته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب ، وآوى الغريب .

الصبغة إحدى أكبر ثمار الصلاة ، الفطرة أن تتوق إلى الكمال ، لكن الصبغة أن تكون كاملاً ، لا كمالاً ذكائياً ، الإنسان الذكي جداً يستطيع أن يقوم بدور تمثيلي رائع في الأخلاق ، أما إذا هددت مصالحه ينقلب وحشاً ، وقد بدا بعد أحداث أيلول أن هذه الحضارة الكبيرة التي خطفت أبصار أهل الأرض ، وأنهم أعجبوا بها ، وكان الذي يحمل البطاقة الخضراء كأنه داخل إلى الجنة ، هذه الحضارة سقطت في الوحل ، وبقيت قوة غاشمة ، أنا أقول : هناك كمال أساسه الذكاء ، ذكي جداً ، لكن هذه حالة مادامت مصالحه مؤمَّنة ، وإذا هددت مصالحه يصبح وحشاً كاسراً ، لذلك قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران : 179]

هذه الآية تنطبق على الأفراد ، وعلى الدول .

إن دولة ترفع شعارات حرية وديمقراطية ، وحقوق إنسان والعدالة الاجتماعية ، و العولمة واحترام جميع الأديان ، حينما تصاب مصالحها تنقلب إلى دولة متوحشة ، إذاً الفطرة أن تحب الكمال ، والصبغة أن تكون كاملاً لا كمالاً ذكائياً مصلحياً طارئاً هدفه كسب الأموال .

هناك شركات عملاقة في العالم صادقة ، بضاعتها متقنة ، وهذا الشيء رائع ، لكن هذا يندرج تحت نجاحها في عملها فقط ، أما حينما يتصل الإنسان بالله يصطبغ بصبغة الكمال الإلهي ، فلذلك أنا أقول : مستحيل وألف ألف مستحيل أن ترى مؤمناً كاذباً ، أو مؤمناً محتالاً ، أو مؤمناً منحرفاً ، أو مؤمناً قاسي القلب ، قال تعالى :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الزمر : 22]

تتصل بالرحيم ، وتقسو على خلق الله ؟! الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

والله الذي لا إله إلا هو أنا لا أصدق أن يستطيع المؤمن أن يدوس نملة قصداً ، فهؤلاء الذين يقصفون البلاد والعباد ، ويدمرون الشعوب من أجل مصالحهم ، ويكذبون على الناس ، هؤلاء قطعاً ما عرفوا الله .

الأستاذ علاء :

وليس بينهم وبين الله أي صلة ، الصبغة إذاً هل هي التخلق بأخلاق الله عز وجل ؟

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

الدكتور راتب :

نعم هكذا ، لكن الآية الدقيقة :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

[سورة البقرة : 138]

الآية التي توضح المعنى بشكل أدق ، قال تعالى :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران : 159]

بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم ، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك ، ولو كنت بعيداً عنا لامتلأ القلب قسوة ، وترجمت القسوة إلى غلظة وفظاظة ، فلو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، قال تعالى :

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران : 159]

ونحن الآن في أمسّ الحاجة إلى أن يرحم بعضنا بعضاً ، الإنسان يحتاج إلى من يرحمه ، نحتاج إلى أخوة إيمانية نحتاج إلى وحدة نحتاج إلى تعاون نحتاج إلى تضامن لأن العالم أصبح وحشاً كاسراً ، طبعاً هناك موضوع الطبع إن شاء الله في حلقة قادمة .

الأستاذ علاء : والآن مفاجأة .

مِن آيات الله في مخلوقاته : سمك السلمون :

الدكتور راتب :

مفاجأة في موضوع علمي يتحدث عن سمك السلمون ، وإلى الموضوع العلمي والفيلم المتعلق بسمك السلمون .

يعيش على شواطئ الأنهار في شرق أمريكا الشمالية ، وفي غربها واحد من أغرب الرحالين في العالم، إنه سمك السلمون ، هذا السمك يواجه أقسى الظروف ، وكأنه آية من آيات الله الدالة على عظمته ، فالصنعة تدل على الصانع ، والخلق يدل على الخالق ، هذا السمك يضع بيوضه في أعالي الأنهار في الجبال في أمريكا الشرقية والغربية ، هذه البيوض حينما تفقس تخرج السمكة ، ومعها محفظة غذائها كما ترى ، هذا صنع الله الذي أتقن كل شيء .

تبدأ رحلتها من أعالي الأنهار باتجاه المحيطات شرقاً باتجاه المحيط الأطلسي ، وغرباً باتجاه المحيط الهادي ، وقد تطول الأنهار إلى آلاف الكيلو مترات ، وتستمر هذه الرحلة أشهراً عديدة كي تصل إلى ساحل البحر ، وتمر في المياه الجارية ، كانت سمكة صغيرة ومعها محفظة غذائها ، وبدأت تنمو في النهر ، لكن هذا السمك من فضل الله عز وجل وحكمته ورحمته وتنفيذاً لقوله تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه]

لأن هذه الأسماك لها رحلة قاسية جداً تواجه ظروفاً صعبة جداً مزودة بدورة قوية .

تبدأ آلاف أسماك السلمون بالهجرة على طول النهر في أول فصل الربيع ، وتصل بعد مدة طويلة إلى مكان فسيح ، وليكن في هذا الفيلم المحيط الهادئ ، وتسير من سواحل أمريكا الشمالية باتجاه ألاسكا ، كما يأتي السهم ، وتنزل إلى أن تصل إلى سواحل اليابان ، رحلات بآلاف الكيلو مترات ، أستاذ علاء ، وبمجرد وصولها إلى مياه البحر المالحة تحدث فيها تغييرات بنيوية في بنيتها الوراثية من أجل أن تتكيف بمياه البحر .

بالمناسبة ، الأسماك التي تعيش في المياه العذبة لا يمكن أن تعيش في المياه المالحة ، يجري عليها تطويرات بنيوية كي تتكيف مع مياه البحر المالحة ، وقد تستغرق رحلتها أربع سنوات ، وتقطع عشرات ألوف الأميال .

الآن وصلت إلى شواطئ اليابان ، وأرادت أن تعود إلى مكان ولادتها ، حيث ولدت ، الشيء الذي لا يكاد يصدق كيف تعرف النهر ؟ هي مزودة بجهاز مغناطيسي ينبئها بجهة الشمال المغناطيسي ، وهذا من آيات الله الدالة على عظمته ، لكن السؤال الآخر : كيف تعرف مصب النهر لو اختلفت زاويتها درجة واحدة لجاءت بعد ألف كيلو متر ، هي الأسماك الوحيدة التي لها حاسة شم تشبه حاسة شم الكلاب، لكل نهر رائحة خاصة ففضلاً عن أنها تتجه من اليابان إلى سواحل أمريكا الغربية ، أو من الأطلسي من فرنسا إلى سواحل أمريكا الشرقية عن طريق المغناطيس الشمالي .

الآن عندها حاسة شم رائعة جداً تكشف لها رائحة النهر الذي أتت منه ، الآن تصارع الشلالات كما بدأ في الفيلم قبل قليل ، تقفز أربعة أمتار كي تتجاوز الشلالات ، ولا يستقر بها المقام إلا إذا عادت إلى مكان ولادتها .

وصلت الآن إلى مصب النهر الذي خرجت منه وبعدها .

الأستاذ علاء :

تتعرف .

الدكتور راتب :

وبعدها تعود إلى النهر الذي خرجت منه ، وتعود إلى رأس النهر الذي ولدت فيه ، وكيف تهتدي عبر فروع النهر ، وعبر مصباته ، وعبر شلالاته شيء لا يصدق .

الحقيقة أن هذه الأسماك زودت بجهاز مغناطيسي يرشدها إلى جهة الشمال دائماً ، فبهذا الجهاز تتجه من سواحل فرنسا إلى شواطئ أمريكا الشرقية ، ومن وساحل اليابان إلى شواطئ أمريكا الغربية ، وأجريت دراسات على هذه الأجهزة التي زودها الله بها أجهزة المغناطيس ، وأجهزة الشم كي تكتشف رائحة النهر الذي خرجت منه ، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته ، الله عز وجل يقول :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات : 20]

(انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس : 101]

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)

[سورة النازعات : 30]

الآيات الكونية في القرآن الكريم تزيد على ألف وثلاثمئة آية ، وكلها تبين عظمة الله عز وجل ، ولأنه هذا القرآن كلام الله ، ولأن هذا القرآن لكل البشر ، ولكل الأمم والشعوب إلى يوم القيامة يجب أن يكون أنه دليل كلام الله ، والآيات الكونية التي فيه والتي تزيد على ثلث القرآن تؤكد أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

الأستاذ علاء :

الحقيقة ، تابعنا هذا الفيلم في إعجاز لله عز وجل في خلقه كيف أن السلمون ولد وفقس بيضه في أعالي الأنهار ، وعاد إليه بعد آلاف الأميال ، وفيها تفرعات ، وأيضاً عكس مجرى النهر ، ثم يعاكسه .

الدكتور راتب :

مزود ببنية رائعة جداً وقوية .

الأستاذ علاء :

كما تفضلت هذا يدل على عظمة الخلق ، عظمة خالق هذا الخلق ، وعلى الدقة التي ما فيها فطور ، قال تعالى :

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)

[سورة الملك : 3]

الدكتور راتب :

كيف يُعصى هذا الإله العظيم ؟!

هذا الإله ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟ هذا الإله العظيم يعصى ؟ أنعرض عنه ؟ لعل الله سبحانه وتعالى يهدينا إليه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (22-95) - مقومات التكليف : الطبع - الطبع والتكليف – النحل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-03-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

الحلقات الماضية كنا قد مررنا على مسألة هامة من مسائل مقومات التكليف ، وهي الفطرة ، وتبينا من خلال الحديث مع أستاذنا الكريم أن الفطرة هي المرجعية للإنسان أخلاقياً ، هذه المرجعية أن تحب الكمال ، ولا يعني أنه كامل ، لكن إذا قام بعمل ينافي محبة الفطرة للكمال تؤنب الفطرة النفس بالكآبة وبالأمراض النفسية والضيق ، وإذا توافق العمل والسلوك والمنهج مع الفطرة كانت الراحة النفسية تصاحب هذا الإنسان الذي كلفه الله بالرسالة ، وكلفه بالأمانة ، وتحدثنا عن الصبغة ، وقلت لنا : إن الصبغة ليست كالفطرة ، إنما هي حب الكمال ، والتوق إلى الكمال ، والمرجعية الأخلاقية عند الإنسان، أما الصبغة فهي الاصطباغ بالكمال عند التخلق بأخلاق الله عز وجل ، وقفنا عند موضوع الطبع والتكليف ، ولم يسعفنا الوقت في إكمال هاتين المحطتين .

الإسلام نفس وروح وجسد :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن الإنسان في الأصل نفس وروح وجسد ، نفسه ذاته هي المكلفة في المعاتبة ، هي التي ترقى، هي التي تسمو ، هي التي تسقط ، هي التي تكفر ، هي التي تعتدي ، هي التي تحسن ، نفسك ذاتك ، والنفس لا تموت ، لكنها تذوق الموت ، قال تعالى :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران : 185]

هذه النفس خالدة إلى ما شاء الله قال تعالى :

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)

[سورة الزخرف : 77]

هذه النفس هي ذات الإنسان ، هي الأصل هي التي تدرك ، هي التي ترقى ، هي التي تسقط ، هي التي تكذب ، هي التي تسيء ، النفس لها وعاء هو الجسد ، ترى من خلال العينين ، تنتقل إليها الأصوات

من خلال الأذنين ، تعبر عن ذاتها باللسان ، تستمتع النفس بالطعام والشراب ، تستمع النفس بالطعام والشراب عن طريق خلايا الذوق ، تبطش باليد ، تنتقل بالرجل ، فهذا الجسم وعاء الإنسان ، تماماً كالمركبة ، سائقها هو كل شيء ، صاحب المركبة إما أن يسرع ، أو يخفض السرعة ، إن رأيتها أنيقة ونظيفة فسبب نظافة صاحبها ، إن رأيتها رعناء في قيادتها فمن رعونة قائدها ، فهي تعبر عن صاحبها، الجسم وعاء للنفس ومرتكز له ، فالجسم كالثوب ، إذا بلي يخلع ، ويرمى جانباً ، هو الموت .

العين تحتاج إلى قوة كي ترى ، والروح هو القوة المحركة .

الأذن تسمع بالروح ، تماماً كآلة تسجيل فيها كل الميزات الكاملة ، لكن لا تنطق كي تسمع بها الشريط إلا بالكهرباء ، فالروح تسري في الجسم ، وهي قوة الله عز وجل ، والموت انقطاع قوة الإمداد ، وتلف الوعاء وبقاء النفس .

لكن أنا أقول لك كلمة : الآن من دون كهرباء يمكن أن تنتقل إذا قطع عنها التيار ، وهو الموت ، ويمكن أن تصيبها بالعطب ، فلا تصلح لاستقبال التيار ، وهو القتل ، القتل تحطم هذه البلورة ، فلم تعد صالحة لاستقبال التيار ، أما الموت فهو انقطاع التيار ، وبانقطاع التيار تنقطع الإضاءة ، أما حينما يقتل الإنسان تحكم أجهزته ، فلم تعد صالحة لاستقبال الإمداد الإلهي ، فهو المعني .

النفس هي الخالدة ، فإما في جنة يدوم نعيمها ، أو في نار لا ينفذ عذابها ، وهي المحاسبة ، هي المعاتبة ، هي المكلفة ، هي المؤمنة ، هي الكافرة ، هي المنافقة ، هي التي ترقى إلى الله ، هي التي تبتعد عنه ، هي التي تصاحب الشيطان ، هي كل شيء في ذات الإنسان .

الأستاذ علاء :

وهي المخيرة .

الدكتور راتب : ومكلفة ، قال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب : 72]

خصائص النفس متطابقة مع متهج الله :

إلا أن النفس متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله ، النفس ترتاح إذا أدت ما عليها ، والمثل واضح : فلو أن الإنسان استيقظ على صلاة الفجر ، وصلى السنة والفرض ، ورجع إلى النوم ينام مرتاحاً ، النفس

ترتاح بطاعة الله ، ترتاح أن تكون صادقة ، ترتاح أن تكون أمينة ، ترتاح أن تكون متقنة ، ترتاح أن تؤدي واجباتها ، هذه النفس .

خصائص الجسد متناقضة مع التكليف :

إلا أن الجسم شيء آخر ، الجسد يحب النوم ، ويزعجه أن يستيقظ على صلاة الفجر ، الجسد يحب أن يملأ عينيه بالحسناوات ، ويزعجه أن يغض البصر ، الجسد يسعده أن يأخذ المال ليأكل به الطعام الطيب ، ويزعجه أن ينفقه ، خصائص الجسد متناقضة مع التكليف وهذا التناقض هو ثمن الجنة ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

الجنة كلها ثمنها الضبط ، الإيمان ضبط ، وقلنا سابقاً : الإنسان معه شهوات ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

[سورة البقرة : 212]

هذه الشهوات حيادية ، بالإمكان أن تمارس بلا قيد ولا شرط ، كما يفعل معظم سكان الأرض ، لكن الإيمان أعطانا مسافة مسموحاً بها ، ومنعنا عن مساحات غير مسموح بها ، هذا هو الإيمان ، أن تمارس شهوتك وفق منهج الله ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص : 50]

المعنى المخالف : أنك إذا اتبعت هواك وفق منهج الله فلا شيء عليك .

الجسد خصائصه أن يميل إلى الراحة والاسترخاء والنوم ، وأن يأكل ما يشتهي بلا قيد أو شرط ، وأن يمتع عينيه بما يشتهي بلا قيد ولا شرط ، فيأتي الشرع ليقول له : غض البصر ، أنفق من مالك ، استيقظ وصلِّ ، اضبط لسانك ، هذا التكليف يناقض الطبع ، وهذا التناقض هو ثمن الجنة ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

وقد أثنى الله عز وجل على النفس الذي تلوم ذاتها ، قال تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

[سورة القيامة]

نماذج النفوس في القرآن الكريم :

بالمناسبة النفوس في القرآن الكريم نماذج .

1 – النفس المطمئنة :

قال تعالى :

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي *وَادْخُلِي جَنَّتِي)

[سورة الفجر]

هذه المطمئنة .

2 – النفس اللوامة :

الآن قال تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

[سورة القيامة]

الأستاذ علاء :

تلوم صاحبها

هذا نموذج آخر ، فيها محاسبة .

الأستاذ علاء :

الحوار الداخلي أنك فعلت كذا هذا يجب ألا يكون ، هذا هو الحوار .

الدكتور راتب :

القلب الحي والقلب الميت :

أما الإنسان إذا مات قلبه فقد انتهى ، قال تعالى :

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل : 21]

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

****

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

***

الحقيقة أستاذ علاء أن الفرق كبير بين أن يكون القلب حياً ، وبين أن يكون ميتاً ، القلب الميت لا يعي على خير ، قال تعالى :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة الأنفال : 23]

لذلك هؤلاء الذين ماتت قلوبهم ، وخرجوا من دائرة العناية المشددة أعطاهم الله ما يشتهون ، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام : 44]

كمرض خبيث انتشر بكل جسمك ، فلما سألتَ الطبيب : ماذا آكل ؟ قال : كل ما تشاء ، قال تعالى :

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

[سورة القصص : 78]

إذا سيق إنسان ليعدم لجريمة ارتكبها هل يحاسب على مخالفة سير ؟ فهذا التكليف متعلق بمنهج الله ، وهو مناقض للطبع ، والتناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة .

الشهوات لها قنوات نظيفة تسري من خلالها :

بالمناسبة ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، فليس في الإسلام حرمان ، لكن فيه تنظيم ، وما من شهوة على الإطلاق أودعتْ في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة شريفة طاهرة تسري خلالها .

شهوة المرأة مثلاً لها الزواج المشروع ، تزوجت امرأة جميلة مخلصة محبة ، أنجبت لك أولاداً ملؤوا البيت فرحة ، كبر الأولاد ، ارتقوا إلى مناصب رفيعة ، أنت أبوهم اعتزوا بك ، الحياة وفق منهج الله رائعة جداً ز

أستاذ علاء ، بيت فيه جميع الأدوات الكهربائية ، من براد ، وغسالة ، ميكرو ويف ، مسجلة ، كل الأدوات الموجودة من دون كهرباء لا قيمة لها كلها ، لا شيء ، إذا سرت الكهرباء أصبح لكل جهاز معنى ، صدق أنه إذا سرى الإيمان في قلب الإنسان الزواج له معنى ، ومن دون إيمان يكون مملاً ، وأكثر الأزواج يملّون زوجاتهم ، والزوجات تملّ أزواجها ، الأبوة ليس لها معنى ، الابن عبء على الأب ، العمل ممل ، والحياة من دون إيمان مقفرة متصحرة ، متعبة مملة ، قيعان ، فإذا سرى الإيمان

أصبحت مسعِدة ، والحرفة ما مِن إنسان لا يمل حرفته من كثرة التكرار ، إلا المؤمن إذا كانت حرفته مشروعة في الأصل ، ووفق منهج الله ، وسلك بها الطرق المشروعة ، لم يكذب ، لم يغش ، وابتغى منها كفاية نفسه وأهله ، وخدمة المجتمع ، أنا حينما أكون طبيباً أبتغي خدمة المجتمع ، حينما أكون تاجراً أبتغي خدمة المجتمع ، التاجر الصدوق مع النبيين يوم القيامة ، ابتغى بها خدمة المجتمع ، ولم تشغله عن فريضة ، ولا عن واجب ديني ، انقلبت حرفته إلى عبادة ، أنا أسميها العبادة التعاملية ، كل إنسان يمكن أن تكون حرفته عبادة تعاملية يرقى بها إلى الجنة ، لمجرد ألا تغش المسلمين ، وألا تؤذيهم، وألا تحتال عليهم ، عندئذ أنت ترقى بهذه الصنعة ، أنا أرى أن الحياة لا تصلح من دون إيمان، والمراقبة البشرية مستحيلة ، من يراقبك في الفرن الساعة الثانية ليلاً ؟

الأستاذ علاء :

لا يوجد ضبط مادي ، أو أدوات للضبط المادي والمجتمعي على مدار الساعة ، وفي كل زمان ومكان هنالك للضبط ساعات وأوقات معينة ، لكن كما تفضلت الإيمان يدخل إلى غرف نومه ، إلى حمامه ، إلى كل الأماكن .

الإنسان بين ضبط البشر ومراقبة الخالق :

الدكتور راتب :

إن راعيًا في شِعب الجبال يلتقي به ابن سيدنا عمر ، يقول له : بعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، يقول له الراعي : ليست لي ، يقول : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، يقول الراعي : ليست لي ، يقول له: خذ ثمنها ، يقول له الراعي : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين، إذا قلت : أين الله فأنت مؤمن ورب الكعبة ، والله الذي لا إله إلا هو لا أصدق أن يكون الانضباط في المجتمع من دون مراقبة لله ، لأن مهما كان الإنسان ذكياً فالمواطن أذكى ، ومهما كان القانون محكماً يستطيع أي مواطن أن يتفلت منه بطرق لا تعد ولا تحصى .

الأستاذ علاء :

في بلدان الغرب والحضارات الغربية السباق سجال ، السباق على أشده بين أجهزة الضبط وتقنياتها واختراعاتها ، وتطوير قوانينها ، وبين العصابات المتفلتة التي تسبقها بأشواط أحياناً .

الدكتور راتب :

أنا كنت في أمريكا راكبا سيارة ، فسمعت جرساً ، قلت : ما هذا ؟ قال : أمامنا جهاز رادار لكشف السرعات الزائدة ، نبه الجهاز السائق قبل خمسة كيلو مترات ، فعاد إلى السرعة النظامية ، هذه معركة بين عقلين .

الأستاذ علاء :

حتى هذا الصندوق الأسود في السيارات لضبط السرعات الساعة كذا ..

الدكتور راتب :

إذا كان المشرع إنساناً فالإنسان الآخر أذكى منه ، وأما إذا كان المشرع خالقاً فأين الله ؟ أعظم ما في الدين أنه يبدي الارتباط من الداخل يسمى الوازع .

الأستاذ علاء :

قالت لها أمها : اخلطي الحبيب .

الدكتور راتب :

القوانين الوضعية ردعها خارجي :

لكن رب عمر يرانا ، أسوأ ما في القوانين الوضعية أن ردعها خارجي .

مثلاً : الآن هناك كاميرات لضبط المخالفات في الأسواق مذهلة ، أما لما انقطعت الكهرباء تمت مئتا ألف سرقة في أمريكا في ليلة واحدة ، ما يقابل أربع مليارات دولار ، إذاً انضباطكم انضباط إلكتروني لا قيمة له ، الآن لو اشتريت في سوق من أمريكا قطعة ، ولم تدفع ثمنها تصدر أصواتاً مخيفة ، تغلق الأبواب فجأة ، إذاً الكل يدفع ؟ لا لأنهم كمَّلٌ ، لا لأنهم ورعون ، هناك ضبط إلكتروني فقط ، لما قطعت الكهرباء تفلتت الأمور .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، إذاً نحن قلنا : إن الخلاف ما بين الطبع الذي يرتبط بالجسد والجسم وما بين التكليف هو ثمن الجنة ، الآن محطتنا العلمية .

مجتمع النحل آية من آيات الله الكبرى :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن النحل من أكبر الآيات الدالة على عظمة الله ، والآن إلى الفيلم العلمي.

الأستاذ علاء :

تفضل .

النحل : بين النظام المذهل والإنتاج المعجز :

الدكتور راتب :

واحدة من أغرب الكائنات في الطبيعة ، إنها النحلة ، تقدم لنا العسل الذي تنتجه بنفسها ، تعيش في بيوت تبنيها بنفسها على شكل مسدسات ، والشكل المسدس يلغي الفراغات البينية ، وقد تقول : المربع أيضاً يلغي الفراغات البينية ، لكن المسدس زواياه منفرجة ، وهذا من حكمة الخالق جل جلاله ، لتخزين العسل .

مَن منا يصدق أن صنع كيلو واحد من العسل يحتاج إلى طيران أربعمئة ألف كيلو متر ، حوالي عشرة دورات حول الأرض ، ويحتاج إلى أن تقف على ثمانية ملايين زهرة ، قال تعالى :

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

[سورة النمل : 88]

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

[سورة النحل : 68]

وحي النحل وحي غريزة ، تقوم بأعمال معقدة جداً ، لا بأمر تكليفي كالإنسان ، بل بأمر تكويني ، إذا وقعت النحلة على زهرة تترك رائحة خاصة تشعر زميلاتها أن هذه الزهرة امتص رحيقها توفيراً للوقت والجهد .

كيف تهتدي النحلة إلى حقول الأزهار ؟

لكن السؤال الدقيق : كيف تهتدي النحلة إلى حقول الأزهار ؟

هناك نحلات مخبرات مستطلعات يبحثن في أماكن بعيدة عن الخلايا إلى مسافة عشرة كيلو مترات ، فإذا عثرن على حقل أزهار أخذن عينة ، وعدن بها إلى الخلية ، وعرضنها على الخبيرات ، هل هذا الحقل يستحق أن نطير إليه ؟ هناك نحلات مستطلعات كشافات ، تأخذ عينات ، وتعود إلى الخلية .

الآن كيف تستطيع هذه النحلة المخبرة بعد أن جابت السهول ، وعادت بنماذج أن تعلم أخواتها أين الحقل ؟

الحقيقة أن النحل يرقص ، ورقص النحل يعلم بقية النحلات بمكان الأزهار ، وبعدها ، وبكثافتها ، الجهة والبعد والكثافة ، هذه النحلة ترقص بهذا الخط إذا كانت المسافة باتجاه الشمس ، هذا الخط نحو

الأعلى اتجاه الشمس ، نحلة أخرى ترقص باتجاه معاكس نحو اتجاه عكس الشمس ، نحلة ثالثة يمين الشمس ، أو يسار الشمس ، هذه باتجاه الشمس ، هذه النحلة ترقص باتجاه الشمس ، ونحلة أخرى ترقص باتجاه معاكس للشمس ، طبعاً رأسها باتجاه السهم ، هناك نحلة ثالثة ترقص بخط متعامد مع اتجاه الشمس كالصورة تماماً في لذلك تسعون درجة مع أشعة الشمس ، الرابعة بزاوية خمس وأربعين يسار الشمس ، إذاً اتجاه الرقص يحدد مكان الأزهار .

الآن بطريقة لا نعلمها تماماً تحدد المسافة ، بطريقة سابغة حسب تواتر الرقص تحدد الكمية ، أولاً : الاتجاه ، ثانياً : المسافة ، ثالثاً : الكمية كله عن طريق الرقص ، قال تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

[سورة النحل : 68]

كله عن طريق الرقص ، أوحى ربك إلى النحل ، هذا من وحي الله له ، والوحي وحي غريزي .

شيء آخر ، لا يمكن أن تبيت نحلة إلا في خليتها ، لأنها ما لم تذكر كلمة السر تقتل ، لكل خلية كلمة سر ، و كلمة السر من حين لآخر تبدل ، الحقيقة أن هناك نظاما اجتماعيا في النحل لا يصدقه العقل ، والله أنا ما ذكرت الآن واحدا بالمليون من معلومات دقيقة عن النحل لضيق الوقت طبعاً .

طيرانها وهي محملة بالرحيق ثلاثون كيلوا في الساعة ، طيرانها من دون رحيق ستون مترا في الساعة ، و معظم النحل ينتقل إلى مسافة عشرة كيلومترات ليصل إلى الأزهار .

الأستاذ علاء :

أي تغدو خماصاً ، و تعود بطاناً .

الدكتور راتب :

أقسام النحل :

يوجد نحلات عاملات ، ونحلات للتنظيف ، ونحلات للتهوية ، لو دخلت فأرة إلى الخلية ليس لها حل ، تغطى بشمع ، وكأنك وضعتها في كونسروة ، يحنطوها تحنيطاً كاملاً ، وهناك نحلات مهمتها تلميع الخلية ، يوجد صقل ، ويوجد تلميع

الآن هذه النحلة أحضروا أوعية فيها سكر ، وجاء النحل إليها من أماكن متعددة ، فكل مكان أعطوا للنحلة إشارة ، يوجد نحلة أعطوها نقطة ، ونحلة خطا ، ونحلة زائدا ، فعادت هذه النحلات التي عليها خط من مصدر ، والنقطة من مصدر ، والزائد من مصدر ، فرقصت رقصاً معيناً ، فبعد حين ذهبوا إلى الموقع فوجدوا أن عدداً كبيراً من النحل قد أمّ هذا الموقع ، تجارب بمنتهى الدقة ، وضعت نقطة على نحلة من مصدر معين ، و الثانية خط ، و الثالثة زائد ، فجاءت هذه النحلات إلى مكان الخلية ،

ورقصت رقصاً يحدد المكان والمسافة والكثافة ، فبعد حين ذهبوا إلى هذه الأماكن الثلاثة فوجدوا أن النحل قد وصل إلى هذه الأماكن ، وارتاد هذه الأماكن .

الحقيقة أن الله عز وجل ذكر النحل في القرآن الكريم :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي)

[سورة النحل : 68]

مهمة إناث النحل جني الرحيق :

ياء المؤنثة المخاطبة ، و النحلة المؤنثة هي التي تجني الرحيق ، و هذه إشارة من إشارات القرآن الكريم إلى ذلك ، أي أوحِي لك أن اتخذي ، ياء المؤنثة المخاطبة .

الحقيقة أن الحديث عن النحل حديث طويل ، و فيه شيء لا يصدق ز

وظيفة المخلوق : إرشادية ونفعية :

ما من شيء خلقه الله إلا و له وظيفتان ، و النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى الهلال فقال :

((هلال خير و رشد))

[أبو داود عن قتادة]

أي خير ننتفع به في الدنيا ، ويرشدنا إلى ربنا ، فكل شيء الله خلقه له وظيفتان ، وظيفة إرشادية إلى الله ، و وظيفة نفعية .

العالم الغربي اكتفى بالوظيفة النفعية ، والمؤمنون أضافوا إلى الوظيفة النفعية الوظيفة الإرشادية ، فكان النحل درساً بليغاً لتعظيم الله عز وجل .

الذي لم يأكل العسل في حياته ، لكنه قرأ كتاباً عن العسل ، وبكى خشوعاً فقد حقق الهدف الأكبر من خلق العسل ، والذي أكل عسلاً حتى امتلأ ، ولم يفكر بعظمة الخالق عطل الهدف الأكبر من وجود العسل .

الحقيقة :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات : 20]

التفكر في الكون أقصر طريق إلى الله :

وكما أقول دائماً : التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق نصل به إلى الله ، و أوسع باب ندخل منه على الله ، لأنه يضعنا أمام عظمة الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

كل الأشياء التي نراها ، هذه الدقة ، هذا الإتقان ، هذا العالم الذي لا يوجد فيه فتور إنما يدل على عظمة الخالق ، وأن مهندساً من وراء هذا الكون أبدع هذا الصنع ، ولم يأت مصادفة ، ولم يأت بالتطور ، ولم يأت عن طريق اجتماع مادتين لا حياة فيهما ، و نشأ الخلق هكذا بهذا الانتظام كما مرّ معنا في حلقات سابقة .

الدكتور راتب :

إذا كانت الذات الإلهية لا تدركها الأبصار ، لكن العقول تصل إليها من خلال خلق الله .

خاتمة وتوديع :

الأستاذ علاء :

لا يسعنا إلا أن نشكر الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي ، أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كلية الشريعة وأصول الدين في جامعة دمشق ، شكراً لكل ما قدمت ، و أيضاً لابد أن نقف عند المحطة العلمية في كل حلقة التي تمتع ، والتي تربط العقل و الفكر و النفس و الذات ، و تعيد بها إلى الصواب ، و تجعل منها حالة تفكير من وراء هذا الصنع و هذه الدقة و هذا الخلق .

الدكتور راتب :

في برنامجنا الإيمان هو الخلق فالفقرة العلمية يغطي الإيمان .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (23-95) - مقومات التكليف : الفطرة - الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، نتناول اليوم طالما أنا قد بحثنا في حلقات سابقة في مسائل الطبع ، ومسائل الفطرة ، ومسائل التكليف ، وتبينا من خلال الحديث والتفصيل بأن الإنسان يتركب من نفس و جسد وروح ، وأن الجسد له طبع ، و المغالبة بين طبع الجسد والتكليف هو ثمن الجنة .

من خصائص الأمة الإسلامية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

اليوم اسمح لي سيدي الكريم أن نتحدث في موضوع ، الله عز وجل مرّ في آيات عديدة على مسألة المعروف ، ومسألة المنكر ، يعدنا دائماً ، و يأمرنا بالعمل بالمعروف ، وينهانا عن اقتراف المنكر ، الله عز وجل يقول :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران : 110]

لماذا كنتم ؟ قال المفسرون : أي كنتم ، ومازلتم ، وستبقون طالما المعادلة قائمة :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة آل عمران : 110]

هذا الشرط :

(وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران : 110]

ماذا يقول أستاذنا في هذه المسألة ، وفي هذه المعادلة أمر الله دائماً أن نقوم بالمعروف ، وأن نعمل المعروف ، و أن نجتنب ، وأن ننتهي عن المنكر .

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

معنى المعروف والمنكر :

أستاذ علاء ، أحياناً حينما نلقي ضوءاً على المعنى اللغوي للكلمة هذه المعاني الدقيقة للكلمات تلقي ضوءاً كاشفاً على حقيقة الموضوع .

قد يخطر في بال الإنسان ما معنى كلمة معروف ، و ما معنى كلمة منكر ؟ و لماذا استخدم الله هذه الكلمات ؟

الحقيقة أن هذا الموضوع من ألصق الموضوعات بالفطرة ، أي أن الفطر السليمة تعرف العمل الطيب ابتداء من دون تعليم ، وقد سماه الله معروفاً ، لأن الفطر السليمة تعرفه .

الأستاذ علاء :

إذاً هو في ذاكرته .

الدكتور راتب :

في أعماق الإنسان ، أيّ إنسان في كل زمان و مكان ، في فطرة الإنسان ، والنفوس البشرية تنكر المنكر بفطرها ، ومن دون تعليم ابتداء ، إذاً الشيء الذي يعرف بالفطرة ، و الذي ينكر بالفطرة هو المعروف و المنكر .

الأستاذ علاء :

سيدي ، تسمح لي أن أستخدم باب التعابير الحديثة التي تستخدم في علم الأتمتة ، إذا اعتبرنا الفطرة هي مثلاً على سبيل المثال هي الديسك الموجود في المخلوقات ، في كل مخلوق له ديسك ، في الذاكرة، في ذواكرها ، هي تحب المعروف ، وتتأبى المنكر ، كما تفضلت ، لذلك الله عز وجل جعل الارتباط بهذه المسألة بالفطرة ، المعروف لأنه معروف بالفطرة .

المعروف والمنكر معروفان في أصل الفطرة :

الدكتور راتب :

فطرة الإنسان أصلاً ابتداء من دون تعليم ، و المنكر تنكره النفوس إنكاراً ابتداء من دون تعليم ، لكن هناك نقطة دقيقة جداً في علم النفس ، وجدوا أن هناك صفات كثيرة ً تطفو على سطح الحياة ، و كل مجموعة من هذه الصفات تعود إلى سمة في أعماق الإنسان ، فلو أن هناك سمة الضبط ، فصاحب هذه السمة العميقة حساباته مضبوطة ، مواعيده مضبوطة ، كلامه مضبوط ، علاقاته مضبوطة ، السمة أي صفة عميقة جداً في أصل تكوين الإنسان تطفو على السطح بشكل صفات متعددة ، لكنها تنتمي إلى

جذر واحد ، إذاً : الإنسان في أصل فطرته ينكر المنكر من دون تعليم ، من دون توجيه ، من دون دراسة ، و يعرف المعروف .

الأستاذ علاء :

من دون محاضرات ، من دون أن يعرف شيئاً .

الدكتور راتب :

لذلك ، الذين يرون أن الإنسان لا يحاسب أبداً إن لم تأته الرسالة إطلاقاً فهناك رأي معتدل ، أن الله يحاسب الإنسان على عقل أودعه فيه يعرفه بربه ، وعلى فطرة أودعها فيه تعرفه بخطئه ، لكن هذا الذي لم تصله الرسالات لا يحاسب على تفاصيل الشريعة ، أما لو أن إنسانا بغابة ، وأكل ، ولم يطعم أمه يشعر بضيق ، لأنه عاش مع الكائنات العجماوات ، ولم يتلق أي علم ، لكن له أم إلى جانبه ، فإذا أكل ولم يطعمها يشعر بضيق ، إذاً في أصل تكوين الإنسان هو يُنكر المنكر ، ويعرف المعروف ، وهذا من أروع تسميات المعروف والمنكر .

الآن في القضاء البريطاني هناك المحلفون ، يأتون بإنسان من الطريق ، من مهن مختلفة ، من مستويات ثقافية مختلفة ، يعرضون على هؤلاء المحلفين قضية ، جريمة ، فمعظم هؤلاء بعيدون عن الضغوط والاغراءات والمسؤوليات والابتزاز ، فينطقون بالحكم الصحيح العادل ، بحسب فطرهم السليمة ، وهذا منطلق المحلفين في القضاء البريطاني ، إنسان بفطرته يكشف الحق والباطل ، وأنا في لقاءات سابقة أشرت إلى أنه حتى الحيوانات ، القطة حينما تخطف قطعة لحم تأكلها بعيدة عنك ، تعرف أنها أخطأت ، أما حينما تطعمها أنت تأكلها أمامك دون خوف .

تفضلتم بالآية الأولى في قوله تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران : 110]

معنى الآية :

لهذه الآية معان كثيرة ، لكن من أوجه هذه المعاني أن بعض العلماء يقولون : كنتم بمعنى أصبحتم ، بعد أن جاءتكم هذه الرسالة الخاتمة ، الكتاب المنزل على النبي الكريم ، و هو خاتم الكتب ، هذه الرسالة هي لكل الأمم و الشعوب ، ولكل الأعصار والأمصار ، و لنهاية الدوران ، أي أيتها الأمة حينما نزل على نبيكم الوحي أصبحتم بهذه الرسالة خير أمة أخرجت للناس ، هناك من يعتمد على هذا المعنى .

علة الخيرية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله :

لكن الجواب الحاسم أن هذه الخيرية لها علة ، علتها تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ثلاثة أشياء ، فما لم تتحقق هذه العلة فنحن قطعاً لسنا خير أمة أخرجت للناس .

الأستاذ علاء :

لسنا من الذين أصبحوا إن لم تتحقق العلة ، بالمعنى اللغوي هناك ارتباط .

الدكتور راتب :

أمة الإسلام قسمان : أمة الاستجابة وأمة التبليغ :

لذلك قسموا أمة النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمتين ، أمة الاستجابة ، وهي خير أمة أخرجت للناس، وإلى أمة التبليغ ، أمة التبليغ هناك آية تنطبق عليها ، هؤلاء الذين قالوا :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة : 18]

بماذا ردّ الله عليهم ؟ قال :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة : 18]

حينما يبتعد المسلمون عن الإيمان ، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفقدون خيريتهم ، هم أمة كأية أمة خلقها الله عز وجل ، إذا هان أمر الله عليهم هانوا على الله ، هذه حقيقة مرة ، لكنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، نحن خير أمة إذا آمنا بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته ، و أمرنا بالمعروف ، و نهينا عن المنكر .

من أسباب هلاك الأمم : عدم التناهي عن المنكر :

و هناك بحث دقيق جداً عالجته في لقاءات قديمة أسباب هلاك الأمم ، أحد أكبر أسباب هلاك الأمم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، فأن تأمر بالمعروف ، وأن تنهى عن المنكر هذا سلوك يحصن المجتمع ، أما أن نجامل ، و نجامل ، و نمدح بلا أسباب ، و بلا مؤهلات ، و ننجو من أي قلق ، أو أي اعتلال ، فهذا سلوك لا يرضي الله عز وجل ،

((وإنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))

[متفق عليه عن عائشة]

الأستاذ علاء :

و الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

الدكتور راتب :

هذا الموقف العدل ، فلذلك نحن خير أمة بسبب أننا إذا آمنا بالله الإيمان الذي يحملنا على طاعته ، ثم أمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى ما سيكون ، و قد أعلمه الله بما سيكون ، لا يعقل النبي عليه الصلاة والسلام أن يعلم ما سيكون بذاته ، إلا أن يعلمه الله ، هذه قضية عقيدة ، إن الله عز وجل أمره أن يقول :

(قُلْ لَا أَعْلَمُ الغَيْبَ)

لكن إذا حدثنا عن أشراط الساعة فهذا من إعلام الله له ، قال :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ ـ الصحابة صعقوا ـ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟

أول مرحلة : كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، و لم تنهوا عن المنكر ، قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ ـ الصاعقة أشد ـ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ ـ المرحلة الثالثة أخطر مرحلة ـ قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

تبدلت القيم ، الآن تبدلت مع ممارسة الخطأ ، والإصرار عليه ، انطمست فطرهم ، فأصبح الذي يأخذ ما ليس له شاطراً ، و أصبحت المتفلتة راقية ، و أن تلد الأمة ربتها ، و لا تعنى بأمها التي ولدتها وربتها ، تحتقر الجيل السابق ، وتتطلع إلى شيء لا يرضي الله عز وجل ، ولا يرضي القيم الثابتة في الإنسان .

الأستاذ علاء :

سيدي طرحت هذا الموضوع ، و هذا الموضوع هام و هام جداً ، أن يأتمر الإنسان بالمعروف ، وأن يعمل له هذا شيء ذاتي ، وأن يبتعد عن المنكر ، هذا شيء ذاتي ، لكن يوجد أمر :

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران : 110]

ومن هلاك الأمم السابقة كما تفضلت كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، كيف يكون الأمر بالمعروف ، وكيف يكون النهي عن المنكر ؟

ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الدكتور راتب :

أجاب النبي عليه الصلاة والسلام فقال :

((من أمر بالمعروف فليكن أمره بالمعروف ، ومن نهى عن المنكر فليكن نهيه بالمعروف))

[ورد في الأثر]

النبي عليه الصلاة والسلام علمنا الحكمة ، علمنا أن نحاور الطرف الآخر حواراً لطيفاً ، قال تعالى :

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ : 24]

الأمر بالمعروف يتعلق بهوية الإنسان ، الله عز وجل يقول :

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء : 59]

الإمام الشافعي له رأي رائع في أولي الأمر ، من هم أولو الأمر ؟ قال : " العلماء والأمراء " ، العلماء يعلمون الأمر ، و الأمراء ينفذون الأمر ، فالمؤمن يجب أن يأمر بالمعروف بلسانه ، أما القوي فيجب أن يأمر بالمعروف بقوته ، بقرار .

الأستاذ علاء :

صاحب السلطة هم أولو الأمر .

الدكتور راتب :

أولياء الأمور هم العلماء والأمراء ، العلماء يعرفون الأمر ، والأمراء ينفذون الأمر ، هم متكاملان ، فإذا أبلى العالِم بحقيقة المعروف جاء الأمير فنفذ هذا التوجيه ، تكامل المجتمع ، إذاً : العلماء والأمراء هم الذين ورد ذكرهم في الآية الكريمة :

(وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء : 59]

فالقوي الذي معه سلطة بجرة قلم يحق حقاً ، و يبطل باطلاً ، يقر معروفاً ، و يزيل منكراً .

الأستاذ علاء :

سيدي ، كيف نوفق بين ما تقدمت به ، وتفضلت به ، و بين من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، ثم بلسانه ، ثم بقلبه ، وهذا أضعف الإيمان ؟

التوفيق بين الأمر بالمعروف عامة وحديث

((من رأى منكم منكرا ...))

الدكتور راتب :

هذه متعلقة بالابن والبنت ، فإذا كانت البنت متفلتة يقول الأب : ماذا أفعل ، أنا نصحتها ؟ إذا كانت متفلتة فلك عليها الولاية ، وتملك عليها الفضل ، ،هي تعيش في كنفك ، تأتمر بأمرك ، هناك حالات ، وهناك شرائح اجتماعية لا ينبغي أن تقول : أنا نصحته ، ولم ينتصح ، لابد من ضغوط من أجل أمور أخرى ، من أجل أمور دنيوية ، من أجل مصالح مادية ، تتم الضغوط أحياناً ، النصح مع التعنيف أحياناً، فإنسان في حوزتك ، و في إمرتك ، و أنت متفضل عليه ، و هو يمثلك ، هو ينحرف ، تقول : نصحته فلم ينتصح ، هذا غير مقبول ، تماماً كما لو مرّ أب في الطريق ، فرأى شباباً ثلاثة يدخنون ، أحدهم ابنه ، والثاني ابن أخيه ، والثالث لا يعرفه ، يغضب أشد الغضب من أقرب الشباب إليه ، من ابنه ، ويعنفه ، ويأمر ابن أخيه أن ينصرف إلى البيت ، و يقول له : هذا الشيء لا يليق بك ، ولا بوالدك ، ثم يقول للثالث : انصرف ، حدة الإنكار تنصب على الابن أولاً ، ثم على ابن الأخ ثانياً ، ثم لا تنصب على الطرف الثالث ، لأنه من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف ، لعله يجيبه إجابة قاسية جداً ، أما الذي في حوزتك ، وتنفق عليه ، و هو يمثلك ، وكلمتك نافذة عنده فلا ينبغي أن نكتفي بكلمة : أنت مخطئ ، لابد من ضبط .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هل نستطيع أن نفسر الحديث النبوي :

((فليغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه ، وذلك أضعف الإيمان))

أن يكون التغيير باليد أي بالفعل هو من شأن السلطان ، و باللسان من شأن العلماء ، وبالقلب من شأن عامة الناس الضعاف ، الحقيقة هل نتلمس هذا هنا ؟

التفسير الصحيح لمراتب النهي عن المنكر الواردة في الحديث :

الدكتور راتب :

لا يقبل أن تنكر بقلبك إذا كان بالإمكان أن تنكر بلسانك ، كما أنه لا يقبل منك أن تنكر بلسانك إذا كان في الإمكان أن تنكر بيدك .

لكن بشكل توضيحي ، نقول : العلماء مكلفون أن يأمروا بالمعروف بألسنتهم ليبينوا للناس ، والأمراء مكلفون أن يأمروا بالمعروف ، وأن ينهوا عن المنكر بما آتاهم الله من قوة .

مثلاً : نحن نعلم الامتناع عن التدخين في الطائرات و أي مكان آخر أنه قرار ، فهذه مهمة كبيرة ، بقرار يحق حقاً القوي ، و يبطل باطلاً .

إذاً : العالم مكلف أن يأمر بالمعروف بلسانه وبيانه ، و الأدلة ، والأمثلة ، والتطبيقات ، والأمير مكلف أن ينفذ توجيهات ، هذا الذي أعطى هذه المعلومات الدقيقة عن الشرع الحنيف ، والإنسان الضعيف ينكر بقلبه .

من شهد منكراً فأنكره كان كمن غاب عنه ، وإذا غاب عن منكر فأقره كان كمن شهده :

ولكن قالوا : من شهد منكراً فأنكره كان كمن غاب عنه ، وإذا غاب عن منكر فأقره كان كمن شهده .

هناك حالتان : من غاب عن منكر فقبله كان كمن شهده ، و من شهد منكراً فأنكره كان كمن غاب عنه، و الحقيقة يوجد نقطة دقيقة جداً الإنسان أحياناً يحاسب على ذنب لم يرتكبه ، كيف ؟

لك صديق ارتكب ذنباً ، إن ذكرته فقد اغتبته ، وإن أقررته فقد شاركته في الإثم ، وإن شمت به ابتلاك الله به ، يجب على الإنسان أن يبتعد عن أن يفضح ، وعن أن يشمت ، وعن أن يشارك ، لذلك يأتي إلى هذا المذنب بأدب جم ، وينصحه بينه وبينه .

إذا قال : أنا لا أفعل ، هذا كبر و استعلاء ، لعله يبتلى به ، وإذا نشر هذا الخبر ، وعده عملاً جيداً فقد نشر هذا الخبر ، وشاركه في الإثم وأقره ، وإذا اغتابه ، وعنفه بغيبته أفسد العلاقة بينه و بينه ، و :

((الذنب شؤم على غير صاحبه))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

هكذا الحديث :

((الذنب شؤم على غير صاحبه ، إن ذكره فقد اغتابه ، وإن عيره ابتلي به ، وإن رضيه شاركه في الإثم))

الشرع له ميزان دقيق ، ينبغي ألا تشمت ، لذلك كانت عقوبة الشامت ضعفا في مقاومته ، فيقع في الذنب نفسه ، وينبغي ألا تقره على خطئه ، إن أقررته على خطأه شاركته في الإثم ، وينبغي ألا تغتابه كي تبقى العلاقة سليمة بينك وبينه ، الصواب أن تشكر الله على أن عافاك من هذا الذنب ، وأن تأتي إليه ، وأن تنصحه بينك و بينه ، هذا الموقف الكامل .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هناك بعض الناس يفتون لأنفسهم ، يبيحون لأنفسهم من خلال الحديث فهماً قاصراً ، ومن خلال عدم فهم الآية فهماً دقيقاً ، بأن يتولوا أمر ومهمة الحاكم وأولي الأمر ، وينصبوا أنفسهم على

العباد في مرتبة من ينهى ، و يأمر ، و من يميز بين الناس ، و يُقوم سلوك الناس ، ماذا نقول في حق هؤلاء ؟

المسلمون دعاة لا قضاة على الناس :

الدكتور راتب :

أولاً الدعاة ليسوا قضاة لكنهم ناصحون .

أول نقطة في الموضوع : أن الإنسان ينبغي أن يستخدم الحكمة المطلقة ، بمعنى أنك لو أنكرت منكراً بيدك ، ونشأ عن هذا المنكر فتنة كبيرة يمنع أن تنكر المنكر بهذه الطريقة ، يقول سيدنا عمر : << ليس بخيركم من عرف الخير ، و لا من عرف الشر ، و لكنه من عرف الشرين ، و فرق بينهما ، و اختار أهونهما >> .

لا يجوز تغيير منكر يسبب منكرا أشد منه :

هذا منهج ، مثلاً : حينما تضطرم في نفسك مشاعر معينة ، وأتحرك بلا تخطيط ، و بلا مرجعية ، و بلا منهج ، أجرّ على المسلمين متاعب لا تنتهي ، و قد أكون مخلصاً في هذه الحركة ، لكن في العمل ليست صحيحة .

الأستاذ علاء :

هذا عمل الأحمق سيدي .

الدكتور راتب :

نعم ، فأنا أقول : ويلات كثيرة جداً جرت على المسلمين بسبب أناس لم يرجعوا إلى المرجع الصحيح ، و لم يلتزموا المنهج القويم ، و لم يعرفوا دقائق هذا الموضوع ، أن أنكر المنكر بطريقة حكيمة ، فإذا كان إنكار المنكر سيؤدي إلى منكر أشد ينبغي أن أنكره بلساني لا بيدي .

الأستاذ علاء :

هذا مبدأ في الأصول ، وهو : درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح .

الدكتور راتب :

دع خيراً عليه الشر يربو ، فلابد من ميزان دقيق ، أنا أريد أن أقدم شيئاً للأمة ، أن أريد ألا أجلب لها الدمار و الهلاك بنزوة عاطفية و انفعال شديد غير منضبط بمنهج الله عز وجل ، و الأمثلة كثيرة جداً .

الأستاذ علاء :

حان وقت الفقرة العلمية .

الدكتور راتب :

نعم هناك فقرة علمية تبين عظمة الله عز وجل ، الإنسان المتأله أحياناً يظن أنه يفعل ما يريد ، لكن الله سبحانه و تعالى قوي شديد البطش ، فنحن يجب أن نعرف الله من رحمته ، و أن نعرفه من قوته ، والأنبياء يعبدون الله رغباً ورهباً .

الأمواج التي تسببها الزلازل في أعماق الأرض :

الآن إلى بعض الأمواج التي تصنعها الزلازل في أعماق الأرض :

أحياناً يحدث في قاع المحيط زلزال يكون سبباً في تشكيل أمواج كما ترون ضخمة في البحر ، تسمى هذه الأمواج أمواج تسونامي ، هذه الأمواج تدمر شريطاً ساحلياً بأكمله ، والأثر المدمر لهذه الأمواج التي تعلو إلى أربعين متراً ، لا تبقي ولا تذر .

زلزال تسونامي الذي وقع قبل أعوام خير شاهد على ذلك ، هذا البناء تأتيه الموجة فتهدمه ، ويمكن أن يحمل صخرة وزنها خمسون طناً إلى مسافة بعيدة جداً ، هذا الزلزال سرعته ألف و ستمئة كيلو متر بالساعة .

إنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ

شيء آخر طبعاً لا يبقي و لا يذر :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)

[سورة البروج]

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً)

[سورة يونس : 24]

يجب أن نخاف من الله ، ورأس الحكمة مخافة الله ، هذا الفندق الضخم جداً على الساحل جاءت الأمواج فحطمته ، انظر إلى السيارات كيف تتلاطم مع الجدران .

الأستاذ علاء :

لهذا الموج قوة هائلة .

الدكتور راتب :

الله عز وجل قوي ، لكن لابد من أن نتقي ربنا ، و نحن في الرخاء ، لو عرفناه في الرخاء عرفنا في الشدة ، و هذه حقيقة .

طبعاً المنازل ، المنشآت ، الفنادق ، السفن تغدو على أسطح المنازل ، هذا هو الزلزال الذي حدث في القواعد الصخرية للأرض ، وهناك اثنا عشر لوحاً تحت القارات ، تحمل هذه القارات تسمى الصفائح ، بفعل البراكين العميقة جداً تتباعد هذه الصفائح ، أو تتقارب ، لا يبقي و لا يذر .

لذلك اسألوا الله العافية ، و أن يحفظ بلادنا من كل سوء ، هناك مصائب تنسينا جميع المشكلات ، السفن فوق أسطح المنازل ، و هذه البيوت الراقية جداً أصبحت أنقاضاً كما يرى في المشاهد .

الأستاذ علاء :

إذاً حركة الصفائح تتباعد ، أو تصطدم فتصبح حركة اندفاعية .

الدكتور راتب :

نعم بالاندفاع نحو الأعلى تتباعد ، بالاندفاع نحو الأسفل تصطدم ، هذا الزلزال الذي وقع في تسونامي قوته مليون قنبلة ذرية ، كما ترى المياه تأتي ، البيوت لا يوجد شيء ، أبداً لا تبقي و لا تذر .

الأستاذ علاء :

عندما حدثنا القرآن عن قصة سيدنا نوح ، كان الشخص يظن كيف يأخذ الناس الطوفان ، لم يبق شيئاً .

الدكتور راتب :

وفي لقاء قادم إن شاء الله سأتحدث عن هذا الزلزال بشكل مفصل إن شاء الله ، لأن الإنسان يجب أن يعرف حجمه عند الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

لذلك سيدي الكريم ، مثلما تفضلت إن الله يعرف بتجليين تجلي الجلال ، وتجلي الجمال ، تجلي الجلال من خلال قوته و جبروته و بطشه ، و من خلال رهبته و رهبة هذه القوة ، وتجلي الجمال من خلال المحبة و اللطف ، و من خلال حالات الأنس التي يشعر بها المرء عند اقترابه و اتصاله به .

الدكتور راتب :

لذلك يقول عليه الصلاة و السلام في بعض أدعيته :

((أعوذ بك يا رب من فجأة نقمتك ، و تحول عافيتك ، و جميع سخطك))

[أبو داود عن ابن عمر]

الإنسان ضعيف ، فالذي يقول : أنا ، لا يعرف الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (24-95) - مقومات التكليف : الفطرة - الحلال و الحرام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-04-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي في الحلقة الماضية تحدثنا عن المعروف والمنكر ، عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذكرت لمَ سمي المعروف معروفاً ، لأنه يعرف بالفطرة السليمة بأنه شيء حسن ، معروف لديها ، و تتقبله تلك الفطرة ، والمنكر سمي منكراً لأن الفطرة السليمة تنكره ، وتأباه ، فأصبح منكراً .

إذاً في الفطرة السليمة تقبل هذا الفعل ، و تنكر هذا الفعل ، و ترفض هذا الفعل .

الآن محطتنا مع أحاديث رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ : قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ :

((حَفِظْتُ مِنْهُ دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ))

[النسائي ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

وعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ))

[الترمذي ، ابن ماجه]

نبتدئ سيدي الكريم لنعرف الحلال ، ونعرف الحرام ، وما هو الفاصل بينهما ؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ...))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي عن النعمان بن بشير]

كيف نتبين هذه المسألة ، هل بالفطرة السليمة ؟ هل بالاكتساب ؟ كيف يكون ذلك ؟

مقدمة في الفاصل بين الحلال والحرام :

الدكتور راتب :

الحقيقة كما تقدم الحديث في حلقات سابقة الفطر السليمة تعرف المعروف ، وتنكر المنكر ، أو أن نقول: تعرف الحلال ، وتنكر الحرام ، فالحرام يحرم النفس من سعادتها في الدنيا و الآخرة ، والحلال تحلو به في الدنيا والآخرة .

العلاقة العلمية بين الأمر ونتائجه ، والنهي ونتائجه :

وهناك علاقة علمية بين الأمر ونتائجه ، والنهي ونتائجه ، ما معنى علاقة علمية ؟

أنا حينما آمر ابني أن يخرج من هذا الباب ، و خرج من خلافه أعاقبه ، فأكون قد وضعت هذه العلاقة، أنا وضعتها وأقول : العلاقة بين عقابه وخروجه من باب آخر هي علاقة وضعية ، أنا اخترعتها ، أما حينما يضع ابني يده على المدفأة ، وهي مشتعلة فتحترق ، أقول : هناك علاقة علمية بين السبب والنتيجة .

الشيء الدقيق جداً أن هناك علاقة علمية مئة بالمئة بين الأمر ونتائجه ، وبين النهي ونتائجه ، أنا حينما أقود مركبة تحمل عشرين طناً ، وأقف أمام جسر كتب عليه : " الحمولة القصوى خمسة أطنان " ، أنا حينما أتلفت يمنة ويسرة ، هل هناك شرطي يخالفني ؟ لم أفقه حقيقة هذه اللوحة ، الجسر يعاقبني ، أي هناك علاقة علمية بين المخالفة والسقوط في النهر ، أما إن كانت وضعية فأعاقب ، أو لا أعاقب ، أعاقب ، أو أنجو من العقاب ، حينما نؤمن أن كل أمر الله به ينتهي إلى نتيجة علمية ، أي الأمر الذي فعلته كان سبب النتيجة ، والنهي الذي ارتكبته كان سبب الهلاك ، هذا وضع آخر .

حينما أمشي بفلاة أرى لوحة كتب عليها : " حقل ألغام ، ممنوع التجاوز " ، فلا أحقد أبداً على من وضع اللوحة ، لأنني لا أراها حداً لحريتي ، بل أراها ضماناً لسلامتي .

فأنا حينما أرى أن هناك علاقة علمية بين الأمر ونتيجته ، وبين النهي ونتيجته أكون فقيهاً ، فلذلك الحسن ما حسنه الشرع ، الحسن مطلق ، بكل المقاييس ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع .

أحياناً أنا أعطي مسألة للطلاب ، حلوا هذه المسألة ، أعطيهم الجواب ، فمن توصل حله إلى هذا الجواب فحله صحيح ، هو يعرض نفسه ، ومن حاد حله عن هذا الجواب فحله غير صحيح ، الله عز وجل بين الحسن والقبيح في القرآن والسنة ، فنحن نفكر ، ندرس ، نحقق ، نتأمل ، نتابع ، ندقق ، نستنتج للنهاية ، إذا قادنا عقلنا إلى الحسن الذي جاء به الشرع فعقلنا عمل بشكل صحيح ، أما إذا قادنا عقلنا إلى شيء مخالف للشرع ، شيء يخالف منهج الله ، وهو الخبير معناها :

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

[سورة المدثر]

وأنا حينما أعتمد على العقل وحده من دون وحي أقع في متاهات كبيرة جداً ، لأنه تماماً كيف أن العين لما كانت دقيقة وحادة البصر لا يرى إلا بالضوء ، والعقل لا يعمل إلا بالوحي .

الوحي للعقل كالضوء للعين ، فالحلال يسعد الإنسان ، تحلو به النفس ، يتألق الإنسان ، والحرام يحرم النفس من سعادتها في الدنيا والآخرة ، هذه قضية دقيقة جداً .

الفاصل بين الحلال والحرام :

لكن هناك مشكلات ، الحلال الصرف واضح ، لا يحتاج لا إلى تفاسير ، ولا إلى فتاوى ، ولا إلى أسئلة ، والحرام الصرف واضح ، لكن أحياناً يقول لك أحدهم : أنا أساهم معك في شراء هذا البيت ، أعطني أجرة ، هناك عقد إيجار ، ساهم معك بنصف البيت ، و يستحق أن يأخذ نصف الأجرة ، لكن هو ضمن مبلغه ، فإذا ضمن المبلغ بأي لحظة قال لك : أعطني المليون ، إن ضمنت له المبلغ صار الموضوع ربا ، ولم يعد أجرة ، فهذه علاقة من جهة علاقة مشروعة ، علاقة إيجار ، ومن جهة ثانية مادام المبلغ مضمونا لا يتحمل خسارة ، ولا ربحا فهذه أصبحت علاقة مشبوهة ، الحلال بين والحرام بين .

تناول شخص طعاماً معيناً ، أكل خبزاً صباحاً مع قطع جبنة ، هل هناك على وجه الأرض من يسأل عالماً : ما حكم هذا الشيء ؟ يعرف بالفطر السليمة ، وإنسان سرق ، من غير سؤال السرقة حرام ، لكن هناك آلاف القضايا متداخلة ، أي من جانب مقبولة ، ومن جانب مرفوضة .

عَنْ النُّعْمَانِ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ...))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

لذلك قال تعالى :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة النحل : 43]

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

فالمؤمن الورع الحريص على سلامة علاقته مع الله ، الحريص على مستقبله في شيخوخته ، الحريص على جنته التي يعمل من أجلها ينبغي أن يسأل :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل : 43]

مفتاح العلم السؤال ، لا يوجد إنسان يمكن أن تطرق بابه إلا وثمن الأتعاب في جيبك ، للطبيب ، والمهندس ، والمحامي ، إلا عالم الدين فمجاناً ، خطياً ، أو شفهياً ، على الهاتف ، أو لقاء شخصي :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل : 43]

الأستاذ علاء :

إذاً : نسأل أهل الذكر ، أي نأتي إلى أهل الذكر الذين يصدرون الفتيا أو الفتوى .

الدكتور راتب :

الفتوى على قدر الوصف :

لكنه قيل : الفتوى على قدر الوصف ، أحياناً يتوهم الإنسان أنه إذا أقنع هذا الشيخ ، أعطاه المبررات الكافية كي ينتزع منه فتوى تروق له يظن أنه نجا من عذاب الله ، أنا أقول كلاما خطيرا جداً :

((لعل أحدكم ألحن بحجته من الآخر ، فإذا قضيت له بشيء فإن أقضي له بقطعة من النار))

[البخاري عن أبي هريرة]

أي لو أنك استطعت بذكاء ، وبطلاقة لسان ، وبحجة مقنعة لم تكن واقعية ، لكن أن تنتزع من فم سيد الخلق ، وحبيب الحق فتوى لصالحك ، ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله ، نحن نسأل ، لكن يجب أن تكون أميناً في الوصف ، من أين المشكلة تأتي ؟ أنه لا يقول لك الحقيقة ، يقول لك كلاماً ، أنه من نتائجه أن يفتي لك المفتي بهذا الذي تريده ، أما لو قال لك الحقيقة فلا تقول هذا الكلام ، فلذلك حتى إخواننا يكون عندهم مكابح ، أن أي إنسان مثلاً عنده بيت قرر أن يبيعه ، لو أنه خرج من بيته ، ولقي من يبيعه قال له : يستحق مليونين ، هل يوقع عقدا فوريا ، يسأل عشرة مختصين ، لأنه في أمور الدنيا حريص على مصالحه ، لكن الشيء العجب العجاب بأمور الدين الخطيرة المصيرية يكتفي بسؤال إمام بجامع أو زاوية ، بمنطقة نائية ، لا يعرف اسمها ، يقول لك : أفتى لي ، لماذا تريد أن تحمل هذا الشاب المبتدئ في الدعوة مسؤولية العمل الكبير الذي اقترفته .

فلذلك أنا أدعو إخوتنا الكرام المشاهدين إلى السؤال ، لكن أذكرهم ثانية : أن السؤال إن لم يكن واضحاً، وانتزعت من فم سيد الخلق و حبيب الحق فتوى لصالحك لا تنجو من عذاب الله ، لذلك : عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَأَهْوَى بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ....))

[البخاري ، مسلم ، النسائي ، الترمذي ، أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد ، الدارمي]

المنهج نهر ، والمعصية نهر أو الحمى ، له شاطئ زلق مائل ، وشاطئ جاف مستو ، فالمشي على الشاطئ الجاف المستوي ضمانة للوقوع في النهر ، أما المشي على الشاطئ المائل الزلق فمظنة وقوع في النهر ، فالأمور الواضحة كالشاطئ المستوي الجاف ، والدخول في المتاهات وفي الشبهات كمن يمشي على شاطئ نهر عميق مخيف زلق مائل ، فاحتمال أن يقع في الماء احتمال قائم .

الأستاذ علاء :

مظنة أن يقع في النهر ، لذلك :

((مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ))

أهمية هامش الأمان : ألاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى :

الدكتور راتب :

((ألاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، ألاَ وَإِنّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ))

اتق المحارم تكن أعبد الناس .

أستاذ علاء ، هناك نقطة دقيقة جداً ، وزير كهرباء أراد أن يحذر الإخوة المواطنين من تيار توتره عال جداً ، والتوتر العالي كما هو معلوم به قوة جذب ، أي يوجد به ثمانية أمتار ، إن دخل المواطن إلى هذه المنطقة يصبح قطعة من الفحم فوراً ، فوزير الكهرباء يجب أن يقول : ممنوع مس التيار ، وممنوع الاقتراب منه ، لذلك هناك نوع من الشهوات عندها قوة جذب كبيرة جداً ، فأنت إذا تجاوزت الخط الأحمر جذبتك إليها ، الخطأ لن يكون بوقوعك في هذه المعصية الكبيرة ، الخطأ بدأ من الاقتراب منها :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة : 187]

لا تقربوا مال اليتيم ، لا تدخل مالك بماله ، افصل المالين عن بعضهما ، لا تقربوا الزنى ، الزنى نهاية لمقدمات ليست من الزنى ، لكنها مقدمات للزنى ، فلم يأت النهي عن الزنى مباشرة ، قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء : 32]

الأستاذ علاء :

فهذا الاقتراب إلى الحمى ، أو إلى الساحة والمنطقة المحايدة عدم الاقتراب منها بكل معنى الكلمة .

الدين قضية مصيرية :

الدكتور راتب :

إذاً حينما يكون الإنسان فقيهاً ، الدين قضية مصيرية أستاذ علاء ، أنا يمكن أن أبدل البيت ، يمكن أن أبدل مركبتي ، يمكن أن أغير مهنتي ، أما قضية الدين فإن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم، دينك دينك ، إنه لحمك و دمك ، خذ عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا .

مثلاً : نجح طالب من السابع إلى الثامن ، ثامن تاسع ، تاسع عاشر، عاشر إلى الحادي عشر ، الحادي عشر إلى الثاني عشر ، نجاحه في الثاني عشر مصيري ، طبيب صحة ، طبيب أسنان ، صيدلي ، علوم طبيعية ، بحسب علاماته تحدد مهنته بالمستقبل ، فالإنسان بحسب علاقته مع المحرمات ، بحسب فهمه الدقيق لمنهج الله يتحدد مصيره في الدنيا والآخرة ، إن لكل معصية عقاباً .

أنا أؤكد على هذه الناحية ، أن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، وأن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، فأنا أسأل ، وأقدم التفاصيل الدقيقة الموضوعية ، وأتلقى الجواب ، أما إذا على المسؤول ، فقدمت معلومات غير صحيحة ، ثم جاءتني الفتوى كما تروق لي لا أنجو من عذاب الله ، فيجب أن توازن بين أن تسأل ، وبين أن تكون ورعاً في عرضك للمشكلة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، طالما تحدثنا عن الفتوى ، هنالك من يأخذ فتاوى من خلال شاشات التلفزيون ، الفضائيات ، يسأل عبر الهاتف ، ثم يجيب العالم على هذا السؤال ، قد يكون السؤال كما تفضلت غير دقيق ، والمعطيات غير دقيقة فالعالم يجيب الفتوى على قدر النص ، وتنحرف هذه الفتوى ، ثم هنالك من يسمع ، يشاهد هذا البرنامج لم يسمع ، لكن يشاهد هذا البرنامج ، ويحمل الفتوى ، ويقدمها بين الناس ، فلم يستوعب السؤال ، وأحياناً الفتوى مجزّأة للذي سمعها ، لأنه أحياناً يوجد إشكالية بالسمع في بعض الأحيان ، أي يسمع الإنسان بشكل خاطئ ، كثير من القضايا عندما يتحدث الإنسان يقول الآخر له : أنت رفعت المنصوب ، نرجع للتسجيل ، سمعته خطأ ، الشخص كان يقرأ بشكل صحيح باللغة العربية ، إذاً يتعرض السمع إلى الخطأ ؟

أحياناً نسأل في المساجد هؤلاء الناس خاصة في الأماكن النائية ، إن شخصا بدأ في الدعوة كما تفضلت يسأله سؤال حسب ما قدم له يعطيه إجابة ، وأحياناً الثاني يكون علمه على قدر قليل الأسئلة الشفوية المفترض الحقيقة أن تنقلب ، أو أن نضبط هذه المسألة بأن تكون الأسئلة مكتوبة ؟

لا بد من الوعي :

الدكتور راتب :

نعم فالمفتي يفتي على هذا النص الذي أمامه ، وإلا القضية الشفهية تأخذ وتعطي ، هذا كلام دقيق جداً، لكن نحن بحاجة إلى أن يُعمق الوعي عند الإخوة المؤمنين أنه حينما نستوعب الحق نريح ، ونستريح ، فإنّ أعمارنا لا تكفي لاستيعاب الباطل ، لأن الباطل مليون خط منكسر أو منحن بين نقطتين ، أما الخط الحق فهو أقصر طريق بين نقطتين ، أعمالنا تكفي لاستيعاب الحق ، إذا استوعبنا الحق ، وطلب الحق حتماً واجب على كل مسلم ، كنت أقول دائماً : إنه قد يكون الإنسان يحمل دكتوراه ، لكنه بعيد عن المنهج الإلهي ، هذا أمي في الدين ، كما أنني أمي حينما يطلعني على تخطيط قلب ، لا أفهم منه شيئاً ، أما الإنسان لمجرد أنه نال شهادة عليا ظن أنه انتهى العلم ، هذا أخطر شريحة في المجتمع ، أنصاف المتعلمين ، لا هم علماء فينتفعون بعلمهم ، ولا هم جهال فيقبلون أن يتعلموا .

الأستاذ علاء :

هذا الغرور الذي ينشأ في هذه اللحظة يركب أنصاف المتعلمين يظن أنه وصل إلى سدة العلم .

إياكم والفضائيات وأنصاف المتعلمين :

الدكتور راتب :

هناك نقطة دقيقة جداً هناك ، فضائيات لا تنتمي إلى الأمة ، هذه التي لا تنتمي إلى الأمة يشك بفتاواها، فأنا مرة ذكرت طائفة من الفتاوى التي لا ترضي الله على الفضائيات ، وختمت لقائي مع بعض الإخوة قلت : لهم خذوا دينكم عن الأرضيات ، الفتوى لا تنجي صاحبها ، لا تنجي الذي قبلها ، واعتمد عليها ، ولم يحقق .

بالمناسبة ، المفتي الذي يفتي بلا علم يحاسب عند الله أشد الحساب ، لكن هناك شريحة أخرى خطيرة جداً يفتي بخلاف ما يعلم ، وهذه مسألة خطيرة جداً :

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)

[سورة التوبة : 9]

أستاذ علاء ، لو أمامك ورقة بيضاء بحجم الكف أنت لزمك أن تجري عملية حسابية ، فكتبت عليها العملية الحسابية ، وأخذت الجواب ، ثم مزقتها ، وألقيتها في المهملات ، ثم اكتشفت أن الورقة هي شيك بمئة مليون دولار ، أنت انتفعت بهذه الورقة ، لكن نسبة انتفاعك بها أنك استخدمتها كورقة ، لكن قيمتها مئة مليون دولار ، هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً .

قد نستخدم الدين ، قد نرتزق بالدين ، قد نتاجر بالدين ، هؤلاء ما عرفوا عظمة هذا الدين الذي هو سبب سعادة الدنيا والآخرة ، اشتروا به ثمناً قليلاً ، أنا أقول : لذلك ما من عمل أعظم عند الله من الدعوة إلى الله ، بنص الآية الكريمة :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت : 33]

ولكنني أعتقد ثانية أنه ما من عمل يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل على الإطلاق ليرقى إلى صنعة الأنبياء ، وبين أن يكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله ، تقول : أعظم عمل إذا بذلت من أجلها الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، تقول : أعظم عمل إذا التزمت بما تقول ، تقول : أعظم عمل إذا لم ير الناس مسافة بين أقوالك وأفعالك ، و تقول : أتفه عمل إذا تاجرت بها .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، قبل أن نأتي إلى محطتنا العلمية يقول عليه الصلاة والسلام : إذا سرتك حسنتك ، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن .

الخلاصة التي تضبط العلاقة مع الآخرين كيف ؟

كيف تضبط العلاقة مع الآخرين ؟

الدكتور راتب :

الخلاصة ، لأن الفطر تعرف المعروف ابتداء ، وتنكر المنكر ابتداء ، هناك توجيه نبوي ، نأخذ من بضعة أحاديث : عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ، كيف تعامل زوجة ابنك ؟ كما تتمنى أن تعامل ابنتك في بيت أهل زوجها ، كيف تعامل هذا الذي عندك في المحل ؟ كما تتمنى لو كان ابنك مكانه في محل آخر كيف يعامل ؟ والله هذا المقياس لا يخيب في أي موضوع ، أنت وراء الطاولة ، وجاءك مواطن ، كيف تعامله كما لو كنت مكانه مراجعاً ؟ أنت لو كنت زوجاً كيف تتمنى أن تعاملك زوجتك ؟ ينبغي أن تعاملها كما تتمنى أن تعاملك ، لو أننا عدنا إلى مقياس الفطرة السليم ، وفي كل قضية أنشأنا محاكمة سليمة لكنا في حال غير هذا الحال .

الأستاذ علاء :

الآن حال وقت المحطة العلمية في حلقتنا إن شاء الله ، عن أي موضوع أستاذنا ستحدثنا ؟

زلزال تسونامي بين الحقيقة الشرعية والثوابت العلمية :

الدكتور راتب :

والله يوجد زلزال تسونامي وقع قبل عدة سنوات هناك معلومات دقيقة جداً عنه سوف أشرحها مع هذا الفيلم العلمي إن شاء الله .

الحقيقة أنني قلت : إنه في الطبقات الدنيا من الأرض اثني عشر لوحاً ترتكز عليها القارات ، و في مركز الأرض سائل ملتهب يندفع اندفاعاً قوياً نحو الأعلى ، فإذا اندفع اندفاعاً قوياً نحو الأعلى تباعدت هذه الطبقات ، وإذا اتجه نحو مركز الأرض تقاربت هذه الطبقات ، والحقيقة أن زلزال تسونامي الذي حصل هو اصطدام لوحين كبيرين ، لوح ترتكز عليه أستراليا ، و لوح ترتكز عليه آسيا ، فكانت قوة هذا الزلزال ما تعادل مليون قنبلة ذرية ، قال الله عز وجل :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج : 12]

هذا التصادم بين لوحي استراليا وآسيا سبب أمواجاً بلغ ارتفاعها إلى أربعين متراً ، وانطلقت لمسافة ألف وستمئة كيلو متر بسرعة ألف وستمئة كيلو متر ، وبإمكان هذه الأمواج أن تحمل صخوراً ، وتدمر مدناً ، وتحمل سفناً ، وتجعلها على أسطح المنازل .

نحن نريد أن نعبد الله رغبة ورهبة ، أنا حينما أعبده رغبة دون أن أنظر إلى عقابه ، قال : يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، و أحب من أحبني ، و حببني إلى خلقي ، قال : يا رب ، إنك تعلم أني أحبك ، و أحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي ، أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

إذاً أردت من هذه اللقطة أنه لابد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة : 33]

التركيز على (عظيم) محبة له ، يحبهم ويحبونه ، و خوفاً منه ، ورأس الحكمة مخافة الله ، فالإنسان في قبضة الله عز وجل ، فإذا سلك الطريق الصحيح فلعل الله سبحانه وتعالى يحفظه ، والله عز وجل يقول :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء : 88]

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من خلال ما قدمت هناك من يستقيم في حياته ، من يستقيم في تعامله ، من يستقيم في علاقاته بالآخرين ، لكن حياته تتعثر ، حياته لا تروق كما راقت لغيره من الذين سلكوا مسالك المهالك، و كان بين نقطتين عندهم الخط منكسر في كل نقطة من النقاط ، و هو صابر على ما هو عليه ، أي علاقته بجيرانه ، علاقته بأسرته ، علاقته في عمله ، علاقته بربه ، حسب الظاهر أنها علاقة ممتازة ، لكن حياته كما قلنا متعثرة ، الحياة فيها عقبات ، هل هذا شيء طبيعي في حياة المؤمن ، أم هذه القضية تنبي عن أن العلاقة فيها ارتياب مع الله عز وجل ؟

هل تعثر حياة المستقيم لخلل فيه أم لحكمة ربانية ؟

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، لابد من تفصيل المصائب خمسة أنواع ، نوعان يصيبان المؤمنين :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة : 155]

الإنسان في الحياة الدنيا التي هي دار ابتلاء ، ودار عمل ، فإذا غفل عن الله ، و هو طيب القلب ، مستقيم ، لكنه غفل عن رسالته لم يفلح .

أنت كأب ، هل تقبل من ابنك أن يكون مهذباً فقط ، أم تريد أن يضيف إلى تهذيبه الاجتهاد ؟ فقد يكون مهذباً جداً ، لكنه كسول ، فإذا علم الله عز وجل أن هذا الإنسان على طيب قلب ، و على استقامة لا بأس بها ، لكن همته في السير إلى الله ضعيفة ، يسوق له بعض المحفزات ، يلوح له شبح مصيبة ، فيلجأ إلى الله ، يلوح له شبح مرض فيلجأ إلى الله ، تسوء علاقته مع من هو فوقه فيلجأ إلى الله ، فكأن هذه المصائب كما قال الله عز وجل :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

[سورة البقرة]

نحن ملك لله :

(وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة : 156]

أي إنا إليه بهذه المصيبة راجعون ، لفت نظر الله عز وجل لطيف ، يلفت نظر الإنسان بشبح مصيبة ، بقلق معين ، بهم معين ، بمشكلة معينة ، بانقطاع دخله فجأة ، هذه كلها مادمت مؤمناً بالله مستقيماً على أمره كلها محفزات إلى الله :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة : 21]

هذه المصائب تصيب المؤمنين ، لكن بعضها مصائب دفع ، وبعضها مصائب رفع ، مصائب الدفع عند التقصير ، أما الرفع فعنده إمكانيات عالية جداً لم يستخدمها ، فمرة يدفعه إلى بابه ، يرجئه إلى أعتابه ، يرجئه إلى إحكام الصلة معه ، يرجئه إلى مزيد من الانضباط ، وبعضها ليرفع مقامه عنده ، هذه مصائب المؤمنين ،

((أشد الناس بلاء الأنبياء ، وأنا أشدهم بلاء ، ثم الأمثل ، فالأمثل ، يبتلى الرجل على قدر))

[البخاري]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (25-95) - مقومات التكليف : المصيبة ـ ما هي المصيبة ؟ ـ طائر الطنان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-04-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، كنا قد تحدثنا في الحلقات الماضية عن مسائل تتعلق بمقومات التكليف ، وأن الله عز وجل قبل أن يكلف المرء بحمل الأمانة ، وبأداء الأمانة الإنسان ، هيأ له مقومات تستوعب ، وتحمل ، وتعين الإنسان على التكليف ، وعلى الوظيفة ، وعلى المهمة التي انتخبه الله إليها ، واصطفاه من أجلها، تحدثنا عن مقومات التكليف في الكون ، وتحدثنا عن العقل ، ثم أتينا إلى الفطرة ، وأفردنا للفطرة خمس حلقات متتاليات .

الآن سيدي الكريم من المعلوم أن الإنسان ينفر ، ويتألم من المصيبة ، وأنه يطرب ويسر للحسنة ، هذا من فطرته ، يقول الله عز وجل :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعرج)

ثم يقول الله عز وجل في موضع آخر :

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

(سورة البقرة)

راجعون بها إلى الله عز وجل .

سيدي الكريم ، هنالك فرقاء ، هنالك أصحاب مدارس ، هنالك أصحاب آراء ، من يقول : إنّ المصيبة عقاب من الله عز وجل ، ومن يقول : إن المصيبة امتحان من الله ، ومن يقول : إن المصيبة رفع درجات ومراتب عند الله عز وجل ، تُرى لو أردنا أن نلم الموضوع من أطرافه كيف ننظر ، ونتبين فلسفة المصيبة ، إن شاء الله تعالى .

بناء الفروع على الأصول في المنهج الإلهي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

نحن حينما نتحدث في تفاصيل المنهج الإلهي إذا ربطناه بأصوله ، الأصول تلقي ضوءاً كافياً على الفروع .
سأتصور جامعة أعطت الطلاب في الامتحان أوراق الإجابة ، وقد طُبع عليها الجواب التام الصحيح ، وقد طُبع في موقع العلامة 100 على 100 ، وكلفنا الطالب أن يكتب اسمه فقط ، هذا النجاح هل له قيمة ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، لا عند الجامعة ، ولا عند الممتحن ، ولا عند الناس إطلاقاً ، هذا الامتحان ساقط .
لو أن الله سبحانه وتعالى خلق مخلوقات ، وجعلها في الجنة ، بلا سبب من المخلوقات ، لا قيمة لهذه الجنة ، يبدو أن الإنسان حينما يقطف ثمار جهده ، وثمار عمله يسعد به .

حقيقة الحياة الدنيا :

إذاً : هذه مقدمة تبين أنه لا بد من حياة دنيا تكون إعداداً للحياة العليا ، نحن في الحياة الدنيا ، نحن في دار إعداد ، نحن في دار دفع ثمن الحياة العليا ، نحن في دار دفع التكاليف المترتبة علينا كي نفوز بالجنة ، إذاً في الأصل نحن في الدنيا في دار ابتلاء ، وقد قال الله عز وجل :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية : 2)

أستاذ علاء ، حينما يفهم الإنسان حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة الدنيا ، ويعرف مكانه بين المخلوقات يتحرك بشكل صحيح .
لذلك أصل الدين معرفة الله ، وهذه المعرفة أصل في الدين ، ومن أصول الدين الأخرى أن تعرف لماذا خُلق الإنسان ، ولماذا كان في الحياة الدنيا ، وماذا بعد الموت ، هذه الكليات ، وقد ذكرت في لقاءات سابقة أنه ما كل ذكي بعاقل .

شمولية النجاح الدنيوي والأخروي :

قد ينال الإنسان شهادة عليا في اختصاص نادر ، ويحقق دخلا فلكيا ، لكن لأنه لم يعرف ربه ، ولم يعرف منهج الله ، ولم يعرف ماذا بعد الموت ، ومن أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ لا يعد عاقلاً ، العقل متعلق بالكليات والشموليات ، وعند علماء النفس ليس النجاح نجاحاً إذا كان جزئياً ، يجب أن يكون شمولياً ، فلو نجح الإنسان في بيته ، ولم ينجح في عمله لا يسمى ناجحاً ، لو نجح في عمله ، ولم يكن

ناجحاً في بيته لا يسمى ناجحاً ، لو نجح في عمله وبيته لم تكن صحته كما ينبغي لا يعد ناجحاً .
سيدي النجاح لا يتجزأ ، والحقيقة أن الإنسان قد ينجح في عمله ، وهو أسوأ زوج ، وقد يكون أفضل زوج ، لكنه في عمله غير ناجح ، فهو الشيء الدقيق أن أي خلل بأي فرع من فروع النجاح ينسحب على الفروع الأخرى .
إذاً البداية أن الحياة الآخرة هي التي خُلق لها الإنسان ، والدليل :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود : 119)

خلقهم ليرحمهم ، خلقهم ليسعدهم ، وعطاء الله عز وجل يجب أن يتناسب مع كرمه ، وأيّ عطاء ينتهي بالموت ليس عطاء ، لو ملك الإنسان الدنيا ، لو جمع أكبر ثروة في الأرض ، لو ارتقى إلى أعلى منصب في الأرض ، لو تمتع بمباهج الحياة أعلى تمتع ، أي عطاء ينتهي بالموت لا يعد عطاء يليق بكرم الله ، الله عز وجل عطاءه أبدي سرمدي .
لذلك نحن في الدنيا ممر ، وليست مقراً ، هي كالمدرسة ، المقاعد ليست مريحة تماماً ، فيها درس ، وانتباه ، ووظائف ، ودوام ست ساعات ، وعبء بالليل ، وأعمال ، ومسابقة ، ورسوب ، ونجاح ، هكذا دار الابتلاء ، لو أن طالباً أراد أن يجعل من مقعده في الصف كمقعد فخم جداً لمركبة فارهة ، يمكن أن يصبح سريراً ، لو وضع أمامه بعض المقبّلات ، بعض الموالح ، بعض الفواكه ، لو وضع أمامه شاشة صغيرة ، لو وضع أمامه مذياعا ، نقول له : هذه الأشياء لا تناسب هذا المكان ، هذا مكان دراسة ، مكان إعداد لحياة أبدية .
فحينما ينقل الإنسان اهتمامه إلى الآخرة يكون قد أصاب الهدف ، ويكون قد عرف لماذا خلق ، حينما يبني حياته على العطاء .

نماذج الناس :

أستاذ علاء ، الناس على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، اذكر ما شئت هم عند الله نموذجان :

النموذج الأول :

هو نموذج عرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، وانضبط بمنهج ربه ، وبنى حياته على الإحسان ، وعلى العمل الصالح ، فسعد ، وسلم في الدنيا والآخرة .

النموذج الثاني :

النموذج الآخر : غفل عن الله ، وآمن أن الحياة هي كل شيء ، وانتهت آماله في الحياة الدنيا ، فاستغنى عن طاعة الله أصلاً ، وبنى حياته على الأخذ لا على العطاء ، هذا نموذج آخر ، ولن تجد على سطح الأرض في الستة آلاف مليون نموذجا ثالثا ، وكل تقسيمات الأرض تقسيمات ليست صحيحة، تقسيمات مفتعلة .

نتيجة النموذجين :

الآية تقول :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة ، بناء على هذا التصديق اتقى أن يعصي الله ، بناء على هذا التصديق جعل نمط حياته العطاء ، الأنبياء أعطوا ، ولم يأخذوا ، يعطي من وقته ، من جهده ، من ماله ، له رسالة ، يحمل أمانة ، يحمل تكليف ، فحينما يقوم الإنسان بالمهمة التي خلق لها يَسعد ويُسعد ، وحينما يغفل عن هذه المهمة ، ويعيش لشهواته ، وملذاته ، ومصالحه ، وقد يبني مجده على أنقاض الآخرين ، وحياته على موتهم ، وعزه على ذلهم ، وغناه على فقرهم ، هذا الإنسان يشقى شقاء داخلياً ، لذلك :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

كنت أعمى في الدنيا لم تعرف سر وجودك ، ولا غاية وجودك ، إذاً حينما أتى الله بنا إلى الدنيا من أجل أن نؤهل أنفسنا للآخرة ، من أجل أن ندفع ثمن الآخرة ، أهل الجنة في الجنة يقولون :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر الآية : 74)

لولا أننا جئنا إلى الأرض ، وتعرفنا إلى الله ، وانضبطنا بمنهجه ، وأحسنا إلى خلقه لما كنا في الجنة .
تماماً كما لو أن طبيباً متألقاً جداً له دخل فلكي ، مر أمام جامعته ، قال : لولا هذا البناء ، لولا انتسابي لهذه الجامعة ، الدراسة المتعبة ، والسهر إلى أنصاف الليل ، لما كنت في هذا المكان :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر)

إذاً : أنا سقت هذا المثل لأؤكد أنه لا بد من الابتلاء ، لا بد من أن يأتي الإنسان إلى الدنيا ليدفع ثمن الآخرة ، هذه واحدة .

الحكمة الإلهية تقتضي المحاسبة الدنيوية قبل الأخروية :

الشيء الآخر : الله عز وجل كان من الممكن أن يخلقنا في الدنيا ، ثم يحاسبنا في الآخرة ، من دون أي متابعة في الدنيا ، أنا أعتقد أن 99% من الناس يرسبون ، لو تركوا من دون متابعة .
تماماً لو كنت مديرة مؤسسة ، وأتيت بموظف ، لا بد من أن تمتحنه ، بهذه الحالة مهمتك أن تحصي على هذا الموظف أغلاطه فقط ، فإذا تراكمت تصرفه ، لو أن هذا الموظف ابنك ماذا تفعل ؟ مع كل خطأ تتابعه ، مع كل هفوة تنصحه ، مع كل تقصير تزجره ، مع كل أداء غير صحيح توجه انتباهه .
إذاً : الله عز وجل رحيم ، الله عز وجل رب العالمين ، فلذلك الإنسان مع أنه خلق للسعادة ، وخلق للسلامة ، وخلق لجنة عرضها السماوات والأرض ، وخلق ليكون في أعلى عليين ، وخلق لحياة لهم فيها ما يشاءون ، لكنه في الدنيا يغفل ، قد تستهويه الدنيا ، قد يؤثر شهوته على مبدأه ، قد يبني مجدة على أنقاض الآخرين ، قد يأخذ ما ليس له ، قد يستعلي ، قد يستكبر ، قد يتغطرس ، فربنا له بالمرصاد، وربنا يؤدّبه .
لا بد من فكرة دقيقة : هذه السيارة لماذا صنعت في الأصل : من أجل أن تسير علة صنعها أن تسير ، لماذا فيها مكبح ؟ أساسي جداً في المركبة ، المكبح ضمان لسلامتها ، مع أن المكبح في فلسفته يتناقض مع علة صنعها ، هي صنعت لتسير ، ولكن المكبح ضروري جداً لضمان سلامة هذه المركبة ، ولضمان أن تكون في خدمة صاحبها .
إذاً أنت حينما تفهم المصيبة فهماً إلهياً ، ربانياً ، فهماً ينطوي على حكم ، وعلى رحمة ، نتلقها بصبر وبحلم ، وبرضاً عن الله عز وجل .
المذيع :

الخلاصة مما قدمت أن الدار الذي نعيش بها على البسيطة الدار الدنيا هي دار ابتلاء ، ومن الابتلاء أن تنزل المصائب ، ويمتحن الله عباده بمصائبه ، بما يحل بهم ، والآية واضحة :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ)

هنا جاءت اللام للتعليل :

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ)

إذاً : علة خلق الموت والحياة ابتلاء من الله .

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ)

ما الذي يحسن العمل ؟ وما الذي لا يحسن العمل ؟

الدكتور :

الإمام الشافعي أستاذ علاء ، سُئل ندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فتبسم وقال : لن تمكن قبل أن تبتلى.

المذيع :

وهنالك من الأدعية التي تشتهر على ألسنة الناس : يا رب نحن عبيد إحسان ، ولسنا بعبيد امتحان ، ودائماً أن يدعو الله باللطف ، وأن يدعو الله بأن ينزل الرحمة والبركة ، وأن لا يبتلينا في ، المصائب حتى لسنا على قدر هذا الامتحان ، ما قولنا في هذا الموضوع ؟

لا تسأل المصيبة واسأل العافية :

الدكتور :

سيد الأنام في الطائف ، فإذا كان للدعوة الإسلامية خط بياني خط بيان الدعوة إلى الله وصل إلى الحضيض في الطائف ، مش 80 كم ، وصل إلى قوم يعلق آمالاً على هدايتهم فكذبوه ، وسخروا منه ، واستهزؤوا به ، وأغروا صبيانهم أن يضربوه ، فماذا قال ؟ قال :

((الله إني أشكو غليك ضعف قوتي ، قلة حيلتي وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين ، إلى من تكلين ، على صديق يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

الشاهد :

((لكن عافيتك أوسع لي))

لذلك الإنسان ممنوع بنص الإسلامي أن يسأل الله مصيبة ، مع أن فيها خيرا ، لكن سلوا الله السلامة .

مثلاً : لو أن إنسانا يعاني آلاما في المعدة ، قال له الطبيب : هناك علاج سهل جداً ، أن تأخذ بحمية صارمة ، فإن لم تفعل فلابد من عمل جراحي ، فالإنسان العاقل الذكي والموفق ، بدل أن يصل مع الله إلى عمل جراحي يطبق حميته الصحيحة ، ودائماً أنا أمشي في فلاة ، وأرى لوحة كتب عليها : ممنوع التجاوز ، حقل ألغام ، بالتأكيد أي إنسان عاقل يقرأ هذه اللوحة لا يشعر بحقد على من وضعها ، بالعكس يشكره من أعماقه ، لأنه لا يرى هذه اللوحة حداً لحريته ، بل يراها ضماناً لسلامته ، وأنا حينما أفهم أحكام الدين أنها ضمان لسلامتنا أكون فقيهاً .

المذيع :

سيدي ، الآن جئنا على مسألة بأننا في دار ابتلاء ، ولا أدري إن كان الوقت يسمح لنا ، بقي من وقت قبل أن تعرض لنا الموضوع العلمي الذي ستريننا إياه ، وسوف تعلق عليه سيدي الكريم ، دار ابتلاء للمؤمنين ، والله عز وجل يبتلي الإنسان على هذه الأرض ليتبين العمل الصالح من العمل الطالح ، من يصبر ومن لا يصبر ، لكن جاءت المصائب نتيجة أعمال وعقاب شديد من الله ، هل تندرج هذه مع هذه؟ أم تلك المصائب التي نزلت مثلاً بأقوام الطوفان ، المسخ ، ما جرى في قوم لوط ، ما جرى مع قوم نوح ، عندما كفروا ما جاء ، وما نزل من مصائب بهم ، هل ينضوي تحت الامتحان ؟ أم النتيجة للشذوذ ؟.

هل المصائب امتحان أم عقاب بسبب الشذوذ والعصيان ؟

الدكتور :

أستاذ علاء هذا سؤال كبير جداً ، قد يحتاج إلى حلقة مستقلة هذا السؤال ، الذي تفضلتم به ، لكن بادئ ذي بدء مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون المصائب من نوع واحد ، وقد قيل : التعميم من العمى .

هناك أنواع منوعة من المصائب ، هناك مصائب يرتقي بها الإنسان ، هناك مصائب تكشف حقيقة الإنسان الكاملة ، هناك مصائب ردع ، هناك مصائب قصم ، هناك مصائب دفع ، هناك مصائب رفع ، ولكل حالة جواب ، نحن في الطب ليس عندنا مرض ، عندنا مريض ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

كل إنسان له عند الله ملف ، ومقيم تقييما دقيقا جداً ، الدول كلها عندها تقسيمات لموظفيها بـ : 30 درجة ، بعشر مراتب ، ولكل مرتبة 3 درجات ، فقد يعيّن إنسان يحمل دكتوراه مهمة جداً بمرتبة خامسة أولى فرضاً ، ويحمل إنسان دكتوراه سهلة جداً بالدرجة نفسها ، أما عند الله عز وجل فكل إنسان له مرتبة بحسب حجم عمله ، وضوابط عمله ، والصوارف ، والمعوقات ، والنيات ، والتضحيات ،

هناك دقة بالغة جداً ، لذلك المصائب تأخذ وضعا شخصيا ، كل إنسان له مصيبة تتناسب مع مكانته وإيمانه ، الله عز وجل وضح كثيراً في القرآن الكريم ، وإن شاء الله في حلقة قادمة يمكن أن نوسع هذا الموضوع .

ولكن نتابع الحديث عن موضوع ، أن المدرسة فيها مذاكرات ، فيها فصح نصفي ، لماذا لو ألقي على الطلاب دروس إلى الامتحان الأخير قد لا ينجح معظمهم ، أما مذاكرة بعد أسبوعين ، وكانت علامته قليلة يبلغون والده ، الوالد يضغط على ابنه ، فيضاعف جهوده ، أعطاه إغراء ، لوّح له بجائزة إذا نجح، لوّح له بعقاب إذا رسب .

فالمتابعة اليومية فيها رحمة ، لأن الله رب العالمين يتابع عبده ، وأنا أقول دائماً : الإنسان إذا تابعه الله عز وجل فهذه بشارة له أنه ضِمن العناية المشددة .

المذيع :

بقي الفقرة العلمية في حلقتنا ، ماذا اخترت لنا استأذنا في هذه الحلقة ؟

الموضوع العلمي : مقدمات في الإعجاز العلمي في الطيور :

الدكتور :

1 ـ معجزة الله في خلق الطائر :

الآن نقرأ الآية التي هي سبب اختيار الموضوع المتعلق بالطيور الله عز وجل يقول :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة النحل)

أستاذ علاء

(أَلَمْ يَرَوْا)

يعني أيها البشر :

(انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

هذه كلها آيات دالة على عظمة الله ، وقال أيضاً :

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك)

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق .

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

2 ـ أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر :

فلذلك ننتقل إلى الفيلم الذي وعدنا به لهذا اللقاء الطيب ، والذي يتعلق بالطيور .

أستاذ علاء في موسوعة علمية دقيقة جداً ، موسوعة " لايف " فيها طبعة عربية لفت نظري بالجزء المتعلق بالطيور ، هنا صناعة الطائرات يعني من أعقد الصناعات في الأرض ، لأنه الإنسان على مركبة أرضية تتعطل فيقف ، أما في الجو فيسقط ويموت ، لذلك هناك عناية فائقة جداً في معامل الطائرات ، لكن الذي لفت نظري ، وتأثرت لهذه الكلمة تأثراً كبيراً أنه في مطلع هذه الموسوعة كُتب في البداية : أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر ، وأطول رحلة تقوم بها الطائرة 15 ساعة ، الطائر يطير 86 ساعة بلا توقف ، هناك موازنات دقيقة جداً بين الطائر والطائرة ، فلذلك:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية : 88)

أستاذ علاء ، أهم شيء في الطائرة ، خفة وزنها ، وقوة محركها ، وأجهزتها ، وأضخم شيء في صناعة الطائرة قلة احتكاكها بالهواء ، ألا ترى إلى العجلات كيف تنثني إلى جسم الطائرة ، إذاً : تصميم الطائر شيء مذهل .

الحقيقة أنا أقول : صناعة الطائرات الآن أعلى صناعة في العالم ، لكن الطائر يفوقها من حيث التصميم ، يقول الله عز وجل :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

الحقيقة أن الطائر تأتي خفة وزنه من حقيقة مذهلة ، لكن قبل أن أذكر عن خفة وزنه ، هذا الطائر مَن علمه قوانين معقدة جداً في الهواء ، وفي الفراغ ، وفي الطيران ، وفي الاهتداء ؟ من علمه ؟

قال تعالى:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

الطائرة صنَعها 5000 آلاف مهندس في المعمل ، وتجارب ، وخبرات متراكمة ، إلى أن صنعت هذه الطائرة الحديثة ، وقد كان الطيران قديماً رحلة قصيرة يحتاج إلى 17 ساعة ، الآن هناك رحلات مذهلة .

إذاً : هذا التصميم ، هذه القوانين التي يعرفها الطيور بالبديهة ، بعد أن يخرج الطير من البيضة ، فمَن علّمه إياها ؟

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورةطه)

أستاذ علاء ، الطائرة ، الآية الكريمة :

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الجاثية)

3 – أهمية خفة الوزن في الطائرة :

أستاذ علاء عظام الطائر مفرغة ، فيها أنابيب وليست أسطوانات ، من أجل أن تكون خفيفة الوزن ، عظام الطائر فيها دعائم عرضية سطوح معترضة ، من أجل متانة العظم ، ومن أجل أن تكون العظة خفيفة ، الحقيقة هذا الطائر ، هذا الصقر أشير إلى هيكله العظمي بأنه عظام كلها مفرغة ، فارغة ، يعني كأنها أنابيب ، وليست أسطوانات ، وفيها سطوح معترضة من أجل أن تحقق خفة هذا الطائر . لكن شيء آخر ، ثبت علمياً أن الأسطوانات ، الأنبوب أكثر مقاومة من الأسطوانة ، الأسطوانة إذا فرغت أكثر مقاومة من الأسطوانة ، إذا فرغت أكثر مقاومة مما لو أنها ممتلئة ، إذاً هذا الطائر حقق المتانة والدقة .

4 – الريش في الطائر :

الآن الريش : ريش الطائر آية دالة على عظمة الله عز وجل داخل كل ريشة آلاف الرشيات بشكل تقاطعي ، ومرتبطة بعضها ببعض بصمرات مجهرية ، فيه آلاف التفاصيل المجهرية ، لو كبرنا ريشة الطائر إلى مئات المرات ، أو إلى آلاف المرات لرأينا تفاصيل في دقة صنع الريشة تفوق حد الخيال ، إذاً : الطائر يحتاج إلى هيكل عظمي فارغ خفيف ، وإلى ريش أيضاً مفرغ ، لو أخذنا ريشة الطائر ، وضغطناها نراها فارغة ، هذا كله من جل خفة الوزن .

والطائر يحتاج إلى عضلات كي تعينه على الطيران ، فلذلك الطائر يملك جهازا عضليا عاليا جداً ، ويملك جهاز تبريد ، فالهواء الذي يستنشقه يتغلغل إلى كل عضلاته .

طائر الطنان :

الآن عندنا طائر في الحقيقة هو من معجزات الطيران ، اسمه الطير الطنان ، يرف جناحه في الثانية 25 مرة في الثانية الواحدة ، ولا نستطيع أن نرى دقائق رف الجناح إلا بتبطيء الحركة ، هذا الطائر الطنان يرف في الثانية الواحدة 25 مرة ، والإنسان لا يستطيع أن يحرك يديه أكثر من مرة واحدة في الثانية ، لو جئنا بآلة لتحرك يديه 25 مرة بالثانية لاحترقت عضلاته ، أو لقطعت ، لكن هذا الطائر زوده الله بهذه الطريقة ، هذا الطائر يشبه الهيلوكبتر ، فهو يستطيع أن يقف ، انظر كيف يقف الآن الطائر ، ويتعامل مع هذه الزهر ، وكأنه طائرة هيلوكبتر ، لأنه بحسب مبدأ الفعل ورد الفعل ، الهيلوكبتر تدفع الهواء نحو الأسفل ، رد فعل هذه الحركة تصعد نحو الأعلى ، والطائر كذلك .

كيف يهتدي الطائر إلى هدفه ؟

فلذلك أودع الله عز وجل في هذا الطائر آيات دالة على عظمته ، والطائر يطير بارتفاعات عالية جداً ، وبارتفاعات منخفضة ، وأن اهتداءه إلى مكان هدفه يحير العقول والألباب .

حتى الآن فيما أعلم ما في نظرية ثبتت في تفسير اهتداء الطائر إلى هدفه ، وقد قد يقطع الطائر 17 ألف كم ، قد ينتقل من دمشق إلى جنوب إفريقيا ، الآن يعود ، لو أخطأ في الزاوية درجة واحدة للجا إلى مصر ، أو العراق ، يأتي إلى دمشق بالذات ، هذا الإنسان يحرك يديه مرة واحدة في الثانية ، أما لو وضعناه على آلة كي يتحرك يديه 25 مرة بالثانية لاحترقت عضلاته .

لذلك الله عز وجل يقول :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

الله عز وجل لا يُرى بالعين ، لكن تصل إليه العقول ، وكل شيء في الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (26-95) - مقومات التكليف : المصيبة - أنواع المصائب ـ معجزة طيران الطيور
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-05-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

ربط اللاحق بالسابق :

سيدي الكريم ، كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية في التعرف على فلسفة المصائب ، يسمح لي السادة المشاهدون بأن أربط بين الحلقات كانت تتحدث عن مقومات التكليف ، تحدثنا عن الكون ، والعقل ، والفطرة ، ثم من خلال الفطرة تبينا بأن الإنسان يتألم من المصيبة ، ويتأذى منها ، وينفر منها ، ويحب الإحسان إليه ، ويحب العطاء ، ويسعد بالعطاء ، ومن خلال الحلقة الماضية تبينا بأن الدار التي نعيش فيها وعليها ، ونستسكنها هي الدار الدنيا على الأرض هي دار ابتلاء ، ودار امتحان ، وهذا الامتحان في الحقيقة ليس مربوطا بزمن محدد ، وإنما متواصل طالما هنالك عيش لهذا الإنسان ، منذ ولادته وحتى وفاته ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتبينا من خلال ما قدمت سيدي الكريم في الحلقة الماضية بأن المصائب هي الامتحان ، ورفع الدرجة، وتبيان موقف هذا المرء في أثناء المصيبة ، وعززنا ذلك القول ، أو ذلك المفهوم بقوله تعالى عندما قال :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية : 2)

وقفنا عند نقطة كنت قد سألت أستاذنا الكريم عنها : أن المصائب التي يرفع المؤمن درجته ، أو تعلو بمكانته عند الله عز وجل ، هل هي ذات المصيبة التي تأتي على من فسق ، وعلى من جنح ، وعلى من خالف ، وتلك المصائب التي أتت على الأقوام التي سبقتنا ، هنالك الزلازل ، وهنالك الطوفان ، وهنالك المسخ ، وما إلى ذلك ، هل هذه من جنس هذه أم المصائب تندرج تحت أنواع ، وتحت أقسام ؟ .

الاستاذ راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

كل البشر مخلوقون لرحمة الله :

أستاذ علاء بادئ ذي بدء : البشر جميعاً مطلوبون لرحمة الله عز وجل ، لا يستثنى أحد .

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه)

كل البشر من دون استثناء خلقوا لرحمة الله ، خلقوا لسعادة أبدية في الآخرة ، لذلك لو استثنى أحد من المعالجة الإلهية ، حتى الذي كما تفضلت يتبين أن مصيبته عقاب هو عقاب مغلف برحمة .

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

تقتضي رحمته أن يسوق لهؤلاء الذين انحرفوا ، وطغوا ، وبغوا شدائد تعيدهم إلى الصواب ، لأن الإنسان مهما عتا ، مهما تجبر ، مهما طغى ، مهما استكبر ، مهما تغطرس ، فهو مطلوب لرحمة الله .

ناجى أحدهم ربه فقال : يا رب ، إذا كانت رحمتك بمن قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

قالها فرعون ، فكيف رحمتك بمن قال : سبحان رب الأعلى ، وإذا كانت رحمتك بمن قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ، وإذا قال العبد ، وهو راكع : يا رب ، يقول الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد وهو ساجد : يا رب ، يقول الله : لبيك يا عبدي ، فإذا قال العبد وهو عاصٍ : يا رب ، يقول الله له : لبيك ، ثم لبيك ، ثم لبيك .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية : 53)

النبي قدم لنا صورة رائعة ، إنسان ركب ناقته ، وعليها طعامه وشرابه ، يقطع عليها الصحراء ، والصحراء مظنة هلاك ، جلس ليستريح ، فلما استيقظ لم يجد الناقة ، أيقن قطعاً بالهلاك ، والموت محقق ، فبكى ، وبكى ، وبكى حتى أخذته سنة من النوم ، فلما استيقظ رأى الناقة ، اختل توازنه ، أنطق بالكفر ، قال : يا رب أنا ربك ، وأنت عبدي ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[متفق عليه]

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

إذاً : الإنسان مخلوق للرحمة ، لذلك قال تعالى :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان الآية : 20)

النعم الباطنة هي المصائب :

قال العلماء : النعم الباطنة هي المصائب ، النعم الظاهرة المألوفة ، الصحة نعمة ظاهرة ، المرض نعمة باطنة ، الغنى نعمة ظاهرة ، الضيق المادي أحياناً نعمة باطنة ، الطمأنينة نعمة ظاهرة ، القلق نعمة باطنة :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

وبعض علماء القلوب قال : ربما أعطاء فمنع ، وربما منعك فأعطاك ، وقد يكون المنع عين العطاء ، لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((اللهم ما رزقتني مما أحب ، فاجعله عوناً فيما تحب))

[الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطمي]

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ)

(سورة القصص الآية : 77)

((وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

المؤمن كما قال عنه النبي الكريم :

((عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر وكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))

[أخرجه مسلم في مسنده عن صهيب]

لأنه فقه حكمة المصيبة ، وهذا اللقاء الطيب لعل الله سبحانه وتعالى ينفع الإخوة المشاهدين لفهم حقيقة الشدائد التي تُساق للمؤمنين أحياناً .

أنا والله مؤمن أشد الإيمان ، ومتفائل أنه سوف يأتي يوم نكتشف الإيجابيات والمكاسب التي حُققت من هذه الشدة التي سيقت للمسلمين ، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي .

كنت أقول دائماً : كان من الممكن أن يكون الطرف الآخر في كوكب ، ونحن في كوكب ، أن يكون الطرف الآخر في قارة ، ونحن في قارة ، في حقبة ونحن ، في حقبة ، ولكن قرار الله أن تكون معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لأن الحق يقوى بالتحدي ، وأهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالبذل والتضحية ، والطرف الآخر عباد الله أيضاً ، يريد الله لهم الهداية والتوفيق ، فلعلهم يهتدون .

إذاً المصائب نعم باطنة ، ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وقد يكون المنع عين العطاء ، لكن أنا إيماني أنه يوم القيامة حينما يكشف الله جل جلاله لكل إنسان حكمة المصائب التي ساقها له يجب أن يذوب كالشمعة محبة لله ، لذلك قال تعالى :

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ)

البشر جميعاً مؤمنهم وكافرهم :

(أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس)

وليس في الإمكان أبدع مما كان .

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا)

يوم القيامة :

(لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً)

(سورة القصص الآية : 47)

سمى الله المصيبة رسولاً ، الآن تُستخدم بالأخبار الحديثة أنه صار في عرض عسكري ، هذه رسالة ، الآن في أسلوب الرسائل العملية ، أحياناً يقام بعمل آخر ، رسالة وجهت إلى الجهة الفلانية .

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ)

(سورة القصص الآية : 47)

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

فلذلك الذي يقع فيه حكمة بالغة جداً ، ملخص هذا الكلام :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة الآية : 216)

إنسان يطوف حول الكعبة ، يقول : يا رب ، هل أنت راضٍ عني ؟ كان الإمام الشافعي يمشي وراءه ، قال له : يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال له : سبحان الله ! من أنت ؟ قال : أنا محمد بن إدريس ، قال : كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه ؟! قال : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

فالمؤمن راضٍ عن الله ، قال تعالى :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة)

المذيع :

ليس بصادق في دعواه من لم يرضَ بضرب ، أو بمصيبة مولاه كما قال أهل التصوف في هذا ، أو يتلذذ .

من صفات المؤمن الصادق : الرضا بمكروه القضاء :

الدكتور :

وقال الإمام علي كرم الله وجهه : << الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين >>.

المصيبة تكشف وضع الإنسان :

هناك نقطة ثانية مهمة جداً : المصيبة أحياناً تكشف وضع الإنسان ، قد يتوهّم طالب أنه الأول في الرياضيات ، وهو ليس كذلك ، لولا المذاكرة في أثناء العام الدراسي ، وأنه أخذ ثلاثة من مئة لا يعرف أنه ضعيف في الرياضيات ، المتوهم لا يدرس .

فلذلك الله عز وجل يحجمنا ، كل إنسان يظن نفسه مؤمنا كبيرا ، يدعي ادعاءات فارغة ، أو يضعه في ظرف دقيق فيكشف على حقيقته ، هذا تعريف به ، الله يعلمه ، لأن الله علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن ، لو كان كيف كان يكون علم الله مطلق .

(يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى)

(سورة طه)

عندنا شيء ظاهر ، يعرفه جميع الناس ، وشيء يخفيه الناس عمن حولهم ، لكن هناك شيء مخفي عنه.

الإنسان ثلاثة أثلاث :

الثلث الأول :

كنت أقول دائماً : الإنسان ثلاثة أثلاث ، قسم يعرفه الناس جميعاً ، مثلاً : المحامي ، الطبيب ، المدرس، الطويل ، القصير ، الأبيض ، الأسمر ـ ما ظهر من الصفات ـ هذا الثلث الأول يعرفه الناس جميعاً .

الثلث الثاني :

القسم الثاني لا يعرفه إلا أقرب الناس إليه ، زوجته ، وأولاده ، شريكه ، رفيقه في السفر ، من تعامل معه في الدرهم والدينار ، من جاوره ، هؤلاء يعرفون الثلث الثاني .

الثلث الثالث :

لكن ثلثاً ثالثاً لا يعلمه إلا الله .

لما سيدنا الصديق ولّى سيدنا عمر ، قال : هذا علمي به ، فإن بدل وغير ، فلا علم لي بالغيب .

لذلك المؤمن إذا طُلب لشهادة يقول : أحسبه صالحاً ، ولا أزكي على الله أحدا .

((إنما الأعمال بالنيات))

[متفق عليه]

ملخص هذا الكلام ـ مظنة صلاح ـ ملخص هذا الكلام :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

مصائب المؤمن :

1 – مصيبة الدفع :

لكن المؤمن أحياناً يكون سيره إلى الله بطيئاً ، تأتيه مصيبة دفع ليرفع سرعته رحمة به .

أخذ قبولا بالجامعة ، لكن هو ذكي ، كان من الممكن أن يأخذ جيد جداً ، ويستحق بعثة ، فهو قبل بالمقبول ، لم يستحق البعثة ، فالأب الرحيم يحث ابنه المتباطئ في الدراسة أن يرفع مستوى دراسته ، هذه مصيبة دفع ، أحياناً يلوح شبح مصيبة ، فالإنسان يسارع إلى باب الله عز وجل ، يسارع إلى التوبة، يسارع إلى عمل صالح ، يسارع إلى إحكام صلته بالله عز وجل ، هذه مصيبة ، مصيبة الدفع للمؤمنين .

أحياناً الإنسان سرعته عالية ، لكنه يركب شاحنة حمولتها خمسون طنًّا ، وعلى كل طن مليون ليرة .

2 – مصيبة الرفع :

الآن أنت بالإمكان أن تكون أرقى من هذا ، هناك أعمال صغيرة ، وأعمال كبيرة جداً ، فلما يرضى الإنسان بعمل قليل تأتيه مصيبة من نوع الرفع لرفع العائدية والكفاءة ، هو عنده إمكانية .

لذلك أنا أقول : لما يمشي الإنسان بأعلى سرعة يكون قد حقق هدف من وجوده .

لسيدنا علي كلمة يقول فيها : << والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي >> ، العداد مغلق ، أول مصيبة للمؤمنين دفع ، والثانية رفع .

الآية :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

(سورة البقرة)

فهنا فهماً توحيدياً ، ما فهما فهماً شركياً ، فهما فهماً سماوياً ، ما فيهما فهماً أرضياً ، لأن الله يقول :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

لكل شدة سببٌ :

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يسوق الله لعباده شدة بلا سبب .

أستاذ علاء ، أيّ أب في الأرض يمكن أن يضرب ابنا له مجتهدا ومهذبا ونظيفا ، ويقدم خدمات لأهله؟! مستحيل ، لذلك حينما يحقق إنسان وجوده في الدنيا يتوقف العلاج :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

<< ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بالتوبة >> .

[من قول العباس بن عبد المطلب]

هذه حقيقة مرة هي أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، هذه مصائب المؤمنين .

(قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

(سورة البقرة)

الشدة سبب التوبة والرجوع :

بالمضمون وإنا إليه راجعون بها ، هي سبب رجوعنا إلى الله ، سبب تألقنا ، سبب إقبالنا على الله عز وجل ، سبب العودة ، الطرف العاصي الفاسق الفاجر هو عبد لله ، والله يحب أن يكون تائباً .

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي ، هذه إرادتي بالمعرضين ، فكيف بالمقبلين))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

الله عز وجل ينتظر عبده أن يتوب إليه ، ولو كان فاسقاً ، وعاصياً ، وغارقاً في المعاصي والآثام .

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى*فقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

(سورة طه)

إذاً : كل إنسان مطلوب ، لكن مصائب هؤلاء من نوع آخر .

المذيع :

سيدي هنالك حديث النبي عليه الصلاة والسلام يرويه عن ربه في الحديث القدسي بما معناه أنه لو لم نعصه ونتوب ، ونعصيه ونتوب ، لاستبدلنا بقوم آخرين .

لو لم تذنبوا لذهب اللّه بكم ...

الدكتور :

هذا الحديث خطير جداً :

((لو لم تذنبوا لذهب اللَّه بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون اللَّه تعالى فيغفر لهم))

[رَوَاهُ مُسلِمٌ عن أبي أيوب خالد بن يزيد]

المعنى الصحيح للحديث :

هذا المعنى على ظاهره يسبب إشكالا كبيرا ، يبدو المعنى الظاهر : أنه لابد أن تقع في ذنب وتسارع إليه ، والمعنى الصحيح : لو لم تحسوا بذنوبكم ، إنسان ارتكب أكبر خطأ ، فرق بين زوجين ، سبب فساد شركة ، فساد علاقة ، نشر الفساد في الأرض ، هو مرتاح ، ما فعل شيئاً ، هذا ميت ، أما المؤمن حينما يغتاب لا ينام الليل ، فالإنسان متى يرحمه الله ؟ إذا شعر بذنبه .

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

(سورة النحل)

((لو لم تذنبوا))

لو لم تشعروا بذنوبكم ،

((وجاء بقوم يذنبون))

الآن المؤمن لو أخطأ ، لو أنه داس نملة عن قصد لا ينام الليل .

((دخلت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

[مُتَفَقٌ عَلَيْه]

فما بالك فوق الهرة ؟ الإنسان يستحق النار بقتل هرة عمداً .

المذيع :

فما بالك الذي أتوا بأسلحتهم ويقتلون أمماً وشعوبا تحت ذريعة جلب الديمقراطية .

مصائب الكفار والشاردين ردعٌ أو قصمٌ :

الدكتور :

فلذلك قضية المصيبة حتى الطرف الآخر مطلوب .

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء]

الآن الكلام عن الطرف الآخر .

((وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو))

فالله عز وجل يسوق المصائب للشاردين والعصاة والمجرمين ، ليعيدهم إليه مصائب ردع أو قصم ، إذا في أمل بسيط ردع ، ما في أمل قسم .

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ)

(سورة هود الآية : 36)

مصائب الأنبياء كشفٌ :

بقي الأنبياء ، مصائبهم مصائب كشف ، لأن كمالا في أنفسهم لا يظهر إلا بحالة نادرة جداً :

أنه عليه الصلاة والسلام ذهب إلى الطائف ومشى 80 كم ، عرض عليهم نفسه فكذبوه ، وأهانوه ، فمكّنه الله أن ينتقم منهم ، قال : لا أخي ، اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون .

فهذه مصيبة كشف ، فصار للمؤمنين دفع ورفع ، للعصاة والشاردين قصم أو ردع ، وللأنبياء كشف .

المذيع :

أنا كنت والله أود أن أستمر في قضية معينة أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما أعرض عنه قومه ، وأعرض عنه أهله ، وتمكن من أن يعاقبهم بأمر الله ، فتركهم ، وعفا عنهم بينما حصل مع الأنبياء الذين سبقوه بأنهم دعوا على قومهم ، هذه المسألة سنعرض عليها إن شاء الله ، ونمر عليها ، لكن نريد الموضوع العلمي ، ماذا اخترت لنا ؟.

الموضوع العلمي : الطيور :

الدكتور :

موضوع الطيور الذي بدأناه في الحلقة السابقة ، الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يقول مرة ثانية :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة النحل)

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك)

الآن الفيلم متعلق بهجرة الطيور ، والحقيقة أنها شيء لا يكاد يصدق حينما نتحدث عن هجرة الطيور .

مَن علّم الطيور تقنيات الطيران :

أهم شيء في الموضوع أننا إذا رأينا أسراب طائرات تحلق في الجو تحلق على شكل 8 ، ذلك لأن الطائرة تخلف وراءها منفذاً هوائياً ، فلو سار الطائر خلف الطائر لقلت مقامة الهواء ، ولقل بذل الجهد، فالآن أحدث تكتيك في طيران الطائرة هو أن تطير على شكل 8 ، طائر في المقدمة ، والذي بعده يستفيد من المنفذ الهوائي ، هو الخلخلة الهوائية ، تخف مقاومة الهواء ، ويقل جهد بـ 20% ، هذا أحدث ما في الطيران الآن ، فمَن علم الطائر أنه في أثناء الهجرة أنْ يطير على شكل ثمانية ، كالطيران الحديث تماماً ؟ هذا من تحليل الله له ، قال سيدنا موسى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

الحقيقة ثمة شيء لا يكاد يصدق ، فضلاً عن أن الطيور تطير على شكل ثمانية ، كما هو الطيران الحديث تماماً ، نقول : من علم هذه الطيور هذا النظام في الطيران ؟ لكن هذا الأول يبذل جهد كبير جداً، أكثر من الذي يليه ، لذلك يتناوبون ، وكأن الأول قائد .

ألم يقل سيدنا عمر : << أنا أثقلكم حملاً >> .

فهذا كأنه قائد ، نظام الطيران ، هذا في المقدمة يتبدل من حين إلى آخر ، يواجه الهواء بكثافته ، أما الذين وراءه فيأتيهم الهواء مخلخلا ، سماه العلماء المنفذ الهوائي ، المقاومة أقل بـ20 % والجهد أقل ، فهذه حادثة من حوادث الطيران .

لكن الذي لا يصدق أن رفة الجناح تتناغم مع الطيور فيما بينها ، أيضاً رفة الجناح تخلق منفذ هوائي ، الخلخلة بالهواء يستفيد منها الذي خلف الطائر ، لا أقول : إن الحركة متساوية ، لكنها متناسقة ، متناغمة ، فهذا النظام ينظم حركة أجنحة الطيور في أثناء الطيران ، لأن الطير قد يقطع 17 ألف كم ، 86 ساعة بلا توقف .

قلت في الحلقة السابقة : إن أكبر موسوعة للطيور كُتب في مقدمتها : إن أكبر طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر ، يقول الله عز وجل :

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

حقيقة مقطوع بها : مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ

الحقيقة أن بعض العلماء فسر هذه الآية : على أن أي تفسير امتداد الطائر إلى هدفه لم يثبت قطعاً ، هناك تخمينات ، وتأويلات ، أما الشيء الدقيق جداً فلم يثبت ، لذلك جاءت الآية :

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ)

كأن الله تولى بذاته إظهار هذه الآية لبقية الخلق .

احترافية طائر اللقلاق في أثناء الهجرة الطويلة :

الحقيقة ندخل الآن في موضوع تفصيلي أكثر : أن اللقالق تأتي في مقدمة الطيور المحترفة في إيجاد الجهة ، تقطع اللقالق كل سنة طرقاً بآلاف الكيلو مترات ، اللقالق المرتحلة من قارة إفريقيا تصل إلى قارة أوربا مروراً بالبحر المتوسط ، بفصل آخر ، واخضرار النبتات ، وبتغير المنظر الغطاء الأرضي لأوربا تماماً ، إذ كيف تجد اللقالق طريقها في منتصف إفريقيا إلى أوربا قاطعة البحر المتوسط . لذلك اكتشفت البحوث وجود نظام خاص في أجسام اللقالق ، يدرك هذا النظام جاذبية الأرض المغناطيسية

لهذه البوصلة الطبيعية التي تتبع جاذبية المغناطيس ، وتعلم الجهة بفضل هذا تتم رحلتها ، تبلغ آلاف الكيلو مترات .

أستاذ علاء ، طيار معه هاتف لاسلكي ، معه إرشاد أرضي ، معه خرائط ، معه طيران آلي ، معه تنبيه دائم ، معه اتصال مستمر بالأبراج ، أما هذا الطائر فليس معه أجهزة ، ولا بوصلة ، ولا جهات ، ولا خرائط ، ولا توجيه خارجي يهتدي إلى هدفه ، هذا شيء لا يصدق .

الطائرة يضخ هواءها 8 أمثال ، ويقلُّ الضغط ، والطيارون الحربيون يضعون الأوكسجين ، مضخات أوكسجين أمام وجوههم ، بينما الطائر يطير من دون كمامات ، من دون أوكسجين ، من دون ضخ الهواء 8 أمثال ، له أجهزة تتناسب مع قلة الأوكسجين في المرتفعات العالية جداً .

الجهاز المغناطيسي في الطائر :

إذاً أول نقطة دقيقة : أن الطائر معه جهاز مغناطيسي يكشف له هدفه ، وليس هذا مؤكدا 100 % ، لكنه توقع ، أما الشيء المؤكد فلم يظهر حتى الآن :

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ)

يهتدي في الليل ، ويهتدي في التضاريس ، ويمشي في الليل ، لو طرحنا نظرية المغناطيس ، ووضعوه بساحة مغناطيسية معاكسة لاهتدى إلى هدفه ، جاؤوا بطائر نقلوه إلى الهند من بريطانيا ، لو تصوروا أن الطريق شمال جنوب أخذوه شرقا ، وعاد إلى مكانه ،

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَانُ)

شيء آخر ، أحياناً تهتدي الطيور بالليل ، تهتدي بالنجوم أحياناً ، نحن بشر ، ومثقفون ، ومعنا شهادات عليا ، قد لا تهتدي بالنجوم ، لكن بعض الطيور تهتدي بالنجوم .

أنا أقول تماماً في مثل هذه اللقاءات : التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأنه يضعنا أمام عظمة الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (27-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ الشهوات سلم نرقى بها ـ جمال ريش الطيور

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

تحدثنا في حلقات سابقة عن مقومات التكليف ، وتبينا العديد من مقومات التكليف ، ووصلنا إلى الشهوة، نحط رحالنا اليوم عند الشهوة ، الله عز وجل يقول :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

(سورة آل عمران الآية : 14)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهم))

[أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة]

طيب ، يا سيدي الكريم ، الله عز وجل هو الذي أودع الشهوة كمقوم من مقومات التكليف عند الإنسان، وهو الذي حفها بالتزيين :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)

ثم من ناحية أخرى يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهم))

إذاً الشهوة تفضي إلى التعاسة ، والشهوة دائماً تفضي إلى المخالفة ، مخالفة الشرع ، ومخالفة المنهج ، هي قوى كامنة في الإنسان .

قلت في أحاديث ماضية : هي حيادية ، أيْ أنها قوى حيادية ، لكنها تدفع الإنسان نحو إملاء غرائزه ، ونحو إملاء ما يشتهي ، لكن في النهاية من يطيع دوافعها ليجنح عن شرع الله ، وبالتالي يحاسب ، وبالتالي يعاقب ، كيف ننظر إلى الشهوة ؟ وكيف نقوم الشهوة كأساس من أساسات التكليف ، هل هي قوى جانحة للجنوح بالإنسان إلى المعاصي ؟ أما هي قوى دافعة إلى الخير ، يستطيع الإنسان أن يركب حصانها ، وأن يمضي به الحصان إلى ذلك المورد الخير ، نعد سيدي الأستاذ ؟.

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الله خالق الكون ومنزل القرآن :

الله عز وجل أستاذ علاء يقول :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(سورة الأحقاف الآية : 33)

وفي آية ثانية :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(سورة الأنعام)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ

(سورة الكهف الآية : 1)

الله عز وجل خلق السماوات والأرض ، ونور عقل الإنسان بالكتاب ، ففي الكتاب أخبره عن حقيقة الكون ، وعن حقيقة الدنيا ، وعن حقيقة الإنسان ، ثم الآيات المتعلقة بهذه الحلقة قوله تعالى :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

(سورة آل عمران)

الشهوات سُلّم للرقي إلى رب الأرض والسماوات :

إنّ ما عند الله في الجنة يفوق كل لذائذ الدنيا ، لكن الشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، هناك أناس يتوهمون أنه لولا الشهوات لما هلك الإنسان ، الحقيقة هي العكس ، لولا أن الله أودع في الإنسان هذه الشهوة لما ارتقى إلى الله ، تصور ما الطريق إلى الله لو لم يكن للإنسان شهوة ؟ الإنسان بالشهوة يرقى مرتين ، يرقى إلى الله صابراً ، ويرقى إلى الله شاكراً ، كيف ؟ لو فرضنا أن الإنسان تعفف عن مال حرام لا يحل له ، فيرقى إلى الله صابراً ، وهو في أمسّ الحاجة إلى المال ، لكنه تعفف عن مال حرام ، والمال الحرام أستاذ علاء أية منفعة بنيت على مضرة ، لو أردت أن ترجع كل أنواع الحرام إلى كسب المال فهي منفعة بنيت على مضرة .

أوضح مثلٍ على ذلك السرقة ، إنسان بجهد يسير في ساعة محدودة أخذ مالاً كثيراً ، والذي تعب بهذا المال فقده فجأة ، فمصلحة السارق بنيت على مضرة المسروق ، هذا أوضح مثل طبعاً ، وأنواع الحرام لا تعد ولا تحصى ، ومن دخل السوق من دون فقه أكل الربا شاء أو أبى ، أنا حينما أتعفف عن مال حرام أرقى إلى الله صابراً .

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)

(سورة النازعات)

الحياة كلها ضبط ، حلقتنا كلها متعلقة بالضبط ، الإيمان هو الخلق ، والخلق الانضباط ، انضباط في كسب المال ، حينما يتعفف عن امرأة لا تحل له يرقى إلى الله صابراً ، حينما يغض بصره عن محارم الله يرقى إلى الله صابراً ، حينما يبتعد عن أية علاقة حرمها الشرع يرقى إلى الله صابراً ، حينما يبتعد عن كل كلمة تسير الضحك في المجلس ، لكنها تؤذي إنساناً ، يرقى إلى الله صابراً ، أية شهوة أودعها الله في الإنسان لها جانب سلبي ، وجانب إيجابي ، أما حينما يتزوج ، ويكرمه الله بزوجة تسره إن نظر إليها ، وتحفظه إن غاب عنها وتطيعه إن أمرها ، يرقى إلى الله شاكراً ، حينما يكسب المال الحلال بكد يمينه ، وعرق جبينه ، ويقدم سلعة للناس متقنة بسعر معتدل ينتفع بها الناس يرتقي إلى الله شاكراً ، وحينما يصلح بين اثنين يستخدم لسانه للإصلاح لا للإفساد يرقى إلى الله شاكراً .

إذاً ما أودع الله فينا الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، وما أودع الله فينا الشهوات إلا لنرقى بها مرتين إلى الله مرة صابرين ، ومرة شاكرين .

فلذلك الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر ، والصبر والشكر يقتضي الانضباط .

المذيع :

سيدي الكريم الشهوة تقتضي الاندفاع إليها ، لأنه شيء في غريزة الإنسان ، الله أودع الاندفاع إليها ، هناك من يقول عن حالة الامتناع عنها ، ماذا نقول ؟

الشهوات بين المثيرات وهوامش الأمان :

الدكتور :

نقول : إنك إذا تعرضت إلى مثيرات الشهوة ، ثم امتنعت عنها تقع في هذه الحالة ، أما إذا نفذت أمر الله في البعد عن أصل الشهوة فلا تتعذب أبداً ، لذلك ما قال الله عز وجل لا تزنوا ، قال :

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا

(سورة الإسراء الآية : 32)

الزنا له مقدمات ، فالشهوة فيها قوة جذب ، الآن تيار الكهرباء العالي 3000 فولت معه حرمة 8 أمتار ، لو دخل مخلوق إلى هذه الأمتار الثمانية يصبح فحمة ، لذلك وزير الكهرباء يعلن أنه : ممنوع الاقتراب من التيار ، لا يقول : ممنوع مس التيار ، مس التيار موت حقيقي .

إذاً : الشهوة لها قوة جذب ، فإذا تساهل الإنسان في مقدمات الشهوة وقع في الفاحشة الكبرى ، لذلك :

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

(سورة الأنعام الآية : 152)

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا

(سورة البقرة الآية : 187)

لا بد من أن تدع بينك وبين المعصية هامش أمان ، إذا تركت هذا الهامش فأنت في مأمن ، فلا تعذيب، ولا إحساس بالحرمان ، أو أن الإنسان إذا تعرض لإثارات لا تحتمل عندئذ لا يستطيع أن يتفادى الوقوع في الفاحشة ، لأنه في طريق يجذبه إلى الفاحشة .

تماماً لو أن هناك نهراً عميقاً مخيفاً ، على شاطئه شاطئ زلق مائل ، ثم شاطئ جاف مستوٍ ، فإذا مشى الإنسان على الشاطئ الجاف المستوي فهو في آمان ، أما إذا مشى على الشاطئ المائل الزلق فاحتمال سقوطه في النهر كثير جداً .

لذلك الشهوات لها قوة جذب ، البطولة كما قال السيد المسيح في قول رائع : أن تهرب من أساب الخطيئة ، لا من الخطيئة نفسها ،

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

دائماً وأبداً المؤمن يضع هامش أمان بينه بين المعاصي ، هذا الهامش أكبر وقاية له .

المذيع :

سيدي قلت في معرض الرد : إنه لا حرمان في الشرع تجاه المرأة ؟

الشهوات لها قناة نظيفة تسري مِن خلالها :

الدكتور :

لأنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، فيجب أن يوقن المؤمن أن الله ما حرمه شيئًا ، بل حرمه القذارة ، وحرمه الخطأ ، وحرمه الفوضى ، وحرمه العدوان، حرمه أن يبني مجده على أنقاض الناس ، حركه أن يعتدي ، لكن ما حرمه من أية شهوة أودعها بالإنسان ، فما من شهوة أودعها الله بالإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

أنا أقول لك : الدوافع الكبرى في الإنسان دافع إلى الطعام والشراب ، لك أن تشتري طعاماً وشراباً بمالك الحلال ، وتأكله وتسمي الله ، وتحمد الله على أن أطعمك فأشبعك ، وسقاك فأرواك ، هذه الشهوة تحقق بالمال الحلال ، لذلك يقول العبد :

((يا رب ، يل رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[رواه الطبراني عن ابن عباس]

أستاذ علاء ، كلمة مطعمك يعني اجعل هذا المال حلالاً ، أي لا تكذب ، لا تغش المسلمين ، لا تأكل ما ليس لك ، لا تدلس ، لا تبالغ ، لا تحتكر ، آلاف المعاصي في البيع والشراء ، لو ترفعت عنها لكان المال حلالاً ، وكان الطعام الذي اشتريت به اشتريته بهذا المال طيباً ،

((أطب مطعمك))

الطعام الطيب هو الذي أشتري بمال حلال ، والمال الحلال هو المال الذي كسبته بالطريق المشروع .

إذاً : الله عز وجل مستحيل وألف ألف مستحيل أن يحرمنا شيئاً .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)

(سورة الرحمن)

جنة في الدنيا ، المؤمن يتمتع بسعادة لا توصف ، لأنه مصطلح مع الله ، مع القوة المطلقة في الكون ، من بيده حياته ، وموته ، ومرضه ، وصحته ، ونجاحه في زواجه ، ونجاحه في عمله ، ونجاحه في أولاده ، من كان على علاقة طيبة مع من حوله ، ومع من فوقه ، ومع من دونه ، هذا كله من ثمار الإيمان ،

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

ليس في الإسلام حرمان ، لكن الشيطان يزين للإنسان المعاصي والآثام .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ

(سورة إبراهيم الآية : 22)

العاصي قبل دعوة الشيطان طواعية :

أستاذ علاء ، لو أن الإنسان يرتدي ثيابا رائعة ، وغالية جداً في الصيف ، وهي ثياب بيضاء ، أرقى حذاء ، أرقى قميص ، ونزل في حفرة مياه آسنة سوداء ، وذهب إلى مخفر ليشتكي على شخصٍ ما ، سأله المحقق : هل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ يقول : لا والله لا أظلمه لم يدفعني ، هل أمسك ووضعك فيها ؟ قال : لا والله ، ما فعل هذا ، هل شهر عليك مسدس وأجبرك أن تنزل فيها ؟ لا والله ، لِمَ تشتكِ عليه ؟ قال له : قال لي : انزل فنزلت .

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

ما ذنب الناس إذا وقع في معصية فيلعن الشيطان ، أنا قناعتي أن يلعن نفسه أفضل ، لأنه استجاب للشيطان ، لا يملك أي سلطان .

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَان

(سورة الحجر : 42 ـ الإسراء : 65)

من تفيد استغراق الجزئيات ، ولا أدنى سلطان ،

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

المذيع :

في البداية لما رفض الأمر في السجود ، وطلب الاستمهال إلى يوم القيامة قال :

لَأُغْوِيَنَّهُمْ

(سورة ص الآية : 82)

الذي ضلّ له رغبة في الضلال :

الدكتور :

الذي عنده رغبة أن يكون غاوياً ، هذه قناعتي أنه لا يستطيع مخلوق كائنا من كان أن يضل مخلوقاً كائناً من كان ، لكن الذي توهمنا أنه أُضل من قِبل فلان فهذا الذي أُضل عنده رغبة في الضلال .

المذيع :

سيدي يمكننا أن نأخذ هذا المثال :

مسألة الوسائل الدعاية التي تملأ البصر ، سواء الطرقية ، أو التلفزة الأرضية ، أو الفضائية ، أو على الصحف ، والمجلات لمنتج معين لقضية معينة ، هل استجابة الإنسان لهذه الطرائق طرائق الجذب النظري في الإعلان ، والمشي وراءها هو دعوة أو استجابة لدعوة دون تعقل ، عليه أن يذهب إلى مثلاً كما في هو موجود في دول أوربا ، عندنا لجان ، أو عندنا مؤسسات حماية المستهلك ، يذهب إليها المستهلك فيأخذ المواصفات الفنية لكل منتج ، ويميز هو بين المنتجات ، ويدقق قبل أن يشتري ، ولا ينجر وراء تلك الدعايات الخاطفة للبصر .

من أسباب العنف في العالم : مجتمع الاستهلاك :

الدكتور :

أنا أرى أن أحد رؤساء الجمهورية الفرنسيين جمع ثلاثين عالما كبيرا ، وأقاموا في منتجع راقٍ ، وطلب منهم أن يجيبوا عن سؤال واحد ، هذا السؤال هو : لماذا العنف في العالم ؟ كلمة عنف بلا هوية، لِمَ العنف ؟ فبعد شهر من الدراسات أعطوه النتيجة التالية :

1 ـ مجتمع الاستهلاك ، أي أنّ الإنسان يرى كما تفضلت بالدعايات على الشاشة ، في الطرقات ، في الصحف ، في المجلات ، أرقى سيارة ، أرقى مركبة ، أرقى غسالة ، أرقى آلة ، أرقى آلة تصوير ، هذه الرؤيا المستمرة تخلق في النفس حاجة لهذا الشيء ، دخله محدود .

خيارات الإنسان أمام دعايات المنتجات الاستهلاكية :

إن هذا الإنسان أمام ثلاث خيارات ، أحلاها مر .

الخيار الأول :

أن يمضي وقت فراغه ، هذا وقت الفراغ إذا فقده الإنسان فقد إنسانيته ، وقت تجلس فيه مع زوجتك ، مع أولادك تحاول أن تمارس هواياتك الحقيقية ، أن تتعرف إلى الله ، أن تجلس مع إخوانك ، مع أصدقائك ، فإذا ألغِي وقت الفراغ تلغى إنسانية الإنسان ، وقد يقول أحدهم : أنا أذهب إلى عملي قبل أن يستيقظ أولادي ، وأعود بعد أن يناموا ، يظن أنه قد أفلح ، لكنه ألغى أبوته ، وألغى في الزوجة أنها زوجها ، وألغى الزوج كونه زوجا ، وضاع البيت ، فأول رد فعل سيء سلبي لمجتمع الاستهلاك دعايات ، أن الإنسان الشريف يلغي وقت فراغه ، ويمضي في عمل إضافي حتى يأتي بهذه الحاجة التي عُرضت عليه ، وتمنى شراءها .

الخيار الثاني :

إحساس بالحرمان دائماً .

الخيار الثالث :

يمد يده للحرام ، فيسقط من عين الله ، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه

أهون من أن يسقط من عين الله .

موقف المسلم تجاه دعايات مجتمع الاستهلاك :

هذا مجتمع الاستهلاك ، ماذا علمنا النبي الكريم ؟ كلما نظرت إلى شيء جميل إلى بيت رائع ، إلى مركبة فارهة كان يقول :

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

[متفق عليه))

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر))

[أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة]

يقول الله عز وجل :

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

(سورة القصص)

السعادة واللذة :

الفرق بين السعادة واللذة :

وهذا السؤال الرائع أستاذ علاء ينقلنا إلى موضوع دقيق ، الفرق بين السعادة واللذة :

اللذة حسية ، ومصادرها خارجية ، وهي متناقصة ، وتنتهي بالكآبة ، وقد تنتهي إلى جهنم اللذة الحسية، مادية ، وأسبابها خارجية ، تعقبها كآبة ، وقد تنتهي إلى النار .

شروط السعادة :

مشكلتها الكبرى أنها تحتاج إلى ثلاثة شروط ليست متوافرة دائماً ، تحتاج إلى وقت ، وإلى صحة وإلى مال ، ففي بدايات الإنسان المال غير موجود ، والوقت كافٍ ، وصحة طيبة ، لكن المال منعدم .

وفي منتصف رحلة الإنسان هناك صحة ، ومال ، لكن ليس هناك وقت .

في خريف العمر هناك وقت ومال ، لكن ليس هناك صحة .

أما السعادة فتنبع من داخل الإنسان ، لا يحتاج إلى أي مصدر خارجي ، فهي متنامية .

هذا ما تفعله السكينة في قلب المؤمن :

أقسم بالله أن الإنسان حينما يجرب ـ أقول : يجرب ـ أن يتعامل مع الله ، وأن يصطلح معه ، وأن يؤدي واجباته الدينية ، وأن يتصل به ، وأن يقرأ القرآن ، وأن يذكر الواحد الديان ، وأن يكون محسناً للخلق ، يلقي في قلبه نوراً يريه الحق حقاً والباطل باطلاً ، ويتجلى على قلبه بسكينة يسعد بها ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء .

1 ـ السكينة وسيدنا يونس في بطن الحوت :

هذه السكينة وجدها يونس في بطن الحوت :

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

(سورة الأنبياء الآية : 87)

2 ـ السكينة وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في الغار :

وجدها في الغار فقال يا أبا بكر :

((ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما ؟))

[متفق عليه]

لذلك الملك الذي ترك المُلك قال : " والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة لقاتلونا عليها بالسيوف " .

فجوابي لسؤالكم الطيب : إذا رأى الإنسان شيئاً يلفت النظر ، كمركبة ، وبيت ، وطعام نفيس ، ولا يتاح له أن يأكله يقول :

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

المذيع :

إذاً هذه الدعايات ليس لها سلطان لها على الإنسان سوى أن تستثيره ، كما يفعل الشيطان حين يزين ، لكن الإنسان الله أعطاه من العقل كما قلنا ، والموانع التي تمنع .

تذكُّر نعمة الأمن لدفع الدعايات والمثيرات :

الدكتور :

ورد في بعض الأحاديث :

((من أصبح منكم آمنا في سربه))

[أخرجه البخاري ، والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

نعمة الأمن أستاذ علاء لا تعدلها نعمة ، أنا أعلق تعليقاً دقيقاً على هذه النعمة فأقول : نعمة أمن الإيمان، أنت حينما تصطلح مع الله تشعر أن خالق الكون معك .

قالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45)قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى

(سورة طه)

أن تشعر بمعية الله ، هذا إحساس يصعب تصويره .

((من أصبح منكم آمنا في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

إذاً ليس في الإسلام حرمان ، وكل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، وإلى الآية الكريمة ، قال تعالى :

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

(سورة القصص)

أي أنك إذا اتبعت هواك وفق منهج الله لا شيء عليك ، آية في أصل في الموضوع :

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

إذاً : أستاذ علاء ، هذه الشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، ونرقى بها مرتين ، مرة صابرين ، ومرة شاكرين ، وما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، وليس في الإسلام حرمان ، فالشهوة قوة دافعة أو مدمرة .

المذيع :

إما أن تكون هذه القوة ، أو هذا الوقود دافعا للتقدم وللرقي ، وللارتقاء في حياته ، وإلى الله ، وإما أن تدمره بجنوحها عن الطريق السليم .

الموضوع العلمي : مِن تجلّيات اسم الله (الجميل): جمال ريش الطيور :

الدكتور :

الآن إلى الموضوع العلمي :

الإنسان يحب الجمال ، ويحب الكمال ، ويحب النوال ، والله جميل يحب الجمال ، الآن نرى تجليات اسم الله (الجميل)على بعض المخلوقات ، ونختار من هذه المخلوقات الطيور ، فالطيور مع أن كونها كائنات جديرة بالإعجاب في تقنيات الطريان من الأجنحة ، من استعداداتها الأخرى فهي أيضاً ذات جمال أخاذ بالنقوش الفنية على أجسامها ، تستخدم ذكور الطيور نقوشاً وألواناً جذابة لشد انتباه الإناث إليها ، هذه النقوش آيات جمالية ، لا يمكن أن تفسر بأية مصادفة ، وبحدوث هذه النقوش رُتب لون في ريش الطائر ، ونقش كل قسم من الريش على حدا ، حتى ظهر الطائر بشكل رائع جداً يلفت الأنظار ، والله عز وجل يقول :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ

(سورة الأعراف الآية : 180)

ومن أسمائه الحسنى أنه جميل ، وما دامت حاجة الإنسان إلى الجمال عميقة فيه ، فالإنسان إذا تعرف إلى الله رويت هذه الحاجة في أعلى مستوى ، أنا أقول : العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، حب الجمال حاجة أساسية في الإنسان ، لكن الجمال الذي يأتينا عن طريق مشروع ، وعن طريق منهج الله جمال يسمو بنا ، وجمال يبلغ درجة لا تصل إليها كل المستويات الأخرى .

لماذا كان الذكر أجمل من الأنثى في عالم الطيور :

شيء آخر : الريش أستاذ علاء ، ريش الطائر ـ إذاً لماذا كان الذكر أجمل من الأنثى عند عالم الحيوان أو الطيور بشكل عام ؟

من أجل أن يجلب الأنثى .

هناك نقطة دقيقة جداً : أن الله سبحانه وتعالى تجلى باسم (الجميل)على بعض مخلوقاته ، فخلبت لب الناس ، لذلك إذا تعرف الإنسان إلى الله فهذا الميل إلى الجمال يروى بأعلى درجة .

فلو شاهد عيناك من حسننا الذي رأوه لمـــــا وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خــطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولـــو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الـذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولــو نسمت من قربنا بك نسمة لــمت غريباً واشتياقاً لقربنا

***

أستاذ علاء ، الطيور ، والفراشات ، والورود ، والأزهار أساتذة مهندسي الألوان ، أحياناً ترى لونا لمركبة رائعة جداً ، مهندس هذا اللون اقتبسه من طائر ، الاتساق بين الألوان .

لداروين كلمة رائعة في هذا الموضوع : هذا الريش ريش الطاووس يزعجه أيما إزعاج ، لأنه يلغي نظريته ، أن تكون هذه المخلوقات نشأت صدفة بهذه الألوان الرائعة ، بهذا التفصيل الرائع ، بهذا الجمال الأخاذ ، والحياة جميلة ، لكنها جميلة بمعرفة الله ، الحياة جميلة لأن الله عز وجل خلقك ليسعدك.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

(سورة هود الآية : 119)

الأصل هي السعادة ، لكن الشقاء يأتي من الجهل ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

هذه الحاجة الرائعة عند الإنسان تلبَّى في كل مناحي حياته ، لذلك أنا أتمنى على الإخوة المشاهدين أن يعتقدوا أن الجمال مطلب أساسي ، البيت الجميل يجذب الأولاد إليه ، والبيت الغير جميل ينفر الأولاد منه ، يرتمي في الطرقات مع أصدقاء السوء ، فكل شيء جميل يجذب ، فنحن إذا استخدمنا هذه القيمة لجذب من حوله إلينا ، وإلى منهجنا ، وإلى معطيات حياتنا ارتقينا به .

الطرف الآخر أدرك هذه النقطة ، لكن استخدم الجمال بشيء يخالف منهج الله عز وجل ، فوقع الفساد في الأرض ، والجمال مسموح به ضمن حدود معينة ، .

مثلاً : أي شهوة مسموح أن تمارسها بـ180 درجة ، تستطيع أن تمارسها مسموح لك 70 درجة ، لذلك قال تعالى :

بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ

(سورة هود الآية : 86)

ما بقي لك من جانب الشهوة ، وامتنعت عن فعله تسمو به ، هذا ثمن الجنة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (28-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ الشهوة توافق الفطرة ـ من المجرة إلى الذرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-05-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوة من أهمّ مقومات التكليف:

سيدي ، في الحلقة الماضية كنا قد وقفنا وقفة ساخنة عند مسألة هامة ، كنا في سلسلة حلقاتنا قد مررنا على مقومات التكليف ، ولكنني أعتقد أن من مقومات التكليف أدقها وأكثرها حساسية هي قضية الشهوة التي أودعها الله في الإنسان ، والتي خلقها ملازمة معها لأمر يريده ، ولأمر يستهلكه الله عز وجل من وراء هذا الإيداع ، تبينا أن الشهوة من الأشياء التي تتهم بالسلبية ، لكن من خلال حلقتنا ومنشطنا الماضي تبينا بأن الشهوة فيها كل الإيجاب فيما لو اتبع الإنسان ، وهذه الشهوة قيدها بقيود الشرع وبالطريق الذي أراده الله عز وجل ، فهي دافعة رافعة له كما هي في آن هي مدمرة ، ومن أسباب سقوطه في جُرف هار إذا لم يتبع الطريق الذي أراده الله وتبينا أنه :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)

(سورة آل عمران الآية : 14)

هذا نوع من الابتلاء .

(لِأُولِي النُّهَى)

(سورة طه)

لكي يميزوا بين هذه الشهوات أن يقربها بما أحل الله ، وأن يقربها بطريق لا يريده الله ، فلذلك هنا الامتحان والبلوى ، هنا الفتنة إن صح التعبير ، كما يأتي الصائغ فيفتن تلك الخليطة ليميز بها الخبيث من المعادن ، الخبث ، وذلك المعدن الثمين .

تبينا أيضاً من خلال الحديث الماضي بأن يرتفع الإنسان بالشهوة إلى الله مرتين بالصبر والشكر ، بقي المسائل سيدي الكريم ، وقفنا عند قضية في الحلقة الماضية مررت على أن الشهوة دافعة رافعة في آن، وأيضاً أن الإنسان على أحد خطين إما أن يكون مع الحق ، وإما أن يكون مع الهوى ، ماذا عن كل هذه المسائل التي لم نستكملها ؟.

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الشهوة حيادية :

أستاذ علاء ، أول كلمة في هذا اللقاء الطيب الشهوة حيادية ، ذلك لأن الإنسان مخير ، وما دام الإنسان مخيراً فكل خصائصه ، وكل شهواته ، وكل حظوظه حيادية ، يمكن أن تكون الشهوة سلماً يرقى بها إلى أعلى عليين ، وما من شيء أكرم على الله من شاب تائب ، ويمكن أن تكون دركات إلى أسفل السافلين ، الشهوة نفسها .

1 – مثلُ الشهوة كمثل البنزين متوقفة على طريقة استخدامها :

لو أردنا التمثيل لذكرنا صفيحة البنزين ، وهو سائل قابل للانفجار ، إذا وضع في مستودع مركبةٍ محكم ، وسال في الأنبوب المحكم ، وانفجر في القوت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولّد حركة نافعة أقلتك أنت وأهلك وأولادك إلى مكان جميل ، مع أن الذي يحصل انفجارات ، لكن هذا الانفجار كان حركة نافعة لك ، أما إذا صبّ أحدهم البنزين على مركبته ، وأعطاها شرارة أحرق المركبة ومن فيها .

أصل موضوع الشهوة في القرآن الكريم :

إذاً : الشهوة إما أن تكون قوة دافعة نافعة ، أو أن تكون قوة مدمرة مهلكة ، إذاً : هي حيادية متوقفة على طريقة استخدامها ، ولا أدل على ذلك من الآية الكريمة التي سوف نقرأها على الشاشة ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

1 – أضَلُّ إنسان على الأرض رجلٌ تحرّك وفق شهواته :

ليس على وجه الأرض إنسان أضل ممن تحرك بدافع شهواته بغير منهج الله عز وجل ، وهذا أصل الفساد في الأرض :

(وَمَنْ أَضَلُّ)

2 – اتباع الشهوة وفق منهج الله مسموحٌ :

المعنى المخالف عند علماء الأصول : الذي يتبع هواه وفق منهج الله لا شيء عليه ، كإنسان يتزوج ، وقد يصلي قيام الليل ، وقد يكون مع أهله في الفراش ، ويبكي في الصلاة ، لأن شهوة النساء كانت وفق منهج الله ، زوجته وأولاده ، أما إذا أقام علاقة لا تحل له مع امرأة لا تحل له ، بطريقة لا تحل له تنتابه كآبة كبيرة جداً ، لأن منهج الله عز وجل متوافق مع الفطرة .

إذاً : الآية التي ذكرتها قبل قليل أصل في هذا الموضوع :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أي أنك إذا اتبعت هواك ـ لا سمح الله ولا قدر ـ بغير هدًى من الله ظلمت نفسك ، وحرمت نفسك السعادة في الدنيا والآخرة ، لذلك قالوا : الشهوة كالملح في الطعام ، إن زادت عن حدها انقلبت إلى ضدها .

وعند الفلاسفة أن مبدأ اللذة إذا كان هدفاً انقلب إلى مبدأ شقاء .

3 – لا تجعل اللذة هدفا :

أستاذ علاء ، في العالم الآن كبار الأغنياء يتعودون القمار ، يمارسون شهواتهم بطريقة شاذة ، أحياناً لأنهم ملوا الشيء الطبيعي ، لأن هذا الإنسان الذي غرق في النعيم جعل اللذة هدفه الأول ، وكل شيء يُمل في الحياة ، لذلك ينتقل من الشيء الطبيعي المألوف ، إلى شيء شاذ غير معقول ، قد يبدد ملايين الدولارات على موائد القمار ، ولما يستخدم الإنسان الشهوة كهدف تصبح مبدأ شقاء ، كالملح في الطعام، إذا أخذت منها بالحد المعقول والمعتدل وفق منهج الله كانت نعمة وأية نعمة .

هذه نقطة مهمة جداً ، إذاً هي حيادية ، لكن لو وسعنا الموضوع ، وهو موضوع دقيق جداً ، الشهوات حيادية وكذا الحظوظ .

حظ العلم واستعمالاته كسلاح :

إنسان أتاه الله علماً قد يكون لصنع سلاح مدمر للبشرية ، وقد يكون لصنع الخير للبشرية ، فالعلم ـ إتيان العلم لهذا الشخص هو حيادي ـ حيادي ، الآن الله قال :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

ثلاث قراءات ، قراءة بحث وإيمان ، وقراءة شكر وعرفان ، وقراءة وحي وإذعان ، هذه قراءات المؤمن ، يتعلم ليتعرف إلى الله ، ويتعلم ليشكر الله على نعمة الإيجاد ، والإمداد والهدى والرشاد ، ويتعلم الوحي الذي أخبره عن حقيقة الكون والحياة والإنسان ، وماذا بعد الموت ، هذه قراءة المؤمن ، القراءة الرابعة مخيفة :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

قوم عاد صورة حية لمن استعمل العلم للفساد :

قد ضرب الله على ذلك مثلاً ، قوم عاد ، قوم عاد تفوقت في شتى المجالات قال :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

تفوقت في الناحية العمرانية ، قال :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

(سورة الشعراء)

تفوقت في الناحية العسكرية .

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

(سورة الشعراء)

تفوقت في الناحية العلمية :

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

(سورة العنكبوت)

تفوقت في شتى المجالات ، هذا دفعها إلى الغطرسة ، وقالت :

(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

وما أهلك الله قوماً إلا ذكرهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة ، إلا عاداً حينما أهلكها قال :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)

(سورة فصلت الآية : 15)

ما كان فوق عاد إلا الله ، وقد وصلوا إلى مرحلة من القوة ما كان فوقها إلا الله ، ماذا فعلت هي ؟ قال:

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

(سورة الفجر)

ما قال : طغوا في بلدهم ، في بلاد الأرض كلها ،

(طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

بالتدمير ،

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

بإشاعة الإباحية ، ماذا فعل الله بهم ؟

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

قال :

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

لعاد ، ولمن كان على شاكلة عاد .

إذاً : المثال موجود ،

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى)

بالعلم ،

(أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

إذاً : هناك قراءة بحث وإيمان ، وقراءة شكر وعرفان ، وقراءة وحي وإذعان ، وقراءة طغيان وعدوان ، حتى العلم حيادي ، لك أن تجعله سلّماً إلى الجنة ، ولك أن تجعله طريقاً إلى النار ، هذا الذي يبني مجده بالعلم على أنقاض الآخرين ، هذا الذي يدمر الشعوب ، يغير ثقافاتهم ، يشيع الفوضى في حياتهم ، يشيع الإباحية الجنسية عندهم ، هذا الذي يمنعهم أن يمارسوا شعائرهم الدينية ، هذا استخدم العلم الذي أنتج سلاحاً فتاكاً مدمراً لتحقيق مصالحه ، ونهب ثروات الأرض .

الأستاذ علاء :

ما ينطبق على العلم ينطبق على المال سيدي ؟

ما ينطبق على حظ العمل ينطبق على حظ المال :

الدكتور :

على المال ، يمكن أن تنافس بمالك أكبر الدعاة إلى الله ، الدليل :

((لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ : رَجلٌ آتَاهُ الله مَالاً فهُوَ يُنْفِقُ منهُ آنَاءَ اللّيْلِ وآنَاءَ النّهَار، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله القُرْآنَ فهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَار))

[البخاري عن أبي هريرة]

والله يا أستاذ علاء ، الغني أمامه فرص كثيرة لبلوغ أعلى درجات الجنة ، المال قوة ، فيمكن أن تنشئ المياتم ، المصحات ، أن تزوج الشباب ، يمكن أن ترعى المرضى ، يعني الغني أعطي المال ليكون به في أعلى درجات الجنة .

النقطة الدقيقة جداً العبادة الحقيقية عبادة الهوية ، أنت من ؟ أنت غني العبادة الأولى إنفاق المال ، أنت قوي ، العبادة الأولى إحقاق الحق ، أنت عالم ، العبادة الأولى أن تبلغ الناس العلم ، وألا تأخذك بالله لومة لائم ، فالمال حيادي ، نرقى به ، أو نسقط به ، والدليل ، والدليل في آية دقيقة جداً ، الله عز وجل قال :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

جاء الرد الإلهي القاطع :

(كَلَّا)

(سورة الفجر)

كلا ليست أداة نفي ، أداة ردع ونفي ، قال : كلا ، ليس عطائي إكراما في الدنيا ، ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء ، وحرماني دواء .

أنا أحذر الإنسان الذي أعطاه الله المال أن يظن أن هذا دليل محبة الله له الله عز وجل ، فقد أعطى المال لمن لا يحب ، أعطاه لقارون ، وأعطاه لمن يحب ، إذاً ليس مقياساً .

الأستاذ علاء :

الذي يشيع عند العوام أن الله يحبه فأعطاه مالا ، لذلك سيدنا :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

طلاقة اللسان حيادية :

الدكتور :

فالعلم حيادي ، والمال حيادي ، وطلاقة اللسان حيادية ، يمكن أن تقنع الناس بالباطل ، بالشر ، بالفسق، بالفجور ، بالإباحية ، عن طريق الشعِر الفاضح ، المكشوف .

الأستاذ علاء :

فرعون ماذا قال لقومه في هذه المسألة ؟

الدكتور :

(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)

(سورة غافر الآية : 29)

إذاً : طلاقة اللسان قوة يمكن أن تربى في الخير أو في الشر ، والإعلام قوة ، يمكن أن يربى في الخير في الشر ، الإعلام نفسه هو الآن أكبر قوة .

الجَمال أمرٌ حيادي :

الجمال : إذا كان ، كان عليه الصلاة والسلام إذا نظر إلى المرآة ماذا يقول :

((اللهم حسن خلقي كما حسنت خلقي))

[أخرجه ابن مسعود ورواه ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها]

الجمال قوة ، يمكن أن يستخدم في إغواء الآخرين ، أو في ابتزاز أموالهم ، فالمرأة الجميلة إذا كانت زوجة صالحة قامت على بيتها ، وعلى رعاية زوجها ، وعلى رعاية أولادها ، هي في مرتبة المجاهد في سبيل الله ، قال عليه الصلاة والسلام :

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

وقال مرة :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[ورد في الأثر]

ربت أولادها ، وكم هي المرأة عظيمة التي تربي أولادها ، وأنا أقول للأخوات الكريمات : أكبر شهادة تحملها المرأة أولادها ، وأنا أقول دائماً : من علم شاباً علم واحداً ، ومن علّم فتاةً علّم أسرة .

الأستاذ علاء :

صحيح أن شهادة نجاحها ، ووثائق نجاحها أولادها ، نأتي وتمحص وضع الأولاد ، فإما أن تكون قد نجحت في مهمتها ، وإما أن تكون قد فشلت .

الدكتور :

تأكيد الذات أمرٌ حياديّ :

كل شهوات الإنسان حيادية ، حتى العلو في الأرض شهوة ، تأكيد الذات ، تأكيد الأهمية ، إن استخدمت علمك لنشر الحق ، إن استخدمت مالك لإطعام الجياع ترقى عند الناس ، يعظمك الناس ، ويرفعونك إلى أعلى عليين ، فقد حققت شهوة العلو في الأرض ، وتأكيد الذات بالخير ، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، ليس في الإسلام حرمان ، الإيمان شخصية فذة ، المؤمن شخصية فذة ، لها جانب علمي ، وجانب خلقي ، وجانب جمالي ، المؤمن له أذواق عالية جداً ، والله نزهته متميزة ، مكان جميل بلا ضجيج ، بلا غناء ، بلا اختلاط ، بلا صوت غير مقبول ، هذا هو المؤمن .

الأستاذ علاء :

مكان نومه يشتهى بنظافته ورتابته ، بحديثه يشتهى .

الدكتور ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((أصلحوا رحالكم ، وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا شامة بين الناس))

إذاً الجمال حيادي ، وطلاقة اللسان حيادية ، والمال حيادي ، والجاه حيادي كله حيادي ، كل وجود الإنسان ، وكل شهواته ، وكل قدراته حيادية ، أي يمكن أن تكون سلماً نرقى بها دركات في النار .

الأستاذ علاء :

سيدي لو توقفنا عند حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

((تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

تعِس عبدُ الدينار ، تعِس عبدُ الدرهم :

الدكتور : الحقيقة أن الشهوة إما أن تركبها ، وإما أن تركبك ، إما أن تكون في خدمتها ، فتشقى بها ، وإما أن تكون هي في خدمتك فترقى بها ، يعني الدنيا تغر ، وتضر ، وتمر ، أوحى ربك إلى الدنيا أنه

من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمني فاخدميه .

أستاذ علاء ، الإسلام دين الحياة ، أنا كنت أقول : الذي يموت في سبيل الله ، والله أصغرُ أمامه تقديساً له ، ولكنني الآن أتمنى على الإنسان أن يعيش في سبيل الله ، أن يكون قوة لأمته ، أن يقدم شيء ثمين لأمته ، أن يطور عمله ، أن نستغني باختصاصه عن اختصاصات غربية ، أنا أقول : نحن في أمسّ الحاجة إلى شباب يعيشون في سبيل الله ، لأن الإسلام هو الحياة ، لأن كل آية في القرآن الكريم تقتضي الوجوب ، فإذا قصرنا في تطبيقها دفعنا الثمن باهظاً ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

لماذا القوة ؟ لأن الحق يحتاج إلى قوة ، عند الغربيين القوة هي الحق ، القوة هي الحق ، أما عند أهل الوحيين فالحق ما جاءنا من عند الله ، لكنه يحتاج إلى قوة ، ولو كنا أقوياء لعد الأقوياء للمليون قبل أن يتجاوزوا حدودهم معنا ، قبل أن يشوهوا صورة لنبينا ، قبل أن يسخروا من ديننا ، قبل أن يسفهوا قرآننا ، الحق يحتاج إلى قوة ، أنا أتمنى أن نقول هذه الكلمة التي أرددها كثيراً : انتهى عهد النوم ، وانتهى عهد الكلام ، كدنا نكون ظاهرة صوتية فقط ، ائتِ بمسجلة ، ضع فيها شريطا ، ارفع الصوت إلى أعلى درجة ، هذه المسجلة تملأ ما حولها ضجيجاً ، اسحب مأخذ الكهرباء انتهى كل شيء ، فلئلا أن نكون ظاهرة صوتية ينبغي أن ندع النوم ، وأن ندع الكلام ، وأن نعمل بصمت ، لأن العالم لا يحترم إلا القوي ، والقوة جزء من ديننا ، ونحن إذا أضفنا على دينا ما ليس منه تقاتلنا ، وكان بأسنا بيننا ، وإذا حذفنا منه ضعفنا ، فلابد من أن يكون الدين وفق ما جاء ، وهذا ما قاله الله عز وجل :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة الآية : 2)

التمام عددي ، والإكمال نوعي ، وأية قضية عالجها الدين عالجها بكمال رائع ، وعدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً ، فنحن كل ما نعانيه الآن أعراض مرض واحد ، هو الإعراض عن منهج السماء .

الأستاذ علاء :

سيدي إما أن يكون الإنسان على أحد خطين ، إما خط المستقيم الالتزام ، أو خط الهوى إتباع الهوى الفاسد ، أو إما أن ينهج منهج الله ، وهو منهج الحق ، وإما أن يخالف هذا المنهج ، هل هذا الكلام صحيح ؟

هما طريقان : طريق الهوى أو طريق الشرع الرباني :

الدكتور :

أولاً : عند الفلاسفة كلمة اسمها الاثنينية ، في حياتنا اثنينية ، حق وباطل ، خير وشر ، جمال وقبح ، إخلاص وخيانة ، ليل ونهار ، وفي حياتنا شهوة ومبدأ ، ودنيا وآخرة ، وعقل وحاجة ، ومصلحة ، فلذلك إن لم تكن على الحق ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فالإنسان على الباطل قطعاً ، الدليل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

ليس هناك حالة ثالثة ، إما أن نكون على الحق ، أو أن نكون على الباطل ، هل نعتبر أن الشهوة محرك ؟ محرك ، هي الشهوة محرك السيارة ، والعقل مقودها ، والشرع الطريق المعبد ، فالبطولة أن نستخدم المقود ، ونوجه اندفاع المحرك ليبقى على الطريق .

الأستاذ علاء :

وأن لا تودي بنا تلك المركبة ، وأن نصل إلى غايتنا وبغيتنا ، بقي الموضوع العلمي اليوم ماذا اخترت لنا ؟.

الموضوع العلمي : من الذرة إلى المجرة :

الدكتور :

حول موضوع عنوانه من الذرة إلى المجرة ، إن شاء الله سيكون هذا الموضوع لافتاً للنظر .

1 – من مجرة درب التبابنة إلى ذرة :

أولاً : هناك درب التبابنة ، وهي مجرتنا المتواضعة ، من بين آلاف المليارات من المجرات ، ثم نتحرك معها بعد قليل في عملية تكبير متوالية حتى نصل إلى شجرة في فلوريدا ، ثم ننتقل من هذه الشجرة إلى أوراقها ، إلى إحدى أوراقها ، ونتابع التكبير إلى أن نصل إلى الذرة ، فعنوان هذا الموضوع العلمي " من المجرة إلى الذرة " .

الآن نشاهد لقطة رائعة من الفضاء الخارجي ، هذه لقطة من لقطات الفضاء الخارجي ، نتابع التكبير ، هذه لقطة أخرى في الفضاء الخارجي ، انظر أستاذ علاء ، كم هي كثيفة النجوم جداً في هذه اللقطة من الفضاء الخارجي ، ولكن نرى في وسط هذا المربع نقطة بيضاء أكبر ممن حولها ، هذه النقطة البيضاء تبعد عن الناظر عشرة ملايين سنة ضوئية هذه مجرتنا درب التبابنة .

نتابع التكبير ، هذا الكوكب ، أو هذه المجرة البيضاء التي كأنها حلزون هي درب التبابنة ، لو تابعنا تكبيرها ، وأخذنا الجانب الذي يتوقع أن تكون المجموعة الشمسية فيها هذا الجانب نكبره ، ونتابع التكبير ، ونتابع التكبير ، ونتابع التكبير ، ونبحث عن المجموعة الشمسية ، لعلها ظهرت نقطة أكثر تألقاً من بقية النقط ، هذه المجموعة الشمسية بأكملها ، لو تابعنا ، من بين المجموعة الشمسية كم هو صغير هذا الإنسان إذا قيس بعظمة الكون ؟ الآن وصلنا إلى المجموعة الشمسية ، وقد رُسمت مسارات كواكب المجموعة الشمسية ، يغلب على ظني أن مسار الأرض هو اللون الأزرق ، نتابع البحث عن أرضنا إلى أن تظهر أرضنا على هذا المسار الأزرق ، نكبر ، ونكبر إلى أن نصل إلى أرضنا ، من بين مئات ألوف المليارات من المجرات أخذنا مجرة متواضعة هي مجرتنا درب التبابنة ، نقطة ، ثم كبرنا ، وكبرنا ، وكبرنا إلى أن وصلنا إلى المجموعة الشمسية ، وكبرنا ، وكبرنا ، وكبرنا إلى أن وصلنا إلى الأرض هذه الأرض نكبرها ، هذه أمريكا الشمالية ، نكبرها أيضاً ، فلوريدا ، نكبرها أيضاً، موقع نكبره ، موقع آخر ، نكبره ، معمل كيميائي نكبره ، طبعاً فيها أشجار ، وأبنية ، وبحيرة نكبره ، بكبره ، نصل إلى الورقة ، إلى أوراق الشجار ، هذا شجر بلوط ، نكبره ، نكبر ورقة واحدة ، الآن نكبرها ، نكبرها ، نكبرها ، بدأنا نصل إلى جزئيات الورقة ، ثم إلى مكوناتها ، ثم إلى جدار الخلايا ، ثم إلى الكروماتين ، ثم إلى الدي إن إي ، وأخيراً نتابع التكبير إلى أن نصل إلى الذرة ، وهي أدق شيء في الكون ، لذلك بدأنا بالمجرات ، وانتهينا إلى الذرات .

لذلك قال بعضهم :

انظر لتلك الشجرة ذات الـغصون   الـنضرة كيف نمت من حبة

وكيف صارت شجرة فابحث وقل من   الذي يخرج منها الثمرة وانظر

إلى الشمس التي جذوتها مستعرة فيها   ضياء وبها حـرارة منتشرة

***

نتابع ، نصل إلى بعض الأبيات التي قالها بعض العارفين بالله :

لله في الآفاق آيات لعل أقـلها هو مـــــــا إليه هداك

ولعل ما في النفس من آيــاته عجب عجاب لـــو ترى عيناك

والكون مشحون بأســـرار إذا حاولت تفسيراً لــــها أعياك

فإذا رأيت الـنبت في الصحراء يربو وحده فسألـــــه من أرباك

وإذا رأيت الـبدر يسري ناشراً أنواره فسأله من ذا الـــذي أسراك

وإذا رأيت النهر بالعذب الفرات جرى فسأله من يا نـــهر قد أجراك

وإذا رأيت البحر في المـلح الأجاج طغى فسأله من ذا الذي أطغاك

وإذا رأيت الليل يخشى داجياً فسأله من يا ليل حـــــاك لجاك

***

إذاً : نحن في هذا الموضوع انتقلنا من المجرة إلى الذرة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (29-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ العدالة والضبط : جرح العدالة ـ خلق الإنسان الجنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-05-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد تحدثنا عن مقومات التكليف خلال هذه السلسلة الطويلة من الحلقات ، وتحدثنا في مقومات التكليف عن الكون ، وأفردنا للكون مساحات واسعة ، وكذلك العقل ، ثم الفطرة ، ووضعنا رحالنا عند الشهوة .

استغرقت قضية الشهوة ، وهي من مقومات التكليف استغرقت حلقتين ، ويبدو أن الموضوع لم ننتهِ منه بعد ، أستاذنا الدكتور ستوسع صدرك للأسئلة في هذا المنحى ، وهي قضية حساسة ، وهي بحاجة إلى شرح حتى لا يضيع ، ولا يتيه الفهم فيها .

الشهوة شيء ، وهي حيادية كما تفضلت ، أودعها الله في عبادة في الجبلّة ، والمغالبة بين ما يشتهي من خلال الشهوة الإنسان ، وبين التكليف هذه المغالبة هي ثمن الجنة كما مر معنا .

هنالك قضايا ملحقة بالشهوة ، مسألة العدالة والضبط ، الضبط هو الدقة في الوصف ، الدقة في الكلام، الدقة في الفهم ، الدقة في التعبير ، والعدالة كما فهمناها من أساتذتنا هي الاستقامة ، لكن هذه العدالة لا تبقى على حالها ، هكذا حياة الناس وحياة البشر يعتور العدالة شيئان ، الشيء الأول يسقط العدالة ، الشيء الثاني يجرح العدالة ، ماذا عن هذا المفهوم ، وكيف نظر الشرع إلى هذه القضية وكيف عالجها؟.

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

مقدمة :

1 – الشهوة قوة حيادية :

أستاذ علاء ، لابد من وقفة قصيرة جداً ، أربط الحلقتين السابقتين بهذه الحلقة .

يتوهم الناس أحياناً أنه لولا الشهوات لما هلك الإنسان ، والحقيقة أنه لولا الشهوات لما ارتقى الإنسان إلى رب الأرض والسماوات ، هي قوة دافعة ، أو قوة مدمرة ، إذاً هي حيادية .

كنت قد ضربت مثلاً حول الوقود السائل في السيارة ، إذا وضع في المستودعات المحكمة ، وسال في الأنابيب المحكمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولّد حركة نافعة ، وأقلّتك أنت وأهلك وأولادك إلى مكان جميل ، وإذا صُبّ هذا الوقود السائل على السيارة ، وأصاب السيارة شرارة أحرق المركبة ومن فيها .

الشهوة قوة دافعة ، إذا هي قوة مدمرة ، إذاً هي حيادية ، موقوفة على طريقة التعامل معها ، إما أن تكون الشهوة سلماً نرقى به إلى أعلى عليين ، أو دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين ، والشهوات بمثابة المحرك في المركبة ، والعقل بمثابة المقود ، والشرع بمثابة الطريق ، فمهمة الشهوات الحركة ، مهمة العقل إبقاء المركبة على الطريق ، والشرع هو الطريق .

2 ـ الشهوات سلّمٌ نرقى بها أو دركات نهوي بها :

إذاً : الشهوات لها معنى إيجابي ، ودائماً وأبداً حينما نتحدث عن الأوامر والنواهي ، ومعظم الأوامر والنواهي متعلقة بالشهوات ، متعلقة بشهوة النساء ، وشهوة المال ، فتكاد معظم الأحكام الفقهية تنصب على هذين الحقلين الكبيرين .

إذاً الشهوات حيادية ، وسلم نرقى بها أو دركات نهوي بها ، وموقوفة على نوع استخدامها ، والشر ليس إلى الله ، إنه من صنع أيدينا ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

((الشر ليس إليك))

[مسلم عن علي]

ثم إن الحقيقة يمكن أن تمثل بهذا المثل :

هناك مساحيق بيضاء ثلاثة ، الأول سكر ، والثاني ملح ، والثالث مسحوق غسيل ، المساحيق الثلاثة مفيدة ونافعة ، ولها ثمن ، أما إذا وضعنا مسحوق الغسيل في الطبخ ، فسد الطبخ ، ولو وضعنا الملح في الحلويات فسدت .

3 ـ الشر يأتي من سوء الاستخدام :

إذاً : الشر يأتي من سوء الاستخدام ، ليس هناك شر مخلوق ، الشر من سوء الاستخدام .

مركبة رأيتها معجونة عجناً ، لأن الذي قادها كان ثملاً ، قد شرب الخمر ، ليس لشكل هذه السيارة الطارئ بعد سقوطها في الوادي ليس لها معملاً صنعها بهذه الطريقة ، المعمل صنع سيارة جديدة أنيقة رائعة ، لكن هذا الوضع الأخير نتج من سوء استخدامها ، من قيادتها ، والسائق ثمل .

الأستاذ علاء :

هل نستطيع أن نعتبر بأن الخير قديم ، وأن الشر طارئ ؟ .

الدكتور راتب :

مقدمة :

الأصل أن الله بيده الخير :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران)

لم يكن كما يتوقع بيدك الخير والشر ،

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

فإيتاء الملك خير ، ونزعه خير ، أن يعز الله مخلوقاً خير ، وأن بذله خير ، لكن العلماء قالوا : هناك بعض أسماء الله الحسنى لا ينبغي أن تذكر إلا مثنى :

* الضار النافع * لا ينبغي أن تقول : الله ضار ، هو ضار نافع ، أي يضر لينفع .

* الخافض الرافع * ، يخفض ليرفع .

* المذل المعز * ، يذل ليعز .

* المانع المعطي * ، يمنع ليعطي .

وقد قال ابن عطاء السكندري : " ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك ، وإذا كشفت لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء .

هذا معنى قوله تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

وقد قال بعض علماء العقيدة : الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين .

هناك إنسان كان يطوف حول الكعبة يقول : يا رب ، هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي، فقال : يا هذا ، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال : سبحان الله ! من أنت ؟ قال له : أنا محمد بن إدريس ، قال له : كيف أرضى عنه ، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال : يا هذا ، إذا كان سرورك بالقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

الحقيقة أن الطفل الصغير حينما يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيتألم ، ويصرخ ، ويصيح ، وإذا كان صغيرًا جداً يضرب يد الطبيب ، أما الراشد فلا يتكلم ، مع أنه يتألم ، لكنه يوقن أن هذا لمصلحته .

هذه مقدمة عن الشهوات ، هي حيادية ، وهي سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها .

من صفات المؤمن : العدالة والضبط :

من ملحقات هذا الموضوع صفتان يتصف بهما المؤمن ، العدالة والضبط .

الضبط متعلق بعلم العقيدة ، أن يفهم الإنسان فهماً دقيقاً ، أن يملك ذاكرة قوية ، أن يعبر تعبيراً دقيقاً ، فمن فقد صفة الضبط لا يؤخذ عنه الحديث ، أما العدالة هي الاستقامة ، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أنه :

((من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم ولم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات)

لكنه من عامل الناس فظلمهم ، وحدثهم فكذبهم فهو مستقيم ، لكن كفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب ـ وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم هو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته ـ لكن من ظلمهم ، ومن كذبهم ، ومن أخلفهم سقطت عدالته ، وبالتعبير المعاصر سقطت حقوقه المدنية .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من هنا لو سمحت لي بدأ علم مصطلح الحديث يأخذ أبعاده ، ووضع القواعد والأسس لتبيان الحديث الصحيح من الحديث المكذوب ، من الحديث الضعيف بالجرح والتعديل .

الدكتور راتب :

الكب من أقبح الصفات :

هذا الذي سافر من المدينة المنورة إلى البصرة ، ليتلقى حديثاً عن إنسان ، قبل أن يلتقي به أو قبل أن يحدثه وجده يوهم فرسه أن في رداءه طعاماً ، فلما أقبلت عليه الفرس لم تجد شيئاً ، فلم يلتق به ، وقال: الذي يكذب على فرسه لا يمكن أن يؤخذ عنه حديث لرسول الله .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان في بيت أحد أقربائه ، فقالت الزوجة لابنها : تعال هاك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماذا أردتِ أن تعطيه ؟ قالت : تمرة ، قال : كما أنك لو لم تفعل لعدت كذبة ، لكن وجد في جيبها تمرة ، لو كانت خالية لكانت كذبة .

الصغير أحياناً يتعلم الكذب من أمه وأبيه ، لمجرد أن يقول الأب لابنه : قل له : لست في البيت ، فقد علّمه الكذب ، لمجرد أن تقول الأم لزوجها أمام بنتها : لم نخرج من البيت ، وقد خرجتا ، فقد تعلّمت البنت الكذب من أمها .

لذلك في علم القيادة ، والحقيقة خطيرة جداً هناك مجموعة القيم ، والمبادئ ، والعادات والأساليب ، وأنماط المعيشة ، وأساليب النظافة ، هذه كلها تتكون في الطفل من السنة الأولى حتى السابعة ، كل القيم التي يطمح الأب أن تكون في ابنه والمبادئ ، والانضباط الأخلاقي ، والعادات الصحية في الأكل والشرب والنوم ، وفي العلاقات الاجتماعية ، مجموعة هذه القيم التي يطمح كل أب أن يكون ابنه متمثلاً لها هذه لا تغرس إلا في سنٍ مبكرة بين السنة الأولى والسابعة ، وبعد هذه السن العوض بسلامتك ، أي أن الطفل ثبت على عادات سيئة .

لذلك يجب أن نعتني بالتعليم الابتدائي ، لأنه أخطر مرحلة في التعليم ، يجب أن يكون المعلم مربياً ، واعياً ، أخلاقياً ، أفقه واسع ، عنده أخلاق رفيعة جداً ، لأن أغلى شيء نملكه بين يديه ، وأغلى شيء نملكه بين يديه .

الأستاذ علاء :

كيف إذا جُرحت أو سقطت عدالة المربي أمام هذا الصف والتلاميذ ؟

الدكتور راتب :

يكفي أن يدخن أمامه .

الأستاذ علاء :

ثبت هذا الجرح في أذهانهم ، وتستقيم حياتهم إن صح التعبير ، أو تمشي على هذا الشيء ، وبعد السابعة لا نستطيع أن ننزع هذا الشيء ، إلا بشكل ضئيل جداً ، وبمجهود كبير .

سقوط العدالة :

الدكتور راتب :

إذاً : سقوط العدالة أن تحدث الناس فتكذبهم ، أو أن تعاملهم فتظلمهم ، أو أن تعدهم فتخلفهم .

لكن جرح العدالة شيء آخر : تماماً كإبريق من البللور أمسكت مطرقة وكسرته ، هذا سقوط العدالة ، وقد يقع الإبريق فيشعر ، فيه خط ، هذا اسمه شعر ، فالعدالة تجرح جرحا .

مثلاً : من أكل لقمة من حرام جرحت عدالته ، لا يريد أن يشتري ، أخذ قطعة فاكهة ، قال له البائع : خذ ، انتقى أكبر قطعة وأكلها ، ولا ينوي أن يشتري ، فكأنه أكل لقمة من حرام ، أو تطفيف بتمرة ، فلم يرجح الميزان ، أحياناً يضع بائع قطعة اللحم بقوة في الكفة فترجح ، أحيانا تأتي مروحة ، والمادة غالية جداً فترجح الكفة بفعل المروحة ، وأحياناً العبوة ثقيلة جداً ، يبيع مادة غالية جداً بعبوة رخيصة جداً بوزن ثقيل ، فكأنه باع هذه العبوة بمئة ضعف من ثمنها .

لذلك تطفيف بتمرة يجرح العدالة ، أكل لقمة من حرام يجرح العدالة ، صحبة الأراذل ، الإنسان الأخلاقي المنضبط لا ينبغي أن يراه الناس مع من سقطت عدالته ، من كان لسانه بذيئاً ، من كان مزاحه رخيصاً ، صحبة هذا الإنسان الفاضل مع هذا الإنسان يجرح عدالته ، بل إن الماء الصافي العذب الزلال إذا خلطناه مع ماء آسن مَن الذي يتضرر ؟ الماء النظيف ، أما الماء الآسن في الأصل فهو آسن .

الأستاذ علاء :

هنالك من الشباب من يقول : أنا يا أخي مستقيم ، بالنسبة لي الحمد لله ، لا أرتكب المحارم ، بالنسبة لي أخاف الله ، لكن هؤلاء رفاقي بالحي ، إذا جالستهم لا أتأثر ، هل هذا الكلام صحيح ؟

صحبةُ غير المستقيم بين الحقيقة والضوابط :

الدكتور راتب :

أولاً مسموح في علاقات العمل ، يجب أن تكون ودوداً ، منضبطاً ، مطيعاً لرئيسك في العمل ، هذه علاقة عمل لا شائبة فيها إطلاقاً ، كلنا يعمل ، ففي مكان عمله أناس متفوقون ، متخلقون ، أخلاقيون ، غير أخلاقيين .

حينما أقيم علاقات عمل فلا شيء عليّ فيها ، أما حينما أقيم علاقات حميمة مع أناس فاسدين كيف انسجمت معهم ؟ كيف أَلِفت كلامهم ؟ كيف قبِلت أفكارهم ؟ كيف رضيت عن تصرفاتهم ؟ معنى ذلك أن هناك قواسم مشتركة ، لذلك أنت حينما تعرف الإنسان تعرفه من صديقه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(سورة الكهف الآية : 28)

ملمحٌ لطيفٌ :

كملمح لطيف ، لا تعني كلمة :

(أَغْفَلْنَا)

أن الله خلق الغفلة في قلب هذا الإنسان ، معاذ الله ، معنى :

(أَغْفَلْنَا)

بالضبط في المعاجم وجدناه غافلاً ، عاشرت القوم فما أجبنتهم ، أي ما وجدتهم جبناء ، عاشرت القوم فما أبخلتهم ، أي ما وجدتهم بخلاء :

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

إذاً : لا بد من حمية اجتماعية ، هذا المؤمن الذي أراد أن يكون متفوقاً عند الله لا بد من أن يصحب المؤمنين ، لذلك :

((لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد ، وأبو داود والترمذي وابن حبان ، والحاكم ، عن أبي سعيد]

هذا في العلاقات الحميمة أستاذ علاء ، علاقة متينة ، سهر طويل ، أما علاقات العمل فلك أن تلتقي مع أي إنسان في حدود الأدب ، في حدود أداء الواجب ، وفي حدود المصلحة العامة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، الآن العدالة سقطت مثلاً ، أو جرحت ، كيف للجرح أن يرتق ؟

الدكتور راتب :

كيف يستعيد الإنسان عدالتَه ؟

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود الآية : 114)

لو لا أن باب التوبة مفتوح لهلك معظم الناس .

((يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي عن ابن عمر]

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ؟!))

[أخرجه الحكيم البيهقي ، عن أبي الدرداء]

حديث قدسي طويل في النهاية :

((إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو))

باب التوبة صمام أمان ، باب التوبة حبل إنقاذ ، باب التوبة رحمة من الله عز وجل ، بل إن الله يريد أن يتوب علينا .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة الآية : 222)

وما أمرنا أن نتوب إلا ليتوب علينا ، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا .

الأستاذ علاء :

سيدي ، حتى يصل الإنسان إلى التوبة هل من خطوات جاء بها الشرع لتبيان للمعرفة ، لاستيضاح هذا الطريق ، العودة به إلى المدارج الصحيحة .

خطواتٌ لاستيضاح طريق التوبة :

الدكتور راتب :

عندنا مرض اسمه القاتل الصامت ، ارتفاع الضغط ، خطورة هذا المرض ليس له أعراضاً أبداً إلا ما ندر ، هو القاتل الصامت ، أنا أسأل ، متى أعالج ضغطي المرتفع ؟ عندما أعلم أن ضغطي مرتفع .

طلبُ العلم :

إذاً : أول شيء في التوبة العلم ، يجب أن تطلب العلم لتعرف أين أنت من الشرع ؟ أين أنت من الاستقامة ؟ هل هذا الدخل صحيح ، أو غير صحيح ؟ مشروع أو غير مشروع ؟ هل هذه العلاقة مشروعة أو آثمة ؟ هل هذا المال الذي تكسبه حلال أم حرام ؟ لا بد من طلب العلم ، طلب العلم أول

مرحلة في التوبة ، لن يتوب الإنسان من ذنب لا يعرفه ذنباً ، يراه محمَدَةً ، لا يتوب الإنسان من ذنب عرفه ذنب .

إذاً : قبل العلم كل شيء معطل ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما جميعاً فعليك بالعلم ، والعلم فرض عين على كل مسلم .

لأن الإنسان كما تعلم أستاذ علاء هو في الأصل يشبه الجماد من نوع .

الجماد : شيء مادي ، يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاداً ثلاثة ، وله وزن ، هذا الجماد .

النبات : شيء آخر ، شيء مادي يشغل حيز في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، لكنه ينمو .

الحيوان : شيء مادي ، يشغل حيز في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن و ينمو كالنبات ويتحرك ويمشي .

الإنسان : شيء مادي ، له جسم ، وله وزن ، يشغل حيز في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، و ينمو ويتحرك ويفكر ، فإن لم يفكر فقد إنسانيته ، أودع الله في الإنسان قوة إدراكية ، فما لم يبحث عن الحقيقة ، ما لم يتعرف إلى سر وجوده ، وغاية وجوده ، ما يتعرف إلى ربه ، ما لم يتعرف إلى شرعه العظيم فليس إنساناً بالمعنى الكامل .

الأستاذ علاء :

نريد أن نكمل بين يدينا الكثير من الموضوعات ، إن شاء الله نتابعها في حلقة قادمة ، والآن ماذا اخترت لنا من محطة علمية في هذه الحلقة ؟

خَلْقُ الإنسان :

الدكتور راتب :

اخترت لإخوتي المشاهدين خلق الإنسان ، أي نحن كيف خلقنا ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

الفيلم الذي نتابعه بعونه تعالى بعد قليل يتحدث عن الإنسان ، كيف خُلق ؟ وفي أي المراحل قد مر ، هذا الفيلم يتحدث عنا جميعاً ، والآن لنقم برحلة زمنية قصيرة ، ونرجع مدة إلى الماضي ، وندقق معاً هذه الحكاية الرائعة ، المليئة بالمعجزات ، ولنشاهد كيف كان حال الإنسان في حين من الدهر ؟

هكذا بدأ خَلقُ الإنسان : خلية البويضة :

خلية واحدة كما ترون أيها الإخوة ، خلية واحدة فقط في بطن الأم ، وجود عاجز ومحتاج إلى حماية ، أصغر من حُبيبة ملح واحدة ، وأنتم ، ونحن ، وجميعاً كنا هذه الخلية الصغيرة التي انقسمت إلى قسمين، ثم إلى أربع ، ثم أصبحت أربع خلايا ، ثم ثمانيًا ، ثم ست عشرة ، واستمرت الخلايا بالتكاثر ، ثم ظهرت أول قطعة لحم ، ثم أخذت قطعة اللحم شكلاً ، وأصبح لها يدان ، ورجلان ، وعينان ، الخلية الأولى كبرت مئة مليار ضعف ، وأخذت وزناً لستة مليار ضعف ، فالتي كانت قطرة ماء فقط بالسابق أجر الله تعالى فيها معجزات عدة ، فخلق منها الإنسان الذي يتابع هذا الفيلم ، وقد بين القرآن الكريم كيف خُلق الإنسان ، قال تعالى :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى *أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

(سورة القيامة)

أيها الإخوة الكرام ، تبدأ أول مرحلة في معجزة الخلق لنضج خلية البويضة في عضو في جسم المرأة يسمى المبيض ، أو مرحلة أن خلية اسمها البويضة تنضج في عضو في جسم المرأة اسمه المبيض ، هناك رحلة طويلة أمام البويضة الناضجة ، تدخل أولاً في قناة فالوب ، وهنا ستقطع مسافة طويلة حتى تصل إلى الرحم ، في قطع هذه المسافة شيء معجز ، هذه النطفة أصبحت طفلاً سوياً :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

هذه البويضة تبدأ بالحركة لتدخل في قناة فالوب ، الحقيقة أن المدة قصيرة جداً ، تحاول قناة فالوب أن تجذب البويضة إليها ، بلمسات خفية على المبيض ، ونتيجة هذا البحث تجد قناة فالوب البويضة الناضجة ، وتسحبها لداخلها ، وحينئذٍ تبدأ رحلة خلية الناضجة في قناة فالوب الشيء الذي لا يصدق هو:

إن حركة هذه البويضة في قناة فالوب فيها إعجاز في الخلق ، ذلك لأن هذه البويضة ليس لها أرجل ، وليس لها أدواة حركة إطلاقاً ولا زعانف ، ولا شيء ، لكن قناة فالوب فيها شعيرات تتحرك باتجاه الرحم ، وتنقل البويضة ، وسوف نرى ، يتوجب على البويضة قطع الطريق الطويل عبر قناة فالوب ، لكن ليس لها أي عضو يؤمن لها هذه الحركة لذلك خلايا القناة تحمل خلية البويضة من يد إلى يد ، إلى الجهة التي هذه البويضة ، وهذه في قناة فالوب وهذه صور مأخوذة من المناظير وهي صور حقيقية ، تأخذ قناة فالوب البويضة برفق إلى جهة هذه الأشعار التي تتحرك ، وتنقل البويضة عبر قناة فالوب . وعندما ندقق في هذه الشعيرات نجدها قد نسقت في المكان والشكل الذي يجب أن تكون عليه ضمن

خطة ذكية جداً ، وتقوم معاً بحركة نقل إلى الجهة نفسها ، وكأنها آلة مبرمجة لذلك ، فلو لم يقم قسم من هذه الخلايا بمهمته ، أو قام بنقلها إلى جهات مختلفة فلن تصل البويضة إلى هدفها ، ولا تتحقق الولادة أبداً ، ولكن خلق الله تام في كل خلية تنفذ مهمتها التي أوكلت إليها دون أي خطأ ، وهكذا تتقدم البويضة إلى المكان المجهز خصيصى لها ، أي إلى رحم الأم ، لكن خلية البويضة المنقولة بدقة بهذا الشكل عمرها لا يتجاوز 24 ساعة ، وتموت ما لم تلقح في هذه المدة ، وتحتاج إلى المادة الحياتية للتلقيح ، إذاً: تحتاج إلى نطفة من جسم الرجل .

هذه الصور أخذت بمناظير ضمن أجهزة المرأة ، مكبرة ألوف المرات ،

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

(سورة الطارق)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (30-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ تتمة بنود جرح العدالة ـ خلق الإنسان النطفة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-06-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

تحدثنا عن مقوم من مقومات التكليف ـ الشهوة ـ وقد أفردنا لها ثلاث حلقات ، ولم نكمل الحديث في تفاصيلها ، واليوم في محطتنا مع الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، نكمل هذا المبحث إن شاء الله .
سيدي ، عندما أتيت ، وتحدثت عن الشهوة اتفقنا على اصطلاح ، بأنها هي حيادية ، وهي قوة كامنة ، إذا ما استخدمناها في قنواتها ، وفي مجالاتها الصحيحة فهي قوة ارتقاء إلى الله عز وجل ، وإذا ما استخدمنا هذه القوة خارج النطاق الصحيح ، وخارج الحيز والحاضنة الصحيحة نزلت بنا إلى الدركات السفلى ، وإلى الأماكن التي لا تتناسب وكينونة الإنسان ومقامه ، وتكريم الإنسان عند ربه عز وجل .
وتحدثنا في هذا المنحى الشيء الكثير ، ثم وصلنا إلى مسألة بأن الشريعة جاءت بالعدالة والضبط ، وقالت للمرء الذي يريد أن يستقيم في حياته : هنالك العدالة ، العدالة تعني الاستقامة ، والضبط يعني الدقة في الوصف ، وفي الفهم ، وفي القول ، ومن لا عدالة له ولا ضبط له يسقط ، حقوقه المدنية تسقط، لكن هذه العدالة يعتورها أشياء كما مر معنا في الحلقة الماضية ، إما أن تكسر كما تكسر كأس الزجاج ، وبالتالي تنتهي وتسقط ، أو أن تجرح ، ومثلتها سيدي الكريم بأنه كما يأتي إبريق الزجاج ، ويُشعر بصدمة بسيطة فتُجرَح .
لهذه القضايا علاجات ، ولهذه القضايا أمثلة ، وجئت بأنه من تحقق فيه العدالة والضبط فقد حرمت غيبته ، وظهرت مروءته وعدالته ، نكمل في هذا البحث إن تكرمت .

مقدمة تذكيرية :

الدكتور راتب :
لكن كتعليق على ما تفضلت به لو لم يكن هناك شهوات كيف نتقرب إلى الله ما في طريق ، لو لم يكن هناك شهوات كيف تظهر بطولات البشر ، الحياة محببة ، فالذي يضحي بحياته في سبيل مبدأ يعتقده

صار بطلا ، الطعام والشراب حاجة أساسية ، فالذي يؤثر أخاه على طعامه وشرابه صار بطلا ، لولا الشهوات لم تكن هناك بطولات ، بل لولا أن النبي بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر ، هو بشر ، تجري عليه كل خصائص البشر ، وانتصر على بشريته فكان سيد البشر .

تحدثنا عن العدالة ، والدقة ، والضبط ، وبينا أن هناك سقوطاً لهذه العدالة ، وأن هناك جرحاً لها ، نتابع البنود التي تجرح بها العدالة .

إما أكل لقمة من حرام ، تطفيف بتمرة ، صحبة الأراذل ، الحديث عن مفاتن النساء ، من علا صوته في البيت .

تتمة بنود إسقاط العدالة :

1 – الحديث عن مفاتن النساء لإثارةِ الشهوات والغرائز :

الآن الحديث عن مفاتن النساء ليثير الشهوات والغرائز ، هذا أيضاً يجرح عدالة الإنسان .

أدبُ القرآن في الكنايات عن العلاقة بالنساء :

في الإسلام حياء وأدب .

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

(سورة المؤمنون)

دخل في كلمة :

(وَرَاءَ ذَلِكَ)

كل أنواع الانحراف ، وهذه إشارة لطيفة مؤدبة مهذَّبة في كتاب الله :

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

(سورة النساء الآية : 43)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

(سورة الأعراف الآية : 189)

كل عبارات القرآن في العلاقات مع النساء جاءت عبارات لطيفة لا تجرح حياء الصغار ، فهذا الذي يقول : لا حياء في الدين ، نقول له : الدين كله حياء .

فلذلك الحديث عن مفاتن النساء ، وعن ألوانهم ، وعن أشكالهم بغية إثارة الغرائز ، والحديث عن مغامرات لا تليق بالإنسان هذا يجرح عدالة الإنسان .

ورد في النصوص : سار بأهله ، كلمة أهل كلمة رائعة لطيفة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

(سورة التحريم)

وبأقل كلام ممكن :

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ)

(سورة القصص الآية : 25)

ووقفت هنا ، يقول لها ما المناسبة ؟

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص الآية : 25)

وقفت هنا ، يقول لها ما المناسبة ؟

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

وجاءت على استحياء .

لذلك من علامات قيام الساعة أن ترفع النخوة من رؤوس الرجال ، ويذهب الحياء من وجوه النساء ، وتنزع الرحمة من قلوب الأمراء ، لا رحمة في قلوب الأمراء ، ولا حياء في وجوه النساء ، ولا نخوة في رؤوس الرجال .

2 – رفع الصوت والصياح في البيوت :

ثم الحديث عن الضبط الداخلي ، من علا صياحه في البيت ، فسمعه من خارج البيت هذا جرحت عدالته .

والحقيقة أستاذ علاء ، كل أنماط السلوك خارج البيت ، من هندام ، من أناقة ، من ابتسامة ، من انحناء ظهر ، بمنتهى الأدب أنا أسميه بالتعبير المعاصر الإنكليزي (بزنز المصلحة)الإنسان لا يظهر على حقيقته إلا في البيت ، لا سلطان لأحدٍ عليه في البيت ، فأخلاقه في البيت ، أخلاقه مع أهله ، مع أولاده.

لذلك النبي الكريم عدّ الخيرية المطلقة في البيت .

((خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة ابن ماجة عن ابن عباس الطبراني ، عن معاوية]

وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً ، وكان يقول :

((أكرموا النساء ، والله ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم))

[ورد في الأثر]

لذلك :

((استوصوا بالنساء خيرا))

[متفق عليه]

كان عليه الصلاة والسلام في بيته كواحد من أهله ، كان يكنس بيته ، ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، وكان في مهنة أهله ، وكان يركب حفيداه على ظهره في البيت ، وكأنه واحد من الناس ، هذه بطولة في العظماء ، أن يكون في بيته كواحد من أهل البيت .

لذلك من علا صياحه في البيت ، من كان شرساً ، من كان قاسياً ، من صخاباً ، من كان عنيفاً في البيت هذا جرحت عدالته ، ولو إذا علا صياحه فقط ، لأن ارتفاع صوته في البيت يدل على عدم انضباطه ، أنا أقول البطولة في البيت ، وما سوى البيت مصلحة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، سؤال يعترض المرء ، والآن يشاهدنا عدد كبير من الناس ، يتعرض المرء في حياته انفعالاتٌ في المنزل ، زوجته قامت بقضية هو لا يريدها ، فعكستْ إرادتَه ، ولده قام بمسألة عكس إرادته ، هو يتمنى أن لا يكون هذا الشيء ، في لحظة من اللحظات ينفعل ، فيعلو صوته ، ويزبد ويرعد ، فهذه القضية عندما يصل إلى مرحلة الانفعال بسبب الآخرين ، وليس بسببه ، بسبب أخطاء الآخرين ، هل يعتبر مخروم المروءة أيضاً ؟

هل الانفعال في البيت لسبب مشروع يخرم المروءة ؟

الدكتور راتب :

الحقيقة أن هناك غضبًا حقيقيًا ، وهناك تغاضب ، فالمربي يتغاضب ، ولا يغضب ، الغضب فيه تفلت من زمام السيطرة ، والنبي قال :

((لَا تَغْضَبْ ، فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : لَا تَغْضَبْ))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أما التغاضب فمطلوب .

قد يعلو صوتُ الإنسان لحكمة تربوية ، قد يكون قاسياً قسوة يحتاجها الموقف .

سيدنا عمر شكا إليه بعض أصحابه شدته ، فبكى وقال : << والله يا أبا ذر ، لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه ، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى >> .

والحقيقة أستاذ علاء ، أنه سهلٌ جداً أن تكون ليّناً ، وأسهل أن تكون قاسياً ، لكن البطولة أن الذين حولك من الأهل والأولاد بقدر محبتهم لك يهابونك ، لا أن تكون مهاباً فقط ، المجرم مهاب ، القوي مهاب ، الطاغية مهاب ، أن تكون سبهللا ، كما يقولون ، هذه سهلة أيضاً ، إذا سيبت الأمور يتجاوز الناس الحدود ، ويتطاولون عليك ، أما أن تكون محبوباً بقدر ما أنت مرغوب فهذه بطولة .

دائماً أستاذ علاء ، القضايا الحادة سهلة ، العنف أو التساهل كلاهما سهل ، و الفضيلة وسط بين طريفين ، البطولة أن يحبك الناس ، وأن يهابوك ، أو أن يحبوك بقدر ما يهابونك ، أو أن يهابوك بقدر ما يحبونك ، والأنبياء يعبدون الله :

(رَغَباً وَرَهَباً)

(سورة الأنبياء الآية : 90)

بل إن علاقتنا بالله ينبغي أن تبنى على هذا ، إذا زاد التخويف أوصلنا إلى اليأس ، وإذا زاد الحديث عن رحمة الله أوصلنا إلى التسيب ، فالله عز وجل إذا رأى عبده المؤمن تبحبح في السلوك يريه بعض الشدة ، وإن أدت الشدة إلى خوفه الشديد بحيث أن هذا الخوف أقعده عن العمل يريه بعض الرحمة .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

(سورة الكهف الآية : 19)

الأستاذ علاء :

سنعود إلى هذه المسألة في طريقة الله عز وجل في الدعوة لإنسان ، كيف يأتي به إلى الجادة ؟ سنأتي إليها عندما ننتهي .

الدكتور راتب :

توازنُ الدعوةِ إلى الله بين الترغيب والترهيب :

لكن الآن هناك درس لإخواننا الدعاة ، هذا الذي يخوّف الناسَ من النار في كل خطبة ليس داعية ناجحا، وهذا الذي يتحدث عن رحمة الله بلا قيد ولا شرط ، أيضاً ليس داعية ناجحاً ، لذلك الحديث بالأثر :

((يا رب ! أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : يا داود ، أحب عبادي إلى نقي القلب ، ونقي الكفين ، لا يأتي إلى أحد سوءا ، ولا يمشي بالنميمة ، تزول الجبال ، ولا يزول ، أحبني ، وأحب من يحبني ، وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب ، إنك لتعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال ؛ ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي))

[رواه ابن عساكر عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم : بنعمائي كي يحبوني ، وذكرهم ببلائي كي يخافوني .

إذاً : لا بد من أن يكون في قلب المؤمن تعظيم لله يحملهم على طاعته ، ومحبة له تحمله على الإقبال عليه ، وخوف منه يحمله على أن يقف عند حدوده .

فالدعوة إلى الله ينبغي أن تكون متوازنة ، في التعظيم ، والحب ، والخوف .

الأستاذ علاء :

تعظيم ، وحب ، وخوف ، التعظيم بالآلاء ، وبالعطايا ، وبالمنن ، وأيضاً النعماء للمحبة ، والبلاء للخوف ، حتى تستقيم حياة المرء .

نأتي إلى ما يجرح .

الدكتور راتب :

ممّا يجرح العدالة :

1 – المشيُ حافيا في الطريق وسوءُ الهندام :

من مشى حافياً في الطريق ، المؤمن له مكانة ، المؤمن يمثل هذا الدين ، المؤمن سفير الإسلام ، فمن مشى حافياً بثياب رثة جلب لنفسه الازدراء .

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

عنَ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَنَا :

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةَ ...))

[أبو داو وأحمد]

الناس أحياناً ترون الناس من هيئته ، من أناقته ، من نظافته ، من تناسب ثيابه ، فهذا مدخل إلى قلوب الناس ، أن تكون شخصية لطيفة ، محببة ، أنيقة ، نظيفة ، وهناك شيء من الذوق في الثياب ، أما إهمال الذوق في الثياب ، إهمال النظافة فهذا يجرح عدالة المؤمن ، فالهندام مطلوب ، كان عليه الصلاة والسلام يعرف بريح المسك .

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةَ ...))

فمن مشى حافياً جرحت عدالته .

2 – البولُ في الطريق :

ومن بال في الطريق جرحت عدالته ، شيء غير حضاري ، غير مقبول ، الإنسان هو الإنسان ، لك أن تقول : شرع ، أو تقول : نظام عام ، فهما ينبعان من فطرة الإنسان ، كيف لا وقد سمّى الله الشيء القبيح منكراً ، أي أن النفوس السليمة تنكرها بفطرته ، وسمَى الأعمال الصالحة معروفاً ، أي النفوس السليمة تعرفها بطبيعتها .

3 – الأكلُ في الطريق :

ومن أكل في الطريق جرحت عدالته ، من أكل في الطريق ، الطريق فيه غبار ، أو أن هناك إنسانا جائعا ، وأنت تأكل طعاما نفيسا ، شطيرة غالية جداً ، ومعها عصير ، يجب أن تأكل في البيت ، أو في مكان مغلق ، أما في الطريق من دون قيد أو شرط فهو مما يجرح العدالة .

الأستاذ علاء :

الحقيقة أننا نشاهد عددا كبيرا من الناس الآن ممن يشتري ، ويأكل في الطريق مع العصائر ... وهذه الطريقة أولاً تشغله عن المسير بشكل سليم على الرصيف ، تشغل انتباهه على حركة الطريق ، وكما تفضلت في الطريق غبار ، وأذية للناس ، ممّن لا يستطيع أن يشتري هذه ، فقد أذيته ، كما قال في السنة النبوية ؛ إذا أردت أن تأتي بفاكهة أو طعام إلى البيت .

الدكتور راتب :

نصيحة للوالدين :

((وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك ، إلا أن تغرف له منها))

[أخرجه الخرائطي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

أستاذ علاء ، الآن الأب وضعه المادي ميسور ، يعطي ابنه 500 ليرة ، وهو في الحضانة ، أو المدرسة الابتدائية ، 500 ليرة تعطى لطفل صغير ؟! وحوله صغار أولياءهم دخلهم محدود ، هذا خطأ كبير ، أو أكلات غالية جداً يأتي بها الطفل .

أنا أتمنى على الإخوة المشاهدين أن يعطوا أولادهم الفاكهة المألوفة التي يستطيعها كل الناس ، هذه تعطى إلى الطفل في المدرسة ، شطيرة عادية ، أما الطعام النفيس جداً ، أو الأكلات الغالية جداً المستوردة ، أو المبلغ الكبير جداً ، والله هذا فيه إفساد للطفل أولاً ، فيعلو على مَن حوله ، وثانياً :

الطفل الذي له أخلاق عالية ، وأبوه محترم جداً يرى أن أباه فقير لا يعطيه شيئاً ، فينشأ شرخ عائلي ..

الأستاذ علاء :

وبالتالي يورث حقداً ، ويورث خللاً في النظر إلى الحالة الاجتماعية السليمة بكل معنى الكلمة .

الدكتور راتب :

4 – التنزّهُ في الطرقات :

التنزه في الطرقات ليمتع الإنسانُ نظره في الغاديات والرائحات ، هذا يجرح عدالة الإنسان ، الطرقاتُ فيها معاصٍ كثيرة ، فالإنسان عليه أن يلزم الجانب الصحيح والعفيف .

((حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه))

[رواه أحمد عن أم سلمة]

هذه أركان الأخلاق ، إذا حدثك فهو صادق ، وإذا عاملك فهو أمين ، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف، فالعفة تقتضي ألا أتنزه في الطرقات ، لأمتع بصري بالغاديات والرائحات .

الأستاذ علاء :

هنالك أماكن للتنزه ، وهنالك أماكن أن يأخذ الإنسان عائلته إلى النزهة ، ويفرج عنهم ، وعن نفسه بكل معنى الكلمة ، وليس في الطرقات كما تفضلت .

الدكتور راتب :

الإيمان مرتبة إيمانية وأخلاقية وجمالية :

سيدي ، الإيمان مرتبة إيمانية وأخلاقية وجمالية ، والله إنّ المؤمن الصادق القريب من الله يتمتع بأذواق في الحياة الدنيا لا يعرفها أهل الفساد والفجور ، له ذوق عالٍ جداً ، لذلك العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فيها جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، والجمال مطلوب ، هناك جمال الكلمة ، جمال التصرف ، جمال الأخلاق ، مكارم الأخلاق بطولات .

لكن الإنسان كما قال تشرشل مرة : " ملكنا العالم ، ولم نملك أنفسنا " ، لكن المؤمن ملَك نفسه ، بل إن حضارة الإسلام أساسها السيطرة على الذات ، بينما حضارة الغرب أساسها السيطرة على الطبيعية .

لذلك أن تملك نفسك شيء عظيم ، سيدنا يوسف :

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

(سورة يوسف الآية : 101)

بعض العلماء له رأي خاص في هذه الآية ، هناك ملوك في الأرض ، فرعون كان ملِكا ، المُلك أن تملك نفسك عند الشهوة ، حينما دعته امرأة العزيز ذات المنصب والجمال ، وهناك عشرة أسباب تدعوه إلى أن يستجيب لها : هو شاب ، غير متزوج ، غريب ، عبد لسيدته ، ليس لها مصلحة أن يفشو هذا الأمر ، جميلة ، فتانة ، قال :

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف الآية : 23)

لأنه ملَك نفسه قال :

(رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ)

هذا بعض آراء المفسرين .

5 – إخافة الناس بالحيوانات :

الآن : من قاد برذوناً ، وأن يكون كلب عقور ، يخيف الأطفال ، فالذي يقود برذوناً تجرح عدالته ، والآن يقاس عليه الكلب الكبير ، يملأ قلوب الصغار رعباً ، وقف على مدخل البناية ليعيق دخول أصحاب البيوت إلى بيوتهم ، هو حضاري ، وأتى من الغرب ، ومعه كلب .

6 – قيادة السيارات بالسرعة الزائدة المتهوِّرة :

شيء أخير : من أطلق لفرسه العنان ، السرعة الزائدة تجرح العدالة .

الأستاذ علاء :

إذاً : مَن أطلق لفرسه العنان جرحت عدالته ، السرعة الزائدة ، كان في ذلك الوقت الرحل هو الفرس ، الآن السيارة ، الذين يطلقون لأنفسهم العنان في السرعة .

الدكتور راتب :

الآن أكثر الحوادث أساسها السرعة ، أنا كنت في أمريكا ، عند تقاطع الطرق الذي لا يقف على الصفر يخالف ، عند التقاطع الذي لا يقف على الصفر يخالف ، لا بد من أن تقف ، السرعة الزائدة تسبب كل الحوادث .

بالمناسبة ، أكبر الوفيات بالحوادث في العالم كله ، كل أسبوع عندنا حوادث .

الأستاذ علاء :

دعنا نكون واضحين ، سنة 2005 تجاوز العشرين ألفا ، عدَا الجرحى ، وعدا العاهات الدائمة ، وفيها

نسب من الأطفال ، وفيها نسب من الكبار ، كل هذا من السرعة الزائدة ، وعدم التقيد بالنظام العام .

الدكتور راتب :

هناك شيء يذكرني بقانون بريطاني لا يسمح لإنسان أن يقود مركبة عامة إلا بعد الأربعين ، أما الخاصة فمسموح .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، يبدو أن الوقت أدركنا ، وبقيت المحطة الأخيرة التي اخترتها ، وهي المحطة العلمية التي نرى فيها آلاء الله ، وعظمة الله ، إن شاء الله ، ماذا اخترت لنا ؟

مِن إعجازَ خَلْق الله تعالى : تصميم النطفة :

الدكتور راتب :

نتابع خلق الله في الإنسان ، لكن هذا اللقاء الثاني حول تصميم النطفة ، شيء لا يصدق أستاذ علاء .

النطفة خلية موظفة لإيصال معلومة الذكر الوارثية إلى خلية البويضة في الأنثى ، إذا دققنا عن كثب نرى جهازاً مصمماً بشكل خاص لحمل هذه النطفة ، القسم الأمامي للنطفة مغطى بدرع واقٍ ، وتحته درع ثانٍ ، وتحت هذا الدرع الثاني أيضاً هناك ما يشبه الشاحنة التي تحمل النطفة ، وداخل هذه الشاحنة 23 صبغياً للمعلومات العائدة لجسم الرجل ، وأدق تفاصيله جميعها ، بألوف الملايين ، هذه المعلومات مخفية في هذه الصبغيات ولظهور إنسان جديد يجب أن تتحد الصبغيات الـ23 الموجودة في نطفة الرجل مع الصبغيات الـ23 الموجودة في بويضة المرأة ، وهكذا سيظهر أول تكوّن لجسم الإنسان من 46 صبغياً ، هذا تصميم النطفة .

مقدمة النطفة فيها درع ودرع ومنصة ، ثم محرك ، هذا الذي يدور ، ثم ذيل لتنفيذ الحركة .

تصميم الدرع الموجود في الجهة الأمامية للنطفة سيحمل هذا الحمل الثمين طوال هذه المسافة الطويلة من جميع أنواع الأخطار ، وتصميم النطفة غير محصور بهذا فحسب ، فهناك في القسم الأوسط للنطفة محرك قوي جداً ، ويرتبط بطرف هذا المحرك ذيل النطفة القوة التي ينتجها المحرك تدور الذيل كالمروحة ، وتؤمّن للنطفة قطع الطريق بسرعة ، ولوجود هذا المحرك لا بد من وقود لتشغيله ، وقد حسبت هذه الحاجة أيضاً فركّب له وقود أكثر اقتصاداً ، وأكثر فعالية ، وهو سكر الفلكتوز على السائل، وهذه النطف مأخوذة بمنظار حقيقي تمشي باتجاه البويضة .

في اللقاء الزوجي أستاذ علاء 300 مليون حوين ، إلى 500 مليون ، ويسير بسرعة فائقة كهذا الزورق تماماً ، هناك في خصية الرجل أقنية مجهرية يصل طولها إلى 500 م ، هذه الأقنية تنتج هذه

النطف .

أقسام النطفة من درع ومحرك وذيل تركب مع بعضها على الترتيب ، وفي النهاية تظهر روعة الهندسة الكاملة .

علينا التفكير ولو قليلاً في هذه الحقيقة ، تركيب النطفة كهذا المعمل تماماً على أساس خط سير .

أسئلة كثيرة لها جوابٌ واحدٌ :

كيف عرفت الخلايا التي لا وعي لها طريقة تجهيز النطفة بشكل يتناسب مع جسم الأم رغم جهلها بها تماماً ؟

كيف تعلمت النطف صنع الدرع المحرك ، والذيل بحسب حاجة جسم المرأة ؟

هذه صورة موضحة لطريقة صنع النطفة في الخصية ، وهذه النطف تبقى في الخصية من دون فعالية، فإذا خرجت أصبحت فعالة .

بأي عقل تترتب هذه القطع بالترتيب الصحيح ؟

من أين تتعلم النطف أنها ستحتاج إلى سكر الفلكتوز ؟

كيف تعلمت صنع محرك يعمل بسكر الفلكتوز ؟

هناك جواب واحد فقط لكل هذه الأسئلة : النطف والسائل المركب داخلها خلقه الله عز وجل بشكل خاص لاستمرار نسل الإنسان .

هناك حقيقة دقيقة جداً قالها بعض العلماء الكبار في علم الأجنة : " النطفة منتجة بجسم الأب ، أما مهماتها فلا تتحقق إلا في جسم الأم ، ولا تملك أي نطفة في تاريخ البشرية العودة إلى جسم الأب مرة أخرى كي تعلم معامل النطاف ماذا رأت في جسم المرأة " ، كل خصائصها متعلقة بجسم المرأة ، ماذا يستنبط من ذلك ؟ أن هناك جهة ثالثة هي الخالق ، لأن هذه النطفة خرجت ولم تعد ، هي مصممة بجسم المرأة ، إذاً ما الذي أعلم معامل النطاف في جسم الرجل باحتياجات الرجل في جسم المرأة ؟ الله جل جلاله .

مرة ثانية :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

النطفة بين الأحداث والاحتياطات :

الحقيقة هناك أحداث تواجه النطفة في جسم المرأة ، وهناك احتياطيات ، يعني هذه النطفة ينبغي أن تثقب البويضة معها أجهزة ميكانيكية للثقب ، ومعها أجهزة كيميائية ، هي مصممة كي تدخل إلى النطفة ، مَن علّم هذه النطفة أنه ستواجه بويضة لها جدا لا بد من ثقبها ، ولا بد من مادة مذيبة بثقبها ؟ وهذا له معنى كبير ، أن العبرة بالواحد لا بالكثرة .

أحياناً الأمة تنهض بالعباقرة ، بالمخلصين ، بالمتفوقين ، لذلك نحن نحرص على المتفوقين ، ونمنع أن يأخذهم أعداءنا ، رعاية المتفوقين شيء مهم جداً .

عندنا عالم اجتماعي اسمه (كوس منعكس)كل حظوظ الإنسان 90 % وسط ، عبروا عنها بمئة درجة ، و5 % ، 140 ، و5% ، 80 ، ففي كل حظوظ الإنسان الذكاء ، والوسامة ، وسرعة التفكير، والإدراك ، هناك تفوق 5% الذين يغيرون مجرى الحياة الـ5% هؤلاء فالعناية بالمتفوقين مطلب أساسي في حياتنا .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (31-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت ـ خلق الإنسان النطفة واتحادها مع البويضة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-06-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير :

سيدي الكريم ، تحدثنا في حلقات سابقة ، وأنا في كل بداية حلقة أحاول أن أجمل بعض العناوين التي تحدثنا فيها منذ بداية هذا البرنامج ، تحدثنا عن مقومات التكليف ، وكانت على التوالي : الكون ـ العقل ـ الفطر ـ الشهوة ـ ثم الاختيار ـ فالشرع ـ فالوقت ـ .

1 – الشهوة :

وتوقفنا ملياً عند كل محطة حتى وصلنا عند الشهوة ، وأفردنا للشهوة أربع حلقات ، وذكرنا أن الشهوة كما تفضلتم هي قوة كامنة ، هذه القوة الكامنة إما أن ترفع بالمرء إلى المراتب العلية إذا استخدمت الاستخدام الصحيح والسليم .

إن قوة انفجار البنزين في المحرك إذا كان البنزينُ ضمن الأنابيب المخصصة ينتج عنها حركة السيارة، وبالتالي ينتج عنها النقل والانتقال بشكل آنٍ ومريح ، ولو كان هذا الانفجار خارج أنابيب ، وخارج السلنديرات ، وخارج البسطونات إن صح التعبير ، وخارج المفحم السيارة لانقلب إلى حريق أحرق ، وكارثة ألمت وأخذت مَن حولها .

كذلك الشهوة عندما تنفجر دونما قيود ، ودونما ضوابط تجرف صاحبها ، وتنهي حياته ، وتنهي مكانته.

2 – العدالة:

وتحدثنا عن العدالة ، العدالة التي فيها الميزان والدقة والنظر للإنسان ، كيف أنها تذهب هذه العدالة ، وتسقط بتصرفات معينة ، فإما أن تخرم ، أو أن تخدش ، أو أن تجرح هذه العدالة بتصرفات ، فإذا ما انخلع عنها الإنسان ، أو تجنبها عادت العدالة إلى وضعها السوي .

لكن سيدي الكريم الآن ، إنسان آثر أن يتبع شهوته ، وآثر أن ينجرف وراءها ، وآثر أن يركض ، ويحلق وراء خيالاتها ، الله ماذا يفعل بالعبد إذا اختار هذا الطريق ؟
الدكتور راتب :

ما مصيرُ العبدِ إذا اختار طريق الانجراف مع الشهوة ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – لم يُخلَق الإنسان من أجل العذاب :

أستاذ علاء ، بادئ ذي بدء : هناك وهم عند بعض الناس أن الله خلق الإنسان ليعذبه ، والحقيقة عكس ذلك الله عز وجل يقول :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ)

(سورة البقرة الآية : 221)

خُلقنا للجنة ، خُلقنا ليرحمنا ، خُلقنا ليسعدنا ، لكن الذي يشقينا هو الجهل ، والجهل أعدا أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

الحقيقة أن الله عز وجل في بعض الآيات الكريمة قال :

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية : 119)

خلقهم ليرحمهم ، والآية التي أمامنا :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(سورة البقرة)

وفي آية أخرى :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس الآية : 25)

يدعوك الله إلى سلام مع نفسك ، وإلى سلام مع من حولك ، وإلى سلام مع ربك ،

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة يونس)

والإنسان مخير ، إذاً : الأصل أن الإنسان مخلوق للسعادة في الدنيا والآخرة .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

العذاب غير مقصود ، تماماً لو أسسنا مدرسة رائعة جداً ، فيها كل الوسائل الفعالة ، أما حينما يقصر الطالب ، وحينما لا يؤدي واجباته يعاقب ، فإذا قال هذا الطالب الغبي : إن هذا البناء أنشئ كي يعذلنا ، هو أنشئ كي يخرج قادة للأمة ، كي يتعلم الطالب ، كي يتربى كي يتهذب .

إذاً : القصد من خلق الإنسان إسعاده ، الأصل السعادة ، والعذاب طارئ ، طارئ وعلاج مؤقت .

2 – خيار الإنسان مع الإيمان خيارُ وقتٍ :

كما تفضلتم قبل قليل ، لو أن الإنسان آثر شهوته ، لكن قبل أن نتابع هذا الموضوع هناك موضوع دقيق جداً ، نحن بعد حين سوف نصل إلى أن الإنسان مخير ، لكن أؤكد لك أستاذ علاء وللإخوة المشاهدين أن الإنسان مخير في ملايين الموضوعات خيار قبول أو رفض ، قد تعرض عليه تجارة فلا يرى منها جدوى كبير ، فيخطب فتاةً فلا تعجبه أخلاقها قد يرى بيتاً يراه ضيقاً ، وبمنطقة ليست جيدة ، وسعره غالي ، أنت مع مليون موضوع في الحياة معك خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان الخيار خيار وقت ، خيار الإنسان كما هو على الشاشة مع الإيمان خيار وقت ليس غير ، فإما أن تؤمن في الوقت المناسب ، وتنتفع بإيمانك ، فتسلم وتسعد في الدنيا والآخرة ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان ، عندئذٍ :

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

(سورة الأنعام)

أنا مؤمن أشد الإيمان أن كل إنسان حينما يأتيه ملك الموت يكشف الحقائق التي جاء بها الأنبياء عبر التاريخ .

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

فرعونُ صورةٌ من واقع الإيمان بعد فوات الأوان :

الحقيقة تكشف للجميع ، ولكن بعد فوات الأوان ، وأكبر دليل على ذلك فرعون ، وهذه صورته على الشاشة ، هذا أكفر كفار الأرض ، الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

والذي قتل أبناء بني إسرائيل ، واستحيى نساءهم ، وفعل ما فعل ، وظلم ، وتجبر .

وبالمناسبة : ولكل عصر فرعون ، هذا فرعون حينما أدركه الغرق ماذا قال ؟ الآية :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فرعون أسلم ، لكن بعد فوات الأوان ، الله عز وجل قال :

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس)

أستاذ علاء ، رجل من كبار علماء الرياضيات في أمريكا ، اسمه جفري لانك ، أستاذ رياضيات في جامعة سان فرانسيسكو ، والقصة ذكرتها مختصرة سابقاً ، جاءته فتاة شرق أوسطية محجبة حجابا كاملا ، وتحضّر دكتوراه في الرياضيات ، أرسلها إليه أستاذه في قضية عويصة في الرياضيات ، يقول جفري لانك : لما نظرت إلى هذه الفتاة شعرت أنها قديسة ، لأنها محجبة ، ونساء أمريكا في الصيف شبه عرايا ، قدرت علمها ، وقدرت عقيدتها ، ودون أن أشعر وجدت نفسي أني بحاجة أن أقدم إليها أي خدمة ، وله كلمة رائعة : ولم أجرؤ أن أحدق في وجهها ، وعكفت من توي على قراءة القرآن ، قرأ القرآن ، وصل إلى آية ، وكأنه عثر على خطيئة في هذا الكتاب السماوي هي الآية التالية :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

له صديق حميم اسمه موريس بوكاي ، وله مشرحة في باريس اتصل به ، وقد ألف كتاب حول تطابق العلم مع الكتب المقدسة ، على كلٍ قال له : كيف يقول القرآن :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

وقد غرق ؟ فقال له ، وكأنها صاعقة نزلت على رأسه ، قال له : فرعون الذي جاء ذكره في القرآن رممت جثته بيدي ، في مشرحة باريس ، وسوف نري الإخوة الكرام مرة ثانية صورة فرعون ، هذا فرعون هو الذي غرق ، وآثار الملح في فمه ، ورممه موريس بوكاي مدير مشرحة باريس ، الله عز وجل قال :

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

وعندما أدركه الغرق قال :

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

الله أجابه فقال :

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

أي الإيمان الآن لا ينفعك .

إذاً : أنا أريد أن أقول خيار الإنسان مع الإيمان ليس خيار قبول أن رفض ، كأي شيء آخر ، خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط .

الأستاذ علاء :

من هنا نتبين حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

((ما لم يغرغر))

[أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة وابن حبان ، عن ابن عمر]

فإما أن يؤمن في الوقت المناسب ، وينتفع بإيمانه ، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان ، الإيمان حاصل ،

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

الآن نعود إلى موضوع هذا اللقاء الطيب .

مثلما قالت العرب : لات ساعة مندم ، يعني الندم لم يعد ينفع ، والإيمان في هذا الوضع في هذا الوقت لم يعد ينفع .

الدكتور راتب :

ولات ساعة مندَم :

لي تعليق بهذه المناسبة :

الإنسان أحياناً يرتكب جريمة قتل ، ويحال إلى المحكمة ، محكمة الجزاء تصدر قرارا بإعدامه ، القرار يرفع إلى محكمة النقض ، يصدق ، يرفع إلى رئاسة الجمهورية ، يصدق ، يحدد يوم لإعدامه ، يساق إلى المشنقة ، هذا الإنسان وصل إلى طريق مسدود ، له أن يبكي ، وله أن يضحك ، وله أن يتماسك ، وله أن يترجى ، وله ألا يرجو أحداً ، مهما فعل فلا بد من أن يعدم ، فقد وصل إلى طريق مسدود ، لذلك لا يفيد لا الألم ، ولا الحزن ، ولا التجلي ، ولا الأكل ، ولا الضحك الهستيري ، أي شيء يفعله لا بد من أن يُعدم ، يعني وصل إلى طريق مسدود .

التوبة التوْبة قبل فوات الأوان :

أنا الذي أتمناه على كل أخ كريم ألا يصل مع الله إلى طريق مسدود ، ما دام القلب ينبض فالأمل كبير.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي ، وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية : 53)

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 27)

(اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)

(سورة البقرة الآية : 222)

بل إنّ أبلغ صورة للتائب هذا الأعرابي الذي ركب ناقته يقطع بها الصحراء ، وعلى ناقته طعامه وشرابه ، جلس ليستريح ، فأخذته سنة من النوم ، استيقظ فلم يرَ الناقة ، فأيقن بالموت المحقق ، وبكى، وبكى ، وبكى ، حتى نام ثانية ، فأفاق فرأى الناقة أمامه فاختل توازنه ، قال : يا رب أنا ربك ، وأنت عبدي ، علق النبي على هذه الكلمة قال : لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته .

إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض ، أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

إذا رجع العبد إلى الله قبل الله توبة ، وأنسى حافظيه ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه ، التائب حبيب الله ، ما دام القلب ينبض ، فإذا توقف القلب أغلق باب التوبة ، عندئذٍ كفرعون ،

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

والله مرة قرأت أدعية أربعة في كتاب تركت في نفسي أثراً كبيراً :

اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك .

اللهم إني أعوذ بك أن أتزين بشيء يشينني عندك .

اللهم إني أعوذ أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحد سواك .

اللهم أعوذ بك أن يكون أحد أسعد مما علمتني مني .

أي أنا أعلم الناس ، أوضح ، أبين ، أحلل ، أعمق ، ولا أطبق ، ويأتي من طبق ، وسمع يسبقني يوم القيامة ، أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني .

لذلك الدعاء المناسب : اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك .

الإنسان إما أن يستجيب ، وكأنه جالس في مقعد في مسرحية ، يرى على خشبة المسرح ما يرى ، أما إن لم يستجب فلا بد من أن يجر إلى خشبة المسرح ، وتكون له مشكلة كبيرة ، ويكون عبرة للمشاهدين، نسأل الله أن يكون لنا مقعد مع المشاهدين فقط ، لا أن نجر إلى خشبة المسرح .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الكريم ، كما تفضلت الإنسان آثر الشهوة ، والله عز وجل له طريقة في التعامل مع هذا الإنسان ، كما قلت بأن مسألة ملايين القضايا للإنسان له أن يقبل ، أو أن يرفض ، إلا مسألة الإيمان فهي مسألة وقتية ، إما أن يقبلها في الوقت المناسب ، وإما أن يجيء بها بعد فوات الأوان .

الدكتور راتب :

الرافضُ للإيمان يحتقر نفسَه ، وينزل بها عن مستوى البهيمة :

هنا تعليق آخر ، التعليق الآخر : أنت حينما ترفض شيئاً ترفضه احتقاراً ، قد ترفض عملا ، تجارة ، سفرا ، زواجا ، تحتقر هذا الذي عُرض عليك ، إلا مع الإيمان حينما ترفض الإيمان ، أو حينما يرفض الإنسان الإيمان ، إنما يحتقر نفسه .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

لكن الإنسان حينما يرفض أن يؤمن بخالقه ، وأن ينصاع لمنهجه ، وأن يسلم بطاعته ، وأن يسعد بقربه، حينما يرفض هذا هبط مستواه عن مستوى يليق به ، أصبح كالدابة ، إنهم :

(كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

(سورة الجمعة الآية : 5)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف الآية : 176)

(كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون الآية : 4)

الإنسان إذا لم يبحث عن ربه ، وعن منهج ربه ، ولن يتقرب إلى ربه ، هبط عن مستوى إنسانيته ، لذلك ركب الإنسان من عقل وشهوة ، ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، والإنسان ركب من كليهما ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

كيف يعالج الله من آثر الشهوة الحرام ؟!

الآن أستاذ علاء ، الإنسان آثر الشهوة ، ولم يعبأ بمنهج الله ، بل آثر الجانب المحرم منها ، لأنه ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً ، في الإسلام تنظيم ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، لكنه آثر الشهوة ، فكيف يعالجه الله عز وجل ، الله عز وجل لطيف ، ورحيم .

المرحلة الأولى : الهداية البيانية :

أول مرحلة يخضع لها الهداية البيانية ، أنت صحيح ، معافى ، قوي ، شاب ، لك زوجة ، أولاد ، تستمع إلى خطبة في مسجد ، إلى ندوة في التلفزيون ، تقرأ كتابًا ، تسمع شريطًا ، تتابع مناظرة ، الدعوة البيانية تكفل الله بها .

(إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وحيثما جاءت كلمة (على)مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي ،

(إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

بل لئلا نقلق على أحد يقول الله عز وجل مطمئناً لنا :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

لو في الإنسان واحد بالمليار من الخير لأسمعه الحق ، هذا تكفل الله به ، هذا هو الإلزام الذاتي ،

(إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

الله عز وجل تولى هداية الخلق ، المنهج أمامنا الكون يدله على الله ، والقرآن يدله على الله ، والأحداث تدله على الله ، والتربية النفسية كذلك ، الله أرسل أنبياء ، وبعث مرسلين ، وأنزل كتبًا ، وهناك دعاة ،

الهدى مبذول ، هناك من يقول : حتى يهديني الله ، الله عز وجل هداك ، وانتهى الأمر ، عليك أن تستقبل هذا البث من جهاز الاستقبال ، البث قائم ، الهداية قائمة ، فلو أن إنسانا آثر شهوته ، ولم يعبأ بمنهج ربه عالجه الله بالهداية البيانية .

الآن مع مثل دقيق جداً :

أنت مدير شركة ، وعندك رغبة أن تعين موظفًا ، تعلن في الصحف عن حاجتك إلى موظف ، تختار واحدًا من هؤلاء ، تخضعه للتجريب ستة أشهر ، دور مدير المؤسسة أن يحصي على هذا الموظف الجديد أخطاءه فقط ، تأخر ، فعل ، لكن لو أن ابنك أمامه فهذا موضوع آخر ، قلب ، رحمه ، تتابعه على كل خطأ ، أول خطأ يرتكبه ، تعال يا بني ، هذا خطأ صوابه كذا ، الرحمة تقتضي التربية ، كنظام مؤسسة ، فيها تجريب ستة أشهر ، إنْ كانت أخطاءه كثيرة صرفناه ، أما إن كان هذا الموظف ابنك فأنت حريص على نجاحه في العمل .

هذا موضوع متابعة ، الله عز وجل رحيم بنا ، إن اتخذنا قراراً سليماً لمصلحتنا ، ولمصلحة مستقبلنا الأخروي ، الله عز وجل ملء قلبنا انشراحاً .

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

وإذا اتخذ الإنسان قراراً خاطئاً تأتي معالجة الله عز وجل ، المعالجة تأتي بهذه الآية :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ)

في قرآنه .

(وَلِلرَّسُولِ)

في سنته .

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

يعني إذا دعاكم إلى الحياة التي تليق بكم ، إلى الحياة التي خلقتم من أجلها ، إلى حياة القيم ، إلى حياة القلب ، إلى حياة الاتصال بالله ، إلى حياة البطولة ، إلى حياة التضحية ، إلى حياة أن تكون علماً من أعلام الدين ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

الآن :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

أنت على خطيين لا ثالث لهما ، إما أن تستجيب لله عز وجل ، وإما أن يستجيب الإنسان لهواه ، عقل وشهوة ، مبدأ وشهوة ، هدف بعيد ، ومغنم قريب ، هذه هو الخيار الصعب للإنسان ، فحينما يختار هدفاً بعيدا ، ويختار السعادة الأبدية يفلح .

تماماً كالطالب بين أن يلعب مع أصدقائه وبين أن يدرس ، الدراسة متعبة جداً ، لكن أمامه مستقبل ، قد يكون طبيباً ، مهندساً بعمل متألق ، يشتري بيتًا ، يتزوج ، يقتني مركبة ، فهو حينما يقبل على الدراسة بذهنه تكون هذه النتائج الطيبة .

مرة سألوا طالبًا حقق الدرجة الأولى في الثانوية في الفرع العلمي ، سأله المحاور بالصحيفة : ما سر نجاحك ؟ قال : لأن ساعة الامتحان لم تغادر مخيلتي ولا ثانية ، إذاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

هذه المرحلة مرحلة الهدى البياني ، وأنت صحيح معافى ، تحتاج إلى أن تستجيب لله عز وجل ، وسوف نكمل هذه في الحلقة القادمة إن شاء الله .

الأستاذ علاء :

بقي في محطتنا المحطة العلمية ، ماذا اخترت لنا سيدي اليوم ؟

الدكتور راتب :

خَلْقُ الإنسان : مع البويضة والنطفة :

نحن اخترنا (فيلماً)تصويرا لخلق الإنسان ، هذا يحتاج إلى خمس حلقات ، عرضنا حلقتين في اللقاء السابق ، في النهاية تستطيع مئات النطف الوصول إلى البويضة ، غير أنه لم ينتهِ السباق حتى الآن ، فلا تقبل البويضة إلا نطفة واحدة فقط ، ولهذا يبدأ السباق الجديد .

عائقان أمام النطفة وطريقُ اجتيازهما بسلام :

هناك عائقان مهمان جداً أمام النطف :

العائق الأول : الطبقة الحامية التي أشير لها .

والعائق الثاني : القشرة المتينة للبويضة .

خُلق في النطفة أنظمة خاصة لاجتياز هذين العائقين ، فهناك الأسلحة المخفية التي خبأتها النطف تحت طرف الدرع الصلب وقد ظهرت إلى هذه اللحظة ، إنها أكياس الأنزيم المذوبة ، هذه الأكياس ستثقب العائق الأول التي على أطراف الأول ، أي الطبقة الحامية لإذابتها ، فعندما تجتاز النطفة هذه الطبقة ،

وتتقدم فيها يتآكل درعها شيئاً فشيئاً كما يرى ، ثم يتفتت ويتبعثر ، إما تفتت الدرع ، هذا هو جزء من الخطة الكاملة الواجبة التنفيذ ، لأنه بفضل هذا التفتت ستبدأ أكياس الأنزيم الثانية الموجودة داخل النطفة للظهور ، وهذا يؤمّن اجتياز آخر عائق يواجه النطفة ، ألا وهو ثقب قشرة البويضة ، هذه الصورة أخذت من مجهر إلكتروني .

والآن تشاهدون هذه الأحداث من خلال صور الملتقطة على المجهر الإلكتروني ، فللنطفة درع أحمر يذوب تدريجياً ، وتجتاز النطفة قشرة البويضة إلى الداخل ، اتحاد النطفة والبويضة غير محصور بهذا فقط ، ففي لحظة وصول النطفة إلى قشرة البويضة تتحقق معجزة أخرى ، فجأة تدخل النطفة بنفسها تاركة وراءها ذيلها الذي أوصلها إلى هنا ، وهذا مهم جداً ، لأنها إن لم تقم النطفة بهذا العمل فيدخل الذيل المتحرك إلى خلية البويضة كما نرى ويخربها .

إن تخلي النطفة عن ذيلها يشبه عمليات مكوك الفضاء ، والصاروخ الدافع له ، حيث يتخلى المكوك عن المحركات ، وخزانات الوقود والطاقة ، عندها لم يكن لها حاجة في أثناء انفصاله عن الغلاف الجوي ، الذي يجري في الفضاء تماماً يجري في هذه النطفة حينما تدع ذيلها وتدخل .

كيف تكون نطفة صغيرة بهذا الحساب الدقيق كله ، بقيام النطفة بهذا الحساب عليها أن تعرف أنها وصلت إلى آخر الطريق ، وأنها لم تعد بحاجة إلى الذيل بعد الآن ، غير أن النطفة جهاز بيولوجي لا تشعر بما حولها ، ولا تملك أي عقل أو أي علم ، الخالق سبحانه وتعالى نسق فيها أيضاً نظاماً دقيقاً يحقق انعزال الذيل عنها في الوقت الصحيح والمناسب ، تقوم النطفة التي تركت ذيلها خارجاً بثقب البويضة ، وتصنع فيها الصبغيات من خلال ذلك الثقب .

هكذا يتم المعلومات الوراثية ، ونتيجة عمل مئات الأنظمة المختلفة المستقلة بعضها عن بعض بنظام متناسق ، تم إيصال المعلومة الوراثية العائدة لجسم الرجل إلى البويضة في جسم المرأة ، وكما نرى لا مكان لأية مصادفة في اتحاد النطفة مع البويضة ، بل تحقق ذلك بفضل تصميم وخطة كافيتين ، هذه الحوادث التي تحققت دون أن يدركها الإنسان ، وهذا الدقيق لكل مرحلة من هذه المراحل ، إنما هي دلائل واضحة على عظمة الله جل جلاله .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (32-95) - مقومات التكليف : الشهوة - خيرة الأمة والدعوة البيانية والتأديب التربوي - خلق الإنسان المورثات
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-06-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

في الحلقة الماضية توقفنا عند مسألة كنا قد أشبعنا منها هي مسألة الشهوة كمقوم من مقومات التكليف ، وقلنا : إن الإنسان الله عز وجل أعطاه من العقل ، أعطاه من الاختيار أعطاه ، لكن آثر الإنسان أن يتبع طريق الشهوة لعدم انضباطيتها ، وبجنوح الشهوة وبارتكاب المعاصي .

الله عز وجل تبنى في الكثير من الآيات الهدى المبسوط أمام الناس الله عز وجل ، قدم الهدى البياني للناس ، وأملأ هذه المساحة بكل البيانات أمام الإنسان ، ومع ذلك جاء الإنسان لينحرف ، وليتبع الشهوة، هل من مرحلة أخرى لتربية القرآن في تربية الله عز وجل لتنبيه هذا العبد ، وللعودة به إلى الصراط ؟

الدكتور راتب :

تعقيب على مرحلة الدعوة البيانية : علّة خيرية الأمة :

هناك مرحلة أخرى ، ولكن لا بد من تعقيب على المرحلة الأولى ، الحقيقة أن الإنسان في المرحلة الأولى مرحلة الهدى البياني ينبغي أن يستجيب ، فإن لم يستجب ، أو فإن لم تستجب الأمة بأكملها خرجت من قوله تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

هذه الخيرية مقيدة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، لذلك العلماء قسموا أمة الله إلى أمتين ، أمة الاستجابة التي هي بفضل هذه الدعوة السماوية خير أمة أخرجت للناس ، والذين لم يستجيبوا سموا أمة التبليغ ، وليس لها آية ميزة إطلاقاً .

لذلك هؤلاء الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباءه دعوة رد الله عليهم :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

وإذا ادعى المسلمون أنهم خير أمة ، ولم يطبقوا منهج الله إطلاقاً ، ولم يعبئوا بهذا الوحي العظيم ، إذاً: أصبح الجواب لهم كالجواب الأول : قل فلم نعذب بذنوبنا ، بل نحن بشر ممن خلق الله عز وجل .

ودائماً وأبداً الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح .

الأستاذ علاء :

اسمح لي سيدي بالنسبة ،

(خَيْرَ أُمَّةٍ)

هل هذه الآية تخص المجتمع النبوي ، أم هذه مستمرة ؟

الدكتور راتب :

هل هذه الآية خاصة بالمجتمع النبوي أم عامة للمسلمين ؟

بل مستمرة ، لأن في الحديث :

((مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ))

[رواه الترمذي عن أنس]

((الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة))

[ورد في الأثر]

هذه الأمة اختارها الله لتكون أمة وسطا ، أي وسيطة بين الله وبين خلقه ، فإن أدت هذه المهمة كانت خير أمة ، وإن قصرت ، وتولى أقوام آخرون أن يؤدوا هذه المهمة كانوا خيراً منهم ، العلماء قالوا عنها : كنتم بمعنى أصبحتم ، يعني بهذه الرسالة السماوية التي خص بها العرب أصبح العرب خيرة أمة أخرجت للناس بشرط أن يستجيبوا ـ بالمقيدات ـ فإن لم يستجيبوا أصبحوا أمة كأية أمة شردت عن الله عز وجل ، وتعامل كأية أمة أخرى .

الآن إما أن نستجيب ، وإما أننا فقدنا خيريتنا ، فلا داعي أن يقول المسلم الذي لا يطبق منهج الله : نحن أمة عظيمة ، هذا كلام فارغ ، نحن أمة كأية أمة خلقها الله عز وجل ، أما إذا طبقنا منهج الله ، وحملنا هم الأمم والشعوب ، وسمح الله لنا أن نكون قادة للأمم ، بعد أن كنا رعاة للغنم ، يمكن أن نستعيد الآن دورنا ، بأن نلتفت إلى منهج ربنا ، وإلى هذين الوحيين الذين ارتقينا بهما ، لذلك سيدنا عمر قال : << الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله >> .

الموقف الكامل من مرحلة الدعوة البيانية :

هذه المرحلة الموقف الكامل منها أن نستجيب لله عز وجل ، فإن لم نستجب فلا قيمة لهذه الميزة . الآن :

(لِمَا يُحْيِيكُمْ)

الحياة التي تليق بكم ، الحياة التي خلقتم لها ، حياة القلب حياة المبادئ ، حياة القيم ، حياة أداء الرسالة ، حياة أداء التكليف ، حياة أن يخرج الإنسان من ذاته لخدمة الآخرين ، حياة أن يكون بطلاً . بالضبط كإنسان مريض معه التهاب معدة حاد ، زار طبيب من أشهر الأطباء ، قال له : هناك طريقان للشفاء ، إما أن تلتزم حمية قاسية ، وأنا أعدك أن هذه القرحة تشفى ، وإلا لا بد من عمل جراحي . فالله عز وجل بدأ بالهدى البياني ، دعوة هادئة ، دعوة سليمة ، أنت صحيح معافى ، مرتاح ، دخلك يكفيك ، عندك زوجة وأولاد ، كل شيء عندك ، وأنت ما عندك ولا مشكلة ، لكن بحثت عن الحقيقة ووصلت إليها .

لذلك عندنا ملاحظة دقيقة : أن العبيد غير العباد ، العبيد جمع عبد ، والعباد جمع عبد ، لكن العبيد جمع عبد القهر ، بينما العباد جمع عبد الشكر .

فكل إنسان ولو كان أكفر كفار الأرض متعلق بقاءه بعناية الله به ، القلب يقف فجأة ، خثرة في الدماغ تسد بعض الشرايين ، يفقد الإنسان سمعه أو بصره ، أو ذاكرته ، أو حركته ، فالإنسان تحت رحمة الله، والإنسان كل مكانته منوطة بشريان قلبه التاجي ، ميلي وربع ، الشريان الذي يغذي القلب ، وكل حركته ، ومكانته ، وهيمنته ، وقوته ، وفرعنته ، كما تكلمنا في الحلقة السابقة سببها سيولة دمه ، فإذا تجمد الدم فقد معظم حركته ، وكل مكانته نمو خلايا إذا نمت نمواً عشوائياً أصيب بالسرطان ، الإنسان ضعيف أمام الله عز وجل ، فالمقهور اسمه عبد القهر ، جمع عبد القهر عبيد .

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

أما الذي عرف الله وهو معافى وسليم ، بمبادرة منه ، بإقبال منه ، بمحبة لربه هذا عبد الشكر ، جمعه عباد .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان الآية : 63)

الأستاذ علاء :

يعني هذا الذي استجاب للهدى البياني .

الدكتور راتب :

وأكمل موقف أن نستجيب للهدى البياني .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

يقول الله عز وجل :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء الآية : 77)

إذاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

ما استجاب .

من مراحل معالجة الله للعبد المخالف لشرعه :

المرحلة الثانية : التأديب التربوي :

يقول الله عز وجل :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

لأن الإنسان حينما لا يستجيب لا بد من الشدة .

((عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة أبو نعيم ، عن أبي هريرة]

تأتيه الشدائد ، تأتيه المكاره ، يُضيق عليه ، يصاب بهم ، بحزن ، بقلق ، هذا كله دفع إلى الله عز وجل.

إذاً : إما أن نأتيه طائعين بمبادرة منا ، بمحبة عالية جداً ، أو أن يسوقنا الله إلى بابه سوقاً ، ونحن إذا استجبنا أيضاً فائزون ، لكن الموقف الأول أكمل ، الصفوة يأتون إلى الله طواعية .

((نِعْمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ : لَوْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ ، لَمْ يَعْصِهِ))

[ورد في الأثر]

هؤلاء بأعلى مستوى :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(سورة الواقعة)

لكن الإنسان أحياناً يضعف ، فيخضعه الله لمعالجة قد تكون مؤلمة ، الدواء مر دائماً .

المرحلة الثانية مرحلة التأديب التربوي ،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

الأستاذ علاء :

العذاب الأدنى هل هو المقصود هو عذاب الدنيا ؟

الدكتور راتب :

معنى : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى

طبعاً المقصود عذاب الحياة الدنيا ، لأن الإنسان في الدنيا ، في الدنيا مرحلة دراسة ، مرحلة إعداد للآخرة ، فإذا قصر .

يقول لك طالب : أنا لا أؤذي أحدًا ، لكن لا تدرس ، هناك مقولة شائعة ، أنا لا أؤذي أحدًا ، طبعاً لا يلتزم بشيء من الدين ، وقد يكون عنده عقيدة سيئة جداً ، لكن يدعي أنه لا يؤذي أحداً ، هذا كلام غير مقبول ، الأب لا يقبل من ابنه ألا يؤذي إخوته ، وهو كسول ، لا بد من أن يسوق له بعض الشدائد ، كي تدفعه إلى طاعة الله عز وجل ، كي تدفعه إلى باب الله ، كي يذوق طعم القرب من الله .

الإنسان عدو ما يجهل ، إنسان ما أكل في حياته إلا الدبس ، فإذا أقسم أنه أطيب أكلة على الإطلاق فهو صادق ، لو أنه ذاق العسل يغير موقفه .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

(سورة هود الآية : 88)

الأمور واضحة جداً ، في الإيمان ميزة قد لا ننتبه إليها ، ما عندك مشكلة إيديولوجية .

هناك رجل أذكر قصته دائماً ، رئيس وزارة فرنسي انتحر ، مئة صحفي حاولوا أن يحللوا سبب انتحاره ، من أرقى عوائل باريس ، لم يرتكب أي مخالفة ، لا مالية ، ولا أخلاقية ، وانتحر ، إلا صحفي واحد كشف السر ، هو كان يعتقد أنه لا إله ، في السبعين رأى أنه أمضى حياته في عقيدة غير صحيحة ، احتقر نفسه ، وأنهى حياته بهذه الطريقة .

المؤمن قدم الله له تفسيرا عميقا ودقيقا ومتناسقا لحقيقة الكون ، والحياة والإنسان ، عنده جواب لكل سؤال ، عنده عقيدة منسقة عميقة دقيقة ، فما عنده مفاجئات ، بل المؤمن وقد قرأ القرآن الكريم ما عنده حدث لا يفسر ، كل ما يجري في الحياة له إشارة في القرآن الكريم .

الموقف الكامل من التأديب التربوي : التوبة :

إذاً هذه مرحلة أكمل موقف فيها التوبة ، أكمل موقف بالأولى الاستجابة ، الآن دخل أخضعه الله لمرحلة أقسى ، في تأديب تربوي ، في خوف ، في قلق ، في مرض أحياناً والآية الكريمة واضحة جداً:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

إذاً : هذه مرحلة ثانية أكمل شيء فيها التوبة ، لذلك في إشارة دقيقة بالقرآن الكريم بعد أن ذكر الله لنا قصة أصحاب الجنة الذين منعوا حق الفقير :

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

(سورة القلم)

يقول الله في نهاية القصة :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم الآية : 33)

يا عبادي ، أي عذاب أسوقه لكم في الدنيا من هذا النوع ، عذاب تربية ، عذاب دفع إلى بابي ، عذاب دفع إلى التوبة ، عذاب دفع إلى أسباب السعادة والسلامة ،

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أستاذ علاء ، إذا حميت المكواة تمتحن حرارتها ، تضع شيئًا من اللعاب على أقل مساحة بالإصبع ، وتضع الإصبع بأقل زمن ، هذا المس .

نحن في الدنيا العذاب يمسنا مساً ، بهذه الطريقة ، أقل مساحة ، وأقصر وقت ، هذا المس ، وهو شيء لا يحتمل ، فكيف إذا كان الشيء كبيراً ؟!!!

أنا أذكر في بلد عربي حدث زلزال ، لي قريب هناك ، المرأة من شدة الخوف حملت ابنها الوحيد الوليد ، وانطلقت به إلى خارج البيت ، اكتشفت في الطريق أنه ليس وليدها ، بل حذاء زوجها .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

(سورة الحج)

إذاً : في الدنيا العذاب يمسنا مساً ، تنبيهاً لنا ، تذكيراً ، بل إن الله عز وجل يقول :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة القصص الآية : 47)

(لَقَالُوا)

يوم القيامة :

(رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

معنى ذلك المصائب رسالات من الله عز وجل ، ولولا أن هذه المصائب لم تكن لكان الله ملوماً يوم القيامة .

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

هذه المرحلة الثانية ، وفيها إطار :

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 156)

هؤلاء نجحوا ، إذاً المرحلة الثانية التأديب التربوي .

المرحلة الثالثة : الإكرام الاستدراجي :

أما الثالثة هي الإكرام الاستدراجي ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ)

(سورة الأعراف الآية : 95)

الآن عندنا معالجة ثالثة ، هي سهلة ، لكنها خطيرة ، يعطينا الدنيا ، خذوا من الدنيا ما شئتم ، خذوا الأموال ، والأولاد ، والمكانة ، والشهوات ، واللذائذ ، إن لم نشكر فقد رسبنا في هذه المرحلة ، انزلقنا إلى الكفر ، أخطر شيء أن يمدك الله بكل شيء ، وأنت في معصية ، هذا أخطر شيء ، هذه الثالثة ، لا بالدعوة البيانية استجاب ، ولا بالتأديب التربوي تاب ، ليكن المعالجة الثالثة إكرام استدراجي .

الموقف الكامل من الإكرام الاستدراجي :

في هذه الحالة الإنسان عليه أن يشكر ، وأن يستحي من الله .

((عبدي كبرت سنك ، وضعف بصرك ، وانحنى ظهرك ، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا استحي منك))

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول
تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيــع

***

فالإكرام الاستدراجي خطير جداً ، هو خفيف على النفس ، لكن وراءه عقوبة كبيرة جداً .

فالإنسان إذا كان الله يمده بما يشتهي ، وهو على معصيته ، وهو يجاهر في معصيته ، فليرتقب قصماً من الله عز وجل ، هذه المرحلة الثالثة .

المرحلة الرابعة : القصم :

أما الرابعة : هي القصم ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

أستاذ علاء ـ دقق ـ :

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ)

جمع :

(كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : 44)

أنا ما أظن أن آية في القرآن أكثر شمولًا من هذه الآية ، بلاد جميلة ، دخل فلكي ، انغماس بالمعاصي ، شذوذ ، تطاول ، غطرسة ، عدوان ، أبنية جميلة ، رفاه منقطع النظير .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا)

في قمة نشوتهم ، وفي قمة غطرستهم ، وفي قمة استمتاعهم بالحياة :

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

لذلك :

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

أكبر بطولة للإنسان أنْ يصل إلى القبر وهو طاهر ، أمامه الجنة ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، وأخطر إنسان الذي يمد بما يشتهي والله غاضب عليه ، الآية الكريمة :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

الإنسان في قبضة الله بثانية يفقد حركته ، ولا يموت .

الأستاذ علاء :

لذلك هل نستطيع الرد على من يسأل من الذين تعثروا ، أنه يا أخي ، فلان يعصي الله ، وفلان أخذ يجاهر ، وفلان فعل فعلة فرعون ، والله أعطاه مالا ، والله أعطاه جاهًا ، والله أعطاه سلطانًا ، والله أعطاه كلمة ، كيف هذه تتسق مع عدل الله ؟ .

شبهة مردودة ، وطريق الاحتجاج بها مسدودة :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، بربك لو أن إنسانًا معه التهاب معدة حاد والطبيب أقام عليه الدنيا إذا أكل قطعة من الشيء الذي يؤذيه ، وأعطاه تعليمات مشددة ، شرب الحليب فقط ، وأكل التفاح ، وعناية فائقة ، وإنسان معه سرطان من الدرجة الخامسة ، فلما سأل طبيبه : ماذا أكل ؟ قال له : كل ما شئت ، أيهما أفضل ؟ أن نكون في العانية المشددة أفضل ألف مرة من أن نكون أعطينا كل شيء ، لأن أمرنا انتهى إلى لا شيء ، الآية دقيقة جداً :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

شعوب تقتل ، ثروات تنهب ، قهر ، ظلم ، وهم مرتاحون ، وبراءة الأطفال في أعينهم ، ويُقتَلون بدم بارد .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

لذلك أنا أقول : إذا كان الشعب المؤمن الطاهر المستقيم يعاني ما يعاني أفضل عند الله مليار مرة من شعب غارق في الانحراف .

بلدة في مدينة ضخمة في العالم الغربي 75 من سكانها شاذون جنسياً ، انحراف ، لا يعبؤون بشيء ، شهوتهم إلههم ، هؤلاء خارج العناية المشددة ، فإذا كنا نحن في عناية مشددة فالحمد لله ، لأن هناك شيء من الأمل ، أننا نلقى الله على شيء من الطاعة الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الكريم ، هل لدينا وقت يا ترى ؟ لنتابع الفيلم :

الدكتور راتب :

خَلقُ الإنسان :

1 – المورِّثاتُ :

الآن ترون على الشاشة نطفة الرجل التي اتحدت قبل قليل مع البويضة ، المعلومة الوراثية للنطفة والبويضة بعضها إلى جانب بعض ، هنا الآن ستتحقق واحدة من أكبر المعجزات على وجه الأرض ، حيث يتم اجتماع وانسجام معلومتين وراثيتين لتكوين إنسان جديد ، وتحقق اللقاء ربما يكون تصديق الأمر أمراً صعباً ، إلا أن داخل هذه الخلية جميع المعلومات العائدة للإنسان الذي لم يولد بعد ، عين الطفل الذي سيولد ، بشرته ، لون شعره ، شكل وجهه ، خصائصه الفيزيائية ، جميعها مشفرة هنا ، إلا أن الأمر ليس مقصوراً على مظهره الخارجي فقط ، بل حدد هيكله وأعضاءه الداخلية ، عروقه ، وحتى أشكال خلايا الدم ، التي تدور في عروقه ، وعددها ، إلى التفاصيل جميعها ، وخصائص الإنسان.

في سن السابعة وحتى خصائصه في سن السبعين كل شيء وضح ، وكتب داخل هذه الخلايا .

2 – انقسام الخلية :

تقوم الخلية بعد التلقيح بمدة قصيرة بتصرف آخر محير جداً ، تنقسم وتكون خليتين حديثتين ، ثم تنقسم هذه الخلايا مرة أخرى ، وتصبح أربعة ، فقد بدأ الآن تكوّن إنسان جديد ، ولكن لماذا تتخذ الخلية قرار الانقسام هذا ، ولماذا تكلف نفسها عناء تكوين الإنسان ، هذه الأسئلة ترشدنا إلى عظمة الله تعالى بالعلم الكامل ، والقدرة اللامتناهية ، خالق الخلية والإنسان الموجود داخلها ، والعالم الذي يوجد فيه الإنسان ، والكون كله خالقهم من العدم هو الله جل جلاله .

3 – تمايز الخلايا :

في هذه اللحظة نشاهد رحلة الخلايا التي تنقسم ، وتتكاثر باستمرار داخل قناة فالوب ، أي البويضة الملقحة ، كتلة الخلايا هذه يطلق عليها منذ الآن البويضة الملقحة ، في أثناء انقسام الخلايا وتكاثرها داخل البويضة الملقحة تتحقق حادثة أخرى محيرة أيضاً ، تبدأ بعض الخلايا بالتمايز ، التمايز أكبر

دليل على وجود الله عز وجل ، لو امتنع تمايز الجنين لأصبح قطعة عظم ، أو قطعة لحم .

تتمايز مجموعة خلايا عن الأخرى بشكل ملفت للنظر ، فالخلايا المتمايزة تحيط بها ، وبعد مدة قصيرة ستكون مجموعة الخلايا المركزية الجديدة التي هي الإنسان ، ثم تكون مجموعة خلايا أخرى بشكل مشيمة ، الطفل ، ثم المشيمة ، هناك أمر مخفي يعمل في هذه الخلايا ، تصل البويضة الملقحة بعد أربعة أيام من تلقيحها إلى المكان الذي جهز وخصص لأجلها ، الآن البويضة تمشي في قناة فالوب ، كي تنتهي رحلتها إلى الرحم ، لكن المشكلة أن هذه الخلية الملحقة البويضة ليس لها نتوءات تتمسك بها في الرحم ، ما الذي يحصل ؟

4 – ثبوت البويضة في جدار الرحم :

شيء لا يصدق ، لا بد من أن تثبت هذه البويضة في جدار الرحم كي لا تسقط خراج الجسم وينتهي الحمل ، إلا أن البويضة الملقحة ليست إلا كتلة دائرية مكونة من الخلايا الشبيهة ببعضها ، ولكن ليس لها أي نتوء يؤمن لها التعلق بمكان ما ، هذه البويضة على جدار الرحم ، فإذاً : كيف تستطيع التمسك بجدار الرحم ؟ هذا أيضاً قد حسب حسابه عند وصول البويضة الملقحة إلى الرحم .

إذا دخل نظام آخر ، هذا المشهد الملتقط بمجهر إلكتروني يظهر البويضة الملقحة التي وصلت من اللحظة إلى رحم الأم تفرز الخلايا الموجودة في السطح الخارجي للبويضة أنزيمات خاصة تذيب جدار الرحم ، وبذلك تتمسك البيضة الملقحة بالرحم بشدة ، وتنجو من سقوطها خارج الرحم ، وجود الخلايا على سطح البويضة الملقحة في المكان اللازم ، وإفرازها الأنزيم اللازم يوضح مرة أخرى كمال خلقها، بفضل هذا الخلقة الكاملة تغرز هذه البويضة الملقحة في جدار الرحم .

5 – وصولُ مرحلة خلق الإنسان إلى العلقة :

هذا المخلوق الجديد الذي يكبر في أثناء تمسكه بالرحم يسمى منذ الآن بالجنين ، هذه الحقيقة اكتشفتها البيولوجيا الحديثة ، ذكرت في القرآن الكريم عندما يذكر الله عز وجل أول مرحلة للطفل في رحم الأم يستخدم كلمة العلق ، علقت :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

(سورة العلق)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (33-95) - مقومات التكليف : الشهوة التمايز ـ خلايا الجنين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-06-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بما سبق :

سيدي الكريم ، وصلنا عند مسألة هامة ، وحططنا الرحال عندها ملياً ، وهي تستحق أن نخصص لها الكثير من الحلقات ، لأنها مسألة مشكِلة عند الكثير من الناس ، ومسألة فيها أخذ ورد ، وفيها مفاهيم خاطئة ، وفيها قراءات خاطئة ، وقفنا عند مسألة الشهوة مقومًا من مقومات التكليف ، وتبينا من خلال حديثك في الحلقات الماضية بأن الشهوة طاقة ، وهذه الطاقة إما أن تكون خلاقة مبدعة ، هي أحد النواهض الأساسية للتقدم والنمو ، وحركة البناء ، وعمارة هذه الأرض ، وحمل الأمانة والرسالة من خلالها حملاً صحيحاً ، بفهم صحيح ، وإما أن تكون هذه الطاقة المتولدة عن الشهوة مدمرة قاسمة كالريح التي لا تبقي ولا تذر .

هل الشهوة معصية وذنبٌ ؟

الآن : هل في الأصل الشهوة ذنب ؟ هل الشهوة معصية ؟ هل الشهوة التي أودعها الله في الإنسان في جبلته ، في تكوينه ، هي إن كانت موجودة وأودعها الله فيه فقد أصبح مذنباً لمجرد وجود هذه الشهوة فيه ؟ أم أن هذه الشهوة هي شيء طبيعي ، ومن خلال الاستخدام ، ومن خلال التقنين نفرز بين خطين، بين مدمر وخلاق ، بين موصل إلى الجنة وخط متردٍّ يوصل إلى الهاوية ، وإلى الدرك الأسفل من النار، نسأل الله اللطف .

كيف نفهم هذه المسألة ؟ نفهم الجانب السلبي فيها ، وسيدي الكريم إذا سمحت لي ، وقد أطلت الشهوة في كل الدنيا تتركز في مسألتين في النساء وفي المال ، إما أن ينزلق الإنسان وراء فضيحة أخلاقية ، أو فضيحة مالية ، كيف نقرأ هذه اللوحة سيدي ؟

الدكتور راتب :

الشهوة حيادية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، عنوان هذا البرنامج الإيمان هو الخلق ، وقد تحدثنا واتفقنا في حلقاته الأولى أن الخلق هو الضبط ، لأن الإنسان أودع الله فيه الشهوات ، هذه الشهوات ليست خيرة ولا شريرة ، إنها حيادية ، إما سلم نرقى بها ، وإما دركات نهوي بها قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران)

هذه الشهوات ما أودعها الله فينا إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، هي قوة دافعة ، فإن لم يحسن الإنسان توجيهها كانت قوة مدمرة ، إذاً : ليست الشهوة معصية ، إنها شيء طبيعي فطري ، بل إن الله سبحانه وتعالى أشار في آية دقيقة إلى أن الخطأ الكبير هو أن تمارس هذه الشهوات بعيداً عن منهج الله :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف أستاذ علاء : أنك إذا اتبعت هواك وفق منهج الله فلا شيء عليك ، لأنه ليس في الإسلام حرمان ، لكن في الإسلام تنظيم .

خطر الشهوة يأتي من سوء الاستخدام :

كنت أضرب هذا المثل كثيراً : أن الخطأ يأتي من سوء الاستخدام ، الملح مادة قيمة نافعة ، إن وضعته في الحلويات أفسدناها ، والسكر شيء أساسي في حياتنا ، إن وضع في الطعام أفسدناه ، ومسحوق الغسيل نحن بأمسّ الحاجة إليه أيضاً ، إن وضع في الطعام أفسدناه أيضاً ، فالخطأ يأتي من سوء الاستخدام ، والخطأ لا يحتاج إلى خالق :

((وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ))

[مسلم عن علي]

هذا فحوى حلقات الشهوات السابقة .

ولكن الآن ينبغي أن نفهم أن عظمة هذا الدين أنه دين الفطرة ، وأن عظمة هذا الدين أنه دين الحياة ، فموقف الإسلام موقف وسطي ، بين أديان أرضية أنكرت هذه الشهوة كلياً ، وبين حضارة حديثة أطلقت لهذه الشهوات العِنان ، فبين حرمان وكبت وعقد نفسية ، وبين تفلت وإباحية أنهت المجتمع .

الأستاذ علاء :

من حالة مَرَضية إلى حالة مَرَضية .

الدكتور راتب :

أنا أذكر أن رئيساً في أمريكا ، والقصة القديمة ، قال : يتهدد أمريكا خمسة أخطار ، إلى أن سمعت بقية الخبر توهمت خطر الصين ، خطر أوربا ، خطر اليابان ، فإذا بالأخطار من نوع آخر ، خطر تفكك الأسرة ، خطر شيوع الجريمة ، خطر انتشار المخدرات ، حينما يتحرك الإنسان بلا منهج ، بلا وحي من السماء ، بلا ضوابط ، بلا قيم يكون الانحلال ، ويكون سقوط الإنسان في الحياة الدنيا ، والإنسان يعلو ، ويعلو ، ويعلو ، فتشرئب الأعناق إلى علوه ، ويسقط ولا نرى سقوطه أحياناً ، تترفع عن أفعاله الحيوانات العجماوات .

فلذلك الإسلام وسطي ، الشهوة سمح بها ، وحض عليها ، سيد الخلق وحبيب الحق ، قال :

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم عن أنس]

الإسلام وسطي ، كما أننا نقول دائماً : نحن نصغر أمام إنسان يموت في سبيل الله ، لكننا في الوقت نفسه نريد إنساناً يعيش في سبيل الله ، يقدم نموذجاً صارخاً للإنسان المسلم المتوازن ، الذي نما عقله ، ونما وجدانه ، وقوي جسمه ، فنحن حينما نعتني بجانب دون جانب نتطرف ، أما حينما نتحرك في الخطوط الثلاثة ، وننمي عقولنا بالعلم ، وننمي قلوبنا بالقيم والمبادئ ، وننمي أجسامنا بالغذاء الجيد ، والرياضة ، والاعتناء بالجسم عندئذٍ نتفوق .

النقطة الدقيقة أن هذه الشهوة كما بينا في الحلقات السابقة فيها جوانب إيجابية ، إنسان تزوج امرأة صالحة ، أنجب أولاداً صالحين ، بيته قطعة من الجنة ، ترك عناصر للمجتمع واعية نظيفة منضبطة مستقيمة بناءة ، ترى أن هذه الأسرة خير كلها ، العلاقة بين الزوجين خير كله ، الأولاد خير كله ، لكن حينما تمارس هذه الشهوة بخلاف منهج الله يكون الدمار ، يكون الطلاق ، تكون الخيانة الزوجية ، يكون تشرد الأولاد ، لعل هذا اللقاء الطيب يجب أن يتوجه إلى الوسائل التي يمكن أن نتوقى من خلالها الجانب المدمر من الشهوة .

الأستاذ علاء :

وخاصة الشهوة المتعلقة بالنساء ، لو سمحت لي أن نفرد في هذه الحلقة هذا الجانب .

سيدي الكريم ، هذا الجانب ، طالما الله أودع الشهوة في الإنسان الرجل الذكر والأنثى ، هي تشتهي الرجل ، وهو يشتهيها ، الله عز وجل جعل منهاجا للقاء الرجل والمرأة من خلال الزواج ، والزواج في الإسلام له أيضاً بحبوحة واسعة في مسألة التعدد ، وفي مسألة الإنجاب ، وفي مسألة العدل ، هذه قضية، سيدي الكريم هنالك من يقول : نحن في مجتمع كلما لفت نظره ، كلما نزل إلى الشارع ، ذهب إلى السوق ، ذهب إلى المطعم ، ذهب إلى عمله ، فالعرض البانورامي إن صح التعبير الواسع للنساء مِن حوله واسع ، ويمايز ما بين مظاهر قد تكون مظاهر حقيقية ، أو غير حقيقية من الجمال ، أو التي تأخذ منه مأخذاً ، فتعمل في داخله ما تعمل ، ينساق ، ويرى نفسه بأنه موثق ، هكذا الخطوات باتجاه الانحراف ، ماذا نقول ؟

الدكتور راتب :

التفلت وضعٌ غير طبيعي :

الحقيقة حينما قال الله عز وجل :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)

(سورة النور الآية : 31)

أنا أركز على كلمة :

(جَمِيعاً)

(أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة النور الآية : 31)

أوضح هذه الآية بالمثل التالي :

لو أنك تملك هاتفاً ، ولك خمسون صديقا لا يملكون هاتفاً ، فما قيمة هذا الهاتف ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، لا تقطف ثمار الهاتف إلا إذا كان عند كل من تحتاج إلى أن تتصل بهم هواتف .

حينما يتفلت المجتمع من منهج الله نحن نغض البصر ، لكن الوضع غير طبيعي ، لو أن إنسانا أكل باستمرار ، ما الذي يحدث له ؟ تخمة قاتلة ، وكذلك هذه الإثارة في الطريق ، وفي أي مكان ، في السوق هذا غير طبيعي ، هذا وضع استثنائي ، حتى في العالم الغربي ، العمل عمل ، والنزهة نزهة ، والفرح فرح ، أمّا في كل لحظة ، في كل دقيقة ، في كل مكان وزمان ، في الصحيفة ، في المجلة ، في الطريق ، هذا شيء غير طبيعي .

الإسلام أمر المرأة بالاحتشام والرجل بغض البصر :

لذلك منهج الله في هذا أنه أمرَ المرأة بالاحتشام ، وأمر الرجل بغض البصر ، فهذه الفتاة المؤمنة بالله عز وجل حينما تسهم في إعفاف الشباب تؤدي أعظم عبادة أنيطت بها ، إن مفاتنها لمن تحل له فقط ، لا لمن لا تحل له ، الفتاة حينما ترتدي ثياباً محتشمة إنما تؤدي عبادة كما يقال للرجال عبادة الجهاد ، حينما تؤدي هذه العبادة ، وهي إعفاف الشباب تكون في أعلى درجة من القرب إلى الله عز وجل ، فلا تسهم هذه الفتاة بتبذلها وتفلتها وخروجها عن نظام الحشمة ، عندئذٍ لا تسهم هذه الفتاة في إفساد الشباب، أما إذا فعلت ذلك فقد أسهمت في إفساد الشباب .

الأستاذ علاء :

تقول المرأة وهي تجلس مع الفتيات : أنا ما لبست هكذا من أجل أن أفسد أحداً ، أنا ما خرجت بهذا الزي وبهذه الطريقة المتبرجة حتى أغوي أحدا ، لكن لماذا خرجت هكذا ؟ أنا أحب هذا الشيء ، ألبسه لي ، طيب ألبسيه في بيتك .

الدكتور راتب :

الفساد بتبرج المرأة واقع أريد له أم لم يقصَد :

هذا فهم قاصر للحرية ، أنا تنتهي حريتي حينما تبدأ حرية الآخرين ، فحينما أفسد مَن حولي قصدتُ أو لم أقصد ، الفساد وقع ، هناك أشياء في حياتنا يقع فساد كبير منها ، فالقصد لا قيمة له ، ما دام قصدت أو لم أقصد فعندنا قاعدة : هذا المحرك لو وضع فيه سكر يفسد فوراً ، يحتاج إلى خمسين ألفًا لإصلاحه، قصد هذا العلم أم لم يقصد ، فسد المحرك .

الأستاذ علاء :

الأمر الآخر سيدي ، الأشياء التي يمارسها الإنسان لنفسه ، في منزله ، في بيته ، هذه القضايا هنا فعلاً لا تجرّ على غيره شيئا ، لكن عندما ينزل إلى المجتمع فهو جزء من هذه الكتلة ، مِن هذه اللوحة .

الدكتور راتب :

لا تنقل الفساد إلى الأماكن العامة :

الطريق ملكُ الجميع ، أنا أذكر امرأة في مركبة عامة ، يبدو أن السائق وضع أغنية ساقطة ، ممنوع أن تذاع ، ساقطة جداً ، وقفت امرأة ، وقالت له : هذا الشريط تسمعه في بيتك ، لأنك حر في سماعه ،

أما هذه فمركبة عامة .

فالإنسان في بيته يفعل ما يشاء ، ويحاسب على أفعاله في بيته ، لكن لا ينتقل الأذى إلى الشأن العام ، فنحن نكون مقيَّدين بمنهج الله ، الرجال يغضون أبصارهم ، وقد قال الله عز وجل :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية : 55)

غض البصر والتقيد بالشرع دليل خوفٍ من الله :

هنا ملاحظة رائعة جداً ، في كثير من الأحيان تلتقي شرائع الأرض مع شرائع السماء ، فلو أن إنسانا لم يمد يده للحرام فبماذا تعلل ذلك ؟ قد أعلله بخوفه من الله ، وقد أعلله بخوفه من ضبط محكم في هذه المؤسسة ، أنا لا أعلم لماذا لم يأخذوا المال الحرام ، خوفاً من خالق الأكوان ؟ أم من نظام محاسب دقيق جداً يكشف اختلاسه ؟ لكن لحكمة بالغة بالغةٍ بالغة في الدين بعض الأوامر والنواهي لا علاقة لها بالقوانين إطلاقاً ، فالذي يأتمر بها حتماً يخاف من الله ، منها غض البصر ، فما في الأرض تشريع يمنعك أن تنظر ، فإذا غض الإنسان بصره معنى ذلك أنه يؤكد لنفسه أنه يخاف من الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

بالعكس سيدي ، الأشياء الأرضية الموجودة هي تحض على ألا يغض الإنسان بصره ، سواء بإعلان طرقي ، أو بإعلان تلفزيوني ، أو بصحيفة ، أو حتى في الحالة المبسوطة في الشارع ، فلذلك عندما يغض بصره هو كما تفضلت يخاف الله عز وجل .

الدكتور راتب :

لو تعمقنا قليلاً لوجدنا ، الإنسان في أيام الصيف الحارة ، إذا كان رمضان في الصيف ، وعند الساعة 12 ، كاد يموت عطشاً ، ودخل إلى بيته ، والأبواب مغلقة ، والستائر مغلقة ، وفتح باب الثلاجة ، والماء عذب فرات بارد لا يستطيع أن يضع في فمه قطرة ماء .

هذه عظمة الدين ، لكن إذا كان التشريع أرضيًا يُخترق ، مثلاً : المواطن متى لا يستخدم المحمول وهو يقود مركبته ؟ إذا كان هناك شرطي مرور ، أما إذا كان وحده فيستخدمه .

كنت مرة في أمريكا ، سمعت من سيارة صوت ، سألت صاحبها ، قال لي : هذا الصوت ينبهني إلى أن هناك جهازًا لكشف السرعة الزائدة ، فواضع القوانين إنسان ذكي ، والمواطن أذكى ، وهي معركة بين عقلين .

أما حينما يأتي ابن سيدنا عمر لراع ، يقول له : << يعني هذه الشاة ، وخذ ثمنها ، يقول : ليست لي ، يقول له : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، يقول : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟! >> .

الأستاذ علاء :

البنت التي رفضت أن تخلط الحليب بالماء ، مع أمرِ أمّها لها في الهزيع الأخير من الليل .

الدكتور راتب :

يمكن لإنسان مصاب بمرض الكبد وبائي ، هذا مرض وبائي قاتل ، إذا لم ينظف يديه جيداً ، يمكن أن يصيب 300 من رواد المطعم بهذا المرض القاتل إذا لم يخف الله .

ما الذي يضبط الإنسان في خلوته ؟ من الذي يضبط الإنسان في بيته ؟ في غرفته ؟ الدين يصل معك إلى فراش غرفة النوم ، الدين مبادئه تنطلق من فراش غرفة النوم إلى العلاقات الدولية ، فهو منهج دقيق جداً .

لأن هذه الشهوة عميقة ، متغلغلة في نفس الإنسان ذكراً كان أو أنثى ضبطها الإسلام بثياب محتشمة ترتديها المرأة ، وضبطها بآية غض البصر للرجل .

الأستاذ علاء :

غض الرجلُ البصر ، واحتشم من احتشم ، ولم تحتشم من لم تحتشم يا سيدي ، هل من مساعدات على الجانب السلبي من شهوات الإنسان ؟

الدكتور راتب :

الاستعانة بالصلاة على اجتناب الشهوات فيما لا يرضي الله :

قال تعالى :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

أستاذ علاء ، هذا الهاتف المحمول يحتاج إلى شحن ، إذا شحنته ترى رنته قوية ، وصوته واضحا ، أما إذا ضعف الشحن انقطع الصوت ، وانطفأت الشاشة ، معنى ذلك أن الشحن يحتاج إلى استمرار .

الموضوع العلمي :

الأستاذ علاء :

كنت أود أن نستمر في الموضوع ، ولكن حان وقت الفلم العلمي ، والاختيار اليوم وقع على أي شيء سيدي ؟

الدكتور راتب :

تكوُّنُ الجنين في رحم الأم :

لا زلنا في تكوِّن الجنين ، وهو من أعظم الموضوعات الدالة على عظمة الله ، نعيش في عالمنا الذي هو كوكب مليء بالحياة لأنواع لا تحصى من الكائنات ، وحيدة الخلية وحيدات الخلية جميعها تتكاثر عن طريق الانقسام ، وتكون نسخة عنها في أثناء انقسامها ، جميع الكائنات الحية تتكاثر خلاياها عن طريق الانقسام ، أما البويضة ، أما الجنين النامي في رحم الأم فيبدأ الحياة بخلية واحدة كما ترون ، تتكاثر هذه الخلية بنسخ نفسها كذلك ، هنا لولا تدخل تنظيم خاص للزم جراء انقسام الخلايا ظهور كتلة لحم مؤلفة من خلايا متشابهة ، وليس إنساناً ، لكنه لا يحصل شيء كهذا ، لأن الخلايا ليست عاطلة إلى هذا الحد ، بل تبدأ النطفة والبويضة بعد الالتقاء بأسابيع بالتمايز عن بعضها بأمر خفي كما نرى ، أعطِيَ لكل منهما .

والآن نشاهد هذا التغيّر الذي يعد معجزة لدى العلماء ، فالخلايا التي لا وعي لها شرعت في إنشاء الأعضاء الداخلية والهيكل والدماغ ، ها هنا بدأ تكون خلايا الدماغ داخل هذين الفراغين ، هذا المشهد الذي ترونه ملتقط بمجهر إلكتروني يبين بداية تشكل الدماغ ، وفي نهاية هذا الإنشاء سيصبح الجنين ذا عشرة مليارات من خلايا الدماغ ، الآن نشاهد تكوّن خلايا الدماغ ، يضاف لمجموعة هذه الخلايا في كل دقيقة مئة ألف خلية جديدة ، كل خلية جديدة تعلم مسبقاً كيف تتصرف ، وإلى أين ترجع ، ومع أي الخلايا يجب أن ترتبط ، كل خلية تجد مكانها بين احتمالات لا حصر لها ، وترتبط مع الخلايا التي يجب أن ترتبط معها ، وكأن لها عقلاً راجحاً .

الحقيقة الدقيقة : أنه يولد في الدماغ مئة مليون وصلة عصبية ، أو وصلة من الخلايا ، هذه الخلايا صنعت بطريقة عجيبة ، والمنطق يقول : يجب أن تملك هذه الخلايا عقلاً يفوق عقل الإنسان ، لكن هذه الخلايا ليس لها أي عقل ، ليس فقط خلايا الدماغ ، بل كل واحدة من الخلايا المتكاثرة بانقسامها داخل الجنين تقوم برحلة من أول مكان تكونت فيه نحو النقطة التي يجب أن تتواجد فيها ، وكل واحدة تجد

المكان الذي يجب أن تكون فيه ، وهنا تقوم بالارتباط بالخلايا التي يجب أن ترتبط معها ، هذه الخلايا ليس لها أي وعي ، فمن يلهم هذه الخطط ؟.

يقول دكتور متخصص في علم الأجنة : " تقوم جميع هذه الخلايا المتشابهة مع بعضها برحلة فجأة ، وكأنها تلقت أمراً من مكان واحد ، وتذهب كلها إلى أماكن مختلفة تعمل على تكوين أعضاء مختلفة ، هذه الخلايا المتماثلة خلايا لا تعرف ما ستفعله ، وتبدأ بعد الخلايا المتغيرة ، هذه عضلة القلب ، بالانقباض والانبساط فجأة ، وبعد ذلك تجتمع مئات آلاف الخلايا في مكان واحد لتكون القلب ، هذا القلب يستمر بالخفقان حتى نهاية الحياة " .

الأستاذ علاء :

إذاً : بعد التمايز اجتمعت المتمايزة من جنس واحد .

الدكتور راتب :

ارتباط خلايا الجنين مع بعضها إعجاز عظيم :

الآن نشاهد معجزة كبيرة جداً في هذه الخلايا المستقلة عن بعضها ، ففي الأصل هي خلايا العروق ، ثم فجأة تبدأ هذه الخلايا بالتماسك ببعضها ، وتقيم ارتباطات فيما بينهما وتشكل خلايا العروق ، تُرى من أين تعلمت هذه الخلايا وجوب تكوين العروق ؟ وكيفية القيام بهذا ؟ هذه من الأسئلة التي لن تجد جواباً لها في الأوساط العلمية ، الخلايا تتقارب ، وتتواصل إلى أن تشكل شبكة العروق ، وكأنها عاقلة.

في النهاية تصنع خلايا العروق نظام أنبوب رائعاً ، ليس عليه أي ثقب أو شق ، السطح الداخلي للعروق أملس ، وكأنه صنع يد صانع ماهر ، نظام العروق هذا سيبدأ بعد مدة بنقل الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، ويبلغ طول شبكة العروق كلها أربعين ألف كيلومتر ، شبكة العروق هذه طولها أربعون ألف كيلومتر ، وهذه المسافة تساوي الطول الكامل لمحيط الأرض ، يساوي طول الأوعية الدموية في جسم الإنسان .

ويستمر النمو في بطن الأم دون توقف ، وتصل أطراف الجنين في نهاية الأسبوع الخامس إلى مرحلة يمكن فيها رؤيتها ، هذه أطرافها ، بداية الطرف ، هذه النتوء سيصبح يداً بعد مدة ، تبدأ بعض الخلايا بصنع الأيدي ، إلا أنه يقوم قسم من الخلايا بعد مدة بعمل محير ، هذه كف الإنسان ، قسم من الخلايا يعمل عملاً محير جداً ، ماذا يفعل ؟ تقوم آلاف من هذه الخلايا بتضحية جماعية ، لكن لماذا تقدم هذه الخلايا أنفسها ضحية ؟ هذه التضحية تخدم هدفاً مهماً جداً ، أجسام الخلايا الميتة على خط معين ضروري لتكوين الأصابع ، ما بين الأصابع تنتحر الخلايا ليصبح هذا الفراغ بين الأصابع ، وتأكل

الأخرى الخلايا الميتة ، تتشكل في هذه المناطق الفراغات اللازمة بين الأصابع ، لماذا تقوم آلاف الخلايا بتضحية كهذه ؟ كيف تقوم الخلية بالتضحية بنفسها ليصبح الطفل المولود ذا أصابع في المستقبل؟

هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

مِن أين عرفت هذه الخلية أنها بهذه التضحية تخدم هدفاً كهذا ؟ كل هذا يوضح مرة أخرى أن جميع الخلايا المكونة للإنسان موجهة من قِبل الله تعالى ، وفي هذه الأثناء تبدأ بعض الخلايا بصنع الساق ، لا تعرف الخلايا بأن الجنين سيحتاج إلى المشي ، وعلى الرغم من كل ذلك تتكون الساق والأرجل في هذه المرحلة .

شيء لا يصدق ، كله يجري في بطن الأم بعلم عليم ، وحكمة حكيم .

والآن ننظر إلى وجه هذا الجنين ذي أربعة أسابيع ، في هذه المرحلة تتكون حفرتان في جانبي رأس الجنين أمرُ تصديقِه صعب جداً ، لكن في هاتين الحفرتين تنشأ العينان ، ويبدأ تشكل الأعين في الأسبوع السادس حيث تعمل الخلايا طوال الأشهر ضمن خطة لا يستوعبها العقل ، وتكوّن أقسام العين المختلفة بتتابع عجيب ، تصنع بعض الخلايا القرنية ، وبعضها الحدقة ، وبعضها العدسة ، وتقف كل خلية عند وصولها إلى حد انتهاء قسم التي يتوجب عيها صنعه ، وتنشأ العين المكونة من أربعين طبقة بشكل كامل ، وهكذا يكون خلق الله عز وجل لهذا الإنسان ، العين التي تعد أفضل آلة تصوير على الإطلاق ، هذه العين قال الله تعالى عنها :

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

تعد أعظم آلة تصوير على الإطلاق ، تخلق في بطن الأم من العدم ، فقد حُسب بأن الإنسان الذي سوف يولد سيفتح عينيه ، سيواجه عالماً ملوناً ، لذلك خُلقت عيناه متناسبتين مع هذا العالم .

وقد حُسب أيضاً فضلاً عن الصور الملونة ، حُسب لهذا المخلوق الذي يخلقه الله في بطن أمه أنه يحتاج إلى أن يسمع الأصوات والأنغام ، والتي ينبغي أن تهيأ أداة بالغة الدقة لاستقبالها ، وهي الأذن التي ستسمع هذه الأصوات ، كذلك ينشأ في بطن الأم حيث تشكل الخلايا أفضل جهاز ضاغط للصوت على وجه الأرض .

هذه المشاهد تذكرنا مرة أخرى أن السمع والبصر من النعم الكبيرة التي منحها الله تعالى للإنسان ، وإلى هذا يشير الله عز وجل في قوله :

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة النحل)

تحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (34-95) - مقومات التكليف - الشهوة - البراهين القرآنية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-07-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتذكير :

في الحلقة الماضية توقفنا عند مسألة هامة ، المسألة تتعلق بالشهوة التي أفردنا لها من هذا البرنامج الكثير من الحلقات ، كونها مقومًا من مقومات التكليف ، وتبينا مع أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي أستاذ الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين في دمشق ، تبينا الكثير حول هذا الموضوع ، نرحب بك .

ووقفنا عند مسألة الشهوة التي عرفت الشهوة هي الطاقة الكامنة التي إن كُمنت كانت أداة رفع ونهوض، وإن أُطلقت دون ضوابط ، واستخدمت في أماكن لم تُخلق من أجلها كانت أداة تدمير ، وأداة نقوص .

وقفنا عند مسألة هامة جداً في مسألة الشهوة ، وقلت : إن الشهوة ليست معصية ، وإن الشهوة التي خُلقت مع الإنسان لم تلزم المعصية ، فالإنسان الذي خُلقت معه الشهوة ، وزُرعت في جبلته لمجرد وجود هذه الشهوة ليست معصية ، وليست خطأ ، كما مر معنا ، إنما استخدامات الشهوة غير المنضبطة هي التي تنقل الإنسان بتصرفاته من الصواب إلى التهلكة إن صح التعبير .

وقفنا عند قضيتين هامتين ، بحثنا في الأولى ، وهي مسألة النساء ثم المال ، وقلنا : إن معظم الشهوات ومعظم الفضائح في العالم إما فضيحة أخلاقية ، أو فضيحة مالية ، قضية سوء ائتمان .

نأتي إلى المسألة التي بدأنا بها في الحلقة الماضية هي الجانب السلبي ، والشهوات المتعلقة بشهوة تكون حول النساء ، وبالنساء ، وقلت : إنه مجتمع يجب أن يلتزم شرع الله حتى يساعد الكل من انضوى تحت الكل ، أفراد المجتمع يتعاونون حتى ينهضوا جميعاً بمنهج الله عز وجل ، فلا يكفي أن نقول للشاب : غض بصرك ، وأن تخرج الفتاة متبرجة ، وتتفنن في تبرجها ، ولفت نظر الشاب في الشارع ، هذه عملية غير معقولة ، وغير متعادلة ، إن صح التعبير .

إذاً : قلنا عن غض البصر : إن الشاب عليه أن يغض البصر ، والمرأة يجب أن تساهم بإعفاف الرجال، بإعفاف الشباب بثياب محتشمة ، ودورها كمن يجاهد في سبيل الله ، وقلنا : هذا رجل حاول أن

يغض بصره ، وهذه المرأة حاولت أن تغض بصرها ، وأن تلتزم ، لكن هل من مساعدات أخرى لكي تنهض بهذا الفرد في المجتمع لكي يكون على الجادة الصواب ، ولكي لا يجنح يمنة ويسرى ؟

الدكتور راتب :

المساعد الإيديولوجي للنهوض بالفرد في المجتمع الصالح :

1 ـ ليس في الإسلام حرمان :

قلت : إن المساعد الأول المساعد إيديولوجي ، أن تعتقد أنه ليس في الإسلام حرمان ، وليس فيه تفلت، وأن الله عز وجل خلق الإنسان لجنة عرضها السماوات والأرض ، وثمن هذه الجنة الانضباط .

2 ـ التناقض بين التكليف والطبع ثمن الجنة :

بل إن التناقض بين التكليف والطبع ثمن الجنة ، أنت مكلف أن تغض البصر ، والطبع يقتضي أن تطلق البصر ، هذا التناقض بينهما هو ثمن الجنة .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

كوسائل وقائية أمرت النساء بالاحتشام ، والرجال بغض البصر .

3 ـ لابد من هامش أمان بينك وبين وسائل إثارة الشهوة :

الآن عندنا قضية دقيقة جداً : الشهوة فيها قوة جذب ، فلابد من هامش أمان بينك وبين وسائل إثارة الشهوة ، تماما :

كما نرى أن الخط الكهربائي عالي التوتر فيه قوة جذب ، فلا بد من إعلان واضح : ممنوع الاقتراب من الخط لمسافة 8 أمتار ، فإذا دخل الإنسان هذه الأمتار الثمانية جذبه التيار ، وأصبح فحمة سوداء ، وأهلكه . إذاً : هذا معنى قوله تعالى :

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة الآية : 187)

لا بد أن تدع هامش أمان بينك وبين الشهوة ، وللسيد المسيح كلمة رائعة يقول : " الشريف من يهرب من أسباب الخطيئة " ، لأنه قد لا يستطيع الإنسان أن يهرب من الخطيئة ، لكن يستطيع الهرب من

أسبابها ، وكأن الشهوة صخرة متمكنة في رأس جبل ، فإذا أردت أن تدفعها نحو الوادي ، وتمنيت أن تقف بعد عشرة أمتار لا تستقر إلا في قعر الوادي ، والخطأ أنك دفعتها ، وظننت أنها تقف عند هذه المسافة ، فإذا دفعتها فلا بد من أن تستقر في قعر الوادي .

إذاً : أول شيء قضية قناعة ، وتصور أن الإسلام ليس فيه حرمان ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

معنى ذلك أنه ينبغي أن تتبع هواك وفق هدى الله عز وجل ، فليس في الإسلام حرمان ، إنه دين الفطرة ، دين الحياة .

الأستاذ علاء :

وقفت عند أمر :

(فَلَا تَقْرَبُوهَا)

وتوقفت عند أمثلة الحقيقة ، إذاً : الإنسان إذا جاء في منتصف هذه المعصية فلا يستطيع أن يتفلت منها، كالكهرباء التي تمسك به ، لذلك :

(فَلَا تَقْرَبُوهَا)

كما تفضلت ، هذا جانب الأمان ، أو حيز الأمان ، وهذا أمر ، لا أن يقول الواحد : والله أنا بإمكاني أن أذهب ، وأجلس في هذا المجلس ، وأدخل إلى هذه الجماعة ، ولا أمارس المعصية ، هذا الكلام غير صحيح .

الدكتور راتب :

الفرار من مواضع الفتن أمان منها :

مستحيل ، هناك جريمة ارتكبت في بلد عربي ، والمجرم هو شاب صغير ، اغتصب عشر فتيات وقتلهن ، وهناك باحثة اجتماعية طلبت من وزير الداخلية أن تلتقي بهذا الشاب على قناة فضائية ، وحدثني من شاهد هذا اللقاء ، هذه المرأة الباحثة سألت هذا الشاب : لماذا فعلت هذا ؟ فقال : من ثيابهن، فكأن هناك مصطلح جديد : كيف أن الرجل يتحرش بالفتاة بكلمة أو بحركة ، كذلك الفتاة تتحرش بالرجل من خلال ثيابها فقط ، الإسلام أمر النساء بالحشمة ، والرجال بغض البصر ، وأمرنا أن نبتعد عن مثيرات الفتن ، أن نبقي هامش أمان بيننا وبينها .

كأن النهر له شاطئ مائل زلق ، وشاطئ جاف مستوٍ ، فأنت كبطل تمشي على الشاطئ الجاف المستوي ، فأنت في أمان ، أما إذا سرت على الشاطئ المائل المنزلق الزلق ففي أغلب الأحيان تسقط في الماء .

إذاً : فضلاً عن الحشمة ، وعن غض البصر هناك ابتعاد عن مثيرات الفتن ، فصحبة الأراذل مثلاً ، ومتابعة الأفلام الإباحية ، ومواقع الإباحية في الإنترنت ، وقصص ماجنة ، وأشخاص منحرفون ، صحبتهم ، وسماع هذه القصص ، وإطلاق البصر ، وتتبع عورات النساء ، هذه كلها كأنك دخلت في المنطقة المحرمة .

((مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أن يُوَاقِعهُ

وأنا أصدقك القول أن آلاف الحالات التي تنتهي بالفاحشة أصحابها لم يقصدوا بلوغ هذه النهاية ، لكن تقصيرهم في اقتحام المنطقة المحرمة قادتهم إلى النهاية .

وحينما تفقد الفتاة أثمن شيء تملكه ، هناك فطرة ، يأتيها آلام لا يمكن أن تصور ، آلام نفسية ، لو لم يعلم بها أحد ، لأن الله عز وجل قال :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية : 30)

إذاً الشيء الثاني أن نبتعد عن أسباب الفتن .

الأستاذ علاء :

حتى الرجل عندما يرتكب الخطأ ، أو يقع في معصية ، وينتهي به الأمر إلى الحالات التي تنتاب هذا الرجل من الكآبة ، ومن الغمة في صدره ، ومن الظلمة حوله ، وهذا شيء يدفع الكثير منهم أحياناً إلى أن ينهي حياته في بعض الأحيان .

الدكتور راتب :

احذروا الكآبة ، إنه مرض العصر :

هذه الفطرة ، أكمل شيء في الموضوع أن هناك تطابقاً تاماً وكاملاً بين الفطرة ومنهج الله ، فسواء أعصى الإنسان ربه ، لأنه يعرف هذه معصية ، وسواء أنه خرج عن مبادئ فطرته فوقع في الكآبة ، الآن الكآبة مرض العصر ، الإنسان تعذبه نفسه ، ولو لم يحاسبه أحد .

فلذلك لا بد من تطبيق منهج الله من أجل السعادة ، قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

فالإنسان في جنة ، وقال بعض العلماء : في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، إنها جنة القرب من الله ، يجدها في القرآن :

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

في الدنيا ، ذاقوا طعمها في الدنيا .

إذاً : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال ، للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدره لأصفيائه المؤمنين .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي نحن ابتعدنا عن المثيرات ، الإيجابي :

الدكتور راتب :

المساعِد التطبيقي لكبح جماح الشهوات :

الإيجابي أن نشحن بطاقة روحية من الله تعيننا على شهواتنا ، وكبح شهواتنا ، الصلاة شحنة ، صلاة الجمعة شحنة ، فيها خطبة ، صيام شهر رمضان شحنة ، الحج شحنة ، الجهاز المحمول إن لم يشحن ينتهي ، والمؤمن يحتاج إلى شحن مستمر ، شحن يومي بالصلوات الخمس ، وشحن أسبوعي بخطبة الجمعة ، وشحن شهري ، وشحن سنوي ، وشحن للعمر كله بالحج ، فهناك شحنة.

فالإنسان بين أن بدافع التدني بترك الأماكن الخطرة ، فهو بالشحنة يتابع الترقي ، والفرق كبير بين مدافعة التدني ومتابعة الترقي ، فبترك مسببات الفتن يدافع التدني ، وحينها نتصل بالله عز وجل .

قد يرتدي إنسان ثيابا قديمة وقذرة ، وينزل ببركة مياه سوداء آسنة ، ودخل إلى الحمام ، واغتسل ، وتعطر ، ولبس ثيابًا نظيفة ، ومر أمام هؤلاء الصغار الذين يعبثون بالمياه السوداء ، لا يمكن أن يتمنى أن يكون معهم بعد أن ذاق طعم النظافة .

حينما يتصل الإنسان بالله عز وجل تسمو نفسه :

((نعم العبدُ صهيبٌ ، لو لم يخَفَ اللهَ لم يعصِهِ))

[كنز العمال ، ولا إسناد له]

أستاذ علاء ، الإنسان يكون بمستوى دون مستوى الشرع ، لكنه يطبق الشرع خوفاً من الله ، لكن بعد حين ، بعد اتصاله بالله يرتقي مستواه إلى مستوى الشرع ، فعندئذٍ تمج نفسه المعصية ، فلا يَدَعها خوفاً من الله فقط ، بل يدعها خوفاً من الله واشمئزازاً منها ، هذه النقطة دقيقة جداً ، المجاهدة لا تطول مع الإنسان حينما يسلك طريق الإيمان ، ويطهر قلبه ، وتسمو نفسه ، يصبح منهجه وهواه وفق الله عز وجل ، تنتهي مرحلة مدافعة التدني ، فيسمو .

الأستاذ علاء :

عندما يسمو ، وعندما يذوق طعم القرب من حضرة الله عز وجل .

الدكتور راتب :

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ

قال تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

لكن هنا ملمح رائع جداً :

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

بعضهم قال : ذكر الله أكبر ما فيها ، بعضهم قال : أنت حينما تصلي تذكر الله ، وهذا شأن العبد ، لكنك إذا صليت الصلاة التي أرادها الله يذكرك الله ، وذكر الله لك أكبر من ذكرك له ، فأنت إن ذكرته فإنك تؤدي عبادتك ، لكن الله إذا ذكرك ألقى في قلبك السكينة ، ألقى في قلبك الأمن ، منحك الحكمة ، منحك التوفيق ، منحك السعادة ، وسرت في الطريق الصحيح ، فجمع لك نعمتي الدنيا والآخرة :

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

قال النبي الكريم :

((أقم الصلاة يا بلالُ ، أرحْنا بها))

[أخرجه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

هناك يؤديها ويقول : أرحنا منها ، والفرق كبير بين أرحنا بها ، وأرحنا منها ، الصلاة عماد الدين ، والصلاة معراج المؤمن ، الصلاة غرة الطاعات ، سيدة القربات ، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات .

((ليس كل مصلٍ يصلي ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكف شهواته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب ، وآوى الغريب ، كل ذلك لي ، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له حلما ، والظلمة نورا ، يدعوني فألبيه ، يسألني فأعطيه ، يقسم علي فأبره ، أكلؤه بقربي ، وأستحفظه ملائكتي ، مثله عندي كمثل الفردوس لا يمس ثمرها ، ولا يتغير حالها))

[كنز العمال عن حارثة بن وهب]

الأستاذ علاء :

من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((حبب لي من دنياكم))

عندنا الجانب المادي .

((النساءُ ، والطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصلاة))

[أخرجه النسائي عن أني بن مالك رضي الله عنه]

الدكتور راتب :

المرأة محببة ومطلوبة عند الرجل :

لكن لابد من أن أقف وقفة سريعة عند كلمة النساء ، يحب أن تُزوج ، لينجب ولداً يتابع العمل الصالح من بعدي ، سيدنا عمر فهم هذا المعنى ، قال : << والله أقوم إلى زوجتي وما بي من شهوة ، إلا ابتغاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي >> .

هناك من يسيء الظن برسول الله ، حينما يتهمه أنه يحب النساء ، تزوج امرأة بقي معها ربع قرن ، وهي في سن أمه ، فهذه تهمٌ باطلة يسوقها أعداء الدين .

الأستاذ علاء :

سيدي ، النبي عليه الصلاة والسلام هو أولاً سيد الخلق ، وصاحب المنهج ، ليس بمريض حتى يبتعد عن النساء ، والوضع الطبيعي أن يحب النساء ، وهو شاب ، وأي واحد منا يحب النساء وهو شاب ، وإن لم يكن محباً للنساء ، أو في ما يجذب للنساء فهو مريض لا يعيش حياة طبيعية ، النبي كما تفضلت ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحب النساء ضمن شرع الله ، ويحب الطيب مظهراً من مظاهر النظافة والحضارة والذوق ، إنسان سوي بكل معنى الكلمة ، وجاء العلوّ من جانب :

((وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصلاة))

الدكتور راتب :

الهدى علوٌّ والضلال سفولٌ وانحطاط :

هناك ملمح لطيف :

(أولَئِكَ)

المؤمنون :

(عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

على تفيد العلو ، يعني الهدى يرفعك إلى أعلى عليين ، يسمو بك ، يسمو بهمومك ، تحمل هم الأمة ، الهدى يجعلك إنسانا إيجابيا ، إنسانا معطاء ، إنسانا ذا خلق عظيم ، أما الضلال :

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الأحقاف)

شيء ضمن شيء ، فإمّا الكآبة ، وإمّا السجن ، لأن الانحراف ينتهي بك إلى سجن ، إما سجن نفسي ، أو سجن حقيقي ، الحصار .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي إن سمحت لي قبل أن ننتقل إلى مَن وقع في الشهوة المحرمة ، وما هي الطريقة للرجوع ؟ وهل له من عودة ، أم أنه الطريق مقطوع أمامه ؟ نأتي إلى مسألة أخرى في مسألة الوجاء ، النبي عليه الصلاة والسلام في كثيرٍ من أحاديثه عندما تحدث عن هذه القضية ، وأقر أن الشاب بحاجة إلى زواج ، ولكن لا يستطيع أحياناً الباءة ، ولا يستطيع التكلفة ، ولكن وصف له وصفة النبي عليه الصلاة والسلام لكي تكون له وجاء أمام الجانب السلبي من الشهوة .

الدكتور راتب :

الصوم علاج للشهوة :

إنه الصوم ، لكن أستاذ علاء ، ربما لا نصدق جميعاً أنه ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب ، أنا أخاطب الشباب الآن والشابات ، ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب ، الشاب كتلة نشاط ، كتلة حيوية ، وكتلة طموح ، فإذا ضبط نشاطه وحيويته وقوته وَفق منهج الله فهو عند الله في أعلى عليين ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((ريح الجنة في الشباب))

[ورد في الأثر]

أيعقل أن يكون شاب في عهد النبي قائد جيش ، من جنوده أبو بكر ، وعمر وعثمان ، وعلي ، وركب الناقة ، فمشى الصديق في ركابه ، قال له الشاب : يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن ، قال له : والله لا ركبت ولا نزلت ، وما علي أن تغبر قدمي ساعة في سبيل الله ، فلما أراد أن يستبقي عمر إلى جانبه ، استأذنه ، قال له : أتأذن لي بعمر ، انظر إلى نظام التسلسلي في حياة المسلمين .

إذاً : حينما نركز على الشباب فهم قوام الأمة ، وهم أمل الأمة ، وهؤلاء الشباب طاقات كبيرة جداً ، ينبغي أن نعتني بهم ، ينبغي نيسر لهم أعمالهم ، أن نيسر لهم مساكنهم ، وما من عمل أعظم ـ كما أرى ـ من تزويج الشباب ، ومن تهيئة فرص عمل للشباب ، ومن تهيئة بيوت للشباب ، هذا شيء الآن لا يعلو عليه هدف ، فالشباب قوة تنهض بنا ، وقوة مدمرة ، فنحن في أمسّ الحاجة إلى أن نربي الشاب على منهج الله ، وعلى أن يكون بطلاً ، فالصوم كما قال النبي الكريم أحد الأسباب الوقائية .

صحبة الصالحين أمان من الوقوع في الشهوات :

لكن في سبب وقائي آخر : صحبة الصالحين ، أنت ابن بيئتك شئت أم أبيت .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

لذلك :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

وكأن في الآية معنًى ضمنياً ، لن تستطيعوا أن تتقوا الله إلا إذا كنتم مع الصادقين ، فنحن بحاجة إلى بيئة .

أنا أوجه الخطاب للآباء ، ابحث عن صديق لابنك ، صديق منضبط ، اسأل من هو صديق ابنك ، فالصديق له أثر كبير ، وفي بعض إحصاءات علم النفس أن تأثير الصديق على صديقه يزيد على 60% من مجمل التأثير ، فالوالدان ، والإخوة ، والمعلم ، والمدرسة ، وشيخ المسجد كلهم 40% ـ و60% ، لذلك الأب العاقل يسأل عن صديق ابنه قبل كل شيء .

ثبت أن البيئة الفاسدة تغري بالمعصية ، والبيئة الصالحة تغري بالطاعة ، فأنت ابن بيئتك شئت أم أبيت .

الأستاذ علاء :

لذلك هنا سيدي أحد العلاجات الهامة في العالم ، وفي كل البلدان التي تتبع مسألة الفطام من المخدرات، والمادة المخدرة ، في مراكز الاستشفاء ، بعد الفطام ، وسحب المادة الكيماوية من الدم ، وإعطاء المادة البديلة ، ويشفى الإنسان ، أهم نقطة بعد أن يخرج من المصح أن يغير مكان سكناه ، وأن يغير صحبة أولئك الناس الذين كان يجالسهم ، وأن لا يشاهدهم ، لأن مجرد المشاهدة والاقتراب من المكان تعود الحالة في الذاكرة ، ويعود الانجذاب ، ويعود إلى المرض مرة ثانية .

الدكتور راتب :

هناك حالة نادرة في أحد دروسي في الجامع ، أحدُهم أخذه الانفعال ووقف ، وقال لي : نحن نستمع إلى الدرس فنتأثر تأثراً كبيراً ، فإذا عدنا إلى البيت عدنا كما كنا ، فما الحل ؟ فأنا قلت له جوابا سريعا : غير الطقم ، مَن حولك سيئ ، والنبي الكريم يقول :

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا ، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

العلاقات الحميمة ينبغي أن تختصر على المؤمنين ، أما علاقات العمل فمقبولة .

الأستاذ علاء :

كنت أود أن نستمر في هذا الأمر ، لكن يبدو لي الوقت دائماً يدركنا ، وحديثك جميل ، والحمد لله ، العلم المتدفق يقصر عنه الوقت بكل معنى الكلمة .

وصلنا إلى الفقرة العلمية ، والمادة الفيلمية ، فماذا اخترت لنا اليوم سيدي ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : تكوُّن الجنين في بطن أمّه :

1 ـ معجزات القرآن تؤكدها البحوث العلمية الصحيحة :

نتابع تخلق الجنين في بطن أمه ، ولكن في هذا اللقاء الطيب ينبغي أن نرى الآيات القرآنية التي تؤكدها الأبحاث العلمية ، فجميع المعلومات التي شُرحت حتى الآن في موضوع تطور الجنين في رحم الأم كُشفت خلال البحوث العلمية منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، وهذه المعلومات الجديدة أمّنت فهم معجزات

القرآن الكريم من جديد ، أن تأتي آية قبل 1400 سنة ، ثم يأتي بحث علمي معاصر يؤكدها فهذا هو الإعجاز العلمي ، يؤكد أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

2 ـ تشكُّل العظام أوّلاً ثم اللحم : فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً

فإلى فترة قريبة جداً كان يُظن أن العظم والعضلات يتشكلان معاً ، هذا موجود في أعظم كتب العلوم الطبية في الأجنة ، إلا أنه اكتشف أخيراً في بريطانية أن العظام تتشكل أولاً ، ثم تكسى العظام لحماً ، هذا الأستاذ الكبير ، الذي معه كتاب شهير قام طالب مسلم في الجامعة في لندن ، وقال : لا ، كتاب المسلمين أشار إلى هذا ، صُعق ، ولم يصدق ، وعدّ هذا تحدياً من الطالب ، فقال : ائتني بالدليل ، في اليوم التالي جاءه بالقرآن الكريم ، وقد تُرجم إلى اللغة الإنكليزية :

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)

(سورة المؤمنين الآية : 14)

الحقيقة أن المفاجأة لم تكن متوقعة ، أعلن بعد حين إسلامه ، هو بعد رأي ، وبعد بحث ودراسات وصل لهذه الحقيقة ، فإذا هي في آية قرآنية ، وهذا هو الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

3 ـ مراحل الجنين الثلاث : خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ

من جانب آخر : أوضحت البحوث الجارية في موضوع الولادة أن الطفل يجتاز ثلاث مراحل كاملة في بطن الأم ، وقد شُرحت هذه الحقيقة في واحد من المراجع الأساسية في علم الأجنة ، الحياة في بطن الأم تتكون في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : منذ التلقيح وحتى أول أسبوعين ونصف الأسبوع .

والثانية : إلى آخر أسبوع الثامن .

والثالثة : من أسبوع الثامن وحتى الولادة ، القرآن الكريم أشار قبل 1400 عام إلى ما توصلت إليه نتائج البحوث ، قال تعالى :

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة الزمر الآية : 6)

الأستاذ علاء :

شيء جميل ، الظلمات الثلاث هذه في القرآن الكريم ، سيدي الكريم ، الآن من خلال هذا الخلق الرائع الذي لا يوجد فيه فطور ، ولا يوجد فيه أي خلل ، وهذا الإعجاز اليومي من خلال الأبحاث ، ومن

خلال ما تقدمه التقنيات ، وما تقدمه مراكز البحوث ، أليس حرياً بنا جميعاً من خلال هذه الفتوح العلمية أن نتجه إلى الله ، وأن نتمسك بهداه ، وأن نعود إليه ، وأن نتوب إليه ؟.

الدكتور راتب :

لابد من عبادة الله الخالق وحْده :

هذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

حقيقة هذا الدين يجب أن تشدنا إليه ، وأن تجعلنا نسمو على كل خلافاتنا ، وأن نرتقي إلى الله رب العالمين كي نَسعد ونُسعد .

الأستاذ علاء :

هناك فهم خاطئ بأن الالتزام بشرع الله قيد ، وشغف ، ومعاناة .

الدكتور راتب :

الالتزام بالشرع ضمان للسلامة وليس قيدا للحرية :

هذا جهل فادح في حقيقة الدين ، أنت إذا رأيت لوحة كتب عليها : حقل ألغام ، ممنوع التجاوز ، هل تنقم على واضع هذه اللوحة ؟ هل تراها حداً لحريتك أم ضماناً لسلامتك ؟ هكذا الدين ، جميع الأوامر والنواهي هي ضمان لسلامتنا ، والعلاقة في كل أمر إلهي بينه وبين النتائج علاقة علمية ، علاقة سبب بنتيجة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (35-95) - مقومات التكليف : الشهوة . الشهوة الجنسية - صور المشيمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بما سبق :

بدأنا منذ حلقات نتحدث عن موضوع الشهوة كمقوم من مقومات التكليف ، وتعرفنا من خلال بحثكم ، ومن خلال تدقيقكم في هذه القضية أن الشهوة قوة كامنة ، إذا أحسن استخدامها صار الإنسان بقوة دفع أعطت المعجزات ضمن أطر ، وقانون ، وحدود ، وضمن غرز ، وإذا تفلتت خارج غرز ، أو خارج حد ، أو خارج أطُر تحولت الشهوة إلى قوة مدمرة تفني الإنسان ، وتفني معه مجتمعه الذي يعيش بين جوانحه .

تبينا أيضاً أن الشهوة في رأسها ترتكز على مسألتين : الجنس والمال ، وكل الفضائح ، وكل القضايا على هذه البسيطة ، على الكرة الأرضية تتلخص في قضيتين اثنتين : قضايا جنسية ، والثانية قضايا المال ، وقضايا الفساد ، وقضايا الاختلاس ، وكم من قضية أذهبت بصاحبها ، وبمركزه ، وبسلطانه ، إما من قضية اختلاس ، قضية مال ، أو من قضية جنس ، وقضية فساد .

تحدثنا في مسألة الجنس ، وتحدثنا عن العفة والإعفاف ، وعن غض البصر ، وعن سد الذريعة ، وعن الاحتشام ، وعن كل المسائل التي تمنع الوصول إلى الفاحشة ، وتحدثنا عن رفع السوية الروحية للفرد، وتحدثنا عن الصيام الذي أوصى به النبي عليه الصلاة والسلام ، هنالك الكثير من القضايا التي تحدثنا عنها إذا ما تبعها المرء سار سيراً حسناً ، كمن يمشي على الموجة الخضراء الذي ولا يقف عند الإشارة الحمراء ، يمشي على موجة خضراء لسرعة معينة ، يسلك هذه السابلة ، وهذا الطريق دون عوائق ، لكن إذا انحرف الإنسان ، أو زلت قدمه في متاهة ، وارتكب المعصية ، أو اقترب منها ، كانت التوبة وكان هنالك رجوع ، ماذا بقي في موضوع الجنس لننتقل إلى المال سيدي ؟

الدكتور راتب :

من معاني الرب : تربية العباد ببعض العقوبات في الدنيا :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، بقي في الموضوع أن الله سبحانه وتعالى رب العالمين ، وماذا تعني

كلمة رب ؟ أي هو المربي ، كان من الممكن أن ترجئ العقوبات إلى يوم القيامة ، وفي الأعم الأغلب سيتورط معظم الناس في المعاصي والآثام ، والمعاصي محببة إليهم ، ويغفلون عن ساعة الحساب .
شاءت حكمة الله أن يكون هناك عقاب دنيوي رادع ، لأن الله عز وجل رحيم بعباده ، يمكن أن يذيق الله عباده بعض الذي عملوه :

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

والآية واضحة جداً :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم الآية : 41)

يمكن أن يضاف الآن الجو :

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(سورة الروم الآية : 41)

الفساد من صنع البشر ، لأن كل الخلائق عدا الإنس والجن مسيرون لصالحهم ، إلا أن الإنسان قبل حمل الأمانة ، وتصدى لها ، وقال : أنا أهل لها يا رب .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

فلما قبل الإنسانُ حملَ الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريف وتكريم ، فالكون مسخر له تسخير تعريف وتكريم ، وأعطاه العقل ، وقد تحدثنا عنه ملياً ، أعطاه الشهوة ، أعطاه الفطرة ، أعطاه الحرية ، أعطاه الشرع ، نحن في طور الحديث عن الشهوة ، هذه الشهوة كما تفضلتم في تقديم هذا اللقاء الطيب قوة دافعة إلى الله ، أو قوة مدمرة ، فلو أن الإنسان غفل عن ربه ، وغفل عن منهج ربه ، وغفل عن مصيره ، واتبع شهوته بلا ضابط ، وبلا رادع ، وبلا منهج ، وأراد أن يستمتع بالحياة ، ولا يعبأ بما بعد الموت ، لو أن هذا الإنسان ترك على ما يريد وجاءه الموت استحق العذاب الأبدي ، لكن لأن الله رب العالمين ، ولأنه رحمن رحيم ، يعالجه في الدنيا لعله يتوب ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

مراحل المعالجة الربانية للعبد :

وتحدثت في لقاءات سابقة أن الله سبحانه وتعالى من حكمته البالغة أنه يبدأ مع الإنسان بالهدى البياني ،

يسمع خطبة ، درسا ، شريطا ، محاضرة ، ندوة ، هدى بياني ، وهو في كامل صحته ، والله ينتظر منه أن يستجيب .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 24)

فإذا لم يستجيب قال تعالى :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المعاكس المخالف الرائع : الذي يتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه ، أودع الله في الإنسان حب المرأة ، ففتح له قناة الزواج ، أودع الله في الإنسان حب المال ففتح له قناة الكسب المشروع . إذاً : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، وليس في الإسلام حرمان ، ولكن لأن الله رب العالمين ، ولأنه رحمن رحيم ، ولأنه خلق الإنسان ليسعد في الدنيا والآخرة يربِّيه ، فكيف يربِّيه ؟ يسوق له من الشدائد ما يردعه بها عن انغماسه بالشهوات المحرمة .

العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية :

لكن الشيء الذي أتمنى أن يكون واضحاً لدى الإخوة المشاهدين أن هناك علاقة وضعية ، وعلاقة علمية ، ما الفرق بينهما ؟ العلاقة الوضعية أنا اخترعت علاقة ، وفرضتها بحكم قوتي ، أقول لابني : اخرج من هذا الباب ، ولا تخرج من هذا الباب ، البابان معدَّان للخروج ، أنا أردت أن أنظم الحياة في البيت ، البيت له بابان ، واحد للدخول وواحد للخروج ، فرضاً ، هذه العلاقة اخترعها الأب ، فهي وضعية ، أما حينما يضع الطفل يده على المدفأة المشتعلة تحترق يده ، هذه علاقة علمية ، لأن وضع اليد فيه بذور الاحتراق ، فالعلاقة علمية .

حينما أفهم أن كل أوامر الله ، وكل النواهي بينهما وبين النتائج علاقة علمية ، علاقة سبب بنتيجة ، فهذه أخطر فكرة أقولها .

حينما أقرأ لوحة كتب عليها : " حقل ألغام " ، لا أحقد أبداً على واضع اللوحة ، بل أشكره من أعماق نفسي ، لا أرى اللوحة حداً لحريتي ، بل أراها ضماناً لسلامتي .

حينما أقرأ لوحة : " ممنوع الاقتراب من التيار " ، القضية ليست مع الشرطة ، وليست مع القوانين ، وليست مع المخالفات ، وليست مع المساءلة القانونية ، وليست مع العقاب البشري ، التيار نفسه يعاقب الذي اقترب منه ، يجعله فحمة سوداء .

حينما أصل مع الإخوة المشاهدين إلى أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً أن العلاقة بين الأوامر والنواهي علاقة علمية علاقة سبب بنتيجة فقد وصلنا إلى نتيجة كبيرة .

تصور إنسانًا اقترب من منطقة خطر لتيار توتره عالٍ ، ورأى لوحة الكهرباء : " ممنوع الاقتراب من التيار " ، حينما تراه يتلفت يمنة ويسرى ، ويقول : هل هناك شرطي يحاسبني ؟ فهو في حضيض الغباء ، ليس الموضوع موضوع شرطة ، ولا ضبط ، ولا مساءلة ، التيار يعاقبك .

لحكمة بالغةٍ الله عز وجل توعد كل العصاة بنتائج من جنس عملهم .

الأستاذ علاء :

مرة سقت لنا مثالاً للجسر الذي يتحمل أوزانًا معينة ، وجاءت شاحنة تفوق في حملها استطاعة ذلك الجسر ، وتلفت السائق : هل هنالك شرطي ؟

الدكتور راتب :

حبُّ السلامة واستمرارُها مطلب كلِّ إنسان :

ليس الموضوع موضوع شرطي ، إذا هُدم الجسر يسقط في النهر ، هذه الفكرة التي أتمنى أن تكون واضحة لدى الإخوة المشاهدين ، أما المعاصي التي نهى الله عنها فيها بذور نتائجها ، وأن العلاقة بين المعاصي ونتائجها علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة .

حينما يحب الإنسان نفسَه ، حينما يكون بالتعبير الدارج أنانياً ، حينما يحرص على سلامته ، حينما يحرص على وجوده ، حينما يحرص على سلامة وجوده ، حينما يحرص على كمال وجوده ، حينما يحرص على استمرار وجوده يطيع الله عز وجل ، وحينما يطيع الله عز وجل يطيعه بدافع حب لسلامته ، لأن الله هو الصانع ، وتعليماته هي التعليمات الوحيدة التي ينبغي أن تتبع ، وما من تعليمات يجب أن تتبع إلا تعليمات الصانع الخبير .

كل إخواننا الكرام الذين اقتنوا سيارات ، كل متاعبهم لأنهم لم يقرؤوا تعليمات المعمل .

إن الإنسان بدافع من حبه لذاته ، من أنانيته ، ينبغي أن يطيع الله عز وجل ليضمن سلامته وسعادته ، وأنا أصر وأقول : في القارات الخمس 6 آلاف مليون إنسان ، ما من إنسان واحد إلا وهو يتمنى سلامته وسعادته .

الأستاذ علاء :

هنالك كما تفضلت ارتباط بين المعصية كسبب ، وبين النتيجة ، النتيجة العلمية الارتباط ، أو العلاقة السببية العلمية ، فكلُّ معصية يرتكبها الإنسان بالعلاقة العلمية تؤدي إلى نتائج وخيمة تهدد حياة

الإنسان، هل من شروح لهذا الأمر ؟

الدكتور راتب :

العاقل يحكمه النص ، وغير العاقل يحكمه الواقع :

أنا أضرب هذا المثل دائماً : العاقل يحكمه النص ، بينما الدابة يحكمها الواقع .

مثلاً : أنا لي مبلغ كبير جداً في مدينة حمص ، والأيام أيام شتاء ، وركبت مركبتي ، وتوجهت إلى حمص ، فإذا لوحة صغيرة جداً كتب عليها : " الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في مدينة النبك ، أنا أرجع من ظاهر دمشق ، ولا يمكن لعاقل واحد قرأ هذا النص أن يتابع السير ، لكن لو أن دابة تمشي على هذا الطريق أين تقف ؟ تقف في النبك ، عند انقطاع الطريق بالثلج .

حينما يحكمني الواقع أنا أهبط عن مستوى إنسانيتي ، وحينما يحكمني النص أنا أرقى إلى مستوى إنسانيتي .

مثل أقرب : هذا الذي يدخن ، ويدخن ، إلى أن فوجئ أن ورماً خبيثاً في رئتيه ، لا شك أن عندئذٍ يمتنع عن التدخين ، لكن هذا ليس عاقلاً أبداً ، ينبغي أن تمتنع عن التدخين بعد أن تقرأ بحثاً علمياً مخيفاً عن آثار التدخين ، أو بعد أن تقرأ حكماً شرعياً يردع المدخنين ، أما حينما يصاب الإنسان بمرض عضال ، ويمتنع فهذا أمرٌ عادي جداً ، هو كالدابة حكمها الواقع .

الأستاذ علاء :

السعيد لا يحكم بالواقع ، يحكم بالنص ، والسعيد من اتعظ بغيره .

الدكتور راتب :

العاقل يحب ويكره بعقله :

بكلام الخبير ، السعيد لا يتعلق بالنتائج المادية ، بالمتوقعات العقلية ، لذلك قالوا : من هو العاقل ؟ الذي لا يندم ، هو استمرأ شهوة ، استمرأ معصية أحبَّها ، ركن إليها ، نسي الوعيد ، مهمة الشيطان أن يعطيك إيجابيات المعصية ، تُسر ، الحياة سرور ، أنت شاب فعِشْ شبابك ، يزيِّن له إيجابيات المعصية، والمعصية لها إيجابيات لا تصدق ، المعصية محببة للناس جميعاً ، يزين له إيجابيات المعصية ، ويغيِّب عنه نتائجها الوبيلة ، فمَن هو العاقل ؟ هو الذي يحب بعقله ، ويكره بعقله ، أما الذي يحب بأحاسيسه وشهواته فليس عاقلا .

دعك من كل الأمثلة : الطعام والشراب ، مَن هو الذي يتمتع بصحة رائعة لأمد طويل ؟ هو الذي يعتني بطعامه ، وشرابه ، ولا يساق وراء شهوته ، الطعام طيب ، وهناك طعام يميت .

القضية أن نحب بعقولنا ، وأن نكره بعقولنا ، أما إذا وضعنا الأحاسيس مكان العقول نتفلت من كل منهج وضعه الله لنا .

الأستاذ علاء :

الله عز وجل أنزل هذا المنهج ليعمل المرءُ عقله ، هذه الجوهرة التي منحه وأعطاه الله إياها ، هذه الوديعة أن يُعمِلها ، وألاّ يعطّلها ، وأن يُعمِلها في كل شؤون حياته .

الدكتور راتب :

ابدأ من النهاية :

وأنا أصر وأقول : هناك خطان لا ثالث لهما ، فإما أن تكون على الخط الأول ، وإلا فأنت حتماً على الخط الثاني ، والدليل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)

ـ يا محمد ـ

(فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ)

العبرة أستاذ علاء من يضحك آخراً ، الذي يضحك أولاً يضحك قليلاً ، ويبكي كثيراً ، والذي يضحك آخراً يضحك كثيراً ولا يبكي أبداً .

فلذلك البطولة أن أعيش المستقبل ، أنا أقول : الأغبياء وحدهم يعيشون الماضي ، ويتغنون بالماضي ، والأقلّ غباءً يعيشون الواقع ، بينما العقلاء يعيشون المستقبل ، ما هو أخطر حدث مستقبلي في حياة كل إنسان ؟ مغادرة الدنيا .

تصور بيتًا ثمنه ثمانون مليونًا سيغادر إلى قبر ، الصالونات ، الغرف ، الثريات ، السجاد الأصفهاني ، الأجهزة الحديثة ، سوف يغادر هذت كله إلى القبر ، لذلك في البرمجة العصبية اللغوية يقولون : " ابدا من النهاية " .

أنا أرى بطولة الإنسان حينما يبدأ من الموت ، إذا تفكر في الموت يأخذ الدكتوراه ، ويؤسس معملا ، ويتزوج ، يكون بأعلى درجة من الإيجابية والعطاء في مجتمعه ، لكن التفكر بالموت يمنعه أن يعصي الله .

الأستاذ علاء :

لا ينسى الامتحان ؟

الدكتور راتب :

لابد من الامتحان لإظهار الفائز والخاسر :

الامتحان لا يُنسَى أبدا ، التفكر بالموت يمنعه أن ينزلق ، بل يسرع الخُطى إلى الله عز وجل .
أريد في هذا اللقاء الطيب أن أؤكد على هذه النقطة ، أن الله رب العالمين ، ومعنى أنه رب العالمين ، أي أنه يعاقب العصاة عقاباً دنيوياً لعلهم يرتدعون :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم)

والآن في العالم أربعون مليون إنسان مصاب بالإيدز ، وقد مات في العقدين الماضين 22 مليونا ، والرقم المخيف ، والرقم الحقيقي عشرة أضعاف ، هذا الذي يصدر من قِبَل الدولة ، وكلُّ إنسان جاء إلى البلد يُجبَر على تقديم فحص ، هذا الرقم مأخوذ من هذه الضبوط فقط ، وقد يكون الإنسان الذي يحمل هذا الفيروس خمسة عشر عاماً ، وهو ينقله لمئات الناس دون أن يشعر ، ولو شعر الناس ماذا يصنعون ؟

لذلك سافر إنسان إلى إيطاليا ، والتقى بامرأة بغي ، وفي الصباح غادرت قبل أن يستيقظ ، كتبت له على مرآة المرحاض : " مرحباً بك في نادي الإيدز " ، فانتحر فوراً .

حينما يعرف الإنسان أن الله عز وجل جعل للمعاصي نتائج ردع كبيرة جداً يراقب نفسه .

مرة سألني واحد : هل على العسل زكاة ؟ قلت له : طبعاً ، قال لي : والدي لا يفعل ، فقلت له كلمة لطيفة : عندنا حشرة اسمها قراد النحل ، لا تبقي ولا تذر ، إن دفعت الزكاة فقد دفعت القراد ، وإلا فهو جاهز .

قضية الردع قضية مهمة جداً ، هناك إنسان يستخدم عقله فيرتدع ، وإنسان يحكمه النص فيرتدع ، وإنسان تحكمه محبة الله ، يطيعه ، هذه أرقى شيء ، لا يعصي الله ، لا لأنه يخاف نتائج المعصية ، بل لأنه يحب الله ، ولا يحب أن يعصيه .

الأستاذ علاء :

المعصية مع المحبة لا تلتصقان .

الدكتور راتب :

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لـمن يحب يطيع

مرة شاب التزم ببعض الدروس ، وسمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً ، يبدو أنه زلت قدمُه ، فانتظر كما قال شيخه العقابَ من الله ، مضى أسبوع ، وأسبوعان ، ما حدث شيء ، صحته ، بيته ، سيارته ، دخله ، أولاده كلها في العافية ، في أثناء المناجاة قال : يا رب ، لقد عصيتك ولم تعاقبنِي ! فوقع في قلبه كما يقول بعض علماء القلوب : أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ، ألم أحرمك لذة مناجاتي؟

أستاذ علاء ، أنا أقول لك كلاماً : أكبر دافع للطاعة أنك حريص على صلتك بالله ، فلا تضحِّ بها من أجل معصية طارئة ، حرصك على اتصالك بالله يدفعك إلى طاعته ، هذه مستويات عالية جداً .

لذلك مرة أجرى علماء النفس استبيانا على ألف زوج ، السؤال كان : لماذا لا تخون زوجتك ؟ فالجواب صنف تصنيفاً أخلاقياً ، قسم كبير أجاب : لا أستطيع ، لأنها معه ، ملازمة له دائماً ، وقسم قال : لأنني لا أتحمل الشعور بالذنب ، أما أرقى من هذا فقال : لا أحب الخيانة .

أنا أقول : العقاب الذي وضعه الله في الدنيا للعصاة مهمته الأولى ردع الباقين ، لذلك أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا ، إلا اسم العدل فمحقق جزئياً ، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ، ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين ، أما الردع فمؤلم جداً .

حتى لا نفكِّر في الفاحشة :

أستاذ علاء ، نحن نستسمح الإخوة المشاهدين عذراً بأن نريهم بعض الصور المزعجة ، لكن والله أرى منها فائدة كبيرة جداً لكل مَن تحدثه نفسه أن يعصي الله عز وجل عز وجل ، كأن مرض الإيدز مرض مخيف ، هو من سهولة الوقاية منه بشكل غير معقول ، يكفي أن تكون عفيفاً ، أما إذا جاء المرض فهو مرض مستعصٍ ، والخطأ الاستراتيجي عند الغربيين يريدون أن يتابعوا إباحيتهم ، لكن يبحثون عن مصول مضادة لهذا المرض ، كما لو أن مدينة تشرب ماء ملوثا ، والأمراض انتشرت فيها، الموقف العقلاني أن أوقف أنواع الممارسة ، أنا أريد أن أتابع التلوث ، وأن أستخدم أطباء ، وأن ابحث عن مصول ، وعن علاجات ، هذا خطأ كبير جداً ، لذلك :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

سيرى الإخوة المشاهدون بعض الصور المخيفة من أمراض جنسية تأتي بعد الزنا ، الصورة الأولى : هذا ورم أصاب اللسان ، صورة ثانية : أصاب الوجه ، تشوه أصاب الوجه ، صورة ثالثة : فطور

ظهرت على جلد إنسان ، صورة رابعة : مرض خبيث في الفم ، وورم خبيث في الشفتين ، سقف الحلق قد ثقب ، اليدان ، الأرجل ، وهكذا ، هذه كلها صور تردع الإنسان عن أن يقترف معصية ، ينبغي أن يردعه عقله ، وينبغي أن يردعه صلته بالله عز وجل .

فلذلك نحن نريد من هذا اللقاء الطيب أن نؤكد للإخوة الكرام أن كل معصية وراءها عقاب في الدنيا ، فالذي يحرص على سلامته ينبغي ألا يتورط في هذه المعاصي والآثام .

إن الإنسان إذا أراد أن يقوم بعمل فليتدبر عاقبته ، وهذا هو العقل ، وإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أرادت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطيك شيئاً ، لذلك طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، أعود إلى ما بدأت به ، بأن علاقة منهيات الله عز وجل بالنتائج إذا اقترفها الإنسان ، إذا نهى الله في قرآنه ، والنبي في السنة عن الإتيان بالمعاصي فالعلاقة بين المعصية ونتيجتها علاقة علمية ، وليست وضعية .

الدكتور راتب :

علاقة سبب بنتيجة ، فالذي يحب ذاته حريص على سلامته ، وسعادته يطيع الله عز وجل ، إن الله هو الصانع ، وتعليماته ينبغي أن تتبع ، وهو الخبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

الموضوع العلمي : الجنين :

الدكتور :

لا زلنا عند الجنين الآن الفقرة قبل الأخيرة ، وفي لقاء آخر نأخذ خاتمة الموضوع وهو الولادة .

1 – المشيمة :

الجهاز الذي نراه على الشاشة واحد من أجهزة الطفل ، وهو أحدث تقنية في العالم ، هذه وحدة دعم الحياة اللازمة للمرضى في العناية المشددة ، إلا أنه في أثناء مقارنة هذه التقنية التي تملأ غرفة بجهاز فائق آخر سنرى الفرق بينهما ، هذا الجهاز الفائق هو المشيمة التي تحيط بالجنين من الجهات كلها ، وتسد حاجته ، المشيمة وحدها تعمل كوحدة غسيل الكلية والقلب والرئة والكبد الاصطناعي ، وجهاز

الهضم ، والدوران ، تقوم بجمع هذه المهمات في وقت واحد ، إنه تصميم خارق يؤمِّن حياة الطفل والأم معاً .

2 – دور المشيمة :

ما هي المكونة للمشيمة ؟ تعرف من بين ملايين الخلايا في بطن الأم ، هذه المشيمة تعرف بالضبط كم يحتاجه الجنين من الغذاء ، تأخذ الأوكسجين من دم الأم تطرحه في دم الجنين ، تأخذ الأنسولين تطرحه في دم الجنين ، تأخذ السكر تطرحه في دم الجنين تأخذ عوامل المناعة من الأم تطرحها في دم الجنين ، والآن تعرف ماذا يحتاجه الجنين من مقومات الغذاء ، من بروتينات ، والشحوم ، والفيتامينات ، والمعادن ، لا يستطيع أطباء الأرض مجتمعين القيام بهذه المهمة ، ولو تركت مهمة المشيمة لأطباء الأرض مجتمعين لمات الجنين في ساعة واحدة .

إنه شيء لا يصدق ، بل حينما تعطي الجنين السكر ، والأنسولين ، والأوكسجين يحترق السكر ، والفضلات تعيدها إلى دم الأم لتطرحها في أثناء تنفسها ، وحينما تأخذ البروتينات والمواد المرممة من الجنين يكون الاستقلاب في دم الجنين الناتج حمض البول ، تعيدها إلى الأم ، كي تطرحها مع جهازها البولي .

وحينما ينقص الجنين مادة معينة كيف يخبر أمه ؟ تشتهي الأم طعاماً فيه هذه المادة ، شيء لا يصدق ، هذا كله في هذه المشيمة ، والمشيمة فيها دورة دم الأم ، ودورة دم الجنين ، وكل دم له زمرة ولا يختلطان ، ولمجرد أن يختلط دم الأم بدم الجنين تموت الأم والجنين معاً ، ولا يختلطان ، بينهما هذا الغشاء العاقل ، شيء لا يصدق .

نحن نعطي معلومات بسيطة جداً يأخذها طلاب الطب في أول مراحل دراستهم ، أما الأمر فهو أعقد بكثير ، هذا يسميه العامة الخلاص ، هذه المشيمة فيها من آيات الله الدالة على عظمته ما لا يصدق .

تنقل عوامل المناعة ، تنقل المادة الغذائية ، تعيد حمض البول ، تعيد ثاني أوكسيد الكربون ، جهاز اسمه غشاء المشيمة العاقل ، سماه الأطباء غشاء المشيمة العاقل ، لأنه يقوم بأعمال تعجز عنها العقلاء، نحن ماذا نفعل عد الولادة ؟ نرميه في المهملات ، هذا القرص اللحمي يسميه العوام الخلاص هو عند الأطباء المشيمة ، وبين دورة دم الأم ، ودورة دم الجنين هذا الغشاء العاقل يقوم بمهمات يعجز عنها الأطباء ، والله الذي لا إله إلا هو قراءة تفاصيل هذا الموضوع يبعث في النفس إيماناً لا حدود له .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (36-95) - مقومات التكليف : الشهوة - شهوة المال

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-09-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكيرية :

في حلقات سابقة توقفنا عند الشهوة ، وعند تعريفها ، وعند إفرزاتها ، وعند ما جاء به الشارع ، وجعلها في المجال الصحيح ، وعند ما أتى الشارع ، ونبهنا من خلال البيان النصي والعقلي لنتجنب مزالق هذه الشهوة ، ولنتجنب استخدام الشهوة في مجالات التي لا يريدها الله ، لأنها تضر بالإنسان .
وتبينا من خلال الحلقة الماضية بأن العلاقة واضحة بين ما نهى عنه القرآن والسنة النبوية بين المنهيات ، وبين نتائجها بعلاقة علمية بين سبب ونتيجة ، وأن كل معصية لها نتائج في الحياة الدنيا قبل الآخرة .
وتحدثنا في الحلقة الماضية عن شهوة الجنس ، وأغلقنا الستار إن صح التعبير لنبتدئ في مسألة هامة جداً ، هي شهوة المال ، كيف نظر إليها الشرع ، وكيف أطّرها ، وكيف جعل لها حدوداً ونقاط ، إذا خرج الإنسان مركبته في هذا المنحى دمر نفسه ، ودمر مجتمعه ، ونستذكر قول الله تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)

(سورة آل عمران الآية : 14)

إذاً : هناك زينة ، كما تفضلت في حلقات سابقة :

(مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

المال قوام الحياة :

أستاذ علاء ، في أول هذا اللقاء الطيب نقول : إن المال قوام الحياة ، فالنفس في قضية المال بين تطرفين : إما أن الناس يعبدونه من دون الله ، فيرتكبون كل المعاصي والآثام من أجل الحصول عليه ، وعلى حساب دينهم وقيمهم ومبادئهم ، وإما أن ينبذوه نبذاً غبياً فيفتقرون إليه بعد حين .

إن الإسلام وسطي ، المال قوام الحياة ، والمال قوة كبيرة في الإنسان ، والمال حيادي ، وبإمكان الإنسان أن يرتقي بالمال إلى أعلى مراتب الجنة ، وبإمكانه أن يصل بالمال إلى أدنى دركات المال ، المال حيادي ، وكل الحديث السابق أن الإنسان مخير ، ولأنه مخير كل حظوظه من الدنيا حيادي ، وكل إمكاناته حيادية ، يمكن أن توظف في الخير ، أو في الشر ، وكل خصائصه حيادية ، فالمال قوام الحياة ، يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

(سورة النساء الآية : 5)

قيام البشر بالمال .

تصور شابًا حصل على عمل بدخل محدود ، فتزوج ، ارتاحت نفسه ، سكن بيتًا ، الله عز وجل جعل في المال قياماً للحياة ، والذين يعبدونه من دون الله أخطؤوا ، والذين يهملونه أخطئوا ، فالإسلام وسطي ، كأن المال خط عمودي عليه نقطتان وعلامتان واضحتان ، فوق هذا الخط تطرف ، وتحت هذا الخط تطرف ، إن أهملته فقد تضيع كرامتك من أجله ، وإن بالغت بتعظيمه ضاعت مبادئك من أجله .

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[ورد في الأثر]

المال قوة ، لذلك النبي الكريم يقول :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

الذي معه المال متاح له أن يفعل من الأعمال الصالحة ما لم يتح للملايين من الناس ، المال قوة ، فقد يكون المال سبب شقاء الإنسان .

((بادِرُوا بالأعمال الصالحة : ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ، هل تُنْظرون إلا فقْرا مُنْسيا ، أو غِني مُطغيا))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

حينما أهمله ، وأهمل كسبه ، أتضعضع ، وأذل أحياناً ، وحينما عبده من دون الله شقي به في الدنيا والآخرة .

دائماً الإسلام وسطي ، والفضيلة دائماً وسط بين طرفين ، فالله عز وجل في قرآنه الكريم بيّن أن المال قوام الحياة ، ينبغي أن نكسبه من طريق مشروع ، وأن ننفقه في مصارف مشروعة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، يخطر في بالي سؤال : نسمع بين الناس كثيراً أن هنالك مَن افتقر ، فعف ، وترك أمره إلى الله، واحتسب أمره عند الله ، والتزم ، ولم يحقد على مَن يملك ، ولم يمد يده إلى الحرام ، وهنالك من

اغتنى ، ولكنه جعل هذا الغنى مجالاً للخير ، وصرف غناه في أوجُهِ الخير ، مَن هو الأفضل مكانة عند الله ؟

الدكتور راتب :

ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر :

ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر ، هذا هو الجواب ، المال قوة ، وبإمكانك أن تمسح دموع الفقراء ، بإمكانك أن تزوج الشباب ، بإمكانك أن تقيم المياتم والمصحات ، بإمكانك أن تنشئ المدارس ، بإمكانك أن تصل بالمال إلى أعلى درجات الجنة ، يؤكد هذا قول النبي الكريم :

((لا حَسَدَ إلا على اثْنَتَيْنِ : رجلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآنَ ، فقام به آناء اللَّيل وَآنَاءَ النَّهار ، ورجلٌ أعْطَاهُ اللَّهُ مالا ، فَهوَ يُنْفِقهُ آنَاءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهار))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن عمر]

فقد رفع النبيُّ الغنيَّ المؤمنَ المحسن إلى مستوى أكبر الدعاة والعلماء ، فالمال قوة ، ويجب أن نبحث عن المال .

الغنى بالطرق المشروعة ممدوحٌ :

ولكن هناك تعليق دقيق جداً : لأنك بالمال متاح لك أن تفعل من الأعمال الصالحة ما لا يوصف ، فينبغي أن تكون غنياً ، ولكن إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً ، أما إذا كان طريق الغنى على أساس أن تتخلى عن دينك ، وعن مبادئك ، وعن قيمك ، أو أن تخون أمتك ، فالفقر وسام شرف لك ، فأنا أكون غنياً إذا كان الطريق إلى الغنى سالكاً وفق منهج الله ، دون أن أبني مجدي على أنقاض الآخرين ، ودون أن أبني غناي على فقرهم ، وحياتي على موتهم ، وعزي على ذلهم .

أتمنى من كل شاب أن يكون غنياً ، لأن الغني متاح له من الأعمال الصالحة ما لم يتح لغيره ، هذه نقطة دقيقة جداً .

بين فقر الكسل وفقر القدر وفقر الإنفاق :

1 – فقر الكسل :

هناك فقر الكسل ، هذا فقر مذموم ، وهناك فقر القدر ، في عاهة ، العاهة تمنعه أن يكسب المال ، صاحب فقر القدر معذور ، والمجتمع ينبغي أن ينهض لمساعدته ، لكن صاحب فقر الكسل مذموم ، هذه مشكلة كبيرة جداً ، الفقير فقر الكسل ليس محترماً عند الله ولا عند الناس .

دخل النبي على رجل يعبد الله في أقوات العمل ، قال له : من يطعمك ؟ قال : أخي قال :

((أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

أمسك النبي الكريم يد عبد الله بن مسعود ، وكانت خشنة من العمل ، فرفع يده أمام أصحابه وقال :

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

التقى سيدنا عمر بأناس فقراء ، قال : << من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون ، قال : كذبتم ، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ، ثم توكل على الله >> .

سيدنا عمر له ملمح لا يصدق ، مرّ ببلدة كل الفعاليات الاقتصادية فيها من غير المسلمين ، فلما عاتبهم أشد العتاب على تقصيرهم في كسب الأموال ، قالوا : إن الله سخرهم لنا ، كما يقول بعض الأغنياء الكسالى الآن : لقد سخرهم الله لنا ، فاشتد غضبه ، وقال : << كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟>>.

أستاذ علاء ، الغني قوي ، والغني يتحكم في الفقير أحياناً ، وأنت لا تصدق أن تعمير محرك طائرة يكلّف 5 ملايين دولار ، أربع محركات 20 مليون دولار ، مليار ليرة ، كم طنًّا قطن ؟ أصحاب التقنيات العالية يتحكمون ففي العام الآن .

الأستاذ علاء :

وقالوا : مَن يملك الاقتصاد يملك القرار .

الدكتور راتب :

مَن يملك الاقتصاد يملك القرار :

أنت قوي بقدر ما أنت غني ، وأنت تفتقر إلى حرية الحركة بقدر ما أنت فقير ، فلذلك المال قوام الحياة، الذي أريد أن أؤكد : إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ، ضمن مبادئك ، ضمن قيمك ،

ضمن الطرق المشروعة ، ضمن القنوات النظيفة ، ضمن ما أُقِرّ من قِبل قيم السماء والأرض ، ينبغي أن تكون غنياً ، أما إذا كان طريق الغنى على حساب مبادئك ، وعلى حساب دينك ، وعلى حساب قناعاتك ، فلا مرحباً بهذا المال ، أو على حساب وفائك لأمتك ، لا مرحباً بهذا المال ، أقول لمثل هذا الذي ترفع عن هذا المال الذي تدفع ثمنه باهظاً جداً : فقرك وسام شرف لك .

2 – فقر القدر :

أما فقر القدر فصاحبه ليس مذموم ، بل هو معذور .

3 – فقر الإنفاق :

عندما فقر ثالث ، هذا فقر الإنفاق لأنه أنفق ، هذا موضوع ثانٍ ، أبو بكر أنفق كل ماله ، قال له النبي: يا أبا بكر ، ماذا أبقيت لك ؟ قال : الله ورسوله ، سيدنا الصديق افتقر ، لأنه أنفق ، وكل إنسان عنده مروءة لا يحتمل أن يتمتع هو بالحياة وحده ، وأن يرى حوله المعوزين البائسين الفقراء المرضى ، لذلك كلما ارتقت مشاعر الإنسان كان ماله في خدمة المجموع .

الله عز وجل قال :

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية : 188)

استنباطات من قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

والله أستاذ علاء ، هذه آية فيها ملمح خطير جداً : مال أخيك هو مالك ، لا بمعنى أنه ملك لك ، بمعنى أنك مكلف أن تحافظ عليه كما لو أنه مالك ، هذه واحدة .

المعنى الثاني : أخوك ماله مالك ، بمعنى أن المال ليس ملكك حصراً ، بل ملك جميع المسلمين ، بمعنى أنه ينبغي أن تنفقه في الصالح العام ، أمّا أن تنشئ مثلاً لنفسك رفاهًا وبذخًا غير معقول فهذا شيء مذموم .

أنا أقول كلمة طريفة : مرة سألني تاجر : إذا اقتنيت الأشياء الغالية جداً إلى درجة غير معقولة هل أنا مؤاخذ ؟ أردت ألا أقنعه بالنصوص ، بل أردت أن أقنعه بالمثل ، قلت له : هناك رجل معه مئة مليون ، اشترى بيتا بـ75 مليونا ، وسيارة بـ 25 مليونًا ، وما عنده دخل آخر ، يكون أحمق ، اشترِ بيتا بعشرة

ملايين ، واشترِ وسائل أخرى ، مركبة بمليونين ، وشغل الباقي ، ابحث عن هذا المال الضخم بدخل كبير .

هذا المال قوام الحياة ، وهو شيء أساسي يملكه الإنسان .

الأستاذ علاء :

سؤال : ماذا عن افتقار المال ؟

الدكتور راتب :

فقر كسل ، فقر قدر ، وفقر إنفاق .

الأستاذ علاء :

فقر الإنفاق هل هو في الذين ينفقون ، ويتملكون هذه المادة ، ويصرفونها ويشتتونها في أوجه خير الناس ؟

الدكتور راتب :

لستَ مكلَّفًا بإنفاق جميع مالك :

والله هذه بطولة كبيرة ، لكن الإسلام ما كلف الإنسان فوق طاقته ، فلذلك قال تعالى :

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

(سورة البقرة الآية : 195)

العلماء حاروا في هذه الآية ، ما معنى التهلكة ؟ لكن النتيجة استقرت على أنك تهلك إن لم تنفق مالاً في سبيل الله ، تأتي يوم القيامة مفلساً ، وتهلك مرة ثانية إن أنفقت كل مالك .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

(سورة الفرقان)

فيهلك الإنسان إن أنفق كل ماله ، عنده أولاد ، عنده أساسيات الحياة ، ويهلك أيضاً إذا لم ينفق ماله ، أما سيدنا الصديق فحالة استثنائية ، هذا يسميه العلماء موقفا شخصيا ، وليس حكماً شرعياً ، هي مرتبة له اختص بها ، لكن ليست حكماً شرعياً .

النبي الكريم لما هاجر انتقل سراً وخفية ، وفي الليل ، واتجه مُساحلاً ، وقبع بغار ثور ، ثم هيأ راحلة، وهيأ خبيراً ، وهيأ من يمحو الآثار ، أخذ بكل الأسباب ، أما سيدنا عمر فهاجر جهاراً نهاراً متحدياً ، الإنسان الساذج يقول : والله سيدنا عمر أشجع من النبي ، نقول له : عمر ليس مشرِّعاً ، لكن النبي مشرِّع ، لو أن النبي هاجر جهاراً نهاراً متحدياً فقد هلكت أمته مِن بعده ، ولأصبح أخذ الحيطة حراماً ، وأخذ الأسباب حراماً ، ولهلكت أمته من بعده ، لكن هو مشرِّع .

النبي مشرِّعًا لم يقبل من أحد ماله كله إلا الصدِّيق ، لم يقبل من أحد ماله كله ، لكن قبل نصف المال من عمر .

غنى الكفاف والعفاف :

المال قوام الحياة ، وهناك فقر الكسل ، وفقر القدر ، وفقر الإنفاق ، وهناك كفاية ، هناك غنى البذخ ، وهناك غنى الكفاية ، فإذا كان دخلك يغطي نفقاتك فأنت غني ، لذلك النبي في بعض أدعيته يقول :

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

ليس فقيراً ، عنده كل حاجاته ، لكن من دون بذخ ، من دون سجادة ثمنها مليونان ، هناك سجادة جيد جداً وجميل وثمنها خمسة آلاف ، من دون بذخ غير معقول ، والبذخ يولد أحقادا في المجتمع ، الفقير إنسان له مشاعر ، يرى الآخرين غارقين في النعيم ، غارقين في البذخ .

حدثني إنسان قال لي : والله في بيته حنفية بثمن بيت ، من الذهب الخالص صنبور ماء بثمن بيت بأكمله ! الناس يموتون من الجوع ، فلذلك الغني المؤمن يأخذ الحاجات الأساسية ، ويعود بماله على بقية الناس .

الأستاذ علاء :

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ سَمُرَةَ قَالَ :

((جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَن : فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ ، وَيَقُولُ مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، مَرَّتَيْنِ))

وبعدها لما قال : سمعت رسول الله يقول صلى الله عليه وسلم :

((قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً))

[أخرجه الطبراني ، والبزار ، والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين]

فتبرع بكل القافلة .

الدكتور راتب :

إتلاف المال سفهٌ ، وأشد سفهًا منه إتلاف الوقت :

أريد أن أنوه إلى شيء ، الحقيقة ليس له علاقة متينة بالموضوع ، لكنه مهم جداً ، الآن إذا أصيب رجلٌ ـ لا سمح الله ولا قدر ـ بمرض عضال ، وهذا المرض تحتاج عمليته الجراحية خارج القطر مثلاً

إلى مليوني ليرة ، ولا يملك إلا بيتا ثمنه مليونان ، ماذا يفعل ؟ أنا أقول لك : إنني متأكد أنه لا يتردد ثانية واحدة في بيع بيته ، وإجراء العملية ، لماذا ؟ لأنه مركوز في أعماق أعماقه أن الوقت أثمن من المال ، لأنه بهذه العملية يتوهم أنه سيعيش بضع سنوات أخرى ، أليس كذلك ؟ إذاً ضحى ببيته الوحيد ، وأجرى عملية متوهماً من خلال إجراء العملية أنه سيعيش بعض السنوات الأخرى ، هذه مقدمة .

إذا أمسك الرجل بمئة ألف ليرة أمام أشخاص عديدين وأحرقها ، كم يحكم عليه من الحاضرين السفه ؟ الكل من دون استثناء .

إذاً إتلاف المال سفه ، وإذا كان الوقت أثمن من المال ، فالذي يتلف وقته أشد سفهاً من الذي يتلف ماله.

الإيمان مرتبة علمية ، ومرتبة أخلاقية ، ومرتبة جمالية ، فإذا أردت أن تكون إنساناً بالمعنى الدقيق فتعرف إلى الله .

" ابن آدم اطلبني تجدني ، فإذا وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء " .

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ)

(سورة يس)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الإيمان هو الخلق – الدرس (37-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ شهوة المال ـ التمويه في عالم الحيوان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخَّصٌ تذكيريٌّ :

سيدي الكريم ، نحن في رحلة طويلة ، لكنها ممتعة ، هذه الرحلة التي تتحدث عن مقومات التكليف ، أن الله عز وجل استخلف الإنسان على هذه الأرض ، وحمله الأمانة ، وتحميل الأمانة للإنسان ، وهي أثقلُ شيء ، حيث ناءت بالجبال والسماوات والأرضون ، وحملها الإنسان ، كان في هذا التحميل ، وهذا التكليف مقومات ، وبدأنا في المقومات بالكون ، وأفردنا له الكثير ، والعقل ، ثم الفطرة ، ثم حططنا رحالنا عند الشهوة ، وتحدثنا بالتفصيل عن هذا المقوم من مقومات التكليف في أربع حلقات ، وربما نستغرق أكثر من ذلك في هذه المسألة ، تحدثنا عن الشهوة في اتجاهين ، الشهوة التي تتعلق بحب النساء ، الجنس ، والشهوة التي تتعلق بحب المال ، وتملك المال ، الله عز وجل يقول :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران : 14)

إلى آخر الآية الكريمة .

إذاً : زين للناس الحبَّ ، إذاً : المحبة شيء من الفطرة التي أودعها الله في الإنسان .

الدكتور راتب :

في أصل خلق الإنسان .

الأستاذ علاء :

في أصل خلق الإنسان ، وتحدثنا أن الشهوة هي قوة كامنة ، هذه القوة إذا استطعنا أن نؤطرها ، وأن نُجريها في مجاريها الطبيعية ، وفي قنواتها الطبيعية كانت خلاّقة ، ودفعت بالإنسان ، وارتقت به ، و نمت الحياة ، وإذا انفجرت هذه القوة الدافعة خارج حجرة الانفجار النظامية التي كانت معدة للانفجار وللاستغلال أصبحت مهلكة .

تحدثنا سيدي الكريم عن الجنس ، ومررنا عليه بالتفصيل ، ثم تحدثنا في الحلقة السابقة عن المال ، وقلت : إن المال قوام الحياة ، وهو محبب للنفس .

سيدي الكريم ، الله عز وجل أودع في نفوسنا حب المال ، والمال قوام الحياة ، وهو شيء يحب الإنسان أن يكون في مقدوره ، لكن كيف يستعمل هذا الحب ، وهذه الشهوة استعمالاً صالحا ؟

الدكتور راتب :

المال :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – المال قوّةٌ حيادية :

أستاذ علاء ، أول فقرة أساسية في هذا اللقاء الطيب أن المال حيادي ، هو قوة كبيرة يمكن أن يوظف في الخير كما يمكن أن يوظف في الشر ، والشيء الذي يستخدم بطريقتين متعاكستين يسمى شيئاً حيادياً، لذلك هذا المعنى الجليل تؤكده الآية الكريمة :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ)

(سورة الفجر : 15)

فيقول هو :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر : 15)

هذه مقولته ، قال تعالى :

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

2 – المال يعطيه الله لمَن يحب ولمن لا يحب :

أستاذ علاء ، كلمة (لا)

شيء ، وكلمة (كلا)

شيء آخر ، لو أني سألت أخاً كريماً : هل تناولت طعام الفطور ؟ يقول : لا ، أما لو سألته ـ لا سمح الله ـ هل أنت سارق ؟ لا يقول : لا ، يقول : كلا ، لأن كلا أداة ردع وزجر ونفي ، فلذلك الله عز وجل يرد على مقولة الإنسان الواهمة أن كل إنسان أعطاه الله مالاً يتوهم الإنسان أن الله يحبه ، وقد يكون العكس، لأن قارون أعطاه الله مالاً ، والشيء الذي يعطى لمن يحب ولمن لا يحب لا يعد مقياساً للمحبة ، مادام

الله عز وجل قد أعطى سيدنا سليمان الملك ، وأعطى سيدنا عثمان بن عفان المال ، وأعطى سيدنا عبد الرحمن بن عوف المال الوفير ، وأعطى قارون المال الوفير ، مادام الشيء الواحد إذا أعطي لطرفين متعاكسين لا يمكن أن يكون قيمة موجهة في اتجاه خاص .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، أفهم من كلامك بأن المال لا يحمل قيمة كامنة توجه الإنسان باتجاه اليمين أو اليسار ، الخير أو الشر ، وإنما الإنسان هو الذي يوجِّهه .

الدكتور راتب :

3 – المال مادةُ امتحانٍ وابتلاءٍ :

لكنها حيادية ، يمكن أن ترقى بالإنسان إلى أعلى عليين ، ويمكن أن تهبط بالإنسان إلى أسفل سافلين ، ووقفنا عند الآية وقفة متأنية :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ)

(سورة الفجر : 15)

وحيثما وردت كلمة

(الإنسان)

في القرآن الكريم فهي تعني الإنسان قبل أن يعرف الله في أصل فطرته ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ)

(سورة الفجر : 15)

الابتلاء هو الامتحان ، والله عز وجل يقول :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

الأصل أن الحياة الدنيا ابتلاء ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة هود : 7)

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ)

(سورة الفجر : 15)

أي امتحنه بالمال ، قد ينجح ، وقد يرسب ، وقد يرقى بالمال إلى أعلى عليين ، وقد يسقط به إلى أسفل سافلين ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

(سورة الفجر :15)

على الشبكية أكرمه ببيت فخم ، مركبة فارهة ، زوجة جميلة ، دخل فلكي ، سفر ، رحلات ، تصدر في المجالس ، قال تعالى :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

(سورة الفجر :15)

هو يتوهم أن الله يحبه فيقول :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر]

بالمقابل الإنسان ضعيف الإيمان الذي لم تتضح رؤيته بعد حينما يحرم من المال يظن أنه مهان عند الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس]

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

الرد الإلهي : كلا يا عبادي ، ليس عطائي إكراماً ومحبة ، وليس منعي إهانة وازدراءً ، إن عطائي ابتلاء ، وحرماني دواء ، عطائي ابتلاء لهذا الإنسان ، فقد يرقى بالمال إلى أعلى عليين ، وقد يسقط بالمال إلى أسفل سافلين .

هذا الذي أوتي مالاً وفيراً ـ والله أستاذ علاء ـ أمامه من فرص العمل الصالح التي يرقى بها عند الناس وعند الله ما لا يوصف ، بالمال بإمكانك أن تؤسس مياتم ، مدارس ، معاهد ، مستشفيات ، أن تزوج الشباب ، أن تحل مشكلات الملايين ، أن تكون محبتك في قلوب جميع الخلق ، بإمكانك بالمال أن ترقى به إلى أعلى عليين .

إنفاق المال تطهير للغني والفقير :

حينما قال الله عز وجل :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

(سورة التوبة : 103)

تؤكد صدقهم في محبة الله .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

(سورة التوبة : 103)

تطهر الغني من الشح ، تطهر الفقير من الحقد ، تطهر المال من تعلق حق الغير به .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

(سورة التوبة : 103)

تزكو نفس الغني حينما يرى عمله قد ملأ القلوب محبة له ، وقد مسح الدموع من عيون الأطفال ، وقد حل مشكلات بعض الناس محبته في قلب الناس جميعاً ، يشعر بقيمته في الحياة ، يشعر أنه إنسان أدى دوراً إيجابياً ، كان في مستوى المهمة التي أوكله الله إياها .

إذاً : الغني تنمو نفسه حينما يرى آثار عمله ، ويكون من حوله حراساً له ، وليس يتوهم أنهم سينقضون عليه ، فرق كبير بين المحسن الذي كل من حوله حراس له ، وبين المسيء الأناني الذي يعيش لذاته ، ولا يعبأ بآلام البشر ، هؤلاء يظن الغني أنهم يتربصون به ، وبين أن يكون مطمئناً ، وبين أن تعيش قلقاً ، فلذلك الغني تنمو نفسه ، والفقير حينما يرى أن المجتمع مهتم به مهتم بصحته ، مهتم بمعيشته بأولاده بمسكنه .

الأستاذ علاء :

يتبرأ من الحقد .

الدكتور راتب :

الإنفاق سياسةُ تماسُكِ المجتمع :

وفي النهاية ، ولننتقل إلى موضع آخر ، يتماسك المجتمع ، وإذا تماسك المجتمع كان سداً منيعاً لا يخترق .

وقد يحسن أن ننتقل نقلة لطيفة من موضوع ديني إلى موضوع سياسي ، كيف ؟ عَنْ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ))

[البخاري]

كيف ؟ هذا الفقير إذا أطعمته إذا كان جائعاً ، إن كسوه إن كان عارياً ، إن آويته إن كان مشرداً ، إن علمته إن كان جاهلاً ، إن عالجته إن كان مريضاً ، إن أنصفته إن كان مظلوماً ، هذا الضعيف بإمكانك أن تسحقه ، أو أن تهمله ، أو لا تعبأ به ، ولكن حينما تهتم به ابتغاء وجه الله كي يرضى الله ، يكافئ الله الأمة التي تعتني بضعفائها بأن ينصرها على من هو أقوى منها ، أنت إذا نصرت مَن هو أضعف منك كافأك الله بأن ينصرك الله على مَن هو أقوى منك ، لذلك قال تعالى :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

(سورة التوبة : 103)

تؤكد صدقهم ، تطهرهم ، تطهر الغني من الشح ، والشح مرض خطير ، وكأنه على مستوى الجسم ورم خبيث ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة الحشر)

تطهر الفقير من الحقد ، تطهر المال من تعلق حق الغير به ، وتزكيهم ، تزكي نفس الغني حينما يشعر أنه في قلوب مَن حوله ، تزكي نفس الفقير حينما يشعر أن مجتمعه مهتم به ، تزكي المال ، المال يزداد بطريقتين ، بطريقة القانون الاقتصادي : أنك إذا أعطيت الفقير مالاً أصبح بيده قوة شرائية ، اشترى بها مِن عند الغني مرة ثانية ، فأحياناً الدول القوية والغنية تساعد الدول الضعيفة من أجل أن ترفع قوة شرائها منهم .

الأستاذ علاء :

وتعمل على رفع الدخل عند أفرادها لكي يكون القوة الشرائية لديهم بمستوى بضاعتهم وما ينتجون .

الدكتور راتب :

نموُّ المال وعلاقته بالعناية الإلهية :

شيء آخر ، أن المال أحياناً ينمو بطريقة لا نعرفها أنا أسميها العناية الإلهية ، أنت حينما تعطي من مالك يخضعك الله عز وجل لقانون آخر غير القانون المعروف عند الناس ، يحفظ لك مالك ، ينمي لك مالك .

إذاً : قضية المال حيادي ، إما أن يوظف بالخير ، أو أن يوظف في الشر ، أنا أعجب من هؤلاء الموسرين ، بإمكانهم أن يكونوا في أعلى عليين ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

[البخاري ومسلم]

كلا يا عبادي ، ليس عطائي إكراماً كما تتوهمون ، عطائي ابتلاء ، المال قيمة موقوفة على طريقة إنفاقه .

الأستاذ علاء :

أو طريقة الاستخدام .

إذاً : أعود سيدي إلى مسألة .

الدكتور راتب :

أحياناً سكين تقطع بها الخضار والفواكه ، وقد يذبح بها إنسان ، السكين حيادية موقوفة على طريقة استخدامها .

الأستاذ علاء :

أعود إلى مسألة التطهر والتزكية ، وهي بمنزلة إعادة المناعة للجسد وللروح ، وبالتالي يستطيع هذا الجسد الذي هو مثال للأمة كما تفضلت التي تترابط كالبنيان المرصوص ، ليعيد المناعة إلى الجسد والروح ، أي على المجتمع بترابطه ، بتزكيته ، بانتفاء الحقد من بين ضلوع أبنائه ، وبالتالي يصبح هذا الجسد في مناعة تأبى الأمراض والأدواء ، وكل ما يصيب الجسد ، وكذلك الروح ، لذلك ننصر بالضعفاء ، والله عز وجل ينصرنا على أعدائنا بضعفائنا إن التفتنا إليهم .

نعود إلى المسألة التي تفضلت بأن المال حيادي ، وكل ما قدمت لنصل إلى مسألة هامة المال حيادي يوظف في الخير ويوظف في الشر .

الدكتور راتب :

الدنيا دار ابتلاء مؤقتة :

لكن لا بد تعقيب ، هو أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، لأنه مؤقت ، ولم يحزن لشقاء ، لأنه مؤقت ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي ، الآن الحظوظ والمال موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء ، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء ، وفرق كبير بين الابتلاء والجزاء ، الابتلاء موقوف على طريقة إنفاقه ، أما الجزاء فأبدي ...

الأستاذ علاء :

لماذا يظن الإنسان بأن الحظوظ هي كما تفضلت جزاء في الدنيا ؟

الدكتور راتب :

أوهام بسبب ضيق الأفق :

لضيق أفقه ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال : 36)

لكن أستاذ علاء ، لو أن الإنسان عاش ستين عامًا ، وكان غنياً ، ولم ينجح في امتحان الغنى ، فتكبر ، واستعلى ، ونسي من حوله من الفقراء ، وقال : أنا قوي ، أنا غني ، الدراهم مراهم ، وهكذا ، وإنسان عاش ستين عاماً ، وكان فقيراً ، فنجح في امتحان الفقر ، تجمل وصبر ، وسعى جهده لرفع دخله ، فإذا لم يستطع قنع بما آتاه الله ، الآن تنتهي الستون عاما ، هناك الأبد ، فالذي نجح في امتحان الفقر ملِك الأبد ، والذي رسب في امتحان الغنى مصيره إلى النار ، فلذلك البطولة ليس ما في الدنيا ، هذا المعنى أشار إليه الإمام علي رضي الله عنه قال : << الغنى والفقر بعد العرض على الله >> ، فلا يسمى الغني غنياً في الدنيا ، ولا الفقير فقيراً ، الغنى والفقر بعد العرض على الله ، لذلك قضية الامتحان ، المال امتحان ، فإما أن يرقى بك إلى أعلى عليين ، وقد تنافس به كبار الدعاة وكبار العلماء ، لأن العلم قوة ، والمال قوة ، يوظف في الخير كما يوظف في الشر .

أستاذ علاء ، ما دمنا في هذا الموضوع لا بد من ملاحظة ، الإنسان في الأصل مخير ، وحينما نتوهم أنه مسير فقد ألغينا الأمانة ، ألغينا التكليف ، ألغينا كل هذه الندوات ، الإيمان هو الخلق ، ألغينا الثواب ، ألغينا العقاب ، ألغينا الجنة ، ألغينا النار ، أنت حينما تتوهم أن الإنسان مسير فقد ألغي كل شيء .

الأستاذ علاء :

كنت أتمنى أن نستمر في هذا الموضوع ، لكن وقت الفقرة العلمية حان ، وإن شاء الله نستمر في هذا في لقاء قادم إنشاء الله ، ماذا اخترت لنا سيدي في الفقرة العلمية ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : ظاهرةُ التمويه عند الحيوانات :

1 – التخطيطات العسكرية الدفاعية والهجومية عند الحيوانات :

إنه موضوع في التمويه لا يصدق ، إن الله عز وجل خلق كل نوع من الكائنات الحية في الطبيعة بخصائص تميزه عن غيره ، فبحسب البيئة التي يعيش فيها يستخدم كل كائن هذه الخصائص الفطرية

لحماية نفسه ، أو للتربص بفريسته ، فبعض الكائنات يخفي نفسه بتقنية تمويه عالية جداً ، وبعضها يتصنع ويمثل ، وبعضها يسلك التكتيك الذكي ، هذه السمكة نفخت نفسها فلم تستطع السمكة الأخرى أن تلتهمها .

أيها الإخوة المشاهدون ، تتابعون في هذا الفيلم الخصائص الخارقة للكائنات الحية ، وسوف نرى نماذج من خلق الله تعالى في الطبيعة ، التمويه واحد من عناصر الفن العسكري الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، فالقدرة على التخفي عن أعين العدو ، والقدرة على الإخفاء في أثناء هجوم العدو مهمان إلى أقصى الدرجات ، العجيب من هذا الأسلوب المسمى بالتمويه ، والذي يستلزم تحضيراً مفصلاً أنه ليس محصوراً لدى الناس العقلاء ، بل هو مستخدم أيضاً من قِبَل الحيوانات العجماوات ، الحيوانات المموِّهة خلقت متناسقة تماماً مع البيئة التي وجدت فيها ، ووضعت تحت حماية خاصة بألوانها ونقوشها ، وبنية أجسامها ، حتى إن أجسام بعض الكائنات متناسقة مع بيئتها إلى حد يصعب تميزها عن النباتات المحيطة بها ، أفعى مع غصن كأنها غصن تماماً .

الإنسان بعقله يستخدم التمويه ، لكن الحيوان لا يملك عقلاً ، ولا يعرف ما الذي يحميه ، قال تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

2 – هداية الله العامة لجميع مخلوقاته :

هداه إلى مصالحه ، الحقيقة أن في هذه المشاهد آيات باهرات دالة على عظمة الله عز وجل ، بعض العنكبوت بنفس لون الزهرة كما رأينا قبل قليل ، وبعض الوحوش بلون النباتات المحيطة بها ، وبعض الفهود والأسود كلها تعيش أجواء البيئة التي هي فيها ، فكأنها جزء من النبات التي هي خلفه ، وهذا شيء عظيم جداً ، ويأخذ بالألباب ، كأن الله سبحانه وتعالى تولى هداية الكائنات إلى مصالحها ، هذه هداية الله العامة لكل الخلق ، كل مخلوق مهيأ ليواجه الأخطار المحدقة به ، كل مخلوق مهيأ كي يتلاءم مع البيئة التي خلق فيها ، من أكبر الوحوش إلى أصغر الوحوش إلى الفراشات إلى الكائنات الدقيقة جداً كلها آتاها الله نوعاً من التمويه كي تنجو من عدوها وكي تصل إلى غذائها .

3 – ظاهرة التمويه عند الطائر في أجواء الشتاء والثلوج :

الحقيقة أن المشاهد التي سوف نراها هي في الغابات ، لكن كيف أن هذا النمر ألوانه متناسقة مع البيئة التي يعيش فيها ، الآن سينقض على هذا الغزال ، على كل أحياناً تكون الأرض مجتمعاً كمجتمع الغاب

كما نسمع ونرى كل يوم في الأخبار .

الآن تعيش في القطب كائنات عالية الكفاءة في التمويه ، تعيش قريباً من القطب في أبرد مناطق العالم كائنات ماهرة في فن التمويه ، بعد قليل نبحث عن قابلية الطائر الخارقة للتمويه الذي كان سبباً في بقائه في هذا الأقاليم ، الآن الموسم خريف ، المكان صخري ، تساقطت عليه الثلوج ، وطائران قطبيان مختفيان هنا ، هل بإمكان الإخوة المشاهدين رؤية هذين الطائرين ، هما كالبيئة تماماً ، يكاد من المستحيل التمييز بين الطائر والمكان الذي قبع فيه .

الحقيقة بوجود تمويه تام متقن في ريشهما يقلدان به الأرضية الطبيعية ، والآن لندقق أكثر طبقات الثلج، هذه نسخة مطابقة لريش الطائر الأبيض ، والأرضية الترابية الظاهرة بين الثلوج أيضاً رسمت بعناية فائقة على ريش الطائر ، الأرضية ومظهر الطائر يكاد التمييز بينهما يكون مستحيلاً .

نحن الآن في الشتاء ، الموسم شتاء ، الثلج يغطي كل شيء ، يحصل تغير معجز في جسم الطائر القطبي ، يزول لون ريشه المشابه للأرض ، أما الريش الأسود الذي نراه في مقدمة رأسه فهو محيط بالعين ليحفظها من الإشعاعات العاكسة للثلج ، والتي قد تسبب العمى .

نحن أستاذ علاء ، قد لا نستطيع أن نمشي في الثلج من شدة الانبهار ، الآن الموسم ربيع ، بدأت الثلوج بالذوبان ، بين الثلوج الذائبة تخضر النباتات ، وأما ريش الطائر القطبي فيظهر ريش جديد بلون النباتات المخضرة ، له ريش في الثلج أبيض ، له ريش أخضر في الربيع .

4 – ظاهرة التمويه عند الطائر في أجواء الصيف :

الآن يدخل بعد قليل في موسم الصيف ، الموسم صيف ، غابت الثلوج تماماً ، واخضر الغطاء النباتي ، وأظهر الطائر القطبي تمويهاً فائقاً أيضاً ، إذا يلاحظ أن جسم الطائر تغيير لون ريشه تغيراً ثالثاً متناسقاً مع الفصل الذي هو فيه ، هذا من خلق الله عز وجل ، ومن عظمة آياته الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله ، والطائر ليس عاقلاً ، كل مظاهر التمويه الخارقة تحتاج إلى تفسير طبعاً ، يستحيل على الطائر القطبي بالتأكيد تعيين لون ريشه بحسب وسطه الذي يعيش فيه ، فهو لا يملك ذلك العقل الذي يعرف به الفائدة التي يجنيها التمويه .

5 – رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى :

إذاً : فمن أعطى هذا الطائر قابلية التمويه الفائقة ؟ من يعرف احتياج الطائر إلى تمويه خاص بكل موسم ؟ من هذا الرسام الرائع الذي رسم على ريشه نقش البيئة ولونها ؟ هذه الأسئلة توصلنا إلى حقيقة

واحدة ، هي أن هذا الطائر خلقه الله تعالى وقد وهبه الميزات التي هو عليها .

ومرة ثانية ، قال تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه]

والتفكر أسرع طريق ، وأقصر طريق لمعرفة الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعنا أمام عظمة الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (38-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ تتمة شهوة المال ـ التمويه في عالم الحيوان 2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-09-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة تذكيرية :

سيدي الكريم ، تحدثنا في الشهوة كثيرًا ، تحدثنا في شهوة الجنس ، ثم في شهوة المال ، وتبينا في الحلقة الماضية بأن المال حيادي ، يوظف في الخير ، ويوظف في الشر كما يشاء موظفه ، وكما يشاء من أمسك بمقوده ، إذاً : هو قوة كامنة ، لكن لا تستطيع من تلقاء ذاتها أن تنبري ، وأن تتصدر ، وأن تتصدى لجهة دون جهة أخرى باتجاه الخير أو باتجاه الشر ، وإنما الذي يوجه هذه القوة الكامنة هو الإنسان ، ذلك المكلف ، وأنهيت سيدي الكريم الحلقة الماضية قبل الفقرة العلمية بقضية أكدت عليها ؛ بأن الإنسان مخير لا مسير ، وإلا فلا معنى لهذا البرنامج ، ولا لحلقاته ، ولا معنى لمسألة العقاب والجنة والنار ، ولا معنى للتبليغ والرسالات والأمانة وكل شيء .

باعتبار أن كل الأشياء كما مر معنى في الحلقات الماضية ، كل الأشياء ، وكل الخصائص هي حيادية، وأن الإنسان العاقل في هذه المعادلة هو الذي يتجه بها باتجاه الخير ، أو باتجاه الشر باتجاه ، نماء وعطاء ، أو باتجاه وضاعة ، كيف نكمل هذه المسألة التي لم نشبعها بحثًا في نهاية الحلقة الماضية .

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الحظوظ الدنيوية حيادية تسير باختيار صاحبها :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، نحن وصلنا إلى أن الإنسان مخير ، الآن ننتقل من جزء إلى كل ، لأن الإنسان مخير كل شيء في حياته حيادي ، مثلاً : الحظوظ ، الوسامة حظ ، قد تكون وسيلة لالتفاف الناس حول هذا الإنسان ليأخذ بيدهم إلى الله ، وقد تكون لإغوائه ، المال حظ كما تكلمن سابقاً ، طلاقة اللسان حظ قد تكون لتعزيز الحق ، وتدعيمه ، وقد تكون لترويج الباطل فيحب أن نعتقد أن كل حظ آتاه الله للإنسان من وسامة إلى ذكاء إلى غنىً ، إلى قوة إلى قدرات خاصة ، الخطابة قدرة ، والعلاقات

الاجتماعية النامية قدرة ، الذكاء الاجتماعي قدرة ، فهناك قدرات عامة ، وهناك قدرات خاصة جداً ، هذه القدرات يجب أن نعلم علم اليقين أنها يمكن أن توظف في الحق كما يمكن أن توظف في الباطل عن طريق الأدب ، وهو التعبير المثير عن حقائق الحياة ، يمكن أن يكون الأدب إباحياً يسهم في تقويض دعائم أمة ، وقد يكون الأدب ملتزماً يرقى بالإنسان إلى أعلى عليين .

مرة قرأت لأديب كلمة أعجبتني ، من حق الفنان أن يصور الرذيلة على نحو تشمئز منها ، فإذا صورت على نحو يحبها فإن مجتمعاً بأكمله يسقط من هذا الفيلم ، العبرة أن تصور الرذيلة لا على نحو نعجب بها ، ولا على نحو نتأثر بها ، ولا على نحو نصبو أن نكون من أبطالها ، ينبغي أن تصور الرذيلة على نحو نشمئز منها ، ونحتقرها ، ونزدريها ، الفن أيضاً يوظف في الخير والشر ، تقرأ قصة تنتهي من قراءتها خلال أسبوعين أو ثلاثة ألف صفحة ، بعد أن تنتهي تتثاءب ، وتنام ، وقد تقرأ قصة بعد أن تنتهي منها تبدأ متاعبك مع نفسك ، تضعك أمام مسؤولياتك ، أمام الأهداف التي خلق الإنسان من أجلها ، فالأدب والفن كل شيء أستاذ علاء من خصائص الإنسان من حظوظه ، بدءًا من شكله ، قوة ، ذاكرته ، توظف في الخير وفي الشر ، طلاقة لسانه ، ذكاءه الاجتماعي ، ذكائه التحصيلي ، يحمل أعلى شهادة ، قد يبتز أموال الناس بها ، وقد تكون هذه الشهادة في بناء مجتمعه ، أي شيء تتصوره من حظوظ الإنسان المادية والمعنوية والاجتماعية والانفعالية والجمالية هذه حيادية ، توظف في الخير ، وتوظف في الشر ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة هود : 7)

هذه الحظوظ .

الأستاذ علاء :

عفواً سيدي ، قبل أن ننتقل ، هنا في قضية قد تخطر في البال ، هذه الحظوظ هي أيضاً عندما يُعطاها الإنسان هي للامتحان ، الإنسان خلقه الله وسيماً ، وخلق آخر بدمامة خلقه قبيحاً ، هل الوسامة هي امتحان لهذا الإنسان ؟

الدكتور راتب :

الوسامة والدمامة مادةُ امتحانٍ :

نعم سيدي ، كل شيء خصك الله به هو مادة من مواد امتحانك ، فإما أن تنجح ، وإما أن ترسب ، النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى المرآة فقال :

((اللهمَّ كَمَا حسَّنْتَ خَلْقي فحَسِّن خُلُقِي))

[البيهقي عن عائشة]

إذا كان الإنسان وسيمًا ، مقبول المنظر عند الناس ، فهذه نعمة كبيرة ، إن شكر الله عليها ، ولم يتكبر، ولم يغوِ بها أحداً ، ولم يستخدم هذه الوسامة لإغواء فتاة مثلاً ، يرقى بهذه الوسامة ، استخدمها ليكون نجماً متألقاً في المجتمع ، فإذا خص الله إنسانا بالدمامة ، حينما يصبر ، وحينما يرى هذا من فعل الله عز وجل يرقى بها .

مرة كان أحد الرجال يطوف حول الكعبة ويقول : " اللهم ارزقني محبتك ورضاك ، كان وراءه الإمام الشافعي ، قال : يا هذا ، هل أنت راض عن الله حتى يرضى الله عنك ؟ قال : يا سبحان الله ! من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا محمد بن إدريس ، قال : كيف أرضى عنه ، وأنا أتمنى رضاه ؟ فقال الإمام الشافعي : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " .

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ، هذا الذي لم يكن وسيماً ألطف عبارة لما رأى هذا بحكمة أرادها الله ، فكان يتجمل بأخلاق رضية ، وقد كان أحنف بن قيس قصير القامة ، أسمر اللون ، صغير العينين ، غائر العينين ، ناتئ الوجنتين ، أحنف الرجل ، مائل الذقن ، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذٌ منه بنصيب ، وكان مع ذلك سيد قومه ، إذا غضبَ غضِبَ لغضبته مئة ألف سيف ، لا يسألونه فيمَ غضب ؟ وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه ، وله موقف لطيف ، حينما أراد معاوية بن أبي سفيان أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، فكان في مجلس ضم علية القوم ، والكل أثنى على يزيد ، وبقي الأحنف ساكتاً ، فقال : تكلم يا أحنف ، قال : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت .

فهذا الأحنف بن قيس أوتي من كل أنواع الدمامة من صفات ، ومع ذلك كان سيد قومه ، لذلك الأمة التي تعتمد العلم والعمل ، ولا تعبأ بالمقاييس الأخرى التي يعتمدها الناس للترجيح بين بعضهم بعضاً ، هذه أمة سوف تكون في طليعة الأمم ، أما الأمة التي تعتمد مقياساً المال ، تعتمد مقياس النسب فقط بدون مضمون فهذه أمة تمشي في طريق الهاوية .

الأستاذ علاء :

هل نعتبر كما يقول كثير من الدعاة هذه قشور ، الآن من خلال حديثكم سيدي الكريم علينا ألا نتعلق بها كأساس كتقييم .

الدكتور راتب :

الجميل جميل ، والدميم دميم ، لا يمكن أن يكون الدميم أقل مرتبة عند الناس إذا كان أكثر عطاءً من الجميل .

الأستاذ علاء :

الوسامة والدمامة ليست معيارا تقييميًّا :

لكن هذه ليست من القشور وإنما هي درجات امتحان ، والامتحان ليس بالقشور الامتحان له ، قيمة إما أن ينهض به الإنسان ، وإما أن يفشل .

الدكتور راتب :

لو أخذنا الموضوع بشكل تفصيلي ، لو أن امرأة بارعة الجمال غوت ، وأغوت ، واستخدمت جمالها لإغواء من حولها ، ولم تكن ملتزمة لا بمبدأ ولا بقيمة ، ولا بشرع ، وكان من ضحيتها مئات ، وامرأة ليست جميلة ، كانت أماً وزوجة مخلصة ، ربت أبنائها ، واعتنت بهم ، قلامة ظفر الثانية بمئة ألف رجل وسيم ، أو بمئة ألف ملكة جمال ، الثانية التي ربت أولادها ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((أول من يمسك بحِلَق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

أنا أخاطب الإخوة المشاهدين ، ولا سيما الأمهات ، الأم حينما تربي أولادها تربية أخلاقية إيمانية علمية نفسية اجتماعية شهاداتها العليا أولادها ، وقبل أيام كنت في زيارة لأحد الإخوة الكرام ، فوجئت أن كل إخوته يحملون أعلى الشهادات ، ويحتلون مناصب في الجامعة عالية جداً ، فأرادت الأم أن تسلم علي ، قالت : أنا أمية يا بني ، وزجي أميٌّ ، قلت لها : لست أمية ، شهاداتك أولادك ، فالأم التي تربي أبنائها هي في أعلى مقام عند الله عز وجل ، لكن نحن في مجتمع ظالم ، أحياناً يقيس المرأة فقط بجمالها ، وهذا خطأ كبير ، والله عز وجل لحكمة بالغة جعل هذا التفاوت .

أنا قلت قبل قليل : الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء ، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء .

السيد علاء ، مثلاً : الفرق بين إنسان يبيع الصحون في سوق ، وبين رئيس غرفة تجارة ، صفقاته بالمليارات ، مثلاً ، بين مجند ورئيس أركان ، بين ممرض وجراح قلب ، بين معلم بقرية وأستاذ جامعة، بينهم تفاوت كبير جداً ، اقرأ قوله تعالى :

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا مؤقتة ، لكن مراتب الآخرة أبدية ، مراتب الدنيا تعني شيئاً ، وقد لا تعني شيئاً .

الأستاذ علاء :

سيدي ، من هنا جاء التعبير القرآني يمتدح الآخرة دون التعرض للدنيا ، هذه إشارة .

الدكتور راتب :

أنا لي قاعدة ، أستاذ علاء ، إنني في أي مؤسستين ، أو أي شخصين ، أو أي كيانين أو أي تجارتين ، أو أي مشروعين ، لا أقبل أن أوازن بينهما إلا إذا أضفت الآخرة لكل منهما ، لو فرضنا مكانا فيه لهو، وانحراف ، وانحلال ، وإباحية ، والدخل بالملايين ، ومكان آخر محل متواضع جداً ، يبيع بضاعة الناس بحاجة إليها بسعر معتدل ، بضاعة جيدة ، لا فيها كذب ، ولا تدليس ، فدخْلُ هذا واحد بالمليون من الدخل الأول ، أضف الآخرة إلى الجهة الفاسقة الماجنة ، وأضف الآخرة إلى الجهة المستقيمة من الرابح ؟ العبرة في النهاية ، ليست العبرة بمن الذي يضحك أولاً ، العبرة بالذي يضحك آخراً ، من ضحك أولاً ضحك قليلاً ، وبكى كثيراً .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، يتساءل المرء هذا الذي أوتي حظاً لم يفهم هذا الحظ بأنه مرقى من مراقي الامتحان ، إنما يستخدمه الاستخدام الفاسد نحو الشر ، هل لعدم فهم ، هل لقصور ، أم لتكبر ؟

الدكتور راتب :

الجهلُ والكِبرُ من أسباب استخدام الحظوظ في الأغراض الفاسدة :

الحقيقة إما أنه لجهل أو لكبر لكن أستاذ علاء معاصي الجهل ، قال تعالى :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأنعام)

فرق كبير بين معصية آدم عليه السلام ، فنسي ، ولم نجد له عزماً على المعصية ، وبين معصية إبليس، أبى واستكبر ، فرق كبير بين معصية الكبر معصية التأبي على الله وبين معصية الغلبة والجهل ، لذلك الجاهل يتعلم .

لي كلمة أقولها دائماً : ليس العار أن تكون جاهلاً ، العار أن تبقى جاهلاً ، ليس العار أن تكون مخطئاً، العار أن تبقى مخطئاً ، فلذلك الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء ، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء .

أرأيت إلى ما يلعب به الصغار ، القلابة ، الإنسان يكون في الدنيا في أعلى عليين ، في الآخرة قد يكون الإنسان في الأسفل ، الذي يبني مجده على تجارة المخدرات ، الآن ثبت أن أكبر تجارة في العالم تجارة المخدرات ، من مكان زراعة المخدرات إلى مكان تسويقها مئة ألف ضعف ، ومع ذلك هذا التاجر محتقر عند الله وعند الناس ، لذلك نحن عواطفنا لا ينبغي أن تكون مقتبسة من شبكية العين ، أن

ترى بيتاً فخماً ، أن ترى بيتاً متواضعاً ضيقاً ، لكن صاحبه دخله مشروع ، ومنضبط ، ومعطاء للمجتمع ، فلا بد أن تُبدَّل موازين الترجيح عندنا بموازين قرآنية ، قال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأنعام)

المقاييس القرآنية أصلُ التقييم :

البطولة أن تأتي مقاييسك لتقيم من حولك وما حولك مقتبسة من مقاييس القرآن الكريم ، لذلك سيدنا عمر لما وجد إنسانا وضع سيفه على عاتقه ، وهو عمير بن وهب ، وجاء ليقتل محمداً ، فقال عمر : هذا عدو الله عمير ، جاء يريد شراً ، فكتّفه بحمالة سيفه ، وساقه إلى النبي الكريم ، قال : هذا عدو الله، جاء يريد شراً ، قال : يا عمر ، أطلقه ، فأطلقه ، قال : ابتعد عنه ، فابتعد عنه ، قال : ادنُ مني يا عمير ، فدنا منه ، قال : سلم علينا ، قال : عِمْتَ صباحاً يا محمد ، بجفاء ، قال له : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : لأفدي ابني ، قال : وهذه السيف التي على عاتقك ، عمير بن وهب كان قد خاطب صفوان بن أمية بمكة ، قال له : والله لولا ديون لزمتني ما أطيق سدادها ، ولولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمدا ، وأرحتكم منه ، فقال صفوان : امض لما أردت ، أما أولادك فهم أولادي ما امتد بهم العمر ، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت ، فلما قال له النبي عليه الصلاة والسلام : وهذه السيف التي على عاتقك ، قال : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : ألم تقل لصفوان كذا وكذا ، فوقف ، وقال : أشهد أنك رسول الله .

الشاهد هنا : يقول سيدنا عمر : دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إلي منه ، وخرج من عنده وهو أحب إلي من بعض أولادي .

الأستاذ علاء :

انتقل من حال إلى حال ، عندما جاء ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم عندما وقع الإيمان في قلبه ، فاستحال إلى إنسان آخر .

الدكتور راتب :

بقي موضوع صغير ، الآن غير الحظوظ الخصائص الإنسان يغار ، أيام كتاب أو أدباء أو علماء نفس يتوهموا أن الشر مزروع في أصل النفس وهناك بيت من الشعر يقول :

الظُلمُ مِن شِيَمِ النُفوسِ فَإِن تَجِد ذا عِـفَّةٍ فَلِعِلَّـةٍ لا يَظلِـمُ

الأستاذ علاء :

سيدي ، هذا الموضوع لا نريد أن نأخذه في وقت قصير ، لأن الوقت أدركنا ، وصار وقت الفقرة العلمية ، هذا الموضوع نبتدئ به في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى .

ماذا اخترت لنا سيدي ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : ظاهرة التمويه عند الحيوانات :

التمويه في أعماق البحار :

1 – الأخطبوط مَلِكُ المُمَوِّهين في البحر :

نتبع موضوع التمويه موضوع مهم جداً ، الحقيقة أنه لا يقتصر وجود المهارة بالتمويه على الغابات والثلوج ، كما رأينا في الحلقة السابقة ، بل يمكن أن نجدها في أعماق البحر في الوقت نفسه ، ولعل الأخطبوط أمهر مموه في البحار .

2 – صورٌ من تمويه الأخطبوط :

بعض الأنواع من الأخطبوط تحقق تناسقاً تاماً مع لون وشكل أرضية البحر التي تعيش فيه ، هذا الأخطبوط الذي نتابع رؤيته مقلد ماهر إلى أقصى حد إلى جانب تقنية التمويه الفائقة لديه ، عندما يمر بأرضية بحر رملية يصعب عليه معها التمويه يبدأ باستخدام إمكانية تقليد الطحلب ، أحياناً يصل تغيير شكل الأخطبوط إلى درجة لا يمكن تمييزه من الصخرة التي يلتصق بها .

إنه شيء لا يكاد يصدق ، أستاذ علاء ، على هذه الصخرة أخطبوط آخر ، إلا أنه يستحيل التمييز بينه وبين الصخرة ، هذا سوف نراه بعد قليل ، يقف أخطبوط على صخرة في البحر لا يمكن أن نميزه عنها إلا إذا تحرك ، أمّا إذا جمد في مكانه كان كالصخرة تماماً ، هذا السبق لأول وهلة يقف ، وكأنه اختفى داخل الطحلب ، حيث تظهر الحقيقة إذا رجعنا إلى الوراء قليلاً ، فلم يكن أمامنا طحلب ، بل حصان بحر على شكل طحلب ، قد نجد حصان بحر على شكل نبات .

3 – تمويهات إسفنج البحر :

الذي يرى كأنه إسفنج بحر لأول وهلة هذا الكائن الحي هو في الحقيقة سمكة بفضل هذه الحاسة الخاصة لتحقيق وظيفة صنارة تستطيع اصطياد الأسماك الصغيرة ، الحقيقة في البحر عجائب ، البحر في تقريباً مليون نوع من الأسماك ، فرس البحر على شكل نبات تماماً ، الحقيقة في البحر مليون نوع من السمك ، والبحر من عجائب الدنيا ، والله عز وجل جعله أربعة أخماس الأرض ، لأن لولا هذه المساحات الواسعة لما كانت أمطار على سطح الأرض ، لا بد من مسطحات مائية كبيرة ، البحر أيضاً شيء دقيق جداً ، وهو أداة اتصال بين القارات ، لأنه طرق معبدة .

يرى أحياناً إسفنج البحر لأول وهلة هذا الكائن الحي هو في الحقيقة سمكة بفضل هذه الحاسة الخاصة كما قلت قبل قليل ، هنا سوف نرى على الغصن نتوءان ، لكن أحدهما في الحقيقة عنكبوت مموهة في وقت الخطر ، تموه نفسها مرة أخرى بنتوء الغصن الحقيقي ، ليس لهذه العنكبوت إمكانية التفكير ، فكيف تتمكن من التموه بنتوء الغصن ؟

انظر أستاذ علاء ، لملمت نفسها ، وسكنت ، وكأنها نتوء في غصن ، مَن علمها ؟ من أرشدها ؟ من هداها إلى مصالحها ؟ من هداها كي تتقي خطر أعداءها ؟

4 – تمويهات بعض الحشرات في البحر :

الحقيقة هناك أمثلة لا تنحصر ، في العناكب فقط ، فمثلاً هنا حشرة مختبئة بين هذه الأوراق ، إنها هنا تماماً ، فلنلاحظ أنه لا يوجد أي فرق بينهما ، فجسمها كالورقة تماماً ، هي حشرة وكأنها ورقة ، مِن شكل الورقة إلى عروقها خلقت بدون أي نقصان ، هي حشرة تبدو ورقة ، هنا حشرة بين هذه الأوراق الصفراء ، طبعاً قد تكون الأوراق يابسة وصفراء ، لنحاول الآن إيجادها ، هذه هي حشرة مموهة ببراعة ، ومن الصعب جداً رؤيتها على الورقة ، جناح الحشرة له تفصيلات دقيقة ، حتى البقع الفاسدة على الورق المصفر ، ولنفكر الآن قليلاً بتصميم هذا التمويه ليس لدى هذه الحشرة إمكانية التفكر ، ولا تعلم مدى احتياجها إلى التشبه بالأوراق لبقاء حياتها ، حتى لو علمت لا تستطيع رسم شكل ورقة عليها، فإذاً : الرسم الموجود على جناح الحشرة المصممة بشكل واع أثر من ؟ إنها قدرة الله عز وجل ، لا شك هذا الرسم آية من آيات الله الدالة على عظمته .

إنـه الله ربٌّ وخـالق العالمين :

والتفكر في خلق السماوات والأرض من أرقى العبادات ، بل هو العبادة الأولى ، لأن تفكر ساعة يعدل أن تعبد الله ثمانين عاماً ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر : 67)

وهذا هو الفرق بين العلماء والعُبّاد ، العابد ينفع نفسه ، أما العالم فحينما يعرف الله ، ويعرِّف الناس بالله يرقى بهم ، ويرتقي هو أيضاً عند الله بهذه الدعوة .

الأستاذ علاء :

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً)

(سورة آل عمران : 191)

الدكتور راتب :

هي حشرة وكأنها ورقة تماماً ، الحقيقة هذه المشاهد لا تكاد تصدق ، لكنها واقعية ، حشرات كالأوراق تماماً من أجل التمويه ، إذاً : هناك معارك أيضاً بين النباتات والحشرات ، لكن داروين يزعم بنظريته التي سقطت لا عندنا ، بل عند الغرب ، يزعم أن جميع الكائنات في الطبيعة وجدت نتيجة لمصادفة عمياء ، ولكن حتى التصميم الذي على أجنحة هذه الحشرة الصغيرة لم يكن مصادفة ، بل هو كاف لرؤية أثر الخالق العظيم ، لو شمر فنان لرسم الورقة لا يستطيع أن يرسمها لتبدو كالحقيقة إلا أنها هنا ليست مجرد صورة ، بل هي أنموذج مصغر لورقة منسقة بالأبعاد الثلاثة في جسم الحشرة ، خالق هذا الكائن بهذا الشكل هو الله عز وجل ، هذا التصميم الخارق يرينا فيه صنعته وقدرته ، إنه رب العوالم كلها ، الله جل جلاله وتعالى ذكره .

الحقيقة أن الصور لها قوة تعبيرية تفوق مئتي كلمة ، المئتا كلمة تساوي القوة التعبيرية ، هذا الجسم المتحرك على الغصن لأول وهلة يطابق ورقة جافة شكلاً ولوناً ، إلا أنه ليس كذلك ، بل هو شرنقة ، فراشة جافة ، وبفضل تقنية التمويه الفائقة التي وهبها إياها الله تعالى في أثناء وجودها دودة في الشرنقة، حيث ليس لها أي دفاع ، يتم نموها وتطورها بشكل رائع جداً ، وهي في وقاية من أعدائها .

شيء آخر سوف نرى بعد قليل ، طبعاً هذه شرنقة كأنها ورقة يابسة تماماً ، لكن فيها دودة ، الآن أمام نبات اسمه الأوركيدا ، هذا المنظر الذي ترونه أيها الإخوة المشاهدون ليس كله لها ، بل هناك كائن آخر منسجم مع شكل هذه الزهرة ، حتى مع درجات لونها ، إنها الحشرة المسماة فرس النبي ، بتمويه مدهش ، هذه حشرة ، ومع زهرة بألوان الزهرة ، وبأشكالها تماماً ، ويكمل الشبه من جهة اللون

والشكل والنقش ، وهو قطعاً ليس من تصميمها ، إنه خالق كل شيء ، الله تعالى تتجلى لنا صنعته مرة أخرى بهذا المثال ، وقد قال الله في كتابه الكريم :

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة : 7)

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل : 88)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (39-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ شهوة الغيرة والفرق بينها وبين الحسد ـ التمويه في عالم الفراشات
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-10-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تلخيصٌ للحلقة الماضية :

سيدي الكريم ، توقفنا عند مسألة هامة في الحلقة الماضية ، وفي الحقيقة أحاول أن ألخص ما جرى في الحلقات الماضية ولو في عناوين سريعة من أجل التسلسل أولاً ، وقد ينضم إلينا الآن مُشاهد لأول مرة، فأحب أن أضعه في صورة ما كنا نتحدث فيه .

بدأنا في حلقات سابقة عن مقومات التكليف ، تكليف الإنسان الذي حمله الله الأمانة من الكون والعقل والفطرة والشهوة ، ولم نأتِ إلى الاختيار والشرع ، والوقت ما زلنا في مسألة الشهوة ، وأفردنا لها ربما أكثر من سبع حلقات ، ومررنا عند مسألة أن الإنسان مخير لا مسير ، باعتبار أن كل الخصائص، وكل الحظوظ ، وكل الشهوات حيادية ، وبيده أن يتجه يمنة أو يسرة ، خيراً أو شراً ، وبيده أن ينتقل من مكان إلى مكان ، وأن يوظف تلك الشهوة في الخير أو في الشر ، توقفت عند مسألة ـ سيدي الكريم ـ هي الخصائص ، ومررنا سريعاً على قضية الغيرة ، وقلت : إن الغيرة حيادية كيف تكون يا سيدي ؟
الدكتور راتب :

خصائص الإنسان حيادية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء انطلقنا من أن الشهوة حيادية ، وكان الحديث عن المال ، وقلنا : المال حيادي ، إما أن يكون سُلماً نرقى به أو دركات نهوي بها ، إذاً : هو قيمة موقوفة في تقييمها على طريقة استخدامها ، ثم وسعنا الموضوع فقلنا : إن الحظوظ حيادية أيضاً ، الذكاء والوسامة والجمال ، وما إلى ذلك ، والقوة كلها حظوظ يمكن أن توظف في الخير أو في الشر ، ثم وسعنا ذلك ، وذكرنا عنوان موضوع ، والآن طلبت مني أن يكون هذا في اللقاء الجديد .

الحقيقة هناك خصائص للإنسان ، الإنسان يحب الكمال ، لو أنه اشترى دفتراً فيه خطأ بسيط ، أو عيب بسيط ، يقول له : بدل لي إياه ، كل إنسان يحب الكمال ، وحبه للكمال يقوده إلى الله عز وجل ، لأنه الكمال المطلق ، الإنسان يحب الخير ، حبه الخير يقوده إلى فعل الخير .

ثمة فكرة قرأتها البارحة ، أن أكبر غني في العالم (بيل غيت)صاحب مايكروسوفت قبل أيام توقف عن العمل ، وأراد أن يتفرغ للعمل الخيري ، وتبرع بتسعين بالمئة من ثروته إلى العمل الخيري في إفريقيا ، حيث الأمراض والأوبئة والفقر ، فالإنسان أحياناً يحب الخير ، فحبه للكمال دفعه إلى عمل معين .

الغِيرة خصيصة حيادية :

الإنسان يغار ، يعني أنه يتمنى ما عند الآخرين ، هذه خصيصة حيادية ، لو أنك رأيت إنسانًا مؤمنًا ملتزمًا متألقًا في المجتمع ، له عمل طيب ، تمنيت أن تكون مثله ، إذاً : هذه الخصيصة أداة ارتقت بالإنسان ، ويأتي إنسان آخر فيلتقي بإنسان غارق في الانحرافات والشهوات الساقطة ، أيضاً بمناسبة هذه الخصيصة الحيادية يتمنى أن يكون مثله ، إذاً : هذه الخصيصة أن تتمنى ما عند الغير يمكن أن توظف في الخير ، ويمكن أن توظف في الشر .

الأستاذ علاء :

الحسد سيدي إيداع رباني في الإنسان ؟

الدكتور راتب :

الحسد صفة سلبية مناقضة للغيرة :

أودع الله في الإنسان خصيصة أن تتمنى ما عند الآخرين ، فإذا حسدت مؤمناً ، أو إنسانًا مصلحًا ، أو إنسانًا عالمًا ، أو إنسانًا قدم لأمته الشيء الكثير ، فهذه الخصيصة وهي ، تمني ما عند الغير تسمى غبطة ، والإنسان يحمد عليها ، أما إذا تمنى ما عند الأشرار والمنحرفين والساقطين ، ومن بنَوا مجدهم على أنقاض البشر ، هذه الخصيصة وظفت ، وهي تمني ما عند الآخرين بالشر ، كما أن المال ينفق في الخير أو في الشر ، كما أن المرأة يحبها الإنسان قد تكون زوجة أم أولاد يرقى بها ، وترقى به ، وقد تكون خليلة وصاحبة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، إذا : هذا الحب حب التمني ما عند الغير ، إن كان عالماً ، إن كان غنياً ينفق ، إذا تمنى لنفسه ما عنده ، ولكن تمنى مع ذلك أن تزول هذه عن ذلك .

الدكتور راتب :

مراتب الحسد :

دخلنا في موضوع آخر ، الحسد مراتب ثلاث :

أولها : أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك كي تصل إليك ، هذه مرتبة .

الثانية : أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك دون أن تصل إليك ، هذه أسوء .

الثالثة : لا أن تتمنى ، أن تكتب تقريرا ، أن تفعل شيئاً يزيل النعمة عن أخيك ، هذا شر كبير جداً ، لذلك بين أن تتمنى أن تزول ، وأن تأتي إليك ، هناك شيء من المنطق ، أنت محروم من ذلك الشيء ، تمنيت أن يكون لك مثل هذا الشيء ، لكن بشكل عام لو أنك تمنيت شيئاً رأيته عند أخيك دون أن تتوقع أن يزول عنه ، هذه لا شيء فيها .

أنا أرى إنسانا متزوجا ، وعنده بيت ملكًا له ، وحياته مستقرة ، والإنسان المتمني ليس متزوجاً ، فإذا تمنى أن يكون مثله ، مع أنه يبارك لأخيه هذا الزواج وهذا العطاء ، هذا لا شيء فيه ، هذا من طبيعة البشر .

أنا لا أحب أن أوسع المعاصي إلى درجة تصل إلى خصائص النفس ، أنا أتمنى أن أكون مرتاحاً مالياً، مرتاحاً في زواجي ، مرتاحاً في تربية أولادي ، هذا شيء طبيعي جداً .

أستاذ علاء ، لولا التمني ، أو لولا هذه الخاصة لما ارتقى إنسان .

الأستاذ علاء :

لأصبح سكونياً .

الدكتور راتب :

صفة التمني تلدُ البطولات :

لولا هذه الخاصة ما رأيت بطولة إطلاقاً ، مثلاً : أحياناً تجمع التبرعات لموضوعات قومية ، أو موضوعات إنسانية ، أو موضوعات قيمية ، يقول عريف الحفل : فلان تبرع بمئة ألف ، يقول الثاني : أنا بمئة وخمسين ، قال تعالى :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

أحياناً تمني أن تكون كالآخرين ، وهذا أكبر باعث إلى البطولة ، أنا أرى أن أكبر باعث للبطولة حينما خلق الله فينا هذه الخصيصة ، فكل إنسان يتمنى ما عند الآخرين ، لكن أنا أتمنى أن أكون مثلهم دون أن ينالهم أذى فلا شيء في هذا إطلاقاً ، بل هذا هو التوظيف الطبيعي ، أما حينما أتمنى أن تزول النعمة عن أخي لتصل إلي فقد دخلنا في التمني السلبي ، التمني الشيطاني ، هذا سماه العلماء الحسد .

الحقيقة :

قل لمن بـات لي حاسـداً أتدري على من أسأت الأدب

أسأت إلى الله فـي فـعله إذ لم ترض لي ما وهـب

***

هناك كلمات يقولها العامة هي في الحقيقة كفر بعينه ، الله يعطي الحلاوة للذي ليس لها أضراس ، معنى ذلك أنك تشك في حكمة الله ، وفي المقابل ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

فرق كبير بين النعمة وبين الاستدراج ، الذي قلنا فيه : الهدى البياني ، ثم التأديب التربوي ، ثم الإكرام الاستدراجي ، ثم القصم .

تمنّي زوال النعمة عن الغير معصيةً :

الحقيقة الأمور دقيقة ومتداخلة ، فحينما أتمنى أن أكون متفوقاً ، إما في المال ، أو في المكانة ، أو في العلم ، أو في الدين ، أو في الإيمان ، لا شيء علي ، أما حينما أتمنى أن تزول النعمة عن أخي كي تصل إلي فقد دخلت في المعصية الكبيرة . حينما أتمنى لمجرد أن تزول النعمة عن أخي فهذه أكبر معصية ، أما حينما أسعى لكتابة تقرير كاذب ، أو وشاية ، أو أن أوغر صدر إنسان ضد إنسان ، فهذه جريمة ، وفساد في الأرض ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام نهى نهياً شديداً عن الحسد ، وفي القرآن الكريم :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

(سورة الناس)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

(سورة الفلق)

الأستاذ علاء :

هل نفهم من هذه المسألة بأن شر الحاسد إذا حسد من أقوى الشرور ؟

الدكتور راتب :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ

الترتيب تصاعدي في أهميته ، ومن شر حاسد إذا حسد .

بالمناسبة ، الإنسان ليس له الحق الكامل أن يُظهر ما عنده للناس ليملأ قلوبهم غيظاً ، هذا إنسان سخيف جداً ، الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة ينبغي أن يشكرها ، وأن يتواضع حتى يمتص النقمة ممن حوله .

قد تجد غنيًا محسنًا متواضعًا ، تتمنى الغنى من تواضعه ، وقد تجد إنسانا متكبرا لا يحتمل ، لذلك لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر .

إذاً : الحسد ثلاث مراتب ، التمني زوال نعمة كي تصل إليك ، تمني زوال نعمة فقط ، ثم كتابة شيء يودي بنعمة أخيك إلى جهة أخرى ، هذا كله خطأ .

أما حينما أتمنى أن أكون عالماً ، أن أكون محسنا كبيرا ، أن يكون عندي ما يكفيني ، أنا محتاج إلى المال ، إذا تمنيت أن يكون عندي ما يكفيني هذا شيء طبيعي جداً ، ولا شيء فيه ، تمني ما عند الآخرين هذه خصيصة ، ولولاها لما ارتقى إنسان .

الأستاذ علاء :

هل ينطبق هذا على كل الخصائص التي أودعها الله في النفوس ، لأنها حيادية ، وعند استخدامها الاستخدام الأمثل ترتقي بالإنسان .

الدكتور راتب :

بالإحسان يُستَعبَد الإنسانُ :

مثلاً : يا داود ، ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، من خصائص النفس البشرية أنها تحب المحسن ، الآن أنت كأب ، كمعلم ، كقائد ، كمرشد ، كمدير معمل ، مدير

مؤسسة ، مدر جامعة ، إن أردت أن يلتف الناس حولك ، ويقدموا لك كل ما عندهم ، وأن يعطوك العطاء الأكبر كي تنهض هذه المؤسسة فأحسِنْ إليهم ، أكبر خطأ يرتكبه من كان في موضع معين أن يسيء لمن حوله ، ويتمنى العطاء منهم ، هذا مستحيل .

أحسنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم فلطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

***

قانون التقريب والتنفير :

بالبر يستعبد الحر ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان قمة في الكمال ، النبي الكريم نبي ورسول ، ويوحى إليه ، ومعه معجزات ، بل هو سيد الأنبياء وسيد المرسلين ، أوتي فصاحة ما بعدها فصاحة ، أوتي جمالاً ، أوتي حكمة ، بل جُمِع كمالُ البشر في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يقول الله عز وجل له ، أنت يا محمد :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران : 159)

هذه الآية دقيقة جداً :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

أيْ بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم ، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك ، ولو لم تكن لك صلة بنا لامتلأ القلب قسوة ، وانعكست القسوة غلظة ، فانفض الناس من حولك ، وكأنها معادلة رياضية ، اتصال ، رحمة ، لين ، التفاف . انقطاع ، قسوة ، غلظة ، انفضاض ، هذه معادلة ، هذه الخصيصة الثانية أنت إن أردت أن تكون أباً ناجحاً كن محسناً .

البطولة أن تكون محترَمًا محبوبًا :

أقول كلمة أستاذ علاء ، أتمنى أن يتفهمها الإخوة المشاهدين : في ثقافتنا في الشرق ، في الثقافة الدينية، في ثقافة الإسلام ، الأب محترم ، لكن ليست بطولة الأب أن يكون محترماً فقط ، ينبغي أن يكون محبوباً ، لا يحب إلا إذا كان محسناً ، إذا اهتم بأولاده ، اهتم بمستقبلهم ، بنى حياته على خدمتهم ، يكون عندئذ محترماً بثقافة الإسلام ومحبوباً بخصائص النفس .

أنا أقول : بطولة المدير العام لا أن يكون محترماً ، الكل يحترمه قصراً ، البطولة أن يحبوه ، البطولة أن يمدح في غيبته لا في حضرته ، في أي مؤسسة ، في أي مرفق ، في التعليم ، في الجامعة ، في

المستشفيات ، في الدوائر ، البطولة لا أن تحترم في حضرتك ، هذه ضريبة تؤدى من قبل من حولك ، البطولة أن تحب أن يكون ذكرك طيباً في غيبتك ، هذه مقياس دقيق جداً ، لذلك دعاء المؤمن لأخيه في ظهر الغيب لا يرد .

متى تمدح إنسانا في غيبته ! يجب أن يكون محسناً في حضرته تمدحه اتقاء شره ، أو تمدحه طمعاً فيما عنده .

الأستاذ علاء :

لذلك سيدي الكريم ، الإحسان يولد الحب ، كما تفضلت ، وأهل القلوب ذكروا مرتبة للإحسان ، هذه المرتبة مرتبة عليا ، وعندما يصل إليها الإنسان يصل إلى الله عز وجل .

الدكتور راتب :

البشر أتباعُ نبيٍّ أو قويّ :

هذا الشيء يجب أن ينقلنا إلى حقيقة ذكرتها كثيراً ، لكن المقام مناسب لأن نقولها : هناك قاعدة واسعة للبشر كلهم ، ستة آلاف مليون ، لكن قمم البشر زمرتان ، أقوياء وأنبياء ، الأنبياء أعطوا ، ولم يأخذوا ، فامتلأت قلوب أتباعهم محبة لهم ، والأقوياء أخذوا ، ولم يعطوا ، فامتلأت قلوب أتباعهم بغضاً لهم ، الأنبياء عاشوا للناس ، والأقوياء عاش الناس لهم ، الأنبياء ملكوا القلوب والأقوياء ملكوا الرقاب ، فرق كبير بين أن تملك القلب وأن تملك الرقبة ، الأنبياء يمدحون في غيبتهم ، وبعد ألف وأربعمئة عام والأقوياء في حضرتهم .

الهلعُ والجزع صفتان لازمتان في الإنسان :

إنّ قضية خصائص الإنسان رائعة جداً ، أستاذ علاء ، نحن كل التقدم العلمي متعلق بالجسد فقط ، لكنه لا يزال علم النفس يحبو ، بل هناك علم اسمه علم النفس الإسلامي ، يدرس خصائص الإنسان ، قال تعالى :

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

أينما وقفت عند كلمة إنسان معرفة بـ (أل)فهذا من خصائصه النفسية ، قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

لو أن تقريرًا طبيًّا ذكر ورمًا خبيثا لمات الإنسان من شدة الخوف والهلع ، لأنه خلق هلوعا ، لماذا خلق هلوعا ؟ كي يربيه الله عز وجل ، يسوق له شبح مصيبة فينهار ، لولا هذه الخصيصة لما تاب أحد، قال تعالى :

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

(سورة المعارج)

لماذا هو مَنوع ؟ حتى يرقى عند الله بإنفاق المال هو بالأصل منوع بالأساس يحرص على المال ، قال تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً *إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

إن الإنسان عجول ، وهذه خصيصة أيضاً ، فإن لم يكن عجول لا يرقى إذا اختار الآخرة ، ولو كان الإنسان مَهولا لا يرقى عند الله ، اختار الشيء البعيد ، والناس يحبون الشيء العاجل ، مركبة ، مكانة السريعة ، أما المؤمن فينظر إلى ما بعد الموت ، إلى الحياة الأبدية ، فلما اختار المؤمن الهدف البعيد ارتقى عند الله ، لأنه عجول .

الإنسان ضعيف ينهار ، لذلك لو خلق الإنسان قوياً لاستغنى بقوته ، فشقي باستغنائه عن الله ، خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه ، فيرقى بافتقاره إلى الله .

كل خصائص الإنسان لصالحه ، خصائص الإنسان : منوع ، عجول ، ضعيف ، فهو يحب الإحسان ، وحتى تقود من حولك أنا لا أتصور إنسانا يكفي أن يقود من حوله بقوته ، يجب أن تقوده بالإحسان إليهم ، وبالبر يستعبد الحر .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن شداد بن أوس]

إذاً : عمل لما بعد الموت ، وكل هذه الأشياء التي بسطها الله بين أيدينا هي لرفعتنا .

الدكتور راتب :

لذلك أستاذ علاء ، أنت لما تتعرف إلى حقيقة النفس تحسن قيادة النفوس .

الأستاذ علاء :

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((ما عُبد الله في الأرض بأكثر من جبر الخواطر))

[ورد في الأثر]

هذه القضايا هي إحسان بين العلائق البشرية .

الدكتور راتب :

لابد من الإحسان للخَلق ولو كنتَ في منصب قيادي كبير :

أعرابي جاهل جهلا مطبقا بال في المسجد ، فتَنَاوَلَهُ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((دَعُوهُ ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ))

فلما سكن رأى أناس قاموا إليه والنبي هدئهم قال له يا عبد الله ، هذه الأماكن لم تُبْنَ لهذا ، ففرح ، وارتاح ، فقال :

((اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ))

[البخاري]

يقصد هؤلاء الذين قاموا إليه ، الأنبياء قمم في الإحسان .

والله أنا أتمنى أن يعرف هذه الحقيقة كل إنسان له منصب قيادي بإمكان الذين حولك أن يقدموا لك أرواحهم أنا أقول دائماً أعط الإنسان رغيف خبزه وكرامته وخذ منه كل شيء ، البطولة في القيادة أن تحسن وأن تعدل ، إن أحسنت ، وعدلت يتفانى من حولك في خدمتك ، وخدمة الهدف الذي تسعى إليه ، لذلك فريق العمل مفهوم حضاري ، وهو في الإسلام ، فريق العمل يعني أن هذه المؤسسة كلها فريق واحد ، ليس أحد أفضل من أحد ، إن نجحت فهي للجميع ، وإن أخفقت فعلى الجميع ، مفهوم فريق العمل ، مفهوم القيادة المحسنة ، هذا المفهوم يجعل الإنسان في أعلى درجة ، سيدنا رسول الله قائد جيش ، زعيم أمة ، نبي ، الرواحل قليلة ، وعدد الصحابة ألف ، أعطى أمرا أن كل ثلاثة يتناوبون على راحلة ، وقال : وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، يسوي نفسه مع جندي ، ركب على الناقة ، فلما انتهت نوبته توسلا صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال كلمة والله لا أمل من تردادها ، قال :

((مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

لما كانوا في سفر ، وأرادوا معالجة شاة ، قال أحدهم : علي ذبحها ، وقال الثاني : علي سلخها ، وقال الثالث : علي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

((وعلي جمع الحطب ، قالوا : نكفيك ذلك ـ أصعب مهمة ـ قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

عَن أنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ :

((بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ عَقَلَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ـ ولا ميزة ، ولا كرسي مع أصحابه ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، فَقُلْنَا : هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ ...))

[البخاري]

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الكريم يبدو بأن وقت الفقرة العلمية اقترب وحان ، وننهي بأن هذه الخصائص حيادية ، وهذه الخصائص إما أن يستخدمها بالخير الإنسان ، وإما أن في مجالات الشر ، ما هي الفقرة العلمية ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : عمليات التمويه عند الفراشات :

ما زلنا في التمويه ، موضوع مهم جداً وممتع جداً .

هذه العنكبوت البيضاء في طرف الزهرة في انتظار فريستها ، تحط الفراشة وسط الزهرة ، يرى بزاويتها العنكبوت بلون أوراق الزهرة تماماً ، ولشدة التمويه تحط الفراشة على العنكبوت نفسِه ظناً منها أنها زهرة .

للفراشات مكانة خاصة بين الكائنات التي تجيد التمويه في الطبيعة ، بعض أنواع الفراشات رسمت عليها عيون كبيرة ، هذه العيون الكاذبة أهم تكتيك دفاعي للفراشات فعند مواجهة أيّ خطر كمقابلة عصفور يبحث لنفسه عن طعام ، ما عليها ألا تفتح جناحيها كاملاً لتبدو للعصفور أنها مخلوق كبير ، وهذا مثال حي لهذا التكتيك ، في الحقيقة هذه الفراشة التي تقف على الشجرة فريسة سهلة للعصفور يلتهما بلقمة ، إلا أن الفراشة ما تلبث أن تفتح جناحيها فتبرز عينان كبيرتان ليبدو الخطر على العصفور ليفر العصفور من هناك بسرعة .

هي تظهر بمظهر البومة وهي عدوة العصفور ، هي علمت من عدو عدوها ، لندقق في روعة النقوش التي على هذه الفراشة ، شكل العين ، الأهداب التي تحتها الأنف ، القزحية ، الضوء المنعكس على الحدقة ، حتى بريق الحدقة كله تلوين ، وضعت كل التفاصيل ، وعلى جناح آخر نرى الأنف والآذان والظلال فوق العين ، شكل العين ، حدقة العين ، وحتى البريق المنعكس في الحدقة ، أيضاً تعطي صورة حيوان كبير ، هي فراشة صغيرة لكنها تبدو على شكل عدو عدوها .

تفصيل معجز لجزئيات التمويه عند الفراشة :

في هذا التمويه تفصيل مهم آخر ، ألد أعداء الفراشات صنفان : حشرات كاليعسوب وعصافير صغيرة تتغذى عليها ، وتعد البومة ألد أعداء هذين الصنفين ، وفي هذه النقطة معجزة خارقة جداً ذلك أن الصورة التي على جناح هذه الفراشات غالباً صورة بومة ، يعني أن الفراشة تحمي نفسها بتقليد عدو عدوها لأن الطيور الصغيرة تخاف من البومة كثيراً إلا أن الفراشة قطعاً لا تعرف أن البومة عدو عدوها ولا تقدر على رسم صورتها على جناحها بتفصيل مذهل وبجزئيات رائعة جداً ، وليس لها وعي لتخطيط مثل هذا التكتيك ، ولكن في الواقع الصورة الدقيقة هذه موجودة بلا شك ، لم يأتِ هذا الرسم مصادفة ، بل خلق لغاية معينة ، فلمن يرجع التصميم الموجود على الفراشة ؟ تصميم كهذا لا يمكن أن يحدث كما زعم التطوريون ، فكل تصميم يدل على مصمم ، وهذا التصميم الذي على جناح الفراشة يدلنا على بديع خلق الله سبحانه وتعالى ، الحقيقة هذه الأشياء لا يمكن أن تفسر إلا بقدرة الله عز وجل .
يا سيدي ، الإنسان بشر ، يكون عنده عقل وفكر ، ومعه دكتوراه ، أحياناً يعجز عن أن يقوم بأعمال تقوم بها الفراشات ، لذلك مرة ثانية وثالثة ، قال تعالى :

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الحشر : 24)

استقطاب الفراشة لألوان حيوانات أخرى قصد التمويه :

طبعاً إلى جانب الأعين الكاذبة للفراشات إمكانيتها للتمويه محيرة أيضاً ، فكأن الفراشات استقطعت ألوان الأيكة ، ثم أنتجت هذه الألوان على أجسامها من خلال نظام دقيق تناسب الألوان هذه الأيكة ، لذلك الفراشة لا يمكنها قطعاً عمل كل هذه التي رأيناها في هذه المشاهد الرائعة ، هذا التصميم في الفراشات دليل واضح على عظمة الله .

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الحشر : 24)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (40-95) - مقومات التكليف : الشهوة - المال وسيلة للتقرب إلى الله - التموية عند الحيوانات
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-10-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكيرٌ بالسابق ربطًا باللاحق : الشهوة حيادية :

وإياكم سيدي الكريم ، وصلنا في مقومات التكليف عند الشهوة ، تحدثنا عن شهوة الجنس ، ثم وقفنا عند شهوة المال ، وحب امتلاك المال ، تبينا من خلال ما قدمت في الحلقات السابقة بأن المال قوام الحياة ، وتبينا بأن المال محبب للنفس ، كما جاء في الآية الكريمة :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران : 14)

إلى آخر الآية ، وتبينا بأن المال حيادي ، كما أن من خصائص النفس الإنسانية حيادية كما مر معنا في الغيرة ، في التملك ، في القيادة ، في الشهرة ، في كل هذه المسائل حيادية ، وتبينا أيضاً بأن الحظوظ حيادية ، من جمال الصوت ، من جمال القوام ، من جمال الوجه ، من أشياء كثيرة هي حيادية ، إما أن يستخدمها الإنسان في منحى الخير ، وإما أن يستخدمها في منحى الشر ، وتبينا بأن حب ما لدى الغير ، وما أعطي الغير هذا حيادي ، وهذا هو الإنسان ، يتمنى هذا الشيء أن يمتلكه ، ولكن أن يبقى عند صاحبه ولا يزول ، حتى لا ينتقل إلى الحسد البغيض ، والحسد المرض إن صح التعبير .
الآن سيدي الكريم ، هنالك من يقول : إن المال هو أكبر وسيلة للتقرب إلى الله ، هنالك أبواب إلى الله كثيرة ، وهنالك قنوات إلى الله كثيرة ، وهنالك ميادين بعدد أنفاس الخلق للتقرب على الله ، هنالك من يجعل من المال أكبر وسائل التقرب إلى الله كيف نقرأ هذه المسألة ؟
الدكتور راتب :

المال وسيلة من وسائل التقرب إلى الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – طرُقُ الخير وأبوابه كثيرة :

أستاذ علاء ، بادئ ذي بدئ الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، وهناك مليون طريق وطريق يوصل إلى الله ، ولكن هذه الطرائق تتفاوت فيما بينها بقوة المحبوب ، فإذا كان الله عز وجل قد بين في قرآنه الكريم :

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

(سورة الفجر)

2 – الإنسان مفطور على حب المال :

وأن المال يحبه الإنسان حباً جما ، وأن المال مادة الشهوات ، ولأن المال قوام الحياة ، ولأن كل المتع تحتاج إلى مال ، ولأن كل المباهج تحتاج إلى مال ، وأن البيت الفخم يحتاج إلى مال ، والزواج يحتاج إلى مال ، والمركبة الفارهة تحتاج إلى مال ، وأن المال مادة الشهوات ، فالإنسان في أصل خلقه فطر على حبه للمال ، بينا أنه حيادي ، لكن المال محبب جداً ، وقد تسفك الدماء من أجل المال ، وقد تقوم الحروب من أجل المال ، هذه الثروات كل شيء ، لذلك تفسر كل ما يجري في الأرض بسبب المال والثروات ، لذلك هذا المال خطير جداً ، بالمقابل هو أكبر قربةٍ إلى الله ، هو الوسيلة الفعالة في الوصول إلى الله ، لذلك الآية الكريمة :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ)

(سورة البقرة : 177)

هنا ملمح دقيق جداً في الآية :

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة]

3 – إنفاق المال على حبِّه :

آتى المال على حبه ، أقام الصلاة وآتى الزكاة ، الزكاة فرض .

الأستاذ علاء :

هذا الذي نتحدث عنه غير الزكاة ؟

الدكتور راتب :

المواطن حينما يؤدي الضريبة لا يستحق الثناء ، لأنه واجبه ، أما حينما يؤدي بناء ليكون جامعة يقام له حفل تكريمي ، لذلك إنفاق المال على وجه الزكاة هذا فرض من أجل الضمان الاجتماعي .

الأستاذ علاء :

ليس له فيه خيرة .

الدكتور راتب :

لكن له أجر ، وعليه وزر إن لم يفعل ، لكن في الأساس الفرائض مبتوت بها ، ليست قابلة للنقاش إطلاقاً ، والزكاة لا بد من أن تؤدى ، وذكرت في حلقة سابقة كيف أن المزكي يطهر من الشح ، وتنمو نفسه ، وكيف أن المزكى له يطهر من الحقد ، وتنمو نفسه أيضاً ، وكيف أن الله يحفظ المال من التلف المزكى عنه ، وأنه ينميه بطريقين ، بطريق معروف ، وبطريق العناية الإلهية .

الأستاذ علاء :

وأيضاً المجتمع تثمر فيه هذه القضية لحمة وترابطاً .

الدكتور راتب :

لذلك أستاذ علاء ، أنت حينما تنفق المال تنفق شيئاً أنت في أمسّ الحاجة إليه ، تنفق شيئاً محبباً إليك ، تنفق شيئاً من قوام حياتك ، تنفق شيئاً من مادة رفاهيتك ، لذلك الذي ينفق ماله يقدم شهادة يقينية على أنه يحب الله ، لذلك سمى الله إنفاق المال صدقة ، لأن إنفاق المال يؤكد صدق الإنسان مع الله ، أنت قد تتكلم الكلام ، وهذا لا يكلف شيئاً ، قد تعبر عن مشاعر قد تكون غير موجودة ، قد تطمح إلى شيء لا تستطيع أن تصل إليه ، هذه كلها أشياء فارغة ، أما حينما تنفق من مالك ألف ليرة ، ألفي ليرة ، مساهمة في بناء ، حينما تنقذ أسرة من الفقر ، حينما تعالج مريضا من مرض قد يودي بحياته تشعر بأن الله أكرمك ، لذلك قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف : 110)

أنت بالمال ترقى إلى أعلى عليين ، ولكن أداء الزكاة واجب وفرض ، ولا خيار فيه ، بينما ترقى بإنفاق الصدقات ، وآتى المال هذه على حبه ، إما على حب المال ، أي رغم حبه للمال أنفق المال ، أو على محبته لله ، تحتمل المعنيين ، إما أنه آتى المال في سبيل الله ، أو آتى المال على أنه يحبه .

أستاذ علاء ، لو أن إنسانًا أمسك بقبضة رمل ، وأعطاها لفقير ، هل يرقى عند الله ؟ لا قيمة لها ، لذلك الصحابة الكرام كانوا يتصدقون بأنفس أموالهم ، وهناك أناس الحاجة التي لا يحبها ، وقد كرهها ، أو طعام عافته نفسه يقدمه للآخرين ، وهذا خطأ كبير ، قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

(سورة آل عمران :91)

الشيء الذي تحبه ينبغي أن تنفقه ، لذلك قابيل قدم قرباناً من أسوء أمواله ، وهابيل قدم قرباناً من أفضل أمواله ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، والعالم كله الآن قبابيل وهابيل، إنسان قوي طاغية يبني مجده على أنقاض الآخرين ، معه قوة ، ليس معه حق ، وإنسان آخر معه حق ، لكنه ضعيف ، فلا بد من أن نجمع لأمتنا بين قوة الحق وحق القوة ، من أجل أن نجمع لأمتنا ، وهي عندها وحي السماء ، وهذه قوة الحق ، أن يكون مضاف لهذه القوة حق القوة ، قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال : 60)

أمام الغني خيارات كثيرة للعمل الصالح :

مادام الحديث عن المال أنا أذكر الأخوة المشاهدين بكلمة قلتها سابقاً أن المال قوة والذي يملك المال أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى للتقرب إلى الله عز وجل ، بين أن تنشأ ميتماً مأوى عجزة ، مستشفى، مدرسة ، بين أن تبني بيتاً للفقراء ، بين أن تزوج الشباب ، أن تهيئ فرص عمل لهم ، الأعمال التي ينجزها المال الخيرة لا تعد ولا تحصى ، لذلك وجب أن تمتلك المال لا حباً بالمال ، ولكن حباً بالعمل الصالح ، هذا عبّر عنه بعض علماء القلوب بأن المال في يده ، وليس في قلبه ، لذلك يجب أن تكون غنياً إذا كان طريق الغنى سالكا وفق منهج الله .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هنا نتبين قول النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاءه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ملأ حجر النبي من الذهب ، وهيأ عشرة آلاف رجل في جيش العسرة ، فقال :

((مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، مَرَّتَيْنِ))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة]

الدكتور راتب :

والآن أغنياء الأمة ، والله أمامهم فرص ليكونوا أكبر الناس عند الله حينما تحل بأموالهم مشكلات الناس ، المحسن إنسان كبير جداً ، المحسن إنسان في قلبه رحمة ، في قلبه رقة ، المحسن أخلاقي ، المحسن مؤمن ، المحسن ديّن ، لذلك إن الله يحب المحسنين ، هل هناك مرتبة أعلى من أن يحبك الله عز وجل ؟ اقرأ الآيات ، هناك تقريباً ثلاث عشرة آية في القرآن الكريم :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

وهكذا الله عز وجل التعامل معه مبرمج ، أحيانا تتعامل مع إنسان تعاملا مزاجيا ، والإنسان ليس له قاعدة واضحة ، صعب التعامل معه لأنه مزاجي ، ما عنده مبدأ واحد ، يكيل بمليون مكيال ، هذا إنسان صعب أن تتعامل معه ، لكن في التعامل مع خالق السماوات والأرض مبادئ ، يحب هؤلاء ، ويبغض هؤلاء ، اسلك طريق محبته ، الأمر بيدك ، وبالتعبير المعاصر الكرة في ملعبنا ، وإن تعودوا نعد ، الآن نحن الأمر بيدنا ، وليس بيد أعدائنا نحن حينما نصطلح مع الله ، الأمر بيدنا ، لأن الله عز وجل ، وعدنا بالنصر ، قال تعالى :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر : 51)

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور : 55)

هذا قانون .

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور : 55)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، ولكن هناك خلل في حياتنا ، قال تعالى :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق ، لكن هناك طريق واضح جداً ، وفيه بذل حقيقي وتضحية ، المال محبب جداً ، لذلك كان المال من أكثر الوسائل التي تقرب إلى الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

سيدي ، يأتي بعد بذل النفس ؟ المرتبة . الدكتور راتب :

بذلُ المال مقدَّمٌ على بذل النفس :

أبداً ، ما جاء بذل المال إلا بعد بذل النفس في أكثر من ثمانية عشرة آية ، إلا في مكان واحد :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

(سورة التوبة : 111)

بدأ بالنفس ، ثم بالمال ، لأن الأموال أسهل إنفاقاً ، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، إنفاق المال أهون من إنفاق النفس بكثير ففي أكثر من ثمانية عشرة آية بدأ الترتيب كان بذل المال ثم بذل النفس إلا في آية واحدة ، قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة : 111)

أرض مساحتُها مئة دنمٍ ، ومركبة الأرض ثمنها أضعاف مضاعفة ، تبدأ بالأهم ، الآية بدأنا بالأهم ، بالأكبر حجماً ، بالأكبر ثمناً .

الأستاذ علاء :

ولكن سيدي ، بالبذل يأتي المال في البداية ، لأنه أهون .

الدكتور راتب :

الإنسان أحيانا يبذل كل ماله من أجل عملية جراحية ، معنى ذلك أن نفسه أغلى من ماله .

الأستاذ علاء :

كلمةٌ تُضْحِك الثكلى : إنفاقُ المال يورث الفقرَ !!!

سيدي الكريم ، نأتي إلى مسألة ، عندما نقرأ في كتب السيرة وحياة الصحابة الكرام ، سيدنا عبد الرحمن بن عوف شَطَر ماله في حياته شطرين ، لعشرات المرات ، ثم نما المال ، شطره شطرين ، شطر لله عز وجل ، لأوجه الخير ، وشطر يتجر به ، نما ماله ، وشطر ماله ، تقول كتب السيرة : أكثر من عشرين إلى ثلاثين مرة ، ونما ، وزكى ماله ، وأصبح التاجر الأول في المدينة ، بل في الجزيرة العربية ، حتى إن قوافله عندما كانت تأتي المدينة يعج الغبار ، ويكون هناك صوت جلجلة أجراس البعير ، هنالك من يقول : إن بذل المال يورث الفقر .

الدكتور راتب :

هذا كلام مضحك لأنه يتناقض مع كلام الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ : 39)

((أنفق يا بلال ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا))

[البزار عن بلال]

وفي الأثر القدسي :

((عبدي أنفِق أنفق عليك))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((لَا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

هذا يتناقض مع صريح القرآن الكريم ، بل هذا من تلبيس إبليس .

هناك نقطة دقيقة في موضوع المال ، حينما تبذل المال ترقى إلى الله ، لأن المال محبب ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يقبل من أحد من أصحابه ماله كله إلا من أبي الصديق لمرتبته ، وذلك اصطلح على مصطلح جديد اسمه فقر الإنفاق ، هذا أعلى مرتبة بالإنسان ، أنه أنفق ماله كله ، لكن التوجيه القرآني :

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

(سورة البقرة : 195)

قال بعض المفسرين : أيْ إن لم تنفقوا .

وقال بعض المفسرين : إن أنفقتم مالكم كله ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

(سورة الفرقان)

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، حتى نستطيع أن نعلم أن الوصية أقل من الثلث ، والثلث كثير ، من هذا المنطلق .

الدكتور راتب :

الوصية :

1 – الوصية المحرَّمة :

يا سيدي ، هناك وصية محرمة كيف ؟ عندك بيت مساحته مئة متر ، عندك خمسة أولاد ، توصي بثلث أموالك للفقراء ، أو لطلاب العلم ، وليس لك غير هذا البيت ، معنى ذلك أنه بعد الوفاة ينبغي أن يباع البيت ، وأن يتشرد الأولاد ، لذلك هناك وصية غير مقبولة .

أما مَن عنده أموال طائلة فيجب أن تبقي أهلك أغنياء ، لذلك الرجل يعبد الله ستين عاماً ، ثم يضر في الوصية ، فتجب له النار ، ينبغي أن يكون أهلك في المقام الأول ، لأن تدع ورثتك أغنياء أفضل مِن أن تدعهم فقراء يتكففون الناس مِن بعدك ، إنفاق المال يحتاج إلى حكمة بالغة ، إنفاق المال فن ، إنفاق المال منهج ، إنفاق المال قيمة ، إنفاق المال يحتاج إلى دراية كبيرة جداً ، لأن المال قوام الحياة .

2– لا إسراف ولا تبذير :

سيدي ، الشاردون الفجار إن أنفقوا أنفقوا إسرافاً وتبذيراً ، وإن أمسكوا أمسكوا بخلاً وتقتيراً ، والإسراف في المباحات ، والتبذير في المعاصي والآثام ، إذا كان إنفاق المال في المعصية فهو تبذير ، وإذا كان في المباح فهو إسراف ، والله عز وجل قال :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف : 31)

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، نأتي إلى مسألة السخاء والإنفاق ، والمال أكبر وسائل التقرب إلى الله عز وجل ، هل هذا السخاء أو هذا العطاء يندرج في مسألة الإيثار ، أم الإيثار يأخذ جانباً آخر ؟

الدكتور راتب :

مقارنة بين الإنفاق والإيثار :

الإيثار أوسع من إنفاق المال ، قد تؤثر أخاك في مكان في المركبة ، قد تؤثر أخاك في طعام ، قد تؤثر أخاك في قيادة معينة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((تَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا))

[متفق عليه عن أبي موسى الأشعري]

أنا حينما أطيع أخي للمصلحة العامة أكون بطل ، فالمؤاثرة واسعة جداً ، أما المال إنفاقه يمكن أن ينفق المال مؤاثرة ، لكن كقاعدة أساسية : لا مؤاثرة في الخير ، والخير كله في المؤاثرة .

لما أعطي أمي مبلغاً من المال طلبته حتى أفسح مجال لأخي أن يعطيها ، هذا مرفوض في الشرع ، لا مؤاثرة في الخير ، لم أنفق هذه النفقة حتى أتيح مجالاً لأخي كي ينفقها ، لا ، وأخوك لا ينفق عندئذ ، لذلك أخطر شيء أن تكون هناك مؤاثرة في الخير ، ولا مؤاثرة في الخير ، والخير كله في المؤاثرة .

قصصٌ من الواقع لا خيالَ فيها :

أستاذ علاء ، سيدنا عبد الرحمن بن عوف له قصة ، لما هاجر المهاجرون إلى المدينة كان موقف الأنصار بطوليًا ، عرضوا عليهم نصف أموالهم ، له دكانان ، خذ واحدة له ، لكن لم يؤكد كتاب السيرة أن مهاجراً واحداً أخذ من أنصاري أبداً ، ماذا قال ابن عوف لأخيه سعد بن الربيع لما عرض عليه نصف ماله ؟ قال له كلمة تبكي : << بارك الله لك في مالك ، ولكن دلني على السوق >> ، فدله على

السوق ونما ماله ، يقول هذا الصحابي الجليل : << ماذا أفعل إن كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً بالمساء << ، وقد ورد في بعض الروايات قد تكون غير مؤكدة أنه سيدخل الجنة زحفاً ، قال : << والله لأدخلنها خبباً ـ أيْ هرولة ـ وما ذنبي إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً بالمساء >> ، ما نقص مال من صدقة .

والله عندي قصص لا تعد ولا تحصى عن إكرام أكرمه الله به للمحسنين .

مرة لي صديق له قريب توفي ، فذهب إليهم للتعزية ، و قال لأولاده : أعلى أبيكم دين ؟ قالوا : نعم ، قال : كل دينه عليّ ، هو تصور الدين عشرين ألفاً ، ثلاثين ألفاً ، بعد أيام صار الرقم ثلاثمئة وثمانين ألفاً ، دفعه بكامله ، يقسم بالله خلال أسبوعين عوضه الله خيراً من هذا المبلغ ، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه ، لذلك عبدي أنفق أنفق عليك ، ما نقص مال من صدقة .

أستاذ علاء ، المنفق ، إذا أنت ذهبت إلى صديق لتقدم له هدية ، يهمك أن يكون اسمك على الهدية ، لو أخذها منك ابنه ، وأخذ اسمك ضاعت الهدية ، فالإنسان حريص أن يضع بطاقة أحياناً داخلية ، وليست خارجية على الهدية ، لذلك قال الله عز وجل :

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)

(سورة البقرة : 270)

طمأنك :

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ : 39)

الأستاذ علاء :

المال أكبر وسائل التقرب إلى الله عز وجل ، الوقت يدهمنا دائماً ، وحان وقت الفقرة العلمية ، فماذا اخترت سيدي ؟

الدكتور راتب :

ظاهرة التمويه عند الحيوانات :

لازلنا في موضوع التمويه ، وهو موضوع دقيق جداً ، وله حلقة قادمة إن شاء الله .

1 – التمويه عند طائر (الباتو) :

إن الطائر المسمى (باتو) يعيش في غابات فنزويلا هو أحد المهارة في عالم التمويه ، أرياش الطائر وقشر الشجر التي حط عليها تتطابقان إلى حد ممتع ، هذا الخط بين ريش الطائر وبين لحاء الشجر .

الأستاذ علاء :

لو لم يوضع هذا الخط لما ميّزنا .

الدكتور راتب :

ترون على الشاشة أرياش الطائر ، وقشرة الشجرة معاً ، الشجرة على اليسار ، والطائر على اليمين ، تشابه تام ، هناك علامة فارقة واحدة لتمييز الطائر ، إنها منقاره وعيناه ، إلا أن الطائر يعرف جيداً استعمال النقش الذي عليه .

متى يستعمل طائر الباتو عمليات التمويه ؟

عند الخطر يبدأ بالتنفيذ يقلص كما ترون نفسه بإغلاق عينيه ومنقاره ، وحينئذ لا يمكن التمييز بينه وبين الشجرة ، وكأنه أحد أغصانها ، هنا تصميم فائق أيضاً ، فرغم إغماض الطائر عينيه يرى ما حوله من خلال الفراغ الخاص بين جفون عينيه ، وعند ابتعاد الخطر يترك التمثيل ويرتاح ، إذاً : مَن علّم الطائر مثل هذا التمثيل ؟ الحقيقة الصارخة هنا هي صنع الله الذي أتقن كل شيء ، دون مثال .

إنه شيء لا يصدق ، طائر وكأنه غصن ، له عينان ، وله منقار ، وله نَفَس ، يحبس نفَسه ، ويبدو كأنه أحد أغصان الشجرة ، كل هذه الصور حقيقية .

2 – التمويه عند السمك :

تقنية التمويه التي ألهمها الله سبحانه للكائنات لا حدود لها فبعض الكائنات تخفي نفسها باستخدام بعض المواد التي في بيئتها ، فعلى سبيل المثال هذه السمكة الصغيرة تعمل على تجهيز مكان آمن لها لإفراغ الرمال من المحارة الفارغة ، طبعاً قد يكون هناك أخطبوط ، هذا الأخطبوط يتبع أسلوب تمويه ذكي جداً ، حيث يقوم بجمع الأصداف التي حوله في مكان واحد ، ثم يخبئ نفسه بينها ، ينتظر فريسة تبحث عن طعام لها بين هذه الأصداف .

3 – التمويه عند الأخطبوط :

شيء لا يصدق الأخطبوط له تمويه عجيب ، أيضاً سرطان البحر سوف نشاهد سرطان البحر هذا أخطبوط ، نشاهد حركة هذا السرطان المحيرة جداً ، يقطع بدقة أجزاء النبات التي اختارها من سطح البحر ، إذاً : ماذا ستفعل بهذا الأجزاء من هذا النبات ؟ الجواب مدهش جداً ، سيخفي نفسه يضع على

جسمه ، وأحيانا الجنود يضعون على جسمهم أغصان أشجار ، العملية نفسها ، هذا الجزء من النبات الذي قطعه ويجعله كالملابس من الطحلب ، وهكذا يقوم بعملة تمويه خارقة .

4 – التمويه عند سرطان البحر :

سرطان بحر آخر يضع الأغصان التي قطعها بدقة على قشرة رأسه ، وهكذا يمكنه الاختباء بسهولة بين النباتات ، وهنا حقيقة أخرى وهي إفراز سائل لاصق ليتمكن من إلصاق هذه الأغصان عليه بسهولة .

لقد خلقت أنظمة بالغة الدقة في جسم الحيوان متناسبة مع فطرتها التي فطرت عليها ، أما هذا السرطان الذي ترونه فيقطع إسفنجة يبدو فعله بالنسبة لكم مستحيلاً ، ولكنه بذلك يخيط لنفسه ملابس ثم يلبسها . لو وقفنا في هذه النقطة وقفة متأنية ، فالسرطان الذي لا يرى نفسه في المرآة ، ولا مرة واحدة ، وكذلك يفتقر إلى إمكانية التخطيط والتفكير أيضاً ، إذاً : من أين عرف السرطان ضرورة عمل التمويه بالنسبة له ؟ إنه يستخدم التكتيك ، الجندي الذي يموه نفسه تماماً بإلصاق الأغصان والأوراق عليه من أين تعلم السرطان التمويه بهذه الطريقة ؟ ما دخل دورة عسكرية ، ولا خريج كلية حربية ، واضح أن هذا العمل الذي قام به هو إلهام ، وبلا شك القدرة التي أعطت السرطان هذه الخصائص لحماية نفسه بهذا الشكل الذكي هي قدرة الله عز وجل الذي أوجد الكائنات كلها من عدم ، كلها آيات دالة على عظمة الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (41-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ انفاق المال ثمن الجنة ـ التمويه عند الطائر الذهبي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-10-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وترحيب :

وصلنا في الحلقة الماضية سيدي الكريم عند مقوم التكليف ، الشهوة ، وقد سبق هذه الحلقة حلقات ، ربما وصلت إلى تسع حلقات أو أكثر عن الشهوة كمقوم من مقومات التكليف التي تحدثنا عن سابقاتها ، وهي : الكون ـ العقل ـ الفطرة ـ ووصلنا إلى الشهوة وبقي أمامنا ـ الاختيار ـ الشرع ـ الوقت . وفي محطة مطولة عند الشهوة التي تنقسم إلى شهوة الجنس ، أو الشهوة الجنسية ، ومررنا عليها ، وفصلنا هذه المسألة ، ثم مررنا إلى قضية المال ، وبحثنا فيه ، وتبينا بأن لمال قوة كامنة حيادية ، الإنسان هو الذي يوجه المال الوجهة السليمة ، أو غير السليمة ، إذاً : المال بذاته لا يدفع مصيره بذاته، هو قوة حيادية كما تفضلت ، وإنما الإنسان بمحض اختياره هو الذي يصرف المال في أوجه للخير ، أو في أوجه للشر ، وكذلك يكسب ذلك المال .
وتبينا أن المال من أهم وسائل التقرب إلى الله عز وجل ، لأن فيه قوام الحياة ، ونريد أن نكمل في هذه المسألة التي لم تغتن كما نريد دائماً ، وأن الإنسان هو الذي يُسأل عن كسب المال ومصادره ، ثم عن أوجه صرفه ، نعم سيدي الأستاذ .
الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

المال قوام الحياة :

1 ـ السلامة والسعادة في القرب من الله :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، الحقيقة أن المال قوام الحياة ، ولكن لأن كل السلامة ، ولأن كل السعادة في القرب من الله ، لذلك ربنا جل جلاله صنع لنا وسائل للتقرب إليه ، الله عز وجل خلقنا

ليسعدنا ، خلقنا ليرحمنا ، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

الإنسان مخلوق للجنة ، وجيء به إلى الدنيا من أجل أن يدفع ثمن هذه الجنة ، في سنوات معدودة ، وجعل الله عز وجل المال أكبر أداة ، وأكبر وسيلة كي يتقرب الإنسان إلى الله .

2 ـ المالُ محبَّبٌ إلى الإنسان :

بادئ ذي بدئ أودع فيه حب المال ، إذا أودع الله في الإنسان حب شيء فإذا أنفقه تقرب إلى الله .

لو أن واحدا منا أمسك بحفنة من تراب ، وأعطاها إلى فقير ، لا يتقرب بها إلى الله ، لأن التراب لا قيمة له ، أما الألف ليرة فلها قيمة .

إذاً : لأن المال قد زُين إلى نفوسنا :

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

(سورة الفجر الآية : 20)

وحقيقة المال أنه محبب للإنسان ، فحينما ينفقه يؤكد صدقه في محبته لله ، المحبة تُدعى ، لكن الله عز وجل حينما طالبنا أن نحبه طالبنا بالدليل .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران الآية : 31)

ما قبل دعوى محبته بلا دليل ، بالكلام ما قبلها .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

القضية الدقيقة : أن الله عز وجل مؤمن بذاته مصدر سعادة الخلائق ، فقد رسم للخلائق طريقاً إليه ، هذا الطريق بني على الشهوات ، وعلى رأسها المال والمرأة ، فهذا المال الذي حببه الله إلينا إياه إذا أنفقناه نصل إلى الله ، لذلك رُبّ درهم سبق ألف درهم ، رُبّ درهم أنفق في إخلاص سبق ألف درهم أنفق في رياء ، ودرهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك ، لأن المال في الحياة له معنى ، وله مفعول كبير ، وله تأثير ، ومادة الشهوات مادة الرفاه ، مادة السرور ، فلذلك إنفاق المال في الحياة أبلغ من إنفاقه بعد الممات .

الأستاذ علاء :

الجهة العاقلة التي تتصرف ، وتحب هذا الشيء ، وتتخلى عنه في أوجه الخير ، وفي أوجه البر ، عندما تموت تذهب هذه القوة ، ولم تعُد لها الخيرة في أن تصرف أو لا تصرف ، إذاً : صرف المال في أوجه الخير ، والإنسان على قيد الحياة ، وهو متمكن بصحته هي أفضل بكثير من صرفها بوصية بعد وفاته .

الدكتور راتب :

كيف يرمِّم الإنسان خطأه ؟

بل إن الإنسان لو أنه تاب توبة نصوحًا ، ثم زلت قدمه ، كيف يرمم هذا الخطأ الكبير ؟ قال تعالى :

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

(سورة هود الآية : 114)

بعض الإخوة الكرم حينما يصطلحون مع الله ، ويعقدون التوبة النصوح ، لو ـ لا سمح الله ولا قدر ـ وقعت نكسة طفيفة الإنسان إذا أنفق ماله ابتغاء وجه ربه فكأن هذا الإنفاق يرمم هذه الزلة التي وقع فيها، إذاً : المال له دور فعال في حياة الإنسان .

بل إن الله سبحانه وتعالى حينما قال في مطلع سورة البقرة :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة الآية : 1 - 2)

الإيمان بالمحسوسات لا يقدِّم ولا يؤخر :

أستاذ علاء ، أن ترى المحسوسات لا يعد هذا إيماناً ، لذلك فرعون لما رأى الموت قال :

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية : 90)

لأنه رأى مصيره الحقيقي رأي العين ، هذا لا يسمى إيماناً ، لذلك قال تعالى :

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية : 158)

العاقل يحكمه النص ، وغير العاقل يحكمه الواقع :

إذاً : الإيمان أن تؤمن بالغيب ، وهذه بطولة كبيرة جداً ، معك نص ، المؤمن دفعه النص إلى إنفاق المال ، النص ردعه عن ارتكاب المعاصي ، أحيانا الشهوات محسوسة ، لماذا يستحق المؤمن جنة ربه؟ بالشهوات ، ملء سمعه وبصره ، أما هو فما الذي ضبطه ؟ كلام ، بالتعبير المألوف حبر على ورق ضبطه .

كنت أضرب مثلاً عدة مرات : إن رجلاً ذهب إلى حمص ليقبض مبلغا كبيرا جداً في أيام الشتاء ، فرأى لوحة صغيرة : الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في منطقة النبك ، أربع كلمات ، فرجع إلى بيته ، ما الذي حمله أن يعود إلى البيت ؟ أربع كلمات ، فالعاقل يحكمه النص ، أما لو أن الدابة تمشي على هذا الطريق فإنها تقف عند الثلج ، بشكل عام العاقل يحكمه النص ، والدابة يحكمها الواقع .

يصاب إنسان بالسرطان بعد إدمانه على التدخين ، ثم يرتدع بعد السرطان ، هذا دابة ، أما المؤمن العاقل الموفق الذكي المتفوق فهو الذي يردعه النص ، فالنص الشرعي فيحرّم الدخان ، والبحث العلمي يبيّن أخطاره .

البطولة أن نتعامل مع النصوص ، ما هو الإيمان بالغيب ؟ أنت أمام كلام خالق الأكوان ، دفعك إلى أن تتحرى الحلال ، دفعك إلى أن تكون حليماً ، دفعك إلى أن تكون كريماً ، دفعك إلى أن تكون عفيفاً ، دفعك إلى أن تكون صادقاً ، دفعك إلى أن تكون أميناً ، كل هذه الفضائل ، وكل هذا الانضباط ، وكل هذا العطاء ، وكل هذا البذل ، والتضحية بنص قرأته ، لكنك صدقت مضمونه ، هذا الإيمان بالغيب .

لذلك :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة : 1 - 3)

مثلاً : لو قلنا لإنسان : إن أخذت هذا المبلغ حراماً تُقتل ، لا أحد يأخذه ، ولو كان كافراً ، أما حينما يكون النص فقط لك أن تأخذه ، ولك ألا تأخذه ، ثم تحاسَب بعد حين ، هنا يمتحن الإنسان ، لو أن عقاب المعصية جاء فور المعصية ، ولو أن ثواب الطاعة جاء بعد الطاعة لبطل الثواب والعقاب ، لو أنك تعاملت مع الأشياء ، مع المحسوسات ، لم يعُد هناك إيمان ، وأيّ إنسان مهما يكن بعيداً عن الله حينما يرى نتيجة المعصية طلقة رصاص تأتي في رأسه لا يعصي الله ، أما الإنسان فله أن يعصي الله ما شاء، ولا يرى شيئاً ، قلبه ينبض بانتظام ، ضغطه طبيعي ، دخله كبير ، مركبته أمامه ، بيته فخم ، هذا الابتلاء ، تستطيع أن تعصيه دون أن ترى النتائج قريبة .

إذاً : الإيمان أيضاً يمكن أن تطيع الله ، وتبقى في دخل محدود ، يمكن أن تطيعه وعندك مئات المشكلات ، متى يكون هذا الامتحان مؤهل لدخول الجنة ؟ أن النتائج ليست قريبة ، بل بعيدة ، لذلك خُلق الإنسان عجولاً ، يريد الشيء أمامه ، أما العاقل فمهُولٌ يبحث عن الجزاء الأبدي .

العاقل أستاذ علاء ، قبل أن يفعل شيئاً يقول : لو أوقفني الله يوم القيامة ، وقال لي : لمَ طلقت زوجتك ، وهي محسنة ؟ وهي جيدة ؟ لمَ أكلت هذا المال الحرام ؟ لمَ احتلت على فلان ؟ لمَ أهنت فلان ؟ هذا كله يفكر فيه إذا وقف بين يدي الله عز وجل .

إذاً : كلمة إيمان ، أن الإنسان فكر في هذا الكون ، واستنبط أن له إلهاً عظيماً ، وأن هذا القرآن له ، وهو الخالق ، وله تعليمات ، فصدق النص ، لذلك له أجر كبير ، أما الإنسان الآخر فيتعامل مع الحسيات ، ما دام بصحة جيدة ، وعنده دوافع شهوانية يمارس الشهوات بلا قيد ، ولا شرط ، ولا ضابط ، ونرى ونسمع كل يوم ما يجري في العالم ، وحينما يقوى الإنسان يطغى .

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق الآية : 6)

فلذلك الإيمان أن تتعامل مع النص ، مع النص القرآني ، ومع النص النبوي ، فتصدق مضمون هذا النص ، فتنضبط وتحسن ،

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ * وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

إنّ ألف إنسان لو قيل لهم : لو فعلت كذا تتوب ، لا أحد يفعل ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، وانتماءاتهم ، إلا فاقد العقل ، أما الإنسان العاقل فهو الذي يؤمن بنص قطعي الثبوت والدلالة ، ويعلم علم اليقين أن هذا النص واقع به .

كنت أقول : إن الإنسان لو كان في طائرة ، واستهزأ بقانون السقوط ، ولم يقبله ، ونزل بلا مظلة ، القانون إذا كذبنا به ، ولم نعبأ به ، واستهزأنا به فهو مطبق علينا ، سواء آمنا به أم لم نؤمن ، فضلناه أم احتقرناه ، هو مطبق علينا ، حينما لا يقبل الإنسان وحي الله ، حينما يقول : هذا الشيء لا يصلح لهذا العصر ، هذه أفكار ضبابية ، أفكار ما وراء الطبيعة ، هذه غيبيات ، هذا تعبير عن ضعف الإنسان ، لضعفه الشديد اخترع الدين ، هكذا يقول بعض الناس ، هذا الكلام ليس معنى هذا أن الإنسان حينما يرفض هذا المنهج الإلهي أنه لا يطبق عليه ، سيكون تحت مظلته ، وتحت سيطرته .

فلذلك الإنفاق جزء من الإيمان ، أنت خلقت للجنة ثمن الجنة الإنفاق ، هنا الإنفاق عام ، تنفق من علمك ، من خبرتك ، من جاهك ، من وقتك ، من عضلاتك ، من مالك ، لكن المال محبب ، وإنفاقه يعني شيئاً كبيراً ، قد تنفق من وقتك تنام فتستريح ، أما هنا ألفين ليرة خمسة آلاف ليرة أطعمت بها مسكيناً ، قدمت لها مساعدة لإنسان يحتاج إلى عملة جراحية .

فلذلك المال لأنه محبب بل هو من أشد الأشياء المحببة ، لقوله تعالى :

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

(سورة الفجر الآية : 20)

كان إنفاقه برهاناً ودليلاً قاطعاً على محبة الله ، لذلك القرآن عدل في بعض الآيات عن تسمية الزكاة إلى كلمة صدقة ، إنما الصدقات هي الزكاة لأن كلمة صدقة مأخوذة من الصدق ، أي تؤكد صدق الإنسان في محبته لله .

المؤمن بالتعبير المعاصر استراتيجي في سلوكه في الإنفاق ، لأنه يعطي من أجل أن يرضى الله عنه ، يعطي ولا يأخذ ، الطرف الآخر يأخذ ولا يعطي ، وكنت أقول داماً : القوى البشرية كتلتان في الأنبياء والأقوياء ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب ، والأقوياء ملكوا الرقاب ، والأنبياء عاشوا للناس والأقوياء عاش الناس بهم ، الأنبياء يُمدحون في غيبتهم والأقوياء في حضرتهم .

لذلك الإنفاق أحد أكبر نشاطات المؤمن في الأرض ، لكن الإنفاق في المعنى الواسع يبدأ بنصيحة ، قد تدرس طفلا ، تدرسه بعض العلوم التي تنقصه ، قد تطعم فقيرا ، القضية واسعة جداً .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، هنالك مفهوم شائع ، بأن الكريم الذي ينفق هو مَن يتخلق بخلقِ من أخلاق الله عز وجل، ومن صفات الله عز وجل الكريم ، المفهوم يقول : حتى الكريم إن كان مقصراً في بعض العبادات ، ومقصراً في بعض الواجبات ، لكن بإنفاقه الله عز وجل يكرمه ، ويفتح أمامه ، ماذا نقول في هذه المحطة ؟.

الدكتور راتب :

النفقة تغطي النقص الحاصل في الإنسان :

لا شك أن الله سبحانه وتعالى رب كريم ، وهو يقدر كل شيء ، وقد يكون الوقت قصيراً جداً في الليل في أيام الصيف ، فالذي لا يقوم الليل لعل الله سبحانه وتعالى يقدر الليل والنهار ، لكنه ينفق في النهار نفقة تغطي تقصيره في قيام الليل .

الإنسان أحياناً بالخلق العظيم ، والخلق السامي ، هذا صاحبه يسبق القائم الصائم ، وهناك أحاديث كثيرة جداً تذكر أن صاحب الأخلاق الرفيعة قد يسبق بهذا الخلق الرفيع العباد بأشواط كثيرة ، لأن الله يحب من عبده أن يقدم له عملا يتقرب به إليه .

لذلك العابد يحب ذاته ، أما المنفق فيحب غيره .

أقول كلمة دقيقة : رأى النبي رجلا يعبد الله في وقت العمل ، سأله سؤالا فيه ملمح كبير ، قال له : مَن يطعمك يا فلان ؟ قال له : أخي ، قال له : أخوك أعبد منك ، الذي يعمل أقرب إلى الله من الذي لا يعمل، الذي يده عليا أقرب إلى الله من الذي يده سفلى .

لكن لما جاءه شريكان يشتكي الأول على الثاني لقلة جهده ، لكن الثاني طالب علم يتعلم ليعلم الناس ، ليعم الخير ، قال له : لعلك ترزق به ، الوضع اختلف ، العابد لذاته ، أما العالم فلغيره ، هذا حينما تطلب العلم من أجل أن تعلم الناس ، لأن أزمة أهل النار وهم في النار أزمة علم .

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك الآية : 10)

العلم هو الحاجة العليا في الإنسان ، وفي الإنسان حاجات سفلى ، هو وبقية المخلوقات سواء ، الإنسان يتزوج ، والحيوان يقترن بأنثاه ، الإنسان ينجب ، والحيوان كذلك ، لكن هناك حاجة عليا عند الإنسان ، هي أن يعرف الله ، وأن يصطلح معه ، وأن يقبل عليه حتى تسمو نفسه .

فلذلك الطريق الأسرع ، وأحيانا يقال لك : طريق سريع ، طريق عريض ، هناك طريق معه وسائل إرشادية ، أسرع طريق إلى الله إنفاق المال .

الأستاذ علاء :

نحن تحدثنا عن المنفق الباذل مع وجود تقصير ، لكن هناك مفهوم سائد : المنفق الباذل في وجوه الخير ولو كان على معصية في وجه آخر يوفقه الله ، هكذا بين العوام .

الدكتور راتب :

المنفق عمله محفوظ ولو كان مقصِّراً :

هذا المعنى دقيق جداً ، أنا الذي أؤمن به أن أي عمل صالح صدر من أي إنسان كائناً من كان محفوظ عند الله ، الله عز وجل أعظم وأجلّ من أن يضيع على إنسان عمله الصالح ، فإن ابتغى به الدنيا أعطاه الدنيا ، وإن ابتغى به الآخرة أعطاه به الدنيا والآخرة .

الأستاذ علاء :

كنت أود أن أبحث في هذه القضية ملياً ، لكن يبدو لي الوقت الفقرة العلمية جاءنا .

الدكتور راتب :

ما أحسن عبد من مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة ، ومستحيل على خالق السماوات والأرض أن يضيع على إنسان عمله الطيب .

الموضوع العلمي : عملياتُ التمويهِ عند الحيوانات :

1 ـ اليرقات تصنع لباسا للتمويه :

الحلقة الأخيرة من موضوع التمويه ، هناك كائنات أخرى تخفي نفسها عن طريق صنع زي لها ، الغريب في الأمر أن بينها يرقات ، وجودها بين الحشرات التي خرجت تواً من بيوضها ، هذه القطعة من الفسيفساء المتحركة ليست سوى يرقة صغيرة أمّنت لنفسها تمويهاً رائعاً بزيها المكون من قطع الحجر الصغيرة ، التي نسقتها على جسمها بدقة عالية ، أزياء الورقة ليست نموذجاً واحداً ، فكما أن لها زياً من قطع الخشب الصغيرة كما نرى ، فقد صنعت لنفسها أيضاً زياً فضفاضاً من الأوراق ، ترتدي ثياب تارةً من الأحجار الصغيرة كأنها فسيفساء ، وتارةً من عيدان خشبية ، وتارةً من أوراق الشجار ، هذه الكائنات دودة صغيرة لا تملك أي عقل أو وعي ، ولا تعرف شيئاً بالنسبة للعالم الخارجي قد خرجت تواً من البيضة على الرغم من أنها تحمل على ظهرها هذه الأثقال الكبيرة ، ترى لماذا تفعل هذا الشيء ؟

1 ـ تفسير هذه الأفعال :

المدافعون عن نظرية التطور يقفون في حيرة من أمرهم تجاه هذا السؤال واحد منهم ألماني يدعى " هلمر " يذكر في كتابه المسمى الديناصورات الهادئة تفسيراً لهذه التصرفات الذكية التي تصدرها الدودة، من الأصل في هذا الإبداع الذكي الذي أوقع الإنسان في حيرة ، أثر مَن ؟ هذه القمة في الإبداع التي أخذت به الدودة منذ ولادتها ، علينا أن نقبل أن هذه الأساليب كلها لا يسلكها إلا إنسان ذكي جداً للحفاظ على حياته ، فليس للدودة الاستطاعة على التغطية غاية منشدوة ، يرى صاحب هذا العقل أن عملَ هذه الكائنات المموهة مِن قدرة الله تعالى الحاكمة لها .

2 ـ بطلان نظرية التطور والارتقاء :

ها هنا الحقيقة لو يريد التطويريون الاعتراف بها ، يعني الذين يؤمنون بنظرية داروين ، كل هذه الخصائص الخارقة للكائنات خلقت من قِبَل الله تعالى ، فهي آية له ، وآية على علمه ، وآية على خبرته التي لا حدود لها .

التفكر في خلق السماوات والأرض كما يقال دائماً أوسع طريق نسلكه إلى الله ، بل هو أقصر طريق لمعرفة الله ، لأنه يضعك أمام عظمة الله .

التمويه عند الطائر :

1 ـ عمليات التمثيل والتظاهر عند الطائر :

بعد قليل نشاهد هذا الطائر الذهبي الذي حير الإنسان بصفاته ، بقدرته الفائقة على التمويه ، ومهاراته في التمثيل ممثل من الطراز الأول ، وشجاعته وتضحيته ، هذا الطائر يبني عشه بين الأعشاب والمراعي ، قيود هذا الطائر منقوشة تماماً في بطن الأم قبل أن تبيض ، هذه النقوش حماية خاصة من أي مكروه ، أو من أي مشكلة ، خلقت لتأمين التمويه اللازم للبيض ، وهكذا لا تتميز البيوض عن الأعشاب التي بينها ، وعند اقتراب الخطر من عشها من قِبل جارح أو إنسان ، الآن يقوم الطائر بحركة محيرة جداً ، ينطلق من عشه ثم يمثل دور الطائر الجريح المكسور الجناح ، العملية تمثيلية محضة ، الغريب أنه كلما اقترب منها أحد تبدأ مرة أخرى بهذا التمثيل الدقيق ، تمثل أنها طائر مكسور الجناح ، فإذا توسعت المسافة بينها تنام ، وتكرر خدعة الجريح من حين لآخر ، وهدفها إبعاد عين الغريب المقترب عن العش ، وإذا ابتعد الخطر بما فيه الكفاية ينتهي التمثيل ، ويعود الطائر إلى عشه ، فهو مموِّه وممثِّل .

2 ـ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ :

لا شك أن هذا الطائر يظهر تصرفاً فائقاً ، أن يلقي عصفور صغير نفسه إلى التهلكة ، أن يقدم نفسه تضحية كبيرة لأجل صغاره ، هذه التضحية لا تفسر بأي شكل كان .

الداروينية تفترض في مبدئها أنانية كل حي ، ولكن هذا الطائر الذهبي يفسد هذه الفرضية ، ويوضح لنا مرة أخرى أن صفاته ، وشجاعته ، وتضحيته ، وتصرفاته الذكية إلهام من الله عز وجل إلى كل الكائنات .

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون الآية : 14)

لابد من التفكر في خلق السماوات والأرض :

وكلما تأملنا في الطبيعية نواجه الحقائق نفسها ، فالكائنات ذات بنية معقدة في قمة التصميم ، تبطل زعم المصادفة في نظرية التطور ، كل كائن على حدا دليل على عظمة الله عز وجل ، لكل نوع من الكائنات خصائص فائقة يختلف بعضها عن بعض ، صاحب كل هذه المخلوقات البديعة هو الله تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما سبحانه وتعالى .

فيا أيها الإنسان العاقل ، ألا تتفكر في خلق السماوات والأرض فتتعرف من خلال هذا التفكر إلى الله الموجود الكامل الواحد إلى إله عظيم ، ورب كريم ، وخالق عظيم ؟ هذا التفكر في خلق السماوات والأرض طريق سريع وعريض يسلكه الإنسان لمعرفة الله جل جلاله ، كل مخلوق له خصائص ، وله طباع ، وله ألوان ، وله عادات ، وله حالات خاصة هذا من عظمة الله عز وجل بديع السماوات والأرض .

لذلك الإنسان حينما يتفكر في خلق السماوات والأرض يقف أمام عظمة الله جل جلاله .

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة الجاثية الآية : 36 - 37)

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران الآية : 191)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (42-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ المال - خلق الإنسان للعمل الصالح ـ الضوء شرط أساسي لتكون الألوان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-10-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وترحيب :

أعود لألخص ما بدأ به البرنامج عندما تكلمت عن مقومات التكليف ، فمررنا على العقل ، وقبل ذلك الكون ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ثم الشهوة ، ووقفنا عندها مليا ، وأخذت منا قسطًا من الوقت مليا ، ولكن كان لا بد من الوقت الذي نصرفه على هذه المحطة ، وهذا المقوم من مقومات التكليف لأهميته ، وللفهم الخاطئ السائد بين المؤمنين والمسلمين عن هذه القضية ، وصححنا ذلك المفهوم ، استناداً إلى الكتاب والسنة النبوية المطهرة .

وقفنا عند مسألة ، وتحدثنا فيها ملياً ، بأن المال من أهم من وسائل التقرب إلى الله تعالى ، لأن فيه قوام الحياة .

وذكرتَ سيدي في الحلقات الماضية بأن المال هو أصدق تعبير عن الحب والمحبة ، ولذلك أتى القرآن ليثني على الزكاة في كثير من المواضع ، الصدقة من الصدق وصدق التوجه ، والصدقية تظهر بشكل جلي من حب الإنسان للمال ، الله أودع في نفسه حب المال ، يستغني عن هذا المال ، ويدفع هذا المال الذي فيه حب دفين له في كينونته ، وفي نفسيته ، فيخرج من ماله ويعطي غيره ، ويعطي المحتاجين ، ويعطي الفقراء ، هذا في مرتبة تميزه عن كل عطاء ، وعن كل التزام .

وقفت عند سيدي الكريم عند مسألة ، وقلت : إن هنالك مفهوما لدى كل الناس ، أن الله يحب الكريم ، وأن الله يحب المنفق ، ولو كان على تقصير ، وشرحت لنا ذلك ، لكن الآن إن الله يحب المنفق ، ويفتح أمامه ، ويعطي المنفق ولو كان في جانب من جوانب حياته على معصية ، بدأت بالإجابة ، ولكن نود أن نستزيد لنبين هذا المفهوم بشكل جلي .

الدكتور راتب :

الإنسان خُلِق للعمل الصالح :

بادئ ذي بدء ، أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الإنسان خُلق للعمل الصالح ، هذا العمل الصالح قوام سيره إلى الله ، بالضبط :

أنا أمام طريق فيه عقبات كبيرة ، فيه مكعبات من الإسمنت المسلح ، هذه العقبات تمنع سيري على هذا الطريق ، فالاستقامة أن أزيل هذه العقبات ، إذا أزلت هذه العقبات ألغيت كل المعاصي والآثام ، والتقصيرات والتجاوزات ، والصغائر والكبائر ، إذا أزلت كل هذه العقبات عن الطريق إلى الله صار الطريق سالكاً إلى الله ، لكن ما الذي يحركني إلى الله ؟ العمل صالح ، فالاستقامة تنظيف الطرق من العقبات ، هناك معصية لكسب المال ألغيتها ، ومعصية في العلاقة مع النساء ألغيتها ، ومعصية بالمظاهر الفارغة ألغيتها ، ومعصية للاحتيال ألغيتها ، ألغيت كل المعاصي والآثام ، الآن صار الطريق سالكا إلى الله ، ما الذي يجعلني أتحرك على هذا الطريق ؟ إنه العمل الصالح ، قال تعالى :

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر الآية : 10)

لأن الله عز وجل نحو الأعلى .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

أو :

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف الآية : 110)

أي إنسان يسألني أنه : لا أشعر في الصلاة القرب من الله ، أقول له : افعل الأعمال الصالحة ، والآية هذه :

(وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

(سورة الكهف الآية : 110)

وكنت أقول دائماً هذا المثل : هناك مجند غرّ له أقلّ مرتبة في الجيش ، لا يستطيع أن يقابل قائد الفرقة اللواء ، مستحيل في النظام العسكري في كل بلاد العالم إلا بالتسلسل ، لكن هذا المجند الغر لو رأى ابن قائد هذا اللواء غريقاً ، وألقى بنفسه في الماء ، وأنقذه يمكن أن يدخل إليه من دون إذن ، وأن يجلسه على جانبه ، ويقدم له الضيافة ، وأن يثني عليه ، ما الذي جعل هذا المجند الغر الممنوع بكل أنظمة الجيش في العالم أن يقابل قائد فرقة ؟ العمل الصالح ألغى الحواجز .

الإحسانُ إلى الخَلق :

حينما تخدم عباد الله مبدئياً ، أستاذ علاء ، هؤلاء البشر عباد الله ، الإسلام أممي الإسلام إنسانيّ ، الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، ملعون عند الله من ألقى في قلبه الخوف ، ملعون عند الله من ابتز ماله ، ملعون عند الله من خدعه ، ملعون عند الله من أساء إليه ، حينما تعامل خالق الأكوان في خدمة الإنسان تكون قريباً من الله عز وجل ، لا تقل : مَن فلان ؟ ومِن أين ؟ وأين يسكن ؟ وهل من جماعتنا ؟ هذا كلام جاهلي ، كلام فيه تعصب ، كلام عنصري ، هذا إنسان خلقه الله ، إذا أردت أن تتقرب إلى الله ، وأن تقبل عليه ، هيئ لهذا الإنسان الذي هو أحد عباد الله حاجاته ، لا تلق في قلبه الخوف ، لا تهدم بيته ، لا تشرد أولاده ، هذا الذي يجري في الأرض ، لأنه مخالف للفطرة البشرية ، مخالف لكل الرسالات السماوية ، مخالف للمبادئ الإنسانية ، مخالف للمنطق ، مخالف لكل المبادئ التي تنتظم حياة البشر .

لذلك الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، لو أنك صنعت شيئاً بجهد كبير لسنوات طويلة ، وجاء من خربه في ثوانٍ قليلة ، الذي نراه على الشاشة شيء لا يحتمل ، تقول : مَن هذا الإنسان ؟! أي قلب له ؟! كيف يقتل هذا الطفل البريء الذي لا علاقة له بكل موضوعات الحرب ؟ .

لذلك القضية الآن قضية إنسانية ، الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، وأنا في تصوري أن الإنسان الصالح بالمعنى المادي الدنيوي ، هو الذي خدم البشر ، حل بعض مشكلاتهم ، هيأ فرص عمل، عالج بعض المرض ، أنفق بعض ماله على إسعاف الفقراء والمساكين ، مبدئياً بأي دافع ، لأيّ تصور ، هذا العمل محفوظ عند الله ، فإما أن يكافئه مكافئة تفوق حد الخيال في الدنيا ، فيغتني ، ويرقى، ويعلو نجمه ، وإما أن يكافئه الله في الآخرة إذا كان يبتغي في هذا العمل رضوان الله ، وتأتي الدنيا وهي راغمة ، فيكسب الدنيا والآخرة .

وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

أنا أقول دائماً : طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً ، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً ، إلا أن الآية :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

(سورة الأعراف الآية : 196)

قال بعض العلماء : الذي يقدم أعمالا طيبة للبشر بصرف النظر عن وضعه مع الله ، هذا الإنسان الذي ينطوي على قلب رحيم يحب الخير للناس ، لكنه مقصر مع الله ، الله عز وجل يقول عز وجل :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

يأخذ بيده برفق إلى أن يوصله إلى الإيمان ، أنا أتفاءل بكل إنسان محسن ، هذا المحسن مصيره أن الله سبحانه وتعالى سيتولاه بذاته العلية ، كي يأخذ بيده إلى جادة الإيمان .

الأستاذ علاء :

مقومات الصلاح موجودة ، النفس الهنية ، النفس الرضية ، النفس البيضاء إن صح التعبير ، النفس التي تحب ولا تكره ، الأرضية موجودة ، فالله عز وجل يأخذ بيده إلى ذاته العلية .

الدكتور راتب :

هذا معنى قوله تعالى :

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)

لذلك أنا أشجع العمل الصالح من أي إنسان ، من أي هوية ، من أي تصور ، لأن هذا العمل الصالح يرضي الله ، فإن أراد الدنيا به فقط أعطاه الله الدنيا ، عند الله لا يضيع شيء ، وإن أراد به مرضاته أعطاه الدنيا والآخرة على كلِ العمل الصالح :

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ)

(سورة محمد الآية : 35)

(وَلَن)

لتأبيد النفي ،

(يَتِرَكُمْ)

أن يضيع عليكم ثواب أعمالكم ، لذلك المحسن قريب من الله ، والمحسن يحتاج إلى لفتة بسيطة إلى الله، هو قلبه رحيم ، وحبه للخير جعله دون أن يشعر قريباً من الله ، بقي عليه من ينصحه ، ويأخذ بيده، أن يؤدي بعض العبادات ، عندئذٍ يتولى الله هدايته بعناية فائقة .

الأستاذ علاء :

كيف نفهم أن أمة مثلاً من الأمم ، أو شعبا ، أو مجتمعا يؤمن بالله ، ويحب الصلاح ، لكن في جانب من الجوانب هذه مع أمة أخرى ، أو شعب آخر ، أو مجتمع آخر ليس على الإيمان المعهود ، ولكنها تنفي ، وتكره الظلم بين بعضها ، نجد تلك في حالة علو ، وهذه في حالة انحطاط .

الدكتور راتب :

الدنيا قد تصلح بالكفر والعدل ولا تصلح بالإيمان والظلم :

أنا لا أتمنى أن أدلي بهذه المعلومات ، لكني سأدلي بها ، إن الله ينصر الأمة الكافرة العادلة ، على الأمة المسلمة الظالمة ، والدنيا تصلح بالكفر والعدل ، ولا تصلح للإيمان والظلم ، فما لم نعطِ حقَّ الفقير ، ما لم نرحم الفقير ، ما لم نعالج المريض ، ما لم نؤوِ المشرد ، ما لم نعلم الجاهل ، ما لم ننتصر للضعيف ، فالله سبحانه وتعالى لا يمنحنا النصر الذي نتمناه لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ))

[رواه البخاري عن سعد]

((إنما))

أداة قصر وحصر ، وكلام النبي وحي من الله غير متلو .

هذا الضعيف ينبغي أن نطعمه إن كان جائعاً ، ينبغي أن نكسوه إن كان عارياً ، ينبغي أن نؤويه إن كان مشرداً ، ينبغي أن نعلمه إن كان جاهلاً ، ينبغي أن نعالجه إن كان مريضاً ، ينبغي أن ننتصر له إن كان مظلوماً .

مكافأة نصرة الضعيف والمظلوم :

الآن بماذا يكافئنا الله عز وجل ؟ يكافئنا بمكافئة من جنس عملنا ، هو ضعيف وبالإمكان أن نسحقه ، بالإمكان أن نهمله ، بالإمكان ألا نلتفت إليه ، لكننا قدمنا له كل شيء فيكافئنا الله بأن ينصرنا على من هو أقوى منا ، فإذا أردنا أن ننتصر على القوى العاتية الجبارة ينبغي أن نلغي الظلم الاجتماعي ، أحياناً الزوج يضرب بزوجته ، ورب العمل يظلم عماله والقوي يظلم الضعيف ، والغني يأكل الفقير ، وصاحب الوجاهة يعتم على المتفوق ، فما دام هناك ظلم اجتماعي الله لا يرضى عنا ، هذه حقيقة مرة ، وهي عندي أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، وإن كنا أمة وحي ، نحن أمة الوحي ، نحن أمة ذكَر الله في القرآن أنكم كنتم :

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 109)

هذه الخيرية مقيدة ، وليست مطلقة .

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 109)

وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ؟ ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أوكائن ذلك يا رسول الله ؟! قال: وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : أوكائن ذلك يا رسول الله ؟! قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ ـ هنا ـ قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً))

[ورد في الأثر]

لذلك إذا أصبح المعروف في أمة منكراً ، وأصبح المنكر معروفاً ، تُودّع من هذه الأمة .

لذلك أنا أدعو الله عز وجل أن يعيننا أن نعتني بالضعاف ، بالفقراء ، بالمحتاجين بالمرضى ، بالمشردين ، هذا الذي يفكر بإنشاء مشروع لتزويج الشباب ، لتأمين فرص عمل لهم لتحسين الحياة ، لتأمين الخدمات ليبتغي وجه الله له الدنيا والآخرة ، وإذا ابتغى بهذا العمل الدنيا فله الدنيا ، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يضيع الله عز وجل على إنسان عمله الصالح ، لذلك قال تعالى :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين الآية : 26)

الدنيا درا اختبار للمحسن والمسيء :

وهناك ملمح دقيق جداً في بعض الآيات قال :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك الآية : 2)

نحن قد نتصور ليمتحن من هو المحسن ، ومن هو المسيء ، قال : لا :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية : 2)

المفروض أن يكون البشر جميعاً محسنين ، لكن الامتحان من أجل التفوق فقط ، معظم الناس واقعون في الإساءة للبشر ، هذا الذي يقتل ، يهدم البيت ، يقتل الطفل ، هذا الذي ينهب الثروات ، هذا الذي يحرق المحاصيل ، هذا الذي يهدم الآبار ، هذا الذي يجرف مزارع الزيتون قوام الحياة هذا التدمير ، الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله ، والله الذي لا إله إلا هو أكاد أقول إن أغبى أنواع البشر الطغاة ، لماذا ؟ لأنهم ما أدخلوا الله في حسباتهم .

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

اللهُ مطَّلعٌ عليمٌ بما يجري :

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم الآية : 42)

لأن الناس يتوهمون أن الله غافل ، لماذا جاء النهي ؟ أنت لا تنهى عن شيء لا يكون ، لا تنهى أنه إياك أن تصل للشمس ، مستحيل ، لا تنهى إلا عن شيء واقعي ، هناك أناس الآن يقولون : أين الله ؟

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

أستاذ علاء ، هل تعتقد أن إيمان المؤمن يستقيم إذا توهم أن الله لا يعلم ماذا يجري ؟ مستحيل ، هل يستقيم إيمان مؤمن إذا توهم أن الله لا يقدر أن يفعل شيئاً ، زلزال تسو نامي مئة مليون قنبلة ذرية ، هل يمكن أن نتوهم أن الله لا يعنيه ما يجرى ؟ .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

هل نظن أن الله لا يعلم ؟.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام الآية :59)

فكيف بالصاروخ ؟ الله عز وجل يعلم ، وهو إله في السماء والأرض ، والله عز وجل أيضاً قادر على كل شيء ، ولكن نرجو الله أن يكشف لنا حكمته البالغة بعد حين .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، نأتي إلى هذا المال الذي هو قوام الحياة ، الإنسان مسؤول عن كسبه ، ومسؤول عن إنفاقه ، يمكن أن نقف عند هذه المسألة في مسؤولية الكسب ، ومسؤولية الإنفاق ؟ .

الدكتور راتب :

مسؤولية الإنسان في كسب ماله وإنفاقه :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وعن مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وعن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ؟))

[أخرجه الترمذي عن أبي برزة]

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تكسب المال عن طريق الغش ، وعن طريق الخداع ، وعن طريق الإيهام ، وعن طريق الاحتكار ، وعن طريق أعمال لا ترضي الله ، ثم تنجو يوم القيامة من

المسؤولية ، هذا الذي يبني ثروته على غش الناس ، قد يقدم حاجة غذائية مسرطنة ، لكنها رخيصة ، ويبدل مواصفاتها .

لذلك أنا أقول دائماً كلمة لعلها ليست واردة كثيراً : هذا الذي يقول : الله أكبر ، يوم العيد ، أو عقب عيد الفطر ، ويغش المسلمين ما قالها ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لأنه رأى أن هذا المال الذي يأتيه من الغش أكبر من طاعة الله ، وهذا الذي يطيع مخلوقاً ، ويعصي خالقه ، يطيع مخلوقاً من أجل الدنيا يطيع هذا المخلوق على حساب دينه ، ومبادئه ، واستقامته من أجل مكاسب من هذا المخلوق ، هذا الذي يفعل هذا ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، فهذا المال من أين اكتسبه ؟ يا ترى من عمل مشروع ؟ من حرفة نظيفة من خدمة للناس ؟ من تعليم ؟ من طبابة ؟ من هندسة ؟ من تجارة مشروعة رابحة ؟ من خدمات للمجتمع ؟ أم من الكذب والاحتيال ؟ أو من السرقة والنهب أحياناً ؟

بالمناسبة ، أغنى أغنياء العالم تجار مخدرات ، من أجل أن يغتنموا يسببون التلف لشباب الأمة .

فلذلك أن يترك الإنسان سدى هذا من سابع المستحيلات .

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

(سورة القيامة الآية : 36 - 39)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون الآية : 115)

أستاذ علاء ؟ مستحيل أن تنتهي الحياة من دون تسوية حسابات ، لأن ثمة قويًّ وضعيفًا ، والقوي متجبر كما نرى ونسمع ، وهناك غني يكاد ينتخم من الغنى وهناك فقير ، وصحيح ، ومريض ، وتنتهي الحياة هكذا من دون حساب ؟ هذا مستحيل .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الكريم ؟ كأن الوقت بدأ المخصص للفقرة العلمية ، انتهينا في الحلقة الماضية عند موضوع التمويه ، الآن نبتدئ بأي موضوع سيدي الكريم ؟ .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الألوانُ :

1 ـ الألوان في عالم الإنسان والحيوان والطبيعة :

هناك موضوع للألوان دقيق جداً إن شاء الله ، الحقيقة لو تخيلنا الحياة في بيئة مظلمة ، أو على الأقل في بيئة لا ألوان فيها إلا الأبيض والأسود ، بعض الحيوانات لا ترى إلا الأبيض والأسود ، كالقطط ، أما الإنسان فلكرامته عند الله تفرق عينه بين ثمانية ملايين لونٍ ، إن حياة كهذه ستسبب للناس مشقة كبيرة بلا شك ، إلا أن العالم يعج بالألوان ، ألوان السماء ، ألوان النبات ، ألوان الجبال ، الشفق الأحمر، الورود ، الأزهار ، العالم جميل جداً ، لأن الله جميل ، وهذا من أثر اسم الجميل ، وإن الله جميل يحب الجمال ، بالمعنى الإيديولوجي بالمعنى العقائدي ، فالعالم يعج بالألوان ، الحيوانات ، والنباتات ، والزواحف ، والسلاحف هذا كله من عظمة الله عز وجل .

في هذه الموضوعات سيبحث في نعمة من بدائع نعمة الله تعالى التي حباها الله لمخلوقاته ، وتجلت بها روعة الصنع ، إنها نعمة الألوان ، خلق الله عز وجل العالم بانسجام وتناسب تام ، وزينه بألوان جميلة أخاذة ، غابات خضراء ، مياه زرقاء ، جبال عظيمة ، بحار كبير متلاطمة الأمواج .

2 ـ الضوء شرط أساسي لتكون الألوان :

والآن لنبحث كيف تتكون واحدة من أعظم معجزات الله عز وجل من خلال الألوان ، الضوء شرط أساسي لتكون الألوان ، والضوء الوحيد الذي يصل إلينا إلى الأرض هو ضوء الشمس ، يقول الله عز وجل مشيراً إلى الشمس :

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

وكأن هذه الآية فيها لفت نظر إلى عظمة هذه الآية الدالة على الله عز وجل ، عندما ندقق في أشعة الشمس نرى أن الإنسان قد ضمن لنفسه من خلالها إمكانية العيش كغيره من المخلوقات على سطح هذه المعمورة ، لقد خُلق كل شيء بتوازن دقيق .

3 ـ الشمس هي المصدر الأساسي للضوء :

أما النجوم وغيرها من مصادر الضوء في الكون فتطلق إشعاعات ضوئية مختلفة ، لكن الضوء الأساسي يأتينا من الشمس ، وتتميز عن بعضها بطول الموجة والتردد ، طول الموجات في هذا الكون بسعة 10 قوة 25 ، يعني 10 أمام 25 ضعفا ، أشعة الشمس هذه التي تطلقها على شكل ضوء على هذه الساحة العظيمة لا تشكل سوى واحد فقط من هذه السعة العلنية يعني الـ10 أمام الـ 25 صفرا ، أشعة الشمس تشكل واحدا من شموس الكون .

ولكي ندرك حجم هذا العدد يجب أن نضع أمام الرقم 10- 25 صفراً ، هذه الأرقام تفوق تصور الإنسان ، ومع هذا ففي الكون أنواع مختلفة من الإشعاعات الضوئية بقدر هذا العدد ، يحتاج الإنسان لضمان بقائه على هذه الأرض ، وتميزه للألوان إلى صفر واحد من بين كل هذه الإشعاعات .

هناك نجم قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، وهناك شموس بملايين أضعاف الشمس الحالية ، شمسنا متواضعة جداً أمام بقية الشموس ، والشمس تضفي لنا هذه النسبة تماماً من الضوء ، هذه الحقيقة من دلائل خلق الله تعالى للكون :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ)

(سورة فاطر)

4 ـ كيف تصل الشمس إلى الأرض :

لا يصل إلى الأرض سوى الضوء المرئي ، والذي يتكون من أشعة تأخذ مكان في الفراغ بين حدي الضوء المرئي ، وهنا الأشعة تحت الحمراء في الجانب ، والأشعة فوق البنفسجية في جانب آخر ، فالأشعة تحت الحمراء تؤمن الحرارة المناسبة لحياة الكائنات ، أما الأشعة فوق البنفسجية فيخرق قسم منها طبقات الجو ليصل إلينا منه ما نتاجه منه لتامين الطاقة ، بعض أشعة الشمس ضار للأحياء ، وتتخلص الأرض من أثرها الضار بواسطة غلافها الجوي ، الذي يعد كمصفاة ضخمة تحيط بالأرض هذه المصفاة هي طبقة الأوزون ، ولأن الإنسان غيّر خلق الله فقد تخلخلت هذه الطبقة ، وارتفعت نسبة السرطان الجلدي إلى 70 % .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (43-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ المال - الوضع الصحي للمال ـ النحل وإبداعاته الهندسية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-10-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

نذكر بأنك منذ الحلقات الأولى من البرنامج بدأت من مقومات التكليف التي وضعها الله عز وجل ليكلف ذلك الإنسان المكرم بالتكليف ، والذي ميزه عن بقية المخلوقات بالتكليف ، فكان هنالك من المقومات أشياء محددة واضحة ، منها الكون ، ومنها العقل ، ومنها الفطرة ، ومنها الشهوة ، إلى أن نأتي إلى الاختيار ، ثم الشرع ، وتحدثت في الكون ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، وحططنا الرحال عند الشهوة ، وأوسعنا في هذه المسألة حلقات كثيرة لحساسية هذا الأمر ، ولعدم فهم واضح لدى جمهرة كثيرة من السادة المشاهدين في هذه القضية ، تحدثنا عن الجنس ، وتحدثت عن المال ، وتحدثت أن الجنس ، وأن المال هي قوى كامنة ، هذه القوة الكامنة إذا فجرت ، وإذا استخدمت في أطرها ، وفي مجاريها تحولت إلى طاقة بناءة ، وتحولت إلى النهوض ، وحالة من التقدم ، وإذا استخدمت في غير مكانها تحولت إلى حريق أحرقت ما حولها ، وأحرقت صاحبها كالوقود البنزين ، عندما ينفجر في المحرك المخصص له يسبب الانفجار ، ويتحول إلى حركة ، ويتحول إلى تقدم ، ونقل وتنقل وقوة نافعة ، أما إذا احترق البنزين خارج هذه الحجرة المخصصة تحول إلى كارثة بكل معنى الكلمة .

هل لنا أن نقف عند مسألة المال ، ونذكر السادة المشاهدين بالتسلسل كيف أن المال قوام الحياة ، وأن الإنفاق فيه حياة ، وفيه قوة ، وفيه تقدم ، والشح في النفس ، ومدافعة هذا الشح للإنفاق ، هل لنا أن نلخص حتى نصل إلى قضية ما هو الوضع الصحي للمال في المجتمع المراد بناءه ، والذي أراده الله لنا ؟ .

الدكتور راتب :

تذكيرٌ بما سبق :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، نحن في موضوع المال بدأنا بأن المال قوام الحياة ، فالله عز وجل يقول :

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

(سورة النساء الآية : 5)

إن قيام حياتكم بالمال ، فالمال شيء أساسي جداً في حياة الإنسان ، لكننا في موضوع آخر بيّنا أن المال محبب إلى النفس .

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)

(سورة الفجر)

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

(سورة آل عمران)

ولولا أن المال محبب إلى النفس لما ارتقى الإنسان بإنفاقه ، لأن في التكليف ما يتناقض مع الطبع ، طبع الإنسان يقتضي أخذ المال ، التكليف يقتضي إنفاق المال ، إذاً : المال محبب إلى النفس ، ولهذا يكون إنفاق المال سبباً لعروج الإنسان إلى رب الأرض والسماوات .

ثم تحدثنا أن المال حيادي ، ولأن الإنسان مخير ، كل شيء في حياته حيادي ، بدءاً من شهواته ، ثم إلى حظوظه ، ثم إلى خصائصه ، في خصائصه ، وفي شهواته ، وفي حظوظه الأشياء كلها هذه حيادية بالنسبة إلى الإنسان ، إما أن تكون سلماً يرقى بها إلى أعلى عليين ، أو نهوي بها إلى أسفل سافلين .

وبعد ذلك تحدثنا عن أن إنفاق المال أحد أكبر وسائل التقرب إلى الله ، فالله عز وجل يقول :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

(سورة البقرة الآية : 177)

قال بعض المفسرين : آتى المال وهو يحب أخذه لا إنفاقه .

وقال بعضهم الآخر : آتى المال لأنه يحب الله عز وجل ، الأول على الحال والثاني على التعليل ، فصار إنفاق المال دليل محبة الله عز وجل ، من هنا ورد تعريف الزكاة في القرآن على أنها صدقة ، تؤكد صدق الإنسان في محبته لله عز وجل .

ثم بينا في حلقات سابقة أن الإنسان مسؤول مسؤولية مشددة عن كسب المال وعن إنفاقه ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ، وعن مَالِهِ - سؤالان - مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وعن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))

[أخرجه الترمذي عن أبي برزة]

هذا عرض سريع للموضوعات الكبرى التي عالجنها قبل أن نصل لهذا الموضوع الذي سوف نعالجه اليوم إن شاء الله تعالى ، وهذا الموضوع الذي سوف نعالجه اليوم كما تفضلت قبل قليل الوضع الصحي للمال .

الأستاذ علاء :

كيف يكون الوضع صحياً بالنسبة للمال ؟ .

الدكتور راتب :

الوضع الصحي للمال :

كلُ شيء له قيمة فهو مال :

الله عز وجل هو الخالق ، وهو الممد ، حينما خلق محبة المال في نفس الإنسان وحينما جعل المال وهو الشيء الذي له قيمة ، نحن حينما ننطق بكلمة مال يقفز إلى الذهن أنه الأموال الورقية ، أو الذهبية، أو الفضية ، أو الأرصدة أو السندات ، لكنه في الحقيقة كل شيء له قيمة فهو مال ، فالبيت مال، والبضاعة مال والسيارة مال ، والمزرعة مال والثروات مال ، والمواد الأولية مال ، الذي عنده مئة طن ألمنيوم هذا مال ، فالمال الشيء الذي له قيمة ، يمكن أن يباع ويشترى .

كيف يكون الوضع المالي صحيا ؟

تداولُ المال بين كل أفراد الأمة :

فالوضع الصحي للمال حينما أراده الله عز وجل أن يكون قوام الحياة ، الذي جعل الله لكم فيه قوام ، فقوام الحياة المال ، هذا المال في الأصل عند الله عز وجل ينبغي أن يكون متداولاً بين كل أفراد الأمة، هذه الحقيقة ، الدليل :

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر الآية : 7)

هناك وضع صحي ، وهناك وضع مرضي ، الوضع الصحي أن يكون المال متداولاً بين أفراد الأمة ، أن يكون لكل إنسان بيته ، وأثاث بيته ، وطعامه ، وشرابه وكساءه ، وما يكفيه لمعالجة بعض الأمراض ، حينما يكون للإنسان مال يغطي حاجاته الأساسية ، وهذا مطبق في معظم طبقات الشعب ، إذاً : المال أصبح متداولاً بين أفراد الأمة هذا لا يعني أن الإنسان يأخذ ما ليس له ، ولا يعني أن الإنسان لا يعمل ، لكن كل إنسان بعمله ، إلا أن هناك حداً لا بد من أن يكون متوافراً للإنسان تحقيقاً لكرامته الإنسانية .

حينما لا يستطيع أن يعمل يكون عاجزاً ، أو حينما يكون دخله لا يكفي لحاجاته الأساسية ، لا بد من أن يكون لولي الأمر جهد لتأمين هذه الحاجات الأساسية ، فالمال قوام الحياة .

الأستاذ علاء :

يكاد الفقر أن يكون كفراً ، وأيضاً لسيدنا علي قول : << لو الفقر رجلا لقتلته بسيفي هذا >> ، هذا الفقر ينال الإنسان قدراً مقدورا ، أم له دور في هذا الفقر ؟.

الدكتور راتب :

أنواع الفقر :

الحقيقة أن العلماء قسموا الفقر إلى أنواع ثلاث :

1 – فقرُ الكسل :

النوع الأول : فقر الكسل إنسان مهمل ، مقصر ، كسول ، إرجائي ، لا يلبي حاجات الآخرين في حرفته ، وفي عمله دائماً يميل إلى الراحة ، والاسترخاء ، والاستلقاء ، ويؤجل ، ويؤخر ، هذا الإنسان طبعاً سيكون فقير ، هذا فقر مذموم ، اسمه فقر الكسل ، صاحبه مذموم عند الله وعند الناس .

الذي أريد أن أقوله أن الإنسان حينما يقوم بأعماله الاعتيادية ، التعاملية ، وهو مؤمن إيمانًا بالله قويا ، ومخلصا في عبادته ، تصبح عاداته عبادات ، عادات المؤمن عبادات ، وإذا دخل الإنسان إلى محله التجاري ، أو إلى مكتبه الهندسي ، أو إلى عيادته كطبيب ، أو إلى حقله كمزارع ، إلى المعمل كعامل ، وأتقن عمله ، وكان هذا العمل في الأصل مشروعاً ، وسلك به الطرق المشروعة ، وابتغى به كفاية نفسه وأهله ، وخدمة الناس ، ولم يشغله لا عن طلب علم ، ولا عن فريضة ، ولا عن عمل صالح انقلبت حرفته إلى عبادات ، وهو في حرفته ، فما قولك بإنسان يدخل إلى محله التجاري ، وفي نيته أن يقدم للناس خدمة جليلة بربح معقول ؟ دخل إلى عيادته ، وفي نيته أن يسهم في حل مشكلة الناس

الصحية ، دون أن يبتز أموالهم ، دخل إلى مكتبه في المحاماة ، وفي نيته أن يحق الحق ، و أن يبطل الباطل .

عادات المؤمن عبادات :

كل مؤمن حينما يؤمن بالله الإيمان الصحيح ، وحينما يعبد الله العبادة الخالصة ، الآن أعماله اليومية الاعتيادية ، حرفته ، ذهابه وإيابه ، تربية أولاده ، لو أخذ أهله إلى نزهة ، لأنه أراد تمتين العلاقة بينه وبين أولاده ، لو أراد أن يدخل الفرح على قلوب الصغار ، هو في عبادة .

(وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً)

(سورة التوبة الآية : 121)

(وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)

(سورة التوبة الآية : 120)

لذلك قال العلماء : عادات المؤمن عبادات ، حتى في البضع ؟ حتى في البضع ، لأنه لو لم يكن بهذا الطريق المشروع لكان في طريق حرام يفسد فتاةً ، وينهي مستقبلها ، الفتاة حينما تتزوج لها مستقبل كبير ، لها بنات ، ولها أصهار ، ولها أولاد ، ولها زوج وفيّ ، ولو أن جمالها قد زوى في سن متأخرة ، لها مكانة من نوع ثانٍ ، مكانة الحكمة والمرجعية للأسرة ، أما حينما يخلط الإنسان بين قضاء شهوته وبين الزواج ، يخلط بينهما هذه الفتاة فسدت ، ما دام فيها فسحة من جمال تعيش عن طريق الغير مشروع ، أما حينما يكون هناك زواج فهناك مستقبل كبير للفتاة .

((وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ))

[مسلم عن أبي ذر]

هذا الحديث الذي قاله النبي الكريم ، إذاً : المؤمن حينما يقوم بأعماله الاعتيادية ، لأنه سبق هذه الأعمال إيمان بالله ، ومعرفة به ، واستقامة على أمره ، وعبادة خالصة له ، إذاً : كل أعماله تصب في خانة واحدة ، وهي الخير .

لذلك أعمال المؤمن عبادات ، وعبادات المنافق سيئات ، العبادات الخالصة الصلاة ، والصوم ، والحج هذه العبادات الشعائرية الخالصة يقوم بها مراءاة ونفاقاً ، لانتزاع إعجاب الناس .

إذاً : النقطة الدقيقة جداً : أن الفقر أنوع ، فقر الكسل ، وهو فقر مذموم عند الله وعند العباد .

2 – فقرُ القدَر :

عندنا فقر القدر ، إنسان معه عاهة تمنعه أن يكسب المال ، إنسان لا يجد عملا يقوم به ، هو فقير ، هذا فقر القدر وصاحبه معذور ، والمجتمع متكفل به ، على أساس الضمان الاجتماعي ، المجموع يجب أن يحمل الفرد ، وأن يقدم له الحاجات التي تليق بكرامته .

3 – فقرُ الإنفاق :

لكن وسام الشرف الأكبر هو فقر الإنفاق .

((يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال : الله ورسوله))

فهناك فقر الإنفاق ، وفقر الكسل ، وفقر القدر ، إذاً المال قوام الحياة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هل يقال في هذا : إنه حالة خاصة لسيدنا أبي بكر الصديق ؟ أم ممكن أن يتشبه به أي إنسان؟.

الدكتور راتب :

كل إنسان معه مال ، وحوله أناس فقراء ، وصادقون ، وفي قلبه رحمة ، ويبتغي الله والدار الآخرة ، إذاً لا بد من أن ينفق ماله ، الأموال المكدسة بالمليارات هذه لا تكون مع الإنفاق ، لا بد من أن تنفق من هذا المال ، لكن :

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

الحديث عن جمع الأموال ، فقد يتباهى الأغنياء الذين ما عرفوا الله ، يتباهون بثرواتهم النقدية ، فلذلك:

(وَرَحْمَتُ رَبِّكَ)

إذا تجلى الله على قلبك ، إذا كان في قلبك رحمة ورحمت الناس ، وأنفقت من أموالك في حل مشكلاتهم، يأتيك من الله رحمة لا تقدر بثمن ، هذه الرحمة تسعد بها في الدنيا والآخرة .

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي))

[حديث قدسي ـ رواه الديلمي عن أبي بكر]

إذاً : المال قوام الحياة ، وأراده الله أن يكون متداولاً بين أفراد الأمة .

الأستاذ علاء :

اسمح لي سيدي ، هذه إرادة إن خالفها الإنسان تستحيل إلى فقر للمجتمع ، لذلك هل نستطيع الإضافة إلى فقر الكسل ، فقر القدر ، فقر الإنفاق ، هنالك الفقر الذي يكون من خلال حجب طبقة ضيقة للمال عن أبناء المجتمع .

الدكتور راتب :

طبعاً ، لذلك مشروعية فرض الزكاة هذا المال إن لم تستثمره في حقل نافع ، في تجارة ، أو في صناعة ، أو في زراعة إن الزكاة تأكله ، تأكله الزكاة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة))

[أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس]

أحد أحكام فريضة الزكاة أن هذا المال إن لم تستثمره في مجال صناعي ، أو زراعي ، أو تجاري فإن الزكاة وحدها تستهلكه في أربعين عاماً ، لهذا كانت الزكاة دافعاً إلى استهلاك المال ، ولهذا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن نطعم اليتيم لا من أصل ماله ، بل من ريع ماله .

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

(سورة النساء الآية : 5)

فرق كبير بين :

(فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)

(سورة النساء الآية : 8)

وبين

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا)

يجب أن تطعم اليتيم من ريع ماله ، لا من أصل ماله ، هذا من حكمة الله عز وجل ، ومن أن الاستثمار هو من أفضل أساليب التعاون بين الناس .

هناك طرق مشروعة لاستثمار المال :

الحقيقة حينما يثمر المال عن طريق الربا ، البديل له الشرعي المضاربة ، كإنسان معه مال ، وهو كبير في السن ، لا يحسن استثمار المال ، طفل يتيم معه مال ، إنسان لا يعرف كيف ينمي هذا المال ، إنسان آخر كتلة من النشاط والحيوية والخبرة ، وما معه مال ، فإذا تعاون أصحاب الأموال مع أصحاب الخبرات ، وكان الربح بينهما هذا هو البديل ، الاستثمار المال فيه راحة ، وصاحب المال ليس عبئاً على الخبير ، يجب أن يأخذ الربح الثابت وهو الربا ، أبداً ، يأخذ الربح إذا ربح ، فإن لم يربح لا يأخذ شيئا .

لذلك ما من شيء حرمه الله إلا وجعل له قناة نظيفة رائعة ، لكن الطرف الآخر يشوه هذه القناة النظيفة الرائعة ، لمصالح ولأهواء لا تتماشى مع تطبيق منهج الله عز وجل .

بذخ طائفة تكون على حساب فقر طائفة أخرى :

إذاً : المال قوام الحياة ، وأراده الله أن يكون متداولاً بين أفراد الأمة .

هذا مثل دقيق :

لو أن إنسانًا جاء إلى البيت بكيس كبير من البرتقال ، فيه مئة برتقالة فرضاً ، وعنده خمسة أولاد ، كيفما أكلوا فالوضع ضبابي ، أما لو أتى بعشر برتقالات مثلاً ، كل ولد له برتقالتان ، فإذا أكل أحد الأولاد ثلاث برتقالات فقد جعل لبعض إخوته برتقالة واحدة ، وإذا أكل أربع برتقالات حرم أحد إخوته من البرتقال .

هناك تصميم إلهي عجيب ، أن أمة إذا بذخت على حساب أمة تموت من الجوع ، وأن الغني إذا اتخم فعلى حساب جوع الفقير ، لأن هذه الدنيا دار ابتلاء ، أنت حينما تنفق الأموال الطائلة في شهوات ، وفي مسالك لا ترضي الله عز وجل ، يقابل هذا البذخ والترف أناس يموتون من الجوع ، يكون أثرُ عمل هذا الإنسان المتفلت من منهج الله واضحا عند الناس .

الأستاذ علاء :

كمية الماء الثابتة تمطر في مكان ، بالمقابل تمحل في مكان آخر .

الدكتور راتب :

هناك حكمة إلهية ، أن الإنسان إذا خالف منهج الله سيكون لعمله أثر سيء ، ويحاسب عليه يوم القيامة، لذلك ما أتخم غني إلا من جوع فقير ، ولا اغتنت أمة معتدية ، ونهبت ثرواتها أمم أخرى إلا على حساب أمم تموت من الجوع ، هذه حكمة الله عز وجل .

إذاً : المال قوام الحياة ، ويجب أن يكون متداولاً بين أفراد الأمة ، الوضع الصحي ، الوضع الإيماني ، الوضع الحضاري أن يكون معظم الناس في مستوى معيشي متقارب ، بيت مأوى ، مركبة متواضعة ، مستوصف ، مستشفى ، طرق معبدة ، شيء يستمتعوا به كل الناس ، أما بأي مكان بالعالم في أناس يتخمون ، وينفقون أموالاً بغير حساب ، مقابل الوضع هناك أناس قد حُرموا من كل شيء .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من هذا المنطلق جاء الحديث النبوي :

((الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ : فِي الْكَلَإِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ))

[أخرجه ابن ماجه ، ابن عباس]

الموارد الأساسية للمجتمع يجب أن تكون دولة مجتمعية .

الدكتور راتب :

هذا من مهمات أولي الأمر ، الماء مرفق أساسي جداً ، حتى إن الله عز وجل حينما أهلك بلدة وصفها وصفاً جامعاً مانعاً دقيقاً فقال :

(وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

(سورة الحج)

المرفق الأساسي لكل الناس معطل ، وأناس أغنياء غارقون في النعيم في قصورهم ،

(وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ)

التفاوت الطبقي ، أنا أرى أنه وراء شيوع الدعارة في المجتمع ، شيوع الاحتيال ، السرقة ، النهب ، والله هناك أمراض لا تعد ولا تحصى أساسها الفقر ، أو أساسها التفاوت الطبقي ، لو أن المجتمع كله فقير فهناك تفسير ، أما أناس يترفون ترفا غير معقول أمام أناس تحت سمعهم وبصرهم فقراء ، محرومون من كل شيء ، هذا المجتمع لا بد من أن ينفجر .

فلذلك الوضع الصحي أن يكون المال متداولاً بين أفراد الأمة ، لأن الله عز وجل يقول :

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ)

الموضوع العلمي : النحل :

1 – النحل المعماري الماهر :

الحقيقة أن هناك في عالم الحشرات النحل ، وهو من المعماريين المهرة ، فعند خروجنا إلى المروج في يوم مشمس يشد انتباهنا الجمال الأخاذ للأزهار ، وحينما ندقق في هذه الأزهار عن قرب أكثر نشاهد كائناً عجيباً آخر هو النحل ، والنحل أمهر المعماريين نظاماً في الطبيعة .

2 – من أعاجيب خلايا النحل :

تعيش النحل على شكل مستعمرات ، وتنتج العسل الذي هو واحد من أكبر الأغذية على وجه الأرض ، أما العسل الذي تنتجه فتخبئه في الخلايا التي تبنيها في نفسها بأشكال سداسية ، هل فكرنا لماذا أنشأ النحل الخلايا بشكل سداسي حصراً ؟

بحث علماء الرياضيات عن جواب هذا السؤال ، ووصلوا إلى نهاية عجيبة بعد حسابات طويلة ، الطريقة المثلى لإنشاء خزان يستهلك أقل المواد ، ويستوعب أكبر حجم تخزيني ، هو أن تبنى جدرانه بشكل سداسي ليقاوم بالأشكال الأخرى ، لو أنشأنا خلايا بدلاً عن السداسي بشكل أسطواني أو خماسي لظهرت فراغات بينية ، ولو أردنا أن نلغي الفراغات البينية فأنشأنا مربعات المسدسات ، ما الذي يحصل ؟ تخزين العسل في أقراص مثلثة أو مربعة يمكن دون أن يبقى فراغ بينها ، لكن هناك مغزى أدركه علماء الرياضيات ، فالشكل المسدس أقصر محيطاً من بين أشكال الهندسية المحيطة ، ولذلك رغم كونها بالأحجام نفسها ستكون المواد الأساسية المطلوبة في الأقراص المسدية أقلّ من المطلوب من المسدس والمربع ، وباختصار الخليلة السداسية الشكل تؤمن أكبر مكان لتخزين ، وبأقل شمع ، فالنحلة تستخدم أمثل شكل ممكن .

لكن هناك شيء لا يصدق : أما الخصائص المحيرة الأخرى للنحلات تتجسد في ذلك التعاون الرائع في أثناء بناء الخلايا ، عندما يرى الإنسان خلية أُنهي بناؤها ، يظن أنها أنشأت كقطعة واحدة ، نحن في عالمنا ليس هناك إنسان يبدأ بتبليط غرفة من جهة ، وإنسان من جهة ، ثم يلتقيان على بطاقة نظامية ، هذا مستحيل ، أما عند النحل فهناك مجموعة من النحلات تبدأ من كل الجهات ، وتصل إلى الوسط بمسدس ، لا يزيد ولا ينقص ميليمترا ، هذا شيء فوق طاقة البشر .

تبدأ النحلة ببناء الخلايا من زوايا مختلفة ، تبدأ مئات النحل من ثلاثة أو أربعة أماكن متفرقة لإنشاء الخلية ، وباستمرار بناء الخلية تجتمع في النهاية في الوسط ، ليس هناك أي خطأ أو عدم تناسق في نقطة الالتقاط ، تحسب النحل في أثناء نسج الخلايا الزوايا بين فتحات الخلية أيضاً ، فتحات الخلية التي تبقى ظهراً لظهر تنشأ حتماً بزاوية مائلة 13 درجة نحو الأرض ، هذا الميل يمنع سيلان العسل وانزلاقه على الأرض ، مع أن هذه الخلايا تبنى غالياً في أماكن مظلمة لا يدخل إليها الضوء إطلاقاً ، هناك حقيقة مدهشة أيضاً تظهر أن النحل بهذه الخصائص الفائقة تعرفها منذ ولادتها ، ولا تتعلم صنع الخلية أو تعيين الجهة تدريجاً بل تكون على استعداد للقيام بهذه الأعمال بمجرد ولادتها ، لذلك الله عز وجل يقول :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة النحل)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (44-95) - مقومات التكليف : الشهوة ـ المال - شرعية التعامل بالمال ـ النمل الأبيض وعجائبه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تذكيرٌ بما سبق :

سيدي ، وقفنا عند مسالة الشهوة في مقومات التكليف ردحاً من الزمن والحلقات ، وتوقفنا عند المال ، ولخصت لنا في الحلقة الماضية موضوع المال ، والمال قوام الحياة والإنفاق ، وتبينا أن الفقر على أشكال متعددة ، فقر الكسل ، وصاحبه مذموم من الله وعند الناس ، وفقر القدر ، كأن يكون الإنسان مريضاً ، أو يكون بعاهة ، وفقر الإنفاق ، وهذا شيء مشكور ، ووسام شرف ، ولا يعتلي هذا المكان إلا علي ، وإلا مَن يحمل العلو والسمو ، وهذا ما كان لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال : الله ورسوله ، ولكل محسن مؤمن .
ثم تبينا أيضاً بأن من أفعال الناس ما يكون الفقر حالة ، وقد سمى القرآن الكريم حالة دولة المال بين الأغنياء ، يقول الله تعالى :

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر الآية : 7)

يجب أن يكون المال دولة بين كل أفراد المجتمع ، وأن يتحقق كما ورد معنا في الحلقة الماضية سيدي الدكتور ، أن يتحقق لكل إنسان في المجتمع الحد الأدنى ، أن يحقق كرامته في المال ، البيت ولو كان متواضعاً ، المأوى الآمن ، الوضع الصحي النظيف ، الحديقة ، ولو كانت صغيرة متواضعة ، المركبة، ولو كانت بسيطاً ، أن يتحقق له كل هذه المسائل .
وقلت في الحلقة الماضية : لا يكون الوضع الصحي للمال ، ولا يكون معافىً إلا إذا نال كل المجتمع من هذا المال نصيبه ، نتحدث الآن كيف يكون المال مريرا ؟ .
الدكتور راتب :

الكسب المشروع والكسب غير المشروع :

الحقيقية من أجل أن يكون المال متداولاً بين كل أفراد الأمة يجب أن يكون الكسب مفتوحاً ، وحينما يكون الكسب غير مشروع يكون محفوراً في فئة معينة ، فما هو الضابط من الكسب المشروع ؟

مفردات الفقه فيها آلاف المصطلحات ، السرقة ، والغش ، والاحتيال ، والكذب ، والنهب ، والسلب .. إلخ .

1 – كلُّ منفعة بنيت على مضرة فهذا كسب ليس مشروعاً :

لكن العلماء جعلوا لكل هذه الأنواع غير المشروعة من الكسب ضابطاً واحداً ، الكسب غير مشروع أساسه منفعة طويت على مضرة ، أوضح مثل لها السرقة ، السارق انتفع بمال بجهد كبير كان قد حصله صاحبه بجهد كبير ، صاحب المال الذي بذل جهداً مديداً ، وشديداً فقده ، والذي أخذه بيسر استنفع به ، فأي منفعة بنيت على مضرة فهذا الكسب ليس مشروعاً ، هذا الضابط الأول .

2 – الكسب المشروع أساسه منافع متبادلة :

ما هو تعريف الكسب المشروع ؟ هي المنافع المتبادلة .
يفتح إنسان محل بقالية في حي ، يذهب باكراً ، ويشتري الخضار ، والفواكه ، والمواد التموينية من مصادرها بشكل جيد ، بمواصفات جيدة ، بأسعار قليلة ، يأتي بها إلى دكانه ، أهل هذا الحي يرون كل حاجات الدكان فوفّروا وقتهم وجهدهم ، وسمحوا لهذا البائع أن يضيف على رأس المال مقدارا هو ربحه ، وهو سبب معيشته ، إذاً : الذي فتح هذه الدكان انتفع ، والذي اشترى حاجته إلى جانب بيته انتفع أيضاً .
الكسب المشروع أساسه منافع متبادلة ، والكسب غير مشروع أساسه منفعة بنيت على مضرة ، لذلك عندنا في الفقه الإسلامي المعاوضات ، أيّ شيء تبذله ينبغي أن تأخذ مكانه شيئًا آخر ، أما إذا بذلت ، ولم تأخذ كمن يشتري ورقة يانصيب ، دفع ولم يأخذ شيئاً ، والذي أخذ المبلغ أخذ من كل هؤلاء ، ولم يعطهم شيئاً .
كقاعدة عامة : الكسب المشروع منافع متبادلة ، والكسب غير مشروع منافع بنيت على مضرة ، هذا هو الأصل .

3 – متى يكون الكسب مشروعاً ؟

متى يكون الكسب مشروعاً ؟ حينما تلد الأعمال الأموال .
أنا فتحت مشروعا ، أنا بحاجة إلى أرض ، صاحب الأرض انتفع مني ، بحاجة إلى بناء ، المهندس انتفع مني ، بحاجة إلى إكساء ، مَن يعمل في الإكساء يدير عجلة مئتي حرفة ، الدهان ، والبلاط ،

والمواسير ، والكهرباء ، أنا حينما احتجت إلى الأرض انتفع صاحب الأرض ، احتجت إلى بناء على الهيكل انتفع المهندس الإنشائي ، حينما كسوت هذا المحضر انتفع به مئتا جهة ، الآن أحتاج إلى موظفين ، أحتاج إلى مستودعات ، أحتاج إلى مركبة ، والمركبة تحتاج إلى إصلاح وصيانة باستمرار ، أحتاج إلى فواتير ، إلى مطبعة ، إلى ورق ، أحتاج إلى نقل ، إلى شحن ، مركبة الشحن انتفعت .

قد يكون عندك مؤسسة فيها عشرة موظفين ، لكن أكثر من ألف جهة تنتفع بها في هذه المؤسسة ، فالكتلة النقدية التي هي الربح وزعت على أكبر شريحة اجتماعية .

الإنسان أكبر مود اقتصادي :

هناك نقطة دقيقة جداً ، العمل هو الذي يلد المال ، إذا سمحنا للأعمال أن تلد المال يكون هناك الازدهار الاقتصادي ، لذلك الآن في العرف العالمي الإنسان أكبر مورد اقتصادي ، أنت عندك أرض ، عندك رأس مال يحتاج إلى إنسان يحسن إدارة هذا المال ، إلا أنه كان سابقاً يقنعوننا أن الكثافة السكانية خطر على مستقبل الشعب ، لذلك اخترعوا مؤتمرات السكان كي يحدوا من النسل عقب الزواج ، و الزواج مفهوم واسع جداً ، هو علاقة بين شخصين ، وقد يكونان رجلين ، وقد يكونان امرأتين ، لكن الحقيقة أن المكاسب البشرية مع الأوراق الرابحة لا الخاسرة ، ولكن بشرطين ، هذا الإنسان حينما تعلمه ، وحينما تطلق يده ، يصبح أكبر مورد اقتصادي ، والآن الصين غيرت سياستها بتحديد النسل ، لأنه انفتحت على العالم وهي بحاجة إلى طاقة بشرية ، بحاجة إلى أشخاص يعملون بإتقان .

الذي أتمنى أن يكون واضحاً عند الإخوة المشاهدين أن الإنسان أكبر مورد اقتصادي على الإطلاق ، ولكن بشرط ، الدول المتخلفة الإنسان غير متعلم ، وعليه ألف قيد وقيد ، إذاً : هو عبء على الأمة ، إنسان يجب أن يأكل ، ما معه ثمن طعام ، يسرق ، نريد أجهزة أمن وشرطة ... إلخ ، فالإنسان حينما تعلمه ، وتقوده يكون عبئاً عليك ، وهو أحد أكبر مشكلات الأمة ، أما حينما تعلمه ، وتيسر له اختصاص الناس بحاجة إليه ، وتطلق يده في مشروع ينجح ، والآن أكبر الإنسان أكبر مورد اقتصادي.

لابد أن تلد الأعمال المال :

إذاً : الفكرة أن الأعمال إذا ولدت المال ، الكتلة النقدية لا بد من أن تتوزع بين أكبر شريحة بين البشر، لذلك في الشركات كلها لا بد من أن يكون المصروف ثلث الأرباح ، الأرباح مئة مليون ، 33 مليون مصاريف ، دخل لشريحة كبيرة جداً لا بد منها .

لذلك أنا حينما لا أسمح للأعمال أن تلد المال أضمن أن يكون الدخل مشروعاً ، وأضمن أن تكون هذه الكتلة النقدية موزعة بين كل أفراد الأمة ، أما حينما أسمح للأموال أن تلد المال عن طريق الربا فالمشكلة كبيرة .

أريد أن أوضح : لو أن إنسانًا وضع ماله باستثمار الربوي ، وأخذ الفوائد ، ما قدم للأمة شيئاً إطلاقاً ، ما هيأ فرص عمل لأحد ، الآن المشكلة الأولى في العالم هي البطالة ، والعمل البطولي الأول أن تهيئ فرص عمل للشباب .

أستاذ علاء ، لو أن شابًا وجد عملا بدخل معقول لفكر في الزواج ، وحل مشكلة فتاة ، وفكر بشراء بيت صغير ، وصار في بنية للمجتمع ، المجتمع مجموعة أسر ، فأي نظام إلهي عظيم يدعم الأسرة ، وأي نظام مستورد خبيث يحقق الآخرين على حساب الأمم يهدم الأسرة ، لذلك كل التسلط ، وكل ما يعرض بالفضائيات غير منضبطة من أشياء تثير الشهوات هذا يهدم الأسرة ، إذاً : نظام الأسرة نظام مستقى من شرائع السماء ، ونظام الإباحية نظام وضعي مستقى من مصالح الأقوياء .

إنّ مؤتمرات السكان تتيح بكل نُظم الأسرة ، من أجل أن تجعل المجتمع إباحياً مجتمعًا لصالحهم ، بسلوك استهلاكي لهم ، كأنهم عبيد يأتمرون بأمرهم .

لذلك موضوع الأموال حينما تتجمع بأيدٍ قليلة ، وتحرم منها الكثرة الكثيرة ، والإحصاء الدقيق أن 90% من ثروات العالم بيد 10% ، لذلك دول الشمال غنية جداً ، فما تأكله الكلاب من اللحم في بعض البلاد الغنية لا يأكله الشعب الهندي بأكمله ، وما تأكله الكلاب في بعض البلاد الغنية لا تأكله شعوب بأكملها في الدول المتخلفة ، هذا تفاوت طبقي كبير جداً ، لذلك قضية توزيع الأموال خطيرة جداً ، وأساس سلامة المجتمع ، بل إن المال قوام الحياة .

الاستثمار طريق مشروع للربح :

لذلك أنا حينما أسمح للمال أن يلد المال فقد تجمعت الأموال بأيدٍ قليلة ، وحرمت منها الكثرة الكثيرة .

لا بد من مثل : حينما يتاح لي أن آخذ ربحا بـ 10 % ربويًا من دون جهد ، من دون مغامرة ، والتجارة فيها مغامرة ، الربح مقابل المغامرة ، أما الربا فلا مغامرة فيه ، ولا ضرائب ، ولا مسؤولية ، ولا توقع خسارة ، ولا مشكلة ، وضعنا المال في هذا البنك ، وأخذنا الفوائد ، الآن لا يمكن أن تنشئ مشروعا تجاريا بربح بالـ% - 10 - موفرًا من دون جهد ، من دون مخاطرة ، من دون مغامرة ، من دون مصاريف ، من دون أعباء نفسية ، من دون محاسبة ، من دون مالية ، من دون جمارك ، من دون ضرائب ، هذا كله متاح لك .

لذلك حينما يكون هناك المال يلد المال لا يضع الإنسان ماله في مشروع زراعي ، أو صناعي ، أو تجاري إلا بأرباح عالية جداً ، أحد أكبر النتائج المتاحة للإنسان أن يستثمر ماله استثمارا ربويا ارتفاع الأسعار .

أنا الآن آتي بموشور ، الموشور دوائر متناقصة إلى الأعلى ، ولهذا الموشور عمود في الوسط ، فكلما ارتفع السعر صغرت الشريحة المرتفعة بهذه السلعة ، بعت بدمشق ، لو أن كيلو الكرز بمئة ليرة يأكل من هذه الفاكهة عدد معين ، لو كان بخمس ليرات تضاعف العدد لعشرة أضعاف ، فكلما ارتفع سعر الشيء قلّت الشريحة المنتفعة من هذا الشيء .

أحياناً تكون السلع موجودة الشيء لكن أثمانها لا يملكها معظم الناس ، هذه المشكلة .

لذلك حينما يكون نظام استثمار المال لا عن طريق الأعمال ، بل عن طريق الأموال وحدها ترتفع الأسعار ، لأنه يتاح لكل إنسان أن يأخذ ربحاً من دون جهد ، بلا مغامرة ولا مقامرة ، ولا عبء نفسي، ولا خطر ، ولا خوف ، أما حينما يضع ماله بالاستثمار يريد بالـ% 40 من الربح ، حتى يكون الفرق واضحا بين المؤامرة وعدم المؤامرة .

الأستاذ علاء :

بالتالي ينحسر هذا الانتفاع العمومي لكل المجتمع .

الدكتور راتب :

المحافظة المال العام والخاص :

أريد أن آتي بالآية التي توضح هذا المعنى ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً)

(سورة النساء)

يجب أن يكون المال دولة بين كل أفراد المجتمع ، وأن يتحقق كما ورد معنا في الحلقة الماضية سيدي الدكتور ، أن يتحقق لكل إنسان في المجتمع الحد الأدنى ، أن يحقق كرامته في المال ، البيت ولو كان متواضعاً ، المأوى الآمن ، الوضع الصحي النظيف ، الحديقة ، ولو كانت صغيرة متواضعة ، المركبة، ولو كانت بسيطاً ، أن يتحقق له كل هذه المسائل .

وقلت في الحلقة الماضية : لا يكون الوضع الصحي للمال ، ولا يكون معافىً إلا إذا نال كل المجتمع من هذا المال نصيبه ، نتحدث الآن كيف يكون المال مريرا ؟ .

الدكتور راتب :

الكسب المشروع والكسب غير المشروع :

الحقيقية من أجل أن يكون المال متداولاً بين كل أفراد الأمة يجب أن يكون الكسب مفتوحاً ، وحينما يكون الكسب غير مشروع يكون محفوراً في فئة معينة ، فما هو الضابط من الكسب المشروع ؟ مفردات الفقه فيها آلاف المصطلحات ، السرقة ، والغش ، والاحتيال ، والكذب ، والنهب ، والسلب .. إلخ .

1 – كلُّ منفعة بنيت على مضرة فهذا كسب ليس مشروعاً :

لكن العلماء جعلوا لكل هذه الأنواع غير المشروعة من الكسب ضابطاً واحداً ، الكسب غير مشروع أساسه منفعة طويت على مضرة ، أوضح مثل لها السرقة ، السارق انتفع بمال بجهد كبير كان قد حصله صاحبه بجهد كبير ، صاحب المال الذي بذل جهداً مديداً ، وشديداً فقده ، والذي أخذه بيسر استنفع به ، فأي منفعة بنيت على مضرة فهذا الكسب ليس مشروعاً ، هذا الضابط الأول .

2 – الكسب المشروع أساسه منافع متبادلة :

ما هو تعريف الكسب المشروع ؟ هي المنافع المتبادلة .

يفتح إنسان محل بقالية في حي ، يذهب باكراً ، ويشتري الخضار ، والفواكه ، والمواد التموينية من مصادرها بشكل جيد ، بمواصفات جيدة ، بأسعار قليلة ، يأتي بها إلى دكانه ، أهل هذا الحي يرون كل حاجات الدكان فوفّروا وقتهم وجهدهم ، وسمحوا لهذا البائع أن يضيف على رأس المال مقدارا هو ربحه ، وهو سبب معيشته ، إذاً : الذي فتح هذه الدكان انتفع ، والذي اشترى حاجته إلى جانب بيته انتفع أيضاً .

الكسب المشروع أساسه منافع متبادلة ، والكسب غير مشروع أساسه منفعة بنيت على مضرة ، لذلك عندنا في الفقه الإسلامي المعاوضات ، أيّ شيء تبذله ينبغي أن تأخذ مكانه شيئًا آخر ، أما إذا بذلت ، ولم تأخذ كمن يشتري ورقة يانصيب ، دفع ولم يأخذ شيئاً ، والذي أخذ المبلغ أخذ من كل هؤلاء ، ولم يعطهم شيئاً .

كقاعدة عامة : الكسب المشروع منافع متبادلة ، والكسب غير مشروع منافع بنيت على مضرة ، هذا هو الأصل .

3 – متى يكون الكسب مشروعاً ؟

متى يكون الكسب مشروعاً ؟ حينما تلد الأعمال الأموال .
أنا فتحت مشروعا ، أنا بحاجة إلى أرض ، صاحب الأرض انتفع مني ، بحاجة إلى بناء ، المهندس انتفع مني ، بحاجة إلى إكساء ، مَن يعمل في الإكساء يدير عجلة مئتي حرفة ، الدهان ، والبلاط ، والمواسير ، والكهرباء ، أنا حينما احتجت إلى الأرض انتفع صاحب الأرض ، احتجت إلى بناء على الهيكل انتفع المهندس الإنشائي ، حينما كسوت هذا المحضر انتفع به مئتا جهة ، الآن أحتاج إلى موظفين ، أحتاج إلى مستودعات ، أحتاج إلى مركبة ، والمركبة تحتاج إلى إصلاح وصيانة باستمرار ، أحتاج إلى فواتير ، إلى مطبعة ، إلى ورق ، أحتاج إلى نقل ، إلى شحن ، مركبة الشحن انتفعت .
قد يكون عندك مؤسسة فيها عشرة موظفين ، لكن أكثر من ألف جهة تنتفع بها في هذه المؤسسة ، فالكتلة النقدية التي هي الربح وزعت على أكبر شريحة اجتماعية .

الإنسان أكبر مود اقتصادي :

هناك نقطة دقيقة جداً ، العمل هو الذي يلد المال ، إذا سمحنا للأعمال أن تلد المال يكون هناك الازدهار الاقتصادي ، لذلك الآن في العرف العالمي الإنسان أكبر مورد اقتصادي ، أنت عندك أرض ، عندك رأس مال يحتاج إلى إنسان يحسن إدارة هذا المال ، إلا أنه كان سابقاً يقنعوننا أن الكثافة السكانية خطر على مستقبل الشعب ، لذلك اخترعوا مؤتمرات السكان كي يحدوا من النسل عقب الزواج ، و الزواج مفهوم واسع جداً ، هو علاقة بين شخصين ، وقد يكونان رجلين ، وقد يكونان امرأتين ، لكن الحقيقة أن المكاسب البشرية مع الأوراق الرابحة لا الخاسرة ، ولكن بشرطين ، هذا الإنسان حينما تعلمه ، وحينما تطلق يده ، يصبح أكبر مورد اقتصادي ، والآن الصين غيرت سياستها بتحديد النسل ، لأنه انفتحت على العالم وهي بحاجة إلى طاقة بشرية ، بحاجة إلى أشخاص يعملون بإتقان .
الذي أتمنى أن يكون واضحاً عند الإخوة المشاهدين أن الإنسان أكبر مورد اقتصادي على الإطلاق ، ولكن بشرط ، الدول المتخلفة الإنسان غير متعلم ، وعليه ألف قيد وقيد ، إذاً : هو عبء على الأمة ، إنسان يجب أن يأكل ، ما معه ثمن طعام ، يسرق ، نريد أجهزة أمن وشرطة ... إلخ ، فالإنسان حينما تعلمه ، وتقوده يكون عبئاً عليك ، وهو أحد أكبر مشكلات الأمة ، أما حينما تعلمه ، وتيسر له اختصاص الناس بحاجة إليه ، وتطلق يده في مشروع ينجح ، والآن أكبر الإنسان أكبر مورد اقتصادي.

لابد أن تلد الأعمال المال :

إذاً : الفكرة أن الأعمال إذا ولدت المال ، الكتلة النقدية لا بد من أن تتوزع بين أكبر شريحة بين البشر، لذلك في الشركات كلها لا بد من أن يكون المصروف ثلث الأرباح ، الأرباح مئة مليون ، 33 مليون مصاريف ، دخل لشريحة كبيرة جداً لا بد منها .

لذلك أنا حينما لا أسمح للأعمال أن تلد المال أضمن أن يكون الدخل مشروعاً ، وأضمن أن تكون هذه الكتلة النقدية موزعة بين كل أفراد الأمة ، أما حينما أسمح للأموال أن تلد المال عن طريق الربا فالمشكلة كبيرة .

أريد أن أوضح : لو أن إنسانًا وضع ماله باستثمار الربوي ، وأخذ الفوائد ، ما قدم للأمة شيئاً إطلاقاً ، ما هيأ فرص عمل لأحد ، الآن المشكلة الأولى في العالم هي البطالة ، والعمل البطولي الأول أن تهيئ فرص عمل للشباب .

أستاذ علاء ، لو أن شابًا وجد عملا بدخل معقول لفكر في الزواج ، وحل مشكلة فتاة ، وفكر بشراء بيت صغير ، وصار في بنية للمجتمع ، المجتمع مجموعة أسر ، فأي نظام إلهي عظيم يدعم الأسرة ، وأي نظام مستورد خبيث يحقق الآخرين على حساب الأمم يهدم الأسرة ، لذلك كل التسلط ، وكل ما يعرض بالفضائيات غير منضبطة من أشياء تثير الشهوات هذا يهدم الأسرة ، إذاً : نظام الأسرة نظام مستقى من شرائع السماء ، ونظام الإباحية نظام وضعي مستقى من مصالح الأقوياء .

إنّ مؤتمرات السكان تتيح بكل نُظم الأسرة ، من أجل أن تجعل المجتمع إباحياً مجتمعًا لصالحهم ، بسلوك استهلاكي لهم ، كأنهم عبيد يأتمرون بأمرهم .

لذلك موضوع الأموال حينما تتجمع بأيدٍ قليلة ، وتحرم منها الكثرة الكثيرة ، والإحصاء الدقيق أن 90% من ثروات العالم بيد 10% ، لذلك دول الشمال غنية جداً ، فما تأكله الكلاب من اللحم في بعض البلاد الغنية لا يأكله الشعب الهندي بأكمله ، وما تأكله الكلاب في بعض البلاد الغنية لا تأكله شعوب بأكملها في الدول المتخلفة ، هذا تفاوت طبقي كبير جداً ، لذلك قضية توزيع الأموال خطيرة جداً ، وأساس سلامة المجتمع ، بل إن المال قوام الحياة .

الاستثمار طريق مشروع للربح :

لذلك أنا حينما أسمح للمال أن يلد المال فقد تجمعت الأموال بأيدٍ قليلة ، وحرمت منها الكثرة الكثيرة .

لا بد من مثل : حينما يتاح لي أن آخذ ربحا بـ 10 % ربويًا من دون جهد ، من دون مغامرة ، والتجارة فيها مغامرة ، الربح مقابل المغامرة ، أما الربا فلا مغامرة فيه ، ولا ضرائب ، ولا مسؤولية ،

ولا توقع خسارة ، ولا مشكلة ، وضعنا المال في هذا البنك ، وأخذنا الفوائد ، الآن لا يمكن أن تنشئ مشروعا تجاريا بربح بالـ% - 10 - موفرًا من دون جهد ، من دون مخاطرة ، من دون مغامرة ، من دون مصاريف ، من دون أعباء نفسية ، من دون محاسبة ، من دون مالية ، من دون جمارك ، من دون ضرائب ، هذا كله متاح لك .

لذلك حينما يكون هناك المال يلد المال لا يضع الإنسان ماله في مشروع زراعي ، أو صناعي ، أو تجاري إلا بأرباح عالية جداً ، أحد أكبر النتائج المتاحة للإنسان أن يستثمر ماله استثمارا ربويا ارتفاع الأسعار .

أنا الآن آتي بموشور ، الموشور دوائر متناقصة إلى الأعلى ، ولهذا الموشور عمود في الوسط ، فكلما ارتفع السعر صغرت الشريحة المرتفعة بهذه السلعة ، بعت بدمشق ، لو أن كيلو الكرز بمئة ليرة يأكل من هذه الفاكهة عدد معين ، لو كان بخمس ليرات تضاعف العدد لعشرة أضعاف ، فكلما ارتفع سعر الشيء قلّت الشريحة المنتفعة من هذا الشيء .

أحياناً تكون السلع موجودة الشيء لكن أثمانها لا يملكها معظم الناس ، هذه المشكلة .

لذلك حينما يكون نظام استثمار المال لا عن طريق الأعمال ، بل عن طريق الأموال وحدها ترتفع الأسعار ، لأنه يتاح لكل إنسان أن يأخذ ربحاً من دون جهد ، بلا مغامرة ولا مقامرة ، ولا عبء نفسي، ولا خطر ، ولا خوف ، أما حينما يضع ماله بالاستثمار يريد بالـ% 40 من الربح ، حتى يكون الفرق واضحا بين المؤامرة وعدم المؤامرة .

الأستاذ علاء :

بالتالي ينحسر هذا الانتفاع العمومي لكل المجتمع .

الدكتور راتب :

المحافظة المال العام والخاص :

أريد أن آتي بالآية التي توضح هذا المعنى ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة)

ما من معصية على الإطلاق توعد الله مرتكبها بالحرب إلا معصية الربا ، أما على الشبكية فالبنك جميل أنيق ، موظفون ، مكيف ، كمبيوترات ، المظهر رائع جداً ، لكن أمة بأكملها يمكن أن تنهار عن طريق أن يلد المَال المال .

ككرة الثلج ، تكبر بسرعة ، تتجمع الأموال بأيدٍ قليلة ، يعيشون حياة البذخ والترف والتبذير ، وأناس يموتون من الجوع ، وليس في أيديهم شيئاً .

حينما تريد أن تكون غنياً عن طريق تأسيس مشروع فأنت مضطر أن تهيئ فرص عمل للموظفين والعمال ، لذلك الأعمال حينما تلد المال تتهيأ فرص عمل .

مرة أحد الإخوة الكرام وصل إلى درجة لم يربح ، عنده 80 عاملا ، فاستنصحني أن يغلق المعمل ، قلت له : وهل تظن أن كل العمل الصالح تأخذه ربحًا ؟ حينما تفتح ثمانين بيتا هذا أفضل ربح عند الله ، ولو لم تربح قرشاً واحداً ، وحينما تهيئ فرص عمل لثمانين شابًا ربح وكل شاب وراءه خمسة أشخاص، أنت فتحتَ ثمانين بيتًا ، والله استجاب لي ، وتابع العمل ، والآن الله أكرمه .

حينما تؤمّن عملا ، معملا ، مشروعا تجاريا ، مشروعا زراعيا ، مثلاً : المشروع الزراعي ما فائدته؟ يطرح كمية فواكه ، أو مواد أساسية بكمية كبيرة ، ينزل السعر باعتبار العرض والطلب ، فكلما فكرنا أن نستثمر أموالنا عن طريق الأعمال دون أن نشعر تنخفض السعار .

الأستاذ علاء :

سيدي ، من هنا جاء موقف الشرع أو الفقه في مسألة أن المال يولد المال ، هذا شيء ينتج عنه الظلم ، أن مقايضة بالأشياء بأمثالها كالفضة بالفضة ، والذهب ، التمر بالتمر ، من هنا جاءت النظرة سيدي ؟

الدكتور راتب :

هنا التبادل يداً بيد ، وسواء بسواء ، هذا تشريع خالق الأكوان ، ومَن عرَضَ الإسلام عرضاً سطحياً غير متماسك ، بمضمون هزيل ، دعوة فيها كرامات ، وشطحات غير معقولة ، ومنامات ، من عرض الدين عرضاً هزيلا غير متماسك فالمبلّغ بهذه الطريقة لا يعد مبلّغاً عند الله ، لأن في أعماق كل إنسان أن دين الله عظيم ، دين الله عز وجل يعجز عن تلبية حاجة الاستثمار في الأرض ، هذه أهم حاجة .

مشروعية المضاربة في الإسلام :

هناك يتيم ، أو امرأة ، أو شيخ كبير في السن ، أو إنسان ورث مالاً معينا ، إنسان لا يحسن استثمار المال ، فلابد من أن يكون في هذا الدين العظيم منهج قويم لاستثمار المال ، إنه المضاربة ، والنبي الكريم كان أول المضاربين في الإسلام ، ضارب بمال زوجته ، نحن شجعنا المضاربة ، وليس فيها عبء .

عملت عملا ، وشغلتُ الطاقة الشابة ، والإنسان الذي معه مال أخذ ربحا في آخر السنة ، لكن ما كان عبئًا على صاحب العمل .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي ، توريد المال هو الذي أورث الاتجار بالممنوعات ، لكي يأخذ ربحاً شديداً ، فتح أبواب الاتجار ، نسأل الله العفو والعافية ، للاتجار بالمخدرات ، والاتجار بالسلاح والاتجار بالممنوعات ؟ .

الدكتور راتب :

خطر التجارة بالمحرمات على المال العام والخاص :

أستاذ علاء ، المخدرات الأرباح فيها ألف ضعف ، مثلاً : كيلو المخدرات في مكان زراعتها ألف دولار ، في مكان بيعها مئة ألف دولار ، ألف ضعف ، لأنها ممنوعات .

لذلك نحن نقيّم الإنسان لا بحجمه المالي ، بل بطريقة كسبه للمال فقط ، لو دخلتَ أستاذ علاء إلى بيت فخم جداً ، وعلمت أن صاحبه تاجر مخدرات هل تحترمه ؟ تحتقره ، ولا أكون عنده .

فلذلك قضية المال قضية مهمة جداً ، والمؤمن يتوقى طاعة الله في كسب ماله .

مرة سأل ملِك وزيره ، قال له : " مَن الملك ؟ الملك مخيف ، قال له : أنت ، قال له : لا الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ومسكن يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن إن عرفناه جهدنا في إحراجه " .

حينما أقنع الناس أنه أنت يكون لك عمل كبير عند الله ، عمل يؤثر في مجتمع كبير أكون ناجحا ، أما أنت تعيش في بيت معقول ، بيت صحي ، ولك دخل معقول ، ولك زوجة ترضيك ، ولك مركبة صغيرة ، أنا حينما أعلّم الناس أن يكتفوا بالشيء المعتدل ، وأن يقدموا جهداً كبيراً لأمتهم عندئذٍ تصنع البطولات ، أما حينما أوجه الناس أن يكونوا أغنياء جداً كي يغرقوا في النعيم ، وفي الترف ، وفي الإباحيات ، أنا حينما أربي الناس على هذه الطريقة يفسد المجتمع .

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)

(سورة الإسراء)

هذا ميزان لا يخل عند الله عز وجل .

الدكتور راتب :

الكسب المشروع منفعة متبادلة ، الكسب غير مشروع منفعة بنيت على مضرة ، يكون الكسب مشروعاً إذا ولد العمل المال ، لأنك مضطر إلى أن توظف أناساً كثيرين ، إلى أن تهيئ فرص عمل .

بلغني في بعض البلاد المتقدمة اقتصادياً ، لو أردت أن تنشئ معملاً ، يعطونك الدنم بمارك واحد ، يكاد يكون بلا ثمن ، وتوقع تعهدين ، أن لا تلوث البيئة ، وأن تهيئ فرص عمل ، وافعل ما تشاء .

لذلك أنا أقول : هؤلاء الشباب طاقة كبيرة جداً ، إن لم نفكر في شكل جاد بتأمين فرص عمل لهم ، وإن لم نفكر بشكل جاد بتزويجهم هؤلاء قنبلة موقوتة ، فإما أن تكون طاقة تسهم في بناء الأمة ، أو في تدميرها .

لذلك قضية كسب المال قضية خطيرة جداً ، وحينما يحاسب الإنسان عند الله في موضوع فبسؤال واحد، إلا بالمال فبسؤالين ، من أين اكتسبه ؟ وفيمَ أنفقه ؟ .

الأستاذ علاء :

من أين أتى هذا المال ، من أي مصدر ؟ وفي أي وجه من الأوجه صرف هذا المال .

الدكتور راتب :

لذلك ورد في الأثر : " أن الأغنياء يحشرون أربع فرق يوم القيامة ، فريقا جمع المال من حرام ، وأنفقه في حرام ، يقال : خذوه إلى النار ، حسابه سريع جداً ، وفريق جمع المال من حرام ، وأنفقه في حلال ، فيقال خذوه إلى النار ، وفريقا جمع المال من حلال وأنفقه في حرام ، خذوه إلى النار ، الرابع جمع المال من حلال وأنفقه في حلال ، قال : هذا قفوه فاسألوه ، هل تاه بماله على عباد الله ؟ هل قصر في حقهم ، واستعلى عليهم ؟ فيقول النبي الكريم : فما زال يسأل ويسأل .

أمامه أسئلة طويلة ، القضية قضية محاسبة ، فينبغي على الإنسان أن يؤمن أن هناك محاسبة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، الوقت الآن حان لفقرتنا العلمية ، هل نتابع في موضوع النمل ؟

الدكتور راتب:

النمل الأبيض :

1 – ما هو النمل الأبيض ؟

نحن أمام النمل الأبيض ، النمل الأبيض حشرات صغيرة تعيش على شكر مستعمرات ، وتقيم المساكن الضخمة .

2 – كيف ينشئ النمل الأبيض مساكنه ؟

من لوازم إنشاء المسكن الذي جهزته النملات العاملات من الطين المتكون من التراب ، وإفرازات أفواهها ، تصل مساحة مسكن النمل البيض إلى 3 أو 4 أمتار أحياناً ، وعند مقارنة هذا البيت مع حجم

النملة يبدو لنا المسكن كناطحة سحاب ضخمة جداً ، مساكن النملة هذه مليئة بالممرات العميقة ، وعلى طول هذه الممرات يعمل مليون ونصف المليون نملة بتناسق تام ، وعند التدقيق في مقطع عرضي لهذا المسكن يبدو داخل هذه الممرات بهو خاص للملكة ، وأقسام زراعية ، ومخازن ، وأقنية تهوية هذا مقطع كبير .

3 – الجانب الأمني والصحي في مساكن النمل الأبيض :

يقوم النمل الأبيض ببناء مسكنة وإصلاحه من جهة أخرى ، ويتهيأ لصد أي عدوان محتمل من جهة ثانية ، ويقوم بزراعة الفطر داخله من جهة أخرى ، وحياة السكان المزدحمين إلى هذا الحد متوقف على شرط مهم جداً هو تأمين التوازن بين الرطوبة والحرارة داخل المسكن ، ولدى النمل الأبيض حل رائع لهذه المشكلة ، فهناك في سقف المسكن هذه نوافذ موازية لبعضها ، هذه النوافذ المصنوعة من الطين تمتص الرطوبة من النمل ، وتتبخر هذه الرطوبة بحرارة جو المكان ، وتعلو عبر أقنية التهوية ، مما يؤدي إلى تخفيض حرارة المسكن من جهة ، وتأمين جريان الهواء الدائم من جهة أخرى ، فهذه النوافذ تقوم بمهمة التكييف الطبيعي بشكل تام .

4 – بناء النمل الأبيض مساكنها حسب الظروف :

للنمل أمثلة محيرة في علم الإنشاءات ، ونوع آخر من النمل يعيش في سهول استراليا الشمالية ، حيث تبنى مساكنها هناك بعرض واسع جداً ، إلا أن جوانبها رفيعة كالخنجر ، سر هذه المساكن في زاويتها التي تواجه الشمس ، تبني هذه النمل مساكنها بزاوية إلى حد أنها عندما تكون الشمس مستوية وقت الظهيرة لا تدخل إلا إلى قسم صغير من هذا المسكن ، وهكذا تخفف الحرارة إلى أقل ما يمكن ، هذا النوع من النمل جميعه يستخدم الزاوية نفسها دون أي تحيز ، أما الجانب المثير في الأمر فهو أن هذه النملة القائمة بجميع الإنشاءات عمياء لا ترى ، هذه الكائنات الصغيرة التي لا ترى أمامها قدر سنتمتر واحد ، كيف تنشئ هذا البرج الضخم مستندة إلى الحسابات الهندسية الدقيقة ، الحقيقة تسير كل نملة عاملة بتناسق ضمن خطة كبيرة تنجز كل هذا ، لم نبدأ بعد ، كما قال بعض العلماء ، وهذا الذي أمانا لم نبدأ بعد لاستيعاب ذلك حتى الآن ، هذه الخطة الكبيرة لم يستوعبها الإنسان ، بل كل نملة هُديت دون أي قيد أو شرط إلى إلهام الله تعالى .

وكل شيء له آية تدل على أنه واحد .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (45-95) - مقومات التكليف : الاختيار - حنان الفيل على صغيره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي ، كنا قد تحدثنا في الحلقات المتسلسلة الماضية عن مسائل هامة هي مقومات التكليف ، تحدثنا عن الكون ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ثم الشهوة ، والآن نحط رحالنا عند الاختيار ، بقي في مقومات التكليف ، والشرع ، والوقت ، نحط الرحال الآن عند الاختيار .

الاختيار كما أفهم مباشرة هو أن يترك للإنسان ، أي أن الله عز وجل ترك للإنسان محض الاختيار في كثير من شؤونه ، فيما كلف به ، وأن هذا الاختيار مقتضى التكليف ، وأيضاً من موجبات التكريم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء الآية : 70)

إذاً : حتى يكون الإنسان مكرماً يجب أن يكون حراً في الاختيار ، والله عز وجل يقول :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

ماذا عن الاختيار ؟ ما معنى الاختيار ؟ وكيف يكون الاختيار مقتضى للتكريم ؟ وكيف يكون الاختيار مثمناً للعمل ؟ .

الدكتور راتب :

من مقوِّمات التكليف : الاختيار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ الإنسان مخلوق مكرَّم :

أستاذ علاء بادئ ذي بدء : الإنسان هو المخلوق الأول رتبة ، لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

والإنسان فضلاً عن أنه الأول هو مكرم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

2 ـ الإنسان فردٌ بخصائصه :

إذاً : هو الأول وهو المكرم ، من مظاهر هذا التكريم : أن الإنسان فرد بمعنى أنه ما من إنسان على وجه الأرض يشبهه إطلاقاً فرد واحد .

بعض خصا\ص الإنسان المميز بها :

بصمة الإنسان هوية :

الله عز وجل جعل هذه الإبهام البصمة ، هي التوقيع ، ما من إنسان يشترك مع إنسان آخر في بصمة ، استقلال هوية ، حتى إنّ بعض المجرمين في أمريكا أزالوا هذه القطعة من الجلد ، وضعوا قطعة من مكان آخر ، بعد شهرين ظهرت علامات البصمة والتمييز ، فالإنسان فرد .

قزحية العين :

شيء آخر ، قزحية العين ينفرد بها الإنسان ، ما من إنسان على وجه الأرض تشبه قزحية عينيه قزحية عينك ، بل إن بعض البلاد صنعت أقفالا لا تفتح إلا من قِبَل واحد ، وضعوا عينيه على حفرتين فيفتح الباب ، فالقزحية ينفرد بها الإنسان .

رائحة جلد الإنسان :

شيء آخر ، هناك فضلاً عن القزحية رائحة الجلد ، فما من إنسان إلا وله رائحة جلد خاصة ، ولولا هذا التميز بهذه الرائحة لما كان من معنى إطلاقاً للكلاب البوليسية .

نبرة الصوت :

شيء آخر ، نبرة الصوت ، الإنسان يتميز بنبرة الصوت ، طبعاً قد تأتي رسالة صوتية على الهاتف ، تقول : فلان ، والإنسان عنده ذاكرة صوتية .

بلازما الدم :

فضلاً عن ذلك بلازما الدم ، إنسان يميل إلى الأطعمة الحامضة ، إنسان إلى الأطعمة الحلوة ، كل إنسان له بلازما دم خاصة .

الزمرة النسيجية :

فضلاً عن ذلك هناك زمرة نسيجية ، الزمرة النسيجية أيضاً ينفرد بها الإنسان ، ولا تنقل كية من إنسان إلى إنسان إلا مع تقارب الزمر ، والتطابق مستحيل .

نطفة الرجل :

وقد حضرت مؤتمراً علمياً في القاهرة قبل أشهر ، وقد ألقى بعض مندوبي الدول العربية موضوعاً يلفت النظر ، نطفة الرجل بصمة أيضاً ، وإن المرأة تستقبل هذه البصمة ، وتحفظها في ذاكرتها ، فما دامت هذه البصمة تأتيها تباعاً فالوضع طبيعي جداً ، إذا تبدلت هذه البصمة فهناك احتمال الإصابة بالورم الخبيث في الرحم ، إذا شذت هذه المرأة هل يمكن أن تستقبل المرأة بصمة أخرى للنطفة ؟ بعد أربعة أشهر بعد العدة .

إذاً : الله عز وجل تكريماً لهذا المخلوق الأول أعطاه بعض صفاته ، في حديث شريف رواه الإمام مسلم قد يلمح منه هذا المعنى :

((خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

ليس هذا المعنى لازم ، يلمح من هذا الحديث هذا المعنى .

3 ـ الاجتهاد والإبداع :

الآن : الله عز وجل حينما خلق الكائنات والجماد ، والنبات ، والحيوان ، هذه الكائنات الحية لها

جينات، لها مورثات ، لأن الإنسان خُلق وفق هذه الجينات ، والنبات خُلق كذلك ، والحيوان كذلك ، الإنسان أبدع في النبات أشياء كثيرة ، أبدع وردة سوداء ، أبدع فواكه تأخذ بعض الخصائص من بعضها ، أبدع نباتات مقزمة ، أبدع نباتات معملقة ، قد نضع في أصيص صغير شجرة مثمرة ، وتثمر، ونقطف هذا الثمر ، هناك أشجار الأرز منها المقزم .

إذاً تكريماً لهذا الإنسان أعطاه صفة الفردية ، وصفة الإبداع عن طريق الجينات ، أعطاه صفة الاجتهاد ، من خلال نص ظني الدلالة ، أنا حينما أقول : أعطِ فلاناً 1500 درهم ، النص قطعي الدلالة لا يحتمل التأويل ، ولا الاجتهاد ، ولا الآراء ، أما إذا قلت : أعطِ فلاناً 1000 درهم ونصفه ، الهاء تعود على الألف أم على الدرهم ، هنا الاجتهاد ، هذا النص احتمالي المعنى ، أو ظني الدلالة ، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون في النصوص المقدسة القرآن والسنة نصوص ظنية الدلالة ، هذا مجال الفقهاء ، والمجتهدين ، لذلك تكريماً لهذا الإنسان جعله فرداً ، وتكريماً لهذا الإنسان جعله مبدعاً ، وتكريماً لهذا الإنسان جعله مجتهداً ، وفوق كل ذلك جعله مريداً ، يختار ، الاختيار تكريم للإنسان ، فعمله له قيمة ، لأنه اختاره .

4 ـ الإنسان مكلّف :

إذاً : الله عز وجل جعل هذا الإنسان مكلفا بحمل الأمانة ، المكلف بمعرفة الله وطاعته ، المكلف بدفع ثمن الجنة جعله مختاراً ، هذا الاختيار موضوع هذه الحلقة إن شاء الله تعالى .

الأستاذ علاء :

للذين يقولون : إن الله عز وجل أنزل شرعه ، وألزم به خلقه ، أين الاختيار من هذا الإلزام ؟

الدكتور راتب :

شبهة مردودة : الجمعُ بين اختيار العبد وإلزام الله له بالتكاليف :

ليس هناك إكراه إطلاقاً ، لكن بين له أن هذا المنهج طريق سعادته ، من أجل أن تكون سعيداً وسليماً لا بد من تطبيق هذا المنهج ، هذا اسمه إلزام ذاتي ، أنت مخير ، لكن حينما ترى أن سلامتك في طاعة الله تستقيم ، وحينما ترى أن سعادتك من القرب من الله تعمل الصالحات ، فالإلزام ذاتي والدليل القطعي :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

1 ـ قلبُ الإنسان لا يُفتح بالإكراه :

هنا فكرة دقيقة جداً : أن قلب الإنسان كالصندوق المحكم ، لا يفتح بسيف ، ولا يفتح ببندقية ، ولا يفتح بمتفجرات ، ولا يفتح بصاروخ ، ولا بطائرة ، ولا بمدرعة ، ولا بقنبلة نووية ، لا يفتح إلا بالعدل ، لا يفتح إلا بالرحمة ، لا يفتح إلا بالحب ، بالإنصاف فهؤلاء الذين يقولون إن الدين انتشر بالسيف كلمة مضحكة جداً تتناقض مع الواقع ، ومع الحياة ، هذا القلب الإنسان قد يكون مع طاغية ، ينافق ، أما أن يعتقد أنه صالح فهذا مستحيل ، وأقرب الناس إليه يعوون حجم أخطاءه .

فلذلك إذا قلت : إن هذا الدين انتشر بحد السيف كان هذا الكلام مضحكًا ، لأنه :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

وقلبك لا تستطيع جهة في الأرض أن تطلع عليه ، يطلعون على ملامح وجهك ، يستمعون إلى كلامك، أما أن يصلوا إلى خبايا القلب ، مستحيل ، لذلك

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

ولمجرد أن يكون الدين إكراهاً انتهت قيمته .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

(سورة يونس الآية : 99)

2 ـ لو أجبر الإنسان على شيءٍ لأُجبر على الهدى :

لو أن القضية قضية إجبار لأجبر الناس على الهدى ، لكن هذا الهدى الذي يجبرون عليه لا يحقق سلامتهم ولا سعادتهم أبداً .

لو أنه جامعة وزعت أوراق الامتحان على الطلاب وقد طبعت عليها طبعاً الإجابة الكاملة ، وقد طبع في أعلى الورقة العلامة التامة بالأحمر ، وكُلف الطالب أن يكتب اسمه فقط ، ما قيمة هذا النجاح ؟ لا قيمة له لا عند الناس ، ولا عند الجامعة ، ولا عند صاحب هذه الشهادة .

لمجرد أن نجبر على تطبيق منهج الله انتهت قيمة الدين ، عظمة هذا الدين أن الإنسان يأتي ربه اختياراً، يأتيه تطوعاً ، يأتيه بمبادرة منه .

لذلك أساس العلاقة بين الله والناس علاقة محبوبية ، لو أرادنا أن نأتيه مكرهين فالقضية سهلة جداً ،

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

لكنه كرمهم ، وأعطاهم حرية الاختيار ، ولا يزالون مختلفين ، هذا كلام دقيق جداً ، لمجرد أن تكون مكرهاً على طاعة الله انتهت طاعة الله ، ولا قيمة لها .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من هذا المنطلق ، لو سمحت لي ، هنالك من يقول : إن الإنسان مسير ، وبرزت مدرسة هي المدرسة الجبرية ، أن الإنسان يجبر على كل التصرفات ، هي من الله فرضها عليه ، ما موقف هذا المنطق مع منطق الثواب والعقاب ؟ .

الدكتور راتب :

هو الحقيقة الإنسان مسير .

الأستاذ علاء :

هذه نقطة .

النقطة الثانية : كيف نقف عند من قالوا من أهل العقيدة : إن مشيئة الله مقترنة بمشيئة عبده فإذا شاء شاء ، نعم سيدي ؟ .

الدكتور راتب :

مجال تسيير وتخيير الإنسان :

1 ـ الإنسان مسيَّر في ما لم يُكلَّف به :

أولاً : الإنسان مسير في كونه ذكراً أو أنثى ، الإنسان مسير في أمه وأبيه الإنسان مسير في مكان ولادته ، الإنسان مسير في زمن ولادته ، الإنسان مسير في قدراته العامة ، هناك إنسان حاد الذكاء ، هناك الأقلّ ذكاءً ، هناك وسيم ، وهناك الأقلّ وسامة ، هناك قوي ، هناك الأقلّ قوةً ، هناك صحيح ، و هناك الأقل صحة ، فالإنسان مسير في كونه ذكراً أو أنثى ، مسير في كونه من فلان وفلانة ، مسير أنه جاء في العصور الوسطى ، أو في العصور الحديثة ، مسير في مكان ولادته دمشق أو شيكاغو ، مثلاً ، الآن مسير في قدراته العامة ، الإنسان مسير .

2 ـ مجالات تسيير الإنسان لصالحه كلها :

لكن العلماء أجمعوا على أن الذي أنت مسير به هو لصالحك قطعاً ، وليس في الإمكان أبدع مما كان ، أنا أسيّر إنسانًا مريضًا إلى المستشفى ، وهو أنسب مكان ، الإنسان مسير ، ولكن هذا التسيير لصالحه قطعاً ، وقد قال بعض العلماء : " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ، وقد تفهم فهماً آخر فجاء التصحيح: ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني .

إذاً : الإنسان مسيّر في ما لم يكلف به ، ومخير فيما كُلف به ، هكذا نجمع بين من يقول الإنسان مسير، ومخير ، الإنسان مسير فيما لم يكلف به ، ومخير فيما كلف به ، أمرك الله بالصلاة ، أنت مخير ، أمرك بالصدق ، بأداء الأمانة ، بالإنصاف ، بالعدل ، بالرحمة ، بالعمل .

لذلك أخطر فكرة ، أن هناك فقر الكسل ، فقر الكسل صاحبه مذموم ، هذا اختياره كسل ، استرخاء ، تأجيل ، عدم إتقان ، فيكون بذلك فقيراً ، هذا فقر الكسل ، لكن فقير العاهة والقدر صاحبه معذور ، بينما هناك فقر هو فقر الإنفاق .

((ماذا أبقيت يا أبا بكر لنفسك ؟ قال : الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

الأستاذ علاء :

نعود سيدي الكريم إلى مسألة الاختيار ، كيف يثمِّن الاختيارُ العملَ ؟ .

كيف يثمِّن الاختيارُ العملَ ؟

الدكتور راتب :

أولاً : سآتيك بمثل : إنسان يحمل باقة من الورد ، وجاء إنسان أقوى منه فأجبره على أن يأخذها منه ، بماذا يشعر هذا الذي أُخذت منه الباقة ؟ يشعر بالألم والضيق ، هل يشعر أنه عمل عملاً صالحاً ؟ هو في الأساس اشتراها ليقدمها لجهة ، أما إذا أُخذت منه عنوة فإنه يتألم أشد الألم ، فسقطت قيمة هذه الباقة، أما حينما يذهب إلى مريض ، ومعه باقة ورد ، وعليها دعاء بالشفاء ، ويقدمها له يتنامى ، يشعر بثقة ، تنفرج أساريره ، تتألق عيناه ، لأنه قدم عملاً ، فلمجرد أن يُجبر الإنسان على عمل سقطت قيمته.

الأستاذ علاء :

من هنا ذُمت عمليات السخراء والبناء بالسخرة ، وهي المجيء بمجاميع الناس لتشييد أماكن ، وأوابد كبيرة بالسخرة ، راح منها العدد الكبير ، فكان هذا العمل قسريًا ، وليس فيه الاختيار .

الدكتور راتب :

إذاً : الإنسان مخير ، فيما كلف ، مسير فيما لم يكلف .

الأستاذ علاء :

كنت أود أن أستمر لكن يبدو لي أن الوقت المخصص للفقرة العلمية الآن بدأ ، وماذا اخترت لنا سيدي الكريم ؟

الموضوع العلمي : الفيل :

الدكتور راتب :

1 ـ الرحمة في قلوب الأمهات من آيات الله الباهرات :

الحقيقة هناك موضوع عن الفيل ، وله دلالة كبيرة جداً ، هذا الموضوع يرينا كيف أن الله سبحانه وتعالى أودع في هذا الفيل رحمة تفوق حد الخيال ، هذه الرحمة أودعها في مخلوقاته ، نحن نريد أن نبين أكثر من ذلك ، قلب الأم آية من آيات الله الدالة على عظمته ، قلب الأم وحده آية .

(وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

(وَمِنْ آَيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

ومن آياته الشمس والقمر .

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

2 ـ جولة مع الفيلة : رحمة الفيل بمولوده المريض :

الحقيقة أنّنا سوف نرى شيئاً عجيباً ، في إحدى مراعي كينيا الحارة خرج قطيع من الفيلة في المنطقة لإيجاد الطعام ، قائد القطيع الفيلة الأنثى هذه التي تشاهدونها في يوم من أيام الصيف ، تضع الفيلة مولداً جديداً لا يختلف المولود الصغير المحبوب الذي ولد منذ ساعات فقط عن أمه أبداً ، غير أن هناك مشكلة مهمة جداً ، يصعب على الصغير الوقوف لوجود شيء في قوائمه الأمامية ، والقوائم الأمامية للفيل مثنية نحو الداخل ، ولذلك لا يستطيع الوقوف .

المشاهدون في المنطقة يعتقدون موت هذا الصغير حتماً ، تترك الأم قطيع الفيلة في اليوم التالي لوجود مشكلات صحية للصغير ، ولا تستطيع قيادة القطيع أكثر من ذلك ، ولا بد أن يستمر القطيع برحلته للبحث عن الطعام ، فالتحاق الصغير العاجز بالقطيع مستحيل ، الأخت الكبرى ذهبت ، والأم مضطرة لأن تبقى حية مع القطيع ، إلا أنها تقع في مأزق كبير ، تحاول الفيلة الأم أن ترفع صغيرها من الأرض بخرطومها ، وتؤمن له الوقوف على قدميه ، وفي النهاية تستسلم الأخت الكبرى ، وتبدأ بالمشي شيئاً فشيئاً للالتحاق بالقطيع ، لكن تجاه خيارين صعبين تقف وتنظر خلفها الفيلة الأم لا تزال تحاول الآن

مساعدة الصغير ورفعه على قدميه ، فجأة تطلق الأخت الكبرى صرخة كبيرة ، وتسرع نحو أمها وأخيها العاجز ، وتضع الموت بين عينيها ، ولا تفارق أمها وأخاها أبداً .

في اليوم التالي لا تزال الأم والأخت الكبيرة إلى جانب الصغير العاجز حتى الآن ، فالصغير يتألم بكل خطوة ، ولا تتركه أخته الرحيمة المضحية ، يبدو أن موت الصغير أصبح محققاً ، في نهاية اليوم الثالث تتحقق حادثة مثيرة جداً ، تبدأ أرجل الفيل تكسب التمطط شيئاً فشيئاً ، وحاول الاستقامة على قدميه تحت إشراف أمه ، ويستمر بالتجربة دون ملل ، ودون استسلام ، في النهاية يقف على قدميه لحظة ، ثم يركض على ركبتيه مرة أخرى ، ويكرر ذلك ، وفي نهاية اليوم الرابع يستطيع الصغير الوقوف على قدميه ، والصبر الرائع للأم والأخت ، ومحبتهما وحنانهما أعطى الفيل الصغير الوقت في الدعم الذي احتاجه للبقاء على قيد الحياة .

3 ـ رحمة مثل هذه الحيوانات أفضلُ من بعض البشر التطوريين !!!

فحينما يرى بعض التطوريين وجوب قتل الأطفال العاجزين لضرورة التطور ترعى الحيوانات العجماوات في الطبيعية صغارها ، وتهتم بها برحمة وتضحية .

لذلك أستاذ علاء نقول : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، رحمته ظاهرة في كل شيء ، ظاهرة في خلق الإنسان ، وفي خلق الحيوان .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، هذه الرحمة التي أودعت في الأم عند الفيلة ، وكذلك عند الأخت ، نحن نعرف أن العجماوات ليس لها عقل ، هذا العقل يسيرها ، أو يجعل منها مختارة ، كما كُلف الإنسان وكُرم ، هذا العقل هو الغريزة التي أودعها الله في هذا الكائن تتجه الوجهة الصحيحة ؟ .

الدكتور راتب :

المحبةُ في قلب الإنسان والحيوان بين الفطرة والغريزة :

الحقيقة ، دعك من الحيوان مبدئياً ، الإنسان أودع في قلبه محبة أولاده فطرة ودون كسب منه ، لذلك قد تدخل مستشفى ، فتجد امرأة جاهلة تبكي من أجل ابنها ، والمثقفة كذلك ، والمتفلتة كذلك ، والمنضبطة كذلك ، والريفية كذلك ، أية امرأة أودع الله فيها محبة ابنها ، أنا أقول مبدئياً : هذه الرحمة فطرية ، وإذا قلنا : فطرية ، أي أن هامش الأجر قليل ، من دون جهد ، ولا معانات ، ولا قصد ، أما

حينما يعتني الإنسان بابنه ، بأخلاقه ، بدينه ، ، بعقيدته ، بصلاته ، باستقامته ، هنا يأتي الأجر ، لذلك قلما تجد آية توصي الآباء بأبنائهم إطلاقاً ، إلا آية المواريث .

تماماً لا يمكن أن نطالب الدولة بإصدار قرار بإلزام المواطنين بتناول الطعام مستحيل ، هذا شيء فطري .

فلذلك أي أب ، وأية أم من بني بشر ، ومن غير بني البشر ألقي في قلوبهم رحمة أولادهم ، وقد عرضنا من قبل عن طائر البطريق يقف أربعة أشهر دون أن يأكل ، ودون أن يشرب على قدميه ، والبيضة على قدميه مغطاة بفروه ، رحمة بهذه البيضة ، ومعه في الحوصلة كمية طعام هو في أمس الحاجة إليها ، يخبئها لهذه البيضة بعد أن تخرج .

الحقيقة ، هناك مشاهد لرحمة الحيوان تفوق حد الخيال ، لذلك هذه رحمة الله أودعها في قلوب الكائنات، من أجل أن تستمر الحياة .

الرحمة في المخلوقات أودعها الله في قلوبهم :

قصة رمزية ، امرأة تخبز على التنور ، وإلى جانبها طفل ، فكلما وضعت رغيفاً مسكته وقبلته وشمته، فمر أحد الأنبياء ، قال : ما هذه الرحمة ؟! ورد بالقصة أنها رحمتي أودعتها في قلوب الخلق ، وسأنزعها ، فلما نزعت الرحمة من قلبها وبكى ألقته في التنور .

عندنا حالات نادرة جداً ، بعض الحيوانات تأكل صغارها ، معنى الله عز وجل علمنا أن رحمة الأمهات بأبنائهم هذه رحمة الله عز وجل ، الآن إذا التف الناس حولك هذه رحمة الله أودعها في قلوبهم، هذا يؤكده قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه الآية : 39)

إذا استقام الإنسان على أمر الله ، وأقبل عليه الله عز وجل يلقي في قلوب العباد محبته في قلوبهم .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (46-95) - مقومات التكليف : الاختيار - العقيدة وانعكاسها على السلوك ـ حنان التمساح على صغاره
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة ما سبق :

كنا قد بدأنا هذا البرنامج بمقومات التكليف ، مررنا على الكون كمقوم من مقومات التكليف ، ثم أشبعناه بحثاً ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ووقفنا عند الاختيار ، وتحدثنا عنه ، وبدأنا ببعض معالمه في الحلقة السابقة ، ولكن هذا الموضوع يبدو أنه بحاجة إلى حلقات متتالية لكي نتبين هذا الموضوع ، وهذا الموضوع حساس ، وهو في تصور الناس ليس في المعنى السليم ، وليس في التصور السليم ، لوحة الاختيار ، أو لوحة الفرضية لدى الناس هي متداخلة ، غير واضحة ، الكثير يقول : هذا الشيء من الله، الكثير من الناس يقول : هذا الشيء مقدر عليّ من الله تعالى ، ولا أملك حراكاً تجاهه ، ولا أملك دفعاً له ، هذا الأمر علينا ألا نواجهه ، هكذا يريد صاحب الأمر ، هذه عبارة نسمعها بين أبناء مجتمعنا سيدي الأستاذ .

كنا قد بدأنا بأن الاختيار هو شيء أساسي في مقومات التكليف ، وشيء أساسي أن الله عز وجل خيّر الإنسان في أن يُقبل على شيء أو يحجم عنه ، لأنه في المقابل هناك الحساب كما مرّ معنا ، وشرحت هنالك المثوبة ، وهنالك العقاب ، وإلا إذا لم يكن هناك اختيار يجب ألا يكون هنالك لا حساب ، ولا موازين ، ولا محكمة في الدار الآخرة ، ولا جنة ، ولا نار بهذه الطريقة ، طالما أن الله عز وجل فرض علينا الطريق أن نسلكه .

مر معنا سيدي الكريم أن الاختيار يثمن العمل ، ووقفنا عند هذه النقطة ، ماذا عن كل هذه الأمور ؟ .

الدكتور راتب :

مسائل تمهيدية مهمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

المسألة الأولى : العقيدة أخطرُ شيء في الدين :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، بادئ ذي بد ، أخطر شيء في الدين العقيدة ، إنها إن صحت صح السلوك ، وإن صح السلوك سلم الإنسان وسعد في الدنيا والآخرة ، وإنها إن زاغت فسد العمل فشقي الإنسان في الدنيا والآخرة ، إذا كان الدين على شكل مثلث فهذا المثلث مقسم إلى أربعة أقسام : العقيدة ـ العبادة ـ المعاملة ـ الآداب ـ على رأس الهرم تقع العقيدة ، فإن صحت صح العمل ، إن فسدت فسد العمل .

الملاحظة الدقيقة : أنه لو لم يكن للعقيدة انعكاس على السلوك فاعتقد ما شئت ، ولكن لأنه ما من شيء تعتقده إلا وينعكس بشكل صارخ سلباً أو إيجاباً على العمل ، وقيمة الإنسان عمله ، ويحاسب على عمله، فإن صح صحت سلامته في الدنيا وسعادته في الآخرة هذا النقطة الأولى .

المسألة الثانية : مِن أين نستقي العقيدة ؟

لكن السؤال الدقيق : من أين نستقي هذه العقيدة ؟ نحن كما تعلمون هناك قرآن كريم ، وهناك بيان نبوي ، وهناك أقوال لا تعد ولا تحصى ، منهج البحث في الإسلام أن القرآن الكريم قطعي الثبوت ، يجب أن أستقي منه مبادئ العقيدة ، وأن الحديث الشريف ظني الثبوت ، ينبغي أن أبحث عن الحديث الصحيح أولاً ، ثم أستقي منه ملامح العقيدة ثانياً ، أما أقوال العلماء فإن طابقت الكتاب والسنة فعلى العين والرأس ، وإن لم تطابق الكتاب والسنة فلا حاجة لنا بها لأن :

((إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[رواه الحاكم عن أنس وأبي هريرة]

((ابن عمر ، دينك دِينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[رواه ابن عمر]

المسألة الثالثة : إذا ألغِي الاختيار ألغي التكليف :

النقطة الثالثة : أنه إذا ألغي الاختيار ، ألغي التكليف ، ألغي حمل الأمانة ، ألغي الثواب والعقاب ، ألغيت الجنة والنار ، أصبحت الحياة تمثيلية سمجة ، من دون الاختيار العمل لا معنى له إطلاقاً .

لذلك يقول الإمام الحسن رضي الله عنه : " لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده

تخييراً، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً " .

الإمام علي رضي الله عنه سأله بعض أصحابه : << أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ قال : ويحك ، لو كان قضاءً لازماً ، وقدراً حاتماً ، إذاً لبطل الوعد والوعيد ، ولانتهى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً >> .

إذاً : إذا ألغي الاختيار ألغي العمل ، وبعبارة تفضلتم بها قبل قليل : الاختيار يثمن العمل .

آية قرآنية أصلٌ في تثبيت مبدأ الاختيار ونفي الجبر :

أين الآيات في القرآن الكريم التي تعزز هذا العمل ؟ قال تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا)

(سورة الأنعام الآية : 148)

(كَذَلِكَ كَذَّبَ)

هذا كلام كذب ، بل إنه مقولة المشرك :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا)

(قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

قال علماء العقيدة : هذه الآية أصل في أن الإنسان مخير ، والذي يقول بخلاف ذلك يتوافق في مقولته مع المشرك ، هذا لا يلغي أن الله يعلم ، لكن الله يعلم علم كشف لا علم جبر ، هذا كلام دقيق .

الأستاذ علاء :

نقف عند هذه القضية ، علم الله بالشيء ليس له علاقة بفرض الشيء وحتميته .

الدكتور راتب :

معنى علم الله بأفعال العباد :

قال العلماء : هناك علم كشف ، وهناك علم جبر ، أنت كمدرس عريق خبراتك عالية ، يمكن أن تتوقع أن يكون هذا الطالب الأول ، لو أن هذا الطالب لا ينجح ، فإذا توقعت أنه لا ينجح فهل معنى ذلك أنك أجبرته على أن لا يدرس ، علم الله علم كشف ، لا علم جبر .

1 ـ العقل محدود

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتهلكوا))

[رواه ابن حبان عن أبي ذر]

العقل ليس أداة مطلقة بالمعرفة ، بل هو أداة محدودة ، فإذا عددناه أداة مطلقة وقعنا في شر أعمالنا . أنت تشتري ميزانا لبقالية ، وهو غالٍ جداً ، وحساس جداً ، فيه خمسين ذاكرة ، أحدثُ ميزان ، لكن هذا الميزان مصمم من خمس غرامات إلى خمسة كيلو ، لو وضعته أرضاً لتزن به مركبتك يتحطم ، العلة ليست فيه ، العلة أنك استخدمته لغير ما صنع له .

2 ـ ما لا يُدرَك بالعقل يدرَك بالخبر الصحيح :

فأن يعدّ الإنسان عقله قادرا على فهم كل شيء هذا غير صحيح ، العقل كما تكلمنا في حلقات سابقة إذا ارتكز على شيء مادي يستنبط شيئًا غير مادي ، إن رأى آثار عجلة يقول : مِن هنا مرت سيارة ، إن رأى غديرا يقول : هناك نبع ، إن رأى دخانا يقول : هناك نار ، فالعقل استدلالي استنباطي ، أما أن يغوص في المجهول كلياً فلا يستطيع ، والذي عجز العقل عن إدراكه أخبرنا الله عنه .

هذه المركبة لا يمكن وزنها بهذا الميزان ، لكن الشركة محترمة جداً ، وضعت في مكان وزنها الدقيق، وزن المركبة لا تأخذه من ميزان بقالية ، تأخذه من إعلان الشركة .

فكل شيء عجز عقلك عن إدراكه أدركتَه بالخبر ، المال مرتكز مادي ، الماضي السحيق والمستقبل البعيد ، وما سيكون بعد الموت ، هذه إخباريات ، ونحن في الوقت الذي نصنف مقولات الدين بين مقولة يقينها حسي ، ومقولة يقينها عقلي ، ومقولة يقينها إخباري تحل مشكلاتنا .

مثلاً : أخ كريم ببساطة ، وببراءة ، وبحسن ظن بالآخرين يحاول أن يقنع إنساناً إيمانه بالله مهزوز ، يحدثه عن المَلَكين ، أين هم الملكين ؟! هذا الموضوع إخباري ، الجن موضوع إخباري ، الصراط موضوع إخباري ، أهوال النار موضوع إخباري .

3 ـ الحسيات والعقليات والإخباريات :

حينما أُقسّم المقولات في الدين إلى مقولات يقينها حسي ، وإلى مقولات يقينها عقلي ، وإلى مقولات يقينها إخباري ، تتضح الأمور ، فالعقل مهمته أن ينتقل من المحسوس إلى ألا محسوس ، من المادة إلى المجردات .

لذلك نحن نستقي عقيدتنا من كتاب الله .

الأستاذ علاء :

لذلك سيدي ، العقل إن صح التعبير كالإنسان الذي يدخل مفازة لا يعرف أين الطريق ، كثبان ، ومتاهات ، إن لم تكن هناك نقاط تدله على الطريق ، يستدل بها طريقه سيتيه ويضلّ ، ولن يحصل على نتيجة ، الهلاك النتيجة الحتمية له ، وكذلك العقل ، هنالك قضايا حسية موجودة ينتقل منها ، ويرتكز إليها ليستدل إلى الأشياء التي هي لا حسية ، أو مجردة .

الدكتور راتب :

العقل من دون الوحي ضلال :

أستاذ علاء ، هناك نقطة دقيقة جداً ، نحن في عالم المادة هذه العين لا قيمة لها إطلاقاً ، ولو أن درجة الرؤيا 12 على 10 إلا بضوء يتوسط بين العين والمرئي ، اعتقادي الذي لا يقل مصداقية وتأكيداً عن هذا الاعتقاد الأول ، وأن العقل لا يمكن أن يهتدي من وحي السماء ، فحاجة عقلي إلى وحي السماء كحاجة العين إلى النور ، لذلك :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

(سورة المدثر)

العقل كالعين يهتدي بنور الوحي ، والعين تهتدي بنور الشمس .

الأستاذ علاء :

إذاً : اختيار واقع ، والله عز وجل خيّر الإنسان ، وهناك كما تفضلت في الحلقة السابقة الاختيار في كل الأشياء إلا في بعض المواضع التي تتعلق بعمر الإنسان ، وبأمه وأبيه أما في بقية الأشياء :

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

(سورة البلد)

نكمل سيدي الاختيار مسألة تثمين العمل ، وصلنا إلى الآية الأولى التي نريد شرحها .

الدكتور راتب :

تثمينُ العمل وأدلة ذلك من القرآن :

الآية الأولى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

الآية الثانية :

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة الآية : 148)

هناك من يتوهم أن هو تعود على الله عز وجل ، إذا قبلنا هذا التوجيه للآية هناك مشكلة .

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

أنت لا يعقل أن تطلب من رجل يركب مركبة في المقعد الخلفي أن خذ اليمين ، يجب أن تخاطب مَن بيده المقود ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ)

الإنسان موليها ،

(فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ)

هذه آية أيضاً تؤكد أن الإنسان مخير ، ولكل من بني البشر وجهة .

قال الله عز وجل :

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى *وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(سورة الليل)

انظر إلى طريق مزدحم صباحاً ، كل واحد في باله هدف ، واحد بإلقاء درس ، واحد بعقد صفقة ، واحد لإيقاع مكر بإنسان ، واحد بسرقة ،

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

فالإنسان له اختيار ،

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ * فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

أينما تكون ، وفي أي مكان كنتم ، وفي أي مكانة كنتم ، يأت بكم جميعاً .

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

(سورة الغاشية)

والله هذه الآية رسمت الصورة ، إلى أين أنت ؟ الإنسان في قبضة الله .

الآية الثالثة :

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

واضحة وضوحًا تامًّا ،

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ)

هذا الحق ، أنت أيها الإنسان مخير ، فإما أن تؤمن ، وإما أن تكفر ، لكنك إذا آمنت يقول الله عز وجل:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

إنك إن أسلمت :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

إذا اخترت الآخرة :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

إذا كان عملك طيبًا :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية : 21)

الآية الرابعة :

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

هنا ملاحظة أتمنى أن تكون واضحة في ذهن إخواننا المشاهدين : قديماً كان هناك خط أبيض يمثل الحق ، وخط أسود يمثل الباطل ، وملايين الخطوط الرمادية بينهما ، الآن الشيء العجيب ، هذا الخط الأبيض يتوسع ، يتوسع ، يتوسع ، والأسود يتوسع على حساب الرماديات ، الآن هناك حق وباطل ، والحق واضح أبلج كالشمس ، وإن كان ضعيفًا ، والباطل أسود كالليل ، وإن قوي ، لذلك هذه قصة قابيل وهابيل ، البشر الآن قابلة وهابلة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، هنالك من يقول : إن الله عز وجل له مشيئة وإرادة بالتوبة لشخص :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

(سورة التوبة الآية : 118)

في قصة المخلفين ، كيف نجمع بين الأذى ؟

الدكتور راتب :

معنى مشيئة الله للعبد بالتوبة :

الله عز وجل رب العالمين ، الإنسان أحياناً يكون عنده موظف يحصي عليه أخطاءه ، أما إذا كان ابنه في هذا المكان فيتابعه عند كل خطأ ، فالله عز وجل رب العالمين ، فكيف يحصي على العبد أخطاءه ؟ لا ، يعالجه خطأ بخطأ .

لذلك الإنسان حينما تزلّ قدمه يأتيه علاج من الله ،

(تَابَ عَلَيْهِمْ)

يعني ساق لهم من الشدائد ما حملهم على التوبة ، فإذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد ، أي : قبل توبتهم، تابوا فتاب عليهم ، لها معنى ، تابوا فتاب عليهم أي : قبل توبتهم ، أما :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ)

فلها معنى آخر ، ساق لهم من الشدائد ما حملهم بها على التوبة ، والدليل :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان الآية : 20)

المصائب هي النعم الباطنة ، والمصائب رسالة من الله ، أن يا عبدي أنت شارد .

إلى متى أنت باللذات مشغول و أنت عن كل مـا قدمت مسؤول
تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لـــعمري في المقال شنيع
لـو كان حبك صادق لأطعته إن الـــمحب لمن يحب يطيع

***

لذلك من هو البطل ؟ الذي يفهم على الله تصرفاته .

((يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

لو ذهب رجل إلى البحر إلى طرطوس ، وركب قاربًا إلى أرواد ، ومسك إبرة ، وغمسها بالبحر ، كم حملت هذه الإبرة من مياه المتوسط ؟ ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر ، قال : ذلك لأن عطائي كلام ، كن فيكون ، وأخذي كلام زل فيزول .

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ

نحن ألِفنا بعالم الشرك الخفي لا أقول : الجلي أن نعزوَ أخطاءنَا إلى الظروف الصعبة ، وإلى أخطاء الناس ، دائماً نحن نبرئ أنفسنا من مسؤوليات أخطائنا ، نلقيها على الاستعمار أحياناً ، أو على الصهيونية ، والحقيقة نحن المخطئون ، والبطولة أن تكون جريئاً ، وتعترف أنك مخطئٌ

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا ـ هذا حديث قدسي في الصحاح ـ فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

وأنا قناعتي أنه لا أحد يستطيع أن يغوي أحدًا ، الدليل :

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة ق)

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 22)

لو ذهب رجلٌ إلى مركز الشرطة ليشتكي على إنسان ، هو لابس ثياب بيضاء جميلة جداً ، وسقط في حفرة فيها مياه آسنة ، قال له المحقق : هو أجبرك ؟ قال له : لا والله ، قال له : شهر عليك المسدس ؟ قال له : لا والله ، قال له : كيف تشتكي عليه ؟ قال : قال لي : انزل فنزلت ، هذا الرجل يحتاج إلى مستشفى مجانين .

الأستاذ علاء :

كنا نود أن نكمل في هذا المبحث إن شاء الله في الحلقة القادمة ، لكن جاء الوقت المخصص لفيلمنا العلمي ، ماذا اخترت لنا سيدي ؟.

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : التمساح :

1 ـ رحلة مع التمساح !!!

في موضوع عن التمساح ، الحقيقة إنه حيوان يلفت النظر ، أحيانا تجد بلدا غربيًا شديد القسوة على الشعوب الأخرى ، وعلى المواطنين هو من أرحم ما يكون .

لنقم برحلة إلى قارة إفريقيا ، ونتابع هذا الشكل من الحماية التي تصل إلى حد الروعة ، تعيش في نهر النيل تماسيح النيل ، والتماسيح من أشد أصناف الحيوانات اكتراثاً على وجه الأرض ، ومع ذلك تأخذ هذه الحيوانات مكاناً لها من أشفق أمهات العالم .

2 ـ التمساح من أرحم الحيوانات بصغارها :

هناك حالتان حادتان ، تغرز أنثى التمساح بيوضها في الرمال الشاطئ ، وعندما يحين وقت فقس البيض تبدأ بحفر الرمال بدقة واهتمام ، إنها دقيقة جداً ، كي لا تتضرر بيوضها ، تبدأ البيوض بالفقس بمجرد إزالة الرمال عنها ، وتظهر التماسيح الصغيرة كما نرى على الشاشة ، وفي هذه الأثناء تحدث واقعة عجيبة جداً ، تحرك التمساح الأم أسنانها الحادة ، وتفتح فمها الضخم ، وتضع صغارها في فمها،

أوائل المشاهدين لهذه الحادثة من العلماء ظنوا أن التمساح يأكل صغاره ، لكن الحقيقة مختلفة تماماً ، فآمن مكان في الساحل لأجل الصغار أفواه أمهاتهم .

تضع الأم جميع صغراها واحداً واحداً في فمها برحمة واهتمام كبيرين ، الصغار الخارجة من البيوض كأنها تستنجد بأمها كي تدخل إلى فمها ، تأخذ التمساح البيوض التي لم تفقس بعد أيضاً ، وتضغط على البيض بخفة بحيث تزيل قشرتها فقط ، هذه الأسنان الحادة كالشفرة يمكن أن تمزق جاموساً ، وهي من أشد الأسنان في الحيوانات ، جاموس بأكمله تمزقه ، وإذا مسكت بيضة ابنها فبضغط خفيف ، وتضغط على البيض بخفة حيث تزيل قشرتها فقط ، هذه الأسنان الحادة كالشفرة يمكن أن تمزق جاموساً كبيراً ، أو غزالاً عندما يعض التمساح فريسته ، تأخذ هذه التماسيح صغارها التي في فمها إلى النيل ، إلا أنها عندما تأخذ صغراها تتصرف برحمة ودقة إلى درجة أن الصغار لا يتأثرون بأي ضرر من هذه الأسنان الحادة .

تعود الأم إلى النهر بعد أن ملأت فمها تماماً بصغارها ، تأتي إلى الماء الضحل الآمن التي عينته من قبل ، ثم تفتح فمها ، وتهزه باهتمام تضع الصغار والبيوض التي لا تزال في قشورها ، في ذلك الماء بلطف ، وفي لحظة يغطي الماء صغار التمساح ، يتحول حيوان مفترس ، ومتوحش كالتمساح إلى أم حنون ذات رحمة بإلهام من الله تعالى في فترة وضع بيضها ، الصغار من الآن تحت حماية القرب من أمهاتها في كل لحظة .

3 ـ التمساح لا يأكل لحم تمساح !!!

أما القصة الثانية دقيقة جداً وهي : في الأيام نفسها يلاحظ نشاط تحت التراب قرب عش التمساح ، تفقس بيوض السلاحف تحت الرمال وتخرج صغارها إلى السطح شيئاً فشيئاً ، هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك حماية تجاه الأخطار مضطرة إلى الوصول إلى الماء في أقرب وقت كي تعيش هناك كما نرى ، إنها تركض بشكل معجز إلى الماء بمجرد ولادتها ، الآن وفي طريقها تماسيح ضخمة لا تضر التماسيح الصغار أبداً ، بل تمر صغار السلاحف بأمان أمامها ، أمام هذه الوحوش الضارية ، هذه السلحفاة التي نشاهدها على الشاشة ضلت طريقها ، وتواجه في لحظة تمساحاً جائعاً يتشمس على الشاطئ يكبرها بالآلاف الأضعاف ، يشعر التمساح بالصغير ، ولأول وهلة تبدو السلحفاة وكأنها فقدت حياتها ، تفتح التمساح فمها فجأة وتأخذ صغير السلحفاة بين أسنانها الحادة ، إلا أن هدفها ليس أكلها ، بل يعمل هذا التمساح على وضع السلحفاة في فمه ، ويعدله على أن يكون على وضع صحيح ، وتحمل

التمساح السلحفاة الصغيرة التي أضاعت طريقها ، ولم تستطع الوصول إلى الماء بشكل محير ، ويأخذها ، ويدفعها إلى الماء .

4 ـ ويقتل بعضُنا بعضًا عيانًا !!!

إلى الآن تم قتل خمسة آلاف طفل فلسطيني في ست سنوات ، والتمساح يحافظ على صغير السلحفاة . الحقيقة نحن نعيش في عالم متوحش ، الإنسان بلغ أعلى درجة في التقنية والاختراع ، لكنه في العلاقات الإنسانية في الحضيض ، الله تعالى خلق كل كائن على وجه الأرض أودع فيه عاطفته تجاه أولاده ، فهذه من آيات الله الدالة على عظمته .

الأستاذ علاء :

هذا الفيلم الذي كنا نتابع ، والذي كنا نشاهد كيف أن هذا المخلوق الشرس عندما يوصف إنسان في قسوته ، وفي ظلمه ، وفي اعتدائه كالتمساح ، وإذا ذرفت دموعه ، وهو ظالم كدموع التماسيح .

الدكتور راتب :

من أجل أسيرين دُمر لبنان بأكمله ، قسوة ما بعدها قسوة ، عصر توحش .

الأستاذ علاء :

الأطفال ، والنساء ، أشلاء الأطفال ، تقصف البيوت بالمدافع .

الدكتور راتب :

أنا لفت نظري التمساح كم هو عطوف على أولاده ، وكم هو متوحش مع غيره .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (47-95) - مقومات التكليف : الاختيار - الاختيار ذاتي وليس قسراً ـ الرحمة والحنان عند الطيور
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-11-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وترحيب :

كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية وقبلها موضوعاً ، وهو مقوّم من مقومات التكليف ، موضوع الاختيار ، عرفنا الاختيار ، وكيف أن الإنسان مخير في أفعاله ، وفي تصرفاته وفيما كلف به ، هو مخير في المهمة التي كلف بها هو مخير ، وكيف أن الإرادة له والمشيئة له في أن يمشي هذا الطريق ، أو يمتنع عنه ، ويمشي الآخر أو يمتنع عنه .
وتبينا بأن الاختيار يقتضي الحساب ، ويقتضي النتيجة ، مثوبة أو عقاباً ، وتبينا أن الاختيار يثمن العمل ، ويرفع من قيمة العمل ، وإلا لو فرض العمل على الإنسان بشكل جمعي لما كان له قيمة أو ثمن، وإنما كان يؤدي هذا العمل بشكل تلقائي .
نصل إلى نقطة سيدي الكريم في مسألة الدين ، هل الإنسان يختار الدين ؟ هل الإنسان له الأحقية في أن يختار الهداية ؟ أو ألا يختار ؟ هل هناك إكراه في الدين ؟ أو إلزام وجذب إلى هذا الجانب أو إلى ذلك الجانب ؟ ماذا عن هذه المسألة سيدي .
الدكتور راتب :

الأصلُ أنّه : لا إكراه في الدين :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الأصل أن العقيدة نستقيها من كتاب الله ، وفي آية واضحة جليلة قطعية الدلالة يقول الله عز وجل :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)
هذا الذي يقول وهو لا يفقه ما يقول : إن الدين انتشر بحد السيف ، قلب الإنسان كالصندوق الحديدي ، لا يمكن أن يفتح بسيف ، ولا ببندقية ، ولا بصاروخ ، ولا بقنبلة نووية ولا بطائرة ، لا يفتح إلا بالحق،

يفتح بالرحمة ، يفتح بالعدل ، يفتح بالحب ، فالإنسان مغلق بإمكانه أن ينافق ، بإمكانه أن يمثل ، بإمكانه أن يداري ، أما أن يؤمن ؟ لا يؤمن إلا بما هو قانع به ، لذلك في الأصل :

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

لأن الإنسان صندوق مقفل لا يفتح إلا وفق مبادئ فطرته ، ويحب العدل يفتح بالعدل ، يحب الرحمة يفتح بالرحمة .

لذلك العمل الذي فيه عدل يلفت نظر الناس جميعاً ، الذي فيه رحمة ، البطولات في التاريخ نقرأها مراراً وتكراراً لا نمل منها ، لأنها تتناغم مع فطرنا .

لذلك العصور السابقة مع أنها خشنة في معداتها ، وفي أساليب العيش فيها ، لكنها متفوقة في فضائلها، والحياة المعاصرة فيها تقنية عالية جداً ، أدوات التحكم عن بُعد على الطاولة كثيرة ، لكن لا سعادة فيها، ولا فضيلة ، ولا عمل صالح ، ولا تضحية ، ولا مبادئ ، ولا قيم ، ولا مادة ، لذلك قالوا : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

حينما يشرد الإنسانُ عن الله عز وجل يضيع ، ومشاعر المؤمن أنه تعرف إلى الله ، واستقام على أمره، واصطلح معه ، وهذا شيء لا يكاد يصدق ، لذلك لا يمكن أن يكون الدين إكراهاً ، هو اختيار ، هو اتخاذ قرار من أعماق الإنسان ، لو كان إكراهاً لفسدت الحياة ، الدليل بعض الآيات :

الأدلة القرآنية على الاختيار في الدين وعدم الإكراه :

الآية الأولى :

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة يونس)

مستحيل ، وآية واضحة جداً

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)

كلهم توكيد وجميعاً .

أستاذ علاء ، لو أن رئيس جامعة وزع على الطلاب أوراق الإجابة ، وقد كتبت عليها الإجابة الكاملة ، وكتب عليها 100 على 100 ، وكلف الطالب أن يكتب اسمه فقط ، ما قيمة هذا النجاح ؟ هذا النجاح لا يسعد إطلاقاً ، لو أنه يسعد لفعله الله عز وجل ، لا يسعد إلا أن تأتيه طائعاً ، من مبادرة منك ، بمحبة .

لذلك الله عز وجل جعل العلاقة بينه وبين الخلق علاقة محبوبية ، الأصل في العلاقة الحب ، وإيمان بلا حب جسد بلا روح .

مرة وردة طبيعية فواحة ، ألوانها رائعة ، يهفو القلب إليها ، ووردة بلاستيك تملها .

الإسلام من دون حب لا معنى ، هو له طقوس ، وعادات ، وتقاليد ، أما الصلاة فهي صلة بالله .

((أرحنا بها يا بلال))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الآية الثانية :

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء)

(سورة النحل الآية : 93)

هو مخير ، يشاء تعود على الإنسان .

الأستاذ علاء :

نقف عندها سيدي لو سمحت ، الكثير من الناس في مفهومهم ، في تخيلهم ، في تصورهم أن متى شاء يشاء الله ، فالفاعل هو الله ، لكن نريد أن نتبين من هو الفاعل يشاء ؟

الدكتور راتب :

بين مشيئة العبد ومشيئة الله :

الإنسان يضل من يشاء الضلال ، إنسان آثر الشهوة ، آثر المادة ، آثر الدنيا فقط هذا اختياره ، فلما اختار هذا الاختيار أصبح بعيداً عن حقائق الدين .

أنت ذاهب إلى حلب ، وفي طريقين ، وأنت عند المفترق لا تعرف إلى أين الجهة في تقسيم من إدارة المرور ، واقف واحد ، قلت له : أين حلب ؟ قال لك : من هنا ، فقلت له : جزاك الله خيراً ، فقال لك : انتظر ، أمامك تحويلة ، أمامك مشكلة ، طريق ضيق ، جسر يصلح ، أعطاك معلومات كثيرة ، لَمَ قبلت استشارته ؟ لو قال له أحدُهم : أنت كذاب ، هذا يضل .

إن الإنسان اختار الدنيا ، اختار شهوته ، اختار مصلحته ، اختار مالاً من طريق غير مشروع ، اختار التمتع بالنساء بطريق غير مشروع ، فهذا اختياره ، إذاً : هو حُجِب عن الدين ، حجب عن كل ميزات الدين ، حجب عن السلامة والسعادة ، حجب عن الحكمة ، عن الطمأنينة ، عن الشعور بالأمن ، عن الراحة ، كل ثمار الدين بطاعة الله عز وجل ، فلما رفض طاعة الله خسر كل هذه الثمار هذا اسمه

إضلال حكمي ، له في لقاءات قادمة بحث طويل جداً ، فحيثما عُزي الإضلال إلى الله فهو إضلال جزائي المبني على ضلال اختياري .

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

حينما يُشم من الآية أن الإضلال عُزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال الاختياري ، على كلٍ :

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء)

الضلالة ، هذا اختيار .

(وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {93})

(سورة النحل)

أنتم أصحاب المشيئة .

آخر قسم في الآية يلقي الضوء على من يشاء ، لذلك القرآن مثاني ، تنثني الآية ، تفسر أختها ،

(وَلَتُسْأَلُنَّ)

لو كان المشيئة لله ، الآية ما لها معنى ، دقيقة جداً .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له : إياك إيّاك أن تبتل بالماء

***

الآية الثالثة :

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم)

(سورة المائدة الآية : 48)

أنتم مخيرون ، وكما قلت قبل قليل : الإنسان مخير فيما كلف ، والحقيقة أن الواقع كذلك ، جنابك تذهب لتصلي باختيارك ، وبإمكانك ألا تصلي ـ لا سمح الله ـ أحياناً يؤدي الإنسان شهادة صادقة ، وبإمكانه أن يكذب .

مرة جاء شاهد زور إلى المحكمة ، فاتفق مع الذي كلّفه بخمسة آلاف ليرة ، فلما وجد المصحف قال له: أريد عشرة آلاف ، هذا مصحف .

(وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآآتَاكُم)

(فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ)

(سورة المائدة الآية : 48)

أنتم مخيرون .

الآية الرابعة :

(وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

(سورة الشورى)

ما الذي أدخله في رحمته ؟ الذي لم يظلم ، واضحة الآية ، معنى ذلك :

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يجبر الله عباده على المعصية .

(قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {28})

(سورة الأعراف)

لأن الله عز وجل لا يجبر عباده على المعصية ، هذا مستحيل وألف ألف مستحيل ، بيده الخير ، بيده السعادة ، والأمن ، والسلامة .

(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ)

(سورة النحل الآية : 90)

معقول الله ينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويجبر عبده على فعل الفحشاء والمنكر ؟! مستحيل ، كما قلت قبل قليل ، عقيدة الجبر عقيدة فاسدة شلت الدين الإسلامي ، وشاعت هذه الفكرة بين أوساط العوام ، هذا الفهم للدين المشوه أبعدهم عن العمل .

عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ ، وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

الأستاذ علاء :

هذه تنفي وتدحض فكرة الجبرية ، وعقلية الجبرية .

الدكتور راتب :

عقيدةُ الجبرية باطلة نقلا وعقلا ومنطقا وواقعًا :

ما من إنسان على الأرض يستحق النصر كرسول الله ، ومع ذلك أخذ بالأسباب استأجر دليل ، رجح فيه الخبرة على الولاء ، هيأ من يأتيه بالأخبار ، هيأ من يمحو الآثار ، هيأ من يأتيه بالطعام ، ما من ثغرة ما سدها ، هذا هو الإسلام ، نحن حينما ألغي العمل أصبحنا في مؤخرة الأمم .

الأستاذ علاء :

سيدي ، إلغاء العمل ، أو هذا الفكر دخل إلينا من أعدائنا ؟ هل كان هذا الفكر بمخطط ليسري بيننا حتى نقعد عن العمل ؟ وحتى تستولي ، وتهيمن علينا القوى في الدنيا ؟ .

الدكتور راتب :

الوضع الاستسلامي والتقاعس غير مقبول :

مستحيل ، سيدنا عمر رأى رجل من الأعراب جمله مصاب بالجرب ، قال له : << يا أخا العرب ، ماذا تفعل بهذا الجمل ؟ قال : أدعو الله أن يشفيه ، قال له : هلا جعلت مع الدعاء قطرانا ؟ >> .

إنسان توقفت مركبته ، فيدعو قائلاً : يا رب أصلحها ، هذا كلام فارغٌ ! افتح الغطاء ، قد يكون خطأ ، ثم قل : يا رب ، ألهمني معرفة مكان الخطأ ، وأحيانا يلهم اللهُ الإنسانَ موضع الخطأ .

فالوضع السلبي الاستسلامي للكوارث هذا صفة غير لائقة بالإنسان .

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ))

[رواه أبو داود عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

يستسلم للمصيبة ، ما عمل شيء ، ماذا نفعل ، انتهينا ، هذا قدرنا ، هكذا الله يريد هذا كله كلام غلط .

((وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ))

[رواه أبي داود، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

تحرك ، اسعَ ، اتفق مع أخوك ، حاول ، قدم استدعى ، اعترض ، حاول تنقذ نفسك ، الآن :

((فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

[رواه أبي داود، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

لا يجوز أن تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، إلا بعد استنفاذ الجهد ، غير معقول لطالب لا يدرس ويقول : هكذا الله يريد ، هو كتب لي ألا أنجح .

الأستاذ علاء :

لذلك مثلما تفضلت سيدي ، من بداية نزول الدعوة ، ونزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام إلى انتقاله للرفيق الأعلى ، ثم إلى الصدر الأول من الإسلام ، إلى الخلافتين ، لن نشاهد هذا الفكر ، أو هذا المنهج له وجود ، وإنما كان العمل .

الدكتور راتب :

لابد من الحركة والعمل :

العالم الغربي يعمل ليلاً نهاراً في الظلام ، والمسلمون نائمون في ضوء الشمس ، وهناك إحصاءات

مخيفة ، الإنسان في دولة متخلفة يعمل في النهار ثلاثين دقيقة فقط ، 27 دقيقة بالضبط ، وهذه إحصاءات رسمية ، يقسمون الدخل القومي على أفراد المجتمع فيصبح ثلاثين دقيقة ، وفي بعض البلاد يعمل الإنسانُ ثماني ساعات ، أمة تعمل لا يمكن أن تسوى عند الله بأمة لا تعمل ، فنحن العمل جزء من حياتنا .

سيدنا رسول الله أمسك بيد عبد الله بن مسعود ، وكانت خشنة قال :

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

خشنة من العمل .

ورأى شابًا يعبد الله في وقت العمل ، فقال له : مَن يطعمك ؟ قال له : أخي ، قال له : أخوك أعبد منك.

هذا الدين دين عمل ، دين تفوق ، دين تجد فيه الصناعي الكبير ، والمزارع عنده مزارع ضخمة ، يقدم للأمة حاجاتها ، نستغني عن الاستيراد ، نريد مواطنين قمما في الصناعة ، في التجارة ، في الزراعة ، هيئوا فرص عمل للناس .

أنا بصراحة لي مقولة لعلها لا ترضي : نحن الآن في وقت إن لم تكن متفوقاً في دنياك لا يحترم دينك، يجب أن تكون الطبيب الأول ، المهندس الأول ، المدرس الأول ، بالضبط والدقة والتفوق ، وأنت تصلي الآن تحترم صلاتك ، هذا من دون دليل ، لكن أنا هذا شعوري ، نحن في عصر إن لم تكن متفوقاً في اختصاصك ، تقدم للأمة شيئًا ثمين جداً ، تحل مشكلات أمة ، حاملا همّ المؤمنين ، حاملا همّ الناس ، وحياتُك مبنية على العطاء لا على الأخذ ، أنت بقلوب المئات من إحسانك ، إن فعلت هذا الآن فإنه يحترم إلى أعلى درجة تدينك وعبادتك .

الأستاذ علاء :

هذا يسوقني إلى المثال الذي نعرفه في التاريخ إندونيسيا ، وماليزيا وجنوب شرق آسيا التي فيها أكثر العالم الإسلامي هنالك ، لم يدخلها فاتح فارس ، أو جيش ، وإنما بعمل وأخلاق التجار الذين دخلوا .

الدكتور راتب :

الدعوة الصامتة :

نحن الآن بحاجة إلى ما يسمى بالدعوة الصامتة ، اسكت ، وليكن عملك دعوة ، وإتقان عملك دعوة ، الصدق دعوة ، الأمانة دعوة ، العفة دعوة ، حب الخير دعوة لله عز وجل ، الآن نحن لا نريد دعاة فصحاء ، نريد دعاة عاملين ، مطبقين لمنهج الله عز وجل كيف أن الكون قرآن صامت ، وكيف أن قرآن كون ناطق ، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، نحن نريد مسلما يمشي ، مسلما

ملء السمع والبصر ، المسلم شخصية فذة ، مرتبة علمية ، مرتبة أخلاقية ، مرتبة جمالية ، لما يكون المسلم متفوق باختصاصه منضبط بأخلاقه ، نير بأفكاره ، عنده قيم واضحة جداً ، يفترق عن غير المؤمن بشيء صارخ ، لا بالصلاة فقط يفترق ، إذا حدث فهو صادق ، إذا عومل فهو أمين ، إذا ائتمن فهو عفيف ، هذا المسلم يمكن أن يكون منار دعوة ، وهو صامت .

آيات الهداية :

هناك نقطة دقيقة ، حينما تحدثنا على من يعود فعل يشاء ، الآن عندنا آيات قطعية الدلالة ، يقول الله عز وجل :

(ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 88)

واضح مثل الشمس .

(ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

(سورة الأنعام)

آية ثانية فيها ملمح لطيف :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء)

(سورة البقرة الآية : 105)

تتمة الآية تنبئ أن(يشاء)تعود على العبد .

(وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

(سورة البقرة)

لكل الخلق ، هذه الرحمة لكل الخلق ،

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

الإنسان لا حجة له .

أنا أتمنى مرة ثانية على الإخوة المشاهدين أن ينتبهوا ، أنت مخير ، وأعمالك من كسبك ، وأنت محاسب عنها ، ولكنك ترتاح لما تعزو كل شيء للقضاء والقدر ، هذه واللهِ بضائع الحمقى ، بضائع الكسالى ، لأنه يقول : أنا هكذا قدّر الله علي ، تحرك .

مرة ذكرت قصة ، أن إنسانًا أرسل ابنه إلى الأزهر ، ورجع خطيب مسجد ، فأول خطبة يخطبها أمام أبيه بالقرية بكى الأب ، بكى بكاء شديدا ، توهم الناس أنه بكى فرحًا بابنه الخطيب العالم ، والحقيقة عكس ذلك ، بكى تأسفاً على نفسه ، كيف أمضى هذا العمر بالجهل ، عمره 55 سنة ، القصة من الممكن أن تصدق ، لأن الراوي صادق ، أما هي فصعب تصديقها ، ركب دابته من صعيد مصر إلى

القاهرة شهرا حتى وصل ، سأل : أين الأزعر ؟ لم يعرف اسمه ، دُل على الأزهر ، وتعلم القراءة والكتابة ، وقرأ القرآن ، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر في الـ96 .

الله تعالى لا يتعامل بالتمنيات :

إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام ، إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان ، واللهُ عز وجل لا يتعامل مع التمنيات .

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ)

(سورة النساء الآية : 123)

الله يتعامل مع الصدق .

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ)

(سورة الأحزاب الآية : 23)

فالإنسان إذا صدق ، أنا أرى أن علاقة العبد بربه مبنية أن العبد إذا شاء الخير الله يشاء له الخير .

الأستاذ علاء :

لذلك قال أهل العقيدة : إن مشيئة الله مقترنة بمشيئة عبده .

الدكتور راتب :

هذا الكلام رائع ، لكن له آية :

(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الإنسان الآية : 30)

ما تشاءون إلا أن يشاء الله تنفيذاً لمشيئته .

الأستاذ علاء :

إذاً مشيئة الله لا تقف أمامنا .

الدكتور راتب :

مشيئة الله لا تقف عائقا أمام مشيئة العبد :

أبداً ، بالعكس ، الأب هدفه الأول أن يكون أولاده علماء كبار ، يمنعهم من المدرسة ؟ مستحيل .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم الآن قلت ، ومررنا على ،

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين)

ومررنا على

(يَهْدِي مَن يَشَاء)

ومررت على ملمح أن الذين قالوا : إن الإسلام انتقل بالسيف ، انتقل بالقوة ، انتقل بالعنف ، انتقل بالقسوة ، بالقسر ، وكل فترة وفترة يخرج لنا من هنا وهناك إلى مقالات إلى محاضرات ـ ما ضر السحاب نبح الكلاب ـ لكن هنالك واقع نعيشه ، وهنالك منهج سار عليه أتباع هذا الدين ، وهذا المنهج فعلاً ،

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

والذين دخلوا في الإسلام دخلوا طواعية ، وحباً كما تفضلت من العمل الصالح دخلوا في الإسلام ، ومن العدل دخلوا في الإسلام ، ومن حالات تناسب الفطرة دخلوا في الإسلام ، أن البلاد التي فتها وجاءها المسلمون بقي بها الديانات الأخرى ، ولم يكرهوا على الدخول ، وإنما كانوا إتماماً للوحة الجميلة .

الدكتور راتب :

الإسلام دين وسطي يقبل بالطرف الآخر :

الحقيقة أن الإسلام دين العصر ، دين الوسطية ، دين قبول الآخر ، دين التسامح دين السلامة ، دين السعادة ، هذا الشيء بديهي عند المسلمين ، لكن نتمنى الطرف الآخر أن ينتبهوا لهذه الحقائق .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، الآن يبدو لي أنّ وقت الفقرة العلمية حان الآن ، كنا نود أن نتبين في هذه الحلقة مسألة هامة هي التخيير بين المغفرة ، والعقاب لكن في الحلقة القادمة إن شاء الله سنوسع لها وقتاً كافياً ، ماذا اخترت لنا ؟ .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الرحمة والحنان عند الطيور :

الفلم أيضاً الرحمة والحنان عند الطيور ، يعد الوالدان في الطيور الأكثر تضحية في عالم الأحياء ، الطائران الأب والأم يعملان دون توقف لأجل الصغير الخارج من البيضة ، بعض أنواع الطيور تحضر الطعام لصغارها باستمرار طوال 24 ساعة ، عمل الصغار الوحيد هو فتح أفواهها انتظاراً للطعام الذي سيحضره الأب والأم ، فالصغار بحاجة إلى رحمة الوالدين ، وإيثارها ليبقوا على قيد

الحياة ، وإن ترك الفراخ تعيش وحدها يعد موتًا محققًا لها ، هذه الطيور الغواصة تضحي بنفسها لأجل صغارها ، فالعش الذي بنته خلف الشلال الصغير كما يرى على الشاشة أمين وبعيد عن الأعين ، يجمع الوالدان الطعام لصغارها من دون كلل ، وفي كل عشر دقائق يأتي الطعام إلى العش ، هذه الكائنات ليست بشراً ، بل هي طيور ، والمنتظر من كل حيوان الاهتمام بنفسه ، وإشباع بطنه وحسب ، ولكن الأمر هنا بالعكس تماماً ، فالأمهات تهتم بصغارها قبل نفيها ، بل تضحي بنفسها من أجلهم .

تقوم كائنات كثيرة بتضحيات أكبر وأجلّ لصغارها ، فأتان الوحشي تخاطر بحياتها لحماية صغارها ، هذه الأتان الوحشي تضع نفسها كالجدار الواقي بين المفترس وصغارها عند أي هجوم ، تتظاهر أنها بطيئة ، من أجل صغارها على الرغم أنها أسرع من هذه الصغار ، وهذا عند وصول الحيوانات المفترسة ستنجو الصغار ، وقد تموت الأم ، هذه مغامرة خطيرة ، وأحياناً تخسر الكائنات حياتها من أجل أولادها .

هنا في سواحل أوربا الشمالية أيضاً طبعاً الأتان الوحشي تخاطر بحياتها من أجل صغارها ، وأمهات كثيرات يحتجن إلى مثل هذا الدرس ، هنا سواحل أوربا الشمالية ، طيور البحر المسماة الكلموس تبني أعشاشها في الصخور العالية ، على طول هذه السواحل ، عند مجيء شهر آب تقوم صغار الطيور بأول تجربة طيران لها ، وتحاول الطيران باتجاه البحر وهذه تجربة شاقة بالنسبة لها ، فالبحر بعيد عن الصخور ما يقارب كم واحد ، والعش عالٍ جداً .

وأخيراً يُلقي أول الصغار من العش إلى الجو باتجاه الأسفل ، يحلق نحو البحر بإشراف الطيور الكبيرة، وبهذا تتم أول تجربة للطيران بنجاح ، ثم تليه بقية الصغار ، ومع إن هذا الطيران خطير جداً في البحر ، ولكن لا بد لها من التدرب على طيران فيه لتأمين حياة الصغار ، فالثعالب المتربصة بها موجودة في الساحل .

في إحدى تجارب التدريب على الطيران لم يصل هذا الصغير إلى البحر ، واضطر إلى النزول الإجباري بالساحل ، لكن أمه لم تتركه وحده كما ترون ، فهي تحاول الأم بكل قوتها توجه الصغير بسرعة نحو البحر ، لأن الثعالب قد رأتها ، تدفع الأم الصغير إلى البحر باستمرار ، ومن جهة أخرى ترفرف بجناحيها لتشد انتباه الثعالب إليها ، من أجل أن تصرفهم عن صغيرها ، توشك الثعالب أن تصل إلى الصغير ، تقوم الأم بتضحية مثالية نادرة لا شبيه لها لتكسب الصغير المزيد من الوقت وتنقذه، فتلقي بنفسها أمام الثعالب ، لتفتدي صغيرها بحياتها ، علّها تستطيع إنقاذه ، الصغير الذي لا علم له بما جرى من الحوادث خلفه ينجح بالوصول إلى البحر ، الطائر الصغير ينادي أمه ، فبقاءه في الحياة وحده مستحيل ، وتجيب لندائه الطيور الأخرى ، وتقبله بين صغارها ، هناك تفسير واحد فقط

لقيام هذا الحيوان بتصرف عاطفي ، وإثاره بهذا الشكل ، بل وتضحية بحياته لأجل صغاره ، الله تعالى خلق هذا الكائن ، وألهمه التضحية ، التي قام بها لحماية صغاره دروس نتعلمها من هذه الكائنات .
الأستاذ علاء :

الكونُ مجموعة من دروسٍ :

والكون عبارة عن مجموعة دروس ، لا نجد فيه فطوراً وشقوقًا .

(فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ {3} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ {4})

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (48-95) - مقومات التكليف : الاختيار - حسن الاختيار سبب النتائج الحسنة ـ اللقالق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد تحدثنا في حلقات سابقة عن مقومات التكيف التي تتلخص في الكون والعقل والفطرة والشهوة ، ووقفنا عند الاختيار ، وقلنا : إن الاختيار مفصل هامٌّ ، و فردنا له عدة حلقات ، وقيل : إن الاختيار جاء في صلبه بالتكريم ، وعند تعطي شخصاً حرية الاختيار إنما تعطيه المكانة والقدرة على أن يفعل أو لا يفعل ، دون أن تدخّل ، أو مشيئة ، والاختيار يجعل من العمل شيئاً ثميناً نلقى الله به ز

الآن وكنت قد طرحت أمثلة عديدة ، لو أن الله عز وجل فرض علينا أن نفعل الخير .

الدكتور راتب :

ماذا لو أجبرَنا الله على فعلِ الثواب :

لو أجبرنا على الطاعة لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والجنة والنار والتكليف وحمل الأمانة ، ولألغي كل شيء .

الأستاذ علاء :

لذلك الله عز وجل أعطانا الاختيار فيما كلفنا به حتى لا يكون الاختيار مطلقا في أشياء محجوب عنها الاختيار .الدكتور راتب :

لم يختر

أحدنا أمه وأباه .

الأستاذ علاء :

جنسه مكان ولادته ، لون بشرته ، طوله .

الدكتور راتب :

لكن العلماء يؤكدون أن هذا الذي ليس لنا فيه خيار هو محض خير لنا ، ولو كشف الغطاء لما اخترنا غيره ، وهذا معنى قول بعض العلماء : " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني " .

الأستاذ علاء :

حسنُ الاختيار سببُ النتائجِ الحسنةِ :

نأتي إلى مسألة هامة ، وإلى محطة في قضية الاختيار ، الاختيار يقتضي أن نختار الشيء ، أن نختار الطريق ، أن نختار العمل ، وبالتالي هذا الاختيار معوَّل عليه نتائج ، وهذه النتائج إما أن تكون هناك مثوبة ، وإما أن يكون هناك عقاب ، فإذا أحسن الإنسان الاختيار فهناك نتائج إيجابية .

الدكتور راتب :

القضية مصيرية متعلقة بالأبد ، بسعادة الأبد أو بشقاء الأبد ، قال تعالى :

إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(سورة الزمر : 15)

الأستاذ علاء :

الآن هذا الاختيار معول عليه حياته الأبدية ، نأتي إلى مفهوم واضح ، هو مفهوم المغفرة والعذاب ، الثواب والعقاب ، قال تعالى :

وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(سورة المائدة)

الدكتور راتب :

مفهوم المغفرة والعذاب ، والثواب والعقاب :

على هذه وتلك نبتدئ من هنا إن شاء الله .

1 - الإنسان مكرَّم :

لكن بادئ ذي بدء ، أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، ينبغي أن نوضح بعضَ المسلَّمات :

أن الإنسان مخيّر ليثمن عمله ، ولكرامته عند الله ، وأن الله سبحانه وتعالى كما أنه من صفاته أنه مريد منح هذه الصفة للإنسان ، وقد يفهم بعضهم أن الله سبحانه وتعالى منح بعض صفاته للإنسان من قول النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ))

[مسلم]

2 - ربٌّ الناس رحيمٌ بهم :

لكن الموضوع اليوم دقيق جداً ، ووجهُ الدقة فيه أن الإنسان مخير ، لكن الله رب مُرّبٍّ محب رحيم ، لو أن الإنسان مخير ، وكفر ، واختار طريق الشقاء ، وتركه الله عز وجل حتى ينتهي مصيره إلى الشقاء فليس رباً ، كالأب تماماً ، ولله المثل الأعلى ، لو أن الابن أخفى عن أبيه أخطاءه وانحرافاته ، الأب يتابع ويعالج ، أما لو أنه موظف عندك ، ولا علاقة لك به إطلاقاً ، يهمك فقط مدى إنجاز عمله ، أما حينما تكون أبا لهذا الموظف ، تريد أن تحصي عليه أخطاءه ، لا من أجل الإحصاء ، بل من أجل التقويم ، لأن الله رب العالمين ، لأن الله هو الرحمن الرحيم ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، وهو أرحم الخلق بالخلق ، فحينما وصل إلى الطائف لينقل أهلها من الظلمات إلى النور من الشقاء على السعادة بالغوا في الإساءة إليه ، بالغوا في السخرية منه ، بالغوا في تكذيبه ، أغروا صبيانهم بإيذائه ، فلما جاءه جبريل ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[البخاري]

ما تخلى عنهم ، واعتذر عنهم ، فإنهم لا يعلمون ، ودعا لهم بالهدى ، ورجا الله أن يخرج من أصلابهم من يوحّده ، لذلك أرحم الخلق بالخلق على الإطلاق سيد الخلق ، ومع ذلك يقول الله له :

فَبِمَا رَحْمَةٍ

(سورة آل عمران : 159)

تنكير تصغير :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

(سورة آل عمران : 159)

ويقول عن ذاته العليا :

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

(سورة الكهف : 58)

الرحمة كلها مِن عند مَن ؟ لذلك ربنا أرحم الراحمين ، قال تعالى :

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

(سورة الأعراف)

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

(سورة طه)

هذا الذي قال : أنا ربكم الأعلى ، هذا الذي قال : ما علمت لكم من إله غيري ، هذا الذي قتل أبناء بني إسرائيل ، واستحيا نساءهم ، هذا الذي تجبر وتكبر ، ونسي المبتدى والمتنهى ، قال : أنا ربكما الأعلى، قال الله لسيدنا موسى ولنبيه من أولي العزم :

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43)فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى

(سورة طه)

يقول بعضهم : يا رب ، إذا كانت رحمتك لمن قال : أنا ربكم الأعلى ، فكيف رحمتك بمن قال : سبحان ربي الأعلى ، إذا كانت رحمتك بمن قال : ما علمت لكم بإله غيري فكيف رحمتك بمن قال : لا إله إلا الله ، لذلك الرحمة كلها عند الله .

تروي بعض الأخبار ، وليست هذه القصة واقعية ، لكنها رمزية ، أن نبياً مر بأمٍّ تخبز على التنور ، وكلما وضعت الرغيف بالتنور مسكت ابنها ، وقبلته ، وشمته ، فعجب هذا النبي الكريم من هذه الرحمة، قال : يا موسى ، هذه رحمتي أودعتها بقلب أمه ، وسأنزعها ، فلما نزعها وبكى ألقته في التنور ، لذلك :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

(سورة آل عمران : 159)

الله عز وجل رحيم ، لو أن هذا الإنسان اتخذ قراراً خاطئاً ، اختار الدنيا ، اختار الشهوة ، اختار أن يبني مجده على أنقاض الآخرين ، اختار أن يبني عزه على إذلالهم ، اختار اختياراً خاطئاً ، اختار اختياراً يقوده إلى جهنم ، يقوده إلى شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، يقوده إلى الضياع ، يقوده إلى الانتحار، يقوده إلى الإحباط ، يقوده إلى الذل ، الله موجود ، وهو رحيم ، وفي بعض الآثار : " لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي على ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين " .

" إني والإنس والجن في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلى بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليّ ، مَن أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل

ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشر أمثالها ، وأزيد ، والسيئة بمثلها ، وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها .

الآن الله عز وجل أعطى الإنسان الاختيار ، لكن لو أنه أساء في الاختيار ، اختار طريقاً يفضي الشقاء، إلى الإحباط ، إلى اليأس ، إلى شقاء الدنيا ، وعذاب الآخرة ، الله رب العالمين قال :

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ

(سورة الأنعام)

وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

(سورة الأنعام)

3 ـ المعالجةُ الربّانية ضرورية لتوبة العبد :

تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، لذلك كل ما نرى من شرور هي على الشبكية شرور ، لكن هي محض رحمة ، لأن هذه هي النعم الباطنة ، قال تعالى :

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

(سورة لقمان)

النعم الباطنة المعالجات ، وفي حلقة سابقة كما تفضلت وسألتني : ما معنى تاب الله عليهم ليتوبوا ؟ ساق إليهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة ، فلذلك الفضل الكبير لله ، حينما يساق للإنسان بعض الشدائد ، وفي الأثر أن الله أوحى إلى الدنيا : " أن تكدري ، وتمرري ، وتضيقي على أوليائي حتى يحبوا لقائي " .

والله أستاذ علاء ، أحياناً الشدائد تسوق الإنسان إلى باب الله ، والرخاء والترف حجاب بين العبد وربه، هذا معنى قوله تعالى :

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى

(سورة العلق)

4 ـ حسنُ الاختيار سبب السعادة :

الآن الإنسان مخير ، ولأنه مكرم عند الله هو مخير ، ولأن الاختيار يثمن عمله ، هو مخير ، فإذا أصاب في اختياره شرح الله صدره ، وشعر هذا الإنسان بسعادة لا توصف ، قال تعالى :

حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ

(سورة الحجرات : 7)

فلو أن الإنسان اختار الصواب لشعر بانشراح وتوفيق ، وسعادة ونمو نفسي وإقبال ، حتى يقول : ليس في الأرض من هو أسعد مني ، بأي ظرف ، بأي وضع ، بأي معطيات ، بأي بيئة ، هو سعيد في الفقر وفي الغنى ، وفي القوة والضعف ، وفي إقبال الدنيا وإدبارها ، وقبل الزواج وبعد الزواج ، وقبل المرض وبعد المرض ، هو اتصل بالأصل بالمطلق ، اتصل بالرحيم ، فلذلك يقولون : " إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة إنها جنة القرب " .

" ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ " .

والله وإن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا

هم الحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل وإن عدلوا

***

فليتــك تحلو والحياة مريرة ولـيت ترضى والأنـام غضـابُ

وليت الذي بيني وبينك عـامـر وبيني وبيـن العالمـين خرابُ

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكـل الذي فوق التراب ترابُ

***

يا رب ، ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينال منك ، وإذا كان عليك فمن معك ؟ يتطاول عليك ابنك .

5 ـ حسنُ الاختيار سبب لتولي الله للعبد ونصرتِه :

لذلك إن سألتني ألخص مشكلة المسلمين في العالم اليوم المليار والخمسمئة مليون هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، قال تعالى :

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً

(سورة النساء)

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(سورة غافر : 51)

وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

(سورة الصافات)

وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

(سورة الروم)

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(سورة النور : 55)

وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي

(سورة النور : 55)

الكرة في ملعبنا .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، نقلتنا على مسألة أن النصر ، وأن التأييد ، وأن الحفظ والعناية من عند الله تقتضي المقدمة من الإنسان والإيمان ، كل من أتى على ذكرهم الله عز وجل يجمع بينهم الإيمان .

الدكتور راتب :

الكرة في ملعبنا :

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ

(سورة البقرة : 249)

لو استعرضنا من الحياة الأحداث القريبة نرى أن منا الله عز وجل أرسل إلينا رسالة في الشهرين السابقين ، أنني موجود ، وأن الأمر بيدي ، وموازين القوى بيدي ، وسأريكم كيف أن جيشاً هو الأول في الشرق الأوسط ، قوة وعدة ، وعتاداً وإعداداً ، وطيرانًا ومدرعات ، كيف أذله الله على يد ثلاثة آلاف إنسان فقط ، الموازين بيد الله ، وإذا أراد الله ينتصر إنسان لم يكن النصر بين يديه ، فالكرة في ملعبنا ، وإن تعودوا نعد ، قال تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

(سورة الرعد : 11)

وزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعوده للمؤمنين ، إلا أن هذه الآية :

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(سورة الشورى : 49)

الكونُ كلُّه ملكٌ لله تعالى :

هذه اللام لام الملكية ، السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون ، والكون ما سوى الله ، (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، لكن ملكية الله للخلق أو للكون ملكية مطلقة .

أنا أحياناً أملك بيتاً ، ولا أنتفع به ، فهي ملكية ناقصة ، كأن يكون مؤجَّرًا على النظام القديم ، وأحياناً أنتفع ببيت ولا أملكه ، وأحياناً أملكه وأنتفع به ، لكن عرضه لقانون تملك أو استملاك مصيره ليس إليك، العلماء قالوا : ملكية الله لخلقه ملكية حقيقية ، ملكية مطلقة ، ملكاً وتصرفاً ومصيراً ، ملكاً حقيقياً، وتصرفاً مستمراً ، ومصيراً أبدياً ، قال تعالى :

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(سورة الشورى : 49)

الإنسان عبد مملوك لله تعالى :

فنحن من ضمن ما يملك الله عز وجل ، بالمعنى الأوسع حياتك بيده ، رزقك بيده ، صحتك بيده ، زوجتك بيده ، يقول بعض العارفين ، وهو الإمام الشعراني : " أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي " ، وأنا أقيس على هذا أن المرأة يجب أن تعرف مقامها عند ربها من أخلاق زوجها ، لأنه ما تواد اثنان في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(سورة الشورى : 49)

ملكية مطلقة ، هذا الشريان التاجي قد يضيق ، فتبدأ متاعب التي لا حصر لها ، يشعر بذبحة صدرية يحتاج إلى قسطرة ، يحتاج إلى تبديل شرايين ، يحتاج إلى قلب مفتوح ، يحتاج إلى نصف مليون ليرة ، الشريان التاجي بيد الله ، سيولة الدم بيد الله ، إذا تجمد الدم في بعض أوعية الدماغ الفرعية يصاب في مكانٍ بشلل ، وفي مكان عمى ، وفي مكان بفقدِ ذاكرة ...

الآن الأولاد بيد الله ، قد يأتي مرض لولد يكلفك كل ما تملك .

مرة أخ من إخواني قال لي : إذا أنجب الإنسان طفلاً سليماً فهذا الطفل معه مليون ليرة ، ما فهمت عليه، قلت له : كيف ؟ اشرح لي ، قال لي : ابنتي جاءها طفل صغير ، كان الوريد محل الشريان ، وفي القطر السوري ما مِن خبير بهذه العملية ، وفي لبنان طبيب يكلف أربعمئة ألف ، والمستشفى ثلاث مئة ألف ، والسيارة خمسين ألفًا من المستشفى إلى البيت ، قال لي : دفعت خلال ساعتين سبعمئة وخمسين ألفا ، فأن يأتي الطفل سليمًا من نعم الله الكبرى ، هذا بملك الله ، قال تعالى :

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(سورة الشورى : 49)

بين الأمراض العضوية والأمراض النفسية :

الآن هناك أمراض جسمية وأمراض نفسية ، الفرق بينهما كبير ، الأمراض الجسمية مهما كانت عضالة تنتهي عند الموت ، عظّم الله أجركم ، كان سرطان معه ، وانتهى بالموت كل شيء ، لكن الطامة الكبرى أن الأمراض النفسية تبدأ بعد الموت ، تشقي صاحبها إلى أبد الآبدين ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية : " وعزتي و جلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله ، أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه " .

إذا وصل الإنسان إلى شفير القبر ، وهو معافى من كل أمراضه النفسية فهو أكبر إنجاز على الإطلاق، أن يصل الإنسان إلى القبر طاهراً ، أما الطامة الكبرى فقد يكون صحيح الجسم ، ويموت فجأة لسبب أو لآخر ، ويدخل القبر ، فتبدأ المتاعب ، قال تعالى :

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ

(سورة غافر)

من ستة آلاف عام آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا ، إلى يوم القيامة .

الأستاذ علاء :

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً

(سورة الكهف : الآية 47)

الدكتور راتب :

العاقل مَن يعدّ نفسه لساعة الموت :

والله يا أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، ما من إنسان على وجه الأرض أزكى وأعقل ممن يعد لهذه الساعة التي لا بد منها ، لأن كل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر .

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ

فإذا حملت يوما إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

***

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا بن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(سورة الشورى : 49)

قال تعالى :

وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ

(سورة البقرة : 284)

من أمراض نفسية ، أو تخفوه ، لأنه رب رحيم ، يحاسبكم به الله ، الابن إذا كان أبوه طبيبا ، ورأى وجهه مصفراً ، لو تكلم الابن ، أو لم يتكلم يعالجه ، تقتضي رحمة الأب الطبيب العالم الرحيم أن يعالج ابنه من مرض رأى ظواهره عليه ، سواء أذكر الابن مرضه أو لم يذكره ، نحن إذا لم تشتك لا نتصرف بشيء ، نحن كبشر إذا ما شكا الإنسان لك مشكلته أنت مرتاح ، أما الله رب العالمين فلا بد من أن يتابعنا هذه الرحمة ، الرحمة هي المتابعة .

مَن هو اليتيم ؟ لي تعريف خاص لليتيم : قد يكون له أب وأم ، اليتيم من يجد أماً تخلت عنه ، أو أباً مشغولاً ، أب مشغول ، هذا بحكم اليتيم ، أما مثلاً أب يقظ يتابع ابنه ، دراسته ، صحته ، أخلاقه ، دينه، عقيدته ، أوقات فراغه ، مَن أصدقاءه ، يرعاه ، هيأ له كل الشروط ، هذا ولي عظيم لهذا الابن ، مرة قرأت آية والله بكيت :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ

(سورة محمد : 11)

لا يستويان أبدًا :

تصور ابنا له أب عظيم أب مربٍّ قدير ، يهتم به ، يسعى إلى أن يكون في أعلى مرتبة ، وابن مشرد من حانة إلى حانة ، من ملهى إلى ملهى ، من سجن إلى سجن ، من شذوذ إلى شذوذ ، هل هذا مثل هذا؟ لذلك يقول الله تعالى :

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ

(سورة السجدة)

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

(سورة القلم)

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

(سورة القصص)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

(سورة الجاثية)

وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ

(سورة سبأ)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ

(سورة الزلزلة)

وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً

(سورة الكهف)

فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

(سورة الروم)

وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً

(سورة النساء)

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ

[سورة الأنبياء]

آيات لا تعد ولا تحصى تنفي عن الله عز وجل الظلم ، لكنك لا تستطيع بعقلك أن تكتشف عدل الله إلا بحالة مستحيلة ؛ أن يكون لك علم كعلمه ، لكن الله أخبرك بكلامه اليقيني القطعي الثبوت أنني لا أظلم ، فهذا الموضوع موضوع إيماني ينبغي أن تؤمن ، فالآية دقيقة جداً .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

(سورة البقرة)

من أمراض نفسية ، كالأب الطبيب يعالج هذه الحالة .

الآن الإنسان مخير ، عنده مرض نفسي ، في طريق سليم ، وأنت في صحتك ، وأنت في مكانتك ، وأنت في بحبوحتك ، وأنت معافى ، وعندك بيت ومركبة ، وأولادك ، أمامك بالإقبال على الله ، والتوبة إليه وذكره ، والاستفادة من الوقت المتبقي ، أنت عندئذ تُشفى .

الأستاذ علاء :

سنقف عند هذه الحالة ، نتابع إن شاء الله في الحلقة القادة ، لأنه بقي دقيقتان للمادة العلمية .

الموضوع العلمي : رحمة الأم عند حيوان اللقلاق :

الدكتور راتب :

المادة الآن قصيرة لأنها إتمام لموضوع طويل بدأنا به سابقاً ، الرحمة والحنان في عالم الحيوان ، وهذا درس للإنسان .

التضحيات لأجل الصغار ، تشاهد من أبرد المناطق إلى أشد المناطق حرارة في العالم ، كل هنا غابات تايلاند ، أهم مشكلة هنا لصغار اللقالق المولودة الحرارة التي لا تحتمل ، لهذا السبب تُحضر اللقالق

الكبيرة المياه إلى أعشاشها بمناقيرها ، وتصب هذا الماء على صغارها التي لم تنبت أرياشها بعد ، هذا الاستحمام البارد يخفف حرارة الصغار ولو قليلاً .

أنا أعجب كيف أن الأم أحياناً تهمل أولادها ، أو الأب يهمل أولاده ، الحيوان الأعجم يأتي بالماء البارد بمنقاره ، ويصبه على صغاره ، ثم في الشمس التي لا تحتمل يمد أجنحته كالمظلة تماماً ، هو يحترق ، والصغار ينعمون بالظل ، والماء البارد ، هذا من رحمة الله بخلقه ، وهذه رحمة أودعها الله في قلوب لكائنات جميعاً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (49-95) - مقومات التكليف : الاختيار - طرق تعامل الله مع عباده ـ الدلافين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

في الاختيار كما مر معنا ، وهو مقوم من مقومات التكليف ، ويأتي بعد الكون والعقل والفطرة والشهوة، تبين أن التكريم جاء لتثمين العمل ، وأن الاختيار هو تكريم ، وفي التكريم في معنى الاختيار، تثمين للعمل ، وأن الله عز وجل لو شاء لجعلنا نقوم بعبادته وبطاعته قصراً ، ومنع عنا الاختيار في طريق المعصية ، وجاءنا إلى جادة الصواب قصراً ، ولكن كما قلت في حلقات سابقة : لا يثمن العمل بالقصر .

الدكتور راتب :

نعم . وَلَو شَاءَ رَبُّك لهَدَى النَّاس جمِيعاً

الأستاذ علاء :

إذاً : الاختيار معنا مفتوح ، ورائع ، ومعنى يعطي للإنسان قيمته ، ولقد كرمنا بني آدم ، ويعطي حقيقة هذا التكريم في أنه حر الاختيار فيما كلفه به ، ولذلك جاء هذا الاختيار ليثمن العمل .

وقفنا سيدي الكريم في مسألة مفهوم المغفرة والعذاب ، ووقفنا عند الآية الكريمة الجامعة :

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة البقرة)

وقفنا عند هذه المعاني ، بدأنا بتلمس بعض المعاني من هذه الآية ، هل لنا أن نكمل في هذا المفهوم مفهوم المغفرة ، الثواب ، العقاب .

الدكتور راتب :

مفهوم المغفرة والثواب والعقاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ الإنسان مخيَّرٌ :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، نحن في حلقة سابقة أكدنا أن الإنسان مخير ، وهو مخير ليثمِّن عمله .

2 ـ لابد من المعالجة الربانية :

وأن الله رب العالمين تقتضي ربوبيته ، وتقتضي رحمته أن يتابع الإنسان ، فلو اختار اختياراً سيئاً يفضي به إلى الشقاء لعالجه قبل أن يموت ، فالمعالجة واضحة في هذه الآية :

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة البقرة)

ملكية الله ملكية مطلقة ، ملكاً حقيقياً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، وكل ما في السماوات والأرض ، أي الكون وهو ما سوى الله ملكٌ له ، الآن الأمراض جسمية ونفسية ، الجسمية مهما تكن عضالة تنتهي عند الموت ، ونفسية تبدأ بعد الموت ، وقد تكون سبباً لشقاء الإنسان الأبدي ، فلذلك الله عز وجل يعالجنا في الدنيا ، لذلك كل ما نرى من مصائب هي تنطلق من جوهر واحد ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم ")

3 ـ الرجوع إلى الله طوعًا :

الهدف الكبير أن يرجع الإنسان إلى ربه ، لأن سعادته وأمنه ومستقبله عند الله ، والشاردون عن الله عز وجل في نهاية المطاف لا بد من أن يرجعوا إليه ، وأنا أقول كلمة قالها هارون الرشيد ، وقد نظر إلى سحابة ، قال : " اذهبي أينما شئت ، فإنه يأتيني خراجك " ، أنا أقيس عليها أيها الشارد عن الله اذهب أينما شئت ، في النهاية لا بد من أن تعود إلى الدين ، لأنه مصيرك ، ولأن الأبد متعلق بالدين ، وما بعد الموت متعلق بالدين ، وأن الموت أكبر مصيبة عند أهل الدنيا ، لأن كل شيء ينتهي بالموت ، تنتهي القوة والضعف ، والغنى والفقر ، والوسامة والدمامة ، والمرض والصحة ، الموت يسوي بين الناس جميعاً ، وليست المشكلة في الموت ، بل في ما بعد الموت ، ما بعد الموت من عذاب أبدي ، أو سعادة أبدية ، فلذلك ربنا عز وجل رحمن رحيم ، رحمن في الدنيا والآخرة ، وتقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

أستاذ علاء ، صدق لو دخلت مسجدا ، ورأيت فيه عشرة آلاف ، أنا أؤكد ، ولا أبالغ أن تسعة آلاف منهم جاءوا إلى المسجد ، واصطلحوا مع الله عقب معالجة لطيفة من الله ، شبح مرض ، شبح مصيبة ، عدو قوي ، لذلك أحياناً المصائب تسوقنا إلى باب الله ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[البخاري]

الأولى أن تأتي طائعاً ، هذا الأكمل والأوجه ، أنا أقول كلمة : إمّا أن تأتي ركضًا أو يحضرك ركضًا .

الأستاذ علاء :

الذي لا يأتي بشراب الرمان يأتي بقضبانه .

الدكتور راتب :

هنا الآية :

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)

(سورة البقرة)

هناك أمراض نفسية ، الأمراض الجسمية تنتهي عند الموت ، لكن الأمراض النفسية تبدأ بعد الموت .

الأستاذ علاء :

تسمح لي سيدي أن نشرح للإخوة المشاهدين أنه قد يظن بأنك عندما تقول : أمراض نفسية ، أن مثلاً قد يصاب الإنسان بمرض نفسي ، مثل انفصام الشخصية .

الدكتور راتب :

معنى الأمراض النفسية :

وتنتهي عند الموت ، عيوب النفس ، النفس المستكبرة ، النفس الجاحدة ، النفس المتغطرسة ، النفس التي تبني مجدها على أنقاض الآخرين ، التي تبني أمنها على إخافتهم ، كما يفعل الطغاة في العالم الغربي ، النفس التي تبني مجدها على تهديم أمجاد الآخرين ، تبني ثقافتها على إلغاء ثقافة الآخرين ، تبني مصالحها على إلغاء مصالح الآخرين ، هذا هو العدوان ، أنا أقصد أمراض النفس ، وأمام الناس إنسان كبير وعظيم ، ولا يحتاج إلى معالجة نفسية ، لكنه من أشد الناس مرضاً .

صدق أستاذ علاء أنني أعتقد أن أغبى البشر قاطبة الطغاة ، لأنهم ما أدخلوا الله في حساباتهم ، قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

شيء مخيف :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ)

هناك من يتوهم أن الله غافل ، يقول لك : أين الله ؟ يفعلون ما يريدون ، يهدمون البيوت ، يقتلون الأبرياء ، يقتلون النساء والأطفال ، ويقولون : صدر إطلاق رصاص من هذا البيت ، قتلوا مئة طفل ، الإعلام بيدهم ، والقوة بيدهم ، والناس مقهورون ، هؤلاء أغبى خلق الله قاطبة ، لأنهم ما أدخلوا الله في حساباتهم ، قال تعالى :

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ *مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

ألم يقل فرعون :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص : 38)

ألم يقل حينما أدركه الغرق :

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ *آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس)

خيارك مع الإيمان خيارُ وقتٍ فقط :

أستاذ علاء ، هناك فكرة دقيقة جداً ، أنت خيارك مع مليون قضية خيار قبول أو رفض ، بيت ما أعجبك فرفضت شراءه ، وظيفة دخلها قليل ودوامها كثير ، سفرة الهدف غير نبيل تركتها ، إلا خيارك مع الإيمان خيار وقت ، فإما أن تؤمن في الوقت المناسب فتنتفع بإيمانك ، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان كما آمن فرعون .

الأستاذ علاء :

لذلك قال له :

(أَالْآَنَ)

وهذه الكلمة تتعلق بالوقت .

الدكتور راتب :

وهو خيار وقت ، لذلك أنا أقول : الحقائق التي جاء بها الأنبياء الستة آلاف مليون على سطح الأرض

يكشفونها عند الموت ، قال تعالى :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق : 22)

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

لذلك القضية خيار الإيمان خيار وقت فقط .

كل إنسان يكشف الحقيقة عند الموت :

مرة ثانية ، الستة آلاف مليون إنسان على سطح الأرض عند الموت سوف يكتشفون الحقيقة العظمى التي جاء بها الأنبياء .

هناك حالات نادرة جداً لإنسان غاب عن الوعي ، أو مات سبع دقائق ، ثم نبض قلبه ، فكتب ماذا رأى، وكتب شيء لا يصدق .

وهناك إنسان في العالم الغربي ، وهو عالم شرد عن الله أيقن أن هناك جنة ونارًا ، وحسابًا ، والعمل الصالح هو كل شيء ، هذا الطبيب عنده رغبة جامحة أن يتابع هذه الحوادث ، طاف القارات الخمس ، وجمع سبعين حالة ، وألف كتاب " الحياة بعد الموت " ، الشيء الذي لا يصدق أن كل هذه الحالات متشابهة ، بوذي ، وثني ، مؤمن ، كافر ، مسلم ، غير مسلم ، فاسق ، غني ، فقير ، الأقوال متشابهة ، كتاب باللغة الإنكليزية ، وله ترجمة إلى اللغة العربية ، والآن لا أدري أين مصيره ؟

لكن رجلا قبل أن يموت جمع أولاده ، وأوصاهم ، عنده مكتبة ضخمة جداً من الأرض إلى السقف ، أربعة جدران ، قبل أن يموت قال : إياكم أن تعيروا كتابا من هذه الكتب ، لأنها كلها كتب معارة ، أنا أعرته إلى إنسان ، ولا أدري مَن هو الإنسان ، وكل كتابٍ نادرٌ جداً ، الستة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض عند الموت كما قال فرعون سوف تكشف لهم الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ، والأنبياء جميعاً جاءوا بحقيقة واحدة ، والدليل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

فلذلك الإنسان عند الموت يكتشف الحقيقة الآن ، قال تعالى :

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)

(سورة البقرة : 284)

هذا هو واقع الأقوياء الطغاة :

تفضلت ، ونوهت تنويها رائعا جداً ، أنا لا أقصد الأمراض العصبية ، هذه تنتهي عند الموت ، أقصد أمراض الكِبر ، الاستعلاء ، العنصرية ، هذا أكبر مرض ، أنا يحق لي أن أمتلك سلاحا نوويا ، ولا يحق هذا للآخرين ، مَن أنت ؟ مَن قال هذه الكلمة ؟ مَن أعطاك هذا الحق ؟ أنا ممكن أن أقتل ستمئة ألف في العراق ، طبعاً يحاسب مَن قتل .

أن تكيل بمكيالين ، هذه العنصرية ، لبنان بأكمله هدم من أجل أسيرين ، ولا يحاسبه أحد ، ولا أحد يستنكر هذه المشكلة ، فلذلك مشكلة الإنسان في الدنيا إذا طغى وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، وقع في شر عمله ، وهو أغبى الأغبياء .

أستاذ علاء ، الله عز وجل حينما يرينا من آياته نعرف معرفة يقينية أن هناك حسابًا ، أنا أقول ثلاث كلمات إذا آمنا بها لا يمكن أن نعصي الله .

مرة دعي النبي الكريم إلى أن يمثل ببعض أعداءه ، وقد مثلوا بعمه حمزة ، ماذا قال ؟

((لا أمثل بهم فيمثل الله بي ، ولو كنت نبياً))

[ورد في الأثر]

فإيمان القوي بالفطرة ، أستاذ علاء ، حينما فتحت القدس من قبل الفرنجة ذبحوا في يومين سبعين ألفا، ولكن لمّا فتحت من قبل القائد المؤمن صلاح الدين لم يرق قطرة دم واحدة ، هذا هو الإيمان ، لذلك ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب المسلمين ، هنا أستاذ علاء :

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)

(سورة البقرة : 284)

أنت سواء أعلنت عن الكبر والحسد ، والغطرسة والعنجهية ، والكيل بمكيالين والعنصرية ، والطغيان، وأن هؤلاء ضعاف ، وأن معي الإعلام ، ومعي القوة والدولارات ، ومعي القوى والأسلحة الفتاكة ، وأقول ما أشاء ، وأنا أعطي أوامر للدول الأخرى .

مرة قال وزير الخارجية : نحن سياستنا الخارجية كالداخلية تماماً ، دول السياسة الداخلية أوامر للوزراء ، أما الخارجية فمحاورة واتفاقيات ، أما الطغاة فيعطون أوامر للدول الأخرى وإملاءات فقط .

الأستاذ علاء :

ويتحول مجلس الكونجرس والنواب إلى أمم متحدة فهو إلى مجلس أمن يحكم الكرة الأرضية .

الدكتور راتب :

هناك قول قديم ، أنه : أسلمْ تسلمْ ، فالآن أمرك تسلم :

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(سورة البقرة : 284)

الآن أنت أمام خيارين ، خيار سلمي وخيار علاجي ، العلاج مؤلم ، والعملية الجراحية مؤلمة ، وعدم التخدير مؤلم ، وبعد انتهائه ألم ، فإذا اختار الإنسان الطريق الأول يتوب إلى الله ، يصطلح معه ، يقبل عليه ، يطبق أمره ، يقيم الإسلام في بيته ، في عمله ، في بيته ، وأولاده ، يتقي ربه ، يؤدي الصلوات الخمس ، يذكر الله ، يتلو القرآن ، يقدم من ماله للفقراء والمساكين ، يبني مجده على العطاء لا على الأخذ ، اصطلح مع الله ، الآن يعالجه معالجة نفسية ، وتزال من نفسه كل هذه الأمراض والأدران ، فيغدو كبره تواضعاً ، وبخله كرماً ، وغضبه حلماً ، هذا معنى قوله تعالى :

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)

(سورة الفرقان : 70)

أنا أقول للإخوة المشاهدين ، إياكم أن تفهموا هذه الآية كما يفهمها بعضهم ، أَكْثِر من السيئات ، لأنها سوف تبدل حسنات ، هذا معنى مرفوض كلياً ، لكن المعنى أن الغضب صار حلما ، والقسوة أصبحت رحمة ، والبخل أصبح كرما ، والجحود أصبح إنصافا .

طريق المعالجة الإلهية :

حينما يصطلح الإنسان مع الله تتبدل أخلاقه ، والحقيقة الفرق الكبير بين مؤمن وغير مؤمن ، ليس أن المؤمن يصلي ، الفرق جوهري ، الفرق بأخلاقه ، بمعاملته ، بحلمه ، بطهارته ، بعفته ، بورعه ، بدقته، فلذلك يغفر لمن يشاء ، إذا ركب إنسان رأسه ، وبقي على شهواته ، وبقي على أمراضه ، وتقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائد ليحمله على التوبة ، ويعذب من يشاء ، فالخيار بيده ، والله عز وجل له في سياسته مع خلقه ـ إن صح التعبير ـ أربع حالات ، والحالات متصاعدة .

1 ـ الهدى البياني :

أنت جالس تسمع ندوة ، تسمع خطبة في الجامع ، تسمع شريطا ، تقرأ كتابا ، هناك حق ، وسبب وجودك ، وغاية وجودك ، ونهي عن المعاصي ، ودفع إلى الطاعات ، هذا الهدى البياني ، وأنت صحيح معافى في جسمك وأولادك ، وفي بيتك ما عندك مشكلة ، جاءك الحق برسالة لطيفة من الله عز وجل ، أسمعك الله ندوة كهذه الندوة إن شاء الله ، نرجو أن تكون خالصة لوجه الله ، أو سمعت خطبة

من خطيب آتاه الله قلبا ولسانا ، فصيحا وعلما غزيرا ، وإيمانا عميقا ، أو قرأت كتابًا ترك أثرا كبيرا في المجتمع ، أو سمعت شريطًا ، هذا الهدى البياني ، وأكمل موقف في الهدى البياني أن تستجيب لله ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

دعوة الله إلى الحياة الحقيقية ، إلى الحياة التي تليق بالإنسان ، إلى الحياة التي تليق بهذا المخلوق الأول، إلى حياة القلب ، إلى حياة العمل الصالح ، إلى حياة الاتصال بالله ، إلى حياة الطهر ، إلى حياة العفاف ، إلى حياة العفة ، إلى حياة الإنصاف ، إلى حياة مكارم الأخلاق ، الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

الأستاذ علاء :

(إذا) هنا بمعنى عند .

الدكتور راتب :

مرة سمع شاب من شيخه أن لكل سيئة عقاباً ، فزلّت قدمه ، وبدأ ينتظر من الله العقاب ، مضى أسبوع وأسبوعان وثلاثة ، لا شيء في بيته ، وزوجته ، وأولاده ، هو ينتظر كما قال الشيخ ، وهي قصة من أصحاب أهل القلوب ، قال : في أثناء مناجاته لله قال : يا رب ، لقد عصيتك فلم تعاقبني ، قال : فوقع في قلبه : أن يا عبدي ، عاقبتك ، ولم تدرِ ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

إذا كان للإنسان اتصال بالله يشعر أنه أسعد الناس ، وقد تكون حياته خشنة جداً ، وقد يكون في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي ، وقد يكون فقيرا ، وقد يكون حاجب أحياناً .

والله مرة كنت في مؤتمر إسلامي في المغرب في أفخر فندق ، ونحن عشية المؤتمر جاءت وفود الدول الإسلامية كلها ، وأنا كنت مندوب سورية ، والله في صلاة الفجر استمعت إلى قراءة قرآن أبكتني، أطللت من النافذة فإذا عامل الحدائق يصلي الفجر في وقته ، وبصوت شجي ، وبقلب حي ، والله خطر في بالي ـ سامحني بهذا الخاطر ـ لعله عند الله أقرب من كل هؤلاء المؤتمرين ، هناك مقاييس عند الله نحن لا نعرفها ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي]

يدعوك إلى الحياة ، حياة القلب .

إبراهيم بن الأدهم كان ملكًا ، أنا لا أصدق غيره ، لو ما ذاق أحدُهم الموتَ لا يعرفه ، كان ملكا ترك المُلك ، واتجه إلى الله ، وقال : " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " .
والله في قلب المؤمن من السعادة ، من الطمأنينة ، من الأمن ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم .

2 ـ التأديب التربوي :

هذه مرحلة أولى ، ما استجاب بالهدى البياني ، الآن يخضع إلى معالجة أصعب ، وهي التأديب التربوي ، يسوق له بعض الشدائد ، إما في صحته ، أو أهله ، أو أولاده ، أو في عمله ، أو شبح مرض عضال ، خطط كان في التخطيط آفة قلبية ، أجرى فحصًا فرأى كتلة متورمة ، وكان الورم خبيثا فانهارت معنوياته ، هذه كلها حِكم ، ساق الله له من الشدائد ما يدفعه إلى التوبة ، هذا التأديب التربوي ، وأكمل موقف في التأديب التربوي أن تتوب إلى الله .
أول مرحلة الهدى البياني ، المرحلة الثانية التأديب التربوي .

3 ـ الإكرام الاستدراجي :

المرحلة الثالثة النجاح فيها صعب ، في المرحلة الثانية نسب الناجحين فيها في المئة تسعون ، أما المرحلة الثالثة فالناجون في المئة عشرة ، الإكرام الاستدراجي أنْ تأتيه الدنيا ، أموال لا تعد ولا تحصى ، مكانة ، جمال ، وسامة ، سيطرة ، عنجهية ، غطرسة ، يفتخر بنفسه ، الحديث كله عن ذاته ، الأضواء كلها مسلطة عليه ، يضحك ملءَ فمه ، يذهب إلى أهله يتمطى ، قال تعالى :

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)

(سورة القيامة)

هذا الإنسان ترقص الدنيا له ، يعجبه من النساء ما يعجبه ، بالحلال أو بالحرام ، كيفما كان ، لا يدقق ، يجمع الأموال من حرام ، لا يدقق ، هو الآن راجت أسهمه ، ولمع نجمه ، وعلا سيطه ، هذا إكرام استدراجي ، والعياذ بالله ، إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك ، وأنت تعصيه فاحذره ، هناك ضربة ساطور ، ضربة قاتلة ، إن بطش ربك لشديد .
أستاذ علاء ، دقق في هذه الآية :

(فَلَمَّا نَسُوا)

(سورة الأنعام)

هذه الآية تفسر تناقضا عجيبا يعاينه المؤمنون .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

أبواب ، وكل شيء ، البلاد الخضراء ، والإعلام والمليارات ، والأموال بين أيديهم ، لوحة زيتية كهذا الكومبيوتر ثمنها ثمانية وخمسون مليون دولار ، الذي يشتري لوحة زيتية بثمانية وخمسين مليون دولار ، مركبة الفضاء (أبولو)ثمنها أربعة وعشرون مليارًا ، كلفتها لأهداف لا تقدم ولا تؤخر في أهل الأرض ، والله لو أنفق معشار ما ينفق على الترف في العالم الغربي لكان العالم كله كتلة واحدة محبة للأغنياء ، أما هذه الأموال أربعمئة مليار على حرب العراق مثلاً ، لذلك قضية الطغيان ، تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ، فيأتي أخي عيسى فيملأها قسطاً وعدلاً ، قال تعالى :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

الشذوذ ، الزنا ، اللواط ، السحاق ، المخدرات ، نوادي العراة ، شعوب شردت عن الله فشقيت ، الجريمة ، المخدرات ، تفكك الأسرة .

والله مرة كنت في أستراليا ، وفي أثناء الوداع قال لي رئيس الجالية الإسلامية هناك : قل لإخوتنا في الشام : إن مزابل الشام خير من جنات أستراليا ، أستراليا جنة على وجه الأرض ، أستاذ علاء ، فلما سألته : ما السبب ؟ قال : لأن ابنك قد تراه بحلقة في أذنه بالمئة خمسون ، ومعناها سيئ جداً ، وباليسار أسوء ، وبالاثنتين أسوء وأسوء ، نحن نعاني ما نعاني ، لكن الأسرة منضبطة عندنا إلى حد كبير ، والحمد لله ، وزوجتك وأولادك ، لذلك أنا أقول هذه الآية :

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

الأستاذ علاء :

شبهت هذه المسألة سيدي بمن عاينه الطبيب فوجد عنده السرطان من الدرجة الأخيرة فقال له : كل ما شئت .

الدكتور راتب :

الذي معه التهاب معدة يقيم عليه الدنيا ، لو أكل قطعة حامضية ، لأن هذه مادة تحدِث له قرحة ، والآن:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام)

4 ـ مرحلةُ القصمِ :

المرحلة الرابعة القصم ، فجأة بعدما هدم سبعين ألف بيت رئيس الوزارة السابق ، بعد أنْ بالغ في الطغيان ، بعدما قتل النساء والأطفال ، مذبحة صبرا وشاتيلا ، بثانية ، والله يمد في عمره ، قصمه الله، لا أحد يتعظ :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

إن أخذه أليم شديد .

عود على بدئ ، الطغاة أغبى أهل الأرض ، لأنهم ما أدخلوا الله في حساباتهم .

الأستاذ علاء :

نكمل إن شاء الله هذا الأمر في حلقة قادمة ، والآن بقي وقت قليل للفقرة العلمية .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : التكافلُ عند الدلافين :

يُرى في الدلافين أجمل أمثلة التكافل بين الأم وصغارها ، تربي الأم صغارها لمواجهة كل الأخطار ، تضطر في أثناء هذه التربية إلى سلوك قاس غير مقصود ، هذه الدلافين اليافعة تتسابق مع سفينة ، يقترب أحد هذه الدلافين من القارب كثيراً دون أن يشعر ، والقارب له مروحة قاسية جداً شفراتها حادة، ربما أصابت الدلافين بجرح كبير ، من الممكن أن تجرحه مروحة القارب جرحاً عميقاً ، تدرك الدلفين الأم خطر هذه اللعبة ، وتأتي إلى صغيرها فوراً تدفع الصغير إلى قاع البحر ، ترسل الأم الغاضبة موجات صوت ذات ذبذبات عالية بأنفها إلى جسم الصغير ، هذه الموجات تدل على غضب الأم ، إضافة إلى تعلم الصغير قليلاً ، الصغير حزين جداً ، تبدأ الأم بالسباحة مع صغيرها بعد هذا التوبيخ الشديد ، وتمسح برحمة زعانفها بزعانف صغيرها ، وهذا يعني المصافحة في لغة الدلافين ، بهذا التصرف تري صغيرها أنها ما زالت تحبه ، وسع علم الله كل كائن ، وفي كل مكان ، يقول الله عز وجل :

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى)

(سورة فصلت : 47)

الأب إذا عاقب ابنه ينبغي من هذا الدرس بعد حين أن يضمه إلى صدره ، يقول له : إني أحبك يا بني، وأنا ما عاقبتك إلا من أجل صلاح دنياك ، ليفهم الدرس ، فما مِن تأديب من دون شرح ، من دون شرح صار انتقاما ، صار تشفيًا ، هذا درس نتعلمه من الدلافين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (50-95) - مقومات التكليف : الاختيار - الأدلة النقلية والعقلية والحسية ـ مجتمع النمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بالسابق :

سيدي الكريم ، نود في كل حلقة أن نلخص عناوين بارزة ارتكز عليها برنامجنا ، كنا قد تحدثنا في مقومات التكليف ، وبدأنا بالكون ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ثم الشهوة ، ووضعنا رحالنا عند الاختيار ، وتكلمنا عن الاختيار ، وتبينا بأن الإنسان مخير فيما كلف به تخييراً كاملاً ، وهذا الفهم يتساير ويتسق مع مفهوم العدالة الإلهية ، وإلا كيف يجبَر الإنسانُ على تصرف ، ثم يعاقب عليه ؟

دكتور راتب :

هذا مستحيل .

الأستاذ علاء :

وهذا يتنافى مع العدل الإلهي والكمال الإلهي ، تبينا من خلال أدلة نقلية من خلال الكتاب والسنة بأن الإنسان مخير ، ليسأل عن عمله ، وليثمن عمله في الاختيار ، وإلا إذا كان الإنسان مجبرا على الصلاة أتوماتيكياً ، أو على الزكاة ، أو على فعل الخيرات فلا قيمة لهذا العمل ، وإنما القيمة في الاختيار ، أن يختار الشيء المستقيم ، وأن يمشي في الطريق المستقيم ، وأن يدع الطريق المنحرف ، هنا التثمين في هذا العمل ، قال تعالى :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف : 29)

مررت سيدي على الكثير من الأدلة النقلية من الكتاب والسنة ، ولكن بالإضافة إلى الأدلة النقلية هكذا علّمنا أهل العقيدة يقولون في الأدلة النقلية والأدلة العقلية ، الأدلة العقلية وكذلك بالمحسوسات ، والأمثلة الواقعية التي جرت في تاريخنا العربي والإسلامي .

الدكتور راتب :

الأدلة النقلية والعقلية والحسية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ النقل الصحيح :

أستاذ علاء ، من فضل الله علينا أن الأدلة على أحقية هذا الدين العظيم متنوعة ، فحينما تخاطب إنساناً يؤمن بالقرآن الكريم كوحي من السماء تأتيه بأدلة نقلية ، لكن لو أردت أن تقنع إنساناً ، القرآن الكريم يحتاج إلى دليل على إنه من عند الله عز وجل ، هناك أدلة عقلية ، أنا أرى أستاذ علاء ، وأرجو أن أكون مصيباً أن الله هو الحق ، الحق ما جاء به النقل الصحيح ، وأركز على كلمة صحيح ، لأن هناك نقلا غير صحيح .

الأستاذ علاء :

يعني قطعي الثبوت قطعي الدلالة .

الدكتور راتب :

2 ـ العقل الصحيح :

وما قبله العقل الصريح ، وأركز على العقل الصريح ، لأن هناك عقلاً تبريرياً ساقطاً عند الناس جميعاً.

3 ـ الفطرة السليمة :

وما ارتاحت إليه الفطرة السليمة ، وأركز على كلمة سليمة ، لأن هناك فطرة منطمسة ، قال تعالى :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة المطففين)

4 ـ الواقع الموضوعي :

وما أقره الواقع الموضوعي ، وأركز على كلمة موضوعي ، لأن هناك واقعاً مزوراً .

مثلاً : الآن كل عمل عنيف في العالم يعزَى إلى المسلمين .

لي صديق يحتل مكانة رفيعة في بلاد الغرب ، هو رئيس الجالية الإسلامية كلها ، أجرى دراسة لسنة أو أكثر ، النتيجة أن أعمال العنف في ذاك البلد الغربي البعيد نسبة المسلمين من المتسببين بهذه الأعمال ثلاثة بالمئة فقط ، إذاً هناك واقع مزور ، وهناك فطرة منطمسة ، وهناك نقل غير صحيح ، وهناك عقل تبريري ، فالذي أراه ، وأرجو أن أكون مصيباً أن الحق دائرة تتقاطع فيها خطوط أربعة خط النقل الصحيح بالتأويل الصحيح ، وخط العقل الصريح المبتعد عن العقل التبريري النفعي ، وخط الفطرة السليمة التي تتناقض مع الفطرة المنطمسة ، وخط الواقع الموضوعي .

فنحن في حلقات سابقة أكرمنا الله عز وجل ببيان الأدلة النقلية في القرآن والسنة ، والأدلة الصحيحة ، لأنه كما تفضلت قيمة الدليل أن يكون قطعي الثبوت ، وقيمة الدليل الحاسم أن يكون قطعي الدلالة ، فإذا كان الدليل قطعي الثبوت ، وقطعي الدلالة فهو الدليل الكافي لإقرار قضية في الدين ، أما وقد أردنا في هذه الحلقة المباركة إن شاء الله أن ننتقل إلى أدلة أخرى ، ولنأخذ الدليل العقلي .

وجودُ الأمر والنهي دليلٌ على اختيار الإنسان :

أستاذ علاء ، لو بنينا جدارين بعرض منكب إنسان ، القضية افتراضية ، حيث لو مشى بينهما لمس الجدار الأيمن كتفه الأيمن ، ولمس الجدار الأيسر كتفه الأيسر ، ثم أمرنا هذا الإنسان أن يأخذ اليمين ، أيّ يمين هذا ؟ الإنسان إذا كان مسيّراً فمن السذاجة أن تأمره بشيء ما ، أو بالتعبير المادي إذا كان يمشي في طريق إجباري ، في طريق لا يستطيع أن يحيد عنه يمنة ولا يسرى ، فمن السذاجة ومن الحمق أن تعطيه أمراً ، لا معنى لهذا الأمر ، كلمة خذ اليمين لمن يمشي في طريق بعرض منكبيه كلام فارغ ، ليس له معنى إطلاقاً ، وبما أن القرآن الكريم طافح بالأوامر والنواهي ، ولأن السنة النبوية الصحيحة الشريفة طافحة بالأوامر والنواهي ، معنى ذلك أن الإنسان مخير عقلاً ، لوجود الأوامر والنواهي .

الأستاذ علاء :

طالما هناك أوامر ونواهٍ فهو مخير ، ليس هو بين جدارين وبينهما فراغ بعرض كتفه .

الدكتور راتب :

حينما يكون ابنك معك في المركبة ، وأنت تقود المركبة ، وسوف تعود إلى البيت الساعة الثامنة ، فلا معنى أن تقول لابنك : إياك أن تتأخر ، هو معك ، وفي المركبة ، أما إذا أرسلته إلى مكان ما فتوصيه

ألا يتأخر ، لأنه هو حينما خرج من البيت حر توصيه ألا يتأخر ، إذاً : لمجرد وجود الأمر والنهي في الكتاب والسنة ، ولأن هذه الأدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، إذاً : يستنتج منها أنه مخير .

عظمة الدين انتفاعُ الإنسان العالم والجاهلُ به :

لكن هناك نقطة دقيقة في موضوع ، عظمة هذا الدين أن الإنسان غير المتعلم يتفاعل معه أعلى تفاعل، وأن الإنسان المثقف في أعلى درجة يتفاعل أيضاً من قاعدة أصولية دقيقة ، وهي أن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، كيف ؟

أنا أجلس في غرفة ، وأحمل دكتوراه في التكييف ، وعندي مكيف ، أضع يدي على مفتاح التشغيل ، يأتي الهواء البارد ، أنا أعلم بالتفاصيل المملة ، ماذا يجري في هذا المكيف ، فيه غاز مضغوط له خصائص خاصة ، إلى آخر ذلك ، ويأتي إنسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وهو في غرفة ، وفيها مكيف ، يشعر بالحر ، يضغط يده على مفتاح التشغيل فيأتيه الهواء البارد .

الأستاذ علاء :

تساوى الاثنان في النفع .

الدكتور راتب :

لذلك عظمة هذا الدين أنك لو لم تفهم حكمة الأمر قطفت كل ثماره ، ولو لم تفهم حكمة النهي قطفت كل ثماره ، لكن الدعاة إلى الله يحتاجون إلى التعليل ، والشرح وبيان الحكمة ، فيقنع الناس بأحقية هذا الدين، بينما أيّ إنسان لم يصب شيئاً من علم لمجرد أن يكون صادقاً فهو محترم في المجتمع ، إذا كان أميناً يغنيه الله عز وجل ، فينال ثقة الناس ، إذا كان عادلاً فهو محبوب إذا كان زوجاً مستقيماً فعنده سعادة زوجية ، إذا كان أباً مربياً في أولاد أبرار .

إذا طبق الإنسان قواعد الدين ، لمجرد أنه طبقها يقطف كل ثمارها ، ولو طبق هذا الدين عن علم وعن فهم ، أو عن غير علم وفهم ، لأن الانتفاع بالشيء في الدين ليس أحد فروع العلم به ، لكن الدعاة يحتاجون إلى علم وإلى توضيح ، وإلى بيان وإلى إقناع ، لحمل الناس على طاعة الله .

فضلُ العلم :

هذا ينقلنا إلى أن في حياة الناس صنفين ، صنف يعبد الله ، ويقطف كل ثمار الدين ، لكن خيره محدود، وصنف آخر يدعو إلى الله بعلم وحكمة ، وتفاصيل وأدلة ، وبيانات ، ويرد على الشبه والضلالات ، هذا نفعه عميم ، لذلك عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((فقيهٌ أشَدُّ عَلَى الشَّيْطانِ مِنْ ألْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

عَنْ أبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قالَ : ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أدْنَاكُمْ))

[الترمذي]

و هناك مسافة كبيرة ، وأنا أقول دائماً : ما من عطاء أعظم عند الله من العلم .

كنت أقول دائماً : طفل صغير قال : معي مبلغ عظيم ، قدّره بمئتي ليرة ، وإنسان مسؤول كبير يقول : أعددنا لحرب العراق مبلغاً عظيماً ، نقدره بثلاثمئة مليار ، فإذا قال ملك الملوك ومالك الملوك :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

لذلك قال العلماء : أعظم كرامة على الإطلاق كرامة العلم ، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، وإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ! طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً ، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً ، ولأن الإنسان يحب وجوده ، ويحب سلامة وجدوه ، ويحب كمال وجوده ، ويحب استمرار وجوده ، إذاً: يشقى حينما يجهل ، فالجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، بل إن أزمة أهل النار في النار هي العلم ، قال تعالى :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك : الآية 10)

العقل يدل على أن الإنسان مسيَّرٌ :

الأدلة التي تؤكد أن الإنسان مخير منها ما هو عقلي ، لا يعقل أن تسير في طريق إجباري ، وحول الطريق جداران بحجم عرض منكبي الإنسان ، ثم يؤمر أن يتجه نحو اليمين أو نحو اليسار ، ولأن في القرآن الكريم مئات الأوامر والنواهي ، ولأن في السنة الصحيحة مئات الأوامر والنواهي ، فهذا يقتضي أن يكون الإنسان مخيراً ، والشيء الذي لا يصدق أنه لا يعقل ولا يقبل أن يكون في كلام الله كلاماً ليس له معنى ، فإذا كان الأمر والنهي ، والإنسان مسير ، فهذا كلام ليس له معنى .

حينما أجمع الطلاب في أول يوم من العام الدراسي ، وأتلو عليهم أسماء الناجحين في آخر العام والراسبين ، فلا معنى من قولي لهم : ادرسوا ، واجتهدوا ، وضاعفوا جهودكم ، هذا كلام مضحك .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء

***

في الدليل الواقعي ليس ممكنًا أن تكون مدير مؤسسة ، وترسل إنسانًا بمهمة إلى مكان ، وفي اليوم التالي ترفع إليك جدول الدوام ، فإذا على اسمه غين ، أنت أرسلته بمهمة ، هل يعقل أن تعاقبه ؟

الأستاذ علاء :

وإذا تمت العقوبة يكون الخلل .

الدكتور راتب :

العقلُ لا يحيط بالله :

قال تعالى :

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح : 6)

لذلك ورد في بعض الأحاديث حسن الظن بالله ثمن الجنة .

إله عظيم أستاذ علاء قال :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

ولكن الناس أحياناً يتمنون أن يعملوا عقولهم في عدل الله ، هناك يحبطون ، لماذا ؟ لأنك لا تستطيع أن تكتشف عدله بعقلك إلا في حالة مستحيلة أشد الاستحالة ، أن يكون لك علمٌ كعلم الله ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً)

(سورة الكهف)

حينما خرق السفينة قال :

(أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا)

(سورة الكهف)

الأستاذ علاء :

وهذا سيدنا موسى سيدي .

الدكتور راتب :

لكن الله عز وجل آتى الخضر علماً لدنّياً ، أن هناك مَلكاً يأخذ كل سفينة غصبا ، فلذلك أنا لا أستطيع

بعقلي المحدود أن أكشف عدل الله ، هناك مليون سؤال ، هذا ينقلنا إلى أن لله آيات ، لله آيات كونية ، وآيات تكوينية ، وآيات قرآنية ، الكون كله آياته الكونية ، الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي الكريم قرآن يمشي ، فحينما أتفكر في خلق السماوات والأرض أرى العلم والحكمة ، والرحمة والحلم ، والعدالة المطلقة في الكون ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

وحينما أضيف إلى الآيات الكونية الآيات القرآنية يعني :

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران : 165)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد : 19)

فإذا جاءك ما تكره استغفر لذنبك ، الله غني عن تعذيبنا ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء : 147)

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

(سورة سبأ)

أن نتصور إنسانًا أجبر على عمل ، ثم يحاسب عليه ، هذه فكرة مضحكة ، والله ، وفكرة تدعو إلى الشلل ، وما أقعد الأمة الإسلامية عن العمل إلا عقيدة الجبر .

الأستاذ علاء :

سيدي ، عقيدة الجبر كما تفضلت أن الإنسان مجبر على هذا التصرف ، هل هذه العقيدة نبتت وولدت في الثقافة العربية والإسلامية ، أم أنها جاءت دالفة ، وجاءت بشكل مرسوم ، لكي تقعد الأمة عن العمل، ولكي تتخلف الأمة عن ركب الحضارة ؟

الدكتور راتب :

عقيد الجبر دخيلة على الإسلام مكدِّرة لصفوه :

أنا أتصور أن الإسلام العظيم يشبه نهراً ، مثلاً نهر بردى ، لو ذهبنا إلى منبعه لرأينا ماء عذباً فراتاً سائغاً للشاربين ، فإذا ذهبنا إلى مصبه ، وقد أتته الروافد والمياه المالحة لرأينا ماءً أسود اللون ، أنا أتمنى أن نرجع إلى الينابيع ، إلى أصول الدين ، أن أحكم الكتاب والسنة في حياتنا ، هذا الدين دين الله .

أستاذ علاء ، لا يكون هذا الدين إلا متناسباً مع كمال الله ، حتى إن بعض العلماء قال : من دعا إلى الله بمضمون سطحي بمضمون غير متماسك ، بأسلوب غير تربوي بأسلوب ، غير علمي ، المدعو بهذا المضمون السطحي ، وبهذا الأسلوب غير العلمي والتربوي لا يعد عند الله مبلغاً ، لأن هذا الإنسان بفطرته يعتقد أن الله عظيم ، وينبغي أن يكون دينه عظيماً ، لا يمكن أن نقزم هذا الدين إلى أساطير ، وإلى منامات ، وإلى شطحات أحياناً ، وإلى كرامات ، وإلى أشياء غير معللة ، وأشياء تتناقض مع العلم.

حقائق العلم لا تتناقض مع العلم :

عندنا قاعدة ، أن حقائق العلم القطعية يجب أن تتوافق مع الدين العظيم ، لماذا ؟ لكنني أتحفظ ، أنا لا أثني إطلاقاً على الدين إذا وافق العلم ، إنما أثني على العلم إذا وافق الدين ، الدين هو الأصل ، هو وحي السماء ، لكن الشيء الذي لا يختلف عليه اثنان أن توافق العلم مع الدين حتمي ، السبب : العلم مجموعة قوانين قننها الله عز وجل و الدين وحي السماء و المصدر هو الإله فهل يعقل أن يكون فرعان من مصدر واحد متناقضان ؟

مثل آخر : أنا أبيع أقمشة فرضاً ، أعطيك مئة ثوب ، على كل ثوب رقم طول الثوب ، أعطيك متراً ، إن شككت فهذا المتر ، أيعقل أن أعطيك متراً يكشف أن هذه اللصاقة غير صحيحة ؟ مستحيل ، الله عز وجل الآيات التي تتحدث عن العقل والتفكر تقترب من ألف آية .

الأستاذ علاء :

سيدي ، نحن كنا نتمنى أن نكمل في مسألة الأدلة العقلية ، والأمثلة العملية الحقيقة ، لكن الوقت حان وإن شاء الله في الحلقة ، ماذا اخترت لنا من فقرات العلمية ؟

الدكتور راتب :

والله :

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام :38)

الموضوع العلمي : مجتمع النمل مجتمع التكافل :

أستاذ علاء ، موضوع النمل شيء لا يصدق ، مجتمع من أرقى المجتمعات ، لكن هذا المجتمع غير عاقل ، تعيش مئات الآلاف ، وأحياناً ملايين من أفراد النمل تشكل مستعمرة متكاملة ، يقوم كل فرد من

هذه المستعمرة بواجبه الذي عليه دون إخلال ، لا يتبرم ، أي فرد من موقعه وطبيعة عمله ، بل المهم هو استمرار المستعمرة التي يعيش فيها ، لهذا يضحي بحياته من دون تردد ، هذا موقف الاستشهادي عند النمل ، لن تصادف فرداً واحداً جائعاً أو دون مأوى في هذا المجتمع ، لما بين النمل من تكافل وتعاون وتضحية وإيثار ، كما رأينا تتقاسم النمل حتى قطرة الماء ، والطعام الذي يُجمع ويدخر في مملكتها أيضاً يكون متاحاً للجميع ، لا يرى من بينها من تتصف بالأنانية ، وليس بينها واحدة مشردة كل نملة جزء حي من منظومة هائلة .

كل نملة تقوم بواجبها ، وتؤدي مهمتها بقوة في مملكتها ، النمل بمنظماته الجماعية وحياته الاجتماعية التي تفوق البشر آية من دلائل صنع الله عز وجل في الأرض .

أنواع النمل من حيث وظيفتها :

لنبحث الآن في بعض أنواع النمل ، لنرى معاً معجزة الخلق التي تجلت في هذه الكائنات الصغيرة .

1 ـ النملة الخيّاطة :

نبدأ بالنملة الخياطة ، هنا الغابات المطيرة في أستراليا ، هذه الأشجار تؤوي أكبر مستعمرات في العالم للنملة الخياطة .

تبني النملة الخياطة التي يبلغ طولها ستة ميليمترات مملكتها بنفسها ، يتم بناء المملكة بفضل التعاون المعجز ، المواد الأساسية التي تستخدم في بناء هذه المملكة هي الأوراق .

المرحلة الأولى تُجَمع الأوراق في مكان واحد ، وذلك لإمكانية لصقها ببعضها ، ولأجل ذلك تُكَون النملات العاملة فيما بينها سلسلة حية ، يمسك بعضها ببعض ، وتشد لجهتها في الطرف الآخر ، وتستخدم فيها أعجب التقنيات ، النملة التي تشاهدونها تحمل دودة ، أختها التي لم تخرج إلى الحياة بعد، المكان الذي أتت بها إليه هو بالضبط قسم لصق الأوراق ببعضها ، وتبدأ الدودة مباشرة بإفراز حرير لاصق ، هذه النملة العاملة كما نشاهدها تنسج الأوراق بمسدسها اللاصق بشكل مكوكي ، وتلحم بعضها ببعض ، النملات البالغة غير قادرة على إنتاج الحرير المستخدم كلاصق ، وحرصاً على مستقبل المملكة تضحي الدودة الصغيرة بكل الحرير الذي تحتاجه لنفسها ، مما يتسبب ذلك في نقص نموها ، ولن تبقى نملة كاملة ، غير أن هذه التضحية لا تذهب أدراج الرياح ، فإن النملات العاملة ترعى هذه الدودة داخل مملكتها على آخر حياتها .

كما نرعى أبناء الشهداء ، قال تعالى :

(أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

(سورة الأنعام : 38)

بالضبط ، عملية نسج الأوراق تستلزم تعاوناً كبيراً ، ولذلك تعمل بعض العاملات من الداخل ، وبعضها الآخر من الخارج ، وبهذا تلتحم الأوراق ببعضها إلى أقصى درجات المتانة ، البناء الذي أنشئ معجزة هندسية من ناحية سهولة الاستخدام والمتانة وتقنية الإنشاء .

تعرف النملات بشكل ملهم في أي موضع تشد الأوراق ، ومن أين تربط خيوط الحرير دون حاجة إلى أي إدارة أو مراقبة ، ولهذا يصف العلماء تصرفات هذه الكائنات الصغيرة التي تعمل معاً كدماغ واحد بأنها معجزة كبيرة .

إن اشتغال هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك عقلاً ، وليس لها قائد يقودها ، ويحركها وفق خطط تصل إلى أقصى درجات الذكاء للوصول معاً إلى غاية مشتركة .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق : 12)

الأستاذ علاء :

عندما يتفكر الإنسان في هذه المخلوقات صغيرة الحجم كيف تفكر ، وكيف تجعل من نفسها مجتمعاً كبيراً له نظامه ، وله أسسه ، وله مبادئه ، ونواميسه ، ويعيش حياة كلها تعامل ، وكلها تآزر ، لمواجهة الأخطار ، وفي بسط الراحة وحاضنة العيش تسبق الإنسان .

الدكتور راتب :

نظام النمل بأمرٍ تكويني :

لكن لا بد من تعليق ، هذا النظام الرائع بأمر تكويني ، بينما الإنسان إذا تفوق في أخلاقه بأمر تكليفي له أجر مقابل ذلك .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (51-95) - مقومات التكليف : الاختيار - أمثلة من واقع الصحابة العملي في عقيدة الاختيار ـ النملة المزارعة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-12-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكيرٌ بالحلقة الماضية :

سيدي الكريم ، بدأنا في الحلقة الماضية بموضوع الأدلة العقلية في مسألة الاختيار ، تبينا في حلقات ماضية بأن الإنسان مخير ، والاختيار هو مقوم من مقومات التكليف ، وتبينا بالنص القرآني والحديث الصحيح بأن الإنسان مخير فيما كلف به ، وأنه غير مجبر على أي شيء ، وأن التثمين للعمل يأتي من الاختيار ، وأن الاختيار مفهوم يتسق مع العدالة الإلهية والكمال الإلهي ، وتبينا في الحلقة الماضية عبر دليل عقلي لطيف بأن الإنسان لو وضع بين جدارين من الإسمنت والفراغ بعرض منكبيه ، وقلنا له : خذ اليمين ، أو خذ اليسار ، قلنا : هذه الأوامر لا معنى لها إطلاقاً ، لأنه لا يستطيع أن يؤديها ، كمن رمي مكتوفاً في الماء ، وابتل ، وقيل له : إياك إيّاك أن تبتل بالماء ، فمن هنا باعتبار أن الأمر والنهي في مسائل لا يستطيع أن يفعلها الإنسان إلا إذا كان مخيرا ، ولا معنى لها في التقييد ، يستطيع أن يفعلها في حال الاختيار ، وباعتبار أن القرآن الكريم مليئا بالأوامر والنواهي والسنة الصحيحة إذاً : يقتضي أن يكون الإنسانُ مخيرًا .

لكن سيدي الكريم ، كنا سنمر على أمثلة واقعية من السيرة ، ومن حياة الصحابة الكرام ، هل لنا أن تبسط لنا هذا المعنى من خلال شواهد كانت على أرض الواقع .

الدكتور راتب :

أمثلة مِن واقع الصحابة العملي في عقيدة الاختيار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء ، سيدنا عمر يصفه بعض المؤرخين بأنه عملاق الإسلام ، والنبي عليه الصلاة والسلام يصف عصره والعصرين التاليين له ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ...))

[متفق عليه]

ونحن نفهم الكتاب والسنة في ضوء فهم الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين ، لأنهم كانوا أقرب إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

مع الفاروق عمر :

لو أن الإنسان مجبر ومسير لما قال سيدنا عمر هذا الكلام ، قد جيء له بشارب خمر فقال : << أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين ، إن الله قدر علي ذلك >> .

الإنسان يعزو أخطاءه إلى القدر ، ولا يعزو إلى القدر إيجابياته :

وقبل أن أتابع أقول : الإنسان بعقله الباطن يميل إلى أن يعزو أخطاءه إلى القضاء والقدر ، لكن ما سمعت إنسانا تفوق ، وقال : هذا كتبه الله لي ، وأجبرني عليه ، يقول : اجتهدت ، وتعلمت ، وتفوق ، وسهرات الليالي ، لماذا في الإيجابيات تعزوها إلى نفسك ، وفي السلبيات تعزوها إلى القضاء والقدر ؟ هذا موقف غير منطقي ، فلذلك الإنسان يميل إلى أن يعزو أخطاءه ، وهذا على مستوى فرد ، وأنا أقول أستاذ علاء ، وسامحني : على مستوى أمة نحن نتهم الاستعمار في كل شيء ، نتهم الصهيونية العالمية، الموساد ، نحن عندنا أخطاء ، والحقيقة المُرة أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، البطولة أن تجابه الخطأ الذاتي ، البطولة ألا نقفز على الخطأ ، أن نواجهه ، وأن نحاول أن نصححه .

أنا لي مقولتان مهمتان : ليس العار أن تخطئ ، ولكن العار أن تبقى مخطئاً ، وليس العار أن تجهل ، ولكن العار أن تبقى جاهلاً .

فهذا الإنسان شارب الخمر قال : << إن الله قدر علي ذلك ، أستاذ علاء ، هذا الكلام نسمعه يومياً من العوام ، الله ما كتب له الهدى ، الله كاتب عليه الشقاء ، كلمات للعوام خطيرة جداً ، والله أنا أقول : هي الكفر بعينه ، الله عز وجل قال :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

أو إنسان لا حظ له ، هناك توجيه قرآني ، قال تعالى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

وهناك قانون للتيسير ، والتعسير له قانون ، قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

فهذا الإنسان قال : << إن الله قدر علي ذلك >> ، الآن لنصغي إلى عملاق الإسلام ، إلى من عاش مع النبي عليه الصلاة والسلام ، وفهم عنه الحقيقة المطلقة ، وكان أقرب إليه من معظم الصحابة ، قال: << أقيموا عليه الحد مرتين ، مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا، إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> ، لا يمكن للقضاء أن يخرج من الاختيار إلى الاضطرار ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام)

هذه مقولة المشركين .

(وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة الأنعام)

سمى الله هذه العقيدة كذباً ، قال تعالى :

(حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

أستاذ علاء ، قضية خطيرة جداً ، ما كانت هذه الندوة لتجعل هذا الموضوع ليحتل عدة حلقات إلا لخطورته ، نحن كأمة حينما نعزو كل أخطائنا إلى أعدائنا فهذا خطأ كبير ، هناك أخطاء من عندنا ، من صنع أيدينا ، والحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، وما لم يكن هناك نقدٌ ذاتي جريء فلن نتلافى أخطاءنا ، ولن ترقى الأمة ، القضية عامة وخاصة ، فالإنسان بسذاجة وغباء يعزو أخطاءه إلى الله ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

أستاذ علاء ، هناك آية دقيقة جداً ، قال تعالى :

(وَلَوْ شِئْنَا)

(سورة السجدة : 13)

بعض المعاني الشرعية المهمة :

1ـ معنى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا

هناك معنى ضمني ، يعني يا عبادي ، لو شئت أن أجبركم ، لو شئت أن ألغي اختياركم ، لو شئت أن ألغي ما يثمن عملكم ، لو شئت أن لا تكونوا مكلفين ما أجبرتُكم إلا على الهدى ،

الأستاذ علاء :

هذا معنى رائع وصريح .

الدكتور راتب :

لو أني غيّرت هويتكم من كائن مخير إلى كائن مسير ، لو أني غيّرت هويتكم ، ألغينا تكليفكم ، ألغيت حمل الأمانة ، ألغيت الثواب والعقاب والجنة والنار ، لو ألغينا كل هذه لما أجبرتكم إلا على الهدى .

إذاً : حينما أخطئ فهذا الخطأ من اختياري ، ومن كسبي ، وهذه مشيئتي ، وأنا أرى أن أحداً على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة لا يستطيع أن يضل أحداً .

الأستاذ علاء :

حينما قال ذلك الأعرابي : جعل رزقي بضرب كفي على دفي .

الدكتور راتب :

بارك الله بك يا أستاذ علاء ، الآن دخلنا ، ففي الحديث :

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفس لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله عباد الله ، وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم))

[الجامع الصغير بغير زيادة : واستجملوا مهنكم]

لي كلمة اقبلها مني أستاذ علاء ، بستان من بساتين التفاح في منطقة حول دمشق ، الشجرة العاشرة ، الصف الثالث ، الغصن الرابع ، التفاحة الثانية ، هذه لفلان ، فلان يمكن أن يأكلها سرقة ، ويمكن أن يأكلها تسولاً ، ويمكن أن يأكلها ضيافة ، ويمكن أن يأكلها شراءً ، ويمكن أن يأكلها هدية ، طريقة انتقال هذه التفاحة إليه باختياره ، أما هي فله ،

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفس لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله عباد الله ، وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم))

الأستاذ علاء :

تسمح لي أن نقف عند هذا المعنى الرائع جداً :

((واستجملوا مهنكم))

الدكتور راتب :

2- معنى : واستجملوا مهنكم

اختر مهنة راقية ، مهنة فيها عطاء للناس ، هناك مهن فيها أخذ ، فيها ابتزاز مال ، فيها إلقاء الخوف والرعب في قلوب الناس ، ابتعد عن حرفة تؤذي عباد الله ، لأن الرزق سيأتيك حلالاً من حرفة أشرف، وألصق شيءٍ في حياة الإنسان زوجته وعمله ، البيت يتغير ، والمركبة تتغير ، والحي يتغير ، لكن العمل لاصق بالإنسان ، يعيش معه ثماني ساعات كل يوم ، فإذا كان عملاً غير مشروع يبنى على إيذاء الناس ، أو ابتزاز أموالهم ، أو إلقاء الرعب في قلوبهم ، فهو في غضب الله ، وفي سخطه .

الإنسان يعلم إنسانًا ، يقدم للناس سلعة جيدة بسعر معتدل ، هذا له أجر عظيم ، التاجر الصدوق مع النبيين يوم القيامة .

الإنسان يدرس في الجامعة الحقائق الناصعة لينشئ قادة لهذه الأمة .

الإنسان الطبيب يعالج الناس .

المحامي لا يتسلم إلا قضية عادلة ، فيها ظلم شديد ، مهندس لا يبني بناء إلا وفق القواعد الأساسية ، لا يحتال على مواد البناء .

حينما يعرف الإنسانُ الله عز وجل يختار حرفة يسعد بها ، لكن أنا أقول لك كلمة : إن أعظم حرفة تحترفها هي الحرفة التي تتناسب مع اتجاهك ، إنسان يحب المطالعة ، وهو أمين مكتبة ، هذه حرفة تنطبق مع اتجاهه انطباقاً تاماً ، لذلك قالوا : هناك حرف مجزية لغيرها ، أعمال شاقة ، لكن دخلها كبير، لكن هناك أعمال مجزية لذاتها ، منها التعليم ، أنت حينما تعيش مع شباب ، مع أطهر فئة في المجتمع ، وتعلمهم ، وتلقي في قلوبهم المبادئ والقيم والأخلاق ، وتحملهم على طاعة الله ، أنت تمارس هوايتك الأساسية ضمن عملك ، لكن أنا أطمئن كل إنسان له عمل ، عملك إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة ، وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك وخدمة الناس ، النية واضحة ، ولم يشغلك عن فريضة ولا عن واجب ديني ولا عن عبادة انقلب العمل على عبادة .

الأستاذ علاء :

هذا عطاء إضافي .

الدكتور راتب :

لابد من حرفة وخدمةٍ تُسعِد الناس :

أنا أتمنى على كل أخ مشاهد أن يختار عملا فيه عطاء ، في خير للناس ، هذا العمل يسعده ، ويسعد به في الدنيا والآخرة ، هذا العمل يؤديه ، وهو في أعلى درجات السعادة ، الطبيب في خدمة المرضى ، المحامي في خدمة المظلومين ، المدرس في خدمة أبناء الأمة ، مثلاً ، الموظف مهمته الأولى تسهيل مصالح المواطنين ، حينما تكون في عمل ، في خير تكون أسعد الناس به .

مرة قرأت كلمة يمكن من أربعين سنة هي في دمي : " إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين " ، لمجرد من أن تخرج من ذاتك لخدمة الخلق فأنت أسعد الناس .

الأستاذ علاء :

من هنا جاء قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ))

[أحمد عن أبي أمامة]

الدكتور راتب :

أنا أقول : الحرفة شيء خطير ، والزوجة شيء خطير ، لأن ثمة تلازما ، وشيء بحياتك الحميمة ، حرفتك وزوجتك ، فمن أحسن اختيار زوجته وحرفته فقد حقق نجاحاً كبيراً في الحياة .

الأستاذ علاء :

إذاً : نأتي على مسألة ما عند الله لا ينال بمعصية الله .

الدكتور راتب :

3ـ معنى : ما عند الله لا ينال بمعصيته

بكلمة أخرى : من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا ، وأقرب مما اتقى ، من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا ، ابتعد عنه الهدف ، وأقرب مما اتقى ، الهدف السلبي .

الأستاذ علاء :

نعيدها .

الدكتور راتب :

من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا ، هو رجا النجاح من هذا العمل ، لكن هذا النجاح مبني

على إيذاء الناس ، مبني على ابتزاز أموالهم ، مبني على إلقاء الرعب في قلوبهم ، أبعد مما رجا ، وأقرب مما اتقى ، اتقى الهلاك والشقاء ، فاقترب من الهلاك والشقاء ، القضية مهمة جداً أستاذ علاء .

أنا أقول : مَن هو الغبي ؟ أولاً من أدق تعريفات الذكاء : التكيف ، فالذي يتكيف مع ربه ، مع منهجه ، مع قرآنه ، مع سنة نبيه ، مع الدار الآخرة ، مع مغادرة الدنيا ، هذا تكيف ، فلذلك أنا أرى أن أغبى أغبياء أهل الأرض هم الذين لا يدخلون الله في حساباتهم ، يتصرف وكأن الإله لا يعلم ، يتصرف وكأن الإله لا يحاسب ، يتصرف وكأن الحياة لا تنتهي ، سيعيش هكذا ، مع أنني أؤكد لكل أخ مشاهد هل بإمكان أيّ إنسان على وجه الأرض أن يستيقظ كل يوم كاليوم السابق ؟ مستحيل ، ففي أحد الأيام لابد من بوابة الخروج ، لا بد من أن يخرج من الدنيا ، يبدأ بمرض يتفاقم ، فلذلك قضية أن الإنسان يتخذ حرفة راقية ترضي الله فيها عطاء هي معنى : واستجملوا مهنكم .

الأستاذ علاء :

الآن سيدي الفقرة العلمية عن أي موضوع ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : النملة المزارعة :

سوف نتابع موضوع النمل ، ولكن بحرفة أخرى من حرف النمل ، النمل مجتمع كالمجتمع البشري تماماً ،

(أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

كما جاء في القرآن الكريم ، يزرع البشر منذ آلاف السنين ، والزراعة تسد أكبر قسم من احتياجات الغذاء في العالم ، يستخدم الناس تقنيات مختلفة لزراعة أخصب .

طور رجال العلم أساليب لزيادة الخصوبة ، كاستخدام الأسمدة الكيماوية والأدوية الفعالة ، بالإضافة إلى أنهم نجحوا في الحصول على نتاج الفصول كلها بإنشائهم البيوت البلاستيكية ، لكن هناك كائن ظل يشتغل بالزراعة ، ويستخدم أرقى التقنيات قبل البشر منذ دهر طويل ، لنقم الآن برحلة إلى أعماق غابات الأمازون للتعرف عن قرب على هذا الكائن .

أساليب الزراعة عند النمل ، ومسؤولية كل فريق زراعي :

إنها النملة القاطعة للأوراق ، هذه النملة تعمل في الزراعة منذ ملايين السنين ، وتصل إلى تحقيق غايتها بعمل دؤوب مرحلة مرحلة ، بتخطيط وتعاون لا مثيل لهما ، في أول مرحلة من مراحل الإنتاج

تقوم النملات العاملة بمهمتها خارج مملكتها ، تقطع أوراق النباتات البرية وأشجار الغابات ليلاً ونهاراً دون أي توقف ، وفي المرحلة الثانية تقوم بنقل الأوراق التي قطعتها إلى مملكتها ، تحمل النملات قِطع الأوراق إلى مملكتها ممسكة بها كشراع كما نرى تماماً .

هذه العاملات الصغيرة قوية أكثر مما يتصورها الإنسان ، وعلى سبيل المقارنة فالواحدة منها تشبه إنساناً يحمل على ظهره مئتين وخمسين كيلو غراماً راكضاً بسرعة كيلو متر ونصف الكيلو متر في الدقيقة ، ليس بمقدور أي إنسان بنفسه أن ينجز مثل هذا العمل .

تعمل النملات بتخطيط ونظام إلى درجة محيرة ، من الضروري لها نقل الأوراق إلى مملكتها تمهيداً للزراعة ، ولأجل هذا يجب ألا تتعطل عملية النقل ، تنشئ النملات طريقاً كثير الممرات لتسهيل عملية النقل ، على خيط تمشي النملات ، الأعجب من هذا وجود منظمة مسؤولة عن إصلاح وصيانة الطرق، وزارة النقل هذه ، كما هو الحال عند البشر .

هذه نملة موظفة للقيامة بإزالة العوائق عن الطريق ، وهذه أخرى موظفة لمراقبة الطريق العام تتحقق في منظمات النمل إنها تصرفات تتجاوز خيال الإنسان .

الآن نشاهد جسراً حياً قوامه نملات تشد بعضها بعضاً ، تتابع النملات الأخريات ، وتتابع طريقها بالسير على هذا الجسر ، إنه مشهد تضحية وتحمل عظيم لا مثيل له ، تتحرك خمسمئة ألف نملة تقريباً بهذه الأعمال كجسد واحد ، وهذه المنظمة الضخمة قادرة في أربع وعشرين ساعة على قطع ونقل أوراق شجرة بأكملها كبيرة جداً ، تقطع النملات هذه كل أنواع النباتات ، وحتى الأزهار دون ملل ولا توقف .

هناك عالم كبير يئس من متابعة الدراسة ، قبل أن يكون عالماً كبيراً رأى نملة تصعد على حائط ، وتقع ، حاولت أربعة وأربعين مرة ، فاستحيا من هذه النملة التي أعادت المحاولة أربعين مرة ، وتابع دراسته .

وعند مقارنة حجم النملة مع ما قطعته من الأوراق بالنسبة لحجم الإنسان يكون الذي قطعته النملات كجذع شجرة سميكة واسعة الأطراف ، ويستخدم الإنسان في قطعه للشجر آلات خاصة .

معجزات الله في النمل : آلة قطع الأشجار :

إذاً كيف تنجز مجموعة النمل هذا العمل ؟ الجواب : أيضاً يظهر معجزة واضحة ، لأن الله تعالى وهب النملة التي تقطع الورق آلة قطع خارقة التصميم ، تتكون آلة القطع هذه من سكينين مختلفين ، وقد غطي سطح السكاكين بالزنك لتأمين حد أدق .

في آلة القطع هذه نظام يحير العقول ، تحت رأس كل نملة مباشرة عضو خاص يبث موجات صوتية ذات تردد عال ، ترسل هذه الترددات من السكين إلى الورقة ، تُهشم هذه الموجات الورقة ، وتسهل قطعها ، هذا النظام تصميم خارق .

لنتأمل قليلاً الآن في بنية هذا النظام ، تغطية المعدن بخلائط معدنية خاصة لصناعة سكين ، أحد أسلوب يستخدمه البشر أيضاً ، ولكن الناس الذين يصنعون هذا أرشدهم الله إليه بالعقل ، ولم يتطور هذا النظام إلا بعد عمل دؤوب في المختبرات ، ولكن ليس لدى النمل علم بوجود مادة تسمى الزنك ، لا تعلم أن سكاكينها مغطاة بهذه المادة ، تغطى الخلايا الموجودة في آلة القطع في شفرات النملة بالزنك بشكل معجز ، وفي جسم هذا الكائن الصغير تصميم ذكي جداً كما نرى على الشاشة ، وكذلك الحال في النظام المساعد على قطع الورقة بيسر بفضل موجات الصوت ، لا تعرف النملة قطعاً تحول مادة إلى حالة مهشمة بموجات الصوت ذات التردد العالي .

ليس هذا مِن قبيل المصادفة :

بلا شك لا يمكن أن يحدث نظام معقد كهذا مصادفة ، هناك تفسير واحد فقط لوجود هذا النظام البديع ، الله تعالى أوجد النملات ، ووهبها مع كل خصائصها ، آلات القطع المعجز ، أورد الباري سبحانه في كتابه ما يدل على ذلك بقوله :

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة الأنعام : 80)

أستاذ علاء ، أنا أقول دائماً : إن التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله ، بل هو أقصر طريق نصل من خلاله إلى الله ، لأن التفكر في خلق السماوات والأرض يضعنا أمام عظمة الله :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر : 28)

أي أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (52-95) - مقومات التكليف : الاختيار - الآيات المتشابهات والمحكمات ـ اتقان عمل النمل
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، تحدثنا من خلال حلقات عديدة عن مقوم من مقومات التكليف ، ألا وهو الاختيار ، بعد أن مررنا على الكون ، والعقل ، والفطرة ، والشهوة ، وأعتقد أننا في الحلقة السادسة التي نتوقف فيها عند مسألة الاختيار ، وقد شئت لهذا الأمر الاتساع والبحث ملياً حتى نستوفي معمولاته ومفهوماته بكل معنى الكلمة ، لأن الموضوع فيه إشكالية لدى عموم الناس ، ولدى غالبية الناس ، الذين يعتقدون بأن الله فرض هذا الأمر ، وهذا الواقع علينا ، لنركن إليه ، ونستسكن لهذا الأمر ، والله براء من هذا .
فتبينت بأن الإنسان في الحلقات الماضية سيدي الكريم مخير فيما كُلف به ، وأن الاختيار يثمن العمل ، لكن يتصور الإنسان من خلال سؤالين ، لو أن الله عز وجل أجبر الإنسان على الطاعة ، أو لو أن الله عز وجل وحاشاه من ذلك أجبر الإنسان على المعصية تحت عنوان (لو أن الاختيار ألغي)، ماذا يمكن أن يكون ؟ .
الدكتور راتب :

إلغاءُ الاختيار إلغاءٌ للتكليف :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، إذا ألغي الاختيار ألغي التكليف ، إذا ألغي الاختيار ألغي حمل الأمانة ، إذا ألغي الاختيار ألغي الثواب والعقاب ، إذا ألغي الاختيار ألغيت الجنة والنار ، إذا ألغي الاختيار ألغيت المسؤولية ، إذا ألغي الاختيار أصبحت الحياة تمثيلية سمجة تلخصها شطر من بيت :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

***

فلذلك الاختيار مقوم أساسي من مقومات التكليف ، والاختيار يثمن العمل .

قلت سابقاً : لو أن رئيس جامعة وزع على الطلاب أوراق الإجابة ، وقد طبعت عليها الإجابة التامة من الكتاب ، وقد وضع في حقل العلامات 100 % ، وكلف الطالب بكتابة اسمه فقط ، هكذا نفهم إلغاء الاختيار ، وهذا النجاح لا قيمة له إطلاقاً لا عند رئاسة الجامعة ، ولا عند الطلاب ، ولا عند المجتمع ، سقط الامتحان .

فالاختيار أحد مقومات التكليف ، والإمام الحسن رضي الله عنه يقول : " إذا أجبر الله عباده على الطاعة بطل الثواب ، وإذا أجبرهم على المعصية بطل العقاب ، وإذا تركهم هملاً كان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً ، ولم ينزل الكتب عبثاً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً " .

يلغى الدين ، تلغى المسؤولية ، وهذا الأمر غير معقول ، وغير مقبول ، وغير مفهوم أن الإنسان أُجبر على عمل صالح فاستحق الجنة ، وإنسان أُجبر على عمل سيء فاستحق النار ، لا الجنة مستحقة لإجبار الله له ، ولا النار يقتضيها فعل العبد الذي آثر هذا الفعل .

الأستاذ علاء :

كيف الحل مع عدل الله عز وجل ؟

الدكتور راتب :

الجبر متناقض مع عدل الله :

وهذا يتناقض مع عدل الله ، الله عز وجل قال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

آية قرآنية أصلُ التكليف :

بل إن الأصل في موضوع التكليف والاختيار هذه الآية :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام الآية : 148)

هذه مقولة المشركين :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(سورة الأنعام الآية : 148)

هذا ظنكم السيئ ، وهذا وهمكم ، هذه الآية قال عنها العلماء : " هي أصل في إثبات أن الإنسان مخير.

مرة ثانية :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ)

(وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

الأستاذ علاء :

إذاً : الله خيركم ، ولكن أنتم شئتم لأنفسكم هذا الطريق ، سيدي الكريم في كتاب الله القطعي الثبوت ، كلام الله قطعي الثبوت ، هناك آيات محكمات ، وهنالك آيات متشابهات ، في آيات المشتبهات يُشتمّ من بعض هذه الآيات بأن الإنسان مجبر ، تُشتم الجبرية من المتشابهات ، كيف نحملها ؟ كيف نفسرها ؟ من يحمل على من بالنسبة للمحكمات والمتشابهات ؟ نعرف المحكمات قبل كل شيء ، والمتشابهات إذا تكرمت .

الدكتور راتب :

معنى الآيات المحكَمات والآيات المتشابهات :

سوف أشرح للإخوة المشاهدين ، ما معنى آية محكمة أحادية المعنى ، لا يختلف على معناها اثنان في الأرض ، قطعي الدلالة ، ما معنى الآية المشتبهة احتمالية المعنى تحتمل معانٍ عدة .

أضرب مثلا :

لو قلت لإنسان ما : أعطِ فلاناً 1500 درهم ، هذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير ، ولا إلى تأويل ، ولا إلى تحليل ، ولا إلى خلاف ، ولا إلى اجتهاد ، كلام واضح كالشمس ، المعنى : أعطِ فلاناً 1500 درهم ، فقط لا غير .

هذه الآيات المحكمات ، قربتها للأذهان ، أما إذا قلت : أعطِ فلاناً ألف درهم ونصفه ، هذه الهاء علام تعود ؟ إن أعدناها على الألف المبلغ 1500 ، إن أعدناها على الدرهم ألف ونصف درهم .

هذه عبارة احتمالية ، تحتمل عدة معان ، هذه العبارة تحتاج إلى مفسر ، تحتاج إلى مجتهد ، تحتاج إلى محلل ، تحتاج إلى حوار ، تحتاج إدلاء بالأدلة ، تحتاج إلى نقد بالأدلة ، هذه آية متشابهة ، ولحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله في القرآن آيات متشابهة ، قال تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)

(سورة آل عمران الآية : 7)

كأن العبارة المتشابهة فيها امتحان للإنسان ، كأن العبارة المتشابهة يفسرها الإنسان على مقتضى هواه، وكأنها امتحان من الله ، لكن هناك معنى آخر .

بين الثوابت والمتغيرات :

أستاذ علاء ، الإنسان فيه ثوابت ، وفيه متغيرات ، ولأن هذا التشريع يغطي حياة الإنسان بثوابه ومتغيراته ، فالقضايا الثابتة هي القضايا التي تقطعه عن الله ، محرمات نصوصها محكمة ، والآيات التي هي أصل سلامته وسعادته أيضاً محكمة ، معانيها أحادية ، الأشياء الأساسية في حياة الإنسان ، الثابتة لا تتبدل ، ولا تتغير ، ولا تعدل ، ولا تطور .

مثلاً :

إنسان يأكل حتى يشبع وأمه جائعة ، هذا عمل فيه جريمة في حق الأم ، بأي مكان بالعالم ، بأي نظام ، بأي ثقافة ، قديماً ، حديثاً ، الأم لها فضل على الابن ، أن يشبع الابن وتجوع الأم ؟ مستحيل .
فلذلك في الإنسان ثوابت ، وأنا أعلق تعليقا دقيقا جداً : مِن أخطار الثقافة الغربية أنها ألغت الثوابت في حياة الإنسان ، كل شيء تابع للبيئة ، ما يعد هنا حراماً هو مقبول في مكان آخر ، هذه أخطر فكرة إيديولوجية ، جاءتنا من الغرب ، الكذب يصبح ذكاءً ، والنفاق لباقة ، والفتاة المتفلة متحضِّرة .
أحياناً تأتيك مفهومات من الغرب تجعل الأشياء كلها نسبية ، مع أن الأديان أكدت على ثوابت في الإنسان ، الإنسان له ثوابت ، لا يسعد إلا بذكر الله .

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

في الإنسان فراغ أستاذ علاء ، لا يملأه إلا الإيمان ، قد يملك الإنسان مليارات ، وقد يحتل أعلى المناصب ، وقد يملك زمام الأرض ، وليس سعيداً ، إن الله يعطي الصحة والذكاء ، والمال ، والجمال للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

القرآن غطى الثوابت بآيات محكمة والمتغيِّراتِ بآيات متشابهة :

القرآن غطى ثوابت الإنسان بآيات محكمة ، الكذب يقطعه عن الله ، الخيانة تقطعه عن الله ، العدوان على أعرض الآخرين تقطعه عن الله ، أكل المال الحرام يقطعه عن الله ، البهتان ، الكذب ، كل شيء يقطعه عن الله أحكامه في القرآن قطعية الدلالة ، لا تحتمل لا تفسير الزمخشري ، ولا الطبري ، ولا القرطبي ، ولا خلافًا بين الفقهاء ، ومعظم آيات القرآن الكريم قطعية الدلالة .

أما هناك متغيرات ، هناك إنسان يسكن في المدينة ، وإنسان يسكن في القرية ، لو أعطيت إنسانا يسكن المدينة كيس قمح ، وهو ساكن بطابق تحت الأرض ، شمالي بحي فقير ، ماذا يفعل بهذا الكيس ؟ أين يغسله ؟ أين ينشره ؟ أين يطحنه ؟ أين يخبزه ؟ هذا عبء كبير ، هذا أعطه ألف ليرة ، أعطيه مبلغا يشتري به الخبز والطعام ، أما إنسان في الريف فعنده التنور ، عنده مستودع القمح ، هذا كيس القمح شيء ثمين جداً .

فجاءت الآية الكريمة :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

(سورة التوبة الآية : 103)

من دون تحديد ، هذه آية تحتمل أن تكون الزكاة نقداً ، وأن تكون عيناً ، بتبدل البيئات ، فكل شيء متغير في حياة الإنسان ، تغطيه آيات متشابهة .

بالتعبير الدقيق : أنا كإنسان حينما أنفق بعبارة متشابهة احتمالية لضعفي في اللغة جئت بعبارة احتمالية، مع أنني أقصد معنى واحدا ، هنا المعنى المحتمل واسع جداً ، أنا قصدت معنى محدودا جداً ، الذي فَهِمَ فهم معنى آخر ، إذاً : كل القوانين تحتاج إلى لجنة تفسير ، من ضعف الإنسان في اللغة ، وحينما يكون الإنسان ضعيفا في اللغة تأتي عبارته احتمالية ، مع أنه يقصد معنى واحدا .

إن الإله العظيم خالق السماوات والأرض إذا جاء في قرآنه آية متشابهة ليس المقصود أنه يقصد معنى واحدا ، يقصد جميع المعاني المحتملة ، وليس ضعفاً في اللغة ، هذا معناه غنىً وسَعة في التشريع .

الأشياء المتبدلة في حياة الإنسان تغطيها آيات متشابهة .

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل الآية : 7)

أنت راكب (طائرة 777)، على ارتفاع 43 ألف قدم ، والطعام والشراب ساخن يأتيك ، وأمامك ثلاثون قناة ، والجو رائع جداً ، ومجلات ، وصحف ، وأشياء كثيرة ، تفتح القرآن وتقول :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

لكن أنت في طائرة .

(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

غطت الطائرة ، والباخرة ، والسيارة ، هذا إعجاز القرآن الكريم ،

(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

فلذلك أستاذ علاء ، الآيات المحكمات في القرآن تغطي ثوابتها ، تغطي ثوابت الإنسان ، والثوابت لا تتبدل ولا تتغير ، ولا تطور ، ولا تعدل ، ولا تلغى ، ولا يضاف عليها ولا يحذف منها ، الإنسان هو الإنسان .

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(سورة النساء الآية : 1)

الأستاذ علاء :

مثلا : في اللغة الفاعل مرفوع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الدكتور راتب :

هناك تبديلات ، هناك مدينة ، وريف ، وعصور قديمة ، وعصور حديثة ، و تقنية حديثة ، فكل المستجدات احتواها الدين ، عظمة هذا الدين مهما تبدلت الأمور ، مهما تطورت الحياة ، مهما استجدت المستجدات ، يغطي كل شيء ، لأن تشريع خالق الإنسان .

لذلك المحكمات المتشابهات دقيقة جداً ، في معنى آخر :

المتشابهات أحياناً فيها ملمح للإنسان :

آية متشابهة :

(لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية : 130)

فالذي أَلِف أن يأكل الربا يقول لك : لا ، النهي عن الأضعاف المضاعفة ، عند علماء الصول هذا قيد وصفي ، وليس قيداً احترازياً ، أيضاً :

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

(سورة النور الآية : 33)

لو فهمنا أن هذا قيد احترازي فالفتاة إن لم ترد التحصن فلك أن تجبرها على الزنا ، هذا مستحيل ، وألف ألف مستحيل ، لكن الفتاة من شأنها تريد التحصن ، وأن الربا من شأنه أضعافاً مضاعفة .

فلذلك المتشابهات لها ملمح آخر يُمتحن بها الإنسان ، والحياة امتحان .

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

حديث الإفك من المتشابهات ، لو أن الصحابة حينما حملوا الهودج ، ووجدوه خفيفاً ، فتفقدوها لألغي حديث الإفك ، لو أن عقدها لم ينفرط لألغي الحديث ، لكن أراد الله لهذا الحدث أن يكون امتحان لمن حول النبي ، فالمؤمنون الصادقون ظنوا بأنفسهم خيراً ، والمنافقون روجوا هذا الخبر .

فكأن المتشابهات لها معنىً آخر ؛ أنها تمتحن الإنسان .

على كلٍ نعود إلى موضوعنا .

الأستاذ علاء :

المتشابه نحمله على المحكم ؟

الدكتور راتب :

الآيات المتشابهات تُحمَل على الآيات المحكمات :

الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلت ، وذكرت أن الأصل في أن الإنسان مخير قوله تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ)

الآن :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 8)

هذه الآية ابتداءً يشم منها رائحة الجبر ، لذلك قال علماء الأصول : " الآيات المتشابهات مهما كثرت تحمل على الآيات المحكمات مهما قلّت " ، سأوضح هذا :

لو قلت : القمح مادة خطيرة ، كلمة خطيرة كلمة احتمالية المعنى ، يا ترى مادة أساسية ، أم مادة مدمّرة ، لا نعرف ، القمح مادة خطيرة ، بعد قليل قلت : القمح مادة أساسية ، إذاً : معنى خطيرة أنها أساسية .

الأستاذ علاء :

سيدي ، كنا نود أن نكمل الموضوع ، وهو موضوع دقيق ، وإن شاء الله نتابعه في الحلقة القادمة ، الآن ماذا أعددت لنا من الفقرة العلمية ؟ .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : النمل :

حياةُ النمل :

1 ـ مساكنُ النمل :

لا زلنا في النمل ، من آيات الله الدالة على عظمته ، يمكن أن تصل أعماق مملكة النمل إلى خمسة أمتار ، ويمكن أن يصل اتساعها إلى سبعة أمتار ، تنشئ النملات فيها مئات الغرف والأنفاق ، يحفر وينقل قرابة أربعين طناً من التراب إلى الخارج ، الهندسة المعمارية للمملكة لوحدها معجزة من معجزات الخلق .

2 ـ طعامُ النمل :

لا تأكل النمل هذه الأوراق التي قطعتها من الأشجار لأنها لا تتغذى إلى على نوع خاص من الفطر ، إذاً : ماذا ستفعل بهذه الأوراق التي لا تؤكل ؟ الجواب مدهش حقاً :

3 ـ الزراعة عند النمل :

ستستخدم النملات هذه الأوراق كمادة أولية للزراعة ، النمل يزرع .

(إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية : الآية : 38)

وبفضل هذه المادة ستنتج الفطر ، ولهذه الغاية تقيم مئات المزارع للفطر داخل مملكتها .

الآن نرى واحدة من تلك المزارع أعدت من قبل النملات بشكل خاص لزراعة الفطر ، تزرع الفطر لتأكله ، وخططت مساحة هذه المزرعة ورطوبتها وحرارتها ، تسلم النملات العاملة الأوراق التي قطعتها إلى النملات الموظفة في المزرعة ، قبل أن تبدأ النملات التي تتسلم الأوراق لمهمتها ، تقوم أولاً بتعقيمها ، وكأنها عاقلة ، ولهذا سبب مهم جداً ، لأن دخول فطر غريب أو بكتريا إلى المملكة يسبب

أضراراً بالغة ، وهذا يعني خطرَ مرضٍ مُعْدٍ لمستعمرة يعيش فيها نصف مليون نملة ، إلا أن الله تعالى هيأ نظاماً خاصاً جداً لحماية النمل من هذا المرض .

4 ـ نظامُ الصحةِ عند النمل :

تفرز النملة من جسمها مادة يرى فيها خصائص مضادات الالتهاب ، الأنت بيوتك النملة التي نراها تعقم الورقة بفمها ، ولم يبقَ في نهاية هذا العمل أي بكتريا على الورقة ، والبشر يكافحون البكتريا مثلما تكافحها النملة تماماً ، لذلك ينتجون المضاد الحيوي (الأنتي بيوتك)في المختبرات ، إلا أن (الأنتي بيوتك)الذي أنتجته النملة أقوى بكثير ، وتستخدمه النملة منذ ملايين السنين ، وبلا شك ليس لهذه الكائنات الصغيرة علم بالبكتريا (الأنتي بيوتك)، التي تمنع تكاثر البكتريا ، لكن بفضل هذا النظام الرائع الذي خلقه الله تعالى لا تقدر جرثومة ضارة واحدة أن تؤوي إلى جسم النملة ، ولا إلى البيئة التي تعيش فيها ، وكأنها أعقل الأمم .

5 ـ الاكتفاءُ الذاتي عند النمل :

بعد الانتهاء من أعمال التعقيم تبدأ النملات سوية بتقطيع الأوراق ، بعد فصل الأوراق إلى قطع صغيرة يأتي دور أصغر النملات ، هذه النملات بطول ميليمترين ، أي بحجم حبة رمل ، وتمضي طوال حياتها في الغرف الصغيرة تحت الأرض ، وتنشر الأوراق التي مضغتها جيداً ، وحولتها إلى مسحوق ، كل هذا الورق التي أخذته النمال إلى مستعمراتها تطحن بفم النملات الصغيرات ، وتصبح مسحوقاً في حقل الإنتاج ، ثم تخمر الفطر على هذا المسحوق ، ويختفي اللون الأخضر للأوراق تماماً في 24 ساعة ، وبعد يوم يغطى مسحوق الأوراق بطبقات الفطر البيضاء النامية ، وفي النهاية يبدأ الحصاد مباشرة وحصلت النملات على الغذاء الذي تتغذى عليه .

6 ـ النملةُ تعطي وتأخذ :

تؤثر النملات التي تعمل بالحصاد زميلاتها على أنفسها ، وتجعل لها الأولوية فتحمل الفطر إلى النملات العاملات خارج غرف الحصاد ، هذه نملة حاصدة تقدم السائل المغذي الذي حصلت عليه من الفطر لنملة تعمل في مكان آخر ، النملة عندها جهاز مص وجهاز ضخ ، وفي الإنسان جهازُ مصٍّ فقط، يأخذ ولا يعطي ، النملة تعطي وتأخذ ، إن رأت نملة جائعة تعطيها من خلاصتها الهضمية بجهاز خاص هو جهاز الضخ .

وبهذا الأسلوب وزع الغذاء الذي تحتاجه جميع النملات من قاطعات الأوراق التي تعمل في الخرج إلى الطاحنات التي تحول الأوراق إلى مسحوق ، وهكذا تعمل 500 ألف نملة يومياً ، وعلى مدار السنة دون توقف بتعاون وتكافل رائع .

7 ـ النظافة وحماية البيئة عند النمل :

تنظيف الخلية حالاً ، تنظف العاملات غرف الإنتاج لإزالة الفضلات قطعة قطعة ، ثم ترمي بها في ساحة خالية خارج مملكتها ، هذه الكائنات النشيطة لا تعرف الراحة ولا التشكي ، هناك في المستعمرة نملات ذات مهمات أخرى ، على سبيل المثال :

8 ـ حفظُ الأمنِ والدفاعُ عند النمل :

نملات تقوم على حماية المملكة ، إنها محاربة شجاعة ، وقوية مضحية ، يهرع العسكر خارجاً لأقل حركة حتى لو كانت وقع قدم إنسان يقترب منها ، هذه الأفراد المحاربة أثقل من النملات الأخريات بـ300 ضعف ، النملات المحاربة جيش على أقلّ حركة خارج المملكة ، يخرج قطيع من النمل المحارب بأجسام يزيد حجمها 300 ضعف عن النملة الصغيرة .
كل شيء في أطراف المملكة عجيب ، تقوم هذه النملات التي أوكل إليها الدفاع بعض حذاء الإنسان أحياناً وجواربه ، أو جوارب إي إنسان يقترب من مملكتها ، وإذا أمسكت بفكيها لحم كائن غريب لا تتركه أبداً بل قد تخسر حيتها من أجل بقاء المستعمرة ، ولا تفتح فكيها حتى لو تضررت بقيت أعضاء جسمها ، هذا بلا شك مثال عظيم للتضحية .
تعد النحلات الطنانة أكبر عدو للنملات القاطعة للأوراق ، تستطيع النملة الدفاع عن نفسها بسهولة تجاه النحلة الطنانة ، بفضل فكين قويتين ، ولكن تبقى دون دفاع تجاه أي هجوم مفاجئ ، لأنها تمسك الورقة بفكيها .
إذاً : كيف يتحقق أمن النملة التي تحمل الورقة بفكيها ؟ الجواب : هذا السؤال يظهر مرة أخرى التكافل الاجتماعي في مستعمرة النملات ، لنرى عن قرب أكثر النملات حاملات الورق ، نلاحظ على كل ورقة واحدةً من النملات العاملات الصغيرة مهمتها حماية حاملة الورق ، ونملة أخرى مهمتها من تحمل الأوراق تجاه أي غارة جوية محتملة ،

(إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ)

هذه الحرس مختصر جداً ، لو تعمقنا في موضوع النمل والنحل لرأينا العجب العجاب ، ولكن هذا كله لا بأمر تكليفي كالإنسان بأمر تكويني ، هي ما لها فضل في ذلك ، لكن الله يرينا عظمة خلقه في مجتمع النمل أحياناً .

تقوم هذه النملات الحارسات للدفاع ضد هجوم بفكيها القويتين ، وتفوت على النحلة اصطياد النملة الحاملة للورق .

أستاذ علاء ،

في كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

والتفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (53-95) - مقومات التكليف : الاختيار - الآيات المتشابهات والمحكمات2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، بدأنا في الحلقة الماضية بتناول موضوع هام ، هذا الموضوع جاء في سياق مبحث الاختيار كمقوم من مقومات التكليف ، أو أحد مكونات التكليف الأساسية والتي عليها الاتكال ، وهي مسألة الاختيار ، تبيَّنا لو أنه ألغي الاختيار ، وكان الله عز وجل قد فرض الطاعة فرضا لأمر تكويني على العباد ، ماذا يمكن أن يكون ؟ ولو فرض المعصية بأمر تكويني ، ماذا يمكن أن يكون ؟ وأن ذلك يتنافى مع عدل الله عز وجل ، وأن لا قيمة للثواب في ذلك ، ولا قيمة للعقاب والحساب في ذلك .
بدأنا وشرحتَ لنا أن في القرآن الكريم آيات محكمات ، وآيات متشابهات ، نعلم أن نسبة المحكمات المتشابهات المطلقات 80% محكمات ، و20% من آيات القرآن الكريم متشابهات ، لكن في مسألة الاختيار تكثر المتشبهات وتقلّ الآيات المحكمات في الاختيار وأُذكّر السادة المشاهدين بالقاعدة المعروفة : " الآيات المتشابهات تحمل مهما كثرت على الآيات المحكمات مهما قلّت " .
نعود معكم سيدي الأستاذ ، ونعرف ماذا نعني بالمحكم ؟ وماذا نعني بالمتشابه ؟ حتى نذكر الذين انضموا إلينا في هذه الحلقة ، وما معنى أن المتشابه يحمل على المحكم من الآيات ؟
الدكتور راتب :

معنى الآيات المحكَمات والآيات المتشابهات :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
الآيات المحكمات أحادية المعنى ، لا تحتمل معنيين يختلف عليها اثنان في الأرض ، ولا تحتاج لا إلى تفسير ، ولا إلى تحليل ، ولا إلى حوار ، ولا إلى أدلة ، ولا إلى نقد الأدلة لأن المعنى أحادي ، هذا شأن الله عز وجل ، لكن لحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله في قرآنه آيات متشابهة ذات معاني متعددة احتمالية المعنى .

وقلت في حلقة سابقة : إن المحكمات تغطي ثوابت الإنسان ، فأسس سلامته وسعادته مغطاة بأوامر قرآنية ، وأوامر نبوية محكَمة ، لا تحتمل معاني متعددة ، بينما المتغيرات قد تحتمل معاني متعددة ، ولأن الله هو الذي ترك هذه الآيات المتشابهات ، أي أنه أراد كل المعاني ، وهذا يسمى غنى في التشريع ، تعدد غنى لا تعدد ضيق .

الأستاذ علاء :

من هنا كان : " اختلاف أراء أمتي رحمة " في آرائها ، وفي مدارسها .

الدكتور راتب :

الإضلال الجزائي من الله مبنيٌّ على ضلال اختياري من العبد :

أستاذ علاء ، نحن الآن أمام آية يُشم منها رائحة الجبر ، أي أنك إذا عزوت الضلال إلى الله فهذا هو الإضلال الجزائي ، المبني على ضلال اختياري ، كيف ؟ يحتاج الأمر إلى مثل :

هناك طالب انتسب في الجامعة ، لم يداوم إطلاقاً ، لم يقدم امتحانا ، لم يشترِ كتباً ، جاءه إنذار تلوى الإنذار ، خمسة إنذارات ، أصر على ترك الجامعة ، وعدم الالتفات لكل هذه الإنذارات ، الآن صدر قرار من رئاسة الجامعة بترقين قيده ، هل هذا القرار هو الذي أجبره على ترك الدراسة ، أما أنه تجسيد لاختياره ؟

هذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

هذا الإضلال الجزائي مبني على ضلال اختياري ، الله قال :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

اختار الكفر ، إنسان اختار ألا يؤمن ، إنسان اختار الدنيا ولم يعبأ ، اختار الشهوة ، ولم يعبأ بالمبادئ والقيم ، اختار العاجل ، ولا يعبأ بالآجل ، هذا اختياره ، فلما أصر على هذا الاختيار عملياً شاء الله له ذلك ، لأنه مخير ، بناءه مخير ، تخيير غير تكليفه ، لأن الإنسان ركب من عقل بلا شهوة ، ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، أما الإنسان فمن عقل وشهوة ، الحيوان غير مكلف ، والملك غير مكلف ، الملك العقل بلا تكليف ، والحيوان شهوة بلا تكليف ، الإنسان حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

قال : أنا لها ، فإذا لم يقم بواجبه ، ولم يرعَ هذه الأمانة :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

أما إذا قام بواجبه ، ورعى هذه الأمانة ، وتفوق على كل الخلق :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

حينما اختار ذلك ، صار معنى استفهامي .

الأستاذ علاء :

هنا المعنى الاستفهامي رائع جداً ، يا ترى اختياره كان فيه ظلم ، وجهل ؟ لا ، وإنما اختار لأنه اختار الأمانة ، وحملها حملاً مقتدرا .

الدكتور راتب :

إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً

هناك أب عنده عشرة أولاد ، عنده معمل ، خيَّرهم بين أن يبقوا في البلد ولكل واحد بيت ، وسيارة ، ودخل ثابت ، والذي يأتيه بدكتوراه من بلد بعيد يعطيه كل المعمل ، أو نصف المعمل ، قال ولد منهم : أنا لها ، فذهب إلى هناك ، وجاء بالدكتوراه ، فأخذ نصف المعمل ، وهذا مقابل شديد .

أو نتصور حالة أخرى أن الولد لم يأت بالدكتوراه ، بل كانت أيامه في لهو ولعب هناك ، فرجع بلا زواج ، ولا بيت ولا سيارة ، ولا دخل :

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

على الإطلاق ، أما الذين كفروا :

(أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

يعني شر ما برأ الله ، والإنسان ما عنده حل وسط ، إما أنه فوق الملائكة ، أو دون أحقر حيوان .

هناك إضلال جزائي مبني على ضلال اختياري ، لكن في هذا اللقاء الطيب أذكر الإخوة المشاهدين أنه في قوله تعالى :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة الآية : 13)

كيف نفهم هذه الآية ومثيلاتها : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا

أنتم حينما تخطئون تتوهمون أن هذا الخطأ من قِبلي ، أجبرتكم عليه ، أنتم واهمون ، لو أنني أردت أن ألغي اختياركم ، وأن ألغي تكليفكم ، وأن ألغي ما أعددت لكم من نعيم مقيم ، وأجبرتكم على شيءٍ ما لما أجبرتكم إلا على الهدى ، ولو شئنا أن نلغي اختياركم ، أن نلغي هويتكم ، فلا تكليف ، أن يلغى حمل الأمانة ، أن تلغى الجنة ، أن تلغى النار ، أردت أن أجبركم على شيء ما ، ما أجبرتكم إلا على الهدى :

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكن هوية الإنسان مخير ، وتتعلق مشيئة الله بمشيئة العبد ، كمثل موضح :

أنا في صيدلية فرضاً ، وأريد إنسانا يساعدني بعد الظهر ، أحب أن يكون على إلمام بالأدوية ، فامتحنته ، جمعت له مجموعة أدوية على الطاولة ، قلت له : هنا سموم ، هنا مضادات حيوية ، هنا الفيتامينات ، هنا المسكنات ، وزِّع هذه الأدوية في أماكنها ، إذا أمسك دواء الفيتامين ليضعه مع السموم ومنعته ألغي الاختبار ، لا بد من أن أسمح له من أن يكون مخيرًا ، لا بد من أن أحاسبه على خطئه ، هذا معنى قول : تعلقت مشيئة الله بمشيئة العبد .

فلذلك آيات كثيرة يُشم منها رائحة الجبر ، لكن لها معان عميقة جداً :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة الإنسان الآية : 30)

إذا شئتم الهداية ، وإذا عملتم لجنة ، وإذا سعدتم بها إلى أبد الآبدين ، لولا أن الله شاء لكم أن تشاءوا لما شئتم ، هذا ليس ربط جبر ، بل ربط فضل ، وبينهما فرق كبير ، قدر علينا من اختيار لما اخترنا الصواب ، هناك فرق كبير بين أن أربط مشيئة العبد بمشيئة الله ربط جبر ، وبين أن أربط مشيئة العبد بمشيئة الله ربط فضل .

بالمناسبة :

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء)

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

لو أن هذا القرآن نزل على إنسان غير عربي ، يتكلم لغة أخرى ، وقرأه على أهل مكة ، وهم عرب أقحاح ، ما فهموا منه شيئاً .

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

الآن :

(نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الحجر)

هذا القرآن بعظمته يستحيل على إنسان غارق في الشرك ، غارق في عقيدة سيئة ، غارق في حظوظ نفسه ، يعتدي على الآخرين ، هذا الإنسان مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يفهم كلام الله .

أحيانا آية يرقص إنسان لها طرباً ، والآية نفسها إنسان غافل عن الله ، غارق في شهواته ، معتدٍ على الآخرين يفهمها فهماً آخر ، لذلك قال تعالى :

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت الآية : 44)

لذلك :

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

(سورة الإسراء)

الفرق كبير ، فلذلك هذا القرآن :

(فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

(سورة الواقعة)

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ : أمرٌ تكويني :

قضية اللغة إخواننا المشاهدين مَن على إلمام منهم باللغة يفهمها تماماً : الفعل المضارع المضعَّف إذا سبقه حرف جازم يجب أن يُفَكّ تضعيفُه ، لم يمسس ، لا يمسسه ، لو أن (لا)ناهية جازمة لوجب الفعل أن يكون : لا يمسسه ، أما الفعل فجاء :

(لَا يَمَسُّهُ)

ـ هذه (لا)نافية ، والنافية تعني فعل الله ، أما الناهية فتعني أمره التكليفي .

أنت في طريق مكتوب عليه : ممنوع المرور ، هذا أمر تكليفي ، لكن الطريق سالك ، يمكن للمواطن أن يخالف هذا الأمر ، فيدفع الثمن ، أما إذا كان على الطريق مكعبات إسمنتية فلا يمكن أن تخترق الطريق ، فهناك فرق بين أمره التكويني وأمره التكليفي :

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

هذا أمر تكويني ، وليس أمراً تكليفياً فيه نهي .

هذا دليل واضح على أن الله خلقها ، ووهبها هذه الخصائص التي هي عليها ، وتظهر قدرة الله جل جلاله ، وإتقانه لخلقه في الكائنات ، والنمل أيضاً واحد من تجليات صنعة الله التي لا حد لها في الأرض ، قال تعالى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)

(سورة البقرة)

الحقيقة أن التفكر في خلق السماوات والأرض كما قلت في حلقة سابقة أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأنه يضعنا وجهاً لوجه أمام عظمة الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (54-95) - مقومات التكليف : الاختيار - إدعاءات باطلة ـ اليعسوب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

ربط السابق باللاحق :

سيدي الكريم ، نحن في كل بداية حلقة نود أن نربط الحلقات السابقة وموضوعاتها بما نتحدث به ، وهو سلسلة ، أو حلقة في سلسلة مترابطة متراصة ، ومرصوفة بشكل علمي ، لا يعرف الفتور بفضل الله عز وجل .

تحدثنا عن مقومات التكليف ، ووصلنا إلى الكون ، ثم العقل ، الفطرة ، الشهوة ، ووضعنا رحالنا عند الاختيار ، وتبينا من خلال ما قدمتم بأن الله عز وجل خيَّر الإنسان فيما كلّف به ، وتبيَّنا بأن تخيير الإنسان فيما كلّف به يتسق مع عدل الله عز وجل ، ويتسق مع وجود الثواب والعقاب ، وأن الجبرية لا تثمِّن العمل ، وتتنافى مع عدل الله عز وجل وكماله بكل معنى الكلمة .

لكن سيدي ، هنالك الكثير من الآيات التي يُشتم منها رائحة الجبر ، ويتناقلها الناس في المحافل وفي الجلسات ، ويأتون بها شواهد لإثبات وجهات النظر ، بأن الله يضل فلاناً ، وأن الله قدر على فلان هذا الشيء ، واستسلم لهذا القدر ، وهنالك من يقول :

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)

(سورة الكهف)

والفعل عائد على الله عز وجل ، كيف نلخص ما مر معنا ، ثم لنبتدئ بالحوار درجة درجة إن شاء الله.

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

ادعاءات الساقط من عين نفسه هروب من الحقيقة :

1 – الانحراف في السلوك نتيجتُه سوءُ الظن بالله :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً على هذا السؤال ، الحقيقة أن حسن الظن بالله ثمن الجنة ، وأن الإنسان حينما ينحرف في سلوكه يسيء الظن بالله .

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

(سورة الفتح الآية : 6)

2 – كلُّ انحراف من الإنسان يبحث له عن تبريرٍ ودفاع :

هناك قضية نفسية أستاذ علاء دقيقة جداً ، الإنسان عنده عقل باطن ، وعنده عقل واعٍ ، أحياناً حينما يسقط بنظر نفسه ، حينما ينحرف ، حينما لا يستقيم تعذبه فطرته ، بالتعبير النفسي : يختل توازنه ، كيف يستعيد هذا التوازن ؟ بإحدى أساليب ثلاثة :

الأسلوب الصحيح بعد الانحراف هو التوبة :

الأسلوب الصحيح والناجح والموفق : أن يتوب إلى الله .

أما أن يظل على خطئه ، وعلى انحرافه ، وعلى تقصيره في أداء ما عليه ، وعلى انغماسه في شهوات لا ترضي الله ، يستعيد توازنه حينما يتعلق بعقيدة فاسدة ، يقول : الله قدر عليّ ذلك ، من يقول هذا الكلام ؟ من غلبته شهوته ، وسقط في حمأة المعصية ، فأراد أن يستعيد التوازن الذي اختل بمعصيته ، فيتعلق بعقيدة فاسدة ، فلذلك يسيء الظن بالله عز وجل ، يقول : إن الله قدر عليّ ذلك ، يا أخي لمَ لا تستقيم على أمر الله ؟ يجيبك بقوله : لم يهدِنِي الله بعد .

كل الحجج الواهية التي يبلي بها الساقط من عين نفسه ، والذي اختل توازنه ، هذه حجج هي في الحقيقة في علم النفس دفاع عن النفس .

في الإنسان 300 أسلوب للدفاع عن نفسه ، دون أن يشعر يكذب الخبر ، فتكذيب الخبر أول طريق من طرق الدفاع عن النفس ، وأنا أقول : هذا الذي عصا ربه ، وبنى مجده على أنقاض الآخرين ، بنى حياته على موتهم يختل توازنه الذي فطر عليه .

التعلق بالعقائد الفاسدة أسلوب فاسد بعد الانحراف :

تحدثنا في الفطرة حلقات كثيرة ، الإنسان فطرته كاملة ، فإذا خالف مبادئ فطرته يختل توازنه الداخلي، لذلك دون أن يشعر يسلك عدة أساليب كي يستعيد هذا التوازن ، أحد أكبر هذه الأساليب أن يتعلق بعقيدة فاسدة .

مثلاً : الذي يغش الناس في البيع والشراء ، ويدخل إلى مسجد ، ويسمع درسا عن الشفاعة ، يعجبه هذا الدرس جداً ، ويتعلق به ، وقد يفهم الشفاعة فهماً ساذجاً ، مضحكاً طفولياً ، لكن يعجبه أن النبي يشفع لكل أمته حتى المذنبين .

إذاً : التعلق بعقائد فاسدة هو الدفاع عن النفس ، هي محاولة يائسة لاسترداد التوازن الداخلي ، الذي فطر عليه .

فلذلك لا تجد إنسانًا تفوق في علاقته مع الله يقول : الله قدر علي الهدى ، دون أن يشعر يقول : هذا من فضل الله عليّ ، لكن أنا طلبت ، واجتهدت في ذلك ، أما الذي يعصي الله فيعزو معصيته إلى قضاء الله وقدره ، وإن الله لا يأمر بالفحشاء .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

يقول الله عز وجل :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

فكل ادعاءات الساقط من عين نفسه في أمور العقيدة ، وطرح بعض المقولات غير صحيحة هي في الحقيقة سلوك غير مدرك ، وهو سلوك العقل الباطن للدفاع عن ذاته .

الأستاذ علاء :

إذاً : أول طريق لإعادة التوازن التوبة ، الطريق الثاني التعلق بعقيدة فاسدة .

الدكتور راتب :

الطعن في الصالحين بعد الانحراف أسلوب الحمقى:

هناك طريق ثالث ، الطعن في الصالحين ، لأن الصالح يكشفه ، الإنسان المستقيم يكشف انحرافه ، فحينما يبحث عن خطأ موهوم في ذهن هذا المنحرف فهذا الخطأ يعيد له توازنه كما يتوهم ، فهي قضية نفسية .

الأستاذ علاء :

كالفاشل الذي يتناول الناجح ، وكالكسلان يتناول المتفوق .

الدكتور راتب :

الإنسان مخيَّر :

إذاً : هناك آيات في القرآن الكريم لها معنى دقيق وواضح جداً ، لكن الذين سقطوا أمام أنفسهم ، واختل توازنهم يحتجون بها ، مِن هنا كانت هذه الحلقات العديدة في الاختيار .

نحن بيّنا في دروس سابقة ، وفي لقاءات طيبة سابقة أن الإنسان مخير ، وأن الاختيار يثمِّن عمله ، ولا قيمة للعمل من دون اختيار ، ولو افترضنا أن الإنسان ألغي اختياره ، أي ألغي تكليفه ، ألغي حمل الأمانة ، ألغي الثواب ، ألغي العقاب ، ألغيت الجنة ، ألغيت النار ، أصبحت الحياة تمثيلية سمجة .

الأستاذ علاء :

كما تفضلت لك مثال جميل ، نحب أن نركز عليه ، الذي يدخل الامتحان ، وقد وزعت عليه ورقة الامتحان .

الدكتور راتب :

إلغاءُ الاختيار إلغاءٌ للتكليف :

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً)

(سورة الرعد الآية : 31)

لو أن إدارة الجامعة وزعت على الطلاب أوراق الإجابة ، هذا النجاح لا قيمة له إطلاقاً ، لا عند رئاسة الجامعة ، ولا عند الناس ، ولا عند الطالب نفسه .

إذاً لو ألغينا الاختيار لألغي التكليف ، ألغي حمل الأمانة ، ألغيت الجنة ، ألغيت النار ، ألغي الثواب ، ألغي العقاب ، ألغيت المسؤولية ، وعندئذٍ تتعطل جميع قوانين الأرض ، لأن في الأرض في قوانين ومحاسبة ، إذا ألغينا الاختيار تعطلت قوانين الأرض ، التي هي من صنع البشر .

إذاً : هذه الحالة الأولى ، استعادة التوازن تكون إما بالتعلق بعقيدة زائغة ، أو الطعن في الصالحين ، أو بالتوبة النصوح .

الآيات المحكمة مهما قلّت تحمل عليها الآيات المتشابهات مهما كثرت :

إلا أن القرآن كما تفضلت قبل قليل في آيات كثيرة جداً يُشم منها رائحة الجبر ، وقد تحدثنا في حلقة سابقة أن الآيات المحكمة مهما قلّت تحمل عليها الآيات المتشابهات مهما كثرت .

إذاً : حينما يقول الله عز وجل :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

الآية الأصل في الاختيار :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

(سورة البقرة الآية : 148)

الآن لو ألف آية في القرآن الكريم يُشم منها رائحة الجبر ، تُحمَل على هذه الآيات المحكمات .

الإضلال الجزائي مبني على ضلال اختياري :

بدأنا في اللقاء السابق ، والفضل لله عز وجل بالحديث عنى الإضلال الجزائي الذي بني على ضلال اختياري ، يؤيده قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

وبينت أن الطالب الذي ينقطع عن الدوام في الجامعة ، ولا يقدم امتحان ، ولا يدرس ، يأتيه الإنذار ، تلو الإنذار ، تلو الإنذار ، ويصر على ترك الجامعة ، الآن يصدر قرار بترقين قيده ، هذا القرار ليس

جبراً له ، بل هو تجسيد لرغبته التي أصر عليها ، فهذا اسمه الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، ورد في القرآن الكريم :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

هذا ما تحدثنا عنه في الحلقات سابقة .

الإضلال الحكمي :

اليوم إن شاء الله الحديث عن الإضلال الحكمي .

حينما أغلق الباب الخارجي للبيت ، والأبواب الداخلية مفتحة ، وهي في الحقيقة مغلقة ، بإغلاق الباب الخارجي الأبواب الداخلية مغلقة ، فحينما يعبد الإنسان شهوته يتخذها إلهاً ، الآية الكريمة :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية)

حينما يرفض الإنسان الهدى كلياً ، يرفض الدين ، يرفض منهج السماء ، ما معه شيء ، فهو في ضلال حكمي ، ما أحد أضله ، وحينما تطفئ المصباح بيدك فأنت في ظلام ، وإذا وقعتَ في الحفرة فلا أحد دفعك إليها ، أما إطفاء المصباح فأوصلك حكماً إلى هذه الحفرة .

الإضلال الحكمي تحصيل حاصل يسميه العلماء ، فحينما أطفئ مصابيح سيارتي في الليل الأليل ، وحينما يكون الطريق متعرجاً ، وعلى يمينه وادٍ سحيق ، وعلى يساره وادٍ سحيق ، فالسقوط في الوادي حكمي .

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ

الآية الأولى :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ)

ليس كلُّ عاقلٍ ذكيًّا :

هناك ملمح دقيق في قوله :

(عَلَى عِلْمٍ)

قد يحمل الرجل دكتوراه ، نقول : ما كل ذكي بعاقل ، الذكاء شيء ، والعقل شيء آخر ، الذكاء متعلق بالتفاصيل ، بالجزئيات ، قد يحمل الإنسان دكتوراه في الذرة ، لأنه غفل عن سر وجوده في الدنيا ، وعن غاية وجوده ، قد يستخدم الذرة لصنع سلاح يدمر البشرية ، هو ذكي جداً ، متفوق جداً ، وقد يصل ذكائه إلى 140 من فوائد الذكاء ، ومع ذلك ليس عاقلاً ، لأنه سبب دماراً للبشرية ، لأنه ما عرف سر وجوده ، ولا غاية وجدوه ، فما كل ذي بعاقل ، من هو العاقل ؟ الذي عرف الله ، عرف لماذا هو في الدنيا ، وماذا بعد الموت ، عرف من أين ، وإلى أين ، ولماذا . إذاً :

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

الضال قد يكون إنسانا مثقفا ثقافة عالية جداً ، وقد يجمع تفاصيل دقيقة في اختصاصه ، هذه المعلومات محشوة في دماغه ، لكن عقله بمعنى إدراكه الحق لم يحصِّله .

الموضوع العلمي : اليعسوب :

1 – اليعسوب ذو قابلية لرؤية خارقة :

ترسل المعلومات الآتية من هذه الأعين إلى مخ اليعسوب الذي يعمل كحاسوب ، وبهذا فاليعسوب ذو قابلية لرؤية خارقة .

2 – اليعسوب ذو قابلية خارقة للمناورة :

أما قابلية اليعسوب للمناورة فتفوق أحدث المروحيات المتطورة . على سبيل المثال : تنجو اليعسوب بمناورة خاطفة في لحظة مفاجئة من الشاحنة الآتية ، اليعسوب الآن وجهاً لوجه أمام فخ مزدوج ، فهي مضطرة للهروب من الاصطدام بزجاج السيارة القادمة ، وفي الوقت نفسه من الصقر الذي يترصد صيدها ، وتفوز اليعسوب بمناورة ناجحة جداً ، لتكون هذه الحشرة مثلاً يحتذى لأحدث طائرة مروحية في العالم هذا شيء مدهش .

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية : 11)

مرة اطلعت على موسوعة في الطيران في المقدمة موسوعة (لايف الأمريكية) ، يقول المؤلف : إن أرقى طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (55-95) - مقومات التكليف : الاختيار - الإضلال عن الشركاء - اليعسوب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير بما سبق :

كنا قد تحدثنا في الحلقة السابقة وفي حلقات سابقة عن الاختيار ، وأن الله عز وجل جعل الاختيار للإنسان فيما كلف به ، وتبينا الآيات التي يُشم منها رائحة الجبرية ، وضحنا بأن لا جبر فيها ، ولا قسر فيها ، ووضحنا الإضلال الجزائي ، والإضلال الحكمي ، وبقي علينا في هذه الحلقة أن نتحدث عن الإضلال عن الشركاء ، ماذا نقصد بالإضلال عن الشركاء ؟

الدكتور راتب :

كلمة التوحيد : لا إله إلا الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – ماذا تعني كلمة التوحيد ؟

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، كلمة الإسلام الأولى لا إله إلا الله ، وتعني أنْ لا معطي ، ولا مانع ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ، ويد الله تعمل وحدها .

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

2 – كلمة التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعًا :

هذا هو الإيمان ، بل إن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء التوحيد والعبادة .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

يعني فحوى رسالات السماء من آدم إلى يوم القيامة التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

أما الإيمان بالله خالقاً فإن إبليس مؤمن به خالقاً ، قال :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

إبليس مؤمن أنه رب عزيز ، قال :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص : 82)

أما أن تؤمن أن الأمر بيد الله ، وأن يد الله تعمل وحدها ، وأنه لا معطي ، ولا مانع ، ولا خافض ، ولا رافع إلا الله ، فهذا هو الإيمان .

3 – الاتجاه لغير الله ينافي عقيدة التوحيد :

حينما يتجه الإنسان لغير الله يقع في الشرك .

مرة ضربت مثلاً دقيقًا : إنسان له مبلغ كبير ، هو في دمشق ، ومبلغ كبير جداً في حلب ركب القطار المتَّجه إلى حلب ، قد يقترف أخطاء كثيرة في هذا الركوب ، قد يركب في الدرجة الثالثة وبطاقته درجة أولى ، هذا خطأ ، لكن الطريق باتجاهه لحلب ، قد يجلس مع شباب أصواتهم عالية ، مزاحهم ثقيل ، هذا خطأ ثانٍ ، قد يجلس بعكس اتجاه القطار فيصاب بالدوار ، هذا خطأ ثالث ، قد يتلوى من الجوع ، وفي القطار مطعم ، هذا خطأ رابع ، لكن القطار في طريقه إلى حلب ، وهدفه محقق ، أما الخطأ الذي لا يغتفر أن يركب قطار مدينة درعا .

هذا هو الشرك ، الشرك توجهت إلى غير الله ، إلى مخلوق ما عنده شيء ، وإذا توجهت إلى الله يغفر لك كل أخطائك ، أما إذا توجهت إلى غير الله ، وإذا علّقت الأمل بغير الله ، وإذا واليت غير الله ، إذا عقدت الأمل على غير الله ، إذا خفت من غير الله ، إذا كنت مجيراً لغير الله ، إذا كنت محسوباً على غير الله فقد احتقرت نفسك .

مرة عالم جليل أجرى عملية في بريطانيا ، وجاءته مئات ألوف الرسائل والاتصالات ، لفت نظر مَن في بريطانيا ، أجرت معه المحطة الإذاعية حوارًا ، سألته : ما هذه المكانة التي حباك الله بها ؟ هو اعتذر عن الإجابة ، فلما ألحوا عليه ، قال : لأني محسوب على الله .

حينما يكون الإنسان محسوبًا على غير الله يحتقر نفسه ، فأنت لله ، لذلك كن مع الله تكن حراً ، فإذا كنت مع غير الله تكون عبداً .

التوحيد هو الدين ، لا يقبل مؤمن أن يكون لغير الله ، ولا أن يكون محسوباً على غير الله ، ولا أن يكون مجيراً لغير الله ، ولا أن يكون حسنة لغير الله ، أو سيئة لغير الله .

الأستاذ علاء :

هذا هو محض التكليف .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ)

(سورة الإسراء الآية : 70)

التكريم أن يكون محسوباً ، وحراً على الله فقط ، فإذا حسب على ما دون الله عز وجل فقد ضاع ، واحتقر مكانته ، وزهد بمكانته .

الدكتور راتب :

الرغبة عن دين الله سفاهة واحتقار :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة الآية : 130)

أي عُدَّ عند الله سفيهاً .

حينما لا ترغب بما عند الله ، حينما تتجه إلى غير الله غير الله عبد مثلك فأنت سفيه .

النبي بشرٌ لا يملك نفعا ولا ضرا :

النقطة الدقيقة جداً : سيد الخلق ، وحبيب الحق قال :

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

(سورة الأنعام)

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة هود الآية : 31)

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً)

(سورة الجن)

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية : 188)

هذا سيد الخلق وحبيب الحق ، فما قولك فيما دون ذلك ؟ .

((يا فاطِمَةُ ، أنقِذي نفْسَكِ مِنَ النَّارِ ، فإنَّ لا أملك لكم من اللّه شيْئا))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبو هريرة]

لا يأتوني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم .

((ومَن بطَّأ به عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبو هريرة]

لو أن إنسانا استطاع أن ينتزع من فم النبي الكريم فتوى لصالحه ، وكان لسِناً ذا حجة ، والنبي أفتى له، فلا ينجو من عذاب الله ، فما بال أناس يتعلقوا بفتوى إمام مسجد لا يفقه من الفقه شيئاً .

عن أمّ سَلَمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ :

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا))

[متفق عليه]

إذاً قضية أن الإنسان ما يكون موحدًا مشكلة كبيرة جداً .

ماذا يعني الشرك ؟

الشرك أن تتجه إلى غير الله ، أن تعقد الأمل على غير الله ، أن تعتمد على مالك فقط ، أن تعتمد على منصبك فقط ، أن تعتمد على من حولك فقط ، أن تنسى الله ، أن تعبد غير الله ، لا أقول لك أن تعبده أن تجعله إلهاً ، لا ، يكفي أن تعصي الله من أجله فأنت تعبده ، يكفي أن تطيعه في معصية الله .

الأستاذ علاء :

سيدي ما الفرق بينها وبين أن نجعلها من الأسباب المتخذة ؟

الدكتور راتب :

بين الاعتماد على غير الله واتخاذ الأسباب :

1 – الأسباب بين تأليه الغرب لها وترك المسلمين :

الله عز وجل قال :

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

(سورة الكهف)

عندي نقطة دقيقة جداً ، بارك الله بك أستاذ علاء ، أنا أمشي على طريق ضيق ، عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق ، أنا إن أخذت بالأسباب كما يفعل العالم الغربي واعتمدت عليها كلياً ، ونسيت الله عز وجل وقعت في وادي الشرك ، وإن لم آخذ بها إطلاقاً ، واعتمدت على التواكل وليس توكلاً كما يفعل أهل الشرق وقعنا في معصية أخرى ، فإما وقعنا في الشرك حينما ألهنا الأسباب واعتمدنا عليها ونسينا الله عز وجل ، وإما تركنا الأسباب فوقعنا في المعصية .

2 – الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

ما الصواب ؟ أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

النبيٌّ يجسِّد حقيقة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

كما فعل النبي في الهجرة ، اختار من يأتيه بالأخبار ، اختار من يمحو له الآثار ، اختار من يأتيه بالزاد ، سار باتجاه معاكس لهدفه ، سار مساحلاً ، قبع في غار ثور ثلاثة أيام ، استأجر دليلا رجح فيه الخبرة على الولاء ، لم يدَع ثغرة في الخطة إلا سدّها ، ووصلوا إليه ، لأنه أخذ بالأسباب تعبداً ، وتوكل على الله يقيناً ما تأثر ، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ :

((مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي]

لماذا سمح الله للمطاردين أن يصلوا إلى الغار ؟ ليبين أن أخذه بالأسباب تعبداً ، لكن اعتماده على الله ، هذه بطولة ، وفي رواية ضعيفة ، لقد رأونا ، قال له : يا أبا بكر ، أما تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ درس الهجرة درس أساسي لنا جميعاً .

لذلك الحديث الدقيق :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

أمّا أن أستسلم ، ولا أتحرك ، دون أن آخذ بالأسباب ، وأقول : هذا ترتيب الله ، هكذا مصيرنا ، انتهينا، ما بيدنا شيء ، هذا كلام بعيد عن جوهر الدين ، يجب أن آخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم أتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

بطولة السلف الصالح أنهم أخذوا بالأسباب ، واعتمدوا على الله ، وخطأ الغرب أنه أخذ بالأسباب واعتمد عليها ، خطأ الشرق أنه لم يأخذ بالأسباب أبداً ، تواكل على الله ، ولم يتوكل توكلاً صحيحاً .

الإضلال عن الشركاء :

1 ـ الإضلال عن الشركاء تأديبٌ من الله للعبد :

الشرك خطير ، ربنا عز وجل رب ، أي أنه مربٍّ ، فإذا رأى عبداً من عباده المؤمنين تعلق بغيره ، واتجه إلى غيره ، وعقد الآمال عليه ، وطمع في رضاه بسخط الله يؤدبه بأن يضله عن شركائه . لك صديق حميم قوي أعطاك هاتفه ، وقعت بأزمة نسيت الله تذكرت هذا الصديق القوي ، دخلت عليه لم ينظر إليك ، ولم يقل لك : اجلس ، بل خيَّب ظنك ، هذه تربية إلهية دقيقة جداً ، أراد الله أن يضلك عن شركائه ، الله يغار عليك ، ويريدك أن تكون له ، أن تعتمد عليه .

2 ـ الاستعانة بالأشخاص فيما يقدرون عليه من تمام اتخاذ الأسباب :

لا مانع أنا حينما أكون موحداً أكون مؤمن أن يكون الفعل فعل الله ، أنا آخذ بالأسباب عن طريق شخص ، فرق كبير جداً بين أن أتجه إلى شخص ما ، وأنا موقن أنه وحده بإمكانه أن يوقظني ، ولا علاقة بهذا ، وبين أن أطلب منه أن يحل لي هذه المشكلة على أنه سبب من الأسباب التي أمرني الله بها، الفرق دقيق جداً ، لولا أن أعتمد عليه ، وبين أن أتخذ سبباً .

3 ـ لابد مِن شكر الناس بعد شكر الله :

لذلك أنا حينما أنجح أشكر الله أولاً ، وأشكر الناس ثانياً ، لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله .
سيدنا رسول الله نزل الوحي بتبرئة السيدة عائشة ، نزل الوحي ، كان عندها الصديق أبوها ، قال : << يا عائشة قومي واشكري رسول الله ، قالت : لا والله لا أشكره ، لا أشكر إلا الله >> ، فتبسم النبي، وقال :

((عرفت الحق لأهله))

حينما تنجز تشكر الله أولاً ، وبعدها تشكر الذي جعله الله سبباً لهذا الخير ، والمؤمن لبق ، ولطيف ، وفهيم ، واجتماعي ، لكن لا يشرك بالله ، لا يرى أن هذا الطبيب شفى ابنه ، يرى أن هذا الطبيب الله جعله وسيلة ، هذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

الأستاذ علاء :

كيف نقرأ سيدي في هذا المنظور الذي تتحدث عنه ما جرى في بدر ، وما جرى في حنين .

الدكتور راتب :

غزوة بدرٍ وحُنين درسان بليغان لكل مسلم :

أستاذ علاء ، الحقيقة أن أي مسلم الآن معه درسان بليغان : درس بدر ودرس حنين .

1 – درس غزوة بدر :

في بدر قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

أي مفتقرون إلى الله .

حينما أُقدِم على عمل كبير أقول : يا الله ، إني تبرأت من حولي وقوتي ، والتجأت إلى حولك وقوتك .

أنا أعرف طبيبا جراحَ أعصاب ، يصلي ركعتين أمام المريض قبل أن يبدأ بالعملية ، ويدعو : يا رب وفقني ، يا رب ألهمني الصواب ، يا رب يسر لي هذا العمل الجراحي .

أنت طبيب ، أنت مهندس ، محامٍ ، مدرس ، خطيب مسجد ، داعية ، قبل أن تقدم على عمل ، افتقر إلى الله ليأتيك الدعم ، ويأتيك التوفيق .

لذلك درس بدر أن الصحابة افتقروا إلى الله فانتصروا وهم 300 مقابل ألف من صناديد قريش .

2 – درس غزوة حنين :

الدرس المعاكس : في حنين وجدوا نفسهم عشرة آلاف ، فقالوا في نفوسهم :

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

ومعهم سيد الخلق ، وحبيب الحق ، هم نخبة البشر ، لكن وقعوا في الشرك ، قالوا : نحن أقوياء ، لذلك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ)

(سورة النساء الآية : 49)

هؤلاء وقعوا في الشرك ، فالله عز وجل قال :

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة الآية : 25)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر منه))

ما الذي هو أكبر مِن أنْ لا تذنب ؟

((العجب))

[أخرجه البزار عن أنس بن مالك]

قال بعض العارفين بالله : " رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ".

الطريق الصواب هي الجمع بين الأسباب والتوكل على الله :

هذا الدرس بليغ جداً ، يحتاجه المؤمن الآن ، فقد يُقدِم على امتحان ، ويقول : أنا متمكن من الحساب والجبر ، ثم لا تنجح ، يجب أن تدرس دراسة متقنة جداً ، ثم تقول : يا رب وفّقني ، وقبل أن تسافر يجب أن تراجع المركبة مراجعة دقيقة ، بكل تفاصيلها ، وتقول : يا رب احفظني ، البطولة أن تجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على رب الأرباب ، الأحادية سهلة ؛ أن تأخذ بالأسباب ، وتعتمد عليها ، سهل جداً ، وألا تأخذ بها أصلاً كما يفعل عوام المسلمين أيضاً سهل ، أما أن تأخذ أخذاً جيداً متقناً فهذا يوقعك في مزلق ، لأنك لست بحاجة إلى الله .

الأستاذ علاء :

سيدي ، مِن هنا كيف نفهم هذا المعنى مما جعله سيدنا عمر بن الخطاب أول حِجْرٍ صحّيٍّ في التاريخ ، وهو مرض الطاعون .

الدكتور راتب :

الأسباب وعلاقتها بالتوحيد :

قد قيل له : أفراراً من القدر ؟ لكنه أخذ بالأسباب ، قال : لا ، لو عندك أرض مجدبة وأرض خصبة ، إن رعيت الإبل في أرض مخصبة رعيتها بقضاء الله وقدره ، وإن رعيتها في أرض مجدبة فقد رعيتَها بقضاء الله وقدره ، وأنا أفرُّ مِن قدر الله إلى قدر الله .

الأستاذ علاء :

من هنا أيضاً جاء من بعض دروس عزل سيدنا خالد بن الوليد ، عن قيادة المعارك في اليرموك .

الدكتور راتب :

قال له : لمَ عزلتني ، قال له : والله إني أحبك ، قال له مرة ثانية : لمَ عزلتني ؟ قال له : والله إني أحبك، لأن سيدنا عمر عملاق الإسلام ، وسيدنا عمر خليفة راشد ، سيدنا خالد قلق على نفسه ، ظن أن هذا من خطأ عنده ، قال له : والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله ، خاف عمر على أمته أن يروا أن النصر من عند خالد ، خالد عبد لله ، والنصر من عند الله عز وجل .

فلذلك التوحيد خطير جداً ، حينما يتجه الإنسان إلى غير الله دون أن يشعر يشرك ، قال تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

وكذلك حينما تعتمد على مالك .

الأسباب لا تؤدِّي مهمتها في بعض الأحيان ليؤدَّب الإنسانُ :

أعرف صديقًا قال : الدراهم مراهم ، تحل كل مشكلة ، الله أوقعه في مصيبة 63 يوما لا تحلها مئات الألوف ، فكان درسا لا ينساه ، تفضل حلها بالدراهم التي هي مراهم ، ما حلت معه .

لما يعتمد الإنسان على غير الله عز وجل يقع في الشرك ، اعتمد على ماله في مرض خبيث لا يحله المال .

والله مرة كنت عند طبيب قلب ، جاءه اتصال ، قال له : دكتور بأي مكان في العالم ، وبأيّ مبلغ ، قال له : والله لا أمل في الشفاء ، عنده مال ، لكن فقَد الصحة .

الله عز وجل يضلك عن شركائه ، وأنت على أي شيء اعتمدت ؟ على المال ، يبعث لك مشكلة لا تحل بالمال أبداً ، أقرب الناس لك يتطاول عليك ، اعتمدت على مكانتك تضعضع ، أي شيء اعتمدت عليه ونسيت الله ، الله عز وجل يؤدبك تأديبًا لطيفًا فيخيّب ظنك بالذي اعتمدت عليه ، وهذا إضلال عن شركائه .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، طالما وصلنا إلى هذه النقطة ، هنالك من يتطرف في نفي مسألة الشفاعة ، ويعتبر أن الشفاعة هي محض شرك ، وأنك تنزل غير الله منزلة الله ، مع العلم في الكلام القرآني الله عز وجل يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام فيقول له :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية : 33)

الدكتور راتب :

وقفة متأنية مع قوله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

هذه الآية لها معنىً كبير جداً نحن في أمسّ الحاجة إليه :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

يعني يا محمد ما دام منهجك وسنتك وسيرتك مطبَّقةً في حياتهم ، في بيوتهم ، في أعمالهم ، في كسب أموالهم ، في تربية أولادهم ، في حلهم ، في ترحالهم ، في أفراحهم في أتراحهم ، ما دام منهج الله مطبقاً في حياتهم فهم في مأمنٍ من عذاب الله ، فإذا كنا في عذاب شديد فنحن إذاً لا يعيش النبي معنا ، ونعيش مناهج أخرى ، نعيش مناهج مستوردة ، نعيش عادات وتقاليد وأساليب في الحياة لا ترضي الله عز وجل ، نحن في مأمنين ، المأمن الأول : أن نكون مطبقين لهذا المنهج الكريم النبوي ، والمأمن الثاني :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 33)

فأنا حينما أطبق منهج آخر يقول الله لي :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

فإذا وقعتُ في خطأ وزلّت قدمي ، وعدتُ إلى الصواب ، أيضاً أنا في بحبوحة ، إذاً هذا منهج آخر ، وحينما أطبق منهج النبي الكريم فأنا في مأمن من عذاب الله ، هذا معنى الشفاعة ، و لا ينالها إلا من مات موحداً .

بالتعبير الدارج ، أو بالأمثلة الواقعية : طالب عنده 12 مادة ، نجح في11 مادة ، أخذ علامات عالية جداً ، نقصه علامتين في مادة واحدة ، مثلاً :

(حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

مستحيل !

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ ، سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[متفق عليه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ ، فَقَالَ :

((يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا))

[مسلم]

لا يأتوني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم .

((ومَن بطّأ به عَملُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسبُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذه حقيقة الشفاعة . أستاذ علاء الآية الدقيقة :

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)

(سورة غافر)

هذا معنى دقيقة جداً :

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

الأستاذ علاء :

والله سيدي ، هذا الموضوع سنحط رحالنا أيضاً عنده في الحلقة القادمة إن شاء الله ، والآن ننتقل إلى الموضوع العلمي إذا سمحت ماذا أعددت لنا سيدنا ؟ .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : اليعسوب :

1 – مشكلة تعيين موقع الطائرات وفقا للأرض :

الحقيقة أنّ من إحدى المشكلات المتكررة بعد المناورات تعيين موقع الطائرة وفقاً للأرض ، نحن عندنا مشكلة تعيين موقع الطائرة ، الآن كل الطيران مبني على إرشادات أرضية ، لولا هذه الإرشادات لما كان طيران إطلاقاً ، فإذا تداخل على الطيار اتجاه الطائرة ، أيّ جهة أعلى أو أيّ جهة أسفل عندئذٍ تتعرض الطائرة للسقوط ، والإنسان في الطائرة لا يعرف أين يسقط نحو الأعلى أم نحو الأسفل .

2 – السمكة والحساسيات العصبية :

السمكة لها محفظة ، في أسفل المحفظة حبات كلس ، وفيها حساسات عصبية ، فما دامت حبات الكلس في أسفل المحفظة فإن ظهر السمكة نحو ظهر البحر ، فإذا قلبت الحبات تتغير مكانها إلى الجهة المعاكسة ، وهكذا لا حساسات .

إذاً : الله عز وجل أعطى السمكة جهازا بالغ الدقة كي تعرف أن ظهرها نحو سطح البحر أم قعر البحر.

كذلك اليعسوب ، في عنده جهاز يبين له الأفق الحقيقي ، الآن تقيس على الجهاز أين مكانه .

أنا ركبت طائرة ، ودخلت إلى غرفة الطيار وجدت هذا الخط الأفقي ، في خط أفق صناعي ، الطائرة لها خط ثاني ، مال يميناً ، يساراً ، أعلى ، أدنى ، هو ثابت خط الأفقي الصناعي ثابت .

3 – اليعسوب والخط الأفقي الاصطناعي :

فلذلك اليعسوب يحل هذه المشكلة ، وقد طوَّر التقنيون جهازاً يحدد للطيار خط أفق اصطناعي ، يقارن الطيار به خط الأفق هذا مع خط الأفق الحقيقي ، ويحدد وضع الطائرة في الوقت المناسب ، هذا الجهاز الذي طوره التقنيون يستخدمه اليعسوب منذ ملايين السنين ، فأمام أعين اليعسوب خط أفقي اصطناعي، لهذا يبقى رأسه موازياً للخط الأفقي الاصطناعي في اتجاه أي زاوية طار .

سقوط نظرية داروين بالإعجاز الخَلَقي في اليعسوب :

هناك نظرية التطور لداروين التي يزعم فيها حدوث الأشياء عن طريق المصادفات ، وهو يقف عاجزاً تجاه هذه الأسئلة ، لأن اكتشاف تطور الأنظمة في جسم اليعسوب تدريجياً خطوة خُطوة أمر مستحيل ، وسبب هذا أنه لا بد من وجودها بدون نقصان في الوقت ذاته ، وذلك حتى يتمكن الكائن من العيش ، وهذا يجزم أن يكون أول يعسوب في العالم بكامل الأنظمة التي في اليعسوب اليوم ، الشيء المذهل أن المتحجرات التي تدلنا على تاريخ الطبيعة تثبت هذه الحقيقة ، وتبين أن اليعسوب لم يظهر فجأة في وقت واحد ، هذا الوقت أقدم متحجرة معرفة لليعسوب تعود إلى 320 مليون سنة ، المتحجرة التي تعود إلى 320 مليون سنة فيها اليعسوب كما هو الآن ، وكلام داروين فارغ يعتمده بعض الناس ليتحللوا من المسؤولية أمام خالق السماوات والأرض .

التفكر في الكون بابٌ إلى معرفة الله :

الحقيقة أن التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله وأقصر طريق إلى الله عز وجل ، الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(سورة الحج)

هذا الكون معرض لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، أو هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، فالإنسان إذا تفكر في الكون تفكرا بسيطاً ، لو بذل واحدًا بالمليار مما يبذله لدنياه لعرف الله ، ولاستقام على أمره ، ولسلم وسعد في الدنيا والآخرة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (56-95) - العقيدة والتوحيد : حقيقة التوحيد ولوازمه ـ الدلفين صديق الإنسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

كنا قد تحدثنا في حلقات سابقة عندما توقفنا عند مسألة هامة من مسائل مقومات التكليف ، مسألة الاختيار ، وأفردنا للاختيار حلقات عدة ، ووصلنا إلى أن الله عز وجل وبالدليل القطعي يخير عبده فيما كلف فيه ، الله خيره في أن يفعل ، وفي ألا يفعل .

أنواع الإضلال :

ثم تبينا في نهايات الحلقات أن هنالك من الإضلالات أشكال معينة ، منها الإضلال الجزائي ، ومنها الإضلال الحكمي ، ومنها الإضلال عن الشركاء .

1 ـ الإضلال الجزائي :

الله عز وجل :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف : 5)

هذا في الإضلال الجزائي ، حينما رفض الإنسان منهج الله حجبت عنه كل خصائصه وثماره .

2 ـ الإضلال عن الشركاء :

وأيضاً هناك آخر نوع من أنواع الإضلال ، هو الإضلال عن الشركاء ، الله يغار على عبده ، ويحب عبده ، ويحب هذا العبد أن يتوجه إليه بالكلية ، لا أن يشرك به سواه ، كمن يعتمد على جاهل ، أو مال، أو على قرابة ، أو على ذوي نفوذ وسلطان ، الله عز وجل يقطع عليه الطريق ، ويفسد عليه حتى ما يحل بالمال ، يأتي بمصيبة لا تحل بأموال الأرض .

إذاً : هذا يوصلنا إلى موقع حتمي ، ومربع حتمي ، هو التوحيد لله عز وجل ، والتوجه إلى الله عز وجل ، وأن تكون علائق المرء كلها مرتبطة بحبل الله عز وجل ، والله عز وجل لا يقبل أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك ، هذا التوحيد ، هل تحدثنا عن حقيقته وكذلك عن لوازمه .

لدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

التوحيد : حقيقتُه ولوازمه :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، إذا أردنا أن نضغط الدين كله بكلمة واحدة أقول : إنه التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، والدين هو التوحيد ، ونهاية العلم هو التوحيد ، أن ترى أن الله بيده كل شيء .

1 ـ كلُّ شيءٍ وقع أراده الله :

هناك نقطة دقيقة جداً ، لا بد من توضيحها ، لكن مع التوضيح ، فقد تكون بعض الملابسات ، فلا بد من بيان دقائق هذا التعريف ، كل شيء وقع أراده الله ، معنى أراد أي سمح به ، لأن الإنسان مخير ، الإنسان في الأصل مخير ، فإذا وقع شيءٌ في مُلك الله فلا يعقل ، ولا يقبل ، ولا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد .

إذاً الحقيقة الأولى : كل شيء وقع أراده الله .

الأستاذ علاء :

أي سمح به ربنا .

الدكتور راتب :

فالمؤمن حينما يرى شيئاً قد وقع ينبغي أن يقف منه موقفا ، إذا كان عدوانًا فينبغي أن يرد العدوان ، إذا كان تجريدا للحقائق فينبغي أن توضح الحقائق ، ووقوع الشيء لا يعني أنه كامل ، لكن الله سمح به لحكمة بالغة .

الأستاذ علاء :

ولا يعني أن الذي يرتكبه معفى من المسؤولية .

الدكتور راتب :

2 ـ كلٌّ إنسانٍ مسؤولٌ عن أعمالِه :

مثل واضح : حديث الإفك : السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين اتهمت بأشرف ما تملكه امرأة ، وهي زوجة رسول الله ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، هذا الشيء وقع ، لماذا وقع ؟ قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ)

(سورة النور : 11)

3 ـ الشرٌّ نِسبيٌّ ، موظَّفٌ للخير :

مادام وقع فليس شراً مطلقاً ، مادام قد وقع فهو شر نسبي ، موظف للخير المطلق ، مادام الشيء قد وقع ، وقد يكون المُوقِع مخطئاً ، بل قد يكون الموقِع مجرماً ، لمجرد أن الله سمح للذي وقع أن يقع هناك حكمة ، عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها ، هذه الفكرة تلقي في قلب المؤمن البرد والسلام ، كل شيء وقع أراده الله ، بمعنى سمح به ، لأن ملك الله لا يعقل أن يكون فيه ما لم يرد خالق الأكوان ، قال تعالى :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)

(سورة الأنفال : 59)

فعلوا شيئاً ما أردناه ، أو هل يستطيعون التفلت من عقاب الله ؟ هذا معنى سبقوا في القرآن الكريم ، كيف يسبق الكافرُ ربَّه ؟ أي أنه فعل شيئاً ما أراده الله ، أو أنه تفلت من عقاب الله ، قال تعالى :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

(سورة آل عمران)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

كل شيء وقع أراده الله ، لأنه لا يليق بألوهية الإله ، ولا يقبل ، ولا يعقل أن يقع في ملكه ما لا يريد . الآن مدير مؤسسة حازم ، ومعه معلومات دقيقة عن كل مرافق مؤسسته ، من الصعب أن يقع في هذه المؤسسة ما لا يريد ، المدير على مستوى أرضي ، إذا كان متابعاً وإدارياً ، وعنده ضبط ، وعنده معلومات دقيقة ، وعنده عزم ، وعنده توجيهات صحيحة ، وعنده محاسبة دقيقة ، مستحيل ، إذاً : لا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد ، مبدئياً كل شيء وقع أراده الله ، أي سمح به .

4 ـ الشرٌّ نِسبيٌ ، موظَّفٌ للخير :

هذه المقولة قد نعكسها ، وكل شيء أراده الله وقع ، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق)

وكل شيء أراده الله وقع ، الله عز وجل فعّال لما يريد ، أنا كإنسان قد أتمنى أشياء كثيرة ، لكني لا أملك أن تكون واقعاً .

الأستاذ علاء :

من هنا سيدي نفهم من خلال هذا المعنى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)

الدكتور راتب :

معنى : وَمَا تَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ

لأن الإنسان مخير ، فإذا شاء شيئاً ، وأصر عليه سمح الله له به لحكمة بالغة لمن فعل الشيء ، ولمن وقع عليه الفعل ، قال تعالى :

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام)

الإنسان مخير أن يسرق ، مثلاً ، هو اختار أن يسرق فقط ، أما ممن يسرق فالله عز وجل يختار لهذا السارق مَن تكون سرقة ماله تأديباً له ، الظالم سوط الله ، ينتقم به ، ثم ينتقم منه .

تفضلتم بكلمة (حكمة)، هذه أدق ، قد يكون المسروق مؤمنا ، لكن يحتاج إلى بعض التأديب ، فأقول : حينما يختار الإنسان إيقاع أذى بإنسان آخر فوقوع هذا الفعل من الأول عليه ، هناك حكمة بالغة نعرفها في وقتها ، أو لا نعرفها ، فكل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، لكن النقطة الدقيقة جداً أن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، هو الحكيم ، وأسماء الله الحسنى منها الحكمة ، فالحكمة تعني أن الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً ، الحكمة تعني أن الذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله ، والدليل ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص)

الآية بينت أن المصيبة من الله رسالة ، والآن في الإعلام الحديث مصطلح جديد ، أن هذا العرض العسكري رسالة ، هذه المناورة رسالة ، هذا الاعتقال لفلان وفلان رسالة لبقية من ينتمون لهذا الاتجاه، فالله عز وجل جميع مصائبه رسائل ، لكن من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر ، أصبح هو المصيبة ، وحينما أفهم على الله أكون قد قطعتُ إليه أربعة أخماس الطريق ، وما من عثرة ، ولا اختلاج عرق ، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفو الله أكثر .

لو طبقنا هذه الحقيقة الأولى في هذا اللقاء الطيب ، هذا الذي يقع في العالم بالمسلمين الله عز وجل لا يعلم ما يقع ، هل يستقيم إيمان أيِّ مؤمن على وجه الأرض أن الذي وقع لا يعلمه الله ، قال تعالى :

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام : 59)

فكيف بالصاروخ ؟ إذاً : الله يعلم هذا الذي وقع لا يستطيع أن يرده ؟ الله على كل شيء قدير ، كن فيكون ، زل فيزول ، هذا الذي يقع لا يعني الله ؟ كيف يكون رباً وإلهاً في السماء والأرض ، ولا يعنيه ما يقع ؟ فكل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، لكنني أتمنى من أعماق أعماقي ألا يفهم الإخوة المشاهدون أن هذا الذي وقع ينبغي أن أستسلم له .

الأستاذ علاء :

قد يفهم بعض المشاهدون الآن أن هذا أراده الله فأستسلم له ، وأخلد إلى النور .

الدكتور راتب :

مفهوماتُ التوحيد لا تلغي مسؤولية الفاعل :

لكن الله أعطاني فرصة لأن أكون بطلاً حينما وقع الذي وقع ، والذي وقع لا يرضي الله ، لكن الله سمح به كي يمتحن بطولتي ، كي يعطيني عملاً صالحاً أسعد به إلى الأبد ، قال تعالى :

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

(سورة محمد : 4)

فأنا حينما يأتي شيء فيه ظلم يجب أن أرد الظلم ، والدليل :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور : 11)

دقق أستاذ علاء :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

أي أن مفهومات التوحيد بأكملها لا تلغي المسؤولية ، كمواطن جاء إلى المستشفى بحالة إسعاف ، الطبيب يدير حديثاً لطيفاً مع ممرضة ، فأهمل إسعاف المريض ، فمات ، فإذا قال الطبيب : مات بوقته، وبقضاء الله وقدره ، هذا كلام غير مقبول ، ويحاسَب ، أنا ما أريد إطلاقاً أن يفهم من أن كل شيء وقع أراده الله ، وأن كل شيء أراده الله وقع أن أستسلم ، لذلك ورد في الحديث الصحيح عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود]

أن أستسلم ، هذا قدري ، ماذا أفعل ، انتهيت ، أعدائي أقوياء ، لا ، قال تعالى :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : 249)

وإذا كان الله معك فمن عليك ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)

(سورة الأنفال : 60)

لذلك حينما قال تعالى :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

لا يقبل من إنسان أن يتنصل من مسؤوليته بدعوى القضاء والقدر ، لذلك : عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ ضَامِنٌ))

[النسائي]

أخي مات بأجله ، أنت قصرت بمعالجته ، معلوماتك غير كافية ، تنطعت لمعالجته ، وأنت لست مختصاً بهذا المرض ، فأسأت إليه ، فأنت تحاسب .

إن الله تعالى يلوم على العجز ، هكذا الإنسان يستسلم لعدوان ، لعدو ، لتخلف ، لجهل ، يجب أن أنهض ، ولكن عليكم بالكيس ، التدبير ، متى نستسلم ؟ قال : فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل .

أضرب مثلا يوضح هذه الحقيقة ، طالب ما اجتهد ، ولا درس ، فلم ينجح ، وقال : هذا ترتيب الله عز وجل ، أراد الله لي ألاّ أنجح ، نقول له : كذبت ، يقال هذا الكلام في حالة نادرة ، لمرض مفاجئ جاء وقت الامتحان لمجتهد فلم ينجح ، يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، حتى الإنسان في عالم الكفر لا

ينتحر، الانتحار عند الذي يفشل في الحياة ، قد يكون تعبيرا عن إخفاقه في شيء معين ، أما المؤمن فيسعى ويسعى ، ويأخذ بكل الأسباب ، فإذا غلبه القضاء والقدر يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، لا تقال هذه إلا عندما تأخذ بكل الأسباب ، أو حينما تستنفذ الأسباب ، عندئذ تبقى متماسكا لا تنهار .
على الإنسان أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح ، لذلك الله عز وجل في موضوع العدوان الخارجي له توجيهات رائعة جداً ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال : 60)

أنتم ما كلفتم أن تعدوا لأعدائكم القوة المكافئة ، وقد يكون هذا مستحيلاً ، لكن الله أمرنا أن نعد القوة المتاحة ، وعليه الباقي ، قال تعالى :

(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ)

(سورة البقرة : 249)

الأستاذ علاء :

ومن هنا نفهم غزوة بدرٍ ، ثلاثمئة وأربعة عشر صحابياً قاتلوا ألفا ومئتين .

الدكتور راتب :

يجب الأخذُ بالأسباب ، ثم التوكّلُ على الله :

نقطة مهمة جداً ، هذه النقطة أن من مقتضيات الإيمان ، من مسلّمات الإيمان أن آخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم أتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، هذا هو المنهج .
أنا مثلاً : أراجع مركبتي قبل أن أسافر ، أراجع كل شيء فيها ، العجلات ، المكابح ، كل شيء أراجعه، ومن أعماق قلبي أقول : يا رب ، سلّم ، أقول له : أنت الحافظ ، متى ؟ بعد أن أخذت بكل الأسباب ، الآن كأن الإنسان يمشي على طريق على يمينه واد سحيق ، وعن يساره واد سحيق ، فإذا أخذ بالأسباب ، واعتمد عليها ، وألّهها ، واعتبر أن إرادته تحقق كل ما يبغي ، واستغنى عن الله وقع في وادي الشرك ، وإن لم يأخذ بها كما يفعل ضعاف المسلمين ، ترتيب سيدك ، الله ينصرنا بمعجزة ، لا معجزة ، أقول : أعدّوا لهم ، وقد سأل سيدنا عمر أناساً يتكففون الناس في الحج : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون ، قال : كذبتم ! المتوكل من ألقى حبة في الأرض ، ثم توكل على الله .
الأستاذ علاء :

سنكمل إن شاء الله في الحلقة القادمة ، والآن حان موعد الفقرة العلمية ، فماذا اخترت لنا ؟
الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الدلفين :

1 ـ الدلفين صديق الإنسان :

الحقيقة عندنا حيوان مستأنس إلى درجة لا تعقل ، إنه الدلفين ، والحديث عنه يلفت النظر .
تغطي المحيطات سبعين بالمئة من الكرة الأرضية ، وتعيش في هذه المحيطات الزرقاء الواسعة كائنات متنوعة كثيرة ضمن ترتيب مدهش ، قال بعض علماء البحار : عدد أنواع الأسماك في البحار يتجاوز المليون ، وأحد هذه الكائنات الدلفين صديق الإنسان المحبوب في البحر ، هذه الخصائص للحيوانات من خلق الله عز وجل ، قال تعالى :

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس)

الإنسان يخرج من جلده من عقرب صغير ، ويقود جملا وزنه ستة أطنان ، والبقر حينما جن وقعنا في إشكال كبير ، اضطرت بريطانيا أن تحرق ثلاثة ملايين بقرة ، ثمنها ثلاثة وثلاثون مليون جنيه ، لذلك:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

هذا الدلفين صديق الإنسان المحبوب في البحر .

2 ـ كيف تعيش الدلافين ؟

الدلافين أذكى الحيوانات البحرية ، وهي كائنات محببة وأليفة ، خلقها الله ، وأحسن خلقها وتصميمها لتتلاءم مع الحياة .
نحن نرى الدلافين أحياناً على سطح البحر ، ولكنها تبقى معظم وقتها في الأعماق ، وذلك لتبحث عن طعامها في أماكن مظلمة يصعب فيها الرؤية ، وعلى الرغم من ذلك تُبصر هذه الدلافين في هذه الأعماق المظلمة وفي وضوح تام كما يبصر الإنسان في وضح النهار .

3 ـ قاصمة ظهر الداروينيين :

يرى داروين أن هناك تطورا وانزلاقا ، الحقيقة أنه لا انزلاق ، فهناك حيوانات تمتلك من الحواس أعلى من الإنسان ، فالصقر يرى ثمانية أضعاف الإنسان ، الكلب يشم مليون ضعف عن الإنسان ، فهذه الحيوانات ترى في أشد الأماكن ظلمة كما يرى الإنسان في وضح النهار .

4 ـ نظامُ الموجات الصوتية عند الدلافين :

كيف تتحقق هذه الرؤية لهذا الحيوان وهو في أعماق البحار ؟ لقد خلق الله تعالى للدلافين بتصميم إلهي رائع نظاماً معقداً جداً يؤمّن لها إدراك طريقها من خلال موجات صوتية ، وقد سمى العلماء هذا النظام إيكو لوكشين ، ويكمن سر هذا النظام في رأس الدلفين نفسه ، إذ يعمل على إرشاده إلى ما يريد بيسر وسهولة ، ولندقق في هذا الرأس ، إذ يحتل ثقب التنفس مكاناً في القسم العلوي من رأس الدلفين ، تحت هذا الثقب تماماً يوجد كيسات مليئة بالهواء ، وفي أثناء مرور الهواء من هذه الكيسات تصدر الدلافين أصواتاً عالية ، هذه الأصوات تحول إلى الكيس المليء بالشحم في القسم الأمامي للرأس إلى موجات صوتية ، ثم ترسل موجات الصوت من خلال فواصل قصيرة ، يعود صدى هذه الموجات من خلال الفواصل نفسها بعد اصطدامها بالأشياء المحيطة ، إنها آلية معقدة جداً لتصغي إليها الدلافين باهتمام ، قال تعالى :

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

تصل موجات الصوت أولاً إلى القسم الموجود تحت الفك السفلي ، وبعد نقلها للأذن الداخلية تعير من قبل الدماغ والصدى الراجع من محيط الدلافين فيعطيها معلومات مفصلة عن أبعاد المواد وأحجامها وحركاتها ، على هذا الحال فالدلافين التي تتجول في مساحات واسعة تستعرض خريطة البحر أمامها بفضل هذا النظام الرائع ، وبكل يسر وسهولة ، هذا النظام يعرف في الأوساط العلمية بنظام سونر .

والدلافين تتصرف في عرض البحر من خلال هذا الجهاز المدهش المتقن ، فتطلع على كل شيء فترى ، وكأنها في وضح النهار .

5 ـ هذا خَلْقُ اللهِ :

إن وجود نظام تقني فائق متقن في جسم كائن من لحم ودم بهذا الشكل البديع لهو دليل واضح على روعة خلق الله سبحانه وتعالى للكائنات .

وإذا كانت الغواصات الحديثة قد استخدمت هذا النظام في القرن العشرين فإن الدلافين قد استخدمته منذ ملايين السنين ، وعلى هذا فإنه من المحال أن ينشئ الدلفين بنفسه هذا النظام الفريد المتقن ، هناك تفسير واحد فقط ؛ إنه من صنع الله وحده .

6 ـ نظامُ الموجات الصوتية عند الدلافين :

نظام الغواصات تماماً كنظام الدلافين ، والأمر يبدو مهماً أكثر إذا علمنا أن هذا النظام لا تستخدمه الدلافين فقط من أجل إنارة الطريق والتعرف عليه ، بل تستخدمه أيضاً لهدف آخر ، وهو اجتذاب الأسماك نحوها لاصطيادها بعد تدويخها ، والطيور تستفيد من هذا السلاح الفتاك أيضاً ، فتقدم لها الدلافين خدمة كبرى إذ يصبح صيداً سهلاً لها ، وهكذا يستفيد الاثنان معاً.

مهمة أخرى يقدمها هذا النظام للدلافين فهو يُستخدم كجهاز اتصال فيما بينها ، مثل هاتف خلوي ، فتتفاهم مع بعضها بعضاً ، وتستطيع الاتصال مع بعضها من مسافة مئتين وعشرين كيلو متراً ، وعلى هذا يمكن اتصال دلفين في مضيق استنبول مع دلفين آخر في مضيق الدردنيل .

والأمر الأهم والأهم إذا علمنا أن هذا النظام يساعد البحث عن زوج ، وكذلك نظام إنذار من الخطر إذا أحس الدلفين باقترابه ، إنه شيء يشبه الخيال ، هذا من دقة خلق الله عز وجل ، قال تعالى :

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

(سورة طه)

والتفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله ، وأقصر طريق على الله ، لأنه يضعنا أمام عظمة الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (57-95) - العقيدة والتوحيد : لوازم التوحيد ـ العينان عند الدلافين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-02-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

ربطٌ وتذكيرٌ :

سيدي الكريم ، كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية عن حقيقة التوحيد ، وأن الله عز وجل في مقوم الاختيار جعل الإنسان مخيراً فيما كلف ، وثمن عمله بالاختيار ، وجعله باعتباره أعطاه العقل أن يختار ، وأن يمتنع فيما كلف فيه ، وتبينا بأن كل هذه الأشياء حتى الإضلالات التي مررنا عليها الجزائي والحكمي ، وعن الشركيات ، كل ذلك ليوجه العبد إلى قمة التوحيد ، وإلى ألاّ يشرك بالله شيئاً ، وأن لا تكون علاقته إلا مع الله عز وجل ، لكن في شرح حقيقة التوحيد تبين معنا بأن كل شيء وقع أراده الله ، بمعنى سمح به ، وكل شيء أراده الله وقع ، وقلت لنا في الحلقة الماضية : أن نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، وأن نتوكل على الله ، وكأن الأسباب ليست بشيء ، هنا عملية التوازن التي نريد أن نفهمها جيداً حتى لا يفهم من حديثنا ، أو يشتم منه التواكل ، أو يشتم منه العجز ، وأن يستسلم الإنسان فيما جرى له ، كما يقول : هكذا أراد الله ، وأن يخلد إلى النوم ، وأن يتراجع ، بل وأن يتخاذل ، نقف عند هذه المسألة في التوازن ، وقد قيل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وحديث النبي لابن عباس :

((وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[الترمذي عن ابن عباس]

كتب أي سمح .

الدكتور راتب :

ليس الاستسلامُ السلبي من مفهومات التوحيد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء ، جزك الله خيراً ، كأننا وضعنا أيدينا معاً على أخطر مشكلة تجتاح المسلمين ، أنهم حينما يرون قدراً من الله عز وجل قد أتعبهم ، فماذا يفعلون ؟ هذا الاستسلام الساذج ، وأن تقول : هذا قدر الله أصابني ولا حيلة لي الحديث الذي ذكرته في اللقاء السابق ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ : حَسْبِيَ اللَّهُ ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه أبو داود]

الفهم السلبي للتوحيد سببُ تأخُّر المسلمين وانهزامِهم :

ولعل من أسباب تخلف المسلمين في الأرض هو فهمهم للتوحيد فهماً سلبياً ، الفهم التوحيدي إيجابي ، هو حركة ، هو أخذ بالأسباب ، هو معالجة الأمور ، هو التدبير ، هو النهوض ، هو الاستعانة بالله ، هو الثقة بالله ، هذا التوحيد بفهمه الصحيح ، فلذلك لئلا يقع الإنسان في يأس وإحباط نقول له : كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، بمعنى أنك حينما تثق بحكمة حكيم ، وبرحمة رحيم ، وبعدل عادل ، وهذا الشيء وافق عليه ، أنت إذا كنت في مؤسسة وصدر قرار لن تستوعب أبعاده ، لكنك وجدت هذا القرار قد وقعه مدير تثق بحكمته ، وبرحمته ، وبإنصافه ، تقول : لعل من هذا القرار حكمة، لعل الآن لا أعرفها ، وستكشف بعد حين ، هذا الذي أريده لئلا يقع الإنسان في الإحباط واليأس والخمول والشعور بالقهر ، هذا الشعور خطير جداً ، يمكن أن نهزم في ساحة المعركة ، أما أن نهزم من الداخل فهذا شيء خطير ، قال تعالى :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

بالمناسبة ما دام قد تحدثنا عن النصر والهزيمة ، ففي غزوة أُحُدٍ كان هناك مخالفة لتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم ، لو أن الصحابة انتصروا لسقطت طاعة النبي ، وفي حنين هناك خطأ في التوحيد، قالوا : لن نغلب من قلة ، لو أنهم انتصروا لسقط التوحيد ، لو دققت أستاذ علاء لوجدت لكل حادث سببا ، لذلك البطولة أن تحلل ما وقع وفق منهج الله .

لابد من تحليل الأحداث بالمنظور الشرعي :

إن المصائب التي تحل بالمسلمين لا تعد ولا تحصى ، والتحليلات لهذه المصائب الأرضية والشركية لا تعد ولا تحصى ، بطولتنا أن نفهم على الله مرادَه من هذه المصائب ، أن نحلل تحليلات صحيحة .

حينما يتألق ضوء أحمر في مركبتي ، إذا فهمت هذه الضوء ضوءًا تزيينياً أحرقت المحرك ، أما إذا فهمت هذا التألق تألق تحذيرياً فإني أوقف المركبة ، وأضيف الزيت ، فيسلم المحرك ، وأتابع السير لأحقق الهدف ، فالخطأ كبير جداً حينما يكون التحليل خاطئا ، فهناك تحليل قرآني ، تحليل عُلوي ، وتحليل سماوي ، تحليل توحيدي ، تحليل من عند الخبير ، من عند الخالق ، قال تعالى :

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران :165)

ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ، والله غني عن تعذيبنا ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء : 147)

ما من عثرة ، أو اختلاج عرق ، ولا خدش عود ، إلا بما قدمت أيديكم ، وما يعفوا الله أكثر .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

فاعلم أنه لا إليه إلا الله ، ولا مسير ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا معز ، ولا مذل إلا الله ، فإذا جاءك ما تكره فقد قال تعالى :

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة غافر : 55)

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد 19)

هنا قال العلماء : لا يمكن للعقيدة أن تكون تقليداً ، لأنه لو قبلنا العقيدة تقليداً لعذر كل من اتبعوا أهوائهم، أو أهواء من يقودونهم إلى الهلاك ، العقيدة لا تقبل إلا تحقيقاً ، قال تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد 19]

لكن إذا جاءك ما تكره ، قال تعالى :

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة غافر : 55)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

((يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي ، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي ، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم]

قوّةُ أعدائنا بسببِ ضعفِنا :

أستاذ علاء ، من السهل جدا أن أعزو أخطائي للآخرين ، وعلى شكل أوسع للاستعمار ، للصهيونية ، نحن مخطئون ، أستاذ علاء ، قوة أعدائنا من ضعفنا ، قوة أعدائنا من تفرقنا ، أخطاءنا قوت أعدائنا ، لو كنا متماسكين متعاونين لم يذلونا ، لذلك أقول دائماً : هناك ورقة رابحة بيد أعدائنا ، هي الفتن الطائفية ، هذه ورقة رابحة ، ونحن باستقامتنا على أمر الله ، وبعودتنا إليه ، وبوعينا ، وبإخلاصنا ، وبتماسكنا نسقط هذه الورقة الرابحة من يدهم ، لأن الطغاة هذا شأنهم بدءاً من فرعون موسى ، قال تعالى :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص :4)

إذاً : قوة أعدائنا من ضعفنا ، قوة أعدائنا من ضعف تماسكنا ، من ضعف محبتنا لبعضنا ، من كسلنا .

بين فقر الكسل وفقر العجز :

كلمة(فقر)يرددها بعض الفقراء ، هذا قدري ، لا ، ليس قدرك ، هذا فقر الكسل ، هناك فقر القدر ، لعاهة ، عنده عاهة خلقية تمنعه أن يكسب المال ، هذا صاحبه معذور ، لكن المشكلة الكبيرة في فقر الكسل ، مهمل ، لا يتقن عمله ، يرجئ ، لا يدقق ، لا يصدق ، لا يفعل الشيء الذي يروج به عمله ، هذا فقر الكسل ، إذاً : نحن نريد أن نقول : إن كل شيء وقع أراده الله ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً .

يجب أن نفهم على الله رسائله :

أستاذ علاء ، كل ما يصيب الإنسان من الله رسالة لطيفة جداً ، والدليل ، قال تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

(سورة القصص : 47)

للتقريب ، لو أن أبا قال له ابنه في الصف الخامس : أحب ألا أتابع الدراسي ، هذا مثل افتراضي ، قال له أبوه : كما تريد يا بني ، لأول كلمة ، نام إلى الظهر ، أكل ما يشتهي ، لعب في الطريق ، كل أصدقائه في المدارس ، ووظائف ، ودوام ، ومتابعة ، وعقاب أحياناً ، والأب يتابعه ، هو مرتاح ، ظن أنه أسعد الناس ، فلما كبر سنه وجد نفسه بلا عمل ، ولا وظيفة ، ولا علم ، ولا حرفة ، ولا مهنة ، نقم على أبيه ، نقم عليه أشد النقمة ، قال له : يا أبي ، حينما قلت لك : أحب ألا أدرس لمَ لمْ تضربني لمَ لمْ تعنّفني ؟

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

(سورة طه)

في آية ثانية :

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)

(سورة الأنعام)

يجب أن نفهم على الله رسالاته ، يجب أن نفهم على الله هذه الرسائل التي يسوقها لنا ، الله عز وجل رحيم وعادل ، ولا يمكن أن يسوق لنا شيئاً من دون سبب ، لذلك اتهام النفس نوع من الذكاء والعقل ، أما المحاباة ، أنا أبرئ نفسي ، وأتهم الآخرين ، أقول : هذه مؤامرة علي ، أنت ضعيف ، أنت غير متماسك ، أنت مقصر ، أنت مهمل دائماً وأبداً ، هذه حال المقصرين ، وهذا دعوى الكسالى .

الأستاذ علاء :

ويريد أن يجد لنفسه عموداً ليتعلق عليه ، سيدي حادثة الجمال والقطران ، كيف نقرأها في هذا السياق؟

الدكتور راتب :

اتخاذ الأسباب والعمل والحركة : هلاّ جعلتَ مع الدعاء قطراناً :

سيدنا عمر رأى أعرابياً معه جمل أجرب ، قال : يا أخا العرب ، ماذا تفعل بهذا الجمل الأجرب ؟ قال: أدعو الله أن يشفيه ، قال : هلاّ جعلت مع الدعاء قطراناً .

بشكل أو بآخر الإنسان وهو راكب مركبته ، وتوقفت في الطريق خرج من المركبة ، يا رب ، يا رب لا إله غيرك ، هذا كلام طيب ، ولكن ليس هكذا ، افتح الغطاء ، انظر ، هناك خلل ، يا رب ألهمني الصواب ، دلني على الصواب ، هناك دعاء يعد سذاجة في الإنسان ، وسوء أدب ، الدعاء يجب أن يقترن بالسعي والعمل ، أمة تعمل ليلاً ونهاراً لا يمكن أن توازن مع أمة لا تعمل .

معي إحصاءات دقيقة جداً ، في بعض البلاد المتخلفة المواطن يعمل سبعًا وعشرين دقيقة في اليوم ، الدول القوية تعمل ثماني ساعات كاملة ، أنا لا أصدق دولة تعمل ثماني ساعات تنهزم ، وأمة تعمل سبعا وعشرين دقيقة ، طبعاً يقسمون الدخل القومي على عدد المواطنين على الساعات ، حسابات دقيقة في إدارة الأعمال ، فلا بد من العمل ، لذلك :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

هكذا تستسلم ، ماذا أفعل ، هكذا الله يريد ، كله ترتيب سيدك ، هذا كلام العوام ،

((ولكن عليكَ بالكَيْس ، فإذا غَلَبَك أمر ، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

يمكن لإنسان أن يُغلب ، قد يأتي مرض عضال ، يكون كتلة نشاط ، كتلة حركة حتى لا ييئس يقول : حسبي الله ونعم الوكيل .

الأستاذ علاء :

سيدي ، نفهم موقف سيدنا عمر من مسألة الطاعون ، والذي ذهب به سيدنا عبيدة .

الدكتور راتب :

من مواقف سيدنا عمر منه :

1 ـ موقفه من مرض الطاعون :

أخذ بالأسباب ، وجاء من يعترض ، قال : << أرأيت لو أن هناك أرضين ، أرضًا معشبة ، وأرضًا مجدبة ، لو رعينا المعشبة رعيناها بقضاء الله وقدره ، وإن رعينا المجدبة رعيناها بقضاء الله وقدره ، فنحن خرجنا من قضاء الله إلى قضاء الله >> .

2 ـ موقفه من شارب الخمر :

جيء بشارب خمر إلى سيدنا عمر ، فقال : << أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين ، إن الله قدر علي ذلك ، قال : أقيموا عليه الحد مرتين مرة ، لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ،

قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> ، أنت مخير .

الأستاذ علاء :

سيدي لو سمحت لي ، عندما ينظر الإنسان فيما حوله ، ويعمل ، ويسعى ، ولكن تأتي قضايا لا تكون على هواه ، يعلم من وراء ذلك حكمة ، قد يفهم هذه الحكمة ، وقد لا يفهم هذه الحكمة ، لكن حتى في الأحكام الشرعية هنالك المقاصد ، وكان سيد المقاصد سيدنا عمر ، عندما علل وفتح هذه المسألة ، هل نعتبر بأن علم المقاصد جاء من التفكر في الحكمة من أوامر ورسالات الله عز وجل ؟

الدكتور راتب :

بين المحبة العقلية والمحبة الحسية :

طبعاً ، دائماً أنا أقول كلمة دقيقة : عندنا محبة حسية ، ومحبة عقلية ، الإنسان يحب الراحة ، يحب أن يأكل ، يحب أن يسترخي ، عقله يأمره بأن يدرس ، ويسهر الليل ، يأكل أكلا خفيفا ، يعتني بصحته ، يمارس الرياضة ، أنا أحب الأشياء المتعبة حباً عقلياً ، أحب الأشياء الحسية حباً حسياً ، حباً ساذجاً ، فالأبطال يحبون بعقولهم ، والتوافه من البشر يحبون بأحاسيسهم ، فرُبّ أكلة منعت أكلات .

((ألا يا رُبّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أبي البحير بسند ضعيف]

مرة التقيت مع طبيب قلب قُدّم له طعام نفيس ، لكنه يتعب الشرايين ، اعتذر ، وقال : والله إنني أشد منكم حباً لهذا الطعام ، ولكن لكثرة ما أرى الشرايين مسدودة في أثناء العمل الجراحي أكره هذا الطعام، هو يكرهه بعقله ، لكن يحبه بأحاسيسه ، كلما ارتقى الإنسان يحب بعقله ، ويكره بعقله ، إذاً : كل شيء وقع أراده الله ، أي سمح به ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة .

أستاذ علاء ، في البشر أشياء نسبية ، مع الإله ليس هناك شيء نسبي ، كقاض حكم ألف حكم ، تسعمئة وخمسون حكما صحيحة مئة في المئة ، هذا قاض عادل ، وعنده خمسون حكما فيها خطأ ، لكن مقام الألوهية لا يقبل واحدا بالمليار من الخطأ ، مستحيل أن يقع في ملكه ما لا يريد ، مستحيل أن يقع في ملكه ما يتناقض مع الحكمة ، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

هنا نقطة دقيقة جداً ، وهي أن الشر المطلق لا وجود له في الكون ،مستحيل وألف ألف مستحيل ، الشر المطلق لا وجود له في الكون ، هناك شر نسبي موظف للخير المطلق ، وحسن الظن بالله ، ثم الجنة ، قال تعالى :

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام : 65)

هي الصواعق والصواريخ ، أو من تحت أرجلكم الزلازل والألغام ، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، التفرقة ، وهي من مصائب الكبرى في المجتمع ، الأمر بيد الله ، ونحن ينبغي أن نعود إلى الله ، وأن نصطلح معه ، وأن نعود إلى منهجه ، ونطبق تعليمات الصانع ، تعليمات التشغيل والصيانة ، نحن أعقد آلة في الكون ، ولنا صانع حكيم ، الحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، قال تعالى :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران : 26)

الشر ناتج عن الجهل والهوى :

بالمناسبة أستاذ علاء ، هناك نقطة دقيقة جداً ، الشر لا وجود له ، هناك شر نسبي ، الشر لا يحتاج إلى خالق ، كيف ؟ سيارة من أرقى الأنواع التي ثمنها خمسة وعشرون مليونا ، بأجمل منظر ، بأحلى خطوط انسيابية ، بأجمل فرش ، بأقوى قوة محرك ، بأعلى درجات الرفاه ، التكييف ، والتدفئة ، والمقاعد المتحركة ، هذه لو قادها شارب خمر ، ونزل في الوادي ، وأصبحت عجينة ، هل تحتاج هذه المركبة بهذه الحالة إلى مصمم ؟ إلى صانع ؟ إلى قالب ؟ لا تحتاج لا إلى مصنع ، ولا قالب ، فالشر سلبي ، الشر ناتج من الجهل ، الشر ناتج من إنسان أودعت فيه الشهوات ، وتحرك بلا منهج الله ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص : 50)

معنى ذلك الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه ، اشتهى المرأة فتزوج ، أنجب أولادا ، ربى أولاده ، بنوا الوطن ، مثلاً ، اشتهى المال ، عمل بكسب مشروع ، خدم الأمة ، وكسب مالا ، ليس في الإسلام حرمان ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، الشهوات كلها حيادية ، لذلك والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

مرة ثانية ، قال تعالى :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران : 26)

الخير فقط ، شر مطلق لا وجود له .

قلت مرة : إن أمة قوية مثلاً حينما تخطط لبناء مجدها ورخائها ، وغناها وأمنها على إفقار الشعوب ، وإضلال الشعوب ، وإذلال الشعوب ، أن تنجح خططها على المدى البعيد هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب ، بل مع وجود الله ، ما من شر مطلق ، لكن ما الذي يحصل ؟ الإنسان لضعف تفكيره ، لقصور عقله يرى على الشبكية الشر ، هذا الشر قد ينتهي إلى الخير .

الأب الشديد على ابنه ، أتعبه في الدراسة ، مضت الأيام فصار طبيباً يحمل أعلى شهادة ومركزا اجتماعيا ، ودخلا كبيرا ، وبيتا فخما ، مثلاً ، هذه الشدة وقتها سببت هذه النتائج ، والطفل يراها شدة ، وهي ليس كذلك .

والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ولكل واقع حكمة ، لمجرد أن الذي وقع قد وقع ففيه حكمة ، وقد يكون الموقع مجرماً .

الأستاذ علاء :

نقف عند هذا الحد ، ونكمل إن شاء الله في الحلقة القادمة ، والآن جاء دور الفقرة العلمية ، نتابع معاً الدلفين .

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : العينان عند الدلافين :

ولكن ننتقل إلى موضع آخر في الدلفين ، خلق الله تعالى لكل كائن حي نظام رؤيةٍ يفي باحتياجاته على أكمل وجه ، فخلق للإنسان عيوناً تمكنه من الرؤية فوق الأرض ، ولكنها لا تبدو كذلك تحت الماء ، إذ تبدو ناقصة أو معدومة أحياناً ، وذلك لعدم وجود طبقة هوائية أمام العين ، وتحت الماء ، ولحل هذه المشكلة يستخدم الغواص نظارة خاصة حلت له هذه المشكلة ، كذلك استخدم آلات التصوير ذات التقنية الخاصة لالتقاط الصور تحت الماء ، إذا كان هذا شأن الإنسان ، فكيف هي عند الدلفين ؟

طبعاً الأمر يختلف هنا فعيناه أقوى بكثير من عيني الإنسان إذ تمكناه النظر تحت الماء وفوقه ، كيف يتم ذلك ؟ في عين الدلفين عدسة ذات تصميم خاص تؤمن له هذه الميزات فيرى الأشياء بوضوح ، ويتم ذلك عن طريق تضييق العدسة ، أو توسيعها بحسب الحاجة ، وعندما تخرج الدلافين إلى سطح الماء تجتمع أسراب الطيور القريبة من المكان بتوقيت سليم ، لأنه إذا اجتمعت طيور البحر في مكان ما فيعني هذا وجود مجموعات أسماك في ذلك المكان ، وتعرف الدلافين هذا جيداً إذا جاء الوقت المناسب لاصطياد الأسماك دون عناء أو تعب .

هذا التصميم الخاص الموجود في عيون الدلافين يحميها من ملوحة مياه البحر أيضاً ، فلا يسبب لها أي أذى ، هناك ميزة أخرى في عيني الدلافين ، إذ كل عين تركز النظر في جهة تختلف عن الأخرى .

أنا لا أستطيع أن أرى بعين أمامي ، وبعين ورائي ، أنا لا أستطيع أن أرى منظرين في آن واحد ، العينان تتطابقان على منظر واحد ، أما عند الدلافين فيمكن أن يرى بالعينين منظرين مختلفين ، وهذا شيء نادر وغريب .

لذلك هناك ميزة أخرى في عيني الدلافين ، إذ كل عين تركز النظر في جهة تختلف عن الأخرى ، وكل عين لها مهمة ، عين هنا وعين هناك ، وفي وقت واحد ، فمثلاً : عندما تنظر عين إلى الجهة التي يسبح فيها فإن العين الأخرى تراقب الأخطار المحيطة بها ، كخطر سمك القرش ، ينظر إلى شيئين بآن واحد ، ويستطيع الدلفين عند الحاجة أن يغمض عيناً واحدة ، ويريح قسماً من دماغه ، ثم يغمض عينه الأخرى ، ويريح القسم الآخر ، وهكذا لا ينام الدلفين كلياً ، ويبقى حذراً تجاه الأخطار المحيطة به .

شيء غريب ، يبقى يقظاً بنصفه ، عين مبصرة ، وعين مستريحة ، والمدافعون عن نظرية التطور يدّعون أن الكائنات كلها وأنظمتها المحكمة ظهرت مصادفة ، بمعنى أن الدلافين بما فيها من أنظمة استكشاف رائعة وآلية رؤية فائقة خلقت مصادفة ، لكن هذا الادعاء لا يصدقه العقل ، ولا يمكن لعاقل أن يدعي وجود آليات رؤية كهذه ، ونظام استكشاف كهذا مصادفة ، فادعاؤهم أن ظهور العيون التي تفوق أحدث الكاميرات في الدلافين تطوراً ، والتصميم المتقن في النظام الاستكشافي مصادفة ادعاء غير منطقي أبداً .

إن وجود هذه الأنظمة التقنية المتقنة في هذا الحيوان الأليف يضعنا أمام عظمة الله في خلقه ودقة تقديره لما وهبه لمخلوقاته من نعم لا تحصى .

أستاذ علاء ، يمكن أن يكون الكون كله مظهراً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، لأن أسماء الله الحسنى كالعليم والقدير ، والجليل والحكيم ، كلها ترى من خلال هذه المشاهد التي نراها كل يوم .

الأستاذ علاء :

ومن خلال بديع صنعه ودقة صنعه .

الدكتور راتب :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (58-95) - العقيدة والتوحيد : ثمار التوحيد ـ الدلافين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-02-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير وتقرير :

سيدي الكريم ، توقفنا في حلقات سابقة عند مقوم هام من مقومات التكليف ، ألا وهو الاختيار ، وأفردنا له الكثير من الحلقات ، وتشعبت مواضيع هامة عن الاختيار ، وقلنا : إن الاختيار يثمّن العمل ، وأن الله عز وجل أوجده لأنه يتسق وعدله ، ويتسق والثواب والعقاب ، وأيضاً أن الإنسان مخير فيما كلف به ، من هذا الموضوع تبينا أن هنالك ثلاثة أنواع من الإضلال ، الله عز وجل يترك الإنسان في محض اختياره للأشياء فيما كلف بها ، ولكن هنالك الإضلال الجزائي ، والإضلال الحُكمي ، وهنالك الإضلال عن الشركاء ، سيدي الكريم الإضلال عن الشركاء يفضي إلى مسألة واحدة ، وهي التوحيد ، وأن يكون الإنسان موحداً متجهاً بكليته إلى الباري عز وجل ، فماذا عن حقيقة التوحيد ؟
الدكتور راتب :

الدينُ توحيدٌ وعبادة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء ، جزك الله خيراً ، الإنسان أحياناً كما أنه يميل إلى التفاصيل والأفكار التفصيلية والتشعبات يميل في حين آخر إلى ضغط الحقائق بكلمات ، فإذا أردنا أن نضغط فحوى رسالات السماء مجتمعة لا نستطيع أن نفعل هذا ، كما جاء في القرآن الكريم ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)
الرسالات السماوية مجتمعة ، دين الله وحي السماء إلى الأرض ، خطاب السماء إلى الأرض مضغوط بكلمتين توحيد وعبادة ، التوحيد بالتعبير المعاصر منطلقات نظرية ، والعبادة تطبيقات عملية ، التوحيد اعتقاد ، والعبادة سلوك ، التوحيد الجانب العقلي من الدين ، والعبادة الجانب السلوكي من الدين ، فالدين

إيمان وعمل ، وفي أكثر من مئتي آية يُذكَر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، منطلق نظري وتطبيق عملي ، فلذلك هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ)

(سورة الأنبياء)

الآن نقطتان :

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

أحياناً للتقريب ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف)

النبي صلى الله عليه وسلم بشر ، وتجري عليه كل خصائص البشر ، وانتصر على بشريته ، إذاً : هو سيد البشر ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف)

الآن سيضغط القرآن كله في كلمتين ، أنه

القرآن بأكمله ستمئة صفحة ، ثلاثون جزءًا مضغوط بكلمتين ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

توحيد وعبادة ، حتى إنهم قالوا : التوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل ، فحينما تأتي حركتك في الدنيا مطابقة لمنهج الله فقد حققت الهدف من وجودك ، والإله العظيم الذي خلق الإنسان خلقه ليعبده .

حقيقة العبادة :

1 ـ العبادة الشعائرية والعبادة التعاملية :

لكن يفهم الناس أحياناً بسذاجة أن العبادة صلاة ، العبادة أنك أمام منهج تفصيلي ، أقولها كثيراً ، يبدأ بالفراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقة الدولية ، منهج كامل ، في طعامك ، في شرابك ، في زواجك ، في تربية أولادك ، في كسب مالك ، في أفراحك ، لا سمح الله في الأتراح ، في السفر ، في الحرب ، في السلم ، منهج تفصيلي ، فلذلك نحن مضطرون إلى أن نفرق بين عبادتين ، بين عبادة شعائرية وعبادة تعاملية .

2 ـ لا تصح العبادة الشعائرية إلا بصحة العبادة التعاملية :

الحقيقة المُرة التي هي أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، أن العبادات الشعائرية ، ومنها الصلاة والصيام والحج والزكاة لا تقبل ، ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، فلما غفل المسلمون عن أن الدين عبادات تعاملية أصبح الدين أجوف ، أصبح الدين إطاراً ، أصبح الدين ثقافة ، أصبح الدين فلكلوراً ، أصبح الدين تراثاً ، الدين منهج تفصيلي ، تعليمات الصانع ، لأن الإنسان أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، ولهذه الآلة بالغة التعقيد بالغة النفع غالية الثمن كتيب فيه تعليمات التشغيل والصيانة ، إنه القرآن الكريم ، فلذلك الإنسان أحياناً يحب التفاصيل والإسهاب ، لكن أحياناً يحب الموجز ، موجز الأديان كلها توحيد وعبادة .

الأستاذ علاء :

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة طه)

الدكتور راتب :

موجَز القرآن : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

موجز القرآن كله ، قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء]

التوحيد والعبادة ، التوحيد حينما تشعر أن مصيرك ، أن رزقك ، أن صحتك ، أن حياتك ، أن دخلك ، أن سعادتك بيد جهة أرضية ، إذا توهمت ذلك دون أن تشعر تتجه إلى عبادة هذه الجهة الأرضية ، من دون أن تعطيها اسم العبادة ، تخاف منه ، تعصي الله من أجله ، ترتكب الموبقات إرضاءً له ، تتكلم كلاماً لست قانعاً به إرضاءً له .

من صفات الداعية الربّاني : التوحيد الخالصُ :

هناك آية دقيقة جداً يصف الله الدعاة إلى الله ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب)

هؤلاء الدعاة لهم مئات الصفات ، هم حتماً صادقون ، أمناء رحماء ، صفاتهم كثيرة ، هي صفات المؤمنين ، لكن الله أغفلها كلها ، وأبقى صفة واحدة ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب)

فلو أن هذا الداعية خشي غير الله لسكن عن الحق خوفاً ممن خشيه ، وتكلم بالباطل إرضاءً لمن خشيه انتهت دعوته ، و ما مِن داعٍ أن نذكر بقية الصفات ، علماء البلاغة قالوا : هذه صفة مترابطة مع الموصوف ترابطًا وجوديًا ، بمعنى أنه إذا ألغيت الصفة ألغي الموصوف ، كأن تقول : الطائرة كبيرة ، والباخرة كبيرة ، طائرة غالية الثمن ، واليخت غالي الثمن ، أما إذا قلت : طائرة تطير ، فإذا ألغي طيرانها ألغيت هويتها ، قال تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب)

الأستاذ علاء :

هنا المفهوم التوحيدي جلي .

الدكتور راتب :

التوحيد راحة ، والشرك عذابٌ :

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، فأنا حينما أتوهم أن رزقي بيد زيد ، وأن منصبي بيد عبيد ، وأن راحتي النفسية بيد فلان ، وأن مكانتي الاجتماعية بيد علان ، أنا مضطر أن أعبد آلهة كثيرة ، أنا سأتوزع ، سأتمزق ، إذا جاءت التعليمات متضادة ماذا أفعل ، من أرضي ؟ لذلك المؤمن استراح من كل هذه المشكلات ، يعبد رباً واحداً ، ويرضي إلهاً واحداً ، ويعتمد على إله واحد ، ويلجأ إلى إله واحد، ويتوكل على إله واحد ، وكل عمله من أجل إرضاء هذا الإله الواحد ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الأستاذ علاء :

هذه الخلاصة ، وهذا كل ما جاء به الأنبياء ، وما جاءت به الشرائع أودت إلى هذا المعنى ، وإلى هذا المنتهى الذي هو الإخلاص لله بالعبودية ، وألا نشرك به أحدا ، ومتى تحققت هذه القضية فقد تحقق الدين .

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، حينما ترى أن رزقك بيد فلان دون أن تشعر تحاول أن ترضيه بأي ثمن ، لأن الإنسان حريص حرصاً لا حدود له على حياته ، وعلى رزقه ، فإذا أسْلَمنا الله إلى غيره كيف يأمرنا أن نعبده ، إذا أسلَمنا الله إلى عدو لئيم كيف يأمرنا أن نعبده ؟

إنّ علاج حالات الإحباط عند بعض المسلمين الآن هو التوحيد ، لأن توهم ضعيف الإيمان أن أمرنا بيد جهة قوية بعيدة عنا تخطط لتدميرنا ، لإفقارنا ، لإضلالنا ، لإفسادنا ، لإذلالنا ، لإبادتنا ، وهي قوية جداً ، معها أسلحة فتاكة ، والإعلام بيدها ، والأموال بيدها ، والثروات بيدها ، والتحالفات بيدها ، وكأن حرباً عالمية ثالثة معلنة على الإسلام ، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان يشعر بالإحباط ، لذلك أنا أقول: أخطر شيء في حياة المسلمين أن يهزموا من الداخل ، من الخارج ليست مشكلة كبيرة ، فما مِن إنسان إلا وله ساعة هكذا وساعة هكذا .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، تفضلت في مسألة هامة جداً ، أن الهدف من نزول الدين أن نوحد الله ، وألا نشرك به أحدا ، الآن من هنا جاءت الدروس .

النبي عليه الصلاة والسلام من ولادته حتى وفاته كان موحداً لله ، وفي البدايات قطع اللهُ له الأسباب حتى لا يتوجه إليه ، من وفاة والده ، ثم والدته ، ثم جده ، ثم عمه ، إلى أن توكل التوكل الصحيح على الله عز وجل ، ومن هنا نفهم الهجرة ، وكيف النبي انتقل إلى المدينة المنورة ، ثم أخذ بالأسباب ، وقلت لنا : أنْ نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم نتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، هنا يتحقق التوحيد في هذه القضية ؟

الدكتور راتب :

علاقة التوحيد باتخاذ الأسباب :

الحقيقة التوحيد له معنيان :

المعنى الأول : أن الله وحده هو الفعال .

المعنى الثاني : أن الله جعل لكل شيء سببا ، فحينما آخذ بالأسباب هذا لا يتناقض مع التوحيد ، حينما أرى أن الأمر بيد فلان فقد أشركت ، أما حينما أرى أن الأمر بيد الله ، وقد مرني أن آخذ بالأسباب ، فاتصلت بفلان ، وعرضت عليه مشكلتي ، ووعدني بحلها ، أنا بقيت موحداً ، لأني أرى أن العطاء بيد الله ، هو بشكل آخر لا رافع ولا خافض ، ولا معطي ولا مانع ، ولا معز ولا مذل ، ولا رازق ولا مقتر إلا الله ، يد الله وحدها تعمل ، ولو أن الله أسلمنا إلى غيرنا أنا أتسائل : كيف يأمرنا أن عبده ؟

لذلك طمأننا وقال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

الأمر معرف بـ (أل)تعريف استغراق ، كله توكيد ،

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

الآن

(فَاعْبُدْهُ)

وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك ، أنا موجود يا عبدي ، أنا معك ، قال تعالى :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

(سورة طه)

فرعون الجبار الطاغية قتلُ إنسانٍ أهون عنده من قتل ذبابة ، قال تعالى :

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

أستاذ علاء ، في القرآن قصص في الحقيقة شيء يلفت النظر ، أن شرذمة قليلة من أتباع سيدنا موسى خائفة مضطهدة مهانة ملاحقة ، فرعون وراءه بجنوده بجبروته وأسلحته كبريائه وبطشه وقسوته ، قال تعالى :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان معك فمن عليك ؟

سيدنا يونس أستاذ علاء ، إنسان يجد نفسه فجأة في بطن حوت ، الحوت وزنه مئة وخمسون طنًّا ، فيه خمسون طنًّا من اللحم ، وخمسون طنًّا من الدهن ، وخمسون طنًّا من العظم ، وتسعون برميلا من الزيت ، وجبته المتواضعة أربعة أطنان ، والإنسان كله مئة كيلو ، الإنسان يستطيع أن يقف في فم الحوت ، نبي كريم وجد نفسه فجأة في بطن حوت ، هذه مصيبة ، واحتمال النجاة منها كم ؟ صفر ، لا أمل إطلاقاً في قانون الأرض ، قال تعالى :

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

لي تعليق طريف : الحمد لله أن هناك تغطية تحت الماء ، لو كان معه هاتف خلوي لم يجد تغطية ، أنت خارج التغطية ، أيّ مصيبة تنزل بالإنسان لن تكون بمستوى أن يجد نفسه فجأة في بطن حوت .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، وهذا ما عرفناه عندما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام ، ودخل الغار ، وقال سيدنا أبو بكر : لقد رأونا .

الدكتور راتب :

قال عليه الصلاة والسلام : ألم تقرأ قوله تعالى : وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون .

الأستاذ علاء :

ما هذا التوكل الحقيقي والتوحيد والثقة بالله عز وجل ؟

الدكتور راتب :

مثلاً : قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

(سورة يوسف)

تروي كتب التاريخ أن فرعون رأى في المنام أن طفلاً سوف يقضي على ملكه ، فأمر بقتل كل أبناء بني إسرائيل ، وأيّة قابلة لا تبلّغ عن مولود ذكر تقتل مكانه ، يقتل أبناءهم ، ويستحي نسائهم ، أما الطفل الذي سيقضي على ملكه فرباه في قصره ، قال تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

(سورة يوسف)

أنا أقول دائماً : زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، قال تعالى :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَاً)

(سورة النور)

هذه وعود خالق السماوات والأرض ، فعلى الطرف الآخر أن يعبده ، قال تعالى :

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

(سورة النور)

فإذا أخل الفريق الثاني بما يترتب عليه من عبادة وتوحيد الفريق الأول وهو الذات الإلهية في حل من وعوده الثلاثة ، التوحيد هو الدين ، التوحيد هو الإيمان ، التوحيد أن لا ترى مع الله أحدا ، التوحيد أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن أمرك كله بيد الله ، وأن عليك أن ترضي جهة واحدة ، شيء رائع جداً ، ألغي النفاق ، ألغي الخوف ، ألغي بذل ماء الوجه ، أنت إذا دخلت إلى دائرة فيها أربع طوابق ، ولتكن الهجرة والجوازات ، وأنت تحب تسافر إلى بلد معين ، أنبأك أحدهم أن إشارة المغادرة لهذا البلد بيد

المدير العام وحده ، وليس في كل هذه الدائرة موظف من صلاحيته أن يوقع على هذه الزيارة ، فهل تبذل ماء وجهك أمام شرطي ؟ لابد أن تذهب إلى المدير العام الذي بيده التوقيع .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، كما تفضلت التوحيد اعتقاد ، والعبادة سلوك ، نرجع قليلاً إلى العبادة السلوكية ، ومررت على العبادات إن صح التعبير الشعائرية ، وهناك عبادة تعاملية أيضا ، وأن الشعائرية مرهونة بالتعاملية ، ولا قيمة لها ما لم تكن مرهونة ومقرونة بالتعاملية ، وأن يتحقق التعامل الصحيح لكي تقبل من هنا نقول :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند فيه ضعف]

رغم الفصل في هذه القضية يظن كثير من الناس أن التعامل غش ، أكل على فلان ماله ، استطاع أن يؤثر في السوق في سمعة فلان ، وأن الله غفور رحيم .

الدكتور راتب :

ثمرة العبادات حسنُ المعاملات :

أستاذ علاء ، الدين توقيفي ، لا يجرؤ أحد على سطح الأرض أن يقول في الدين برأيه ، أنا أعطيك الأدلة نبدأ بالصلاة :

ثمرتها الابتعاد عن كل معصية .

1 ـ الصلاة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلَاةٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم ، الترمذي ، أحمد]

2 ـ الصيام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري ، الترمذي أبو داود ، ابن ماجه ، أحمد]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ))

[ابن ماجه]

رُبّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش .

3 ـ الحج :

((ومن حج بمال حرام ، ووضع رجله في الركاب ، وقال : لبيك اللهم لبيك ، ينادى أن لا لبيك ، ولا سعديك ، وحجك مردود عليك))

4 ـ الزكاة :

الزكاة ، قال تعالى :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة : الآية 53]

ماذا بقي ؟ هذه الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، إن لم تصح العبادات التعاملية الضابط في هذا أن سيدنا جعفر رضي الله عنه حينما سأله النجاشي عن هذا الدين العظيم قال :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ))

[أحمد]

هذا هو الدين ، الدين قيم أخلاقية ، لذلك حينما قالوا : بني الإسلام على خمس ، الإسلام غير هذه الخمس ، فهذه أركان الإسلام ، أما الإسلام فهو مجموعة قيم أخلاقية ، الإيمان هو الخلق ، ومن زاد

عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، هذا محور هذه اللقاءات الطيبة إن شاء الله ، التوحيد يفضي إلى الخُلق .

عندنا علائق رائعة جداً بين العقيدة والخلق ، أنا حينما أرى أن أمري بيد الله لا أنافق ، ولا أبذل مال وجهي ، ولا أرتكب معصية من أجل الرزق ، التوحيد يشفي الإنسان من آلاف الأمراض ، كل مشكلات العالم الإسلامي أراها ترجع إلى مرض واحد ، المرض هو الإعراض عن الله ، وضعف التوحيد ، وكل ما نعانيه من مشكلات هي أعراض لمرض واحد ، هو الإعراض عن الله ، أعرضنا عن الله ، تعلقنا بالدنيا ، تنافسنا عليها ، كذبنا ، غششنا ، فعلنا كل الموبقات .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، كنا نود أن نتحدث عن مسألتين : الأولى هي لوازم التوحيد ، ثم ثمار التوحيد ، كما تفضلت أن التوحيد يفضي إلى كذا يفضي إلى الاستقامة .

اليوم ماذا أعددت لنا سيدي في الفقرة العلمية ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : كيف تتعامل الدلافين مع ظاهرة الاحتكاك في الماء :

لازلنا في موضوع الدلفين ، فقرة أخيرة عن الدلفين ، إذا أراد مهندس ما تصميم مركبة بحرية قوية تتحمل الظروف الصعبة فعليه أن يأخذ بالحسبان قوة احتكاك هذه المركبة في الماء ، حينما ترى أن العالم الآن يقلد خلق الله ، الآن السفن العملاقة والغواصات سوف تأخذ من الدلفين بعض خصائص جلده.

فكلما عمل على تخفيف الاحتكاك كلما كانت المركبة أقوى وأسرع ، لذلك عليه أن يختار التصميم المناسب الذي يخفف الاحتكاك إلى أدنى درجة ، ويعطيها القوة ، من المعلوم أن قسماً كبيراً من طاقات المحرك يضيع بلا جدوى من جراء عائق الاحتكاك ، الاحتكاك يستغرق طاقة كبيرة جداً ، وكلما قللنا من الاحتكاك كلما أسرعت السفينة ، المركبة الأرضية السيارة إذا ضغطت عجلاتها بالهواء قلت مساحة الاحتكاك مع الزفت ، فيقلّ مصروفها ، وكلما كانت العجلات بأوسع مساحة مع الأرض الاستهلاك يكون أكبر يحتاج إلى طاقة .

تعالوا معنا لنرى كيف تواجه الدلافين هذه المشكلة ؟ هل من المعقول للإنسان العملاق الذي حصل علوماً شتى يرجع إلى تقليد مخلوق خلقه الله منذ ملايين السنين ؟ تحب الدلافين السباحة السريعة ، والسباحة السريعة تواجه بقوة احتكاك كبير ، ولكن ليس هناك أي مشكلة بالنسبة للدلافين من جراء هذا

الاحتكاك ، لأن الله تعالى الذي أبدع خلقه هيأ لها جميع الأسباب التي تيسر لها تحركاتها ونشاطاتها ، كيف ؟

1 ـ جلود الدلافين تساعد على تخفيف قوة الاحتكاك :

جلود الدلافين وبنية أجسامها خلقت بتصميم عجيب يخفف من قوة الاحتكاك إلى أدنى حد ، لنرى معاً هذا التصميم الرائع عن قرب ، الله تعالى زود الدلفين بجلد مطاطي خاص ، يا تُرى ما فائدته ؟ من جراء السباحة تتكون لديه طبقة مائية تسمى طبقة حد الاحتكاك ، هذه الطبقة تُقابل من قِبل هذه الجلود المطاطية بحركة معاكسة تقاوم الاحتكاك ، فينتج عن ذلك سباحة سريعة ومريحة جداً للدلفين ، هذا التصميم الإلهي للدلفين ألهم ودلّ أهل العلم على إنجاز هندسي كبير .

إن مهندسي الغواصات الألمان بعد أن درسوا هذا التصميم في جلد الدلفين أنجزوا بعد بحث دامت أربع سنوات صنعَ غطاء يتميز بخصائص قريبة من جلد الدلفين ، وضعت للغواصات طبقة بخصائص تشابه جلد الدلفين المطاطي ، والغواصات التي استخدمت مثل هذه التقنية اكتسبت سرعة قُدِّرت بضعفين ونصف ، معنى هذا خلق الله عز وجل ، كماله كمال مطلق ، وأنا أقول : أيّ تعديل للتصميم الإلهي نحو الأسوأ ، أيّ تعديل ، ومن خصائص آخر الزمان قوله تعالى :

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء)

لذلك الأمراض تنتشر وتتفاقم بسبب أن طعامنا على غير ما صممه الله ، طعامنا وشرابنا ، وسكنانا وعلاقاتنا ، تلوث البيئة ، استخدام الأسمدة الكيماوية ، استخدام الهرمونات للدجاج ، هذه كلها تسبب أمراضًا خبيثة وبيلة ، وقد ارتفعت هذه النسب إلى عشرة أضعاف .

2 ـ هذا خَلْقُ الله :

قطعاً تصميم جلد الدلفين تصميم رائع كهذا يدل هذا الجلد على هذه الروعة ، ويدل على عظمة الخالق الذي وضع تصميماً في أحد مخلوقاته ، فكانت حقيقة علمية جديدة أبدعها الخالق من ملايين السنين ، واكتشفها الإنسان الآن .

إن هذا التصميم الذي رأيناه في الدلفين نموذج من خلق الرحمن الذي لا تفاوت فيه ، فكل كائن في الطبيعة جُهز بصفات مدهشة يراها الذين يتفكرون في خلق الله تعالى ، وفي صنعته الرائعة ، حيث قال تعالى :

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

(سورة ق : 8)

أستاذ علاء ، الكون مائدة ، الكون معرض ، لذلك قالوا : الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (59-95) - العقيدة والتوحيد : محصلة التوحيد ـ الفيل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-02-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، تحدثنا في الحلقة الماضية ، ولن أجمل الحلقات البعيدة ، كنا في موضوع الاختيار ، وتحدثنا في مسألة الاختيار الشيء الكثير ، وبينت لنا في آخر نوع من الإضلال بعد الجزاء والحكم ، والإضلال عن الشركاء الذي يفضي إلى التوحيد ، التوحيد هو كما حدثتنا ثمرة الإيمان ، وأيضاً كل الأديان ، وكل الأنبياء ، وكل الرسالات ، وكل المناهج التي نزلت من السماء إلى الأرض تتلخص بالتوحيد ، وقلت لنا : إن التوحيد هو اعتقاد ، وأن العبادة هي سلوك ، الآن سيدي الكريم بعد أن تبينا حقيقة التوحيد ما هي لوازم التوحيد ؟

الدكتور راتب :

تعليق مهمٌّ : الدين كله توحيد :

أستاذ علاء ، لا بد من تعليق على كلامك اللطيف ، لو أنّ رجلاً سأل طبيبًا متفوقا جداً أمضى في دراسة الطب خمساً وثلاثين سنة ، سأله : علمني شيئاً واحداً ، كيف أكتب وصفة ؟ يقول له : كتابة الوصفة محصلة دراسة خمس وثلاثين سنة ، أحياناً سعر العملة محصلة الثروات الباطنية والاقتصاد والتصدير ، كل الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري ، والقوة العسكرية ، والقوة الدولية ، والثروات الباطنية ، كلها تتلخص بسعر العملة ، أنا أقول : الإيمان كله التفكر في خلق السماوات والأرض ، وأداء العبادات ، وإنفاق الأموال ، وطلب العلم ، كل النشاطات الدينية تضغط بالتوحيد ، فالتوحيد محصلة إيمانك واستقامتك وعملك الصالح ، ومحصلة علمك ومحصلة إخلاصك ، التوحيد نهاية العلم ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، لكن ليس من المعقول أن تصدق إنسانا معه مئة مليون يستدين عشر ليرات ، يكون عنده تزوير وخلل خطير ، لأن من لوازم الغني أن معه مالا ، ومن لوازم الغني الإنفاق من ماله ، ومن لوازم الغني أنه اشترى بيتا معقولا يتناسب مع ثروته ، تجد إنسانا يقول : لا إله إلا الله ، لكن يتضعضع أمام غني ،

ورد في بعض الآثار : " من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه : .

يتضعضع أمام قوي ، يتضعضع أمام غني ، يبذل ماء وجهه لغير الله .

الأستاذ علاء :

هذا نوع من الإشراك سيدي ؟

الدكتور راتب :

التضعضع أمام الأغنياء نوع من الشرك :

هو إشراك ، أنا لا أصدق إنسانا يقول : لا إله إلا الله ، ثم يبذل ماء وجهه لغني ، أو قوي من أجل أن يصل لشيء من الدنيا ، وقد دفع ثمن هذا الشيء كرامته لا أصدق ، لا أصدق إنسانا يخاف إلا من الله إذا كان موحدا .

مثلاً : قال تعالى :

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

أحد أكبر العذاب النفسي القلق والاستخذاء ، والخوف والإحباط ، أن ترى مع الله إلهاً آخر .

الأستاذ علاء :

ولم تشر الآية إلى عذاب أخروي ، وإنما دنيوي ، كما تفضلت ، العذاب النفسي الإحباط التراجع .

الدكتور راتب :

القوة والشجاعة بالتوحيد :

أما سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً ، هذا ليس سحراً ، إنما هي نبوة ، فقالوا :

(آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى)

(سورة طه)

فرعون الجبار الطاغية .

الآن :

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة القصص : 60)

لن يكون الإنسان شجاعاً إلا بالتوحيد ، لن يكون جريئاً إلا بالتوحيد ، لن يكون كريم النفس إلا بالتوحيد، لن يكون واضحاً إلا بالتوحيد ، لن يكون عزيز الجانب إلا بالتوحيد ، وضعف التوحيد ذلٌّ ، وضعف التوحيد نفاق ، ضعف التوحيد معصية .

أنا أضع يدي على أخطر قضية في الدين ، حينما ترى أن لا إله إلا الله ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا مذل ، ولا رافع ، ولا خافض ، ولا رازق إلا الله ، علاقتك مع جهة واحدة ، ارتاح الإنسان من الشركاء .

الأستاذ علاء :

لاحظ سيدي الكريم ، أن الكثيرين منا بالطبع دون علم منه ، ودون إصرار منه على هذه المسألة يقع في كل هذه المسائل ، لذلك ورد في بعض الآثار القدسية :

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري))

[أخرجه الحكيم البيهقي عن أبي الدرداء]

" خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليه ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شركي أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي "

هذا ورد في كتاب ابن القيم

" إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عند بعشرة أمثالها وأزيد ، والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها " .

[ورد في الأثر]

سألتني أستاذ علاء عن لوازم التوحيد .

الأستاذ علاء :

قبل لوازم التوحيد إذا سمحت سيدي ، كيف يتسق هذا المعنى مع حديث النبي عليه الصلاة والسلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

الدكتور راتب :

كيف نجمع بين شكر الناس وتوحيد الله :

بارك الله على هذا السؤال ، أنا حينما أعتقد أن الذي أعطاني هو الله ، لكن عن طريق زيد ، زيد كائن

مخير ، اختار أن يعطيني بإلهام من الله ، فأنا واجبي الأول أن أشكر الله ، ثم واجبي الثاني حتماً أن أشكر زيداً ، لأن النبي علمنا الأدب فقال :

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

حينما يأتيني عطاء من إنسان مخير ، هو اختار أن يساعدني ، هو مخير ، اختياره أراد أن يساعدني ، لكن الله عز وجل ألهمه ، وجعله يساعدني ، فأنا من قلة الذوق ، ومن قلة الأدب ، ومن الجحود ألا أشكره ، إلا أنه لما اتُّهمت السيدة عائشة رضي الله عنها في أشرف ما تملكه فتاة امرأة ، وجاءت تبرئتها من الله عز وجل قال لها أبوها الصديق : قومي ، واشكري رسول الله ، قالت له : لا والله ، لا أشكر إلا الله ، وبعدها شكرته ، أنت حينما توحد تشكر الله أولاً ، وبعد هذا تشكر من جاءك هذا الخير على يديه .

الأستاذ علاء :

من أجرى الله الخير على يديه .

الدكتور راتب :

هو مخير ، اختار أن يستجيب إلى هذا النداء الإلهي ، كإنسان وقف على باب إنسان الغني ، أعطاه ، فمن قلةِ الذوق أن يأخذ ، ويمشي ، اشكره ، جزاك الله خيراً ، أرجو الله أن يمكنني أن أرد لك هذا الجميل ، فإذا ابتعد عن البيت قال : يا رب ، لك الحمد ، أنت الموفق ، أنت الذي ألهمته ، أنت الذي أعطيتني .

الحقيقة أنه لا يتناقض أن تشكر عباد الله مع شكر الله ، وحينما ترى أن هذا الذي أعطاك له إرادة مستقلة عن الله فقد أشركت ، أما حينما ترى أن الله منحك هذا العطاء عن طريق فلان فإنك تشكر الله أولاً ، ثم تأدباً مع توجيه النبي تتوجه إليه وتشكره .

أستاذ علاء ، نحن مقصرون جداً في هذا الصنف الثاني ، لأن مَن الذي يمنع المعونة ؟ الذي لا يشكر ، أنا أتمنى على إخوتي المشاهدين أي خدمة قدمت لك من إنسان لا بد من أن تشكره ، إما باتصال هاتفي، أو برسالة ، أو بكلمة في صحيفة .

مثلاً : طبيب بذل جهدًا كبيرا ، وأخذ أجرا قليلا ، يجب أن تنوه بفضله ،

((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ))

المجتمعات الراقية حضارياً ولو كانت بعيدة عن الله دينياً من لوازمها الشكر ، كلمة شكر ، اتصال هاتفي ، بطاقة شكر ، الشكر من صلب هذا الدين .

الأستاذ علاء :

ومن هنا نفهم سيدي أنه لا يعرف الفضلَ لأهل الفضل إلا أهلُ الفضل .

الدكتور راتب :

لا يعرف الفضلَ لأهله إلا ذووه :

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ، أحد الصحابة وجد على ثيابه ريشة ، فنزعها عنه ، قال له : جزاك الله خيراً ، شكر العباد لا يتناقض مع التوحيد ، بالعكس هو من لوازم التوحيد ، لذلك قال النبي الكريم :

((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ ، وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

[الترمذي عن ابن عمر]

الأستاذ علاء :

سيدي نأتي إلى لوازم التوحيد .

الدكتور راتب :

لوازم التوحيد :

1 ـ عدم الإشراك بالله مطلقا :

الآية الأولى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام : 164)

الرب هو الممد ، قال تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

انحباس السماء عن المطر يتلف ، يلغي كل الثروات ، فلذلك حينما أرى أن المطر قد انهمرت البارحة، والحمد لله تشعر أن هذه رحمة الله عز وجل ، الرب هو الممد ، لو أن الله حبس المطر عن بلد ما ، والقيادة اتخذت قراراً بإنزال المطر لكان هذا شيئًا مضحكًا ، المطر بيد الله وحده ، هو القوي ، فلذلك :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ)

(سورة الأنعام : 164)

التقوى والاستقامة سبب الرزق :

أنا أقول دائماً بالمناسبة : تقنين الإلهي تقنين تأديب ، ولا يمكن ، ولا يعقل ، ولا يقبل أن يكون تقنين الإله تقنين عجز ، قال تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف : 96)

(وَأَ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

إقامة القرآن في الحياة سبب الرزق :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة : 66)

يقاس عليها القرآن الكريم ولو أن أقاموا القرآن الكريم أقمنا أحكامه في بيوتنا وفي أعمالنا لأكلنا من فوقنا ومن تحت أرجلنا ، إذاً : هو تقنين تأديب ، والدليل :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة الحجر)

مرة كنت في بلد ، واشتريت مجلة علمية ، فإذا فيها بحث لفت نظري ، أن المراصد الفضائية كشفت سحابة في الفضاء البعيد يمكن أن تملأ محيطات الأرض مجتمعة ستين مرة في اليوم بالمياه العذبة ، سحابة واحدة ، نقص الأمطار نقص تأديبي ، وكلما قلّ ما الحياء قلّ ماءُ السماء ، فلذلك :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ)

(سورة الأنعام : 164)

هو الممد ، يمدنا بالهواء ، بالماء ، بالرزق ، بزوجة ، بأولاد ، الطفل إذا جاء مشوهاً لو دفعت كل ما تملك لم تقيم صورته ، إذا جاء سليماً معافى فرحت به .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي]

الشيء الأول :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ)

(سورة الأنعام : 164)

الأستاذ علاء :

من اللوازم سيدي .

الدكتور راتب :

من لوازم الربوبية :

أن يكون الله رباً لك لا غيره ، الآن الرب من لوازمه أيضاً أنه يربي نفسك ، يربي جسمك بالهواء والماء ، والزوجة والأولاد ، والطعام والشراب ، والخضار والفواكه ، واللحوم والأسماك ، إذا حصل خطأ كان التأديب ، إذا حصل إسراف كان التقنين ، إذا حصل كبر كانت الإهانة والمتابعة ، والإنسان إذا تابعه الله فهو في نعمة كبيرة ، لأنه ضمن العناية المشددة .

2 ـ الحَكَمُ هو اللهُ :

الآن من لوازم التوحيد :

(أفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً)

(سورة الأنعام : 114)

هناك اختلافات في الأرض ، بل اختلافات كثيرة جداً .

الأستاذ علاء :

اللازم الأول أن يكون رباً .

الدكتور راتب :

اللازم الثاني أن يكون الحَكَمُ هو الله ، هو شرعه ، لذلك ما حسنه الشرع هو الحسن ، وما قبّحه هو القبيح ، لذلك حينما قال الله عز وجل :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

قالوا القلب السليم هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله ولا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله ولا يحكم غير شرع الله ولا يعبد غير الله .

(أفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً)

(سورة الأنعام : 114)

لو أن امرأة في بلد أجنبي رغب زوجها أن يطلقها ، إن اتجهت إلى مركز إسلامي يقضي لها بمهرها فقط ، هذا حكم الله ، أما إذا اتجهت إلى قاض في تلك البلاد يقضي لها بنصف ثروة زوجها ، فإذا كانت مؤمنة حقاً تتجه إلى القاضي الإسلامي الذي يقضي لها بشرع الله ، أما إذا رفضنا شرع الله عز وجل

نكون قد وقعنا في خطأ كبير .

الأستاذ علاء :

من هنا تأتي الآية الكريمة :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

(سورة النساء)

حتى الحرج ممنوع

الدكتور راتب :

قال تعالى :

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

(سورة المجادلة : 22)

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب : 36)

هذا شرع الله ، هذا حكم الله ، أنت مع طبيب معه بورد ، يقول لك : أوقف الملح ، لا تفكر أن تناقشه ، واثق من علمه ، ومن دقة كلامه ، واثق من توجيهاته الصحيحة ، ومن دراساته العالية ، مع طبيب تستسلم ، خاطب لذلك الإمام الغزالي نفسه فقال : " يا نفس ، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين ، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ فما أكفرك ! أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً " ما أجهلك ! " .

حينما أصدق الطبيب ، وأبادر إلى بيع البيت المرتفع لأشتري بيتاً أرضياً حفاظاً على قلبي ، حينما أصدق الطبيب ، ولا أصدق الله عز وجل حينما فإن من يفعل مثل هذا جزاءه جهنم .

أحياناً في الجريدة خبر بسيط ، أنه مثلاً : يمكن أن تخفف رسوم السيارات ، ثاني يوم تهبط الأسعار بمئة ألف لكل سيارة ، بأربع كلمات ، الناس استجابوا ، وإله عظيم بين أيدينا كلامه نقرأه صباحاً ومساءً، فيه أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، والناس لا يعبئون .

إذاً : من لوازم التوحيد أن يكون الله ربنا ، ولا رب لنا سواه ، وأن يكون حكماً لنا شرعه ، هو الحكم أمره هو الحكم .

الأستاذ علاء :

اللازم الأخير سيدي .

الدكتور راتب :

3 - لا وليَّ إلاّ اللهُ :

قال تعالى :

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً)

(سورة الأنعام : 14)

الإنسان أحيانا بحاجة إلى مرجع ، في الجامعات الراقية فيها لكل خمسة طلاب أستاذ متفرغ لهم ، يرجعون إليه في اختيار المواد ، في طريقة الدراسة ، في اقتناء الكتب والمراجع ، في تنظيم وقت الدراسة ، الآن في التفاصيل فلا بد لك من مرجع تستشيره ، تأخذ رأيه ، تستنصحه ، يرشدك ، يوجهك، الآن في التفاصيل ، في الزواج ، في العمل ، في التجارة ، في الاستخارة ، في الاستجارة ، المؤمن بعد أن يعبد الله ، ويطبق أمره ونهيه في تفاصيل حياته يأخذ بحكم الشرع فيه ، في تفاصيل حياته يصلي صلاة الاستخارة ، يسأل أهل العلم ، الولي للتفاصيل ، أنت تعبد الله رب العالمين ، وهو ربك ، في تربية جسمك ، وحاجاتك ، وتربية نفسك ، وتجعل الله حكماً في كل قضية خلافية . الله عز وجل وليك ، أي ترجع إليه في التفاصيل ، تسأله ، تدعوه ، تصلي صلاة الاستخارة ، ترى تفاصيل الأحكام ، ما الذي يرضي الله ، فتاتان ، الأولى دينها قوي ، والثانية دينها قليل ، فالنبي نصحني بذات الدين ، أنا الآن دخلت في التفاصيل في اختيار زوجتي ، في عمل قد يبنى على إيذاء الناس أبتعد عنه ، في عمل دخله قليل ، ولكنه شريف ، في خدمة للناس ، فأنا حينما أدخل في التفاصيل الله ولي ، قال تعالى :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة : 257)

الأستاذ علاء :

الله عز وجل يتولانا ، من هنا نفهم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، وحتى يكون الله ورسوله أحب شيء مما سواهما ، الحب والولاية .

الدكتور راتب :

أنت حينما تقول : الله يتولاك ، وحينما تقول : أنا ، يتخلى الله عنك .

الأستاذ علاء :

هذا الموضوع سنكمله إن شاء الله في الحلقة القادمة ، والآن جاء وقت الفقرة العلمية ، فماذا اخترت لنا؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الفيل وما أدراك ما الفيل ؟!!!

ننتقل إلى الفيل ، هنا إفريقيا التي أمامنا ، في هذه القارة تعيش كثير من الكائنات المتنوعة .
بالمناسبة ، حدائق الحيوان في إفريقيا حدائق مفتوحة ، إذا لم يدخل الزائر إلى سيارة مصفحة يؤكل ، أما الحدائق التقليدية فالحيوانات في قفص ، الآن مجتمعنا حديقة حيوان إفريقية .

1 ـ هذا هو الفيل :

هذا الفيل أكبر حيوان بري على وجه الأرض ، أجسامها الضخمة تبدو ، وكأنها منزل يتحرك ، وزن فيل واحد يساوي وزن خمسين شخصاً تقريباً .
تعيش الفيلة سبعين سنة في الظروف الطبيعية ، وتتجول على شكل قطعان غالباً ، وفي كل قطيع ثلاثون فيلاً تقريباً ، يقاد القطيع من قِبَل فيل أنثى ، والقرارات التي تتخذها تُنفذ من قبل الجميع ، وهناك نظام وانضباط كاملان يسير عليه أفراد القطيع ، والذي يُراعى فيه النظام الطبقي ، يأكل كل فيل وسطياً في اليوم مئتين وخمسين كيلو غراماً من الأعشاب ، هذا يعني أن قطيعاً مؤلفاً من ثلاثين فيلاً يستهلك سبعين طناً يومياً من العشب تقريباً .
ولا شك أن حاجة الفيل إلى الماء تحت الشمس الحارقة حاجة ملحة أيضاً ، و لهذا فهو يُضطر إلى ارتياد نبع الماء يومياً ، وليحصل على الماء والطعام لا بد له من أن يقطع مسافة خمسين كيلو متراً دون توقف أحياناً ، وهو لا يتحمل البقاء من دون ماء أكثر من ثلاثة أيام ، خلقت أجسام الفيلة بشكل يتناسب مع البيئة الصعبة الموجودة فيها .
والآن لندقق في بعض خصائص الفيلة هذه ، وذلك عن قرب ، لنرى معاً معجزات الخالق في هذه الحيوانات الثقيلة .

2 ـ الخرطوم الطويل :

الحقيقية أن الخرطوم أكبر مساعد للفيلة ، عمليات متنوعة كثيرة تتحقق بهذا الخرطوم ، كان العلماء في القرن الثامن عشر يظنون أن خرطوم الفيل عضلة واحدة ، لكن البحوث الحديثة أدهشت العلماء ، ففي حين لا تتجاوز عضلات الإنسان ستمئة وتسعاً وثلاثين عضلة ، اكتشفوا وجود مئات الآلاف من العضلات في الخرطوم الواحد ، هذه العضلات التي تُرى على شكل حلقات بعضها فوق بعض تعطي خرطوم الفيل مرونة كبيرة .

يتكون الخرطوم من مجموعتين أساسيتين من العضلات ، العضلات الموصولة تقاطعياً تؤمن دوران الخرطوم حلزونياً إلى الجهات كلها ، وتمكنه من التحركات الثقيلة ، وتعمل عمل الرافعة التي نستخدمها في رفع الأثقال .

المجموعة الثانية من العضلات تقوم بأدق الحركات ، وتتميز بحاسة اللمس كأصابع الإنسان تماماً ، والخرطوم ليس أنفاً فقط ، بل هو كل شيء بالنسبة إلى الفيل ، هو الحواس كلها وأكثر ، ولذا إذا تضرر الخرطوم يمكن أن يكون سبباً في موت الفيل في مدة قصيرة .

المدافعون عن نظرية داروين يدعون أن الخصائص التي تملكها الكائنات ظهرت تدريجياً نتيجة المصادفات ، وعن هذا فإن بنية معقدة كخرطوم الفيل لا تستطيع القيام بمهمتها إلا بعد ظهور مئات الآلاف من العضلات معاً ، وفي آن واحد ، وهذا بحسب زعمهم يستغرق وقتاً طويلاً ، ولو لم تكن هذه المجموعة من العضلات موجودة معاً لعجزت الفيلة عن الحركة ، ولماتت في مدة قصيرة ، وهذا لم يحدث أبداً .

إن الفيلة تستخدم خرطومها بسهولة منذ ملايين السنين على أكمل وجه ، وهذه التصاميم في أجسام هذه الحيوانات تُظهر لنا مرة أخرى بديع خلق الله تعالى .

أستاذ علاء ، نحن أمام كون مدهش بسمائه وأرضه ، ومخلوقاته الكبيرة والصغيرة ، البعوضة أحياناً فيها أشياء مذهلة ، والفيل فيه أشياء مذهلة .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (60-95) - مقومات التكليف : الشرع - الشرع تعليمات الصانع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير وتقرير :

سيدي الكريم ، منذ أن بدأ هذا البرنامج ، واخترت له هذا العنوان الرائع والجميل ، بدأنا بالتحدث عن مسألة هامة ، وهي أن الله عز وجل اختار الإنسان المكرم للرسالة والأمانة على هذه الأرض ، في هذا الكون الفسيح ، وكلفه بهذه الرسالة ، وكلفه بهذه الأمانة ، كلفه بمطلق التكليف ، وبينت لنا مقومات التكليف ، فأعطاه هذه المقومات لكي يقدر عليها ، ولكي تكون بين يديه حصيلة ، ولكي تكون ذخيرة يأخذ منها ، ويمشي بها ، ويؤدي الأمانة التي أؤتمن عليها .

من مقومات التكليف الكون وتحدثنا طويلاً عنه ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ثم الشهوة ، ثم الاختيار ، ونقف في هذه الحلقة بعد أن أشبعنا الاختيار بتفصيله الدقيق ، نقف عند الشرع ، وبقي في مقومات التكليف الشرع ، والوقت ، نقف عند الشرع ، ونقف عند هذه المسألة التي عرّفها الفقهاء كثيراً في كتب الفقه ، وفي كتب اللغة ، وفي كتب العقيدة ، نرى تعريفات الشرع الكثيرة ، لكن من خلال ما تفضلت ، تبين لنا بأن الإنسان هو أعقد آلة صنعها أو خلقها الله عز وجل ، وقلت لنا في أحاديث سابقة : إن الشرع فيه تعليل ، أو تعليمات الصانع لكي تعمل هذه الآلة بالشكل الأمثل ، والشكل الكفء ، فماذا عن الشرع ؟ وما علاقة الشرع بمقوم من مقومات التكليف ؟ أين يقع في مقومات التكليف ؟ وكيف يكون الشرع واتباع الشرع عبادة لله بعد أن نعتقد بالله وجوداً وربا .

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الشرع :

1 – الشرع ضمان في زمن ضلال العقل :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، بادئ ذي بدء : أعطانا الله عقلاً كأداة دفاع ، وأعطانا فطرة كأداة نفسية لاكتشاف الخطأ ، لكن العقل قد يضل ، والفطرة قد تنطمس ، فلذلك ضمانة ألا يضل العقل ، وألا تنطمس الفطرة ، أعطانا منهجاً نسير عليه .

تماماً لو كلفت طالباً أن يحل مسألة ، ثم أعطيته الجواب بشكل نظري ، فإذا جاء حله وفق هذا الجواب فحله صواب ، وإذا جاءت النتائج عنده بخلاف هذا الجواب فحركته في الحل مغلوطة .

الله أعطاك موازين ، أعطاك موازين العقل ، وأعطاك موازين الفطرة ، لكن العقل قد يُستخدم لغير ما صنع له ، قد نستخدم العقل لتبرير أخطائنا ، كالحرية والديمقراطية ، فالعقل التبريري ساقط ، قذر ، لأن هذا الجهاز العظيم ، الذي هو أعقد جهاز في الكون ، والذي منح الله الإنسان هذا الجهاز تكرمة عالية له استخدمه بخلاف ما صنع له .

تماماً كما لو اقتنيت آلة تصوير ملونة ، هذه الآلة يمكن أن تعمل بها أعمالا رائعة جداً ، وأن تكسب منها الملايين ، استخدمتها لتزوير العملة ، فكان هذا الاستخدام سبباً للسجن ، ومع الأسف الشديد أن العقل الآن مستخدم في العالم لتغطية الجرائم والطغيان ، ونهب الثروات ، وقهر الشعوب بطروحات براقة في ظاهرها ، ككلمة الشرق الأوسط الجزئي ، هو شرق أوسط ممزق ، منهوب الثروات ، مهدور الكرامة .

العقل التبريري قذر ، ومحتقر ، أما العقل الصريح فهو الذي أراده الله عز وجل ، فلئلا يضل العقل كانت أحكام الشريعة الضمانة له .

2 – الشرع ضمان في زمن انطماس الفطرة :

شيء آخر ، أعطاك فطرة تكشف الخطأ ذاتياً ، ولكن الفطرة مع الانغماس في المحرمات ، والملذات ، والشهوات المنحطة تنطمس ، فجاء الشرع ليكون حكماً على الفطرة ، وجاء الشرع ليكون حَكَماً على

العقل ، فلذلك الحَسن ما حسَّنه الشرع ، والقبيح ما قبَّحه الشرع .

مثل ثالث : أنت تملك بيتًا له ثمن فلكي ، وبعته بالعملة الصعبة ، هناك احتمال أن تكون العملةُ مزوَّرة، وفي جيبك الأيمن جهاز إلكتروني ، إن وضعت عليه هذه العملة أعطاك لونا يؤكد أنها صحيحة ، أو لونا آخر أنها مزوَّرة ، لكنك لم تستخدمه ، وفي الجيب الآخر ورقة لأرقام العملة المزورة ، هذا هو الشرع ، إما بطريقة رائعة تكشف العملة المزورة به ، أو بأرقام العملة المزورة .

حينما يقع الإنسان في شر عمله لا يستخدم عقله ، ولا يستخدم منهج الله عز وجل ، فيبيع بيته بعملة مزورة ، فيخسر الآخرة .

الخطأ في الوزن لا يتكرَّر ، والخطأ في الميزان لا يُصحَّح :

هناك ضوابط ، قال الله عز وجل :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

هناك ميزان ، لكن هذا الميزان قد يزوّر ، لذلك أنا أقول : أفضل ألف مَرة أن نخطئ في الوزن مِن أن نخطئ في الميزان ، لأن الخطأ في الوزن لا يتكرر ، بينما الخطأ في الميزان لا يصحَّح .

تصور ميزانا في إحدى كفتيه خمسون غراما زيادة ، لو استخدمته مليون مرة كل الموازين خطأ ، أما إذا توهمت أنه كيلو أو كيلوين فهذا يحدث مرة واحدة ثم يُصحَّح ، فالخطأ في الوزن لا يتكرر ، والخطأ في الميزان لا يصحح .

الأستاذ علاء :

الخطأ في الوزن لا يتكرر ويحصل مرة واحدة ، أما الخطأ الثاني فيتكرر ، ولا يصحح .

الدكتور راتب :

أمران مهمَّان بهما سعادة الدارين يجنيهما المتَّبعُ لمنهج الله :

فلذلك الله عز وجل رحمة بنا ، وضماناً لسلامتنا وسعادتنا أعطانا عقلاً كأعظم عطاء ، أعطانا فطرة ، ولكن العقل قد يضل ، والفطرة قد تنطمس .

1 – فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

ماذا قال الله عز وجل ؟ قال :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ)

يعني الشرع :

(فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

2 – فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

آية ثانية :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

لا خوف عليهم مما سيكون ، ولا هم يحزنون على ما كان ، فكأن الإنسان واقف بمكان ، الآية غطت الماضي السحيق والمستقبل البعيد ، فلا خوف عليهم في المستقبل ، ولا هم يحزنون .

لو جمعنا الآيتين :

الآية الأولى :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

والآية الثانية :

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

أي : لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، ماذا بقي من سعادة الدنيا والآخرة ؟

الأستاذ علاء :

هذا جميل ، فقد أحاط بكل الأمر ، ولذلك المشي وفق المهج ، وفق الشرع كما تفضلت ، وفق الطريق المستقيم ، كلما كان الإيقاع متسقاً مع الشرع كانت الحياة سعيدة ، وكانت الآخرة تنتظره بأجمل حلة لها.

الدكتور راتب :

الشرع ميزان للعقل والفطرة :

يمكن أن نقول : الشرع ميزان على ميزان العقل ، وميزان على ميزان الفطرة العقل قد يضل ، والفطرة قد تنطمس ، لكن الشرع ثابت .

في الشام مثلاً ملايين الموازين ، لكن هناك كيلو نظامي ، وكيلو آخر مزوَّر نقيسه بالنظامي ، الشرع هو الحسن المطلق .

لذلك فكر ، واجتهد ، وحلق ، وتأمل ، وحلل ، ودقق ، إذا انتهى بك المطاف إلى شيء بخلاف الشرع فأنت مخطئ حتماً .

فكِّر ، ودقق ، وحلل ، ووازن ، وناقش ، إذا انتهى بك المطاف إلى موقف متطابق مع الشرع فأنت على صواب ، لأن الشرع ميزان على ميزان العقل والفطرة ، لأنه من عند خالق السماوات والأرض ، من عند الذي لا يأتي كتابَه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، من عند المطلق .

الشرع هو المرجع النهائي لكل خلاف فيما بيننا .

القلب السليم هو القلب الذي لا يتناقض مع الشرع :

مثلاً : قال الله عز وجل :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

أكبر إنجاز للإنسان على الإطلاق أن يلقى الله بقلب سليم ، فما تعريف القلب السليم ؟ هو القلب الذي لا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله ، لا يقبل خبر بصحيفة ، بمجلة ، بفضائية يتناقض مع وحي الله .

الأستاذ علاء :

هل نستطيع أن ننقل قضية القلب إلى العقل بأن العقل السليم ، لا يتناقض مع الشرع ، أو النقل الصحيح؟

الدكتور راتب :

العقل السليم لا يتناقض مع شرع الله :

طبعاً ، القلب مركز النفس ، نحن إذا قلنا : القلب صنوبري فهذا مضخة للدم ، أما الله عز وجل فقال :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية : 179)

قلب النفس مكان العقل :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

القلب السليم هو الذي لا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله ، ولا يحكم غير شرع الله ، ولا يعبد إلا الله ، ولا يشتهي شهوة لا ترضي الله ، هذا أدق تعريف للقلب السليم ، قلب لا يقبل خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يشتهي شهوة لا ترضي الله ، ولا يحكم إلا شرع الله ولا يعبد إلا الله :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

الأستاذ علاء :

إذاً : سيدي الكريم من خلال ما تفضلت بأن العقل بكل صراحته ، ومقوماته وباتّقاده ، دون أن يكون يرزح تحت تأثير عامل من العوامل ، حيث يضعفه ، ويقلّل ملكاته ، هو لا يتناقض مع شرع الله .

الدكتور راتب :

قد يكون صاحب العقل بريئًا ، لكن معلوماته قاصرة .

العقل مرتبط بالواقع :

أستاذ علاء العقل مرتبط بواقعك ، كيف ذلك ؟

لو أتيح لي أن أوقظ إنسانًا من قبره مات قبل خمسين عامًا ، ثن أطلعه على قرص مدمج فيه 7 آلاف عنوان ، لن أقول : 7 آلاف كتاب ، لم أقل 7 آلاف مجلد ، 7 آلاف عنوان ، فالصحابة الكرام وصلوا إلى الله ، وأنت حينما تغمس في ماء البحر ، وكل خلية في جسمك تشعر بماء البحر ، وأنفك يستنشق رائحة ماء البحر ، وعينك ترى امتداد البحر ، أنت في هذه الحالة لا تحتاج إلى دليل ، أنت وصلت إلى البحر ، وانغمست فيه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (61-95) - مقومات التكليف : الشرع - المقياس لحركة الإنسان ـ الاتصال
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، توقفنا في حلقات سابقة عند مقوم هام من مقومات التكليف ؛ ألا وهو الاختيار ، وأفردنا له الكثير من الحلقات ، وتشعبت موضوعات هامة عن الاختيار ، وقلنا : إن الاختيار يثمِّن العمل ، واللهُ عز وجل أوجد الاختيار لأنه يتَّسق وعدله ، ويتسق والثواب والعقاب ، وأيضاً أن الإنسان مخير فيما كلف به ، من هذا الموضوع تبينا أن هنالك ثلاثة أنواع من الإضلال ، الله عز وجل يترك الإنسان في محض اختياره فيما كلف به ، ولكن هناك الإضلال الجزائي ، والإضلال الحُكمي ، وهنالك الإضلال عن الشركاء .

سيدي الكريم ، الإضلال عن الشركاء كما تبينا معًا يفضي إلى مسألة واحدة ؛ وهي التوحيد ، وأن يكون الإنسان موحداً متجهاً بكليته إلى الباري عز وجل ، ماذا عن حقيقة التوحيد ؟

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

التوحيد :

التوحيد فحوى رسالات الأنبياء جميعا :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، الإنسان أحياناً كما أنه يميل إلى التفاصيل والأفكار التفصيلية والتشعبات ، في حين آخر يميل إلى ضغط الحقائق بكلمات ، فإذا أرادنا أن نضغط فحوى رسالات السماء مجتمعة فلا نستطيع أن نفعل هذا كما جاء في القرآن الكريم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الرسالات السماوية مجتمعة ، دين الله ، وحي السماء إلى الأرض ، خطاب السماء إلى الأرض مضغوط بكلمتين : توحيد وعبادة ، التوحيد بالتعبير المعاصر منطلقات نظرية ، والعبادة تطبيقات عملية، التوحيد اعتقاد ، والعبادة سلوك ، التوحيد الجانب العقلي من الدين ، والعبادة الجانب السلوكي من الدين ، الدين إيمان وعمل ، وفي أكثر من مئتي آية صيغة : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهي منطلق نظري ، وتطبيق عملي .

فلذلك هذه الآية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

هذه الخلاصة .

الأنبياء بشرٌ تجري عليهم خصائص البشر :

للتقريب :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة الكهف الآية : 110)

وتجري عليه كل خصائص البشر ، وانتصر على بشريته ، إذاً هو سيد البشر .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(سورة الكهف الآية : 110)

الآن سيضغط القرآن كله بكلمتين :

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

القرآن بأكمله 600 صفحة ، 30 جزءًا مضغوط بكلمتين :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

توحيد وعبادة .

حتى إنهم قالوا : " التوحيد نهاية العلم ، والعبادة نهاية العمل " .

حينما تأتي حركتك في الدنيا مطابقة لمنهج الله فقد حققت الهدف من وجودك ، والإله العظيم الذي خلق الإنسان خلقه ليعبده .

حقيقة العبادة :

لكن يفهم الناس أحياناً بسذاجة أن العبادة صلاة ، العبادة أنت أمام منهج تفصيلي أقولها كثيراً : يبدأ من

فراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، إنه منهج كامل ، في طعامك ، في شرابك ، في زواجك ، في تربية أولادك ، في كسب مالك ، في أفراحك ، لا سمح الله في الأتراح ، في السفر ، في الحرب ، في السلم ، منهج تفصيلي .

بين العبادة الشعائرية والعبادة التعاملية :

نحن مضطرون إلى أن نفرق بين عبادتين ، بين عبادة شعائرية ، وبين عبادة تعاملية ، والحقيقة المُرة التي هي أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، أن العبادات الشعائرية ومنها الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، لا تقبل ، ولا تصح ، إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، فلما غفل المسلمون كون الدين عبادات تعاملية أصبح الدين أجوفَ ، أصبح الدين إطاراً ، أصبح الدين ثقافة ، أصبح الدين فلكلوراً ، أصبح الدين تراثاً ، الدين منهج ، منهج تفصيلي ، تعليمات الصانع ، لأن الإنسان أعقد آلة في الكون ، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، ولهذه الآلة بالغة التعقيد ، بالغة النفع ، غالية الثمن كتيب فيه تعليمات التشغيل والصيانة ، إنه القرآن الكريم .

إن الإنسان أحياناً يحب التفاصيل ، لكن أحياناً يحب الموجز ، موجز الأديان كلها توحيد وعبادة ، موجز القرآن كله :

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف الآية : 110)

فاعبدوه ، التوحيد والعبادة ، التوحيد : حينما تشعر أن مصيرك ، وأن رزقك ، وأن صحتك ، وأن حياتك ، وأن دخلك ، وأن سعادتك بيد جهة أرضية ، إذا توهمت ذلك دون أن تشعر تتوجه إلى هذه الجهة الأرضية ، من دون أن تعطيها اسم العبادة ، تخاف منه ، تعصي الإله من أجله ، ترتكب الموبقات إرضاءً له ، تتكلم كلاماً لست قانعاً به إرضاءً له .

من مفهومات التوحيد في نفس الداعية :

لذلك هناك آية دقيقة جداً يصف الله الدعاة إلى الله ، قال :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب الآية : 29)

هؤلاء الدعاة لهم مئات الصفات ، هم حتماً صادقون ، أمناء ، رحماء ، صفاتهم كثيرة ، هي صفات المؤمنين ، لكن الله أغفلها كلها ، وأبقى صفة واحدة ، قال :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 29)

فلو أن هذا الداعية خشي غير الله لسكت عن الحق خوفاً ممن خشيه ، وتكلم بالباطل إرضاءً لمن خشيه، ولانتهت دعوته ، ولا داعي أبداً أن نذكر بقية الصفات .

علماء البلاغة قالوا : هذه صفة مترابطة مع الموصوف ترابطا وجوديا ، بمعنى أنه إذا أُلغِيت الصفة ألغي الموصوف ، كأن تقول : الطائرة كبيرة والباخرة كبيرة ، طائرة غالية الثمن ، واليخت غالي الثمن، أما إذا قلت : طائرة تطير ، فإذا ألغي طيرانها ألغيت هويتها .

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

الأستاذ علاء :

هنا مفهوم توحيدي ؟ وهو جليٌّ .

الدكتور راتب :

توحيد القصد والجهة من تمام التوحيد :

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، فحينما أتوهم أن رزقي بيد زيد ، وأن منصبي بيد عبيد ، وأن راحتي النفسية بيد فلان ، وأن مكانتي الاجتماعية بيد فلان ، أنا مضطر أن أعبد آلة كثيرة ، أنا سأتوزع، سأتمزق ، إذا جاءت التعليمات مضادة ، ماذا أفعل ؟ مَن أرضي ؟

إنّ المؤمن استراح من كل هذه المشكلات ، يعبد رباً واحداً ، ويرضي إلهاً واحداً ، هو يعتمد على إله واحد ، ويلجأ إلى إله واحد ، ويتوكل على إله واحد ، وكل عمله من أجل إرضاء هذا الله الواحد ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

الأستاذ علاء :

هذه الخلاصة ، وهذا كل ما جاء به الأنبياء ، وما جاءت به الشرائع ، أدت إلى هذا المعنى ، وإلى هذا المنتهى الذي هو الإخلاص لله في العبودية ، وألا نشرك به أحدا ، ومتى تحققت هذه القضية فقد تحقق الدين .

الدكتور راتب :

هذا هو الدين ، فحينما ترى أن رزقك بيد فلان دون أن تشعر تحاول أن ترضيه بأي ثمن ، لأن الإنسان حريص حرصاً لا حدود له على حياته ، وعلى رزقه ، فإذا أسْلَمَنا الله إلى غيره كيف يأمرنا أن نعبده ؟ إذا أسْلَمنا الله إلى عدو لئيم كيف يأمرنا أن نعبده ؟

التوحيد هو العلاج الوحيد للإحباط :

الذي أقوله : علاج حالات الإحباط عند بعض المسلمين الآن هو التوحيد ، لأن ضعيف الإيمان يتوهم أن أمرنا بيد جهة قوية بعيدة عنا ، تخطط لتدميرنا ، لإفقارنا ، لإضلالنا ، لإفسادنا ، لإذلالنا ، لإبادتنا ، وهي قوية جداً ، معها أسلحة فتاكة ، والإعلام بيدها ، والأموال بيدها ، والثروات بيدها ، والتحالفات بيدها ، وكأن حرباً عالمية ثالثة معلنة على الإسلام ، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان يشعر بالإحباط .
لذلك أنا أقول : أخطر شيء في حياة المسلمين أن يُهزَموا من الداخل ، لأن الهزيمة من الخارج ليست مشكلة كبيرة ، وما مِن إنسان إلا وله ساعة هكذا وساعة هكذا .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، تفضلت في مسألة هامة جداً ؛ أن الله عز وجل الهدف من نزول الدين أن نوحده ، وألاّ نشرك به أحدا ، من هنا جاءت الدروس ، النبي عليه الصلاة والسلام من ولادته وحتى وفاته كان موحِّداً ، والله عز وجل في البدايات قطع له الأسباب حتى يتوجه إلى الله وحده ، من وفاة والده ، ثم والدته ، ثم جده ، ثم عمه ... إلى أن توكل التوكل الصحيح على الله عز وجل ، من هنا نفهم الهجرة ، ونفهم النبي عليه الصلاة والسلام كيف انتقل إلى المدينة المنورة ، ثم أخذ بالأسباب ، وقلت لنا : أن نأخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم نتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء ، هنا يتحقق التوحيد في هذه القضية ؟

الدكتور راتب :

معاني التوحيد :

الحقيقة أن التوحيد له معنيان :

المعنى الأول : الله فعَّالٌ لِما يريد :

أن الله وحده هو الفعّال .

المعنى الثاني : الأخذُ بالأسباب لا يتناقض مع التوحيد :

أن الله جعل لكل شيء سببا ، فحين آخذ بالأسباب هذا لا يتناقض مع التوحيد .

حينما أرى أن الأمر بيد فلان فقد أشركت ، أما حين أرى أن الأمر بيد الله ، وقد أمرني أن آخذ بالأسباب فاتصلت بفلان ، وعرضت عليه مشكلتي ، ووعدني بحلها ، أنا بقيت موحِّداً ، لأني أرى أن العطاء بيد الله .

بشكل آخر ، لا رافع ، ولا خافض ، ولا معطي ، ولا مانع ، ولا معز ، ولا مذل ، ولا رازق ، ولا مقتر إلا الله ، يد الله وحدها تعمل ، ولو أن الله أسْلمنا إلى غيره فأنا أتساءل : كيف يأمرنا أن نعبده ؟ لذلك طمأننا فقال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

الأمر معرَّفٌ بأل التي تعريف الاستغراق ، كل له توكيد :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

الآن :

(فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية : 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك ، يعني أنا موجود يا عبدي ، أنا معك .

قصص القرآن مغزاها التوحيد :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)

(سورة طه)

فرعون الجبار ، الطاغية ، قتل إنسان أهون عنده من قتل ذبابة .

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

في القرآن قصص تلفت النظر :

1 – سيدنا موسى وفرعون :

شرذمة قليلة من أتباع سيدنا موسى خائفة ، مضطهدة ، مهانة ، ملاحقة ، فرعون وراءها ، بجنوده ، بجبروته ، بأسلحته ، بكبريائه ، ببطشه ، بقسوته .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء الآية : 61)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك .

2 – سيدنا يونس في بطن الحوت :

سيدنا يونس ، إنسان يجد نفسه فجأة في بطن حوت ، الحوت وزنه 150 طنًّا ، خمسون طنًّا من اللحم، وخمسون طنا من الدهن ، وخمسون طنًّا من العظم ، تسعون برميلا من الزيت ، وجبته المتواضعة 4 أطنان ، الإنسان كله مئة كيلو ، ويستطيع أن يقف في فم الحوت ، يقف على قدميه ، نبي كريم وجد نفسه فجأة في بطن حوت ، هذه المصيبة احتمال النجاة منها كم ؟ صفر ، لا أمل إطلاقاً في الأرض .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

لي تعليق طريف : من الجيد أن تحت البحر تغطية ، لو كان معه خلوي لم تكن هناك تغطية . أي مصيبة تنزل بالإنسان فلن تكون بمستوى أن يجد نفسه في بطن حوت .

الأستاذ علاء :

سيدي ، وهذا ما عرفناه عندما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام ، ودخل الغار ، وقال سيدنا أبو بكر : لقد رأونا .

الدكتور راتب :

3 – سيدنا النبي مع أبي بكر في الغار :

قال : ألم تقرأ قوله تعالى :

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

الأستاذ علاء :

ما هذا التوكل الحقيقي والتوحيد ! والثقة بالله عز وجل ؟!

الدكتور راتب :

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

مثلاً : قال الله عزوجل :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

(سورة يوسف الآية : 21)

تروي كتب السيرة والتاريخ أن فرعون رأى في المنام أن طفلاً سوف يقضي على ملكه ، فأمر بقتل كل أبناء بني إسرائيل ، وأية قابلة لا تبلّغ عن مولود ذكر تُقتل مكانه .

(أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 4)

أما الطفل الذي سيقضي على ملكه فقد رباه في قصره .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف الآية : 21)

أنا أقول دائماً : زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية : 55)

هذه وعود خالق السماوات والأرض ، وعلى الطرف الآخر أن يعبده .

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)

(سورة النور الآية : 55)

فإذا أخل الفريق الثاني بما يترتب عليه من عبادة وتوحيد فالفريق الأول ، وهو الذات الإلهية في حِلٍّ من وعوده .

التوحيد أن تعتقد أن الأمر كله بيد الله :

إذاً : التوحيد هو الدين ، التوحيد هو الإيمان ، التوحيد ألاّ ترى مع الله أحدا ، التوحيد أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن أمرك كله بيد الله ، وأنه عليك أن ترضي جهة واحدة ، ألغي النفاق ، ألغي الخوف ، ألغي بذلُ ماء الوجه .

إذا دخلت إلى دائرة فيها أربعة طوابق ، ولتكن الهجرة والجوازات ، وأنت تحب أن تسافر إلى بلد معين ، أنبأك أحدهم أن إشارة المغادرة لهذا البلد بيد المدير العام وحده ، وليس في كل هذه الدائرة موظف من صلاحيته أن يوقع لك على هذه الزيارة ، فهل تبذل ماء وجهك أمام شرطي ؟ أو أمام معاون مدير ؟ أبداً ، لا داعي لذلك ، تذهب إلى المدير العام ، هذا هو التوحيد .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، كما تفضلت التوحيد اعتقاد ، والعبادة سلوك ، نرجع قليلاً لو سمحت إلى العبادة السلوكية ، ومررت على العبادات إن صح التعبير الشعائرية ، وأن الشعائرية مرهونة بالتعاملية ، ولا

قيمة لها ما لم تكن مرهونة ، ومقرونة بالتعاملية ، وأن يتحقق التعامل الصحيح لكي تُقبَل ، مِن هنا نقول:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

نفصل في هذه القضية ، يظن الكثير من الناس أنه تعامل ، وغش ، أكل على فلان ماله ، استطاع أن يؤثر بالسوء بوظيفة فلان ، بسمعة فلان ، وأن الله غفور رحيم .

الدكتور راتب :

لا تصحّ العبادة الشعائرية إلا بصحة العبادة التعاملية :

أستاذ علاء ، الدين توقيفي ، ولا يجرؤ أحد على وجه الأرض أن يقول في الدين برأيه ، أنا أعطيك الأدلة على أن العبادات الشعائرية لا تصح إلا بصحة العبادات التعاملية .

1 – الصلاة :

نبدأ بالصلاة ، سأل النبي أصحابه :

((أتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع قال : إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شَتَمَ هذا ، وقذفَ هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه ، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذه الصلاة .

2 – الصيام :

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعمَلَ بهِ ، فليس للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشرَابَهُ))

[أخرجه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي هريرة]

((رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش))

3 – الحجُّ :

((من حج بمال حرام ، ووضع رجله في الركاب ، وقال لبيك اللهم لبيك ، ينادى : أن لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك))

[ورد في الأثر]

4 – الزكاة :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

ماذا بقي ؟ هذه الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، إن لم تصح العبادات التعاملية لم تصح العبادات الشعائرية .

هذا هو الإسلام :

الضابط في هذا أن سيدنا جعفر رضي الله عنه حينما سأله النجاشي عن هذا الدين العظيم :

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ...))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة]

هذا هو الدين ، الدين قيم أخلاقية ، لذلك حينما قالوا :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. عن عبد الله بن عمر]

الإسلام غير هذه الأركان الخمسة :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

هذه أركان الإسلام ، أما الإسلام فهو مجموعة قيم أخلاقية ، الإيمان هو الخلق ، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، هذا محور هذه اللقاءات الطيبة إن شاء الله .

التوحيد يفضي إلى الأخلاق الحسنة :

التوحيد يفضي إلى الخُلق ، لذلك عندنا علائق رائعة جداً بين العقيدة وبين الخلق ، فحينما أرى أن أمري بيد الله لا أنافق ، ولا أبذل ماء وجهي ، ولا أرتكب معصية من أجل الرزق ، التوحيد يشفي الإنسان من آلاف الأمراض ، أنا اعتدت أن مشكلات العالم الإسلامي أراها ترجع إلى مرض واحد ، هو مرض الإعراض عن الله ، وضعف التوحيد وكل ما نعانيه من مشكلات هي أعراض لمرض واحد، هو الإعراض عن الله ، أعرضنا عن الله ، تعلقنا بالدنيا ، تنافسنا عليها ، غششنا ، فعلنا كل الموبقات.

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، كنا نود أن نتحدث عن مسألتين : الأولى هي لوازم التوحيد ، ثم ثمار التوحيد ، كما تفضلت بأن التوحيد يفضي إلى كذا ، يفضي إلى الاستقامة ، ولكن الوقت أدركنا ، اليوم ماذا أعددت لنا سيدي في الفرقة العلمية ؟

الدكتور راتب :

الموضوع العلمي : الدُّلفين :

لا زلنا في موضوع الدُّلفين ، فقرة أخيرة عن الدلفين :

1 – تقليد الإنسان في صناعاته البحرية الدلفين :

إذا أراد مهندس ما تصميم مركبة بحرية قوية تتحمل الظروف الصعبة ، فعليه أن يأخذ بالحسبان قوة احتكاك هذه المركبة في الماء .

ترى أن العالم الآن يقلّد خَلْق الله ، الآن السفن العملاقة والغواصات سوف تأخذ من الدلفين بعض خصائص جلده ، فكلما عمل على تخفيف الاحتكاك كلما كانت المركبة أقوى وأسرع ، لذلك عليه أن يختار التصميم المناسب الذي يخفف الاحتكاك إلى أدنى درجة ، ويعطيها القوة ، من المعلوم أن قسماً كبيراً من طاقات المحرك يضيع بلا جدوى من جراء عائق الاحتكاك ، الاحتكاك يستهلك كبيرة طاقة جديدة ، وكلما قلّلنا من الاحتكاك أسرعت السفينة والمركبة ، والسيارة إذا ضغطت عجلاتها بالهواء قلّت مساحة الاحتكاك مع الزفت ، فيقلُّ مصروفها ، وكلما كانت العجلة بأوسع مساحة مع الأرض يكون الاستهلاكُ أكبرَ .

تعالوا معنا لنرى كيف تواجه الدلافين هذه المشكلة ، هل معقول من الإنسان العملاق الذي حصّل علوماً شتى ، يرجع لتقليد مخلوق خلقه الله منذ ملايين السنين ؟!

2 – سباحة الدلفين السريعة ومشكلة الاحتكاك :

تحب الدلافين السباحة السريعة ، السباحة السريعة تواجه بقوة احتكاك كبيرة ، ولكن لا توجد أية مشكلة بالنسبة للدلافين من جراء هذا الاحتكاك ، لأن الله تعالى الذي أبدع خلقه هيأ لها جميع الأسباب التي تيسر لها تحركاتها ونشاطاتها ، كيف ؟

3 – جلدُ الدلفين يخفّف قوة الاحتكاك في الماء :

جلود الدلافين وبنية أجسامها خُلقت بتصميم عجيب ، يخفف من قوة الاحتكاك إلى أدنى حد ، لنرى معاً هذا التصميم الرائع عن قرب ، الله تعالى زود الدلفين بجلد مطاطي خاص ، يا تُرى ما فائدته ؟ مِن جراء السباحة تتكون لدية طبقة مائية تسمى طبقة حد الاحتكاك ، هذه الطبقة تقابل مِن قِبل هذه الجنود المطاطية بحركة معاكسة ، تقاوم الاحتكاك ، فينتج عن ذلك سباحة سريعة ، ومريحة جداً للدلفين، هذا التصميم الإلهي للدلفين ألهم ودلَّ أهل العلم على إنجاز هندسي كبير .
إن مهندسي الغواصات الألمان بعد أن درسوا هذا التصميم في جلد الدلفين أنجزوا بعد أبحاث دامت أربع سنوات ، صنع غطاء يتميز بخصائص قريبة من جلد الدلفين ، وضعت للغواصات طبقة بخصائص تشابه جلد الدلفين المطاطي ، والغواصات التي استخدمت هذه التقنية اكتسبت سرعة قدرت بضعفين ونصف ، ارتفعت سرعتها بعد هذا الغطاء على جدران الغواصات الذي يشبه جلد الدلفين .

احذروا تغيير خَلْقِ اللَّهَ :

إن خلق الله عز وجل كماله كمال مطلق ، وأنا أقول دائماً : أي تعديل للتصميم الإلهي نحو الأسوأ ، ومن تعديل ومن خصائص آخر الزمان قوله تعالى :

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ)

(سورة النساء الآية : 119)

لذلك الأمراض تنتشر ، وتتفاقم بسبب أن طعامنا على غير ما صمم الله ، طعامنا ، وشرابنا ، وسكنانا، وعلاقتنا ، وتلوث البيئة ، استخدام الأسمدة الكيماوية ، استخدام الهرمونات للدجاج ، هي كلها تسبب أمراضا خبيثة وبيلة ، ارتفعت هذه النسب إلى عشرة أضعاف .

قطعاً تصميم جلد الدلفين تصميم رائع ، هكذا يدل هذا الجلد على هذه الروعة ، ويدل على عظمة الخالق الذي وضع تصميماً في أحد مخلوقاته ، فكانت حقيقة علمية جديدة أبدعها الخالق من ملايين السنين ، واكتشفها الإنسان الآن .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ

إن هذا التصميم الذي رأيناه في الدلفين نموذج من خلق الرحمن ، الذي لا تفاوت فيه ، فكل كائن في الطبيعة جُهز بصفات مدهشة يراها الذين يتفكرون بخلق الله تعالى وفي صنعة الرائعة ، حيث قال الله تعالى :

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

(سورة ق)

أستاذ علاء ، الكون مائدة ، الكون معرض ، لذلك قالوا : " الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي " .

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (62-95) - مقومات التكليف : الشرع ـ العلاقة بين الأمر الإلهي نهياً ونتائجه ـ الحياة الاجتماعية للحيوانات 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق بين نوازع الشهوة وما تمليه الفطرة ثمن الجنة :

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم كعادتي في كل حلقة ألخص بعض الأشياء لنربط ما كنا قد بيناه في الحلقات السابقة بالذي نقدمه في الحلقات الجديدة ، كنا قد بدأنا بداية بأن الإنسان كرم بالرسالة والأمانة ، وأن هناك مقومات للتكليف تميز هذا المخلوق المكرم عن غيره ، وفندت لنا بأن مقومات التكليف هي الكون ، وتحدثنا عنها كثيراً ، ثم العقل ، ثم الفطرة ، ثم الشهوة ، وبينت لنا أن المغالبة والفرق بين الفطرة والشهوة نوازع الشهوة وما تمليه الفطرة هي ثمن الجنة ، هذه مجاهدة عملية الفطرة والشهوة ثم الاختيار ، الإنسان يختار فعله فيما كلفه فيه ثم بينت لنا موضوع الشرع .

في حلقتين سابقتين سيدي بينا أن الإنسان هو أعقد آلة في الكون .

الدكتور راتب :

لكن هذا التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز .

الأستاذ علاء :

وبينت لنا بأن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة هما تعليمات الصانع لهذه الآلة المعقدة إعجازاً وليس عجزاً ، وتبينا بأن الله عز وجل جاء بالكتاب والسنة لكي يستقيم الإنسان ولكي يسترشد طريقه نحو الخير ، سيدي نود أن تعطينا فكرة تلخص لنا هذه المسألة ثم أريد أن أتبين أن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائج هذا الشيء في الامتثال أو عدم الامتثال هل علاقة علمية سببية ؟

الشهوات دوافع والعقل مقود والشرع هو الطريق :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزك الله خيراً ، نعود إلى مثل قديم أن الإنسان كمركبة فيها محرك وفيها مقود ، المحرك هو الشهوة والمقود هو العقل ، لكن لا بدّ من طريق تسير عليه المركبة ومهمة العقل والمركبة تنطلق على هذا الطريق ، أن يبقيها على هذا الطريق لا أن تتدهور ، مهمة العقل أن يوقع حركة الإنسان وفق منهج الله ليبقى على الطريق الآمن ، هي صممت لطريق معبد ، فمهمة العقل أن يحافظ على بقاء المركبة على الطريق ، مهمة الشهوة أن تحرك المركبة ، فالشهوات دوافع والعقل مقود والشرع هو الطريق .

الإنسان أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز :

لذلك نحن مع تعليمات الصانع ، مع تعليمات الخبير ، قال تعالى :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

أنت حينما تحتاج إلى قضية تبحث عن الخبير ، عندما تريد إصلاح آلة تبحث عن الوكالة ، حينما تحاول إصلاح شيء معطوب تبحث عن الخبراء في ذلك ، لذلك الإنسان أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، ولهذه الآلة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فانطلاقاً من حرصنا على سلامة الآلة ، وعلى حسن مردودها نتبع تعليمات الصانع ، بتعبير معاصر انطلاقاً من حبّ الإنسان لوجوده ، ولسلامة وجوده ، ولكمال وجوده ، ولاستمرار وجوده ، يطبق تعليمات الصانع :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت)

الفرق بين الأمر التنظيمي و الأمر التشريعي :

الآن في نقطة أحياناً الأب في البيت يعطي أمراً ونهياً ، الأمر علاقته بنتائجه والنهي علاقته بنتائجه وضعي من وضع الأب ، لو كان في البيت بابان فالباب الأول سمح بالدخول منه ، والثاني بالخروج منه ، لو أن الابن خالف هذه التعليمات وأدبه الأب نقول لا يوجد علاقة علمية بين خروج الابن من الباب ، الأب قرر أن هذا الأب للخروج أو للدخول ، مخالفة وضعية لذلك لما الرماة في أحد عصوا رسول الله صلى اله عليه وسلم النبي صلى عليهم لأنهم خالفوا أمراً تنظيمياً ولم يخالفوا أمراً تشريعياً ، في فرق كبير جداً بين الأمر التنظيمي وبين الأمر التشريعي .

الأستاذ علاء :

سيدي :

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم)

(سورة النساء : 59)

هنا هذه الإطاعة إطاعة تنظيمية ؟

الدكتور راتب :

طبعاً المطلق على إطلاقه ، الأولى أن نطيع رسول الله تشريعاً وتنظيماً ، لكن لما نخالف رسول الله تنظيماً ؛ هذه المخالفة أقل بكثير فيما لو خالفناه تشريعاً ، الآن أنا قد أضع علاقة بين الأمر ونتائجه علاقة وضعية أنا أضعها ، مثلاً في ظرف اقتصادي عصيب نمنع إخراج العملة من بلدنا ، هذا أمر تنظيمي لكن هو ما في علاقة علمية بين إخراج مبلغ من الدولارات وبين والعقاب علاقة غير علمية لكنها وضعية اقتضتها مصلحة الأمة أما أحياناً يكون في علاقة علمية مثلاً .

الأستاذ علاء :

سيدي مثلاً لما سيدنا يعقوب طلب من أولاده لا تدخلوا من باب واحد كان ما في علاقة علمية هذه وضعية .

الفقيه من فهم أن أوامر الدين من عند الخالق العليم :

الدكتور راتب :

أما أنا لما أنهى ابني عن أن يلمس المدفأة وهي مشتعلة ، فإذا لمسها وهي مشتعلة تحترق يده ، فالعلاقة بين اللمس والاحتراق علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، أنا حينما أفهم أوامر الدين من عند الخالق العليم الحكيم أن الأمر الإلهي مع نتائجه بينهما علاقة علمية أكون فقيهاً ، مثلاً لو أن وزير الكهرباء وضع لوحة أمام خط توتر عالي ممنوع الاقتراب من هذا الخط ، لو أن مواطناً ساذجاً ظنّ أنه إذا اقترب يخالف من قبل الشرطي ، فنظر هل أحد يراقبه ؟ التيار يعاقبه ، التيار يجعله قطعة فحم بعد دقائق ، أنا حينما أفهم أن أمر الله عز وجل أمر من عند الخبير ، وأن في الأمر بذور نتائجه ، وأن في النهي بذور نتائجه ، عندئذ أكون فقيهاً ، عندئذ أنطلق من تطبيق أمر الله عز وجل لا من رهبة العقاب بل من حبّ المصلحة وحبّ السلامة والسعادة .

الجهل أعدى أعداء الإنسان :

بالمناسبة الستة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض ما منهم واحد إلا ويتمنى السلامة والسعادة ،

دون استثناء إلا أن الذي يشقي الإنسان هو الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما يستطيع عدوه أن يفعله به ، حدثني أخ من بلد عربي في عامل تنظيف طائرات أثناء تنظيف الطائرة اكتشف أن هناك حجرة واسعة للعجلات ، فلمعت في ذهنه فكرة عجيبة أن يقبع في هذه الغرفة وينتقل من بلد إلى بلد بلا ثمن وبلا فيزا وبلا شروط ، فظن نفسه أنه ذكياً جداً ، ما إن صعد وقعد على أرضية هذه الغرفة وطارت الطائرة أنزل الطيار الأرضية ليرفع العجلات فنزل ميتاً ، ما الذي قتله ؟ جهله ، الجهل أعدى أعداء الإنسان ، أحياناً أخ مزارع اشترى سماداً من أرقى شركة قال له المهندس الزراعي ضع لتراً في البرميل ، وضع لترين ثاني يوم النبات كله احترق .

نحن مشكلتنا مع الجهل لذلك أزمة أهل النار في النار أزمة علم الدليل :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

من فهم أن العلاقة بين الأمر الإلهي وبين نتائجه علاقة علمية ضمن سلامته و سعادته :

أنا حينما أفهم أن العلاقة بين الأمر الإلهي وبين نتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة أطبق أمر الله ، وأنا أرى أنني أضمن بهذا الأمر سلامتي وسعادتي .

الأستاذ علاء :

سيدي العلاقة علاقة سبب بنتيجة كما قلت بأن النهي أو الحض ، في هذا النهي أو الحض بذور النتائج، هل عامل الزمن يلعب دوراً في مسألة السبب بالنتيجة ، هل كل أمر إلهي يخالفه العبد نتائجه السيئة تظهر بزمن بشكل آني أو بزمن قصير ؟ أم أن هنالك القضية على التراخي ؟

الدكتور راتب :

والله أنا أعتقد أن منهج الله عز وجل منهج الخبير ، وأنه خاضع للتطبيق في أي زمان ومكان ، لكن قد تكون النتائج مؤلمة في مجتمع نمت فيه القيم ، وقد تكون النتائج غير مؤلمة في مجتمع أصبح متفلتاً من القيم ، مثلاً يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أوَ كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة بسند فيه ضعف]

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

انعدام القيم في المجتمع المتفلت :

الأمر الإلهي حينما لا يطبق النتائج حتمية في كل زمان ومكان ، لكن هذه النتائج تقيّم في ضوء قيم المجتمع ، فالذي يسافر فرضاً وغاب في السفر أربع سنوات وأخبرته أنها أنجبت مولوداً في غيبته يرحب بهذا ويقيم حفل ؟ هذه النتيجة المؤلمة لانعدام القيم في هذا المجتمع لم يبالِ بها ، النتائج هي هي، لكن بينما نحفل بالإيجابيات ونتألم من السلبيات وبين أن لا نبالي بالسلبيات لأن القيم قد ضعفت في مجتمع ما .

الأستاذ علاء :

سيدي هنالك من يقول بأن الأوامر والنواهي التي جاء في الكتاب والسنة هي قيد لحرية الإنسان ، تقولون بأن الإنسان مكرم ، وتقولون بأن الإنسان حر في اختياره ، وأن الإنسان يفعل ما يريد دونما إرادة لقصره على فعل ، أو الانتهاء عن شيء معين ، هذا الشرع الذي تفضلت به أليس قيداً لحرية الإنسان الذي أطلقت يده في فعل ما يريد ؟

الأوامر و النواهي التي جاء بها الشرع ليست قيداً لحرية الإنسان بل حفاظاً على سلامته:

الدكتور راتب :

أنا أجيب عن هذا السؤال أنه ما من أخ كريم مشاهد اقتنى آلة غالية ، وعظيمة النفع ، ومعقدة التركيب، عنده حرص لا حدود له على تعليمات الصانع ، في تعليمات الصانع افعل ولا تفعل ، فأنت حينما تمسح زجاج السيارة من دون ماء يجرح تعيق الرؤية في الليل ، تحس بانبهار في أضواء السيارات في الليل ، فهذه لمصلحتك ، لو أن الأوامر كثيرة جداً لكن كلها لمصلحة الإنسان ، أنا أقول دائماً إن منهج الله عز وجل يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية ، منهج كامل ، عندما نفهم أن هذا المنهج لمصلحتنا :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

(سورة الأحزاب)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت)

الآيات كثيرة جداً تؤكد هذه الحقيقة :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 20)

الأمراض النفسية كلها انتهت ، الأمراض النفسية أساسها الخوف أو الندم ، بهذه اللحظة أَلَّا تَخَافُوا مما سيأتي وَلَا تَحْزَنُوا ما مضى .

من اتبع أوامر الخالق سبحانه لن يضل عقله ولن تشقى نفسه :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

(فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

أي لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، أستاذ علاء الفلاح كل الفلاح ، النجاح كل النجاح ، والعقل كل العقل ، والتوفيق كل التوفيق ، والتفوق كل التفوق ، في طاعة الله لأن هذه الأوامر ضمان لسلامتنا وليست حدّاً لحريتنا .

تمشي في طريق هناك أرض فسيحة رأيت قطعة كتب عليها حقل ألغام ، ممنوع التجاوز ، بالتأكيد لا تشعر إطلاقاً بحقد على واضع اللوحة ، بل تشعر بامتنان له وشكر لأنه ضمن سلامتك بهذه الطريقة ، فأنا حينما أفهم أوامر الله ضماناً لسلامتي وليست حداً لحريتي أكون فقيهاً .

خبرة الله عز وجل قديمة قدم وجوده و خبرة الإنسان تنمو بالتدريج :

أنا كنت أضرب هذا المثل كثيراً ، إنسانٌ يركب مركبة ليسافر بها إلى حمص ، ليأخذ مليون ليرة دين له على أحد ، انطلق بمركبته شتاءً ، إدارة المرور المحترمة وضعت لوحة كتب عليها : الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في مدينة النبك ، ماذا يفعل ؟ أربع كلمات في ظاهر دمشق ، أربع كلمات أعطته قراراً قطعياً بالرجوع ، لو أن دابة تمشي لم تقف إلا عند الثلج ، ما الذي حكم الدابة ؟ الواقع ، ما الذي حكم العاقل ؟ النص ، الله عز وجل أعطاك نصوصاً واضحة جداً ، افعل ولا تفعل والنص هو خبرة الخالق قديمة .

أنا أذكر مثلاً أن مركبة مصنوعة عام ألف وتسعمئة معروفة متخلفة جداً ، البوق هوائي ، والتشغيل من أمام المركبة ، وحركات بالمحرك لا يوجد ، المركبة الحديثة ماذا نستنبط من هذا ؟ أن خبرة الإنسان تنمو ليست قديمة تراكمية ، أما الله عز وجل خبرته قديمة قدم وجوده ، ما في عنده إنسان معدل موديل سبعين ، ثمانين ، ما في شيء تلافينا بموديل ووضعناه بموديل ، خبرة الله قديمة ، حتى أنا لا أوافق على كلمة الزائدة الدودية ، مستحيل أنا أسميها الزائدة الدودية المدافعة ، لا زيادة ولا نقص

أبداً ، الآن أي تغيير لخلق الله نحو الأسوأ أي الآن أحدث سماد السماد الطبيعي ، عادوا إلى السماد الطبيعي لأن السماد الكيماوي سبب ملوحة للتربة ، وسبب صفات فيزيائية على حساب الصفات الكيماوية في الثمرات ، الآن بدؤوا بالمكافحة الحيوية ، وأوقفوا المكافحة الكيماوية ، الآن كلما غيّر الإنسان شيئاً ورأى النتائج المؤلمة الصارخة عادوا إلى الأصل .

الأستاذ علاء :

جاء السبب والنتيجة .

توافق أوامر الدين مع العقل والعلم والواقع :

الدكتور راتب :

الله عز وجل أحياناً بعض البلاد الشرقية قبل أن تنهار حرموا الخمر لا تعبداً ولا طاعة لله ، حرموا الخمر إنقاذاً للأمة ، فالإنسان أحياناً يطيع الله عز وجل ، وهو عند الله عابد له الدنيا والآخرة ، أحياناً بدافع من عقله يطيع الله دون أن يشعر بدافع من سلامته وسعادته ، فلذلك أنا أقول أوامر الدين متوافقة مع العقل ومع العلم ومع الواقع ، بل إن بعض العلماء ابن القيم رحمه الله له كتاب ملخصه حتمية توافق النقل مع العقل .

الأستاذ علاء :

وإذا تنافرا ؟

الدكتور راتب :

يكون عدم حدية أحدهما ، عدم قطعية أحدهما ، المقولة العلمية ليست حقيقة نظرية ، أو النص ليس صحيحاً ، أو صحيحاً لكن تأويله ليس صحيحاً ، العقل مقياس أودع فينا من عند الله ، والفطرة مقياس نفسي أودعه فينا ، والواقع خلقه والنقل كلامه .والفروع من أصل واحد .

الأستاذ علاء :

تفضلت وقلت إما أن تكون المقولة العلمية نظرية وليست حقيقة ما زالت لم تكتمل ، أو أن النص غير صحيح ، أو تأويله غير صحيح ، جرياً على هذا الموضوع الشريعة مصلحة كلها لو رأينا شيئاً أمرت به الشريعة وما كان به مصلحة ؟

الشريعة منهج لسلامة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة:

الدكتور راتب :

هذا أولاً مستحيل ، مستحيل ألا يكون مع الشريعة مصلحة ، لكن هذه المصلحة تدركها عقولنا أو لا تدركها ، طفل له لعبة يحبها كثيراً فجاء أبوه وحطمها له لأنه رأى أنها تشغله عن دراسته ، فتحطيم اللعبة ليس في مصلحة الطفل لكن في مصلحته القادمة البعيدة ، فنحن خلقنا للجنة فحينما يأتي أمر يحدّ من حريتنا فيما يبدو لنا يكون هذا التحديد من أجل سلامة إيماننا واتصالنا بالله عز وجل ، أحياناً المصلحة تكون في الدنيا أحياناً في الآخرة ، الطالب لما يدرس يلغي السهرات والزيارات والنزهات ، هو خالف مصلحته القريبة لكن حرص على مصلحته البعيدة ، الشريعة منهج لسلامة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة .

الأستاذ علاء :

سيدي لو رجعت بهذه القضية من الأخير ، لو حصل خروج من المصلحة إلى المفسدة هل هذا هو من الشرع ؟

لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه :

الدكتور راتب :

مستحيل المقولة الرائعة الشريعة عدل كلها ، مصلحة كلها ، رحمة كلها ، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، ومن الحكمة إلى خلافها ، من الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

يجب أن يقبل العقل نتائج تطبيق أمر الله ، وأن ترتاح الفطرة لهذا التطبيق ، وأن يأتي منهج الله يؤكد هذا التطبيق وأن يؤكد الواقع هذا التطبيق ، في أربعة أشياء الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي ، الإنسان مكرم بهذا المنهج لأن :

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

هذا غير معقول أن يعلم الإنسان قبل أن يخلق ، لكن علماء التفسير قالوا : هذا الترتيب ترتيب رتبي ، وليس ترتيباً زمنياً ، أي لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه .

(سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

سلام مع أنفسهم ، سلام مع أهلهم ، سلام مع صحتهم ، سلام في أعمالهم ، سلام مع بيئتهم .

معاناة البشر بسبب خروج الناس عن منهج الله عز وجل :

كل مشكلات الأرض من مخالفة منهج الله عز وجل ، كل الفساد الذي في الأرض من مخالفة منهج الله عز وجل :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (41))

(سورة الروم)

ما يعاني منه البشر من ظلم ، ومن قهر ، ومن حروب أهلية بسبب خروج الناس عن منهج الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

سيدي الوقت المتبقي للفقرة العلمية ماذا اخترت لنا ؟

الفقرة العلمية :

الحيوانات الأليفة (الميركات):

الدكتور راتب :

نحن في موضوع الحياة الاجتماعية عند الحيوان ، والحقيقة لا بد من ملاحظة مهمة جداً ، أن الحياة الاجتماعية عند الحيوان بأمر تكويني ، بينما حياتنا الاجتماعية وفق منهج الله بأمر تكليفي ، فالإنسان قد يعصي وقد لا يطيع ، فيظهر الفساد في الأرض أما في عالم الحيوان ليس هناك فساد إطلاقاً لأن تنفيذ الحيوان لمنهج الله في أمور الحياة والعلاقات تكويني ، أمر إلهي ليس له الخيرة .

أستاذ علاء الحيوانات الأليفة هذه المسماة الميركات تعيش بشكل جماعي ، هناك تضامن وتضحية خارقة فيما بينها ، وهذا أمر هام جداً في حياتها ، لأن المنطقة التي تعيش فيها خطيرة جداً وأكثر هذه الأخطار يأتي من الجو .

تضحية بعض أفراد الميركات تنجي المجموعة كلها:

تنتشر هذه الحيوانات في الأراضي المحيطة لإيجاد الطعام بعد مراقبة أمينة ، لكل فرد في هذه الجماعة مهمة تتناوب الأفراد الحراسة ، فبعضها يحرس بين الشجيرات لرصد الخطر القادم من خلفها، وبعضها في قمم الأشجار ، وتقف الواحدة منها لساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة دون أكل أو شرب ، يشعر النسر بوجودها يطلق الحارس إشارات الإنذار التي تنبه الآخرين ، تضحية بعض الأفراد تنجي المجموعة كلها ، المسؤولية الكبرى للفريق تربية الصغار وحمايتها ، يتناوب الأفراد فيما بينهم يومياً لرعاية الصغار فيبقى أحدهم معها في العش وهذه النوبة تكون بالدور كالحراسة آنفاً .
نظام بديع ورائع ، ولا يتردد المسؤول عن الرعاية بالتضحية بنفسه من أجل الصغار ، هذا خلاف نظرية دارون ، أن الحيوان يحافظ على وجوده ولو على حساب من حوله ، الوجود للأقوى .

رحمة الحيوان بصغاره :

ها هنا مثال لقد ابتعدت الميركات عن العش لإيجاد طعام لها ، في هذا اليوم الصائب عند عودتها واجهت وضعاً خطيراً ، لقد تربص ابن آوى بها في مدخل العش الذي يوجد فيه الصغار ، تقترب أحد الميركات من العش لإنقاذ الصغار هدفها منع ابن آوى من الوصول إلى الصغار في العش ، خيم الظلام وما تزال الميركات تدافع عن العش بوضع نفسها كدرع أمام الخطر ، عندما انجلى الظلام ظهرت آثار المعركة التي نشبت في ظلمة الليل ، لقد أبعد ابن آوى وأنقذ الصغار لقد ضحى فرد فتي من الميركات بنفسه وجُرح جروحاً بالغة ، تسارع الأم من الاقتراب من هذا الجريح ، الحالة سيئة للغاية لابدّ لهذه الحيوانات من الخروج لأجل الطعام ، ولكن الفدائي لقد أثقلته الجراح فهو يمشي بصعوبة بالغة ، عندما نفذت طاقته استلقى في الحفرة ، لكن الأم لا تترك صغيرها وحدهم بل تظهر وفاءً مثالياً فلا تغادر المكان حتى يغادر صغيرها الحياة ، إن هذه التصرفات المحيرة تجعل الإنسان يسجد لمن ألهمها ذلك .
هذه ومضة من رحمة الحيوان وكأنها درس بليغ للإنسان ، فالذي يهمل أولاده يكون أدنى من الحيوان.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (63-95) - مقومات التكليف : الشرع ـ قيمة الوقت في الإسلام ، الوقت هو الإنسان ـ الحياة الاجتماعية للحيوانات 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكيرية :

سيدي ، بدأنا بالمقوم الأخير لمقومات تكليف الإنسان التي بسطها الله أمام هذا الإنسان العظيم ، الذي وجد على رأس ، وعلى قمة المخلوقات ، لأنه أعطاه العقل والتفكير والإدراك ، وأعطاه ما يختار ، أنْ يقدم أو يحجم ، وتحدثنا عن الكون والعقل والفطرة والشهوة والاختيار ثم الشرع ، وتوقفنا في الحلقة الماضية عند الوقت ، وتبينا بأن الوقت هو الإنسان ، أو رأس مال الإنسان ، فإن ذهب هذا الوقت ذهب الإنسان ، ذهب دون أن يستغله في العمل الصالح ، فقد خسر وقد ضاع ، وأرشدنا إلى ذلك أن الله عز وجل أقسم بالعصر ، وهنالك ربط بين القسم والمقسَم له ، لأن الله قد أقسم به ، وبيَّن المقسوم له ، وهو الإنسان :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

(سورة العصر)

ثم الله عز وجل جاء بأداة الاستثناء ليدلّنا على كيفية تلافي الخسران ، وتبيّنا هذا في الحلقة الماضية ، وأنهيناها عند قول الإمام الشافعي : " ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر " ، وقبلها يقول : " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك " ، وتحدثت أن الخسران عندما نستهلك الوقت استهلاكاً هدراً ، ولا نستثمره استثماراً ، وأنه عندما نفتح قناة المياه لتجرف التربة ، وكي تهدر دنمًا فهذا لا طائل له ، وكمن يسقي بالتنقيط ، الذي يستفيد من كل قطرة ونقطة ماء .

الدكتور راتب :

هذا رائع جداً .

الأستاذ علاء :

نكمل ، كيف يرمم الإنسان هذا الخسران ؟

الدكتور راتب :

لله عمل في الليل لا يقبله في النهار ، وعمل في النهار لا يقبله في الليل :

ذكرت سابقاً أن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وأن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل ، وذكرت أن هذا الخليفة العظيم سيدنا عمر حينما جاء سفيرُ عاملِه على أذربيجان ، ووصل المدينة ليلاً ، وكره أن يطرق باب أمير المؤمنين ، ودخل إلى المسجد ، فسمع إنساناً يصلي ويبكي ويقول : يا رب ، هل قبلتَ توبتي فأهنِّئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ فقال هذا السفير : مَن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا عمر ، قال : أمير المؤمنين !؟ يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ؟ فقال : << أنا إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي ، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي >> .

أركان النجاة :

أكاد أقول : هناك مصطلح اسمه عبادة الوقت ، ثم بينا في لقاء سابق أن هذه الخسارة محققة ، لأن مضي الزمن يستهلك الإنسان ، فهو بضعة أيام ، هو زمن ، أو رأس ماله هو الزمن ، أو أثمن شيء يملكه هو الزمن ، لكن رحمة الله في (إلاّ)، ما جاء بعده عَنْوَنَا له بأركان النجاة ، فلا بد من أن تبحث عن الحق أولاً ، ولا بد من أن تعمل وفق الحق ثانيًا ، ولا بد من أن تدعو إليه ثالثًا ، ولا بد من أن تصبر رابعًا على البحث عنها ، والعمل وفقها ، والدعوة إليها ، هذه أركان نجاة الإنسان ، أركان سعادته ، أركان سلامته ، أركان فوزه ، أركان تفوقه ، أركان فلاحه ، أركان الجنة .

البند الأول : الإيمان بالله :

إذاً : نبحث عن الحقيقة ، لذلك ورد :

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله . و لا بورك لي بطلوع شمس لم أزدد فيه من الله قرباً))

[ورد في الأثر]

ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه ، فكأنه شريط متحرك ، والإنسان إن لم يكن على هذا الشريط فكلُّ مَن على الشريط يسبقه ، تصور الزمن كحركة شريط ، في بعض المطارات الدولية في غير الدرج المتحرك شريط متحرك أفقي ، الإنسان يقف على هذا الشريط فهو

يمشي ، أما الواقف خارج الشريط فيسبقه كل مَن على الشريط ، لذلك المغبون من تساوى يوماه ، ومن لم يكن في زيادة ، ومن لم يكن على الشريط فهو في خسارة محققة ، إذاً الوقت شيء دقيق جداً .

النقطة الأولى : على الإنسان أن يؤمن بسر وجوده ، وغاية وجوده ، يؤمن بربه ، بربه الخالق المربي المسير الموجود الواحد الكامل ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، ويؤمن بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه ، ودليل أنه كتاب الله إعجازه ، وتحقق الوعد والوعيد ، وأن يؤمن من خلال هذا الكتاب بهذا الإنسان الذي جاء به ، وقد بين ما في هذا الكتاب بأحاديث كثيرة ، فالإيمان بالله خالقاً ومربياً ومسيراً ، والإيمان بكتابه وبرسوله يمكن لعقل الإنسان أن يصل إلى حقيقة قطعية في هذا ، فالإنسان في شأن دنياه يبذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، ويفكر ، ويدقق ، ويتأمل ، ويسأل ، ويستقصي أفلا ينبغي لحياة أبدية سرمدية أن نعدّ لها ؟

فلذلك البند الثاني من بنود النجاة أن أعمل وفق إيماني .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هل أستطيع ، وهو من عمل القلب والفؤاد والعقل ، والإيمان أن أتوقف عند هذا ، وألا يكون له مرتسم عملي على الأرض ؟

الدكتور راتب :

البند الثاني : العمل الصالح :

لا قيمة لذلك أبداً .

للتقريب : إنسان معه مرض جلدي ، علاجه الوحيد أن يتعرض لضوء الشمس ، لكنه جلس في غرفة قميئة مظلمة ، وقال : يا لها من شمس ساطعة ، إنها شمس تشفيني ، إنها شمس ما أعظمها من شمس ، لو حدّث الناس عشرات المرات وعشرات الأيام عن عظمة الشمس ، ولم يتعرض لأشعتها يبقى مريضاً، لذلك الذي آمن ، ولم يتحرك فما قدم شيئاً ، لأنه أقر بحقيقة ثابتة بديهية ، ماذا ينفعه إيمانه .

هذا هو إيمان إبليس :

ألم يقل إبليس :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

ألم يقل :

(فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

(خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

هذا إيمان إبليسي لا يقدم ولا يؤخر ، لذلك :

وعالمٌ بـعلمه لـم يعملنْ معذَّب من قبْل عباد الوثن

* * *

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف)

الأستاذ علاء :

لذلك سيدي :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

الدكتور راتب :

الإسلام حُسنُ المعاملة تجاهَ الخَلق :

أستاذ علاء ، المؤمن كائن متحرك ، وليس هناك كائن سكوني ، ولا كائن سلبي ، ولا متقوقع ، ولا منسحب ، بل إن المؤمن إيجابي ، المؤمن فاعل ، وليس منفعلا ، المؤمن له دور ، يحمل همَّ الأمة ، يقدِّم شيئًا لأمته يبتغي به وجه الله ، يتقرب إلى الله بخدمة الناس .

((الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[رواه أبو يعلى عن ابن مسعود]

ما إن تستقر حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو خدمة الخلق ، أنا لا أصدق إيمان سلبي ، إعجاب سلبي ، يا أخي الدين عظيم ، ما أعظم هذا الدين ، هو وحي السماء ، هو بشارة الأنبياء ، هذا كلام لا يقدم ولا يؤخر ، ماذا قدمت لله يوم القيامة ؟ هل نصحت مَن حولك ؟ هل استقمت في بيعك وشرائك ؟ هل أخلصت لمرضاك أم أوهمتهم ، وابتززت أموالهم ؟ هل أخلصت لموكلك أم أوهمته أن الدعوى سوف تربح ؟ هل سحبت الحديد بعد أن جاء الكشف على البناء ثم انهار البناء ؟ هل حككت صلاحية الدواء من أجل أن تبيعه ، وقد انتهت صلاحيته ؟ الدين بالعمل ، في

المسجد تتلقى التعليمات ، وتقبض الثمن ، الدين بدكانك ، بمكتبك ، بعيادتك ، بمكتبك الهندسي ، بالسوبر ماركت ، بضاعة منتهية المفعول ، تحك الصلاحية أحياناً ، والله :

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

والله لا أتألى على الله ، لكن هذا الذي يغش الناس ، يعطيهم أسوء بضاعة بأغلى سعر ، يوهمهم بأوهام كثيرة ، والله هذا ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته .

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

[ورد في الأثر]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا ، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[رواه أحمد والبزار]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ ، حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا))

[متفق عليه]

أستاذ علاء : تعليق : فما قولك بما فوق الهرة ؟ بمن يقتل شعباً بأكمله .

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

***

لذلك هؤلاء الذين يكيلون بألف مكيال ومكيال :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

الله عز وجل عدله مطلق ، وأيُّ إنسان يظلم الآخرين سوف يحاسب حساباً عسيراً ، البند الثاني من أركان النجاة أن أعمل وفق إيماني ، أن أترجم إيماني إلى عمل ، أن ينقلب الإيمان إلى سلوك ، أن يكون هناك التزام لأن العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

الأستاذ علاء :

سيدي هنا الله عز وجل جاء بصالحات لتقيد العمل ؟

الدكتور راتب :

العمل الصالح ما كان خالصًا ووفق السنة :

لذلك متى يكون العمل صالحاً ؟ إذا كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة ، لذلك :

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية : 19)

قد يكون صالحاً عند الناس ، وليس كذلك عند الله ، قد يكون صالحاً في توهمك ، وهو عند الله ليس بصالح ، البطولة أن تأتي مقاييسك في العمل الصالح وفق مقاييس الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

من هنا فاستبقوا الخيرات ، كل خير هو عمل صالح .

الدكتور راتب :

وعلة وجودنا العمل الصالح الدليل ، الإنسان حينما يأتيه ملكُ الموت على أي شيء يندم ؟

(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

لذلك علة وجودنا العمل الصالح ، العمل الصالح ثمن الجنة .

الأستاذ علاء :

أعيدوني إلى الوقت .

الدكتور راتب :

العمل الصالح له أهداف وغايات :

إلى الوقت الذي أضعته .

أستاذ علاء ، العمل الصالح ليس فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتحرك إلى أهداف ، ويتعاون عليه المؤمنون ، هو ليس انكماشاً ، ولا سلبية ، ولا انزواءً ، ولا تقوقعاً ، بل هو حركة خيرة نظيفة ، وعمل إيجابي هادف ، وعمارة متوازنة للأرض ، وبناء شامخ للأجيال يتجه إلى الله ، ويليق بمنهج الله ، هذا البند الثاني من أبواب النجاة ، الإيمان والعمل الصالح .

الأستاذ علاء :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

العمل الصالح الذي يرضاه ربنا والمرتبط بفهمنا الإيماني .

الدكتور راتب :

حجمنا عند الله بحجم عملنا الصالح :

حجمنا عند الله بحجم عملنا الصالح ، الدليل :

(و لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)

(سورة الأنعام الآية : 132)

مَن أنت ؟ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح ، لذلك :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (120))

(سورة النحل)

له أعمال جليلة انتفعت بها أمة ، فكان في قلب أمة .

العلمُ والعمل الصالح مقياسان شرعيان لا ثالث لهما:

البطولة أن تأتي مقاييسي وفق مقاييس القرآن ، القرآن اعتمد قيمتين للترجيح بين البشر ، اعتمد قيمة العلم ، واعتمد قيمة العمل ، وكلُّ القيم التي نعتمدها نحن أهملها القرآن ، نحن نعظم الأغنياء والأقوياء، مَن لهم شكل وسيم جداً ، نعظم الأذكياء ، لكن القرآن أكد على قيمتين ، قال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

اعتمد قيمة العلم ، واعتمد قيمة العمل ، فأية أمة لا تعتمد هاتين القيمتين حصراً فليست على الطريق الصحيح ، لأن حجم الإنسان بعلمه وعمله معاً .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم الآن ، قبل أن أنتقل التواصي بالحق ، من هنا قسم المفسرون أو العلماء حتى الصحابة الكرام في الدرجات لمن سبق ، ثم كان له فيما بعد تأخر في الوقت قسموهم إلى درجات في المرتبة ؟

الدكتور راتب :

ليس أجرُ اللاحق كأجر السابق في الإسلام :

طبعاً الذين بدؤوا حياتهم بالإيمان بالله هؤلاء السابقون ، هؤلاء آمنوا في وقت عسير ، آمنوا والناس جميعاً ضدهم ، آمنوا وليس هناك أي مكسب من الإيمان ، آمنوا والإيمان كله تبعات ، كله متاعب ، فلذلك ليسوا سواء ، من آمن قبل الفتح وبعد الفتح ، قبل الفتح شيء ، وبعد الفتح شيء ، قبل الفتح متاعب ومغارم ، وبعد الفتح مكاسب ، فالذين سارعوا إلى الإيمان في وقت الشدة وفي الوقت العصيب هؤلاء لهم ميزان آخر .

الأستاذ علاء :

الذين استجابوا لله وللرسول في ساعة العسرة لهم المكانة الكبيرة ، المقصود فيهم الأنصار ، لأنك تحدثت عن مسألة الرتب .

الدكتور راتب :

البند الثالث : التواصي بالحق :

أستاذ علاء ، الإنسان اجتماعي ، وبطولته أن يصلح نفسه أولاً ، حينما يؤمن وحينما يعمل الصالحات، وقد ينجو بهما ، لكن بطولته الكبيرة أن يصلح غيره ، من هنا جاء :

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

أزلية معركة الحق والباطل :

الحق دائرة والباطل دوائر ، إذا كان تواصٍ بالحق فإن دوائر الحق تنمو ، وتضيق دوائر الباطل ، فإذا سكتنا عن التواصي بالحق فإن دوائر الباطل تنمو ، وتضيق دائرة الحق ، فمعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، لأن الله عز وجل كان من الممكن أن يجعل الطرف الآخر في كوكب آخر ، أو الطرف الآخر في قارة أخرى ، أو الطرف الآخر في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمته أن نكون معاً في كل مكان ، وفي كل زمان ، ومن لوازم هذه المعية أن هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالعمل والتضحية .

فلذلك التواصي بالحق مكلِف ، وأحيانا يكون السكوت عند بعض الناس أكثر راحة وأولى ، فحينما يجاهر الإنسان بالحق يكون بطلاً .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، نلاحظ هذا الفعل تواصوا ، تفاعلوا .

الدكتور راتب :

المشاركة في التواصي بالحق :

فيه مشاركة ، كلٌّ منا يوصي الآخر ، لذلك حياة المؤمنين حياة سعيدة جداً ، من يأخذ بيد أخيه ، وأخوه يأخذ بيده ، ينصح أخاه ، وأخوه ينصحه ، يرشد أخاه ، وأخوه يرشده ، هذا هو التواصي ، فلذلك :

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

[مسلم عن تميم الداري]

ما لم تنصح فقد وضعت إيمانك في وضع حرج جداً ، لو قال لك إنسان يشتري من عندك قماشاً : بالله عليك انصحني بلون رائج ، لكنك نصحتَه بلون كاسد عندك ، فقد خنت الأمانة ، وكفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدِّق ، وأنت له به كاذب ، وحينما ينتفي الكذب والخيانة من حياتنا نكون في حال خير من هذا الحال ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

فإذا كذب ، أو خان فقد انتهى إيمانه ، وليس فيه ذرة إيمان ، فالتواصي بالحق من أجل إصلاح الآخرين .

الأستاذ علاء :

سيدي التواصي بالحق هل هو يختص بفئة من الأمة أم ماذا ؟

الدكتور راتب :

التواصي بالحق فرضُ عين على المسلم في حدوده :

فرض عين على كل مؤمن الدليل ، التواصي بالحق أحد أركان النجاة لكل مؤمن ، وليس عندنا مؤمن صامت ، ولا مؤمن سكوني ، ولا مؤمن إعجابه سلبي ، ولا مؤمن لا يتحرك لا يهمه أحد ، هذا ليس مؤمناً ، لذلك التواصي بالحق بهذه الآية دليل قطعي على أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مؤمن، ولكن في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف ، أما في دعوة إلى الله احترافية :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران : 104)

هذه دعوة احترافية تحتاج إلى تفرغ ، وإلى تعمق ، وإلى علم ، وإلى القدرة على رد كل الشبهات ، والإتيان بكل البراهين والأدلة ، هذا فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الكل ، أما الدليل الآخر أن الدعوة إلى الله فرض عين قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

سمعت خطبة تأثرت بها ، ثم جلست مع أهلك حدّثهم عنها بوعي .

الأستاذ علاء :

ما ينقلها بمفاهيم خاطئة أحياناً ، يدقق كثيراً في مفاهيم سمعها الإنسان ، تأخذ وتعطي معه ، يقول : سمعتها من الخطيب ، تسأل الخطيب يقول : ما تكلمت بهذا الكلام .

الدكتور راتب :

هذه مشكلة الأتباع ، إذاً التواصي بالحق له دليلان ، الحديث :

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

وهذه الآية :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (108))

(سورة يوسف)

فالذي لا يدعو إلى الله لا يتبع النبي ، والذي لا يتبع النبي لا يحب الله :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي (31))

(سورة آل عمران)

إذاً : الدعوة إلى الله فرض عين وفرض كفاية ، فرض عين لآحاد المؤمنين في حدود ما يعلمون ، ومع من يعرفون :

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

أركان النجاة الأربعة مجتمعة ، ليس معنى أركان النجاة إذا قمت بواحد منها اكتفيت ، لا هذه أربعة مجتمعة ، يجب أن تبحث عن الحقيقة ، وأن تتحرك وفقها ، وأن تدعو إليها ، وأن تصبر على أشياء ثلاثة على البحث عنها ، والعمل بها ، والدعوة إليها .

الأستاذ علاء :

تواصوا بالصبر ، والصبر له علاقة بالحق .

الدكتور راتب :

البند الرابع : التواصي بالصبر :

أن يصبر الإنسان على البحث عن الحقيقة ، والعمل بها ، والدعوة إليها .

آخر بند يغطي البنود الثلاثة لأركان النجاة أستاذ علاء هذه السورة ، ولو لم يكن في كتاب الله عز وجل إلا هذه السورة لكفت ، هذه السورة كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام لا يتفرقون إلا على هذه السورة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، الإيمان ، وبعد الإيمان العمل وفق الإيمان .

الدكتور راتب :

ثم الدعوة إلى ما آمنت به كفرض عين :

((بلغوا عني ولو آية))

ثم الصبر على الإيمان ، والعمل والدعوة ، والإنسان إذا ما دعا في سلام ، إذا دعا في متاعب أحياناً فهذه ثمن الجنة ، الأبطال عاشوا متاعب كثيرة جداً ، والذين قلبوا وجه التاريخ ما كان طريقهم مفروشاً بالورود ، بل كان مفروشاً بالمتاعب ، فلذلك طريق القمة متعب جداً .

الأستاذ علاء :

قالوا لعمه أبي طالب : إن كان يريد مالاً جعلناه أغنى واحد فينا .

الأستاذ راتب :

مالاً جعلناك أغنى واحد فينا ، تريد امرأة جميلة زوجناك أجمل فتياتنا ، تريد جاهاً وليناك علينا :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

الأستاذ علاء :

سيدي لذلك نعود ، ونؤكد أن الله عز وجل حينما أقسم بالعصر أقسم بشيء عظيم ، وأقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام ، هنا أريد أن أركز عليها .

الأستاذ راتب :

الله عزوجل يقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

(سورة الحجر)

تصور أستاذ علاء خالق السماوات والأرض يقسم بزمن إنسانٍ خلَقه ، لأنه استغل هذا الزمن ثانية ثانية .

يقولون : المؤمن يوم القيامة لو دخل الجنة لا يندم على شيء إلا على ساعة مضت لم يذكر الله فيها ، مع أنه نجا ودخل الجنة ، لذلك كان بعض الصالحين يحفر قبرا في صحن داره ، ويجلس فيه كل يوم خميس ، يتلو قوله تعالى :

(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

يخاطب نفسه : قومي لقد أرجعناك ، فالإنسان إذا فكر في النهاية حقق الغاية .

الأستاذ علاء :

لذلك علينا أن ننتبه إلى الوقت على أنه هو الإنسان ، وهو الحياة ، وهو الفرصة التي تمشي على خط وعلى محور موجه لا تعود إلى الوراء أبداً ، والإنسان بوقته أو عمره لا يكون إلا في الدار الآخرة يقفان وجهاً لوجه ، ويتحاسبان أمام رب العزة ، فإما يكون قد استغل هذا الوقت بالعمل الصالح ، وإما يكون قد أضاعه فلا فائدة للعمل .

الدكتور راتب :

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (104))

(سورة النساء)

كل واحد منا الوقت مع الجميع بالتساوي ، فالواحد بالوقت أدار الوقت إدارة صحيحة ، عرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، آمن بربه ، وعمل صالحاً ، دعا إلى الله ، صبر على كل أولئك ، فرجا من الله ما لا يرجوه غيره ، لذلك الشعور بالخسارة كبير جداً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (64-95) - مقومات التكليف : الشرع ـ الشرع ميزان للإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-03-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرع هو النموذج الأمثل للحياة :

الأستاذ علاء :

وصلنا عند مقوم هام من مقومات التكليف التي طالما ذكرنا بها السادة المشاهدين التي أعطاها الله للإنسان من الكون والعقل والفطرة ، إلى أن وصلنا إلى الشرع وحططنا رحالنا عند الشرع ، وتبينا بأن الشريعة عدل كلها ، لأنها منهج الله ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، مصلحة كلها ، وأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها ، ومن العدل إلى الجور ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

هذا الموضوع نريد أن نقف عنده بشكل ملي ، نعم إن الشرع وضعه الله عز وجل لكي يتبين الإنسان تصرفاته من خلال هذا الميزان ومن خلال هذا الطريق ، لا يعرف مسير الإنسان لأنه يسير على طريق غير معبدة ، غير سوية ، غير مخصصة لهذه الآلية إلا بوجود طريق معبد سوي نظامي له إشارات دلالة وإشارات تحذير وله تحويلات نظامية .

الشرع هو النموذج الأمثل للحياة ولضبط إيقاع المسير بكل معنى الكلمة ، نريد أن نقف بشيء من التفصيل عند عدل كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، مصلحة كلها ، وأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

ارتباط العقل بالواقع ارتباطاً وثيقاً :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الحقيقة أن الله عز وجل أعطانا العقل ميزاناً وأعطانا الفطرة ميزاناً آخر ، بالعقل نتعرف على الله عز وجل ، وبالفطرة نتعرف على أخطائنا ، لكن العقل قد يضل :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)ثُمَّ نَظَرَ (21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24)إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26)وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27)لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28))

(سورة المدثر)

العقل أستاذ علاء مرتبط بالواقع ، والعقل أحياناً يستخدم لتبرير الخطأ .

الوحي السماوي وسيط أساسي لعمل العقل :

إما أن يكون العقل صريحاً وإما أن يكون العقل تبريرياً ، العقل التبريري ساقط ، كيف أن تأتي دولة عظمى وتكتسح بلد نامٍ تنهب ثرواته تذل أهله تقتل أبناءه ، وتقول جئنا من أجل الحرية والديمقراطية ، هذا اسمه احتقار للعقل ، بل هو العقل التبريري بعينه ، العقل قد يضل لأن العقل تماماً كالعين ، لو أن العقل في أعلى درجات التألق كما أن العين في أعلى درجات الدقة لو لم يكن هناك ضوء يتوسط بينها وبين المرئي لا ترى شيئاً ، فسيان أن يجلس في غرفة إنسان بصير وأعمى من دون ضوء ، كلاهما لا يرى شيئاً ، كما أن الضوء المادي وسيط أساسي لرؤية العين كذلك الوحي السماوي وسيط أساسي لعمل العقل ، مشكلة الأرض اليوم أن أربعة أخماس مواردها من أجل السلاح والدمار والقتل ، الأسلحة الكيماوية والجرثومية والدمار الشامل والنووية ، الإنسان هو الذي كل شيء من أجله صار هو الضحية الأولى في العالم كله ، لأن العقل تحرك من دون وحي السماء ، من دون نور الوحي ، من دون نور الوحي ، من دون توجيهات الخالق فالعقل قد يضل والفطرة قد تنطمس .

الشرع ميزان على ميزان العقل وميزان الفطرة :

أنا أتساءل هؤلاء الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الشعوب ، على حريات الشعوب ، على قتل الشعوب ، على استلاب ثروات الشعوب كيف ينامون ؟ انطمست فطرتهم.

الأستاذ علاء :

سيدي الفطرة تنطمس .

الدكتور راتب :

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(14))

(سورة المطففين)

فإذا انطمست الفطرة وضلّ العقل ، ما الميزان على الميزانين ؟ الشرع ميزان على ميزان العقل وميزان الفطرة ، تماماً كما لو ضابطة للتموين ضبطت ميزاناً ، ما الصواب؟ في كيلو نظامي مودع في

البلدية هو الضابط المقياسي ، فنحن إذا فكرنا بعقولنا ووصلنا إلى نتيجة مخالفة للشرع حتماً التفكير خاطئ تماماً ؛ كما لو أن أستاذ رياضيات أعطى مسألة للطلاب أعطى الجواب فأيّ حل لأي طالب انتهى به إلى هذا الرقم فالحل صحيح ، وأي حلّ انتهى إلى رقم آخر فالحل غلط ، أنا بالعقل أعمل للحقيقة أما إذا وصلت إلى مقولة خلاف الشرع فهذا ليس عقلاً هو عقل تبريري ساقط ، لأن الله كماله مطلق ، فكما أن العقل ميزان وكما أن الفطرة ميزان ، كما أنني بالعقل أكتشف الحقائق ، وبالفطرة أكتشف الأخطاء ، العقل ميزان علمي والفطرة ميزان نفسي ، قد يضل العقل وقد تنطمس الفطرة فيأتي الشرع ميزاناً على ميزان العقل والفطرة ، هو المرجعية العليا ، لذلك قالوا : الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع .

من بنى مجده وماله ومكانته على حساب آخرته فهو أكبر خاسر :

قد يبدو للإنسان أن مخالفة الشرع فيه متعة له ، أو فيه مكسب مادي كبير ، الإنسان حينما يغش ويكون الغش محكماً قد يربح أضعاف أرباحه العادية ، فبعقله القاصر التبريري يرى أن غش الناس في البيع سبب ربح كبير ، ولكن الله شرعه لا لهذا الدنيا فقط ، للحياة الأبدية فإن حقق ربحاً كبيراً في وقت قصير مخالفاً منهج الله مؤذياً عباد الله هذا الربح الكبير سوف يغادره إلى قبر وإلى حساب دقيق من قبل خالق الأكوان ، لذلك الأب حينما يرى أن ابنه يلهو بلعبة والامتحان على الأبواب يحطمها له ، يحطم الأب هذه اللعبة مع أنها ثمينة والأب ميسور لأن تحطيمها ضمان لمستقبله ، أما إذا تركها على ما هي عليه ضيّع مستقبله .

لذلك :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

المشكلة أن الإنسان يرى الدنيا فقط ، الصحة كل شيء والمال كل شيء والمكانة الاجتماعية كل شيء، أما إذا بنى مجده وماله ومكانته على حساب آخرته فهو أكبر خاسر ، لذلك من رحمة الله به أنه يعالجه قبل أن يموت لأنه رب العالمين .

الأستاذ علاء :

سيدي الآن في قضايا ساخنة وتأتينا في كل دورة زمنية ، وهذه القضايا لها تأصيل شرعي ، لكن إذا نظرنا إليها سيدي في مآلها ، مآل يرفض العقل الصريح ، يعني الآن الرجم في وقت واحد عند الزوال أو قبل الزوال ، وعلى أساس أن هذه المسألة هي سنة نبوية والكل يحرص على تطبيق السنة لأن فيها تقرباً من الله لكن في البحث الموضوعي ضحايا وتدافع وموت كيف ؟

الشريعة مصلحة كلها تحرص على التقرب من الله عز وجل :

الدكتور راتب :

لذلك أمير الحج حينما يرى ضرورة في تأمين سلامة الحجاج بتوسيع وقت الرجم هذا من صلاحيته ، والنبي الكريم يقول افعل ولا حرج . إذا حجّ مع النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف إنسان الآن أربعة ملايين ، فلذلك لا بد من التوسع ولا سيما في قضية هي السنة ، السنة يمكن أن نوسع وقت الرجم بحيث أن المصلحة تتحقق ، أما حينما نجمد مع النص جموداً عجيباً هذا ليس من الشرع في شيء ، ليس من الشرع مثلاً أن نذبح الخراف في منى وأن نتركها في العراء ، يفسد هواء منى لأشهر عدة ، أما حينما جمعت هذه الخراف ووضعت في البرادات وقدمت هدايا إلى العالم الإسلامي ولا سيما الشعوب الفقيرة هذا من الشرع ، كما تفضلت الشريعة مصلحة كلها ، دقق :

(سُبُلَ السَّلاَمِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

يهديهم سبل السلام مصلحة الإنسان أن يكون صحيح النفس ، عنده صحة نفسية إذا طبق منهج الله يغدو صحيحاً ، مصلحة الإنسان أن يكون في تفاهم مع زوجته ، إذا طبق أمر الله في علاقته الزوجية تكون المودة بين الزوجين ، مصلحة الإنسان أن يكون أولاده أبراراً إذا ربى أولاده وفق الشرع يسعد بهم ويسعدوا به ، مصلحة الإنسان أن يكون ذا مال حلال فإذا طبق منهج الله في كسب المال يأتيه المال من طريق مشروع يسعد به ويرفعه عند الله درجات .

الإنسان حينما يكون عنصراً إيجابياً يقدم خدمات للأمة لا يشعر بالقلق أبداً :

إذاً في قوله تعالى :

(سُبُلَ السَّلاَمِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

يهديهم سبل السلام ، السلام مع نفسه ، أستاذ علاء المؤمن ينام على فراش وثير فراش راحة الضمير، فراش أنه ما بنى مجده على أنقاض الناس ، فراش أنه ما بنى مجده على إفقار الناس ، ولا على إضلال الناس ، ولا على إفساد الناس ، ولا على إذلال الناس ، ولا على أنقاض الناس ، الإنسان حينما يكون عنصراً إيجابياً يقدم خدمات للأمة ، حينما يسهم في بناء الأمة ، حينما يكون عنصر خير ، حينما يكون عنصر عطاء ، حينما يكون عنصر أمن للناس لا إخافة لهم ، هذا الإنسان ينام على فراش وثير ، أما الذي يبني مجده على أنقاض الناس هذا ينام على فراش يقلقه وقد لا ينام الليل أبداً ، أنا أذكر أن إنساناً

دهس طفلاً والساعة الثانية ليلاً ، ولا أحد يعرف أنه دهسه ، وكُتب الضبط ضد مجهول ، لم يذق هذا السائق طعم النوم أربعين ليلة ذهب إلى طبيب نفسي فأقنعه أن يدفع دية لأهل الطفل ، والدية مجزية ، حتى يستطيع أن ينام .

من طبق الشرع بنى سلاماً مع نفسه :

لذلك أنت حينما تطبق الشرع لتبني سلاماً مع نفسك ، أحياناً الإنسان ينهار داخلياً جاء الشرع لأنه مصلحة كلها بأعلى درجات مفهومات هذه الكلمة ليصطلح مع نفسه كي ينام ، الإنسان حينما يطبق منهج الله كأنه ملك ، لأنه نظيف طاهر واضح ، ليله كنهاره ، سره كعلانيته ، أهدافه واضحة ، وسائله واضحة ، يعمل تحت ضوء الشمس ، لأن الحق لا يخشى البحث ، لأن الحق لا يحتاج إلى أن نكتم عن الناس بعضه ، لا يحتاج أن نكذب له ، لا يحتاج أن نكذب عليه ، لا يحتاج أن نقلل من خصومه ، لا يحتاج أن نبالغ ، الحق هو الله لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال .

من طبق الشرع بنى سلاماً مع نفسه :

أنا حينما أفهم أن الشرع من أجل مصلحتي ، من أجل سلامتي ، من أجل سعادتي ، من أجل كمال وجودي ، من أجل استمرار وجودي ، لذلك العالم الجليل الذي قال : الشريعة مصلحة كلها . بالمناسبة يوجد شيء منطقي الإله العظيم كماله مطلق والكون ينطق بهذا الكمال ، أيعقل أن يكون شرعه فيه نقص ؟ أيعقل أن يكون شرعه فيه مفسدة ؟ أيعقل أن يكون شرعه فيه أذى للناس ؟ مستحيل لأن مقولة رائعة كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فهذا القرآن منهجه وتلك السنة الصحيحة بيان المعصوم النبي صلى الله عليه وسلم ، الشريعة مصلحة كلها .

شيء آخر عدل كلها ، لما الإنسان يشرع دون أن يشعر بعقله الباطن يحابي نفسه يعطي نفسه كل الميزات ويقلل كل ميزات الآخرين دون أن يشعر ، والإنسان حينما يشرع له نظر قاصر يلاحظ زاوية وينسى أخرى ، الإنسان حينما يشرع لا يعلم بالضبط أبعاد هذا التشريع ، الإنسان حينما يشرع قد لا يقبل تشريعه لند له ، أما حينما يأتي التشريع من عند خالق الأكوان ، الله عز وجل كلنا عباده .

الكمال الإلهي كمال مطلق :

الشرع إذا جاء من عند الخالق مقبول من عند الكل ، فيه عدل ، الكمال الإلهي كمال مطلق ، أحياناً القاضي يحكم ألف حكم خمسة أحكام فيها ظلم عن غير قصد يسمى قاضياً عادلاً أما الإله لأنه مطلق لا يمكن أن يكون في أفعاله فعل واحد غير عادل ، الشريعة مصلحة كلها عدل كلها .

قال له اعدل يا محمد قال له ويحك يا هذا من يعدل إن لم أعدل ؟ ولا يسع الناس إلا العدل وهذا الذي يجري في العالم لأنه في ظلم كبير وهؤلاء الذين يريدون أن يكافحوا الإرهاب غاب عنهم أن هذا الإرهاب من صنعهم ، من الظلم الشديد الذي فعلوه ، من قهر الإنسان ، من دعم الظالمين لذلك رجع كيدهم عليهم . الشريعة مصلحة كلها .

الأستاذ علاء :

سيدي قبل أن ننتقل إلى الانتقال من الحكمة إلى خلافها ، ومن الرحمة إلى القسوة ، قد يصل بالإنسان كما تفضلت تعاكس مصالح أو بالعقل التبريري إن صحّ التعبير تضارب بين الشرع والعقل يظن الإنسان يحد من حريته من حركته من انطلاقته من سعت حركته الحيوية إن صحّ التعبير ، جاء الشرع ليقيد كل هذه الحركات فبالتالي هو يريد أن ينهض أن يتقدم أن يكون يرفع حركة التقدم وعجلة التقدم والبناء يأتي الشرع ليكبح جموحه وليكبح انطلاقته ماذا نقول في هذا ؟

أوامر الشرع ضمان لسلامة الإنسان وليست حداً لحريته :

الدكتور راتب :

أنت بهذا السؤال تريد أن تعبر عن بعض التساؤلات عند الأخوة المشاهدين أنا فهمت عليك ، الحقيقة حينما أفهم أن أوامر الشرع ضمان لسلامتي وليست حداً لحريتي أكون فقيهاً ، أنا حينما أدخل في حقل وأرى لوحة كتب عليها حقل الغام ممنوع التجاوز ، أنا لأني واعٍ حينما أرى أن هذه اللوحة لمصلحتي وضمان لحياتي وسلامتي وأنني من أعماق أعماقي أشكر من وضعها أكون فقيهاً ، أما إذا رأيت هذه اللوحة حداً لحريتي وتضييقاً لحركتي وكبحاً لطموحاتي فأنا لا أفقه من الدين شيئاً ، أنت حينما ترى أن العلاقة بين الأمر والنهي علاقة علمية ، حينما ترى أن العلاقة بين النهي ونتائجه علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ترى أن هذا الشرع من عند الخالق(تعليمات الصانع)، وما من جهة على وجه الأرض أجدر أن نتبع تعليماتها من الصانع ، فلذلك الشريعة عدل كلها والعدل يسع الجميع ، مصلحة كلها كل مصالحك في الدنيا والآخرة مجتمعة في طاعة الله ، أنا أقول دائماً النجاح كل النجاح ، التفوق

كل التفوق ، العقل كل العقل ، الذكاء كل الذكاء في طاعة الله عز وجل ، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح .

الشريعة مصلحة كلها لأنها من عند الخبير :

إذاً شريعتنا مصلحة كلها لا لسبب أو لآخر بل لأنها من عند الصانع ، من عند الخالق ، من عند الخبير:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر الآية : 19)

الإنسان يفعل إذا كان جاهلاً يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ،إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم .

الله عز وجل له خلق الكون وله أمر الشرع وله أفعال الحوادث :

مصلحة كلها عدل كلها حكمة كلها ، معنى حكمة أي أن الذي أمر الله به عباده لو لم يأمر لكان ملوماً يوم القيامة ولو لم يأمر لكان نقصاً في حكمته ، ولو لم يأمر أو لم يفعل ، الله له أمر وله فعل ، ولو لم يأمر لكان نقصاً في حكمته ، أو لو لم يفعل لكان نقصاً في حكمته لقوله تعالى :

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة القصص)

(فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134))

(سورة طه)

هذا الذي يجري هذا الشرع وهذه أفعال الله عز وجل ، وبالمناسبة الله عز وجل له خلق الكون ، وله أمر الشرع ، وله أفعال الحوادث ، نعرفه من خلقه عن طريق التفكر ، ونعرفه من أفعاله عن طريق النظر ، ونعرفه من قرآنه عن طريق التدبر ، والحوادث من خلال النظر ، النقطة الدقيقة أن هذه الشريعة مصلحة ، وعدل ، ورحمة .

الأستاذ علاء :

سيدي كل قضية تخرج عن هذه الموازين إن صحّ التعبير فليست من الشرع ، كيف لنا ونحن عامة الناس وهي ليست متخصصة وليست تقرأ الفقه ولا أصول الفقه ولا علم العقيدة ، كيف لنا نحن العامة

أن نميز بين هذه الأشياء وأن نعرف أنه لو أولت هذه القضية بتأويل شرعي وخرجت عن المصلحة ليست من الشرع كيف ننمي هذا الحس لدى جمهورنا؟

كتاب الله و سنة نبيه مرجعان أساسيان لبيان الشرع :

الدكتور راتب :

هذا الموضوع أولاً في عندنا قرآن ، في كليات ، لذلك الله عز وجل كلف نبيه الكريم أن يبين هذه الكليات ، صار في عندنا مصدرين عندنا كتاب كريم فيه أصول وعندنا سنة صحيحة هي بيان لهذا الشرع ، وعندنا علماء أخذوا هذه النصوص ووضعوا قواعد أصولية لفهمها دقيقة جداً ، فلذلك نحن بحاجة إلى بيان المصطفى وإلى بيان العلماء ، فالعلماء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ .

[سنن أبي داود عن كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ]

فنحن يجب أن نرجع الآية الدقيقة جداً :

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

ما في إنسان يأخذ دكتوراه من دون أستاذ لماذا في كل اختصاص في الأرض في حياتنا في جامعة في عمداء كليات في دكاترة متخصصين في مرجعيات علمية ، نريد أن ننشئ سداً في مرجعية ، نعبد طريقاً في مرجعية ، هذه التربة ميكانيك التربة لا يحتمل هذه المركبات نعالج التربة ، لماذا نحن في أمور الدين لا نريد مرجعاً ؟ كل واحد يعمل نفسه مشرعاً ، كل واحد يريد ديناً من تفصيله ، يريد ديناً فيه ربا ، يريد ديناً فيه اختلاط ، يريد ديناً فيه تقصير بالعبادات .

الأستاذ علاء :

سيدي يريد ديناً لا يدفع تأمينات اجتماعية ، يعتبر التأمينات حرام .

العلم لا يؤخذ إلا عن طريق عالم متمكن ورع :

الدكتور راتب :

حق العمال ، حق الموظفين ، فكل إنسان لا يرجع إلى مرجعية موثوقة ورعة لذلك بعض العلماء الكبار يقول لا يمكن أن يأخذ العلم إلا عن طريق علماء متفوقين في علمهم ورعين في سلوكهم .

الشاطبي رضي الله عنه أضخم كتاب الموافقات في المقدمة التاسعة يقول العلم لا يؤخذ إلا عن طريق عالم متمكن ورع . أما أنا آخذ نصاً أمامي مثلاً :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً (130))

(سورة آل عمران)

بفهم ساذج مضحك أن الله نهانا عن الأضعاف المضاعفة فقط ، أنا آخذ نسب قليلة لا علي أن أرابي ، حينما يترك النص للعامة نقع في شر أعمالنا ، أحياناً في فهم للنصوص عجيب ، كنت في مؤتمر فقال أحد المؤتمرين أن : المسلمون يكرهون الأولاد كيف ؟ قال لأن أم سليم لما جاء زوجها من الجهاد وسألها عن ابنها المريض قالت له هو في أهنأ حال وقد مات ، فأطعمته ونامت معه وفي الصباح أبلغته. نحن نعد هذا بطولة إنسانة بأعلى درجة من العقل ، إنسان كان في الجهاد متعب تبلغه صباحاً وقد توفاه الله . فاستنبطوا من هذا أن المسلمون لا يحبون أولادهم يفرحون بموتهم .

الأستاذ علاء :

سيدي فهم النص فهماً مغايراً .

علينا ألا نفهم النصوص إلا من خلال مرجعيات إسلامية فقط :

الدكتور راتب :

أو فهماً إبليسياً .

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

إذا جاءك اليقين عليك ألا تعبده ، لا عليك ألا تعبده إذا جاءك اليقين ، لا يمكن أن نفهم النصوص إلا من خلال مرجعيات إسلامية ، لذلك العلماء لهم دور كبير في الحياة أنا مواطن يتابع دينه من الفضائيات فقط ، وفي بالفضائيات أشياء كثيرة لا ترضي الله عز وجل وفي جهات داعمة ومصالح وفي جهات ممولة وقد تكون تكيد للدين ، تقحم الخزعبلات والترهات في بعض الفضائيات كلها سحر وشعوذة وكذب ودجل ، أما إنسان يترك للفضائيات من دون مرجع أرضي كنت أقول دائماً خذوا دينكم عن الأرضيات لا عن الفضائيات .

أية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ليست من الشريعة :

الشريعة عدل كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، الآن يقول أحد العلماء كلاماً رائعاً : من دعا إلى الله بأسلوب ومضمون سطحي غير متماسك ، أو دعا إلى الله بأسلوب غير علمي وغير تربوي ، أو اكتشف هذا المدعو أنك لست مطبقاً لما تقول قال هذا المدعو بهذا المضمون وبهذه الطريقة وبهذه

الحقيقة الفاضحة لا يعد عند الله مُبلّغاً ، لأن الإنسان في فطرته يؤمن أن هذا الدين عظيم يجب أن يتناسب مع عظمة الله عز وجل .

شركة عملاقة في الكومبيوتر معقول تعمل لها أوردر طلبية وتأخذ منك المبلغ تضعه في الجيب وتقول لك معوضين مثل بائع البطيخ ؟ الشركة العملاقة فيها محاسبة ، فيها أوامر قبض ، أوامر صرف ، فيها إيصالات ، لذلك كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، أحياناً الإنسان ماذا يقول الإمام الشافعي :

" لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين ".

من أجل أن نرتزق بالدين نؤول ونأتي بفتاوى ضعيفة ، ونأتي بما في بعض الكتب من سقطات نجمعها ونقول هذا هو الدين ، لذلك يكثر أعداء الدين ، شيء غير منطقي ، كلام فيه ضلال ، فيه بعد عن الحق.

لذلك أية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ، ومن العدل إلى الجور ، من الحكمة إلى خلافها ، ومن الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (65-95) - مقومات التكليف : الشرع المنهج الإلهي لحركة الإنسان ـ فإذا انشقت السماء فكانت ورة كالدهان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-05-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرع جاء ليس لتقييد الإنسان وإنما لمصلحته وضمان لسلامته :

الأستاذ علاء :

سيدي من مقومات التكيف العقل وصلنا إلى الشرع وأفردنا له حلقات عدة ، تبين ملخصاً للحلقات السابقة بأن الشريعة مصلحة كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة ، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

هذا أمر انتهينا منه في الحلقة الماضية وتبين أن الشرع جاء ليس للتقييد وإنما للمصلحة وضمان السلامة ، وتبين في حلقات سابقة الربط بين الأمر والنتيجة علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، وأن مخالفة الأمر يقتضي تماماً النتيجة العلمية التي تنعكس على المخالف سواء كان هذا السوء تلقاه في الوقت الراهن أو أنه انعكس عليه في وقت لاحق ، مسألة الزمن تتعلق بأسباب أخرى .

المساحة الحيوية لحركة الإنسان مضبوطة بضوابط الشرع :

الآن سيدي الإنسان يتحرك في الحياة حركة أفقية تماماً وحركة عامودية ويتحرك على مستوي ويتقاطع مع مستويات أخرى في علم الفراغية ، هذه الحركة للإنسان أو هذه المساحة الحيوية لحركته هي في الشرع مضبوطة تحت عناوين أو تحت شارات ، كما يستخدم الإنسان مركبته على طريق عامة فإما أن يتلقى شارات تحذير أو شارات دلالة أو شارات تنبيه ، هذه الشاخصات تدل السائق على الطريق العامة على بعد المسافة ، أماكن الاستراحة ، أماكن المنحدرات ، محطات الوقود ، كل شيء حتى على تخفيف السرعة ، عدم التجاوز في هذا المكان ، هنا منطقة لا يجوز أن نناور فيها ، كل هذه المسائل إذا أتقنها الإنسان وقرأ هذا القانون المترجم على الطريق سلم ووصل إلى مكانه .

الإنسان الذي يتحرك في الفراغ في كل هذه المساحة الحيوية ضوابط الشرعية له تندرج تحت مسميات ممكن أن نتعرف إليها ؟

ما من حركة يتحركها الإنسان إلا وفي الشرع ما يغطي حكمها :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء افتراضاً لو قسنا كتف إنسان وبنينا جدارين بحيث إذا سار بين الجدارين لامس كتفه الأيمن الجدار الأول وكتفه الثاني الجدار الثاني وقلنا له اتجه نحو اليمين أمر ما له معنى إطلاقاً ، لأن الإنسان مخير ولأن الله أودع فيه الشهوات وكل شهوة أودعت في الإنسان بإمكان الإنسان أن يتحرك بدافع منها ومن خلالها مئة وثمانين درجة ، ففي حرية بالحركة وجاء الشرع الحكيم وقدم لهذا الإنسان برنامجاً أو منهجاً أو طريقاً ، بإمكانك من خلال هذه الشهوة أن تتحرك سبعين درجة في مساحات محظورة وفي مساحات مقبولة ومباحة ، لأن هذا الحظر والإباحة من عند خالق الإنسان لذلك نجد في الشريعة مصطلحات ما من حركة يتحركها الإنسان من دون استثناء بكلام مطلق إلا وفي الشرع ما يغطي حكمها .

الله عز وجل كرّم الإنسان بمنهج إلهي هذا المنهج فيه :

1 ـ الفرض :

ما من حركة يتحركها الإنسان بأي حركة في حياته إلا وفي الشرع حكم يغطيها فهناك الفرائض يقابلها المحرمات ، هناك الواجبات يقابلها المكروهات ، هناك السنن يقابلها غير المستحبات ، أنا أقول لك بدقة بالغة لأن الإنسان خلق لجنة ولأن الإنسان عنده حرية حركة وعنده شهوات ، في عنده نزوات ومصالح وعنده مبادئ وعنده قيم ، الله عز وجل كرمه بمنهج إلهي ، هذا المنهج فيه فرض .

نقف عند الفرض قليلاً ، معنى الفرض أن الإنسان لا يحقق سلامته ولا سعادته إلا بأدائه ، فرض على بقاء حياة الإنسان أن يتنفس في أوامر شرعية كالتنفس في بقاء الحياة ، فرض على بقاء الحياة التنفس ، كالهواء والماء والطعام ، كلمة فرض يعني سلامته وسعادته لا تتحققان إلا بأدائه السبب ، الإنسان في شهوات فإذا اتصل بالله عز وجل ألقى الله في قلبه النور رأى الحق حقاً والباطل باطلاً ، يعني سيارة ثمنها خمسة وعشرين مليوناً والطريق منعطفات وعلى اليمين في وادي سحيق وعلى اليسار في وادي

سحيق ، إذا ألغينا الإضاءة في الليل الحادث بالمئة مليون محتم ، فرض على أن تقود مركبة في طريق فيه انعطافات وفيه وديان أن تتألق المصابيح لترى الطريق .

الإنسان لا يحقق سلامته وسعادته إلا بأداء الفرض :

الصلاة فرض وهي فرض متكرر لا يسقط بحال لأنك بالصلاة ترى الحق حقاً فتتبعه وترى الباطل باطلاً فتجتنبه ، بالصلاة التي أرادها الله عز وجل ، صوناً لسلامتنا وسعادتنا :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

تنهى نهياً ذاتياً ، أستاذ علاء أنا ممكن ألخص لك الحضارة الغربية كلها بكلمة ضبط الكتروني ، يعني كل شيء مراقب ، الطرقات مراقبة ، حتى الحدائق مراقبة بالأقمار لو شخص أراد أن يخطئ في تعامله مع الأزهار في ضبط لهذه المخالفة ، حتى في المولات الكبيرة أي غرض في معه مادة إن لم تدفع ثمنها يزمر الباب .

أنا أقول استقامة الغرب استقامة إلكترونية لا قيمة لها أخلاقياً إطلاقاً ، السبب لما قطعت الكهرباء في نيويورك تمت مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة ، الإنسان عاقل وذكي يضع قانوناً للحد من السرعات العالية في الطرقات كيف يكشف المخالفون ؟ بأجهزة ، الإنسان أيضاً ذكي وعاقل اخترع جهازاً يكشف له مكان الأجهزة فقبل ثلاثة كيلو متر أنا كنت مرة راكباً مع أخ في أمريكا سمعت صوتاً ما هذا الصوت؟ قال لي الآن في أمامنا جهاز رادار نبهني الجهاز ، معنى هذا واضع القانون ذكي وعاقل والمواطن أذكى وأعقل ، انتهى الأمر ، ما دام في إنسان يستطيع أن يعمل عملاً مقابل هذا الأمر انتهى الأمر .

الأستاذ علاء :

هي صراعات ، ملكات عقلية ، هذا يمتلك فجاء من يمتلك أعلى ، سباق .

من اتصل بالله عز وجل ألقى في قلبه نوراً يضيء طريقه :

الدكتور راتب :

الإسلام شرع إلهي في نقطة دقيقة جداً أنت حينما تتصل بالله يلقي الله في قلبك نوراً اسألني على الدليل، لا يستطيع إنسان في الأرض يتكلم في الدين من دون دليل :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (28))

(سورة الحديد)

الصلاة فرض أنت في الصلاة تتزوج إذا واحد ما صلى قد يزني ، الصلاة تكسب المال الحلال يبارك الله لك فيه ، تنفقه على طعامك وشرابك وأهلك وأولادك ، تكون أسعد زوج وأسعد أب بالمال الحلال الذي عرفت الحلال من خلال اتصالك بالله ، مع الاتصال بالله ترفض الدخل الحرام ولو كان بالملايين لأنك تراه أحد أسباب الدمار ، الصلاة نور ، ما معنى فرض تتوقف سلامتك وسعادتك على أدائه .

الأستاذ علاء :

نعود لنشرح مسألة قد ينضم إلينا أحد المشاهدين الآن ، الصلاة التي أرادها الله .

التفكر في خلق السماوات و الأرض أساس معرفة عظمة الله عز وجل :

الدكتور راتب : لذلك :

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

عرف عظمة الله من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض ، لما يعلم أن في مجرة بعدها عنا عشرين مليار سنة ضوئية وأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر هذا الإله العظيم لا يعصى ، لذلك لا بد من أن نعرف الله عن طريق التفكر وأن ندقق في أفعاله عن طريق التأمل .

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي))

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

التركيز على كلمة عظيم لأن إبليس يؤمن بالله قال رب :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سور ص الآية : 82)

من عظّم الله عز وجل تولد من هذا التعظيم خشية حملته على الطاعة :

لذلك العبرة أن تؤمن بالله العظيم ،

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكف شهواته عن محارمي))

استقام ، تفكر في خلق السماوات والأرض فاستعظم الله عز وجل ، وتولد من هذا التعظيم خشية ، هذه الخشية حملته على الطاعة فلما أطاع الله اتصل به ولما اتصل به ألقى الله في قلبه هذا النور كشف الحقيقة ، فالإنسان لما يمشي في غلبة في الليل ومعه مصباح شديد أولاً الحجر يحيد عنه والحفرة يحيد عنها والأفعى يبتعد عنها أو يقتلها ، والفاكهة الطيبة يأكلها بهذا الكشاف ، الصلاة هكذا فكل شيء فرضه الله علينا تتوقف على أدائه سلامتنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة ، هذا الفرض .

الأستاذ علاء :

سيدي بعد الفرض .

2 - الواجب :

الدكتور راتب :

الواجب ، أدنى درجة هو عند الأحناف واجب ، عند غير الأحناف ما في واجب فرض وسنة ، الآن الله عز وجل قال :

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ(6))

(سور المائدة)

هذه فرائض الوضوء ، السنة النبي غسلها ثلاث مرات ، أداء الفرض بأكمل أداء هو السنة ، قال لك صلِّ ، الإنسان بمشاغل فصلى أربع ركعات قبل الظهر هذه بالتعبير الميكانيكي تحمية محرك ، والسنة البعدية لترميم ما نقص في الفرض ، السنة في أصلها أداء كامل للفرض أو اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في أداء الفرض ، أو طريق إلى قطف ثمار الفرض .

الأستاذ علاء :

سيدي هل نستطيع أن نسميها إيجاد الحاضنة السليمة للأداء الفرض .

قضية السنة طريق أمثل لبلوغ أداء الفرض :

الدكتور راتب :

أنا حينما أؤدي الفرض أداءً كاملاً أكون مطبقاً للسنة ، الزنا محرم ، الآن إطلاق البصر محرم طريق الزنا ، إطلاق البصر صحبة الأراذل ، الانغماس مع أصدقاء ماجنين ، هذا كله يؤدي إلى جريمة الزنا، الله عز وجل بحكمة بالغة بالغة ما نهانا عن الزنا لكن نهانا عن أسبابه ، لأن الإنسان إذا اقترب

من أسبابه نقلته هذه الأسباب إلى الجريمة الكبرى دون أن يشعر ، لذلك قضية السنة طريق أمثل لبلوغ أداء الفرض .

الأستاذ علاء : هنالك من السنن ما هو مؤكد وما هو غير مؤكد ، ما معنى هذا ؟

تطبيق النبي الكريم السنة الغير مؤكدة مرة وعدم تطبيقها مرة أخرى رحمة بالخلق :

الدكتور راتب : النبي صلى الله عليه وسلم حينما طبق هذا الفرض بأسلوب مستمر سنة مؤكدة ، طبقها مرة ولم يطبقها مرة أخرى رحمة بالخلق حتى لا يكلفهم فوق طاقتهم ، إذا جاءت السنة غير مؤكدة النبي فعلها مرة وتركها مرة ، مثلاً التراويح سنة صلاها النبي في المسجد وصلاها في البيت إذاً أداء صلاة التراويح في المسجد سنة غير مؤكدة ، إنسان عنده زوجة وأولاد فقام وأمّهم في رمضان وراءه زوجته وأولاده وأخواته صلى فيهم ضمن صلاتهم وضمن التفافهم حوله ، ممكن أن تؤدى هذه الصلاة في البيت .

الأستاذ علاء : حتى عدد هذه الركعات نعتبره سنة غير مؤكدة .

الدكتور راتب :

نعم في إنسان مريض ثماني ركعات ، أنا مرة شخص سألني في الإذاعة على الهواء مباشرة أن التراويح كم ركعة ؟ مشكلة ، أنا منذ أن كنت ناشئاً أعاني هذه المشكلة الخلافية قلت له صلِّ ثمانية ، واثني عشر ، وستة عشر ، وعشرين ، وبالجامع والبيت ولا تفعل مشكلة ، كفانا مشاكل ، ترى في خصومة كبيرة جداً يا ترى ما تعريف التهجد ؟ هناك من يرى التهجد أن تصلي بعد أن تنام ، هناك العكس القيام بعد أن تنام ، شخص مرة كان في جلسة والنقاش احتدم وكادوا يتخاصمون فخبروني في الليل ما تعريف التهجد ؟ أنا أعرف التعريف ، قلت له صلِّ ركعتين لله وقل يا رب لا أعرف ما اسم هاتين الركعتين يا رب تقبلهما مني ، نحن نعيش في قشور .

الأستاذ علاء : سيدي أحياناً يصير الخلاف على القيام أن تكون قبل النوم أو بعد النوم والاثنين لا يؤدوا هذه السنة .

الدكتور راتب : هذا اسمه الاستغراق في الجزئيات ، ضيعنا أهدافنا ، نسينا وحدتنا ، بأسنا بيننا من كل هذه الخلافيات ، فلذلك السنة المؤكدة فعلها النبي صلى الله عليه وسلم بشكل مستمر ، الغير مؤكدة فعلها وتركها رحمة بنا .

المستحب هو كمال الكمال :

الأستاذ علاء : هنالك يعرف في الفقه المستحب .

الدكتور راتب : المستحب كمال الكمال مثلاً أنت أديت صدقة إذا كان طفل في العيد أعطه ورقة جديدة، تزقزق أيام يفرح ، مستحب أن تقدم العملة الجديدة ، إذا دفعت مئة ليرة وقديمة هي مئة ليرة ، لكن إذا كان يريد أن يحفظها وهي جديدة تزقزق ، هذا الاستحباب يعني شيء يؤدى بكمال أعلى ، كان كثير بعض العلماء يعطروا العملة إذا قدموها للفقير تكريماً له ، المستحبات يعني أداء راقٍ جداً للعبادة ، أنت تعطي إنسان صدقة كان الورعون يعطونها بيد سفلى لأن اليد العليا خير يجعل يد الفقير هي العليا هذه من المستحبات .

الأستاذ علاء : هذه حالات روحية ونفسية في منتهى اللطف لأداء الصدقة أو لأداء السنة أو أداء الواجب بأعلى درجات الذوق الإنساني .

الدكتور راتب : أنت وصديقك في بريطانيا جالسين لكم صديق بريطاني تتكلمون في اللغة العربية فتقدم سكتم وتكلمتم بالإنكليزي ، هذا من المستحب ، لا يتناجى اثنان دون الثالث ، إذا تابعت الحديث بالعربي في صديق بريطاني أن قصة رواها بعض العلماء : طالبان سوريان في بريطانيا لهم صديق بريطاني فكلما اقترب منهما تكلموا الإنكليزية فلفت نظره ذلك سألهم لماذا ؟ قالوا لأن نبينا نهانا أن نتكلم إذا كنا ثلاثة اثنان دون الثالث ، فكان سبب إسلامه .

الأستاذ علاء : نستطيع نحن من خلال هذا الكلام بأن الإسلام هو الذي أسس علم الجمال .

الإسلام هو الذي أسس لعلم الذوق و الجمال :

الدكتور راتب : أنا لي عن الذوق الإسلامي تذاع عشرات المرات نحن نتوهم أن الذوق فقط جاء من الغرب ، إذا ابن درس في مدرسة أجنبية يكون عنده(سينييه كثير)أذواق عالية ، والله أعلى درجات الذوق في إسلامنا وفي ديننا ، النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يأكل التمر كان يضع التمرات بين أصبعيه لماذا ؟ لو مسكها بيده وضعها على الطاولة ، أمسك تمرة وجدها قاسية جداً تركها وأكل غيرها ماذا حصل ؟ انتقل لعابه إلى تمرة لم يأكلها ، كان إذا أكل التمر يضع هنا النواة وتبقى أصابعه جافة ، ما هذا الذوق ؟ كان إذا دخل بيته لفّ ثوبه ، أيعقل أن يكون حفيف الثوب يوقظ امرأته ؟ ورد في بعض الآثار عنه : لا تحمروا الوجوه . قال لك الحرارة أربعين ، ليس معقول أنت لا تفهم ، طول بالك شيء لا يقدم ولا يؤخر ، قضية ليس لها علاقة بالعقيدة ولا بشيء ، أخطأ إنسان لا تحرجه ، والله في مواقف

للنبي وأصحابه بالذوق العقل لا يصدقها .المؤمن ليس بصخاب ولا فحاش ولا لعان ولا بذيء .
الأستاذ علاء : حالات ذوقية من أجمل وأروع ما يكون ، أسست لعلم الذوق .
الدكتور راتب : أيّكما أكبر أنت أم رسول الله ؟ عمه العباس ، فقال : أنا ولدت قبله ، وهو أكبر مني.
هذا من الذوق .

وقف سيدنا عمر على المنبر فنزل درجة قال : ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر ، أدب ، أول درجة للصديق ، سيدنا عثمان نزل الدرجة الثانية وعاد إلى مكانه استغرب الناس لما رجع إلى الدرجة الأعلى ، وقد سأل خليفة أموي وزيره : لمَ لم ينزل درجة ؟ قال : أما والله لو فعلها لكنت في قعر بئر ، هذه أذواق عالية جداً .

الفقرة العلمية :

الأستاذ علاء : سيدي هذا الموضوع جميل أن نستمر به لكن الوقت أدركنا ، والآن الأسبوع الماضي أخذنا وقت الفقرة العلمية والآن لن نأخذ وقت الفقرة العلمية فماذا أعددت لنا ؟
الدكتور راتب :

الوردة الجورية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أستاذ علاء وكالة فضاء كبرى في العالم ناسا تعرض كل يوم صورة لمجرة من عشرين سنة ، عثرت على هذه الصورة في موقع هذه المحطة الفضائية العملاقة ناسا ، هذه الصورة كأنها وردة حمراء داكنة ووريقات خضراء زاهية كأس أزرق في الوسط ، لو تأملتها تأملاً جلياً لا تشك بلحظة واحدة أنها وردة جورية ، ولكن المفاجأة أنها ليست وردة جورية إنها انفجار نجم اسمه عين القط يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، طبعاً أقرب نجم ملتهب إلينا بعده عنا أربع سنوات ضوئية ، الآن طالب من طلاب الصف العاشر أو التاسع بالآلة الحاسبة : الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر بالدقيقة ضرب ستين ، بالساعة ضرب ستين ، باليوم ضرب أربع وعشرين ، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ، بأربع سنوات ضرب أربعة ، معنا رقم هذا الرقم يجمعه أي طالب من طلابنا على الآلة الحاسبة لو في طريق لهذا النجم طريقاً معبداً افتراضاً ، معنا مركبة أرضية سرعتها مئة كم نحتاج حتى نصل إليه ؟، نقسم المسافة على مئة كم ساعة ، على أربع وعشرين كم يوم ؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ نحتاج إلى خمسين مليون عام كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب للأرض .

الإله العظيم جعل هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى :

متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ آلاف ، متى نصل إلى المرأة المسلسلة تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى نجم بعده عنا عشرين مليار سنة ضوئية ؟ الأربع سنوات ضوئية نحتاج أن نصل إليها في خمسين مليون عام ، والعشرين مليار سنة متى نصل لهذا النجم ؟ لذلك قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر)

أي العلماء وحدهم و لا أحد سواهم يخشى الله ، لأن الإله العظيم جعل هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى .

التفكر في خلق الله عز وجل من خلال كلمة مواقع النجوم :

الآن :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

لو عالم فلك وقف عند كلمة مواقع النجوم ربما خرّ لله ساجداً لأن هذا النجم كان في هذا المكان قبل عشرين مليار سنة ، وانطلق منه الضوء وبقي الضوء يمشي في الفضاء الخارجي عشرين مليار سنة حتى رأيناه في الأرض ، لكن هذا النجم الذي أطلق هذا الضوء سرعته تقترب من سرعة الضوء ، أين هو الآن ؟ عشرين مليار سنة كان في هذا الموقع أما الآن أين هو ؟ لذلك كلمة موقع تعني أن صاحب الموقع ليس في الموقع ، لو فرضنا الآية فلا أقسم بالمسافات بين النجوم ، هذا ليس قرآناً

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

النجم أطلق الضوء ومشى ، هذا موقع وليس نجماً ، كان هنا .

خالق الأكوان هو الذي أنزل القرآن الكريم :

هذه درب التبابنة مجرة متواضعة جداً من عدد يفوق حدّ الخيال ثلاثة آلاف مليار مجرة هذه إحدى المجرات ، المجموعة الشمسية بأكملها نقطة على هذه المجرة ، هذه الأرض ، الأرض كما ترى صورة

من القمر مأخوذة حقيقية قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77))

(سورة الواقعة)

الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، يجب أن نعرف ما معنى القرآن ؟ يعني فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه . لذلك قال تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

إعجاز القرآن العلمي :

سنرجع إلى الوردة الجورية التي تحدثت عنها في مطلع هذا القسم العلمي من الدرس هذه الوردة الجورية هي وردة قطعاً بكل هذه الكلمة من معنى إلا أن هذه الآية تقول :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

(سورة الرحمن)

هذا من إعجاز القرآن العلمي ، هذا من السبق العلمي لأن هذه الآية لا يمكن أن نفهمها قبل هذه الصورة ، من هنا قال الإمام علي رضي الله عنه : في القرآن آيات لما تفسر بعد .

وردة حمراء داكنة ووريقات خضراء زاهية كأس أزرق في الوسط ، هذه الوردة في الحقيقة ليست وردة جورية إنها انفجار نجم اسمه عين القط يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، رصد من محطة ناسا فكانت هذه الصورة وهذا القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (66-95) - مقومات التكليف : الشرع ـ المرور ـ الحوادث المرورية وعلاجها في ضوء الإسلام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-06-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

سيدي الكريم ، بدأنا منذ عدة حلقات بعض الحلقات النوعية التي ترتشف من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن هديه سلوكاً ومنهجاً ، ورصدتَ أمامنا الكثير من أخلاقه الكريمة ، ومن عاداته الفضلى ، ومن تعاليمه التي حض عليها ، التي تبين بعد ألف وخمسمئة عام أن فيها الصلاح والرشد ، وأن العلم أكّد كل هذه التعاليم ، وقد أخذها الصحابة الكرام تسليماً عن النبي صلى الله عليه وسلم دون النظر في علم ، علم الأعشاب ، ولا علم الصيدلة ، ولا علم الطب ، ولا علم الجغرافيا ، إنما جاءت العلوم لتثبت صحة هذه التعاليم .

ونحن نحتفي بذكرى المولد ، وبالتالي من خلال هذه الحلقات التي نحتفي مع العالم الإسلامي بذكرى المولد بها من خلال تبيان سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعاليمه مؤسسة على القرآن الكريم والشريعة المطهرة ، نتبين ومن خلال عنواننا الكبير الإيمان هو الخلق أن الإيمان هو الحياة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الحياة القويمة السليمة التي لا عوج فيها ، والتي لا تعدي فيها على النفس، ولا على المجتمع ، ولا على البيئة ، ولا على الكون ، إنما في حالة من الاتساق والتوازن لا تعرف الفتور ، مِن هنا ومن خلال الاحتفال بالمولد النبوي الشريف حبذا لو نقف عندما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من قضايا أسست للتعامل بين الناس في الحقوق ، وخاصة في السابلة في الطريق ، ونحن على أبواب الرابع من أيار ، وهو يوم المرور العالمي ، اتخذته الأمم المتحدة ، ثم مجلس وزراء الداخلية العرب ، اتخذ أسبوعاً للمرور العربي لأهمية هذه المسألة ، ولما يفترسه قطاع المرور من الآدميين على الشوارع والطرقات ، حبذا أن نقف عند هذه المسألة التي لا يخطر ببال الكثير منا أن الشرع له علاقة بها ، وأن الشرع يقيد هذه المسألة ، وينظّمها ، ماذا نقول سيدي ؟

الدكتور راتب :

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء ، جزك الله خيراً على هذه اللفتة اللطيفة .

1 – من العبادات التعاملية عدمُ إيقاع الأذى بالناس :

العبادات الشعائرية التي يتوهمها الناس أنها وحدها الدين ، لا تقبل ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، ويقع على رأس العبادات التعاملية ألاّ نوقع الأذى بالآخرين ، وقد لا نصدق أن أكبر خسائر في العالم كله في المرور ، بلا ثمن ، ولخطأٍ ناتج عن ضعف في القيادة ، أو خطأٍ في الشاخصات ، أو خطأٍ في الطرقات ، الذين يموتون كل عام رقم فلكي .

ولكن أريد قبل أن نعالج هذا الموضوع أن أقف وقفة قصيرة ومتأنية عند حقيقة نحتاجها الآن .

2 – وجوبُ تنميةِ المفهومات الأخلاق الإسلامية :

المسلمون ، ونحن منهم إن شاء الله بحاجة ماسة إلى تنمية المفهومات الأخلاقية التي جاء بها الإسلام ، نحن في عصر لا بد من أن نفهم الأخلاق فهماً حضارياً .

مثلاً : الإسراع إلى العمل ، إتقان العمل ، تطوير العمل ، المحافظة على الوقت ، حسن إدارة الوقت ، العمل المؤسساتي ، ترسيخ مفهوم فريق العمل ، إتقان المواعيد ، حسن التصرف في الإمكانات المتاحة، ترشيد الاستهلاك ، التعاون ، الانتماء للمجموع ، قضايا المرور .

أنا أرى أن هذه القضايا من صلب الدين بل أرى أن المؤمن الحق الصادق المتفهم لطبيعة الحياة المعاصرة يجب أن تجتاحه موجة إيمانية ، وهو يتقن عمله ، وهو يفي بوعده ، وهو يعمل كفريق عمل، وهو يحفظ وقته ، وهو يدير وقته ، وهو ينضم إلى مؤسسة يعمل فيها كفرد متعاون ، هذه قيم حضارية لها أصول واضحة وصارخة في الدين ، لكن تحتاج إلى بعض التطوير ، نحن في أمسِّ الحاجة إلى قيم لها أصول في ديننا وفي قرآننا وفي سنة نبينا .

عندما نعالج موضوعًا كالمرور أنا أراه هذا من صلب هذه الحلقة ، الإيمان هو الخلق والقيادة أخلاق ، بل حينما أقود قيادة رشيدة فأنا أجنب الآخرين الضرر ، وإزهاق الأرواح بلا ثمن ، أنا أحقق أحد أكبر

مقاصد الشريعة ، فلذلك ما لم نستوعب الثقافة المعاصرة ، ما لم نفهم ، ما لم نسقط منهجنا الرباني وتفصيلاته النبوية على قضايانا المعاصرة فلن يكون الإسلام دين الحياة ، والإسلام في الحقيقة هو دين الحياة ، وأنا أؤكد أن النبي الكريم رأى شاباً يتعبد الله في وقت العمل فسأله : << مَن يطعمك ؟ ، قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك >> .

إذاً : نحن بحاجة ماسة إلى أن نطور مفهومات التنمية الأخلاقية تطويراً يتلاءم مع طبيعة العصر ، أو يتلاءم مع طبيعة المعركة الحاسمة الفاصلة بيننا وبين الطرف الآخر .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هل نعتقد أو نجزم بأن الطرف الآخر قد سبقنا إلى المفهومات التي قدمت ، الإسراع على العمل ، إتقان العمال حسن إدارته ، العمل المؤسساتي تطوير العمل ، التعامل بنوع من النظام ، وبنوع من التخطيط ، هذه القضايا التي سبقنا بها .

الدكتور راتب :

3 – لن يُحترَم الإسلامُ إذا كنا متخلِّفين أخلاقيا وحضاريًّا :

سبقنا مئات السنين ، وما لم نطور مفهوماتنا تطويراً يتناسب مع طبيعة العصر لم يحترم ديننا .

أقول هذه الكلمة ، وأكررها كثيراً : " إنّ الطرف الآخر لن يحترم ديننا إلا إذا طورنا حياتنا تطويراً وفق الضوابط الشرعية ، وفق منهج ربنا جل جلاله ، ووفق منهج رسولنا صلى الله عليه وسلم " .

هذا الدين دين الحياة ، ولن يكون دين الحياة إلا إذا حل مشكلات الحياة .

فهم الإسلام للمسألة المرورية :

1 – عمر بن الخطاب ونظرتُه إلى المسألة المرورية :

أستاذ علاء ، أنا معجب جداً بأن سيدنا عمر عملاق الإسلام له فهمٌ مُروريٌّ رائع ، وهو أقدم فهم ووعي مُروريٌّ ، يقول سيدنا عمر : << والله لو تعثرت بغلة في العراق ـ هو في المدينة ـ لحاسبني الله عنها ، لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر ؟ >> ، إذاً من أولى مسؤوليات الحاكم أن ييسر الطرق .

الطرق أستاذ علاء شرايين بالضبط ، كيف أن الجسم قوام حياته هذه الشرايين التي تجري فيها الدماء، فإذا خالفنا قواعد السير حدث في هذه الشرايين الأمراض المميتة ، وقد تضيق الطرقُ كما تضيق الشرايين ، وقد تقع الحوادث كما تقع الجلطات ، فالشرايين في الإنسان يقابلها في حياتنا هذه الطرق ،

يقول سيدنا عمر : << والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها ، لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر ؟ >> .

الأستاذ علاء :

هنا فهمٌ ، هو تجاوز طرق المُعَدة للإنسان ، إذاً : الطرق المُعَدة للإنسان والتعامل معها هذا تحصيل حاصل ، وصل إلى مسألة الطرق الخاصة بالدواب .

الدكتور راتب :

2 – التسبُّب في الحوادث المرورية ومسألة الاحتجاج بالقدَر :

لأنها من مخلوقات الله .

أستاذ علاء ، أنا متألم أشد الألم حينما يتوهم المسلم ضعيف العلم أن هذه من قدر الله ، لا أبداً ، لا يمكن أن نعتذر بقدر الله ، ونبقي على حوادث المرور ، القدر حينما آخذ بالأسباب كلياً ، ويأتي شيء خلاف إرادتي هذا قضاء وقدر .

للتوضيح : الطالب حينما لا يدرس إطلاقاً ، ثم يرسب ، ويقول مدعياً : إن الله لم يقدِّر لي أن أنجح ، هذا كلام فيه كذب ، وفيه دجل ، وفيه تزوير ، أما حينما يدرس دراسة جيدة جداً ، ويأتيه مرض يحول بينه وبين أداء الامتحان نقول : هذا قضاء وقدر ،

أنا أميل إلى أن أضيف إلى هذا المصطلح مصطلحا جديدا ، هو جزاء التقصير ، هذه الحوادث المرورية التي تزهق أرواح بريئة ، تيتم أطفالاً ، ترمل نساءً ، تفقد المُعيل ، تبقى الأسرة فقيرة تتكفف الناس من بعد موت مُعيلها ، هذا ليس شيئاً مكتوبا على الجبين ، كما يتوهم الناس ، هذا جزاء التقصير، فلذلك لا يمكن أن يحتجَّ بالقضاء والقدر .

الأستاذ علاء :

هذا هو القدر الجزائي .

الدكتور راتب :

3 – التقصير في الأخذ بالأسباب لا يعفي من المسؤولية ، ولا يُسقِط العقوبة :

نعَم هو الجزاء المبني على تقصير .

شيء آخر ، الحقيقة لما سيدنا عمر جاءوا إليه بشارب خمر قال : << أقيموا عليه الحد ، فقال الرجل : والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك ، قال : أقيموا عليه الحد مرتين ؛ مرة لأنه شرب الخمر ،

ومرة لأنه افترى على الله ، ثم قال : ويحك يا هذا ، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >> .

هناك تقصير في وضع الشاخصات أحياناً ، وتقصير في المنعطفات الخطرة أحياناً ، وتقصير في القيادة ، وتقصير في منح الإجازة ، وتقصير في الطرقات ، وتقصير في الإضاءة ، وتقصير في المركبة نفسها ، وتقصير في السائق إذْ لا يحسن القيادة ، وهناك أسباب كثيرة .

أستاذ علاء ، ثمة نقطة دقيقة جداً حينما قال الله عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ (11))

(سورة النور)

قضاء وقدر :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11))

(سورة النور)

الاحتجاج بالقدر لا يلغي العقوبة ، ولا يلغي المسؤولية ، لا يلغي الجزاء ، ولا يمكن أن يتقدم المسلمون إلا إذا فهموا القضاء والقدر فهماً دقيقاً عميقاً صحيحاً لا يعفينا من المسؤولية ، فقد نقع في حادث وبعدها نقول : قضاء وقدر ، ولكن كان من الممكن أن نحاسب حساباً عسيراً على وقوع هذا الحادث .

الأستاذ علاء :

من هنا نفهم سيدي عندما جربت جمال أحد الأعراب ، وجاء إلى سيدنا عمر ، وقال له : يا أخ العرب، ما تفعل بهذا الجمل الأجرب ؟ قال : أدعو الله أن أشفيه ، قال : لا جعلت مع الدعاء قطراناً ؟

الدكتور راتب :

4 – من تمام الأخذ بالأسباب مراجعة المركبة واتخاذ أسباب السلامة :

حينما آخذ بالأسباب ، مثلاً : أنا كمقتني مركبة عندي سفر إلى حلب ، أراجع المركبة ، أراجع العجلات ، أراجع ضغط الهواء ، أراجع الزيت ، أراجع ميزان المركبة ، أراجع كل شيء ، وبعدئذ أتوجه إلى الله بأعماقي قائلاً : يا رب ، أنت الحافظ ، أنت المسلّم ، أنت الموفق ، أنت الميسِّر ، يجب أن أجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، بل إن هناك مقولة رائعة : خذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء .

هذا الكلام ينطبق على أصحاب المركبات ، راجع المركبة ، وينطبق على إنسان لا ينام الليل إطلاقاً فيأتيه النعاس في أثناء القيادة فيسبب دمارا كبيرا ، هذا ينطبق على مركبة غير مراجعة ، وعلى طريق

ما فيه شاخصات ، ينطبق على تقاطع طرق خطر ما فيه لوحة ، فأنا أرى أن هناك أسبابا ، واللهُ عز وجل بنى الحياة على الأسباب والمسببات ، لذلك :

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا(84))

(سورة الكهف)

إذاً : الأصل أنني آخذ بالأسباب ، وكأنها كل شيء ، ثم أتوكل على الله ، وكأنها ليست بشيء .

الأستاذ علاء :

سيدي ، يقال : المعادلة المرورية تتألف من الطريق والمركبة والإنسان ، ويقولون عن الطريق : إن الحالة الجوية لها حيز كبير في مسألة القيادة ، والأحوال التي تنتاب هذا الطريق ، بالإضافة إلى ذلك التعليم ، هناك بند أضيف في دول العالم ؟ الطريق ، المركبة ، الأحوال الجوية ، والإنسان ، فتقع المسؤولية في النهاية على الإنسان ، وعلى من يقود هذا الإنسان .

الدكتور راتب :

حجمُ حوادث المرور كبير وخطير :

على الإنسان وعلى من يقود هذا الإنسان ، أنا أحمل الجهات الحكومية مسؤولية أيضاً ، لذلك أستاذ علاء سوف يفاجأ الإخوة المشاهدون أن حجم المشكلة كبير جداً ، حوادث الطرق ثاني أهم أسباب وفيات الأحداث والشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخمسة أعوام والتسعة وعشرين عاما في العالم كله ، وثالث سبب لوفيات أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعة وأربعين ، وثاني سبب من خمسة إلى تسعة وعشرين ، وهل نصدق أن هناك مليونًا ونصف مليون شخص في العالم يموتون بحوادث مرور سنوياً ؟ هل نصدق أن هناك خمسين مليون إنسان مصاب أصبح عالة ، كسيحًا على عجلات مشلولا مقطوع العمود الفقري ، وهي عاهة دائمة ، تصور حجم المشكلة ، إنه كبير جداً .

الأستاذ علاء :

كان يعيل خمسة أفراد ، الآن أصبح بحاجة لمن يعيله هو .

الدكتور راتب :

وإذا مات صار المرأة أرملة ، وأصيبوا بعجز مادي ، لذلك حجم المشكلة كبير جداً ، مليون ونصف إنسان يموتون كل عام ، هذه إحصاءات دقيقة جداً مأخوذة من منظمة الصحة العالمية ، ومعظم الإصابات خطيرة ، وقد تؤدي إلى عجز دائم .

الآن هناك توقع مخيف ، أقلّ بكثير من أي شيء آخر ، شيء آخر بحسب تنامي هذه الحوادث ، والمتوقع في المستقبل أن ترتفع هذه الحوادث ثمانين بالمئة ، فما لم تنهض الدول مجتمعة لحل هذه

المشكلة فإن حجم المشكلة يكون كبيرًا .

الأستاذ علاء :

ما لم تتنبه الدول والمؤسسات إلى خطورة هذه المشكلة سوف تزداد إلى ثمانين بالمئة .

الدكتور راتب :

الخسائر المادية من حوادث المرور كبيرة جدا :

أستاذ علاء ، قد لا نصدق أن حجم الخسائر المادية خمسمئة وثمانية عشر مليارًا في العالم سنوياً ، تحل بها معظم مشكلات البشر ، يقولون لك : أكبر كارثة بثلاثين مليارا ، خمسمئة وثمانية عشر مليارا حجم حوادث الطرق من حيث الخسائر المادية بين سيارات وطرقات ومواد ، والتأمين والتعويض ، والتأمين الصحي فيما بعد .

وقفنا إذاً عند حجم الخسارة في العالم كله وعلى مدى عام ، لو انتقلنا إلى العالم العربي فمعي إحصاء عن عام ألفين فقط ، نصف مليون حادث ، واثنان وستون ألف قتيل في العالم العربي فقط ، هؤلاء ثروة الأمة .

الأستاذ علاء :

وهل يترتب عليه من الخسائر المادية ما يستنفذ من خطط التنمية الشيء الكثير ؟ واثنان وستون ألف قتيل في العالم العربي ، لو جئنا إلى بلدنا الطيب الحبيب .

الدكتور راتب :

كل أربع ساعات قتيل على مدى العام ، على مدى ثلاثمئة وخمسة وستين يوما ، وكل يوم أربع وعشرون ساعة ، في كل أربع ساعات قتيل على مدار العام ، وستة وثلاثون جريحا يومياً .

الأستاذ علاء :

على الطرقات العامة .

الدكتور راتب :

الشيء المؤلم ، أنا دائماً أنطلق من مقولة أرددها كثيراً ، الحقيقة المُرة هي أفضل ألف مَرة من الوهم المريح ، نسب الحوادث تضاعفت من عام 2001 حتى 2006 إلى الضعف ، بالمئة مئة .

الأستاذ علاء :

المفترض أن يكون مع التأهيل والتقانة الوعي مع ما يبسط في وسائل الإعلام ، وسائل الإعلام في بلدنا لا تقصر في التوعية الضرورية .

الدكتور راتب :

الآن لو سألنا الجهات الاختصاصية : كيف نخفف من هذه الحوادث ؟ بحسب تقرير مطول وعلمي لمنظمة الصحة العالمية فإن أحزمة المقاعد إذا استخدمت بالطريقة الصحيحة تقلل الموت بالحوادث بنسبة 61% .

الأستاذ علاء :

هذا الحزام الذي نتأفف منه .

الدكتور راتب :

5 – لابد من احترام قواعد السلامة المرورية :

استخدام مقاعد السلامة للأطفال يخفف نسب موت الأطفال 35% .

ارتداء خوذة الرأس عند قيادة الدراجات الهوائية والنارية يقلّل الموت وإصابات الدماغ 45% .

تقليل السرعة بمقدار كيلو متر واحد يقلل عدد الحوادث 2% ، كل كيلو متر تهبط النسبة 2% .

الأستاذ علاء :

هذه حقائق يجب أن يعيها كل منا ، وأن تبسط أمام الجميع ، الآن سيدي الكريم هذه القضايا عندما نلتزم بها هل نؤدي طاعة وتقوى لله ؟

الدكتور راتب :

التقيُّد بالسلامة المرورية من الدين :

أقول كما قلت قبل قليل : هي من صلب الدين ، لكن هناك حقيقة مؤلمة جداً ؛ أن هذه الحوادث في أعلى درجة من معدلاتها في إفريقيا والشرق الوسط ، وهذه حقيقة مُرة ثانية ، وأن هذه الحوادث تصيب ما دون الخامسة والعشرين ، شباب الأمة ، فلذات الأكباد ، من يعلق عليهم الآمال ، من ننتظر منهم دوراً قيادياً ، يموتون بلا ثمن ، يموت الإنسان بساحة الحرب شهيدا مجاهدا ، ويموت إنسان ضمن عمل خطير ، نقول : ضحية هذا العمل ، أما أن يموت بحادث سير فهذا مشكل كبير .

هناك مثل عربي قديم :" لو أن ذات سوار لطمتني " ، يبدو أن إنسانا تلقى لطمة من جارية ، فكان ألمه مضاعفا ، قال : " لو أن ذات سوار لطمتني " .

أنا أعرف شابا في الخليج هو صديق ابني ، اشترى سيارة ، وفي أول رحلة عمل وقع له حادث فقطع عموده الفقري ، عمره ست وعشرون سنة ، الآن سيمضي كل حياته في الفراش ، كان من الممكن أن

يكون زوجا ، مهندسا ، طبيبا ، مدرسا ، يكون له دور كبير في الأمة .

نحن نحتاج من يعيش في سبيل الله :

أنا أقول كلمة أستاذ علاء : نصبر جميعاً أمام من يموت في سبيل الله ، لكنني والله أؤكد للإخوة المشاهدين أن الأمة اليوم بأمسّ الحاجة إلى من يعيش في سبيل الله ، إنسان يقدم للأمة شيئًا ، يقدم خبرات ، يحمل همَّ الأمة ، كلما فقدنا شابا فقدنا عنصرا فعالا ، والنبي الكريم يقول :

((ريح الجنة في الشباب))

[ورد في الأثر]

الشيء المؤلم أن ضحايا حوادث المرور كلها دون الخامسة والعشرين سنة من الشباب ، من عصب الأمة .

الأستاذ علاء :

من الجسور التي تحمل الأمة عليها كل آمالها .

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، ما رأيت موضوعاً ألصق بهذه الحلقة من هذا الموضوع ، الإيمان هو الخلق ، وحينما لا أسبب المآسي للمجتمع أكون قد حققت جانباً كبيراً من مقاصد الشريعة .

الأستاذ علاء :

النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن السرعة بالمقارنة في ذلك العصر ؟

الدكتور راتب :

السرعة المفرطة منافية للعدالة والخُلق الحسن :

الموضوع دقيق جداً وعميق ، أنا أرجو أن نتابعه في حلقة قادمة ، عند الفقهاء حالة اسمها سقوط العدالة ، العدالة كالحقوق المدنية تماماً ، الإنسان المؤمن المسلم يتمتع بصفتين العدالة والضبط ، العدالة صفة نفسية ، والضبط صفة عقلية ، فمَن أكل في الطريق جرحت عدالته :

((مَن عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

ومن عامل الناس فظلمهم ، وحدثهم فكذب عليهم ، ووعدهم فأخلفهم ، فقد سقطت عدالته ، كإبريق بلور ضرب بالمطرقة فأصبح حطاماً ، وهناك حالة أخفُّ اسمها جرح العدالة ، كإبريق انشعر ، فالأكل

في الطريق يجرح العدالة ، والمشي حافياً يجرح العدالة ، والبول في الطريق يجرح العدالة ، وتطفيف بتمرة يجرح العدالة ، وأكل لقمة من حرام يجرح العدالة ، ومن جرح العدالة مَن أطلق لفرسه العنان ، والسرعة الزائدة تجرح عدالته .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (67-95) - مقومات التكليف : الشرع ـ المرور(ضحايا المرور)
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-06-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان هو الحفاظ على الحياة والسلامة :

الأستاذ علاء :

تبينا ومن خلال عنوان هذا البرنامج الإيمان هو الخلق ، الإيمان هو الحياة ، الإيمان هو الحفاظ على الحياة والسلامة ، وتبينا بأن الإيمان يحفظ الإنسان من كل مكروه نفسياً وجسمياً وعقلياً ، يحفظ ماله وعقله ودينه وعلاقته مع الآخرين ومع بيئته ومع ربه عز وجل .

وقفت سيدي عند مسألة هامة في قضايا المرور وأن المرور ومشكلات المرور من أهم وأعقد القضايا التي تواجه العالم .

الدكتور راتب :

وخسائرها أعلى الخسائر على الإطلاق .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم بينت لنا بأنه ثاني سبب في وفاة من يموتون في العالم من خمس سنوات إلى تسعة وعشرين عاماً .

ثالث سبب لوفيات أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعة والأربعين ، وتبينا بأنه يبلغ عدد ضحايا المرور مليون ونصف شخص على مستوى العالم سنوياً ، خمسين مليون إنسان مصاب وخمسمئة وثمانية عشر مليار دولار خسائر القطاع المروري أو من خلال حوادث المرور خسائر العالم ، ولو صرفت في قضايا الصحة والتنمية لكفت البسيطة وما حوتها ، وتبين من خلال إحصاءات الدول العربية أن اثنين وستين ألف قتيل سنوياً وتبينا أن كل أربع ساعات في سوريا هنالك قتيل بحادث مروري ، وأن عدد الحوادث من ألفين واحد وألفين وستة تضاعف .

الآن بعد كل الذي قدمت في الحلقة الماضية وقلت لنا بأن هذه المسائل من صلب الدين ، كيف نؤصل هذه القضايا من الناحية الشرعية ، ومن تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام ومن خلال المنهج الذي أسس وقلت لنا إن أول من تنبه إلى المسألة عظيم الأمة سيدنا عمر بن الخطاب عندما قال: والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها ، لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر ؟

على كل دولة أن تنهض لمعالجة قضية الحوادث :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء قبل أن ندخل في سؤالك الكريم ، هجمات الحادي عشر من أيلول سببت موت ثلاثة آلاف وستمئة إنسان ، قامت الدنيا ولم تقعد ، خمس دول إسلامية عربية احتلت ، السياسة تطورت أصبح التاريخ المعاصر ما قبل الحادي عشر وما بعد الحادي عشر ، هل تصدق أنه يموت في أمريكا وحدها في كل أربعة وعشرين يوماً عدد الذين ماتوا في هجمات الحادي عشر من أيلول ؟ طبعاً قامت الدنيا ولم تقعد لمن مات في هجمات أيلول أما هؤلاء الذين يموتون بلا سبب ، أو بلا ثمن ، أو بلا قضية ، أو بلا مبرر ، فحجم القضية كبير جداً .

ومرة ثانية ما لم تنهض الدول لمعالجة حاسمة لهذه القضايا فنسبة الحوادث ترتفع إلى ثمانين بالمئة .

تمتع الإنسان المسلم السوي بصفتي العدل والضبط :

الآن نعود إلى إسقاط النصوص الدينية الصحيحة والثابتة على قضايا المرور ، بل عند علماء الأصول قاعدة كبيرة جداً العبرة بعموم القصد لا بخصوص السبب ، وبينت في آخر الحلقة السابقة أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((مَن عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

وإن الإنسان المسلم السوي المؤمن يتمتع بصفتي العدل والضبط ، فالعدالة شيء ، والضبط شيء آخر، الضبط صفة عقلية ، والعدالة صفة نفسية ، وأن المروءة إما أن تسقط إذا ظلم الإنسان البشر أو كذبهم أو أخلف وعده معهم وإما أن تجرح ، مما يجرح العدالة كما قلت : أكل لقمة من حرام ، تطفيف بتمرة ، من مشى حافياً في الطريق ، من بال في الطريق ، التنزه في الطرقات لملء العين بالحسناوات ، صحبة الأراذل ، من علا صياحه في البيت ، من قاد برزوناً أخاف به الناس ، وهنا محط الشاهد ، ومن أطلق لفرسه العنان السرعة الزائدة تجرح عدالته وتقلل أهلية المواطن للتمتع بحقوقه المدنية .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم نشرح للأخوة الكرام من أطلق لفرسه العنان .

من أطلق لسيارته العنان فقد جرحت عدالته وفقد جزءاً من مكانته المدنية :

الدكتور راتب :

يقابلها الآن السرعة ، كلمة من أطلق لفرسه العنان هذا مصطلح فقهي قديم كإسقاط على واقعنا يقابلها السرعة .

الأستاذ علاء :

ومن أطلق لفرسه العنان ، لسيارته العنان ، وداس على وقودها أغلق العداد فقد جرحت عدالته .

الدكتور راتب :

وفقد جزءاً من مكانته المدنية وقد لا تقبل شهادته ، إذاً هذا يجرح العدالة ، لكن في حقيقة دقيقة نحن في بلدنا الطيب سوريا أطول مسافة بين مكانين إن أردت أن تقطعها بالسيارة وأردت أن توفر كثيراً من الوقت عن طريق السرعة الزائدة لا توفر إلا ثلاثين دقيقة.

الأستاذ علاء :

من شمال سوريا إلى .

الدكتور راتب :

أطول مسافة في دمشق إن أردت أن توفر الوقت عن طريق السرعة الزائدة لا توفر إلا خمس دقائق ، في الثلاثين دقيقة والخمس دقائق يموت ثلاثة آلاف وستمئة إنسان كل عام ، وخمسة وثلاثين ألف جريح كل عام ، من أجل توفير نصف ساعة وخمس دقائق ، لذلك يا بابا لا تسرع نحن في انتظارك ، في شخص علق على الكلام تعليقاً قال : يا بابا لا تسرع ماما بانتظارك .

الأستاذ علاء :

سيدي أنا أذكر أن أحد المشاهير وأعتقد أن تشرشل قال لسائقه لا تسرع لأنني في عجلة من أمري ، يريد أن يصل .

مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً :

الدكتور راتب :

أنا أقول أسرع ببطء ، الآن إلى القرآن الكريم :

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا (32))

(سورة المائدة)

قد يكون هذا الإنسان عالم كبير ، قد يكون مصلح اجتماعي ، قد يكون علم من أعلام الأمة ، قد يكون يعيش في أمة ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، الآية :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا)

من أزهق النفس حتى لو كان خطأً لا بد من أن يصوم ستين يوماً متتابعاً غير الدية :

تتمة الآية :

(وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(92))

(سورة النساء)

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا(93))

(سورة النساء)

ما كان يعني مستحيل وألف ألف مستحيل .

هذه آيات متعلقة بإزهاق النفس حتى لو كان خطأً ، لا بد أن يصوم ستين يوماً متتابعاً ولو كان خطأً غير الدية ، الدية حق خاص مُسَلّم إلى الأهل ، أما هنا حق عام ، أنت هنا أيها السائق أفقدت المجتمع إنساناً له دور أقل ما في دوره أنه يرعى أهله وأولاده ، أفقدتهم معيلهم .

الدية حق خاص مُسَلّم إلى الأهل لفقد عزيز عليهم :

لذلك القضية خطيرة جداً ، أنا أتكلم بالقرآن الآن ، أن تقتل نفساً لا سمح الله فكأنما قتلت الناس جميعاً ، ألم يقل الله عز وجل :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (120))

(سورة النحل)

أحياناً المجتمعات بقممها ، زعمائها ، بقياديها ، بعلمائها ، برجال دينها ، بمفكريها ، بباحثيها ، أنا أعلم هناك أناس بأعلى مستوى يموتون بحادث سير ، مشكلة كبيرة هذه ، لذلك هذا هو القرآن الكريم .

لكن كطرفة في بيت شعر قاله أحد الصحابة قبل أن يقتل قال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

لو إنسان قرأ البيت خطأً لانتقل من الجنة إلى جهنم :

ولست أبالي حين أقتَل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

***

دقة اللغة حركة واحدة تنقل الإنسان من الجنة إلى النار .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم هذه القضية بيّنها القرآن الكريم وحتى لو كان خطأ الحق العام ، في ستين يوماً من الصيام .

الدكتور راتب :

وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، وستون يوماً صيام متتابع ، الأول حق خاص والثاني حق عام ، لو أن أهل المصاب سامحوا لا بد من أن يصوم ستين يوماً لأنه أفقد المجتمع عنصراً كان من الممكن أن يرعى أسرته .

من أطلق العنان لسيارته و دهس شخصاً ما انتقل من القتل الخطأ إلى القتل القصد :

الأستاذ علاء :

سيدي تسمح لي هنا أفصّل في بعض القضايا وأعمل لها مقاربة قليلاً ، هنالك القتل الخطأ وهنالك القتل العمد ، في منزلة بين المنزلتين يقولون قتل القصد ، هذا قتل القصد لم يخطط له أتى إلى المكان حصل شيء تطور هذا الشيء فكان نتيجة العراك ما كان مخطط له نتيجة العراك نتيجة الصياح فحصل القتل، الآن سيدي الكريم لدينا إنسان لا يحمل شهادة قيادة التي تخوله قيادة السيارة أو إنسان يحمل شهادة وفي طريق آهلة موضوع تمهل الطريق مأهول السرعة ليست مفتوحة ثم قرأ وخالف وأطلق العنان لسيارته فعبر طفل فقتل هذا الطفل ألا نعتبر هذا انتقل من الخطأ إلى القصد .

الدكتور راتب :

والله شيء معقول جداً ، لأنه تطور ، تقصيره وعدم اهتمامه وعدم تطبيقه للتعليمات كأنه تطور الحادث إلى قتل ، في أسباب موجبة لعل القتل الخطأ ما فيه أسباب موجبة أبداً ، أنا معك في هذا الرأي جزاك الله خيراً .

الأستاذ علاء :

في أسباب موجبة في سرعة زائدة ، ما انتبه إلى فراملها مهترئة .

الدكتور راتب :

أحد الأخوة العلماء .

الأستاذ علاء :

عجلاتها ماسحة سيدي لا تقف ، لا تستجيب عند الحاجة .

المؤمن ذوقه مرتفع جداً :

الدكتور راتب :

أحد الأخوة العلماء ، له ابن طبيب ودرس بورد عربي ودخل كلية الشريعة وحفظ كتاب الله ، وأدى الخدمة الإلزامية وخطب فتاة وعرسه بعد أيام مات بحادث ، إنسان بكل هذا العلم ، شيء مؤلم جداً ، أنا أقول أنه ما في حلقة من هذه السلسلة من الحلقات ألصق بعنوانها من هذه الحلقة ، الآن أريد أن أعالج بعض أخطاء الأخوة السائقين والمواطنين ، مثلاً إنسان عنده مركبة وزوجته في بيت عمه وانتهى من سهرته الساعة الثانية ليلاً وبيت عمه في الطابق الرابع لا يتنازل يطلع أربع طوابق ينادي زوجته ببوق السيارة ، في طالب يدرس ، في إنسان مريض ، في إنسان في حالة صعبة جداً ، هذا شيء من عدم الذوق فلذلك المؤمن ذوقه مرتفع جداً ، فإطلاق أبواق السيارة ، الآن أية آية يمكن أن تسقط على هذا الوضع ؟

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4))

(سورة الحجرات)

قد يكون يرفع صوته لينادي رسول الله في سوء أدب مع هذا النبي صلى الله عليه وسلم الكريم ، وفي سوء أدب مع هذا البناء ، أنت حينما تنادي زوجتك ببوق مركبتك .

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(4)وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(5))

(سورة الحجرات)

إذا علم الثقيل أنه ثقيل فليس بثقيل .

الأستاذ علاء :

معنا هنا تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس بصخاب ولا فحاش .

القيادة فن وذوق وأخلاق :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، الآن بين السائقين تكاد هذه الظاهرة أن تصبح عادة ثابتة دون أن تعلل ، تقود مركبتك على الجانب الأيمن يأتي إنسان وأنت تقود مركبتك ومعك صديق تتكلم كلاماً لطيفاً بسرعة معتدلة وأقل من معتدلة في إنسان عنده موعد ، أراد أن يتجاوزك ما إن يتجاوزك حتى ترفع السرعة لا تسمح له إلى أن يفاجأ بسيارة أخرى ، قال تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا (11))

(سورة المجادلة)

تحمل على الطرقات :

(يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ (11))

(سورة المجادلة)

لما لا تفسح له ؟ اسأله لماذا ؟ يقول لك لا أدري ، أصبحت عادة مترسخة ، رواسب خاطئة مالها معنى إطلاقاً ، هذا الطريق لك وله وقد يكون معه مريض ، قد يكون عنده موعد ، قد يكون في امتحان وأنت مرتاح مع صديقك تمشي ببطء فلما أراد أن يتجاوزك تريد أن تكيد له ، لما تكيد له ماذا فعل معك ؟ .

العبرة بعموم القصد لا بخصوص السبب :

لذلك هذه الآية أنا أتمنى أن نفهم القرآن فهماً موسعاً كما قلت قبل قليل العبرة لا بخصوص السبب بعموم القصد :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا (11))

(سورة المجادلة)

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة)

فلذلك العلم شيء رائع جداً ، أقول كلمة قاسية جداً : الإنسان من دون علم دابة فلتانة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم لذلك قالوا القيادة فن وذوق وأخلاق ، بدل أن يزمر لزوجته يرسل لها رسالة بالموبايل ، يكون واعدها .

الدكتور راتب :

أو يصعد يستقبلوه ويعشوه عندهم .

علينا الاعتناء ببيوتنا و شوارعنا لا ببيوتنا فقط :

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم الآن الدراسات الحديثة أن أبواق السيارات تسبب الضجيج ، الضجيج له تأثير على الجملة العصبية وعلى السمع ، و ضعف السمع ، ويسبب اهتزازات شديدة وبالتالي كثير من حالات العصابية سببها الضجيج الذي نعيشه في شوارعنا وأحياناً في بيوتنا وفي مجالات عملنا .

الدكتور راتب :

أستاذ علاء أنا يؤلمني جداً أننا نحن انتماءاتنا إلى بيوتنا فقط ، في بيوت أنيقة جداً ، نظيفة جداً ، مرتبة جداً ، لا نعتمد الطرقات بدليل تركب سيارة فخمة جداً شرب علبة بيبسي يلقيها ، يأكل بذر ، محرمة ، هذا الطريق نظيف ، كنت في سنغافورة ، كوالالمبور ، شيء لا يصدق أكاد لا أجد خطأ واحداً في المطار كله أو بالطريق ، هم أمة لها عمر حضاري كعمرنا هذا إنسان يلقي بالفوارغ ، بقايا المحارم ، ببقايا الفواكه من النافذة ، هذا ليس حضاري ، هذا لا يلزمه سيارة يلزمه طنبر يركبه .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم أين هذا من إماطة الأذى عن الطريق ؟

إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان :

الدكتور راتب :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أحياناً سائق شاحنة بطريق صاعد يحب أن يقف يأتي بحجر كبير يضعه وراء العجلة ثم يقلع ويتابع الرحلة ، ترك الحجر هذا ممكن أن يسبب دماراً لأسرة ، بالليل في سرعة عالية ، أنا أتألم ألماً شديداً ، و إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيق ، هو يضع الأذى في الطريق ، أحياناً أنا كنت في أمريكا وجدت سلوكاً عجيباً لا يمكن أن يقف إلا في مكان وقوف السيارات ، نحن نقف في منتصف الطريق ينزل يشتري حاجة عطل الطريق كله ، وإذا نبهته ينزعج يا أخي هذا الطريق ليس ملكك هذا ملك الأمة ، ملك الناس جميعاً .

الأستاذ علاء :

في بعض السلوكيات لما نحضر خطبة الجمعة ونغلق الطريق بسياراتنا هذا لا يجوز .

الدكتور راتب :

والله أنا مرة على المنبر إنسان تخطى الرقاب وكأنه الصاروخ قلت في مشكلة كبيرة في البلد ، تصورت أحداثاً خطيرة جداً عدوان ، في سيارة داسيا حاجزة على سيارة ثانية ، أثناء الخطبة ، في عندنا حالة يضعها في نصف الطريق أو رتل ثاني ، هذه السيارة الأولى قد تكون لطبيب عنده إسعاف لا يستطيع أن يخرج ، هذه أيضاً ممن يضع الأذى ، والآن سوف أسمي السيارة أذى ، إذا كان في المنتصف واقفة أو رتل ثاني أو بأسباب أخرى هذا أذى في الطريق لذلك :

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ))

الحياء شعبة من الإيمان .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم في الحلقة الماضية قد بينت هذه القضية من يدعي ويقول إن القدر هكذا قرر عليّ والحادث قضاء وقدر ، ممكن أن نعود ونبين أن هذه القضية ما هو موقف الشرع منها بشكل حقيقي ؟

أخطاء السائقين والمواطنين وتقصير المسؤولين لا يبرر بقضاء وقدر بل بجزاء التقصير:

الدكتور راتب :

مرفوض رفضاً يقينياً وكلياً أن نتصور أن هذه الحوادث لا بد من وقوعها ، أنا أميل إلى أن أسميها جزاء التقصير ، لأنه يوجد أسباب و يوجد مسببات ، أنا حينما لا آخذ بالأسباب في نتائج مؤلمة جداً تترتب على الأسباب ، هو بشكل توحيدي كل شيء وقع أراده الله أي سمح به ، أنا محاسب ، نحن كدولة إذا إنسان قتل هل أستطيع أن أقول قضاء وقدر يوجد بعد منها إعدام ، الأمم كلها هكذا ، هذا عمل فيه خطأ فأخطاء السائقين والمواطنين وتقصير المسؤولين لا يبرر بقضاء وقدر ، هذا يعد جزاء التقصير لا بد من أن ننهض جميعاً لحل هذه المشكلة .

النبي صلى الله عليه وسلم له حديث يقول :

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ قَالُوا وَمَا حَقُّهُ قَالَ غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

وَكَفُّ الْأَذَى وضع السيارة في مكان محرج أذى ، المنتصف أذى ، ثاني رتل أذى ، أو يسبق الإشارة لا يرى الإشارة ، أولاً يمنع طريق المشاة ولا يرى الإشارة لماذا ؟ هذه أيضاً من الأذى ، أنت مأمور بكف الأذى لا بإيقاع الأذى ، لا بوضع الأذى .

الأستاذ علاء :

سيدي مخالفات استخدام الهاتف المحمول أثناء القيادة هو يتكلم وينفعل ويرتفع ضغطه أثناء القيادة .

تقصير المسافات بين المنازل والأعمال يخفف من حوادث السير :

الدكتور راتب :

قبل هذه أحياناً يصعد راكب على السيارة بشكل عجيب يغلق الباب ينكسر البلور ، شيء عجيب بكل ما أوتي من عزم ، هذه سيارة حديثة أنيقة ، رقيقة ، لطيفة ، وما تتحمل ، أو يفزع الناس ، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))

[مسلم عن عائشة]

الآن المحمول الحقيقة في دراسة حديثة أن هناك أربعمئة في المئة أخطار من يستخدم المحمول في مركبته ، لذلك أنا أقترح يا ترى شركات الاتصال في إمكانية تتبع طريقة أنه حينما أدخل على المركبة يلغي الإشارة ، أتمنى هذه والله ، شيء آخر نحن لو ضيقنا المسافات بين البيوت والعمال تعين إنسان بمكان بعيد ، والمكان البعيد يعين في مكان آخر ، الاثنين ركبوا مواصلات ، في تجربة في مصر ، يساوي تجمعات سكنية ، مدينة ستة أكتوبر مثلاً ، ممكن كلما قلت المسافات التي يقطعها الإنسان كلما تخف الحوادث ، أنا ليس لي مصلحة أن أضع الناس بأقصى مكان ويتبادلوا ركوب المركبات ، في رأي ثانٍ العالم كله في دوام من الثامنة للسادسة ذهاباً إياباً فقط ، نحن من الثامنة للثانية ، تذهب وترجع إلى المحلات التجارية ، الساعة السادسة انتهى الدوام تجلس مع أهلك مع أولادك مع أصدقائك أتمنى أن يكون هكذا الدوام ، أنا اقصد دوام التجار ، الدولة هكذا ، لكن التجار من الثامنة ، الزبون هو هو فلذلك أنا أرى أن تقصير المسافات بين المنازل والأعمال ، أو بين المنازل والمدارس ، أو جمع الدوام لفترة واحدة هذا يخفف حوادث السير .

علينا أن نقلل من استخدام المحمول في السيارات لأخطاره الجسيمة :

أما موضوع المحمول ، الأصل التشريعي يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((من بات على سطح ليس بمحجور فقد برئت منه الذمة))

وقع برئت منه الذمة يموت عاصياً .

((ومن رمى بليل فقد برئت منه الذمة ، ومن ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة))

[إسناد ضعيف جداً : الخليل بن زكريا متروك ملاحظة : وشطره الأول والأخير صحيح لغيره]

يقاس على ذلك من استخدم الهاتف أثناء القيادة ، والله لي صديق أعرفه ، والله اشترى سيارة والله ما مضى على شرائها إلا وقت قليل استخدم المحمول بطريق سفر تحطمت كلها لكن الله أنقذه من الموت ، أما في كسور بأولاده وزوجته ، هذه شيء ثابت ، أما المحمول نسب الحوادث ممن يستخدمون المحمول أربعمئة بالمئة .

الأستاذ علاء :

سيدي نود أن نستمر لكن الوقت أدركنا بقي معنا نصف دقيقة .

تطبيق تعليمات المرور جزء من الدين :

الدكتور راتب :

أعيد الحديث :

((من بات على سطح ليس بمحجور فقد برئت منه الذمة ومن رمى بليل فقد برئت منه الذمة، ومن ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة))

[إسناد ضعيف جداً : الخليل بن زكريا متروك ملاحظة : وشطره الأول والأخير صحيح لغيره]

وهناك توجيهات كثيرة هذا غيض من فيض .

الأستاذ علاء :

أخذ الأسباب من الدين والحيطة .

الدكتور راتب :

تطبيق تعليمات المرور جزء من الدين ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (59))

(سورة النساء)

أولي الأمر هم الذين مسؤولون عن السير .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (68-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ الإنسان هو الوقت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

من مقومات التكليف : الوقت :

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم كنا في الحلقات السابقة قد درجنا على تناول موضوعات هامة ومكينة في العقيدة وفي الشريعة ، هذه المسائل تتعلق بمقومات التكليف لابن آدم وكيف كلفه الله بالرسالة ، وكيف كلفه الله عز وجل بحمل الأمانة من خلال ضوابط ومن خلال بنود ، كنا قد مررنا على معظمها وبقي مقوم واحد ، كنا قد مررنا على الكون ثم العقل ثم الفطرة ثم الشهوة ثم الاختيار ثم الشرع وبقي الوقت ، في هذه الحلقة ربما نبتدئ سلسلة حلقات حتى ننهي هذا الموضوع المكين ولا أدري لماذا جاء في ترتيبه الأخير، وفي ذلك حكمة .

الوقت هو الذي يضبط إيقاع الحياة ، وهو الذي يضبط إيقاع العمل ، وكل عمل أدي ضمن مجال الوقت كان عملاً مثمراً ، وعندما يكون خارج هذا الإيقاع ربما ينظر إليه نظرة أخرى ، والوقت هو الشيء الوحيد الذي تعلق بالإيمان ، والذي يكون الإيمان معه مثمراً وعندما يكون خارجه يكون الإيمان غير مثمر ، وربنا عز وجل أقسم بالعصر كيف ننظر إلى هذا المقوم من مقومات التكليف وكيف نتناوله بالبحث من خلال حلقاتنا القادمة وهذه الحلقة ؟

من عرف سرّ وجوده و غاية وجوده أنفق وقته استثماراً لا استهلاكاً :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، ما من تعريف جامع للإنسان كتعريف الإمام الجليل الحسن البصري ما الإنسان ؟ بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه . هو وقت أو أثمن شيء يملكه هو الوقت ، أو رأسماله هو الوقت ، هو وقت ، إنسان له عند الله ثلاثة وستين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أسابيع

وأربعة أيام وخمس ساعات وست دقائق وثمان ثوان ، إذاً هو وقت فكلما مضت ثانية واحدة اقترب من نهاية الوقت ، هو كائن متحرك إلى هدف ثابت ، حينما يعي الإنسان أنه وقت يحسن إنفاق الوقت ، الوقت ينفق استهلاكاً كما يفعل معظم الناس ، وينفق استثماراً ، العقلاء والأذكياء والذين عرفوا الله والذين عرفوا سرّ وجودهم وغاية وجودهم ينفقون الوقت استثماراً ، يحسنون إدارة الوقت ، وإدارة الوقت مفهوم حضاري جاء به الإسلام من زمان قديم .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ :

الله عز وجل يقسم لهذا الإنسان المخلوق الأول الذي هو في حقيقته وقت يقسم له بمطلق الوقت ، لاحظ التناسب والتناغم بين مضمون القسم وبين المقسم له ، قال :

(وَالْعَصْرِ (1))

(سورة العصر)

جواب القسم :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

هذه الصورة أستاذ علاء يقول عنها الإمام الشافعي لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم .
بشكل أو بآخر لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه السورة لكفت ، بل إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما كانوا يتفرقون إلا على هذه السورة ، وأرجو الله عز وجل أن أمكن أن أقدم للأخوة المشاهدين دقائق معانيها .

الله عز وجل يقسم بمطلق الزمن بالعصر ، لهذا المخلوق الأول المكرم المكلف الذي هو في حقيقته زمن وتعريف الإمام الجليل الحسن البصري : هو بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .
للخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز قول رائع الليل والنهار يعملان فيك .
يعني الواحد منا له صورة وهو في الخامسة عشر الفرق كبير جداً وهذا الفرق من فعل الوقت ، لذلك العاقل يرد على فعل الزمان به بأن يفعل في الزمان الذي سينقضي عملاً صالحاً " الليل والنهار يعملان فيك ".

إدارة الوقت أخطر شيء في حياة الإنسان :

أستاذ علاء نحن بين خمس ساعات مع وقت مضى وقت مفقود لا جدوى من الحديث فيه ، ووقت مشهود الساعة التي أنا فيها ، ووقت موعود ساعة الموت ، ووقت مورود يوم القيامة ، ووقت ممدود ،

أخطر هذه الساعات وأخطر هذه الأوقات الوقت المشهود لأن الذي لم يأتِ غيب والذي مضى لا جدوى منه ، الوقت إذا مضى لا يرجع ، الوقت إذا مضى لا يرجع ، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .
أستاذ علاء أنا أتصور أن الوقت من أخطر الموضوعات التي تمس الإنسان لأن الإنسان وقت ، بضعة أيام كلما انقضى وقت انقضى بضع منه ، قال تعالى :

(وَالْعَصْرِ (1)إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

الله عز وجل يجعل جواب القسم أن الإنسان خاسر لا محالة ولو لم يعص الله خاسر لأن مضي الزمن يستهلكه .

الأستاذ علاء :

إذا كان هو أيام فانقضى منها بضع ، انقضى منه بضع .

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

الدكتور راتب :

كائن مستهلك ، فلذلك الإنسان له خيار قبول أو رفض مع مليار موضوع ، تعرض عليه تجارة فيرفضها لضآلة دخلها ، تعرض عليه فتاة لا تعجبه أخلاقها فيرفضها ، تعرض عليه سفرة يرى أن المشقة كبيرة والأجر قليل ، فلك أن ترفض مليارات الموضوعات رفضاً قطعياً لكن خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت ، فالإنسان إن لم يؤمن في الوقت المناسب سوف يؤمن بعد فوات الأوان والدليل أن أكفر كفار الأرض الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص)

وبالمناسبة فرعون أول من استخدم ورقة الفتن الطائفية :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا)

(سورة القصص : 4)

وكأن الطغاة في الأرض يستخدمون هذه الورقة الرابحة ، والناس بوعيهم وفهمهم وإدراكهم يسقطون هذه الورقة من أيدي أعدائهم .

الإنسان زمن :

إذاً أقسم الله بمطلق الزمن ، لأن الإنسان في حقيقته زمن ، بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، ولأنه ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا بن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

فالبطولة أن أعرف قيمة الوقت ، والبطولة أن أعلم علم اليقين أنني وقت ، والبطولة أن أحسن إنفاق الوقت ، والبطولة أن أضحك آخراً لا أن أضحك أولاً ، لأنّ مَن ضحك أولاً ضحك قليلاً وبكى كثيراً ، ومن ضحك آخراً ضحك كثيراً وبكى قليلاً .

الأستاذ علاء :

سيدي لذلك الله عز وجل أتى بالقسم ، وقد عرف العصر ، أتى بأل التعريف لينبئنا بأنه يقصد الوقت كله على معرف هو الإنسان ، إن الإنسان .

الدكتور راتب :

لأنه وقت ، هناك تناغم وانسجام بين موضوع القسم وبين المقسم له .

الأستاذ علاء :

ثم الآية الكريمة تأتي باستثناء ، نقف عند الاستثناء لنتحدث من الذي يتفلت من الخسران ؟

على كل إنسان أن يعطي كل ذي حقٍّ حقه :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من منامه له دعاء رائع ودقيق :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

يعني سمح لي أن أعيش يوماً جديداً ، وفي مقدمة كلامك جزاك الله خيراً قلت الوقت يقيم العمل ، فقد يأتي العمل خارج الوقت ، من بعض الآثار الرائعة : إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار . ولله عمل في النهار لا يقبله في الليل ، وأنا أكاد أقول هناك عبادة الوقت ، يعني وقت الفجر وقت عبادة ، وقت صلاة ، وقت ذكر ، لا وقت إجراء حسابات وقت النهار وقت عمل ، رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يتعبد الله في وقت العمل ويقرأ القرآن ، فقال إنما أنزل هذا القرآن ليعمل به أفاتخذت قراءته عملاً ؟ إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، ولله عمل في النهار لا يقبله في الليل ، وهذا عامل سيدنا عمر على أذربيجان وصل المدينة في الليل فكّر أن يطرق باب أمير المؤمنين ، فتوجه إلى المسجد فسمع

رجلاً يبكي ويصلي ويقول ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ، سأله من أنت يرحمك الله بعد أن انتهى من صلاته ؟ قال أنا عمر ، قال يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ، أستاذ علاء هذه الرواية أحجمت عن ذكرها عشر سنوات لأنه قال : أنا إن نمت ليلي أضعت نفسي أمام ربي وإن نمت نهاري أضعت رعيتي .

أحجمت عن ذكرها لأن القصة غير واقعية معقول إنسان ما ينام الليل إلى أن عثرت على رواية لها إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي وإن نمت نهاري أضعت نفسي أمام رعيتي .

إذاً إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، ولله عمل في النهار لا يقبله في الليل وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرساناً في النهار رهباناً في الليل .

الأستاذ علاء :

سيدي تفضلت أن هنالك عبادة الوقت أي العبادة المرهونة بوقت ، من هنا نستطيع أن نفهم الآية الكريمة :

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(103))

(سورة النساء)

عبادة الوقت :

الدكتور راتب :

زمن تؤدى به هذه العبادة ومعظم العبادات تؤدى في زمن مخصوص ، الصيام ، الحج ، الصلاة ، قال تعالى :

(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا(78))

(سورة الإسراء)

أستاذ علاء الآية :

(وَالْعَصْرِ (1)إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

إله الكون ، خالق السماوات والأرض يقسم ، من هذا الإنسان الذي يقسم له ؟ يقسم له أنه خاسر لأن الحياة منقطعة بالموت .

الإنسان خاسر لا محالة لأن مضي الزمن يستهلكه :

أستاذ علاء الموت ينهي كل شيء ينهي قوة القوي ، وغنى الغني ، وذكاء الذكي ، وفقر الفقير ، ينهي

وسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، ينهي صحة الصحيح ، ومرض المريض ، ينهي كل شيء ، فالحياة الدنيا منقطعة بالموت ، لذلك هي أحقر من أن تكون مكافأة لإنسان وأحقر من أن تكون عقاباً لإنسان ، الذي يأتيه ملك الموت ويكتشف بعد فوات الأوان أنه ضيّع الآخرة قال تعالى عنه :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 15)

الإنسان خاسر لا محالة لأن مضي الزمن يستهلكه .

العاقل من يعدّ عدّته للآخرة قبل مغادرة الدنيا :

لكنه كما تفضلت رحمة الله كلها في كلمة إلا ، أنا بإمكاني أن أتلافى الخسارة ، والحقيقة تلافي الخسارة في طريقة لا بد منها أن ننفق الوقت إنفاقاً استثمارياً ، بينما معظم الناس ينفقون الوقت إنفاقاً استهلاكياً ، يأكل ويشرب ويستمتع بالحياة ثم يفاجأ أن ألماً في صدره يذهب إلى المستشفى هي القاضية ما أعدّ لما بعد الموت عدّته ، إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً ، و أحزمكم أشدكم استعداداً له ، ألا و إن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور ، و الإنابة إلى دار الخلود ، و التزود لسكنى القبور ، و التأهب ليوم النشور .

والله أستاذ علاء شيعت مرة جنازة فلما وضع من في النعش في القبر والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إنساناً أذكى ولا أعقل ممن يعدّ لهذه الساعة التي لا بد منها ، هذه البطولة ، أنا حينما أعيش الماضي فهذا نوع من الغباء وحينما أعيش الحاضر غباء أقل ، أما الذكاء والعقل أن أعيش المستقبل ، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا ، من كل شيء فيما يبدو إلى لا شيء إلى قبر ، من بيت فخم قد يزيد ثمنه عن مئة مليون إلى قبر ، هذه قضية دقيقة جداً ، قضية مصيرية .

الخاسر من أنفق وقته إنفاقاً استهلاكياً :

لذلك أنا كيف أنفق الوقت إنفاقاً استثمارياً ؟ وكيف أنفقه إنفاقاً استهلاكياً ؟ أنا خاسر لا محالة إذا أنفقت الوقت إنفاقاً استهلاكياً يعني آكل ما أشتهي وألتقي مع من أشتهي وأتكلم ما أشتهي بلا قيد بلا مبدأ بلا قيمة بلا توخي الحذر أفعل ، أعيش هكذا بلا ضوابط بلا مبادئ بلا قيم ثم أفاجأ بانتهاء الحياة وعندئذ يقول الإنسان يوم القيامة :

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

العاقل من عرف سر وجوده و غاية وجوده في الدنيا :

إذاً الوقت ينفق استهلاكاً وينفق استثماراً ، ينفق استثماراً إذا بحثت عن الحقيقة لماذا أنا موجود ؟ الإنسان ركب الله فيه قوة إدراكية ، ركب فيه قوة إدراكية ، الجماد شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، أما النبات فشيء أيضاً يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، لكنه ينمو ، بينما الحيوان شيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو كالنبات ويتحرك ، أما الإنسان فشيء يشغل حيزاً في الفراغ ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ، ويتحرك ، ويفكر ، أودع الله فيه قوة إدراكية ، ما لم تبحث عن الحقيقة ، ما لم تبحث عن سر وجودك ، ما لم تبحث عن غاية وجودك ، ما لم تبحث عن جدوى وجودك ، لماذا أنا في الدنيا ؟ ما سر وجودي في الدنيا ؟ هل هناك مهمة مكلف بها ؟ هل هناك رسالة ينبغي أن أحملها ؟ لماذا أنا في الدنيا ؟ هذا سؤال مصيري .

الله تعالى أودع في الإنسان قوة إدراكية لطلب العلم و الفوز بالجنة :

لذلك :

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

الأستاذ علاء :

هل نفهم هذه الآية حينما قال تعالى في الحياة الدنيا ، يعني في وقت وزمن الحياة الدنيا .

الدكتور راتب :

نعم .

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104))

(سورة الكهف)

طالب تماماً هو في المدرسة يدرس لينال دكتوراه ، ليعيش حياة ناعمة ، له مكانة اجتماعية ، له بيت ، له زوجة ، له أولاد ، فأمضى سنين الدراسة باللعب وبأعمال لا تقدم ولا تؤخر فجاءه الندم الشديد إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ، في أول آية في أول سورة نزلت :

(اقرَأ (1))

(سورة العلق)

لأن الله أودع في الإنسان قوة إدراكية لا بد من أن يطلب العلم والعلم مرتبط بالإيمان :

(اقرَأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1))

(سورة العلق)

ما كل ذكي بعاقل :

أستاذ علاء في لقطة رائعة جداً سيدنا خالد تأخر إسلامه كثيراً ففي تعليق للنبي مذهل ، قال له يا خالد عجبت لك من تأخرك أرى لك فكراً . لذلك قالوا : " أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً " .

ما كل ذكي بعاقل ، قد يحمل إنسان أعلى شهادة في الطب بورد وقد يحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية ، وقد يخترع سلاحاً جرثومياً أو سلاحاً فسفورياً أو سلاحاً كيماوياً لأنه ما عرف سر وجوده وغاية وجوده هو ليس عاقلاً ، ذكي وليس بعاقل ، العقل شمولي والذكاء جزئي ، هو ذكي في اختصاصه فقط أما في شؤون حياته الكبرى في سر وجوده في غاية وجوده الخط البياني تحت الصفر ، لذلك لما النبي صلى الله عليه وسلم مرّ في الطريق مع أصحابه برجل مجنون فسأل سؤال العارف : من هذا ؟ قالوا : هذا مجنون ، قال : لا هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله .

الأستاذ علاء :

سيدي من هنا نأتي إلى قصة استغلال الوقت وملئه بالعمل الصالح هنا السبق على العمل الصالح قال تعالى :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10))

(سورة الواقعة)

من عرف ربه أحسن إدارة وقته :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء هل تصدق أن الإله العظيم الذي خلق الأكوان ، وخلق الإنسان ، يقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

إله عظيم يقسم بعمر إنسان لأنه ما ضيّع ثانية من حياته ، أنا أقول إدارة الوقت أعلى درجة من الذكاء، أعلى درجة من العقل لأنني وقت ، الناجحون في الحياة يحسنون إدارة وقتهم لكنهم إذا ما عرفوا ربهم جاء الموت وأنهى كل شيء ، أما المؤمن إذا عرف ربه الآن في ضوء معرفته لربه يحسن إدارة وقته .

الأستاذ علاء :

ويكون وقته حاضنة لعمله ، وبالتالي يكون العمل هو الجسر الذي يعبر من خلاله للدار الآخرة وإلى الحياة الرغدة ، الحياة السعيدة وخاصة إذا كان فيها قرب من الله عز وجل.

النبي الكريم هو المخلوق الأول الذي أحسن إدارة وقته :

الدكتور راتب :

لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المخلوق الأول الذي أحسن إدارة وقته لذلك :

((اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك))

[أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عباس أحمد ، عن عمرو بن ميمون]

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ (133))

(سورة آل عمران)

وقت :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10))

(سورة الواقعة)

وقت .

طلب العلم أول ركن من أركان النجاة :

لذلك أول شيء من أركان النجاة طلب العلم ، العلم الذي يوصلك إلى الإيمان ، لذلك :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1))

(سورة العلق)

هذه قراءة البحث والإيمان :

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3))

(سورة العلق)

قراءة الشكر والعرفان :

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

(سورة العلق)

قراءة الوحي والإذعان ، لكن نعوذ بالله من القراءة الرابعة قراءة العدوان والطغيان .

من استخدم عقله في إبادة البشرية أصبح وبالاً عليه و على الناس :

قد يستخدم العلم لإبادة البشر ، قد يستخدم العلم لإيقاع أعلى درجة من الأذى للبشر القنبلة العنقودية ، والقنبلة البيولوجية ، والفسفورية ، يا لطيف هذه العقول الجبارة بدل أن تكون في خدمة البشرية أصبحت وبالاً على البشرية .

الأستاذ علاء :

الهيدروجينية قال إمكانية إبادتها يفوق النووية بعشرات المرات ، لذلك سيدي العلماء الذين ترعرعوا في حاضنة ورحم الحضارة الإسلامية ما أتى واحد منهم بعلم أو اختراع كان في غير مصلحة الإنسان، وفي غير مصلحة الكون ، لأنه تربى على الفهم الشمولي والعلاقة بين الخالق والإنسان والكون .

الدكتور راتب :

جائزة نوبل في الحقيقة نوبل اخترع البارود وعرف كم أدى للبشرية من آلام ، فرهن كل ثروته من أجل عمل إنساني ، عرف أنه ارتكب خطأ كبيراً ، هذا الذي يجلس وراء المخبر ليفعل شيئاً يبيد البشر أين هو من الله عز وجل ؟ أنا أسأل الله عز وجل أن يستخدمنا في الخير .

الإيمان بالله هو أولى درجات النجاة :

أنا أكاد أقول : ما بعد إلا يمكن أن يُعنون بعنوان واحد هو أركان النجاة من الخسران لأن الخسران محقق ما لم نؤمن ونعمل وفق ما نؤمن وندعو إلى ما نؤمن ونصبر على الإيمان .

أولاً الإيمان هو أولى درجات النجاة ، إن الإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني الصغير الضعيف الفاني المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي ، الذي صدر عنه هذا الوجود وعندئذ ينطلق هذا الإنسان من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير ، من حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، من حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله ، هذا الاتصال فضلاً على أنه يمنح الإنسان القوة والامتداد والانطلاق إنه يمنحه السعادة الحقيقة التي يلهث وراءها الإنسان ، وهي سعادة رفيعة وفرح نفيس وأنس بالحياة كأنس الحبيب بحبيبه ، وهو كسب لا يعدله كسب وفقدانه

خسران لا يعدله خسران ، وعبادة إله واحد ترفع الإنسان عن العبودية لسواه ، فلا يذل لأحد ولا يحنو رأسه لغير الله فليس هناك إلا قوة واحدة ومعبوداً واحداً وعندئذ تنتفي من حياة الإنسان المصلحة والهوى ليحل محلها الشريعة والعدل .

الإنسان حينما يبحث عن الحقيقة اتصل بخالق الأكوان ، اتصل بالمطلق ، اتصل بالذي يهب الحياة والسعادة والأمن والرضا للإنسان .

الأستاذ علاء :

سيدي الإمام الشافعي يقول : عاشرت السادة الصوفية عشرين عاماً فاستفدت منهم خصلتين اثنتين الأولى الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر .

الوقت وعاء العمل :

الدكتور راتب :

هذا فهم عميق لأن الخير يحتاج إلى وقت ، الوقت وعاء العمل ، الإنسان بلا وقت لا يعمل ، فالعمل لا بد له من وقت ، فالوقت وعاء العمل ، والنفس دائماً تريد أن تفعل شيئاً يريحها ودائماً قال تعالى :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (69-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ ترميم الخسران

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاسر من أنفق وقته إنفاقاً استهلاكياً لا إنفاقاً استثمارياً :

الأستاذ علاء :

سيدي بدأنا بالمقوم الأخير لـ (مقومات التكليف للإنسان)، التي بسطها الله أمام هذا الإنسان الذي أوجد على رأس وعلى قمة المخلوقات ، المخلوق الأول لأنه أعطاه العقل والتفكير والإدراك وأعطاه من المؤونة في هذا ما يختار ما يقدم أو يحجم ، تحدثنا عن الكون والعقل والفطرة والشهوة والاختيار ثم الشرع وتوقفنا في الحلقة الماضية عند الوقت وتبينا بأن الوقت هو الإنسان ، أو رأسمال الإنسان ، إذا ذهب هذا الوقت ذهب الإنسان ، ذهب دون أن يستغله في العمل الصالح فقد خسر وقد ضاع ، وأرشدنا إلى ذلك أن الله عز وجل أقسم بالعصر ، وهنالك ربط بين القسم لعظمه لأن الله قد أقسم به والمقسوم له وهو الإنسان :

(والْعَصْرِ (1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر)

من لم يشغل نفسه بالخير شغلته بالشر :

ثم الله عز وجل جاء بأداة الاستثناء ليدلنا على كيفية تلافي الخسران ، وتبينا في الحلقة الماضية نهيناها عند قول الإمام الشافعي : ونفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر . قبلها يقول : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

الدكتور راتب :

لأنه لا يعود .

الأستاذ علاء :

وتحدثت على أن تخلفنا وعلى أن الخسران عندما نستهلك الوقت استهلاكاً ولا نستثمره استثماراً ، كالري بالراحة وعندما نسفح المياه هكذا تجرف التربة ولكي تهدر دونما طائل وكمن يسقي بالتنقيط ، الذي يستفيد من كل قطرة .

الدكتور راتب :

رائع جداً مثلكم .

الأستاذ علاء :

كيف يرمم الإنسان هذا الخسران ؟

أثمن شيء يملكه الإنسان هو الزمن :

الدكتور راتب :

ذكرت إن لله عملاً بالليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله في الليل ، وذكرت أن هذا الخليفة العظيم ، حينما جاء سفيرعامله على أذربيجان وصل المدينة في الليل ، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين فتوجه إلى المسجد ، فسمع رجلاً يبكي ويصلي ويقول ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ سأله من أنت يرحمك الله بعد أن انتهى من صلاته ؟ قال أنا عمر ، قال يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ؟ قال : أنا إن نمت ليلي أضعت نفسي أمام ربي وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

أكاد أقول هناك مصطلح اسمه عبادة الوقت ، ثم بينا في لقاء سابق أن هذه الخسارة محققة لأن مضي الزمن يستهلك الإنسان ، هو بضعة أيام ، هو زمن ، أو رأسماله هو الزمن ، أو أثمن شيء يملكه هو الزمن .

أركان النجاة من عذاب الله عز وجل :

لكن رحمة الله في (إلا)، إلا ما جاء بعدها عنوناه بأركان النجاة ، فلا بد من أن تبحث عن الحقيقة أولاً، ولا بد من أن تعمل وفق الحقيقة ثانياً ، ولا بد من أن تدعو إليها ثالثاً ، ولا بد من أن تصبر عن البحث عنها والعمل وفقها والدعوة إليها ، هذه أركان الإنسان ، أركان نجاته ، أركان سعادته ، أركان سلامته، أركان فوزه ، أركان تفوقه ، أركان فلاحه ، أركان الجنة ، إذاً نبحث عن الحقيقة ، لذلك ورد :

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً ولا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

(ورد في الأثر)

ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، والمغبون من تساوى يوماه ، كأنه شريط متحرك ، فالإنسان إن لم يكن على هذا الشريط وقف كل من على الشريط يسبقه ، تصور الزمن كحركة شريط في بعض

المطارات الدولية غير الدرج المتحرك في شريط متحرك أفقي ، الإنسان يقف على هذا الشريط فهو يمشي أما الواقف خارج الشريط يسبقه كل من على الشريط ، لذلك المغبون من تساوى يوماه ومن لم يكن في زيادة ، من لم يكن على الشريط فهو في خسارة محققة .

على كل إنسان أن يعمل وفق إيمانه :

إذاً الوقت شيء دقيق جداً ، النقطة الأولى أن على الإنسان أن يؤمن بسر وجوده وغاية وجوده ، يؤمن بربه ، الخالق ، المربي ، المسير ، الموجود ، الواحد الكامل ، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى ، ويؤمن بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه ودليل أنه كتاب الله إعجازه ، وتحقق الوعد والوعيد، وأن يؤمن من خلال هذا الكتاب بهذا الإنسان الذي جاء به ، وقد بين ما في هذا الكتاب بأحاديث كثيرة ، فالإيمان بالله خالقاً ومربياً ومسيراً والإيمان بكتابه وبرسوله يمكن لعقل الإنسان أن يصل إلى حقيقة قطعية في هذا ، فالإنسان في شأن دنياه يبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس ويفكر ويدقق و يتأمل ويسأل ويستقصي ألا ينبغي لحياة أبدية سرمدية أن نعد لها ؟

فلذلك البند الثاني من بنود النجاة أن أعمل وفق إيماني .

الأستاذ علاء :

سيدي هل أستطيع وهو من عمل القلب والفؤاد والعقل أن أتوقف عند هذا وألا يكون له مرتسم عملي على الأرض ؟

من آمن بالله و لم يتحرك وفق منهجه ما نفعه إيمانه شيئاً :

الدكتور راتب :

ماله قيمة أبداً ، سيدي للتقريب إنسان معه مرض جلدي ، علاجه الوحيد أن يتعرض لضوء الشمس ، قبع في غرفة قميئة رطبة ، وقال يا لها من شمس ساطعة ، إن هذه الشمس شافية ، ما أعظمها من شمس ، مهما تحدثت عن عظمة الشمس عشرات المرات وعشرات الأيام عن عظمة الشمس ولم تتعرض لأشعتها تبقى مريضاً ، لذلك الذي آمن ولم يتحرك ما قدّم شيئاً ، إنه أقرّ بحقيقة ثابتة بديهية ، ماذا ينفعه إيمانه ؟ ألم يقل إبليس :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

ألم يقل :

(فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

وقال :

(خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ)

(سورة الأعراف الآية : 12)

هذا إيمان إبليسي لا يقدم ولا يؤخر .

على كل مؤمن أن يقدم عملاً لأمته يتقرب به إلى الله عز وجل :

لذلك :

وعالم بعلمه لم يعملنْ معذَّب من قبْل عباد الوثن

***

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3))

[سورة الصف]

الأستاذ علاء :

سيدي لذلك :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، المؤمن كائن متحرك ، كائن سكوني لا يوجد ، سلبي لا يوجد ، متقوقع لا يوجد ، منسحب ، ما له علاقة لا يوجد ، فخار يكسر بعضه لا يوجد ، المؤمن إيجابي ، المؤمن فاعل ليس منفعلاً ، المؤمن له دور يحمل هم الأمة ، يقدم شيئاً لأمته يبتغي بها وجه الله ، يتقرب إلى الله بخدمة الناس :

((الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[رواه أبو يعلى ، عن ابن مسعود]

شمولية الدين لجميع نواحي الحياة :

ما إن تومض في نفس المؤمن حقيقة الإيمان حتى تعبر عن نفسها بحركة نحو خدمة الخلق ، أنا لا أصدق إيمان سلبي ، إعجاب سلبي ، دين عظيم ، ما أعظم هذا الدين هو وحي السماء ، هو بشارة الأنبياء ، هذا كلام لا يقدم ولا يؤخر ، ماذا قدمت لله ؟ ماذا قدمت لله يوم القيامة ؟ هل نصحت من حولك ؟ هل استقمت في بيعك وشرائك ؟ هل أخلصت لمرضاك أم أوهمتهم وابتززت أموالهم ؟ هل أخلصت لموكلك أم أوهمته أن الدعوة سوف تربح ؟ هل سحبت الحديد بعد أن جاء الكشف على البناء ثم انهار البناء ؟ هل حككت صلاحية الدواء من أجل أن تبيعه وقد انتهت صلاحيته ؟ الدين بالعمل ، بالمسجد تتلقى التعليمات وتقبض الثمن ، الدين بمركزك ، بدكانك ، بمكتبك ، بعيادتك ، بمكتبك الهندسي، بالسوبر ماركة الدين ، في بضاعة منتهية المفعول تحك الصلاحية أحياناً ، والله ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام ، والله لا أتألّ على الله لكن هذا الذي يغش الناس يعطيهم أسوأ البضاعة بأغلى سعر يوهمهم بأوهام كثيرة والله ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته ، ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام .

((إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ : هِيَ فِي النَّارِ.))

[رواه أحمد والبزار]

((دخلت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عن ابن عمر]

أستاذ علاء تعليق قولك بما فوق الهرة ؟

الأستاذ علاء :

بمن يقتل شعباً بأكمله .

الحساب العسير يوم القيامة مصير كل ظالم :

الدكتور راتب :

قتل امرئ في بلدة جريمة لا تغتفر   وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

لذلك هؤلاء الذين يكيلون بألف مكيال ومكيال :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

لذلك قضية العدل ، الله عز وجل عدله مطلق ، وأي إنسان يظلم الآخرين سوف يحاسب حساباً عسيراً.

البند الثاني من أركان النجاة أن أعمل وفق إيماني ، أن أترجم إيماني إلى عمل ، أن ينقلب الإيمان إلى سلوك ، أن يكون هناك التزام ، لأن العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بحبحة قلبية ، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سادة أبدية .

الأستاذ علاء :

سيدي الله عز وجل جاء بالصالحات لتقييد العمل ؟

بطولة الإنسان أن تأتي مقاييسه في العمل الصالح وفق مقاييس الله :

الدكتور راتب :

طبعاً ، متى يكون العمل صالحاً ؟ قال بعض العلماء الكبار ابن المبارك : إذا كان خالصاً وصواباً . خالصاً ما ابتغي به وجه الله وصواباً ما وافق السنة ، أحياناً يتوهم الإنسان أنه إذا عمل عملاً فيه معصية كبيرة لكن ريع هذا العمل للعمل الخيري ، مرفوض ، الأهداف النبيلة لها وسائل نبيلة ، هذا الإسلام ، لذلك :

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية : 19)

قد يكون صالحاً عند الناس وليس عند الله ، قد يكون صالحاً في توهمك وهو عند الله ليس بصالح ، فالبطولة أن تأتي مقاييسك في العمل الصالح وفق مقاييس الله .

الأستاذ علاء :

من هنا :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

لأن كل خير هو عمل صالح .

العمل الصالح ثمن الجنة :

الدكتور راتب :

علة وجودنا هو عمل صالح الدليل ، الإنسان حينما يأتيه ملك الموت على أي شيء يندم ؟

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون الآية : 100)

لذلك علة وجودنا العمل الصالح ، العمل الصالح ثمن الجنة .

الأستاذ علاء :

رَبِّ ارْجِعُونِ يعني أعيدوني إلى الوقت إلى حيز الوقت الذي أضعته .

الدكتور راتب :

أستاذ علاء العمل الصالح ليس فلتة عارضة ولا نزوة طارئة ولا حادثة منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ويتحرك إلى أهداف ويتعاون عليه المؤمنون ، هو ليس انكماشاً ولا سلبية ولا انزواءً ولا تقوقعاً، بل هو حركة خيرة نظيفة ، وعمل إيجابي هادف ، وعمارة متوازنة في الأرض ، وبناء شامخ للأجيال يتجه إلي الله ويليق بمنهج الله ، هذا البند الثاني من أبواب النجاة ، الإيمان والعمل الصالح .

الأستاذ علاء :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

هنا بعد العمل الصالح الذي يرضاه ربنا والمرتبط بفهمنا الإيماني .

حجم الإنسان عند ربه مرتبط بحجم عمله الصالح :

الدكتور راتب :

حجمنا عند الله بحجم عملنا الصالح ، الدليل :

(و لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)

(سورة الأنعام الآية : 132)

من أنت ؟ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح لذلك :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (120))

(سورة النحل)

له أعمال جليلة انتفعت بها أمة وكان في قلب أمة بأكملها .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (120))

(سورة النحل)

فلذلك البطولة أن تأتي مقاييسي وفق مقاييس القرآن .

تأكيد القرآن الكريم على قيمتي العلم و العمل للترجيح بين الناس :

القرآن اعتمد قيمتين للترجيح بين البشر اعتمد قيمة العلم واعتمد قيمة العمل ، وكل القيم التي نعتمدها نحن القرآن أهملها ، نحن نعظم الأغنياء ، الأقوياء ، من لهم شكل وسيم جداً ، نعظم الأذكياء لكن القرآن الكريم أكد على قيمتين قال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

اعتمد قيمة العلم واعتمد قيمة العمل ، وأية أمة لا تعتمد هاتين القيمتين حصراً ليست على الطريق الصحيح ، حجم الإنسان بعلمه وعمله .

الأستاذ علاء :

سيدي الآن قبل أن أنتقل وتواصوا بالحق ، من هنا قسّم المفسرون أو العلماء حتى الصحابة الكرام في الدرجات لمن سبق ، ثم فيما بعد قسموهم إلى درجات في المرتبة ؟

من سارع إلى الإيمان في وقت الشدة له ميزان آخر :

الدكتور راتب :

طبعاً الذين بدؤوا حياتهم بالإيمان بالله هؤلاء السابقون ، هؤلاء آمنوا في وقت عسير ، آمنوا والناس جميعاً ضدهم ، آمنوا وليس هناك أي مكسب من الإيمان ، آمنوا والإيمان كله تبعات ، كله متاعب فلذلك ليسوا سواء :

(لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(10))

(سورة الحديد)

قبل الفتح شيء وبعد الفتح شيء ، أيام قبل الفتح متاعب ومغارم بعد الفتح مكاسب ، فالذين سارعوا إلى الإيمان في وقت الشدة في الوقت العصيب هؤلاء لهم ميزان آخر .

الأستاذ علاء :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا ُ(72))

(سورة الأنفال)

المقصود فيهم الأنصار .

بطولة الإنسان الكبرى أن يصلح غيره بعد إصلاح نفسه :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء الإنسان .

الأستاذ علاء :

من هنا لأنك تحدثت عن مسالة الرتب .

الدكتور راتب :

الإنسان اجتماعي فبطولته أن يصلح نفسه أولاً حينما يؤمن وحينما يعمل الصالحات وقد ينجو بهما ، ولكن بطولته الكبيرة أن يصلح غيره ، من هنا جاء :

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

(سورة العصر)

أستاذ علاء الحق دائرة والباطل دوائر ، إذا كان هناك التواصي بالحق دوائر الحق تنمو تضيق دوائر الباطل ، فإذا سكتنا عن التواصي بالحق دوائر الباطل تنمو وتضيق على دائرة الحق ، فقضية الحق والباطل معركة أزلية أبدية لأن الله عز وجل كان من الممكن أن يجعل الطرف الآخر في كوكب آخر ، أو الطرف الآخر في قارة أخرى ، أو الطرف الآخر في حقبة أخرى ، ولكن شاءت حكمته أن نكون معاً في كل مكان وفي كل زمان من لوازم هذه المعية أن هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا بالعمل والتضحية ، فلذلك التواصي بالحق مكلف أحياناً السكوت أريح أولى ، أما حينما يجهر الإنسان بالحق يكون بطلاً .

الأستاذ علاء :

سيدي نلاحظ هذا الفعل تَوَاصَوْا ، تفاعلوا .

التواصي بالحق أحد أركان النجاة لكل مؤمن :

الدكتور راتب :

يعني كل منا يوصي أخاه لذلك حياة المؤمنين حياة سعيدة جداً ، المؤمن يأخذ بيد أخيه وأخوه يأخذ بيده، ينصح أخاه وأخوه ينصحه ، يرشد أخاه وأخوه يرشده ، هذا التواصي

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

[مسلم عن تميم الداري]

ما لم تنصح فقد وضعت إيمانك في وضع حرج جداً ، لو قال لك يشتري من عندك قماش بالله عليك انصحني بلون رائج نصحته بلون كاسد عندك ، خنت الأمانة ، كفى بها خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب ، وحينما ينتفي الخيانة والكذب من حياتنا نكون في حال غير هذا الحال ،لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

فإذا كذب أو خان انتهى إيمانه ما فيه ذرة إيمان ، أبداً :

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

فالتواصي بالحق من أجل إصلاح الآخرين .

الأستاذ علاء :

سيدي التواصي بالحق هل هو يختص في فئة من الأمة أم ؟

التواصي بالحق فرض عين على كل مؤمن :

الدكتور راتب :

فرض عين على كل مؤمن الدليل ، التواصي بالحق أحد أركان النجاة لكل مؤمن ، مؤمن صامت ما في ، مؤمن سكوني ما في ، مؤمن إعجابه سلبي ما في ، مؤمن لا يتحرك لا يهمه أحد ليس مؤمناً ، لذلك التواصي بالحق هذه الآية دليل قطعي على أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مؤمن ولكن في حدود ما يعلم ومع من يعرف فقط ، أما في دعوة إلى الله احترافية :

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران الآية : 104)

هذه دعوة احترافية تحتاج إلى تفرغ وإلى تعمق وإلى علم وإلى القدرة على ردّ كل الشبهات والإتيان

بكل البراهين والأدلة ، هذا فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل ، أما الدليل الآخر أن الدعوة إلى الله فرض عين قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

يعني سمعت خطبة تأثرت بها جلست مع أهلك حدثهم عنها ، بوعي .

الأستاذ علاء :

يدقق كثيراً في مسائل سمعها الإنسان تأخذ وتعطي معه تراجع الخطيب يقول ما حكيت هكذا .

ارتباط أركان النجاة ببعضها ارتباطاً وثيقاً :

الدكتور راتب :

هذه مشكلة الأتباع ، إذاً التواصي بالحق له دليلين هذا الحديث :

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

وهذه الآية ، في آية ثانية :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية : 108)

فالذي لا يدعو إلى الله لا يتبع النبي ، والذي لا يتبع النبي لا يحب الله :

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران الآية : 31)

إذاً الدعوة إلى الله فرض عين وفرض كفاية ، فرض عين لآحاد المؤمنين في حدود ما يعلمون ومع من يعرفون ،

((بلغوا عني ولو آية))

هذه وتواصوا بالحق ، أركان النجاة الأربعة مجتمعة ، ليس معنى أن أركان النجاة لو قمت بواحد منها اكتفيت لا الأربعة مجتمعة ، يجب أن تبحث عن الحقيقة وأن تتحرك وفقها وأن تدعو إليها .

على كل إنسان أن يبحث عن الحقيقة و يعمل لها و يدعو إليها :

الآن وأن تصبر على أشياء ثلاثة على البحث عنها والعمل بها والدعوة إليها .

الأستاذ علاء :

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

الصبر له علاقة بالحق ؟

الدكتور راتب :

نعم .

الأستاذ علاء :

أن يصبر الإنسان .

الدكتور راتب :

بالبحث على الحقيقة والعمل بها والدعوة إليها ، آخر بند يغطي البنود الثلاثة ، أركان النجاة أستاذ علاء هذه السورة لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه السورة لكفت ، هذه السورة كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفرقون إلا على هذه السورة .

الأستاذ علاء :

سيدي الإيمان وبعد الإيمان العمل وفق الإيمان ، ثم الدعوة إلى ما آمنت به كفرض عين .

الصبر مفتاح كل داعية للوصول بدعوته إلى القمة :

الدكتور راتب :

((بلغوا عني ولو آية))

ثم الصبر على الإيمان والعمل والدعوة .الإنسان إذا ما دعا في سلام ، إذا دعا في متاعب أحياناً هذه ثمن الجنة ، الأبطال عاشوا متاعب كبيرة جداً ، الذين قلبوا وجه التاريخ ما كان طريقهم مفروش بالورود بالمتاعب فلذلك طريق القمة متعب جداً .

الأستاذ علاء :

قالوا لعمه أبي طالب إن كان يريد جاهاً .

الدكتور راتب :

مالاً جعلناك أغنى واحداً فينا ، تريد امرأة جميلة زوجناك أجمل فتياتنا ، تريد جاهاً وليناك علينا فقال :

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

الأستاذ علاء :

سيدي لذلك نعود ونؤكد أن الله عز وجل عندما أقسم بالعصر أقسم بشيء عظيم وأقسم بعمر النبي صلى الله عليه وسلم هنا أريد أن أؤكد عليها .

من فكّر في الآخرة حقق الغاية من وجوده :

الدكتور راتب :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

تصور أستاذ علاء خالق السماوات والأرض يقسم بزمن إنسان خلقه لأنه استغل هذا الزمن ثانية ثانية، يقولون : المؤمن يوم القيامة لو دخل الجنة لا يندم إلا على شيء ، على وقت مضى لم يذكر الله فيه ، مع أنه نجا ودخل الجنة الوقت شيء مهم جداً ، لذلك كان بعض الصالحين قد حفر قبراً في صحن داره، وكان يضّجع فيه كل خميس ، ويتلو قوله تعالى :

(رَبِّ ارْجِعُونِي(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا (100))

(سورة المؤمنون)

يخاطب نفسه ويقول لها : قومي لقد أرجعناك ، فالإنسان إذا فكر في النهاية حقق الغاية .

الأستاذ علاء :

علينا أن ننتبه إلى ما قدمت وتفضلت به إلى الوقت على أنه هو الإنسان ، هو الحياة ، وهو الفرصة التي تمشي على محور موجه ، لا تعود إلى الوراء أبداً ، ولقاء الإنسان بوقته أو عمره لا يكون إلا في الدار الآخرة يقفان وجهاً لوجه ويتحاسبان أمام رب العزة ، إما أن يكون قد استغل هذا الوقت بالعمل الصالح وإما أن يكون قد أضاعه فلا فائدة للعمل .

من أضاع وقته خسر الدنيا و الآخرة :

الدكتور راتب : في نقطة دقيقة :

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (104))

(سورة النساء)

كل واحد منا الوقت مع الجميع ، لكن شخصاً أدار الوقت إدارة صحيحة عرف سر وجوده ، وغاية وجوده ، آمن بربه ، عمل صالحاً ، دعا إلى الله ، صبر على كل أولئك فرجا من الله ما لا يرجوه غيره، فلذلك الشعور بالخسارة كبير جداً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (70-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ حقيقة الزمن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يستغل وقته بعمل الخير خسر وقته و خسر الزمن :

الأستاذ علاء :

سيدي في الحلقة الماضية بل في الحلقتين الثلاث الماضيات بدأنا موضوعاً هاماً وهو الموضوع الذي ننتهي به وننهي به ؛ مقومات التكليف التي بدأنا بها سلسلة مطولة ابتدأت بالكون ثم العقل ثم الفطرة ثم الشهوة ثم الاختيار ثم الشرع ، وحطت رحالنا عند الوقت ، وتحدثنا في الحلقات الماضية عن أهمية الوقت ، وتحدثنا كيف أن الله عز وجل أقسم بالعصر لعظمة هذا الشيء ولنتبين أهمية هذا الشيء :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أي من لم يستغل وقته بعمل الخير وفعل الخير وتقديم الخير للناس بما يتفق وطريق الشرع فإنه قد خسر وقته ، وقد خسر الزمن ، وقد خسر شيئاً لا يعوض ، أما الذين استغلوا ، أما الذين ملؤوا وقتهم بعمل الخير :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

آمنوا أولاً وعملوا الصالحات ، الآن سيدي الكريم نكمل هذا البحث في الوقت في حقيقة الزمن في مفهوم الزمن في القرآن الكريم .

الإنسان بضعة أيام أثمن شيء يملكه هو الزمن :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، في الحقيقة أنه في الحلقتين السابقتين شرحت صورة العصر التي تعد السورة الأولى المتعلقة بالزمن ، لأن الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، ما من

يوم ينشق فجره إلا وينادي يا بن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

إذاً هو بضعة أيام ، إذاً هو زمن رأسماله هو الزمن ، أثمن شيء يملكه هو الزمن وهذا الزمن سينقضي ، إذاً هو في خسارة محققة إلا إذا أنفق الزمن إنفاقاً استثمارياً ، فعمل في الزمن الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد انقضاء الزمن ، هذا الذي كان موضوع الحلقتين السابقتين .

الإنسان في خسر لأن مضي الزمن يستهلكه :

طبعاً سورة العصر والعصر قسم بمطلق الزمن ، جواب القسم : إن الإنسان في خسر لأن مضي الزمن يستهلكه ، يصبح لا شيء ، إلا الإنسان إذا استغل الزمن في عمل ينفعه بعد الموت ، فجاءت الآية الكريمة :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

أي ما لم تبحث عن الحقيقة ، وما لم تعمل وفقها ، وما لم تدعُ إليها ، وما لم تصبر على البحث عنها والعمل بها والدعوة إليها فالإنسان خاسر ، وقد ورد في بعض الأدعية :

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً ، ولا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

[ورد في الأثر]

الأستاذ علاء :

وهنالك في الأثر مَغْبُونٌ من تساوى يوماه .

الدكتور راتب :

نحن في هذه المقدمة أردنا أن يتصل عند الأخوة المشاهدين الموضوعان السابقان باللقاء الحالي .

1 – الزمن هو البعد الرابع للأشياء :

أولاً حقيقة الزمن ، حقيقة الزمن هو البعد الحركي للأشياء أو البعد الرابع ، فكل شيء له بعدان سطحيان طول وعرض ، وله بعد حجمي عمق أو ارتفاع ، وله بعد حركي ، بمعنى أن الشيء إذا تحرك يستهلك ، لأن الله عز وجل وضع في كل مادة مقاومة إلى حد ما فحينما ترى ثوباً قد اهترأ معنى ذلك أن هذا مضي الزمن ، البعد الرابع والحقيقة فلسفته صعبة جداً لكن أنشتاين في القرن العشرين جاء بمفهومات دقيقة جداً فاعتبر الزمن تعريفه المطلق سرعة الضوء فأي شيء سار مع الضوء توقف

الزمن ، وهذه الندوة يصدر منها موجات ضوئية لو استطعنا أن نمشي معها في الفضاء الخارجي لرأيناها إلى أبد الآبدين .

الأستاذ علاء :

لا يمكن أن تلحق بنا أية أشعة ستلي ولا يمكن أن نلحق بأشعة سبقت .

الدكتور راتب :

هذا كله افتراض ، أما لو تصورنا إنساناً صنع مركبة سرعتها تزيد عن سرعة الضوء لرأينا المعارك السابقة رأي العين ولو قصرنا عن الزمن تراخى الزمن بمعنى أن الساعة في الفضاء الخارجي تعادل ألف عام في الأرض ، فبين أن يتوقف الزمن وبين أن يتراجع الزمن وبين أن يتراخى الزمن ، هذه متعلقة بسرعة الضوء ، وهذه الموضوعات مغرقة في الدقة وفي المصطلحات .

2 – الإنسان زمن :

على كل أدق ما في هذا اللقاء الطيب الإنسان زمن ، بضعة أيام ، هذا الإنسان له عند الله ثمان وستين سنة فرضاً وثمانية أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وسبع ساعات وست دقائق وخمس ثوان ، هو كائن متحرك إلى هدف ثابت ، أية ثانية تمضي على هذه الحركة تقربه من الهدف الثابت ، بطولته أن ينفق هذا الوقت إنفاقاً استثمارياً ينتفع به بعد مضي الزمن ، هذه نقطة أولى في هذا اللقاء الطيب .

على كل هذا المعنى الدقيق للزمن أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة فقال :

((أيها الناس : لا خير في العيش إلاّ لعالم ناطق أو مستمع واع ، أيّها الناس إنّكم في زمن هدنة - كالعام الدراسي الطلاب جميعاً متساوون لكن متى يفرزون ؟ - إنّ السير بكم سريع))

من خصائص الزمن سرعة انقضائه لبثنا يوماً أو بعض يوم ، إنسان عاش أربعين يقول لك مضى كلمح البصر :

((....وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد))

يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : " الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ".

((....ويقرّبان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود))

نبدأ الصيف يأتي الشتاء ، يبدأ الشتاء يأتي الصيف ، نبدأ بالخمسينات ، تأتي الستينات ، السبعينات ، الثمانينات ، التسعينات ، الألفين وهكذا .

((....فقال له المقداد : يا نبي الله وما الهدنة ؟ فقال : دار بلاء وانقطاع ، بلاء امتحان))

الموت يلغي كل شيء في الوجود :

انقطاع الموت يلغي قوة القوي :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

يلغي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني ، وفقر الفقير ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، ينهي كل شيء .

((.....دار بلاء وانقطاع فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ، فانّه شافع مشفع وشاهد مصدّق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به فاز))

هذا المعنى الدقيق للزمن أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وشرحه شرحاً رائعاً جداً .

على كل إنسان أن يستبق الخيرات لأن الزمن لا ينتظر أحداً :

بل إن القرآن الكريم في آية أخرى غير سورة العصر أشار إلى مفهوم الزمن ، تصور شريطاً متحركاً إذا الإنسان نزل من على الشريط كل شيء يسبقه ، إن وقف عليه يمشي مع من يمشي أما إذا تركه كل شيء يسبقه ، قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا (148))

(سورة البقرة)

هو يختارها ، هذه آية الاختيار ، فاستبقوا الخيرات الزمن لا ينتظر أحداً ، الوقت كالسيف :

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا (148))

(سورة البقرة)

بعض العلماء قال في أية مكانة كنت وفي أي مكان كنت .

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنعت بالحجاب والحـرس

فما تزال سهام الموت نافــذة في جنب مدرع منها ومتــرس

أراك لست وقافاً ولا حــذراً كالحاطب الخابط الأعواد في الغلس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكـها إن السفينة لا تجري على اليـبس

* * *

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا (148))

(سورة البقرة)

عدم إنكار حدث الموت لكن الناس يتفاوتون في مدى الاستعداد له :

لا أحد يقول هذا قدري ، ما أنت فيه من اختيارك :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

الزمن يمشي ، أينما تكونوا لا بد من الموت ، ولا يستطيع أحد أن ينكر حدث الموت ، لكن الناس يتفاوتون في مدى الاستعداد له فقط :

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(148))

(سورة البقرة)

خصائص الزمن :

1 – سرعة انقضائه :

أستاذ علاء الزمن له خصائص ، أهم خصيصة في الزمن سرعة انقضائه ، لا ينتظر ويمضي سريعاً ، كل واحد منا يقول البارحة كنت طفلاً صغيراً هو الآن في عمر مديد ، فإذا مضى الذي مضى كلمح البصر في الأعم الأغلب يمضي الذي بقي كلمح البصر .

الأستاذ علاء :

سيدي أجمل تعبير أسمعه من الصغار عندما يبتدئ العيد ، أول ساعات العيد وينتهي العيد بعد أربعة أيام يسألك الطفل ، العيد قصير جداً ، يا ليت كل الأوقات بالنسبة له عيد ينقضي العيد وكأنه لم يشعر ، هذا دليل على أنه لم يشعر بالزمن .

العاقل من عدّ عمره عدّاً تنازلياً لا تصاعدياً :

الدكتور راتب :

قالوا : دقيقة الألم ساعة وساعة اللذة دقيقة ، أول نقطة سريع الانقضاء أيام معدودة ، فلذلك أنا أتمنى على الأخوة المشاهدين أن يعدوا أعمارهم عداً تنازلياً لا تصاعدياً ، لا يقول كم بقي لي ، لا ، يقول كم مضى من عمري ؟ كم بقي لي ؟ تقول له كم بقي ؟ إذا شخص تجاوز الأربعين في الأعم الأغلب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعمار أمتي بين الستين والسبعين . فإذا تجاوز الأربعين فالذي بقي أقل مما مضى ، فإذا مضى الذي مضى كلمح البصر في الأعم الأغلب الذي بقي يمضي كلمح البصر ،

يواجه ساعتئذ المسؤولية عن كل شيء :

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

لذلك يقول الله عز وجل :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(45))

(سورة يونس)

الأستاذ علاء :

كل هذا العمر الذي عاشوه ، والذي تجبروا فيه كأنه ساعة من نهار ، وهناك عند ربهم يبدؤون بالتعارف .

2 ـ ما مضى منه لا يعود ولا يعوض :

الدكتور راتب :

أهم خصيصة سرعة انقضائه ، الخصيصة الثانية ما مضى منه لا يعود ولا يعوض ، فالحديث عما مضى تضييع للوقت والبلهاء يندمون على الماضي ما مضى فات والمؤمل غيب ، الغيب لا تملكه ، ولك الساعة التي أنت فيها ، لا نملك إلا هذه الساعة .

الأستاذ علاء :

سيدي هو باتجاه المحور الموجه الواحد ، حركة الزمن مثل حركة الأجسام في الرياضيات هناك المحور الموجه باتجاه معين ، حركة الزمن باتجاه هذا المحور لا يتغير وغير عكوس باتجاه واحد فإذا انقضى منه شيء لا يعود .

الأغبياء يتغنون بالماضي والأذكياء يعيشون المستقبل :

الدكتور راتب :

ما مضى فات والمؤمل غيب ، الغيب لا تملكه ، ولك الساعة التي أنت فيها ، والحديث عن الماضي نوع من الغباء ، الأغبياء يتغنون بالماضي ، والأقل غباءً يعيشون الحاضر كردود فعل ، والأذكياء يعيشون المستقبل ويخططون ، فإن لم تخطط يخطط لك .

الأستاذ علاء :

جميل ، إن لم يكن فاعلاً يبقى تحت الفعل .

الدكتور راتب :

سيكون منفعلاً ، لذلك الآية الكريمة :

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا (100))

(سورة المؤمنون)

أداة ردع ونفي .

(إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100))

(سورة المؤمنون)

الوقت لا يعوض لكن الغافل لن يعرف قيمة الوقت إلا بعد فوات الأوان :

أهم خصائصه أنه سريع الانقضاء ، وما مضى منه لا يعود ولا يعوض ، الوقت لا يعوض لكن الإنسان هو في غفلة وهو في تيه وهو في لهو سوف يعرف قيمة الوقت ولكن بعد فوات الأوان :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ(9)وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ(10)وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(11))

(سورة المنافقون)

هذا الندم الذي لا يحتمل ، ربي أخرني إلى أجل قريب فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .

الجاهل لن يعرف قيمة الوقت إلا يوم القيامة :

إذاً يعرف الإنسان الجاهل التائه الشارد الغارق في آمال وغي و انحطاط يعرف قيمة الوقت ولكن بعد فوات الأوان ، ويعرفه يوم القيامة :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(36)وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ (37))

(سورة فاطر)

وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ : النذير هو :

1 – القرآن الكريم :

من أدق ما قاله العلماء في كلمة النذير ، النذير هو القرآن الكريم لأنه بيّن ما بعد الموت :

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

فالقرآن هو النذير .

2 - أو النبي عليه الصلاة والسلام :

والنبي هو النذير :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا)

(سورة الأحزاب)

3 - أو سن الأربعين :

العلماء قالوا وسن الأربعين هو النذير ، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة .

4 - أو سن الستين :

وسن الستين هو النذير .

5 - أو الشيب :

والشيب هو النذير :

((عبدي كبرت سنك ، وانحى ظهرك ، وضعف بصرك ، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

6 ـ أو المصائب و موت الأقارب :

والنذير هو المصائب ، والنذير موت الأقارب ، هكذا أورد الإمام ابن القرطبي على معنى كلمة النذير في هذه الآية .

الأستاذ علاء :

هذا التحليل في الحقيقة الدقيق والواعي لكلمة النذير ، هو كل ما ينذر عن مستقبل بما سيكون .

كلما ارتقى عقل الإنسان يحكمه النص وكلما هبط مستواه الفكري يحكمه الواقع :

الدكتور راتب :

لذلك قالوا العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه .

الأستاذ علاء :

الكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

الدكتور راتب :

أنا أضرب هذا المثل كثيراً لأنه معبر ، إنسان له مبلغ ضخم جداً في حمص أراد أن يذهب إلى حمص ليأخذ المبلغ فإذا لوحة كتبت في ظاهر دمشق الطريق إلى حمص مغلقة بسبب تراكم الثلوج في النبك ، لو قرأ هذه اللوحة ألف إنسان عاقل يرجع من ظاهر دمشق ، لو أن دابة تمشي أين تقف ؟ عند الثلج ، ما الذي حكم غير العاقل ؟ الواقع ، ما الذي حكم العاقل ؟ النص ، فكلما ارتقى عقل الإنسان يحكمه النص وكلما هبط مستواه الفكري يحكمه الواقع إلى أن يواجه الخطر ، خطر الورم الخبيث في الرئة من أجل الدخان يقول لك أنا سوف أتوب .

الأستاذ علاء :

سيدي قبل أن نكمل هذا البحث الدقيق والشيق بالحقيقة ، والذي فيه أسى بكل معنى الكلمة على ما فات، وعلى ما قصر الإنسان ، كيف يتسق مفهوم التوبة مع مفهوم الوقت ؟

باب التوبة مفتوح على مصراعيه :

الدكتور راتب :

والله ما دام القلب ينبض ، ما دام في العمر بقية ، باب التوبة مفتوح على مصراعيه ، إلا أن الإنسان لا يمكن أن يتوب حينما يقارب ساعة الموت :

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (18))

(سورة الأحزاب)

لذلك لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم جئتني تائب غفرتها لك ولا أبالي ، لكن في فرق بين إنسان أمضى حياته كلها في المعصية وتاب قبل أن يموت فتاب الله عليه ، وبين إنسان نشأ في طاعة الله ، يوجد تفاوت بالعطاء أما التوبة توبة ، باب التوبة مفتوح على مصراعيه :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء الآية : 27)

(إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

فرحة الله عز وجل بتوبة عبده الضال :

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

يفرح الله بتوبتنا ، بل إن الصورة الدقيقة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هي :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

دعك من هذا يعلق النبي صلى الله عليه وسلم على هذه القصة لله أفرح بتوبة عبده من ذاك البدوي بناقته ، هو ينتظرنا :

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إليّ ، هذه إرادتي بالمعرضين ، فكيف بالمقبلين ؟))

[ورد في الأثر]

الأستاذ علاء :

إذاً ما نتحدث به عن الزمن والذي مضى من عمره زمناً طويلاً وكان غافلاً أو ظالماً أو كان مقصراً بإمكانه أن يوقف زمن التقصير .

الدكتور راتب :

نعم يفتح مع الله صفحة جديدة ، كل شيء له حل ما دام في العمر بقية .

أخطر ما في الزمن التسويف :

الأستاذ علاء :

الآن من خصائص الزمن السرعة وعدم الرجوع .

الدكتور راتب :

الآن أخطر ما في الزمن التسويف ، ورد في بعض الآثار : هلك المسوفون . كل شيء غداً ، بعد غد ، لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى : إياك والتسويف فإنك بيومك ولست بغدك ، فإن يكن لك غد فكن في الغد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرط اليوم .

قيل لعالم أوصنا ؟ قال : احذروا سوف فهي جند من جنود إبليس .

تزود من التقوى فإنـك لا تدري إذا جـن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت أكفانه وهـو لا يدري

* * *

لأستاذ علاء :

سيدي هناك قصة لطيفة عندما توفي سليمان بن عبد الملك وآلت الخلافة إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هنا في دمشق ، مراسم الدفن انتهت تعب عمر بن عبد العزيز ، تعب من مراسم الدفن وهذه الأشياء فأراد بعد صلاة الظهر أن يأخذ قسطاً من الراحة ، فانتصب إليه ابنه عبد الملك فقال ماذا تفعل يا أبي ؟ قال أريد أن آخذ قسطاً من الراحة ، قال وماذا تفعل بمظالم الناس ؟ قال حتى العصر ، قال وما يدريك أن عمرك سيستمر إلى العصر ولا يكون أمر الله بين هذين الوقتين ؟ فجلس ونهض وقال له جزاك الله خيراً فبادر إلى الناس ورفع الظلم عنهم .

هذا فهم للوقت ؟

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت :

الدكتور راتب :

فهم عميق جداً ، لذلك قالوا : من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، لو توهم أنه سيعيش إلى الغد فقط يقول لك غداً سأزور فلاناً ، معنى ذلك أنه سيعيش إلى الغد ، من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

أنا جلست مع إنسان حدثني عن عشرين سنة قادمة ،عن خططه وعن طموحاته وعن مشروعه التجاري وعن تقاعديته ، والله الذي لا إله إلا هو رأيت نعوته مساءً في اليوم نفسه ، لذلك من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

من هنا أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى الدقيق :

((اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك))

[أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عباس أحمد ، عن عمرو بن ميمون]

هذه البطولة ، كل هذا الذي يقال متعلق بالوقت .

الأستاذ علاء :

الآن أنت تستطيع ، الشباب موجود لكن بعد الشباب في هرم فإن لم تستغل الشباب سيأتي وقت لا تستطيع أن تفعل فيه شيئاً ، ولا يكون من الهمة ما تساعدك على فعل الخير وعلى استباق الخيرات .

الدكتور راتب :

لذلك الإنسان حينما لا يخطط يعيش حياة عابسة بلا هدف .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (71-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ العلاقة بين طول العمر وصلة الرحم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقت و أهميته :

الأستاذ علاء :

سيدي تبينا في الحلقة الماضية مسألة الوقت في حقيقته ، حقيقة الزمن ، وأيضاً مفهوم الزمن في القرآن الكريم وما جاء من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وخاصة في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ، وتحدثنا في خصائص الزمن ، سرعة الانقضاء وفي عدم العودة إلى غير رجعه ولا يمكن أن يعوض ، متى يعرف الإنسان قيمة الوقت بعد انقضائه والكيس الذي يعرف قيمة الوقت وهو يعيشه وهو بين ظهرانيه ، وتبين خطر الوقت بالتسويف ، هذه علته ، استهلاك رخيص ، ومن عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت .

الآن نقف عند مسألة هامة هنالك يشاع بين الناس أن الإنسان إذا وصل الرحم وإذا قدم العمل الصالح فإن عمره يطول ، ورد في الأثر استناداً إلى ذلك :

((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

ماذا عن هذا الموضوع هل العمر يطول ؟

عمر الإنسان لا يزيد و لا ينقص :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الحقيقة العمر لا يطول ، لكل إنسان أجل لا يزيد ولا ينقص :

(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61))

(سورة النحل)

لا بد من توضيح هذا بمثل : دكانان يفتحان الساعة التاسعة صباحاً ويغلقان التاسعة مساءً ، بلا زيادة ولا نقصان بالدقيقة ، أي زمن أغنى من زمن بالنسبة للدكانين ؟ الغلة ، فقيمة الوقت تقاس بالغلة فقط ،

إذا قلنا لإنسان أطال الله عمرك نقصد بهذا أن يرزقك الله عملاً صالحاً يغني وقتك .

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

لذلك الله عز وجل خالق السماوات والأرض أقسم بعمر النبي عليه الصلاة والسلام :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

أستاذ علاء أتفه أعمار الإنسان العمر الزمني، بل إن أعظم أعمار الإنسان عمر الأعمال الصالحة ، حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح ، فإذا دعونا الإنسان بطول الدوام في العمل التجاري نقصد بكثرة الغلة لأن الدوام محدد من التاسعة إلى التاسعة لكن نقصد بكثرة الغلال والأرباح ، فالإنسان قد يعمل عملاً صالحاً مثلاً : النبي عليه الصلاة والسلام يقول : يا علي :

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

و :

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

و :

((خير لك من الدنيا وما فيها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

هذا عمل عظيم .

بطولة الإنسان لا في مدة عمره بل في العمل الصالح الذي يحويه هذا العمر :

بعد قليل نتحدث عن الأعمال وقيمتها ، لكن العبرة أن العمر الزمني من دون عمل صالح تافه جداً ، حياة الإنسان لا معنى لها بل حياة رتيبة وهو رقم سهل جداً ، هو رقم من مليارات الأرقام التي لا تعني شيئاً ، وفي إنسان رقم صعب ، إنسان شيء مذكور ، إنسان كبير عند الله وعند الناس ، فالبطولة لا أن نفرح أن نعيش سنوات تزيد ، الإمام الشافعي عاش أقل من خمسين سنة ، النووي أقل من خمسين ، في علماء كبار عاشوا أقل من أربعين سنة وتركوا آثاراً لا تنتهي إلى يوم القيامة ، فالبطولة لا في مدة العمر بل في العمل الصالح الذي يحويه هذا العمر ، هذه النقطة الأولى ، فأي دعاء لبعضنا بعضاً بطول

العمر المقصود منه الدعاء بعمل صالح ثمين جداً يغني هذا العمر ، هذا هو المعنى لكن في السنة الشريفة إشارة إلى أن طول العمر يعد عملاً طيباً :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قالَ : مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي عن عبد الله بن بُسر]

بل حينما سئل في رواية أخرى أي الناس أفضل ؟ قال من طال عمره ، وحسن عمله .

لا خسارة مع الطاعة ولا ربح مع المعصية :

إنسان يعيش عمراً مديداً أنا أذكر أحد علماء دمشق وصل إلى الثامنة والتسعين وكان منتصب القامة ، وكان حاد البصر ، وكانت أسنانه في فمه ، وكان مرهف السمع وذاكرته قوية ، أخوانه وطلابه يعجبون أشد العجب منه كان إذا رأى شاباً يقول له أنت كنت تلميذي يا بني وكان أبوك تلميذي وكان جدك تلميذي ، سئل مرة عن هذه الصحة التي منحه الله إياها ؟ قال يا بني : حفظناها في لصغر فحفظها الله علينا في الكبر .

والله التقيت مع إنسان قال لي : أنا عمري ست وتسعون سنة ، والد صديقي في العيد فجلس معي وحدثني قال لي بالتعبير العامي قال : يا عم أنا عمري ست وتسعون سنة عملنا البارحة تحليل كامل دم وبول فلم يظهر شيئاً ، كله طبيعي ، ست وتسعون سنة ، علق على هذا قال والله بكل عمري ما أكلت قرشاً حراماً ولا أعرف حرام النساء .

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قالَ : مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[الترمذي عن عبد الله بن بُسر]

بطولة الإنسان لا في شبابه بل في خريف عمره :

العوام لهم كلمة التقوى أقوى ، طاعة الله ، والبطولة أستاذ علاء لا في شباب الإنسان ، الشباب كله في حيوية ونشاط ، في خريف العمر فبين أن يرد الإنسان إلى أرذل العمر و بين أن ينحى جانباً ؟ يهمل ، يصاب بالخرف ، يعيد القصة مئة مرة ، يصبح حشرياً عبئاً على من حوله ، لا يحتمل ، تعليقاته لاذعة جداً ، وبين أن يكون الإنسان في أعلى درجة من الفهم والحيوية والذكاء والمحبة وهو في عمر مديد ، أنا أقول يتفاوت الناس لا في شبابهم بل في خريف عمرهم وبقدر طاعة الله في الشباب يكون خريف العمر .

والله مرة زرت عالماً في حلب والله كأنه ملك في مملكة ، بالستة والتسعين حوله أولاده حوله إخوانه مشرق الوجه طليق اللسان ذاكرته قوية ، شيء رائع جداً فبطولتنا لا في شبابنا بل في خريف عمرنا ،

والإنسان خريف عمره يحدده كيف أمضى شبابه فإذا أمضى شبابه في طاعة الله متعه الله بصحته ، لذلك من الدعاء الدقيق جداً : ومتعنا الله بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا .

الأستاذ علاء :

سيدي العمر لا يطول ولا يقصر وإنما يملأ بعمل غني يجعله عظيماً ، هل نستطيع التعبير أنه لا يزيد طول العمر وإنما يتسع مجاله عرضانياً بالعمل الصالح ؟

الدكتور راتب :

نعم ، في غناه بالعمل الصالح .

الأستاذ علاء :

يحضرني في هذا الموضوع من يدعو على أطفاله أو يدعو على نفسه بالموت .

من أدب الإنسان مع الله تعالى ألا يدعو على نفسه أو على غيره :

الدكتور راتب :

كلام فارغ ، لكن منهي عنه ، لا يجوز أن يدعو الإنسان على نفسه وأولاده وأهله ، يسأل الإنسان ربه العافية :

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر ، وفي سنده ضعف]

هذا أدب مع الله عز وجل .

الأستاذ علاء :

سيدي العمر لا يزيد ولا ينقص إنما هناك هدف ثابت ليسعى المتحرك إليه وهو الإنسان .

على كل إنسان أن يعيش عمراً مفعماً بالطاعات ليلقى الله و هو عنه راض :

الدكتور راتب :

كل مخلوق يموت ولا يبقَ إلا ذو العزة والجبروت .

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

وكل ابن أنثى وإن طلت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حمـلت إلى القبور جنازة فاعلم أنك بعدها مـحمول

***

هذا المعنى أشار النبي عليه الصلاة والسلام إليه حينما قال :

((عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي ، عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

فلذلك البطولة أن أعيش عمراً مفعماً بالطاعات حتى يكون اللقاء مع الله رائعاً .

الأستاذ علاء :

سيدي من هنا العطاء العمل الخير حتى يكون خيراً هل يحكم إيقاعه الزمن ؟ يجب أن يقترن بالزمن ؟

الزمن وعاء العمل :

الدكتور راتب :

طبعاً يعني الزمن وعاء العمل ، ما في عمل بلا زمن ، عفواً أي حدث له مكان وله زمان ، له مكان هو مسرح الحدث وله زمان مظلة الحدث ، وأي حدث يقع في الأرض له زمان وله مكان ، فالزمن وعاء العمل من دون زمن ما في عمل ، لذلك الزمن أصبح هو حقيقة الإنسان ، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا بن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

أستاذ علاء في دعاء للنبي الكريم حينما يستيقظ :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سمح لي أن أعيش يوماً جديداً وكأنه كان في موت وأنا أعرف أناس كثيرين ناموا فلم يستيقظوا ، فالإنسان إذا فتح عينيه وصحا من نومه ووقف معنى سمح الله له أن يعيش يوماً جديداً :

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي ، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي ، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

آية بيننا وبين المنافقين شهود العشاء معاً والصبح لا يستطيعونه .

الأستاذ علاء :

سيدي هنالك عمل يقبل في زمن ولا يقبل خارج هذا الزمن .

إن لله عملاً بالليل لا يقبله في النهار وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله في الليل :

الدكتور راتب :

العبادات شيء رائع جداً ، الصلاة لها وقت فإذا دخل وقتها نصلي ولا تقبل إلا في وقتها :

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103))

(سورة النساء)

الصلاة مؤقتة بمواقيت محددة ، الصيام بشهر محدد ، الحج بأيام محددة ، في صدقة الفجر ، في أعمال، إن لله عملاً بالليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل .

حينما جاء سفير عامل عمر بن الخطاب على أذربيجان وصل المدينة في الليل ، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين فتوجه إلى المسجد ، فسمع رجلاً يبكي ويصلي ويقول ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ ولعل القصة أن سيدنا عمر كان في ظاهر المدينة يتجول فرأى قافلة أراد أن يحرسها في الليل ؛ سمع بكاء طفل فنبه أمه فبكى ثانية نبه أمه فبكى ، فغضب كان عصبي المزاج قال أرضعيه ، قالت ما شأنك بنا ، من أنت ؟ إني أفطمه ، قال ولما ؟ قالت لأن عمر لا يعطي العطاء إلا بعد الفطام (التعويض العائلي) تروي الروايات أنه ضرب جبهته وقال ويحك يا بن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين ، وصلى الفجر في أصحابه لم يفهم أصحابه قراءته من شدة بكائه ، يبدو في هذه الليلة كان يناجي ربه ويقول : ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها ؟ سأله من أنت يرحمك الله بعد أن انتهى من صلاته ؟ قال أنا عمر ، قال يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ؟ قال : أنا إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي .

الأستاذ علاء :

فهم لا يوجد له وعاء ليستوعبه ، فهم كبير ، فهم سبق الزمان وسبق كل أصحاب النظريات في منتهى الدقة ، في منتهى التعبير ، كيف يكون التعامل مع الزمن في فعل الخير ؟ الآن سيدي الزمن وعاء العمل كما العقل وعاء الفكر ، عند أهل الفلاسفة عندما يقولون بأن العقل هو وعاء الفكر ، هنا الزمن وعاء العمل ، هو الذي يحتوي العمل لصالحه واستغلاله ، نبسط في هذه المسألة كيف يكون الزمن وعاءً للعمل ؟

العلاقة الوثيقة بين العمل و الزمن :

الدكتور راتب :

كيف أستطيع أن أعمل ؟ إما في النهار أو في الليل ، الآية الكريمة :

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24))

(سورة يونس)

على قوم ليلاً وعلى قوم نهاراً :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس الآية : 25)

العمل علاقته بالوقت علاقة مهمة جداً ، لا يوجد عمل بلا وقت ، والوقت وعاء إطار ، فالإنسان ما دام معه وقت في معه أمل كبير ، العمل مرتبط بالوقت والوقت يعطي الأمل ، فما دام في بقية في حياة الإنسان فالأمر سهل جداً أن نتلافى أخطاءه لذلك ، ما أنزل الله من دواء إلا أنزل له شفاءً ، ما علاقته بالموضوع قال إلا السام أي مرض الموت ، هذا المرض ليس له شفاء أنا أسميه بوابة الخروج .

العاقل من استغل كل ثانية في عمره :

لذلك :

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ (133))

(سورة آل عمران)

صار العمل له علاقة بالوقت ، أنا إما أن أعمل ضمن إطار الوقت أو فاتني العمل وفاتني كل خير .

الأستاذ علاء :

كمن فاته أن يقدم امتحاناً في وقته فلا يستطيع أن يعود ، فات وقته .

الدكتور راتب :

لو أن طالباً ما درس ما قدم امتحاناً ، طلب من وزير التربية أن يعمل له استثناء شيء مضحك ، لذلك قال صاحب الحكم العطائية : رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ، عمر مديد بعمل تافه ، وربّ عمر قليلة آماده كثيرة أمداده ، ومن بورك له في عمره أدرك في يسير من الزمن من المِنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة ولا تلحقه ومضة الإشارة . أحد العلماء جمعوا كتبه وقسموها على أيام حياته ، مؤلف في اليوم تسعين صفحة نحن لا نقدر أن نقرأها ، أحياناً الله عز وجل يضع البركة في العمر ، والبركة أنا مؤمن بها أشد الإيمان . البركة في العمر في اتساع عرضاني أما الأمد محدود .

الأستاذ علاء :

سيدي متى تستمر الحياة بعد الموت ، العمل الذي يمتد إلى ما بعد الموت كيف يكون هذا وقد انقطع عمر الإنسان عند الهدف الثابت ؟ الله جعل أجله في هذا اليوم وانتهى ، هل هناك استمرار للعمل ؟

العمل العظيم هو العمل الذي اتسعت رقعته فشملت أعداداً كبيرة من البشر :

الدكتور راتب :

نعم هناك أعمال تستمر بعد الموت ، بشكل مبسط جداً في إنسان ترك آثاراً طيبة جداً ، ولعلهم تركوا محاضرات وهذه تلقى في كل الإذاعات بعد موتهم ، وهناك من تركوا أشياء أخرى تلقى بعد موتهم ، فكلاهما يدفع ثمن ما بعد الموت ، لكن قبل أن نصل إلى هذا الموضوع الدقيق ، العمل يوزن ، يوزن أحياناً باتساع رقعته ، إنسان عمله معلق بأسرته فقط جيد لكن في إنسان بعائلته الكبيرة ، في إنسان بمدينته ، في إنسان ببلدته ، في إنسان بمجتمعه ، فكلما اتسعت رقعة العمل كان العمل عظيماً ، أنت تذهب إلى الصين ترى في إسلام ، تذهب إلى شمال إفريقيا ، إلى أوربا ، أمريكا ، هذا الإنسان الذي عاش ثلاث وعشرين سنة في الدعوة وانتقل إلى رحمة الله ما الآثار التي تركها النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فكلما اتسعت رقعة العمل فشملت أعداداً كبيرة من البشر حتى دخلت فيه الأمم والشعوب كان العمل أعظم ، وكلما امتد أمد العمل حتى توارثته الأجيال عن الأجيال كان العمل عظيم .

الأستاذ علاء :

الرقعة الجغرافية ، ثم البعد الزمني .

من مقاييس قيمة العمل أن يكون واسع الرقعة ممتد الأمد عميق الأثر :

الدكتور راتب :

الآن كلما تغلغل في أعماق النفس ، مثلاً شخص أودع عند إنسان عشرين مليون قصة جاءتني على ورق ، هذا الإنسان يبدو أنه بخيل أعطى المبلغ لصديقه كي يشغله بالتجارة ومات بحادث ، ما في إيصال وما في أي إثبات من تلقاء نفسه توجه إلى الورثة وقدم لهم المبلغ ، لو ما كان إيمانه عميقاً جداً لا أحد يسأله إطلاقاً ، ليس مداناً في الأرض لكنه يخاف الواحد الديان .

سيدنا ابن عمر : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ؟ قال له الراعي : ليست لي ، قال : قل لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب ، يقول الراعي : ليست لي ، يقول له : خذ ثمنها ، يقول له الراعي : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئب لصدقني ، فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟

لا يكفي أن يكون الإسلام ظاهرياً ، يوجد إسلام عميق جداً ، حينما يكون العمل واسع الرقعة ممتد الأمد عميق الأثر يكون عملاً عظيماً من هنا ، هذه بعض مقاييس قيمة العمل ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كل أمته من بعده في صحيفته :

((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (120))

(سورة النحل)

في قلوب الأمة بأكملها هذه اتساع الرقعة وامتداد الأثر وعمق التأثير .

الأستاذ علاء :

سيدي أن يستمر العمل لما بعد الموت .

على كل إنسان أما أن يؤلف الكتب أو يؤلف القلوب :

الدكتور راتب :

في أعمال تنتهي بانتهائها ، أطعمت إنساناً فشبع بعد أربع ساعات جاع مرة ثانية الإطعام انتهى ، كسوته ثوباً بعد حين بلي الثوب ، في أعمال تنتهي بوقت محدد ، لكن لو شخص ترك مؤلفاً عظيماً وطبع مئات الطبعات بعد وفاته ، مرة ألقيت خطبة استعنت بتفسير للإمام القرطبي ترك أثراً بليغاً جداً ، فأنا سبحان الله تأثرت تأثراً بالغاً ، هذا الإنسان مات قبل ألف سنة ، وأنا استعنت بكتابه لإلقاء خطبة تركت أثراً بالناس كبيراً ، معنى هذا أن أثره استمر ألف سنة .

لذلك إما أن تؤلف الكتب وإما أن تؤلف القلوب ، تأليف القلوب أعمق أثراً وأقصر أمداً ، بينما تأليف الكتب أقل أثراً وأطول أمداً ً، في علماء كبار من هم لولا كتبهم ؟ هم في حياتهم كان لهم أتباع لكن هؤلاء انقضوا ، الأتباع تنتهي هذه التبعية بموتهم ، أما كتبهم جعلت لهم أثراً خالداً ، إذاً الإنسان :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

القرب من الله لا يكون إلا بالصدقة الجارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح :

في تعليق لطيف جداً : الويل ثم الويل لمن ليس له عمل ينقطع ، هذا الذي له عمل ينقطع عند الموت ، أما الويل لمن ليس له عمل ، عاش على أنقاض الناس ، بنى مجده على أنقاض الناس ، بنى غناه على إفقار الناس ، كما نرى فيما يجري في العالم ، بنى أمنه على إخافة الناس ، بنى عزه على إذلال الناس ، هؤلاء الذين يفعلون هذا ليس لهم عمل ينقطع لهم جرائم تنقطع لذلك النبي عليه الصلاة والسلام : مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ :

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ : الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[متفق عليه عن أبي قتادة]

الطغاة الذين يكيلون للشعوب يدمرون الشعوب ينهبون الثروات ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .

هذا الذي هدم سبعين ألف بيت في غزة ولم يمت حتى الآن ، يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .

الويل لمن ليس له عمل ينقطع ،

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[صحيح عند ابن خزيمة]

صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أسس ميتماً ، أسس مستشفى ، أسس مدرسة ، ترك شيئاً ثميناً جداً ، ألف كتباً ، عمل مدرسة حضارية تخرج الأجيال ، أسس جامعة مثلاً ، هذه الأعمال كلها حضارية يموت صاحبها والعمل مستمر هذا الذي يستمر بعد موته ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، ترك علوماً ومجلدات وأبحاثاً وانتفع الناس بها من بعده ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ .

الإنسان يسلم بالاستقامة لكن لا يسعد إلا بالبذل و العطاء :

مفطور على حب وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ، وعلى حب استمرار وجوده ، حب سلامة الوجود يكون بطاعة الله وطاعة الله عز وجل سلبية يقول لك أنا ما أكذب ، ما ، ما أغتاب ، ما غش ، أنت بالاستقامة تحقق السلامة ، سلامة وجودك أساسها الاستقامة ، أما كمال الوجود بالبذل بالعطاء ، ماذا قدمت من مالك ؟ ماذا قدمت من علمك ؟ ماذا قدمت من خبرتك ؟ ماذا قدمت من جهدك ؟ أنت بالاستقامة تسلم ولكن لا تسعد إلا بالبذل والعطاء لذلك قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

ثلاثة وأما استمرار الوجود بتربية الأولاد ، أنت إذا ربيت ابنك على قيم فاضلة وعلم غزير وأخلاق عالية وتوفي الإنسان ابنه من بعده ، لذلك من يريد أن يستمر وجوده فليربِ أولاده :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[صحيح عند ابن خزيمة]

بطولة الإنسان أن تستمر أعماله بعد موته :

في حديث فيه تفصيلات لطيفة ، إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علم علمه أو ولد صالح تركه أو مصحف ورثه أو مسجد بناه أو بيت لابن السبيل أو نهر أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته

الأستاذ علاء :

نعيد الحديث سيدي .

الدكتور راتب :

((إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً كراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته ، تلحقه من بعد موته))

[إسناده حسن لغيره ورد في صحيح ابن خزيمة في باب فضائل بناء السوق]

والبطولة بهذه الأعمال التي تبقى بعد موت الإنسان .

الأستاذ علاء :

ومن هنا تستمر الحياة بعد الموت .

كمال الإنسان لا يكون إلا بالعمل الصالح :

الدكتور راتب :

الإنسان يحب وجوده ، وسلامة وجوده بالاستقامة ، وكمال وجوده بالعمل الصالح ، واستمرار وجوده بصدقة جارية تستمر بعده .

الأستاذ علاء :

لذلك بهذا الفهم الدقيق للوقت والزمن ، وكيف نتعامل مع الوقت والزمن ؟ وكيف نفهم خصائص الوقت والزمن بالسرعة وعدم العودة وبآفات الزمن بالتسويف ، وأننا سوف نعمل هذا العمل غداً ، وكيف نخطط للزمن ونستثمر الزمن استثماراً إيمانياً عقلياً لكي نفوز ونسعد بهذا الفهم ؟ وبما تقدمه لنا إن شاء الله في الحلقات القادمة .

الدكتور راتب :

سوف نتحدث عن إدارة الوقت .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (72-95) : اليوم العالمي لمكافحة التدخين والمخدرات1 ـ أسباب الإدمان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

المخدرات و أضرارها :

الأستاذ علاء :
سيدي هذه الصفة الأخيرة كعضو مؤسس في جمعية مكافحة التدخين والمواد الضارة لها صلة وثيقة بالموضوع الذي سنأتي على تناوله بعد قليل إن شاء الله ، كم من غني أصبح فقيراً يسأل ؟ وكم من صاحب منزلة أصبح صعلوكاً يهمل ؟ وكم من عاقل ضيّع عقله وأصبح كالمجانين في الطرقات ؟ كم من شريف باع عرضه وأصبح دوساً ؟ وكم من سعيد تحول شقياً ؟ قد خسر أهله بل حياته ، لماذا وكيف ؟ كيف تقي نفسك وأفراد أسرتك ومن حولك ؟ كيف تنقذ نفسك ما إذا تورطت وكيف تعين من تورط ؟ كيف تعالج نفسك إذا ما هويت ؟ وكيف تأخذ بيد من هوى ؟ كل هذه التساؤلات قد تعالج في هذه الحلقة فكن عوناً لأسرتك ولأمتك وللمسلمين والمؤمنين جميعاً ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90))

(سورة المائدة)

سيدي في هذه الحلقة وربما لحلقات بعدها سوف نتناول موضوعاً هاماً ، هذا الموضوع يتعلق بالمخدرات وأضرارها ، بالمواد المخدرة سواء كانت نباتية أو مستخلصة أو كانت عقاراً .
نتيجة حجم المشكلة في العالم تنادت الأمم والشعوب لجعل يوم وهو السادس والعشرون من حزيران من كل عام جعلته يوماً عالمياً لمكافحة المخدرات ، هذه المشكلة مشكلة كبيرة في العالم وتأكل وتلتهم اقتصاديات العالم ، وقبل كل ذلك الأجساد والأرواح والأسر ، ترى هل يمكن أن تضعنا في حجم المشكلة عالمياً ؟

المخدرات وباء وداء للمجتمع في الوقت نفسه :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، الحقيقة أن الإنسان أعقد آلة في الكون ولهذه الآلة البالغة التعقيد والبالغة الخطورة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، وقد تفضلت قبل قليل وذكرت الآية الكريمة التي تنهى المؤمنين عن هذه الموبقات والتي يمكن أن تحول حياة الإنسان إلى جحيم ، المشكلة كبيرة جداً ، يعاني العالم من إدمان المخدرات ما يصل حجم المشكلة إلى مئة وثمانين مليون إنسان مبتلى بتعاطي المخدرات ، وهناك أربعون مليون إنسان يتعاطون القات في عدد من البلاد في شرق آسيا وفي إفريقيا ، كلفة معالجة هذه المشكلة تزيد عن مئة وعشرين مليار دولار ، وترتبط بها جرائم كثيرة ، من هذه الجرائم حوادث المرور التي عالجنا بعضاً منها في لقاءات سابقة ، كما تلحق أضراراً بالغة في اقتصاديات العديد ، وتخفض الإنتاج وتهدر الأوقات وتدعو إلى خسارة في القوى العاملة سموها المدمنون والمشتغلون بتجارة المخدرات ، وضحاياها كثيرون جداً وتنحسر الرقعة الزراعية التي كان من الممكن أن تكون غذاءً فتكون وباء وداء للمجتمع ، حجم المشكلة كبير جداً .

الأستاذ علاء :

سيدي ناهيك عن مرض الإيدز المرافق للتعاطي بسبب المحاقن الملوثة .

البعد عن الله يسبب انحرافاً أخلاقياً وإدماناً وأمراضاً لا تعد ولا تحصى :

الدكتور راتب :

الأمور متشابكة ، البعد عن الله يسبب انحرافاً أخلاقياً وإدماناً وأمراضاً لا تعد ولا تحصى الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

(سورة الأحزاب)

بل إن الذي يبتعد عن الله وعن منهجه يظلم أول ما يظلم نفسه التي بين جنبيه ، ويخسر أكبر خسارة في تاريخ البشرية أن يخسر الأبد والدار الآخرة ، وقد قال الله عز وجل :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر الآية : 15)د

أحد أسباب انحراف الإنسان عن منهج ربه :

غفلته عن سر وجوده وغاية وجوده :

الإنسان حينما أتى إلى الدنيا ليستعد لجنة عرضها السماوات والأرض ، فجاء إلى الدنيا وانغمس في أوحال الشهوة ، وما من شهوة أودعها الله فينا إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها ، وليس في الإسلام حرمان ، فالشهوة كالوقود السائل في المركبة إن وضع في المستودعات المحكَمة ، وسال في الأنابيب المحكَمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولَّدَ حركة نافعة ، أقلتك أنت وأهلك إلى مكان جميل ، أما إذا صُب على المركبة أعطى شرارة أحرقت المركبة ومَن فيها ، الشهوة إما أن تكون قوة دافعة ونافعة وخلاقة وإما أن تكون قوة مدمرة ، فلذلك أحد أسباب انحراف الإنسان عن منهج ربه أنه يقع في المخدرات نتيجة لغفلة الإنسان عن سر وجوده وغاية وجوده وحينما يعصي ربه يصاب بالكآبة :

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

الدنيا إما دار سعادة للإنسان أو دار شقاء :

هذه الدنيا إما أنها دار سعادة وقد قال الله عز وجل :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

وإما أن تكون دار شقاء ، فالكآبة تستلزم هذه المخدرات ، المخدرات فيها أوهام الآلام الضاغطة التي لا تحتمل قد يهرب صاحبها إلى المخدرات ، فلعله ينسى أمراضه ودائماً وأبداً لا تحل مشكلة بمشكلة ، أنا من أجل أن أوضح هذه الحقيقة أضرب هذا المثل ، إنسان في عنده ندبة ظاهرة في خده الأيمن ذهب إلى طبيب تجميل قال له سأنزع لك قطعة من هذا الخد أضعها هنا .

ماذا فعل ؟ ما فعل شيئاً حلّ مشكلة وخلق مشكلة ، فالذي يهرب إلى المخدرات ليحل مشكلاته من بعده عن الله وقع في مشكلة أكبر ، لذلك أحياناً المعاصي تسلك طريق انفجاري من معصية إلى مخدرات إلى جريمة إلى قتل ، وهكذا لذلك معظم السرقات بالمئة خمسين منها تنقلب إلى جريمة قتل ، ومعظم الانحراف عن السلوك ينقلب إلى مخدرات ثم إلى جنس ثم إلى إباحة ثم إلى قتل ، فالإنسان ما لم يهتدِ لمنهج الله عز وجل فقد حكم على نفسه بالشقاء .

لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه :

أستاذ علاء الآية الدقيقة جداً :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

لماذا جاء تعليم القرآن الكريم سابقاً لخلق الإنسان ؟ شيء غير منطقي لكن العلماء قالوا : الترتيب بالآية ترتيب رتبي ، لا ترتيب زمني بمعنى لا معنى من وجود الإنسان من دون منهج يسير عليه . آلة بالغة التعقيد كومبيوتر طبي ثمنه خمسين مليوناً ، لو جاءنا بلا تعليمات الصانع نخاف أن نشغله بلا توجيهات الصانع نحرقه ، وإذا جمدنا ماله خسرنا أيضاً أليس هذه التعليمات أهم من الآلة نفسها ؟ فلذلك القضية قضية المنهج مهمة جداً ، ممكن إذا ابتعدنا عن الدين وقعنا في مشكلات لا تنتهي .

الأستاذ علاء :

سيدي كما تفضلت هذه المشكلة ليست مشكلة مجزوءة أو هي تنأى عن بقية المشكلات وإنما ترتبط ارتباطاً عضوياً ببقية المشكلات والجرائم ، الإنسان يقع تحت مشكلات ببعده عن الله عز وجل ، تحت ضائقة مادية ، ضائقة عاطفية ما إلى ذلك ، يريد أن يهرب من هذا الألم إلى شيء آخر ، وهو الذي يتوهم فيه أنه يسري عنه ويجعل منه مسروراً كما يعرف في عالم من يتعاطى المخدرات ، أما في الواقع كمن ينتحر يحل مشكلته بالانتحار لكنه بطيء ، الآن سيدي هذه المشكلة كانت بالمواد المزروعة النباتية ، وكان تأثيرها موجود لكن الآن صار استخلاصات وصار هناك مواد صيدلانية وخرجت لدينا مركبات أخرى هذه المركبات تؤثر على الجملة العصبية ، وحياة الإنسان بكل معنى الكلمة ، هل لنا أن نتعرف على الخسائر التي تصيب البشرية من خلال هذا السم ؟

الشباب أكبر قوة دافعة علينا أن نحصنهم من أي انحراف وأن نصحح عقائدهم :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء في نقطة دقيقة جداً نحن فيما مضى قبل خمسين عاماً تشبه حياتنا حديقة حيوان تقليدية ، الوحوش في الأقفاص خطرهم محدود ، بؤر فساد محدودة جداً ، الآن حياتنا تشبه حديقة حيوان إفريقية، الوحوش طليقة ، فهذا الزائر إذا ما دخل إلى سيارة مصفحة يؤكل .

يوجد الآن صوارف للانحراف لا تعدّ ولا تحصى ، لذلك الآن الأبوة مسؤولية كبيرة جداً يعني شمة واحدة تجعل الابن يدمن على المخدرات ، يكون له اتجاه جيد ، عنده انضباط ، له تربية جيدة ، فإذا هو يبيع أثاث بيته ، وقد يبيع عرضه من أجل أن يتابع ، وهؤلاء تجار المخدرات ونحن نرحب بأن يحكم

عليهم بالإعدام لأنهم يعطون المخدرات أولاً بلا مقابل وهناك نوع من المخدرات التعلق بها سريع جداً، من شمة واحدة أو شمتين يصبح مدمن مخدرات فلذلك القضية الآن قضية عالمية ، تعنى بها جميع المجتمعات ، أي مجتمع متدين ، غير متدين ، قضية تهدد مستقبل أمة ، تهدد اقتصاد أمة ، تهدد سلامة أمة ، وكما تعلمون الأمة بشبابها ، النبي صلى الله عليه وسلم قال ريح الجنة في الشباب . فهؤلاء الشباب أكبر قوة دافعة ، سيدنا أسامة بن زيد شاب في السابعة عشر من عمره كان قائد جيش ومن جنوده أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ، ريح الجنة في الشباب ، ودائماً الأنبياء حولهم شباب لذلك نحن يجب أن نهتم بالشباب ، أن نحصنهم من أي انحراف ، أن نصحح عقائدهم ، أن نصحح تصوراتهم ، أن نجعلهم يرتبطون بأمتهم ، أن يحملون هم أمتهم ، أن يسعون إلى صلاح أمتهم ، أن يستعيدوا دور أمتهم القيادي في العالم .

على كل أمة أن تحل مشكلات الشباب في الدرجة الأولى :

أنا أرى أن الأمة لا تفلح إلا إذا اعتنت بشبابها وحلت مشكلاتهم ، وأنا أرى أن هذه المشكلات في الدرجة الأولى ، التعليم ، فرص العمل ، الزواج ، المسكن ، هذه المشكلات أساسية ، حينما تؤمن للشاب فرصة عمل صار له دخل يبحث عن شريكة حياته ، نقدم له بيتاً بشكل معين تعاوني ، صار عنصراً بناء ، أما إذا الطريق مسدود ، لا في أمل في الزواج ولا في بيت ولا في عمل طبعاً أحد أسباب الوقوع في هذه الآفة الخطيرة جداً الطرق المسدودة أحياناً .

الأستاذ علاء :

سيدي أنا أعود للأسباب إن شاء الله بالتفصيل التي تفضلت بها ، وكيف نعالج هذه الأسباب ، الآن سيدي قبل أن نجيب عن الأسباب إذا أذنت لي مشكلة المخدرات لها خط هذا الخط يتعلق بأربعة أقسام ، القسم الأول بلد الزراعة ، القسم الثاني بلد الصناعة التي تصنع ، الثالث بلد العبور ، الرابع بلد الاستهلاك ، تمر هذه الآفة بمفهوم أجهزة الضبط بأربعة أنواع من الدول وهناك خطوط يقال خط البلقان ، وخط الشمال ، وخط الجنوب ، التي تنشط من خلالها تجارة المخدرات ، الآن من خلال هذه المشكلة نتبين الخسائر التي تمنى بها .

خسائر المخدرات :

1 – خسائر ظاهرة :

الدكتور راتب :

هل تصدق أستاذ علاء أن السعر في بلد الزراعة ينقلب عند الاستهلاك مئة ألف ضعف ، من ليرة إلى مئة ألف ليرة ، أولاً هناك خسائر ظاهرة نفقات مكافحة المخدرات ، خفض الطلب على المخدرات ، التوعية ، الإدارة العامة لمكافحة المخدرات ، المباحث العامة ، الجمارك ، السجون ، الشرطة الجنائية، سلاح الحدود ، خفر السواحل ، القضاء ، الطب الشرعي ، برامج التوعية والتشخيص ، برامج إعادة التأهيل وأنا أثمن عالياً أن بلدنا الطبيب عدّ الذي يتعاطى المخدرات عدّه مريضاً فإذا سلم نفسه يعفى من المساءلة ولا يعاقب ولا أي خطر يتهدده ، فإذا قبل أن يعالج يؤخذ إلى مصحات وبالمجان ، بادرة طيبة جداً ، هذه خسائر النفقات بالمليارات من أجل مكافحة المخدرات .

الأستاذ علاء :

وقد لا يحسب الأخ المشاهد أنه في هذا الرقم .

الدكتور راتب :

الإدارة العامة لمكافحة المخدرات ، المباحث العامة ، الجمارك ، السجون ، الشرطة الجنائية ، سلاح الحدود ، خفر السواحل ، القضاء ، الطب الشرعي ، برامج التوعية والتشخيص ، هذه كلها خسائر ظاهرة .

1 – خسائر مستترة :

أما المستترة التهريب ، والاتجار بالمخدرات ، وزراعة المخدرات ، أرض كان ممكن أن تقدم فواكه ومحاصيل زراعية وغذاء للأمة أصبحت تقدم دماراً ، الأمة بخسارة لأن الأرض خسرناها ، المهرب خسرناه كان عنصراً نافعاً صار عنصراً مؤذياً ، وأنا أثمن عالياً أن التاجر يحكم بالإعدام ، شيء آخر تناقص الإنتاج ، اضطراب العمل ، حوادث المرور ، هذه خسائر مستترة .

2 – خسائر بشرية :

نرى حادث سير ، قد يكون وراءه إنسان يتعاطى المخدرات ، يجوز أن يقتل قتلاً بمركبة ثانية ، هو

السبب .

الآن في عندنا خسائر بشرية وكما تعلم أستاذ علاء بالميزان الاقتصادي أكبر مورد بشري هو الإنسان، العالم خسران مئة وثمانين مليوناً ، هؤلاء الذين يتعاطون وفي حولهم ملايين أيضاً يقدمون لهم هذه الخدمات ، هذه خسائر ظاهرة ومستترة وبشرية .

لكن الحقيقة الدقيقة أن هذه الخسائر يصعب تقديرها أو حصرها بدقة ، الإنسان معقد جداً ، نحن حياتنا حياة شبكة ، كله متداخل ، أحياناً في خسائر لأهل المدمن ، أحياناً يصيب أمه جلطة تميتها من شدة الألم، أحياناً الأب يموت قهراً من ابنه ، الابن كان من الممكن أن يكون عنصراً صالحاً صار عنصراً سيئاً

مجتمعاتنا بعيدة عن الحالات الوبائية الكبيرة بسبب الدين في المجتمع :

لذلك الخسائر كما يقولون متوالية هندسية والنزف شديد والمخدرات تدمّر المجتمع والدول والأفراد والأسر ، الحقيقة المشكلة كبيرة جداً ، لكن أنا من باب التفاؤل ، من باب الثقة ، مجتمعاتنا بعيدة عن الحالات الوبائية الكبيرة جداً ، هذه نعمة كبيرة سببها بقية الدين الذي في المجتمع .

الأستاذ علاء :

سيدي الآن إذا أتينا إلى مجتمعنا بفضل الله كما تفضلت هو محصن ، وما تبقى لديه من دينه وموروث أخلاقه وقيمه يحصنه وينظر إلى من يشتغل في هذه القضية نظرة معينة ، وباعتبارنا نقع على خط تهريب اسمه خط البلقان ، سوريا بلد عبور وبالتالي أراضيها تقصد من بلد الزراعة والتصنيع إلى بلد الاستهلاك وعلى طرفي المرور هنالك تحصل حالات من التعاطي ، لدينا إحصائية من المضبوطين مئة وخمسين شخص بالمليون ، هذا من المضبوطين ، الحمد لله ليست لدينا مشكلة كبيرة جداً موجودة في بلدان العالم ، لكن قانوننا استبق ، المشرع استبق هذه المشكلة وآزر المشكلة العالمية في قطع الطريق على هؤلاء ، سيدي لا يوجد تاجر مخدرات تناول المخدر الذي يروجه .

تاجر المخدرات إنسان مجرم بحق الأمة :

الدكتور راتب :

لذلك هذا إنسان مجرم بحق الأمة عقوبته الإعدام أقل عقوبة بحقه ، أستاذ علاء المشكلة أن المخدرات تنتقل كتداعيات إلى جرائم أخرى كالعصابات المنظمة ، إلى الدعارة ، إلى السرقة ، إلى السطو ، إلى الخطف ، إلى غسل الأموال ، إلى المشاركة في الأنشطة الاقتصادية مشروعة وغير مشروعة ،

الأمور متداخلة جداً ، ونحن فيما أظن وهذا من باب حسن الظن أنه يصعب أن تتسلل هذه المشكلة إلى جهات أخرى ، أما في بلاد أخرى وأنا أعلم علم اليقين تتسلل هذه المشكلة إلى مؤسسات اقتصادية وسياسية مواقع السلطة والنفوذ وتؤثر في الانتخابات ، وقد يكون لتجار المخدرات رأي في الحكومة هذه مشكلة كبيرة جداً ، كولومبيا في أمريكا .

الأستاذ علاء :

سيدي هذه التجارة يتولد عنها مبالغ طائلة وأرقام فلكية .

الدكتور راتب :

أعلى دخل في العالم دخل المخدرات .

الأستاذ علاء :

لذلك هنالك من يحول شكل هذا المال من مال غير مشروع إلى مال مشروع من خلال التبييض ، والحمد لله في بلدنا صدر قانون غسيل الأموال وملاحقة هذه المسألة بكل معنى الكلمة أو التبييض ، الآن لو أتينا سيدي إلى الأسباب التي تدفع المرء لكي يدمن ما هي هذه الأسباب ؟

تعريف الإدمان :

الدكتور راتب :

الإدمان قبل كل شيء : التعاطي المتكرر للمواد المؤثرة بحيث يؤدي إلى حالة نفسية وأحيانا عضوية ، وتسيطر على المتعاطي رغبة قهرية ترغمه على محاولة الحصول على هذه المادة بأي ثمن ، ولو ببيع عرضه ، وأنا أعني ما أقول ، طبعاً يبيع أثاث بيته ، يبيع أولاده ، يبيع عرضه من أجل أن يشتري المخدر ، هذا الإدمان خطير جداً والحقيقة بطولة الإنسان ألا يقع في أي إدمان بأي شيء آخر ، قال أفضل عادة ألا تتعود أية عادة .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم الإدمان نتيجة تعاطي هذه المادة ، هذه المادة تتعشق خاصة مع الأعضاء النبيلة الدماغ والأعصاب وبالتالي في الدم والجسم ، تجعل من هذا المتعاطي يطلب هذه المادة لترتفع إلى نفس المستوى ، ولدينا مشكلة أخرى هي مشكلة الجرعة المتزايدة ، يبدأ بجرعة بسيطة الإنكريزينج ثم تبدأ بالتزايد إلى أن يصل إلى الجرعة القاتلة .

الدكتور راتب :

الجرعة البسيطة لمرة واحدة تكفيه ، الثانية يحتاج إلى زيادة آلياً .

الأستاذ علاء :

سيدي نأتي إلى أسباب هذا الإدمان .

الأسباب التي تدفع المرء لكي يدمن على المخدرات :

1 – التهاون في التربية الدينية :

الدكتور راتب :

الحقيقة فيما أرى ولعلي على صواب فيما أرى أن الإنسان حينما يتعرف على الله يتعرف على منهجه يحقق سلامته وسعادته في الدنيا والآخرة ، أول سبب خطير التهاون في التربية الدينية ، التربية الدينية فيها سلب وفيها إيجاب ، فيها روادع وفيها إيجابيات ، فهذا الوقت يمتلئ ، الإنسان مصمم ليختار هدفاً لا نهائياً هو الله ، فإذا اختار هدفاً محدوداً وهو المتعة ، المتعة محدودة فإذا أحاطها الإنسان تاقت نفسه إلى متعة أكبر وهكذا ، فأنا أرى بادئ ذي بدء أكبر مشكلة يعاني منها المجتمع العالمي اليوم هي المخدرات سببها التهاون في التربية الدينية ، في بعض الآثار : لذلك البنت يوم القيامة تقف أمام رب العزة ، تقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، هو الذي سبب فسادي .

فالأبوة مسؤولية كبيرة ، لما الأب يربي أولاده ولم يبقَ بالمناسبة من ورقة رابحة في أيدي المسلمين إلا أولادهم ، وكنت أقول دائماً يجب أن نقابل القنبلة الدَّرية بقنبلة الذُّرية ، فحينما يهمل الأب تربية أولاده لكن أكبر مشكلة في الموضوع أن هذا الذي أناط الله به تربية أولاده يحتاج إلى تربية ، لذلك البيت الخرب ، البيت الذي فيه شقاق ، فيه معاصي وآثام ، نفور ، خصومات مستمرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم عَنْ صُهَيْبٍ]

أولاً المحافظ على دينه يحمد الله في السراء والضراء ، وإيمانه أكبر وقاية أكيدة من أي انحراف أو تعاطي المخدرات .

2 - التفكك الأسري :

يقع بعد التقصير في تربية الأولاد تربية دينية التفكك الأسري ، صدق ولا أبالغ أن التفكك الأسري

يبقي بصمات خطيرة جداً في نفوس الصغار ، أنا البارحة في درس من دروسي تقدم طفل كالملك صغير وتخطى رقاب الناس ليسلم عليّ ، ثم قال لي أستاذ لا تقتلني فقط ، لا تقتلني معنى هذا أنه يعاني في بيته مشكلة ، طفل مثل الملاك لا تقتلني فقط .

واحد قال له سلم على الأستاذ فجاء بكل أدب وثيابه أنيقة لا تضربني لا تقتلني أستاذ . أنا تصورت في عنده خطأ في بيته خطأ كبير ، والله يا أستاذ علاء الأب إذا أحسن تربية أولاده هو أسعد الناس في الأرض ، الإنسان أولاده امتداده ، عندما يهتم بهم يهتم بدراستهم ، يهتم بأخلاقهم ، يهتم بعقيدتهم ، يهتم ببناته ، هذا أب له عند الله أجر لا يعلمه إلا الله :

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (21))

(سورة الطور)

لذلك التفكك الأسري وأنا أعزي كل التفكك الأسري إلى المعاصي والآثام :

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر ، وإسناده حسن]

على كل إنسان أن يهتم بتربية أولاده و يبعد الخلافات عنهم :

إذا أخطأ الأب أو أخطأت الأم ينشأ الشقاق بينهما من يدفع الثمن ؟ الأولاد ، التفكك الأسري يأتي بعد التقصير في التربية الدينية ، أسرة مضطربة ، أسرة جحيم ، صياح وضرب وكسر وبغضاء وعداوة ، والأب جهة والأم جهة وفي تفلت والابن مقهور والأب والعياذ بالله ، التفكك الأسري يأتي بعد التقصير في التربية الدينية ، والخلافات المستمرة ، أنا أتوجه للأخوة المشاهدين إذا في خلاف بين الزوج وزوجته ينبغي أن يعالج في غرفة مغلقة لا أمام الأولاد ، حتى لو أن الإنسان لحكمة بالغة بالغة هجر زوجته لا يهجرها بغرفة أخرى يكشف الطفل السبب ، اليوم أمه نائمة في غرفة الجلوس ، يجب أن يهجرها في الفراش نفسه الأمر يبقى في غرفة النوم فقط ولا ينتقل إلى الأولاد ، أنا أتمنى من أعماق أعماقي أن يحرص أي أب أو أي أم على حصر الخلاف في غرفة النوم فقط لا أمام الأولاد ، فالتفكك الأسري خلافات مستمرة .

حدثني أخ البارحة قال أتناقش أنا وزوجتي يبدو الصوت ارتفع قليلاً بكى الصغير ، تألم ما صار شيء مناقشة فقط فبكي الصغير ، أي شيء يسعد الطفل ؟ أن يرى أمه و أباه على وئام ، تؤمن له صحة نفسية ، تؤمن له مستقبلاً رائعاً عندما ينشأ بوضع سليم .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (73-95) : اليوم العالمي لمكافحة التدخين والمخدرات2 ـ من أضرار المخدرات تفكك الأسر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

المخدرات سم قاتل هاجم البشرية و قطّع أوصال المجتمع :

الأستاذ علاء :

سيدي في الحلقة السابقة بدأنا موضوعاً هاماً ، تناولنا بعض أطرافه ، هذا الموضوع يتعلق بمشكلة المخدرات ، بمشكلة التعاطي ، بهذا السم الذي دهم مجتمعاتنا وهاجم البشرية ، ويأكل من أبنائها زهرتهم ، ويهدم اقتصادياتهم وبيوتهم ، ويقطع أوصال علائقهم ومجتمعاتهم وأسرهم ، أتى بريح سموم دخلت من كل مدخل غير طبيعي ، كان هذا الدخول على المجتمعات وخراب المجتمعات لأسباب لها حواضن لم ينزل هكذا قدراً مقدوراً ، وإنما هناك حواضن كانت بيئة صالحة له فاستقدمته واستمطرته ، قلت لنا سيدي أن في مئة وثمانين مليون إنسان في العالم يتعاطون عدا الشبكة التي تروج وتشتغل بهذه المسألة ، هنالك أربعون مليون من يتعاطى القات في العالم ، بالإضافة إلى الخسائر والمصاريف الباهظة التي تدفعها أجهزة الضبط ووزارات الداخلية في العالم لضبط هذه المشكلة ، وحجم الاتجار ، وانتقال هذه المسألة ، بالإضافة إلى المراكز الصحية ، والقضاء ، والتوعية الإعلامية في مواجهة هذا السم .

وصلنا إلى أسباب الإدمان بعد أن عرفت لنا الإدمان وأطلعتنا في الحلقة الماضية على الخسائر ، وحجم المشكلة عالمياً ، توقفنا عند مسألة هامة من حيث الأهمية هي تفكك الأسرة ، والأسرة هي الحاضنة الأساسية التي ينمو بها هذا الطفل نمواً إما أن يكون صحيحاً وإما أن يكون غير صحيح ، ماذا عن هذه المسألة ؟

أسباب الإدمان على المخدرات عديدة منها :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، أستاذ علاء جزاك الله خيراً .

1 ـ إهمال منهج السماء :

شرائع السماء تدعم الأسرة ومناهج المتفلتين تفككها ، فإن أردت أن تمتحن منهجاً ما فانظر هل يدعم الأسرة أم يفككها ؟ لذلك أي سلوك وأي إجراء وأي قانون وأي تنظيم يدعم الأسرة فهو مشتق من منهج الله ، لذلك تيسير الزواج ، تأمين بيوت للشباب ، تأمين فرص عمل ، تيسير التعارف في سن الزواج على من يحتاجون من زوجات في سن الزواج أيضاً ، هذه كلها أعمال تسهم في حل مشكلات الأمة ، فلذلك بعد ضعف التربية الدينية ، بعد ضعف الارتباط بالخالق ، الارتباط بمنهج السماء ، منهج السماء له ميزة هو في منع لكن في إيجابيات ، أحياناً ممنوع ، حرام ، مكروه ، لكن في صلة بالله ، في سعادة، هذا الذي يقول : في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

هذا الذي يقول : مساكين أهل الدنيا ، جاؤوا إلى الدنيا وخرجوا منها ، ولم يذوقوا أطيب ما فيها ، عظمة منهج السماء دعك من الأوامر والنواهي ، دعك من المحرمات في مضمون نفسي واجتماعي وفكري ، وفي مضمون يرتبط بالسعادة .

2 ـ التفكك الأسري و تفلت الأب :

الآن يأتي بعد إهمال منهج السماء ، ضعف تربية الأولاد التربية الدينية ، تفلت الأب أحياناً ، يأتي التفكك الأسري ، الحقيقة هذا عنوان من بنود هذا العنوان الخلافات المستمرة بيت فيه شقاق ، وإن سألتني عن بيت يقع في أقصى مكان في المدينة غرفة واحدة وفي وئام زوجي وفيه حب أفضل من بيت ثمنه مئة وثمانون مليوناً وفيه أثاث قريب من هذا الثمن ، هذا الذي أراه ، الزواج أساس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المشرع قال مرة :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

فحمد الله على أنه يحب زوجته أم أولاده حليلته لأنه سيسعى مع زوجته لتربية الأولاد فالخلافات المستمرة تأتي من تفلت من منهج الله ، الزوجة لا تطيع الله(تعصيه)والزوج كذلك ، المشكلات نتبع ، تتفجر ، وقد تكون الزوجة في طموح زوجها والزوج في طموح زوجته لكن المعاصي والآثام تورث بينهما العداوة والبغضاء ، الدليل :

(فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية : 13)

يجب أن ترى في البيت المؤمن فرق صارخ عن بيت غير مؤمن فالبيت المؤمن في ود ، في محبة ، في نعومة ، في هدوء ، في لين ، في لطف ، في ابن ينشأ بوضع صحي ، ينشأ على أم تحب زوجها وعلى زوج يحب زوجته ، ينشأ بوضع سليم لذلك التفكك الأسري عنوان من بنوده الخلافات المستمرة .

3 ـ الطلاق :

ثم الطلاق ما من إنسان استشارني في تطليق زوجته أقول له هذا الجواب هل تتوهم أن الطلاق يحل المشكلة ؟ تبدأ به المشكلة ، إذا في أولاد هذه أمهم وهذا أبوهم وقد انفصلا عن بعضهما ، الطلاق تبدأ به المشكلات فلذلك البطولة فيمن أقدم على الزواج أن يتزوج امرأة لا يحتاج إلى تطليقها ، أن تكون الدراسة عميقة جداً ، أول حق لابنك عليك قبل الزواج أن تحسن اختيار أمه .

الأستاذ علاء :

قال عقك في واحدة وعققته في ثلاث ، منه عدم اختيار الأم المناسبة .

4 ـ انشغال الوالدين :

الدكتور راتب :

الآن في عندنا مشكلة انشغال الوالدين ، أنا الذي أراه الإنسان في بدايات حياته مشغول بتأسيس مستقبل وعمل يهمل أولاده ، يقول لك أنا غادرت البيت قبل أن يستيقظوا وعدت إليه بعد أن يناموا ، يتوهم أنه يعمل عملاً جيداً ، لا ، إذا ما في عندك وقت فراغ تربي أولادك أنت لغيت حياتك ، هذه قضية خطيرة جداً .

أحياناً مشكلة نعالجها إنسان يترك أسرته يسافر إلى بلد بعيد يحقق دخلاً كبيراً ، وهو في النهاية لأسرته لكن غاب عن أسرته سنة ، الأم غير منضبطة كثيراً ، الأولاد في الطرقات ، الأصدقاء المنحرفون لازموهم ، قد يعود الأب وقد رأى بيته انهار ، انهار انهياراً كلياً ، أنا مؤمن لا يمكن أن أسمي النجاح الجزئي نجاحاً ، قد ينجح في كسب المال وقد يخسر أولاده وزوجته ، قد ينجح في أسرته ويخسر ربه ، لم يطلب العلم .

لا يُعدّ المرء متفوقاً إلا إذا أصلح علاقته بالله و بأهله وأولاده و عمله وصحته :

لذلك أنا أقترح أن هناك أربع محطات كبيرة أي خلل في واحدة ينعكس على الثلاثة ، علاقتك بالله ، وعلاقتك بأهلك وأولادك ، وعلاقتك بعملك ، وعلاقتك بصحتك ، وما لم تتفوق فيها جميعاً لا تكون

متفوقاً ، هذا شيء مهم جداً .

ينبغي أن يعلم الأخوة الكرام أن النجاح في واحدة لا يعد نجاحاً ، لا بد من أن تجلس مع أولادك ، لا بد من أن تحاورهم ، لا بد من أن تعرف من أصدقائهم ، لا بد من أن تعرفي أيتها الأم أين سهرت البارحة ابنتك ؟ مع من سهرت ؟ أحياناً البنت ذكية جداً والابن أذكى يقدمون شرحاً لغيابهم مقنع والأب ليس مهتماً والأم كذلك ، يسمع ويصدق يكون في انحراف خطير جداً بداية مخدرات ، والله بالمواقع المعلوماتية في الانترنيت في قصص عن مصير الفتيات والشباب بعد تعاطي المخدرات شيء لا يصدق، شاب دمر أسرته كلها الأب مات بأزمة قلبية والأم ماتت من شدة الألم ، لذلك أكبر عطاء إلهي للأب أن يكون أولاده صالحين :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ (74))

(سورة الفرقان)

توعد النبي الكريم الأم التي تقف على تربية أولادها بالجنة :

إذاً انشغال الوالدين ، الأم مشغولة مع الجارات ، وبالزيارات ، وتحقق الطموحات وتتباهى أمام الآخرين ، وابنها في الطريق مع صديق منحرف دلّه على فيلم منحرف ، دلّه على شمة مخدرات ، لذلك الأم التي تقف على بيت أولادها فهي معي في الجنة .

((وأيما امرأة قعدت على بيت أولادها (مشرفة مهتمة مربية)فهي معي في الجنة))

[ورد في الأثر]

في حديث أدق :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني ، تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً ، فأبت الزواج من أجلهن))

[ورد في الأثر]

أنا لا يعنيني أن المرأة إذا تزوجت أخطأت ، لا ، لكن يعنيني كم لها عند الله من أجر ؟ أستاذ علاء هل تصدق أن امرأة خطبها النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذرت ، خطبها لتكون السيدة الأولى في المجتمع سألها لماذا ؟ قال يا رسول الله لي خمسة أولاد أخاف إن قمت بحقك أن أقصر بحقهن .

هذه تربية الإسلام ، لذلك الأسرة ما لم تدعم بكل الجهود ، ما لم تقدس العلاقة الزوجية ، ما لم يكن هناك تفاهم بين الزوجين ، ما لم يكن هناك حب بين الزوجين وتفاهم الأولاد ينحرفون ، لذلك انشغال الوالدين ، ليس اليتيم من يجد أماً تخلت أو أباً مشغولاً ، والله قد يربى الإنسان عند جدته وجدته حازمة جداً أفضل ألف مرة من أن يكون عند أمه وأبيه وهما مشغولان عنه .

الأستاذ علاء :

سيدي يعتقد الأبوان أن يا أخي ذهبت إلى عملي وأتيت بالمال وأنا أداوم دوامين وأنا أجلب هذا المال وأغيب هذا الغياب من أجل أولادي ، والأم تقول أنا غسلت وكنست ، وأنا نظفت ، وأنا أطعمت وطبخت ، ويظنان أنهم أسقطوا الواجبات بهذا الشيء ولا يهتمان كما تفضلت بتفريغ وقت للحاجات النفسية لهذا الطفل ، ومعرفة كينونة نفسه ومواهبه وميوله ومن يصادق ، هذه القضية يعتبرها ثانوية ، طالما أنه ذهب خارج البيت وأتى بالنقود ، ماذا نقول ؟

على كل أم و أب أن يبحثا عن صديق لأولادهما من أسرة مشابهة لهم ومنضبطة :

الدكتور راتب :

هل تريد توجيهاً نبوياً في هذا الموضوع ؟

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

هو يطعمه ، يأتي لها بالطعام واللباس ، لكن ضيع خلقه ضيع دينه ، أستاذ علاء الآن الشيء الثابت يوجد بحياة الطفل أب و معلم و شيخ في الجامع يخطب و أم ، تأثير صديق الابن ستون بالمئة والأطراف كلها المتبقية أربعون بالمئة ، الأب مع الأم مع المعلم مع الشيخ أربعون بالمئة وصديقه السيئ له ستون بالمئة ، لذلك أنا أقول البطولة أن تعرف من هو صديق ابنك ؟ ابحث له عن صديق جيد واسمح له أن يأتي إلى البيت واطمأن أن هذا الصديق من أسرة مشابهة لك ، منضبطة ، وأيتها الأم ابحثي عن صديقة ابنتك هذه قضية مهمة جداً ، الآن ثبت في علم النفس أن أعلى تأثير على الطفل صديقه ، أنا أعرف أسر وأنا أثني عليها يختار الأب صديق ابنه ويسمح لابنه أن يزوره ويسمح لابنه أن يزور صديقه ، أنا مرة كنت في أمريكا فشاب جاء بصديقه ، صديقه زنجي وغير مسلم فالأم رحبت بصديق ابنها وهيأت له طعاماً ورأى احترام الأم لزوجها ورأى تقدير الابن لأمه ، شيء لفت نظره .

إذا أنت اخترت لابنك صديق من أسرة راقية منضبطة صاحبة مبدأ وسمحت له أن يزوره صار في تزاور ، أنا حتى كان في مشروع إذا شعبة ندعو أولياء الأمور وأن نبلغهم أن لو فرضنا صديق ابنك زارك يجب أن ترحب به لأن هذا من نفس الاتجاه ، الآن أنا أركز على صديق الابن وصديقة البنت . أكثر أنواع المخدرات تأتي من صديق .

على كل أسرة أن تضبط حركات أولادها ضبطاً جيداً :

الأستاذ علاء :

سيدي ذكرتني بقضية والدتي رحمة الله عليها وكنت في الصف الخامس أو السادس ، وكان هنالك صديق يأتي لا يدرس متفلت يدخن ، علمت هذه القضية فطرق الباب علينا أنا لا أدري فدفعته عن الباب وقالت له هذا الباب يجب أن تنساه ، حتى في المدرسة لا أكلمه ، أنا تألمت من هذه الحادثة لكن عندما يكبر الإنسان يعرف قيمة هذه القضية ، الآن سيدي لو سمحت لي هنالك قضية مررت عليها عندما نعرف صديق الابن أو صديقة البنت وهذا الولد أين يذهب ؟ وأين يأتي ؟ وأين كان بشكل حقيقي ؟ نستطيع أن نضبط حركات هذا الولد ، الكثير من الناس يطلبوني على الهاتف في آخر الليل ابني ضبطته الشرطة في مكان معين ، والله كان يدرس عند صديقه ، بساعات متأخرة في الليل لما تبحث في الأمر كان مع أصدقاء السوء ، إما في سرقة أو تعاطي مخدرات ، وتعاطي المخدر يستوجب السرقة يحتاج مال ، هي لا تعرف هو قال لها أنا ذاهب أدرس عند صديقي ، أنا ذاهب إلى السوق ، في سذاجة ، وتحلف عنه لذلك سيدي في نقاط هامة عندما يأتي الولد منهارة قواه ، في هنالك في العيون حلقة سوداء ، في الأنف حالة سيلان ، عند العينين وكأنه حالة تحسس دائمة ، اصفرار يجب أن ننتبه إلى أولادنا ، يجب أن يدقق الإنسان لأن هذه المواد لها تبديلات فيزيولوجية وفورمولوجية على شخص الإنسان .

المخدرات تنهي كل قيمة لدى الإنسان :

الدكتور راتب : أنا قرأت قصة مدرّس في محافظة شمالية شرقية مجاورة للعراق له ابن صديقه أقنعه ببعض المخدرات الأمر انتهى به إلى أن أصبح عميلاً وأعدم في أفغانستان ، بدأ من صديق ، بدأ من انحراف أخلاقي ثم الخمر ثم العمالة وانتهى .

الأستاذ علاء :

سيدي المخدرات تنهي كل قيمة لديه ، من السهل أن يستخدم عميلاً ، سيدي الاحتلال الأمريكي في العراق ماذا وزع على الناس ؟ وزع كماً من المخدرات مع سيديات الإباحية ، أفغانستان الآن تُزرع بالمخدرات بعد منع زراعته في أفغانستان والآن تعود زراعة المخدرات في ظل الاحتلال الأمريكي والدولي لها .

5 - الإخفاق في التعليم :

الدكتور راتب :

في أسباب أخرى الإخفاق في التعليم ، الإنسان أودع الله فيه قدرة إدراكية فما لم تلبَ به هذه الحاجة يلتفت إلى سخافات :

((إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

هذه النفس ما لم تشغل بعظائم الأمور اشتغلت بسفاسف الأمر ، لذلك دائماً الذين يتعاطون المخدرات بعيدون عن الثقافة بعيدون عن التحصيل العلمي ، لما يكون في تحصيل علمي جاد وفي نجاح بعد نجاح، ولا شيء يعين على النجاح كالنجاح ، في للابن جو دراسي اهتمام بدراسته ، متابعة لعلامته ، في حضور مجالس الآباء ، في سؤال الإدارة عن وضع ابنه ، و الآن في إدارات حازمة جداً كل غياب للابن يبلغ والده ، في متابعة بالتحصيل يهتم الأب بابنه ، و عنده ضعف في مادة يهيئ له من يعينه على التفوق في هذه المادة ، وفي معلم مربي يربي هذا الابن وهو ليس مقهوراً يتمتع بوعي وكرامة ، هذا الذي يمكن أن يحول أولادنا من الانحراف إلى البناء ونحن الآن بحاجة إلى أبنائنا ، والله يا أستاذ علاء فيما أتصور الأمل الآن معقود على أبنائنا لمستقبل هذه الأمة وما في عمل أعظم من تربية أولادنا هم الورقة الوحيدة الرابحة في حياتنا ، إذاً الإخفاق في التعليم أحد أسباب تعاطي المخدرات ، الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

سلامة وجود الإنسان و كماله لا يكون إلا بطاعة الله و البذل و التضحية :

الإنسان بالأساس فطور على حبّ وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، سلامة وجودك بطاعة الله ، وكمال وجودك بالبذل والتضحية :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف)

واستمرار وجودك بتربية أولادك ، سلامة الوجود بطاعة الله ، طاعة سلبية ما أكل مالاً حراماً ، ما غش ، ما كذب ، ما أذى إنساناً ، العمل الصالح في عطاء في بذل أعطى من علمه من ماله فالعطاء يرقى بالإنسان :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

(سورة الكهف)

استمرار وجود الإنسان يكون بتربية أولاده التربية الصالحة :

الآن الإنسان مفطور على استمرار وجوده ، يمكن أن يستمر وجود الآباء بأولادهم ، تجد طبيباً ابنه طبيب ، تجد عالماً ابنه عالم ، تجد تاجراً مؤسسة ناجحة جداً ابنه محله ، فهذا نظام الأبوة نظام رائع جداً وكأن الإسلام جعل الضمان الاجتماعي عن طريق النسب .

الأستاذ علاء :

وجعل من هذه المؤسسة مؤسسة تربوية علمية لتأهيل هذا الولد أن يكون خليفة للأب في هذا المنحى .

6 ـ فقر الكسل :

الدكتور راتب :

في عندنا سبب آخر هو الفقر ، إذا تكلمت عن الفقر أقصد فقر الكسل ، هناك فقر القدر إنسان معه عاهة ما عليه إشكال إطلاقاً ، وهناك فقر الإنفاق ، فقر سيدنا الصديق حينما أنفق ماله كله ، فقال : يا أبا بكر ، ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال : أبقيت الله ورسوله ، فقر الإنفاق وسام شرف ، وفقر القدر معذور صاحبه ، أما فقر الكسل وصمة عار في حق الإنسان ، عمله مهمل لا يوجد إتقان ، دخله قليل ، يعمل يوماً يعطل عشرة ، ما معه مال ، الابن ما عاد مربوط بأبيه ، هذه نقطة مهمة جداً الابن بحاجة إلى ثياب جديدة الأب ما معه ، بحاجة إلى نفقات الأب ما معه ، بحاجة إلى قسط لدورة الأب ما معه ، بحاجة إلى كومبيوتر ، فلما يرى الابن أباه كسولاً ، فقره ناتج عن كسل لا يحب عمله انصرف عن أبوه إلى صديقه ، له صديق غني ، انتهى ، أنت لا تقدر أن يرتبط ابنك فيك إلا إذا لبيت حاجاته مبدئياً .

العمل الذي ترتزق منه عبادة ما لم يشغلك عن طاعة وسلكت به الطرق المشروعة :

لذلك أنا أقول العمل عبادة أنا أعني ما أقول ، العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً ، وسلكت به الطرق المشروعة ، وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك ، وخدمة الناس عامة ، وما لم يشغلك عن طاعة ، ولا عن أداة صلاة ، ولا عن طلب علم ، انقلب إلى عبادة ، أنا أحترم إنساناً له عمل يتقنه وكافي أولاده والدنيا فيها خير كبير ، أستاذ علاء في آية أنا أعتقد أن زوال الكون أهون على الله من ألا تحقق :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3))

(سورة الطلاق)

إنسان فكر عندي أولاد أريد أن أؤمن لهم ثياب وطعام صحي وغرفة خاصة في البيت ، كتب ، أقساط، حتى أشعر أنني ترك أولاداً صالحين ، فلذلك الفقر ، فقر الكسل ، هل تصدق أستاذ علاء أن الإنسان يعمل في بعض البلدان المتقدمة ثماني ساعات كاملة وفي بعض البلاد النامية سبعاً و عشرين دقيقة ، وسبع عشرة ومعي معلومات دقيقة أقل من دقيقة ، أنا لا أصدق أن أمة يعمل فيها المواطن سبعاً و عشرين دقيقة في اليوم أن تنتصر على أمة تعمل ثماني ساعات .

الأستاذ علاء :

هذا خلاف لقانون الله .

إتقان العمل سرّ نجاح الإنسان في عمله :

الدكتور راتب :

أبداً ، فلذلك أنا لما أحس الناس على إتقان العمل في دخل بأي وضع ، بأي ظرف أنا مؤمن :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3))

(سورة الطلاق)

تجد الآن مطعماً أرباحه فلكية وحوله عشرة مطاعم لا يوجد ولا زبون من عدم الإتقان ، أتقن واتق الله.

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3))

(سورة الطلاق)

الأستاذ علاء :

من الشرطية تقتضي فعل الشرط ، وجواب الشرط .

على كل إنسان أن يختار عملاً صالحاً ينفع نفسه و أولاده و مجتمعه :

الدكتور راتب :

حتماً أنا أعني ما أقول أنا أخاطب الشباب لا تيأس ، اختر عملاً شريفاً وأتقنه تربح وتربح ، تربي أولادك ، تتزوج ، تشتري بيتاً ، أنا أعني ما أقول لا أتكلم بالأحلام أنا أتكلم من كلام الواحد الديان ، من يتق الله ، يتقن عمله ، يخلص بعمله ، ينفع المسلمين ، ينصحهم لا يغشهم أبداً ، تتحلق الناس حوله ، لذلك فقر الكسل فقط أنا أقول ، فقر القدر على العين والرأس ، والأمة مسؤولة عنه ، أما فقر الكسل لا في إتقان هو مسؤول وبأي عصر المتفوق المتقن لعمله له دخل .

النبي عليه الصلاة والسلام رأى شاباً يصلي في أثناء النهار في العمل قال له من يطعمك ؟ قال أخي ، قال أخوك أعبد منك .

أمسك النبي عليه الصلاة والسلام يد عبد الله بن مسعود فرآها خشنة من العمل رفعها وقال هذه اليد يحبها الله ورسوله . الإنسان لو أتقن عمله صار له دخل جيد ، جاء بالحلويات والفواكه والألبسة الجديد، صار قطباً بالأسرة استقطب كل الأسرة ، أما ما معي أنا أقصد فقر الكسل ، مهمل لعمله لا يوجد تطوير، لأي سبب يلغي عمله ، الطفل انسلخ عن أبيه والتصق بصديق غني يعطيه أحياناً فيلماً إباحياً ، شمة مخدرات ، انتهى .

الأستاذ علاء :

يدخل عليه بطرق غير سليمة ويؤثر على أخلاقه وعلى مستقبله ، وإذا ما عدنا إلى الوراء نجد أن الأب السبب في كل هذه المشكلة .

الدكتور راتب :

هذه صورة لفتاة وجدت ميتة في بيتها نتيجة تعاطي المخدرات ، هذا الشاب أيضاً وجد ميتاً في بيته وأنا قلت قبل قليل دائماً المخدرات ترتبط بالجنس وهذه أمراض الجنس .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (74-95) : اليوم العالمي لمكافحة التدخين والمخدرات3- من أضرار المخدرات فشل التعلم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتذكير :

سيدي الكريم تحدثنا في حلقات سابقة عن آفة المخدرات ، وخطرها على المجتمعات ، وهذه الآفة التي تعطل حركة حيوية ونضارة المجتمع ، وخاصة للشريحة العمرية التي هي الشباب .
تحدثنا عن أسباب هذه الآفة وانتشارها في المجتمعات ، قلت لنا : على رأس هذه المسألة التفكك الأسري ، ثم في الحلقة الماضية أمضيناها بالتفصيل ، التفصيل الرائع عن فشل التعليم ، هنالك أسباب أخرى تؤدي إلى الوقع في هذه الآفة الخطيرة ، وإلى الدخول في عالمها الذي لا يوجد فيه إلا التيه ، ماذا عن بقية الأسباب ؟.

المال قوام الحياة :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، في مقولة رائعة جداً لسيدنا علي رضي الله عنه : كاد الفقر أن يكون كفراً .
ومرة اقتبست هذه العبارة وعدّلتها ، وكاد الفقر أن يكون إرهاباً ، وكاد الفقر أن يكون اختلاساً ، وكاد الفقر أن يكون جريمة ، وكاد الفقر أن يفضي إلى المخدرات ، لأن الله عز وجل خالق السماوات والأرض وصف المال بأنه قوام الحياة ، وأنا أقول : إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله يجب أن تكون غنياً لماذا ؟ لقول النبي الكريم :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

بالمال تحل مشاكل الأمة ، بالمال تفتح ميتماً ، بالمال تعمل تعليماً ، بالمال تعمل مستشفى ، بالمال تعمل مستوصفاً ، بالمال تحل مشكلة البطالة ، تعمل صناعة ، تهيئ فرص عمل للناس ، المال قوام الحياة .

ليس الزهد في المال أن تدع العمل ، ولكن أن تنفق المال في سبيل الله ، فرق كبير بين أن نفهم الزهد ترك العمل ، وبين أن نفهم الزهد إنفاق المال لحلّ مشكلات الأمة .

فلذلك هذا الذي رآه النبي يتعبد ربه في أوقات العمل ، قال له : من يطعمك ؟ قال : أخي ، قال : أخوك أعبد منك .

الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في المخدرات هذه الآفة الخطيرة :

1 ـ الفقر :

أردت من هذه المقدمة أن الإنسان حينما يعمل ويتقن عمله يحقق دخلاً ، هذا الدخل يعطيه طموح أولاده ، الابن يريد كمبيوتر مثلاً ، الابن يحتاج إلى دراجة بالصيف ، الابن يحتاج إلى ثياب معقولة ، يحتاج إلى طعام يشتهيه في السوق ، فأنت حينما تملأ حاجات ابنك بعمل مشروع تجهد فيه ، أنت الآن في عبادة ، الفقر أحد أسباب الالتفات إلى المخدرات لأنه بابا أريد كمبيوتر ، ما معي ، أريد قسطاً لدورة ، ما معي ، ما معي ، ما معي ، ما معي ، هذا شيء ذكرته في لقاء سابق ، قلت : هذا فقر الكسل ، أنا أحترم فقير القدر ، ليس بيده الأمر وأعظم فقير الإنفاق .

((...قال : يا أبا بكر ، ما أبقيتَ لأهلك ؟ قال : أبقيتُ لهم الله ورسولَه))

[أخرجه أبو داود ، والترمذي عن عمر بن الخطاب]

لكنني أحتقر فقير الكسل ، مهمل ، لا يحب عمله ، لا يؤدي واجبه ، لا يتقنه ، لا يطوره ، لا يتابع هذا العمل ، لا يلبي ما وعد ، مثل هذا الإنسان ينصرف الناس عنه ، يقول لك : ما في عمل ، مهما ضاقت الأمور المتقن له عمل ، والمتقن لا يبقى بلا عمل ، دائماً وأبداً .

طبعاً بأيام الرواج الاقتصادي أي عمل يسوق مهما كان سيئاً ، لكن بأيام الكساد لا يبقى إلا المتقن ، أنا أقول دائماً نبحث عن أصل المشكلة ، أب لا يحب عمله ، لا يتقن عمله ، لا يطور عمله ، لا يعتني بزبائنه ، لا يتابع أمره ، فصار دخله قليل جداً ، ما عاد يكفي لشراء طعام ، عندك ابن له طموحات ، لما كل شيء ما في ، ما في ، ما في ، التصق برفيق السوء ، رفيق السوء طرف بعصابة عصابة مخدرات ، أعطوه شمة شمتين أدمن ، صار يمتهن السرقة ، صار يسرق ثمن المخدرات .

فأنا كما اتفقنا في أول هذا اللقاء الطيب ، والذي قبله أن نبحث في أصل أصل المشكلة .

من سلك بعمله الطرق المشروعة و ابتغى منه كفاية نفسه عُدّ هذا العمل عبادة :

لذلك أنا أقول ، وأخاطب الأخوة المشاهدين : العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً ، وسلكت به الطرق المشروعة ، وابتغيت منه كفاية نفسك وأولادك وخدمة الناس ، ولم يشغلك عن واجب ، ولا عن فريضة ، ولا عن عمل صالح انقلب إلى عبادة ، وأنا أعني ما أقول ، وأنت تتقن عملك .

((من بات كالا في طلب الحلال بات مغفوراً له))

[أخرجه ابن عساكر]

أنا أدعو الأزواج إلى العمل ، حتى يحقق كسباً يغطي حاجات أولاده ، حتى يرتبط الابن بأبيه ، يلتصق فيه ، تصبح كلمة الأب مقدسة ، تصبح الكلمة مقدسة ، من أجل أن يرتبط الابن بأسرته ، تعال التاسعة، التاسعة جاء ، اجلس معنا ، جلس معنا ، نأكل معاً أكلنا معاً ، بابا هذه لا تجوز ، هذه تجوز ، ما سمعت اليوم بالدروس ؟ ما حكيت ؟ أين ذهبت ؟ من صادقت ؟ من رفيقك ؟ عندما أنت تنفق عندك إمكان تعطي حاجات أولادك ارتبط الابن بأبيه ، أصبح تابعاً لتوجيهات أبيه ، لما الأب كسول ، لا يعمل ، أهمل عمله ، ما طوره ، أخلف مواعيده كلها ، صرف الناس عنه ، ما عاد في دخل .

دائماً وأبداً الإنسان يميل أن يعزو أخطاءه للآخرين ، يقول لك : ما في شغل يقول لك : في كساد ، لا ، في شغل ، في شغل مثل النار ، لكن أتقن عملك ، الناس يقبلون عليك .

الفقر يكمن وراء كل مشكلة و لكن المؤمن أقوى من الفقر :

أنا لا أريد أن أكوّن في فكر الآخرين ، أن الفقر كل شيء ، المؤمن أقوى من الفقر ، لكن أنا أرى أن الفقر وراء كل مشكلة ، يقول أحد الصحابة ، يا الله كلمة رائعة ! قال : حبذا المال ، أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي .

والله أنا حينما أرى إنساناً له مصلحة ، له صنعة ، يتقن عملاً ، يأتي مساءً متعب جداً ، أحياناً إنسان عمله يكون إصلاح مركبات ، يرتدي ثياباً ليس معروف لونها ، كان لونها كحلي ، بعدها جاء لون الوحل ، وجاء الزيت ، عندما يغتسل في المساء ، يرتدي أجمل ثيابه ، أنا أعدّه هذا إنسان عظيم ، عظيم جداً .

والله مرة قصة فيها مفارقة حادة ، دخلت لمكتب إنسان شيء لا يوصف ، قال لي أنا عملي اسمه كذا ، يبدو عمله غير مشروع ، ثاني يوم ، أردت أن أصلح مركبتي ، كانت أيام مطيرة ، والوحل ، والطين ، وهذا الإنسان انبطح تحت المركبة ، وفك البواط وصلّح وأخذ أجراً معتدلاً ، المنظر كله متاعب ، كله أطيان ، كله أوحال ، قلت له : هذا هو العمل النظيف ، وازنت بين كلمة سمعتها البارحة من إنسان مكتبه صعب وصفه ، قال لي : أنا أعمل كذا (العمل القذر)، وثاني يوم وجدت إنساناً ينبطح تحت مركبة يفك بعض القطع يصلحها بإتقان ، يأخذ أجراً معتدلاً قلت هذا عمله نظيف .

أكبر عقاب يعاقب به البخيل أن أولاده وهم أقرب الناس إليه يتمنون موته :

الإنسان حينما يعمل ينفى عنه أمراض لا تعد ولا تحصى ، أهم شيء أنه صار في معه دخل ، الله جعل المال قوام الحياة .

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

وهذه بالمناسبة عند علماء الأصول يعد خروجاً من الدين .

((ليس منا من غشَّ))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امرأة على زوجها))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

أفسد علاقة امرأة بزوجها .

((لَيسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلى عَصبيَّة ، وليس منا من قاتل عصبيَّة ، وليس منا من مات على عصبيَّة))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم

لو تتبعنا الأحاديث ليس منا هذا من أشد أنواع الوعيد من النبي الكريم .

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

وأكبر عقاب يعاقب به البخيل أن أولاده وهم أقرب الناس إليه يتمنون موته لو مرض وجاء الطبيب ، وقال لهم : عرضية ينزعجون كثيراً ، وأكبر عطاء للأب المحسن لأولاد أولاده يتمنون بقاءه ، أنا أنصح الآباء وأنت حي نعم أولادك ، أعطهم ، زوجهم ، هيئ لهم أعمالاً ، أنت لهم ، وهم لك.

والله أعرف أباً زوج أولاده ، والله يقف أولاده أمامه كأنهم جنود أمام لواء من محبتهم ، واحترامهم له، وفي ابن يتطاول على والده .

لذلك كيف نحن عندنا مرض خبيث ، يوجد بالنفس مرض خبيث هو البخل ، البخل مرض ، هذا البخيل يعيش فقيراً ليموت غنياً ، والإنسان كل ثروته المنقولة والغير منقولة تنتهي بوقف قلبه ، أو خلال نمو خلاياه ، أو تجمد الدم بعروقه انتهى الأمر .

مشكلات المسلمين تكمن وراء كسلهم و عدم حبهم لعملهم :

لذلك الفقر ، والله أكاد أقول وراء كل مشكلاتنا ، والكسل ، تجد أمة تعمل ليلاً نهاراً ، أنا مع الإيمان بالله ، ومع الاتجاه إلى الله لكن مع العمل ، أمة تعمل ثماني ساعات باليوم وأمة تعمل 27 دقيقة في اليوم غير معقول .

الأستاذ علاء :

تذكرني فيما أشرت إليه بقصة سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، ولم يأخذ من أمواله شيئاً ، المشركون أخذوا له كل شيء ، فعندما آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار ، فكان له أخ من الأنصار ، فقال هذا مالي أقسمه بيني وبينك ، ولي بيتان لك بيت، حتى لي زوجتان ، لك زوجة ، قال : دلني على السوق ، دليل حبه للعمل ، وتقييمه للعمل ، رغم أنه أتيح له أن يعيش في المدينة .

الدكتور راتب :

قال له : بارك الله لك بمالك ، ولكن دلني على السوق ، أنا الشيء الذي يلفت النظر ما ثبت في التاريخ أن مهاجراً أخذ من أنصاري شيئاً ، مع أن الأنصار عرضوا عليهم نصف ممتلكاتهم ، إنسان سخي ، وإنسان عفيف .

وفي مقولة رائعة : العدل حسن ، لكن في الأمراء أحسن ، أكمل صفة بالأمير أن يكون عادلاً ، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن ، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن ، والحياء حسن لكن في النساء أحسن ، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن ، والورع حسن لكن في العلماء أحسن .

الفقر مشكلة كبيرة جداً سببها الكسل :

يقول سيدنا علي رضي الله عنه : قوام الدين والدنيا أربعة رجال ، عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه .

انظر إلى التعليل الآن ، قال : فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم ، متى يُعرض الجاهل عن طلب العلم ؟ وجد إنساناً متعلماً لكنه كذاب ، متعلماً لكنه محتال ، لا أحد يُزهد في العلم كمن تعلم

من أجل الدنيا ، فضعف قيمة العلم ، قوام الدين والدنيا أربعة رجال ، عالم مستعمل علمه ، وجاهل متواضع لا يستنكف أن يتعلم ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه .

الآن إذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم ، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنياه ، أو بدنيا غيره ، الفقير أحياناً يرى الأغنياء يبخلون لا يعطونه شيئاً يبيع نفسه للشيطان ، وراء كل مشكلة في مشكلة .

فأنا أرى أن الفقر مشكلة كبيرة جداً سببها الكسل ، لمَ لا نطور ثرواتنا ؟ نطور أعمالنا ؟ وباب التطوير مفتوح ، ونحن نرفع شعار التطوير والتحديث الآن ، والحمد لله .

من أتقن عمله حلّ مشكلاته :

إذاً أنا أريد أن أقنع الأخوة المشاهدين ، أن الإنسان حينما يتقن عمله تحلّ مشكلات أخرى ، تحلّ مشكلات أهله وأولاده ، الابن يرتبط بأبيه ، والبنت بأمها ، والأسرة متماسكة ، والأب مسيطر ، والأب موجه ، والأب قائد لهذه الأسرة ، بشرط أن يكون في إنفاق ، الله قال :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

(سورة النساء الآية : 34)

يعني أحد أسباب القوامة الإنفاق .

الأستاذ علاء :

الآن هذا فقر الكسل هو أحد الأسباب الهامة التي تؤدي إلى انحراف الأولاد ومن أخطرها المخدرات ، هنالك سيدي الكريم البطالة .

2 - البطالة :

الدكتور راتب :

الآن لو دخلنا إلى مجتمع غني ، في دخل فلكي ، فالطفل لا يحتاج إلى العلم أساساً ، ولا إلى الدراسة ، يحتاج أن يمضي وقته كما يشاء ، فالبطالة الآن نفسها ليست موضوع فقر ، ولا موضوع جهل ، موضوع إنسان شاب في ريعان شبابه ، شهوات مستعرة يقظة ، غرائز ، أصدقاء سيئين جداً ، مع مركبة ، معه مال كثير ، هذا يبحث عن متعة رخيصة .

من اختار هدفاً كبيراً رضي بكل شيء و من اختار هدفاً دنيوياً شعر بالملل و اليأس :

أستاذ علاء ، هناك نقطة دقيقة جداً ، لحكمة بالغةٍ بالغة ما سمح الله للدنيا أن تمدّ الإنسان بسعادة مستمرة ، بل بسعادة متناقصة ، فالمشكلة أن الإنسان إذا أعرض عن الله كلياً ، واختار هدفاً دنيوياً محدوداً ، فإذا وصل إليه يشعر بالملل ، أخطر فكرة بالموضوع أنه أنت في أصل تصميمك لا نهائي ، أنت حينما تختار هدفاً كبيراً ، هدفاً نبيلاً ، أن تعرف الله ، أن تكون في خدمة الخلق ، أنت شاب حتى السادسة و التسعين ، وأنا أعني ما أقول ، لما تختار هدفاً أكبر من إمكاناتك .

كان يمر بعض العلماء بالمقهى كان يقول : يا سبحان الله ! لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم .

فأنت حينما تختار هدفاً كبيراً ، ترضى بكل شيء ، تصبح الدنيا مطية ، ترضى بزوجتك ، بأهلك ، بأولادك ، بدخلك ، بصحتك ، أما الإنسان إذا أراد المتعة جعلها هدفاً وعاش من أجلها أصبح شقياً ، قال عليه الصلاة والسلام :

((تعس عبد البطن ، تعس عبد الفرج ، تعس عبد الخميصة))

[أخرجه البخاري في كتاب الرقائق عن أبي هريرة]

الخميصة ؛ الثياب ، تعس ، وخاب ، وانتكس ، أي أصبح عبداً ، صارت قيادته سهلة جداً ، كالخرقة ، عبد شهوته ، معروف ثمنه .

أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها :

الآن عفواً أكبر خيانات الأرض بامرأة ، هذا الخائن لأمته ثمنه امرأة جميلة يبيع أمته من أجلها . فالإنسان عندما يترك الدين يصبح رقماً سخيفاً ، رقماً بسيطاً ، له ثمن يباع ويُشترى إذا الإنسان عرف الله عز وجل ، لا يباع ، ولا يشترى ، ولا يساوم .

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[رواه ابن إسحاق]

أنا أقول الإنسان عندما يكون غنياً لكن ليس له هدف بالحياة ، هدفه المتعة ، درسنا في علم النفس حينما تتخذ اللذة هدفاً تصبح مبدأ شقاء للإنسان ، لذلك أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها .

((خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هَمّا))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((فإنه من أخذ منها فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

[أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس]

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه ، مُعافى في جَسَدِهِ ، عندهُ قوتُ يومِه ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

عدم تطبيق منهج السماء ينشر الدناءة و السخف بين الناس :

عندما أنا أؤمن للإنسان مسكناً ، ومأوى ، ودخلاً معقولاً ، وصحة ، أنا أقول ثلاثة أشياء : الإيمان بالله، والصحة ، والكفاية ، عندئذٍ ما فاتك من الدنيا شيء .

فالبطالة تحدثنا عنها ، لكن إنسان غني وماله هدف ، ومعه مال يتمتع ، كلما وصل لمتعة يتمنى متعة أخرى ، قد تكون أسوأ منها ، أنا لي رأي شخصي ، أن انحراف الغرب شذوذهم ، لا لأن الشذوذ أمتع من الأصل ، لا ، لأنهم ملوا الأصل ، في علاقاتهم الجنسية ملوا الأصل ، فانتقلوا إلى شيء آخر ، الآخر قذر ، لكن سبحان الله الإنسان إذا كان غائباً عن منهج السماء يصبح دنيئاً ، يصبح قميئاً ، يصبح سخيفاً .

الأستاذ علاء :

كما تفضلت خطه البياني ينحدر إلى هذا الشيء الدنيء .

الدكتور راتب :

ما في عمل ، نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر .

3 ـ فشل التعليم :

إذاً أنا الآن أنتقل إلى أسرة غنية ، لكن متفلتة ، لا يوجد هدف ، الابن عنده سيارة يبحث عن لذة ، عن متعة ، وكل لذة تقود للذة ، قال البوصيري(له بيت شعر رائع) قال :

فلا ترن بالمعاصي كثرة شهوتها إن الطعام يقوي شهوة المهن

* * *

كلما وصل لشهوة يبحث عن شهوة أخرى ، إلى أن يقع في الفاحشة ، إلى أن يقع في المخدرات ، الآن هناك مدمون بالمخدرات من الأغنياء ، الكبار ، هذا خطأ ثان .

إذاً فشل التعليم ، والفقر ، والبطالة .

الأستاذ علاء :

حتى هذا الذي تتحدث عن نموذجه ؛ معه الكثير من المال ، لدية سيارة ، يرى أن العلم بالنسبة له غير ضروري ، والتعلم غير ضروري ، وبالتالي لا يوجد أسرة توعيه ، وترعاه أنفق ما لديه ، وينفق ما لديه على ملذاته يأخذ أيضاً أقراناً له ، ويجرهم إلى هذه المهالك .

الدكتور راتب :

صار فاسداً مفسداً .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم إذاً النقطة الأساسية أن نجد هدفاً كبيراً ، وأن نسعى إليه ، وكما قلت الإنسان خلقه ربنا عز وجل لا نهائياً ، بهدف لا نهائي ، ولم يخلقه لهدف دنيء ، ينكب ويصبح كالعرجون بالنسبة إليه .

البيئة الفاسدة بؤرة لانحراف أربابها إلى المخدرات :

الدكتور راتب :

بقي عنصر أخير ، هو في أعمال ، هي بيئة جيدة جداً للمخدرات ، أحياناً عمل بملهى ، أنا أقول : ألصق شيء بالإنسان زوجته وعمله ، أما يبدل سيارته إذا ما أعجبته يبدل بيته ، لكن الزوجة لصيقة بالإنسان ، أحياناً يكون زواجه غير ناجح ، أو يكون عمله في بيئة سيئة جداً ، تنمو في هذا العمل الانحرافات ، في أعمال متعلقة بالنساء ، في تفلت شديد جداً أحياناً ، في أعمل متعلقة بمخالفات شرعية، في أعمال متعلقة بسلوك غير مقبول عند الله عز وجل ، فلذلك :

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا الله عباد الله ، وأجملوا في الطلب ، واستجملوا مهنكم))

[أخرجه ابن أبي شيبه عن عبد الله بن مسعود ، وأخرج ابن مردويه عن الحسن]

اختار مهنة شريفة ، الذين حولك شرفاء ، التعامل مع أشخاص شرفاء ، في مهن تتعامل مع أشخاص غير شرفاء ، في مهن بيئتها سيئة جداً ، بيئتها منحطة ، مثل هذه البيئات أحياناً تكون بؤرة لانحراف أربابها إلى المخدرات .

الأستاذ علاء :

هذا الذي يعمل في هذه الأوساط ، وفي هذه البيئات ، وفي هذه الحواضن ، عليه أن يقف مع ذاته ، وربما يكون هذا العمل بالنسبة له مجزياً ، وجذبه إلى مواطنه ، وجذبه إلى هذا الجو بكل معنى الكلمة ، فأصبح واحداً منهم ، هذا عليه أن يقف مع ذاته ، وأن يبدل هذا العمل ، إلى عمل شريف أو شيء يحترم فيه نفسه ، إذا سمحت لي هنالك من يعمل في هذه الأجواء ، ويعمل في هذه البيئة ، والمستنقعات، أول ما يحتقر يحتقر نفسه ، لا قيمة لنفسه أمامه ، وبالتالي هو يحقر كل شيء .

إذاً العمل شيء أساسي في أن يرفع الإنسان من نفسه ، ومن ذاته ، ومن احترام ذات الإنسان لكي يحمل هذا الاحترام إلى أسرته .

الأعمال لا تُقيّم بدخلها بل بمدى انطباقها على منهج الله عز وجل :

الدكتور راتب :

لحكمة بالغة بالغة جُعل كسب الحلال صعباً ، وجعل كسب الحرام سهلاً ، ما الحكمة ؟ لو جعل كسب الحلال سهلاً ، وكسب الحرام صعباً لأقبل الناس على الحلال لا محبة بالله ، ولا بالآخرة إطلاقاً ، بل محبة بالسهولة ، فانتهى الابتلاء ، لكن أحياناً تعمل امرأة 8 ساعات ، تأخذ خمسمئة ليرة ، هناك إنسانة تأخذهم بربع ساعة ، لكن شتان بين العملين ، امرأة عملت عملاً شريفاً ، وعندها أيتام ، وأنفقت هذا على أيتامها ، وإنسانة ارتزقت بثدييها ، فأخذت مبلغاً كبيراً ، بوقت قصير .

فلذلك الأعمال لا تقيّم بدخلها ، بمدى انطباقها على منهج الله عز وجل ، بطولة المؤمن أنه يؤثر عملاً شريفاً بدخل محدود ، على عمل غير شريف بدخل غير محدود ، لأنه يوجد حكمة إلهية : الله عز وجل يبارك بالدخل القليل فينتفع به النفع الكثير ، ويتلف الدخل الكثير ولا يبارك به ، فيصبح صاحبه قد فقد كل مقومات حياته .

فلذلك أنا أقول أخطر شيء في حياة الإنسان أن يختار عملاً شريفاً ، هناك أعمال غير شريفة ، هناك أعمال مبنية على النصب ، والكذب ، والدجل ، مبنية على الوساطة بين شيئين قذرين ، في أعمال لا ترضي الله عز وجل .

الإنسان المؤمن يُؤثر الدخل القليل الحلال على الدخل الكثير الحرام :

لذلك الإنسان المؤمن الطاهر يقول : معاذ الله ، الله الغني .

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الحشر الآية : 9)

أي يؤثر الدخل القليل على دخل كبير ، هذا قرار صعب لكن يحتاج إلى إيمان أحياناً يكون لك عمل دخله محدود لكن شريف مثل التعليم ، وفي عمل آخر دخله منحط جداً يعيش مع الساقطين والساقطات ، والمنحرفين والمنحرفات ، هذا العمل قد يكون في دخل كبير ، يقوم بدور الوساطة بين المنحرفين ، أحياناً تدخل لبيت تاجر مخدرات عنده قصر يجب أن تحتقره ، بنى هذه الثروة على أنقاض الشباب .

الأستاذ علاء :

قال لي أحدهم : سيدي في بعض المناسبات (وهو يمتهن قضية لا يحب أن يتكلم بها)والله لا أستطيع أن أحكم عيني بعيني أولادي ، أو بعيني طفلي ، لأنه يشعر أن طفله يزدريه ، ويحتقره ، بكل معنى الكلمة.

الدكتور راتب :

سيدي ، هناك نقطة دقيقة أضيفها إلى ما تفضلتم به : لو أن الطفل ما دري ، ما علم بعمل أبيه ، في شيء اسمه احترام الذات ، إنسان أحياناً يفقد تقديره لذاته ، لو أنه عمل عملاً خسيساً وما أحد علم به يحتقر نفسه ، وأساساً الكآبة هذا مصدرها .

أريد أن أطلع الأخوة المشاهدين مرة ثانية على فتاة وجدت ميتة في غرفتها من تناول المخدرات ، وهذه صورتها ، وهذا شاب آخر وجد هكذا .

السعيد من اتعظ بغيره والشقي لا يتعظ إلا بنفسه :

أستاذ علاء ، أهم شيء أنه أحياناً السرقة تنقلب إلى قتل ، الآن والمخدرات تنقلب إلى جنس منحرف ، وهذه بعض الصور عن أمراض الجنس التي لا تحتمل ، الله عز وجل قال :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

هذه الموعظة البالغة إله عظيم يقدم لنا هذه النصائح :

(وَلَا تَقْرَبُوا)

نهي الفاحشة :

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

فلذلك السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي لا يتعظ إلا بنفسه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (75-95) : اليوم العالمي لمكافحة التدخين والمخدرات4 ـ من أضرار المخدرات الفقر والبطالة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن المخدرات هذه الآفة التي داهمت المجتمع :

الأستاذ علاء :
وإياكم ، سيدي الكريم ، في حلقات سابقة تحدثنا عن موضوع هام ، موضوع يجب أن نتنبه إليه ، ولو أن مجتمعنا لا يعاني المعاناة التي يعاني منها الكثير من المجتمعات وخاصة الغربية ، هذا الموضوع يتعلق بالمخدرات ، هذه الآفة التي داهمت البشرية ، والتي أودت بحياة الملايين ، ثم عطلت الملايين عن العمل ، وعن الفعل ، والتنمية ، والخير ، وبدؤوا يغردون خارج السرب ، سرب الأسرة وبالتالي المجتمع ، وانقلب الكثير منهم أعداء لمجتمعاتهم ، هذه الآفة التي يروجها تجار السموم ، مصاصو الدماء ، الذين لا يبغون إلا ربحاً ، أو هنالك من يخطط استعمارياً ، لاستعباد الشعوب ، وللسيطرة عليهم .
ثم بدأنا نتحدث عن أسباب المخدرات ، وعلينا أن نتنبه في مجتمعنا إلى هذه المسألة مع أن مجتمعنا حصانٌ والحمد لله عن أن ينتشر هذا الأمر بين ظهرانيه ، كما ينتشر في مجتمعات لا تحمل من الحصانة ، ومن القيم الأخلاقية .
بدأت سيدي الكريم بأسباب المخدرات ، الأسباب ، أو البيئة الحاضنة التي تكون مقدمة للمخدرات ، بدأت بتفكك الأسرة ، وتحدثت عنها ، والآن نتحدث إن شاء الله تعالى عن بقية هذه الأسباب .

على كل إنسان أن يعالج أصل المرض ليقضي عليه لا أعراض هذا المرض :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ علاء ، في مقدمة صغيرة : الطبيب حينما يأتيه طفل مريض ، حرارته مرتفعة ، من الخطأ الفاحش أن يصف له خافض حرارة ، بل إن الطبيب الحقيقي هو الذي يبحث عن أسباب ارتفاع

الحرارة، إنه الالتهاب ، وما لم يعالج أصل المرض فلا جدوى من معالجة أعراض المرض .

فنحن في كل حياتنا نخطئ أحياناً نعالج الأخطاء من نتائجها الأخيرة ، بل إن هذا منهج في الإسلام .

لما أنصاري ساق رجلاً دخل إلى بستانه ، وأكل من دون إذنه ، ساقه إلى النبي على أنه سارق ، قال له عليه الصلاة والسلام : هلا علمته إن كان جاهلاً ؟ وهلا أطعمته إن كان جائعاً ؟ .

هناك جهل ، وهناك جوع ، فأنت إذا عالجت هذه الظاهرة من أسبابها نجحت في المعالجة .

المخدرات تفكك الأسرة و تضعف علاقة الأولاد بآبائهم :

نحن في كل مشكلاتنا أحياناً أقول لك : هناك مئة مشكلة في المجتمع ، أنا لا أسميها مشكلة هي أعراض لمشكلة واحدة ، فنحن حينما نعالج أعرض المرض لا ننجح يجب أن نعالج أصل المرض .

فالمخدرات كما كان في لقاء سابق ، والحديث عن تفكك الأسرة ، وكل مناهج السماء ، تدعو إلى تماسك الأسرة ، وكل مناهج الأرض تدعو إلى تفكك الأسرة .

فلذلك كل شيء يدعم الأسرة شيء يجب أن نأخذ به ، وأي شيء يضعفها يضعف علاقة الأولاد بآبائهم وأمهاتهم ، يجب أن نبتعد عنها .

فاللقاء السابق كان حول تفكك الأسرة .

الإنسان مكرم عند الله عز وجل لأنه قبل حمل الأمانة :

الآن إلى موضوع فشل التعليم ، أستاذ علاء في الإنسان قوة إدراكية ، بها كان سيد المخلوقات .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

لماذا الإنسان كان مكرماً عند الله ؟

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

الإنسان مكرم لأنه قبل حمل الأمانة ، عندئذٍ أودع الله فيه قوة إدراكية ، أنا أسميها الحاجة العليا في الإنسان ، هناك حاجات دنيا هي ضرورية ؛ الطعام ، الشراب ، الزواج ، أما في حاجة عليا ، طلب الحقيقة .

فالإنسان حينما يغفل عن سرّ وجوده ، وعن غاية وجوده ، وحينما لا يبحث عن الحقيقة ، ولا عن خالقه الذي خلقه و :

(لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

ولا عن منهج خالقه .

الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في المخدرات هذه الآفة الخطيرة :

فشل التعليم :

أنا أرى أكبر سبب هو الفراغ ، الإنسان حينما يتعرف إلى الله ، تمتلئ أوقاته بأعمال نبيلة ، تمتلئ نفسه سعادة وطمأنينة ، يمتلئ قلبه رقة وحناناً ، تمتلئ جوارحه انضباطاً.

فالمشكلة الكبرى هناك فراغ ، أحد أسباب الفراغ فشل التعليم ، الجاهل كتلة أغلاط ، كتلة انحرافات ، كتلة شهوات غير منضبطة ، هناك شهوات منضبطة .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا ولها قناة نظيفة تسري خلالها ، ليس في الإسلام حرمان في الإسلام تنظيم ، فالإنسان حينما لا يطلب العلم يبقى جاهلاً .

أستاذ علاء ، هناك فرية يفتريها علينا أعداؤنا ، أن التجمع السكاني الكثيف عبء هو ليس عبئاً ، التجمع السكاني الكثيف أكبر ورقة رابحة في حياة الأمم ، لكن حينما تبقي الإنسان جاهلاً يصبح عبئاً ، إذا علمته وأطلقت يديه صار مبدعاً ، خلاقاً ، أما إذا أبقيته جاهلاً وكبلته بروتين يعيق كلّ تقدم ، أصبح عبئاً على الأمة ، صار يحتاج إلى مخدرات ، إلى خمور ، إلى أعمال نصب واحتيال ، هو دائماً التجمع السكاني الجاهل ، والمقيد ، عبء كبير على الأمة .

الإنسان طاقة كبيرة جداً علينا أن نستغلها في العلم :

لذلك أكبر تقدم أحياناً صناعي في دول العلم منتشر فيها ، اليابان فيها أكبر كثافة سكانية في العالم ، اليابان ، تايوان ، الهند ، الهند من برمجيات الكمبيوتر يجمعوا كل سنة مئة مليار دولار ، لا يوجد

عندهم نفط ، ولا يوجد شيء آخر .

الإنسان طاقة كبيرة جداً ، فنحن حينما نبقي هذا الإنسان جاهلاً ، أو حينما لا يُتابع في تحصيله ، نحن عندنا مشكلة كبيرة جداً ، أتمنى أن يكون المشاهدون على علم بها يعني إذا الابن ما نجح سنة سنتين يفصل من المدرسة ، هذا خطأ كبير .

أنا لي قريب أخفق ابنه في الشهادة الثانوية أربع سنوات ، وكان أبوه مصراً على أن يأخذها ، وأخذها والآن طبيب أسنان ، أربع سنوات وبالخامسة أخذها ، لكن في ورائه متابعة ، أولياء الأمور إذا ابنه ما نجح سنة واحدة يخرجه من المدرسة ، هذا خطأ كبير يكون في أخطاء بالمدرسة ، أخطاء بالمنهج ، أخطاء المعلم ، أخطاء في البيئة التي يعيش فيها أخطاء في رفقاء السوء .

أذكر أحد شيوخ الأزهر الكبار ، دخل أول سنة وما نجح ، فترك الدراسة جالس ببيته رأى نملة تصعد على الحائط ، عدّ محاولات صعودها ووقوعها 43 محاولة فاستحى من النملة ، وتابع الدراسة ، وصار شيخ الأزهر .

الخطأ الكبير أن أول إخفاق من طرف الابن في التعليم يخرج من المدرسة إلى عمل ، والعمل بيئته سيئة جداً ، في أعيان موظفون بالكتب ، في بالمعمل موظفون ، في الأسواق انحطاط ، شرود ، تفلت ، إغراءات ، مخدرات ، أفلام ، أشياء تجد الطفل صار كتلة سوء ، كتلة إباحية ، على إجرامية ، على سرقة ، على ، على لأنه ما نجح بالمدرسة ، هذا خطأ كبير ، عالم النجاح له أسباب ، يكون في تعليم ، في تقصير بالتعليم ، في قسوة من المعلم أحياناً ، في إهمال من إدارة المدرسة ، عدم تواصل الآباء مع إدراة المدرسة . الجاهل عبء على نفسه ، عبء على أسرته ، عبء على أهل بلدته ، عبء على أمته، الجاهل عبء .

العلم أحد المقاييس الهامة في تقدم الأمم :

لذلك أنا أقول : أحد مقاييس تقدم الأمم العلم ، وحينما ترى الأمية منتشرة هذه وصمة عار كبيرة جداً في حق الأمة ، فكلما قلّت نسب الأميين ارتفعت الأمة في مقدار أو في مقاييس التقدم .

الأستاذ علاء :

تقول لنا دائماً سيدي : بأن الجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

الدكتور راتب :

الجاهل عدو نفسه ، أنا أقول كلمة صريحة وقاسية : أعداؤنا الحقيقيون ليس الاستعمار ، الجهل ، لأن الاستعمار هذا شأنه ، شأن العدو أن يغدر ، شأن العدو أن ينهب الثروات ، شأن العدو أن يتحكم

بالآخرين ، هذا شأنه ، لكن شأننا أن نتعلم ، شأننا أن نقاوم ، شأننا أن نتماسك ، شأننا أن ننتمي للمجموع ، انتماء فردي كله ، كل إنسان يحل مشاكله الشخصية وانتهى ، انتهى من علاقته بالمجتمع ، في مشكلة .

مثلاً متى يفكر أغنياؤنا ؟ متى يفكرون بهؤلاء الشباب ؟ يحتاجون إلى مساكن يحتاجون إلى أعمال ، إلى زواج ، متى يحمل أحدنا همّ أمته ؟ متى يسهم في تخفيف أعبائها ؟ الانتماء الفردي خطر كبير .

التكاتف و التعاون بين الجميع أساس نهضة الأمة :

أستاذ علاء ، أنا والله لا أحب أن أشيد بالآخرين ، لكن شيء مؤلم جداً ألعاب الأطفال في العالم الغربي قائمة على التعاون ، لا يوجد لعبة بإمكان الطفل أن يقوم بها لوحده ، يدخلون بدمه التعاون ، يعني بدمه في كرية بيضاء ، وكرية حمراء ، وكرية تعاون ، بدم بعض الدول بعض المجتمعات المتخلفة ، كرية بيضاء ، كرية حمراء ، وكرية تنافس ، يحطم بعضهم بعضاً ، يوجد عندنا تعاون ، والتعاون في ديننا ، قال تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة الآية : 2)

فأنا أتمنى أن قضية العلم شيء مهم جداً .

الأستاذ علاء :

كما تفضلت في بعض الألعاب التي لا يستطيع الطفل أن ينجزها إلا مع مجموعة ، أو أن يستخدم كل القطع ، يعلموه بأنه لو أنقصت قطعة واحدة في التشكيل لا يتم التشكيل ، إذاً هذا مؤدى للمستقبل بأنه لا تقوم أي عملية تنمية ، أو نجاح الأمة إلا بالتكاتف والتعاون من قبل الجميع .

أولادنا الورقة الرابحة الوحيدة في أيدينا علينا الاعتناء بهم :

الدكتور راتب :

وأنا أقول أستاذ علاء : الورقة الرابحة الوحيدة التي بقيت في أيدي المسلمين أولادهم ، هؤلاء يمكن أن يواجهوا القنبلة الذرية ، نحن نواجه القنبلة الذرية بقنبلة الذُرية .

أساساً صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، أحد أكبر أسباب نجاحه في ردّ الغرب بأكمله عن الشرق الأوسط هو أنه بدأ بالتعليم ، ولا في أمة قوية إلا وتبدأ بالتعليم .

فأنا أعدّ خطراً كبيراً أن يُسمح للابن أن يترك الدراسة ، خطر كبير جداً وخطر كبير أيضاً أن تكون المدرسة منفرة ، فيها ازدحام ، معلم غير خبير ، مقهور أحياناً ، عنده مشكلات عميقة جداً ، وعيه ضعيف ، يدخن أمام الطلاب ، له كلام لا يحتمل مع الطلاب يضعف شخصيتهم .

فشل التعليم إما بالتسرب أو بأسباب التسرب أو بإهمال الأولياء لواقع ابنهم :

أستاذ علاء ، أنت حينما تحترم شخصية الصغير تنمي فيه الرجولة ، تنمي فيه الإباء ، تنمي فيه الشرف ، تنمي فيه الغيرة ، أما كلمات قاسية ، ضرب مبرح ، يسب أباه أحياناً ، معلم مقهور هذا لا يبقى ، أنا لست ضد التربية ، لكن النبي قال :

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث عن أوب هريرة]

أنا الآن دخلت إلى أسباب ترك المدرسة ، المعلم قاس جداً ، وظائف لا تحتمل قسوة بالغة في العقاب أحياناً ، تمييز بين الطلاب مثلاً ، في تعبير دمشقي مألوف : ما في قط يهرب من عرس .

والله أعرف مدارس لما يكون في يوم عطلة الطفل يبكي ، يريد أن يذهب إلى المدرسة ، يا بني اليوم عطلة ما في مدرسة ، في تعلق .

أنا والله زرت بلاداً كثيرة ، المدرسة جنة يا أخي جنة ، فيها علم ، فيها أدب ، فيها ترفيه ، فيها أجهزة، فنحن بقدر ما نعتني بمدارسنا ، وبمناهجنا نكون قد ابتعدنا عن المخدرات ، المخدرات بديل .

هذا مثل إذا كان وعاء مفرغ من الهواء ، عنده قوة شفط مذهلة ، هكذا النفس البشرية ، عندها قوة شفط كبيرة ، أما عندما يملأ بالعلم ، فأنا أقول : إن فشل التعليم ، إما بالتسرب ، أو بأسباب التسرب ، أو بإهمال الأولياء لواقع ابنهم .

التواصل بين الإدارة و أولياء الأمور من أهم الأمور في التعليم :

أستاذ علاء ، ما في صلة حقيقية بين الآباء وإدارة المدرسة ، أو المعلم ، قبل يومين أسرة أعرفها دعت معلمة أولادها ، صار ود بالغ جداً بهذه الدعوة ، صار المعلم يهتم بهذا الابن ، يجب أن تقوم علاقة طيبة جداً بين الآباء وبين المعلمين ، صار الابن أمانة عند المعلم ، والمعلم يفكر له آباء يهتمون به ، لابدّ من التواصل بين الإدارة وبين أولياء الأمور .

الأستاذ علاء :

أنا أذكر سيدي الكريم بأنه إذا كان الأهل مثلاً انزعجوا من تصرف ابنهم ، يهدد بالاشتكاء إلى المعلم

لأنه يحب معلمه ويحترم هذا المعلم ، ولا يحب أن يأخذ هذا المعلم فكرة عنه بأنه هو لا يسمع الكلمة في البيت ، أو إنه لا يبر والديه .

الدكتور راتب :

موضوع فشل التعليم ، أو الإخفاق في التعليم أنا أعدّه أحد أكبر أسباب الانحراف جاهل ، الجاهل عدو نفسه ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم .

اعتماد القرآن الكريم على قيمتي العلم و العمل للترجيح بين البشر :

مزارع عنده عشرة بيوت بلاستيكية ، كل بيت مئتي ألف يعني عنده مليونين اشترى سماداً ضاعف الكمية ، جهلاً منه ، حرق البيوت كلها ، لا يوجد شيء أبشع من الجهل لأن الجهل يتناقض مع رسالة الإنسان ، الله عز وجل اعتمد قيم العلم والعمل في القرآن ، في قيم أخرى ، قيم الغنى ما اعتمدها ، قيم الوسامة ، قيم الذكاء ، قيم الاحتيال ، هذه كلها قيم لأن المجتمع يعتد بها ، القرآن ألغاها ، قال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية : 9)

قال :

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة الآية : 11)

فأنا مصر على أن مشكلاتنا أعراض لأمراض أساسها الجهل .

الأستاذ علاء :

قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس مني إلا عالم ، أو متعلم))

يعني إما أن يكون عالماً يعلم غيره ، أو متعلماً يأخذ العلم .

كل مشكلة اجتماعية كبيرة فيها خروج عن منهج الله :

الدكتور راتب :

بالأمن الجنائي أستاذ علاء عندهم قاعدة لهم طبعاً ، أنه كل جريمة وراءها امرأة أنا أقول : كل مشكلة اجتماعية كبيرة فيها خروج عن منهج الله ، وكل خروج عن منهج الله وراءه جهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

أستاذ علاء ، الإنسان مفطور على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده وعلى كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، من أين يأتي الشقاء ؟ من الجهل ، وأن الجهل هو مشكلة أهل النار الأولى، الدليل :

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

الأستاذ علاء :

سيدي اسمح لي ، في بلدنا والحمد لله هناك التعليم الأساسي مُدد إلى الصف التاسع ، وعلى الطالب ألا يتسرب ، وعلى الأسرة كما تفضلت أن تكون على تواصل مع إدارة المدرسة ، والكادر التعليمي لكي يتبينوا حال هذا الطالب ، حال هذا التلميذ ، أحياناً يتسرب ولا يعلم الأهل أو إذا أخبرت المدرسة الأهل، الأهل لا يهتمون بهذه القضية ، وتأتيهم كتب أحياناً ، وتأتيهم لمراجعة المدرسة ، وتجد في إهمال شديد ، عدم المتابعة ، وعدم الصلة توصل إلى فشل التعليم كما تفضلت ، وبالتالي تفشل العملية التعليمية ، وهنالك يصبح التسرب ويلتقط الأبناء من ينتظر هذه اللحظة ، ليأخذهم إلى حيز الرذائل ، والمخدرات في رأسها .

العناية بكيفية التعليم أساس النجاح في العلم :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء ، الدول النامية مشكورة من أعماق قلوبنا ، على أنها وسعت التعليم فشمل كل المجتمع ، لكن هي بعد أن وسعت التعليم كماً ، نتمنى عليها أن تعلي مقامه كيفاً الآن نحن نريد مستوى التعليم ، مستوى المدرس ، مدرس مربي ، أي إنسان معه كفاءة نضعه معلم وكيل ؟ لا يصح ، التعليم اختصاص .

أنت تسلم نفسك لإنسان غير طبيب ؟ لا تستطيع ، الطب اختصاص ، المحاماة اختصاص .

الأستاذ علاء :

حتى سيدي أحياناً يحمل الشهادة لكن هو لا يحب هذه المهنة ، يدخل أهلية التعليم ويمضي السنوات لكن لا يحب هذه المهنة ، يجب أن نفرزه من البداية .

الدكتور راتب :

أنا سمعت عن مديرة مدرسة ، تقول قبل أن تعين معلمة هل تحبين الصغار ؟ لأن الإنسان إذا لم يحب من يعلمه لا يعلمه ، هذه القضية تكلم بها سقراط قبل ألوف السنين قال : خذ ابنك عني إنه لا يحبني ، الذي يحب الصغار يعلمهم ، الذي يحب التعليم ما في حل وسط ، إما أنها أصعب حرفة على الإطلاق ،

إذا ما حمل المعلم رسالة ، إذا حمل رسالة يموت في هذه الحرفة ، يحقق ذاته فيها ، لأن الطبيب يتعامل مع المرضى ، والمحامي مع المجرمين ، والمهندس مع الباطون ، والنجار مع الخشب ، والحداد مع الحديد ، أما المعلم مع أطهر فئة في المجتمع ، مع إنسان بريء طاهر .
فأنا أرى أن التعليم هو قوام حياة الأمم .

علينا ألا نجعل من التعليم قضية ربحية في المقام الأول :

الأستاذ علاء :
هنالك مظاهر هي حميدة في جوانبها ، ترى تراكض الأهل على مدارس معينة ولو كانت بعيدة ، مستعدين أن يضعوا أجرة لتنقل أطفالهم ، ويجترحون الوسائط ، كي يسجلون أبناءهم وهي مدارس عامة ، وليست مدارس خاصة متميزة ، نتيجة تميز الإدارة تميز المعلمين ، نحن نتمنى أن ينجر هذا المثال على كل مدارسنا .
الدكتور راتب :
والله أستاذ علاء ، مرة في لقاء مباشر على الهواء بإذاعة ، سألتني أخت أنه القسط غال جداً ، قلت لها من دون مجاملة : إذا كان دخلكم بالسنة مئتي ألف ، ودفعتم مئة ألف لهذا الابن وأصبح شخصية فذة ، مثقفة ثقافة حقيقية ، تتقن اللغات ، عقيدتها سليمة أنتم الرابحون ، لا أشجع على رفع الأقساط ، مستحيل، لما الإنسان يكسب ابنه ، كسب كل شيء .
أنا كنت مرة بأمريكا ، لو بلغت منصباً ككلينتون ، وقتها كان كلينتون ، وثروة كأوناسيس ، وعلماً كأنشتاين ، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس .
فأنت حينما تعتني بابنك ، تعتني بنفسك ، حينما تعتني بابنك تبذل لنفسك راحة لا توصف ، لذلك :

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

(سورة الفرقان)

الأستاذ علاء :
هذه دعوة من خلال هذا البرنامج ، لو سمحت لي سيدي أن يؤازر التعليم الخاص كالتعليم العام ، يعني الإمكانيات الوسع الدولة تضعها في خدمة التعليم ، لكن هنالك الآن تآزر في كل القضايا ، الاقتصادية ، والصناعية ، وكذلك التعليمية ، أن لا يجعل من التعليم قضية ربحية في المقام الأول ، وأن يكون الربح في المستوى المعقول ، وأن نفسح المجال أمام كل أبنائنا وزهراتنا ، الذين هم الثروة الحقيقية كما تفضلت .

على كل إنسان أن يؤدي الأمانة كما كلفه الله بها :

الدكتور راتب :

سيدي ، إلى جانب سكني ، مدرسة ابتدائية للبنات ، عامة ، عادية جداً ، لكن فيها معلمات يحملن رسالة ، والله التهافت على هذه المدرسة لا يوصف .

شيء آخر : أنا بناتي وضعتهن في هذه المدرسة ، علم ، وأخلاق ، المعول عليه المعلم .

سيدي ، كلمة دقيقة : الجامعة بأساتذتها ، والمدرسة بمعلميها ، والمستشفى بأطبائها ، والجامع بخطيبه.

حكى مرة دكتور مثلاً أن السوربون بناء متداع قديم جداً ، لكن من أعرق جامعات العالم بأساطير العلم، الآن تنشئ جامعة على أحدث طراز ، ما فيها علماء .

نحن حينما نعلم لو كان في مدرسة عامة عادية ، بلا أقساط يتهافت الناس عليها فلذلك نحن بحاجة ماسة لهذا .

مثلاً الآن نقول : أخ درس بأمريكا طب ، هذا حينما يأتي إلى بلده أصبحت أمريكا في الشام ، لأن القضية ليست قضية بناء ، قضية خبرة ، قد يحمل أعلى شهادة باختصاص نادر جداً ، فإذا جاء إلى وطنه الذي لحم كتفه من خير وطنه ، وأقام في بلده وعايش هؤلاء الذين ربوه واعتنوا به يكون ردّ للوطن شيء من الجميل .

فأي إنسان ولو كان في مكان عام ، أنا أندد تنديداً لا حدود له لمن يقول أنا أعمل على قدر الراتب ، أقول له : استقل ، استقل وابحث عن عمل آخر ، أما وقد أقامك الله معلماً يجب أن تؤدي الأمانة كما كلفك الله بها ، بصرف النظر عن قيمة الراتب كبير أو قليل ، أنت تعامل الله ، هؤلاء عباده ، هؤلاء أطفال نفوس بريئة ما لها ذنب ، إذا أنت الدخل ما أعجبك ما تعلم ؟ الدخل ما أعجبك تضرب بعنف ؟ الدخل ما أعجبك تنتقم ؟ هذا خطأ كبير جداً .

التعليم أرقى حرفة على الإطلاق لأنها صنعة الأنبياء :

لذلك العبرة : المدرسة بمعلمها خاصة أم عامة مثل بعضها ، أنا قلت لك أولادي وضعتهم في مدرسة عامة ، لكن كان في معلمين متفوقين جداً ، والمعلم الجيد كالملائكة في السماء ، والحيتان في البحار تصلي على معلم الناس الخير ، التعليم رسالة ، التعليم أرقى حرفة على الإطلاق ، لأنها صنعة الأنبياء، قال عليه الصلاة والسلام :

((إنما بُعثت معلماً ، إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[أخرجه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة]

الأستاذ علاء :

سيدي اسمح لي لو دخلنا إلى الخصوصية ، ونحن نعلم بأنك أمضيت في التعليم ردحاً كبيراً من الزمن، وكنت وما زلت نجماً في التعليم ، وفي نقل المعلومة ، علاقتك كانت مع الطلاب ، وكانت في التجهيز تدرس في الثانوية الأولى في دمشق ، العلاقة كيف كنت تنقل المعلومة إلى طلبتك ؟ .

الدكتور راتب :

والله 30 عام ما أزعجني طالب ، لأنني كنت كأب لهم ، وكنت أعتني بالدرس كثيراً ، وكنت أترفق بهم ، أي التعليم متعة ، والله كنت أقول : لو أقلت من التعليم لدفعت للدولة راتباً على أن أبقى فيه ، لأن التعليم رسالة ، أنا أمام نفوس عجينة طرية أشكلها كما أريد ، أنا أمام نفس بشرية بريئة ، أعطيها القيم، المبادئ ، هذه صح ، هذه غير صح العلم ، الذكاء ، أنا أقول : المعلم أسعد الناس ، لأنه يؤدي رسالة ، وكله الله بها .

أعظم الأعمال ما كانت مجزئة لذاتها :

أقول : من أعظم الأعمال ما كانت مجزئة لذاتها ، كيف ؟ ممكن تعمل بحرفة صعبة جداً ، مثلاً صب باطون بأيام الشتاء ، على أطراف البناء ، وبرد شديد ، لكن الأجر الكبير جداً ينسك كل المتاعب ، أما أرقى حرفة أن تقطف ثمارها وأنت تؤديها ، تسمى هذه الحرفة حرفة مجزية لذاتها ، فالتعليم رسالة ، ما لم تحمل رسالة لن تكون معلماً ، أما المعلم كارتزاق من أسوأ المهن ، دخلها قليل ، ومتعبة كثيراً .

باب التوبة مفتوح لكل إنسان على مصراعيه :

سيدي الإنسان أحياناً يقع في مشكلة كبيرة ، لو عرف باب الله مفتوح على مصراعيه ماذا يفعل ؟ الله ينتظرنا .

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم لتقطعت أوصالهم من حبي))

[ورد في الأثر]

أنا أسمع الأخوة الكرام هذا الحديث القدسي ، ورد أن الله تعالى ينادي عباده .

ألا من طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني أشد شوقاً لهـــــم

ألا من طـــــلبني وجدني ومن طلب غيري لـــم يجدن

من ذا الــذي أقبل إلي وما قبلته من ذا الذي طرق بابي وما فتحته

من ذا الذي توكل علـي وما كفيته من ذا الــذي دعاني وما أجبته

من ذا الذي سألني وما أعطيته

((أهل ذكري أهل مجالستي ، أهل طاعتي أهل كرامتي ـ الآن موطن الشاهد ـ وأهل معصيتي لا أقنطهم أبداً من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد ، من أقبل عليّ تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني ناديته من قريب ، ومن ترك لأجلي أعطيته المزيد ، ومن أراد إرضائي أردت ما يريد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن صفا معي صافيته ، ومن آوى إلي آويته ، ومن فوض أمره إليّ قبلته ، ومن باع نفسه مني اشتريته ، وجعلت الثمن جنتي ورضائي ، وعد صادق))

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية : 111)

يعني أنا أقول : لو أن إنسان ابتلي بهذا المرض ، بهذا الوباء ، الباب مفتوح ، الله ينتظرك .

((التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ))

[أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود]

باب التوبة مهم جداً أستاذ علاء ، باب التوبة مفتوح .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (76-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ إدارة الوقت في الإسلام وكيفية الأستفادة منه واستثماره
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-08-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا تذكيرٌ بما سبق :

سيدي الكريم ، حطت بنا الرحال عند المقوم الأخير من مقومات التكليف لهذا الإنسان المكرم على الأرض ؛ ألا وهو الوقت ، وقد أمضينا في الوقت حلقات عدة ، ووصلنا إلى مسألة هامة ، هذه المسألة عندما فهمها أتباع النبي صلى الله عليه وسلم فهماً حقيقياً انطلقت جيوش فتحهم تحمل الحب ، وتحمل الهدى والحضارة والعلم إلى أصقاع البشرية ، فوصلوا إلى فرنسا ، وإلى الصين ، وإلى الاتحاد السوفيتي ، وإلى الصحراء الإفريقية ، وعندما تراجع المسلمون عن فهم حقيقة هذا الأمر تراجع بهم اللواء ، وانكفؤوا على أنفسهم ، واستلم منهم هذا اللواء مَن فهم هذه المسألة فهماً حقيقياً ، القضية تتلخص بإدارة الوقت ، وباستغلال الوقت استغلالاً حقيقياً لرفعة الأمة ، أو لنهضة الأمة ، أو للتقدم العلمي ، نعود إلى ما أسست عليه من الآية الكريمة :

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة العصر)

إذاً : الله عز وجل حلف وأقسم بالعصر أن الإنسان في خسر ، لأنه مجموعة أيام ، الوقت يستهلكه ، وهذا الاستهلاك وهذا الخسران لا يمكن أن يتحول إلى فوز إلا من خلال الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فماذا عن هذا الوقت ؟ وكيف نديره إدارة تتسق والمفهوم الشرعي ؟

الدكتور راتب :

الوقتُ :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – الوقت بين الحضارة الغربية والإسلام :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، الوقت في الحضارة المادية هو مال فقط ، وأما الوقت في الحضارة الإسلامية فهو عبادة راقية ممتدة ، أثرها يقطفه الإنسان إلى الأبد ، و الوقت في حضارة مادية محدودة الأفق لا يعني إلا المال .

هناك مقولة ذائعة في العالم الغربي : " الوقت هو المال " ، بينما عند المسلم المؤمن : " الوقت عبادة ممتدة " ، يمكن أن يكون وعاءً لعباداته ولأعماله ولبطولاته ، ويمكن بهذا الوعاء الذي تضمن هذه البطولات أن يكون سبباً لسعادته الأبدية ، هذه حقيقة أولى .

ولكن لا بد من التأكيد على مقولة قالها الإمام الجليل الحسن البصري قال : " أدركت أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على دراهمه ودنانيره " .

ويروى أن الشيخ بدر الدين الحسني شيخ سورية مشى أمام مقهى فقال : يا سبحان الله ! لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم .

الصحابة الكرام والمسلمون الأوائل في العصور المتألقة فهموا الوقت فهماً حضارياً ، وكأنه فهم معاصر ، لذلك العالم الغربي تفوق ، لأنه أحسن إدارة الوقت ، لكنه تفوق في الدنيا فقط لأنه أراد الدنيا، أراد المال فقط ، فأدار الوقت إدارة علمية ، فحصل مالاً وفيراً ، لكن المؤمن مكلف أن يدير الوقت لحياته الدنيا ولحياته الأبدية ، لذلك يقول الحسن البصري : " أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على دراهمه ودنانيره " .

وفي بعض الآثار أن المؤمن لا يندم يوم القيامة إلا على ساعة مضت لم يذكر الله فيها .

2 – الوقتِ أثمنُ من المال :

أستاذ علاء ، هناك في نقطة دقيقة جداً ، إذا رأيت إنسانا يمسك خمسمئة ألف ليرة يحرقها أمامك ، لو رأى هذا الإنسان مليون إنسان مشاهد فإنهم يحكمون عليه بالسفه ، وباختلال العقل ، وبالجنون ، المال قوام الحياة ، وشيء ثمين ، وتحل به المشكلات ، فيأتي إنسان بملء اختياره ويحرق هذا المبلغ الفلكي الكبير ، هذا تقديم .

في أعمق أعماق الإنسان الوقتُ أثمن من المال والدليل : لو أن مرضاً عضالاً ـ لا سمح الله ـ أصاب إنساناً ، والعملية التي يرجى أن تنجح تكلفه ثمن بيته الذي لا يملك غيره ، أنا متأكد وموقن أنه لا يتردد ثانية واحدة في بيع البيت ، وإجراء عملية توهمه أنه قد يعيش بضع سنوات بعد المرض ، إذاً مركّب

في أعماق كل إنسان أن الوقت أثمن من المال ، الدليل أنه يضحي بالمال كله من أجل سنوات معدودة يتوهم أنه سيعيشها بعد إصابته بهذا المرض .

إذا حكمنا على الذي يحرق خمسمئة ألف بأنه مجنون وأحمق وغبي وسفيه ، والأحكام القضائية تحجر عليه تصرفاته ، فكيف نحكم على من يتلف وقته الذي هو أثمن من المال بكلام فارغ ، بموضوعات سخيفة ، بأشياء منحطة ، بشيء لا يقدم ولا يؤخر ، لذلك ما من شيء أهون على الناس من أوقاتهم ، يستهلكون الوقت استهلاكاً ساذجاً ، استهلاكاً سخيفاً ، استهلاكاً تافهاً ، فحينما أيقنّا أن الوقت أثمن من المال ، وأن الإنسان لا يتردد ثانية واحدة في بيع بيته وإجراء عملية جراحية توهمه أنه سيعيش بعض السنوات بعد إصابته بالمرض ، فإذا أتلف المال أمامنا حكمنا عليه بالسفه والجنون ، وحجرنا على تصرفاته ، فهذا الذي يمضي وقته بلا فائدة ، وبلا جدوى ، وبلا هدف نبيل ، وبأشياء سخيفة وتافهة ، وأشياء لا تقدم ولا تؤخر ، بل بأشياء توقع بين الناس ، وبأشياء تفسد حياتهم ، فهذا لا يعرف قيمة الوقت ، وسوف يندم على ضياعه ندماً لا حدود له ، هذه حقيقة ثانية .

3 – معنى إدارة الوقت :

الحقيقة الثالثة : الإنسان كما قلنا في لقاءات سابقة هو بضعة أيام ، بالتعريف الجامع المانع الدقيق الحاسم أنه وقت ، ومضي الوقت يستهلكه ، إذاً : ما معنى إدارة الوقت ؟

أنت أمام مكتبة فيها كتب من الأرض إلى السقف ، في كل الجدران ، ومعك امتحان مصيري ، وفي هذه المكتبة كتاب واحد هو الكتاب المقرر لهذا الامتحان ، وتعلق على نجاحك بالامتحان نيلك الشهادة ، والتعيين بمنصب رفيع ، والزواج ، وشراء بيت ، كل آمالك في الدنيا متوقفة على النجاح بهذا الاختصاص ، والمكتبة فيها كتب من الأرض إلى السقف ، لكن كتاباً واحد هو المقرر ، ألا يقتضي أن آخذ هذا الكتاب بالذات لأحقق الهدف ؟

إدارة الوقت تعني أن يكون الهدف واضحاً ، لماذا أنت في الدنيا ؟ ما علة وجودك ؟ أن يكون الهدف واضحاً ، وأن تختار من الوسائل ما يحقق هذا الهدف ، تماماً كما لو أن إنسانا وُعد بمنصب رفيع جداً ، لو نال دكتوراه ، فذهب إلى فرنسا مثلاً ، باريس مدينة عملاقة صاخبة ، فيها متنزهات ، فيها مسارح ، فيها نوادٍ ليلية ، فيها شوارع هابطة ، فيها الحدائق ، فيها الجامعات ، فيها دور السينما ، علة وجوده في هذا البلد شيء واحد ؛ أن ينال الدكتوراه ، فذلك يبحث عن وسائل لتحقيق هذا الهدف ، ما هي الوسائل؟ يستأجر بيتاً إلى جانب الجامعة توفيراً للوقت والجهد والمال ، يصادق طالباً يتقن اللغة الفرنسية ،

يشتري مجلة متعلقة باختصاصه ، يأكل طعاماً يعينه على الدراسة ، فإذا كان الهدف واضحا عندئذ يختار الإنسان لهذا الهدف الوسائل الفعالة .

هذا ملخص إدارة الوقت ؛ أن أعرف هدفي ، لماذا أنا في الدنيا ؟ ما علة وجودي ؟ أين كنت ؟ ولماذا؟ وماذا بعد الموت ؟ فإذا عرف الإنسان علة وجوده وغاية وجوده تنبع الوسائل أمامه طواعية ، ويختار منها ما يحقق الهدف .

4 – حركةُ الحياة وفق الهدف سبيلُ السعادةِ :

متى يسعد الإنسان ؟ يسعد إذا جاءت حركته في الحياة وفق الهدف الذي رسمه لنفسه :

التاجر لو أنه فتح محلا تجاريا ، وجمد أموالا طائلة ، وليس في السوق حركة ، ولا بيع ، ولا شراء ، يشعر بألم لا يحتمل ، مع أنه مرتاح على كرسي وثير ، وأمامه الصحف والمجلات ، وأصدقاء ، ومشروبات ، قهوة ، وشاي ، وهو لا يحتمل هذا الوضع ، فإذا كان هناك بيع شديد ، ونسي نفسه ، بلا طعام ، وهو يقف طوال النهار ، لكنه في قمة السعادة ، لأن البيع يتناسب مع علة وجود هذا المتجر ، وعدم البيع يتناقض مع علة افتتاح هذه المؤسسة ، فحينما تتحرك نحو هدفك تشعر براحة لا تعقل .

هناك مثل كنت ضربته سابقاً : لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري ، يبنى على نجاحه في هذا الامتحان تعينه في وظيفة مهمة مرموقة ، ويبنى على تعيينه زواجه ، لو أن أصدقاءَه أخذوه إلى مكان جميل قبل الامتحان بيومين ، واستمتع بأجمل المناظر ، وأطعموه أطيب الطعام ، لماذا يشعر بانقباض شديد ؟ لأن هذه الحركة لا علاقة لها بهدفه القريب ؟ فلو قبع في غرفة قميئة باردة رطبة ، وقرأ الكتاب المقرر ، واستوعبه لشعر براحة ما بعدها راحة .

إذاً : سعادة الإنسان أساسها أن تأتي حركة الإنسان وفق الهدف الذي حدده أو رسمه .

الأستاذ علاء :

من هنا جاءت القيمة ، حدثتنا سيدي في حلقات سابقة بأن الوقت ، وأن استثماره يثمِّن ، أو يعطي للعمل القيمة ، ويقولون في علم الموسيقى المجردة : الموسيقى صوت وزمن ، هذا الصوت يجب أن يضبطك بزمن ، ولو كان خارج الزمن فهو ليس بصوت ترتاح له الأذن ، هو النشاز ، إذاً : الذي يضبط جماله ، والذي يضبط حلاوته هو الزمن ، أنه أدِّي هذا الصوت خلال زمن محدد له الإيقاع ، ومن هنا إذا استطعنا أن ننطلق من هذه القاعدة إلى مسألة العمل المرتبط بالوقت ، واستثمار الوقت ، هل نستطيع أن نغير الوقت ؟ هل نستطيع أن نجعل من الوقت حاجة بين الأيدي لنسيّر هذا الوقت كيف نشاء ؟

الدكتور راتب :

مستحيل

الأستاذ علاء :

كيف لنا أن نغير ما يؤول به الوقت ، أو الناتج عن عمل هذا الوقت ؟

الدكتور راتب :

5 – الوقت لا يُغيَّر ولا يوَسَّع ولا يُسترجَع :

قبل كل شيء من تعريفات إدارة الوقت : فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي، الوقت من ذهب ، بل هو أغلى من الذهب ، بل هو لا يقدر بثمن ، بل هو أنت أيها الإنسان ، هذه المقولة الدقيقة جداً في موضوع إدارة الوقت .

الحقيقة كما تفضلت قبل قليل أنا لا أستطيع أن أضغط الوقت ، ولا أن أوسع الوقت ، ولا أن ألغي الوقت ، ولا أن أعيد الوقت ، ولا أن أسترجع الوقت ، ولا أن أعدل الوقت ، الوقت لا يعبأ بأحد ، يمشي بتؤدة ، وبنظام رتيب ، لا يتبدل ، ولا يتغير ، ولا يعدَّل ، ولا يعطَّل ، ولا يوسَّع ، ولا يختصر ، ولا يختزل ، لكن إدارة الوقت تعني أن أستثمره ، فكل هذه الذي نفيتها لا يمكن أن تقع ، الوقت الكهرباء تماماً ، لا تخزن ، فالوقت كذلك لا يخزن ، ولا يختزل .

الأستاذ علاء :

بالمدخرة أحياناً يصيِّرون التيار المتناوب إلى تيار متصل لاستخدامه في أوقات .

الدكتور راتب :

6 – التعريف الفرعي لإدارة الوقت

التعريف الفرعي لإدارة الوقت يعني استثماره ، أو التقليل من الوقت الضائع هدراً ، نحن أحياناً نصنع مصباحا كهربائيا ، يقولون : إن فيه هدرَ ثمانين بالمئة من الحرارة ، الضوء عشرون بالمئة ، في بعض الكائنات المضيئة في البحر الطاقة التي تستهلك بالإضاءة مئة بالمئة ، فلا هدر ولا واحد بالمئة ، الإنسان لا بد له من وقت يهدر ، لكن أحد تعريفات إدارة الوقت أن تقلّل هذا الوقت الذي سوف يهدر .

أنا أقول كلمة : كلما تخلّفت الأمة ، وتخلف المجتمع كثر الوقت المهدور ، وكلما ارتقت الأمة قلَّ الوقت المهدور ، الوقت وعاء العمل ، الوقت حضارة .

7 – إدارة الوقت مفهوم حضاريٌ :

إن إدارة الوقت مفهوم حضاري ، وأنا أقول دائماً : ما لم ندخل في ديننا المفهومات التي لها أصل في الدين كإدارة الوقت ، وإدارة الأعمال ، وفريق العمل ، والانتماء للمجموع ، والعمل ضمن المتاح ، وترشيد الاستهلاك ، هذه مفاهيم حضارية ، وهي مفاهيم إسلامية قطعاً ، فما لم نطور مفهوماتنا الدينية حتى تستوعب هذه المفهومات الحضارية التي لها أصل في إسلامنا فلن نتقدم ، فلذلك أنا أقول هذه الحقيقة المُرّة : لا يمكن أن يعبأ الغربُ بمنهجنا وبديننا إن لم نحل مشكلاتنا " ، عندنا مشكلات في العنوسة ، البطالة ، الأمية ، ما لم تحل مشكلات المجتمع الإسلامي فلن ينظر إلى هذا المجتمع بتقدير ، فلذلك الإسلام هو الحياة ، الإسلام منهج رباني لحل مشكلات البشر ، لذلك الدين توقيفي من عند الله ، لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، لأنه من عند الله :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3))

(سورة المائدة)

وأما إذا قلنا : التجديد في الدين فيعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه ، أما الدنيا فينبغي أن نبتدع فيها ، أن نطورها ، أن نطور مساكننا ، وأعمالنا ، أن نستخرج ثرواتنا ، أن نصلح طرقاتنا ، أن نصنِّع خاماتنا ، أن نطوِّر أعمالنا ، والمسلمون مع الأسف الشديد قلّدوا في دنياهم ، وابتدعوا في دينهم ، والأولى أن تعكس الآية ، أن نقلد في الدين لأنه توقيفي ، وأن نبتدع في الدنيا ، أن نحل مشكلاتنا ، لأن الإسلام هو الحياة .

الأستاذ علاء :

سيدي ، كما تفضلت ، يمكن أن نكون فاعلين في الوقت الذي لا نستطيع أن نمطه ، ولا أن نختزله ، وإنما نستطيع أن نكون فاعلين فيه من خلال استثماره استثماراً رشيداً ، ومن هنا يأتي الإدارة الرشيدة ، بمفهوم الكفاية الاقتصادي عند الاقتصاديين ، ومن يدير المؤسسات ، نقول : الكفاية الاقتصادية ، والإدارة الرشيدة هي التي تحقق الكفاية ، ومن خلال الكفاية أهمّ نقطة هي استغلال الوقت المتاح لتطبيق ولإنفاذ الخطة الاستثمارية كالوقت المحدد ، ولكن ما معنى الخطة ؟

الدكتور راتب :

لو تساهلنا بالوقت لألغيَت الخطة .

الأستاذ علاء :

نقول الخطة الخمسية أو العشرية ، ونحن في الاقتصاد نتبنى الخطط الخمسية ، ومن أهم القضايا أن ندير هذا الوقت إدارة سليمة ، وأن نستثمره لإنتاج سليم ، هذا على الصعيد المادي ، ومن القضايا التي

تفضلت بها الإدارة الرشيدة التي تحقق الكفاية هي التي يضيق هامش الهدر فيها إلى أقلّ المستويات ، نعود إلى هذه القضية ، هل الوقت هو أهمّ مورد في الأعمال المقدمة ؟

الدكتور راتب :

8 – العبرةُ العملُ المناسب في الوقت المناسب :

لكن قبل هذا السؤال إذا سمحت هناك ملمح دقيق :

((أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ))

[ابن ماجه عن ابن عمر]

العبرة أن يكون العطاء في الوقت المناسب ، وحينما نقيم دعوى ، وننتظر عشر سنوات يكونُ العدل قد فقّد رونقه ، في قضايا إحقاق الحق يجب أن يكون الحكمُ في وقت معقول قريب من المشكلة ، أما إذا امتد الوقت إلى سنوات طويلة فالحكم الإيجابي أو السلبي لا معنى له ، كل شيء له وقت ، ممكن أن تكون إدارة الوقت هي إدارة النفس ، إدارة العبادات ، إدارة الأعمال ، إدارة الدنيا بأكملها ، هذه حقيقة دقيقة جداً ، كلمة إدارة الوقت قد لا يفهم منها إدارة كل شيء ، أما هو الوقت فوعاء كل شيء ، وعاء عبادتك ، وعاء معرفتك بالله ، وعاء طلبك العلم ، وعاء عملك الصالح ، وعاء مهنتك وحرفتك ، وعاء علاقتك بأهلك ، فإذا قلنا : فلان يحسن إدارة الوقت ، يعني أنه يحسن إدارة نفسه ، وإدارة دينه وعبادته، وأهله وأولاده ، وعمله ، ودنياه وأخراه .

كما تفضلت قبل قليل ، إذا لم يمكن أن نستثمر الوقت كله فلا أقلّ من أن نستثمر أكبر قدر ممكن .

الأستاذ علاء :

كما تبين أن الوقت هو أهم موارد الأعمال أو مرتكزات الأعمال .

الدكتور راتب :

9 – الوقت أهمُّ ركنٍ من أركان إدارة الأعمال :

لإدارة الأعمال أركان بأي عمل مشروع صناعي ، زراعي ، علمي ، أي مشروع يقوم به إنسان ، هناك أربعة أركان لهذا المشروع :

المواد ، كل بناء وصنع سيارات لابد له من مواد أولية ، والمعلومات وخبرات متراكمة ، والأفراد ، ثم الوقت ، وقد يبدو الوقت جاء في الآخر ، أما هو في الحقيقة فأهمّ من كل شيء في هذه الأركان .

الأستاذ علاء :

سيدي الشركة تكتب مدة التنفيذ .

الدكتور راتب :

أحيانا من دون تاريخ البدء ، فقد ألغي الوقت .

الأستاذ علاء :

مدة التنفيذ سنتان ، لكن متى يبدءون ؟ كمن قال لآخر : آتيك ، قال له : متى ؟ قال : بين الصلاتين .

الدكتور راتب :

10 – لا للوقت المفتوح في الأعمال والمشاريع :

مرة النبي صلى الله عليه وسلم حثَّ أحد مَن حوله على أن يرجع إلى الله ، قال له : غداً إن شاء الله ، قال له : ويحك ، أليس الدهر كله غداً .

هذا الوقت المفتوح غير وارد إطلاقاً ، كل شيء له وقت محدد ، فقد يدخل إنسان جامعة ، فيبقى فيها اثني عشرة سنة ، لم تعد له قيمة ، لأن الأصل أن تأخذ الشهادة في أربع سنوات .

الأستاذ علاء :

سيدي ، عندما يكون الوقت من أهم موارد الأعمال ، لكن هو من أخطر وأهم العناصر في إنجاح العمل .

الدكتور راتب :

11 – تسجيل الأعمال والمشاريع في المذكرات من تمام إدارة الوقت :

وفي الوقت نفسه هو أكثرها هدراً ، الحقيقة أنك لا تعرف الإنسان ناجحا إلا من ضبط وقته .

مثلاً : أكثر الناس عنده قائمة إنجازات على التراخي في الذاكرة ، وهناك إنسان يكتب كلما خرج من بيته قائمة أعمال ، فيمكن لعمل يبقى سبعة أشهر ولم ينجز ، وإنجازه يحتاج ربع ساعة ، لأنه ما كتبه في مفكراته ، أحد وسائل إدارة الوقت التسجيل ، فهناك تقويم ، وجدول أعمال لكل يوم لتراجع نفسك .

عندي عشر مهمات مثلا ، في هذا اليوم أنجزت سبعة منها ، وبقيت ثلاثة ، أجّلها لليوم الثاني ، فما هناك تأمل ، وخطة ، بالتعبير المعاصر (أجندة) ، ما دام هناك تقويم عندك ، وتذكير ، وكتابة ، فهذه من وسائل إدارة الوقت ، والحقيقة أنه يمكن أن ينجز الإنسان مهمات ضئيلة جداً في وقت ممتد ، وبإدارة الوقت ، وتنظيم الأعمال وبتقييمها .

الآن في أكثر الهواتف مهامٌّ تعطيه درجة أولى وثانية وثالثة ، فكلما خطر في بالك عمل تكتبه في إدارة المهام في الهواتف الخلوية ، وتعطيه رقما ، تفتحه أنت ، عندك عشر مهمات ، وقد يحل الإنسان المشاكل في الطريق عن طريق الهاتف ، أما أن تبقى الأمور تتراخى بلا ضبط ، بلا إدارة ، بلا تسجيل، بلا كتابة فهذا تضييع للوقت .

مثل بسيط أنا أضربه للإخوة المشاهدين : لو أن الإنسان تنقصه حاجة من حاجاته الشخصية ويذكرها متى يحتاج إليها فلا إشكال ، لكن أحياناً يمضي شهران ولا يشتريها ، لأنه لم يسجِّل ذلك في مذكراته ، وبصراحة الذين حولي إن لم يكتبوا لا أعتمد عليه أبداً .

الأستاذ علاء :

كنت أود أن أتابع مسألة ؛ هي عندما يواجه أحدنا المجتمع الغربي ، وينتقل من مجتمعه إلى المجتمع الغربي ، هناك نقلة كما بين الحر والبرد ، أو من البرد إلى الحر ، سوف أقف عند هذا المجال لكن الوقت ذهب وأدركنا .

الدكتور راتب :

تعليق واحد : هل تصدق أستاذ علاء أن بعض الدول المتقدمة يعمل بها المواطن ثماني ساعات بالتمام والكمال ، وبعض الدول المتخلفة يعمل فيها العامل سبعًا وعشرين دقيقة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (77-95) - مقومات التكليف : الوقت ـ إدارة الوقت في الإسلام ولماذا هذا التباين بيننا وبين الغرب في تثمين الوقت
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-09-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير :

سيدي ، بدأنا في الحلقة الماضية موضوعاً تخصصياً من عنوان كبير ، هذا العنوان كان عن الوقت ، وقد أمضينا فيه حلقات عدة ، لكن الحلقة الماضية بدأنا في موضوع خاص هام ، بموضوع له مكانة في فهمنا للوقت مختلفة عن كل المواضيع الأخرى ، الموضوع يتعلق بإدارة الوقت ، وكيف ندير الوقت ، ونستغله ، استغلال ، ونستثمره استثماراً إيمانياً دينياً ودنيوياً ؟ وكيف نحقق الكفاية بالمفهوم الاقتصادي من خلال هذا الوقت المستثمر ، ونقلل من الهدر منه ما أمكن ، ونكون فاعلين ؟ في الوقت الذي لا نستطيع لا أن نختصره ، ولا أن نطيل منه ، هو وقت لا يعبأ بأحد يمشي ضمن نظام إلهي واضح ، لا يعبأ بمن لا يلتفتون إليه ، هو حيادي ، وعلينا أن نستغله الاستغلال الرشيد إن صح التعبير .

توقفنا في الحلقة الماضية عند مثال سيدي لو سمحت ، وقلت لك : أحد أهم القضايا التي تواجه الشاب أو الإنسان في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، عندما ينتقل إلى المجتمع الغربي يصطدم بمسألة ، هذه المسألة تتعلق كلها بالوقت ، وبمفهومه ، وتثمينه للوقت .

الدكتور راتب :

إنه ثمين جداً ، لأنه عندهم يعني المال .

الأستاذ علاء :

سيدي ، الآن يخرج الإنسان ليذهب إلى جامعته في وقت متأخر ، الحافلة تركته ، ومشت في وقتها المحدد ، هو أتى بعد ثلاثة دقائق لا يعبأ بشيء .

الدكتور راتب :

حتى لو حددت موعداً مع إنسان مهم ، وجئت بعد دقيقة لا يستقبلك .

الأستاذ علاء :

سيدي ، كثير من الأعمال إن أنجزت في وقتها تثمن من قبلهم ، وإن أنجزت بعد الوقت فكأننا لم نقم بهذه الأعمال ، هذا الفارق ، هذا الصدم إن صح التعبير ، أو الصعق بين المفهومين ، حتى يعتدل أحدنا

في تلك المجتمعات ، ويعود إلى التوازن التي تقتضيه عيش هذه المجتمعات يأخذ مدة لا بأس بها ، لماذا هذا التباين ؟

الدكتور راتب :

الحقيقة الفرق حضاري ، وقلت قبل قليل : إن الوقت عندهم يعني المال ، والمال إله عندهم يعبد من دون الله ، لكن عند المؤمنين الوقت عبادة ممتدة إلى الآخرة ، لو أحسن المسلم إدارته يسعد في الدنيا والآخرة ، وأصول إدارة الوقت في ديننا واضحة بشكل صارخ .

أستاذ علاء ، كنت في بلد أُنشئ للتجار فيه بناء موحد فيه سبعة آلاف مكتب ، المكتب فيه محل تجاري، ومكتب استيراد ، ومستودع ، وأمامه موقفان للسيارات ، كل ما يحتاجه التاجر في هذا البلد يجده في هذا البناء ، البنوك ، الجمارك ، المالية ، المؤسسات ، لا يحتاج إلى أن يخرج قيد أنملة ، وفيه موقفان للسيارات ، موقف له ، وموقف للزبائن ، كل شيء منظم ، نحن الحمد لله بدأنا بموضوع الكوة الواحدة ، هذا توفير للوقت ، لكن أنا لا أصدق أن أمة يعمل أفرادها ثماني ساعات تستطيع أمة أخرى يعمل أفرادها ثلاثين دقيقة في اليوم أن ينتصروا عليهم ، هذا إيماني ، وهذه الحقيقة مُرّة .

الأستاذ علاء :

هذا قانون الله عز وجل .

الدكتور راتب :

من يحسن إدارة الدنيا يفرض منطقه فيها :

الدنيا لها نظام ، هذه الساعة ساعة رقمية ، وهناك ساعة بيانية بعقارب ، لا يمكن أن نوازن بينهما ، كل نمط له نظام خاص ، الآخرة لها نظام أساسه الإيمان والاستقامة والعمل الصالح ، أما الدنيا فأساسها أن تحسن إدارتها ، فالذي يحسن إدارتها يملكها ، ثم يفرض ثقافة على كل الشعوب .

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105))

(سورة الأنبياء)

المقصود بالصالحين لا دينياً ، بل الصالحون لإدارتها ، فمن أحسن إدارتها ملَكها ، فإذا ملكها تفوق . الدنيا نظامها غير نظام الآخرة ، الدنيا تصلح بالكفر والعدل ، ولا تصلح بالظلم والإيمان ، وهذا كلام دقيق جداً ، فالعدل أساس المُلك ، أساس النمو ، أساس التقدم ، أساس العطاء .

هناك ملاحظة دقيقة جداً : الوقت مورد نادر لا يمكن تجميعه ، ولأنه سريع الانقضاء ، وما مضى منه لا يرجع ، ولا يعوَّض بأيِّ شيء كان ، الوقت أنفس ، وأثمن ما يملك الإنسان ، وترجع نفاسته إلى أنه

وعاء لكل علم ، ولكل عمل ، ولكل عبادة ، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان فرداً ومجتمعاً ، رأس مالي الوقت ، بالوقت هناك فكر ، وخبرات ، وبغير وقت كل شيء معطّل .

عندما نعالج هذا الموضوع في هذه الحلقة إن شاء الله من ندرك أن الوقت من أخطر موضوعات الحياة، ويحتاجه كل إنسان ، وتحتاجه الدول والأمم ، لذلك أنا أقول ، وأنا أتمنى أن ينقل هذا إلى بلادنا جميعاً: الدول القوية جداً توفر على المواطنين أوقاتهم ، لأن الروتين شبح أخطبوط يعيق التقدم .

حدثني أخ ذهب إلى بلد غربي لينشئ معملاً ، صعق حينما علم أنْ ليس هناك أي شرط ، إلاّ أن يوقّع تعهُّدين : الأول أن يوفر فرص عمل للمواطنين ، والثاني : ألاّ يلوث البيئة ، ومنحوه كل دنم بأجرة سنوية قدرُها مارك واحد ، أعطوه الأرض مجاناً على شكل أجرة حتى لا يتملكها ، وكلفوه بتصريحين: أن يوفر فرص عمل للمواطنين ، وألاّ يلوث البيئة ، فكلما عقدنا الأمور ، وطالبنا بوثائق ووضعنا شروطًا تعجيزية تأخَّرنا .

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

إنّ أبلغ من ذلك أنّ الإنسان خياره مع الإيمان خيار وقت ، أنت معك مليون خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان فخيارُ وقت ، فإما أن نؤمن في الوقت المناسب ، وننتفع بإيماننا ، أو نؤمن بعد فوات الأوان، وهذا الإيمان لا قيمة له إطلاقاً ، لأن أكفر كفار الأرض الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

ولأنه قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص)

حينما أدركه الغرق آمن ، وقال :

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس الآية : 90)

الله عز وجل قال له :

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس الآية : 91)

معنى ذلك أن الإيمان له وقت ، لذلك خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت .

الوقت أنا أعده أحد أكبر الموارد البشرية ، وأحد أكبر الأشياء التي نهدره بلا طائل ، أحيانا سهرة لا جدوى منها إطلاقاً ، كلام فارغ ، لعبة طاولة ، لعبة النرد ، الحديث الفارغ ، متابعة مسلسلات سخيفة ،

هذا كله استهلاك للوقت .

الأستاذ علاء :

من هنا :

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

(سورة النساء)

أي استغل وقته بهؤلاء الثلاثة .

الدكتور راتب :

الحقيقة أنا لا أرى إنسانا عظيما إلا مَن يحسن إدارة وقته ، لا أرى إنسانًا ناجحًا إلا يحسن إدارة وقته .
سألوا طالبًا نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية : " بمَ نلت هذا التفوق ؟ قال : لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام " ، والتذكر يعينه على إدارة وقته .

الأستاذ علاء :

سيدي ، تسمح لي أن أنطق بلسان كثير من أبناء مجتمعنا ، هو يحب أن يدير الوقت ، وأن يلتزم بالوقت ، وأن يكون في الوضع الذي يتسق مع الشريعة ، ومع العقل البشري في استغلال الوقت ، لكن البيئة التي يعيش فيها المجتمع الكبير لا تعينه على هذه المسألة كما تفضلت ، فهو يهدر وقتاً في معاملات من مكان إلى مكان ، ومن دائرة إلى دائرة ، وفي وسائط النقل ، بالإضافة إلى ذلك حتى يكسب عيشه هو مرتبط بأكثر من عمل أو عملين أحياناً ، وهذا الأمر يجعل في حياته كل التداخل ، ولأنه لا يستطيع أن يلتزم بحدية الوقت ، كيف يعيش توازناً بين ما نطرحه من مفهوم والواقع المعاصر؟

الدكتور راتب :

كيف يتوازن الإنسان بين ما نطرحه من مفهوم الوقت والواقع المعاصر ؟

1 – اختيار المجموعة التي تقدّس الوقت :

قالوا : الذكاء هو التكيف ، هو أولاً لو كان في مجتمع يحترم الوقت يقول الله عز وجل له : اصْبِرْ نَفْسَكَ مع هؤلاء :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

باختيارك تختار مجموعتك ، تختار مجموعة تحترم الوقت ، أحياناً المواعيد ، الموعد مقدس في الوقت نفسه ، فقد يأتي الإنسان بعد ساعتين مرتاحا ، والطعام معطل ، تجد المنتظرين في ألم شديد من هدر الوقت ، فباختيارك تختار مجموعة تعيش معها ، فاختر مجموعة تقدس الوقت ، هذه واحدة .

2 – التخفيف من أعباء تُهدَر بها الأوقات :

وإذا كنت في موقع مسؤولية فحاول أن تخفف عن المواطنين هدر وقتهم ، بتجميع الأمور بكوة واحدة وبناء واحد ، بالحد الأدنى من الوثائق ، لكن للأسف الموظف لا ينتبه أن هذا المواطن الذي أمامه وقته ثمين جداً يقول له : تعال غداً ، هو أتى من مدينة حلب إلى الشام ، وسوف يذهب إلى فندق بسبب كلمة: " تعال غداً " ، وقد يدير الموظف حديثاً سخيفاً مع زميله ، ويترك مصالح الناس .

الوقت يحتاج إلى مجموع الأطراف ، فالمواطن يجب أن يعرف قيمة الوقت ، والمسؤولون يجب أن يعلموا قيمة الوقت ، والوقت هو حضارة ، الوقت أساس الحياة ، وعليه تقوم الحضارة ، إذاً : الوقت شيء ثمين جداً ، وإدارته أثمن ، والمؤمن يديره لدنياه وآخرته .

الأستاذ علاء :

سيدي ، العودة إلى نظام المؤسسة ، النظام الإداري أليس تثميناً للوقت ؟

الدكتور راتب :

إدارة الأعمال تثمينٌ للوقت :

إن إدارة الأعمال هي تثمين للوقت ، عفواً أستاذ علاء ، هناك برامج كمبيوترية للبنَّاء لا يمكن أن يهدر ثانية ، الإسمنت يحتاج إلى أن يجف كذا من الأيام ، ماذا تفعل في أثناء انتظار الإسمنت ؟ هناك برنامج كومبيوتري غالٍ جداً يعطيك مراحل العمل ، حيث ينتهي البنّاء في أربعة أشهر من بناء عشرة طوابق ، لا تذهب ثانية هدراً للوقت ، بينما كلفنا إنسان يكسو بيتًا أن ينشأ بيتًا يأخذ أضعاف الوقت الذي يحتاج للإنجاز ، ويذهب هدراً ، هذه أمة .

مثلاً : لو ما أتقنا صناعة الحديد الذي فيه شوائب فحمية ماذا يفعل المهندس ؟ يضع كمية مضاعفة كلفت مبالغ فلكية حتى ينام المهندس مرتاحًا ، لأننا ما أتقنا صناعة الحديد ، وما كان نقيًّا من الشوائب الفحمية ، حتى يرتاح ضاعف الكمية فكلّف المواطن ضعف ثمن الحديد ، والأمور متشابكة ، فأيّ خلل بمكان ينسحب على أمكنة عديدة .

لو أننا نحضر دواء ، وأخرنا تخليصه لانتهى وقته ، وقد تأتي دواجن ونباتات معينة طبية ، لو أخرنا إنجازها لانتهى مفعولها ، وتُلقى في المهملات .

الأستاذ علاء :

كمن يأتي بالدواء للمريض بعد أن يفارق الحياة ، في وقت معين هذا الدواء يصلح له ، ويحسِّن حاله ، فإذا جاء هذا الدواء في وقت متأخر لم يطن صالحًا .

الدكتور راتب :

لذلك قالوا : الوقت لا يمكن شراءه ، ولا بيعه ، ولا تأجيره ، ولا استعارته ، ولا مضاعفته ، ولا توفيره ، ولا تصنيعه ، يمكن استثماره فقط .

الأستاذ علاء :

مثل الأرض الوقفية ، لا يمكن أن تنتقل ملكيتها إلا من خلال الاستثمار ، وأن يكون ناتجها لخير المجتمع .

الآن سيدي كما تفضلت ، ومن خلال ما قدمت ، الوقت نعمة عظيمة جداً ، كيف نتعرف على هذه النعمة ، وقد قالوا : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء ، لا يرى هذا التاج إلا المرضى ، هل بالمقتضى أن نصبح مرضى حتى نثمن الصحة ؟ وهل بالمقتضى أن نهدر الوقت ، وتذهب حضارتنا وحياتنا حتى ندرك أهمية الوقت ؟

الدكتور راتب :

الناس كلهم يتساوون في الوقت :

أستاذ علاء قالوا : العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه ، أن تصل إليه بعقلك لا بالواقع ، وهناك كلمة رائعة جداً يؤكد بعض العلماء منذ زمن قديم أن الوقت يمر بسرعة محددة وثابتة ، فكل ثانية أو كل دقيقة أو كل ساعة تشبه الأخرى ، نحن الوقت المريح نراه قصيراً ، والوقت المؤلم نراه طويلاً ، الحقيقة أن الوقت واحد ، وأن الوقت يسير إلى الأمام بشكل متتابع ، وأنه يتحرك وفق نظام معين محكم ، لا يمكن إيقافه ، أو تغييره ، أو زيادته ، أو إعادة تنظيمه ، بهذا يمضي الوقت بانتظام نحو الأمام ، دون أي تأخير أو تقديم ولا يمكن بأي حال من الأحوال إيقافه أو تراكمه ، أو إلغاءه أو تبديله ، أو إحلاله ، إنه مورد محدد .

الآن سوف ندقق : الوقت يملكه الجميع بالتساوي ، فعلى الرغم من أن الناس لم يولدوا بقدرات أو فرص متساوية ، فإنهم جميعاً يملكون الأربع وعشرين ساعة نفسها كل يوم ، ويملكون الاثنين

والخمسين أسبوعا كل عام ، وهكذا ، فإن جميع الناس متساوون في ناحية المدة الزمنية ، سواء كانوا من كبار الموظفين أو صغارهم ، أو من أغنياء القوم أو فقراءهم ، الوقت قاسم مشترك .

الأستاذ علاء :

في امتلاك الجميع وموزع بين الجميع بالتساوي .

الدكتور راتب :

لذلك هناك علماء جمعوا صفحات كتبهم ، وقسموها على أيام حياتهم ، فكان تأليفهم في اليوم تسعين صفحة ، الإنسان الآن لا يقرؤها ، لذلك أنا أقول : من أطاع الله طرح الله له بركة في وقته ، وفي بعض الأقوال : " من صلى الصلاة على وقتها بارك الله له في وقته " .

أحيانا في الوقت القليل تنجز إنجازاً كبيراً ، وهذا من تكريم الله للإنسان المؤمن ، يبارك الله له في وقته، والآلات الحاسبة ما فيها زر البركة ، كلها أرقام لا معنى لها ، لكن أحياناً تصيب أهدافا عديدة بذهاب واحد إلى السوق ، وبلقاء واحد تحل مئات المشكلات ، فكلما اقترب الإنسان من ربه ، أو كلما بذل وقتاً ثميناً لمعرفة ربه ولعبادته أكرمه الله عز وجل بالبركة في وقته ، فوقته مبارك ، وقد تشعر أن إنسانا له إنجازات مذهلة ، ووقته مثل وقت أي إنسان آخر ، نقول نحن في المفهوم الإيماني : لقد طرح الله البركة في وقته .

الأستاذ علاء :

سوف نأتي على الوقت ، وإلى أنه وعاء العمل ، لكن قبل كل شيء عندما تعرفنا على أن الوقت نعمة عظيمة هذا يقتضي أن نحافظ عليها ، وأن هدرها معصية ومسؤولية كبيرة .

الدكتور راتب :

من تمام إدارة الوقت وضوحُ الهدف :

نعم ، سيدي ، التقيت مع إنسان يحمل دكتوراه في إدارة الأعمال ، ذكرت له آية كريمة ، صدِّق أنه اختل صوابه ، قال : هذه الآية تلخص ثماني سنوات درستُها في أمريكا عن إدارة الوقت ، والآية هي :

(أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

هدفه ، واضح والطريق إلى هدفه واضح ، هذه إدارة الوقت ، الهدف واضح ، والطريق إلى هذا الهدف أوضح ، فلذلك المؤمن ما عنده مشكلة لأن هدفه واضح ، الناس يقولون كلامًا على سجيتهم في طريقة تضييع الوقت ، ما عنده خطة .

أُجريَ استبيان لألف شاب ، فكانت المفاجأة الصاعقة أن ثلاثة بالمئة يعرفون أهدافهم ، والباقي يعيش بحكم الحياة ، والاستمرار بلا هدف ، والإنسان بلا هدف إنسان تافه كما يقال ، الحياة لا تعاش بلا قيم ، لا تعاش بلا مبادئ ، لا تعاش بلا رسالة ، ولكن هناك إنسان تعليقاته لاذعة : لا تعاش بلا مكيف فقط ، أما هي في الأساس لا تعاش بلا قيم ، لا تعاش بلا مبادئ ، لا تعاش بلا هدف نبيل واضح .

أستاذ علاء ، الإنسان لما يكون له هدف نبيل يسمو به ، ويشعر بإنسانيته و بقدسيته ، عنده منظومة قيم تحكمه فيشعر بسموه ، وأنه إنسان ، أما إذا كان كائنًا متحركًا لمصالحه ولشهواته سقط من عين الناس ومن عين الله عز وجل ، وعظماء العالم عاشوا للناس ، الأقوياء عاش الناس لهم ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء ملكوا القلوب ، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي .

الأستاذ علاء :

سيدي ، نقول ، وقد مررت على بعض ملامح هذا المعنى : إن الوقت هو وعاء العبادة ، وأن العبادة خارج الوقت لا معنى لها ، كيف نشرح هذه المسألة ؟

الدكتور راتب :

الوقت وعاء العبادات :

الصلاة :

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103))

(سورة النساء)

الصيام برمضان ، الحج بأشهر الحج ، الفجر قبل طلوع الشمس .

الأستاذ علاء :

وإذا ذهب الحاجُّ إلى عرفة في عشرة ذي القعدة ؟

الدكتور راتب :

لا يعد حاجاً ، فلذلك نحن عباداتنا فيها وقت ، حتى إن الله عز وجل حينما خلق القمر فهو تقويم لنا ، الأصح من ذلك خلق الليل والنهار ، تصور عدمَ وجودِ ليل ونهار ؟ لكن من دورة الأرض حول نفسها أمام منبع ضوئي هو الشمس ، ومن ميل المحور ينشأ الليل والنهار والفصول الأربعة ، فأنت عندك إحساس أننا في الصيف أو في الخريف ، أو في الشتاء ، أو في الربيع ، في النهار أو في الليل ، فكون النظام الشمس ، ونظام الدوران ، ونظام دوران الأرض على مستوى متعامد مع مستوى دورانها ، لو

دارت هكذا لألغي الزمن ، ولو كان مستوى الدوران هكذا ، وهي تدور هكذا لألغي الزمن ، لكن هي تدور في محور آخر ، هذا هو أساس الوقت .

الفراغ نعمة لِمن يحسن استغلاله :

الوقت نعمة كما تفضلتم قبل قليل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))

[رواه البخاري والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس]

الفراغ نعمة كبيرة ، في بعض البلاد الغربية الدوام من الساعة الثامنة وحتى السادسة ، نكون قد استهلكنا المواصلات مرتين ذهابا وإيابا ، وفي بلاد أخرى عندها الدوام بعد الظهر ، استخدمنا المواصلات والطرق والازدحام أربع مرات ، والإنسان أهله لهم حق عليه ، فقد يأتي الساعة العاشرة إلى البيت في الدوام الثاني ، العالم الغربي ينتهي عمله الساعة السادسة ، معك من الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة ليلاً ، تجلس مع أولادك ، مع أهلك ، تزور أصدقاءك .

في الحقيقة الذي عنده وقت فراغ يملأه وفق اتجاهه ، وفق أهدافه لا يعد من بني البشر ، لما تلغي وقت الفراغ تلغي وجودك ، وإلغاء وقت الفراغ هو عدم إدارة الوقت إدارة صحيحة ، عمل مستمر ، تعب مستمر ، شكوى مستمرة ، بيت ضائع ، أولاد في الطرقات ، زوجة شاردة ، أما إذا كانت إدارة الوقت كان الانضباط ، فتقعد في وجبة طعام مع الأهل مع سؤال وجواب ، وحديث ومتابعة الابن ، فقضية الوقت شيء دقيق جداً .

الوقت مسؤولية كبيرة :

الوقت أستاذ علاء ، فضلاً عن أنه نعمة عظمى هو مسؤولية ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟))

[الدارمي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ]

الوقت مسؤولية ، ويهمني من الحديث :

((عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟))

أين ضيعه ؟ في كلام فارغ ، في نشاط سخيف ، في الإيقاع بين الناس ، في القيل والقال ، وإضاعة المال ، في حضور جلسات لا تقدم ولا تؤخر ، أم في طلب العلم ، في خدمة الأمة ؟

الأستاذ علاء :

سيدي تسمح لي هنا أن أخرج إلى مسألة فرعية ، الله عز وجل جعل الحمل مرتبطًا بزمن عند المرأة ، وجعل الفصال بعد الرضاع مرتبط بزمن ، ثم جعل التربية وسنين التمييز ، ثم الرشد ، ثم سن البلوغ ، هذا التدرج الشرعي ، حتى في حال الفصال بين الأبوين ، وعندما تحصل ـ لا سمح الله ـ حالة طلاق يبقى الولد أو البنت في عهدة الأم ، أو في عهدة أهلها حتى سن معينة ، إذاً : هذا الوقت مرتبط بأداء مهمة معينة ، هلا نذكر بعض الأشياء ؟

الدكتور راتب :

علاقة الوقت بنمو الإنسان جسديًّا ومعنويا :

كلما ارتقى الإنسان طالت مدة طفولته ، ليقتبس الخبرات من أهله ، وهناك حيوانات تخرج من بطن أمها مهيأة بقدرات ، وإمكانات كأمه تماماً .

الأستاذ علاء :

إلى العشب مباشرة وإلى الماء .

الدكتور راتب :

الإنسان الله عز وجل لحكمة بالغة ، ولكرامته عنده جعل وقت طفولته مديداً حتى يكتسب الابن من أبيه العادات والتقاليد والمبادئ والقيم ، وهذه حرام ، وهذه عيب ، وهذه لا تجوز ، وهذه تشوه سمعتك ، وأنت كذا ، فلكرامة الإنسان عند الله جعل وقت التربية ممتداً يفوق به كل مخلوق آخر .

الأستاذ علاء :

ولذلك كان الزمن له علاقة بنمو جسده المادي وبإذكاء تربيته وغرس الأخلاق .

الدكتور راتب :

تأكيداً لهذه المقولة النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((أيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قالَ الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ]

حينما تصلي في الوقت المناسب تقطف ثمار الصلاة .

الأستاذ علاء :

هلا بسطت لنا من حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأمثلة في منزله كيف كان يدير الوقت .

الدكتور راتب :

إدارة الوقت في حياة النبي عليه الصلاة والسلام :

كان إذا آوى إلى منزله صلى الله عليه وسلم جزّأ وقته ثلاثة أجزاء : جزء لله ، إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وجزء لأهله ، وجزء لنفسه ، ثم جزء جزئه لنفسه بينه وبين الناس .
جزء لله لا يعتدي عليه أبداً ، جزء لزوجته يجلس معها يستمع منها ، يثني عليها ، يأخذ منها ، ويعطي لها ، مهما تكن مشغولاً ، مهما تكن إنساناً مهمًّا فلا بد من جلسة مع الزوجة ، تستمع إليها ، وتسمع شكواها أحياناً ، هي جالسة طوال النهار وحدها تحب أن تحادثك ، فيأتي الإنسان إلى الصحف ومتابعة الأخبار ، ولا يسمح لها بكلمة ، فتتحطم المرأة بهذه الطريقة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يدير وقته جزءًا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ينظف نفسه ، يأكل ، ينام ، يرتاح ، هذا الجزء ضحى بنصفه للناس ، وهو في بيته يستقبل الناس ، هذا نموذج من إدارة الوقت عند النبي صلى الله عليه وسلم.

الأستاذ علاء :

وكان يدير كل هذه الأجزاء بكل كفاءة عالية ، دون أن يطغى جزء على جزء .

الدكتور راتب :

اغتنم خمسا قبل خمس ...

ونختم هذا اللقاء الطيب حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث الجامع المانع :

((اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك))

[أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، عن ابن عباس أحمد ، عن عمرو بن ميمون]

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، من آدابه عليه الصلاة والسلام ، وأدب التعامل عندما كان يذهب للجزء المخصص لله عز وجل ، كان يستأذن أم المؤمنين السيدة عائشة ، ويقول لها : أتأذنين لي يا عائشة .

الدكتور راتب :

هذا منتهى اللباقة واللطف مع زوجاته ، كان زوجاً مثالياً ، إن السيدة عائشة سألته : كيف حبك لي ؟ فأجابها : كعقدة الحبل ، فأصبح هذا رمزاً بينهما ، كانت تسأله من حين لأخر : كيف العقدة ؟ فيقول :

على حالها ، لا تزال عقدةً محكمة .

وقال مرة :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

بل إن من سعادة المؤمن أن يحب زوجته .

إذا قامت الساعة وبقي لك وقت فاغتنمه :

آخر شيء لا بد من ذكره :

((إِنْ قامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

[رواه أحمد في المسند]

شيء لا يصدق رغم انتهت الدنيا ، قيام الساعة النهائية ،

((إِنْ قامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))

الأستاذ علاء :

العمل مثمن ومقدس حتى قبل قيام الساعة .

الدكتور راتب :

ولو بدا لك أنه لا جدوى منها .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (82-95) - مقومات التكليف : الأسرة ـ أسباب الشقاق الزوجي ـ التقليد الأعمى أحد أسباب الشقاق الزوجي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-10-09

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكيرٌ وربطٌ :

سيدي ، كنا قد ارتحلنا وإياكم مع السادة المشاهدين في قضية هامة ، ومسألة في منتهى الخطورة تدب في أُسَرنا ، وفي مجتمعاتنا الصغيرة ، التي تشكل المجتمع الكبير ، تنسل هذه القضايا إلى ذلك المجتمع الصغير انسلالاً دون أن نتنبه إلى مواطن الخلل ، وإلى الشكوك التي تأتي منها هذه الرياح السموم ، هذه القضايا ولفترة وجيزة تعصف بالأسرة ، وتدمر أركانها ، وهي التي أرادها الله ، وأرادتها الشرائع أن تكون أسرة متوازنة متهادية متحابة ، تتعاون على الخير ، وتتعاون على البر ، وتتعاون على البناء، هذه القضايا تأتي لتشكل جَبلاً أمام ناظري الزوجين ، لا يستطيعان زحزحة لا يمنة ولا يسرى ، فإذا بالشقاق الزوجي يأتي على هذه الأسرة ، ويدمر هذه الأسرة ، كما تعصف رياح في خيام غير ثابتة ، والنتيجة أن الأولاد هم الذين يتحملون كل هذا الضنك ، وكل هذا العناء .
سيدي وصلت إلى مجموعة الأسباب التي تؤدي إلى الشقاق الزوجي ، عند مسألة هامة ، قبل كل شيء نلخص بعض الأشياء التي مرت معنا ، ثم نأتي إلى التقليد الأعمى .
الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

ضعفُ الدين أهم أسباب الشقاق الزوجي :

أستاذ علاء جزاك الله خيراً ، بادئ ذي بدء قلنا : في الأخبار موجز وفيها تفاصيل ، أنا أرى أن موجز الأسباب المتعلقة بالشقاق الزوجي ضعف الدين ، ضعف الالتزام ، ضعف معرفة مهمة الإنسان في الحياة ، ضعف معرفة المهمة التي كلف بها ، ضعف الإيمان باليوم الآخر .
حينما يؤمن الإنسان باليوم الآخر أقسم لك بالله ولا أبالغ تنعكس كل مقاييسه مئة وثمانين درجة ، إن آمن باليوم الآخر يسره العطاء ، يسره أن يبث الأمن فيمن حوله ، يسره أن يعطي لا أن يأخذ ، يسره

أن يؤلّف لا أن يفرِّق ، يسره أن يقدّم خدماته لكل من حوله ، لا أن يعيش على أنقاضهم ، هذه القضية في الأساس تصور صحيح أو خاطئ .

الأستاذ علاء :

مَن سرّته حسنته وساءته سيئته .

الدكتور راتب :

التصور الصحيح قاعدة مهمة للنجاح :

إن تصور الإنسان أنه في دار تكليف سوف يدفع فيها ثمن جنة عرضها السماوات والأرض يبني حياته على العطاء ، يبني حياته على الصبر ، يبني حياته على الإحسان ، يبني حياته على الرحمة ، وفي الأساس الإنسان حينما يجهل سر وجوده ، وغاية وجوده يصبح شرساً ، أحياناً يعبد لذَّته ، ويعبد هواه ، فإن لم تأتِ الأمور كما يتمنى ضاق بها ذرعاً ، فلذلك حينما يصح الإيمان ، ويستقيم السلوك تحل كل فصول الإنسان ، وزواجه أحد فصوله ، لأن الله عز وجل يقول :

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ)

(سورة النساء الآية : 174)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

الله بيْن الزوجين المسلمَيْن ، وبين غيرهما المصالح الدنيوية :

فأنا أقول : في أصل الزواج الإسلامي اللهُ بيْن الزوجين ، في أيّ زواج آخر ليس بينهما الله ، بل بينهما مصالح متبادلة ، فإن ضعفت هذه المصالح كان الشقاق ، في الزواج الإسلامي الله بين الزوجين ، كل طرف يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر ، وكل طرف يتقرب إلى الله بخدمة الطرف الآخر ، لذلك من أروع ما قرأت حول قوله تعالى :

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (19))

(سورة النساء)

قال علماء التفسير : ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها ، بل أن تحتمل الأذى منها ، وأنت تعيش معها لرسالة .

1 – ضعفُ الإيمان والاستقامة ينعكس سلبًا على بيت الزوجية :

هذه أم أولادك ، هذه شريكة حياتك ، هذه قبِلَت وضعك المادي الضعيف ، فلما اغتنيت أصبحتَ لا ترضاها ، القضية قضيةُ وفاء ، قضية أخلاق ، قضية محبة ، قضية إيمان ، لذلك الحقيقة الدقيقة أن الإنسان إذا ضعف إيمانه ، وضعف التزامه ، وضعفت استقامته ينعكس هذا على بيته .

2 – خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ :

قد بينت في لقاء سابق بمعيتكم مقياسَ الخُلق الذي أراده النبي في البيت ، الإنسان خارج البيت يتجمَّل ليكون أنيقاً ، يبتسم ، يعتذر ، لأن مصلحته تقتضي ذلك ، أما في البيت فلا رقيب عليه ، فقد يكون شرساً ، وقد يكون قاسياً ، وقد يكون عنيفاً ، وقد لا يهتم بمشاعر الآخرين ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[الترمذي]

عدم الكفاءة بين الزوجين من أسباب الشقاق :

لو طلبت مني بعض التفاصيل في الحلقات السابقة ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، ثم ضعف الإيمان ، ثم التعالي ، والتعالي يتأتى أحياناً من عدم الكفاءة بين الزوجين ، وتحدثت عن الكفاءة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فهذه بعض أسباب الشقاق الزوجي ، وهي كثيرة جداً ، وأنا أرى أن هذا الموضوع يمس معظم الأسر التي شردت عن الله عز وجل ، وصار البيت جحيماً لا يطاق .

الأستاذ علاء :

سيدي ، مسألة الكفاءة التي مررنا عليها في حلقة سابقة ، هل نستطيع أن نستقرئها من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الدكتور راتب :

إذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ :

سبحانك يا رب على هذه التفرقة بين الدِّين والخُلق ، هو يصلي ، ويؤدي زكاة ماله ، ويحج بيت الله الحرام ، ويصوم رمضان ، لكنه قاسٍ ، لكنه يحب لنفسه كل شيء ، لكنه لا يرحم ، فلذلك كأن الدين والخلق شرطان ، كلٌّ منهما شرط لازم غير كاف ، فالخُلق من دون دِين مشكلة كبيرة جداً ، لأن الإنسان الذكي جداً يجد مصلحته في أن يكون صادقاً أميناً ، فيبتغي الدنيا فقط ، أما إذا مست مصلحته فيصبح ثوراً هائجاً ، كما نرى في العالم الغربي اليوم ، قيم وحضارة ومبادئ ، ولما مسّت مصالحهم انقلبوا إلى وحوش ، فالبطولة لا أن أكون أخلاقياً بدافع الذكاء أو بدافع المصلحة ، بل أكون أخلاقيًّا بدافع العبادة لله عز وجل ، أخلاقيا تعبداً للدنيا والآخرة معاً ، أما الذكي فينال الدنيا وحدها فقط ، لكن ما له :

(فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ)

(سورة البقرة الآية : 200)

((إذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لكن الملمح في الحديث خطير جداً ، الملمح في تتمته :

((إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

يا تُرى إذا وضعنا عراقيل أمام الزواج فهل تنعدم العلاقة بين الذكر والأنثى ؟ لا تنعدم ، بل تنتقل من القناة النظيفة المشروعة الرائعة التي جاء بها هذا الدين القويم إلى قناة نجسة سيئة هي السفاح ، لأن المرأة إما زوجة ، إمّا عشيقة ، وفي الإسلام الزواج هو القناة النظيفة .

كنت أقول دائماً : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها ، فيجب أن يعتقد الإخوة الكرام أنْ ليس في الإسلام حرمان ، لأن هذا الدين دين الفطرة :

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عن عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لذلك هناك قصص لبعض العلماء أنه : صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاما ، أنا لا أصدقها ، وفيها مبالغة غير واقعية ، الجسم له قوانين ، هل تستطيع ألاّ تنام ؟

الأستاذ علاء :

إلا إذا نام في النهار كله .

الدكتور راتب :

((أمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الإسلام دين الفطرة ، دين الواقع ، دين الحياة .

كنت أقول دائماً : الحق دائرة يتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح ، والعقل الصريح ، والفطرة السليمة ، والواقع الموضوعي ، أي أن الحق ما جاء به النقل الصحيح ، وقبله العقل الصريح ، وارتاحت له الفطرة السليمة ، وأيَّده الواقع الموضوعي .

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم ، كما تفضلت ، أن الشهوة ، وخاصة رغبة الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل ، إن لم تنفذ بالطرق النظيفة والشرعية اتجهت نحو طرق غير شرعية ، كالماء عندما لا تصرف هذه الكمية من الماء في قنوات ، ومن خلال سدود تنقلب دماراً وتجريفاً للتربة والبيوت والإنسان والحجر والبشر .

الدكتور راتب :

لابد للشهوة أن تنفجر ، لكن في أيّ مكان ؟

وكنت أقول دائماً كلاما قريبًا من هذا الكلام : الوقود السائل في المركبة إن وضع في المستودعات المحكَمة ، وسال في الأنابيب المحكَمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ولَّدَ حركة نافعة ، أقلّتك أنت وأهلك إلى مكان جميل ، السائل نفسه إذا صُب على المركبة أعطى شرارة فأحرقت المركبة ومَن فيها ، هذه الشهوة إما أنها قوة نافعة رائعة ، أو قوة مدمرة ، والمحرَّمات كلوحة كتب عليها : " حقل ألغام ، ممنوع التجاوز " ، هل يشعر المواطن إن قرأ هذه اللوحة أن هذه اللوحة قيَّدت حريته ، أم ضمنت سلامته ؟

الأستاذ علاء :

إن فهمها تقيداً للحرية يكون جاهلاً .

الدكتور راتب :

وإن فهمها ضمان لسلامته يكون عالما .

مثل آخر : هذه السيارة لماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير ، ولماذا المكبح ؟ المكبح نظرياً أو إيديولوجياً يتناقض مع علّة صنع السيارة ، المكبح من أجل سلامتها ، يوقفها ضمانًا لسلامتها ، وكنت أقول ردًّا

على من يزعم أن الحجاب رمز إسلامي : الحجاب كالمكبح في السيارة ، وهو جزء أساسي في السيارة، وليس رمزاً .

الأستاذ علاء :

سيدي ، هذه الأسرة تبين من خلال حديثكم كيف يأتيها الشقاق من خلال أسباب ، وهذه الأسباب عند كثير من الأزواج نتيجة الجهل كما تفضلت ، لا يتنبهون إليها ، أو لا يصغون سمعاً إليها ، وصلنا إلى التقليد الأعمى ، وتحدثنا عن الكفء ، كما تفضلت ، وعن الجهل ، وعن ضعف الإيمان ، وأشياء كثيرة، وصلنا إلى التقليد الأعمى ، كيف يكون التقليد الأعمى جسراً للشقاق الزوجي .

الدكتور راتب :

كيف يكون التقليد الأعمى سببًا للشقاق الزوجي ؟

أحياناً تكون الزوجة مع زوجها أسعد الناس به ، يحبها وتحبه ، يقدرها وتقدره ، ولهما بيت يؤويهما ، ولهما مركبة صغيرها يستعملانها ، ولهما دخل معقول يغطي نفقاتهما ، لكن لها جارة ، أو أخت ، أو قريبة ، أو بنت خالة ، أو بنت عمة ، زوجها تاجر كبير ، بيتها مساحته أربعمئة متر ، الأثاث ، التزيينات ، الحفلات ، الولائم ، هي تضغط على زوجها بشكل أو بآخر كي تقلّد هذه الجارة ، أو تلك الأخت ، أو تلك بنت الخالة ، هو سعيد بها ، وهي سعيدة به ، ولكن هذا الضغط المستمر من أجل أن تتباهى ، وأن تتظاهر بالرخاء والغنى تحطم سعادتها الزوجية ، هذه أخطر مشكلة ، لذلك المؤمن لا يقارن نفسَه مع آخر .

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (32))

(سورة النساء)

لابد للأزواج من الرضى بما قسم الله لهم :

لا تتمنوا ، لأن الحياة مؤقتة ، وأيّ مستوًى مادي في الدنيا ينتهي عند الموت ، فالموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي ، وضعف الضعيف ، وغنى الغني ، وفقر الفقير ، ووسامة الوسيم ، ودمامة الدميم ، وذكاء الذكي ، ومحدودية المحدود ، ينهي كل شيء ، فنحن خلقنا للآخرة ، فلذلك قد تجد بيتا متواضعا جداً أثاثه متواضع جداً ، فيه سعادة زوجية لو وُزِّعت هذه السعادة على أهل مدينة لكفتهم ، وبيت آخر يضجّ بالتحف ، بقيمة الملايين في الصالونات والشرفات والحدائق والأبهاء ، وفيه مركبتان أو ثلاث فارهة ، لكن هذا البيت قطعة من الجحيم ، لأن النقطة الدقيقة جداً أن الله يعطي الصحة والذكاء والمال

والجمال للكثيرين من خَلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين ، فالرضا أحد أسباب السعادة ؛ أن تكون راضيًا عن الله فيما أقامك ، أقامك بشكل معين ، أقامك بقدرات معينة ، أعطاك هذه الزوجة هي هدية من الله ، أعطاكِ هذا الزوج هو هدية من الله عز وجل .

حينما أرضى عن الله أكون قد حققت أحد أسباب السعادة ، والرضا مقام ، والرضا أحد مدارج السالكين ؛ أن ترضى عن الله عز وجل ، والزوجة حينما ترضى بزوجها تسعد به .

المشكلة مثلاً : أن الزوجة يأتيها أخوها ، بيتها صغير ، يقول لها : كيف تعيشين في هذا البيت ؟ ينكّد عليها حياتها ، لذلك :

((مَن فرَّق فليس منا))

الجامع الصغير عن معقل بن يسار بسند موضوع ، وله شواهد أخرى في الترمذي وأبي داود]

هذا حديث دقيق جداً .

حينما تلقي كلمة قد لا تلقي لها بالاً :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[الترمذي]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ :

((مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا ، قَالَتْ :فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا ، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً ، فَقَالَ : لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي ، أبو داود ، أحمد]

والله مرة زرتُ أحد إخواننا ، غرفة الضيوف عنده تتسع لشخصين أو ثلاثة فقط ، كهذه الطاولة ، هو استحيا ، قلت : لا تستح ، سيد الخلق ، وحبيب الحق غرفته التي كان ينام فيها لا تتسع لصلاته ونوم زوجته ، أنا طمأنته أن هذه القضية لا قيمة لها إطلاقاً ، العبرة أن تكون مطيعاً لله :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

(سورة الأحزاب)

التقليد الأعمى يدمر السعادة الزوجية .

بين السعادة واللذة :

أنا مضطر الآن أن أفرق بين شيئين بين السعادة واللذة :

اللذة إحساس مادي ، تحتاج إلى أشياء خارجة عن الإنسان ؛ إلى مال ، إلى صحة ، إلى وقت ، أساسها بيت واسع جداً ، مكيف ، مدفأ ، فيه كل الأجهزة ، له إطلالة رائعة ، أساسها مركبة فارهة جداً ،

أساسها دخل كبير فلكي ، سفر ، رحلات ، فنادق ، إلى آخره .
أما السعادة فتنبع من الداخل ، ولا تحتاج إلى شيء خارجي إطلاقاً ، لذلك قد تكون في أضيق بيت ، وأنت في قمة السعادة ، بعضهم قال : هذه السكينة وجدها إبراهيم وهو في النار :

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

وجدها أهل الكهف في الكهف ، ووجدها النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء .
هذه السكينة أستاذ علاء تسعد بها ولو فقدتَ كل شيء ، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء ، إنها الصلة بالله عز وجل ، والزوجان حينما يؤمنان الإيمان الصحيح ويتصلان بالله يعيشان حياة والله الذي لا إله إلا هو يتمناها أغنى أغنياء العالم ، كيف نفسر أن أعلى نسب انتحار في العالم في الدول الغنية جداً ؟ في السويد والدانمارك والنرويج ، لأن الإنسان نهائي مصمم للآخرة ، فإذا اختار بحمقه هدفاً محدوداً بعد حين استوعبه وملَّ منه ، وأنا أفسر كل انحرافات الجنس في العالم الغربي لا لأن الذي انحرفوا إليه أمتع من الذي انحرفوا عنه ، إلا أن الملل والسأم أهلكهم ، والإنسان طاقاته كبيرة جداً ، اختار هدفا ماديا محدودا ، فلما استوعبه ، وختمه ، وأحاط به شعر بالملل .
أنا أقول لمن شرد عن الله : يسعد أول فترة في حياته ما دام يعيش الأحلام ، يحلم في زوجة معينة ، في بيت معين ، بدخل معين ، بمركبة معينة ، لما تتحدد زوجته ، وبيته ، ومعاشه يشعر بالفراغ ، أما المؤمن فلا يشيخ أبداً ، بل يصل إلى سن التسعين وهو شاب ، لأن هدفه كبير ، وكان الشيخ بدر الدين الحسني ـ رحمه الله ـ لما يمشي أمام مقهى يقول : " سبحان الله ! لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم " .
فلذلك التقليد الأعمى أساسه اللذة ، واللذة تحتاج إلى وقت ، وإلى صحة ، وإلى مال ، لحكمة بالغة هذه الأشياء الثلاثة لا يمكن أن تجتمع في وقت واحد ، ففي بدايات العمر لا يتوفر المال ، وتتوفر الصحة والوقت ، وفي منتصف الحياة الوقت قليل ، لكن هناك صحة ومال ، وفي النهاية لا صحة ، مع وجود المال والوقت .
حينما تتعرف إلى الله ، وتسعد به ، وتصطلح معه تنطلق بسعادة لا توصف ، لأن هدفك معك دائماً ، وهدفك واضح ، والوسائل واضحة .
إنسان في محل تجاري ، أسّسه حتى يربح ، والبيع على أشدِّه ، هو تعبان ، لكن يحقق هدفه الكبير ، لو أن البيع قليل ، وجلس ، وارتاح ، وأحضروا له القهوة والشاي والصحف والمجلات لا يرتاح .
الأستاذ علاء :

سيدي ، من خلال ما مر كما تفضلت هنالك نقطة حينما يحس بالسعادة ، ويرضى عن ربه ، ثم يقنع بما لديه ، وقد يتساءل شخص ، أو قد ينفذ لهذا المعنى رأي للانتقاد : أن هذه القضية تدعو إلى الكسل ، وتدعو أن نرضى بهذا المرتقى ، وألا يكون لنا طموح في الحياة .

الدكتور راتب :

الاقتناع بالموجود لا يعني الكسل وعدم الطموح :

أنا أشكرك على هذا السؤال ، وهذه المداخلة ، الحقيقة يجب أن ترفع مستواك ، وأنا أقول هذا الكلام : حينما تبذل كل ما تستطيع من جهد لترفع المستوى ، ولا يتاح لك شيء لحكمة إلهة أرادها الله ، عندئذ ارضَ عن الله ، لكن إذا كان الدخل قليلا ، وعندي أولاد ، حينما أسعى إلى رفع دخلي ، وحينما أعطي أولادي حاجاتهم ، وحينما أربطهم بي ، وحينما أحقق لهم طموحهم فهذا لا ينافي القناعة ، فحبذا المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي .

أنا أقول : حينما أبذل كل ما أستطيع ، وأصل إلى هنا لحكمة أرادها الله لم أستطع أن أتابع ، عندئذ أرضى ، أما أن أرضى بمستوى بإمكاني أن أرفعه فهذا لا ينبغي ، لذلك قالوا : أصلح دنياك ، واعمل لآخرتك ، فيمكن أن توسع البيت ، عندك بنات ، وعندك شباب ، يمكن أن تجعل البيت صحيا وتوسِّعه ، وأن تقتني مركبة تريح أولادك ، وتأخذهم في نزهة كل أسبوع ، هذا شيء مطلوب ، أنا لا أرضى أن أكون بمستوى أقل من غيري إلا في الأشياء التي لا ترضي الله عز وجل ، أما أنا أسعى لرفع مستوى دخلي فهذا شيء طبيعي جداً ، لكن أنا أقول : في العالم الغربي إذا طمح الإنسان في شيء ، وما وصل إليه ينتحر ، لكن المؤمن لا ينتحر ، بل المؤمن يحمد الله على كل شيء .

الأستاذ علاء :

سيدي هذه الحلقة تبث ونحن نعيش أول العام الدراسي ، وأول ورود أبنائنا طلبة وتلاميذ إلى مدارسهم، وتعلم سيدي الكريم أن المدارس ، ورغم أن التعليم في مجمله مجاني ، هنالك مدارس خاصة ، هنالك تكاليف ، فعلى الأهل أن يقتنوا الوسائل لأولادهم من ملابس ومن أشياء للرياضة ، ومن دفاتر وأقلام ، رغم أن التعليم في سوريا والحمد لله مجاني ، ولا يكلف الأهل الانتساب إلى مدرسة عامة أيّ مبلغ من المال ، هنالك في هذا المنحى التقليد الأعمى ، قال علماء النفس : هنالك حاجات وهمية ، وهنالك حاجات أساسية أو حقيقية ، ويريد هذا الولد حذاء للرياضة ، يريد ثيابا للرياضة ، يريد صدرية ، يريد ملابس للمدرسة ، يريد أقلاما ، هنالك قلم ثمنه كذا في السوق ، وهو من نوع معين ، كما قلنا في التقليد الأعمى ، هنالك حذاء للرياضة بماركة عالمية جد غالية ، يصل ثمن الحذاء إلى خمسة عشر ألف ليرة

سورية ، وهناك حذاء من إنتاجنا ، وهو جيد ، هنا تبدأ الأم بالتقليد الذي تفضلت به فتضغط على زوجها .

الدكتور راتب :

بل هي تضغط أكثر فأكثر .

الأستاذ علاء :

لتشتري لأولادها كما عند جيرانها أو أقرانها في المدرسة من تلك الماركة ، أو ذلك المصنع ، ماذا نقول ؟

الدكتور راتب :

النفقة بالموجود مع عدم تكلّف المفقود :

سيدي ، هناك ملاحظة علمية : سجادة وطنية من الصوف ، ولها نقش جميل جداً ، ثمنها بالآلف ، وهناك سجادة ثمنها ثمانمئة ألف ، وهي أجمل ، الفرق في الجمال بالمئة عشرة ، أما الاستعمال فهما سواء ، والاستعمال واحد ، صوف عازل دافئ في الشتاء ، وفيها جمال ، لكن ليس كالسجادة التبريزية أو الحرير ، دائماً عندنا مستوى استعمال ومستوى جمال ، والفرق في السعر كبير جداً ، فقد يكون مئة ضعف ، أما الفرق في الاستعمال فقد يكون عشرة بالمئة ، وحينما أقنع مَن حولي أن هذه الأشياء بأسعار معقولة نعيش حياة سعيدة كلنا .

عندنا نفقات معالجة طبية ، ونفقات نزهات ، ونفقات ألبسة ، وحين أضع كل دخلي للمظاهر يكون عندي حمق ، وهذه كلمة قاسية ، لكنها كلمة حق ، فلابد من الإنفاق بمستوى دخلي :

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29))

(سورة الإسراء)

هذه تحتاج إلى إقناع من قِبل الأب والأم ، ونحن لا نوازن نفسنا مع الآخرين .

على الأغنياء مراعاة مشاعر الفقراء و ظروفهم :

أنا أتمنى لأصحاب الدخل المفتوح غير المحدود ألاّ يفسدوا أبناء أصحاب الدخل المحدود في المدارس، فإذا اشتريت فاكهة فأهدِ منها لجارك ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده ، ولا تؤذه بقتار قِدرك إلا أن تغرف له منها .

أنا أعطي ابني خمسمئة ليرة في الروضة ، والفقير أخذ من أبيه خمسين ليرة ، هذا عمل أنا لا أراه منطقياً إطلاقاً ، أو أعطي ابني أكلات مستوردة القطعة ثمنها مئة ليرة ، بل أعطي ابني عشرين ليرة ليشتري قطعتي حلوى ، فالذي أسرف بإعطاء ابنه المدلل الذي لا يحتمل أعطاه هذا المبلغ الكبير قد أفسد به عشرات الطلاب الذين حوله .

عندنا موقف كامل من أصحاب الدخل غير المحدود ، أطعم ابنك ما تشاء في البيت ، اشتر له أي لعبة تشاء في البيت ، أما أن تجعله هو طفل صغير يغيظ أصدقاءه ، أن تجعله يملأ قلب أصدقائه حقداً وحسداً ، فهذا شيء غير معقول ، وبصراحة يجب أن تعطيه فاكهة مما يأكل منها كل الناس ، تفاحة ، أما فاكهة غالية جداً ، أو قطع حلويات غالية جداً ، ومعه خمسمئة ليرة فهذا طفل جاهل يريد أن يفتخر ، ويقول : معي خمسمئة ليرة ، يشتري أشياء غير معقولة .

كما أن الفقير عليه أن يعتدل بإنفاقه عليه أن يشتري الشيء المناسب بالوقت المناسب ، وعلى أصحاب الدخل غير المحدود أن ينتبهوا لهذه الناحية ، ولا تؤذه بقتار قدرك ، إلا أن تغرف له منها ، وإذا اشتريت فاكهة فأدخلها سراً ، هكذا كان السلف الصالح ، يضع بعضهم غطاء من قماشٍ فوق السلة ، والمفروض من المؤمن أن يكون عنده إحساس عالٍ جداً ولو كان غنيًّا .

واللهِ أقول لك أستاذ علاء : المؤمن الغني تشتهي الغنى منه ، وقد قيل : " العدل حسن ، لكن في الأمراء أحسن ، والسخاء حسن ، لكن في الأغنياء أحسن ، والورع حسن ، لكن في العلماء أحسن ، والتوبة حسن ، لكن في الشباب أحسن ، والصبر حسن ، لكن في الفقراء أحسن ، والحياء حسن ، لكن في النساء أحسن " .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (83-95) - مقومات التكليف : الأسرة ـ أسباب الشقاق الزوجي ـ ميل أحد الأبوين إلى أحد الأولاد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-10-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتذكير :

سيدي الكريم توقفنا عند مسألة هامة ودعني أبدأ هذه الحلقة بقوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا(54))

(سورة الفرقان)

تحدثنا عن الأسرة وعن أهمية الأسرة وعن الرباط الأسري ، وتحدثنا في حلقات أخرى عن المودة والرحمة وجعل بينكم مودة ورحمة ، ثم تحدثنا عن المظاهر التي نراها في المحاكم الشرعية نتيجة الشقاق الزوجي ، وتحدثنا عن أسباب الشقاق الزوجي بدأنا بضعف الإيمان بالله ، ضعف القناعة ، ضعف الإيمان باليوم الآخر ، التعالي ، الجهل ، سوء التصرف ، وتحدثنا عن التقليد الأعمى وهذا ما يورث الشقاق الزوجي ، ماذا عن إجمال هذه الموضوعات لنبتدئ بموضوع هام هو ميل أحد الأبوين إلى أحد الأولاد .

بطولة كل إنسان لا أن يعالج أعراض الداء بل أصل هذا الداء :

الدكتور راتب :

سيدي أحياناً يكون عندنا التهاب عميق بالجهاز الهضمي لهذا الالتهاب العميق أعراض ، ارتفاع حرارة ، أحياناً صداع ، أحياناً ارتفاع حرارة مع برودة (بردية)، فالبطولة لا أن تعالج هذه الأعراض أن تعالج أصل الداء ، فنحن قلت في حلقة سابقة الأصل أن هذا الإنسان غفل عن الله ، غفل عن سرّ وجوده ، غفل عن غاية وجوده ، غفل عن حقيقة الزواج قال سيدنا عمر : أقوم إلى زوجتي ، وما بي من شهوة إلا ابتغاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي .

هناك أهداف نبيلة جداً ، أنا سبحان الله في عقود القران أحياناً أذكر آية ما لها علاقة بالزواج إطلاقاً متعلقة بالجهاد لماذا أذكرها في موضوع الزواج ، ما الآية ؟

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (104))

(سورة النساء)

يعني أي شاب أقدم على الزواج أمامه متاعب كبيرة جداً ، تأمين البيت ، تأسيس البيت ، تأمين الحلي للمخطوبة ، الحفلات ، تكاليف فوق طاقته ، أي إنسان أقدم على الزواج أمامه متاعب لا تعد ولا تحصى ، لكن المؤمن يرجو من الزواج ما لا يرجوه غير المؤمن :

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (104))

(سورة النساء)

أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها :

لذلك موضوع أسباب الشقاق الزوجي أصلها جهل الإنسان بسر وجوده ، وغاية وجوده ، جهل الإنسان برسالته في الحياة لماذا الزواج ؟ ليس للمتعة ، المتعة موجودة ، لكن ليس للمتعة وحدها والفلاسفة ذكروا حقيقة خطيرة جداً ، الإنسان حينما يتوهم أن اللذة تسعده سوف تشقيه ، إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها وأشقاهم فيها أرغبهم فيها ، أنت حينما تعتقد أن اللذة تسعدك هذا أكبر خطأ ، لذلك قالوا : مبدأ اللذة إذا أصبح هدفاً انقلب إلى مبدأ ألم.

فلذلك الزواج برسالته راقٍ جداً ، برسالته سامٍ جداً ، برسالته مسعد جداً لكن من دون رسالة متعة ، الزوجة تمل ، والزوج يمل ، وكل شيء يمل في الحياة ، مادام لا يوجد رسالة ، لا يوجد هدف كبير كل شيء ممتع بدون رسالة يمل ، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ بِهِ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[مسند الإمام أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

ليس القصد ألا تتنعم ، لا ، ألا تجعله هدفاً وغاية ، ألا يكون التنعم محط رحالكم ومنتهى آمالكم ، أنا معي رسالة ، هذه الأمة تصنع تاريخها بأبطالها وأبطال المسلمين صنعوا تاريخاً متألقاً جداً ببطولاتهم ، هم تزوجوا وأنا يغلب على ظني أنهم سعدوا بزوجاتهم لكن معهم رسالة ، إذاً الإنسان يحقق نجاحاً كبيراً بعمله ، في بيته مرتاح ، في أكل ، في شرب ، في زوجة ، لكن هذه الأشياء تعينه على رسالته ، ليس الهدف أن يكون له مقعد مريح في البيت ، ليس له عمل خارج البيت من أين يأتي بالمال ؟ هو له أعمال مهمة وناجح نجاحاً كبيراً لكن في بيته مرتاحاً .

المبادئ والقيم والرسالة والإيمان أساس كل علاقة زوجية :

لذلك حينما ننحي المبادئ والقيم والرسالة والإيمان جانباً نقع في إشكال كبير يغدو الزواج مملاً ، أنا مرة كنت في أمريكا لي قريب هناك له صديق أميركي ، على شرفته ألبسة ولادية منشورة ، زاره مرة

فسأله كم ولد عندك ؟ قال أنا عندي كلاب ما عندي أولاد ، هذه ثياب الكلاب ، الولد ممل متعب ، المشكلة الكبيرة المجتمع الغربي يتناقص ، سكان أوربا نسبتهم إلى سكان العالم كان خمسة و عشرون بالمئة الآن خمسة عشر بالمئة وسنة 2020م سيكونون خمسة بالمئة في تناقص ، لا داعي للأولاد ، لا داعي أن يكون هناك زواج أصلاً هناك مساكنة فقط ، شاب اختار شابة في الجامعة سكن معها ، عاشرها كزوجة إلى أن يمل منها يركلها بقدمه ، هذه حياة ؟ نحن عندنا زواج ، عندنا مقدسات ، عندنا عقد :

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21))

(سورة النساء)

نحن الزواج مقدس ، الأولاد مقدسة ، مرة كنت في أستراليا فقال لي رئيس الجالية هناك بلغ أخواننا في الشام أن مزابل الشام خير من جنات أستراليا ، يعيشون في جنة هناك المادية طبعاً ، لما سألته لماذا ؟ قال لأن ابنك ليس ملكك هناك ، ابنك في بلاد الشرق أنت مطمئن أنه ابنك سيكون على شاكلتك ، هناك ملحد أو في حلقة في أذنه لها معنى سيئ جداً ، مشكلة كبيرة جداً ، نحن الزواج شيء مقدس .

أكبر سبب في الشقاق الزوجي أن نجهل حقيقة وجودنا :

كما تفضلت في بداية الحلقة السابقة قلت نقطة دقيقة جداً أن من دون أن يشعر الإنسان يحقق هدفاً كبيراً في الزواج ، فلذلك أنا أقول إما أن نعالج أصل المرض أو أن نعالج أعراضه ، أعراضه في مئة عرض الحل لا يكون إلا بمعالجة أصل المرض .

لذلك : أن نجهل حقيقة وجودنا ، أن نجهل ما ينتظرنا بعد الموت ، يعدّ أكبر سبب في الشقاق الزوجي، أما حينما أؤمن أن هذا الزواج مرحلي وله رسالة كبيرة إنجاب أولاد صالحين يعطون المجتمع بناء صحيحاً ، قيماً صحيحة ، أقول قد حققت الهدف من الزواج .

الأستاذ علاء :

سيدي في الحلقة الماضية انتهينا من التقليد الأعمى وقد أشبعنا هذه النقطة ، في البيت الأب أو الأم يميل كل منهما إلى أحد الأولاد ، وهذه قضية تربوية ، وهذه قضية سلوكية من دون أن يشعر الأب أو الأم قد تحدث مشكلة في المنزل تكبر وتكبر حتى تفضي بانهيار الأسرة أحياناً ما حلّ هذه القضية ؟

من بالغ بالعدل بين أولاده ألغى الفروق الفردية بينهم :

الدكتور راتب :

أستاذ علاء لا شك أن هناك فروقاً فردية ، الآن أنطلق من حقيقة علمية ، هناك ولد وسيم وسامته عالية جداً ، وهناك ولد غير وسيم ، هناك ولد ذكي ، وهناك ولد غير ذكي ، فأنت أحد شخصين إما أن أنساق مع رغباتي الفطرية الغرائزية فأهتم بهذا الوسيم وهذا الذكي وأهمل غير الوسيم وغير الذكي أنا أكون بحق الثاني مجرماً وإما أن أكون صاحياً مؤمناً وأعامل الاثنين بأعلى درجة فأخفف الفروق بينهما ، أنا حينما أعامل جميع الأولاد باهتمام واحد ، بعدل تام ، بعطاء واحد ، بمودة واحدة ، اعدلوا بين أولادكم في القبل ، أعطِ قطعة حلوى للأول وللثاني مثلها ، أنا حينما أبالغ في العدل بين الأولاد ألغي الفروق الفردية بينهم ، وألغي الأمراض النفسية التي تنشأ عندهم .

والله هناك أطفال يعانون من آلام اتجاه والديهم حتى الموت ، والله أنا أتلقى اتصالات من بعض أخواني تجد البنت متألمة من أبيها ألماً لا يحتمل لأنه فضل أخاها عليها ، لذلك في الآثار ورد : البنت يوم القيامة تقف أمام رب العزة ، تقول : يا رب ، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، لأنه سبب شقائي في الدنيا ، والله أنا أهيب بالأخوة المشاهدين أن يبالغوا في العدل بين الأولاد ، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم :

((إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي النُّعْمَانَ نُحْلًا ، وَإِنَّ عَمْرَةَ سَأَلَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ : فَقَالَ : أَلَكَ وَلَدٌ سِوَاهُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَ النُّعْمَانَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي))

[أبو داود ، والنسائي عَن النُّعْمَان بْن بَشِير]

((قَالَ : لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ))

[أبو داود ، والنسائي عَن النُّعْمَان بْن بَشِير]

من حرم ولده زاده عقوقاً :

والله تكاد تكون المشكلة الأولى الآن ولا أبالغ عدم العدل بين الأولاد ، أو تحرم البنات ويأخذ الذكور كل شيء . الوهم الشيطاني أن هذا المال سيذهب إلى الصهر ، الصهر زوج ابنتك أقرب إنسان لها ، بالمناسبة النبي صلى الله عليه وسلم سئل :

((مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، فلما سئل : مَن أعظم النساء حقاً على الرجل ؟ قال : أمه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه ضعف]

إنّ أعظم رجل في حياة المرأة زوجها ، وأعظم امرأة في حياة الرجل أمه ، هذا زوجها إذا ورثت من أبيها مبلغاً واشترت سيارة تدعو له طول حياتها ، أنا أقول دائماً قضية العدل بين الأولاد فيها وعيد من

الله خطير .

فإنّ الرجل وإن المرأة ليعبدان الله ستين عاماً ، ثم يضران في الوصية فتجب لهما النار ، في رواية إن الزوجين يعبدان الله ستين عاماً ، ثم يضران في الوصية فتجب لهما النار ، ليس شيئاً سهلاً حرمت ولداً و أعطيت ولداً ، يقول لك هذا عاق أنت حينما حرمته زدته عقوقاً ، صار مجرماً بحق أولاده ، منذ مدة انتحر إنسان لأن والده أعطاه كل شيء ، واغتصب أموال والده كلها فأخوته كادوا له بالمحاكم وبالقضاء وبالمالية إلى أن حملوه على أن ينتحر ، خطأ الأب ، فلذلك أنا أهيب بالآباء العدل التام بين الأولاد بكل شيء ، إن كانوا صغاراً حتى بالمودة حتى بالقبل .

المودة أساس العدل :

أنا أقول كلاماً آخر للمعلم ، تجد معلم صف ، عنده خمسة وعشرون طالباً ، خمسون طالباً كم طالب أذكياء جداً عينه عليهم فقط ، السؤال لهم وظيفتك يا بني ، والآخر يهمله ، وجد نفسه مهملاً هل تصدق أن من صفات المعلم الناجح أن يمر بعينيه على كل الطلاب بالتسلسل ، حتى الداعية يقف ليلقي كلمة في قسم يحبهم ثلاث أرباع الساعة هكذا والآخرون أهملهم ، تنقل عينك من واحد لواحد حتى يشعر أن له قيمة عندك .

الأستاذ علاء :

أذكر أن مدرسونا حينما يمرون على وظائفنا على المقاعد يعطي وقتاً بالتساوي للكل وتشعر بأنه منحك ما منح الغير من اهتمامه .

الدكتور راتب :

الأب والأم حينما يعدلان بين أولادهما ينشأ مودة ، أما حينما يؤثر الأب ابن أذكى من ابن أو أحياناً يكون الابن بالتعبير العامي بهلول ، يمدح والده كثيراً ، يستأثر بمودته ، والثاني مستقيم لكن ما عنده هذه الإمكانية يقلد أخوه ، ينحرف ، هذا خطأ كبير والله أنا لا أنطلق من فراغ ، والله إنسان ترك ألف مليون أحد أولاده يعمل على السوزوكي ، والثاني عنده ثمانين محضراً باسمه ، يجوز ؟ قريب مليار ، والآخر يعمل على السوزوكي ، أما هذا الذي باسمه ثمانين محضراً صالح جداً بعدما مات والده وزع التركة بالتساوي كان بطلاً ، أنا لا أتكلم من فراغ ، أنا أكبر مشكلة أعاني منها عدم العدل بين الأولاد ، تجعلهم أعداء ، يصبحون وحوشاً بعد الموت .

الأستاذ علاء :

لماذا نلعب بقوانين الميراث ؟

أكثر مشاكل الأسر بعد وفاة الأم والأب هي سوء العدل بين الأولاد :

الدكتور راتب :

الله عز وجل ما سمح للنبي أن يوزع تولاها بذاته ، الميراث وزعه القرآن الكريم ، كل إنسان يشتغل يحرم أخواته البنات .

الأستاذ علاء :

تسمح لي سيدي بهذه الناحية كما تفضلت مررت عليها ، لكن في أريافنا أنا أقول من خلال هواتف تأتينا ، وفي مناطق كثيرة ليس في بلاد الشام وإنما في العالم العربي والإسلامي يعتقدون وخاصة إذا كان الميراث أرضاً يأخذ هذه الأرض الذكور بعد وفاة والدهم وتحرم الإناث قال : حتى لا تتشتت الأرض ولا تذهب إلى الغريب ، وخاصة إذا كان الغريب من قبيلة ثانية أو أسرة ثانية ، ماذا نقول ؟

الدكتور راتب :

أستاذ علاء خلاف الشرع ، المشكلة نحن توهمنا أن الدين صلاة وصوم وحج وزكاة ، الدين والله لا أبالغ خمسمئة ألف بند ، الدين منهج كامل الدين يدخل بأدق العلاقة خصوصية ، بالعلاقات الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية ، الدين متعلق بالميراث ، إذا أنت عادل مع الأولاد كلهم ، الكل مرتاحون ، الكل يتمنون بقاءك ، أما إذا في ظلم أنا أقول لك إن شاء الله لا أبالغ قريب من تسعين بالمئة من الناس لا يعدلون ، وأكثر مشاكل الأسر بعد وفاة الأم والأب هي سوء العدل بين الأولاد .

الأستاذ علاء :

سيدي إذا سمحت لي هنالك كما ورد في الأثر بعض الاستثناءات قال : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يصبح صحيحاً ، وغائبهم حتى يعود .

على كل إنسان أن يهيئ لله جواباً عن كل شيء قبل أن يلقاه :

الدكتور راتب :

مثلاً إنسان عنده أربع بنات ، ثلاث متزوجات من تجار أغنياء ، و الرابعة ما أصابها الزواج بقيت عانساً ليس لها أحد ، فكتب لها بيتاً في حياته غير الإرث ، له عند الله جواب مقنع ، لك أن تهاب ما تشاء لكن معك جواب لله ، أحياناً يكون عند الإنسان زوجتان تصر عليه الثانية التي يحبها وهي صغيرة في السن أن يكتب بيتاً لأحد أولادها من زوج آخر فيستجيب لها ، والأولى أم أولادك الوفية يحرم أولادها من كتابة بيت آخر لهؤلاء ، هذا اسمه هبة كيدية يحاسب عليها الإنسان أشد الحساب ، إذا شخص عنده ولد معاق فكتب له بيتاً ودكان في حياته يسكن في بيت ويؤجر الدكان يعيش منها وخلاف

أخوته معه لله جواب .

العدل أساس الملك :

لذلك نحن نقول عندنا فرق بين العدل والمساواة ، أنت عندك ابن جامعي وابن في الحضانة ، تعطي ابنك في الحضانة خمسين ليرة ، تعطي الجامعي مئتي ليرة ، عنده مواصلات ، وسندويش ، وعنده كتب ، يا ترى أنت لست عادلاً ؟ لا أنت عادل ، إن أعطيت الصغير خمسين ليرة والكبير ثلاثمئة أنت في منتهى العدل تعطيه حاجته .

هناك نقطة ثانية أكبر ولد يشتري له بيت يزوجه ، يسلمه عملاً ، عنده ولد صغير يجب أن تهيئ للصغير ما أعطيت الكبير هذا خطأ كبير ، يقول لك الإرث بالتساوي لكن أنت آخذ البيضة والتقشيرة ، لذلك هو يفضل أن يكون ما يعطى للكبير ديناً عليه يحسم من نصيبه من الإرث ، هذا عدل ، أنا أمنت لابن كبير بيت وسيارة فرضاً وعمل ، دين عليه لما يموت الأب يوزع الإرث .

أنا مرة أحد الأخوة الكرام توفي والده آخذ بيوتاً لثمانية أولاد ، بيت باثني عشر مليوناً وبيت بخمسة ألف قديماً ، واختلفوا وترك مبلغاً ضخماً ، كان اقتراحي أن يأتوا بخبراء يُقيموا البيوت كلها بالسعر الحالي وكتبوا بيتك الآن ثمنه عشرون مليوناً ، والثاني ثمانية ملايين ، واعتبروا البيوت كلها من الإرث وتوزع المبلغ كله ، كان نصيب الواحد عشرين مليوناً فالذي بيته اثني عشر أخذ ثمانية ، والذي بيته ثمانية أخذ اثني عشر مليوناً .

لا يصلح للناس إلا العدل أبداً ، بالعدل أنت ملك تكون والعدل أساس الملك .

الأستاذ علاء :

رعاية في البيت إذا كان في البيت صغير رعاه أكثر .

المساواة بين الأبناء مستحيلة في ظروف متفاوتة :

الدكتور راتب :

معه جواب إلى الله ، الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود . سبحان الله الآخرون يرضون عن هذا ، أحياناً يقول لك أنا أخذت لابنتي العانس بيتاً لكن أخوتها موافقون ، نقطة مهمة ، الأب إذا كان تصرفه حكيم وإنساني ومعه جواب لله مقبول عند أولاده أيضاً ، أربع بنات ثلاث متزوجات من تجار أغنياء والرابعة ما أصابها الزواج أخذ لها بيتاً أخوتها يرضون عن هذا .

الأستاذ علاء :

لأن هذا مقنع بالعدل .

الدكتور راتب :

العدل شيء والمساواة شيء ، المساواة مستحيلة في ظروف متفاوتة ، شخص مثلاً أرسلته إلى حلب يدرس يحتاج إلى بيت يسكن ويأكل ، أما في الشام نائم في البيت نفسه ويأكل في البيت نفسه فتعطيه مصروف بيته فقط ، أما في حلب يحتاج إلى بيت وقسط جامعة ، أنت ما ظلمت الذي صحّ له في جامعة دمشق ، في كلية حلب يأخذ أكثر منه بكثير .

الأستاذ علاء :

سيدي في هذا الموضع خاصة التعامل مع الصغار مررت أنت في حلقات ماضية كثيراً على هذه المسائل ، عندما جاء سيدنا عمر بشخص ليكلفه أن يكون والياً فرآه يقبل ابنه فقال إننا والله لا نقبل أبناءنا ، فأنهى المهمة وعزله في هذا الملمح يجب أن يتوفر في الأبوين رحمة حاضنة لكل الأولاد .

الإنسان بغرائزه يميل إلى الذكي والوسيم لكن بإيمانه يعدل بينهما :

الدكتور راتب :

أنا سوف أقول لك كلمة دقيقة : الإنسان بغرائزه يميل إلى الذكي ، إلى الوسيم دون أن يشعر بغرائزه ، لكن بإيمانه يعدل بينهما حتى في القبل ، حتى في الابتسامة ، عندما يكون أب حكيم جداً أولاده بالتساوي تماماً ، والله مرة جاءني اتصال هاتفي أن بنتاً زارت أباها في المصيف في العيد أعطاها خمسمئة ليرة، وقال لها لا تطيلي المكوث لأن عنده زوجة ثانية ، الزوجة الثانية سيأتي بناتها يهتم بالزوجة الثانية قال لها لا تطيلي المكوث هذه خمسمئة واذهبي ، أما الثانية أعطى كل بنت خمسة آلاف وتغدوا عنده ، تقول أكثر من ستة أشهر كلما أتذكر تبكي ألم من أبيها ، أنا ابنتك أعطاها خمسمئة ولا تطيلي المكوث ، وبناته من زوجته الجديدة يأكلون عنده في بلودان ويأكلون لحم مشوي وكل واحدة عيدية خمسة آلاف ، لماذا هذه التفرقة ؟ لذلك البنت كأنك ذبحتها ، كأنك حطمتها ، والله يا أستاذ علاء إذا إنسان كان عادلاً يشعر بسعادة لا توصف .

أنا أؤكد مرة ثانية قضية الوسامة والذكاء متفاوتة ، بطولتك أن تكون عادلاً مع الكل حتى في القبل ، حتى في الابتسامة ، حتى في المودة ، حتى في الهدايا ، حتى مع أزواجهن ، أحياناً ترى هناك زوج لا يهتمون به كثيراً ، و هناك زوج غني محترم جداً ، ليس معقول الزوج الثاني آدمي وصاحب دين وورع وابنتكم مرتاحة عنده ، لكن دخله محدود ، الاهتمام بهذا .

هذه أمراض تنخر في مجتمعنا يا أستاذ ، ليس منا من فرق ، صار في تفرقة ، صار في حزازات ،

صار في آلام ، صار في أحقاد .

الأستاذ علاء :

قال رسول كسرى عندما أراد أن يأتي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحث عنه في كل الأرجاء ظن أنه سيرى قصر ، فقالوا : هذا الذي ينام تحت الشجرة وقد توسد بنعليه ، قال حافظ إبراهيم تلك القصيدة : وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا ، قال : عدلت فأمنت فنمت . العدل كما تفضلت أساس .

من التزم جانب العدل أصبح بيته متماسكاً :

الدكتور راتب :

لا يوجد أب إلا سوف يموت ، ولا يوجد أب إلا عنده شيء يورثه لأولاده ولو بيته الوحيد ، عندما لا يكون عادلاً يجعلهم أعداء بعد وفاته ، أنا أعلم علم اليقين والله في مشاكل يأتيني اتصالات يومية أستاذ علاء من سوء العدل بين الأولاد ، فأنا أعاني مشكلة أنا أضع يدي على جرح كبير في المجتمع ، التفرقة بين الأولاد ، إن شاء الله ، الله عز وجل يلهم الأخوة المشاهدين أن يلتزموا جانب العدل مع أولادهم يصبح البيت متماسكاً ، أنا أستاذ علاء أحترم الأسرة المتماسكة احترام ما له حدود متماسة ، في مودة بالغة بين الأولاد بعد موت أبيهم ، الأب كان عادلاً ، لما كان عادلاً ترك سمعة طيبة ، في زيارات ، في لقاءات ، في محبة ، أنس ، في تبادل هدايا .

الأستاذ علاء :

العدل يلغي كل مرض نفسي .

الدكتور راتب :

لذلك الآن في أسر بعد موت الأب لا يتكلمون ، لثلاثين سنة ما دخلت بيته ولا أسلم عليه ، من المرض النفسي الذي أورثه الأب ، العدل قيمة عليا ، الله هو العدل .

الأستاذ علاء :

كنا نود أن نستمر لكن الحقيقة الوقت أدركنا إن شاء الله نكمل البنود التي تتعلق بالشقاق الزوجي ، إن شاء الله لا يشهد بيت من بيوتنا شقاق زوجياً .

الدكتور راتب :

ما وجدت موضوعاً ألصق بهذا العنوان الإيمان هو الخلق ، من هذه الموضوعات.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (84-95) - مقومات التكليف : الأسرة - أسباب الشقاق الزوجي - حرمان المرأة من الميراث
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير :

سيدي الكريم ، في حلقات سابقة تحدثنا عن موضوع هام ، وعن موضوع يعتبر من آفات المجتمع ، هذا الموضوع يتعلق بالكيان الصغير للمجتمع الذي يتشكل المجتمع من خلال تكراره ، هذا الكيان هو الأسرة .

الدكتور راتب :

وفي سلامته سلامة المجتمع .

الأستاذ علاء :

وفي اهتزازه يهتز المجتمع ، تحدثنا عن الشقاق الزوجي ، وأسباب الشقاق الزوجي ، ومررنا على مجمل الموضوعات التي كانت من أسباب الشقاق الزوجي ، منها الجهل ، ومنها ضعف الإيمان ، ومنها التعالي ، ومنها سوء التصرف ، ومنها عدم الكفاءة بين الزوجين ، الله عز وجل يقول :

(وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

لتحقيق هذه الآية ، ومعاني هذه الآية لا بد من حاضنة ، هذه الحاضنة تستوعب الأسرة المكينة ، والأسرة التي فيها المودة والرحمة ، وكنت قد تحدثت عن هذه المسائل في حلقات سابقة ، نود أن نكمل في أسباب الشقاق الزوجي ، كل ذلك تبيانا للأزواج كي يحيدوا عن هذه الأخطاء التي تعصف بكيان الأسرة .

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارض عنا وعنهم يا رب العالمين .

لابد من النجاح الشامل لجميع نواحي الحياة :

أستاذ علاء ، جزاك الله خيراً ، لا بد من تاج تنضوي فقرات هذا اللقاء الطيب تحته ، وهو أنه ليس في العلم الاجتماعي ولا علم النفس ما يسمى بالنجاح الجزئي ، هو ليس نجاحاً ، فما لم تنجح في علاقتك بالله أولاً ، وفي علاقتك بزوجتك وأولادك ثانياً ، وفي علاقتك بعملك ثالثاً ، وفي علاقتك بصحتك رابعاً فإن أي خلل في هذه البنود الأربعة ينسحب على البنود الثلاثة ، فلا يمكن أن يكون هناك خلل في أحد هذه البنود إلا وينسحب على بقية البنود ، فذلك أنا أريد أن أؤكد للإخوة المشاهدين أنه لا يمكن أن تكون ناجحاً إذا كنت متألقا في عملك ، ولست ناجحاً في بيتك ، أو أنك ناجح في البيت وفي عملك ضعيف ، أو ناجح في البيت والعمل ، وعلاقتك مع الله ليست كما ينبغي ، أو ناجح في الثلاثة وتهمل صحتك .

الأستاذ علاء :

إذاً هي أربعة بنود للنجاح .

الدكتور راتب :

لا بد من نجاح شمولي ، بل إن النجاح الجزئي لا يسمى نجاحاً ، فقد يذهب إنسان إلى بلد بعيد ليجمع أموال طائلة ، ويهمل زوجته وأولاده ، فالابن يربى في الطريق ، والزوجة من بيت إلى بيت ، يعود وقد رأى أسرة مهدمة ، إذاً : لم ينجح ، ولو جاء معه بالأموال الطائلة .

أريد أن أبين أن النجاح لا يتجزأ ، النجاح شمولي ، لذلك قضية الأسرة أحد أركان النجاح العام ، ولأن البيت مكان فيه سكينة ، فيه راحة ، كل ضغوط الحياة ، كل متاعب الحياة ، كل إشكالات الحياة ، كل المشكلات التي يئنّ منها الإنسان خارج البيت إذا دخل إلي بيته ، وكان مرتاحاً مع زوجته فهذه الراحة تمتص كل هذه الهموم ، أما إذا جاء إلى البيت ، وبدأت المشكلات ، وخرج من البيت ، وبدأ المشكلات فهذه الحياة لا تطاق ، هي جحيم لا يطاق ، لذلك سمى الله عز وجل الزوجة سكناً ، قال تعالى :

(وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

(سورة الروم)

الحقيقة الأولى : ليس هناك نجاح جزئي ، الإنسان لا يتبجح بنجاحه في عمله ، وبينه وبين زوجته ما صنع الحداد ، لا يتبجح أنه نجح في عمله ، وأولاده ليسوا كما ينبغي ، لا يتبجح بنجاحه في عمله ، وعلاقته مع الله ليست كما ينبغي ، لا يتبجح بنجاحه في عمله ، وصحته تعاني ما تعاني .

أنا أتمنى أن نقتنع أنه لا بد من نجاح شمولي ، والأسرة أحد أركان هذا النجاح ، هذا تاج تحته بنود .

لابد من مقدمة ، الإله العظيم خالق السماوات والأرض والخبير ، العليم ، الرحيم ، الحكيم :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

الحرمان من الميراث سبب من أسباب الشقاق الزوجي :

والإنسان أعقد آلة في الكون ، ولهذه الآلة المعقدة تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز صانع حكيم ، له تعليمات التشغيل والصيانة ، فالجهة الوحيدة التي ينبغي أو يجب أن نأخذ بتعليماتها هي الجهة الصانعة ، لأنها الخبيرة ، فالخبير تولى بذاته العلية توزيع الميراث ، ولم يسمح لنبيه المعصوم المخلوق المكرَّم أن يوزع الميراث ، فهناك أسر لا تعد ولا تحصى تريد أن تحرم البنات ، بسلوك جاهلي ، بسلوك ينمّ عن أفق ضيق ، أن الثروة تذهب إلى الأصهار ، هذا الصهر زوج ابنتك ، هو أقرب الناس إليها ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل : مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : زوجها ، فلما سئل : من أشد النساء حقاً على الرجل قال : أمه .

إن الأسر التي تريد أن تحرم البنات الميراث بطريقة أو بأخرى ، بوكالة ، بتفويض ... والزوج الذي يرى أن امرأته التي هو وهبها كل شيء لا تهبه شيئاً ، وأهلها حرموه من كل شيء ، هنا تبدأ المشكلة ، هي تبدأ أولاً من أهل الزوجة ، وهناك أزواج آفاقهم ضيقة ، وقد يكونون في ضعف مادي شديد .

الأستاذ علاء :

تسمح لي خاصة في بعض القرى حيث الميراث يكون أرضاً زراعية ، ويخشى أن تذهب هذه الأرض إلى الغريب ، إلى عائلة الصهر ، وتحرم البنت من حقها ، وبالتالي هذا تعدٍّ على حق الله ، هنالك بعض المناطق تقوم بهذه الأفعال جهلاً وتعدياً على حق الله عز وجل .

الدكتور راتب :

حرمان البنات من الميراث عنصرية مقيتةٌ :

أستاذ علاء ، أنا لي رأي دقيق : أن البشر جميعاً على أعلى مستوى ، على مستوى دول عظمى ، وعلى مستوى أفراد ، إما أن يكونوا إنسانيين أو عنصريين ، فالرجل الذي يرى أن أصهاره دونه ينبغي ألا يأخذوا شيئاً عنصري ، والزوج الذي يرى له ما ليس لزوجته عنصري ، وكل إنسان يضع نفسه فوق الآخرين فهو عنصري ، بل إن دولاً عظمى حينما تخص نفسها بميزات ولا تسمح لأحد أن ينالها فهي جهة عنصرية ، بل إن كل جهة تعامل الآخر بخلاف ما تعامل الأقرب هي عنصرية ، فلذلك حينما الأب يحرم بناته من حقهن في الميراث فهو أب عنصري ، لا ينتمي إلى منهج ، ولا إلى قيمة ، ولا إلى تشريع سماوي ، ولا إلى وحي سماوي ، ينتمي إلى مزاجه الشخصي ، فلذلك القضية تبدأ من أولياء الزوجات ، وتنتهي شقاقاً ، وقد يودي إلى الطلاق ، وأنا عندي مئات القصص التي رفعت إلي لحل هذه

المشكلة ، سببها أن أهل الزوجة يريدون ألا يعطوا صهرهم شيئاً ، فبأسلوب أو بآخر يحتالون ، أما الحديث الذي يقصم الظهر :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بطاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً ، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[الترمذي]

هذا العمل يحبط أعمال الإنسان كلها .

أستاذ علاء ، هنا ملمح دقيق جداً قالته السيدة عائشة لرجلٍ ممن عاصرها من أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : << قولوا لفلان أنه أبطل جهاده مع رسول الله >> .

وأنا أقول الآن ، وأنا أعني ما أقول ولا أبالغ فيما أقول : هناك أعمال يقترفها الإنسان فيها ظلم ، والله تلغي صلاته وصيامه وحجه وزكاته وإيمانه بالله .

كلمة (الله أكبر)وكلمة التوحيد بين لسان الحال ولسان المقال :

المشكلة أستاذ علاء أن الإنسان له لسان قال ، وله لسان حال ، نحن قريبو عهد من عيد الفطر السعيد ، ومن السنة وفي القرآن الكريم :

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185))

(سورة البقرة)

فكلمة (الله أكبر)يلفظها مليار وخمسمئة مليون صبيحة أحد العيدين ، اللسان يقول : الله أكبر ، الآن الذي يغش الناس ، ويحقق ربحاً كبيراً ، غشهم قد تكون مادة غذائية مسرطنة ، قد تكون مادة غذائية انتهت صلاحيتها ، قد تكون مادة لا تصلح للاستخدام البشري ، قد تكون مادة لها مشكلات كبيرة ، سمون غير مهدرجة ، غير مشبعة ، أو مشبعة .

الأستاذ علاء :

أو يريد أن يحتكر ليزيد في السعر .

الدكتور راتب :

أنا أقول ولا أبالغ ، وأعد هذا جزءًا من الدين : الذي يبني ثروة على أنقاض الناس ، على أنقاض صحتهم ، والله ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لسان حاله يرى أن هذا المال الذي كسبه من هذا الغش أكبر من الله ، هذا لسان الحال ، رأى أن هذا المبلغ إذا حققه ، وأساء إلى صحة الناس أكبر من الله ، ولما يبيع إنسان دواء انتهى مفعوله ، ويحك مكان التاريخ ، والدواء يؤذي تفكك فهذا يبني ربحاً على مضرة الآخرين ، والله ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته ، والله

ألغى كل كلمات الإسلام ، ألغى كلمة : الله أكبر ، هذا الذي يطيع زوجته في معصية كبيرة ، لسان قالِه يوم العيد يقول : الله أكبر ، مع المصلين ، أما لسان حاله يرى أن إرضاء زوجته أكبر من إرضاء الله عز وجل ، ما قال : الله أكبر ، ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة .

مشكلتنا مع هذه الكلمات الكبرى في الإسلام ، لا إله إلا الله ، وتعني لا معطي ولا مانع ، ولا معز ولا مذل ، ولا ناصر ولا حافظ ، ولا مؤيد إلا الله ، فإذا توجه الإنسان إلى غير الله ، ونسي الله ، وأرضى غير الله بمعصية الله فما قال : لا إله إلا الله ، ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، هذه الكلمات الكبرى فرغت من مضمونها ، وأصبحت كلاما يردَّد لا معنى له ، فلذلك هذا الكمّ الكبير من المسلمين ، مليار وخمسمئة مليون ليسوا كما ينبغي ، ليس أمرهم بيدهم ، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل ، هذا شيء مؤلم جداً ، .

وعودُ الله وشرط تحقُّقها :

إليكم الحقيقة المُرّة التي هي أفضل ألف مَرّة من الوهم المريح : والله إنه من سابع المستحيلات ، و والله لزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، فإذا قال الله عز وجل :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي (55))

(سورة النور)

الشرط : يعبدونني ، فإذا أخل الطرف الآخر فيما عليه من واجبات فالله عز وجل في حل من وعوده الثلاثة ، فلذلك يجب أن نصطلح مع الله ، والكرة في ملعبنا ، وأسباب سلامتنا وسعادتنا وانتصارنا على أقوى أقوياء الأرض بيدنا ، وكل هذا التفوق ألغاه الله عز وجل بآية واحدة :

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

أساطيل ، بوارج ، صواريخ عابرة للقارات ، درع صاروخي ، حاملات طائرات ، أقمار الصناعية ، الإعلام بيدهم ، الأموال بيدهم ، التحالفات بيدهم ، والله لو اصطلح المسلمون مع الله لألغيت كل هذه رموز القوة :

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية : 120)

فالإسلام كلٌّ متكامل ، الإسلام نهج ، ولن نقطف ثماره إلا إذا طبقناه كلّه .

أستاذ علاء ، متى تمشي السيارة ؟ تحتاج إلى محرك ، وبنزين ، وعجلات ، ومقود ، وكهرباء ، لها شروط من أجل أن تمشي ، الذي عنده رفراف فقط فهذه ليس سيارة ، هذه اسمها سيكراب ، نحن عندنا دين سيكراب ، وما عندنا دين كامل ، لو كان كاملا لكانت النتائج مئة بالمئة ، وزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق وعوده للمؤمنين ، فالكرة في ملعبنا ، أريد ألا نيئس ، ألا نحبط ، ألا نحسّ أن القضية انتهت ، الأمل كبير عند الله عز وجل ، وأنا أقول : أخطر شيء أن نهزم من الداخل :

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ (12))

(سورة المائدة)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

انتقلت من قضية أسرية حينما تحرم الفتاة من حظها من ميراث أبيها ، ويغضب الزوج الفقير ، ويتألم لهذا التصرف العنصري ، لا نسمح لهذا المال أن ينتقل من بيت فلان إلى بيت فلان ، نعطي الابن كل شيء ، مع أنه والله هناك فتيات فيهن خير لآبائهن لا يعلمه إلا الله ، فالتفرقة بين الذكور والإناث جاهلية ، كان عليه الصلاة والسلام حينما تأتيه بنت يضمها ، ويشمها ، ويقول : ريحانة أشمها ، وعلى الله رزقها .

أثر على النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقف لابنته فاطمة ، يقف ترحيباً بها ، فأنا أرى أننا عندنا جاهلية كبيرة ، مع أن الإطار إسلامي .

الأستاذ علاء :

كما تفضلت من خلال المظلة نأخذ جزءا ، ونترك أجزاء ، هذا ليس تطبيقا ، فطمع أو عنصرية الآباء في حرمان الفتيات ، وتألم زوج الفتاة يبدأ هذا الشيء عصفاً بكيان الأسرة ، وتبدأ المشاكل ، ومن هنا تهتز هذه الأسرة ، وتنتهي إلي الطلاق .

الدكتور راتب :

لابد من وعي الزوج في حال حرمان زوجته من ميراث أبيها :

لكن كتحفظ ، قد يكون الزوج واعيا جداً ، ودخله جيد ، وليس بحاجة ، فلا يعلق أهمية ، هذه حالات نادرة ، زوج واعٍ ، وإيمانه بالله قوي ، ودخله جيد ، وما له بحاجة لزوجته ، فما سأل ، وما علق أيَّ تعليق ، لكن يتألم لهذا الموقف العنصري ، أحياناً يكون نصيبها من الميراث يقابل ثمن سيارة ، والسيارة تحل مليون مشكلة ، السيارة مسعدة للأسرة ، تحل مشكلات المواصلات العامة والتأخير ، فلو أن هذه البنت أخذت هذا المبلغ ، وتسجله باسم ابنتك ، هذا البيت سجله باسم ابنتك ، فقويتَ لها مركزها، وأعانت زوجها ، الزوج وجد قسما من المال لزوجته انضم إلى الأسرة ، انضم إلى الأولاد ، لذلك

حينما أقول : لم يسمح الله لسيد الخلق وحبيب الحق أن يوزع الميراث ، بل تولاه بذاته في القرآن الكريم، معنى هذا أن الذي يضر في الوصية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تجب له النار .

الأستاذ علاء :

سيدي هذا ، البند في أسباب الشقاق الزوجي أصبح واضحاً وضوح الشمس بكل معنى الكلمة ، الآن ننتقل إلى سبب آخر .

تسمح لي : الإنسان يضطر لجلب الرزق ، ضاق رزقه في بلده ، انتقل إلى بلد آخر ، وترك زوجته وأولاده طلباً للرزق ، هذا الغياب من الناحية الشرعية هل هو مؤسّس لحالة ضياع ، وشقاق بين الزوجين ، أم أن هذا الأمر يمكن أن يكون بين الطرفين ليصبح داعماً لهذه الأسرة ؟

الدكتور راتب :

الغياب الطويل للأب من أسباب الشقاق الزوجي :

1 – الغياب الطويل ضمن المدينة :

بادئ ذي بدء ، أستاذ علاء ، قد يكون الغياب ضمن المدينة ، يخرج الرجل الساعة السادسة ، ويأتي الساعة الواحدة في الليل ، يأتي ليأكل وينام ، وهذه الزوجة التي حبستها من أجلك مَن يحادثها ؟ مَن يؤنسها ؟ مًن يهتم بها ؟ مَن يبتسم في وجهها ؟ مَن يثني عليها ؟ بحاجة إلى من يثني عليها ، ومن يؤلّف قلبها ، مَن يصغي إليها ، فإذا ذهب الزوج قبل ذهاب الأولاد إلى المدرسة ، ويعود بعد نومهم لم يصبح أبًا ، مَن يربي هذا الولد ؟ مَن يستمع إليه ؟ مَن يرشده ؟ مَن يعلّمه ؟ مَن يربي أخلاقه ؟ لا أحد ، لم يصبح الأب أبا الزوج ولا الابن ابنا ، الشاشة تربي فقط .

2 – العمل الذي يمتصّ كل وقت الإنسان خسارةٌ :

أضرب مثلا تركيبيًّا لقضية الغياب الطويل : لو أن إنسانا عرضوا عليه لو جئت بدكتوراه في الطب تكون وزير الصحة ، هو لا يملك شيئا من حطام الدنيا ، على أن يعمل في بلد الدراسة ويأكل ، ذهب إلى باريس ، اضطر أن يعمل بمطعم ساعتين ليكفي مصروفه ، لكن مهمته كبيرة جداً ، أن ينال دكتوراه ، ويعود بأعلى منصب في بلده ، ومع أعلى منصب بيت فخم وزوجة جميلة ومركبة ، إلى آخره ، هذا طمع بعمل إضافي ، فضاعف ساعات عمله في المطعم ، فضعفت دراسته ، فجاءه عرض ثالث فضاعفه ثلاثة أضعاف ، بعد هذا عمل كل وقته في المطعم فألغى مهمته الأساسية ، لذلك العمل

الذي يمتص كل وقتك هو خسارة ، لأنه ألغى وجودك .

بعض العلماء لهم كلمة : الإنسان الذي ما عنده وقت فراغ ليس إنساناً :

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

(سورة المدثر)

العمل الذي يمتص كل وقتك هو أكبر خسارة لك ، لأنه ألغى وجودك ، ألغاك كأب ، ألغاك كزوج ، الإنسان بحاجة إلى أن يمضي وقتاً مع من يحب ، مع أصدقائه ، بمسجد ، بلقاء مع عالم ، بلقاء مع صديق ، بسهرة لطيفه ، بسفر ، بنزهة ، وحينما يلغى وقت الفراغ يلغى وجود الإنسان .

3 – مجتمع التسوّق والاستهلاك :

إنّ هذا الأسلوب المعاصر بعرض السلع في كل مكان في الطرقات ، وفي الشاشات ، وفي الصحف ، المكيفات ، والمركبات ، يخلق حاجة استهلاكية كبيرة جداً ، والناس حيال هذه الحاجة الضاغطة ثلاثة أنواع ، النوع الأول : شخص ألغى وقت فراغه ، فألغى وجوده كأب ، وكزوج ، وكإنسان ، وعمل ليلاً ونهاراً ليؤمّن هذا المكيف ، وهذه المركبة ، فهذا إنسان شريف ، ما مدّ يده للحرام ، ولكن ألغى وقت فراغه ، وضيع زوجته وأولاده ، وفقد أبوّته ، وتحول إلى آلة .

النوع الثاني : يعيش بالحرمان المستمر ، ما عنده شيء .

النوع الثالث : مد يده للحرام ، فسقط من عين الله ، ومن عين الناس ، هذا مجتمع الاستهلاك .

دخلت امرأة إلى سوبر ماركت ، قالت : يا إلهي ، ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان !!! نحن عندنا حمى استهلاك ، التسوق متعة ، هؤلاء الغربيون أرادوا لنا أن نكون متسوقين فقط لا منتجين .

الأستاذ علاء :

وحولوا لنا الحاجات الأساسية إلى حاجات وهمية ، والإنسان بحاجة إلى ملبس ، إلى حذاء ، ولكن لسنا بحاجة إلى نوع معين ثمنه اثنا عشر ألف ليرة ، حذاء رياضة ، مثلاً .

الدكتور راتب :

مثلاً : سجادة وطنية صوف مئة بالمئة ، جميلة تقوم بالوظيفة التامة مئة بالمئة ، عزل ، ومنظر ، وصوف ، هذه ثمنها خمسة آلاف ، وسجادة ثمنها ثمانمئة ألف ، الفرق في الاستعمال بالمئة خمسة ، أما بالسعر فثمانمئة ضعف ، فحينما نسعى إلى الرفاه ، أو إلى الترف فهذا يعيق تقدم الأمة ، والإنسان له مصاريف ينبغي أن توفَّر .

الأستاذ علاء :

لذلك قالوا : الحاجة الوهمية التي لا يحتاجها الإنسان في المجتمع الاستهلاكي تتحوّل إلى حاجة اساسية

هو ليس بحاجة لها ، الإنسان بحاجة إلى التعليم ، الطعام ، الشراب ، الصحة ، الكسوة ، ولكن هذه الكسوة كمثال السجادة تفي الغرض ، ولكن للزهو والكبر نبحث عن أنواع معينة فخمة .

الدكتور راتب :

فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا :

فلذلك النبي صل الله عليه وسلم قال :

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

هو أمن الإيمان ، فإذا أطعت الواحد الديان ألقى الله في قلبك الأمن :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

والله ما فاته من الدنيا شيء ، وخذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً ، ومَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه ، وهو لا يشعر .

الأستاذ علاء :

الغياب الطويل عن البيت سواء للعمل أو غير ذلك .

الدكتور راتب :

4 – الغياب الطويل خارج البلد :

للعمل في بلده ، وقد يسافر إلى بلد بعيد ، إذا كان هناك تواصل في الهاتف ، ومتابعة الأخبار ، وإرسال أشياء ، وزوجة صارمة جيدة ، وأهل مربَّون كبار ، يمكن أن يخفف من أخطار الغياب الطويل، أما الغياب لسنة بكاملها ، وهو لا يعلم عن أولاده شيئا ، ولا عن دراستهم ، ولا عن أوقات فراغهم ، ولا عن علاقتهم بأصدقائهم ، ولا عن زوجته شيئاً ، هذا شيء يحتاج إلى دراسة مطولة وتدقيق .

الأستاذ علاء :

لذلك سيدنا عمر في الغياب بعد انقطاع الأخبار طلق بعد فترة طويلة ، استشار أم المؤمنين السيدة حفصة ، كم تستطيع المرأة أن تصبر على غياب الزوج ؟ فأخذ بهذا الحكم ، وإذا انقطع الخبر لمدة

طويلة يفرِّق القاضي بين الزوجين .

الدكتور راتب :

الغياب الطويل إلغاءٌ للمساكنة الزوجية :

الغياب الطويل ألغى المساكنة ، ألغى أحد مقاصد الزواج ، وهناك زواج المسيار ، أنا لا أدخل في تفاصيل الحلال والحرام ، كمقيم في بلد إسلامي ، وله زوجة في بلد ثانٍ ، يمكن في سنة ما يزور هذا البلد ، أنت سميتها زوجة ، وصنفتها مع الزوجات ، وألغيت العنوسة منها ، وهي بقيت عانسا سنة ما نظرت إليها ، هي من شدة رغبتها بإنجاب ولد قبلت بهذا الزواج ، والزواج أكبر مقوم من مقوماته وهو المساكنة ، كما أن الرجل بحاجة إلى امرأة هي بحاجة إلى رجل ، الإنسان ليس مفتقر إلى الله وحده ، مفتقر على زوجة ، الزواج نعمة كبيرة ، بحاجة له ، أنا لا أرى من عمل أعظم من تيسير الزواج .

الأستاذ علاء :

إذاً في وجوده في المنزل عليه أن يصغي إلى زوجته ، وأن يستمع إليها .

الدكتور راتب :

وأن يؤنسها ، بتعبير أو بآخر جنس الرجل حسي ، تثيره منظر امرأة ، وهي جنسها اجتماعي ، يثيرها كلام طيب ، هذا شيء ثابت ، طبيعة الجنس عند المرأة طبيعة اجتماعية ، لذلك قال تعالى :

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ (32))

(سورة الأحزاب)

نقطة ضعفها القول المعسول ، أما الرجل فقال له : غض بصرك ، الجنس الحسي غير الجنس الاجتماعي ، المرأة تحتاج إلى من يؤنسها ، من يلاطفها ، من يثني عليها ، من يثني على عملها ، على بيتها ، على أناقة أولادها ، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ))

[النسائي ، أبو داود]

الزوجة الصالحة تسرك إذا نظرت إليها ، لكن في رواية عجيبة ، تسرك إذا نظرت ، ليس إليها ، إلى غرفة النوم ، إلى المطبخ ، إلى ثياب أولادك ، مرتبة ، نظيفة ، إذا بذلت زوجة جهدا كبيرا فالمفروض أن تسمع ثناء من زوجها ، وأحيانا الزوج أربعين سنة لا يتذكر ولا يثني عليها بكلمة ، الأكل ، الطبخ ، النظافة ، الأوامر ، والمحاسبة .

الهدف من هذه اللقاءات التوفيق بين الزوجين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (85-95) : أسباب الشقاق الزوجي : سوء الظن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-11-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب الشقاق الزوجي:

الأستاذ علاء:

تحدثنا في حلقات ماضية عن أسباب الشقاق الزوجي، هذه الأسباب التي تتسرب إلى علاقاتنا الزوجية، إلى أسرنا، وربما لا نتنبه إليها، وربما لا نصغي إلى من ينبهنا إلى خطورتها، فبالتالي تدخل وتكبر ككرة الثلج ثم تفعل فعلها في هذه الأسرة التي هي لبنة أساسية من لبنات المجتمع، ومن تكرارها يتشكل جدار المجتمع، تحدثنا عن مسائل كثيرة منها الجهل، ضعف الإيمان، سوء التصرف، عدم الكفاءة، التعالي، في الحلقة الماضية تحدثنا عن الطمع المالي، وتحدثنا عن غياب الزوج الطويل، يعني آثر عمله على أسرته فالتغى وجوده كزوج، وألغى شخصه ورسالته بكل معنى الكلمة، وراح يلهث وراء عمل، هذا العمل استهلك كل وقته، بالتالي هذه المسائل، أي جنوح أي عدم اعتدال في أي جانب يدفع ثمنها الإنسان في الجانب الآخر.

الآن نكمل في أسباب الشقاء الزوجي، وهذه رسالة لكل من يشاهد لكي يحرص ولكي يتنبه ولكي يسد تلك الثغرات التي تأتي منها رياح سموم.

سوء الظن سبب من أسباب الشقاء الزوجي:

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء جزاك الله خيراً من هذه الأسباب سوء الظن، لا بد من مقدمة، المقدمة أن الإنسان خصائصه حيادية، وحظوظه حيادية، معنى خصائصه الإنسان يغار هذه خصيصة، ما معنى حيادية ؟

يمكن أن توظف في الخير أو في الشر، يمكن أن توظف للتنافس بين طلاب العلم، وبين البطولات، وبين إحقاق الحق، يمكن أن توظف هذه الخصيصة الغيرة لها مصطلح آخر الغبطة في الدنيا الحسد، هي خصيصة ثابتة لكن حيادية تُقيّم في ضوء استخدامها، فالذي عنده غيرة هذه صفة حيادية صماء، إن غرت من إنسان متفوق في الانحراف، أو في كسب المال الحرام، أو في الإيقاع بين الناس، أو في بناء قوته على أنقاض الآخرين، فهو الحسد المذموم، أما إذا غرت من إنسان صالح متفوق له خدمات لمجتمعه، متألق، عالم، فهذا الغيرة المحمودة، الآن الغيرة لها وضع سليم وضع صحي وضع سوي، فإذا زادت عن حدّها المعقول انقلبت إلى سوء ظن، في حد أدنى لا بد منه للغيرة على الزوج، الله يغار على عبده المؤمن أن يلتفت إلى غيره، إني لأشد غيرة من سعد وإن الله لأشد غيرة مني، فالغيرة صفة حيادية توظف في الخير أو في الشر، من نتائج الغيرة المرضية سوء الظن لكن متى يكون سوء الظن عصمة ؟ متى يكون القول الصحيح احترس من الناس بسوء الظن ؟ متى نقول سوء الظن له وظائف إيجابية ؟

الظن عصمة تعصمك من أن تتورط مع الناس:

شخص لا تعرفه إطلاقاً يجب أن تعامله لا بسذاجة ولا بجهل بيقظة، أدنته مبلغاً خذ منه إيصالاً، هناك إنسان يهمل الوثائق يسكن في المحاكم، قيل لعمرو بن العاص: " ما بلغ من دهائك ؟ قال: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: يا عمرو، لست بداهية، أما أنا والله فما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

الغيرة حالة سوية، وحالة أساسية، وسمة عميقة بالإنسان، لكنها حيادية صماء بحسب توظيفها تُقيّم، إن وظفت غيرة في الخير والعمل الصالح وطلب العلم كانت الغبطة وإن وظفت لغير ما ينبغي كانت الحسد.

الآن الغيرة لها وضع صحي معتدل فإذا زادت عن حدّه انقلبت إلى سوء الظن، وسوء الظن له جانب إيجابي وجانب سلبي، الإيجابي سوء الظن عصمة، اعمل عقداً، دخلت مع إنسان بشراكة والمقر باسمه، اطلب أن يكون باسمك، لو نجح المشروع نجاحاً مذهلاً قد يدخل إلى نفسية الطرف الآخر أن يستأثر به، يقول لك المبلغ أخذته منك قرضاً لا شراكة، وقعت آلاف المرات لأنه تكاسل يعمل عقداً، وتكاسل أن يسجله في محكمة البداية، التوقيع ماله قيمة، في دعاوى التوقيع تبقى عشر سنوات، مادام مسجلاً في المحكمة خلاص، فلذلك احترس من الناس بسوء الظن، اطلب عقداً، اطلب إيصالاً، اطلب وثيقة، أما أن تبقى الأمور سبهللة بلا تسجيل هذا شيء مزعج جداً، نحن وسعنا قليلاً المفهوم، احترس من الناس

بسوء الظن، سوء الظن عصمة تعصمك من أن تتورط.

عرت سيارتك، مرة كنت في الحج إنسان ما وجد معي حاجات إطلاقاً محفظة صغيرة، قال لي: هل لك أن تأخذ من بعض حاجاتي ما في معك وزن، قلت له ما في مانع لكن افتح لي الحقيبة، لو فيها مادة ممنوعة أو مهربة أنا مسؤول، فتشت وجدتها كلها ملابس وافقت، سوء الظن عصمة.

سوء الظن بلا دليل يعد ذنباً من الذنوب:

احترس من الناس بسوء الظن، الحزم سوء الظن، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحذر الناس ويحترس منهم من دون أن يطوي بشره عن أحد، سوء الظن من الداخل، من الخارج في مودة وفي لطف وفي جواب لطيف وفي اعتذار لبق وفي كلام معقول وفقط، ليس معنى أنه لا سمح الله إذا شخص أساء الظن بإنسان يجرحه، يهينه، أبداً.

كان يحذر الناس، ويحترس منهم، من دون أن يطوي بشره عن أحد، بشره للجميع، أما سوء الظن الذي هو رذيلة، وهو خلق ذميم أن تسيء الظن بلا دليل، دخلت إلى البيت تتكلم بالهاتف لما لمحتك أقفلت الهاتف، في مشكلة، لذلك:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ (34))

(سورة النساء)

بطولة الرجل لا أن يحل المشكلة بعد أن تقع، بعد أن تظهر بوادر خفيفة جداً منها،

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ)

ما وقع النشوز لكن في ظاهرة، في تصرف صعب تفسيره، النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي مع زوجته قال، هذه زوجتي لصحابيين لماذا ؟ لئلا يقعا بسوء الظن، علمنا منهجاً، أنت كنت في مكان نزلت في فندق مؤتمر شخص له زوجة مقيمة عند ابنتها وهو داخل إلى غرفته سبعة أيام لوحده، مرة جاءت زوجته إلى عنده للفندق وهناك شخص قاعد يراقب قل له هذه زوجتي، هو يظن أنه سبعة أيام لوحده في الغرفة هذه المرة لماذا معه واحدة ؟

سوء الظن الذي نهانا الله عنه هو سوء الظن بلا دليل، ما في ولا دليل، تأخر الزوج أين كنت ؟ أين أكون، معروف باتجاهه الديني واستقامته وعفته وكان في سهرة عمل أو مع رفقائه، لا مع من كنت ؟ لذلك حينما يكون سوء الظن بلا دليل يعد ذنباً من الذنوب، الله عز وجل قال:

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ (12))

(سورة الحجرات)

دقق ما كل الظن إثم إن بعض الظن إثم.

أحد أكبر أسباب انهيار البيوت سوء الظن بلا دليل:

سوء الظن عصمة وذكاء وحرص واحتراز، سوء الظن عصمة، احترس من الناس بسوء الظن، الحزم سوء الظن، لكن النبي الكريم كان يحذر الناس ويحترس منهم من دون أن يطوي بشره عن أحد، فلما الزوج يجد ظواهر لا ينبغي أن تفسر تفسيراً واضحاً من زوجته يجب أن يسيء الظن، أن يراقب، أما ما في أي أثر، ما في أي غلط، ما في أي مظهر يثير الشك لماذا سوء الظن من دخل البيت إلى عندك ؟ أنت عندك زوجة شريفة راقية، صاحبة دين، تربيتها جيدة، ما هذا من دخل ؟ لذلك أحد أكبر أسباب انهيار البيوت سوء الظن بلا دليل.

الأستاذ علاء:

هذه حالة اتهام.

البيان يطرد الشيطان:

الدكتور راتب:

لا يحتمل زوج يسيء الظن بلا دليل، ولا تحتمل زوجة تسيء الظن بلا دليل، اسمها حالة سوء ظن مرضية، تجاوزت الحد المعقول، كل إنسان يغار على زوجته وكل زوجة تغار على زوجها، ولو لم تغر الزوجة على زوجها لا تحب، حريصة عليه والعكس صحيح، أما حينما ترتفع نسبة الغيرة إلى درجة أنها اتهام مستمر، الإنسان ما في حوله ولا شبهة هذا سوء ظن يفسد العلاقة الزوجية.

في زوجة كل يوم في تحقيق مع زوجها، تفتش جيبه، يكون زوجاً ابن مسجد، ابن اتجاه ديني راقٍ جداً، يغض بصره عن محارم الله، يتهم بشيء بعده عنه بعد الأرض عن السماء، مثل بسيط لو فرضنا جامع فارغ ما في أحد إطلاقاً جالس شخصاً وفي معطف معلق وباب المسجد مفتوح، هذا الإنسان في آلة تصوير خفية نظر إلى الباب لم يجد أحداً، ثم قام إلى المعطف، وسحب منه ألف ليرة، صورناه، يمكن أن تفسَّر الصورة أنه سارق، أمّا إذا علمت أن هذا الإنسان هو الذي بنى هذا المسجد، دفع خمسين مليون وهذا معطفه، ولمح فقيراً فقام إلى المعطف، الصورة واحدة، شخص يجد ليرة ذهب في الأرض انحنى وأخذها وضعها في جيبه صورناه، إذا نوى أن يبحث عن صاحبها ويضع أخباراً، في بعض المحلات فهي مؤاثرة وفضيلة، وإذا نوى أن يأخذها دون أن يبحث عن صاحبها فهي رذيلة.

الصورة وحدها لا تكفي، تعليل، لذلك قال هذه زوجتي، ويقاس عليها الحساب انتهى حسابك، أنا أعطيتك مبلغاً ضخماً، قدم لي فاتورة، أنت بريء ومستقيم وورع، لكن أنت ما بينت له، البيان يطرد الشيطان، قدم حساباً، قل له هذه مدفوعاتك وهذه المصاريف طلع الرصيد صفر، هذا بيان، هذه تابعة لسوء الظن عصمة، أو البيان يطرد الشيطان تنسحب على ملايين الحالات.

شخص فرضاً سافر ووصى أخو زوجته تفقد أخته وما بلغ أحداً من الجيران، هم رأوه مسافراً ورأوا رجلاً يدخل إلى البيت في غيابه، أوقعهم في مشكلة من غيرتهم على جارهم يبلغ أنا أودع الجيران قبل أن أسافر، وأقول: أنا وكلت أخو زوجتي بتفقد زوجتي، إذا شاهدوا رجاّل دخل إلى البيت واضح تمام، في إنسان لا يتكلم ينشأ من عدم الكلام شر كبير جداً.

الكتابة تلغي سوء الظن:

سوء الظن عصمة، والحزم سوء الظن، واحترس من الناس بسوء الظن، والله في غباء وفي سذاجة بعلاقات الناس تدمر، دفعت مبلغاً ضخماً ما في إيصال، ما في سند، ما في عقد ؟ المشكلة ليست مع الطرفين مع أولاد الطرفين، شخص وضع عنده أمانة مبلغاً ضخماً ما كتب أمانة توفي بحادث، الأولاد لا يقبلوا أن يكون المبلغ أمانة وجدوه في الصندوق الحديد، إذا ما كتب أمانة في مشكلة كبيرة أطعم أولاده المال الحرام، وكل ابن إذا صدق أي دعوى شفهية هذه مالها حل، أنا أريد مع والدك خمسة ملايين ؟

الأستاذ علاء:

سيدي ربنا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)

(سورة البقرة الآية: 282)

الدكتور راتب:

الكتابة تلغي سوء الظن، تلغي احتمال.

الأستاذ علاء:

سيدي والخطاب لمن ؟ للذين آمنوا.

ضرورة الوعي عند الإنسان:

الدكتور راتب:

شخص دفع مبلغ لشخص ستمئة ألف، قصة قديمة بالسبعينات كان الدولار بثلاث ليرات، وقال له اعمل لي وصلاً، قال ما في داعي مساءً سأعطيك، العصر مات بحادث، جاؤوا أهله قالوا مالك معنا شيء، في مشكلة ما في وثيقة، أحياناً الوعي القانوني أنا رأيي الشخصي المحامي ليس مهمته أن يدافع عنك أن يمنعك أن تقع، المحاماة الوقائية قبل أن تعمل العقد اسأل محامياً.

الأستاذ علاء:

المنع والاحتراز قبل القمع كما يقولون، أسباب المشكلة أن تمنعها.

الثقة جزء أساسي في حياة كل إنسان:

الدكتور راتب:

للأزواج إذا في بوادر نشوز ابحث وسيء الظن، أما ما في ولا بادرة أحسن الظن، لا بد من التسليم، لأن يوجد جزء أساسي في حياتنا هو الثقة، إذا ما في ثقة تقف الحياة كلياً، في أرضية أما إذا في بوادر، في مشكلة، ما أعطاك الحساب، وضعت مالاً مع شخص ما أعطاك الحساب، أنا ما عندي حسابات، لماذا ما عندك حسابات ؟ أريد ميزانية، كل إنسان امتنع من تقديم ميزانية عنده إشكال، معنى منحك رغبة أن تبحث، هذا سوء الظن، سوء الظن عصمة، لا يوجد ولا بادرة قدم لك حساباً واضحاً جداً قانونياً وفنده لك، لا تعرف الله يعلم، هذا كلام، أحياناً يذكر اسم امرأة يعمل هكذا فقط، ورد في بعض الآثار قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة، أنت عملت هكذا عرفت ماذا فعلت ؟

((وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وأحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

السيدة عائشة وصفت السيدة صفية رضوان الله عليهما بأنها قصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها]

أحياناً كلمة يرقى بها على أعلى عليين، وبكلمة يهوي بها إلى أسفل سافلين.

الأستاذ علاء:

سيدي هنالك من الأسر أو من الزوجات من يعانين من شح الزوج، ترى الزوج لديه مدخول، الزوج لديه مكنة مادية، الزوج يستطيع أن يصرف على هذا البيت على زوجته وأولاده وأن يعيشوا بدون عوز بل ببحبوحة، تراه ضنيناً، ولما يسأل عن الموضوع أنا من أجلكم، هذا الأمر أنا لا أقول للذي ليس لديه مكنة أو قسرت يده عن العمل، أنا لا أقول عن الفقير أنا أقول عن المتمكن، هو له بواعث داخلية هذه القضية تجعل في لوحة الأسرة خدشاً ماذا عن شح وبخل الزوج ؟

الشحّ مرض خبيث يصيب النفس:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء جزاك الله خيراً على هذا السؤال، أولاً هناك أمراض خبيثة السرطان يصيب الجسم أقسم لك بالله إن الشحّ مرض خبيث يصيب النفس، الدليل لولا الدليل لقال من شاء ما شاء:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9))

(سورة الحشر)

لذلك الشحيح يتمنى أولاده موته أول شيء وهذه أكبر مصيبة، أن يتمنى الذين حول الإنسان أن يموت، الشحيح يعيش فقيراً ليموت غنياً، الشحيح ربما دخل بماله النار ودخل أولاده بماله الجنة، الشحيح مريض مرضاً عضالاً.

لذلك الكرم يغطي كل سلبيات الإنسان، الكرم يغطي ألف عيب، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليس منا من وسع الله عليه، ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أحمد عَنِ ابْنِ عُمَرَ]

بين أن الإنسان يعيش مع أولاده، ويتمنون حياته، يفدونه بأرواحهم، وبين أن يتمنوا موته، لو أنه أصابه مرض وجاء الطبيب وقال عرضية ينزعجون كثيراً ليست عرضية نريدها قاضية، ننتظرها

بفارغ الصبر، الشح مرض خبيث، الكريم إنسان مؤمن بالله:

((أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا))

[الطبراني في المعجم الكبير والأوسط بسند حسن عن أبي هريرة]

((يا عبدي، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

[الترغيب والترهيب بسند صحيح]

وما نقص مال من صدقة:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9))

(سورة الحشر)

أكبر مصيبة أن يتمنى الذين حول الإنسان أن يموت من شدة بخله:

والله كما تفضلت أستاذ علاء أنا لا أتكلم من فراغ، والله هناك أزواج يحصون حبات الفواكه في البراد، وهناك أزواج لا يسخون على زوجاتهم بما لا يحتاجونه من الأمور الأساسية، البخل مرض خطير، أنا أنصح كل أولياء الفتيات ألا يزوجوا بناتهم لشحيح لأن حياته جحيم لا يطاق.

ورد في بعض الآثار: أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد.

لذلك قالوا الورع حسن لكن في العلماء أحسن، والعدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن.

الاستاذ علاء:

سيدي البخل مرض خطير.

الزكاة تطهر الغني من الشح، وتطهر الفقير من الحقد:

الدكتور راتب:

لكن احتياطاً في ثلاثة أحاديث هي مقاييس دقيقة:

برأ من الشح من أدى زكاة ماله، وبرأ من الكبر من حمل حاجته بيده، وبرأ من النفاق من أكثر من ذكر الله.

الذي يؤدي زكاة ماله قد يكون دخله محدوداً، وينبغي أن يتدبر هذا المبلغ في هذا الشهر، فأنت ليس لك حق أن تتكلم كلمة، هذا مقتصد ليس بخيلاً، أما البخيل من كان غنياً وهو يضن بماله كما قلت قبل قليل.

((ليس منا))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

هذا شيء خطير، أخرجه النبي عليه الصلاة والسلام من الإسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه، ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

لذلك يوجد باب في الجنة لمن يُدخل الفرح على قلوب الصغار، فلذلك الإنسان إذا أنفق يسعد، ما معنى قوله تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (103))

(سورة التوبة)

قال علماء التفسير: إن هذه الزكاة تطهر الغني من الشح، وتطهر الفقير من الحقد، وتطهر المجتمع من هذا التفاوت الطبقي الكبير الذي وراءه انحرافات وسرقات واحتيالات، حتى الدعارة، أمراض لا يعلمها إلا الله تتلاشى إذا في كرم وفي كفاية، بل وتطهر المال من تعلق حق الغير به.

بيت المؤمن جنة من جنان الأرض لكن يحتاج إلى علم و صلة بالله و ق رحيم:

أربع حالات، تطهر الغني من الشح، وتطهر الفقير من الحقد، وتطهر المجتمع من هذا التفاوت الطبقي الذي وراءه كل انحرافات المجتمع. ألم يقل سيدنا علي: كاد الفقر أن يكون كفراً.

أنا أقول كاد الفقر أن يكون إرهاباً أو قتلاً أو جريمة أو اختلاساً أو سرقة، أنا لي تعليق لطيف، رجل دخل إلى بستان أنصاري، وأكل من دون إذنٍ، فشكاه الأنصاري إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وسيق إليه على أنه سارق، ماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال له:

((هلاّ علمته إذا كان جاهلاً، وهلا أطعمته إذا كان جائعاً))

[ورد في الأثر]

أنت يجب أن تعالج القضية من بداياتها لا من نتائجها، أحياناً يكون الشح مرضاً ووبيلاً يفسد العلاقة بين الزوجين وتكره المرأة زوجها، أكبر صفة الكرم، والله أعرف أزواجاً أنا أعدها فضيلة فيهم لو دعي إلى طعام نفيس لا يمكن إلا أن يأتي بمثله لزوجته، والمؤمن يأكل بشهوة أهله، هي تؤثره فيما يحب من

طعام، وهو يؤثرها فيما تحب من طعام، هذا هو المؤمن لذلك البيت جنة، البيت جنة من جنات الأرض لكن يحتاج إلى علم، وإلى فهم، وإلى حكمة، وإلى تدين، وإلى صلة بالله عز وجل، وإلى قلب رحيم.

الالتفاف والانفضاض:

أنا أقول دائماً في قانون اسمه قانون الالتفاف والانفضاض، الأب بحاجة إلى من يلتف حوله أولاده وزوجته، يحبونه، يخدمونه، ينصاعون له، يتلقون توجيهاته باحترام بالغ والأم بحاجة كذلك، ما قانون الالتفاف دقق:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

أي بسبب رحمة استقرت بقلبك يا محمد هذه الرحمة انعكست ليناً، التف الناس حولك، ولو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة، فانفضوا من حولك، هذا القانون يحتاجه الأب والأم والداعية، والخطيب والمدرس وأستاذ الجامعة وأي منصب قيادي، قانون الالتفاف والانفضاض.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (86-95) : أسباب الشقاق الزوجي عدم احترام الزوج لعائلة الزوجة أو عدم احترام الزوجة لعائلة الزوج
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-11-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتذكير:

سيدي الأستاذ بدأنا منذ حلقات عدة نعاين ونسلط الضوء على أسباب الشقاق الزوجي مبتدئين بقوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

الله عز وجل خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها، ولتكون المودة والرحمة بيننا، لكن أفعال الإنسان هي التي تؤثر بل وتفسد هذه العلائق التي وضعها الله عز وجل، وبدأنا خلال الحلقات الماضية نتحدث عن أسباب الشقاق الزوجي، تحدثنا مطولاً عن بنود لابد من أن نستكملها، قلت لنا: من هذه البنود عدم احترام الزوج لعائلة الزوجة، أو عدم احترام الزوجة لعائلة الزوج، بداية نبتدئ بهذا البند لو سمحت.

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع:

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء كنت أقول دائماً: إن النجاح لا يسمى نجاحاً إلا إذا كان شاملاً، وأركان النجاح نجاحك مع أهلك وأولادك، نجاحك مع ربك، نجاحك مع صحتك، نجاحك مع عملك، فكأن النجاح في الأسرة أربعة أركان هو أحد أركانها، نجاحك مع أهلك وأولادك ربع النجاح الشمولي، لذلك إذا شبهنا المجتمع ببناء كبير، الأسرة هي اللبنة، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، إذا تماسكت الأسرة تماسك المجتمع، إذا نمت الأسرة نما المجتمع، إذا طهرت الأسرة طهر المجتمع، إذا تكافلت الأسرة تكافل المجتمع.

اجتماع الشرائع السماوية على تدعيم الأسرة و قدسيتها:

كأن النظم الإلهية، الشرائع السماوية تجتمع على تدعيم الأسرة، وعلى قدسيتها، وعلى الحفاظ عليها، وعلى الوئام، بل إن الله عز وجل حينما قال وجعل المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (37))

(سورة فصلت)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

(سورة الروم)

ومن آياته الدالة على عظمته:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

وجعل بمعنى خلق بينكم مودة و رحمة.

كل إنسان فطر على حبّ أمه وأبيه:

إذاً بخطأ الإنسان، بتقصيره في أداء واجباته، بخروجه عن منهج ربه في معاملة أهله ينشأ الشقاق، الفساد أصله من الإنسان، يوجد دليل قوي جداً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

(سورة الروم)

أصل التصميم كمال مطلق، الفساد يتأتى من خطأ يرتكبه الإنسان، انظر إلى مركبة سحبت من الوكالة لتوها رائعة جداً، لو قادها إنسان مخمور فنزل بها في الوادي هذا الذي حصل هو سبب خطأ في قيادتها، أنا بشكل صريح أعزو أي مشكلة بين الزوجين إلى خطأ في السلوك من أحدهما أو من كليهما، الحقيقة فطر الإنسان على حبّ أمه وأبيه، أي ما بين الأب والأم وما بين الأب وأولاده وما بين الأم وأولادها شيء من صنع الله عز وجل، هي رحمة الله أودعها في قلوب الأمهات، هي محبة الله أودعها في قلوب الآباء.

من أراد أن يحافظ على ود زوجته عليه أن يتجنب السخرية من أمها و أبيها:

إذا أراد الزوج أن يسخر من أم زوجته يحطم زوجته، كما أن أمه مقدسة عنده أمها مقدسة عندها، بصرف النظر عن أخطائهما، هذا موضوع آخر، أنت أحياناً ولاؤك لأمك وأبيك لكن قد لا تعجب بتصرفاتهم موضوع آخر، لكن أنت منهما، لهم رعاية، لهم حق البر، الزوج حينما يتطاول على أم

زوجته أو على والد زوجته يحطم زوجته لماذا ؟ لأنه أبوها ولأنها أمها، وهو زوجها، فبطولة الأزواج أن يضعوا خطوطاً حمراء أمام عائلات زوجاتهم، تبقى الزوجة على مودة ولن تستطيع أن تقطع فتاةً عن أمها وأبيها، في أزواج بحمق ما بعده حمق يمنعوها من زيارة أمها أو يمنعوا أمها من زيارتها، ماذا فعل بزوجته ؟ كيف تريد أيها الزوج أن تحبك زوجتك ؟ ردّ نفسي عنيف جداً، كيف تنتظر أن تحبك زوجتك وقد أصبتها بأقدس ما عندها ؟ كيف تحب أن تواليك هذه الزوجة وقد طعنتها بالظهر حينما طعنت بأبيها ؟ أنا لا أتحدث الآن عن أن الأب والأم على صواب أو على خطأ، قد يكونان على خطأ لكن أنت يجب أن تعامل والد زوجتك وأم زوجتك كما تعامل أباك وأمك.

ينبغي على الزوج ألا يقطع زوجته عن أمها وأبيها ولو كان هناك خطأ:

أنا كنت أقول دائماً هناك أب أنجبك، وأب زوّجك، وهناك أب دلك على الله، فهذا الأب والد الزوجة اعتنى بابنته عشرين عاماً، اعتنى بحجابها وثقافتها، ثم قدمها لك هدية له حق عليك.

الأستاذ علاء:

سيدي من يسمع الآن ويشاهد قد يتساءل وهو يمارس هذه المسألة أنني أنا منعت زوجتي من زيارة أهلها، أبيها، أمها، نتيجة تصرفات هذه التصرفات أنا جعلت من منع الزيارة كحرز ماذا نقول له ؟

الدكتور راتب:

أزور أهلها وأنا معها، هو يتوقع توجيهات معينة سوف تبث من قبل الأم لزوجته الحل أنا أزورهم كل أسبوع أنا وهي معاً، لن يستطيعوا في حضرتي أن يقولوا شيئاً، هذا حلّ، لا ينبغي أن أقطعها عن أمها وأبيها ولو كان في خطأ، الخطأ يصحح، الخطأ يعالج، أما مبدأ قطيعة الأم عن أمها وأبيها خطأ أكبر من أي خطأ آخر ينتج عن اتصالها.

الأستاذ علاء:

سيدي اسمح لي أن أقف عند هذه المسألة، هنالك كي يتجاوز الأمر الخطأ إلى مفسدة ربما تكون الأم في وضع معين إذا زارت البنت أمها ارتشفت من فسادها، هنا هل يحلل الشرع هذا ؟

درء المفاسد مقدم على جلب المنافع:

الدكتور راتب:

هذه حالة أخرى، قالوا: دع خيراً عليه الشر يربو. قالوا: درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، هذه حالة خاصة إذا يمكن أن تكون هذه الصلة سبباً لفساد بيتك، يجب أن تقنع زوجتك أولاً بأن هناك خطر من زيارتك لأهلك، البطولة بالإقناع القمع لا يجدي، أنا أرى دائماً الأزواج إما أن يقمع وإما أن يقنع، البطولة أن تقنعها أن هذه الأفكار تفسد علاقتنا، تفسد بيتنا، تفسد تربيتنا لأولادنا، تفسد سعادتنا، تفسد سلامتنا، نحن لسنا مكلفين أن نكون أوصياء على الآخرين، فأنت حينما تقنع زوجتك وأنا أرى في الأعم الأغلب إذا كان الزوج محسناً لزوجته تقنع بكلامه، وتستجيب له، وهي تبادر فإذا جاءت المبادرة منها المشكلة خفيفة جداً، أنا كل ما جئت إليكم أفسدتم علاقتي مع زوجي، أنا سأبتعد عنكم قليلاً بالهاتف أطمئن عن صحتكم بالهاتف ممكن، طبعاً هذه حالة نادرة.

الأستاذ علاء:

قد يتساءل المشاهد أن هناك حالة تقتضيها هذه المسألة ما هو موقف الشرع ؟ الآن تبين.

الإدارة تقتضي أن تقنع الذين حولك لا أن تلزمهم بما تريد:

الدكتور راتب:

أريد دائماً، علموا ولا تعنفوا، أنا مع الإقناع ولست مع القمع، أحياناً الإله العظيم لما أمرنا أعطى التعليمات، سر في التربية رائع:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183))

(سورة البقرة)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (103))

(سورة التوبة)

المطلق الذي كن فيكون، زل فيزول، أعطاك الأمر مع التعليل، أنت لا تعطي الأمر من دون تعليل، أنت لما تعطي التعليل تجعل الطرف الآخر ما هو مأمور تجعله شريكاً بالقرار، بطولة القيادة الذكية في

المدارس، في الجامعات، في المؤسسات، من إدارة الأعمال أن تجعل هذا الذي معك شريكاً لك في اتخاذ القرار لا تجعله متلقياً للقرار، يوجد فرق كبير جداً، أنت إذا بينت له المشكلة، وأبعادها، والأخطار الناجمة عنها، تبنى معك هذا القرار، ونفذه عن قناعة، ونفذه بكرامة، ونفذه بروحه لا بنصه، فأنا أعد الإدارة تقتضي أن تقنع الذين حولك لا أن تلزمهم بما تريد.

الأستاذ علاء:

سيدي هذا إذا كان من الزوج، وهذه الصور غالبة على أن تكون من الزوجة تجاه عائلة زوجها، هنالك تسمح لي أن أبحث بالتعبير العامي زوجة قاطوعة، يعني تقطع زوجها عن أهله، وتكسر رجل أهل زوجها عن البيت، ماذا نقول في هذه الحالة ؟

الزوجة العاقلة تسعى لتكون العلاقة بين زوجها وأهله علاقة طيبة تنعكس عليها استقراراً:

الدكتور راتب:

تخسر زوجها، لأن الإنسان حينما يعق أهله يضطرب، هذا يعود عليها، الزوجة العاقلة تسعى لتكون العلاقة بين زوجها وأهله علاقة طيبة، إن هذه العلاقة الطيبة تنعكس عليها استقراراً وراحة نفسية، فإذا جهدت في قطع زوجها عن أهله اضطرب الزوج لم يعد طبيعياً، أصبحت ردود فعله قاسية جداً، صار لأتفه سبب يثور، عنده خلل داخلي، أحياناً نجد في خلل داخلي عميق جداً قد لا ننتبه له وراء قسوتنا، وراء التطاول، وراء الكلمات القاسية، وراء الاضطراب، وراء سرعة اتخاذ القرار، هذا كله وراءه اضطراب داخلي، الإنسان لو كان عنده صحة نفسية، متوازن هادئ، قراره هادئ، تصرفه معقول، ردود فعله معقولة، متزنة، أما لما أنا أقطع زوجي عن أهله وأستطيع أن أفعل ذلك لما لي عنده من مكانة ؛ هو يستجيب لي إرضاء لي لكنني أوقعته في اضطراب، أوقعته في انهيار داخلي، ما ينتج عن هذا الانهيار الداخلي من آلام انعكس عليها، أنا أقول من ذكاء الزوجة أن تسعى لحسن علاقة زوجها بأهله، ومن ذكاء الزوج أن يسعى لحسن علاقة البنت مع أهلها مع الضوابط.

الأستاذ علاء:

الآن جاءت إلى بيت زوجها فوجدت هناك علاقة مضطربة من أخته، مع أخيه، مع أمه، مع أبيه،

أصلحت هذه العلاقة، الزوجة، وبنت علاقة متوازنة فيها ينتفي العقوق، تمسك بقلبه.

من بنت علاقة متوازنة بين الزوج و أهله أبعدت زوجها و أولادها عن العقوق:

الدكتور راتب:

هذه زوجة لا تقدر بثمن لكنها ذكية جداً وعاقلة جداً، هذه مبادئ ثابتة بالحياة الزوجية، هذا الابن ليس من شجرة، ليس من الحائط، له أب وأم، له أخوة، فحينما أقرّ بما هو فطري، بما هو طبيعي، بما هو مألوف، أنا أوظفه لمصلحتي.

الأستاذ علاء:

سيدي الآن جئنا إلى أسرة فيها تفاهم بين الزوجين، وفيها مودة، وفيها محبة بين الزوجين، وهذه العلاقة مشت مشياً هادئاً و رائعاً بعد فترة يدب الشقاق والخلاف، بالنظر نجد أن هناك تدخل من الآباء والأمهات في علاقة الزوجة ماذا نقول عن هذه الزاوية التأثيرية عن علاقة الزوجة ؟

أكثر مشاكل الأسر تتأتى من تدخل الآباء والأمهات من كلا الطرفين:

الدكتور راتب:

الحقيقة إذا كان الأب والأم ناضجين يتركان أولادهما مع أهلهم على ما يريدون، لا يتدخلون، أحياناً تتدخل الأم بوضع الأثاث في بيت ابنها، لها أذواقها، الزوجة أنت عمرك سبعين سنة، هي عمرها ثماني عشرة سنة، لها أذواقها هذا بيتها، تجدها تتدخل في كل شيء، هذا التدخل يخلق مشكلات كبيرة، أنا حينما أتدخل ألغي شخصية الزوجة لماذا قال الله عز وجل دقق أستاذ علاء:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ (1))

(سورة الطلاق: الآية1)

لماذا عزي البيت في القرآن للزوجة مع أنه ملك الزوج ؟ عزي إليها إشرافاً، الزوج يحقق ذاته في عمله، له مجالات عديدة يحقق ذاته فيها، أما الزوجة أين تحقق ذاتها ؟ في بيتها، في ترتيبه، في تنظيمه، في إدارته، في مملكتها، لذلك نسب البيت في القرآن الكريم إلى الزوجة لا نسبة تملك بل نسبة

إشراف، فأنا أرى أن الأب العاقل لا يتدخل في تفاصيل حياة ابنه مع زوجته إلا إذا كان في خروج عن مبدأ، عن قيمة، عن سمعة عائلة، عن اتجاه، عندئذ تدخله تدخلاً مشروعاً، تدخلاً يشكر عليه، أما له نمط خاص بترتيب الأثاث، نمط خاص بالطعام والشراب، نمط خاص بترتيب البيت، هذه الأشياء لا أتدخل بها.

الزوجة العاقلة ترضي أهلها من طرف وترضي زوجها من طرف آخر:

أنا بحكم عملي في الدعوة أكثر مشاكل الأسر تتأتى من تدخل الآباء والأمهات من كلا الطرفين، أحياناً أقرباء الزوج، أحياناً أقرباء الزوجة، الأم أحياناً، أستاذ علاء عند الإنسان حاجة اسمها تأكيد الذات، هي أم، ابنتها تزوجت أصبحت تابعة لزوجها كأنها خسرت، فحينما تأمر ابنتها أن تفعل مع زوجها كذا وكذا تشعر أنها ما زالت مسيطرة وأن زوج ابنتها بيدها، وأنا أقول البنت غير الناضجة تستجيب لضغوط الأم أو الأب على زوجها فتغدو غبية، هذا البيت بيتك، وهذا الزوج زوجك، وليس من رجل أقدس عندك من زوجك هذا بنص كلام النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل:

((مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال: زوجها، فلما سئل: مَن أعظم النساء حقاً على الرجل ؟ قال: أمه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسن فيه ضعف]

فهذا توجيه نبوي، فأنا حينما أرى زوجة عاقلة جداً، مصيرها مع زوجها، سعادتها مع زوجها، تألقها مع زوجها، تتلطف مع أهلها لا تزعجهم لكن لا تستجيب لهم، وقد تسلك طريقاً فيه ذكاء ترضيهم من طرف وترضي زوجها من طرف.

على الزوج ألا يسرف في مدح زوجته أمام أمه:

أحياناً الزوج يبالغ بمدح زوجته أمام أمه قد لا تحتمل ذلك، هذا خطأ أيضاً، يبالغ كان ملكها فأصبح بيد زوجته، أنا أتمنى على الزوج ألا يسرف في مدح زوجته أمام أمه ما شي الحال نصيبنا.

الاستاذ علاء:

والزوجة يجب أن تعرف مؤدى هذه العبارة، هو ليس انتقاصاً في حقها، باتفاق مسبق

الدكتور راتب:

الإنسان حينما يتقدم بالسن ينشأ حالات أنا أسميها تقلصاً عقلياً، أو أسميها ثبات على شيء غير صحيح، أنا أعذر أب متقدم بالسن أو أم متقدمة بالسن أنا يجب أن أداريها لا أن أجابهها.

الأستاذ علاء:

سيدي الكريم هنالك من يقول من الأزواج أنا أشتغل والحياة صعبة، لقمة العيش يجب أن نسعى لها، وهذا جهاد بكل معنى الكلمة، ويغيب غياباً طويلاً عن البيت، هل هذا مبرر له أن يغيب وماذا يتأتى من الغياب ؟

أحد أكبر أسباب الخيانة الزوجية هو غياب الزوج الطويل عن البيت:

الدكتور راتب:

والله لئلا أكون مبالغاً أنا عندي دراسة مؤصلة وعميقة جداً أنه أحد أكبر أسباب الخيانة الزوجية هو الغياب الطويل، كلمة قاسية وخطيرة، أحد أكبر أسباب الخيانة الزوجية هو الغياب الطويل، المرأة إنسانة أستاذ علاء تريد من يؤنسها، من يلاطفها، من يثني على جمالها أحياناً، من يثني على إدارة بيتها، من يثني على طبخها، من لها غير زوجها، هل لها غير زوجها يقدر وضعها ؟ أحياناً يذهب قبل شروق الشمس، يأتي الساعة الثانية عشرة على الطعام والنوم، هذا إنسان ؟ لا يحكي معها كلمة، لا يسألها عن صحتها، لا عن أولادها، لا يسمع لها، أحياناً النبي عليه الصلاة والسلام سمع للسيدة عائشة فترة طويلة عن أبي زرع وأم زرع، وحدثته عن شجاعته وكرمه، لكنها تأسفت أشد الأسف حينما أعلمته في النهاية أنه طلقها، فكان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بها، فقال لها: أنا لك كأبي زرع لأم زرع، غير أني لا أطلقك.

المرأة إنسانة تريد من يؤنسها و يلاطفها:

هذه الزوجة تاركها أنت ثماني ساعات وحدها في البيت، رتبت، نظفت، طبخت، غسلت، اعتنت بأولادها، الآن تنتظر زوجها، لها حاجة عند الزوج أستاذ علاء، حاجة عاطفية، اترك العلاقة الجنسية، هي بحاجة من يقدرها الله يعطيك العافية، الله يخلي لي إياكِ، ماذا تكلفك هذه الكلمات ؟ ترى ملأت قلبها

سعادة ولو ربع ساعة، أنا عندي قاعدة إن لم تصغ إلى زوجتك بالحد الأدنى عشرين دقيقة كل يوم تنشأ مشكلة، لا يتكلم معها و لا كلمة، الجرائد، الأخبار، العشاء، النوم، أهو دابة ؟ مشكلة كبيرة، أحياناً أنت في المكتب اتصل بها الساعة العاشرة كيف حالك يلزمك شيء، اتصال، الحياة كلها ذكاء، إما أن يعيش بذكائه أو بإيمانه، أحياناً سافر يأتي الساعة العاشرة، صارت الساعة الحادي عشر، قل لها إنك متأخر، يوجد سبب قاهر، طمئنها إنسانة تنتظرك، الاتصال ولو هاتفياً، أحياناً تسافر خبرها مرتين ثلاثة، أيام ولا هاتف، أخبرها مرة، يلزمك شيء ؟ كيف الأولاد بخير ؟

الأستاذ علاء:

عندما لا تجد لهذه الساحة العاطفية من زوجها ما يسقيها سوف تبحث عمن يسقيها.

الزواج فن:

الدكتور راتب:

والله اليوم اتصال هاتفي أنه بحياته ما تكلم معها كلمة لطيفة، ذهبت إلى الطبيب تكلم معها كلمة لطيفة تعلقت به، سبب تعلقها بالطبيب أنه تكلم معها كلمة لطيفة، هي يجب أن تسمعها من زوجها هذه الكلمة، أستاذ علاء أنا عملي بالدعوة أتلقى مئات الاتصالات واضع يدي على المشكلة، يعني زوج لا يتكلم، ولا ينطق بكلمة طيبة، ولا يبتسم، وكل قسوته وتجهمه لزوجته، وكل نعومته لأصدقائه أو أهله، هذا زوج لن ينجح في علاقته مع زوجته، أنا عندي قصص والله تبكي الحجر والله يندى لها الجبين، إهمال، زوجة صالحة مستقيمة مؤمنة طاهرة تخدمك مالها منك نصيب، تقول لها كلمة طيبة، كلمة ثناء، كلمة محبة، عبّر عن محبتك لها، في مشكلة كبيرة، الحقيقة الزواج فن والذي يسعد بزوجته، أنا أقول الحب بيدك، بيدك أن تصنعه صناعة.

الأستاذ علاء:

لذلك مجموعة من الرجال يقولون إن الرجل لا يفصح عن مشاعره، وإن أفصح عن مشاعره رخى الحبل لزوجته هكذا أسمع، وبالتالي تصبح تتدلل عليه كثيراً.

بطولة الإنسان لا أن يكون ليناً فيعصر و لا قاسياً فيكسر:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء سهل جداً أن تكون قاسياً، لا تحتاج إلى بطولة، و سهل جداً أن تكون مسيب الأمور، البطولة أن تقع في حيرة تحبك إلى درجة مذهلة وتخشاك إلى درجة مذهلة، أن تمسك العصا من نصفها، دائماً التطرف صعب.

الأستاذ علاء:

أن تحترمك.

الدكتور راتب:

لا تكن ليناً فتعصر أو قاسياً فتكسر، إن أردت أن تطاع فائمر ما يستطاع، فأنت حينما تجاوزت حدها سكت، أعرضت عنها إلى حين، أدبتها أنت من دون سباب، من دون رفع صوت، حينما تجاوزت حدها سكت، سكوتك موقف، رسالة، انتبهت هي، وحينما تجاوزت أنت حدك معها همدت لم تتكلم أيضاً رسالة، يمكن أن أبعث رسالة وأتلقى رسالة من دون كلام، فلما هي تتجاوز حدها سكت أنت لك مكانتك وهناك خطوط حمراء، ولما هي تتجاوز حدّها أيضاً هناك خطوط حمراء، أنا لما أرى مودة أقابل المودة بمودة، وجدت في تجاوز اعمل طريقة معينة، أبلغ رسالة، دائماً التساهل سهل والقسوة سهلة، بينهما يحتاج إلى جهد كبير ودائماً الفضيلة وسط بين طرفين.

الأستاذ علاء:

الغياب الطويل سبب أساسي في الشقاق الزوجي.

الغياب الطويل سبب أساسي في الشقاق الزوجي:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء، قد ينتهي إلى خيانة أحياناً، إذا لم يكن هناك روادع دينية، لا يوجد قيم أخلاقية، إذا في تربية غير عميقة، هو في تفلت شديد وغائب عن البيت ليلاً نهاراً يكون هو السبب في هذه المسألة.

الأستاذ علاء:

هناك أسرار وخصوصية بين الزوجين، هنالك قضايا يفضي كل طرف إلى الطرف الآخر، أحياناً الزوج يفشي هذه الأسرار وأحياناً الزوجة، هل هذه تؤثر على العلاقة؟

أسرار الزوجية لا يمكن أن يفضى بها دائماً:

الدكتور راتب:

شيء مؤلم إلى درجة غير معقولة أن تكون أسرار الزوجية على كل لسان، في زوجة فضاحة، في زوجة ستيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام أثنى على الزوجة الستيرة وصف المرأة المؤمنة بأنها ستيرة، يوجد للبيت حرمة، أنا أرى أن هناك أسرار يجب ألا يعلمها أحد، لا أم الزوجة ولا والد الزوجة ولا أم الزوج ولا والد الزوج، هذه أسرار يجب أن تبقى في البيت، فكلما كان الزوجان على فهم عميق وعلى نضج كبير جعلوا منطقة من المعلومات لا يمكن أن يفضى بها.

الأستاذ علاء:

سيدي بعض التصرفات يحلو للزوج أن لا يحترم زوجته أمام الضيوف وأمام الأقارب والعكس بالعكس.

الدكتور راتب:

الاحترام المتبادل بين الزوج و الزوجة مطلوب دائماً:

أحياناً تؤدب ابنك بدافع محبتك له، ورحمتك، وحكمتك، وفضلك عليه، يقبل هذا التأديب وقد يبقى على مودة عالية معك، أما إذا أهنته أمام صديقه يمكن المشكلة ضرب مليون صارت، هذا مبدأ عام أنا أرى أن توجه للزوجة كلمة قاسية أمام أهلها، أو أمام أقربائها، أو أمام أولادها، أو أمام بناتها، هذا عمل خطير جداً، هذا عمل يسبب مضاعفات كثيرة، كما تفضلت قبل قليل يرضها رضاً عنيفاً، يزلزل كيانها. لذلك الإنسان يجب أن يحترم الآخر، الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، كلمة السيد المسيح ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، أنا أحضر أكل طيب، تتمنى منك كلمة طيبة وأن تحترمها وأن تأكل أخشن الطعام، أستاذ علاء الإنسان بحاجة إلى أن يأكل حفاظاً على وجوده الفردي، بحاجة إلى زوجة حفاظاً على النوع، هو بحاجة إلى كرامته أن تكون مصونة، بحاجة إلى تأكيد الذات، بحاجة إلى أن يعيش حياة فيها احترام متبادل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (87-95) : الكذب سبب من أسباب الشقاق الزوجي يهدم كيان الأسرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-11-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع:

الأستاذ علاء:

سيدي الأستاذ مبحث هام في حياتنا الاجتماعية الذي يؤسس لبناء لبنة صالحة وهي الأسرة، ومثلت هذه في حلقات سابقة إذا كان لدينا بنيان كبير هذا البنيان إن كان يشد بعضه بعضاً، وإن كان متيناً لا يهتز ولا يستجيب لأي عارض من عوارض الدهر تكون لبناته صحيحة، فيها موادها المتماسكة، وشبهت لنا بأن اللبنة هي الأسرة، وأن المجتمع هذا البنيان الكبير، وتحدثنا في حلقات سابقة عن أسباب الشقاق الزوجي وهو من فعل الإنسان وكما تفضلت في الحلقة الماضية ومن خلال قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

وقلت وجعل أي خلق بينكم مودة ورحمة، هذه العلائق الربانية الذي يفسدها تصرفات الإنسان، والذي يفسدها ويؤثر عليها وتستحيل هذه الأسرة من المودة والرحمة إلى الشقاق والشجار من خلال فعل أحد الزوجين أو المحيط بالزوجين، ومررت على الكثير من النقاط التي تؤثر على العلاقات الزوجية، الآن سيدي من هذه المسائل التي تؤثر على علاقة الزوجين بندت لنا عنوان الكذب، هل الكذب من قبل أحد الزوجين على الطرف الآخر هو من القضايا التي تهدم بنيان الأسرة ؟

عدم اجتماع الإيمان مع الكذب:

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء هناك أشياء متناقضة، وهناك أشياء متعاكسة، المتعاكسة تجتمع والمتناقضة وجود أحدها ينقض وجود الآخر، أنا ممكن أطلي الجدار بأبيض وأسود كالنمط الشامي القديم، فالأبيض والأسود يلتقيان ويجتمعان في جدار واحد، لكن الضوء والظلام لا يجتمعان وجود الضوء يلغي وجود الظلام، ووجود الظلام يلغي وجود الضوء، أؤكد لك بكل صراحة وبكل إصرار أن الإيمان والكذب لا يجتمعان الدليل ورد في بعض الأحاديث:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أبي أُمَامَةَ]

هناك مؤمن أنيق جداً، مؤمن أقل أناقة، مؤمن اجتماعي، مؤمن يميل إلى الجلوس في البيت، مؤمن مرح، مؤمن يأخذ وضع الهيبة الزائدة، هذه كلها طباع مقبولة:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أبي أُمَامَةَ]

فإذا كذب وخان ليس مؤمناً أصلاً.

الكذب يهدم الثقة بين الزوجين:

لذلك ما من شيء يهدم الثقة بين الزوجين، الإنسان يعيش بالثقة، الثقة كنز، أحياناً إنسان يكون غنياً بثقة الناس به، تكون الزوجة قوية شخصيتها كثيراً لأن زوجها واثق بها، كلامها عنده لا يتطرق إليه الشك إطلاقاً، فأية زوجة تبدأ بالكذب تنتهي عند زوجها، وتنتهي عند أولادها، وتعلم أولادها الكذب، لا بالتلقين بل بالممارسة وهذا أخطر من التلقين.

لذلك الزوجة التي تكذب تخسر زوجها، والزوج الذي يكذب يخسر زوجته، والكذب معول يهدم السعادة الزوجية، لكن في استثناء لو أنها سألته أتحبني ؟ وكان حبه لها ليس كاملاً فاتراً، ما كل بيت يبنى على الحب الجامح، الحب الصاعق، فإذا قال لها وأكد لها أنه يحبها من أعماق أعماقه هذا كذب لكنه مطلوب، هي تطمئن على محبته لها، طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام له وضع آخر سألته السيدة عائشة: كيف حبك لي ؟ يقول لها كعقدة الحبل، تسأله من حين لآخر: كيف العقدة ؟ يقول: على حالها.

هذا وضع ثان لا علاقة له بموضوعنا، موضوعنا إذا ما كان الحب كما ينبغي هو عبّر عنه كما ينبغي يكون ذكياً جداً، يكون حكيماً جداً، لو أنه سألها أتحبينني ؟ هو زوجها وأبو أولادها يقدم لها كل شيء، والحياة فيها متاعب، وفيها ابتلاءات، فقالت والله أحبك من لي غيرك، ما كذبت عند الله مع أن الواقع ليس كذلك، لكن أنا أتألم ألماً شديداً ممن يفهم الكذب على الزوجة بالأسعار، تكشفك، تطلع كذاب، ليس

هذا المجال، أحياناً تحب أن تطمئن على محبتك لها، طمئنها، وأحياناً يحب الزوج أن يطمئن على محبة زوجته له.

الأستاذ علاء:

كأن جرت حادثة لسيدنا عمر.

من أنجب أولاداً عليه أن يضع حظه تحت قدمه من أجل أولاده:

الدكتور راتب:

سيدنا عمر قال ما كل بيت يبنى على الحب، في بيت يبنى على المصلحة في أولاد، نريد أن نربي أولادنا، نعلمهم، يصبحوا أبطال المستقبل، هذه رسالة، أنا أقول دائماً كلمة حينما ينجب الزوجان الأولاد يجب أن يضعا حظوظهما من بعضهما تحت قدميهما، حينما ينجبان الأزواج الأولاد ينبغي أن يضعا حظوظهما من بعضهما تحت أقدامهما من أجل أولادهما، أنا أقول كلمة أخرى من خلال معاناة طويلة في الدعوة ما رأيت طلاقاً حلت به المشكلة، بل بدأت به المشكلة طبعاً إذا في أولاد، أنا أقول إذا ما في أولاد موضوع ثان، بل بدأت به المشكلة، فلذلك ما كل بيت يبنى على الحب الصارخ، قالوا لو أن روميو تزوج جوليت لطلقها بعد حين.

الأستاذ علاء:

قالوا إن قيس وليلى لأنهم لم يتزوجوا الحب اشتد واشتد، لذلك هذه الحالات الرومانسية والحالات الصارخة.

الدكتور راتب:

شيء مضحك.

الحب الجارف الصارخ إذا استمر بين الزوجين توقفت الحياة:

لي رأي ثان لو أن هذا الحب الجارف الصارخ يستمر تقف الحياة، لحكمة بالغة بالغة الحرارة

بين الزوجين بالخطبة معقول لكن على طول ليس معقولة، نريد أن نبني حياتنا، نربي أولادنا، نشتغل، نعمل إنجازاً للأمة، يصبح عندك أهداف ثانية، الحب موجود أما الحب المتأجج هذا مستحيل يستمر.

الأستاذ علاء:

هذه صور خيالية كما قال عنترة:

ولقد رأيتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي

* * *

هذه حالة شاعر لا نعممها.

الدكتور راتب:

أذكر أنه في مكالمة بين خطيبين ثلاث عشرة ساعة، بعد بسنة ما عاد تكلم كلمة.

الأستاذ علاء:

استنفذ كل طاقته بهذه المكالمة.

من كذب مرة فقد مصداقيته دائماً:

الدكتور راتب:

إذاً الكذب يهدم السعادة الزوجية، ما عاد واثقاً منها، المشكلة أن الإنسان يكذب مرة، لكنه أفقد مصداقيته صار لو صدق مليون مرة يتهم بالكذب، هذه مشكلة، إنسان كذب مرة أخذت عنه أنه يكذب، الآن تكلم صواباً في شك، لا يوجد تأكد، عندما يتكلم الإنسان كلاماً غير مصدق هذه مشكلة كبيرة جداً، هو السبب فضلاً، عن تعليم الكذب للأولاد.

الأستاذ علاء:

سيدي كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أبي أُمَامَةَ]

وفي حديث آخر: هل يسرق المؤمن، المؤمن لا يكذب.

الدكتور راتب:

عفواً أنا أقول لكل إنسان في مؤسسة اقتصادية أنا أتحمل من موظف عندي آلاف الأخطاء، لكن لا أدعه عندي دقيقة لو كذب أو خان، إذا كذب انتهى، ممكن أتحمل منه آلاف الأخطاء، ما دام في خطأ مبرر في سوء خبرة، سرعة اتخاذ قرار كله مقبول أما إذا كذب قصداً أو خان انتهى.

الأستاذ علاء:

سيدي الكذب من القضايا الأساسية التي تفقد المصداقية.

الصدق مفتاح النجاة:

الدكتور راتب:

الصدق منجاة، أحياناً يتوهم الإنسان أن الصدق يعمل له مشكلة كبيرة، الصدق يكون مفتاح النجاة، الصدق له تأثير السحر.

((إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلي البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنةِ، وإن الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يُكتَب [عند الله] صِدِّيقا، وإن الكذبَ يهدي إلى الفُجُور، وَإنَّ الفُجُورَ يهدي إلى النار، وَإنَّ الرَّجُلَ ليكذبُ حتى يكتبَ عندَ اللهِ كذَّابا))

[أخرجه البخاري، ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صحيح]

الأستاذ علاء:

سيدي هنالك بين الزوجين يصير خلافات الزوج لا يحب تصرفات من زوجته لكن كما قلت في حلقة سابقة، القمع سهل لكن الإقناع يحتاج إلى جهد، التهديد بالطلاق، التهديد بالزواج الآخر، هذه المسائل بين الأزواج قضية إشكالية وتفصم العلاقة بين الزوجين في لحظة معينة.

التألق عند الزوجة مبعثه وشحنه من الزوج:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء أكاد أقول إن الرجل يوجد بحياته فصول عديدة منها زواجه، منها عمله، منها دعوته، منها اختصاصه، منها دراسته، ومع أن المرأة لا تقل عنه إطلاقاً لكنها لحكمة بالغة بالغة الزواج عندها كل فصول حياتها فإذا خطبت نجحت في الحياة، وحينما يهددها الزوج بالطلاق أو بزوجة أخرى وهو لا ينوي ذلك يقع في حماقة كبيرة، لأنه خسرها من دون أن يكسب شيئاً، أصبحت قلقة، صدق أحياناً الزوجة تكون متألقة جداً وجميلة جداً إذا كانت مطمئنة إلى محبة زوجها إليها، وأحياناً تظهر عوامل القلق على محياها لوناً باهتاً، تكون لها لون متألق جداً يبهت لونها حينما تفقد ثقتها بزوجها، هي إنسانة تتألق وتكمد، تتألق وتتراجع، فأنت حينما لا تفكر بالزواج من غيرها ولا تفكر بطلاقها لماذا تمزح هذا المزاح ؟ أليس هذا المزاح حماقة ؟ في ألف موضوع.

الأستاذ علاء:

التألق عند الزوجة مبعثه وشحنه من الزوج.

الزوجة هدية الله لك عليك أن تشعرها بأنك لن تتخلى عنها أبداً:

الدكتور راتب:

أنا حدثني أخ، أقول أخ تجاوزاً، كل حياته يهدد زوجته بالطلاق، قلت له إما أن تفعل أو اسكت. يا أخي طلق أو اسكت، أما لا طلقت ولا تزوجت غيرها أنت أفقدتها الثقة فيك، حالة اضطراب دائمة، صدق شاب يتزوج زوجة رائعة، مستقيمة، من بيت أصيل، تربيتها عالية، لا يحلو له من أنواع المزاح إلا الزوجة الثانية أو الطلاق، في مليون موضوع للمزاح، كأنه يعرف المنطقة الحساسة عندها يحب أن يستفزها، أمنها أنا لا أتخلى عنك مدى الحياة، دعها تشعر أنها هي أحد أركان البيت، هي شريكة حياة، لا تطلق المرأة إلا للريبة أستاذ علاء بسبب كالخيانة الزوجية أما للأسباب تافهة هذه أم أولادك، هذه هدية الله لك، هذه قدرك عند الله وأنا أقول كلمة بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، لذلك قال تعالى:

(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية: 269)

الأستاذ علاء:

سيدي الآن هنالك وسائل إعلام منتشرة تمطرنا بها الفضائيات من خلال السواتل التي تدخل كل بيت، وهذه الفضائيات في كم كبير منها ليس منضبطاً بفكر ولا قيمة ولا بأخلاق وتأتي إلى بيوتاتنا ماذا عن دور وسائل الإعلام السلبية التي تمطرنا بها السواتل ؟

وسائل الإعلام تطرح أحياناً قيماً لا ترضي الله عز وجل:

الدكتور راتب:

أنا أنقل كلمة قالها أحد كبار النقاد في الأدب العربي قال: يحق للأديب (طبعاً العمل التمثيلي عمل فني والقصة فن والمسرحية فن والمقالة فن) قال: يحق للأديب أن يصور الرذيلة (مسموح له، جزء من مهمته)، لكن على نحو نشمئز منها، نحتقرها، أما إذا صورها على نحو نعجب بها .

أحياناً أسرة متفلتة فيها كل المعاصي والآثام، بيت فخم جداً، امرأة جميلة جداً، متبذلة جداً مع أصدقاء زوجها، ما في عندها شيء محرم، همها أناقتها، همها زينتها، همها متعتها، همها أن تفتخر بزوجها، هكذا رأت بالأفلام، هي عندها زوج مستقيم منضبط له مبدأ، عندها خمسة أولاد، طبعاً الإنسانة حينما تتخلى عن أهدافها النبيلة في الحياة قد تكون متعة رخيصة للآخرين، حينما نتابع هذه الأفلام الهابطة التي تزين الانحراف والرذيلة والتفلت ما الذي يحصل ؟ هذا يعد المثل الأعلى، أي إنسانة توازن نفسها مع إنسانة بيت فخم أربعمئة متر مثلاً، صالونات، غرف جلوس، وفي خادمين أو ثلاثة، وحدائق، هي عندها بيت خمسة وخمسين متر، كرهت زوجها، كرهت دخله، كرهت أولادها، فأحياناً المسلسلات لها آثار سلبية كبيرة جداً تعطي صورة كاذبة غير صحيحة، كل منا سافر إلى بلاد الغرب، الحياة بسيطة جداً، بيوت عادية جداً، فأحياناً هذه الأعمال الفنية تسبب، وهناك شيء أخطر الشيء الآخر أنها تطرح قيماً لا ترضي الله عز وجل، تطرح قيماً أقسم لي رجل أنه تابع مسلسلاً قال ثلاث عشرة خيانة زوجية في المسلسل الواحد، ماذا تفعل مع المشاهدات والمشاهدين ؟ مشكلة كبيرة في قيم هي هويتنا، هي سبب تقدمنا، أنت حينما تحطم هذه القيم في مسلسل، أنت حينما تزدري هذه القيم، أنت حينما تصور من يحمل

هذه القيم إنسان محدود، غبي، غير متألق، أنت حينما تطرح من يحمل هذه القيم بهذا الشكل تكون أعلنت حرباً على القيم التي نؤمن بها جميعاً، مشكلة كبيرة.

الأستاذ علاء:

سيدي مسألة المخدرات، إذا تناول الإعلام مسألة المخدرات، يجب أن يتناوله بالزاوية السلبية لا أن يظهر هذه المسألة كيف ينتشي.

ينبغي على كل كاتب أن يصور الرذيلة كمرض اجتماعي نشمئز منه:

الدكتور راتب:

إذا صورت الرذيلة على نحو نعجب بها، ونقدر أصحابها، ونطرب لها، صدق ولا أبالغ تتمة النص، فإن مجتمعاً بأكمله يمكن أن ينهار من خلال هذا الفن.

الأستاذ علاء:

سيدي من خلال القص القرآني الرفيع عندما أتى على حديث الأقوام الذين فسقوا وانحرفوا أتى إلى فعلهم بعبارات معينة ثم بين النتيجة.

الدكتور راتب:

ينبغي أن أصور الرذيلة كمرض اجتماعي، أنا أديب، كاتب مسرحي، كاتب سيناريو، على نحو نحتقرها، ونشمئز منها، ولا نلتفت إليها، يكون عالج الموضوع معالجة حقيقة، لو أنت صورت إنساناً سارقاً كيف يعيش ؟ نوع سيارته، ما الذي فعلت مع المشاهدين ؟ رأيت السرقة طريقاً إلى المجد، هذه مشكلة كبيرة جداً، يجب أن تريني إنساناً مستقيماً متألقاً.

الأستاذ علاء:

هذه المحطات لها أخطارها وهي وجدت للتأثير على الثقافة والهوية.

ما يأتينا من الفضائيات أخطر من الغزو الثقافي:

الدكتور راتب:

والله أكاد أقول أستاذ علاء هذا الذي يأتينا من الفضائيات، من فضائيات ليست منضبطة إطلاقاً والله أخطر من الغزو الثقافي بالضبط، الأمة بقيمها، بمبادئها، الأمة تتماسك بهدف نبيل تسعى إليه كيف تبني الأمة ذاتها ؟ من خلال منظومة قيم، فإذا حطمتها قيمة قيمة، هناك فضائيات تطرح الدجل والشعوذة والسحر هذه خطيرة جداً، الطروحات كلها غير علمية.

الأستاذ علاء:

ليس للدين علاقة فيها تطرحها والاتصالات تأتي من كل حدب وصوب وهي كلها ابتزاز.

الدكتور راتب:

لذلك قلت مرة على المنبر خذوا دينكم عن الأرضيات ولا تأخذوها عن الفضائيات.

الأستاذ علاء:

الحمد لله أكرمنا بفضائية سورية لها هدفها وتوجهها.

الدكتور راتب:

كنت في ألمانيا قبل أيام أثر هذه الندوة رائع جداً في الجاليات السورية في جميع أنحاء ألمانيا.

الأستاذ علاء:

سيدي أنا الآن سوف أتجرأ وأدخل إلى موضوع هام، كثير من الذين يشتغلون في الدعوة أو من السادة العلماء يتجنبون أو يتجافون أو يرمزون له، لكن في الحقيقة هو شيء أودعه فينا وهو واقع، أحد الزوجين أو كلا الزوجين يجهل جهلاً تاماً الثقافة الجنسية الشرعية، هل الجهل بالثقافة الجنسية الشرعية المنضبطة هي من القضايا التي تفرق بين الزوجين.

الجهل بالثقافة الجنسية الشرعية المنضبطة من القضايا التي تفرق بين الزوجين:

الدكتور راتب:

الأساسية، نعم، ذلك أن الله عز وجل أودع في الإنسان حاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجوده، وأودع فيه حاجة أخرى حاجة إلى الجنس حفاظاً على النوع، وهو حاجة أساسية متغلغلة في أعماق الإنسان، وحاجة أساسية متغلغلة في أعماق المرأة والرجل، الحديث عنها أو عدم الحديث لا يلغيها، هي موجودة وصارخة، الدليل:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا))

[الترمذي عَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ]

يا ترى إلا تفعلوا ألغيت هذه العلاقة بين الذكر والأنثى ؟ لا تلغى، تأخذ طريقاً منحرفاً، تأخذ طريقاً شاذاً، تأخذ طريقاً سفاحاً لا نكاحاً:

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ)

هذا دافع متغلغل بأعماق الإنسان، فالإنسان حينما يكون أنانياً في علاقته الجنسية مع زوجته، وينصرف عنها قبل أن تقضي حاجتها كما وجه النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الدين الإسلامي منهج تفصيلي يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، فإذا انصرف عنها قبل أن تقضي حاجتها حرمها حقها الطبيعي، وإذا لم تلبِ حاجته وهو بحاجة إليها حرمته حقه الطبيعي، كم من بيت ينهار لأن الزوجة لا تلبي حاجة زوجها الجنسية، وكم من بيت ينهار لأنه لا يلبي حاجة زوجته الجنسية.

أكبر أسباب نجاح الزواج العلاقة الجنسية المتوازنة الطبيعية:

لو إنسان قرأ الشرع التفصيلي لرأى فيه ما يغنيه، لو اشترى أي كتاب منضبط في العلاقة الجنسية لقرأ فيه توجيهات رائعة جداً، الله عز وجل في القرآن الكريم قال:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ (223))

(سورة البقرة)

أنا أقول في جنس البهائم وفي جنس الإنسان، جنس البهائم من دون مقدمات.

الأستاذ علاء:

خبط لزق.

الدكتور راتب:

جنس الإنسان مع مقدمات:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ (223))

(سورة البقرة)

وأنا قرأت كثيراً في كتب علم النفس أن أحد أكبر أسباب نجاح الزواج العلاقة الجنسية المتوازنة الطبيعية، التي تحقق هدف كل واحد من الطرفين، هذا شيء لابد من ذكره والنبي ذكره، النبي صلى الله عليه وسلم ما أخفى.

الأستاذ علاء:

في كتب الفقه، هذا موجود ؟

الدكتور راتب:

أبداً، تفاصيل.

الأستاذ علاء:

قضية المداعبة.

النبي صلى الله عليه وسلم زوجاً ناجحاً جداً علمنا النجاح حتى بالعلاقة الجنسية:

الدكتور راتب:

أبداً بالقرآن:

(وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ (223))

(سورة البقرة)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم زوجاً ناجحاً جداً، وعلمنا النجاح حتى بالعلاقة الجنسية، ومنهجنا كما قلت قبل قليل يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية.

الأستاذ علاء:

قالوا كيف نرسل رسولاً ؟ الرسول بين الرجل والمرأة قال قدم لها بالقبل.

الدكتور راتب:

هذا كله مطلوب أي كتيب صغير بالمكتبات ممتلئة به عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، كتاب منضبط طبعاً، سيجد فيه كل التوجيهات التي ينبغي أن تكون بين الزوجين.

الأستاذ علاء:

هذه قضية أساسية.

الدكتور راتب:

أحد أكبر أسباب الشقاق الزوجي إخفاق العلاقة الجنسية، من كليهما، أو من أحدهما، أو عدم اهتمام الطرف الأول بالطرف الآخر، زوجاً كان أو زوجة.

الأستاذ علاء:

تتزين له.

عدم اهتمام الطرف الأول بالطرف الآخر يعد عدواناً بحقهما:

الدكتور راتب:

والله تتزين له بأبهى منظر ولا ينظر إليها، أو بأمس الحاجة إليها تغيب عن البيت، تنشغل بأولادها قصداً، طبعاً هذا التصرف أنا أعده عدواني على الزوج، والزوج حينما يهمل زوجته عدوان على الزوجة، وهذه ناحية خطيرة جداً أنا أشكرك على أنك جرؤت وتكلمت بها.

الأستاذ علاء:

والتي تأتي إلى زوجها ورائحة الطبخ المفترض هذا إنسان.

الدكتور راتب:

والله حينما تستطيع الزوجة أن تلبي حاجة زوجها ليس الحاجة الجنسية فقط حاجة زوجها إلى أن تكون أنيقة (الروحية) متزينة، أن تكون أنيقة، أن تلبس ثياباً عصرية يراها بالطريق، والله هي في أعلى عبادة، الصحابية كانت قبل أن تصلي قيام الليل تقول له ألك بي حاجة ؟ تستأذنه، لأنها حينما تعبد ربها وتهمل حاجة زوجها إنها تعتدي عليه فحتى يقبلها الله في الصلاة يتجلى على قلبها تسأله قبل أن تصلي الليل ألك حاجة بي ؟ هكذا الصحابيات

((دَخَلَتْ عَلَيَّ خُوَيْلَةُ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةُ، وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، قَالَتْ: فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَذَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فَقَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَذَّ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ ! قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَةٌ لَا زَوْجَ لَهَا، يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا، وَأَضَاعَتْهَا، قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةً عَنْ سُنَّتِي ؟ قَالَ: فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ، قَالَ: فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

((وجاءت في اليوم التالي عطرة نضرة، فسألتها السيدة عائشة، ما الذي حصل ؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس))

[الطبراني عن أبي موسى الأشعري]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (88-95) : الأسلوب التربوي الفعال في تربية الأولاد أن تكون قدوة لهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-11-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتذكير:

تحدثنا في حلقات ماضية عن أسباب الشقاق الزوجي، وكيف نحافظ على الأسرة هذه اللبنة الأساس وهذا المدماك المكين في جدار المجتمع من خلال هذه المداميك وتكرارها يتشكل المجتمع، إذاً الأسرة مجتمع صغير واللبنة الأولى، وإن صلحت الأسرة صلح المجتمع وإن تماسكت تماسك المجتمع.
الآن سيدي من أهم وظائف الأسرة أن تنجب أولاداً صالحين فاعلين يستبقوا الخيرات، الأسرة كما مرّ معنا في حلقات ماضية الأب الأم، الأم قد تكون ناجحة في العمل، قد تكون ناجحة في مجالات معينة، و الأب كذلك، لكن قد يكون في موطن آخر وهو الأهم في تربية أبنائه، والسهر على تقويمهم، وعلى أن يكونوا بناة حقيقيين لمجتمعهم، قد يفشلوا في هذه المهمة، وكثير هي الصور التي تمر أمامنا تترى تتعسر فيها الأسر في إنتاج أولاد صالحين، سيدي هل يُقبل أن يكون الأب ناجحاً في عمله، ناجحاً في المجتمع، وأن يفشل في تربية أولاده ؟

النجاح لا يمكن أن يسمى نجاحاً إذا كان جزئياً:

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصاد الوعد الأمين.
أستاذ علاء جزاك الله خيراً على هذا الموضوع، من الثابت أن النجاح لا يمكن أن يسمى نجاحاً أصلاً إذا كان جزئياً، لأن هناك أركان أربعة في حياة الإنسان، علاقته مع ربه، معرفة، انضباطاً، تقرباً، إحساناً لخلقه، سيدنا عيسى بالقرآن الكريم ورد على لسانه:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ (31))

(سورة مريم)

حركة نحو الله عز وجل، تعبداً ومحبة وإقبالاً وانضباطاً وتفانياً وإخلاصاً وتوكلاً وحركة نحو الخلق إحساناً، وكأن هاتين الكلمتين لخصتا الدين كله معرفة بالحق وإحسان إلى الخلق، فأول محطة كبيرة جداً في حياة الإنسان أن يعرف ربه، فإن عرفه عرف كل شيء وإن سلمت عبادته سلم كل شيء، لذلك هذه المحطة الأولى، لكن هو إنسان يعيش في بيت له زوجة شريكة حياته، له أولاد جزء منه، قدره شاء أم أبى، زوجته وأولاده المحطة الثانية، المحطة الثالثة عمله، مكان رزقه، كسب رزقه، تأكيد شخصيته، تفوقه في الحياة، المحطة الرابعة صحته، النقطة الدقيقة جداً أن أي خلل في أحد هذه المحطات الأربع ينسحب على المحطات الثلاث ولو أنه من الممكن أن يكون خللاً في إحداها دون أن يؤثر على البقية أقول هناك نجاح جزئي، لو أن بالإمكان أن خلل في علاقة الإنسان مع ربه، أو خلل في علاقته مع أهله وأولاده، أو خلل في علاقته مع عمله أو مع صحته، إن كان الخلل في إحدى هذه المحطات لا ينسحب على المحطات الأخرى أقول يمكن أن نسمي النجاح جزئياً إذا كان النجاح جزئياً يمكن أن نسميه نجاحاً، ولكن اعتقادي الجازم مع التجارب والتأكيدات العلمية أن أي خلل في أحد هذه المحطات سينسحب على المحطات الأربع.

من ساءت علاقته مع ربه ساءت علاقته مع كل الناس من حوله:

إن ساءت علاقة الإنسان بربه لن يكون أخلاقياً في بيته، لن يكون مربياً يبحث عن لذته، ردود فعله قاسية جداً، يهمل أولاده، لا يقيم لزوجته مكانة إطلاقاً، لو أهمل علاقته مع ربه لن يتقن عمله، لن يخلص في عمله، ما الدافع إذا أخلص العمل، لابد من دافع.

الأستاذ علاء:

هل المحركات مادية أم هي محركات معنوية ؟

الدكتور راتب:

أخلاقية، لو أن علاقته مع ربه ساءت لماذا ينضبط في طعامه وشرابه وبعض ما أباح الله له من شهوات ؟ لا ينضبط بها يتفلت، لو أن العلاقة مع الله اختلت لاختلت علاقته مع زوجته وأولاده وبيته وعمله وصحته، لو أن علاقته مع صحته اختلت، صحته وعاء حياته، وعاء عمله، لا يقوى على العبادات، لا يقوى على العمل الصالح مثلاً لا يقوى على أداء واجباته، لو أنه في بيته بأعلى درجة وفي عمله مهمل فسمع كلمات قاسية من مديره أزعجته لأشهر عديدة، هذا الذي وصلت إليه من خلال تجربة

طويلة أن المحطات الأربع يجب أن تكون كاملة حتى نسمي هذا الإنسان ناجحاً في حياته، النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الناحية:

((خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

أخلاق الإنسان الحقيقة لا تعرف إلا في بيته:

الإنسان خارج بيته يمكن يعتني بثيابه من أجل انتزاع إعجاب الآخرين، من أجل تحقيق نجاح في عمله، من أجل تحقيق نجاح اجتماعي، أما في بيته ما في رقابة عليه فأخلاقيته الحقيقية في بيته هذا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم:

((خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً،

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ابن عساكر عن علي بسند فيه مقال كبير]

فأنا حتى أسمي فلان ناجح في حياته لا بد من أن أؤكد أن النجاح يجب أن يكون شمولياً، يسافر ليكسب مالاً غاب عن أهله سنة من دون تربية لأولاده، في الطرقات مع رفاق السوء، زوجته متفلتة مع الجيران والأحاديث الفارغة، رجع وجد بيته مهدماً، معه أموال طائلة ما قيمة هذا المال على بيت مهدم؟ لذلك قضية النجاح يجب أن يكون شمولياً.

الأستاذ علاء:

سيدي الآن تتطرق إلى مسألة أود أن أقف عندها الخيرية يجب أن تكون في الأساس كما تفضلت إلى الطوق الأقرب فإن كان خيراً لأهله فهو خيراً لمجتمعه، أما إن لم يكن كذلك فالخيرية لمجتمعه هي خيرية زائفة ووهمية.

من لم يكن فيه خير لمن أنجبه لن يكون فيه خير لأحد:

الدكتور راتب:

أنا أبني على هذه الملاحظة الطيبة والعميقة أنك لا تشارك عاقاً لوالديه، إن لم يكن فيه خير لمن أنجبه لن يكون فيه خير لأحد.

الأستاذ علاء:

حتى لا نزوجه، نسأل كيف علاقته بأمه وأبيه ؟

الدكتور راتب:

نحن بفضل الله ثقافة المسلمين الاجتماعية بعلاقتهم مع أمهاتهم وآبائهم عالية جداً، مرة سافر إنسان إلى بلد غربي رأى شخصاً يقف على نهر السين ساهم قال ما الذي تتمناه ؟ قال أن أقتل أبي، قال لما ؟ قال أحب فتاة فأخذها مني.

نحن يبيع بيته في الشام يسكن خارج دمشق حتى يزوج أولاده، الأب عندنا سعادته الكبرى أن يهيئ لأولاده مستقبلاً، عندنا علاقات أسرية عالية جداً.

الموقف العلمي للإنسان أن يذكر الإيجابيات و السلبيات حتى يكون موضوعياً:

أنا أتألم تألماً بالغاً مما يسمى الآن بجلد الذات، أحياناً بكل مجلس نذم أنفسنا، نحن عندنا حضارة، عندنا مبادئ، عندنا قيم، عندنا تماسك أسري، عندنا حب، عندنا رحمة بقلوبنا، فإذا إنسان شاهد تقصيراً في بلاده عن بعض البلاد المتطورة جداً لا ينسى النواحي الإيجابية، الموضوعية إن ذهبت إلى الغرب اذكر محاسنهم ومساوئهم حتى تكون موضوعياً، اذكر تبادل الزوجات، الإباحية، الشذوذ، اذكر كل هذا وإن جلست في بلدك اذكر النقائص والإيجابيات، هذا هو الموقف العلمي.

الأستاذ علاء:

سيدي أثناء دراستي في ألمانيا أول ما يستقبلوا الإنسان في المؤسسة التي جاءت منها المنحة، الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون كانت المحاضرة الأولى لأحد الأساتذة الكبار بروفيسور فقال: سوف

تشاهدون قضايا تثيركم نحن سبقنا الغير فيها لكن هنالك إلى جوانبها قضايا لا تسر، كما يوجد النور في أي مكان بجواره يوجد الظل، وهذه قضية هامة جداً أن يصف الإنسان إن كان موضوعياً الجهتين، يتوازن، كما تفضلت المبادئ والخلق والتماسك الاجتماعي الموجود لدينا ليس موجوداً لدى الغير، قد نكون مقصرين في جوانب علينا أن نتداركها.

الدكتور راتب:

أنا الذي أؤكد عليه أننا حضاريون بقيمنا والغربيون متطورون جداً لكنهم بعلاقتهم مع الشعوب الأخرى ليسوا حضاريين، فنحن حضاريون لكننا لسنا متطورين كما ينبغي، أما الطرف الآخر متطور تطوراً مذهلاً لكن في العلاقات العامة متوحش.

الأستاذ علاء:

سيدي هل بالاقتداء أو بالضرورة أو بالحتمية أو بالمقتضى شقاء الأولاد هو شقاء للآباء والأمهات ؟

شقاء الأولاد شقاء حكمي لآبائهم:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء جزاك الله خيراً مرة ثانية، في آية كريمة دقيقة جداً قال تعالى:

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117))

(سورة طه)

الآية جاءت بالفعل (تشقى) بالضمير المفرد، أما بحسب السياق اللغوي: ولا يخرجنكما من الجنة فتشقيا، استنبط علماء البلاغة أن هذا إيجاز بليغ لأن شقاء الرجل شقاء حكمي لزوجته، أنا أبني على هذه الملاحظة هذه القاعدة، شقاء الأولاد شقاء حكمي لآبائهم، كنت مرة في أمريكا لإلقاء محاضرة قلت لو بلغت أعلى منصباً في العالم ككلينتون (وقتها كان كلينتون)، وثروة كثروة أوناسيس، وعلماً كعلم أينشتاين، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس.

أنا حينما أرى أباً ناجحاً في حياته، أولاده متفلتون، يأتون بعد الساعة الثانية ليلاً لا يجرؤ أن يسألهم أين كنتم ؟ أنا أرى أن هذا الأب أشقى الناس قاطبة، ما لم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس هذا المعنى القرآن الكريم أشار إليه بدعاء:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ (74))

(سورة الفرقان)

من كان له ابن صالح هذا الابن أفضل من أموال الدنيا كلها:

والله أستاذ علاء السعادة التي يمتلئ بها قلب الأب حينما يرى ابنه صالحاً أقسم بالله تزيد عن الوصف، بالمقاييس المادية لو معه مليار دولار إن كان ابنه صالحاً والله هذا أغلى من الثروة، الناس الآن في أول حياتهم يهملون أولادهم، يكتشفون بعد حين أنهم خسروهم.

زارنا عالم متخصص بصناعة القيادة قال إن لم ترعَ ابنك من السنة الأولى وحتى السابعة بعد هذا التاريخ قد لا تجدي التربية، كيف الأولى ؟ يعني أطعمت الصغير عمره ثلاثة أشهر، بالشهر الثالث أطعمته وسقيته ونظفته وبكي فحملته، لما حملته عودته أن يتخذ البكاء وسيلة لإزعاجك، ينبغي ألا تحمله، فأنت حينما تهتم بابنك من السنة الأولى وحتى السابعة تغرس فيه المبادئ، الصدق، الأمانة، الاعتدال في الطعام والشراب مثلاً، الاعتناء بالأسنان، الاعتناء بالنظافة، ترتيب الثياب، تجد هذه العادات بقيت معه حتى الموت، وترى أكثر البيوت لا يوجد نظام في البيت و لا يوجد ترتيب للأغراض، الغرفة كلها فوضى، بالطعام لا يوجد نظام، بالشرب لا يوجد نظام، بالعلاقات لا يوجد نظام، هذه الأمراض الطفيفة بالبداية تتفاقم، يصبح البيت قطعة من الجحيم.

فلذلك أنا أظن أن الأب يظن أنه لما تزوج دخل في عالم آخر فيه متعة، دخل في عالم آخر فيه مسؤولية، دخل بأعلى درجة يحاسب عليها عند الله، ورد في بعض الآثار:

لذلك البنت يوم القيامة تقف أمام رب العزة، تقول: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، هو الذي سبب فسادي.

الابن قدر ومهما أهملته يبقى ابنك وتبقى آلامه آلامك وانحرافه يضنيك:

أنا أقول الذي عنده أولاد بحاجة ماسة إلى العناية بهم أولاً بإيمانهم، بأخلاقهم، بصحتهم، بتحصيلهم، بعلاقاتهم الاجتماعية، أما الأب الذي يرى بيته منضبطاً، صدق أستاذ علاء لو كان الدخل محدوداً جداً، والأكل خشن جداً، والبيت صغير جداً، وبحيّ متواضع جداً، وبمساحة قليلة جداً أسعد الناس هذه حقيقة، وفي بيوت قصور قطعة من الجحيم:

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ)

(سورة العنكبوت الآية: 41)

خيط العنكبوت، ثبت أنه أمتن من الفولاذ بخمسة أضعاف، الوهن ليس في الخيط في البيت لأن الأنثى تأكل زوجها وتأكل أولادها وهن اجتماعي، بيت فوضوي، بيت فيه شقاق، بيت فيه تمحور، بيت فيه قسم مع الأب وقسم مع الأم، لا في انضباط لا باللقاء و لا بغيره، أنا أنصح الإنسان أن يجلس مع أولاده كل يوم جلسة ولو على وجبة طعام واحدة الحد الأدنى، كما تفضلت شقاء الأولاد شقاء حكمي لآبائهم، يمكن أن تكون بديهية، يمكن أن تكون مسلماً بها، والله ألتقي بآباء في أعلى درجات النجاح إن سألتهم عن ابنهم تقطع قلبه ألماً، ابنه منحرف، هذا الشيء واقع، أحياناً في قضية صارخة، مُسلّمة لا تحتاج إلى برهان، العلاقة بين الأب والأم علاقة مصيرية، مرة شخص قال لي: إنني أنا مختلف مع والدتي من باب المداعبة قلت له طلقها، قال ماذا أطلقها ؟ قلت له والدتك قدرك، أنا أقول الابن قدر ومهما أهملته يبقى ابنك وتبقى آلامه آلامك وانحرافه يضنيك.

الأستاذ علاء:

ولا يتمنى الأب لأحد في الدنيا أن يكون أفضل منه إلا الابن، ما عدا ذلك لا يتمنى.

محبة الأب لابنه محبة الله له ولولا هذه المحبة ما ربى أب ابنه:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء بارك الله، هذه النقطة واضحة عندي جداً، كيف يعرفنا الله بذاته العلية، الله عز وجل لا تدركه الأبصار، كيف يعرفنا بذاته ؟ جعل نظام الأبوة مثل بسيط لعلاقة الله عز وجل بعباده، الأب قد يكون صحته طيبة، ووضعه المادي جيد، ليس بحاجة لأولاده، لا إلى مساعدتهم المادية، ولا المعنوية، ولا الاجتماعية، لكن حينما يرى ابنه متفوقاً وصالحاً ومستقيماً لو شققت على صدره لوجدته أسعد الناس، علاقة أخلاقية بلا نفع إطلاقاً، لذلك قال تعالى:

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3))

(سورة البلد)

الله عز وجل أعطانا نموذجاً عن علاقته بعباده بعلاقة الأب بأولاده، من آيات الله الدالة عليه، مرة سيدنا موسى (رمزية) رأى أماً على التنور تقبل ابنها وتضمه وتشمه بين كل رغيفين، قال يا رب ما هذه الرحمة ؟ قال يا موسى هذه رحمتي أودعتها في قلب الأم وسأنزعها، قصة رمزية فلما نزعها وبكى ألقته في التنور.

فهذا الترابط بين الأب وأولاده وبين الأم وأولادها هذه رحمة الله، هذه محبة الله، بعضهم فسر قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي (39))

(سورة طه)

محبة الأب لابنه محبة الله له ولولا هذه المحبة ما ربى أب ابنه، والآن والعياذ بالله الدول المتفلتة جداً تربي كلاباً.

الأستاذ علاء:

تستبدل الابن بأن تقتني كلباً، سيدي الكريم الآن يستمر وجود الإنسان بالمنصب، بالمال، بالمركز، بماذا يستمر وجود الإنسان ؟

استمرار وجود الإنسان بتربية ابنه تربية صالحة:

الدكتور راتب:

كله زائل، بابنه، والله مرة توفي عالم جليل في دمشق كان خطيباً في الجامع الأموي، اليوم الثالث أقيم له عزاء في الجامع الأموي، وقف ابنه خطيباً والله بكيت، إذاً ما مات الأب، مادام ترك ابناً صالحاً عالماً يتقن الدعوة إلى الله إذاً الأب ما مات، وأنا أتمنى أن يكون كل ابن استمراراً لأبيه، لأن الإنسان في أعماق أعماقه قد جُبل على حبّ وجوده وعلى حبّ سلامة وجوده وعلى حبّ كمال وجوده وعلى حبّ استمرار وجوده، سلامة وجوده بطاعة الله، وكمال وجوده بالبذل والتضحية في سبيل الله يرقى، والعمل الصالح يرفعه، واستمرار وجوده بتربية أولاده، وأنا أقول بطولة الأب في الأولاد الذين أنجبهم هل كانوا مواطنين صالحين ؟ صادقين ؟ أمناء ؟ أعفة ؟ متفوقين في دراستهم ؟ يتقنون العلاقة مع الناس إتقاناً جيداً ؟ لذلك الإنسان لما يرى ابناً صالحاً، الله يرحم الأب دون أن يشعر.

الأستاذ علاء:

هذا الاستمرار كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

الدكتور راتب:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

((صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، مسجد، ميتم، مستشفى، مدرسة، عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، ترك مؤلفات وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

الأستاذ علاء:

هذا فيه استمرار ويتصل العمل ما بين الدارين من خلال هذا.

من ربى ابنه تربية صالحة كل أعمال ابنه و ذريته بصحيفته إلى يوم القيامة:

الدكتور راتب:

أستاذ علاء في بعض الآثار الدينية أن المتوفى إذا كان له أولاد صالحون تأتيه الخيرات بعد وفاته من أولاده، يدعو له، بصراحة كل أعمال الأولاد في صحيفة الآباء، الدليل:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (21))

(سورة الطور)

قال علماء التفسير: ألحقنا بهم أعمال ذريتهم، ممكن إنسان ينجب ولداً صالحاً وإلى يوم القيامة في ثلاثة ملايين من ذريته مثلاً ولأن الابن صالح اختار امرأة صالحة وربى أولاده وأنجب أولاداً صالحين، وهذه السلسلة ثلاثة ملايين إنسان صالحين كل أعمالهم في صحيفة هذا الأب الذي ربى ابنه الأول، هكذا نظام العطاء الإلهي:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (21))

(سورة الطور)

الأستاذ علاء:

سيدي هل نستطيع بعجالة أن نلخص تلك اللوحة التي تتعلق بتربية الأبناء ولها شرائح ومراتب ويجب أن تكون متكاملة غير منقوصة.

على كل أب أن يوجه ابنه:

1 ـ توجيهاً إيمانياً:

الدكتور راتب:

لا بد من أن تعرف هذا الابن بربه لماذا خلقه ؟ ماذا ينبغي أن يفعل ؟ لماذا هناك أمر وهناك نهي ؟ هل أوامر الله تقييداً لحرية الإنسان أم ضماناً لسلامته ؟ الدولة حينما تضع تيار عالٍ ممنوع الاقتراب، هل تريد أن تحد من حركة المواطنين ؟ أن تزعجهم ؟ لا أبداً تريد أن تضمن سلامتهم، في اللحظة التي يفهم فيها الإنسان أوامر الله ضماناً لسلامته يكون فقيهاً، هذا الابن، الأب يجب أن يجلس معه جلسات طويلة، يا بني كسب المال المشروع مفخرة، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، الشعور بالحرمان لا أصل له في الدين، تصور إنسان تزوج امرأة صالحة وأنجب ذرية صالحة بيته قطعة من الجنة، وإنسان لبى هذه الشهوة بطريق غير مشروع فسقط من عين الله وعين الناس، ففي فرق كبير جداً فلذلك لا بد من تربية إيمانية، ما سر وجودك ؟ ما غاية وجودك ؟ ما تعريف الحلال والحرام ؟ العمل الصالح ؟ ما الخير ؟ ما الشر ؟ هذه مبادئ قد يرضعها مع حليب أمه، هذه لا تجوز لأن الله نهى عنها هذه تفعل هكذا، الكذب يفقدك مكانتك في المجتمع، عدم إتقان العمل ينفض الناس من حولك تخسر زبائنك، الأب عندما يوجه ابنه توجيه إيمانياً أولاً.

2 ـ توجيهاً أخلاقياً:

الآن توجيه أخلاقي الملمح الدقيق:

((إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ أبي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ]

الصدق، الأمانة:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قومًا أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ

مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أحمد عن أم سلمة]

الإسلام منهج أخلاقي لكن تربية إيمانية عقدية ثم تربية أخلاقية.

3 ـ توجيهاً نفسياً:

نريد تربية نفسية، الإنسان كيف يحاسب نفسه (النفس اللوامة) ؟ كيف لا يتكبر ؟ كيف لا يستعلي على الآخرين ؟ كيف لا يبني مجده على أنقاض الآخرين ؟ كيف يتواضع ؟ كيف يكون محسناً ؟ هذه كلها تربية نفسية.

4 ـ توجيهاً اجتماعياً:

الاجتماعية: كيف يعتذر ؟ كيف يتقن عمله ؟ عندنا تربية اجتماعية، كيف يتواصل مع الآخرين ؟ أنا فاجئني مرة أنه في طلب لوظيفة في هولندا يوجد بند عجيب نحن لا نعرفه ؛ أن يصلح للعمل ضمن فريق، في إنسان يتنافس لا يتعاون.

الأستاذ علاء:

كنا نود أن نستمر نسأل الله عز وجل أن يمكننا من أن نكمل هذه الأبحاث الرائعة والجميلة، والتي تفيدنا في حياتنا اليومية الاجتماعية والاقتصادية وفي علائقنا مع بعضنا.

الدكتور راتب:

لكن كلمة واحدة الأسلوب التربوي الفعال في تربية الأولاد أن تكون قدوة لهم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (89-95) : اليوم العالمي للإيدز 1 ـ فكرة عامة عن المرض وكيفية الابتعاد عنه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2007-12-03

بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة عن مرض الإيدز:

الأستاذ علاء:

سيدي يوم السبت الفائت المصادف للأول من الشهر الثاني عشر صادف اليوم العالمي لمكافحة مرض الإيدز، هذا اليوم اتخذ من قبل هيئة الأمم المتحدة، والمنظمات الأممية ليكون يوماً لمكافحة الإيدز وقفة مع الذات، الأول من الشهر الثاني عشر من كل عام، في هذا العام يا سيدي ينعقد تحت شعار أيها القياديون أوقفوا مرض الإيدز، وأوفوا بوعودكم، أو أوفوا بعهدكم.

أهذا المرض الذي دخل على الإنسانية، والذي داهمها في الليل، لم تكن البشرية تعرف عنه شيئاً، هنالك من قال: البدايات والأسباب، يرجع إلى الفساد الأخلاقي، هنالك من قال بأن هذا الفيروس تفلت من مختبرات كانت تصنع فيها مثل هذه الأشياء، في دول الاستكبار، وهناك من قال نظريات مختلفة، وهذه الإصابة ظهرت في كينيا في الثمانينات ويقال إنها انتقلت من قرد إلى إنسان.

لكن الآن نحن أمام جائحة، هذه الجائحة تقتل الملايين، وعدد المصابين بالنسبة لتقرير الأمم المتحدة هذا العام تجاوز الثلاثين مليوناً، في الثلاثين مليوناً حوالي 13 مليون امرأة، وكذلك أكثر من مليوني طفل، والمرأة تنقل إلى طلفها هذا المرض القاتل.

ماذا عن هذا المرض ؟ نأخذ فكرة عنه (إضاءة)، كيف لنا أن نبتعد عن هذا المرض، سيما أن إحصائيات الأمم المتحدة تقول في البلدان العربية والإسلامية النسبة تنخفض، نريد أن نعلل، والحمد لله وضعنا في سوريا من أقل النسب العالمية، ماذا عن هذا المرض سيدي ؟.

حقائق حول مرض الإيدز:

1 ـ أصل المرض من صنع الإنسان:

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء جزاك الله خيراً، أول حقيقة أن أصل المرض من صنع الإنسان لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين * وَإِذَا مَرِضْتُ)

(سورة الشعراء)

ألَمَ لم يقل

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين)

وإذا أمرضني فهو يشفين، جاء السياق عند كلمة

(مَرِضْتُ)

خلاف السياق العام، هذه إشارة قرآنية رائعة جداً إلا أن أصل المرض من خطأ الإنسان، أو من خطأ العصر، أو من صنع الإنسان، أو من تغيير خلق الله عز وجل، هذه الحقيقة الأولى.

2 ـ ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن تعليمات الله عز وجل:

الحقيقة الثانية: أنه ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة وفي القارات الخمس، إلا بسبب خروج عن تعليمات الصانع الذي الله جل جلاله، لأن هذا الكون له صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات دقيقة جداً.

فأي مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة، و في القارات الخمس بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، أنا أقول كلمة دقيقة: أكبر عدو لنا قد نتوهم الدول التي تعتدي على دول أخرى ؛ أكبر عدو لنا الجهل، بل إن أزمة أهل النار في النار هي أزمة جهل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

أستاذ علاء جزاك الله خيراً.

جهّز الله الإنسان بجهاز مناعة مؤلف من مجموعة من الفرق منها:

1 ـ فرقة الاستطلاع:

الله عز وجل قال:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

جهّز الله الإنسان بجهاز المناعة هذا الجهاز يعد جيشاً بكل هذه الكلمة من معنى الجيش مجموعة فرق، في هذا الجهاز الذي يرتكز على الكريات البيضاء، هذه الكريات بالملايين المملينة، بالميليمتر المكعب سبعون ألفاً، ترتفع النسب.

على كلٍ هذا الجهاز في فرقة أولى هي فرقة الاستطلاع، هذه الفرقة مهمتها معلوماتية إخبارية فقط، إذا دخل إلى الجسم جرثوم ما تتجه الكريات البيضاء التابعة، فرقة استطلاع (فرقة المعلوماتية أدق تعبير لها) في كل الجيوش، تتجه إلى الجرثوم وتأخذ شفرته الكيماوية، تأخذ الكود بالتعبير المعاصر، وتعود من حيث خرجت من دون أن تقاتله، تنطلق من هذا الكود، أو هذه الخارطة، أو هذا الترتيب الخاص الدقيق، تنطلق إلى مركز صنع السلاح المضاد لهذا الجرثوم، هذا المركز في العقد اللمفاوية.

إذاً نحن في هذا الجيش هناك فرقة الاستطلاع، فرقة الاستخبارات، فرقة أخذ المعلومات.

2 ـ فرقة تصنيع السلاح:

عندنا فرقة أخرى مهمتها تصنيع السلاح، في العقد اللمفاوية تتوضع الكريات البيضاء التي مهمتها المحدودة صنع مصل مضاد لهذا الجرثوم.

الأستاذ علاء:

هذه المراكز تتمتع بذاكرة مذهلة.

الدكتور راتب:

إن هذا المرض إذا دخل إلى الجسم، وصنعت له هذه المراكز مصلاً مضاداً وقضي عليه، يحفظ في ملف في ذاكرتها، فلو عاد الجرثوم بعد سبعين سنة الملف جاهز، والتصنيع جاهز، هذه هي المناعة، نحن نعطي أبناءنا لقاحات أنفلونزا مخففة، ما اللقاح ؟ عوامل مرض مخففة حتى نهيئ تصنيع سلاح مضاد لهذا الجرثوم، لولا ذاكرة هذا الجهاز العملاقة التي تمتد إلى عشرات وعشرات من السنين ما كان للتلقيح من معنىً إطلاقاً في حياتنا، التلقيح سببه أن جهاز المناعة المكتسب وبالذات فرقة صنع المصل المضاد تختزن ملف إلقاء المعلومات عن هذا الجرثوم.

حتى أن الجنين في بطن أمه الغشاء العاقل في المشيمة يأخذ عوامل مناعة الأم من دم الأم ويطرحها في دم الجنين، فالجنين محصن من الأمراض التي أصيب بها أمه وشفيت منها.

3 ـ فرقة المقاتلين

الآن الفرقة الثالثة، الجيش له فرق، الأولى استخباراتية، استطلاع معلومات الثانية تصنيع سلاح كمعامل الدفاع، الثالثة فرقة المقاتلين، فرقة من نوع آخر، هذه تتجه إلى العقد اللمفاوية وتأخذ المصل المضاد لهذا الجرثوم، وتتجه إلى الجرثوم وتقاتله، وتقضي عليه.

أحياناً نجد أن في حبة بيضاء في الجسم، هذه بقايا المعركة، فالفرقة الثالثة فرقة المقاتلين تأخذ هذا المصل المضاد وتتجه إلى الجرثوم، من أجل أن تقاتله، وفي الأعم الأغلب تنتصر عليه وتقتله.

4 ـ فرقة الخدمات

الآن يوجد عندنا فرقة رابعة، فرقة الخدمات، تأتي إلى أرض المعركة، وتنظفها من الجثث، وبقايا الدماء، والمخلفات، صار في أربع فرق.

5 ـ فرقة المغاوير:

أحد كبار العلماء اكتشف فرقة خامسة، لكن لها طبيعة أخرى، هذه الفرقة فرقة المغاوير، أي الكومندوس، هذه الفرقة لها خصائص متميزة، تستطيع أن تكتشف الخلية السرطانية المبكرة في الإنسان.

القامع الذي يقمع الخلايا السرطانية أكبر شيء يفكه:

1 ـ الشدة النفسية:

بالمناسبة الإنسان معه مليارات الخلايا السرطانية، لكنها غير مفعّلة، في قامع يقمعها، لكن الفرقة الرابعة فرقة المغاوير تستطيع أن تكتشف الخلية السرطانية في وقت مبكر وتلتهما، لكن ما الذي يقمع الخلايا السرطانية في الإنسان ؟ قامع، متى يفك القامع ؟ هنا أكبر شيء يفكه هي الشدة النفسية، الخوف، القلق، الحقد.

التوحيد علاج الشدة النفسية التي تصيب الإنسان:

لذلك الإيمان بالله الواحد الأحد الرحيم، العادل، الذي بيده كل شيء، الإيمان به صحة، صحة بالمعنى المادي.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الإنسان حينما يجعل همه كله عند الله ترتاح أعصابه.

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر

اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، الواحد إنسان رائع، إنسان متوازن، إنسان علاقته مع إله بيده كل شيء، وقدير على كل شيء، ورحيم، وعادل، ما في أجبن من علاقة مع جهة واضحة، قوة، غنى، عدل، رحمة، معك.

سيدنا يونس كان في أعماق البحر، في تغطية هنا.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء)

لذلك الذي يفك القامع الشدة النفسية، وعلاج الشدة النفسية التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

تصور إنساناً كل علاقاته مع جهة واحدة، مع مدير مؤسسة، أما لو في شركاء متشاكسون، وهذا أعطاه أمراً، وهذا أعطاه أمراً متناقضاً، وكل واحد يتوعد الآخر، هذه حياة لا تطاق.

2 ـ المشتقات البترولية:

فالموحد إنسان مرتاح نفسياً، الذي يفك القامع أيضاً المشتقات البترولية، يعني أي إنسان يعمل في السيارات، في البنزين، في المحروقات، إذا ما بالغ بتنظيف يديه إذا دخل إلى جوفه شيء من هذه المواد، هذه مواد مسرطنة.

3 ـ المواد البلاستيكية:

الشيء الثالث المواد البلاستيكية نحن عصرنا عصر بلاستيك، فحينما نستخدم البلاستيك مع المواد الحارة، أو المواد الحامضية، أو حينما نجرف شيئاً وشيئاً أساسه بلاستيكي، أحياناً لبن مصفى تشتريه بكيس نايلون، لو جرفناه بطرف السكين الحاد ربما اقتلع من الكيس بعضه، وعندئذٍ يمكن أن يكون هذا أحد أسباب السرطان.

4 ـ الإشعاع الذري و النووي:

ثم الإشعاع الذري والنووي، أيضاً هذا مما يفك القامع.

الإيدز هو تدمير العناصر الدفاعية في الإنسان:

إذاً مرض الإيدز أساسه القضاء على هذا المناعة التي كرم الله بها الإنسان، كيف يقضي عليه ؟ قال تدخل عناصر هذا المرض على شكل كريات بيضاء، أحياناً يدخل جيش بلباس الجيش المدافع فيظن أنه جيش صديق، إلى أن تمتد جذوره ويستفحل وضعه يعلن عن وجوده، ويبدأ بتدمير عناصر هذا الجيش الأساسي، الدفاعي. فالإيدز هو تدمير العناصر الدفاعية في الإنسان.

الأستاذ علاء:

بالمناسبة: جهاز المناعة المكتسب هو جهاز يتولى القضاء على الأمراض الجرثومية والسرطانية، لذلك معظم الذين يصابون بالإيدز يصابون بالسرطان، فالذي يتولى مكافحة مرض السرطان والأمراض الإنتانية والجرثومية هو جهاز المناعة، فإذا ضعف هذا الجهاز، فيروس الإيدز يدخل متسللاً، المشكلة الكبيرة جداً أننا لو بذلنا مليارات المليارات للبحث عن مصل مضاد لهذا الفيروس إذا

غيّر شكله ذهبت هذه الأموال الطائلة أدراج الريح، كأن الله أراده عقاباً، كأن الله كما تفضلت قبل قليل أراده عقاباً للإباحية، للتفلت.

منهج الله منهج علمي وموضوعي:

الدكتور راتب:

الحقيقة أن الإنسان حينما يكون وفق منهج الله يحقق سلامته، والإنسان مفطور على حبّ وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، سلامة وجوده في تطبيق تعليمات الصانع، فالذي يتفلت منها يدفع الثمن باهظاً.

هناك حقيقة دقيقة جداً: هي أن العلاقة بين المعصية وبين نتائجها علاقة علمية منهج الله عز وجل منهج موضوعي، لو طبقه إنسان ملحد يقطف ثماره في الدنيا، لو طبق هذا المنهج إنسان ينكر وجود الله، لقطف ثمار هذا المنهج في الدنيا، لذلك يوصف منهج الله بأنه منهج علمي وموضوعي بمعنى: أن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، ما معنى علاقة علمية ؟ يعني علاقة سبب بنتيجة.

مدفأة مشتعلة، والطفل الصغير اقترب منها ووضع يده عليها، احتراق يد الطفل نتيجة لمس يده لهذه المدفأة، هذه علاقة علمية.

أما لو أنه في البيت بابان، وأمر الأب أن يغلق باب، ويفتح باب، فجاء أحد أولاده وفتح الباب الممنوع، قد يضربه الأب، لكن ما في علاقة علمية بين هذا التأديب وبين هذه المخالفة، هو باب للخروج، لكن الأب وضع هذه العلاقة.

عظمة هذا الدين أن العلاقة بين المعصية ونتائجها و الطاعة و نتائجها علاقة علمية:

لذلك عندنا علاقات وضعية، وعندنا علاقات علمية، فالدين، عظمة هذا الدين أن العلاقة بين المعصية ونتائجها علاقة علمية، وأن العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، تماماً كإنسان وجد خط توتر عالي، وقد كتب قبله تيار توتر عالي ممنوع الاقتراب، هو أراد أن يقترب لكنه يخاف من الشرطي، فالتفت يمنة ويسرى، فإن لم يجد أحداً من الشرطة يقترب، لا، التيار يعاقبه، هنا الموضوع ما له علاقة بالشرطي إطلاقاً يعني الاقتراب من التيار يجعل الإنسان قطعة من الفحم، ضمن ثمانية أمتار. إذاً الإنسان يكون بحمق كبير إذا ظنّ أنه ما في علاقة علمية بين المعصية وبين نتائجها.

فهذه حقائق مهمة جداً، لذلك المؤمن معافى، كما تفضلت قبل قليل في البلاد الإسلامية نسب ضئيلة جداً لأنه في انضباط، في انضباط أسري، في الأعم الأغلب والحمد لله الأسر ما في خيانات عندهم، في استقامة، هذه الزوجة زوجة فلان، ما في تفلت فالتفلت يسبب هذا المرض.

الأستاذ علاء:

سيدي بفضل الله كما قدمنا في البداية أن في سوريا أخفض نسب في العالم للإصابة بهذا المرض، وآخر نسبة حتى الربع الأول من هذا العام بلغت 500 إصابة توفي منها قسم، وكل هذه الإصابات سببها كان الأم، نتيجة الزوج كان خارج البلاد، فجنح فأتى بالمرض، ثم أصاب الأم، والأم ممكن أن تنقل إلى الجنين.

موضوع نقل الدم موضوع خطير جداً علينا مراعاة كافة شروطه:

الدكتور راتب:

أنا قبل سنوات عديدة درجت أن أذكر للإخوة المصلين في كل خطبة قصة عن المصابين بهذا المرض، إحدى هذه القصص:

أن إنساناً ذهب إلى ألمانيا مع أمه، فاحتاجت إلى دم، وفي الليلة التي غاب فيها عن أمه وقع وزلت قدمه، فلما أعطاها من دمه أصيبت أمه بالإيدز، موضوع نقل الدم خطير جداً.

أنا أحب أن أنبه الأخوة المشاهدين طبيب الأسنان ينبغي أن يبالغ في تعقيم أدواته، الحلاق ينبغي أن يبالغ في تعقيم أدواته.

الأستاذ علاء:

سأقف عند هذه النقطة سيدي، الحقيقة من نعمة الله أن في بلدنا سوريا التدقيق في بنوك الدم تدقيق عالٍ جداً، كل الدم المقطوف إلى بنوك الصحة، من خلال وزارة الصحة أو وزارة الدفاع، والذي ينقل من بنوك الدم إلى المرضى المحتاجين في المشافي هي دماء نظيفة 100% عليها تدقيق ونظام تدقيق عال جداً، لكن إذا جاءت المشفى وأخذت من متبرع قطفت من متبرع منه مباشرة دون بنك الدم، وهذه

مخالفة للتعليمات، هذه إشكالية في هذا الموضوع، أما الدماء المقطوفة في بنوك الدم هي نظيفة بكل معنى الكلمة، وإذا ظهرت فيها إصابة تتلف مباشرة ويعرف المتبرع، هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية التي تفضلت بها سيدي: لدينا بعض المصالح، طبيب الأسنان والحلاق، في تعليمات، وهذه التعليمات يجب أن ننضبط بها، لكن نريد من الأخ المواطن عندما يذهب إلى الحلاق يرى الحلاق أمامه يبدل الشفرة، لا يتهاون، لا يستحي في هذه القضية.

لذلك هذه القضية مطلوبة، وهذه قضية شرعية ؟

المرض هو خطأ من الإنسان:

أعود إلى فلسفة المرض كما بدأت سيدي، إذاً المرض هو خطأ من الإنسان، أو العصر.

الدكتور راتب:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

أما

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين)

، ما قال والذي أمرضني، قال:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين)

الله عز وجل أودع بالإنسان الشهوات كي يرقى بها لا أن يتحرك حركة عشوائية:

يوجد نقطة ثانية أستاذ علاء دقيقة جداً حينما قال الله عز وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس)

(سورة الروم الآية: 41)

لأن هناك مخلوقاً هو الإنسان، أودع الله فيه الشهوات، ومنحه حرية الاختيار ، منحه إرادة، شهوات مع فقد إرادة تنضبط ؟ فقد إرادة من دون شهوات ما في مشكلة، ما دام في شهوات مودعة في الإنسان ليرقى إلى رب الأرض والسماوات، ما دام الله سبحانه وتعالى أودع بالإنسان الشهوات كي يرقى بها إلى الله، فلو تحرك بناء عليها حركة عشوائية ما لها علاقة بمنهج الله دفع ثمناً باهظاً.

لذلك الآية واضحة:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس)

الآن هذا المرض:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم الآية: 41)

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

فهذا الذي يعانيه الإنسان من أمراض وبيلة بسبب الإباحية والتفلت هذا بعض الذي عمل الناس بعض وليس كل، أما الكل الحساب الختامي يوم القيامة.

المرض جاء من سلوكيات منحرفة ومن مخالفة تعليمات الصانع :

النقطة التي ينبغي أن تكون واضحة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يعني بشكل عجيب أخبر نبيه عما سيكون، قال النبي الكريم في حديث صحيح:

((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها))

[أخرجه البزار عن عبد الله بن عمر]

في منظمات للشاذين الآن، منظمات في العالم، ولهم مرجعيات، ولهم هويات ولهم حقوق ولهم مطاليب.

((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم))

[أخرجه البزار عن عبد الله بن عمر]

حديث واضح صحيح، هو طويل هذه فقرة منه،

((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم))

وهذا إشارة من النبي الكريم، طبعاً هو لا يعلم الغيب، لكن الله يعلمه، هذا من إعلام الله له.

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

إذاً

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس)

، حتى هذا المرض الوبيل هو بعض الذي ترتب عليه النتائج.

من عبد الله انضبط بمنهجه و سعد في الدنيا و الآخرة:

شيء آخر: الإنسان إذا عبد الله انضبط بمنهجه، والانضباط بالمنهج هو السلامة أما إذا عبد إلهه جعل إلهه هواه، عندئذٍ يدفع الثمن باهظاً.

لذلك العقل كل العقل، والذكاء كل الذكاء، والنجاح كل النجاح، والفوز كل الفوز، أن تطبق منهج الله عز وجل.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب)

طاعة الله عز وجل تحصن الإنسان من هذه الأمراض الوبيلة:

الآية الأولى:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)

(سورة الفرقان)

يعني هو مخير، الآية الثانية:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

(سورة الجاثية الآية: 23)

قد يكون مثقفاً، إذاً الذي يحرك الإنسان ليس الحقائق أحياناً الشهوات، فقد تسيطر الشهوة على إنسان مثقف

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

، لذلك طاعة الله عز وجل هي التي تحصن الإنسان من هذه الأمراض الوبيلة.

لكن كتعليق لطيف: ليس في الإسلام حرمان، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، لأن الإنسان أراد بشكل أو بآخر أن يتزوج طريق آمن رائع.

الإيدز تردي وهاوية ولا علاج له إلا العفاف و الإحصان:

يوجد تعليق لطيف: كما أنه يكاد أن يكون من المستحيل أن يكتشف العالم مصلاً مضاداً لهذا المرض، الوقاية منه لا يوجد أسهل منها، الوقاية سهلة جداً، التحصين سهل جداً والعقاب صعب جداً.

الأستاذ علاء:

إذاً سيدي الكريم هذا المرض جاء من سلوكيات منحرفة، ومن مخالفة تعليمات الصانع لهذا الجسد، وهذه الروح.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

(سورة التين)

إذا انحرف

(رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

، والحقيقة الإيدز تردي وهاوية، وكما تفضلت إلى الآن لا مصل له، ولا علاج له، ويأتي ويدمر كل المناعة، ويكون الإحصان والعفاف هو السد المانع، هو المصل المانع الحقيقي الذي يحول بين المرض وبين الإنسان.

الدكتور راتب:

سافر إنسان إلى بلد أوربي، ما معه رادع من قيم أو مبادئ أو دين فزلت قدمه فالتي قضى معها وطره، خرجت من الغرفة باكراً، وكتبت بقلم الشفاه على مرآة الغرفة: مرحباً بك في نادي الإيدز. عندما اتخذ إلهه هواه، وانحرف عن منهج الله عز وجل، فكان العقاب شديد والنتيجة شديدة، والمشكلة بأنه لا يبقى هو المصاب فقط، كل من يتصل به من وسطه ومن محيطه، ينتقل إليه هذا المرض.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (90-95) : اليوم العالمي للإيدز - علاقة المعصية بالمرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

سيدي، بمناسبة اليوم العالمي لمكافحة مرض الإيدز، والذي صادف الأول من شهر الثاني عشر، وهو يوم يتكرر في كل عام في الأول من شهر كانون الأول، وانعقد هذا العام تحت شعار : أيها القياديون أوقفوا الإيدز، وأوفوا بوعودكم.

كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية الحديث عن هذا المرض كيف أتى، وماذا يفعل في الجسم، وقد أفضت لنا في إضاءة بينة عن عمل هذا الفيروس في تدمير جهاز المناعة المكتسب عند الإنسان، منهم يقول عنه الإيدز، ومن يقول عنه السيدا، بالفرنسية، لكن هو عوز، أو فقد المناعة المكتسب، وقد تبينا كيف ينتقل من خلال العلاقات الجانحة وغير الشرعية، ولاسيما الشاذة، وينتقل من خلال أيضاً من خلال نقل الدم في العالم.

قلنا بفضل الله : في سوريا نقل الدم من بنوك الدم هذا النقل آمن وسليم بكل معنى الكلمة، لأن الفحوصات التي تجري في بنوك الدم في سوريا تآزراً بين وزارة الصحة ووزارة الدفاع، والجهات المعنية، الدم الذي يؤخذ من بنك الدم إلى أي مستشفى هو دم نظيف من الإيدز بكل معنى الكلمة، ومن الأمراض الأخرى كالتهاب الوبائي الكبدي، أو العامل الأسترالي، وما إلى ذلك.

نحن لدينا طرائق للانتقال إلى العلاقات الشاذة، والانحراف، مخالفة أوامر الصانع لهذا الجسد، بالإضافة إلى تعاطي المخدرات، وانتقال المحاقن من متعاطٍ إلى متعاطٍ آخر، فإن كان أحدهم مصاباً تنتقل إلى غيره، وما إلى ذلك، بالإضافة إلى أن المخدرات أيضاً تنزل إمكانية المناعة والدفاع فتجعل من الجسد عرضة لأي هجوم.

سيدي الكريم، قلت لنا في الحلقة الماضية : في فلسفة المرض إنه خطأ من الإنسان، وشرحت لنا هذا الموضوع، وقلت لنا :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

(سورة الروم الآية : 41)

إذاً : كأن المرض نوعٌ من التنبيه والإشارة لبعض الذي عمله الإنسان، وتجاوز فيه، وعندما يأخذ إلهه هواه يترك التوجه إلى الله، فيجعل من هواه إلهاً له، فبالتالي يجنح، وتكون هذه العاقبة.

سيدي الكريم، الإنسان من خلال كل الحلقات بينت لنا بأنه محض مخيّر في الأشياء التي في وسعه، فيما كلف بها، وبالتالي نتيجة التخيير، وإقدامه على هذا الطريق كان هذا العقاب، وفي كثير من الأشياء طريقان لا ثالث لهما، إما أن يلتزم، وإما أن يجنح، كيف نقرأ هذا الموضوع ؟

الدكتور راتب :

الناس نموذجان لا ثالث لهما : مطيع لله وعاص :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء، بادئ ذي بدء، الله عز وجل يقول :

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

أي أن البشر على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم وطوائفهم، هم عند الله نموذجان، نموذج أيقن وصدق أنه مخلوق للآخرة، فاتقى أن يعصي الله، وانضبط بمنهج الله، وطبق تعليمات الصانع، فكافأه الله عز وجل بأنْ سلّمه، وأسعده في الدنيا والآخرة، والنموذج الآخر غفل عن الله، وكفر بالجنة والآخرة، وآمن بالدنيا، عندئذٍ استغنى عن طاعة الله، وتحرك وفق شهواته، فآذى عباد الله، فتوعده الله بجزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، الآية واضحة جداً :

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء :

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ)

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

واستغنى عن طاعة الله

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هذان النموذجان لا ثالث لهما، الدليل :

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

هما طريقان لا ثالث لهما : إما أن تخضع لمنهج الله، وإما أن تخضع للهوى، إما أن تقود نفسك أو يقودك الهوى، إما أن تميل إلى شهوة عابرة طارئة، وإما أن تميل إلى قيمة خالدة مسعدة.

وهذان الطريقان نجدهما في كل الفئات والأنماط، وفي كل الأطياف في المجتمع :

(مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

إنسان عرف الله، فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه فسلم، وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان غفل عن الله، وتفلت من مهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي، وهلك في الدنيا والآخرة، والأمر واضح جداً.

أستاذ علاء، هناك انعطافات تاريخية، ونحن في انعطاف تاريخي، مع أن حالات الوسط تتلاشى، واللون الرمادي يضعف كثيراً، ولا يبقى إلا الأسود والأبيض.

جيء برجل إلى سيدنا عمر ارتكب معصية تستوجب الحد، فقال : << أقيموا عليه الحد، قال له الرجل: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، فقال : أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال له : ويحك يا هذا، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.

هذا كلام دقيق جداً، أنا لا أصدق إنسانا يدجل، ويقول : الله كتب علي، هذا كلام مرفوض في أصل الدين، الإنسان مخيَّر، وحينما يختار الطريق السيئ يدفع ثمنه، وهذا الذي يدفع ثمنه أنا أرفض أن يقول: هذا ترتيب الله، لا، هذا جزاء المعصية، سمِّها باسمها الحقيقي، هذا الذي أصاب الإنسان المنحرف هو جزاء المعصية، جزاء هذا الانحراف، أما كلما نخطئ، ونرتكب معصية، ونبتعد عن منهج لله، ويأتي العقاب الرادع نقول : هذا قضاء وقدر، هذا عقاب، لا، بل هذا جزاء المعصية.

الأستاذ علاء :

كما تفضلت العلاقة العلمية السببية بين المعصية وبين نتيجتها.

الدكتور راتب :

مَن طبَّق منهج الله قطف ثماره :

قلت في لقاء سابق : إن الإسلام منهج الله موضوعي، بمعنى أن أيَّ إنسان لو طبقه قطف ثماره في الدنيا، فإذا طبقه الإنسان مؤمناً به أنه من عند الله، وابتغى بهذا التطبيق رضوان الله ربح الدنيا والآخرة معاً، وإذا طبقه مؤمناً بأنه منهج الله، وأنه يطبقه تقرباً إلى الله، ربح الدنيا، سلم بها وسعد، وربح الآخرة، أما إذا كان ذكياً فقط، وطبق هذا المنهج لأنه لمصلحته كسب الدنيا.

أحياناً تجد في العالم الغربي كلَّ إيجابياته إسلامية، لا لأنهم يعبدون الله عز وجل، لأنهم يعبدون الدولار من دون الله، يعبدون آلهة أرضية، لكن مصلحتهم في أن يكونوا صادقين، هذه أخلاق الأذكياء، هذه الأخلاق رائعة جداً، إنها تنفع في الدنيا فقط.

مرة سمعت عن أستاذ في جامعة في بلد غربي ينام باكراً، ولا يدخن، ولا يشرب الخمر، ولا يقترف إثماً، بدافع من ذكائه وجد أن الاستقامة مريحة له، تصنع له مكانة عالية، وعلاقات ناجحة، وأمنا داخليًّا، وراحة نفسية، لكن البطولة أن تنعم بالسلامة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، البطولة أن تكون أخلاقياً في هذا المنهج الذي تطبقه، والفرق بين الصورتين كبير، لذلك :

كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)

(سورة الإسراء)

دقق :

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا)

(سورة الإسراء)

(وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا)

عن أحد.

أنا أقول دائماً أستاذ علاء : إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان.

أتوجه إلى الإخوة المستمعين والمشاهدين، حينما ترسم لك هدفاً واضحاً، وتتخذ له وسيلة مشروعة فكأن الله عز وجل حينما جاء بك إلى الدنيا أعطاك هذه الميزة :

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا)

أي وما كان عطاء ربك ممنوعًا عن أيِّ إنسان.

والله هناك حديث في الجامع الصغير صدق أستاذ علاء تقرأه فيقشعر جلدك، حق المسلم على الله، الله عز وجل، الإله العظيم أنشأ للمسلم حقًّا عليه، حق المسلم على الله أن يعينه إذا طلب العفاف.
مرة سمعت عن شاب ذهب إلى أمريكا، يبدو أنه ملتزم التزاما شديدا، لكن ما احتمل هذا التفلت، أرسل لأبيه رسالة قال له : إما أن ترسل لي زوجة في أقرب وقت، وأنا أوكلك باختيارها، وإما أن أعود إلى بلدي، كبُر عليه أن يعصي الله، أو شعر أنه في خطر كبير ، ثم سمعت قصة بعد ذلك عن هذا الشاب أنه نجح زواجه نجاحاً مذهلاً، لأنه ابتغى بهذا الزواج رضوان الله، لم يخترها هو، اختارها له أبوه، ومع ذلك نجح الزواج نجاحاً مذهلاً، لأنه بني على طاعة الله.

ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم :

أنا أخاطب الشباب الآن : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بزوجةٍ طاهرة، عفيفة، وفية، محبة، كلها لك، بكل إمكانياتها، بكل محبتها، تنجب لك ولدا يملأ البيت فرحاً وسروراً، هذه الأسرة تتنامى.
أنا كلما أجلس مع إنسان في سن الخمسين يقول لي : أنا لي 13 حفيدا، أنا لي 25 حفيدا، والله شيء جميل، له أولاد تزوجوا، صار لهم أولاد، وزوجة ابن، و طفل يملأ البيت سعادة، هذا طريق الله عز وجل.
مرة حدثني أخ ببلد عربي طُرق بابه حين الفجر، فتح الباب فلم يجد أحدًا، وقعت عينه على الأرض فرأى محفظة، أمسكها، فإذا طفل وضع بها لتوه، لقيط، جاء من زنا، سبحان الله ! تأثرت لهذه القصة، قلت : إنسان يتزوج، وتحمل زوجته، ويفرح الأهل به، ويهيئون الوسائل، والألبسة، والأدوات، ثم تنجب، ويقام احتفال، وهدايا، وفرح، انظر إلى الطريق المشروع، وقد يكون العرس فيطلقون أبواق السيارات، ولا يخجلون، هذا منهج الله، أنا لا أقرّ هذا إقراراً، لكن هذا واقعٌ.
إن الإنسان الذي يمشي على منهج الله عز وجل لا ضير عليه، وأحب أن أؤكد هذه الفكرة : ليس في الإسلام حرمان، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.
النقطة الدقيقة أن أحد الشعراء وصف إنسانا مصاب بهذا المرض، فأنا أقدم له لو نظرت إلى شاب مصاب بهذا المرض الخطير مرض نقص المناعة لرأيته قد صار إلى :

فتاً هزيل الجسم منــجرد　　متلجلج الألفاظ مضطرب
متواصل الأنفاس مـطـرد　　عيناه عالقتان في نفـق
كسراج كوخ نصف متقـد　　تهتز أنمله فتحسبهـــا

ورق الخريف أصيب بالبرد ويمج أحياناً دمـــاً

فعلى منديله قطع من الكبد قطع تقول لـه تموت غداً

وإذا ترق تقــول بعد غدٍ مات الـفتى فأقيم في جلث

مستوحش الأرجاء منفـرد كتبوا علــى حجراته بدم

سطراً به عظة لذي رشــد هذا قتيل هـوىً ببنت هوى

فإذا مررت بأختها فَحِدِ

هذا القتيل قتيل هوىً ببنت هوىً.

إن الإنسان حينما يطبق منهج الله يشعر بسعادة كبيرة وبسلامة.

حدود الله ضمان للسلامة وليست تقييدا للحريات :

أستاذ علاء، الستة آلاف مليون إنسان في الأرض ما منهم واحد إلا ويتمنى السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة في تطبيق تعليمات الصانع، في تطبيق منهج الله، وليس في الإسلام حرمان.

دائماً وأبداً أنا أقول : إن وجدت لوحة كتب عليها : " حقل ألغام، ممنوع التجاوز "، هل تشعر أن هذه اللوحة حد لحريتك أم ضمان لسلامتك ؟ يوم أفهم ما حرمه الله عليّ من تفلت، من إباحية، من عمل شائن، من شهوة منحطة، حينما أفهم أن الذي حرمه الله عليّ هو لصالحي، هو ضمان لسلامتي، ضمان لسعادتي حينها أسعد.

لذلك أقول وأقول : ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب جهل بهذا المنهج، والجهل أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به.

الأستاذ علاء :

سيدي الكريم، أتوقف عند جزئية في هذه المسألة، كان هذا المريض إنسانًا فأصبح مصاباً، ثم نقل إلى زوجته، وزوجته إلى أولاده، وهي زوجة طاهرة بريئة لا تعرف عن هذا الأمر، هذا الانتقال إلى الزوجة، ثم إلى الطفل، وبالتالي يحملان المرض لسنين معينة، وبعد ذلك المرض سوف يدهم كل شيء، ويطيح بكل شيء، ألا يعتبر قاتلاً من الناحية الشرعية ؟

الدكتور راتب :

من نتائج اتباع الهوى العدوان على الناس :

طبعاً، هنا نقطة مهمة جداً، الإنسان إذا تحرك وفق هواه فلا بد من أن يعتدي على الآخرين شاء أم أبى، فلو أن الإنسان اتبع هواه، وما آذى أحدا فهذا وضع آخر، وتبقى المعصية معصية، لكن لأن اتباع الهوى يقتضي العدوان، وحينما يريد الإنسان أن يفرغ ما عنده من شهوة في قناة غير نظيفة فهذا عدوان، قد يغري فتاة، قد يفسد فتاة، هذه قد تكون فتاة مصممة أن تكون زوجة صالحة، وأمًّا راقية، زوجة لإنسان مخلص لها، فلما أفسدها انحرفت، فلما انحرفت سقطت، فلذلك المؤمن يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، بينما غير المؤمن يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

أستاذ علاء، قصة للموعظة : هناك جاهل جهلا مطبقًا، تصور أنه إذا قلع أسنانه كلها يعفى من الخدمة العسكرية، هكذا تصور، سمعت عنه أنه التقى مع أربعين طبيبًا، لم يقبل أحدٌ منهم فعلَ ذلك، إلا طبيب ضعيف النفس، قلع له كل أسنانه، فلما ذهب للفحص قبل الالتحاق الخدمة اعتبروه متهربًا من الخدمة فضاعفوا له الخدمة، وفقدَ أسنانه كلها.

سبحان الله ! الانحراف كله شر، أنا أقول دائماً : النجاح كل النجاح، الفلاح كل الفلاح، الفوز كل الفوز في طاعة الله.

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

وأقول دائماً : مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، أو أن تعصيه وتربح، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتذل، أو أن تعصيه وتعز.سبحانك :

((وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ))

[أبو داود عن الحسن بن علي]

فلذلك في بعض الشعراء له أبيات لطيفة جداً في هذا الموضوع، قال :

يسروا أمر الزواج لا تغالوا بالمهور واحذروا داء التباهي بالأثاث والقصور

إنما نبع السعادة كامن ضمن الصدور

والله بيت متواضع لكن فيه زوجان متحابان، واللهِ يفوق قصراً فريداً من نوعه فيه زوجان متفلتان.

احذروا الفيروس فـــهو الآن جمر يختفي تحت الـــرماد

إن تجاهلنا الحقيقة فجاءتــنا النار يوماً واكتوى كل الــعباد

بددوا الجهــل بعلــم أيقظوا أهل الـــــرقاد

توجوا العــلم بطـــهر صادق فهو الـــــعماد

هــا هو الفيروس يغــتال الضحايا قاصد كل الـــبلاد

وهو أعمى عن شباب طاهر يأبى الفساد

الأستاذ علاء :

إذاً سيدي أنا أنتقل من خلال هذه الأبيات إلى مسألة، وتأتينا كثير من المكالمات التي تسأل عن غلاء المهور، الأبوان لا يزوجون البنت إلا بمهور عالية، وبالتالي هذا الأمر يمنع من اللقاء الشرعي، يمنع من القناة التي تسري فيها الشهوة سرياناً حقيقياً نظيفاً، وبالتالي يتفلت الشاب، أو تتفلت الشابة، هذه مسؤولية المجتمع، مسؤولية الأسرة، بأن ننظر بحال الشاب القادم على الزواج، وأن نيسر لهم زواجهم، وأن تكون هنالك كل المقدرات حتى غرف الصناعة وغرف التجارة، وأصحاب المكنة الاقتصادية أنه يدعمون هذه المسألة، الأسر الجديدة التي تطلب العفاف والإعفاف، وأن لا يكون الرجل قدِم إلى الزواج أن يحمل أثقال الدنيا والآخرة يا سيدي.

الدكتور راتب :

لكم الخيار : تيسير الزواج أو تسريع دائرة الفاحشة !!!

بارك بك أستاذ علاء، هذا الكلام الطيب الرائع هو منطوي في آية واحدة، قال تعالى :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور الآية : 32)

كفهم أصولي لهذه الآية، أية آية موجهة إلى المجموع فهي لكل الأمة :

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

كيف يوجه الأمر إلى المجموع ؟ بإرخاص المهور.

((أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة))

[أخرجه أحمد، والحاكم، والبيهقي، عن عائشة]

((أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهراً))

[رواه أبو عمر التوقاني عن عائشة]

والله في بلدة في الغوطة بلغني أن وجهاء البلدة اجتمعوا، وقرّروا أن أعلى مهر خاتم وساعة فقط.
أستاذ علاء، لابد أن يقلق الأمة وضعُ الشباب، الشباب هم المستقبل، هم الأمل، هم الطاقة، فإذا أهملنا زواجهم، وأهملنا تأمين عمل لهم، وأهملنا تأمين سكن لهم، ما الذي يحصل ؟ دقق في هذا الكلام.
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه]

احذروا التعلّق بالمظاهر فإنها لا تغني شيئًا :

إذا تعلقنا بالمظاهر.

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

(سورة الأنفال الآية : 73)

أنا كنت في بلدة بألمانية، البلدة فيها ثمانون ألف إنسان، فيها سبعون ألف دراجة، ليس فيها تلوث، وفيها رياضة يومية، وتوفير بنزين، لكن هذه البلدة الإنسان محترم جداً، لو ركب دراجة، قد يكون عميد كلية، أو رئيس الجامعة بالدراجة، الأم لها مقعد، ووراءها ابنها له حزام، والذي يتسوق من السوق له سلة أمامه، والله شعرت أنك تحل مليون مشكلة، أهم شيء الرياضة، أهم شيء أن الإنسان يمارس الرياضة يومياً عن طريق هذه الدراجة، ويمنع التلوث، ويوفر البنزين، ثقافة هذه البلدة شيء رائع جداً، يأتي مثلاً معاون وزير بالدراجة إلى وزارته، يأتي أستاذ جامعة وعميد كلية بالدراجة، شيء رائع جداً، نحن نعبد المظاهر، أن نعبد المظاهر ولا نزوج البنت إلى مكان أبعد من بيتنا.
خطب أحدهم فتاة، هي من حي غالٍ جداً، عنده بيت في مشروع دُمَّر، مشروع راقٍ، قال : نحن لا نزوج لسفر، فلذلك :

((أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرًا))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند موضوع]
الآن هناك مشاريع ببعض البلاد، وعندنا إن شاء الله لزواج جماعي، مِن توفير هذه النفقات، وهذه المظاهر الباهظة، والشركات في الأساس تقدم هدايا للمتزوجين، والجمعيات الآن الحمد لله تؤازر الزواج :

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ)

هذا أمر إلهي، وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وهذا الأمر موجَّه للأمة بأكملها.
وأقول كلمة للتحذير : هؤلاء الشباب قنبلة موقوتة، إن لم نهتم بزواجهم، وأعمالهم، وبيوتهم، فعندنا

مشكلة خطيرة، هو المستقبل، المعول عليهم في نهوض أمتنا، وفي أن يستعيدوا دورها القيادي السابق، ونحن نريد الحد الأدنى، بيت صغير بخمسين مترا، وعمل يدر عليه دخل، وأداة نقل بسيطة جداً، إن لم نفكر في هذه الأجيال الصاعدة، نؤمّن لها أعمالا، نؤمن لها بيوتا، نؤمّن لها فرص عمل فالمشكلة كبيرة.

فلذلك موضوع الزواج موضوع خطير، أخطر ملمح في الحديث :

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ)

لو أننا تعلقنا بالمظاهر، ووضعنا عقبات كأداء أمام الشباب، هل تظن أن العلاقة بين الذكر والأنثى تقف ؟ لا تقف، تكون بقناة نظيفة رائعة يقدسها المجتمع، فتصبح بقناة منحرفة فاسدة :

(إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (91-95) : تربية الأولاد في الإسلام : الدرس (1) أهمية تربية الأطفال
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

سيدي الأستاذ، اليوم سوف نبتدئ سلسلة، هذه السلسلة تتعلق بموضوع هام ، وبأساس ركيز في حياتنا الاجتماعية، الله عز وجل حينما خلق الذكر والأنثى، وجعل بينهما المودة والرحمة لكي يكون اللقاء الشرعي، أو نتاج له، وأول ثمراته بعد الود، وبعد بناء هذا العش أن ينتج هذا العش البراعم، والزهرات المتلخصة في لوحة الأطفال، هل الإنجاب بمحض الإنجاب، هو المهمة والرسالة، يتلو الإنجابَ التربيةُ الحسنة ليستقيم عود ذلك النبت، وليؤتي أكله فيما بعد خيراً على أسرته، وعلى مجتمعه، ونهضة مجتمعه، وتنمية مجتمعه، كما قال شاعرنا في مسألة الأخلاق والتربية:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا ُسقِيَت بماء المكرُمات
تقوم إذا تعهّدها المُـرَبّي على ساق الفضيلة مثمرات

ماذا عن هذا الموضوع وربما أخذ معنا العديد من الحلقات، ونبتدئ بالحلقة الأولى عن تربية الأطفال.

الدكتور راتب:

أهمية تربية الطفل في حياة الوالدين:
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، أمناء دعوته، وقادة ألويته، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين.
أستاذ علاء، جزاك الله خيراً، هذا موضوع كبير جداً، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نقدم من خلاله للإخوة المشاهدين حقائق دقيقة تعنيهم أكثر ما تعنيهم، لأن الابن فلذة كبد الأب والأم، ولا يسعد أب أو أم على وجه الأرض إلا أن يكون الابن كما يتمون، فلذلك هذا موضوع يمس صميم حياة الإنسان، لأن ابن الإنسان قدره، يسعد بسعادته، ويشقى بشقائه.
وقد بينت سابقاً أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى)

(سورة طه)

قد يعجب الإنسان من صيغة:

(فَتَشْقَى)

، بحسب قواعد اللغة فتشقيا، قال علماء التفسير: البلاغة في الإيجاز، ولأن شقاء الزوج شقاء حكمي لزوجته، يقاس على هذه القاعدة، وشقاء الابن شقاء حكمي لأمه وأبيه.

إذاً: هو موضوع كبير وخطير، ويمس أعمق ما في الإنسان، لذلك جاء في القرآن الكريم حجم كبير لهذا الموضوع، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

(سورة البلد)

الأستاذ علاء:

قبل ما نبدأ سيدي (لا) هنا زائدة، بمعنى أقسم بهذا البلد.

الدكتور راتب:

بمعنى أقسم، أو أن هذا الشيء لأنه واضح، بديهي، جلي، لا يحتاج إلى قسم، وكلاهما جائز، على كلٍ الله عز وجل:

(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام الآية: 103)

كيف نعرفه ؟ كيف نعرف رحمته ؟ نعرف محبته، نعرف لطفه، نعرف أنه خلقنا ليسعدنا، ومن الصعب أن ندرك هذا مباشرة.

نظام الأبوة والبنوة تعريفٌ بالله:

نظام الأسرة: أب وأم وابن، كيف أن الأب يشقى بإسعاد أولاده، وكيف أن الأم تكاد تموت ألماً إذا مس ابنَها شيءٌ، فكأن نظام الأبوة في الإسلام نظام يعرفنا بخالق الأكوان، نظام الأبوة لخالق الأكوان.

((يا عِبادي ! لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أتْقى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذلكَ منْ مُلْكِي شَيْئاً))

[رواه مسلم، عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

(إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

(سورة النور الآية: 7)

الله عز وجل إذا قال للنبي، وهو أرحم الخلق بالخلق قاطبة، إذا قال له:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

وجاء رحمة منكّرة تنكير تصغير.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف الآية: 58).

رحمة قليلة جداً أودعها في قلب النبي أصبح يبكي على أعدائه، قال:

((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا))

[متفق عليه]

هو يرحم كل البشر، يحب كل البشر، لذلك أرسله الله لكل البشر.

أنا أذكر قصة رمزية جداً أن رجلا كان يمشي في الطريق فرأى أمًّا تضع الخبز في التنور، وبين كل رغيفين تأخذ ابنها، وتقبِّله، وتعانقه، وتشمه، فقال: يا رب، ما هذه الرحمة ؟! فورد أن هذه رحمتي يا عبدي أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها منها، القصة رمزية، فلما نزع الله الرحمة من قلبها وبكى ألقته في التنور مباشرة.

فكلُّ ما يتراحم به الخلق هي رحمة الله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ)

لين النبي، ورحمته، وبكاءه على أعدائه من رحمة الله عز وجل، ولولا هذه الرحمة لما تراحم الناس.

فلذلك أراد الله سبحانه وتعالى من خلال الأبوة والبنوة أن يعرفنا بذاته قال:

(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ)

إن أردتم أن تعرفوا نموذجاً مصغراً جداً من رحمتي فانظروا إلى رحمة الأم بابنها، والأب بابنه، وما من إنسان إلا ويعرف مَن هو الأب، قد يشرد الابن عنه، ويبالغ في الإساءة إليه، لكن حينما يعود إليه يكون عند الأب فرحة لا توصف، لذلك قال النبي الكريم:

((لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته))

[رواه عبد الله ويزيد عن موسى بن يسار عن أبي هريرة].

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة].

إذاً: أول آية تبين أن نظام الأبوة والبنوة، وما بينهما من رحمة وحرص تعطي صورة عن علاقة الله بخلقه، هذه واحدة.

الأطفال هم البشرى:

الشيء الثاني: الأطفال هم البشرى.

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم الآية: 7)

الابن بشارة، الابن هدية، الابن استمرار للأب، الابن يملأ البيت سعادة، الابن يكون مع أبيه معواناً له.

هناك قصة دقيقة جداً: أن صحابياً جليلاً كان يحضر مجلس النبي، وعلى كتفه ابنه، وكان ابنه جميل الصورة، فداعبه النبي مرة وقال له: يا فلان ؟ فمن شدة أدب هذا الصحابي، قال: يا رسول الله أحبك الله كما أحببته، بعد أيام غاب هذا الصحابي عن مجلس رسول الله، تفقده النبي من شدة رحمته، قالوا: مات ابنه، فاستدعاه، وعزاه، وقال له: أتحب أن تمتع به عمرك أن يكون معك كظلك وهو بار بك، محب لك، خادم لك ؟ أتحب أن تمتع به عمرك هذه نائب ظرف زمان، أو أن سبقك إلى الجنة، فأي أبوابها فتحها لك ؟ قال: بل الثانية، قال: هي لك.

في حياة الإنسان ابنه معه يملأ حياته فرحاً، وسروراً، وحين يسبقه الابن إلى الجنة يكون أحد أسباب دخول الأب إلى الجنة، إذاً:

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا)

(سورة مريم)

شيء آخر، قال الله عز وجل:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

(سورة الكهف)

الدنيا جمالها بالأولاد، مع المال، المال بلا أولاد مشكلة كبيرة جداً، وأولاد بلا مال مشكلة أكبر، كلام خالق الأكوان:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ)

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه الترمذي وابن ماجة]

مرة سألتُ رجلاً عن أحواله الاقتصادية، فقال لي: الحمد لله، عندي ما يكفيني ، فقلت له: لقد أصابتك دعوة النبي، فعجب، بل قلق، قال لي: بماذا دعا عليّ، قلت له: قال النبي الكريم:

((من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

الكفاف غير الفقر، عنده حاجاته، ما دام الإنسان:

((آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

الطفولة هي المودة والرحمة:

شيء آخر في القرآن الكريم، الله عز وجل عبر عن الطفولة بالمودة والرحمة، ومن أدق المعاني، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية: 21)

من معاني هذه الآية التي انفرد بها بعض المفسرين: أن المودة والرحمة هم الأولاد:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُم)

دائماً وأبداً إذا كان الزوج عقيما، أو الزوجة عقيمة مع مضي الزمن تضعف العلاقة بينهما، ويفكر كل طرف أن يفترق عن الآخر، أما حينما يأتي الولد توثّق العلاقة بين الأبوين، ويجعلها ذات مودة ورحمة، وهاتان الكلمتان دقيقتان جداً، الأصل في الزواج المودة، المودة سلوك، وعبروا به عن شعور، الابتسامة مودة، أساسها الحب من الداخل ، الهدية مودة أساسها الحب من الداخل، الاعتذار مودة أساسه الحب من الداخل، مدام القلب في محبة تترجم إلى مودة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)

لكن عظمة هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون بين الزوجين مودة ورحمة، فمادام الزوج ملء عين زوجته قوة ووسامة وإنفاقاً، حقق طموحها، إذاً بينها وبينه مودة لا يعلمها إلا الله، أما إذا افتقر الزوج، وشاخ الزوج، تأتي الرحمة، لذلك بيوت المسلمين لا تقوم على المودة فقط، على الرحمة، كم من زوج افتقر والمرأة تعمل ليلاً نهاراً لإطعام أولاده وإطعامه، وكم من زوجة أصابها مرض عضال فخدمها إلى آخر لحظة في حياتها:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) إذاً: العلاقة الزوجية تقوم على المودة والرحمة، وعلى كليهما معاً، لذلك المفسر الذي انفرد في هذا التفسير:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)

قال: المودة والرجمة الأطفال، هم المودة والرحمة بين الزوجين، ثمرة هذا اللقاء.

الأستاذ علاء:

سيدي، طالما أن القرآن الكريم عرض للأطفال، وخصص مواضع هامة عن الأطفال وأهميتهم، وعن الربط بين الزوجين، وعن نتاج الأسرة، الأطفال كالنبت، النبت لا يمكن أن ينمو مستقيماً معافى من دون عناية ورعاية، كيف نظر الإسلام إلى هذا النبت بين الزوجين، وكيف أسس لرعاية هذا النبت.

الدكتور راتب:

صور رائعة للطفولة في الإسلام:

بارك الله بكم أستاذ علاء، لكن ثلاث لقطات رائعة من الطفولة في الإسلام :

الصورة الأولى:

سيدنا عمر رضي الله عنه كان يمشي في الطريق فرأى غلمانا، لشدة هيبته لما رأوه تفرقوا إلا واحدا منهم بقي واقفاً بأدب جم، هذا الوقوف، وهذه الجرأة، وهذا الأدب لفت نظره، قال له: << يا غلام، لمَ لمْ تهرب معهم ؟ قال له: أيها الأمير، لست ظالماً فأخشى ظلمك، ولست مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعني >>.

ينبغي أن يكون المذنب خائفاً في ظل العدل، ينبغي أن يكون المستقيم مطمئناً في ظل العدل.

الصورة الثانية:

شيء آخر، دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفدُ المهنِّئين، منهم وفد الحجازيين، تقدمهم غلام صغير، لا تزيد سنه على عشر سنوات، فانزعج الخليفة من ذلك، قال: " أيها الغلام اجلس، وليَقُمْ مَن هو أكبر منك سناً، فابتسم الغلام، فقال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً ذاكراً، وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس ".

الصورة الثالثة:

يروى أيضاً أنه دخل على عبد الملك بن مران وفد آخر تقدمهم غلام، فغضب أيضاً، فقال لحاجبه: " ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلاّ دخل حتى الصبيان، فقام هذا الصبي الصغير وقال: أصلح الله الأمير، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك، ولكنه شرفني ، أصابتنا سنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وسنة أذابت الشحم ـ في الإنسان شحم ولحم وعظم ـ أول سنة أذابت الشحم، ثم أكلت اللحم، ثم دقت العظم، ومعكم فضول أموال، فإن كانت لله تصدقوا بها على عباده، ونحن عباده، وإن كانت لنا فعلامَ تحبسونها عنا ؟ قال: والله ما ترك لنا هذا الغلام في واحدة عذراً

جرأة أدبية، وفصاحة رائعة جداً، هكذا كان أطفال المسلمين، في أدب، وفي جرأة، وفي علم، والطفل حينما يتعلم، ويتأدب فهذا أروع ما في الطفولة، لذلك الأطفال حينما يربيهم الآباء يغدون متعة الحياة، أما الابن المتفلت الذي يتربى في الطريق يتكلم الكلام البذيء، يجلس جلسة غير مؤدَّبة، لا يعرف حق الكبير، ولا حق العالم، طفل يعدُّ عبئًا على الأسرة.

الأستاذ علاء:

هذه اللقطات التي أتيت بها هي نماذج عن لقطات تترى، هل أتت من فراغ سيدي ؟

الدكتور راتب:

أتت من تربية عالية.

حافز قرآني من أجل تربية الأبناء تربية حسنة:

أنا أقول أستاذ علاء: نحن في أمسّ الحاجة لهذه الموضوعات، فما مِن بيت ما فيه أولاد، وما مِن بيت إلا في قلق شديد مِن قِبَل الأب والأم من أطفالٍ ليسوا كما يتمنون، يتعلمون من الطريق أشياء لا تليق، ومن المدرسة أحياناً، من رفقاء السوء، فلذلك الله عز وجل أعطانا حافزا يصعب أن نتصوره، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

(سورة الطور الآية: 21)

أعمال الذرية إلى يوم القيامة في صحيفة الآباء:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
(وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية: 21)

الجهود التي يبذلها الأب ؛ متابعته لأولاده، سهره على دراستهم، اهتمامه بأخلاقهم، اهتمامه بطعامهم وشرابهم، اهتمامه بصحتهم، اهتمام أمهم بهندامهم، هذه العناية الفائقة مِن قِبَل الأب والأم محفوظة عند الله عز وجل، وأكاد لا أصدق هذه الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي، فقلت: مَن هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من

[ورد في الأثر]

يفهم من هذا الحديث أن تربية الأولاد من أعظم الأعمال عند الله، لكن الأم المربية مؤهلة أن تدخل الحنة من باب الأدب مع رسول الله.

الأستاذ علاء:

إذاً: التربية لها أهمية كبرى في استقامة النشء، في استقامة الأولاد، ولكي يؤسسوا على حمل الرسالة، وحمل الخيرية، ولكي يبادروا الأسرة، وبالتالي الأسرة الكبيرة المجتمع.

الدكتور راتب:

الولد الصالح ذخرٌ للوالدين بعد موتهما: بقي شيء، أن أعمال الإنسان تنتهي عند موته، إنسان أخذ دكتوراه، مات، ويكتب على النعي: الدكتور فلان، انتهت الدكتوراه، كل إنجازات الإنسان في الأعم الأغلب تنتهي عند الموت، إلا أن هناك من الأعمال ما يستمر بعد الموت، منها تربية الأولاد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم]

عني أسس، بنى مسجد، بنى مدرسة، بنى مستشفى، بنى ميتم، أسس جمعية خيرية لرعاية المعاقين مثلاً، عمل خيري، هذا العمل الخيري من أعظم الأعمال، هذا يستمر، ولاسيما إذا كان مؤسساتياً نظام دقيق جداً.

والله مرة في بلد إسلامي مؤسسة ضخمة جداً لرعاية المعاقين، والمكفوفين وطلاب العلم الفقراء، ترتبط بجامعات، وبثانويات، طبيب لامع جداً عنده طموح خيري كبير فترك هذه المؤسسة، مات من خمسين سنة، والمؤسسة قائمة، لذلك:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ))

لهذا أنا أقول أحياناً: الويل، ثم الويل، ثم الويل لمن ليس له عمل ينقطع، ونحن نقول: العمل الصالح ينقطع عند الموت، لكن هناك أعمال كهذه الأعمال تستمر.

الأستاذ علاء:

كما قال عليه الصلاة والسلام

((إن في الجنة قيعانا فأكثروا من غرسها، قالوا: يا رسول الله، وما غرسها ؟ قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر))

[الطبراني عن سلمان بسند حسن]

الدكتور راتب:

استمرار النجاح بالولد الصالح بعد الموت:

الشيء الدقيق في هذه السلسلة:

((أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

والله أستاذ علاء أنا أقول: الذي يموت ويترك أولاداً صالحين كأنه ما مات كأنه يستمر بأولاده:

((أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

كل واحد منا مجبول على حب وجوده، شاء أم أبى، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، وسلامة الوجود بطاعة الله، وكمال الوجود بالإقبال عليه، والبذل من أجل عباده، أما استمرار الوجود فبتربية أولاده، والإنسان يحب أن يستمر وجوده.

لذلك الأشخاص الناجحون جداً إذا ربَّوا أولادهم تربية عالية فنجاحهم يستمر، وأنا الآن أتمنى على كل أب ناجح قد يكون ناجحًا في علاقته مع الله، ناجحًا في تجارته، ناجحًا في صناعته، ناجحًا في وظيفته، ناجحًا في خدمة يقدمها للناس رفيعة المستوى، الأب الناجح المفروض أن يكون ابنه في عمله كي يستمر.

مرة طالب من طلابي جمع 235 علامة، ومن حقه أن يكون طبيبًا، فالتقيت به في الطريق، قلت: ماذا فعلت ؟ قال لي: دخلت قسم الزراعة ! قال لي: أبي عنده أرض مساحتها ثلاثون دنمًا، ومن المفروض أن أرعى هذه الأرض، وأن أزرعها، وأن أقدم للناس إنتاجًا، فاختار شيء يجعل لأبوه عمل مستمر.

أتمنى على كل أصحاب المعامل، والمؤسسات، والتجار، والصُناع، أن يكون الابن عملا ناجحا مستمرا لأبيه، لأن هناك أعمالا شخصية تنتهي بانتهاء صاحبها، وهناك أعمال نمطها مؤسساتي، فلو مات الأب يستمر الابن من بعده، والخير يستمر.

إذاً: أكبر حافز قدّمه لنا الله عز وجل أن أعمال الابن كلها في صحيفة أمه وأبيه، لذلك أكبر تجارة مع الله أن تربي أولادك.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[أخرجه النسائي]

هناك لقطة لسيدنا عمر، قال: << والله إني أقوم إلى زوجتي وما لي من شهوة إلا ابتغاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي >>.

الإنسان أكبر مورد اقتصادي:

هذا هدف كبير جداً، لذلك حينما نربي أولادنا على مبادئ، وعلى قيم، وعلى فضائل، وعلى خبرات عالية في الدنيا فإن الإنسان أكبر مورد اقتصادي، والمال لا يكفي، هناك أموال، وأراضٍ، ومنشآت، وآلات، أهمها المورد البشري، وفي إحصاء دقيق في أوربا عشر شركات أفلست، تسع شركات منها بسبب سوء الإدارة، فلذلك لا المال يكفي بأن يلد المال ولا الأرض، ولا المنشأة، ولا الآلة، بل تحتاج إلى إنسان يحسن إدارة هذا المال.

لذلك في تسلسل الموارد الاقتصادية عدَّ الإنسان أكبر مورد اقتصادي، من هنا تبين أن الإنسان إذا علمته، وأطلقت يده كان ورقة رابحة كبيرة جداً في حياة الأمة، أما إذا أبقيته جاهلاً، وقيدته أصبح عبئاً عليك، فكلما تعلم الإنسان، وكلما أطلقت يده كان في خدمة أمته، أما إذا قُيد وكان جاهلاً مالَ إلى الدعارة، والمخدرات، والجنوح، وما شاكل ذلك.

الأستاذ علاء:

إذاً: لا بد من التربية، وهي حاجة ملحَّة وضرورية.

الدكتور راتب:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا

هناك أمر إلهي قطعي الدلالة، طبعاً القرآن الكريم كل أمر فيه يقتضي الوجوب، الله عز وجل يخاطب المؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم الآية: 6)

أستاذ علاء، لو أن واحدا سمع ثلاث كلمات بذيئة جداً من ثلاثة أولاد، أحدهم ابنه، فهنا يكاد الأب يخرج من جلده، الثاني ابن أخيه، يكون الألم أخفّ، الثالث صديق ابنه، هنا لا يتألم، يقول له: انصرف، لكن يصبّ جام غضبه على ابنه للصوقه به، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

ورد في بعض الآثار أن المرأة أحياناً حينما تفسد بإهمال تربيتها تقف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل وتقول: " يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي "، فالأب الذي يعضل ابنته، ولا يزوجها من أجل مصالحه، من أجل راتبها، من أجل أن تخدمه طوال حياته، يمنعها أن تكون أمًّا في المستقبل هذا مسؤول أمام الله.

هناك نقطة دقيقة جداً، في الثقافة الإسلامية الأب يُحترم جداً في بلادنا، لكن الكلمة القنبلة: ما كل أب محترم يحبه أبناءه، يحترمونه بحكم الثقافة العامة، أما إذا لم يكن محسناً فلا يُحب، بطولتك كأب لا أن تُحترم أن تُحَب، البطولة أن يُحِب الابن أباه، ولن يحبه إلا إذا كان محسناً، إلا إذا قدم إليه شيئاً ثميناً، قدم له علماً، قدم له تربية، أعانه على زواجه.

والله أعرف رجلا في دمشق يقف أولاده أمامه كالجنود أمام أعلى رتبة عسكرية، من شدة محبتهم له، لأنه بذل جهداً كبيراً لتأمين علمهم، وأخلاقهم، وبيوتهم، وزوجاتهم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (92-95) : تربية الأولاد في الإسلام : الدرس (2) المودة والرحمة : كيف نربي أولادنا
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير:

في الحلقة الماضية سيدي الأستاذ تحدثنا عن الأطفال، وأهمية الأطفال والأبناء، وقلنا: إن أهم ثمرة من ثمرات بناء الأسر، واللقاء الزوجي، والعلاقة الزوجية إنتاج الأطفال ، وأن نكلأهم بالرعاية والعناية، سلوكاً وتربية، علماً وبذلاً، وصحة حتى يستقيموا ويستووا، ومررت على ملامح رائعة في القرآن الكريم عندما ربط الأبناء بمعنى المودة والرحمة على أحد التفاسير:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية: 21)

بعض التفاسير التي قالت: المودة والرحمة هم الأولاد، وتبين من حديث النبي عليه الصلاة والسلام أن حب الإنسان لبقاء وجوده لا يستمر إلا من خلال تربية أولاده، حديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ))

[أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك]

الآن يظن الأب أنه قدّم لهم مالا، وقدمت لهم مدرسة، وأنا أرعاه صحياً، وهذا سقف العناية والتربية، لكن يمر على الإنسان أزمان صعبة، في الغزو الثقافي، تمطر علينا الفضائيات، هل المجهود الذي كان يبذل للتربية في زمن معين، في زمن الاسترخاء هو نفسه الذي يكون مبذولاً في الزمن الصعب ؟

الدكتور راتب:

العناية بالأولاد:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

1 – العناية المادية:

أريد أن أؤكد أستاذ علاء كلمة ذكرتها، أن مهمة الأب لا تنتهي بإطعام أولاده وكسوتهم، والحقيقة أنها تبدأ بعد ذلك، الذي يؤكد هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هو يطعمه، ويسكوه، ويؤويه، ويخصِّص له غرفة، ويشتري له الثياب، ويؤمِّن له الطعام:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

الإنسان بين الطبع والتكليف:

لذلك أكاد أن أقول، وقد ذكرت هذا كثيراً: في الإنسان طبع،و معه تكليف، طبعه يقتضي أن ينام، والتكليف أن يستيقظ ليصلي الفجر، طبع الإنسان أن يأخذ المال، والتكليف أن ينفقه، طبع الإنسان يقتضي أن يملأ عينيه من محاسن النساء، والتكليف أن يغض البصر، طبع الإنسان يقتضي أن يخوض في فضائح الناس، والتكليف أن يصمت، وطبع الإنسان متأصِّل فيه أن يحب أولاد، وهذه حكمة ما بعدها حكمة.

قالوا: العناية بالأولاد طبع في الإنسان، وهذا في أيّ أم، وأيّ أب، إلا في حالات نادرة جداً، والوضع الطبيعي أن الأب المؤمن وغير مؤمن، المتفلت والمستقيم، الشرقي والغربي، والملوَّن والأبيض، وقبل ألف سنة وبعد ألف سنة، من طبيعة الأب والأم أن يحب الأب أولاده والأم أولادها، هذا هو الطبع. لن تجد في القرآن إلا آية واحدة متعلقة بالمواريث توصي الآباء بأبنائهم، تماماً كما لا يمكن للدولة أن تصدر قرارا يلزم المواطنين بتناول الطعام، وكذلك عناية الآباء بالأولاد.

2 – التعليم والتربية على العقيدة الصحيحة والأخلاق الإسلامية:

إلا أن العناية التي على مستوى الفطرة، هي الطعام، والشراب والصحة، يضاف لها التحصيل الدراسي، فما دام الأب مهتمًا فقط بصحة ابنه، وضعه الصحي جيد، ثيابه جيدة، ودراسته جيدة، أما أن يكون الابن مستقيما أو غير مستقيم، متفلتا أو غير متفلت، عقيدته سليمة أو منحرفة، يبني مجده على أنقاض الناس، هنا الخطأ، لا يكسب الإنسان أجراً عند الله بتربية أولاده إلا إذا تجاوز حاجاته الأساسية، الأساسيات متوافرة عند كل الناس من حيث الاهتمام.

مثلاً: يأتي الأب إلى بيته مساءً فيسأل زوجته: هل أكل الأطفال ؟ هل كتبوا وظائفهم ؟ ولكن لا يسأل: هل صلوا العشاء ؟ هذه لا يذكرها، يجب أن يهتم بدينهم، بعقيدتهم، بأخلاقهم ، يجب أن يعرف مَن أصحابهم، من أصدقاءهم، كيف يفكرون ؟ وأكبر عمل يقدمه الأب لابنه أن ينشئه تنشئة إيمانية، وتنشئة أخلاقية، هذا أعظم عمل.

لذلك:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

الأستاذ علاء:

إذاً: القوت هذا تحصيل حاصل، هذا حق لمن يقتات، أو لمن يأكل عند راعي هذه المسألة.

الدكتور راتب:

وأي أب يقلق، وأي أمٍّ تقلق إذا كان لابنهما مشكلة صحية، أو مشكلة غذائية، أو مشكلة متعلقة بالدراسة، أما البطولة فأن تربي ابنك على معرفة الله، على مكارم الأخلاق، على أن له هدف بالحياة.

الآن عندنا ظاهرة في العالم عجيبة جداً، إنسان بلا هدف، هدفه المتعة فقط، همه بطنه وفرجه فقط، إنسان ليس له وزن عند الله إطلاقاً، ما حمل همَّ أمته، ما حل مشكلاتها ، له انتماء فردي، ومشكلة العصر الانتماء الفردي، من بعدي الطوفان، كما يقال، يجب أن أربي ابني على خدمة الناس، على خدمة مَن حوله، على أن يحمل همّهم، على أن يعمل ضمن فريق، على أن يرشد الاستهلاك، على أن ينتمي للمجموع، على أن يدير وقته، أن يدير عمله، على أن يكون معطاء، لا أن يبني مجده على أنقاض الناس، وغناه على إفقارهم، وأمنه على خوفهم، وعزه على ذلهم.

البطولة للآباء أن نربي أبنائنا، أما الشاشة فماذا تقدم للصغار ؟ هذه الأفلام المستوردة تأتينا من الصحون، إذا كان فيها لعبة كلما حُلّ لغزٌ تخلع الأنثى قطعة من ثيابها، ننمي فيه الميل إلى شيء لا يرضي الله عز وجل في سن مبكرة جداً.

3 – الانتماء للمجموع:

القضية قضية أن نعلمه العقيدة السليمة، والأخلاق السليمة، وأن ينتمي لمجموع الأمة، وأن يكون في خدمة أمته، هذا شيء مهم جداً، وكلما ارتقى الإنسان حمل همّ المجموع، وكلما سقط من عين الله انتمى إلى شخصه، وإلى مصلحته.

المثل الذي أردده كثيراً: ماذا يعني الانتماء إلى الذات ؟ مثَلُه كمثَل إنسان مضطجع تحت شجرة تفاح، وقد قطفت ثمارها كلها إلا تفاحة لم ينتبه لها من قطفها، كبيرة جداً، ولها لون زاهٍ، معه منشار شجر، وهي بعيدة جداً، التفاحة في أقصى الشجرة، فقطع الشجرة ليأكل هذه التفاحة، من أجل تفاحة قطع شجرة.

أنا أتمنى على الأب أن يربي ابنه على الانتماء للمجموع، على الانتماء للأمة، على أن يرى مصلحته في مصلحتها، وسعادته في سعادتها، وأتمنى على الآباء أن نتجاوز موضوع الطعام والشراب، والكساء، والتحصيل، هذا شيء بديهي، أو شيء مجبول في فطرة الآباء والأبناء، والذي كلفنا الله به أن نرقى بإيمانهم، وبأخلاقهم، وبعبادتهم، وبعلاقاتهم الاجتماعية.

التربية تشتد في زمن الفتن والشهوات والأفكار الهدّامة:

هناك حاجة ثابتة قديماً وحديثاً، إلا أنها تشتد في الزمن الصعب، في زمن ذكَر الله فيه قوله تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس)

(سورة الروم الآية: 41)

ما مِن شيء خافٍ على الشباب، الأمور كلها مبذولة في الطريق، وفي المجلة ، وفي الشاشة، وفي الصحيفة، وفي الأفلام، وفي القرص المدمج، هذا كله مبذول، فهذه مشكلة كبيرة جداً، فتشتد الحاجة إلى تربية الأولاد في الزمن الصعب.

نحن العلوم أستاذ علاء ننتقل من طور وصفي إلى طور رياضي، مثلاً: تقول: هناك ضجيج، هذا وصف، الآن هناك جهاز يقول لك: الضجيج 120، العلوم أكثرها تميل إلى تبديل الوصف بقوانين رياضية، ومن طموحي لو أنه أمكن أن نعطي في تربية الأولاد وحدات، فإذا كان الأب قبل مئة سنة يحتاج لمئة وحدة ليربي أولاده فإنه اليوم يحتاج إلى مليون وحدة، لانتشار شبهات لا يعلمها إلا الله، وطرحات كلها غير صحيحة، وتصورات آثمة، وتفكير أناني، وطرح إلحادي، وطرح شهواتي، وطرح مصلحي، وغرائز متفلتة، وفكر إباحي، وفكر يغطي هذا التفلت.

مثلا ً: لابد أن نعلَم علم اليَقين أن نظرية داروين لا أصل، وأن داروين قال: " إنْ لم يثبت العلم نظريتي فهي باطلة "، هذا كلام داروين نفسه في كتابه أصل الأنواع، فما هي نظريته ؟

يقول: إن الخِرَق البالية تأتي منها الفأرة، هذا شيء مضحك، هذا في كتابه، وإن الضفدع تأتي من الوحل، والدود يأتي من تفسخ اللحم، ولا أقول: إن العلم لم يثبت هذه الأفكار، بل سخر منها، ثم بيّن داروين أن هناك تطورا من مخلوق وحيد الخلية إلى إنسان، فلابد عنده من كائنات مرحلية، واكتشفوا الآن بالأحافير حيوانات من 530 مليون سنة مطابقة لما هي عليه الآن 100%، هذه النظرية سقطت

كلياً وانتهت، ومع ذلك يتمسك العالَم بها لا لأنها صحيحة، لكنها مُريحة، ولأنها تعني أنْ لا إله، ولا آخرة، فيمكن أن تبني مجدك على أنقاض الشعوب، وأن تبيد شعبًا بأكمله.

المنطق المعاصر يمكن أن نبيد شعبا، يقولون: مليون قتيل، هذا عادي جداً، ولا اعتراض عليه إطلاقاً، يمكن أن ننهب الثروات بأكملها، حينما يعتقد الإنسان بعدم وجود الإله، ويشعر نفسه أنه ليس مؤاخذاً، وهذه مشكلة كبيرة.

إذاً: في الزمن الصعب، في زمن الطروحات الإلحادية أحياناً، طروحات الشهوانية ، في زمن التفلت الكامل، في زمن أن المعصية يقترفها الإنسان وكأنه ما فعل شيئاً.

الأستاذ علاء:

في زمن الغزو الثقافي، وتبديل الأفكار، والنيل من الهوية، وخاصة التأثير على الأطفال، والطروحات المغلوطة حتى في مسألة الحقوق، عندما يطرح لنا عبر الشاشات، وعبر السواتل، بأكاذيب وأضابيل عن أحقية اليهود في القدس، ومسألة هيكل سليمان التي لا وجود لها، وحائط المبكى الذي لا وجود له، وكلها تسميات من الأوهام والخيال، ويريدون ضخَّها علينا، لكي تثبت في ذهن الطفل، ويغلق عقله عليها.

الدكتور راتب:

أحب شاب فتاة في الغرب، فاستأذن والده بالزواج منها، قال له: لا يا بني، إنها أختك، وأمك لا تدري، فأحبَّ فتاة ثانية، قال له: أيضاً إنها أختك، وأمك لا تدري، الثالثة إنها أختك، فضجر، فحدّث أمه فقالت له: خذ مَن شئت، أنت لست ابنه، وهو لا يدري.

هكذا المجتمع متفلت، بلا انضباط، ولا أسرة، ولا تربية، ولا أخلاق، ولا قيم، ولا مبادئ، تشتد الحاجة الآن إلى التربية مليون ضعف، إن لم يخصص الأب، من وقته وقتًا طويلا، وثمينا، إن لم يقتطع الأب من وقته وقت للجلوس مع أولاده كيف يفكرون ؟ كيف يتصرفون ؟ كيف تصوراتهم ؟ ما مبادئهم ؟ ما أفكارهم ؟ فهناك مشكلة كبيرة جداً.

وأقول لك أستاذ علاء: ما مِن جهة يمكن أن تتحمل عنك هذه المسؤولية، فلا تقل: الفساد عام، والمدارس غير جيدة، أنت المسؤول، ولا أحد يعفيك من هذه المسؤولية.

الأستاذ علاء:

المدرسة تقوم بدورها، وهي جزئية من اللوحة التربوية، لكن البيت هو الأساس بكل معنى الكلمة.

الدكتور راتب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي]

في زمن التفلت هناك ضرورة فائقة أن نربي أولادنا على مبادئنا، وعلى قيمنا، وعلى أصالتنا، وأن يكون هذا الابن استمرارا لأمته، وأن يعيد لهذه الأمة مجدها إن شاء الله في قيادة المجمعات الإنسانية الأخرى، لأن الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

الأستاذ علاء:

سيدي، هل تسمح لي طالما أنك أتيت بهذا الشاهد القرآني العظيم أن أقول: إن

(كُنْتُمْ)

تفيد الماضي والحاضر والمستقبل، طالما أنكم تمسكتم.

الدكتور راتب:

الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله علّةُ خيريةِ هذه الأمة:

والله أنا شاكر جداً لهذا التوضيح، هذه الخيرية لها علة الخيرية أنكم:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

الأستاذ علاء:

جاء الماضي والمضارع.

الدكتور راتب:

لو فرضنا كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونـهيُتم عن المعروف ؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم، وأشدُّ كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكرا والمنكرَ معروفا))

[ورد في الأثر]

يا الله ! أخطر شيء تعيشه الأمة أن تتبدل مفاهيمها وقيمها.

لابد من حملِ همِّ المسلمين لأنّ المسؤولية جماعية:

من باب الطرفة أقول: البيت الشعري الذي أدخل صاحبه السجن في عهد عمر هو شعار كل إنسان في عصور التفلت.

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغيَتِها وَاِقعُد فَإِنَّكَ أَنتَ الطاعِمُ الكاسي

***

معظم الناس ما دام آمنا في بيته، ودخله جيد، وأولاده أمامه، ومستمتع بالحياة كما يتمنى، يقول لك: من بعدي الطوفان، فخار يكسر بعضه، هذا أناني، يا لطيف ! ما أحد يحمل همَّ مَن حوله، لذلك النبي قال:

((والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

[الطبراني عن أنس بسند صحيح]

ما لم تحمل همّ مَن حولك فأنت أناني.

أستاذ علاء، أنا أتصور كلما ارتقى مقام الإنسان في معرفة الله كلما حمل همَّ المسلمين.

مرة أتيت من قبرص إلى دمشق بالطائرة، لما دخلت الساحل السوري رأيت بعيني طرابلس وبيروت معاً، كنت على ارتفاع 43 ألف قدم مكّنني أن أرى مئة كيلومتر على الأرض، طرابلس وبيروت رأيتهما معاً، معنى ذلك أن الإنسان كلما ارتقى تتسع دائرة رؤيته، وكلما كان ممكّناً في الأرض تتسع خياراته في العمل الصالح، فكلما ارتقى إما رؤية، أو قوة، تزداد رؤيته اتساعاً، وقدرته على خدمة الناس كثرة، واللهُ عز وجل يحاسبنا على هذا.

مثلاً: معلّم في صف عنده ثلاثون طالبًا، هو محاسب عن ثلاثين، أما مدير المدرسة فمحاسَب عن 360 طالبًا، مدير التربية محاسَب عن محافظة، وزير التربية محاسَب عن كل القطر، وعن المناهج،

لذلك إن لم أربِّ ابني فسأحاسب، والله عز وجل بيّن هذا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة الحجر)

((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر]

قال عمر ابن الخطاب: << والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها، لِمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ >>.

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك وهو يبكي في مصلاه، قالت له: " لماذا تبكي ؟ قال لها: دعيني وشأني، فلما ألحت عليه قال: ويحك يا فاطمة، إني وُلِّيتُ أمر هذه الأمة، فرأيت المريض الضائع، والفقير الجائع، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذا العيال الكثير، والرزق القليل، وابن السبيل، والمظلوم، والمقهور، والمسجون، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، لأن خصمي دونهم رسول الله، فخفت ألاّ تثبت حجتي لهذا أبكي، فدعيني وشأني ".

إذا لمْ يربِّ الإنسانُ أولاده، أو ربّاهم على عمل لا يرضي الله، أو رباهم على كسب مال حرام، أو علمهم شيئاً بخلاف منهج الله، أو لم يهتم بهم أصلاً، فكل انحرافاتهم وأعمالهم في صحيفة الأب:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

لذلك الله عز وجل يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

أحاديث نبوية في تربية الأولاد وحسن معاملتهم:

ورد في بعض الأحاديث في تربية الأولاد:

الحديث الأول:

((من كان له صبي فليتصابَ له))

ينزل إلى مستواه، يداعبه أحياناً، كان النبي الكريم يمشي مع الصغار، كان يسابقهم أحياناً، يدعوهم إلى ركوب الناقة.

الحديث الثاني:

و كان يقول:

((السلام عليكم يا صبيان))

في السيرة النبوية شيء مذهل عن تربية الأولاد.

الحديث الثالث:

وهو يخطب نزل من على المنبر وحمل ابنه الحسنين، ورفعه على صدره، وتابع الخطبة، أين خطيب يفعل هذا الآن ؟

الحديث الرابع:

كان يحب الصغار، يقول:

((أفضل كسب الرجل ولده))

[رواه الطبراني عن أبو بردة بن نيار رضي الله عنه]

الابن يغدو لأبويه جنة إذا رُبي، أما إذا أهمل فيصبح غيظاً، ومن علامات قيام الساعة:

((يوم يكون الولد غيظاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، ويجترئ الصغير على الكبير، واللئيم على الكريم))

[أخرجه الطبراني عن عائشة رضي الله عنها]

أمة الاستجابة وأمة التبليغ:

إذاً: أمتنا خيّرة إن أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، هذا الأمر يقتضي أن نقسم الأمة إلى أمتين، أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، فالأمة التي استجابت هي خير أمة، أما التي لم تستجب فهي كأية أمة خلقها الله، لا وزن لها إطلاقاً عنده، الدليل:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ)

ادعاءً.

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

بماذا رد الله عليهم ؟

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية: 18)

لو أنه قبل دعواهم لما عذبهم، استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابه، وإذا قال المسلمون قياساً على ذلك: نحن أمة محمد، وكنا:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

ولم يعملوا بمقتضى ذلك فإن الله سيعذبهم.

أنا أنطلق من الحقيقة المُرة التي هي عندي أفضل مَرة من الوهم المريح: إن كنتم كذلك:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

فنحن أمام أمتين، أمة استجابت، هي:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

وأمة لم تستجب هذه كأي أمة خلقها الله.

لذلك إن أردتني أن أضغط مشكلات العالم الإسلامي فهي كلها في كلمتين: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

والله أستاذ علاء، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقّق وعوده.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: 5)

هنا المشكلة.

إذاً: نحن في الزمن الصعب، إذا كنا نحتاج قبل خمسين عاما إلى مئة وحدة لتربية الأولاد فالآن بحاجة إلى مليون وحدة، وما لم نقتطع من أوقاتنا وقتاً لتربية أولادنا والعناية بهم فنحن أمام مشكلة كبيرة جداً.

والله أستاذ علاء، أحياناً ألتقي بإنسان أقام ببلاد الغرب، حياته ناعمة، كل أموره ميسَّرة، دخْله فلكي، زوجته أمامه، لكن خسر أولاده، خسرهم كلياً، والله حينما أسأله عن أبنائه يكاد يموت ألماً، ابن متفلت، انسلخ من أمته، ومن دينه، وعاش حياته الماجنة الفاسقة، تحت سمع الأب والأمّ.

فلذلك أنا أتمنى على كل إنسان ذهب إلى هناك، ودرس، وهيأ له مستقبلا جيدا، أن يعود إلى وطنه، لأن كتفه من خيراته، أن يعود ليقدم علمه لأبناء أمته، ولا يقول: هناك متاعب، ولا توازنْ بين بلد يحتاج إلى تنمية، وبلد استقل من 200 سنة، وازن بين الدنيا والآخرة.

والله حدثني طبيب قال لي: أنا رجعت وأقمت ببلدي، لما أعالج هذه الأمة التي فيها فقراء يحتاجون للمساعدة، أشعر بسعادة لا توصف، لأنه يقدم خيره لأمته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (93-95) : أسباب الشقاق الزوجي ـ حرمان المرأة من الميراث ، الغياب الطويل عن البيت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير:

وإياكم، سيدي الكريم، في حلقات سابقة تحدثنا عن موضوع هام، وعن موضوع يعتبر من آفات المجتمع، هذا الموضوع يتعلق بالكيان الصغير للمجتمع الذي يتشكل المجتمع من خلال تكراره، هذا الكيان هو الأسرة.

الدكتور راتب:

وفي سلامته سلامة المجتمع.

الأستاذ علاء:

وفي اهتزازه يهتز المجتمع، تحدثنا عن الشقاق الزوجي، وأسباب الشقاق الزوجي، ومررنا على مجمل الموضوعات التي كانت من أسباب الشقاق الزوجي، منها الجهل، ومنها ضعف الإيمان، ومنها التعالي، ومنها سوء التصرف، ومنها عدم الكفاءة بين الزوجين، الله عز وجل يقول:

(وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

لتحقيق هذه الآية، ومعاني هذه الآية لا بد من حاضنة، هذه الحاضنة تستوعب الأسرة المكينة، والأسرة التي فيها المودة والرحمة، وكنت قد تحدثت عن هذه المسائل في حلقات سابقة، نود أن نكمل في أسباب الشقاق الزوجي، كل ذلك تبيانا للأزواج كي يحيدوا عن هذه الأخطاء التي تعصف بكيان الأسرة.

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، أمناء دعوته، وقادة ألويته،

وارض عنا وعنهم يا رب العالمين.

لابد من النجاح الشامل لجميع نواحي الحياة:

أستاذ علاء، جزاك الله خيراً، لا بد من تاج تنضوي فقرات هذا اللقاء الطيب تحته، وهو أنه ليس في العلم الاجتماعي ولا علم النفس ما يسمى بالنجاح الجزئي، هو ليس نجاحاً، فما لم تنجح في علاقتك بالله أولاً، وفي علاقتك بزوجتك وأولادك ثانياً، وفي علاقتك بعملك ثالثاً، وفي علاقتك بصحتك رابعاً فإن أي خلل في هذه البنود الأربعة ينسحب على البنود الثلاثة، فلا يمكن أن يكون هناك خلل في أحد هذه البنود إلا وينسحب على بقية البنود، فذلك أنا أريد أن أؤكد للإخوة المشاهدين أنه لا يمكن أن تكون ناجحاً إذا كنت متألقا في عملك، ولست ناجحاً في بيتك، أو أنك ناجح في البيت وفي عملك ضعيف، أو ناجح في البيت والعمل، وعلاقتك مع الله ليست كما ينبغي، أو ناجح في الثلاثة وتهمل صحتك.

الأستاذ علاء:

إذاً هي أربعة بنود للنجاح.

الدكتور راتب:

لا بد من نجاح شمولي، بل إن النجاح الجزئي لا يسمى نجاحاً، فقد يذهب إنسان إلى بلد بعيد ليجمع أموال طائلة، ويهمل زوجته وأولاده، فالابن يربى في الطريق، والزوجة من بيت إلى بيت، يعود وقد رأى أسرة مهدمة، إذاً: لم ينجح، ولو جاء معه بالأموال الطائلة.

أريد أن أبين أن النجاح لا يتجزأ، النجاح شمولي، لذلك قضية الأسرة أحد أركان النجاح العام، ولأن البيت مكان فيه سكينة، فيه راحة، كل ضغوط الحياة، كل متاعب الحياة، كل إشكالات الحياة، كل المشكلات التي يئنّ منها الإنسان خارج البيت إذا دخل إلي بيته، وكان مرتاحاً مع زوجته فهذه الراحة تمتص كل هذه الهموم، أما إذا جاء إلى البيت، وبدأت المشكلات، وخرج من البيت، وبدأ المشكلات فهذه الحياة لا تطاق، هي جحيم لا يطاق، لذلك سمى الله عز وجل الزوجة سكناً، قال تعالى:

(وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

(سورة الروم)

الحقيقة الأولى: ليس هناك نجاح جزئي، الإنسان لا يتبجح بنجاحه في عمله، وبينه وبين زوجته ما صنع الحداد، لا يتبجح أنه نجح في عمله، وأولاده ليسوا كما ينبغي، لا يتبجح بنجاحه في عمله، وعلاقته مع الله ليست كما ينبغي، لا يتبجح بنجاحه في عمله، وصحته تعاني ما تعاني.

أنا أتمنى أن نقتنع أنه لا بد من نجاح شمولي، والأسرة أحد أركان هذا النجاح، هذا تاج تحته بنود.

لابد من مقدمة، الإله العظيم خالق السماوات والأرض والخبير، العليم، الرحيم، الحكيم:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

الحرمان من الميراث سبب من أسباب الشقاق الزوجي:

والإنسان أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة المعقدة تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز صانع حكيم، له تعليمات التشغيل والصيانة، فالجهة الوحيدة التي ينبغي أو يجب أن نأخذ بتعليماتها هي الجهة الصانعة، لأنها الخبيرة، فالخبير تولى بذاته العلية توزيع الميراث، ولم يسمح لنبيه المعصوم المخلوق المكرَّم أن يوزع الميراث، فهناك أسر لا تعد ولا تحصى تريد أن تحرم البنات، بسلوك جاهلي، بسلوك ينمّ عن أفق ضيق، أن الثروة تذهب إلى الأصهار، هذا الصهر زوج ابنتك، هو أقرب الناس إليها، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل: مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: زوجها، فلما سئل: من أشد النساء حقاً على الرجل قال: أمه.

إن الأسر التي تريد أن تحرم البنات الميراث بطريقة أو بأخرى، بوكالة، بتفويض... والزوج الذي يرى أن امرأته التي هو وهبها كل شيء لا تهبه شيئاً، وأهلها حرموه من كل شيء، هنا تبدأ المشكلة، هي تبدأ أولاً من أهل الزوجة، وهناك أزواج آفاقهم ضيقة، وقد يكونون في ضعف مادي شديد.

الأستاذ علاء:

تسمح لي خاصة في بعض القرى حيث الميراث يكون أرضاً زراعية، ويخشى أن تذهب هذه الأرض إلى الغريب، إلى عائلة الصهر، وتحرم البنت من حقها، وبالتالي هذا تعدٍّ على حق الله، هنالك بعض المناطق تقوم بهذه الأفعال جهلاً وتعدياً على حق الله عز وجل.

الدكتور راتب:

حرمان البنات من الميراث عنصرية مقيتةً:

أستاذ علاء، أنا لي رأي دقيق: أن البشر جميعاً على أعلى مستوى، على مستوى دول عظمى، وعلى مستوى أفراد، إما أن يكونوا إنسانيين أو عنصريين، فالرجل الذي يرى أن أصهاره دونه ينبغي ألا يأخذوا شيئاً عنصري، والزوج الذي يرى له ما ليس لزوجته عنصري، وكل إنسان يضع نفسه فوق الآخرين فهو عنصري، بل إن دولاً عظمى حينما تخص نفسها بميزات ولا تسمح لأحد أن ينالها فهي جهة عنصرية، بل إن كل جهة تعامل الآخر بخلاف ما تعامل الأقرب هي عنصرية، فلذلك حينما الأب يحرم بناته من حقهن في الميراث فهو أب عنصري، لا ينتمي إلى منهج، ولا إلى قيمة، ولا إلى تشريع سماوي، ولا إلى وحي سماوي، ينتمي إلى مزاجه الشخصي، فلذلك القضية تبدأ من أولياء الزوجات، وتنتهي شقاقاً، وقد يودي إلى الطلاق، وأنا عندي مئات القصص التي رفعت إلي لحل هذه المشكلة، سببها أن أهل الزوجة يريدون ألا يعطوا صهرهم شيئاً، فبأسلوب أو بآخر يحتالون، أما الحديث الذي يقصم الظهر:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ))

[الترمذي]

هذا العمل يحبط أعمال الإنسان كلها.

أستاذ علاء، هنا ملمح دقيق جداً قالته السيدة عائشة لرجلٍ ممن عاصرها من أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قالت:

((قولوا لفلان أنه أبطل جهاده مع رسول الله))

وأنا أقول الآن، وأنا أعني ما أقول ولا أبالغ فيما أقول: هناك أعمال يقترفها الإنسان فيها ظلم، والله تلغي صلاته وصيامه وحجه وزكاته وإيمانه بالله.

كلمة (الله أكبر)، وكلمة التوحيد بين لسان الحال ولسان المقال:

المشكلة أستاذ علاء أن الإنسان له لسان قال، وله لسان حال، نحن قريبو عهد من عيد الفطر السعيد، ومن السنة وفي القرآن الكريم:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185))

(سورة البقرة)

فكلمة (الله أكبر) يلفظها مليار وخمسمئة مليون صبيحة أحد العيدين، اللسان يقول: الله أكبر، الآن الذي يغش الناس، ويحقق ربحاً كبيراً، غشهم قد تكون مادة غذائية مسرطنة، قد تكون مادة غذائية انتهت صلاحيتها، قد تكون مادة لا تصلح للاستخدام البشري، قد تكون مادة لها مشكلات كبيرة، سمون غير مهدرجة، غير مشبعة، أو مشبعة.

الأستاذ علاء:

أو يريد أن يحتكر ليزيد في السعر.

الدكتور راتب:

أنا أقول ولا أبالغ، وأعد هذا جزءًا من الدين: الذي يبني ثروة على أنقاض الناس، على أنقاض صحتهم، والله ما قال: الله أكبر، ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة، لسان حاله يرى أن هذا المال الذي كسبه من هذا الغش أكبر من الله، هذا لسان الحال، رأى أن هذا المبلغ إذا حققه، وأساء إلى صحة الناس أكبر من الله، ولما يبيع إنسان دواء انتهى مفعوله، ويحك مكان التاريخ، والدواء يؤذي تفكك فهذا يبني ربحاً على مضرة الآخرين، والله ألغى صلاته وصيامه وحجه وزكاته، والله ألغى كل كلمات الإسلام، ألغى كلمة: الله أكبر، هذا الذي يطيع زوجته في معصية كبيرة، لسان قالِه يوم العيد يقول: الله أكبر، مع المصلين، أما لسان حاله يرى أن إرضاء زوجته أكبر من إرضاء الله عز وجل ، ما قال: الله أكبر، ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة.
مشكلتنا مع هذه الكلمات الكبرى في الإسلام، لا إله إلا الله، وتعني لا معطي ولا مانع، ولا معز ولا مذل، ولا ناصر ولا حافظ، ولا مؤيد إلا الله، فإذا توجه الإنسان إلى غير الله، ونسي الله، وأرضى غير الله بمعصية الله فما قال: لا إله إلا الله، ولا مرة، ولو رددها بلسانه ألف مرة، هذه الكلمات الكبرى فرغت من مضمونها، وأصبحت كلاما يردَّد لا معنى له، فلذلك هذا الكمّ الكبير من المسلمين، مليار وخمسمئة مليون ليسوا كما ينبغي، ليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، هذا شيء مؤلم جداً.

وعودُ الله وشرط تحقُّقها:

إليكم الحقيقة المُرّة التي هي أفضل ألف مَرّة من الوهم المريح: والله إنه من سابع المستحيلات، و والله لزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإذا قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي (55))

(سورة النور)

الشرط: يعبدونني، فإذا أخل الطرف الآخر فيما عليه من واجبات فالله عز وجل في حل من وعوده الثلاثة، فلذلك يجب أن نصطلح مع الله، والكرة في ملعبنا، وأسباب سلامتنا وسعادتنا وانتصارنا على أقوى أقوياء الأرض بيدنا، وكل هذا التفوق ألغاه الله عز وجل بآية واحدة:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: 120)

أساطيل، بوارج، صواريخ عابرة للقارات، درع صاروخي، حاملات طائرات، أقمار الصناعية، الإعلام بيدهم، الأموال بيدهم، التحالفات بيدهم، والله لو اصطلح المسلمون مع الله لألغيت كل هذه رموز القوة:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: 120)

فالإسلام كلٌّ متكامل، الإسلام نهج، ولن نقطف ثماره إلا إذا طبقناه كلّه.

أستاذ علاء، متى تمشي السيارة ؟ تحتاج إلى محرك، وبنزين، وعجلات، ومقود، وكهرباء، لها شروط من أجل أن تمشي، الذي عنده رفراف فقط فهذه ليس سيارة، هذه اسمها سيكراب، نحن عندنا دين سيكراب، وما عندنا دين كامل، لو كان كاملا لكانت النتائج مئة بالمئة، وزوال الكون أهون على الله مِن ألاّ يحقق وعوده للمؤمنين، فالكرة في ملعبنا، أريد ألا نيئس، ألا نحبط، ألا نحسّ أن القضية انتهت، الأمل كبير عند الله عز وجل، وأنا أقول: أخطر شيء أن نهزم من الداخل:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ (12))

(سورة المائدة)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

انتقلت من قضية أسرية حينما تحرم الفتاة من حظها من ميراث أبيها، ويغضب الزوج الفقير، ويتألم لهذا التصرف العنصري، لا نسمح لهذا المال أن ينتقل من بيت فلان إلى بيت فلان، نعطي الابن كل شيء، مع أنه والله هناك فتيات فيهن خير لآبائهن لا يعلمه إلا الله، فالتفرقة بين الذكور والإناث جاهلية،

كان عليه الصلاة والسلام حينما تأتيه بنت يضمها، ويشمها، ويقول: ريحانة أشمها، وعلى الله رزقها. أثر على النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقف لابنته فاطمة، يقف ترحيباً بها، فأنا أرى أننا عندنا جاهلية كبيرة، مع أن الإطار إسلامي.

الأستاذ علاء:

كما تفضلت من خلال المظلة نأخذ جزءا، ونترك أجزاء، هذا ليس تطبيقا، فطمع أو عنصرية الآباء في حرمان الفتيات، وتألم زوج الفتاة يبدأ هذا الشيء عصفاً بكيان الأسرة، وتبدأ المشاكل، ومن هنا تهتز هذه الأسرة، وتنتهي إلي الطلاق.

الدكتور راتب:

لابد من وعي الزوج في حال حرمان زوجته من ميراث أبيها:

لكن كتحفظ، قد يكون الزوج واعيا جداً، ودخله جيد، وليس بحاجة، فلا يعلق أهمية، هذه حالات نادرة، زوج واعٍ، وإيمانه بالله قوي، ودخله جيد، وما له بحاجة لزوجته، فما سأل، وما علق أيَّ تعليق، لكن يتألم لهذا الموقف العنصري، أحياناً يكون نصيبها من الميراث يقابل ثمن سيارة، والسيارة تحل مليون مشكلة، السيارة مسعدة للأسرة، تحل مشكلات المواصلات العامة والتأخير، فلو أن هذه البنت أخذت هذا المبلغ، وتسجله باسم ابنتك، هذا البيت سجله باسم ابنتك، فقويتَ لها مركزها، وأعانت زوجها، الزوج وجد قسما من المال لزوجته انضم إلى الأسرة، انضم إلى الأولاد، لذلك حينما أقول: لم يسمح الله لسيد الخلق وحبيب الحق أن يوزع الميراث، بل تولاه بذاته في القرآن الكريم، معنى هذا أن الذي يضر في الوصية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تجب له النار.

الأستاذ علاء::

سيدي هذا، البند في أسباب الشقاق الزوجي أصبح واضحاً وضوح الشمس بكل معنى الكلمة، الآن ننتقل إلى سبب آخر.

تسمح لي: الإنسان يضطر لجلب الرزق، ضاق رزقه في بلده، انتقل إلى بلد آخر، وترك زوجته وأولاده طلباً للرزق، هذا الغياب من الناحية الشرعية هل هو مؤسّس لحالة ضياع، وشقاق بين الزوجين، أم أن

هذا الأمر يمكن أن يكون بين الطرفين ليصبح داعماً لهذه الأسرة ؟

الدكتور راتب:

الغياب الطويل للأب من أسباب الشقاق الزوجي:

1 – الغياب الطويل ضمن المدينة:

بادئ ذي بدء، أستاذ علاء، قد يكون الغياب ضمن المدينة، يخرج الرجل الساعة السادسة، ويأتي الساعة الواحدة في الليل، يأتي ليأكل وينام، وهذه الزوجة التي حبستها من أجلك مَن يحادثها ؟ مَن يؤنسها ؟ مًن يهتم بها ؟ مَن يبتسم في وجهها ؟ مَن يثني عليها ؟ بحاجة إلى من يثني عليها، ومن يؤلف قلبها، مَن يصغي إليها، فإذا ذهب الزوج قبل ذهاب الأولاد إلى المدرسة، ويعود بعد نومهم لم يصبح أبًا، مَن يربي هذا الولد ؟ مَن يستمع إليه ؟ مَن يرشده ؟ مَن يعلّمه ؟ مَن يربي أخلاقه ؟ لا أحد، لم يصبح الأب أبا الزوج ولا الابن ابنا، الشاشة تربي فقط.

2 – العمل الذي يمتصّ كل وقت الإنسان خسارةٌ:

أضرب مثلا تركيبيًّا لقضية الغياب الطويل: لو أن إنسانا عرضوا عليه لو جئت بدكتوراه في الطب تكون وزير الصحة، هو لا يملك شيئا من حطام الدنيا، على أن يعمل في بلد الدراسة ويأكل، ذهب إلى باريس، اضطر أن يعمل بمطعم ساعتين ليكفي مصروفه، لكن مهمته كبيرة جداً، أن ينال دكتوراه، ويعود بأعلى منصب في بلده، ومع أعلى منصب بيت فخم وزوجة جميلة ومركبة، إلى آخره، هذا طمع بعمل إضافي، فضاعف ساعات عمله في المطعم، فضعفت دراسته، فجاءه عرض ثالث فضاعفه ثلاثة أضعاف، بعد هذا عمل كل وقته في المطعم فألغى مهمته الأساسية، لذلك العمل الذي يمتص كل وقتك هو خسارة، لأنه ألغى وجودك.

بعض العلماء لهم كلمة: الإنسان الذي ما عنده وقت فراغ ليس إنساناً:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

(سورة المدثر)

العمل الذي يمتص كل وقتك هو أكبر خسارة لك، لأنه ألغى وجودك، ألغاك كأب، ألغاك كزوج، الإنسان بحاجة إلى أن يمضي وقتاً مع من يحب، مع أصدقائه، بمسجد، بلقاء مع عالم، بلقاء مع صديق، بسهرة

لطيفه، بسفر، بنزهة، وحينما يلغى وقت الفراغ يلغى وجود الإنسان.

3 – مجتمع التسوّق والاستهلاك:

إنّ هذا الأسلوب المعاصر بعرض السلع في كل مكان في الطرقات، وفي الشاشات، وفي الصحف، المكيفات، والمركبات، يخلق حاجة استهلاكية كبيرة جداً، والناس حيال هذه الحاجة الضاغطة ثلاثة أنواع، النوع الأول: شخص ألغى وقت فراغه، فألغى وجوده كأب، وكزوج، وكإنسان، وعمل ليلاً ونهاراً ليؤمّن هذا المكيف، وهذه المركبة، فهذا إنسان شريف، ما مدّ يده للحرام، ولكن ألغى وقت فراغه، وضيع زوجته وأولاده، وفقد أبوَّته، وتحول إلى آلة.

النوع الثاني: يعيش بالحرمان المستمر، ما عنده شيء.

النوع الثالث: مد يده للحرام، فسقط من عين الله، ومن عين الناس، هذا مجتمع الاستهلاك.

دخلت امرأة إلى سوبر ماركت، قالت: يا إلهي، ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان !!! نحن عندنا حمى استهلاك، التسوق متعة، هؤلاء الغربيون أرادوا لنا أن نكون متسوقين فقط لا منتجين.

الأستاذ علاء:

وحولوا لنا الحاجات الأساسية إلى حاجات وهمية، والإنسان بحاجة إلى ملبس، إلى حذاء، ولكن لسنا بحاجة إلى نوع معين ثمنه اثنا عشر ألف ليرة، حذاء رياضة، مثلاً.

الدكتور راتب:

مثلاً: سجادة وطنية صوف مئة بالمئة، جميلة تقوم بالوظيفة التامة مئة بالمئة، عزل، ومنظر، وصوف، هذه ثمنها خمسة آلاف، وسجادة ثمنها ثمانمئة ألف، الفرق في الاستعمال بالمئة خمسة، أما بالسعر فثمانمئة ضعف، فحينما نسعى إلى الرفاه، أو إلى الترف فهذا يعيق تقدم الأمة، والإنسان له مصاريف ينبغي أن توفَّر.

الأستاذ علاء:

لذلك قالوا: الحاجة الوهمية التي لا يحتاجها الإنسان في المجتمع الاستهلاكي تتحوّل إلى حاجة أساسية، هو ليس بحاجة لها، الإنسان بحاجة إلى التعليم، الطعام، الشراب، الصحة، الكسوة، ولكن هذه الكسوة كمثال السجادة تفي الغرض، ولكن للزهو والكبر نبحث عن أنواع معينة فخمة.

الدكتور راتب:

فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا:

فلذلك النبي صل الله عليه وسلم قال:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

هو أمن الإيمان، فإذا أطعت الواحد الديان ألقى الله في قلبك الأمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

والله ما فاته من الدنيا شيء، وخذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، ومَن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر.

الأستاذ علاء:

الغياب الطويل عن البيت سواء للعمل أو غير ذلك.

الدكتور راتب:

4 – الغياب الطويل خارج البلد:

للعمل في بلده، وقد يسافر إلى بلد بعيد، إذا كان هناك تواصل في الهاتف، ومتابعة الأخبار، وإرسال أشياء، وزوجة صارمة جيدة، وأهل مربَّون كبار، يمكن أن يخفف من أخطار الغياب الطويل، أما الغياب لسنة بكاملها، وهو لا يعلم عن أولاده شيئا، ولا عن دراستهم، ولا عن أوقات فراغهم، ولا عن علاقتهم بأصدقائهم، ولا عن زوجته شيئاً، هذا شيء يحتاج إلى دراسة مطولة وتدقيق.

الأستاذ علاء:

لذلك سيدنا عمر في الغياب بعد انقطاع الأخبار طلق بعد فترة طويلة، استشار أم المؤمنين السيدة حفصة، كم تستطيع المرأة أن تصبر على غياب الزوج ؟ فأخذ بهذا الحكم، وإذا انقطع الخبر لمدة طويلة يفرِّق القاضي بين الزوجين.

الدكتور راتب:

الغياب الطويل إلغاءٌ للمساكنة الزوجية:

الغياب الطويل ألغى المساكنة، ألغى أحد مقاصد الزواج، وهناك زواج المسيار، أنا لا أدخل في تفاصيل الحلال والحرام، كمقيم في بلد إسلامي، وله زوجة في بلد ثانٍ، يمكن في سنة ما يزور هذا البلد، أنت سميتها زوجة، وصنفتها مع الزوجات، وألغيت العنوسة منها، وهي بقيت عانسا سنة ما نظرت إليها، هي من شدة رغبتها بإنجاب ولد قبلت بهذا الزواج، والزواج أكبر مقوم من مقوماته وهو المساكنة، كما أن الرجل بحاجة إلى امرأة هي بحاجة إلى رجل، الإنسان ليس مفتقر إلى الله وحده، مفتقر على زوجة، الزواج نعمة كبيرة، بحاجة له، أنا لا أرى من عمل أعظم من تيسير الزواج.

الأستاذ علاء:

إذاً في وجوده في المنزل عليه أن يصغي إلى زوجته، وأن يستمع إليها.

الدكتور راتب:

وأن يؤنسها، بتعبير أو بآخر جنس الرجل حسي، تثيره منظر امرأة، وهي جنسها اجتماعي، يثيرها كلام طيب، هذا شيء ثابت، طبيعة الجنس عند المرأة طبيعة اجتماعية، لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ (32))

(سورة الأحزاب)

نقطة ضعفها القول المعسول، أما الرجل فقال له: غض بصرك، الجنس الحسي غير الجنس الاجتماعي، المرأة تحتاج إلى من يؤنسها، من يلاطفها، من يثني عليها، من يثني على عملها، على بيتها، على أناقة أولادها، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ))

[النسائي، أبو داود]

الزوجة الصالحة تسرك إذا نظرت إليها، لكن في رواية عجيبة، تسرك إذا نظرت، ليس إليها، إلى غرفة النوم، إلى المطبخ، إلى ثياب أولادك، مرتبة، نظيفة، إذا بذلت زوجة جهدا كبيرا فالمفروض أن تسمع ثناء من زوجها، وأحيانا الزوج أربعين سنة لا يتذكر ولا يثني عليها بكلمة، الأكل، الطبخ، النظافة، الأوامر، والمحاسبة.

الهدف من هذه اللقاءات التوفيق بين الزوجين.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (94-95) : الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف : هل هو بدعة أم ماذا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الواقع العلمي الشرعي للأحتفال بلمولد النبوي:

سيدي، تسمح لنا أن نخصص هذه الحلقة، والتي تليها إن شاء الله، وربما أكثر لا ندري لمحطة هامة يتزامن إرسال هذه الحلقة مع حلول هذه الذكرى العظيمة ذكرى مولد النبي العربي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه ربه تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

هذا الرسول الرحمة المهداة، هذا الرسول الخاتم التي جاءت الرسالة التي لخصت كل الشرائع، وتضمنت كل الشرائع، وبرسالته، بمقدمه، بمولده، وبنزول هذه الرسالة، وبتكليفه بالرسالة، وبانتقاله إلى الرفيق الأعلى ينتهي عهد الرسالات إلى الأرض فتكون الرسالة الخاتم هي لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

سيدي الكريم إذا قال ربنا عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

إذا قال ربنا عز وجل عن النبي:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح الآية: 29)

إذاً: هذه الدعوة نقلت الأمة، ونقلت الإنسانية من مواقع جهل وظلام، إلى مواقع حضارة ونور، وتقدم وعلم، وحب وجمال، صاحب هذه الذكرى، وصاحب هذه الرسالة، وهذا الرجل لا قبل الرسالة، ولا بعد الرسالة، لم يُعهَد عنه أي شيء كان فيه خرم لمروءة أو لخلق، بل كان يسمى الصادق، الأمين في مكة قبل أن تتنزل عليه الرسالة، ألا يحق لنا أن نحتفل بالذكرى وصاحبها ؟ ألا يحق لنا أن نفرد لهذه الذكرى الاحتفال الذي عهدناه، والذي مر البارحة، وكذلك في مساجدنا، وفي كل بيوتاتنا، وفي كل محافلنا، هنالك لغط في هذه المسألة، هنالك من يقول: الاحتفال بالمولد بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل

ضلالة إلى النار، مباشرة الطريق مفتوح إلى النار، كيف نتناول هذه المسألة ؟ وما هو الواقع العلمي الشرعي الحقيقي ؟

الدكتور راتب:

واقع الناس في الاحتفال بالمولد النبوي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ علاء، جزاك الله خيراً على هذا السؤال المهم، لكنني قبل كل شيء أريد أن أوضح شيئين:

1 – الاحتفال بالفلكلوري غير مقصود لذاته:

الأول: هناك احتفال فلكلوري بعيد المولد، وقد ألفناه من أعوام طويلة، والذي نتمناه أن يكون هناك احتفال حقيقي بعيد المولد، ما الفرق بينهما

الاحتفال الفلكلوري أن نقيم الزينات، وأن نلقي الكلمات، أن نشيد بصاحب الذكرى.

2 – الاحتفال الحقيقي منوط بالاقتداء بسيرته ومنهجه:

أما أن أرى أن الاحتفال الحقيقي الحقيقي هو أن نقتدي بسنته، لأنه قد لا نصدق يمكن أن نربط ما يعانيه المسلمون اليوم في شتى أقطارهم من حالة لا ترضي، أن نربطها باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الله عز وجل يقول:

3 – اتباع منهج النبي ضمان لعدم تعذيب الله لنا:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: 3)

أستاذ علاء، صيغة: (وما كان الله) من أشد حالات النفي، هذا سماه علماء اللغة نفي الشأن، قد تسأل إنسانا فتقول له: هل أنت جائع ؟ يقول لك: لا، هذا نفي الحدث، أما أن تقول له: هل أنت سارق، لا سمح

الله، يقول لك: ما كان لي أن أسرق، لا أفعل هذا، ولا أتمناه، ولا أرضاه، ولا أقبل به، ولا أتحمل سمعته، بعض العلماء عد أكثر من عشر حالات ينتفى بها في هذه الصيغة، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ)

ستحيل، وألف ألف ألفِ ألف ستحيل أن تعذب أمته ومنهج النبي قائم في حياتهم، في بيوتاتهم، في أعمالهم، في كسب أموالهم، في حلهم، في ترحالهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في تعاملهم، في سلمهم، في حربهم، ما دام منهج النبي عليه الصلاة والسلام مطبقاً في حياة المسلمين أقول لك وأعني ما أقول: مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذبنا الله عز وجل.

إذاً يمكن أن نربط ما يعانيه المسلمون اليوم من حالة لا ترضي لا ترضي الصديق وتشمت العدو، بعدم اتباع رسول الله.

إذاً أنا لا أريد احتفالاً فلكلورياً، وهذا شيء لطيف، وجيد، ومقبول، ورائع، أنا أريد احتفالاً حقيقياً بعيد المولد.

الحقيقة مقام النبي أكبر بكثير أن نذكره يوماً في العام، مقام النبي يقتضي أن نذكره كل يوم، أن نطبق منهجه في بيوتنا، في علاقتنا، في زوجاتنا، بأولادنا، بجيراننا بعملنا، بكسب أموالنا، بإنفاق أموالنا،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

قال علماء التفسير: الآية واضحة جداً في حياة النبي، ما دام شخص النبي بين ظهرانيكم هو في بحوبحة من عذاب الله، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي عليه الصلاة والسلام ؟ المعنى ما دام أمر النبي سنته، منهجه، خلقه، مبادئه، مواقفه مطبقة في حياة المسلمين لا تستطيع قوى الأرض أن تنال منهم،

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

لذلك أنا أريد أن أضيف إلى الاحتفال الفلكلوري احتفالا حقيقيا باتباع هذا المنهج القويم، لأنه منهج رب العالمين.

4 – ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله:

أؤكد لكم وللإخوة المشاهدين أنه ما من مشكلة على وجه الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله، عن تعليمات الصانع، عن تعليمات افعل ولا تفعل.

الإنسان أعقد آلة في الكون، وله صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة .

إذاً: نحن نحتفل حقيقة بعيد المولد، حينما نقتني شيئاً من سيرته، كيف كان في بيته، مع زوجته، مع أولاده، مع جيرانه، كيف كان مع إخوانه، مع أصحابه، في حلقاته في آلامه، في أفراحه، في أحزانه، في حله، في ترحاله.

الإنسان والشخصيات الثلاث:

لذلك: كل إنسان له شخصية يكونها، هو أنا أو أنت، وشخصية يكره أن يكونها، قد يكون مثقفا يكره الجهل، قد تكون أذواقه الجمالية عالية جداً، يكره الأشياء غير الجميلة، أما قل لي من تتمنى أن تكون على منهجه أقل لك من أنت، فكل إنسان له شخصية يكونها، وشخصية يكره أن يكونها، وشخصية يتمنى أن يكونها

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

(سورة الأحزاب الآية: 21)

لم أدخل بعد في الإجابة عن سؤالك الكريم، الحقيقة حكم الاحتفال بعيد المولد فرقنا بادئ ذي بدء بين الاحتفال الفلكلوري، واتباع حقيقي.

الأستاذ علاء:

كتفريقنا خلال حلقات هذا البرنامج الطويلة بين العبادة الشكلية، والعبادة الحقيقية، الصلة بالله عز وجل.

الدكتور راتب:

وقلت: مقام رسول الله أعظم بكثير من أن نذكره في يوم واحد.

ومثل هذا يقال في عيد الأم !!!!

وقد أعرج على عيد الأم، ففي العالم الغربي الشارد قد لا يتاح للأم أن ترى ابنها في العام مرة، فلا بد من عيد للأم هنا، أنا لا أرفضه هنا، لكن نحن ثقافتنا الإسلامية وعلاقاتنا الإنسانية، وشدة تواصلنا، ونجاح أسرنا، وتماسك أسرنا، هذا يعني أن الأم ترى ابنها كل يوم، وإذا لم يقدم لها كل آيات التبجيل والاحترام والتكريم يعد منبوذاً في المجتمع الإسلامي، فنحن لسنا بحاجة كما يحتاج الغربيون لمثل هذه الأعياد.

على كلٍ هذا تعليق صغير.

حكم الاحتفال بالمولد وشواهد ذلك في القرآن الكريم:

1 – الآية الأولى:

الآن: الله عز وجل يقول:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود الآية: 120)

إذا كان قلب سيد الخلق، وحبيب الحق يزداد ثبوتاً بسماع قصة نبي دونه، فلأن يمتلئ قلبنا إيماناً، وتألقاً، ونضارة، وحماسة، لأن نكون على منهج الأبطال بسماع قصة سيد الأنام.

هذه الآية الأولى، وهي الشاهد الأول لوجوب أن نتعرف إلى رسول الله،

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

الأستاذ علاء:

هذا الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وكما تفضلت الخطاب عن قصص الأنبياء دونه.

الدكتور راتب:

نعم هو قمة الأنبياء، سيد الأنبياء والمرسلين، يزداد إيماناً بسماع قصة نبي دونه، ونحن المؤمنون المقصرون إذا سمعنا، أو استمعنا إلى قصة سيد الأنبياء، نتألق، هذا شاهد.

1 – الآية الثانية:

الشاهد الثاني:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون الآية: 69)

يدعونا الله إلى معرفة رسوله، لأن معرفة رسول الله جزء من الدين، بل هي شطر الدين، لأن كلمة الإسلام الأولى: " لا إله إلا الله محمد رسول الله "، ولأن المبادئ وحدها لا تكون كافية لإقناعنا بالمثالية، ما لم تجسد في الإنسان، يحس بما نحس، يتمنى ما نتمنى يخاف مما نخاف، يشتهي ما نشتهي.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة التوبة الآية: 128)

لولا أنه بشر، تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لأنه بشر، ولأنه يخاف مثلنا، ويتألم مثلنا، ويقلق مثلنا، فَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة]

لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لقد انتصر على بشريته، فكان سيد البشر.

إذاً: هذا النبي الكريم الذي يدعونا الله إلى معرفته، لأن الكمال الإلهي الذي يشتقه الإنسان من اتصاله بالله، ظهر واضحاً جلياً في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، رمز الكمال الإنساني، المشتق من الكمال الإلهي، رمز الكمال البشري الذي يشتق من خلال اتصال الإنسان بالله عز وجل.

(بِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

هذا الشاهد الثاني:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

1 – الآية الثالثة:

الشاهد الثالث.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

(سورة سبأ الآية: 46)

ما الذي يمنع أن نجتمع في بيت من بيوت الله، أو في بيت من بيوتاتنا، ونتحدث عن هذا النبي، عن هذا القائد العظيم، عن هذه الأخلاق الرائعة، عن شمائله الحميدة، عن مقامه الرفيع، عن منهجه القويم، عن تواضعه، عن عدله، عن رحمته، عن لطفه، عن وفائه ؟ والله الكلام عن رسول الله يملأ القلب سعادة.

إذاً: ما الذي يمنع أن نجتمع في بيت من بيوتات الله، أو في بيت من بيوتنا، ونتحدث عن هذا النبي الكريم، لأن معرفة رسول الله جزء من الدعوة، بل هي شطر الدين بل إننا لا نستطيع أن نقنع بمنهج الله إلا إذا طبق من خلال إنسان.

لذلك قالوا: الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، كان خلقه القرآن، بصدقه، بأمانته.

الحقيقة المثالية أستاذ علاء أنك لا تعيش إلا بالمثل الحي، أحياناً حينما تبتعد المثالية عن الواقع تصبح كلمة مثالية للسخرية، أعظم ما في الدين أنه جعل المثالية واقعية، وجعل الواقع مثالية، هذا التواؤم والتزويج بين المثالية والواقع أروع ما في الإسلام.

إذاً: أنا حينما أدرج التعريف برسول الله، بشمائل النبي، بأخلاق النبي، بكمالات النبي، بتواضع النبي، بعدل النبي، برحمة النبي، أنا حينما أجعل تعريف الناس برسول الله ككمال مجسد في بشر، هذا يندرج تحت الدعوة إلى الله، لكنني ممنوع أن أقول: إنه عبادة، فإذا قلت: هو عبادة فهو بدعة، لأن العبادات الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل القطعي والثابت بنص، أما الأشياء فالأصل فيها الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل القطعي والثابت.

إذاً: أنا حينما أدرج الاحتفال بعيد المولد من دون أن أقول: إن الكون خلق من أجله هذه شطحة، لكن الكون كله، والبشر بشكل خاص خلقوا ليكونوا على شاكلة رسول الله على منهجه، على كمالاته.

الحقيقة وسط بين الطرفين :

الحقيقة وسط بين طرفين، بين من يحرم كما تفضلت في بادئ هذه الحلقة الاحتفال بعيد المولد، ويجعله طريقاً إلى النار والعياذ بالله، وبين أن أرتكب في بعض البلاد الإسلامية من البدع، ومن الشطحات، ومن الرقص، ومن الاختلاط، ومن السحر، ومن ومن، شيء لا يحتمل بل نخرج من جلودنا، فنحن بين إنكار الاحتفال، وبين أن نشطت في بدع ما أنزل الله فيها من سلطان ـ إنكار الاحتفال تطرف، والاشتطات تطرف ـ والحق وسط بين تطرفين.

الأستاذ علاء:

الآن سيدي من خلال ما قدمت، ما أجمل أن يأتي الأب والأم الأخ الكبير، الأخت الكبيرة في البيت، وأن تشتري بعض الحلوى، أن تزين في البيت، وأن تجمع إخوتها، أو أن يجمع أولاده، ثم يقص على أولاده، يجمعه بجلسة سهرية عائلية.

الدكتور راتب:

أدبوا أولاكم على حب رسول الله:

أكاد أقول هذا واجب، لا أقول مباح، واجب، لأنه أدبوا أولادكم على حب نبيكم، والحقيقية من السذاجة والسخف أنا أقول لابني: يا بني أحبَّ رسول الله، هذا كلام ما له معنى، أما حينما أجلس معه، أبين له

محبته للصغار، أبين له كيف أن الحسن والحسين كانا يركبان على ظهره في أثناء السجود، وكيف يطيل السجود كي يرتاحا، أنا حينما أبين كيف كان وفاءه لزوجته، تقول له السيدة عائشة: كيف حبك لي؟ يقول لها كعقدة الحبل، تسأله من حين لآخر: كيف العقدة ؟ يقول: على حالها، كان زوج من الطراز الأول، أب رحيم جار كريم، صديق حميم، وفي.

أنا حينما أرى شخصية تمتلئ كمالاً، ورحمة، وعفة، وأدباً، وتواضعاً، أقتدي بها، كل واحد منا أستاذ علاء في بباله شخص، أهل الدنيا، أهل الأموال، يقول لك: فلان ربحه 18 مليونًا، أو عنده ملياران، أهل الشهوات، فلان عنده بيت، عنده نساء، عنده كذا، كل واحد يضع دون أن يشعر قدوة له مما يطمح إليه، أما أنا فأرى أن المؤمن الحقيقي طموحه دائماً أن يكون على منهج رسول الله، طموحه أن يكون على سنته، طموحه أن يكون مقترباً من كمالاته البشرية.

لذلك: الاحتفال بعيد المولد أنا أراه جزء من الدين، من دون أن نسمي هذا عبادة حتى نكون على الكتاب والسنة.

الأستاذ علاء:

تماماً سيدي على الكتاب والسنة، لا نقول: عبادة، وما سمعت أحداً قال: إن في قيام الاحتفال عبادة.

الدكتور راتب:

لكن هناك من الذين ينكرون الاحتفال، ويجعلونه طريقاً إلى النار، يتهمون من يحتفلون بأنهم يدعون أنه عبادة، هذا ما قاله أحد.

مزايا يوم الأثنين يوم المولد:

الأستاذ علاء:

عُهد عنه عليه الصلاة والسلام أنه يصوم يوم الاثنين، فسُئل عن ذلك، قال: هذا يوم ولدت فيه، هذا حديث النبي، وهو في الصحاح.

الدكتور راتب:

والسلام عليه يوم ولد، موضوع الولادة والوفاة شيء مهم جداً بحياة الإنسان أخطر حدثين.

الأستاذ علاء:

لذلك أن يعرف الإنسان متى ولد، وفي الساعة، وفي اليوم شيء هام، وله علاقة بالفقه وبالتكليف، أنه بلغ التكليف في سن كذا، وإن كان هذا غير واضح، وغير محدد، ويعني أيضاً الحقوق التي قد لا تثبت لعدم تثبتنا في هذا الموضوع، النبي عليه الصلاة والسلام كما تفضلت هو الأسوة، وهو القدوة، وقلت: إن كل إنسان من أهل الدنيا له مثل أعلى أما المؤمن فمثله الأعلى هو النبي، فالعاقل فمثله الأعلى هو النبي عليه الصلاة والسلام، والحكيم فمثله الأعلى هو النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه جاء بمنهج هذا المنهج يصلح لكل زمان ومكان، ووازن بين الدنيا والآخرة، جاء بالشمائل والخلق حتى كف الجوارح عن كل ما لا يليق، وليس فقط عن المحارم أليس ذلك سيدي ؟

الدكتور راتب:

النبي قمة الادب

كان إذا دخل بيته لف ثوبه، بربك أستاذ علاء، هل يوقظ حفيف الثوب الأهل والزوجة ؟ مراعاة لأعلى درجات الأدب، واللياقة والذوق، كان إذا دخل بيته لف ثوبه لئلا يزعج أهله، وكان يقول: لا تحمروا الوجوه، أخطأ إنسان لا تحرجه، إذا لم تكن للمعلومة قيمة، ولا متعلقة بالعقيدة لا تقدم ولا تؤخر، غلط بسعر، لا تحرجه أمام الآخرين، لا تحمروا الوجوه.

كان قمة في الأدب، كان إذا أكل التمر لم يمسك النواة بإصبعيه، لأن هاتين الإصبعين إذا لمس بهما النواة ثم أمسك تمرة أخرى، ولم يأكلها نقل لعابه الشريف الطاهر إلى تمرة لم يأكلها، كان يضع النواة هنا في ظاهر أصابعه، وتبقى أصابعه جافة، وهذه أعلى درجة من اللياقة والذوق والفهم والأدب تفوق حد الخيال.

امرأة تقمُّ المسجد، وفي العرف الاجتماعي أقل مرتبة اجتماعية في الحياة، من يقمّ القمامة، فتوفيت، أصحاب النبي الكريم رأوا من ضعف شأنها أنها أقلُّ من أن يخبر عنها النبي، تفقدها بعد أيام، قالوا:

ماتت، قال: هلا أعلمتموني ؟ قالوا: والله يا رسول الله اجتهدنا أنه شيء عادي جداً، فذهب إلى قبرها، وصلى عليها استثناء، صلى عليها، وهي في القبر.

وفاءه لأصحابه عجيب، تواضعه لهم عجيب، خدمته لهم عجيبة، كان مع أصحابه في سفر أرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

لما شبه النبوات السابقة ببناء شامخ محكم، وبقيت لبنة، قال: وأنا هذه اللبنة ، ما هذا التواضع ؟ هو سيد الأنبياء والمرسلين، من يحتاج هذه المعاني ؟ أصحاب المصالح مدراء الشركات، أصحاب الصناعات المتشابهة، لئلا يتنافسوا، أقول: وأنا هذه اللبنة، بناء شامخ محكم، النبوات السابقة، وبقيت لبنة، فأنا هذه اللبنة، جعل نفسه لبنة في بناء شامخ هذا التواضع.

حينما نتأسى بهذا النبي الكريم تحل مشكلاتنا، تزول الأحقاد بيننا، تزول الخلافات والبغضاء، فنحن في أمس الحاجة إلى سنته الآن.

الأستاذ علاء:

الآن سيدي الوقت أدركنا، ولكن كما وعدنا السادة المشاهدين بأننا سنكمل هذه المرحلة، وهذا إن شاء الله أعطانا عمراً في هذه القضية سنكمل، ونتناول نقاطاً.

الدكتور راتب:

الخلاصة:

سأرغّب الإخوة المشاهدين والمستمعين أن يتأكدوا أنه قد لا يصدقوني أنهم يجب أن يعرفوا سنة رسول الله القولية، والعملية، كما أنهم يصلون، كيف أن الصلاة فرض، سوف أثبت للإخوة المشاهدين أن معرفة سنة رسول الله القولية، ومعرفة سنته العملية فرض عين على كل مسلم بالدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، هذا الدين شيء خطير مصيري، لا يجرؤ إنسان على وجه الأرض أن ينطق برأيه بكلمة واحدة، القضية متعلقة بالأبد، لذلك أنا سأؤكد إن شاء الله في لقاء قادم أن معرفة سنة رسول الله القولية والعملية فرض عين تماماً كما ينبغي أن نصلي، لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

أنا متى أعالج نفسي من ضغط الدم المرتفع ؟ حينما أعلم ضغطي مرتفع، فأنا كيف آخذ ما آتاني، وأنتهي عما عنه نهاني إن لم أعرف ما الذي أتاني، وما الذي نهاني يجب في كل بيت أن يكون كتاب حديث شريف، وفي كل بيت كتاب للسيرة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية – قناة سوريا الفضائية – الايمان هو الخلق – الدرس (95-95) : الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف : اتباع سنة النبي القولية والفعلية فرض عين على كل مسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-12-2007

بسم الله الرحمن الرحيم

ربط وتذكير:

كنا قد بدأنا في الحلقة الماضية، وها نحن نفي ما كنا قد وعدنا السادة المشاهدين بإتمام الموضوع الهام، والذي يتسق مناسبة، وذكرى مع مولد النبي عليه الصلاة والسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه ربه:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

وقالت بحقه أم المؤمنين السيدة عائشة:

((كان خلقه القرآن))

[مسلم عم عائشة]

النبي عليه الصلاة والسلام كما تفضلت في الحلقة الماضية يجب أن نحتفي، وأن نحتفل بمولده، وأن نقيم لهذه المناسبة في بيوتاتنا، ومساجدنا، وفي كل محافلنا أن نقيم احتفالاً ليس في السنة مرة واحد، ولكن كل يوم، والاحتفاء يكون شكلاً ومضموناً، وأن نذكر الناشئة والطلبة، وأن نذكر الناس بأخلاق النبي، ومنهج النبي عليه الصلاة والسلام .

وصلنا عند مسألة هامة أفردت لها شيئاً في نهاية الحلقة الماضية، بأن معرفة سنة النبي القولية والفعلية هما فرض عين، كيف نبين هذا الأمر للسادة المشاهدين ؟ .

الدكتور راتب:

معرفة سيرة النبي فرض عين:

كل أمر في القرآن يقتضي الوجوب مالم تقم قرينة على خلاف ذلك:

أمثلة على صيغة الأمر الحقيقي وغير الحقيقي:

أولاً أستاذ علاء هناك أستاذ علاء قاعدة أصولية، أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، فإذا قال الله عز وجل:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية: 29)

هذه اللام لام الأمر، هل يعقل أن يأمرنا الله بالكفر ؟! قال: هذا أمر تهديد، وإذا قال الله عز وجل:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى)

(سورة البقرة الآية: 187)

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)

كلوا فعل أمر، هذا أمر إباحة، القرينة تقتضي أنه أمر إباحة .

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

(سورة النور الآية: 32)

هذا أمر ندب، أما ما لم تقم قرينة على خلاف الوجوب فكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وهذه مشكلة خطيرة جداً، كيف أن الإسلام بُعِّض و بُعِّض إلى أن بقي عبادات شعائرية، بينما الإسلام كما أجتهد، وأنا واثق من كلامي مئة ألف بند يبدأ من الفراش الزوجية، وينتهي بالعلاقات الدولية، كل حركاتنا، وسكناتنا، وأفراحنا، وأتراحنا، وكسب أموالنا، وإنفاق أموالنا، وتربية أولادنا، كل شأننا هناك حكم شرعي يغطيه، بين أمر وفرض، وواجب، وسنة مؤكدة، وغير مؤكدة، ومستحب ومباح، ومكروه كراهة تحريمية، وكراهة تنزيهية، ومحرم، فكل حركاتنا وسكناتنا مغطاة بأحكام شرعية، أنت إنسان أعقد آلة في الكون، وهناك تعليمات الصانع، وهي تعليمات دقيقة جداً .

أحيانا آلة صغيرة يعطوك ثمانين صفحة تعليماتها، آلة قد تكون بحجم أصابع اليد، فآلة صغيرة لها كل هذه التعليمات، وأخطر مخلوق في الكون أعد لجنة عرضها السماوات والأرض .

إذاً: كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك .

وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا:

الآن الأمر:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

1 ـ ما لا يتم الفرض به فهو فرض:

عندنا قاعدة أصولية أخرى: ما لا يتم الفرض به فهو فرض، فالصلاة فرض لكنها لا تتم إلا بالضوء إذاً: الوضوء فرض، لأن الصلاة وهي فرض لا تتم إلا به، ولا يتم الواجب به فهو واجب، وما لا تتم السنة به فهو سنة .

2 ـ الأخذُ بكلام رسول الله فرضُ عينٍ:

إذا كان الأخذ برسول الله فرض عين، لأن كل أمر يقتضي الوجوب، هذا الأمر ماذا يقتضي ؟ يقتضي أن أبحث عن أمر، أن أبحث عن كتاب فيه أمره ونهيه، من لوازم تنفيذ هذا الأمر أن أبحث عن أمره، يقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

ما الذي أتانا ؟ أين أقواله ؟ أين أوامره ؟ أين توجيهاته ؟ أين إرشاداته ؟ أين سنته ؟ من أجل أن أطبق أمراً يقينياً في القرآن الكريم، ينبغي أن أطلع أمر رسول الله .

الأستاذ علاء:

إذاً: ليست الآية تقتضي أنه فقد حصراً،

(وَمَا آتَاكُمْ)

من كتاب الله .

الدكتور راتب:

3 ـ معرفةُ الأمر والنهي طريقٌ لتطبيقِه:

أنا ضربت مثلا في الحلقة السابقة، متى أحتاج إلى أن أعالج ضغطي المرتفع بعد أن أقيسه، أقيس الضغط، ثم أعالج الضغط .

إذاً: لا بد من معرفة الأمر والنهي، حتى أستطيع تطبيق هذا الأمر والنهي،

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

هذا أول دليل .

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة:

حينما يبعث الله إنساناً يعصمه عن أن يخطئ بأقواله، وبأفعاله، وإقراره، وحينما يأمرني أن آخذ منه إذاً: هو قدوتي وأسوتي، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب الآية: 21)

اقرؤوا السيرة كي تعرفوا كيف يكون لكم قدوة:

كيف يكون النبي أسوة في علاقتي بزوجتي ؟ حينما أقرأ سيرته، وأرى كيف عامل زوجته .

كيف يكون لي أسوة حسنة في معاملتي بأولادي ؟ حينما أقرأ سيرته العملية، وأرى كيف عامل أبناءه، كيف عامل جيرانه، كيف عامل أصحابه، كيف كان في سلمه، كيف كان في حربه، كيف كان في إقامته، في سفره، كيف تلقى المصائب، كيف تلقى الغائب، دخل مكة مطأطئ الرأس تواضعاً لله عز وجل، وما من قائد يفتح مدينة إلا يتغطرس، ويستعلي ويبيحها لجنوده، دخلها مطأطأ الرأس، امتنحه الله في النصر فكان متواضعاً، فلما امتنحه في الفقر:

((هل عندكم شيء ؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

[مسلم عن عائشة]

ليس في بيته شيء، امتحنه بموت الولد، قال:

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه]

امتحن بتطليق ابنتيه، امتحن بالهجرة، الهجرة شيء تجربة مؤلمة جداً، تجتث من أصلك إلى بلد لا تعرفه، امتحن بالهجرة، موت زوجته خديجة، امتحنه بالفقر، امتحنه بالغنى، امتحنه بالنصر، وامتحنه بالقهر بالطائف، بالغوا في إيذائه وهو سيد الخلق، قال:

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

امتحنه بمتاعب زوجية، كان من الممكن أن تكون زوجاته كالدمى، هو قدوة لنا، امتحنه بمصائب كثيرة جداً، خاف، تآمر عليه الكفار، أخرجوه من مكة، إذاً امتحنه بالفقر وبالغنى، وبالنصر، وبالقهر، وبموت الزوجة، وموت الولد، بتطليق البنات .

لا لردود الأفعال الأنفعالية:

أقول كلمة الآن: بطولة المؤمن لا أن ينجو من مصيبة يبدو أنها قدرنا جميعاً، ولكن البطولة أن تقف الموقف الكامل منها .

الدراسات الآن أن كل متاعبنا لا مما يأتينا، بل من ردود فعلنا .

مثلاً: يمكن لإنسان أن يتلف له قميصه قبل أن يذهب إلى عمله بدقائق، صب عليه فنجان قهوة خطأ، هذا عمل مزعج، رد فعل الأب إذا غضبَ غضبا شديدا، وصرخ، وضرب، وتكلم كلاما قاسيا، وذهب إلى عمله بعدما تأخر، ونسي أن يأخذ محفظته، لأنه تفاقم الغضب عنده جداً، لو أن هذا الأب نصح ابنه، أن انتبه يا بني، وغيّر قميصه، وذهب بهدوء لكان الأفضل، نحن كل مشاكلنا لا مما يأتينا من ردود فعل غير معقولة عما يأتينا، حتى يصبح هذا الأمر مركّبا فينا .

الأستاذ علاء:

على هذا الرد الخاطئ يصبح هناك خطأ مركب عليه، وهكذا ككرة الثلج، تكبر هذه الكرة .

الدكتور:

أنا أقول لك: معظم حالات الطلاق تأتي من موقف عنيف، موقف طائش، موقف متسرع، غير معقول أن أسرة دمِّرت في ساعة غضب، وكان بإمكانك ألا تغضب .

لما جاء حديث الإفك تريّث النبي عليه الصلاة والسلام، هذا رد على كل من يدعي، كان في شدة عالية جداً، إلى أن برّأها الله عز وجل .

أنا أقول: إن قضية سنة النبي يجب أن نعرفها ليكون قدوة لنا .

الأستاذ علاء:

لما صار خلاف بينه وبين أمّنا السيدة عائشة جاء بأبيها سيدنا أبي بكر على أن يفصل بينهما، من يتكلم؟ فقال: تكلمي، قدمته على الكلام، لكن شرط أن يصدق، فأبوها مباشرة قال: معقول ألا يصدق، فهمَّ أن يؤدبها، فاحتمت بظهر النبي عليه الصلاة والسلام .

الدكتور راتب:

هكذا كان عليه الصلاة والسلام فاعتبروا يا أولي الأبصار:

لما برأها الله قال أبوها الصديق رضي الله عنه: قومي لرسول الله فاشكريه قالت له: والله لا أشكر إلا الله، النبي الكريم تبسم، قال: عرفت الحق لأهله .

علّمنا كيف نكون مع زوجاتنا، مع أولادنا، مع أبنائنا، مع جيراننا .

أستاذ علاء، قضية معرفة سنة النبي القولية والعملية فرض عين على كل مسلم .

مثلاً: لما كان طفلاً دعاه أقرانه ليلهو معهم، هو في سن مبكرة جداً، يسميها كتاب السيرة إرهاصات النبوة، فعافت نفسه أن يلعب معهم، قال لهم: أنا لم أخلق لهذا، لما جاءته رسالة الهدى، وحُمل أمانة التبليغ دعته السيدة خديجة أن يأخذ قسطاً من الراحة، قال كلمة تُبكي، قال: انقضى عهد النوم يا خديجة، هل يحمل المسلمون همَّ أمتهم الآن، هذا الذي يجري في العراق، في لبنان، في فلسطين، في الصومال، فيما سيكون في السودان، وما كان في أفغانستان، قال لها: انقضى عهد النوم يا خديجة .

أيعقل لإنسان دانت له الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، يقول له سعد بن عبادة: إن القوم وجودوا عليك في أنفسهم .

الآن هناك مشكلة، مشكلة استعصاء، هو قوي دانت له الجزيرة، وبإمكانه أن يطوق الطغاة، ويلغي وجودهم، وأن يعاتبهم أشد العتب، وأن يهدر كرامتهم، ما الذي قاله ؟ ذكرهم بفضلهم عليه، قال: مقالة بلغتني عنكم، أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم به، أتيتنا مكذبا فصدقناك .

الأستاذ علاء:

هذه القضية نشرحها للسادة المشاهدين تتعلق بالأنصار، بعد الفتح .

الدكتور راتب:

وجدوا عليه في أنفسهم بعد معركة حنين، أنه أعطى المهاجرين أكثر من الأنصار، قال لهم: وجدتم عليّ في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوم ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا بقسم رسول الله .

أستاذ علاء:

عفواً سيدي أعطى مَن ألّف قلوبهم .

الدكتور راتب:

حفاظاً على إيمان الأنصار، وعلى قوة إيمانهم .

مثلاً: إنسان طارئ على حياتنا أعطيته شيئا أكثر من أولادك، أنت واثق أن أولادك يحبونك، وهم مقتنعون بحكمك، ويتفهمون هذا الموقف، فالنبي ذكّرهم بفضلهم عليه، أوجدتم عليّ في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أنباء الأنصار، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

هذه القصة أين مكانها ؟ مع وفائه، مع حكمته، مع رحمته، مع تواضعه، مع حسن سياسته، طوقنا المشكلة .

مع عدي بن حاتم !!!

يأتيه ملِك، عدي بن حاتم، ابن ملك فيأخذه إلى بيته، وهذا إكرام بالغ، يعرفه الآن أصحاب الأعمال الضخمة، قد يأتيه مندوب شركة إلى المطعم، أما حينما تأتي به إلى البيت فهذا إكرام منقطع النظير، أخذه إلى البيت، وقذف إليه وسادة من أدم محشوة ليفاً، قال: اجلس عليها، قلت: بل أنت، قال: بل أنت، قال: فجلست عليها، وجلس هو على الأرض، ما هذا الإكرام للضيف ؟! هو سيد الخلق، وحبيب الحق، قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تكن ركوسياً ؟ قال: بلى، ألم تسِرْ بقومك بالمرباع ؟ قال: بلى، قال: فإن هذا لا يحل في دينك، انظر إلى المنطق، اعتبر دينه صحيحا، لماذا تخالف دينك ؟ هو كان يقوم على دين اليهودية، والنصرانية، وكان يأخذ أكثر مما يستحق، فكيف تخالف أمر دينك ؟ قال له: إيه يا عدي بن حاتم، لعله إنما يمنعك من دخل في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوه ـ كالحال الآن ـ ما ترى من حاجتهم، من الفقر، وايمُ الله، ليوشكن أن ترى المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، كان أصعب شيء على المسلم دفع زكاته، لا فقيرَ فيدفع له، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم .

الأقمار الصناعية، والأسلحة النووية، والتقانة، والإعلام، والمال والدولارات كلها في يد أعداء المسلمين .

قال له: يا عدي لعله إنما يمنعك في دخول في هذا الدين، ما ترى من كثرة عدوهم، وما ترى من حاجتهم، وأنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله ليوشكن أن تسمع بامرأة البابلية تحج البيت على بعيرها ولا تخاف، وأن ترى قلاع بابل مفتحة للمسلمين، قال: وعاش عدي، ورأى كل هذه البشارات .

إذاً: كيف أدرك أن هذا الإنسان كان ملكا ؟ ما الذي يمنعه أن يدخل في الإسلام ، رآهم فقراء، أعداءهم كثر، مراكز القوة عند غيرهم، هذا الحال الآن يعود مرة ثانية، ونحن متفائلون إن شاء الله .

قبل أن يرتحل إلى الرفيق الأعلى يقول: مَن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه، من كنت أخذت له مالاً هذا مالي فليأخذ منه، ولا يخشَ الشحناء، فإنها ليست من شأني، ولا من طبيعتي، ما هذا التواضع ؟ ما هذا التواضع ؟ يأتيه عكرمة مسلماً، وأبوه أبو جهل، وهو ألدّ أعداء النبي، يقول: إياكم أن تسبوا أباه، فإن سب الميت تؤذي الحي، ولا يبلغ الميت، ما هذا الأدب ؟ وما هذه الحكمة ؟ لذلك نحن أمام كم من الكمالات .

الأستاذ علاء:

الحضارة والتقدم لن تقوم على السباب، ولا على الشحناء .

الدكتور راتب:

قوة الإسلام في مبادلة ومثالية وواقعيته:

الإسلام قوي بالمبادئ، الإسلام لا يحتاج إلى عمل عنيف، ولا إلى عمل شرير، هذه أشياء كلها أنكرها العالم كله، وسببوا بفعلهم هذا متاعب لا تنتهي، وضعوهم في زاوية مظلمة في العالم الآن .

الأستاذ علاء:

سيدي، الآن كما تفضلت بأن النبي عليه الصلاة والسلام ، وما جاء به عليه الصلاة والسلام يجب أن نعلمه، وهو فرض عين، لكي نستطيع الاتباع، وأن نميز هذه المسألة، وقلت لنا: إن النبي عليه الصلاة

والسلام هو المعصوم بمفرده، باعتبار:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

الدكتور راتب:

النبي بين العصمة والأجتهاد:

لا بد من تنويه دقيق: أنه من الممكن أن تكون عصمته مطلقة، لكن الله جل جلاله ترك له هامش اجتهاد ضئيل جداً، في هذا الهامش الضيق ترك له أن يجتهد، فإن أصاب في اجتهاده أقره الوحي على ذلك، إذاً: بقي معصوماً، وإن إن ترك الأولى في اجتهاده صحح له الوحي، لماذا هذا الهامش الضيق ؟ ليكون هناك فرق كبير بين مقام الألوهية ومقام البشرية، هو في النهاية معصوم، معصوم عصمة مطلقة، من أن يخطئ في أقواله وأفعاله، وإقراره، لكن ليكون هناك فرق بين مقام البشر، مقام النبوة، وبين مقام الألوهية ترك له هامشا اجتهاديا .

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 43)

(عَبَسَ وَتَوَلَّى)

(سورة عبس)

هذا الهامش الاجتهادي مع أن النبي اجتهد اجتهادا أصعب، أنت لك ابن، وأنت أستاذ رياضيات، وعندك ضيف مهم جداً، وتعلق آمالا كبيرة على هدايته، وهداية قومه من بعده، قال لك ابنك: المسألة الآن حلها لي، عندك ضيف، وأنت له اصبر قليلا، هو لك وأنت له طول الوقت، فأخذ الجانب الأصعب، فأعرض عن ابن أم مكتوم، والتفت إلى هؤلاء، فجاء التوجيه، لا، هؤلاء، هذا أفضل من هؤلاء .

لذلك العلماء قالوا: عتب له لا عليه .

هذا الهامش الضيق هدفه أن يكون هناك فرق بين النبوة ومقام الألوهية المطلقة، هو في النهاية معصوم، وبهذا الهامش الاجتهادي إن أصاب أقره الوحي على ذلك، وإذا اجتهد الأصعب، والأولى ألا يجتهد الأصعب، صحح الوحي له .

الأستاذ علاء:

سيدي، ألا يتسق هذا الهامش الاجتهادي مع طبيعته البشرية ؟ هو بشر، علّمنا أيضاً الاجتهاد، وعلّمنا أن في الاجتهاد من يصيب، ومن يخطئ .

الدكتور راتب:

من فضائل هامش الاجتهاد: الرجوع إلى الحق:

هنا نقطة دقيقة جداً أستاذ علاء، هو في فضيلة، لأنه معصوم لا يمكن أن تظهر منه، هذه الفضيلة الرجوع إلى الحق، النبي الكريم حجب الله عنه لحكمة بالغة، الموقع المناسب يوم بدر، حجب عنه إلهاماً، ووحياً، واجتهاداً، فاختار موقف، فجاء صحابي في كتلة من الأدب، قال له: يا رسول الله: هذا الموقف وحي أوحاه الله لنا ؟ أم هو الرأي والمشورة ؟ قال له: هو الرأي والمشورة، قال له: والله ليس بموقع، فالنبي بكل بساطة، بكل رحابة صدر ، بكل بتواضع، أين الموقع المناسب يا فلان ؟ قال له: هناك .

هذه الفضيلة لا يمكن أن تظهر من معصوم، لكن الله حجب عنه الموقع المناسب، وحي، وإلهام، واجتهاد، واختار موقع غير مناسب حتى يعلمنا التواضع .

كيف إذا كنت مدير مؤسسة، وزيرا، عندك معاون، عندك موظف، قال لك: سيدي، هذه القصة ليست لصالح الأمة، هذه فيها خطأ كبير، يجب أن تصغي له، إنسان مخلص يقدم لك نصيحة، وهناك إنسان تأخذه العزة بالإثم، فلا يقبل النصيحة .

فهذا الموقف موقف رائع جداً، علّمنا النبي كيف نعود إلى الصواب، كيف نصغي إلى النصيحة، المعارضة لها دور كبير جداً، تنبه، تصحح، أن تكون بنّاءةً طبعاً .

إذاً: هذا هو منهج النبي، وهو منهج في حياتنا، منهج الصبر، منهج الحلم، منهج التواضع، ثم إنه أوتي القرآن، أوتي الوحي، أوتي المعجزات، أوتي الفصاحة، أوتي البيان، أوتي صفات مذهلة، والقرآن لم يذكرها إطلاقاً، إلا أنه أثنى عليه بخلقه العظيم ، والخلق العظيم من مكتسباته الشخصية .

إذاً: تلك من مسائل الدعوة، فمِن غير المعقول أن تعطي ابنك مركبة لتعينه على عمله، وذهابه إلى الجامعة، ثم تقيم له حفلا تكريميا أنه اقتنى مركبة، هي منك، أما حينما ينال الدرجة الأولى في الجامعة فإنك تقيم له حفلا تكريميا .

مع أنه أوتي الوحي والقرآن، والمعجزات، والبيان، والفصاحة، والفهم ،

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

أثنى عليه بما هو أهله .

بما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك:

ملمح آخر، أن الله عز وجل قال له:

(فبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

أنتَ أنت يا محمد، مع أنك نبي، مع أنك رسول، مع أنه يوحى إليك، مع أنك أوتيت القرآن، مع أنك أوتيت المعجزات، مع أنك أوتيت الفصاحة والبيان، مع أنك أوتيت جمال الصورة، مع أنك أوتيت الحكمة، أنتَ أنت بالذات:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

فكيف إذا كان الداعي لا يوحى إليه، ولا معه قرآن، وكان فظاً غليظ القلب، شيء لا يحتمل .

الأستاذ علاء:

سيدي، الآن قلت: إن النبي عليه الصلاة والسلام هو معصوم بمفرده، كيف يكون ذلك ؟

النبي معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها:

الدكتور:

بينما أمته بمجموعها، مثلاً: يصدر كتاب، أو يلقى خطاب، ما أحد يتكلم، لأنه وفق الكتاب والسنة، نقول: هذا إجماع سكوتي، أما لو جاءنا مؤلف، أو مفكر، أو باحث بشيء يخالف القرآن والسنة تقوم الدنيا ولا تقعد، فكأن الله عز وجل إكراما لهذه الأمة التي اختارها لتكون وسطا بينه وبين خلقه أراد بهذه الأمة أن تكون معصومة بمجموعها، لذلك قال النبي الكريم:

((إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ))

[ابن ماجه عن أنس]

فهو بشخصه معصوم بمفرده، بينما أمته معصومة بمجموعها، هذه حقيقة ثابتة أيضاً .

الأستاذ علاء:

إذاً: الأمة تصحح للأفراد، والمسيرة الكبرى تصحح عدم إيقاعية مسيرة الأفراد مع المسير العام .

الدكتور:

العلاقة الترابطية بين الفرد والأمة:

هناك علاقة ترابطية، الفرد يصحح، والأمة تصحح، وفي النهاية الأمة بمجموعها لا تجتمع على خطأ، بينما النبي وحده لا يخطئ .

الأستاذ علاء:

النبي عليه الصلاة والسلام طالما أنا نتحدث عن شمائله، وعن علاقتنا بالنبي وعن سيرته، وبسنته الفعلية، والقولية، هل طاعة النبي طاعة مستقلة عن كل شيء ؟

الدكتور راتب:

طاعة النبي استقلالا:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

(سورة محمد الآية: 33)

استقلالاً، ولستَ مضطرا أن تبحث عن حديثه في القرآن، لا، الله عز وجل قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

إذاً عندنا وحيان: وحي متلو، هو القرآن الكريم، ووحي غير متلو هو السنة المطهرة، فينبغي أن يطاع رسول الله، إلا أن القرآن قطعي الثبوت، أما السنة فظنية الثبوت، فكلما ذكرت كلمة سنة يجب أن تضيف لها السنة الصحيحة، الكتب الصحاح بين أيدينا جميعاً، فالقرآن قطعي الثبوت، بينما السنة ظنية الثبوت، إذاً: لا بد من أن نضيف إلى كلمة الثبوت الصحيحة، ما ثبت عن رسول الله طاعته واجبة

كالقرآن تماماً، أما أي كلام آخر فلا بد من عرضه على الكتاب والسنة، فإن وافقه فعلى العين والرأس، وإن خالفه فنحن رجال وهم رجال، هذا المنهج تأصيل .

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

الأستاذ علاء:

الحقيقة، كنا نود أن نستمر في كلامنا، وفيما تقدم من درر، لكن الوقت أدركنا ، ونعد السادة المشاهدين إن شاء الله بأننا سنتمم هذه القضايا المتعلقة بالنبي عليه الصلاة والسلام وباتباع سنته قولاً وفعلاً، وبالبحث عن أخلاقه، وشمائله، وأن نجعل منها سلوكاً، ومنهجاً، وطريقاً تقتدي به في حياتنا، وما أحوجنا في هذه الأيام ونحن نتعرض إلى تلك الغزوة، وإلى ذلك الاستعمار الجديد، وإلى ذلك التضليل من كل الجهات، أن نعود، وأن نتمسك بشمائل النبي، ومنهج النبي حتى لا يتيه المركب، وحتى نصل شواطئ الأمان .

الدكتور راتب:

الخلاصة:

وكعود على بدء:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: 33)

فإذا طبقنا سنته النظرية والعملية نحن في مأمن من عذاب الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 01 - 29 : خصائص النفس 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

كثيراً ما نسمع قولك: إن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة، يا ترى هل كلمة الفطرة بما يفهمها العامة أن خلقه بسيطٌ غير معقد ؟ أم الفطرة هي الخلق ؟ أم الفطرة هي أن جعل له خصائص في ذاته تختلف عن خلائق أخرى وعن الجمادات والنباتات، حيث إن الإنسان مكرم، وهو خليفة الله في الأرض؟

بدءاً من هذا يمكن أن نتطرق إلى معنى الفطرة لننطلق منها إلى أشياء يمكن أن تكون عميقة الغوص.

الأستاذ:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان: جزاكم الله خيراً على هذا السؤال، الإنسان هو الكائن الأول تشريفا، لقوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

والإنسان هو المخلوق المكرم، لقوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

والإنسان هو المخلوق المكلف، لقوله تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

هذا الكائن الأول الذي قبل حمل الأمانة، ولأنـه قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه.

المذيع:

فضيلة الدكتور، هل تقصدون الأول من حيث الزمان أو المكان ؟

الأستاذ:

القصد رتبة ! هذا يتضح في قوله تعالى:

((الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

أيعقل أن يعلّم القرآن قبل أن يخلق ؟ نقول: هذا التقديم ليس تقديم زمني، بل هو تقديم رتبي، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له إطلاقاً من دون منهج يسير عليه، فكلمة أول أعني به رتبة، والأعداد كما تعلمون إما أعني بها رتبة، وإما أن أعني بها كمًّا، فالطالب السابع لا يعني أنه سبعة أشخاص، بل يعني ترتيبه في الصف هو السابع، هذا الإنسان المخلوق الأول ينطوي على نفسٍ هي ذاتُه، هي المكلفة والمحاسبة، وهي التي تؤمن أو تكفر، هي التي تشكر وتصبر، وتسمو وتنحط، وتخلد في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفذ عذابها، هذه النفس الإنسانية لا تموت، ولكنها تذوق الموت، وفرق كبير بين أن تموت وبين أن تذوق الموت.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران)

هذه النفس البشرية قد يكون خطها البياني صاعداً صعوداً حاداً، وعند الموت تسقط سقوطاً مريعاً إلى أسفل السافلين، وقد تكون نفس المؤمن في حركة صاعدة صعوداً مستمراً، وقد يكون الموت نقطة على هذا الخط، والصعود مستمر، هذا الإنسان فيه نفس هي ذاته، والموت انفصاله، هذه النفس الخالدة كامنة في هذا الوعاء المادي الذي هو الجسد.

الحقيقة هناك عنصر ثالث هو الروح، القوة المحركة، بل إن الروح إذا انقطعت عن الإنسان أصبح جثة هامدة ! أين عينه ؟ أين رؤية العين ؟ أين عمل الكبد ؟ أين أجهزته ؟ كله تعطل، وأصبح جثة هامدة؟ لكن البحث في الروح عديم الجدوى، لقوله تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

تقريباً هي القوة المحركة، والإنسان فيه نفس هي ذاته، وفيه جسم هو وعاؤه، وفيه روح هي قوته المحركة، هذا الإنسان يبدو لنا أن له جسمًا، ولهذا الجسم خصائص تشريحية وفيزيولوجية، موضوع جسمه لا يعنينا في هذا اللقاء، لو نظرنا إلى نفسه، نفسه لها خصائص، لها سمات وقوانين، العالم كله اليوم يهتم بالجسم لا بالنفس، يسعى لرفاهية الجسم، وقد غفل عن الروح، في الإنسان نفس لا يملؤها إلا معرفة الله عز وجل، لا تملؤها إلا طاعته، ولا يملؤها إلا أن تكون قريرة العين بربها، هذه الحاجة إلى إيمان بالله ولطاعته، هذه حاجة أصيلة، تبدو في الصورة كآبة حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله، خصائص هذه النفس بحث دقيق جداً، وقد وردت هذه الخصائص في بعض الآيات القرآنية، فنحن لا يعنينا في هذا اللقاء خصائص جسمه، هذا يعني علماء الطب والتشريح، وما إلى ذلك، لكن يعنينا في

هذا اللقاء خصائص النفس الإنسانية، الله جل جلاله لحكمة بالغة بالغةٍ جعل هذا الإنسان هلوعاً، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

هلوع شديد الحرص على ما في يديه، شديد الهلع إذا لاح له شبه مصيبة ! هذا من خصائص الإنسان، بل إنها نقاط ضعف في أصل خلقه لا يحاسب عليها، لكنها لصالحه، أوضح هذا بمثل:

كيف أن جهازاً غالياً جداً، بالغ التعقيد، كبير النفع، غالي الثمن، يوضع فيه قطعة في طريق التيار ضعيفة جداً، اسمها الفيوز، هذه القطعة رخيصة، لكنها نقطة ضعف مدروسة في أصل هذا الجهاز، فإذا جاء التيار الكهربائي عالي المستوى ذابت هذه القطعة، وانقطع التيار، فلم يتلف الجهاز، فهذه نقاط الضعف التي هي في أصل خلق الإنسان لصالحه.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

كيف يتوب إلى الله إن لم يكن هلوعاً كيف يعود إليه ؟ وكيف يصطلح مع الله ؟ كيف يؤدبه الله عز وجل ؟ وكيف يسوقه إلى بابه وبابِ طاعته ؟ كيف تحمله على التوبة إن لم يكن هلوعاً ؟

بالمناسبة، الله عز وجل ثبت مليارات الأشياء في الحياة، القوانين كلها ثابتة، قوانين المعادن، وخصائص المعادن، وخصائص البذور، دوران الكواكب، يمكن أن أقول لك: في عام ألفين وخمسمئة، في الثالث والعشرين من شباط تشرق الشمس الساعة الخامسة وأربع دقائق ! دورة الأرض حول الشمس شيء مذهل، حركة الكواكب ثابتة، بل إن هذه الساعة التي يعتد بها ساعة (بيغ بن) تضبط على حركة أحد النجوم، قد تقدم ثانية أو تؤخر ثانية في العام كله ! ما الذي يضبطها ؟ حركة نجم ! فالله سبحانه وتعالى ثبّت أشياء لا تعد ولا تحصى، لكنه حرك الصحة والرزق، الرزق ليس ثابتاً، قد تأتي أمطار غزيرة كهذا العام، والحمد لله جل جلاله على أن أنعم علينا بنعمة الأمطار، في دمشق مئة ميليمتر زيادة عن مستوى الأمطار في العام الماضي، وأحياناً تأتي نسب قليلة جداً، أحياناً ننتج من القمح خمسة ملايين طن، أحياناً أربعمئة وستون ألف طن، الرزق متبدل، والصحة متبدلة، ولحكمة أرادها الله عز وجل جعل تغير الصحة والرزق أحد الوسائل الفعالة في تربية الإنسان !

المذيع:

هل أستطيع أن أفهم من كلامكم دكتور أن الإنسان مخلوق على الفطرة، والفطرة في هذه الحالة تعني أنه مكوَّن من نفس وجسم وروح ؟ أم أن خصائص النفس هي الفطرة ؟

الأستاذ:

المقصود هو الخصائص، ذلك أن خصائص النفس متطابقة تطابقًا تامًّا مع منهج الله، وهذا محور هذا اللقاء، لكننا لا زلنا في المقدمة.

((إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20))

شديد الجزع.

((وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

كيف يرقى عند الله إن كان لا يحب المال ؟ لأنه يحب المال، إذا أنفق المال يرقى عند الله، ألم يقل الله عز وجل:

((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران)

هذه الأشياء أودعت فينا، هي في أصل فطرتنا وخلقنا، هكذا ولفنا وبرمجنا، إنها الفطرة والجبلة والبرمجة والتوليف، ونحب المال، نحب النساء، نحب العلو في الأرض، ونحب المركبات والبيوت.

المذيع:

دكتور، هنا يمكننا أن نتساءل: من عادة الإنسان أنه إذا أحب شيئاً، وأقبل عليه، وتقرب منه، وعرف زينته وما فيه من فائدة ازداد قرباً إليه، إننا في مثل هذا الوضع الذي يتصل بجبلة الإنسان وفطرته قد نشهد الشيء المغاير إذ أن حب المال في الإنسان العادي شديد، أما عندما يكون متجهاً نحو الله تعالى إن قرب من المال يصبح ما عنده وسيلة، وليس غاية، كذلك بقية الأمور، فيمكن أن تنساق إلى الخير رغم أنها بين يديه، على حين أنها لو كانت قبالته وبين يديه، لكنه كان خالياً من الإيمان تقرب منها، وما ازداد قربه منها إلا مزيداً من الفوضى في نفسه والخوف في ذاته.

الأستاذ:

بارك الله بكم، القرآن أجاب عن هذه الملاحظة، قال:

((إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

هذا الذي اتصل بالله عز وجل نجا من هذا الضعف الخلقي.

شيء آخر، هو أن المال لا يمكن أن يسمّى نعمة، ولا يمكن أن يسمّى نقمة، موقوف على طريقة كسبه وإنفاقه، ولأن الإنسان مخير فكل شيء في حياته حيادي، الشهوات حيادية، يمكن أن تكون سلماً نرقى به، أو دركات نهوي بها، خصائص النفس حيادية، الإنسان يحب أن يتفوق، إذا استغل هذه الخصيصة

ليتنافس مع أخيه الإنسان في عمل الآخرة يرقى، وإذا استغل هذه الخصيصة ليتنافس مع أخيه الإنسان على حطام الدنيا يسهل، فهناك الغبطة والحسد، أنا متأكد أن كل حظوظ الإنسان حيادية، أعطاه المال، والوسامة، والعلم، والذكاء، والقوة، وطلاقة اللسان، كل هذه الحظوظ يمكن أن تكون سلماً نرقى بها أو دركات نهوي بها، فهي حيادية، لأن الإنسان في الأصل مخير، بل إن خصائصه ليست شريرة، وليست خيرة، إنما هي حيادية، فأنت تحب أن تنافس، إن نافست في الآخرة انقلبت هذه الخصيصة إلى باعث عظيم جداً كي ترقى بك إلى الله وإلى الجنة، وإن تبعت هذه الخصيصة من أجل الدنيا هوت بك.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

الشيء الثاني، أن الإنسان منوع، حريص على ما في يديه، ننطلق من هنا إلى فكرة دقيقة، هي أن الطبع يتناقض مع التكليف، وهذا التناقض هو ثمن الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40))

(سورة النازعات)

طبع في الإنسان أن الشهوة التي أودعت فيه تدعوه لأن يأخذ المال، بينما التكليف يأمره أن ينفق المال، طبع الإنسان يقتضي أن يملأ عينيه من محارم النساء من دون قيد أو شرط، التكليف يقتضي أن تغض البصر عن من لا تحل لك، طبع الإنسان يقتضي أن ينام وقت صلاة الفجر، التكليف يأمره أن يستيقظ، طبع الإنسان يقتضي أن يتحدث في فضائح الآخرين ويمتع الحاضرين، لكن التكليف يقتضي أن يصمت، فلذلك من تناقض الطبع مع التكليف يكون ثمن الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

المذيع:

هنا نعيد الاقتراب قليلاً، حيث إن كون الجنة هي المأوى يستطيع الإنسان عندما يطبّع نفسه بما آمر الله تعالى تطيب له الدنيا قبل أن يحصّل على الجنة، فالمنفق بإيمان وصدق يحلو له عندما ينفق، على حين الذي يعطي وإرادته وبخله تشدّ يده إلى الوراء يشعر بالسخط على نفسه، فحينما يعطي يعطِي مضطراً، هنا تنقلب أيضاً المفهومات عند المؤمن انقلاباً تاماً، فيغدو مسروراً فالحاً ومفلحاً في الدار الآخرة.

الأستاذ:

تأكيداً لهذا المعنى يقول العلماء: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

ويقول:

((ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي))

هناك ملمح في قوله تعالى:

((وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

(سورة الرحمن)

نحن في بعض أدعيتنا نصلي على نبينا عليه الصلاة والسلام، ونصفه بأنه أسعدنا، والسعادة الحقيقية تتأتى من القرب من الله عز وجل، لذلك حينما يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه)

((أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28))

(سورة الرعد)

شيء آخر:

((وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

لا أتمنى أن يفهم الإخوة المشاهدون أن الحياة الطيبة تعني وفرة المال أو الصحة أو القوة، الحياة الطيبة هي الأنس بالقرب من الله عز وجل، فقد يكون الإنسان في أعلى درجات النعيم وهو أشقى الناس، وقد يكون في حياة خشنة جداً وهو أسعد الناس، فالحياة الطيبة هي القرب من الله عز وجل، فإن الله يعطي الصحة والجمال والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة يسعد بها الإنسان ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو فقد كل شيء، لذلك يقول بعض العارفين: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف.

المؤمن عنده سعادة ـ وشهد الله ـ لو وزعت على أهل بلد لكفتهم، لكن هذا الذي شرد عن الله لا يعرف ما في الإيمان من سعادة، يظن السعادة في الطعام والشراب والنساء والعلو في الأرض، لو علم ما فيا الأمور من مراتب وحالات مسعدة لزهد بما في يديه، لذلك قالوا: من عرف الله زهد فيما سواه.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً و اشتياقاً لقربنا

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا لـه : قد جهلتن

المذيع:

يا سيدي هنا أيضاً تحضرني صورة رأيتها في مجلة من المجلات، الصورة تحتوي فتاة في ريعان شبابها على وسادة، وإلى جانبها تعليق: " أردت كل ملذات الدنيا فحصلت عليها "، المال، الصحة، الشباب الغريزة، الشهوة، كل شيء، فملت هذه الأشياء، فأخذت حقنة لتغيب عن وجودها، فما عاد يلذ لها وجودها، لأنها قد حصلت على كل شيء، وليس لها في الأصل هدف سام تسعى إليه، لذلك الدنيا فعلاً من أراد أن يحصل عليها، وأراد خدمتها فإنها تستخدمه، أما إذا ارتفع فوقها فالدنيا في خدمته، وليس هو في خدمتها.

الأستاذ:

يقول بعض الفلاسفة: " مبدأ اللذة إذا استهدف انقلب إلى مبدأ ألم "، ورد في الجامع الصغير حديث شريف دقيق جداً يقول:

((إياك عبد الله والتنعّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين))

ليس المعنى أن تحرم النعمة والتنعم، لكن حينما تقصد اللذة بذاتها، وتنسى سر وجودك في الحياة وسر رسالتك فهذه غفلة كبيرة.

أنا أذكر أنه في بلد فيه ثاني أضخم جسر، وأطول جسر في العالم، في حفل افتتاح هذا الجسر، الذي صمم هذا الجسر مهندس يعد أحد خمسة مهندسين في العالم، وهذا الجسر ثاني أطول جسر في العالم، تعبر عليه في اليوم ثلاثمئة ألف سيارة ! عند قص الشريط ألقى هذا المهندس بنفسه في البحر فمات ! ذهبوا لغرفته بالفندق وجدوا ورقة كتب عليها: ذقت كل شيء في الحياة، فلم أجد لها طعماً، أردت أن أذوق طعم الموت !

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، صدق أن الحياة من دون هدف وقيم لا تعاش، لا يمكن أن يحترم الإنسان نفسه إن كان بعيداً عن القيم، الحياة من دون قيم لا تعاش، لذلك في العالم الشارد عن الله، في عالم المادة والجنس والاحتيال الإنسان أشقى المخلوقات، بل إن أعلى دخل في بلد أوروبي فيه أعلى نسبة انتحار في العالم ! لذلك هذه الدنيا لا يمكن أن تكون هدفاً للإنسان، ذلك أن الإنسان في أصل تصميمه لا نهائي، فلا يمكن أن يسعده إلا جهة لا نهائية، لمجرد أن يختار جهة محدودة يشقى بها، الإنسان في بداية حياته يعيش الآمال والأحلام، أما حينما يبلغ كل أهدافه، ويجمع ثروة طائلة، ويحتل مكاناً مرموقاً، وتيسر كل أموره يشعر بتفاهته، إلا إذا كان له هدف عظيم يسعى وراءه.

لذلك الإنسان المؤمن سعيد، لأنه اختار هدفاً، هو الله عز وجل، هذه النفس في أصل تصميمها مصممة كي تعرف الله، وتعمل صالحاً، وتخطب ود الله عز وجل، فحينما تختار هذه النفس اللانهائية هدفاً محدوداً ضيقاً قد تبلغه، فإذا بلغته بدأ شقائها، لذلك تجد الذين نشؤوا على حب المال، وحب الشهوات،

وبلغوا كل أهدافهم يشعرون بفراغ عجيب بعد تحقيق أهدافهم، إنسان في البدايات يرى كل شيء، فإذا بلغ منتصف العمر نراه شيئاً، لكن حينما يكشف حقيقة الحياة الدنيا يراه ليس بشيء، سيدنا موسى حينما سقى الفتاتين قال:

(فقالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24))

(سورة القصص)

أعدّ هذا النبي الكريم الغنى غنى العمل الصالح، وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه:

((الغنى والفقر بعد العرض على الله))

بقيت نقطة من نقاط ضعف الإنسان، إن الإنسان خلق عجولاً، يريد الشيء الجاهز أمامه.

المذيع:

ما رأيكم دكتور قبل أن نبحث في موضوع العجل أن نستعجل الأمر، فما بقي من الوقت إلا دقيقتان فقط، نستعجل العنوان فحسب، ونتابع بإذن الله في حلقة قادمة إن شاء الله.

الأستاذ:

الإنسان لو أنه في الأصل مصمم أن يكون مهولاً، يريد الأهداف البعيدة لما ارتقى إلى الله عز وجل ! كل ما حولك يدعوك لأن تمارس الشهوة، لكن الآخرة خبر في القرآن ! والدنيا ترقص أمامك، الدنيا خضرة نضرة، فالإنسان لأنه عجول، فإذا اختار هدفاً بعيداً يرقى عند الله، لو أنه مهول، واختار الآخرة لما ارتقى عند الله عز وجل، هذه نقطة دقيقة جداً، فلذلك تجد المؤمن نقل اهتماماته إلى الآخرة، هدفه إرضاء الله عز وجل، وأداء الحقوق، وخدمة الإنسانية كافة.

والله مرة في مجلة مترجمة بقي قبل انتهاء مقالتها فراغ صغير تكتب فيه بعض الحكم أحياناً، كتبت حكمة في الحقيقة هي دقيقة جداً: قال: إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، لمجرد أن تخرج من ذاتك لإسعاد الآخرين فأنت أسعد الناس.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

كنتم تحدثتم في حلقة سابقة عن فطرة الإنسان، وبيّنتم أن الإنسان في تكوينه مؤلف من نفس وجسد وروح، ثم توقفتم عند موضوع النفس، وتحدثتم عنها، وبينتم ما في النفس من أمور تعتلجها، هي مثلاً خائفة عجولة هلوعة، هذه الصفات عندما يأتيها الإيمان ينقلها من جادة الضياع إلى جادة الهدى، بل لا أقول من جادة الضياع، فليس للضياع جادة، إنما هي تشتت في تشتت، إنما مع الإيمان ينتقل الإنسان إلى جادة الهدى، وجادة الهدى صحيح أنها بداية يمكن أن تخالف نزعة الإنسان التي خلقه الله تعالى عليها، إنما تتغير رأساً على عقب، فيشعر في بعض الأحيان بالابتلاء أنه نعمة، يشعر بالعطاء رغم أنه يدفع من جيبه، لكنه يدفع من أجل الآخرين، ويشعر بلذّة، على حين أن البخيل لا تكاد يده تخرج من جيبه، فإن خرجت يشعر كأنما نزلت عليه صاعقة، هذا بسبب أن الإنسان سلك مسلك الجادة المثلى التي هداه الله إليها.

وهنا نذكر أن فطرة الإنسان تتصل بهذه الأشياء بصاعقة، حتى لا نبتعد كثيراً عن الفكرة الأساسية التي بدأنا الحديث عنها.

نتابع معكم موضوع عجلة الإنسان.

الأستاذ:

الحقيقة أستاذ عدنان جزاكم الله خيراً، الله عز وجل في أول سورة طويلة هي سورة البقرة يصف المؤمنين بصفة عجيبة، قال تعالى:

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

هناك شهود، وهناك غيب، هناك عالم الشهادة، وعالم الغيب، في عالم الشهادة الشهوات مستعرة، الفتن ثائرة، الدنيا خضرة نضرة، أما عالم الغيب فهناك ما بعد الموت، هناك جنة يدوم نعيمها، وهناك نار لا ينفذ عذابها، لكن الآخرة خبر، بينما الدنيا محسوسة، كيف ؟! أمامك بيت جميل، مركبة فارهة، طعام طيب، امرأة جميلة، هذه كلها محسوسة أمامك، بينما الجنة والنار خبران في القرآن، وفي الكتب السماوية الأخرى.

أنا أوضح هذه الحقيقة بأن إنسان يركب دراجة، وصل إلى طريقين، طريق هابط، وطريق صاعد، الطريق الهابط معبد تحفه الأشجار والأزهار، وراكب الدارجة يرتاح في الطريق الهابط قطعاً، ليس عنده محرك.

سأذكر مصطلحات مألوفة جداً: كل معطيات البيئة والواقعية وخصائصه تدعوه لأن يسلك الطريق الهابط، وكل معطيات البيئة وكل خصائصه الجسمية، وكل رغباته تصرفه عن الطريق الصاعد، الطريق الصاعد فيه حفر وأكمات، وغبار وجهد عالٍ جداً، فالإنسان إذا تعامل مع الواقع فقط، ومع خصائص جسمه فقط، ومع معطيات البيئة فقط فلابد من أن يسلك الطريق الهابط، لكن لو كتبت لوحة عند مفترق الطريقين أن هذا الطريق الهابط ينتهي بحفرة مالها من قرار، فيها وحوش كاسرة، وأن هذا الطريق الصاعد ينتهي بقصر منيف، هو لمن دخل إليه، ألا ينبغي أن يتخذ راكب الدراجة قراراً معاكساً؟

المشكلة أن هناك بيانًا إلهيًّا وضع بين يدي الإنسان، واقع محسوس وشهوات مستعرة، دنيا خضرة نضرة، وامرأة جميلة، وبيت جميل، ومنصب رفيع، وأشياء كثيرة.... لكن حينما تقرأ البيان الإلهي فلابد من أن تتخذ قراراً معاكساً، هذه القصة كلها، هناك دنيا محدودة، وآخرة لا تنتهي، قال تعالى:

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5))

(سورة الضحى)

(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27))

(سورة الإنسان)

آيات كثيرة تبين أن الحقيقة هي الآخرة، وأن أكبر خسارة يخسرها الإنسان حينما يخسر الآخرة.

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الشورى)

فالدنيا محسوسة، والآخرة خبر، لأن الإنسان فطر على أنه عجول يريد الأشياء المحسوسة التي أمامه، يريد ما هو قريب منه، وينصرف عن الشيء البعيد، لو أنه اختار الأهداف البعيدة فقد اختار الآخرة ورضوان الله عز وجل.

ما معنى أن الإنسان مخير ؟ لو أن الإنسان لمجرد أن يعصي الله يعاقبه الله **!** كيف هو مخير **؟!** لمجرد أنه أطاعه وأكرمه ليس مخيراً، معنى كونه مخيرًا أنه يمكن أن تطيعه إلى أمد طويل، ولا يحدث شيء**!** جسمك في أتم صحة، قلبك ينبض نبضاً طبيعياً، الضغط مناسب، يمكن أن تطيعه إلى أمد بعيد، ولا ترى شيئاً استثنائياً، ويمكن أن تعصيه إلى أمد بعيد، ولا ترى شيئاً استثنائياً

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

المشكلة لما تكون حول المؤمن دنيا محسوسة، ترقص خضرة نضرة محببة، تتناغم مع شهواته ونزعاته وخصائص جسمه، والآخرة خبر في الكتب السماوية.

المذيع:

هنا دكتور يمكن أن يقول قائل: إذا أردت أن تسلم عليه هل تغمزني بيدك أولاً أو بعصاً، بعد ذلك ألتفت إليك، وبعد ذلك تقول لي: السلام عليكم ؟ لا حاجة لهذا، سلم علي مباشرة، لماذا جعل الله تعالى أمر الطريق الهابط أنه ينتهي بحفرة لا قرار لها، وجعل الطريق الصاعد للحفر والمتاهات والصعوبات ينتهي بقصر منيف ؟ لماذا لم يجعل الطريق سهلاً ؟ لماذا لم يتمها علينا ؟ فجعل الطريق سهلاً والنهاية محببة ؟

الأستاذ:

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

(صحيح مسلم)

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَن بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْض:

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

(مسند الإمام أحمد)

هذه أنفس، أما المنطق فهذا العطاء الذي وعد الله به المؤمن يفوق حد الخيال.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.))

(صحيح البخاري)

أستاذ عدنان المشاهدات محدودة، أنا سافرت إلى عدة بلدان في العالم، لكن لم أسافر إلى كل البلدان، لكن أسمع في الأخبار عن كل البلدان، فالمشاهدات محدودة،

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

فالخواطر لا تنتهي، لذلك كل ما في الجنة لا يمكن أن يتصوره الإنسان، جئنا إلى الدنيا كي ندفع ثمن الجنة.

لو فرضنا جنديًّا في ثكنة كبيرة جداً، على رأسها لواء، هل يستطيع هذا الجندي الغر بحسب القوانين العسكرية أن يدخل عليه ؟ مستحيل، يوجد تسلسل رتب، يوجد عريف، ومساعد، ومساعد أول،

وملازم، لكن هذا الجندي الغر يستطيع أن يدخل على أعلى رتبة في هذه الثكنة في حالة نادرة، أنه رأى ابن اللواء يغرق فرمى بنفسه، وأنقذه.

(مفَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف)

نحن جئنا إلى الدنيا كي نعمل الأعمال الصالحة، نرتقي مرتين، نرتقي بالضبط، ونرتقي بالعطاء، الاستقامة سلبية، أقول: أنا ما كذبت، ما غششت، ما اغتبت، ما أكلت مالاً حراماً، كل الاستقامة فيها ما (النفي)، الاستقامة سلبية، بينما الأعمال الصالحة إيجابية، أنا قدمت مالي، بذلت مالي وحياتي في سبيل إعزاز هذا الدين، فهناك بذل وامتناع، الامتناع والبذل يكسبان النفس ثقة، أن هذا الإله الذي تعبده راض عنك، لأن الجنة مع الله عز وجل، كما قلت قبل قليل:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

لكن المؤمن في الجنة يرى ربه، بعض الروايات تذكر أنه يرى ربه فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة !

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

وفي الجنة أعلى من رؤية الله:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15))

(سورة آل عمران)

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

وفيها نظر إلى وجه الله الكريم، وفيها رضوان من الله العظيم، فهذه الجنة لا بد لها من ثمن. بربك إنسان حتى يقال عنه: دكتور، هل يعقل أن يقدم طلبًا للجامعة يرجى منح الدكتوراه، وهو لا يقرأ، ولا يكتب، فيكون جواب الجامعة في اليوم التالي: لقد لبّينا طلبك، ومنحناك الدكتوراه، الطلب والإجابة لا قيمة لهما إطلاقاً، حتى يصل الإنسان إلى شيء في الدنيا لا يمل أبداً، ويبذل جهداً كبيراً، أيعقل أن تكون جنة عرضها السماوات والأرض، وفيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها حياة أبدية ؟ أستاذ عدنان، لي ملاحظة: واحد في الألف، وأصفار في الشمس، وبيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسين كيلو مترًا، وكل ميليمتر صفر ! ما هذا الرقم ؟ نحن ثلاثة أصفار ألف، ثلاثة أُخَر مليون، ثلاثة أُخَر ألف مليون، ثلاثة أُخَر ترليون، أنا أقول: واحد بالألف أصفار للشمس، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم الذي لا يستوعبه العقل لو وضع صورة بكسر عشري، والمخرج لا نهاية يكون هو الصفر ! فالدنيا عند الله صفر.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي)

الدنيا لا شأن لها عند الله، لذلك أعطاها لمن لا يحب، وأعطاها لمن يحب، فهي ليست مقياساً، أعطيت لمن يحب، لسيدنا سليمان، وأعطيت لفرعون، وأعطي المال لقارون، ولبعض الصحابة الكرام، كسيدنا عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، لأنها أعطيت لمن يحب ولمن لا يحب فلا قيمة لها عند الله عز وجل، هي محدودة، عطاء الله عز وجل وكرمه لا يمكن أن يتناسب مع عطاء محدود، الله عز وجل إذا أعطى أدهش، عطاؤه الحقيقي لا يتناسب مع ألوهيته إلى الجنة، هل يعقل أن يمنّ ملك على مواطن عنده بقلم رصاص ؟ ببيت أو سيارة أقلّ شيء ؟ عطاء الملك يتناسب مع مكانته، فلذلك هذه الجنة ثمنها في الدنيا، وهو الضبط...

بالمناسبة، ليس في الإسلام حرمان، الحقيقة المثل قد ينصرف الذهن إلى شيء ما أردته، لك أن تأكل، وتشرب، وتتزوج، وتؤسس عملاً، وتتاجر، وتسكن في بيت أنيق، هذا كله سمح الإسلام به، ليس في الإسلام حرمان، بل فيه تنظيم، والدليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص)

المعنى المخالف عند علماء الأصول: من يتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه، ليس هناك حرمان، بل تنظيم، فلذلك المؤمن يحيا حياة طيبة، ونِعم الدنيا لا تتناقض مع نِعم الآخرة، والإسلام واقعي، ودين الواقع والفطرة، الإسلام راعى الجسد، وراعى النفس، راعى الحاجات والقيم والدنيا والآخرة.

أقول لك كلمة: النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى المسجد في وقت بين الفجر والظهر، رأى شابًا فقال له: من يطعمك ؟ هذا وقت عمل ! قال: أخي ! قال: أخوك أعبد منك !

(ورد في الأثر)

هذا ملمح رائع ! سيدنا عبد الله بن مسعود أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بيده فكانت خشنة من العمل، رفعها وقال:

((إن هذه اليد يحبُّها الله ورسوله))

(ورد في الأثر)

عندما أقول: طريق هابط فهذا مثل لا ينصرف الذهن إلى تفاصيله، نحن في كل تشبيه يعنينا وجه شبه معين، أنا أردت أن الدنيا يمكن أن تعيش فيها حياة مستقرة وأمينة، ولكن لك هدف وقيم تنتظمك، لك منطلقات ورسالة تحملها، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، وإلا فيكون أشقى الناس، وهذه الآية:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

الإنسان خلق عجولاً، وهي نقطة ضعف فيه.

أذكر مثلا للطرفة: يوجد مركبة عامة تقف في مركز المدينة في المرجة، وتتجه إلى خط المهاجرين، في أيام الصيف الحارة آخر موقف باتجاه الشرق، المقاعد اليمنى فيها شمس لاذعة، واليسرى فيها ظل ظليل، يصعد راكب إلى هذه المركبة، طبعاً لابد من أن يجلس في الظل بحسب حاجة جسمه للظل، وبحسب معطيات البيئة والواقع، لكن الراكب الذكي يجلس في الشمس، لأن هذه المركبة سوف تدور حول مركز المدينة لدقيقة واحدة، فتنعكس الآية.

فلذلك الذي يعيش المستقبل هو المؤمن، نحن نعتقد أن الإنسان إذا عاش الماضي فقط، وأهمل حاضره فهو غبي، وإذا عاش حاضره كانت حياته ردود أفعال متأخرة، بينما الموفق يعيش المستقبل، وأكبر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا، ماذا بعد الدنيا ؟

أقول: كان أحد الخلفاء العباسيين يخاطب السحابة، ويقول: اذهبي أينما شئت، يكاد يأتيني خراجك، أقول قياساً على هذا القول لهذا الشارد: اذهب أينما شئت، في النهاية لابد من أن تعود إلى الله، هذه الدنيا خضرة نضرة، لكنها تغري، وتغوي، وترضي، وتشقي.

لو انصببنا عليها، وتركنا أهدافنا التي خلقنا من أجلها شقينا، فلذلك أن يعرف الإنسان سر وجوده وغاية وجوده شيء مهم جداً.

المذيع:

دكتور، بالإضافة لما ذكرتم بأن لكل شيء ثمناً، وثمن الجنة شيء غالٍ جداً، إذا أردنا أن نقيسه بما عليه الجنة ! ولكن الإنسان الذي يعيش في الدنيا، وأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة يمتحنه ليدفع الثمن، وفي الوقت ذاته كي يميز الإنسان الجيد من السيئ، وإلا إذا أعطيت الجنة للجيد والسيئ فليس هناك عدل !

الأستاذ:

طلب الجنة من دون عمل ذنب من الذنوب !

أضرب مثلا طريفًا: لو دخلنا إلى معرض سجاد، وطلبنا سجادة راقية جداً، أطلعنا صاحب المحل على سجادة، نريد أغلى منها، أتعبناه ساعتين، حتى أخذنا إلى مكان آخر، وأطلعنا على سجادة رائعة، يزيد ثمنها على مليون ليرة، لو دفعنا له بهذه السجادة خمس ليرات هل نخرج من محله سالمين ؟! مستحيل، جنة خلقها الله للإنسان، يمكن أن يكون ثمنها ركعتين تؤديان أداء شكلياً، ودرهمان ينفقان للفقير، انتهى الأمر، ونعيش على شهواتنا وحظوظنا ؟ هذه المشكلة، المشكلة أن الجنة تحتاج إلى جهد وعمل، إلى عمل يتناسب مع هذا العطاء الكبير، فلذلك

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

و

((إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

يكفي أن تسترخي، ولا تفكر في شيء، وتأكل ما تشتهي، وتلتقي مع من تشتهي، وتقول ما تشتهي، وتبحث عن مصلحتك القريبة والمتوهمة، ولا تعبأ بقيمة، ولا بمنهج، ولا بتوجيه، ولا بكتاب سماوي، ولا بقيمة أرضية حتى يستحق الإنسان النار !

أستاذ عدنان، يوجد شيء آخر: إن الإنسان خلقه الله ضعيفاً، قال تعالى:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)

(سورة النساء)

هذه من نقاط ضعف الإنسان، وهي أربع نقاط ضعف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(سورة المعارج)

الهلوع عرفه الله بصفتين:

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

حريص على ما في يديه.

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20))

شديد الجزع.

لو أن إنسانًا ـ لا سمح الله ولا قدر ـ شعر بشيء غير طبيعي في جسمه، وأجرى تحليلا، وكان في جسمه شيء لا يطمئن ينزعج.

أذكر طبيباً ذكر لي عن مريض أن أجله بعد أربعة أشهر، معه مرض عضال، فقال: في هذه الأشهر هيئ نفسك، واكتب وصية، ووزع أموالك، مات في اليوم التالي !

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20))

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً(11))

الصفة الرابعة:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

لو أن الله خلق الإنسان قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه، ولو أن الإنسان خلق ضعيفاً لافتقر في ضعفه، فسعد بافتقاره، خلقه ضعيفاً ليفتقر إلى الله.

لذلك في معركة حنين صار عند الصحابة شعور بأننا أقوياء:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

(سورة التوبة)

فالإنسان حينما يستغني عن الله يميل إلى المعصية والدليل:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

فالإنسان يتوهم أنه مستغن عن الله، لكنه في قبضته، والحقيقة أن في القرآن ملمحًا رائعًا، هو أن العبد تجمع على عبيد، وعلى عباد، والفرق بينهما دقيق، عبد القهر تجمع على عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46))

(سورة فصلت)

وعبد الشكر تجمع على عباد:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر)

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي)

(سورة البقرة)

فالإنسان عبد شاء أم أبى، لكنه عبد القهر، شريانه التاجي وحركته بيد الله، في ثانية واحدة يفقد حركته ونطقه، وبخثرة (جلطة) لا يزيد حجمها على رأس دبوس تقف في أحد شرايين الدماغ يفقد حركته، فالإنسان في قبضة الله.

فلذلك عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ قَالَتْ امْرَأَةٌ: هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا نَظَرَ غَضْبَانَ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكِ ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَارِسُكَ، وَصَاحِبُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَاللَّهِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي))

(أحمد)

فالإنسان خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه.

النقطة الدقيقة جداً: أن الإنسان أمامه امتحانان يمتحن بهما في اليوم عشرات المرات، في كل مجال، في حرفتك، وبيتك، وتربية أولادك، وكسب مالك، وإنفاق مالك، وأداء مهماتك، إذا قلت: أنا، معتداً بخبرتك، وقوتك، ومالك تخلى الله عنك، وإذا قلت: الله تولاك الله.

أنا أقول: هذان الامتحانان وردا في القرآن، امتحان بدر وحنين.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

(سورة التوبة)

الإنسان حينما يكون ضعيفاً يفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، وحينما يكون قوياً يعتد بقوته، فيشقى بقوته، فخلق ضعيفاً لصالحه.

وأوضح مثلٍ: نقطة الضعف في الآلة الغالية (الفيوز)، نقطة ضعف حماية له، وأنا حينما أفهم أوامر الدين ضمانًا لسلامتي، وليست حداً لحريتي أكون فقيهاً، ونحن في حلقة عن الفقه المعاصر.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 03 - 29 : الصبغة والفطرة - التكليف .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-13

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

دكتور ، من طبيعة الإنسان أنه يميل إلى أشياء في حياته ، وتحدثتم فيما مضى عن الطبع ، وعن الصبغة ، وعن الفطرة ، ميزتم ، وبينتم الفوارق بين كل كلمة ، وكيف يكون المؤمن في صبغة إيمانية رائعة ، وهو سعيد بها ، ويفلح أيضاً في الدار الآخرة بنتيجة ذلك ، بعد أن يكون قد قضى حياته سعيداً أيضاً .

حب الإنسان لشيء ما ، ميله لشيء ما ، هذا شيء بطبيعة الإنسان ، وهي من الأشياء التي خلق الإنسان عليها ، لكن يمكن أن يوجه هذا الميل إلى أشياء سامية ، أو إلى أشياء عادية ، أو إلى أشياء متردية وبمقدار ما يميل الإنسان في غايته إلى الأشياء التي يرغب بها تكون منزلته ، على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، أنا إن أحببت شيئاً زهيداً مُنايا أن أصل إلى الشيء الزهيد ، وإن أحببت شيئاً راقياً كنت في أعمالي ما يناسب هذا الرقي الذي أحلم به وأتمناه ، وما في حياة الإنسان على الإطلاق مهما ارتفعت غايته فيما يتصل بالدنيا إلا من حطام الدنيا ، إن علا أو هبط ، أما الحب الإلهي فهو الذي يسمو فوق كل شيء ، وبحب الإنسان ربه وخالقه ومولاه ترى في حياته الدنيا قد انفتحت له آفاق ما كانت تفتح له من قبل ، وأحس بأشياء جديدة في تعامله مع الآخرين ، أنا إن أحببت الله الحب الحقيقي رأيتني في ميدان تعاملي مع الآخرين رقيقاً وديعاً ، محباً للخير ، فبحبي لله أحب مخلوقاته وأنفعهم ، أما إن كانت محبتي للإنسان شخصياً لإنسان ما يعني ليس لعموم الناس ، فتنحصر محبتي بهذا الإنسان أو بالتعيين ، وقد تكون على عداوة مع غير هذا الإنسان ، وبالتالي تختلف أمور الحياة .

إذا تحدثنا عن محبة الإنسان ما يتعلق بالدنيا وحطامها وما يتعلق بالله تعالى .

الأستاذ راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

قبل أن أبدأ الحديث كتعقيب على كلامك اللطيف ، قل لي من تحب أقل لك من أنت .

الحقيقة أن في حياة الناس تطرفاً أو تفوقاً ، أنا أرى أن التفوق يتأتى من أن تلبي كل حاجات الإنسان العقلية والنفسية والجسمية ، بل إنني قرأت كتاباً أعجبني به هذه الحقيقة ، أن الإنسان فيه جوانب ثلاثة ، علاقته بربه ، وعلاقته بعمله ، وعلاقته بجسمه ، وأي خلل في أحد هذه الجوانب ينعكس على الجانبين

الأخريين ، فلذلك الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، فلا بد من غذاء لهذا الجسم ، غذاء صحي ، ولا بد من أن ينضبط هذا الجسم وفق قوانينه ، ولا بد من غذاء للقلب ، وهو الحب ، وأنا أرى أن الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يحب ، أو إلى أن يحب ليس من بني البشر ، ومن صفات الشاردين عن الله قسوة قلوبهم ، وما نراه في العالم اليوم من أثر قسوة القلب ، المعاني الإنسانية ضاعت، التراحم ضاع بين الخلق ،

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خَلقي))

[أخرجه الديلمي عن أبي بكر]

لقوي يأكل الضعيف ، والغني يبتلع الفقير ، فلذلك الإنسان متى يتفوق ؟ إذا لبى حاجة قلبه ، فأحب الأشياء الكاملة ، ولبى حاجة عقله ، فغذاه بالحقائق ، ولبى حاجة جسده ، فغذاه بالطعام والشراب ، هذا تفوق ، أما لو نمّى عقله على حساب قلبه ، قالوا عن أوربة : إن عقلها من ذهب ، وقلبها من حديد قاس لا يرحم ، الإنسان يتفوق إذا لبى كل حاجات جوانبه تلبية كاملة .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، هنا لا مانع هنا لهذه المقاطعة إن سمحت ، قلبها من حديد ، وعقلها من ذهب ـ طبعاً علاقته بالحديد القسوة فقط ـ قد يقول قائل ، وكثيراً ما نسمع هذه الأقوال ، ليست من عندي ، ولست مقتنعاً بها، إنما أوردها من خلال ما أسمع : وما يضرنا في ذلك إذا كان العقل من ذهب والقلب من حديد ، طالما أن العقل فسح لي فسحة كبيرة في كيفية التعامل مع الحياة ، ونجحت في كيفية التعامل فأخضعت ما في الحياة لما يناسب وجودي استرحت وأرحت ، وليكن قلبي من حديد .

الأستاذ راتب :

جيد ، الإجابة عن هذا السؤال : لو أن الدنيا هي كل شيء ، هذا أذكى إنسان ، الذي يستخدم عقله ليحقق مصالح على حساب الآخرين ، الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين لأنه قوي ، ولأن عقله من ذهب ، ويبني أمنه على إخافة الآخرين ، ويبني غناه على إفقار الآخرين ، ويبني حياته على موت الآخرين ، لأن عقله من ذهب ، وقلبه من حديد ، واستخدم عقله فأصبح قوياً ، أما إرادته على كل من حوله فعاش حياةً تفوق حد الخيال ، هذا الكلام رائع ، لو أن الدنيا كل شيء ، لذلك هؤلاء الشاردون عن الله الذين كان عقلهم من ذهب وقلبهم من حديد حينما استغلوا علمهم لقوتهم ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وإفقارهم ، هؤلاء نجحوا في الدنيا أيما نجاح ، ولكن لأن الله موجود ، ولأن الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، هؤلاء حينما يغادرون الدنيا يشعرون بخسارة ما بعدها خسارة :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 14)

و أن الواحد منا افتراضاً عاش رقمًا العقل لا يصدقه ، واحد في الأرض ، وأصفار إلى الشمس ، وكل ميل صفر ، والمسافة 156 مليون كم ، وخسر الآخرة خسر اللانهاية ، خسر الأبد ، ومعلوم في الرياضيات أن أكبر رقم يتصوره الإنسان إذا وضع صورة لكسر مخرجه اللانهاية فقيمته صفر ، فلو لو أن الدنيا كسب الدنيا ، وخسر الآخرة هو أخسر كائن من كان ، بدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال :

((أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

والذي قال :

((مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي))

(سورة القصص الآية : 38)

الذي فعل ما فعل ذبح الأطفال ، واستحي النساء ، واستعلى في الأرض ، وطغى ، وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، حينما أدركه الغرق قال :

((حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس الآية : 90)

ما المعنى ؟ المعنى أن الإنسان في مليون قضية مخير خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان ، اختياره اختيار وقت فقط ، فإما أن يؤمن في الوقت المناسب فينتفع بإيمانه ، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان فلا ينتفع بإيمانه يوم :

((لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً))

(سورة الأنعام الآية : 158)

هل يعقل لطالب دخل الامتحان ، ولم يجب إطلاقاً ، ونال الصفر ، رجع إلى البيت ، فتح الكتاب ، وقرأ الإجابة ، فقدم طلبًا لوزارة المعارف أنه أنا الآن جاهز للامتحان ، هل يقبل منه ذلك ؟ عرف الموضوع بعد فوات الأوان ، فأنا مع الإيمان خياري خيار وقت ، فهؤلاء الأقوياء الذي قلبهم من حديد ، وعقلهم من ذهب ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وبنوا مجدهم على أنقاضهم ، لو لم يكن إلا الدنيا فهم أذكياء جداً ، أما لأن هناك آخرة فهم أغبياء جداً .

الأستاذ عدنان :

بالإضافة إلى هذا دكتور هناك ثلاثة أمور أخرى .

الأمر الأول : العقل من ذهب ، والقلب من حديد .

الأمر الثاني : العقل من حديد ، والقلب من حديد .

الأمر الثالث : وهو الذي ما يدعو إليه الإيمان والإسلام : القلب من ذهب ، والعقل من ذهب .

الأستاذ راتب :

طبعاً هذا الكمال الرائع ، الحقيقة الله عز وجل قال :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

(سورة الرحمن)

قدر ما هو عظيم بقدر ما هو كامل ، نحن في حياتنا قد نحب إنسانًا ، ولا نحترمه ، قد يكون قريبًا بسيطًا ساذجًا غير مثقف ، تفكيره سطحي ، تحليلاته مضحكة ، لكن قدم لنا خيرًا ، هناك قرابة وود مثلاً ، هذا نحبه ، ولا نحترمه ، وقد تحترم أستاذًا في الجامعة ، لكنه قاسي القلب ، قد تحترمه ، ولا تحبه مثلاً ، البطولة أن تحب ، وتحترم في وقت واحد ، المؤمن والله أعلم جمع من صفات العقل والتفوق العلمي ، ومن صفات النبل والاستقامة والأخلاق حيث إنك تحبه بقدر ما تجله ، أو تجله بقدر ما تحبه ، هذا هو المؤمن ، الإيمان شخصية فذة ، المؤمن درجة علمية ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ، يكفي أنه عرف الحقيقة العظمة في الكون ، الإيمان درجة أخلاقية ، المؤمن مقيد بمنهج ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه أبو داوود وأحمد]

في الإيمان مستحيلات ، أنا أكاد أقول هذه الكلمة ، واعذرني بها : فيما يبدو للناس أحد أسباب قوة مناورة الطرف الآخر أنه لا منهج يقيده ، وأحد أسباب ما يقال له ضعف للمؤمن أن منهجاً يقيده ، ليس بإمكانه أن يكذب ، ولا أن يحتال ، ولا أن يفعل شيئًا يخالف منهج الله عز وجل ، والدليل لما الفرنجة فتحوا القدس قتلوا سبعين ألفًا في يومين ، فلما فتحها صلاح الدين المقيد بالمنهج لم يؤذِ أحداً ، فالإيمان شيء رائع جداً .

الأستاذ عدنان :

لكن هنا دكتور اسمح لي أن أقول أيضاً هذه الناحية ، ذكرت هذه الناحية ، والتاريخ يذكر هذه الناحية ، لكن يذكر إلى جانب هذا أن الفرنجة عندما جاؤوا إلى القدس مغتصبين ، وقتلوا سبعين ألفاً ، يروي أيضاً عنهم التاريخ أنهم قتلوا المسلمين على أنهم كفار ، وقتلوا المسيحيين على أنهم في خندق وفي صف الكفار والمسلمين ، حتى إنهم قتلوا كلاب أهل المنطقة ، أهل البلد ، وقططهم على أنها تابعة للكفار ، أما ما يتصل بصلاح الدين ، وكما ذكرتم فالتاريخ يذكر عن المرأة التي ماتت عند قبر صلاح الدين الأيوبي ، قال ابنها الذي كان إلى جانبها : دمعة صلاح الدين عندما كانت هذه الأم مع زوجها الذي جاء لقتال المسلمين العرب والمسيحيين في أرض فلسطين ، وكانت هذه المرأة قد فقدت ابنها ، فجاءت مشتكية إلى صلاح الدين ، فبقي واقفاً حتى أعاد لها ولدها .

الأستاذ راتب :

بارك الله بكم ، فنحن نعود إلى موضوعنا ، فالإنسان عقل يدرك ، يحتاج إلى غذاء ، وهو العلم ، وقلب يحب ، يحتاج إلى غذاء ، وهو أن يحب جهة ، وذكرت قبل قليل أن الإنسان الذي لا يجد رغبة في أن يُحِب أو يُحَب ليس من بني البشر ، فهذه الكلمة الكبيرة الكبيرة هي أصل من أصول الدين ، أكاد أقول : لا إيمان لمن لا محبة له ، أكاد أقول : إن الإسلام من دون حب جسد بلا روح ، جثة ، جيفة من دون روح ، فهذا الذي أفقد في الدين المحبة ، أفقد في الدين الإخاء ، أقد في الدين التعاون ، هذا جعل الدين ثقافة ليس غير ، جعله بالتعبير المعاصر فلكلوراً ، جعله عادات وتقاليد ، الدين حب ، بل إن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين قسراً ، لكن هذا الإيمان القسري لا قيمة له إطلاقاً ، ولا يسعد صاحبه ، أراد الله سبحانه وتعالى أن نأتيه طائعين ، وأن نأتيه باختيارنا ، أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نأتيه بمبادرة منا ، فالاختيار الذي منح للإنسان يقيم عمله ، فالحب أساس هذا الدين ، ولا إيمان لمن لا محبة له ، لأنه فقد جانب من الدين ، فالله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 54)

هؤلاء الذين يحبون الله لا يمكن أن يرتدوا عن دينه ، لأنه تعلق بالله تعلقاً لا فكاك منه ، فالإيمان فيه ثبات .

شيء آخر ، هناك من ادعى أنهم أحباب الله ، وقالوا :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

لا فضل لكم إطلاقاً ، وأن المسلمين على مخالفاتهم لمنهج ربهم وعلى معاصيهم ، وعلى أن أمر الله هين عندهم فهانوا على الله ، لو أن هؤلاء المسلمين ادعوا أنهم أتباع سيدنا رسول الله ، وهو على العين والرأس ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، قَالَ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ : فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري]

فالحب أسلم من أصول الدين ، قد يدعى ، وكثيرون يدعون حب الله ، خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا ، لذلك الله عز وجل لا يمكن أن يقبل دعوى حبه إلا بالدليل .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب يطيـع

إذاً لو أن الإنسان ادعى أنه يحب الله لا بد من الدليل ، والدليل طاعة رسول الله :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

الحقيقة لو سألت مليارًا ومئتي مليون مسلم : ألا تحب الله أكثر من كل شيء ؟ يقول لك : نعم ، ليس هذا هو المعنى ، المعنى عند التعارض ، حينما يتعارض الأمر الإلهي ، أو السنة النبوية الصحيحة ، أو الشرع الإلهي مع مصلحتك القريبة المتوهمة ، إذا تعارضا ، وملت إلى مصلحتك ، إذا حملك حبك لزوجتك أن ترخي لها العنان ، وأن تفعل ما تشاء خلاف منهج الله ، إن حملك حبك لابنك أن تكسبه المال الحرام ، ولا تعبأ بآخرته ، إن كنت في مسكن تغتصبه وكان المسكن جيد جداً ، والقانون معك فرضاً ، ونسيت أن لهذا المسكن صاحباً ، فآثرت هذا المسكن ، إن آثرت تجارة رابحة ، ولكن ليست مشروعة ، التجارة إذا آثرتها على طاعة الله ، والبيت المريح إذا آثرته على طاعة الله ، وإرضاء الزوجة والولد والأقارب والعشيرة والآباء والتقاليد والعادات ، وما ألفه الناس بخلاف منهج الله ، إذا آثرت هذه على طاعة الله فالطريق إلى الله ليس سالكاً ، والدليل :

(فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة الآية : 24)

انتظروا ، لا أمل .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

هناك ملمح آخر رائع جداً .

الأستاذ عدنان :

هذا الملمح دكتور أصلاً ، ذكرت فيه ما يتصل بما يحب الإنسان ، لكن فيه أذى للآخرين ، الآن الملمح فيه أذى للإنسان وللآخرين في وقت واحد معاً ، لكنه إرضاء لله تعالى ، إنما في النهاية الله لا ينسى عبده الذي يسير بأمره ، موضوع سيدنا إبراهيم ، وموضوع ذبح سيدنا إسماعيل ، كيف أن سيدنا إبراهيم على الرغم من أنه رأى الرؤيا ، ولم يأته الوحي ، رؤيا ، ومع ذلك الابن مستسلم ، الأب مستسلم ، ثم كان بعد ذلك الفداء .

الأستاذ راتب :

هذا أعلى مستوى في العبودية ، أنا أرى أن الأمر الإلهي إذا اتضحت حكمته جلية يضعف فيه عنصر التعبد ، فقد ينطلق المرء فقد يكون صادقاً ، لأن الصدق ينجيه من كل مشكلة ، لكن حينما يغيب عن الإنسان حكمة الأمر ، وننفذه بحذافيره تعلو فيه درجة التعبد ، الله جل جلاله تارةً امتحننا بأوامر معقولة وواضحة ، ولمصلحتنا ، وتطبيقها سهل جداً ، وتارةً امتحننا بأوامر لا تبدو حكمتها بادئة ذي ، لذلك عندنا في الإسلام شيء اسمه عبادة ، وشيء اسمه علم ، فالإنسان يعبد الله دون أن يعلم الحكمة ، أنا أقول كلمة دقيقة جداً : إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، قد نضع مكيف ، يأتي دكتور في الفيزياء ، أو صاحب المعمل ، يضغط على مفتاح البدء ، فيأتيه الهواء البارد ، ويأتي إنسان أمي جاهل لا يقرأ ولا يكتب يضغط على مفتاح البدء فيأتيه الهواء البارد ، فالانتفاع بهذا المكيف ليس مرتبطاً بفهم دقائقه الداخلية ، جلت حكمة الله جعل أوامره لمجرد أن تطبقها تقطف ثمارها ، إن علمت الحكمة أو لم تعلمها ، إن علمت الحكمة تدعو إلى الله بها ، العلم مفضل ، لأن هناك عابدا ، وعالما ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، لكن لو أن إنسانا اكتفى بعبادة الله ، ونجا من الفتن ينجو ، ويقطف ثمار الدين كله ، دون أن يفلسف الأمور ، لا يحتاج إلى فلسفة الأمور ، يكفي أنه نفذ أمر الله عز وجل فقطف ثماره ، أما إن أردت أن تكون داعية تحتاج إلى أن تفهم حكمة الأمور .

إذاً القضية قضية معرفة ، فسيدنا إبراهيم يعد موقفه أعلى درجة في العبودية ، أنه خضع لأمر لا يقبله العقل ولا تقاليد إذاً ولا عادات ولا منطق ، الله عز وجل يمتحننا بما هو واضح الآن ، بما هو ميسور بما هو في متناولنا ، ومع ذلك يسقط معظم الناس في الامتحان .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أيضاً من الأشياء التي يمكن أن تندرج ضمن هذا الإطار ، وما يتصل بموقف سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل من الحادثة التي تطرقنا إليها ، وكيف امتثلا لأوامر الله تعالى ، وبعد ذلك كان الفرج ، وكانت النتيجة المحلقة في الحقيقة ، نحن نسمع كثيراً قولة المرأة العجوز عندما قالت : اللهم ارزقنا

إيماناً كإيمان العجائز ، عندما سمعت أن فلاناً من المفكرين العابدين عنده ألف أو مئة دليل على وجود الله ، كانت تريد من خلال قولتها ألا إنه إن لم يشك بوجود الله تعالى مئة مرة لم يأته الدليل العقلي ليسعفه بعد ذلك أيضاً بمئة إجابة تلغي الشك الأول .

هنا في الحقيقة يمتزج شيئان ، يمتزج الإيمان المطلق عند العموم ، لكنهم ممن أحبوا الله الحب الصادق الكامل ، أما عند البقية المصفاة ، الذي يريدون أن يعرفوا مواضع أقدامهم بالضبط ، وأن يكونوا على بينة ، وأن يدركوا كما ذكرت الحكمة يفكرون إلى جانب الإيمان المطلق بكيفية تأكيد هذا الإيمان لا في نفوسهم ، فهو مؤكد ، إنما في طرحه أمام الآخرين ليتأكدوا من صحته وسلامته .

الأستاذ راتب :

كتوفيق بين ما تفضلت به حينما نكون في مجتمع بسيط غير معقد من غير شبهات، ولا فتن ، ولا شهوات ، ولا ضلالات ، الإيمان الفطري يكفي ، لكنني أعتقد الآن أن مجتمعاً ممتلئاً بالضلالات ممتلئاً بالشبهات ، ممتلئاً بالفتن الإنسان يحتاج إلى درع حصين من علم مكين ، ومن فهم عميق ، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

سيدي ، في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحاح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

الحقيقة كلمة حلاوة الإيمان وردت كثيراً في السنة ، وهي مصطلح ، أنا مضطر أن أوضحها بنقيضها ، هناك حقائق الإيمان أو ليست نقيضها ولكن طرف آخر ، هناك حقائق الإيمان ، وهناك حلاوة الإيمان ، أنا شبهت حقائق الإيمان كمخطط لقصر على الورق كله الغرف 7 بـ 8 الشرفات ، الحدائق ، الطوابق، الأبهاء الواسعة الإطلالة الجميلة ، هذا كله على الورق ، هذه على علم مبنية ، كلها فيها حسابات دقيقة، لكنه ورق هذا ، أما حلاوة الإيمان القصر نفسه ، ففرق كبيرٌ كبير بين أن تمتلك مخططاً لقصر ، وبين أن تسكن هذا القصر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

ومرة ثانية أقول : لو سألت مليار مسلم يقول لك : نحب الله أكثر من كل شيء ، أقول :

عند التعارض ، عندما تجد نصاً صحيحاً وأمراً قويماً ، وآية كريمة ، ومصلحتك بخلافها ، فتضع مصلحتك تحت قدمك ، وتؤثر طاعة الله عز وجل عندئذٍ تذوق شيئاً متميزاً اسمه حلاوة الإيمان ، هذا شيء دقيق جداً ، طبعاً :

((أنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

لذلك في بعض عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْثُرُ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ ، وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ ، وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أخرجه أحمد]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 04 - 29 : المحبة .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-03-20

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

دكتور ، من طبيعة الإنسان أنه يميل إلى أشياء في حياته ، وتحدثتم فيما مضى عن الطبع ، وعن الصبغة ، وعن الفطرة ، ميزتم ، وبينتم الفوارق بين كل كلمة ، وكيف يكون المؤمن في صبغة إيمانية رائعة ، وهو سعيد بها ، ويفلح أيضاً في الدار الآخرة بنتيجة ذلك ، بعد أن يكون قد قضى حياته سعيداً أيضاً .

حب الإنسان لشيء ما ، ميله لشيء ما ، هذا شيء بطبيعة الإنسان ، وهي من الأشياء التي خلق الإنسان عليها ، لكن يمكن أن يوجه هذا الميل إلى أشياء سامية ، أو إلى أشياء عادية ، أو إلى أشياء متردية وبمقدار ما يميل الإنسان في غايته إلى الأشياء التي يرغب بها تكون منزلته ، على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، أنا إن أحببت شيئاً زهيداً مُنايا أن أصل إلى الشيء الزهيد ، وإن أحببت شيئاً راقياً كنت في أعمالي ما يناسب هذا الرقي الذي أحلم به وأتمناه ، وما في حياة الإنسان على الإطلاق مهما ارتفعت غايته فيما يتصل بالدنيا إلا من حطام الدنيا ، إن علا أو هبط ، أما الحب الإلهي فهو الذي يسمو فوق كل شيء ، وبحب الإنسان ربه وخالقه ومولاه ترى في حياته الدنيا قد انفتحت له آفاق ما كانت تفتح له من قبل ، وأحس بأشياء جديدة في تعامله مع الآخرين ، أنا إن أحببت الله الحب الحقيقي رأيتني في ميدان تعاملي مع الآخرين رقيقاً وديعاً ، محباً للخير ، فبحبي لله أحب مخلوقاته وأنفعهم ، أما إن كانت محبتي للإنسان شخصياً لإنسان ما يعني ليس لعموم الناس ، فتنحصر محبتي بهذا الإنسان أو بالتعيين ، وقد تكون على عداوة مع غير هذا الإنسان ، وبالتالي تختلف أمور الحياة .

إذا تحدثنا عن محبة الإنسان ما يتعلق بالدنيا وحطامها وما يتعلق بالله تعالى .

الأستاذ راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

قبل أن أبدأ الحديث كتعقيب على كلامك اللطيف ، قل لي من تحب أقل لك من أنت .

الحقيقة أن في حياة الناس تطرفاً أو تفوقاً ، أنا أرى أن التفوق يتأتى من أن تلبي كل حاجات الإنسان العقلية والنفسية والجسمية ، بل إنني قرأت كتاباً أعجبني به هذه الحقيقة ، أن الإنسان فيه جوانب ثلاثة ، علاقته بربه ، وعلاقته بعمله ، وعلاقته بجسمه ، وأي خلل في أحد هذه الجوانب ينعكس على الجانبين الأخريين ، فلذلك الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، فلا بد من غذاء لهذا الجسم ،

غذاء صحي ، ولا بد من أن ينضبط هذا الجسم وفق قوانينه ، ولا بد من غذاء للقلب ، وهو الحب ، وأنا أرى أن الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يحب ، أو إلى أن يحب ليس من بني البشر ، ومن صفات الشاردين عن الله قسوة قلوبهم ، وما نراه في العالم اليوم من أثر قسوة القلب ، المعاني الإنسانية ضاعت ، التراحم ضاع بين الخلق ،

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خَلقي))

[أخرجه الديلمي عن أبي بكر]

لقوي يأكل الضعيف ، والغني يبتلع الفقير ، فلذلك الإنسان متى يتفوق ؟ إذا لبى حاجة قلبه ، فأحب الأشياء الكاملة ، ولبى حاجة عقله ، فغذاه بالحقائق ، ولبى حاجة جسده ، فغذاه بالطعام والشراب ، هذا تفوق ، أما لو نمّى عقله على حساب قلبه ، قالوا عن أوربة : إن عقلها من ذهب ، وقلبها من حديد قاس لا يرحم ، الإنسان يتفوق إذا لبى كل حاجات جوانبه تلبية كاملة .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، هنا لا مانع هنا لهذه المقاطعة إن سمحت ، قلبها من حديد ، وعقلها من ذهب ـ طبعاً علاقته بالحديد القسوة فقط ـ قد يقول قائل ، وكثيراً ما نسمع هذه الأقوال ، ليست من عندي ، ولست مقتنعاً بها، إنما أوردها من خلال ما أسمع : وما يضرنا في ذلك إذا كان العقل من ذهب والقلب من حديد ، طالما أن العقل فسح لي فسحة كبيرة في كيفية التعامل مع الحياة ، ونجحت في كيفية التعامل فأخضعت ما في الحياة لما يناسب وجودي استرحت وأرحت ، وليكن قلبي من حديد .

الأستاذ راتب :

جيد ، الإجابة عن هذا السؤال : لو أن الدنيا هي كل شيء ، هذا أذكى إنسان ، الذي يستخدم عقله ليحقق مصالح على حساب الآخرين ، الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين لأنه قوي ، ولأن عقله من ذهب ، ويبني أمنه على إخافة الآخرين ، ويبني غناه على إفقار الآخرين ، ويبني حياته على موت الآخرين ، لأن عقله من ذهب ، وقلبه من حديد ، واستخدم عقله فأصبح قوياً ، أما إرادته على كل من حوله فعاش حياةً تفوق حد الخيال ، هذا الكلام رائع ، لو أن الدنيا كل شيء ، لذلك هؤلاء الشاردون عن الله الذين كان عقلهم من ذهب وقلبهم من حديد حينما استغلوا علمهم لقوتهم ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وإفقارهم ، هؤلاء نجحوا في الدنيا أيما نجاح ، ولكن لأن الله موجود ، ولأن الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، هؤلاء حينما يغادرون الدنيا يشعرون بخسارة ما بعدها خسارة :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 14)

و أن الواحد منا افتراضاً عاش رقمًا العقل لا يصدقه ، واحد في الأرض ، وأصفار إلى الشمس ، وكل ميل صفر ، والمسافة 156 مليون كم ، وخسر الآخرة خسر اللانهاية ، خسر الأبد ، ومعلوم في الرياضيات أن أكبر رقم يتصوره الإنسان إذا وضع صورة لكسر مخرجه اللانهاية فقيمته صفر ، فلو لو أن الدنيا كسب الدنيا ، وخسر الآخرة هو أخسر كائن من كان ، بدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

الذي فعل ما فعل ذبح الأطفال ، واستحي النساء ، واستعلى في الأرض ، وطغى ، وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، حينما أدركه الغرق قال :

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس الآية : 90)

ما المعنى ؟ المعنى أن الإنسان في مليون قضية مخير خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان ، اختياره اختيار وقت فقط ، فإما أن يؤمن في الوقت المناسب فينتفع بإيمانه ، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان فلا ينتفع بإيمانه يوم :

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية : 158)

هل يعقل لطالب دخل الامتحان ، ولم يجب إطلاقاً ، ونال الصفر ، رجع إلى البيت ، فتح الكتاب ، وقرأ الإجابة ، فقدم طلبًا لوزارة المعارف أنه أنا الآن جاهز للامتحان ، هل يقبل منه ذلك ؟ عرف الموضوع بعد فوات الأوان ، فأنا مع الإيمان خياري خيار وقت ، فهؤلاء الأقوياء الذي قلبهم من حديد ، وعقلهم من ذهب ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وبنوا مجدهم على أنقاضهم ، لو لم يكن إلا الدنيا فهم أذكياء جداً ، أما لأن هناك آخرة فهم أغبياء جداً .

الأستاذ عدنان :

بالإضافة إلى هذا دكتور هناك ثلاثة أمور أخرى .

الأمر الأول : العقل من ذهب ، والقلب من حديد .

الأمر الثاني : العقل من حديد ، والقلب من حديد .

الأمر الثالث : وهو الذي ما يدعو إليه الإيمان والإسلام : القلب من ذهب ، والعقل من ذهب .

الأستاذ راتب :

طبعاً هذا الكمال الرائع ، الحقيقة الله عز وجل قال :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

(سورة الرحمن)

قدر ما هو عظيم بقدر ما هو كامل ، نحن في حياتنا قد نحب إنسانًا ، ولا نحترمه ، قد يكون قريبًا بسيطًا ساذجًا غير مثقف ، تفكيره سطحي ، تحليلاته مضحكة ، لكن قدم لنا خيرًا ، هناك قرابة وود مثلاً ، هذا نحبه ، ولا نحترمه ، وقد تحترم أستاذًا في الجامعة ، لكنه قاسي القلب ، قد تحترمه ، ولا تحبه مثلاً ، البطولة أن تحب ، وتحترم في وقت واحد ، المؤمن والله أعلم جمع من صفات العقل والتفوق العلمي ، ومن صفات النبل والاستقامة والأخلاق حيث إنك تحبه بقدر ما تجله ، أو تجله بقدر ما تحبه ، هذا هو المؤمن ، الإيمان شخصية فذة ، المؤمن درجة علمية ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ، يكفي أنه عرف الحقيقة العظمة في الكون ، الإيمان درجة أخلاقية ، المؤمن مقيد بمنهج ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه أبو داوود وأحمد]

في الإيمان مستحيلات ، أنا أكاد أقول هذه الكلمة ، واعذرني بها : فيما يبدو للناس أحد أسباب قوة مناورة الطرف الآخر أنه لا منهج يقيده ، وأحد أسباب ما يقال له ضعف للمؤمن أن منهجاً يقيده ، ليس بإمكانه أن يكذب ، ولا أن يحتال ، ولا أن يفعل شيئًا يخالف منهج الله عز وجل ، والدليل لما الفرنجة فتحوا القدس قتلوا سبعين ألفًا في يومين ، فلما فتحها صلاح الدين المقيد بالمنهج لم يؤذِ أحداً ، فالإيمان شيء رائع جداً .

الأستاذ عدنان :

لكن هنا دكتور اسمح لي أن أقول أيضاً هذه الناحية ، ذكرت هذه الناحية ، والتاريخ يذكر هذه الناحية ، لكن يذكر إلى جانب هذا أن الفرنجة عندما جاؤوا إلى القدس مغتصبين ، وقتلوا سبعين ألفاً ، يروي أيضاً عنهم التاريخ أنهم قتلوا المسلمين على أنهم كفار ، وقتلوا المسيحيين على أنهم في خندق وفي صف الكفار والمسلمين ، حتى إنهم قتلوا كلاب أهل المنطقة ، أهل البلد ، وقططهم على أنها تابعة للكفار ، أما ما يتصل بصلاح الدين ، وكما ذكرتم فالتاريخ يذكر عن المرأة التي ماتت عند قبر صلاح الدين الأيوبي ، قال ابنها الذي كان إلى جانبها : دمعة صلاح الدين عندما كانت هذه الأم مع زوجها الذي جاء لقتال المسلمين العرب والمسيحيين في أرض فلسطين ، وكانت هذه المرأة قد فقدت ابنها ، فجاءت مشتكية إلى صلاح الدين ، فبقي واقفاً حتى أعاد لها ولدها .

الأستاذ راتب :

بارك الله بكم ، فنحن نعود إلى موضوعنا ، فالإنسان عقل يدرك ، يحتاج إلى غذاء ، وهو العلم ، وقلب يحب ، يحتاج إلى غذاء ، وهو أن يحب جهة ، وذكرت قبل قليل أن الإنسان الذي لا يجد رغبة في أن يُحِب أو يُحَب ليس من بني البشر ، فهذه الكلمة الكبيرة الكبيرة هي أصل من أصول الدين ، أكاد أقول : لا إيمان لمن لا محبة له ، أكاد أقول : إن الإسلام من دون حب جسد بلا روح ، جثة ، جيفة من دون روح ، فهذا الذي أفقد في الدين المحبة ، أفقد في الدين الإخاء ، أقد في الدين التعاون ، هذا جعل الدين ثقافة ليس غير ، جعله بالتعبير المعاصر فلكلوراً ، جعله عادات وتقاليد ، الدين حب ، بل إن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين قسراً ، لكن هذا الإيمان القسري لا قيمة له إطلاقاً ، ولا يسعد صاحبه ، أراد الله سبحانه وتعالى أن نأتيه طائعين ، وأن نأتيه باختيارنا ، أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نأتيه بمبادرة منا ، فالاختيار الذي منح للإنسان يقيم عمله ، فالحب أساس هذا الدين ، ولا إيمان لمن لا محبة له ، لأنه فقد جانب من الدين ، فالله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 54)

هؤلاء الذين يحبون الله لا يمكن أن يرتدوا عن دينه ، لأنه تعلق بالله تعلقاً لا فكاك منه ، فالإيمان فيه ثبات .

شيء آخر ، هناك من ادعى أنهم أحباب الله ، وقالوا :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

لا فضل لكم إطلاقاً ، وأن المسلمين على مخالفاتهم لمنهج ربهم وعلى معاصيهم ، وعلى أن أمر الله هين عندهم فهانوا على الله ، لو أن هؤلاء المسلمين ادعوا أنهم أتباع سيدنا رسول الله ، وهو على العين والرأس ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، قَالَ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ : فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري]

فالحب أسلم من أصول الدين ، قد يدعى ، وكثيرون يدعون حب الله ، خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا ، لذلك الله عز وجل لا يمكن أن يقبل دعوى حبه إلا بالدليل .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب يطيـع

إذاً لو أن الإنسان ادعى أنه يحب الله لا بد من الدليل ، والدليل طاعة رسول الله :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

الحقيقة لو سألت مليارًا ومئتي مليون مسلم : ألا تحب الله أكثر من كل شيء ؟ يقول لك : نعم ، ليس هذا هو المعنى ، المعنى عند التعارض ، حينما يتعارض الأمر الإلهي ، أو السنة النبوية الصحيحة ، أو الشرع الإلهي مع مصلحتك القريبة المتوهمة ، إذا تعارضا ، وملت إلى مصلحتك ، إذا حملك حبك لزوجتك أن ترخي لها العنان ، وأن تفعل ما تشاء خلاف منهج الله ، إن حملك حبك لابنك أن تكسبه المال الحرام ، ولا تعبأ بآخرته ، إن كنت في مسكن تغتصبه وكان المسكن جيد جداً ، والقانون معك فرضاً ، ونسيت أن لهذا المسكن صاحباً ، فآثرت هذا المسكن ، إن آثرت تجارة رابحة ، ولكن ليست مشروعة ، التجارة إذا آثرتها على طاعة الله ، والبيت المريح إذا آثرته على طاعة الله ، وإرضاء الزوجة والولد والأقارب والعشيرة والآباء والتقاليد والعادات ، وما ألفه الناس بخلاف منهج الله ، إذا آثرت هذه على طاعة الله فالطريق إلى الله ليس سالكاً ، والدليل :

(فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة الآية : 24)

انتظروا ، لا أمل .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

هناك ملمح آخر رائع جداً .

الأستاذ عدنان :

هذا الملمح دكتور أصلاً ، ذكرت فيه ما يتصل بما يحب الإنسان ، لكن فيه أذى للآخرين ، الآن الملمح فيه أذى للإنسان وللآخرين في وقت واحد معاً ، لكنه إرضاء لله تعالى ، إنما في النهاية الله لا ينسى عبده الذي يسير بأمره ، موضوع سيدنا إبراهيم ، وموضوع ذبح سيدنا إسماعيل ، كيف أن سيدنا إبراهيم على الرغم من أنه رأى الرؤيا ، ولم يأته الوحي ، رؤيا ، ومع ذلك الابن مستسلم ، الأب مستسلم ، ثم كان بعد ذلك الفداء .

الأستاذ راتب :

هذا أعلى مستوى في العبودية ، أنا أرى أن الأمر الإلهي إذا اتضحت حكمته جلية يضعف فيه عنصر التعبد ، فقد ينطلق المرء فقد يكون صادقاً ، لأن الصدق ينجيه من كل مشكلة ، لكن حينما يغيب عن الإنسان حكمة الأمر ، وننفذه بحذافيره تعلو فيه درجة التعبد ، الله جل جلاله تارةً امتحننا بأوامر معقولة وواضحة ، ولمصلحتنا ، وتطبيقها سهل جداً ، وتارةً امتحننا بأوامر لا تبدو حكمتها بادئة ذي ، لذلك عندنا في الإسلام شيء اسمه عبادة ، وشيء اسمه علم ، فالإنسان يعبد الله دون أن يعلم الحكمة ، أنا أقول كلمة دقيقة جداً : إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، قد نضع مكيف ، يأتي دكتور في الفيزياء ، أو صاحب المعمل ، يضغط على مفتاح البدء ، فيأتيه الهواء البارد ، ويأتي إنسان أمي جاهل لا يقرأ ولا يكتب يضغط على مفتاح البدء فيأتيه الهواء البارد ، فالانتفاع بهذا المكيف ليس مرتبطاً بفهم دقائقه الداخلية ، جلت حكمة الله جعل أوامره لمجرد أن تطبقها تقطف ثمارها ، إن علمت الحكمة أو لم تعلمها ، إن علمت الحكمة تدعو إلى الله بها ، العلم مفضل ، لأن هناك عابدا ، وعالما ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، لكن لو أن إنسانا اكتفى بعبادة الله ، ونجا من الفتن ينجو ، ويقطف ثمار الدين كله ، دون أن يفلسف الأمور ، لا يحتاج إلى فلسفة الأمور ، يكفي أنه نفذ أمر الله عز وجل فقطف ثماره ، أما إن أردت أن تكون داعية تحتاج إلى أن تفهم حكمة الأمور .

إذاً القضية قضية معرفة ، فسيدنا إبراهيم يعد موقفه أعلى درجة في العبودية ، أنه خضع لأمر لا يقبله العقل ولا تقاليد إذاً ولا عادات ولا منطق ، الله عز وجل يمتحننا بما هو واضح الآن ، بما هو ميسور بما هو في متناولنا ، ومع ذلك يسقط معظم الناس في الامتحان .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، أيضاً من الأشياء التي يمكن أن تندرج ضمن هذا الإطار ، وما يتصل بموقف سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل من الحادثة التي تطرقنا إليها ، وكيف امتثلا لأوامر الله تعالى ، وبعد ذلك كان الفرج ، وكانت النتيجة المحلقة في الحقيقة ، نحن نسمع كثيراً قولة المرأة العجوز عندما قالت : اللهم ارزقنا

إيماناً كإيمان العجائز ، عندما سمعت أن فلاناً من المفكرين العابدين عنده ألف أو مئة دليل على وجود الله ، كانت تريد من خلال قولتها ألا إنه إن لم يشك بوجود الله تعالى مئة مرة لم يأته الدليل العقلي ليسعفه بعد ذلك أيضاً بمئة إجابة تلغي الشك الأول .

هنا في الحقيقة يمتزج شيئان ، يمتزج الإيمان المطلق عند العموم ، لكنهم ممن أحبوا الله الحب الصادق الكامل ، أما عند البقية المصفاة ، الذي يريدون أن يعرفوا مواضع أقدامهم بالضبط ، وأن يكونوا على بينة ، وأن يدركوا كما ذكرت الحكمة يفكرون إلى جانب الإيمان المطلق بكيفية تأكيد هذا الإيمان لا في نفوسهم ، فهو مؤكد ، إنما في طرحه أمام الآخرين ليتأكدوا من صحته وسلامته .

الأستاذ راتب :

كتوفيق بين ما تفضلت به حينما نكون في مجتمع بسيط غير معقد من غير شبهات، ولا فتن ، ولا شهوات ، ولا ضلالات ، الإيمان الفطري يكفي ، لكنني أعتقد الآن أن مجتمعاً ممتلئاً بالضلالات ممتلئاً بالشبهات ، ممتلئاً بالفتن الإنسان يحتاج إلى درع حصين من علم مكين ، ومن فهم عميق ، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

سيدي ، في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحاح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

الحقيقة كلمة حلاوة الإيمان وردت كثيراً في السنة ، وهي مصطلح ، أنا مضطر أن أوضحها بنقيضها ، هناك حقائق الإيمان أو ليست نقيضها ولكن طرف آخر ، هناك حقائق الإيمان ، وهناك حلاوة الإيمان ، أنا شبهت حقائق الإيمان كمخطط لقصر على الورق كله الغرف 7 بـ 8 الشرفات ، الحدائق ، الطوابق، الأبهاء الواسعة الإطلالة الجميلة ، هذا كله على الورق ، هذه على علم مبنية ، كلها فيها حسابات دقيقة، لكنه ورق هذا ، أما حلاوة الإيمان القصر نفسه ، ففرق كبيرٌ كبير بين أن تمتلك مخططاً لقصر ، وبين أن تسكن هذا القصر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

ومرة ثانية أقول : لو سألت مليار مسلم يقول لك : نحب الله أكثر من كل شيء ، أقول :

عند التعارض ، عندما تجد نصاً صحيحاً وأمراً قويماً ، وآية كريمة ، ومصلحتك بخلافها ، فتضع مصلحتك تحت قدمك ، وتؤثر طاعة الله عز وجل عندئذٍ تذوق شيئاً متميزاً اسمه حلاوة الإيمان ، هذا شيء دقيق جداً ، طبعاً :

((أنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

لذلك في بعض عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْثُرُ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ ، وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ ، وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أخرجه أحمد]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 05 - 29 : الهجرة 1 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-03-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

الهجرة كما نعلم هجرته عليه الصلاة والسلام وكما حدثنا عليه الصلاة والسلام، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ...))

[متفق عليه]

لكن الهجرة بمعانيها مستمرة، إذ

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[متفق عليه]

بالمقابل مَن عمل ما أمر به الله تعالى، فكان ضمن ما أراده الله تعالى، إقبالاً على ما يريده وإدباراً عما نهى عنه فهو مهاجر.

معاني الهجرة إذاً قائمة مستمرة إلى أن تقوم الساعة، وإذا كانت أحداث الهجرة فيها ما فيها من روعة ومن دروس، ومن معجزات، ومن أشياء كثيرة لا تنتهي، ولا تبلى، فإن في معانيها أيضاً الباقية والمستمرة دروس أيضاً لا تبلى، ولا تنتهي، وهي مستمرة، وإذا أردنا أن نتحدث عن هذا فالشاطئ كما يقال واسع، ووجهة البحر ممتدة، وأنتم من تريدون الغوص في هذه الأمور، فيمكن أن نتحدث عن الدروس المستفادة من هجرة، والغوص في هذه الأمور.

الأستاذ راتب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان، جزاكم الله خيراً، لا بد من حقائق أضعها بين يدي هذا الموضوع.

الحقيقة الأولى: أن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده، وأمته معصومة بمجموعها، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ...))

[ابن ماجه عن أنس]

لكن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم ومشرِّع، فأقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، وصفاته تشريع، مجموع أقواله مع أفعاله مع صفاته مع إقراره هو السنة النبوية المطهرة للأنبياء مهمتان كبيرتان، الأولى: مهمة التبليغ، والثانية: مهمة القدوة، فالنبي علمنا بأفعاله، وعلمنا بأقواله، فالهجرة من أفعاله، لا يمكن، ولا يقبل، ولا يعقل أن تكون أحداث الهجرة وقعت صدفة، إنما هي مقصودة من الله عز وجل، ليقف النبي الموقف الكامل من الظروف التي تصيب المسلمين.

الحقيقة أن ذكر وقائع الهجرة معلومة لدى كل المسلمين، ولا أعتقد أن واحداً يغفل عن وقائعها، ولكن العبرة أن نستنبط من هذه الوقائع الدروس والعبر، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا في هذا اللقاء الطيب إلى وضع اليد على الدروس المستفادة من الهجرة.

أول حقيقة: أن الأفعال التي فعلها النبي هي في حد ذاتها تشريع.

الشيء الثاني: أن المسلم ينبغي أن يتبع النبي في أفعاله، وأن يقتدي به فيما يفعله في حياته اليومية، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية: 7)

وعندنا قاعدة أصولية أنه " ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض "، أرأيت إلى الوضوء ؟ إنه فرض، لأن الصلاة وهي فرض لا تتم إلا به، فإذا أردنا أن نتبع النبي في توجيهاته وأقواله كما قلت قبل قليل من السنة، فكيف نطبق هذه السنة إن لم نعلم حقيقة أقواله ؟ إذاً كما أن تطبيق توجيهات النبي فرض عين على كل مسلم، وهذا الفرض لا يتم إلا بفرض قبله، وهو معرفة أقوال النبي ، فأنا أوجه الخطاب لكل أخ كريم مؤمن أنه لا بد من أن يقف على حقيقة أقوال النبي ، لأن الله يأمره:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

، هذه واحدة.

ولأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب الآية: 21)

إذاً هو أسوتنا، كيف يكون أسوتنا إن لم نعلم حياته وملابسات سيرته، إذاً نحن معنيون شئنا أم أبينا كوننا مسلمين أن نتعرف إلى أقواله، كي نطبقها، تنفيذًا لأمر الله عز وجل، والمسلمون في عصور تخلفهم ضغطوا الدين إلى العبادات الشعائرية، مع أن الدين منهج كامل، لذلك قال العلماء: كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، هناك أمر تهديد، هناك أمر إباحة،

هناك أمر ندب، ما سوى هذه الحالات الخاصة كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، فالله سبحانه وتعالى حينما قال

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

، هذا أمر من الله عز وجل.

حينما يخاطب المؤمنين الذين ارتبطوا بعقد إيماني مع الله أن يتبعوا فحوى أقوال النبي e، وكيف يتبعون فحوى أقوال النبي إن لم يقفوا على حقيقة أقواله ؟ لكن هناك ملاحظة أن القرآن الكريم قطعي الثبوت، بينما السنة ظنية الثبوت، ففي أقواله ما هو صحيح، وما هو متواتر، وما هو حسن، وفي أقواله ما هو ضعيف، وفي أقواله ما هو موضوع، فلا بد في السنة من تحري الصحة في السنة.

الأستاذ عدنان:

طيب دكتور هنا في هذه الحالة قد تكون هناك أشياء يفعلها البشر، إن كان بشراً عادياً أو نبياً رسولاً يوحى إليه، مثلاً: أراد أن يجلس الجلسة المعينة، ثم غيرها إلى جلسة أخرى، واتكأ إلى حائط أو إلى وسادة، هل هذه نعتبرها من ضمن السيرة ؟ هنا ـ نتحدث عن الطابع التشريعي لا شك ـ نعم، لأنه أصلاً سئلت مثل هذا السؤال، ولتوضيحه للإخوة المشاهدين يجب ألا نخلط بين ما هو يتصل بالإنسان كإنسان في مطلق الحرية في بعض التصرفات، وما هو مشير إلى التشريع.

الأستاذ راتب:

في سيرته جزء يعد من التشريع، وهذا المعني في هذه الحلقة، وفي سيرته جزء يتعلق به كبشر، فالنبي بشر، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لأنه بشر، لأنه يغضب، لأنه يشتهي ما نشتهيه، يتمنى ما نتمناه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّه، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، ولَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّه، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلَال طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلاَ مَا وَارَى إِبْطُ بِلَال))

[أخرجه الترمذي]

لأنه بشر، وتجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته كان سيد البشر، هذه حقيقة صارخة، هؤلاء الذين يريدون أن يسلخوا عن النبي صفة البشرية هم لا يعظمونه كما أراد الله عز وجل، إنه قدوة لنا، إنه يفعل ما ينبغي أن نفعل، هو مثل أعلى لنا.

إذاً أول شيء ينبغي أن نعلم أقواله، حتى ننفذ قول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

وينبغي أن نعلم سيرته كي يكون قدوة لنا في الظروف التي تتكرر، إن الأحداث التي وقعت في عهد النبي مقصودة لذاتها، إنها منطلق للتشريع، فكل حدث وقع في عهد النبي وقع بعناية بالغة من الله عز وجل، ليكون هذا الحدث نموذجًا متكررًا، القرآن الكريم لا يتلو علينا قصصاً وقعت، ولن تقع بعد اليوم، إذاً هو كتاب تاريخ، هو كتاب هداية، حتى قصص القرآن الكريم، قد أغفل الله بعض جزئياتها لتكون القصة نموذجاً متكرراً لكل ظرف طارئ، فهذه الهجرة هي حدث كبيرة، هي من أضخم أحداث الدعوة الإسلامية، ولكن هذا الحدث يمكن أن يتكرر.

تفضلتم في مقدمة هذه الندوة، وذكرتم حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ...))

[متفق عليه عن ابن عباس]

أنا أقول: باب الهجرة أغلق بين مكة والمدينة، أيعقل أن يذهب الإنسان اليوم إلى مكة، ويركب مركبة إلى المدينة، ويسمى عند الله مهاجرًا، لكن باب الهجرة مفتوح على مصاريعه إلى يوم القيامة بين كل مدينتين تشبهان مكة والمدينة.

لو أردنا أن نستشف في هذه الحلقة المباركة ـ إن شاء الله ـ بعض الدروس التي يحتاج المسلمون من الهجرة نقول:

الحقيقة أن أول درس هو أن الإنسان خلق ليعبد الله، لا بالمفهوم الضيق الذي يفهمه عامة المسلمين، بالمفهوم الواسع العبادة: هي طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، العبادة علة وجودنا.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العبادة سبب سعادتنا وسلامتنا في الدنيا والآخرة، بالمفاهيم الدقيقة الواسعة العميقة للعبادة ينبغي أن تعبد الله فيما أقامك.

الأستاذ عدنان:

دكتور، هنا إذا سمحتم موضوع العبادة، هذه الناحية قد يقول قائل: رغم أن كثيراً من المؤمنين العابدين يدركون معنى ما قلت، لكن بعضاً من الناس قد لا يدركون، وللتوضيح نتوقف عند هذه الناحية، قد يقول قائل: إنني أصلي، ولا أشعر بما تقول، بل إنه يمكن أن أشرد في صلاتي إلى أمور إذا انتهيت من الصلاة لا أذكرها، ولا أتوقف عندها، مع ذلك في صلاتي أتوقف عندها، ويفردها الشيطان أمامي فرداً،

ويوضحها توضيحاً، وأنسى كم صليت، ركعتين أو أربعًا أو ثلاثًا ؟ إلخ... كيف نستطيع أن نؤكد الفكرة التي ذكرتها لمثل هؤلاء لنبيّن أن العبادة فعلاً هي الإنسانية الكاملة، هي التشريع، إلخ...

الأستاذ راتب:

يبدو أن هذا المنهج العظيم منهج الله عز وجل كلٌّ متكاملٌ لا يمكن أن نقتطع جزءًا منه، ثم نلاحظ الأثر الذي يقدمه لنا، إنه منهج متكامل، فأنا حينما أكون عابداً لله، بمعنى أنني أستقيم على أمره، وأنني أقف عند حدوده، وأنني أفعل ما أمر الله به، وأنتهي عما عنه نهاني، إذا قمت إلى الصلاة لا أشرد عنها، لأنني في صلة بيني وبين الله، وينبغي أن أفرق بين الصلاة عبادةً شعائرية، أقوالا وأفعالا، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم، فيها وقوف، وركوع، وسجود، وتلاوة قرآن، والفاتحة، وبين الاتصال بالله، المعاصي والآثام، والمخالفات التي تحجب عن الله، فإذا كان الإنسان محجوباً عن الله بسبب مخالفاته وتقصيره، وانحرافاته، وأكله المال الحرام، وعدم انضباطه بمنهج الله عز وجل، طبعاً هو في الصلاة يقوم بأفعال لا معنى لها، لا بد من أن يشرد، هذا شيء طبيعي جداً.

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142))

(سورة النساء)

أما إذا كانت الصلة فيما بين الصلوات عامرة بين العبد وربه، أساسها الانضباط والاستقامة، يكون حاله في الصلاة غير هذا الحال، وفرق كبير بين أرحنا منها، وأرحنا بها، بين أرحنا منها، إنها فرض لا بد من أن يؤدى، وبين أرحنا بها، إنها حب لله عز وجل، وإقبال عليه، الحقيقة أن العبادات لها أسرار، ولها حِكم، فما لم يطبق المؤمن منهج الله عز وجل تطبيقاً شمولياً لا يستطيع أن يقطف ثمار العبادة، والله عز وجل يقول:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى)

الزكاة:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة)

وفي الصيام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري]

في الحج: لو أن الإنسان حج بيت الله الحرام، ووضع رجله في الركاب، وكان حجه بمال حرام، وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه منادٍ أن لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك.

الأمر دقيق جداً كما تفضلتم، لا بد من التوضيح، نحن في عام دراسي تسعة أشهر، وعندنا ثلاث ساعات امتحان، فالعبادة الشعائرية تشبه ساعات الامتحان، والعبادة التعاملية التي أساسها الصدق والأمانة، وإتقان العمل، وتلبية حاجة الضعيف، وإنجاز الوعد والحفاظ على العهد، هذه القيم الأخلاقية هي العبادة التعاملية بين العبد وبين خلق الله عز وجل، فإذا أنجزها كالذي درس دراسة جادة في العام الدراسي، فالامتحان له معنى كبير عنده، الامتحان سيصب معلوماته التي حصلها خلال العام الدراسي في هذه الساعات الثلاث، أما الذي لم يقرأ، ولا كلمة، ولم يحضر درسا ماذا يفعل في هذه الساعات الثلاث ؟ مملة جداً، يتململ منها، فالذي لا ينضبط بمنهج الله في حياته اليومية، في بيته، في عمله، في تعامله، في أخذه، في عطاءه، في كسب ماله في إنفاق ماله، في علاقته بالنساء، في مناسباته الاجتماعية، في أفراحه، في أتراحه، الذي لا يقيم منهج الله في حياته الخاصة، وحياته الاجتماعية، والأسرية، والعامة لا يستطيع أن يقطف من الصلاة ثمارها، هو محجوب عن الله بمعاصيه، والذنوب تقطع العبد عن ربه، اللهم لا تقطعنا بقواطع الذنوب، ولا تحجبنا بقبائح العيوب، هذه ومضة سريعة حول العبادة، فنحن لأن العبادة سر وجودنا وغاية وجودنا، ولأن الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا كي نعبده، فنسعد بجنة عرضها السماوات والأرض، فأي مكان حال بينك وبين عبادة الله ينبغي أن تهجره إلى مكان آخر.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة النساء الآية: 97)

ظلم النفس أشد أنواع الظلم، ظلم النفس أن يخسر الإنسان الأبد، ظلم النفس أن يصل الإنسان إلى النار، ظلم النفس أن يخسر طاعة الله عز وجل.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النساء الآية: 97)

وهذه الآية فيها ملمح لطيف، الاستضعاف نوعان: استضعاف داخلي، أيْ كنت في مكان الشهوات فيه مستعرة، والفتن يقظة، والمعصية تقترف على قارعة الطريق، ولا تستطيع أن تقاوم، هذا ضعف داخلي، ضعفت أمام الفتن والشهوات، فإذا كنت في بلد، ولو حققت فيه مكسباً مادياً كبيراً، ولكن ضعفت في هذا المكان أمام شهواتك وأمام المغريات التي تراها في عينيك في كل مكان فينبغي أن تغادر إلى بلد تستطيع أن تعبد الله فيه، فهذا الملمح الأول.

وقد تكون في بلد جهة قامعة حالت بينك وبين عبادة الله، طبعاً الأصل أن تصلح البيئة، الأصل أن تصلح الواقع، فإذا كنت ضعيفاً، إما ضعفاً نفسياً لا تستطيع أن تجابه هذه الشهوات وتلك المغريات، أو

لا تستطيع أن تجابه من منعك أن تعبد الله فلا بد من أن تهاجر، لأنك إن هاجرت حققت علة وجودك وغاية وجودك، وحققت الهدف من خلقك في الحياة الدنيا،

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)

دقق أستاذ عدنان، قال تعالى:

(قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (97))

(سورة النساء)

وعيد مخيف، فهذا الذي يضيع دينه في بلد بعيد، يضيع دين أولاده، يضيع مستقبلهم، يذوب في مجتمع غربي، ينسى قيمه، ينسى دينه، ينسى أمته، هذا الذي يستمرئ الحياة هناك، ولا يعبأ بمصيره الأخروي، لا يعبأ بمستقبل أولاده لن يستطيع أن ينشئهم كما يريد الله عز وجل، لأن المجتمع فاسد، والحياة المادية قد تكون أقوى من أية دعوة، فلذلك هنا الملمح، أنك إن كنت في مكان، وقد حققت أهدافك المادية في أعلى مستوى، لكنك ضيعت دينك ـ لا سمح الله ـ ضيعت مستقبل أولادك، فالإنسان قد يملك أكبر ثروة في الأرض، وقد يعتلي أعلى منصب في الأرض، وقد يغرق في متع لا حدود لها، إن لم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس، وفي القرآن ملمح، قال تعالى:

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ)

(سورة طه الآية: 117)

فبحسب السياق اللغوي الذي تعلمناه في قواعد اللغة فتشقيا، فجاءت الآية:

(فَتَشْقَى (117))

(سورة طه)

قال علماء التفسير: الشقاء الزوجي شقاء حكمي لزوجته، هذا من باب الإيجاز، الآن شقاء الأولاد شقاء حكمي للأب والأم، فحينما تكون في بلد لا تستطيع أن تعبد الله فيه لضعفك أمام الشهوات، أو تكون في بلد لا تستطيع أن تعبد الله فيه لوجود قوة تمنعك أن تعبد الله، في حديث النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه بشارة ف عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ

:((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[مسند أحمد]

تلاحظون أستاذ عدنان كيف أن المسلمين في هذه البلاد الطيبة يؤدون عباداتهم في مساجدهم، وهم في حال طيبة مع الله، ولا أحد يمنعهم أن يعبدوا الله عز وجل، أما حينما تذهب إلى مكان لا تستطيع أن تعبد الله لضعف داخلي، أو إلى مكان لا تستطيع أن تعبد الله لقوة خارجية، الآن تعطل سر وجودك،

وتعطلت غاية وجودك، وتعطل سبب وجودك، إنها عبادة الله عز وجل، فلذلك لا بد من أن تتحول إلى بلد تعبد الله فيه.

والحقيقة أن الذين هاجروا فراراً بدينهم رضي الله عنهم، وعاشوا حياة رغيدة ملؤها السعادة، لأنهم آثروا طاعة الله على معصيته.

الأستاذ عدنان:

في الملمح الذي ذكرتموه أن الإنسان عندما يكون في ضعف نفسي داخلي يمكن أن يسير كما يسيِّره التيار، هذا النوع أيضاً توعده الله تعالى بالعذاب، إذاً هو حتى في ضعفه سيلقى على ضعفه العذاب يوم القيامة ـ لقي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ـ أما من كان رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى فإنه يرفض الضعف الداخلي، والضعف الخارجي، فيكون وقتها متعباً لموضوع الهجرة، التي هي عنوان حلقة اليوم.

الأستاذ راتب:

أريد أن أوضح توضيحاً آخر، هو أنني إذا كنت في بيئة أستطيع أن أرقى بها، أما حينما أكون ضعيفاً ضعفاً حقيقياً لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فعلي أن أفر بديني، حينما لا أستطيع إما لضعف داخلي، أو لخارجي ينبغي أن أفر بديني، لأنني أحقق، لو أن طالبًا كل آماله أن ينال الدكتوراه، وذهب إلى بلد، وحيل بينه وبين الدراسة فلا بد من أن يتحول إلى بلد آخر، لأن هدفه الأول هذه الشهادة.

الأستاذ عدنان:

طيب دكتور، هنا أيضاً يمكن أن تطرح الفكرة التالية، وهي هامة لما يعيشه المسلمون في هذه الأيام من تردد، وتقلقل بين فكرة الجهر بقوة تصل إلى القسوة والمخالفة، والمصادمة، وما بين الدعوة بأسلوبها السليم الصحيح، حيث تؤدي بالداعي، ومن يتلقى الدعوة على الوصول سوياً إلى هدف منشود، أنا يمكن أن أوجد في مجتمع، حتى لو كان إسلامياً، سمعت فلاناً يشتم النبي عليه الصلاة والسلام، أغضب منه، أذهب إليه أضربه، ينتهي الأمر إلى مشكلة أكبر ينتهي، وينتهي يصل إلى ما لا تحمد عقباه، على حين يمكن أن يكون في الأصل تصرف آخر يوصلني إلى المطلوب دون أن يأخذ هذه الضجة.

الأستاذ راتب:

سيدي، من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، أنا أقول كلمة: سيد الخلق، النبي عليه الصلاة والسلام، وحبيب الحق، سيد ولد آدم، يوحى إليه، آتاه الله المعجزات، آتاه الله العلم والحكمة، جعله من أفصح البشر، كان أجمل الناس صورة، هذا الإنسان الفذ المتميز الذي تربع على قمة البشر هو نفسه يخاطبه الله، ويقول له:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية: 159)

كل هذه الميزات، كل هذه الصفات، كل هذا الكمال، كل هذا العلم، كل هذه الروعة في حياته هو نفسه:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

، فكيف بإنسان ليس في قمة البشر، ولا يوحى إليه، وليس معه معجزات، ولم يكن أفصح البشر، ولم يكن جميل الصورة، وهو في غلظة ؟!

يروى أن واعظًا دخل على أمير، وقال: إنني سأعظك، وأغلظ عليك، وكان الأمير أفقه من الواعظ، قال له: ولِمَ الغلظة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، لست أنت كموسى، ولست أنا كفرعون، ومع ذلك قال له:

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

(سورة طه الآية: 44)

فلذلك نحن نخلط بين أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ)

(سورة التحريم الآية: 9)

هذه أخلاق الجهاد، هذه أخلاق ساحة الحرب، هذه أخلاق المواجهة، ينبغي أن تكون قوياً.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39))

(سورة الشورى)

لكن في الدعوة لها أخلاق، في أخلاق الدعوة.

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت)

بعض المسلمين سامحه الله يخلطون بين أخلاق الجهاد، وبين أخلاق الدعوة، نحن في الدعوة إلى الله ينبغي أن نكون قمماً في الكمال، وقمماً في اللطف، وقمماً في النعومة، أما في الجهاد فموضوع آخر.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 06 - 29 : الهجرة 2 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-04-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

إن جملة ما تتحدثون عنه إن كان في حلقة سابقة أو فيما يحضر موضوع الهجرة، وقد يقول قائل ضت الهجرة إن كانت في أحداثها أو في ذكراها، لكن الإجابة عن مثل هذا التساؤل يكمن في أن الهجرة بمعانيها مستمرة في كل زمان ومكان، وكما تحدثتم في المرة الماضية: إنه إن كان الإنسان في داخله يضعف فلا يؤدي معاني الهجرة، أو فيما يحيط به يضعف من أسباب خارجية فلا يؤدي معاني عبوديته لله تعالى، فيمكنه أن يفعل كما يفعل من يريد أن يسافر ليحصل مثلاً على شهادة عليا، فلا يوفق فيها من خلال دراسته، أو من خلال مجال الدراسة المفتوح في بلد ما، فيحوِّل إلى بلد آخر، حيث يمكنه أن يحصل على مراده، وإذا كانت البشرية كلها، والإنسان اسم الجنس يعني مطلق الإنسان، ما وجد في هذا الكون إلا ليعبد الله تعالى، ليس عبادة صلاة من حيث هي قيام وقعود وركوع وسجود بعيداً عن المعاني التي هي صلة بالله تعالى وعبودية.

ومن ناحية ثانية ليكون خليفة الله في الأرض يعمرها، ويسعد نفسه، ويسعد غيره، إذا كان هذا كله فيمكن أن نقول: إن لكل شيء سبباً، ولا يمكن أن تكون هجرته عليه الصلاة والسلام دون أسباب، ولكنه عندما هاجر أيضاً في هجرته اتبع الأسباب، وكما أنه كان يعلم أنه وعد إحدى الحسنيين في المعارك، في بدر مثلاً، كان حريصاً على تأدية الأسباب والدعاء، وسماع أراء الآخرين، وما إلى ذلك، إذاً نحن في مرحلة أن نقول: إن على الإنسان الذي علم أنه عبد لله عليه أن يؤدي الأسباب كاملة، ويفتش عما يوصل إلى غايته، وبعد أن يؤديها بالكامل يقول: يا رب، أنا أديت ما علي كإنسان، ولكنني ضعيف، ملتجئ إليك يا الله.

إذاً الأسباب أساسية، ولا يمكن أن يحصل الإنسان على غايته من نجاح في فحص نهاية العام دون أن يدرس، الله يوفقه عندما يدرس، ويأتي بالأسباب كما ذكرتم أيضاً في الحلقة السابقة.

نتابع إذاً مسيرة الأسباب، وكما يقول من يحاولون التنظير ـ كما نقول في هذه الأيام ـ: إن الإنسان الذي يتبع العلم والفكر السليم يحاول أن يناظر، ويقول: إن لكل شيء سبباً، ويجب أن أدرس وأحصل، وأن أبعد التوكل، فهو تواكل، مثل هذه الكلمات الإسلام سابق لا إلى كلامها الأجوف، لكن إلى حقيقتها السامية، فهو يؤدي الأسباب، ويتوكل على الله.

الأستاذ راتب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

لابد من مقدمة علمية، هذا الكون في أصل تصميمه مصمم على أن لكل شيء سببا، هذه حقيقة أولى، وهذا العقل البشري مبرمج على أن لكل شيء سببا، لذلك العقل البشري لا يمكن أن يفهم شيئاً بلا سبب، ومصمم أيضاً على ألا يفهم شيئاً بلا غاية، ومصمم أيضاً على أن يرفض مبدأ عدم التناقض، مبادئ العقل الثلاثة، مبدأ السببية، مبدأ الغائية، مبدأ عدم التناقض، وأروع ما في الأمر أن مبادئ العقل متوافقة مع أصل تصميم الكون، وكأن الله أراد حينما صمم عقلاً ليفهم الأشياء بأسبابها أن نصل من خلال هذا المبدأ، ومن خلال أصل التصميم إلى المسبب الأول، وهو الله، لو أن أصل تصميم الشيء بلا سبب، وقد يقيس الإنسان أن هذا الكون بلا سبب، هذه حقيقة دقيقة جداً، لكن الأخذ بالأسباب واجب على كل مسلم، إلا أن المنزلق الخطير أن تأخذ بالأسباب، وأن تألّهها، وأن تعتمد عليها، وأن تنسى الله، فهذا منزلق خطير وقع فيه الغرب، وفي منزلق آخر، ألا تأخذ بالأسباب، وهذا منزلق أخطر وقع فيه الشرق، البطولة أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، التطرف سهل، أما التوازن فصعب، ليس من السهل أن تأخذ بالأسباب، ثم تشعر بضعفك أمام الله ـ تقول: يا رب، أنا أخذت بالأسباب، واعتمدت عليك، كأن الإنسان يمشي في طريق عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، فإن أخذ بالأسباب، واعتمد عليها، وألّهها، واستغنى بها عن الله وقع في وادي الشرك، وإن لم يأخذ بها وقع في وادي المعصية، الغرب أخذ بها وألّهها، والشرق لم يأخذ بها، والموقف الكامل خلاف هذين الموقفين.

نعود إلى الهجرة: قاعدة دقيقة جداً في الهجرة، أن استحقاق النصر لا يعفي المسلم من الأخذ بالأسباب، فالنبي عليه الصلاة والسلام هاجر بطريقة، وسيدنا عمر هاجر بطريقة، سيدنا عمر هاجر متحدِّياً المشركين، قال: " من أراد أن تثكله أمه فليتبعني لهذا الوادي "،) أشجع من عمر، لكنهεسيدنا عمر لم يأخذ بالأسباب، لكنه مثّل نفسه، والنبي اختار طريقاً مساحلاً تضليلاً للمطاردين، واختار غار ثور تضليلاً لهم أيضاً، وبقي في غار ثور ثلاثة أيام إمعاناً بالتضليل، ثم هيأ من يأتيه بالأخبار، وهيأ من يمحو له الآثار لئلا يتعقبونه، وهيأ من يأتيه بالزاد واستأجر دليلاً رجح فيه الخبرة على الولاء، والمسلم أحياناً يحتاج إلى خبرة مستوردة، لا ينبغي أن يخلط بين الولاء والخبرة، واستأجر دليلاً رجح فيه الخبرة على الولاء، أخذ بكل الأسباب، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، أخذ بكل الأسباب، ثم توكل على الله، هذا درس بليغ يحتاجه المسلم، المسلمون يتواكلون، ويظنون أنهم أمة منصورة أصلاً وابتداء ونهاية، والواقع ليس كذلك، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية: 60)

ما من شيء يشغل بال المسلمين اليوم كالنصر، النصر له سببان:

الأول: أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: 82)

آمن به رباً، وآمن به عزيزاً، وقال خلقتني، وآمن بالبعث، وقال:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14))

(سورة الأعراف)

لكن إيمان إبليس لم يحمله على الطاعة، إذاً لا جدوى منه، وكل إنسان لا يحمله إيمانه على طاعة الله لا جدوى منه، أكاد أقول: هناك دائرة كبيرة جداً، كل من اعتقد بأية طريقة أن لهذا الكون إلهاً هو الله فهو مؤمن ضمن هذه الدائرة.

دائرة ثانية: كل من حمله إيمانه على أن يطيع الله فهو في الدائرة الثانية، في مركزها الأنبياء، وهم معصومون، ثم المؤمنون، ثم الذين آمنوا إيماناً لم يحملهم على طاعة الله، وأما الذي أنكر وجود الله فهو خارج هذه الدائرة الكبرى، إنسان كفر بوجود الله فهو خارج هذه الدائرة، وإنسان آمن بأن الله موجود، آمن به عزيزاً لكنه لم يطعه، لم يحمله إيمانه على الطاعة إذاً هذا الإيمان لم ينفعه، لذلك في بعض الآيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا)

(سورة النساء الآية: 136)

يعني إيمانكم لا يكفي.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

إذاً حينما نؤمن الإيمان الذي يحملنا على أن نحكّم منهج الله في حياتنا، في بيوتنا، في أسرنا، في تربية أولادنا، في معاملة زوجاتنا في كسب أموالنا، في إنفاق أموالنا، في لهونا، في تمضية أوقات فراغنا، في مناسباتنا الحزينة، في مناسباتنا الطيبة، إن لم يحملنا إيماننا على تطبيق منهج الله في كل شؤون حياتنا فهذا الإيمان يمكن أن نسميه كما سماه بعضهم إيماناً إبليساً، لا يقدم ولا يؤخر.

الأستاذ عدنان:

دكتور، هنا أيضاً كما ذكرت في البداية أن الكون كما أراده الله تعالى جعل له أسبابًا، وتحدثتم عن

العقل كيف يقبل الأسباب والغاية، وهذه الأمور الثلاثة التي وضحتها، لكن رُبّ قائل يقول، ويوجد من يقول مثل هذا الكلام: أنا أتخذ الأسباب، وأسير، وأفكر تفكيراً سليماً، وأعمل عقلي إعمالاً كاملاً، وما الحياة الدنيا هذه التي نعيشها على الأرض إلا من خلال إعمال عقلٍ وعمل، لنصل إلى غاية ونتيجة، فقد حققنا الاثنتين اللتين تحدثت عنهما، الأسباب والغايات، إذاً فلماذا موضوع التوكل، ونجد من نجد في دول متقدمة علمياً من حققوا في مجتمع من خلال علومهم وتفكيرهم وعقولهم أشياء كثيرة في حياتهم المدنية، فكانوا فعلاً متقدمين فيها، وقد وصلوا إلى قوانين تشريعية أيضاً ضبطت كثيراً من أمور حياتهم، أليس هذا يوصل الإنسان إلى السعادة في الدنيا من دون إيمان ؟ على حين أننا نجد من يدعون الإيمان، وشعاراتهم شعارات إيمان، ونجدهم في ميدان الأسباب لا يأخذون، وفي ميدان التعامل ينافقون، إلخ... حيث نستطيع أن نقول ما قلت في البداية: الغرب أخذ بالأسباب، وترك الإيمان، والشرق أخذ بشعارات الإيمان، وترك العمل به، وفي الحقيقة ضاع، ألا يوجد الآن من يقول: إن ما يصل الغرب إليه من خلال الأخذ بالأسباب هو الأفضل لنا أيضاً ؟

الأستاذ راتب:

لابد من تنويه دقيق، هو أن منهج الله عز وجل منهج موضوعي، معنى كونه موضوعيًّا أنه لو أخذ به كافر لقطف ثماره في الدنيا، لو أخذ به كافر بالله كافر بوجوده لو أخذ بمنهج الله، وطبقه على حياته اليومية لقطف كل ثماره، لكن:

(مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة الآية: 102)

لأن الإنسان مخلوق لحياة أبدية، لأن الله سبحانه وتعالى أعد له جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا أخذ بالأسباب، ولم يكن مؤمناً نال ثمراتها في الدنيا كما في الغرب تماماً، لكن إذا أردت أن تفهم حقيقة وجودك الأبدي فلا بد من أن تؤمن، وتأخذ بالأسباب.

اسمح لي بهذا المثل: لو أردتُ أن أضغط الدين كله بقانون فيزيائي للتقريب، المعادن تتمدد بالحرارة، لو أننا أشدنا بهذا القانون، ومدحنا هذا القانون، وألقينا الخطب حول هذا القانون، وأثنينا على هذا القانون، وافتخرنا بهذا القانون، ولم نأخذ به حينما أنشأنا بيوتنا، فتهدمت، وجاء أعداؤنا، هاجموا هذا القانون، ونددوا بهذا القانون، وعدوا هذا القانون رجعياً، وأخذوا به حينما بنوا بيوتهم، بقيت بيوتهم، وانهارت بيوتنا، والذي تجده بالغرب إيجابياً هو أخذ بمنهج الله لا عن عبادة، لكن عن ذكاء وعقل، فهذا المنهج أستاذ عدنان موضوعي، بمعنى أن كل من أخذ به قطف ثماره، فإن أخذ به تعبداً كسب الدنيا والآخرة، وإن أخذ به مصلحة فاز بالدنيا، فقد قال الله عز وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم الآية: 7)

أنا حينما أعطي الإنسان حقه، حينما أعده بحريته، حينما أقر له كرامته ينبغي أن ينطلق بالعمل، هذا مبدأ إسلامي، حتى إنني أقول دائماً: إن إيجابيات الغرب إسلامية من دون أن يشعروا، ومن دون أن يريدوا، فالإنسان حينما تحقق له حاجاته الأساسية، حينما تعطيه رغيف خبزه وكرامته، تحقق له حريته، هذا الأصل، يجب أن يعطي، وهذا مبدأ، وعظمة هذا الدين تعني أنه منهج موضوعي كل من أخذ به قطف ثماره، فإن أخذ به عن عقل وذكاء ليحقق مصالحه في الدنيا نال الدنيا.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19))

(سورة الإسراء)

فلذلك:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

الله عز وجل له طرائق رائعة جداً في هداية الخلق، في مراحل، أول مرحلة الهدى البياني، تستمع إلى خطبة، إلى درس، إلى شريط، تقرأ كتاباً، تستمع إلى إنسان ينصحك، هذه دعوة بيانية، وأنت سليم معافى، أكمل موقف فيها أن تستجيب لله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 24)

فإن لم يستجب الإنسان أخضعه لمرحلة أخرى، التأديب التربوي.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

في التأديب التربوي ينبغي أن نتوب إلى الله، أكمل وضع في الدعوة البيانية الاستجابة إلى الله، أكمل وضع في التأديب التربوي أن نتوب إلى الله، فإن لم نتب جاء الإكرام الاستدراجي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام الآية: 44)

وأكمل موقف في الإكرام الاستدراجي أن نشكره، فإن لم يستجب في الدعوة البيانية، ولم نتب في التأديب التربوي، ولم نشكر في الإكرام الاستدراجي لا بد من القصم:

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام الآية: 44)

فنحن حينما نأخذ منهج الله عن عقل وعن مصلحة نفوز بنتائجه في الدنيا، كما في الغرب، وحينما لا نأخذ به نخسر الدنيا والآخرة كما في الشرق، وحينما نأخذ به تعبداً لله عز وجل نكسب الدنيا والآخرة.

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

(سورة النساء)

نعود إلى موضوع الأخذ بالأسباب.

الأستاذ عدنان:

أيضاً يحدث معنا كما كان في مؤلفات الجاحظ يستطرف، ثم يعود، ولكنها تبقى ضمن أشياء مطلوبة، ويمكن أن تناقش فعلاً، ذكرتم قبل قليل أن إيجابيات الغرب هي إسلامية، هذا يقودنا إلى التساؤل التالي: هذه الإيجابيات من اختراعات تفيد البشرية، من الضوء الذي ينير، من اكتشاف مثلاً موضوع الإضاءة، المذياع، التلفزيون، إلى آخر هذه الأمور جميعاً، وهي التي أفادت البشرية، وجعلتها تترقى في ميدان المدنية، ترى هؤلاء الذين انكبوا في مخابرهم ومكاتبهم إلى أن وصلوا ما وصلوا إليه هل أخذوا ثمرة ما قدموا في الدنيا، وانتهى كل شيء أم الإيجابيات التي ذكرتها أنها من الإسلام عندما كانت في الغرب توصلهم إلى رضا الله تعالى في الدار الآخرة ؟ هل من اكتشف مثلاً دافعة الماء عندما يضغط بالأجسام الملقاة فيه إلى الأعلى دافعة أرخميدس، من اكتشف كذا وكذا وكذا ؟ هل في هذه الغاية ما يقربه إلى الله تعالى، هل هذا يقوده لأن يكون قول الرسول والتوجيه الإسلامي أحب الله أنفعهم لعياله، هل هذا يقوده فقط ليقال عنه: عالم، وقد قيل، ما وضع التشريع الإسلامي في نظرته إلى أمثال هؤلاء ؟

الأستاذ راتب:

أنا أعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المتواتر الجامع المانع حينما قال:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[البخاري عن عمر]

والله وحده، أقول: وحده مطّلع على نيات الإنسان، فمن آمن بالله أولاً، وأراد التخفيف عن البشرية ثانياً في شيء من المنجزات الحضارية فله أجره عند الله، من آمن بالله أولاً، ثم أراد بهذا العمل أن يخفف من متاعب البشر، إن في اختراع دواء في مرض مستعصٍ فهذا له أجر عند الله ثابت لا يضيع، لأنه ورد في الأثر أنه: " ما أحسن من عبد مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة، كإنسان عمل عملاً صالحاً، هذا العمل لا يضيع عليه، إن أراد به الدنيا نال الدنيا، وإن أراد السمعة سمع الله به، إن أراد المكانة وضعه الله في مكانة علية، وإن أراد المال أعطاه الله مالاً غزيراً وفيراً، ماذا

أراد ؟ أردت المال، فهذا المال، أردت المكانة هذه المكانة، أردت الشهرة هذه الشهرة، أردت أن يكون لك أثر كبير وذكر لك الذكر، أردت الله لك الله، أردت الآخرة لك الآخرة، ماذا تريد ؟

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20))

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19))

(سورة الإسراء)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

(سورة الإسراء الآية: 18)

أنا أعتقد أن أي طلب تطلبه بصدق لا بد من أن تناله، إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام، إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان، لكننا كبشر نتأدب مع الله، أنا أقول: أن تعرف نيات الإنسان، هذا من شأن الله وحده، هذا ما قاله سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118))

(سورة المائدة)

فأنا لا أتدخل في علاقة البشر بربهم، تقييم الأشخاص من شأن الله وحده، والنبي يقول:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ))

[البخاري عن عمر]

فمن آمن بالله الإيمان الذي ينبغي، ثم تقرب إليه بخدمة البشر بالتخفيف من آلامهم عن طريق اختراع فله أجره عند الله، هذا هو الأصل، أما من أراد الشهرة فله الشهرة، من أراد المال فله المال، من أراد السمعة فله السمعة، من أراد العلو في الأرض فله العلو في الأرض،:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ))

[البخاري عن عمر]

أستاذ عدنان، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، هذه بطولة، من السهل جداً أن تأخذ بالأسباب، وأن تعتمد عليها، إنسان راجع مركبته قبل السفر، كل شيء تمام، إن نسي الله قد تخذله، وقد تقطعه في الطريق، وإذا لم يراجع مركبته قبل السفر فهو مؤاخذ، لم يأخذ بالأسباب، البطولة أن تراجع مركبتك مراجعة تامة، ثم تقول: يا رب، احفظني، أنا ضعيف، فأن تفتقر إلى الله، وأنت قد أخذت بالأسباب هذا يحتاج إلى إيمان كبير، لأنك إذا أخذت بالأسباب تنزلق إلى أن تعتمد عليها.

سيدنا عمر رأى أناساً بالحج يتكففون الناس، قال: من أنتم ؟ قالوا: نحن المتوكلون على الله، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله.

هناك ملمح لطيف جداً، النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يصلي في وقت العمل في المسجد، سأله: من يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك.

الذي يأخذ بالأسباب، ويكف نفسه عن السؤال، ويده عليا هذا أعبد من المتسكع الذي يعيش عالة على الناس.

الأستاذ عدنان:

لم يقل له: أفضل منك، ولا أحسن منك، أعبد منك، وهو يتعبد.

الأستاذ راتب:

سيدنا عمر رأى رجل ناقته جرباء، قال له: ماذا تفعل بهذا المرض ؟ قال: أدعو الله أن يشفيها، قال له: هل جعلت مع الدواء قطراناً ؟

أنا أعتقد أن الدعاء من دون الأخذ بالأسباب استهزاء بالدعاء، إنسان وقفت مركبته، فخرج منها وقال: يا رب ليس لنا سواك، ارفع غطاء المحرك، ابحث عن العلة، هذا هو المنطق، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ عَلَى العَجْزِ))

[أخرجه أبو داوود عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

أن أستسلم لواقعي، أن أقول: انتهينا.

(لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

(سورة البقرة الآية: 249)

هذا هو الاستخذاء والاستسلام والانهيار، وهذا ليس من صفات المؤمن،

((إِنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ عَلَى العَجْزِ))

يعني أستسلم لمصيري، أقول: هذا المصير، ماذا أفعل ؟ هذه صفة قبيحة بالإنسان،

((إِنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ عَلَى العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

يعني ابحث، اسأل، ادرس، تأمل، تتوسط، افعل شيئاً،

((فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل))

متى أقول: حسبي الله، ونعم الوكيل إذا غلبني أمر.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 07 - 29 : الهجرة 3 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-01

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع :

كما قلت في مرات سابقة : الهجرة كحادثة انتهى زمانها ، والحديث عن أحداثها أيضاً كثر وكثر ، إنما ما فيها من عبر ودروس لا ينتهي على مدار العام كله ، ومما تحدثتم به ووضحتم إياه أن الأرض واسعة لمن أراد هدفاً سامياً ، أن يهاجر إلى الزمان والمكان المنسبين ، ليكون في الطريق الموصلة لهدفه السليم ، فليس كل هدف سليماً ، وليس كل مكان يناسب الهدف ، وليس كل ما يطلبه الإنسان آن أوانه ، وما إلى ذلك من أشياء يمكن أن تكون في ممر الإنسان وخطواته التي يريد أن يصل بعدها لغايته ، الأشياء في هذا كثيرة ، والدروس أيضاً كثيرة ، نتابع معكم إن شاء الله .

الأستاذ :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

درس آخر من دروس الهجرة ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وترضى ، ومستحيل أيضاً أن تؤثر رضاه وتخسر ، أو تؤثر مصلحتك على حساب طاعتك وتربح ، فهذا الذي كان في دخل كبير ، ومكان جميل ، وراحة مادية تامة ، لكنه خشي على دينه ودين أولاده وزوجته ، فذهب إلى بلده أو عاد إليه ، الذي بإمكانه أن يقيم فيه أمر الله ، وهو أقرب إلى الله في بلده من هذا البلد ، هو هاجر في سبيل الله ، وضع تحت قدمه مغانم كثيرة ، ودخلاً كبيراً ، وحياة ناعمة فارهة ، وعاد إلى بلد نامٍ فيه مشكلات لا تعد ولا تحصى ، لكنه آثر أن ينتمي إلى أمته ، وأن يكون لبنة في بناء وطنه ، وأن يسهم في إصلاح أولاده وتهيئتهم لمعرفة الله عز وجل ، هو آثر الآخرة على الدنيا ، وأنا أقول دائماً : إياك أن توازن بين بلد غني جداً عريق في الحضارة المادية ، وبين بلد نامٍ ينشأ الآن ، وازن بين الدنيا والآخرة ، ولا توازن بين البلدين ، فرق كبير جداً ، فهذا الذي يهاجر في سبيل الله طبعاً أقول: في سبيل الله ، لأن هناك هجرة في سبيل الشيطان ، يهاجر ليقترف الحرام ، ويجمع المال الحرام ، وليعطي نفسه شهواتها ، وليتفلت من الرقباء ، ويفعل كل المعاصي والآثام ، هذه هجرة في سبيل الشيطان ، وليكون عوناً للعدو على المسلمين ، وليكون في خدمة أعداء الله ، ولينصرف عن أمته ، هذه هجرة في سبيل الشيطان ، والعياذ بالله ، أقول عن هجرة في سبيل الله، ووضع مغانمه تحت قدمه ، وآثر طاعة الله عز وجل .

الآن حقيقة دقيقة وخطيرة – هناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة – الإنسان في الحياة يتحرك فيها قوانين ، إذا كنت في بلد غني مستقر من مئات السنين سوف تجد عملاً له دخل كبير ، وتسكن أجمل بيت ، وتقتني أجمل سيارة ، وتعيش حياة فارهة تفوق حد الخيال ، هذا قانون ، أما إذا جئت إلى بلد نامٍ تكتشف صعوبات في الحياة ، قد تجد صعوبة في شراء البيت ، وفي تحقيق مصالحك الدنيوية ، هناك قوانين مستنبطة من حركة الحياة ، فالإنسان حينما يهاجر في سبيل الله ، ولا يعبأ بالمغانم المادية ، ويحرص على سلامة دينه ومستقبله الأخروي مبدئياً سوف يدفع الثمن باهظاً ، أكبر دليل على هذا من كتاب الله ،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة)

منعوا ، والسياحة لها دخل كبير ، قال تعالى :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ)

(سورة التوبة)

ربما ذقتم العيلة (الفقر) لتوقف هذا الدخل ،

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة)

الإنسان يتخذ قرار بطوليا ، إلى أمد قصير يدفع الثمن باهظاً ، ويكون هذا الثمن ثمنا بطوليا ، ومتناسباً مع عطاء الله له .

مثل بسيط : لو أن مطعما يقترف المحرم في بيعه ما يشتهيه رواد المطعم ، ثم تاب إلى الله ، ومنع هذا الشيء الذي حرمه الله عز وجل ، لا شك أن غلته ستهبط كثيراً ، والله عز وجل قادر على أن يضاعف له الغلة ، ولكن حينما قلّت ليعطيه الله قيمة هذا القرار البطولي إلى حين طبعاً ، بعد حين يعوض عليه ، فالإنسان حينما يأخذ قراراً بطولياً يؤثر طاعة الله على مصالحه ، يؤثر الجنة على الدنيا ، هذا عمل بطولي ، ربما دفع ثمنه المؤلم في الدنيا ، لكن بعد حين يخضعه الله لقانون آخر لا يعرفه الناس ، إنه قانون العناية الإلهية ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

(سورة النساء)

ومن أروع ما قرأته حول كلمة مراغماً أن الله يوفقه ، ويهبط عليه من خيره وبركته ما يغيظ به أعدائه.

المذيع :

يا سيدي ، هذه الناحية بالذات لا أريد أن أسمي أسماء ، لكنني أعرف إنساناً كان له مطعم في دولة أجنبية ، وكان في المطعم كما أشرت المشروبات الروحية ، من أجل أن يترك هذا الأمر أراد أن يبيع

المطعم ، فعلاً باعه ، والغرابة في الأمر أن وقتها عندما أراد بيعه لم يأته الثمن المطلوب ، لأن المكان بعيد ، والإنسان هنا في دمشق ، جاءه هاتف من ذاك البلد ، فلان يطلب أن يشتري مطعمك بسعر كذا وكان ، أكثر مما طلبه ، وفعلاً باعه ، وربح ، وكانت غايته الله ، يقول هذا الإنسان : ومن ذلك الوقت فُتِح علي باب عريض كبير من نِعم الله تعالى ، وأنا أشكره باستمرار على هذه النعمة .

الأستاذ :

يروي التاريخ أن رجلاً اسمه عقبة ابن عامر كان من الأعراب ، له غنيمات يعتني بها في البادية ، فسمع بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة ، وعرضوا عليه أن يبايعوه ، فقالوا له : وله أصحاب حوله ، فأتوا النبي من أنت ؟ قال : أنا عقبة ، قال : أتريد بيعة مدنية أم بيعة بادية ؟ قال : بل بيعة هجرة ، فبايعه النبي ، وعاد إلى باديته ، واتفقوا أن يرسل كل يوم واحداً منهم ليستمع لتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعود إليهم ، وكان شديد الحرص على غنيماته ، حرصاً لا حدود له ، فكان يقول : اذهبوا أنتم ، وأنا أستمع منكم مساء ، وفي ساعة صفاء ومحاورة مع الذّات ، وساعة محاسبة لنفسه قال : يا عقبة ، أيليق بك أن تبق في البادية ، ويذهب أصحابك إلى رسول الله ؟ اذهب ، والزمهم ، فترك غنيماته ، وضحى بهم ، وهم ثروته الوحيدة ، وصحب النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن يدري أنه حينما آثر صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على غنيماته سيغدو أكبر عالم بين الصحابة في المستقبل ، وأكبر قارئ من قراء القرآن ! وسيغدو أكبر قائد فذ من قوات المسلمين ! هو الذي فتح دمشق ومصر فيما يرويه التاريخ ، وساهم بفتح جزيرة هودو ، صار عالماً وقارئاً وقائداً وفاتحاً ، وعيّنه الفاروق على الشام .

هو هاجر من البادية للمدينة ، وضحى بغنيماته !

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)

لكن ليس مباشرة ! أنا حينما يقول لي أحدهم : سأترك بلاد الغرب ، وأعود إلى بلدي كي أعود لأمتي ، أقول له : وطن نفسك على أن هناك متاعب كثيرة ، هذه ثمن هذا القرار البطولي ، لكن بعد حين توفق، (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

أقول : مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، وتعصيه وتربح ، وما ترك عبد شيء لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ، الإنسان دائماً لو أن المكاسب الأخروية محسوسة لا يوجد جنة ، ما الذي يحصل ؟ الدنيا محسوسة بمركباتها ونسائها وقصورها ومطاعمها ومتنزهاتها ومالها ، الدنيا محسوسة ، والآخرة خبر في القرآن ،

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

(سورة الضحى : 4)

لذلك بطولة المؤمن أنه آمن بالغيب ، لذلك ربنا عز وجل في أول سور القرآن بعد الفاتحة يقول :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

آمن بالله ولم يره ، آمن بالآخرة ، بل إن الإنسان في حلقات سابقة كما تحدثت أنه عجول ، فإذا اختار الهدف البعيد يرقى مع الله ، الناس يتعايشون مع واقعهم فقط .

أضرب مثلا بسيطًا أرجو أن يكون واضحاً : في موسم الأمطار والثلوج ، والذي أكرمنا الله به ، والذي فاقت نسبة الأمطار ضعف التقديرات السنوية ، لو أن الطريق إلى حمص كان مقطوعًا ، وإدارة المرور جزاها الله خيراً وضعت لافتة في أن الطريق لحمص غير سالك بسبب تراكم الثلوج ، فإذا قدت المركبة إلى حمص ، ورأيت هذه اللوحة ماذا تفعل ؟ ترجع من ، هذا بيان .

لو أن دابة تمشي على هذا الطريق أين تقف ؟ تقف في مدينة النبك ! يحكمها الواقع لا البيان ، وكلما ارتقى الإنسان يحكمه البيان ، وكلما هبط يحكمه الواقع ، لذلك خيارنا مع الإيمان خيار وسط ، بدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

و:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

، والذي فعل ما فعل لما أدركه الغرق قال :

(آمَنْتُ بِالَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

، آمن ، أنا أقول : كل كفار الأرض الملحدون عند الموت يقرون بفحوى بعثة الأنبياء ، لكنهم أقروا بعد فوات الأوان .

لذلك أنت في الحياة الدنيا مخير بملايين الموضوعان خيار قبول أو رفض ، قد يعرض عليك سفرٌ فترفضه لقلة جدواه ، قد تعرض عليك فتاة لتخطبها فترفضها ، لأسباب كثيرة ، قد يعرض عليك بيت فترفضه لضيق مساحته ، ولاتجاهه نحو الشمال فرضاً ، أما حينما يعرض عليك الدين فترفضه ، هذا خيار وقت ، لا بد من أن تقبله عند الموت ، فالبطولة أن نؤمن بالدين قبل فوات الأوان ، خيارنا مع الدين خيار وقت لا خيار قبول أو رفض ، هذه قضية خطيرة جداً .

فنحن حينما نأخذ قرار بطاعة الله هذا قرار بطولي ومصيري ، وحينما نرفض الدين نحن نرفض أشياء كثيرة احتقاراً لها ، إذا رفضنا الدين نحتقر أنفسنا ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة)

النقطة الدقيقة أيضاً هي أن الإنسان حينما يؤمن بالغيب ، يؤمن بوعد الله ووعيده ، لو أن الله سبحانه وتعالى افتراضاً عاقب كل عاصٍ مباشرة لألغي كل الاختيار ، لو أنه كافأ كل محسن مباشرة لألغي الاختيار ، لابد من أن تفعل ما تريد لأمد طويل ، ولا شيء يتغير في حياتك .

المذيع :

المثال الذي ذكرته يؤكد هذه الناحية ، عندما يقرأ المسافر لوحة كتب عليها الطريق مقطوع في المكان الفلاني يعود ، هذه العودة تراجع عملياً ، وهي عن مالا يرغبه ، لكنه سلم من أن يقع في المحظور عندما يقع به الواقع .

الأستاذ :

أسوق هذا الكلام لبعض المدخنين ، حينما يصاب المريض بسرطان الرئة يقلع عن التدخين ، أو حينما يصاب بجلطة أو أزمة قلبية يقلع فوراً ، ما الذي حكمه ؟ الواقع ، هو هبط عن مستوى إنسانيته ، لو أنه أعمل عقله لحكمه البيان ، لو قرأ كتابا عن مضار التدخين لأقلع عن التدخين قبل أن يصاب بالسرطان، ومشكلة المسلمين اليوم أن الواقع يعميهم ، يعيشون وقتهم ، ولا يعيشون مستقبلهم ، الحقيقة أن الإنسان إذا تغنى بماضيه فقط فهو أغبى الأغبياء ، وإذا عاش وقته فهو يقوم بردود فعل باستمرار ، حياته ردود فعل ، أما إذا عاش المستقبل يكون عاقلاً .

قرأت مرة قصة في بعض كتب الأدب ، أن صياداً مر بغدير فيه سمكات ثلاث ، كيسة ، وأكيس منها ، وعاجزة ، فتواعد الصيادان أن يرجعا للغدير ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك ، والقصة رمزية ، فسمعت السمكات قولهم ، أما أكيسهن فإنها ارتابت وتخوفت ، وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء إلى النهر إلى الغدير فنجت ، العاقل يحتاط للأمر قبل وقوعه ، أما العاجزة فبقيت في مكانها ، أهملت ، وسوفت ، تراخت ، ولم تستجب مباشرة ، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها ، فإذا بالمكان قد سد فقالت : فرطت ، وهذه عاقبة التفريط ، وأما العاقلة فالعاقل لا يقنط من منافع الرأي، لم تستسلم ،

((إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس))

ثم إنها تماوتت ، فطفت على وجه الماء منقلبة تارة على بطنها وتارة على ظهرها ، فأخذا الصياد ، ووضعها على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت بالنهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت !.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))**

(سنن الترمذي)

وقد قال بعض العلماء : الأماني بضائع الحمقى ، هذا الذي يتمنى ولا يفعل شيئاً هو أحمق ، فلذلك ما إن تستقر حقيقة الإيمان في نفس المؤمن حتى تعبر بذاتها بحركة نحو الخلق ، بمناسبة الهجرة ، الهجرة عمل وحركة وموقف ، نحن لا يوجد عندنا إيمان استتيكي سكوني ، إعجاب سلبي ، استماع لمحاضرات ، إعجاب بالمتكلمين فقط ، خلفية إسلامية ، أرضية إسلامية ، نزعة إسلامية ، عاطفة إسلامية ، لكن لا يوجد إسلام ولا تطبيق ، فحينما ألغينا التطبيق ألغينا هذا الدين ، بقي الدين ثقافة وفلكلورا وعادات وتقاليد ، فنحن نحتاج إلى حركة ، يوجد آية دقيقة وخطيرة جداً :

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال)

إن لم تتحرك ، وتقف موقفاً عملياً ، وتعطي لله ، وتمنع لله ، وترضى لله ، وتغضب لله ، إن لم تصل لله، وتقطع لله فلست مؤمناً ، لا يوجد إسلام سلبي سكوني متقوقع ، إلام ينظر ، ويراقب ، ولا يفعل شيئاً، هذا ليس إسلاماً ،

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

حتى يأخذ موقفا ، لكن عظمة الإسلام أن هذه الهجرة ، وهي أخطر أحداث البعثة المحمدية ، وسّع النبي مفهومها إلى درجة أن الذي يطيع الله ورسوله ، ويهجر ما نهى الله عنه يعد مهاجرًا .

لذلك كما تفضلت في بداية الحلقة : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم ، المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، حينما أدع المنكرات والمعاصي والآثام أدع ما حرم الله ، فأنا عند الله مهاجر ، وهذا مفهوم واسع للهجرة ، وكل إنسان وهو في بيته من دون أن يترك بيته وعمله حينما يأتمر بما أمر الله ، وينتهي عما نهى عنه الله فهو مهاجر .

في آخر الزمان تكون الفتن كقطع الليل المظلم ، حينما يفيض اللئام فيضا ، ويغيض الكرام غيضا ، حينما يكون الولد غيظا ، المطر قيظا ، حينما يضام الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، حينما يبيع الإنسان دينه بعرض من الدنيا قليل ، حينما يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ، حينما يمسي كافراً ، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، في آخر الزمان عبادة الله في الهرج في زمن الفتن والمعاصي والشهوات المستعرة ، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي الصحيح ، عَن مَعْقِلِ بْن يَسَارٍ عَن النَّبيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

(صحيح مسلم)

فهذا الذي يعيش في زمن الفتنة القابض على دينه كالقابض على الجمر ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

(سنن الترمذي)

ورد في بعض الأحاديث أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((اشتقت لأحبابي فقال : أحابه أو لسنا أحبابك ؟ قال : لا ، أنتم أصحابي ، أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض منهم على الجمر ، أجرهم كأجر سبعين ، فقالوا : منا أم منهم ؟ فقال : بل منكم ، قالوا : ولم ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معوانا ، ولا يجدون))

(ورد في الأثر)

يقول عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ فقالوا : يا رسول الله أو كائن هذا ؟ قال : وأشد منه سيكون ! قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : أو كائن هذا ؟ قال : وأشد منه سيكون ! قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف منكرا، والمنكر معروفًا ؟))

(ورد في الأثر)

يقال : حرب تنموية أخلاقية

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 08 - 29 : الإعجاز في الكون 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-08

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

مما تعلمون دكتور أن القرآن الكريم فيه إعجاز من كل النواحي، وفي البلاغة إعجاز، وفي التشريعات، وفي الأمور العلمية، وفي الكونيات، وفي الحديث عن الأمم السابقة، وفي الحديث عما يمكن أن يجري في المستقبل، كل ما في القرآن الكريم إعجاز، ومن أراد أن يكون كيّساً عاقلاً استطاع أن يقرأ في هذا الإعجاز ما يفيده في حياته الدنيا ليكون سعيداً، وما يفلح به أيضاً في الدار الآخرة، ومن جوانب الإعجاز الإعجازُ العلمي .

صحيح أن القرآن الكريم ليس كتاب علوم يمكن أن ندرسه على هذا الأساس، إنما ما ورد فيه من صور الإعجاز العلمي، والتي لا تبلى كما أن غيره لا يبلى أيضا في عجائبه وإعجازه، إذا تحدثنا عن هذا الجانب العلمي، رغم أن القرآن الكريم كما قلت ليس كتابًا علميًّا، إنما فيه من الإعجاز العلمي ما يحسن أن نتوقف عنده لندرك عظمة الخالق جل جلاله .

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

يمكن أن نعرف الإنسان بأنه أعقد آلة في الكون، وأعني بالتعقيد تعقيد الإعجاز، لا العجز، فهو المخلوق الأول الذي سخرت له السماوات والأرض جميعاً، وقد كلف بحمل الأمانة، وقد أمره الله عز وجل أن يعبده، والعبادة في أدق معانيها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي على سعادة أبدية، هذا الإنسان الأول، والذي وصفناه بأنه أعقد آلة في الكون له صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، فانطلاقا من حب الإنسان لوجوده، وسلامة، وكمال واستمرار وجوده عليه أن يتبع تعليمات الصانع، وتعليمات الصانع هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، لأنه خبير، الآن هذا الكون الذي تحت سمعنا وبصرنا فيه كمال مطلق، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، فبما أن هذا الكون كامل كمالا مطلقًا فلابد لخالقه العظيم أن ينبه عباده إلى المنهج القويم الذي ينبغي أن يتبعوه، لذلك كانت رسالة الأنبياء في الأصل بهذا المنهج، فالنبي يأتي لقومه ومعه منهج افعل ولا تفعل، ولأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان الشهوات يرقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب السماوات والأرض، ولكن هذه

الشهوات قوى يندفع بها الإنسان لجهة ما، لابد لها من ناظم ومنهج ينتظمها، فكان منهج الله في الأرض، فإذا جاء النبي إلى قومه يدعوهم لمعرفة الله، وعبادته واتباع منهجه فهناك من يكذبه، لأن منهج الله عز وجل يحد من حركة الإنسان العشوائية المنطلقة من شهوة عمياء، فردّ الفعل الطبيعي لهؤلاء الذين دُعوا لعبادة الله عز وجل أن يكذبوه،

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا)

(سورة الرعد)

لابد أن يشهد الله في عليائه لهذا الإنسان الذي أرسله لهداية الخلق أن يشهد له أنه نبي رسول، كيف يشهد الله عز وجل لهؤلاء الأنبياء أنهم أنبيائه، وأن هؤلاء الرسل رسله ؟ لابد من أن يجري على أيديهم خرقاً للعادات لا يستطيعها البشر جميعاً، فمن هنا كانت المعجزات، فالمعجزة خرق لنواميس الكون، يعجز عنها كل بني البشر، ولو اجتمعوا، فكأن هذا الخرق لنواميس الكون هو شهادة الله لهؤلاء الأنبياء أنهم أنبياء، وأن كلامهم من عند الله عز وجل، لكن حكمة الله عز وجل جعلت معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية، أي أنها وقعت مرة، ثم انتهت، فأصبحت خبراً يصدقها من يصدقها، ويكذبها من يكذبها، لكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام متميز بأنه سيد الأنبياء والرسل، وبأنه خاتم الأنبياء، فرسالته للعالمين جميعاً، فلابد من أن تكون معجزته مستمرة لنهاية الحياة، من هنا كانت معجزة النبي عليه الصلاة والسلام علمية، أي أنها مستمرة، ففي القرآن الكريم ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، هذا الحديث يتفق مع أحدث الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وكأن هذه الإشارات العلمية كما تفضلتم هي شهادة الله لهذا النبي أن هذا القرآن الذي جاء به النبي هو من عند الله عز وجل، هذا منطلق المعجزة، إلا أن الشيء الذي يلفت النظر هو أن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بأحاديث كثيرة جداً، شرح بها آيات القرآن الكريم .

لكن يلفت بها نظرنا أن النبي لم يسهب في الحديث عن هذه الآيات الكونية في القرآن الكريم، ولحكمة بالغة بالغة يبدو أنه لو شرحها شرحاً مبسطاً يفهمها من حوله لأنكرنا عليه، ولو أنه شرحها شرحاً يتناسب مع رؤيته لحقائق الكون لأنكر عليه من حوله، تركت هذه الآيات لتكون دلائل إعجاز القرآن الكريم ! فالقرآن الكريم فيه إشارات على أصول العلوم، وكما تفضلتم ليس القرآن الكريم كتاباً علمياً، إنما هو كتاب هداية وإرشاد، ولكن اللفتات العلمية في القرآن الكريم تؤكد أن هذا كلام الله، إذا قرأت هذه الآيات، ثم اطلعت على التقدم العلمي الذي يفسرها تشعر بكل قطرة في دمك، وكل خلية في جسمك أن هذا كلام الله، وهذا أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله، علامة أنه كلام الله إعجازه، هذه إطلالة على حقيقة الإعجاز، ولأن القرآن الكريم كتاب لنهاية الحياة، ولكل الأمم والشعوب، إذاً هو معجزة مستمرة .

المذيع:

الحقيقة أن القرآن الكريم كما تفضلتم هو إعجازات متوالية مستمرة متنوعة، منها الإعجازات العلمية، ومنها الفكرية، ومنها التشريعية، كل الإعجاز موجود ،εفي القرآن الكريم، إلى جانب أن القرآن الكريم هو معجزة كانت مع الرسول وتشهد بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، إنما كانت له أيضاً إعجازات حسية كغيره من الأنبياء، قد كانت المعجزة الآنية وقتها، والمستمرة إلى الزمان كله إلى أن تقوم الساعة .

الأستاذ:

كأن هذا اللقاء الطيب ينصب على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهناك إعجاز حسي للنبي عليه الصلاة والسلام .

مثلاً: الله عز وجل يقول:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

أي: بعمد لا ترونها .

الحقيقة أنه لابد من تقديم لهذه الآية الرائعة .

كلكم أيها الإخوة المشاهدون تعلمون أن الأرض تدور حول الشمس، بل إن الكون كله متحرك، ولو لم يكن متحركاً لأصبح كتلة واحدة، لأن الحركة ينتج عنها قوة نابذة، وهناك تجاذب بين الكتل التي في الكون، والذي يوازن بين التجاذب، والتوازن هي هذه القوة النابذة التي تنشأ عن الحركة، لو تصورنا أن الكواكب والنجوم توقفت عن الحركة لأصبح الكون كله كتلة واحدة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)

(سورة الطارق: 11)

إن هذه الكلمة تنتظم الكون كله، كل نجم في الفضاء، وكل كوكب في الفضاء يدور في مسار مغلق حول كوكب آخر، ويرجع إلى مكان انطلاقه النسبي، فإذا وصف الله عز وجل السماء بأنها ذات رجع، أي: إن كل كوكب متحرك فيها يمشي في مسار مغلق، ويعود إلى مكان انطلاقه، فالأرض شأنها كشأن أي كوكب، فتدور حول الشمس .

بالمناسبة الأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومترًا في الثانية، منذ أن بدأنا هذا اللقاء الطيب إلى الآن مشينا حوالي ثمانية عشر ألف كيلومتر في الفضاء حول الشمس، فالأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومترًا في الثانية، إلا أن مسارها حول الشمس شكله بيضوي، أو إهليلجي، ومعلوم لديكم أن الشكل البيضوي له قطران، قطر أعظم، وقطر أصغر، الآن الأرض إذا اقتربت من القطر

الأصغر ماذا سيكون ؟ ستقل المسافة بينها وبين الشمس، وقانون التجاذب أساسه أن الكتلة الأكبر تجذب الأصغر، وهناك عامل آخر أن المسافة كلما قصرت ازدادت قوة الجذب، كلما كبر النجم ازدادت قوة جذبه، وكلما قلت المسافة بين النجم الأكبر والأصغر تزداد أيضاً قوة جذبه، فالأرض إذا وصلت إلى القطر الأصغر فهناك احتمال قطعي أن تنجذب إلى الشمس، والشمس حرارتها الخارجية ستة آلاف درجة، بينما الحرارة في مركزها عشرون مليون درجة، هناك من يقول: إن الأرض تتبخر في ثانية واحدة لو أنها انجذبت إلى الشمس، من أجل ألاّ تنجذب الأرض للشمس، وألاّ تنتهي الحياة، ولأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر)

ومعنى الزوال الانحراف، لا بد أن تبقى الأرض على مسارها حول الشمس، و ها هي ذا اقتربت من القطر الأصغر، من تتاليات هذا الاقتراب أن تنجذب للشمس، لذلك الأرض بأمر من الله عز وجل تزيد سرعتها، لتنشأ قوة نابذة طارئة تكافئ القوة الجاذبة الطارئة، فتبقى في مسارها،

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

فتبقى الأرض على مسارها حول الشمس .

المذيع:

هنا دكتور خطر ببالي ناحية، قد يقول قائل: ولماذا هذا التعقيد ؟ لماذا لا تكون الأرض بدورانها حول الشمس لا بشكل إهليلجي الذي تبتعد فيه تارة من الشمس من خلال المحور الأكبر، وتقترب خلال المحور الأصغر، بالتالي لا نحتاج إلى زيادة في السرعة لتعادل القوة الجاذبة، ما يمكن أن ينشأ من جاذبية حتى يحدث التوازن ؟ الجانب العلمي يشير إلى بدء الصيف، وأن الابتعاد بدء الشتاء، وتوالي الفصول يعني مزيداً من الحياة، أما إن كان الفصل واحدًا، والدوران واحدًا، والقطران متساويين فإن الحياة لا يمكن أن تستمر، لا أدري إن كان هذا صحيحاً ؟!

الأستاذ:

يقول الله عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق: 12)

(لِتَعْلَمُوا)

هذه اللام لام التعليل، علة خلق السماوات والأرض بهذا الإعجاز من أجل أن نعرف الله، لأن أصل الدين معرفة الله عز وجل، وأن الأمر قيمته من قيمة الآمر، فكأن الله عز وجل أراد أن يكون هذا الكون العظيم بهذه الدقة وبهذا الإعجاز كي نعرف خالقه .

الأرض وصلت إلى القطر الأصغر، ورفعت من سرعتها كي تنشأ من هذه السرعة الجديدة قوة تكافئ القوة الجاذبة، الآن تابعت سيرها، فوصلت إلى القطر الأعظم، لو بقيت على سرعتها لتفلتت من مسارها حول الشمس، ولتاهت في الفضاء الكوني، ولأصبحت حرارتها مائتين وسبعين درجة تحت الصفر، عندئذ تنتهي الحياة !

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

ماذا ينبغي أن نقول، وهي تقترب من القطر البعد الأطول ؟ ينبغي أن تخفض من سرعتها، ينشأ من تخفيض سرعتها قوة نابذة أقلّ، لتكافئ ضعف الانجذاب إلى الشمس، فتبقى على مسارها، لكن الشيء الذي لا يصدق أن هذه السرعة إذا ارتفعت فجأة، وانخفضت فجأة ينهدم كل ما على الأرض، ومن أسماء الله (اللطيف)، فهذا التسارع الأول يتم بطيئاً، وهذا التباطؤ الثاني يتم بطيئاً، فالأرض تسارعها وتباطؤها يتمّان بلطف شديد، يؤكدان اسم الله (اللطيف)لو أن الأرض رفعت من سرعتها فجأة، أو خفضت لانهدم كل ما عليها .

المذيع:

نحن نركب في سيارة، والسائق إذا أسرع بشكل مفاجئ الركاب يتأرجحون في مكانهم، أو إذا أوقفها بشكل مفاجئ يكاد يقع الركاب على الأرض أيضاً .

الأستاذ:

وسائط النقل عموماً لا تساوي شيئاً أمام السرعة التي ذكرتها في سرعة الأرض في دورانها حول الشمس بثلاثين كيلومترًا في الثانية، بينما سرعتها في دورانها حول نفسها ألف وستمئة كيلومتر في الساعة، وأسرع طائرة نركبها تسعمئة كيلومتر في الساعة، لو أن الكتلة الهوائية كانت ثابتة، والأرض تدور لنشأت أعاصير سرعتها ألف وستمئة كيلومتر في الساعة، ولانهدم كل ما على الأرض، والرياح إن وصلت إلى مئة وخمسة وعشرين كيلو في الساعة تهدم البيوت، وتقتلع الأشجار، وهناك أعاصير في أمريكا تصل إلى سرعة ثمانمئة كيلو متر، فلا يبقى شيء في المدينة، فلو أن كتلة الهواء بقيت ثابتة، والأرض تدور لانهدم كل ما على الأرض من سرعة العواصف والأعاصير التي تبلغ ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، ولكن رحمة الله أن غلاف الهواء ثابت مع الأرض، لذلك قال بعض العلماء في قوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

(سورة الروم)

(فِي)

تعني داخل، نحن نمشي على ظاهر الأرض، مادام الهواء جزءًا من الأرض فنحن نمشي في الأرض، هذه لفتة لطيفة في قوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

الهواء جزء من الأرض، وهو يدور مع الأرض، ولولا أنه يدور مع الأرض لانهدم كل ما عليها .

المذيع:

قبل أن نتابع هذا الحديث أيضاً يمكن أن يكون التساؤل التالي: الغلاف الذي يدور مع الأرض ألا يحيطه غلاف آخر، وبالتالي تنشأ أعاصير قوية ؟

الأستاذ:

أنا أتحدث عن غلاف الهواء فقط، الهواء حول الأرض، لكن ما بعده أو ما حوله تنعدم الجاذبية فيه طبعاً .

الآن لنتابع، لو تصورنا افتراضاً، وهذا قرأته في كتاب علمي رصين، لو أن هذه الأرض تفلتت من جاذبيتها حول الشمس، وخرجت من مسارها، وتاهت من مسارها الخارجي، والكلام الآن افتراضي فقط، كيف نعيدها لجاذبية الشمس ؟ قال: نحتاج إلى مَليون مليون (كبل) حبل فولاذي، ومعلوم أن الفولاذ أمتن عنصر في الكون، الفولاذ يقاوم قوى الشد، والماس أقسى عنصر في الأرض، الماس يقاوم قوى الضغط، فيوجد قوى ضغط وقوى شد، وميناء الأسنان يأتي بعد الماس .

وكتوضيح لطيف، سنتيمتر مكعب من الإسمنت يتحمل من قوى الضغط خمسمئة وخمسين كيلوًا، لكنه لا يتحمل من قوى الشد إلا خمسة كيلو، لذلك الإسمنت يحتاج إلى تسليح بالحديد، الإسمنت يتحمل من قوى الضغط خمسمئة وخمسين كيلوًا، السنتيمتر مكعب، بينما لا يتحمل من قوى الشد إلا خمسة كيلو، فيوجد قوى شد وقوى ضغط، أمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المظفور، لو أردنا أن نعيد الأرض إلى مسارها حول الشمس لاحتجنا إلى مليون مَليون حبل فولاذي، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وقطره خمسة أمتار، طبعاً الموضوع افتراضي، توصلاً إلى معرفة قوة جذب الشمس للأرض، فهذا الحبل الفولاذي الذي قطره خمسة أمتار يقاوم من قوى الشد مليوني طن ! قوة جذب الشمس للأرض تساوي مليون مَليون ضرب مليونين، لأننا نحتاج إلى مليون مَليون حبل فولاذي، وكل حبل قوة تحمل شده مليونَا طن، فالأرض مجذوبة نحو الشمس بقوة تساوي مليوني مليون مَليون طن، اثنان أمامها ثمانية عشر صفراً، هذه قوة جذب الشمس للأرض، هذه القوة العملاقة من أجل أن تحرف

الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة ميلي في كل ثانية، إذا حرفت هذه القوة العملاقة مسير الأرض ثلاثة ميلي في كل ثانية، ينشأ هذا المسار المغلق حول الشمس،

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

لكن لو زرعنا هذه الحبال المليون مليون على السطح المقابل للشمس كي نعيدها للشمس ماذا ينشأ ؟ غابة من الحبال، وبين الحبلين حبل واحد، لا يوجد بناء، ولا مواصلات، ولا شمس، فهذه الآية الرائعة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

الله عز وجل بحكمة بالغة، وبعلم، وبخبرة، وبلطف يبقي الأرض في مسارها حول الشمس . بالمناسبة لو أن الأرض تاهت في مسارها الخارجي لأصبحت الحرارة فيها مائتين وسبعين تحت الصفر، وتنتهي الحياة، ولو أنها انجذبت للشمس لتبخرت في ثانية واحدة، وانتهت الحياة،

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

النقطة الدقيقة جداً التي أريد أن أؤكد عليها أن الله يقول:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس)

ثم يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105)وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف: 106)

أنا أردت من هذه الآية الكونية القرآنية أن أبين أن معرفة الله أصل الدين، وأن مشكلة المسلمين أنهم عرفوا الأمر، ولم يعرفوا الآمر، والإنسان إذا عرف الأمر، ولم يعرف الآمر يتفنن في مخالفة أمر الآمر، أما إذا عرف الآمر، ثم عرف الأمر يتفانى في طاعته، لو سألتني عن علة تفلت المسلمين من طاعة الله عز وجل ؟ أقول لك: ضعف معرفتهم بالآمر، لذلك هناك علمٌ بأمر الله عز وجل، تجده في كليات الشريعة في العالم الإسلامي، وهناك علمٌ بخلق الله عز وجل، تجده في كل جامعات العالم، لكن العلم بالله عز وجل هذا يحتاج للتفكر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران: 190-191)

الآية التي تبين عظمة انجذاب الأرض إلى الشمس قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

أي بعمد لا ترونها، إنها قوى الجذب، والحقيقة قوى الجذب هي وزن الشيء في الأرض، الشيء في الأرض ينجذب لمركز الأرض وهذا وزنه، فإذا وصلنا إلى منطقة بين الأرض والقمر تنعدم فيها الجاذبية، فالإنسان لا وزن له إطلاقاً، فهذه آية دالة علة عظمة الله عز وجل .

قوله تعالى:

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

جاء الفعل

(وَيَتَفَكَّرُونَ)

مضارعا، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد،

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر)

وكلمة

(إِنَّمَا)

تعني أن العلماء وحدهم، وليس أحد سواهم يخشى الله عز وجل،

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

وأن الإنسان إذا قلد في أمر دينه تكون مقاومته هشة، وسريعاً ما يعصي الله، أدنى ضغط أو إغراء يخرجه عن طاعة الله، لذلك لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، والله عز وجل يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام)

فأنت حينما تعرف من هو الله تعد للمليار قبل أن تعصيه، لا تنظر لصغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت !

ويوجد مشكلة في العالم الإسلامي، لماذا المسلمون لا يطبقون منهج الله تطبيقاً كاملاً ؟ لضعف معرفتهم به، والنبي عليه الصلاة والسلام بقي في مكة المكرمة ثلاثة عشرة عاماً يعرّف أصحابه بالله عز وجل، أما في المدينة فعرفهم بشرع الله، أنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده .

المذيع:

سؤال يعود للأصول العلمية: كما أسمع أن الشمس تفقد من خلال استمرارها شيئاً منها، إذا كانت كتلتها هي التي تجذب الأرض، وهذه الكتلة تتناقص، فبالتالي تختلف الجاذبية، هل تزيد في مقابل هذا السرعة حتى يحدث التوازن ؟ أم أن في الأمر سراً يسير إلى انقضاء الأرض ومن عليها، وما عليها ؟

الأستاذ:

قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

(سورة الذاريات: 47)

كما أنها تنقص من جهة تزيد من جهة ثانية، والله أعلم، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الآيات من أجل اسمين من أسمائه الحسنى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق: 12)

لماذا اختار من أسمائه اسم العليم والقدر ؟ لو أن إنسانًا ركب مركبة، وكانت الإشارة حمراء لماذا لا يخترقها ؟ يوجد شرطي واقف، هذا يمثل نظام السير، وهذا عين وزير الداخلية على تنفيذ هذا النظام، فعلم وزير الداخلية الذي وضع نظام السير يطول المواطن من خلال هذا الشرطي، إذاً لا يخالف، لكن متى يخالف ؟ بوضع غير منضبط في الساعة الثانية ليلاً، لأن عين واضع النظام لا يعمل في هذا الوقت، فالإنسان إذا علم يقيناً أن علم الله يطوله، وأن قدرته تطوله فلا بد من أن يستقيم على أمره، إذا كان موقناً أن علم الله وقدرته تطوله،

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم: 42)

(لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

(سورة آل عمران: 196 -197)

المؤمن يرى أنه في قبضة الله دائماً .

وآخر نقطة:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف: 183)

الإنسان في أية لحظة يغدو في قبضة الله عز وجل !

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 09 - 29 : الإعجاز في الكون 2 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-05-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

عطفاً على ما كان في حلقة سابقة، حيث أشرت إلى أن الإنسان عندما يعلم أنه في قبضة الله تعالى لا يعصيه، و عندما يظن، أو ينسى، أو تسيطر عليه أوهام أنه قد يتفلت من قبضته تعالى من خلال عدم معرفته للحقيقة بالتالي يعصيه.

هنا في الحقيقة بعضهم أشار إلى أن كتاب الله تعالى من خلال أشياء كثيرة يندرج تحته أمران هامَّان، أمر فيه نواميس الكون، و أمر فيه عبادات و حدود و تشريع، الإنسان من خلال اتجاهه لا يخالف النواميس الكونية التي أرادها الله تعالى، فأنا إذا أردت أن أنشئ عمارة أبتدئ بها من قواعدها و أساسها، من منطلق أنني أعلم أن الجاذبية الأرضية يجذب الأشياء إليها، فأبتدئ مما هو في الأرض، ولا أبتدئ من الطابق الأعلى، و لو كانت الجاذبية منعكسة، بمعنى آخر لو كانت القوة النابذة هي التي تشد إلى الأرض لكان التمتين يبدأ من الأعلى باتجاه الأسفل، هذه الأمور يمكن أن نقول عنها: إنها يتبعها الإنسان بلا أي شك فيها، فأنا لا ألقي بنفسي من علٍ إن كنت متوازناً عقلياً، لا ألقي بنفسي من علٍ لأنني أعلم أن الجاذبية، ولو فهمتها بمعناها العلمي، أو لم أفهمها أنني سأكون في النهاية قد قذفت بنفسي إلى الموت، لماذا ينسى الإنسان الجانب الآخر من القرآن الكريم ، و هو الذي أراده الله تعالى، وبين لنا في كتابه أشياء تتعلق بنواميس الكون فاتبعناها إن قلت مرغمين أو طائعين أو غير ذلك إنما اتبعناها، لماذا لا نتبع الجانب الآخر، والإله نفسه الذي وضع لنا أسس حياتنا، إن كانت نواميس كون، أو كانت تشريعات، مما كنت ذكرته في حلقة سابقة ؟ أستطيع أن أنطلق شيئاً أو بشيء إلى هذا الجانب لأتابع معكم بعد هذا الحديث عن الجانب العلمي.

الدكتور راتب:

لو أخذنا قانون السقوط كما تفضلت، هذا القانون سواء عليّ أقبلته أم لم أقبله، أعجبني أم لم يعجبني، رضيته أم لم أرضه، هذا القانون مطبق عليّ، هذه حقيقة دقيقة جداً، أن نواميس الله في خلقه، وأن

منهجه العظيم مطبق على خلقه، آمنوا أم لم يؤمنوا، ذلك لأن منهج الله عز وجل موضوعي، بمعنى أنه لو جاء كافر، وطبّقه لقطف نتائجه في الدنيا، ولو جاء مسلم دعا إليه، ولم يطبقه لا ينال منه شيئاً، قضية علم، أيْ بين الأمر ونتيجته علاقة علمية، أنا حينما أطلب من طلابي مثلاً أن يدخلوا من هذا الباب، ويأتي واحد منهم، ويخرج من باب آخر أعاقبه، لكن ليس هناك من علاقة علمية بين خروج إنسان من باب والعقاب، هذه علاقة وضعية، أنا وضعتها، وهذا معظم شأن القوانين الوضعية، لكن الأمر الإلهي بين الأمر ونتائجه علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، وبين النهي ونتائجه علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة، بمعنى أن وزير الكهرباء وضع لافتة على خط التوتر العالي أن هذا الخط ممنوع الاقتراب، تحت الموت، لو أن إنساناً ساذجاً قال: ليس هناك شرطي يراقبني، التوتر العالي يعاقبك، هناك علاقة علمية بين الاقتراب من هذا التيار، و بين التفحم، إن وجد الشرطي أم لم يوجد، أنا حينما أفهم أمر الله عز وجل أنه أمر موضوعي، بمعنى أن العلاقة بينه وبين النتائج المترتبة على معصيته علاقة علمية تقوم على أمر الله، تماماً كما لو أن إنساناً يمشي في حقل، وقرأ لوحة كتب عليها: ممنوع التجاوز، حقل ألغام، بادئ ذي بدء لا يشعر بحقد على واضع هذه اللوحة، بل يشعر باحترام له، لأنه حريص على سلامته، ثم إن هذه اللوحة لا تعد حداً لحدوده، بل هي ضمان لسلامته، فأنا حينما أفهم أوامر الله عز وجل على أنها موضوعية، وعلى أن العلاقة بينها وبين نتائجها علاقة علمية، أي علاقة سبب بنتيجة عندئذ أستقيم على أمر الله، قناعة مني أنني أحقق سلامتي وسعادتي، والإنسان كما تعلمون يحب وجوده، ويحب سلامته، ويحب كماله، ويحب استمراره، وهذه كلها لا تتحقق إلا بتنفيذ تعليمات الصانع الموضوعية، فلو جاء إنسان كافر بالدين، و صدق تعليمات الصانع لقطف ثمارها في الدنيا، و لو جاء إنسان يدعي أنه مؤمن، و لم يأخذ بهذه التعليمات لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا معنى ما تفضلتم به منهج موضوعي، لذلك بعض الأمم غير الإسلامية طبقت بعض ما في الإسلام لا عبادة لله، و لكن تحقيقاً لمصالح شعوبها، فقطفت ثماراً عالية جداً، وهذه الحقيقة واقعة.

نعود إلى موضوع الإعجاز العلمي، في الفترة الأخيرة بدأت تعقد مؤتمرات في الإعجاز العلمي، المؤتمر الخامس عقد في موسكو، المؤتمر السادس عقد في لبنان، وقد حضرت هذا المؤتمر، ويوجد مؤتمر سابع سيعقد في دبي، هذه المؤتمرات تطرح فيها مسائل رائعة، مما طرح في مؤتمر الإعجاز العلمي الخامس الذي عقد في موسكو بحث طويل، عندي أصله، لكن ملخصه أن الله عز وجل حينما يقول:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

[سورة السجدة: الآية 5]

الحقيقة أن علماء التفسير وقعوا في حيرة من هذه الآية، ما معنى أن هذا اليوم يساوي ألف سنة ؟ واضع هذا البحث، وقد جاء بأدلة قوية جداً، و تكاد تكون قطعية، أن الله سبحانه و تعالى يخاطب الأمة العربية وقت نزول القرآن، في قوله تعالى:

(مِمَّا تَعُدُّونَ)

والعرب يعدّون السنوات القمرية، والقمر كما يعلم الإخوة المشاهدون يسير حول الأرض دورة كل شهر، و إذا خاطبت طلاب الثانوي ـ طلاب الصف العاشر ـ مركز الأرض ومركز القمر وصلنا بينهما بخط، هذا الخط هو في الحقيقة نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، و من السهل جداً أن نكشف ما طول هذا الخط، المسافة بين الأرض والقمر مضاف إليها نصف قطر القمر مع نصف قطر الأرض، هذا الخط الواصل بين مركز الأرض و مركز القمر هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، لو أن هذا الرقم ضربناه باثنين لكان القطر، لو ضربناه بثلاثة ب 3.14 لكان المحيط، إذاً بحساب بسيط يستطيعه طالب في الصف العاشر أن يحسب كم كيلومترًا يقطع القمر في رحلته حول الأرض ؟ بحساب البعد بين الأرض والقمر، ثم إضافة نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر، ثم ضرب باثنين، ثم ضرب بـ (ب)، و هو 3014، فإذا ضربنا هذا المحيط باثني عشر نكتشف كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في عام، فإذا ضربنا هذا الرقم بألف نكتشف كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، هذا الرقم الكبير عدد الكيلومترات التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، نعود إلى الآية:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

[سورة السجدة: الآية 5]

أي يوجد عندنا ألف سنة تساوي يومًا، لو قسمنا هذه المسافة الكبيرة التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام على ثواني اليوم، ثواني اليوم ستون، ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، لو قسمنا هذا الرقم الكبير المسافة مجموع المسافة التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض بألف عام على ثواني اليوم لفوجئنا أن الجواب هو سرعة الضوء، ليست التقريبية، التقريبية ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، في الدقيقة مئتان و تسعة وتسعون ألف وسبعمائة واثنان وخمسون، بالضبط، هذه سرعة الضوء الثابتة المودعة في أكاديمية العلوم في باريس، إذاً ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد، هذه النظرية الضخمة التي جاء بها إنشتاين، والذي يفتخر به الغربيون هي في مفادها أن السرعة المطلقة في الكون هي مئتان وتسعة و تسعون ألفًا وسبعمئة واثنان وخمسون، هذه سرعة الضوء، فأي جسم سار مع الضوء أصبح ضوءاً، وأصبحت كتلته صفراً، وحجمه لانهائياً، وإذا سار الجسم مع الضوء توقف الزمن، فإذا سبق الضوء تراجع الزمن، فإذا قصر

عن الضوء قصر الزمن، بمعنى أن النقطة إذا حركناها رسمت خطاً، فإذا حركنا الخط رسم سطحاً، فإذا حركنا السطح رسم حجماً، أبعاد ثلاثة، طول، عرض، ارتفاع، الأشياء المادية لها طول، وعرض، وارتفاع، فإذا تحرك هذا الحجم شكّل زمناً، والزمن هو البعد الرابع للأشياء، لهذا العالم الذي جاء بالنظرية النسبية مقولة رائعة يقول: كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون، هو إنسان حي، ولكنه ميت، قال الله تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

[سورة النحل: الآية 21]

بالمناسبة ما من صفة مادية في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يفوقه بها، الإنسان يشم، الكلاب تشم مليون ضعف، الإنسان يرى، الصقر يرى ثمانية أضعاف، أنا أقول كلاماً دقيقاً جداً: ما من صفة مادية في الإنسان إلا وفي الحيوان ما يفوقها، أكبر عالم للزلازل لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل وقوعه ثانية، وبعض دواب الأرض تتنبأ به قبل ربع ساعة، لحكمة بالغة بالغةٍ أرادها الله أن الإنسان إذا افتخر بخصائصه المادية فهناك في الحيوانات ما يفوقه بها، لكن الإنسان أكرمه الله بالعقل، وأكرمه الله بمعرفته، للإنسان حاجات دنيا وحاجات عليا، من حاجاته العليا أن يعرف الله، من حاجاته العليا أن يدرك الحقيقة، فالإنسان لا يؤكد إنسانيته، لا يؤكد انتماءه إلى الجنس البشري إلا إذا عرف الحقيقة، ومعرفة الحقيقة أكبر هدف في حياة الإنسان.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

[سورة العنكبوت: الآية 69]

فالإنسان إذا مشى مع الضوء توقف الزمن كيف ؟ هذه الندوة المباركة هناك موجات ضوئية تصدر عنها، سرعتها ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، لو تصورنا افتراضاً أن جهة ما تمشي مع هذه الموجات، إذاً هذه الندوة ترى إلى أبد الآبدين، توقف الزمن، لو أننا سبقنا الموجات الضوئية لرأينا من كان في هذا المكان قبل مئة عام، إذا سبقنا الضوء تراجع الزمن، قصرنا عن الضوء تراخى الزمن، الساعة في الفضاء الخارجي يقابلها مئة عام في الأرض، فقضية الضوء قضية دقيقة جداً، فهذه النظرية العملاقة التي جاء بها بعض العلماء الكبار هذه النظرية مودعة في كلمات محدودة في كتاب الله:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

[سورة السجدة: الآية 5]

أستاذ عدنان:

دكتور أحياناً نجد ما يشير إلى ألف سنة مما تعدون، تارة خمسين ألف سنة، هذه اختلافات، ثانياً يعرج، قضية العروج أيضاً كما أعلم أو كما أسمع على الأقل عندكم الجواب أنه ليس معنى كلمة عروج أنه الانطلاق السريع باتجاه السهم، إن صح القول، إذ أن العروج في السماوات من خلال ما فيها من أجرام سماوية مختلفة، و ليس بشكل سهمي مستقيم، حبذا لو توقفنا عند هذا ؟

الدكتور راتب:

الآية الثانية:

(يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

[سورة السجدة: الآية 5]

لم يقل الله عز وجل في هذه الآية: مما تعدون، تلك هي سرعة الملائكة:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4))

[سورة المعارج: الآية 4]

في هذه الآية الثانية لا توجد كلمة تعدون، هذا هو الفرق بين الآيتين، على كل نحن حينما ننظر إلى هذه الآيات الدالة على عظمة الله عز وجل لا شك أننا نخشع لله عز وجل، كما أقول دائماً: إذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

مرصد عملاق رصد نجما، الحقيقة مرة عرضت هذه على الشاشة صورة، إذا تأملتها توقن يقيناً قاطعاً أنها وردة جورية، لا تشك لثانية واحدة إلا أنها وردة جورية بأوراقها الحمراء الداكنة، ولوريقاتها الخضراء الزاهية، ولكأسها الأزرق في الوسط، هذه الصورة إن شاء الله في لقاءات قادمة أعرضها على الإخوة المشاهدين، هذه الصورة هي انفجار نجم في الفضاء الخارجي اسمه عين القط، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية، بالمناسبة إن أقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، لو أردت أن أسير افتراضاً إلى هذا النجم بمركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، أقرب نجم ملتهب إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، لو كان له طريق سالك بمركبة أرضية لاحتجت إلى خمسين مليون عام، نجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية، أحدث نجم اكتشف حديثاً يبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية، تقرأ قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

هذا النجم كان في هذه الجهة قبل عشرين مليار سنة، وبقي ضوءه يمشي إلينا عشرين مليار سنة حتى رأيناه، والنجم هذا سرعته تقترب من سرعة الضوء، سرعته تقترب من مئتين وأربعين ألفا في الثانية، أين هو الآن ؟ لو أن عالم فلك قرأ الآية الكريمة:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

[سورة الواقعة]

عند كلمة مواقع ينبغي أن يخر لله ساجداً، كلمة موقع لا تعني أن صاحب الموقع في الموقع، لو أن الآية مثلاً افتراضاً فلا أقسم بالمسافات بين النجوم، ليس هذا قرآناً، لأن النجوم متحركة، أما كلمة موقع فتعني أن صاحب الموقع ليس في الموقع في هذا المكان، كان نجماً قبل عشرين مليار سنة، وسار، ولا يعلم إلا الله أين هو الآن، لكن من هذا المكان، من هذا الموقع بقي الضوء يمشي إلينا عشرين مليار سنة.

هذا النجم عين القط ثلاثة آلاف سنة ضوئية، الأربعة آلاف سنة ضوئية تحتاج إلى خمسين مليون سنة، هذا النجم انفجر، صوروا انفجاره بأضخم وكالة فضاء (ناسا)، والصورة عندي، لا تشك للحظة واحدة أنها وردة جورية، الشيء الدقيق اقرأ قوله تعالى في سورة الرحمن:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

[سورة الرحمن]

أستاذ عدنان والله لو قرأت كل التفاسير حول معنى هذه الآية لا يروى غليلك إلا بهذه الصورة، وهذا مصداق ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه: " في القرآن لكريم آيات لما تفسر بعد "، لا تجد تفسيراً أروع ولا أبدع لهذه الآية إلا هذه الصورة، وكانت وردة كالدهان.

الأستاذ عدنان:

وردة واضحة إنما كالدهان.

الدكتور راتب:

قالوا: فيها لمعة، نحن حينما نريد أن نلمع شيئاً نطليه ببعض الدهون، فهكذا ورد في تعليل هذه السورة، فبأي آلاء ربكما تكذبان، على كل هذه بعض الآيات الآن في وكالات فضائية تبث من عام خمسة وتسعين حتى الآن، كل يوم صورة للمجرة، وفي موقع معلوماتي في الإنترنت يمكن أن نتابع هذا الموضوع هي الصورة التي ذكرت عنها قبل قليل مأخوذة من هذا الموقع، كل يوم تقدم لزوار موقعها على الانترنت صورة للفضاء الخارجي بألوانه الطبيعية الحقيقة، الإنسان حينما ترتقي معرفته بالله عز

وجل لا يجد بداً من طاعة الله عز وجل، يمكن أن نفسر علة تفلت المسلمين من منهج الله ضعف معرفتهم بالآمر، ونحن في أمس الحاجة في أن نتحرك في خطين معاً، في خط معرفة الله عز وجل، وخط معرفة منهجه.

الأستاذ عدنان:

الحقيقة عود على بدء، كما يقولون، هذا يشير إلى ضرورة أن يكون الإنسان كما يتبع نواميس الكون التي أرادها الله عز وجل عليه أن يتبع ما في كتاب الله عز وجل من أوامر من وضع نواميس الكون، لا يستطيع الإنسان أن يتحداها، إنما يرضى بها، ويسير من خلالها، ولا يتفلت عنها في أي شيء، ولو أراد أن يتفلت لقضى على ما يسير به من أيدي التفلت، وقضى على ما يحاول من خلاله أن يتفلت، بالتالي ما أحوج الإنسان أن يتابع مسيرته في عدم التفلت إن كان في الأمور العلمية أو كان في أوامر الله تعالى التي أمرنا بها فهي لصالحنا، وكما ذكرتم لا يتفلت عن أمر الله عز وجل إلا من جهل عن الله تعالى، فحاول أن يتلاعب في أوامره، إنما إذا علم الإنسان عن الله عز وجل فيما أُمر به، يجب أن يعلم أنه لا بد أن يطيعه في كل شيء.

نرجو الله تعالى أن تكون طاعتنا على المقدار الذي ينجينا، ويسعدنا في الدنيا وفي الدار الآخرة، وعندما يكون الإنسان كذلك يا سعادته، وعندما يبتعد عن ذلك يا خسرانه، وبؤسه وشقاءه في الدنيا وفي الدار الآخرة، ونشهد في الدنيا من يتفلت عن أوامر الله في نواميس الكون، كيف أنه يخضع إليها بعد ذلك، والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

الدكتور راتب:

ملاحظة بسيطة جداً، الإنسان مخير خيار قبول أو رفض في ملايين القضايا، قد تعرض عليه تجارة فيرفضها، ربحها قليل، قد يعرض عليه وظيفة فيرفضها، وفي ملايين القضايا الإنسان خياره خيار قبول أو رفض، إلا مع الإيمان فخيار وقت، بدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ بِالَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

إذاً نحن خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط، وهذا مما يتميز به الإيمان، لأن كل إنسان يأتيه ملك الموت سوف يؤمن بالحقائق الكبرى التي جاء بها الأنبياء، ولكن بعد فوات الأوان.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 10 - 29 : سيدنا عمر بن الخطاب 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-22

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

إن من الرجال رجالاً تبقى أسماؤهم حية شامخة، وإن مضى الدهر عليهم والدهور، وإن من الناس أناساً يموتون وهم أحياء، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ترك لنا رجالاً ما تزال سيرتهم العطرة تملأ الأجواء والأكوان، أبو بكر الصديق هو الصديق، خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق، عثمان هو المتصدق المبتهل الذي كان ينفق أمواله في سبيل الله، الإمام علي هو بطل الإسلام، وعالمه، وفقيهه، وجاء من بعدهم أناس أيضاً ورجال أئمة في الخير والتقى، والاجتهاد والعمل أيضاً، فكانوا بحق كالملائكة، ولكن في قوالب آدميين، سيرتهم نحتذي بها، وأخبارهم نفتخر بها أيضاً، إذا أردنا أن نتوقف عند شخصية من تلك الشخصيات العظيمة التي نرفع بها رؤوسنا إلى السماء نقية ناصعة بيضاء، من جملة هؤلاء الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا الذي كان يقف على الجبل، وينظر إلى الوادي من تحته، ويذكر أنه كان يرعى لأبيه، وكان يوسعه تأنيباً أحياناً أو شدة، وما إلى ذلك، ويتحدث مخاطباً نفسه هو الذي كان يرعى ما يرعى، ثم صار رعيته أمة محمد عليه الصلاة والسلام عندما صار أميراً للمؤمنين، هذه الشخصية بقدر ما فيها من العنف في الجاهلية هي فيها من الرقة والشعور المرهف في الإسلام مع البقاء على قوته ورجولته، إذا تطلب الموقف ذلك، إذا أردنا أن نخوض في تاريخ هذا الإنسان، سيرته، أعماله يمكن أن نستفيد منه في واقعنا، فماذا يمكن أن نقول ؟ والمحطات كثيرة، والشواهد عديدة ؟

الدكتور راتب: إن شاء الله تعالى، جزاكم الله عنا خيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام ربى أبطالاً، فكان عهده بحق عهد البطولات، من هؤلاء الأبطال الأفذاذ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تعقيباً على ما تفضلتم به أنه كان مرة يخطب، فقطع خطبته، وقال: يا عمر، كنت راعياً لإبل على قراريط لأهل مكة، ثم تابع الخطبة، فلما نزل تعجب أصحابه من قطع خطبته، وهذه الكلمة التي لا علاقة لها بسياق الخطبة، جملة اعتراضية، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جاءتني نفسي، وقالت لي: ليس بينك وبين الله أحد، فأردت أن أعرفها قدرها.

فكان على تفوقه وعلى عبقريته متواضعاً أشد التواضع، الحقيقة في هذا اللقاء الطيب أتمنى أن يكون محور هذا اللقاء لقطات من سيرة هذا الخليفة العظيم الراشد، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

[الترمذي وأبو داود وأحمد]

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عين والياً، وأراد أن يمتحنه، قال: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، بحسب الآية الكريمة، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم ـ دقق أستاذ عدنان، إشارة إلى حق العمل ـ لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلها بالمعصية ".

نظرة بعيدة، ورأي ثاقب، أن الإنسان حينما يعمل يتألق، وحينما لا يعمل ينحرف، والحقيقة أن العالم الغربي الآن أكبر مشكلة تقلق المجتمع البطالة، وفي العالم الثالث بطالة وبطالة مقنعة، فالإنسان حينما يعمل يتألق، وحينما يعمل يؤكد ذاته، فحينما يعمل يتزوج، وحينما يتزوج يحل مشكلة فتاة، وحينما تؤسس أسرة يشعر بالمسؤولية والأهمية، أدرك هذا الخليفة العظيم أن العمل حق لكل إنسان، قال: " إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلها بالمعصية ".

الحقيقة أيضاً أنت حينما توفر للإنسان رغيف خبزه وكرامته تأخذ منه كل شيء، أنا أقول: أعطِ الإنسان رغيف خبزه، يعني أعطه حاجاته الأساسية، وأعطه كرامته، وخذ منه كل شيء، يكمل هذه القصة أو هذا التوجيه والامتحان أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه جبلة بن الأيهم مسلماً، وهو ملك الغساسنة، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحب به، والنبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

رحب به على أنه ملك، وأحسن وفادته، جبلة بن الأيهم في أثناء طوافه حول الكعبة بدوي من فزارة داس طرف ثوبه، فانخلع ثوبه عن كتفه، وهو ملك، ولا يزال في عزة الملك، فالتفت إلى هذا البدوي من عامة الناس، من سوقة الناس، من دهمائهم فضربه ضربةً هشمت أنفه، فما كان لهذا البدوي إلا أن

يذهب على عمر ليشتكي، سيدنا عمر استدعى جبلة، وأحد الشعراء المعاصرين صاغ الحوار شعراً

فقال عمر:

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح

فقال جبلة:

لست ممن ينكر شيًّا

أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي

قال عمر:

أرض الفتى، لابد من إرضائه

ما زال ظفرك عالقاً بدمائه

أو يهشمن الآن أنفك

يخاطب ملكاً:

وتنال ما فعلته كفك.

فقال جبلة:

كيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟

هو سوقة، وأنا عرش وتاج

كيف ترضى أن يخرَّ النجم أرضاً ؟

يقول له عمر:

نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها

وأقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً.

فقال جبلة:

كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعزّ

أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

فقال عمر:

عنق المرتد بالسيف تحز

عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى

وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

هذا البدوي من عامة الناس، من طبقة الدهماء، من سوقة المجتمع، استطاع أن يأخذ حقه من علية القوم، إذاً كما قلت قبل قليل: حينما تعطي الإنسان رغيف خبزه، أي حاجاته الأساسية وكرامته تأخذ منه

كل شيء، لذلك علق بعضهم على هذه القصة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضحى بملِك، ولم يضحِّ بمبدأ، وفي المجتمعات كلما عظم المبدأ صغر الشخص.

الأستاذ عدنان: قد يقول قائل: إنه ضحى بالكبير من أجل الإنسان الصغير، إن صح القول، ولكن هذا إنما من أجل المبدأ.

الدكتور راتب: العدل أساس المُلك، يروى أن مجموعة غلمان كانوا في طرق المدينة، فرأوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذا هيبة، فلما رأوه تفرقوا إلا واحداً بقي واقفاً، رابط الجأش، ولكن بأدب، فلفت نظره، قال: يا غلام لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك، هذا الطفل رسم منهجاً لأمة، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

الأستاذ عدنان: دكتور، هنا لابد من أن أتوقف عند ناحية أتصورها هامة بالنسبة لجيل الأطفال الذين يجب أن نعودهم على الشجاعة الأدبية، وهذا المثل الذي ذكرته يوضح الشجاعة الأدبية في أجمل صورها، إذ يجب أن يكون الطفل مهيئاً لها، لا أن يكون مثلاً صفيقاً وقحاً، ولا أن يكون ضعيفاً منهزماً متراجعا.

الدكتور راتب: لذلك يعد احترام شخصية الطفل أحد مبادئ التربية الأساسية، لأن الطفل حينما يقمع، وحينما يمنع من التصرفات السليمة تضعف شخصيته، ويصاب بعقد كثيرة جداً، لذلك النبي e يقول:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

وفي سيرته علية الصلاة والسلام العطرة مواقف كثيرة تؤكد احترام شخصية الطفل، كان إلى يمينه طفل صغير، فجاءت الضيافة، فبحسب السُّنة يبدأ بمن على يمين رسول الله، استأذن النبي هذا الغلام أن يضيف من هو أكبر منه سناً، فلم يوافق، فأقر النبي عليه الصلاة والسلام موقف الغلام، وإصراره على أن يشرب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا من احترام شخصية الطفل، والحقيقة أنا أرى أن القدوة عامل أساسي جداً في التوجيه.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني "، التعليق اللطيف فصارت القرابة من عمر مصيبة،وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني، التعليق اللطيف: فصارت القرابة من عمر مصيبة.

يروى أنه رأى إبلاً سمينة فقال: " لمن هذه الإبل ؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، وقد غضب، فلما جاء ابنه عبد الله، ورآه غاضباً عجب، قال: لمَن هذه الإبل ؟ قال: هي لي يا أبت، اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت ؟ يعني أية مخالفة ارتكبتها ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنه: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل، فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين.

الأستاذ عدنان: ولا يسمن غيرها طبعاً.

الدكتور راتب: قال: بعْ هذه الإبل، وخذ رأس مالك، ورد الباقي إلى بيت مال المسلمين.

الأستاذ عدنان: هذه ناحية هامة جداً.

الدكتور راتب: خذ رأس مالك، ورد الباقي إلى بيت مال المسلمين، إنها سمنت، لأنك ابني.

الأستاذ عدنان : وحق للناس إذاً أن يبتعدوا عن القرابة منه.

الدكتور راتب: هذا إدراك دقيق جداً لخطورة القدوة في المجتمع، كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني.

يروى أن الذين جاؤوا، بكنوز كسرى، ووضعوا الكنوز أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عجب من أمانتهم جاؤوا بأموال طائلة، جاؤوا بمجوهرات جاؤوا بالذهب حملوه بدقة بالغة إلى المدينة، فقال عمر: سبحان الله ! فهمّ عليه سيدنا علي كرم الله وجهه، وقال: يا أمير المؤمنين، أعجبت من أمانتهم ؟ لقد عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا، كان قدوة، ومن السهل جداً أن تنطق بكلام مقبول، لكن ليس من السهل أن تكون في مستوى كلامك، فعملاق الإسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سِرٌّ بطولته أنه طبق في حياته ما قاله للناس، عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه رسول عامله على أذربيجان، وهذا ملمح لطيف، أن الدعوة الإسلامية في عهد عمر وصلت إلى أذربيجان، ومع هذا الرسول هدية ثمينة، وصل على المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب عمر، فتوجه إلى المسجد، فإذا في المسجد رجل يبتهل إلى الله، ويقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ قال له بعد أن انتهى من صلاته: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا عمر، قال: يا سبحان الله ؟ قال: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، وبعد أن صلوا الفجر أخذه إلى بيته، وخيره بين أن يأكل مع فقراء المسلمين، وبين أن يأكل في بيته، فهذا الرسول بحسب المألوف أن طعام الأمير نفيس جداً، فاختار أن يأكل في بيت عمر، فقال: يا أم كلثوم، ماذا عندك من طعام ؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، فقال: هاته لنا، وكان فقراء المسلمين يأكلون اللحم، فأكل، وشرب، وحمد الله على أن أطعمه،

وسقاه، وقال: ما خطبك ؟ قال: جئت بهذه الهدية من عاملك على أذربيجان، فتح الهدية، فإذا هي طعام نفيس، أكل لقمة، فقال: يا هذا، أيأكل عامة المسلمين هذا الطعام ؟ قال: لا، قال: إنه طعام الخاصة، يعني طعام الأغنياء، فلفظ اللقمة من فمه، وقال: لا آكل إلا مما يأكل منه فقراء المسلمين، وكأنه عنف واليه على أذربيجان، وقال: كيف يعنيك ما يعنيهم إن لم تأكل مما يأكلون ؟

الحقيقة ثمة بطولات لا يصدقها العقل، كان من الزهد بمكان.

الأستاذ عدنان: هنا نستطيع أن نعلق قائلين: ولهذا انتشر الإسلام انتشاراً سريعاً، وبشكل سلمي في هذه البقاع التي انتشر فيها ليس هنا في أذربيجان كما قلت، إنما في بقاع كثيرة من العالم، انتشر الإسلام من خلال أن رأى الناس قدوةً يمكن أن يقتدي بها، وكانوا هم المسلمين.

الدكتور راتب: سيدي، أنا كنت أقول دائماً: لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة، لقد وصل إلى أطراف الدنيا، وصل إلى الصين شرقاً، وإلى المغرب غرباً، لأنه مجموعة قيم مارسها الصحابة الكرام، فلفتوا أنظار الناس، سهل جداً أن تتكلم بالقيم، ولكن البطولة أن تكون في مستواها، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحق قدوة لمن حوله، من تواضعه الشديد أنه حينما تسلم الخلافة بعد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه نزل درجة، لم يقف على الدرجة التي وقف عليها أبو بكر، فقال: ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر، ويروي التاريخ أن عثمان لم ينزل هذه الدرجة، ومضت الأيام أحد خلفاء بني أمية سأل وزيره: لمَ لم ينزل عثمان درجة كما فعل عمر ؟ قال: والله يا أمير المؤمنين، لو فعلها لكنت في قعر بئر، فكان متواضعاً أشد التواضع.

كان يقول: كنت سيف رسول الله وخادمه، وجلواده، فكان يغمدني إذا شاء، النبي عليه الصلاة والسلام يمثل الرحمة، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل الشدة، تعلمون أن أحد من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حاطب بن بلتعة، أرسل كتاباً إلى كفار قريش يقول فيه: إن محمداً سيغزوكم، فخذوا حذركم، بلغ النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر، واستدعى المرأة التي معها الكتاب، وفتح الكتاب، فقرأ فيه، فاستدعى حاطب بن بلتعة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: لا يا عمر، إنه شهد بدراً، تعال يا حاطب، لماذا فعلت ما فعلت ؟

قال: والله يا رسول الله ما كفرت، ولا ارتددت، ولكني لصيق في قريش، ولست من أصلابهم أردت بهذا أن أحمي مالي وأهلي، وأنا موقن أن الله سينصرك، فقال عليه الصلاة والسلام: إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً، كان يقبل عذر المعتذر، وهذا من بطولة النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: لا يا عمر، إنه شهد بدراً.

فكان يقول: كنت خادم رسول الله وسيفه المسلول وجلواده، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو راض، والحمد لله على هذا كثيراً، ثم كنت خادم أبي بكر وجلواده وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راض، الحمد لله لهذا كثيراً، قال: ثم آلت الأمور إلي، يعني كان عمر يمثل دور القوة، وسيدنا الصديق أو سيدنا رسول الله يمثلان دور الرحمة والعطف، الآن الأمور آلت إلى عمر، قال: أيها الناس، اعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت، وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل التقوى والعفاف فسأضع خدي لهم ليطئوه بأقدامهم، بعد موت الأم يأخذ الأب دور الأب والأم معاً، ثم قال: أيها الناس، خمس خصال، خذوني بهن، لكم علي ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحق، ولكم علي ألا أنفق المال إلا بحقه، ولكم علي أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، ولكم علي ألا أجمركم في البعوث، فإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، خمس خصال خذوني بهن، هذا من سياسة هذا الخليفة الراشد رحمه الله، ورضي عنه.

الحقيقة هناك ملمح اقتصادي عند هذا الخليفة الراشد رائع جداً، وكأنه سبق عصره بمئات السنين، يروى أنه زار بلدة، فإذا بالفعاليات الاقتصادية كلها بأيدي غير المسلمين، فعنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ أدرك أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، وأن القوة من الإيمان لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف))

[مسلم]

إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، وإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، أما إذا كان طريق القوة أو طريق الغنى محفوفًا بالمعاصي والآثام يعد الضعف عندئذ وسام شرف، المؤمن مطلوب أن يكون قوياً، المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والمال قوة والمنصب قوة، والعلم قوة، فكان رضي الله عنه يحب أن نكون أقوياء، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم، كأنه أدرك مسبقاً أن هناك معركةً طاحنة بين المنتج والمستهلك، المنتج يتمنى أن يبقى جميع الناس مستهلكين، لتروج تجارته، والمستهلك الفقير يتمنى أن يصنع حتى يكتفي ذاتياً، ويقوى، ويصدر، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟

الحقيقة، لازلنا في ومضات من مواقف هذا الخليفة الراشد، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وضع له طعام نفيس، ذبحت ناقة، وضع له أطيب ما في لحمها أمامه، فبكى، وقال: بئس الخليفة أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها، هو ينطلق من أن الخلافة تكليف لا تشريف، قال: لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً، فلما وضع له طعام نفيس قال: بئس الخليفة أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها.

الأستاذ عدنان: من خلال حديثكم هذا يا دكتور أستطيع أن أقول: إن هذه الشخصية نحن لا نتحدث في الحقيقة عن شخصية لمجرد أنها شخصية، إنما نتحدث عن شخصية آثرت أن يكون الإسلام العملي وتشريعاته بينة في شخصيته، ونحن إنما نتحدث عن الشخصية لتوافقها مع المنهل الشريف في الأسلوب السليم، والعمل الصحيح الذي كان على منهج رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، من خلال هذا المنطلق، وأظن أن الوقت بقي فيه دقيقة واحدة.

الدكتور راتب: عالم أمريكي زار بلداً آخر، والتقى مع الجالية الإسلامية، فقال: في المدى المنظور أنا أستبعد أن يستطيع العالم الإسلامي أن يلحق بالغرب، ولكن العالم كله سيركع تحت أقدام المسلمين إذا أحسنوا فهم دينهم، وأحسنوا تطبيقه، وأحسنوا عرضه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 11 - 29 : سيدنا عمر بن الخطاب 2 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-05-29

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

في حلقة سابقة دكتور أنا لا أرى أنكم تحدثتم عن شخصية من الشخصيات، إنما تحدثتم في الحقيقة عن مبادئ الإسلام، ولكن أخذت هذه المبادئ من خلال التيسير العملي، فكانت هناك شخصية من الشخصيات، والشخصيات في الحقيقة شخصيات عديدة في تاريخنا الإسلامي، وعصورنا الذهبية، تشهد بهذا شهادة رائعة، حتى يكاد الإنسان يظن أن هؤلاء الذين نتحدث عنهم إنما نتحدث عن أمثلة خيالية، لكنها في الحقيقة هي أمثلة واقعية، كانت تجري الحوادث معها على سطح هذه البسيطة، ولكن بعد ما بيننا وبينهم، فكانوا على غير ما نحن عليه، فيا ليت مثل هذه اللقاءات تذكر الناس جميعاً بأن كونوا كما كانوا، لتصلوا إلى ما وصلوا، والوقفات التي نقف عندها، والمحطات التي تتحدثون من خلالها كما قلت قبل قليل هي من مبادئ الإسلام، ولكنها جسدت بشخصيات، ونتابع معكم هذه الوقفات المجسدة في شخصية اخترتموها، سيدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الدكتور راتب:

بارك الله بكم أستاذ عدنان، الحقيقة أنني كما قلت في الحلقة السابقة: إن القدوة شيء أساسي في التوجيه، فسيدنا عمر مرة ترك أكل اللحم أشهراً عديدة في أيام المجاعة، فيبدو أن بطنه قرقر، هذه كلمة يستعملها العرب، فخاطب بطنه، وقال: قرقر أيها البطن، أو لا تقرقر، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين.

كان هذا الخليفة العظيم ينبه إلى أن الإنسان حينما يبني مجده على أنقاض الناس، ويبني غناه على فقرهم، أو حينما يبني قوته على ضعفهم، أو حينما يبني أمنه على خوفهم يسارع إلى حتفه، فأرسل كتاباً إلى بعض ولاته قال فيه: " أما بعد، فقد نمي إلي أنه قد صار لك هيئة حسنة في مسكنك ومركبك، ومطعمك ومشربك ليست لعامة المسلمين، احذر يا عبد الله أن تكون كالدابة مرت بواد خصب فجعلت همها في السمن، وفي السمن حتفها.

هذه إشارة لطيفة جداً وواعية جداً إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون مع الناس، وأن يعنيه ما يعنيهم، كان عليه الصلاة والسلام في سفر مع أصحابه فقال أحدهم: علي ذبح الشاة، فقال الثاني: علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله، نكفيك ذلك،

قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزًا على أقرانه، فكان يقول: احذر يا عبد الله أن تكون كالدابة مرت بواد خصب فجعلت همها في السمن، وفي السمن حتفها، نحن نحتاج إلى تعاون.
لي صديق كان في بلد غربي، ولفت نظره في إعلان لوظيفة، كالعادة السن والشهادة والخدمة الإلزامية، لكن بندًا لفت نظره أن يصلح للعمل ضمن فريق، والمجتمع لا يرقى إلا إذا كان هناك تعاون وتنسيق بين أفراده، سيدنا عمر حينما توفي النبي عليه الصلاة والسلام جاءه الصديق، فقال: يا عمر، ابسط يدك لأبايعك، قال: يا أبا بكر، أي أرضٍ تقلني، وأي سماء تظلني إذا كنت أميراً على قوم فيهم أبو بكر، فهذا فوق طاقتي، قال: يا عمر، أنت أقوى مني، قال: أنت أفضل مني، ثم اتفقا، قال له: قوتي إلى فضلك نتعاون، التعاون حضارة، التعاون أمر إلهي،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة]

مرة كنت في جامعة في بلاد الغرب فرأيت حكمة كتب عليها فضيلة التنازل، ما التنازل ؟ من أجل مصلحة العامة أتنازل لأخي ليسير الركب نحو الأمام، فالتنافس من صفات المجتمعات الجاهلة، والتعاون من صفات المجتمعات الراقية، فقال له: قوتي إلى فضلك، أنا أتعاون معك، فالتعاون صفة رائعة في المؤمنين، ذلك أن في الإنسان طبعاً، ومع تكليف، فطبعه فردي، أما التكليف فتعاوني جماعي، فالإنسان يتعاون مع إخوانه ومع الآخرين ومع المؤمنين بقدر طاعته لله، وينافس معهم ويؤكد ذاته، ويكون فردياً بقدر تفلته من منهج الله، قال له: قوتي إلى فضلك.
شيء آخر، أدرك هذا الخليفة العملاق أنه إذا فُتِحَ بابه لكل الناس من دون استثناء لا يستطيع من دونه أن يظلم، أنا أذكر أنه عُقد مؤتمر للتطوير الإداري في دمشق، الشيء الذي لا يصدق أن هذا المؤتمر بقي أياماً ثلاثة، وكانت توصيته الوحيدة ألا يكون هناك حاجز بين القاعدة وبين القيادة، قلت: سبحان الله! هذه الحقيقة التي توصل إليها مؤتمر في أرقى العصور كشفها عمر بحديث خاص، عين والياً، فقال له: ولا تغلق بابك دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم، فإذا كان أي إنسان بإمكانه أن يصل إلى القيادة فالذي تحت القيادة يعدون للمليار قبل أن يظلموا.
الأستاذ عدنان:
دكتور، هنا قد يقول قائل: هل كانت هذه أقوالا، وكما نسميها في عصورنا شعارات مثلاً، ولكنها كانت بعيدة عن التطبيق، إذا قال لواليه: لا تغلق بابك دونهم، فإن أغلق بابه هل كان يغيب تصرف هذا الوالي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟

الدكتور راتب:

أبداً، كان يحاسبه حساباً شديداً، كيف حاسب عمرو بن العاص ؟ كيف جاءه هذا الأعرابي البدوي من فزارة، ودخل عليه، واشتكى على ملك، وكيف أخذ له حقه، وكيف جاءه، والي حمص سعيد، لو كانت قضية أقوال وشعارات والله ما خرج الإسلام من مكة، لأنها كانت ممارسات.

يروى أن سيدنا رسول الله أرسل عبد الله بن رواحة ليقيّم تمر خيبر، باتفاق من النبي عليه الصلاة والسلام وبين خيبر، فأغروه بحلي نسائهم، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ:

((أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا))

[أحمد]

يعني لن أظلمكم، ولن أبخسكم حقكم، العدل أساس الملك.

سأل إنسان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنسان: هل تحبني ؟ قال: والله إني لا أحبك، قال: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال: لا، والله قال، فقال: إذاً إنما يأسف على الحب النساء.

الأستاذ عدنان:

وزوجته أيضاً عندما قال لها: والله لأسوؤنك، قالت: وهل تستطيع أن تقيمني من مبدأ الإسلام ؟ قال: لا، فقالت له: إذاً فافعل ما شئت.

الدكتور راتب:

هناك نقطة دقيقة جداً، مرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتفقد أحوال رعيته، وكان معه عبد الرحمن بن عوف، فرأوا قافلة جالسة في طرف المدينة، فقال: يا عبد الرحمن، تعال نحرسها، عمل صالح، فإذا بطفل يبكي بكاءً شديداً، فقال لأمه: أرضعيه، أرضعته، فعاد يبكي، قال: أرضعيه، فأرضعته، يبدو أنه غضب، أو أنه رآها لا ترضعه، ترضعه شكلاً، فقال: يا أمة السوء أرضعيه، عندئذ قالت له: وما شأنك بنا ؟ إنني أفطمه، قال: ولمَ ؟ قالت: لأن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، تروي كتب السيرة أنه ضرب جبهته، و قال: ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلتَ من أطفال المسلمين، ولما صلى الفجر إماماً ما سمع الصحابة قراءته من شدة بكائه، كان يقول: ربي، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ قال: ويحك يا ابن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين، وأمر أن يعطى العطاء منذ الولادة، هذا موقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عين والياً، وقال: خذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلناك لضعفك، وسلمتك من معرتك أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين جمعنا عليك المضرتين العزل والتأديب، إذا كان أميناً ضعيفاً يعزل، وإذا كان قوياً خائناً يعاقب، وإذا كان ضعيفاً وخائناً يعاقب ويعزل، قال: وإن وجدناك أميناً قوياً زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك، أي لن نعبأ بخصومك، طبعاً بالمصطلح الحديث الأمانة الولاء والقوة الكفاءة، فالكفاءة والولاء هاتان الصفتان أساسيتان في أي إنسان يعمل لصالح جهة معينة، أخذًا من قوله تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26))

[سورة القصص: 26]

وأنا أرى أن هذا مقياس دقيق جداً لتعيين الأمراء.

لهذا الخليفة الراشد لمحة رائعة، قال: أريد أميراً إن كان أميراً بدا وكأنه واحد من أصحابي، بتواضعه، وإن لم يكن أميراً بدا وكأنه أمير لهم، لغيرته على المصلحة العامة، فعلاً إنه مقياس دقيق، هذا الإنسان ليس أميراً، لكن انتماءه لأمته ودينه يجعله أميراً على مصالح الأمة، فيبدو كأنه أمير، وإذا كان أميرًا فعلاً يبدو كأنه واحد من أصحابه من تواضعه.

الأستاذ عدنان:

هنا حبذا لو توقفنا قليلاً دكتور، في الأصل الإنسان، وكما تحدثتم في حلقة سابقة ماضية حديثًا عن نفسه تدعوه لأن يأخذ الأشياء الكثيرة لنفسه، يريد أن يجمع لنفسه، يخاف أحياناً، جبل على أن ينظر إلى الأمور لمصلحته، لكن ليكون هذا الإنسان وجبلته الأساسية أنه يرغب بهذا مع هذا أنها اختلفت، لا فقط أنها اختلفت، بل زاد على ذلك أنها جمعت ما ترصده النفس، وما يقبله الصالح العام، رفضت كل مزلق، والتفتت إلى كل قوة، فالإنسان عندما يكون ضعيفاً من طبيعته لا ينظر إلى الأمور القوية حتى يفكر بها، أو يصل إليها،

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

هنا جمع الشيئين في شخصية الإنسان الذي لا يرتبط بعقيدة، جمع الشيئين البعيدين عن بعضهما، كانت له العزيمة الرائدة، وكان في الوقت نفسه البسيط الخيّر العامل المنتج، هذه الناحية هل تستطيع عقيدة أو مبدأ وضعي أو مدرسة تعطي في الأخلاق أو مفكر يعطي في أصول التربية أن يصل إلى هذا، وأن يوجه أمة مثلما كان توجيه أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؟

الدكتور راتب:

بارك الله بكم، تأكيداً لهذا الكلام الطيب المؤمن شخصيته فذة، المؤمن شخصيته تعني أنه في مرتبة أخلاقية، المؤمن تحكمه منظومة قيم، وفي الحديث حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُزَابَةَ حَدَّثَنَا إِسْحَقُ يَعْنِي ابْنَ مَنْصُورٍ حَدَّثَنَا أَسْبَاطٌ الْهَمْدَانِيُّ عَنْ السُّدِّيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أبو داود، أحمد]

أبرز صفة للمؤمن أنه أخلاقي، لذلك حينما لا تجد فرقاً بين المؤمن وغير المؤمن إلا الصلاة والصوم فهذا الفرق لا قيمة له إطلاقاً، لابد من أخلاق صارخة تراها في المؤمن، لابد من صدق، لابد من أمانة، لابد من عفة، ألم يقل قال:εسيدنا جعفر للنجاشي عندما سأله عن رسول الله

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ))

[أحمد]

فإذا تكلم فهو صادق، وإذا تعاملت معه فهو أمين، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف، الأمانة والصدق والعفاف أصول ثلاثة لمكارم الأخلاق، فسيدنا رسول الله كان بهذه الأخلاق، والله عز وجل حينما أثنى عليه، كان من الممكن أن يثني على بطولته، أو على شجاعته، أو على حكمته، أو على قيادته، أو على زعامته، أو على خطابته، أو على اجتهاده، أو على فتواه، أثنى على خلقه العظيم، لأن الخلق عملية ضبط، الإنسان أودعت فيه الشهوات وقد قال الله عز وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

[سورة آل عمران: 14]

وبإمكانه أن يتحرك انطلاقاً من هذه الشهوات مئة وثمانين درجة، إلا أن المؤمن مقيد بما سمح الله له به من الشرع، فلذلك المؤمن حركته مقيدة بمنهج الله عز وجل، وفي كل الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يعني أن هناك عقدًا إيمانيًّا بينك وبين الله، يا من آمنت بي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت بقدرتي، بخبرتي، برحمتي، بقدرتي، بحكمتي، افعل ولا تفعل، فالمؤمن بالدرجة الأولى إنسان منضبط بمنهج،

فلذلك الإنسان الآخر إنسان غير منضبط، بل أكاد أن أقول: إن البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، وأعراقهم وأنسابهم، ومللهم ونحلهم، وطوائفهم ومذاهبهم لا يزيدون على رجلين، رجل عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، ورجل غفل عن الله، فتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، هذا الكلام تؤكده آية كريمة، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

[سورة الليل: 5-6]

صدق أنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، بناءً على هذه العقيدة اتقى أن يعصي الله وفق المنهج، والإنسان أعقد آلة في الكون، وله صانع حكيم، ولهذه الصانع تعليمات، فانطلاقاً من حبه لذاته، ولوجوده وسلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده ينبغي أن يطيع الله عز وجل.

إذاً قضية الطاعة لله قضية هي الفوز العظيم، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

المؤمن له مرتبة أخلاقية، الآن له مرتبة علمية، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى، المؤمن عرف سر وجوده، عرف غاية وجوده، عرف حقيقة الدنيا، عرف ما بعد الموت، عرف المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه، عرف القيم التي ينبغي أن يقيمها، فالمؤمن عالم، وما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه، المؤمن عرف الحقيقة الكبرى في الكون.

هذا مثل للتوضيح، لو أن طالباً ذهب إلى بلد لينال دكتوراه، إذا كان هدفه واضحًا جداً جداً فأدق جزئيات حركته في هذا البلد متعلقة بهدفه، مثلاً يستأجر بيتاً قريباً من الجامعة، يرافق إنساناً يتعلم منه اللغة المحلية، يشتري كتاباً له علاقة باختصاصه، يزور مكتبة، ويطالع الكتب المتعلقة بدراسته، فيعني أدق جزئيات حياته مرتبطة بهدفه الكبير، فالمؤمن حينما يعرف لماذا هو في الدنيا ؟ علة وجودنا أن نعرف لماذا نحن في الدنيا، علة وجودنا أن نعبد الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات: 56]

والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، إذاً معرفة الله، وعبادته، والقرب منه هي هدف الإنسان، فلذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان شخصية فذة، المؤمن شخصية فذة، مرتبة أخلاقية، مرتبة علمية، مرتبة جمالية، له أذواق راقية جداً، لأنه موصول بالله عز وجل، والله جميل، وهناك أعمال يفعلها الشاردون لا تليق بالإنسان، أما المؤمن فانضباطه وأذواقه عالية جداً، هذا الذي تفضلتم به قبل قليل.

أيضاً ملمح لطيف، توجيهات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاءه سؤال من أحد الولاة، الحقيقة السؤال دقيق، قال: يا أمير المؤمنين، إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استرجاعه منهم، إلا أن أمسهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت، فقال عمر، وأرسل له الجواب: يا سبحان الله ! أتستأذنني في تعذيب بشر، وهل أنا لك حصن من عذاب الله، وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البينة، فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تقم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايم الله، لأن يلقوا الله بخيانتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم، ورع ما بعده ورع، وقنوات عدل ما بعدها من قنوات. كان هذا الخليفة الراشد واقعياً، يروى أن أحد الأشخاص في أثناء الطواف حول الكعبة في موسم الحج وجد لوزة، فصاح بملء صوته: مَن صاحب هذه اللوزة ؟ من صاحب هذه اللوزة ؟ وشوش على الحجاج طوافهم، فقال عمر: وقد غضب: كُلْها يا صاحب الورع الكاذب، يعني كلها، وأرحنا، سيدنا عمر كشف ما يسمى النفاق.

الأستاذ عدنان:

هنا أيضاً يعلق على ما يمكن أن يوجد في بعض المجتمعات، والأمثلة الدارجة على الألسن أصبحت كثيرة في وصف أمثال هؤلاء، يقال: سبحَتُه تبلغ مترين، وأعمال لا تتناسب مع هذا الموقف، يشهد الصلوات، من أوائل الناس دخولاً إلى المسجد، ولكنه في أفعاله إن كانت تاجراً قد ينافي ما يجب عليه أن يكون التاجر المؤمن، هذا ليس حديثاً، بأن التجار هكذا، لكن فيهم الرائع المؤمن، التقي النقي، الورع، وفيهم من غير ذلك، كما نجد في أصناف المجتمع، كل فئاته وأعمالهم التي يقومون بها موضوع يا صاحب الورع الكاذب، حينما نجد في المجتمع أمثال هؤلاء ترى كيف نتعامل معهم ؟

الدكتور راتب:

ينبغي أن نرشدهم أولاً، وأن نبعد الناس عنهم، لأن في الحديث عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

هم منافقون، هم يريدون انتزاع الإعجاب بسلوك ظاهر، أما في حقيقتهم فليسوا كذلك.

بالمناسبة أستاذ عدنان، الإنسان خارج البيت يلمع نفسه، يتكلم كلاماً لطيفاً، يرتدي ثياباً حسنة، يبتسم أحياناً، يصافح، حفاظاً على سمعته، لكنه إذا دخل البيت فلا رقيب عليه، قد يكون في البيت غير حال شخصيته خارج البيت، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[الترمذي]

فجعل الخيرية المطلقة أخلاق الإنسان في البيت، قال:

((وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

أنا أعلق على هذا الكلام، أنه نحن عندما نفحص إنساناً لنيل شهادة القيادة، الفحص رجوع إلى الوراء، و بطريق متعرج وضيق، و يوجد علامات بلاستيكية، فلو مسّ علامة يسقط، لماذا يفحص هكذا ؟ هذا أصعب شيء في القيادة، أن تعرج إلى الوراء بطريق متعرج وضيق، وفيه شواخص بلاستيكية، أما الباقي فسهل جداً، فالنبي جعل خيرية الإنسان أخلاقه في بيته قال:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

فلذلك قضية الانضباط الداخلي شيء دقيق جداً.

أيضاً شيء آخر، من موضوعية هذا الخليفة الراشد أراد من شخص أن يأتي بمن يعرفه، فجاء بشخص فقال: أتعرفه ؟ قال: أعرفه، قال له: هل سافرت معه ؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدرهم والدينار ؟ قال: لا، قال: هل جاورته ؟ قال: أنت لا تعرفه، فيا فلان إني لا أعرفك، لكن من شدة تواضعه قال: ولا يضرك أني لا أعرفك، قد تكون بأعلى مكان، لكني لا أعرفك، هذا الذي جئت به لا يعرفك.

وثمة ملمح آخر، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه رجل من معركة نهاوند يحدثه عما جرى، فقال: والله يا أمير المؤمنين، مات خَلق كثير، قال: من هم ؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى بكاءً شديداً، وقال: ما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم.

الأستاذ عدنان:

هنا ترتبط هذه الحادثة بالفكرة والمثل الذي ذكرته قبل قليل، عندما يريد الإنسان أن يدرس دراسة اختصاصية في بلد أجنبي، فإنه يجعل كل أعماله متناسبة مع الغاية التي يسعد إليها، وهذه الغاية التي أيضاً كانت في هذا المثل الواضح الجلي أيضاً الوقت.

الدكتور راتب:

آخر فكرة في الإسلام، كأنه هرم، القسم الأول فيه هو القرآن الكريم، والقسم الثاني هو السنة الصحيحة، والقسم الثالث سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، والقسم الرابع سيرة أصحابه، فالقسم الأول كليات، والثاني تفاصيل، والثالث تطبيقات، والرابع أخلاق ونماذج بشرية، فإذا تحدثنا عن أصحاب النبي عليه

الصلاة والسلام فهناك نماذج من البطولة، وسبحان الله ! لكل نموذج خصائصه، فسيدنا عمر كان قوياً في الحق، وكان متواضعاً، وكان عادلاً، سمعت أن في لندن متحفاً لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب على مدخله " كهف العدالة ".

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 12 - 29 : حلاوة الإيمان 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

تعلمون أن الإنسان المؤمن يجد حلاوة في نفسه ضمن حياته التي يعيشها، إن كانت في كل أشكالها لا يجد مثل هذه الحلاوة إنسان آخر، ذلك أنه مطمئن بالله رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً، ومطمئن بأنه على الإيمان، ويرجو الله تعالى أن يستمر على الإيمان، ويكره أن يعود إلى تراجعٍ في هذا الإيمان، كما يخاف أن يقذف في النار، هذه أشياء خاصية في شخصية المؤمن لا نجدها في غيره، وهذه ناحية تعطي حياته التي يعيشها رونقاً خاصاً لا يجده غيره في المعتقدات الأخرى، إلى جانب هذا أن الدار الآخرة ستكون له بإذن الله تعالى، هذه الأمور إذا أردنا أن نستطلع انعكاساتها على شخصية الإنسان الذي آمن بالله رباً، وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبياً، وآمن بالإيمان، وتبعه بكل ما فيه من دعوة، ومن أوامر، ومن نواه التزم أن ينتهي عنها، وما إلى ذلك، كيف تكون حياته التي يعيشها ؟

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله و صحبه أجمعين.

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، هذه المعاني الذي تفضلت بها مندرجة في حديث ورد في الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه]

في هذا الحديث الشريف كلمات يجب أن نقف عندها، من هذه الكلمات حلاوة الإيمان، فرق كبير بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان، أي إنسان آتاه الله فكراً ووقتاً وطاقة على متابعة العلوم يمكن أن يطلع على حقائق الإيمان، ولكن لا ينتفع منها إلا بشروط.

حقائق الإيمان لتقريب الفكرة من الإخوة المشاهدين كخارطة لقصر مبنية على أدق القواعد الهندسية، يمكن أن ترى في هذه الخارطة مساحات الغرف، ومساحات الشرفات، ومساحة الحديقة، وأين تقع الخدمات في هذا القصر، هذا كله مبني على حسابات دقيقة، وقام بها مهندسون مهرة، ولكن أن تملك

خارطة لقصر، ولا تملك كوخاً شيء، وأن تملك هذا القصر، وأن تسكنه شيء آخر، فحلاوة الإيمان أن تسكن في هذا القصر، أو لو أنك اطلعت على صورة لمركبة فارهة جداً، ونظرت إلى فرشها من الداخل، وإلى خطوطها الانسيابية، وإلى ألوانها الرائعة، وإلى ميزاتها من خلال تعليمات، ومن خلال نشرات، هذه حقائق الإيمان، أما أن تمتلك هذه المركبة، وتركبها حلاوة الإيمان، فشتان بين حقائق الإيمان وحلاوة الإيمان.

الإنسان إذا أكرمه الله بحلاوة الإيمان هو إنسان آخر، لابد من أن تنعكس جميع مقاييسه، يبني حياته على العطاء بعد أن كانت مبنية على الأخذ، يبني حياته على بذل الجهد بعد أن كان يستهلك جهود الآخرين، يبني حياته على تقديم شيء ثمين للبشرية بعد أن كان عبئاً عليها، حلاوة الإيمان تجعل المؤمن إنساناً آخر، المؤمن شخصية فذة لها مرتبة خلقية، ومرتبة علمية، ومرتبة جمالية، فهناك منظومة قيم تحكم المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان، وهناك حقائق توصل إليها المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان، وهناك أذواق جمالية يتمتع بها المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان، نحن في حياتنا ما يسمى اللذات، وفي حياتنا ما يسمى السعادة، والحقيقة أن هناك فرقاً كبيراً بين اللذات وبين السعادة، فاللذات طبيعتها حسية، وتأتيك من الخارج، لابد من بيت جميل، من مركبة فارهة، من امرأة، من حديقة غناء، من طعام نفيس، لذات الحياة تأتيك من الخارج، وتحتاج إلى أموال طائلة، هذه لا تحصل إلا في وقت متأخر من الحياة، والشيء الطريف أن اللذات تحتاج إلى شروط ثلاثة، الشرط الأول تحتاج إلى وقت، تحتاج إلى صحة، وتحتاج إلى مال، ولحكمة أرادها الله عز وجل دائماً الإنسان تنقصه إحدى هذه الشروط، ففي بداية حياته الصحة موجودة، والوقت موجود، وليس هناك مال، في منتصف الحياة الصحة موجودة، والمال موجود، وليس هناك وقت، منغمس في تأسيس عمل، بعد أن تتقدم به السن، ويسلم العمل إلى أولاده المال موجود، والوقت موجود، لكن ما ليس هناك صحة، فإذا أردنا لذات الحياة فحياتنا منغصة، فقد قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

فاللذات طبيعتها حسية، ولا تأتي إلا من الخارج، ولا تحصل بشكل كامل إلا بشق الأنفس، ولحكمة أرادها الله يعقبها كآبة، وقوة التأثر بها متراجعة، لا يمكن لشيء من حطام الدنيا أن يمدك بسعادة بشكل مستمر، مستحيل وألف ألف مستحيل، والناس يعرفون هذه الحقيقة.

الأستاذ عدنان:

هنا في الحقيقة دكتور أشرت إلى ناحية هامة جداً، إذا ما شرحناها أكثر، أو توقفنا عندها بشكل أدق يمكن أن تفيد الإخوة المشاهدين، اللذات الحسية كما ذكرتم تأتي من الخارج، وهي غير متوفرة في

الأحوال كلها، إنما إن توفرت، وإن اجتمعت عندما يحصل عليها الإنسان فإنه من خلال أنها حسية، يطلب المزيد منها، وقد يتوفر هذا المزيد، وقد لا يتوفر، فإن لم يتوفر شعر بالكآبة التي ذكرتها، وإن توفرت فإنه يطلب المزيد ثانية وثالثة، ولا يحصل على هذا المزيد، في النهاية سيكون في حالة الكآبة، وقد يكون الإنسان يملك هذه اللذات التي تتحقق له، فإذا ما أصابه عارض في الدنيا وقف ونظر إلى موقع أقدامه، فعرف أنه على لا شيء.

الدكتور راتب:

هذا المعنى أشار إليه الإمام البوصيري رحمه الله تعالى قال:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النهم

فهذه اللذات قوة تأثيرها متناقص لحكمة أرادها الله عز وجل، وليس في الدنيا شيء على الإطلاق يمكن أن يمدك بإحساس بتفوق مستمر، إلا أن هذه اللذات إذا كانت بعيدة عن منهج الله عز وجل تعقبها كآبة، وهذه الكآبة قد تنتهي مع الموت، وبعد الموت إلى عذاب لا يحتمل، أما السعادة فهذه تنبع من الداخل، ويملك أسبابها كل إنسان، وهي متنامية، وإذا رضي الله عز وجل عن هذا العبد الذي خطب ود الله عز وجل فربما جعل هذه السعادة متصلة بنعيم الآخرة، فشتان بين اللذات وبين السعادة، فالسعادة التي يحسها المؤمن، والذي قال عنها بعض العارفين بالله: " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "، هذه السعادة هي أحد بنود حلاوة الإيمان.

من بنود حلاوة الإيمان هذا الشعور بالأمن الذي يتمتع به المؤمن، وأنا أصر على أن الشعور بالأمن الحقيقي خاص بالمؤمن، لقول الله عز وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

[سورة الأنعام: 81-82]

لم يقل: أولئك الأمن لهم، لو قال: أولئك الأمن لهم لكان لهم ولغيرهم، أما حينما قدم الجار والمجرور على الاسم المرفوع فصار المعنى الأمن خاص بهم وحدهم، وقد قالوا: أنت من خوف الفقر فقر، لو كنت تملك المليارات فالخوف من الفقر أنت في فقر، فأنت من خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فمن خصائص حلاوة الإيمان التمتع بنعمة الأمن، لأن هذا المؤمن يرى أن الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يمنحه سعادة من دون شروط مادية، فمن بنود حلاوة الإيمان الشعور بالأمن، وهذا من خصائص المؤمن، الأمن الحقيقي.

الأستاذ عدنان:

بواعث هذا الأمن دكتور، إذا رأيت إنساناً عادياً، وقلت له: يجب أن تشعر يا هذا بالأمن الداخل، ينطلق من داخلك لا من خارجك، ينطلق من ذاتك لتشعر بأنك إنسان قد استخلفه الله في الأرض، ما هي بواعث هذا الأمن ؟

الدكتور راتب:

التوحيد، لأنه ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، يكفي أن تتوهم أن أمرك بيد عدو لك، وأنه أقوى منك، وأنه يتمنى أن يهلكك، هذا الشعور وحده يحطم حياة الإنسان، أما يكفي أن تشعر أن أمرك بيد الله؟ وأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يسلمك إلى أحد ؟ وأن الأمور كلها بيد الله ؟ قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: 123]

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: 10]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 26]

وأن الله في السماء إله، وفي الأرض إله، وبيده مقاليد السماوات والأرض، وأن قضية الأعمار والأرزاق بيد الله وحده، لذلك إن كلمة الحق لا تقرب أجلاً، ولا تقطع رزقاً، حينما تشعر أن الأمر بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى معك، قال تعالى:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فمن بنود حلاوة الإيمان هذا الشعور بالأمن الذي سألتم عن بواعثه، وكان التوحيد والإيمان الحقيقي هو من بواعثه، وأن إبليس بمعنى أو بآخر يقول الله عزوجل عنه:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص: 82]

إذ يقول الله عز وجل :

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)

[سورة الأعراف: 12]

آمن بالله رباً، وبالله عزيزاً، وآمن بالله خالقاً، وآمن بالآخرة، قال تعالى:

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف: 14]

ولكن هذا الإيمان الذي لا يرافقه طاعة لله عز وجل لا تقطف ثماره،

لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة النساء: 136]

ما كل إيمان ينجي صاحبه، هذا البند الثاني.

البند الأول: أن من حلاوة الإيمان الإحساس بالسعادة الحقيقة المتنامية.

ومن بنود حلاوة الإيمان: الشعور بالأمن.

ومن بنود حلاوة الإيمان: السكينة، فهذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، وجدها أهل الكهف في الكهف، وجدها سيدنا إبراهيم في النار، وجدها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

[متفق عليه]

فمن بنود حلاوة الإيمان السكينة، وهذه السكينة عطاء من الصعب أن نتصوره، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك ؟

ومن بنود حلاوة الإيمان والحكمة.

الأستاذ عدنان:

قبل أن ننتقل إلى موضوع الحكمة، مما أشاهد، ومما أسمع من خلال الناس، وباللقاء بهم هذا الكلام الذي تتحدثون به كلام جميل، وفعلاً تاريخنا كان يمتلئ بمثل هذه الشخصيات التي نضحت بحلاوة الإيمان والأمن والسعادة الداخلية، لكن في مجتمعاتنا الحالية هل ترى من نجده على هذه الشاكلة يكون منطلق ذلك الإيمان والعبودية لله تعالى، أم أن شخصية هذا الإنسان ضعيفة، ومن خلال ضعفها تستسلم لكل شيء، فتقول: ماشي الحال كما، يقال بالعامية ؟ هناك فارق كبير.

الدكتور راتب:

أرى أن الطرف الآخر إذا لم يكن على منهج الله ملتزماً يختل توازنه الداخلي، لأن فطرة الإنسان متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله، فلمجرد أن يعصي الإنسان الله عز وجل، أو لمجرد أن يخرج عن مبادئ فطرته، وكلا الأمرين واحد، إما عن وعي وإدراك، تعرف أن هذا الأمر إلهي، وتعصيه فهذه حالة، أو أنك تخرج عن مبادئ فطرتك، في كلا الحالين يختل توازن الإنسان، والإنسان في علم النفس حينما يختل توازنه يحاول أن يستعيد هذا التوازن، هناك طرائق ثلاثة لاستعادة هذا التوازن، الطريق الأول أن يرجع إلى الله، لكن الطريق الثاني والثالث طريقان إبليسيان يطعن في الآخرين، أو يتعلق بعقيدة فاسدة، فمن أجل أن يستعيد العاصي توازنه، ومن أجل أن يستعيد الذي خرج من مبادئ فطرته

توازنه يتهم كل من تفوق عليه في الدين، أو في الخلق، أو في أي مجال آخر، هذا الاتهام دون أن يشعر وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس، الطالب المقصر إذا سئل عن وظيفته يقول: لم نكتب الوظيفة، يا بني أنت طالب واحد، لماذا قالها في صيغة الجمع ؟ ليوسع دائرة التقصير، فيرتاح، فالإنسان حينما يختل توازنه، ويعصي ربه يريد أن يجعل هذا الفساد عاماً، لذلك يتهم كل الصالحين دون أن يشعر، هذا في عقله الباطن، فالإنسان حينما ينحرف، وحينما يخرج عن مبادئ فطرته، وحينما يعصي ربه يختل كل توازنه، وبدل أن يستعيد هذا التوازن بتوبة نصوح يستعيد هذا التوازن بالطعن في المتفوقين، يقول: هذا أبله، مثلاً، هذا درويش، بالتعبير العامي، لكن لو علم أن هذا الذي يتهمه ضيق الأفق، وأنه لا يعلم ما الحياة، لو كشف الغطاء لاختل توازنه مرةً ثانية، أو أن هذا الذي اختل توازنه يستعيد هذا التوازن بطريقة أخرى، أن يتعلق بعقيدة زائغة غير صحيحة، كأن يقول: هناك من يشفع لنا يوم القيامة، المفهوم الساذج، مع أنه غاب عنه قول النبي في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[متفق عليه]

إذاً من بنود حلاوة الإيمان السعادة الحقيقة التي يملك كل منا أسبابها، والتي قد تنتهي بالجنة، وهي متنامية، وليست متناقصة، ومن بنود حقائق الإيمان هذا الشعور بالأمن، الحقيقة قال تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

فإذا كنت مع الله كان الله معك، وقد قال العلماء: معية الله الخاصة شيء، ومعيته العامة شيء، فإذا قال الله عز وجل:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)

، معكم بعلمه، أما إذا قال تعالى:

(إِنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

فهذه معية خاصة، تعني أنه معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالتوفيق، معهم بالحفظ، وحينما تشعر أن خالق السماوات والأرض معك فهذا الشعور يعطيك دفعاً إلى الأمام يصعب تصوره، فكيف إن كان العكس.

الأستاذ عدنان:

يشعر الإنسان بهذه الناحية التي تفضلت بها، يشعر بالأمن والأمان، إلى ما ذلك، لكنه في الحقيقة نزلت به نازلة كيف يكون وضعه ؟

الدكتور راتب:

هنا إن شاء الله في لقاءات قادمة نتحدث عن أنواع المصائب، مصائب المؤمنين ليست كمصائب الشاردين، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة: 155]

مصائب الشاردين مصائب قصم وردع، ومصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، ومصائب الأنبياء مصائب كشف، ينطوون على كمالات لا يمكن أن تظهر إلا بظروف خاصة، فالمصائب متنوعة، وإن شاء الله في ندوة قادمة أتحدث بشكل تفصيلي عن أنواع المصائب، فالمؤمن مصائبه من نوع آخر، لذلك عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسلم، أحمد، الدارمي]

وقد قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان: 20]

قال بعض علماء التفسير: " النعم الباطنة هي المصائب "، وقد قال بعض علماء القلوب: " ربما منعك فأعطاك، وربما أعطاك فمنعك "، وحينما تفهم على الله عز وجل يكون المنع أحياناً عين العطاء، لذلك هذا الكلام كله يلخص بآية واحدة:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

لو تابعنا بنود حلاوة الإيمان، من هذه البنود الحكمة، أنا أرى أن الحكمة عطاء عظيم، ذلك أن الإنسان من غير حكمة يفقد أصدقاءه، من غير حكمة يفقد الزوجة من الدرجة الأولى، من غير حكمة يبدد ماله، من غير حكمة يدمر نفسه، نحن حينما ندعو، ونقول: اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، الإنسان أحياناً بتدبيره يدمر نفسه، وأنا أعتقد أنه مهما كان المرء ذكياً فإن كان مقطوعاً عن الله عز وجل حجبت عنه

الحكمة، فيفعل أفعالاً، ويرتكب حماقات الطفل الصغير بعيد عنها، وهناك شواهد لا تعد ولا تحصى من خلال هذه الحقيقة، والشيء الذي ينظم هذه الفكرة قوله تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد: 1]

لذلك أعظم عطاء من الله عز وجل بأن يلهم المؤمن الحكمة، فبالحكمة يسعد بزوجة من الدرجة العاشرة، وبالحكمة يجعل أعداءه أصدقاء، وبالحكمة ينفق ماله القليل في شأن كبير، وبالحكمة يوظف وقته الضيق في عمل مفيد، وأنا لا أرى أن في الحياة عطاءً يزيد على عطاء الحكمة، وهذه خاصة بالمؤمن، وأما غير المؤمن فلا بد من أن يرتكب حماقة، مع أنه قد يكون في أعلى درجات الذكاء، لذلك لا ينفع ذا الجد منك الجد، يعني يا رب، الذكي معك لا يفلح، لكن يفلح معك المستقيم الذي أحبك، واستقام على أمرك، فهذه الحكمة هي ضالة المؤمن، هذه الحكمة هي عطاء كبير لهذا المؤمن. حلاوة الإيمان، لابد من توضيح ببعض الأمثلة.

امرأة أنصارية بلغها أن النبي عليه الصلاة والسلام أصابه شر، فانطلقت إلى ساحة المعركة، في معركة أحد، فإذا بها تجد أباها مقتولاً، تقول: ما فعل رسول الله ؟ ثم وجدت ابنها مقتولاً، تقول: ما فعل رسول الله ؟ ثم وجدت أخاها مقتولاً، فلما رأت النبي عليه الصلاة والسلام، وقرت عينها، قالت: يا رسول الله كل مصيبة بعدك جلل.

سيدنا الصديق أنفق كل ماله قال: يا أبا بكر ماذا أبقيت ؟ قال: أبقيت الله ورسوله، المؤمن حينما يشعر بحلاوة الإيمان يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس.

فلو شاهدت عيناك من حسننا	**الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا**
ولو سمعت أذناك حسن خطابنا	**خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا**
و لو ذقت من طعم المحبة ذرة	**عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا**
و لو نسمت لنا من قربك نسمة	**لـمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا**
و لو لاح من أنوارنا لك لائـح	**تركت جميع الكائنات لأجلنـــا**
فما حبنا سهل ، و كل من ادعى	**سهولـــته قلنا له : قد جهلتنا**
فأيسر ما في الحب بالصب قتله	**وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا**

فأيسر ما في الحب بالصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 13 - 29 : حلاوة الإيمان 2 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:
في حلقة سابقة تحدثتم عن الإيمان بالله وبالرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يحب الإنسان أخاه المؤمن لله وبالله، وأن يكره البعد عن الإيمان كما يكره أن يقذف في النار، وأشرتم إلى هذا بحديث نبوي يوضح هذه الناحية بشكل كامل، ثم عددتم موضوع السعادة، وعندما تكون من داخل الإنسان، واللذات عندما تكون من خارج الإنسان، واللذات الحسية تنتهي أو تتراجع، أو أن بواعثها لا تكتمل للإنسان، فإن اكتملت لفترة ما فإنها سرعان ما تنقضي، أو يطلب الإنسان مزيداً منها، وبالتالي تصيبه الكآبة، أما السعادة الداخلية فهي نبع فياض متنامٍ مستمر، تؤكده محبة الله تعالى وحبة رسوله، تؤكده بواعث الإيمان، تؤكده العبودية لله، تؤكده الحكمة التي يسلكها الإنسان، تؤكده العبودية كما قلت، ويؤكده الأمن الذي يشعر به هذا الإنسان المؤمن لا يشعر به سواه، وللحديث قلنا: إن هناك بقية نتابعها معكم بإذن الله تعالى.
الأستاذ راتب:
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً الحديث النبوي الشريف الذي ورد في الصحيحين عن سيدنا أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))

[متفق عليه]

في الحلقة السابقة تحدثنا عن حلاوة الإيمان فقط، ونتابع للحديث: ((مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))، هذا نص الحديث، فإذا شئنا أن نتابع شرح البند الأول:
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، قد يفهم هذا الكلام فهماً سطحياً، لو سألت مليار مسلم ألا تحب الله ورسوله أكثر من أي شيء ؟ لقال: نعم، بلا تردد.

الأستاذ عدنان:

وهنا دكتور بالمناسبة في الحلقة الماضية عندما أشرت إلى موضوع الإيمان ونتائجه كنت أود أن أسألك هذا السؤال الذي أشرت إلى بدء في تفصيله من خلال ما يمكن أن يكون وقرَ في القلب، وما يمكن أن يكون على اللسان، هل أنت يا فلان تقول بالإيمان، وتلتزم ؟ نعم، جربه في الميدان العملي لا شيء.

الأستاذ راتب:

لا ينجح، لأنه:

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلي لا تقر لهم بذاكا

بالمناسبة بعضهم قال:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية: 18)

فأجابهم الله عز وجل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أن الله لا يعذب أحبابه، لو أن الله قبل دعواهم أنهم أحبابه لما عذبهم، فحينما ترى أن المسلم يعاني ما يعاني من كثرة ذنوبه، ومن انحرافه ومن تقصيره، فهذا الذي يعانيه يلخص بكلمة واحدة هان أمر الله عليه فهان على الله، فأنا أقول: إنك لو سألت كل المسلمين في الأرض: ألا تحب الله ورسوله أكثر مما سواهما ؟ من دون تردد أجابوا جميعاً بالإيجاب، ولكن معنى الحديث أعمق من هذا بكثير، وأدق من هذا بكثير، أي يكون الله في قرآنه، في الأمر القرآني والنهي القرآني، ورسوله في سنته الصحيحة، في الأمر النبوي والنهي النبوي، أحب إليه مما سواهما عند التعارض، فحينما تتعارض مصلحتي التي أراها بعيني مع حكم شرعي قرآني، أو مع حكم شرعي نبوي، و أوثر طاعة الله عز وجل، ولا أعبأ بهذه المصلحة التي توهمتها مصلحة عندئذٍ أكون قد دفعت ثمن حلاوة الإيمان، عندئذٍ أذوق حلاوة الإيمان، سلعة الله غالية، سلعة الله ليست بالشيء السهل، فأنا حينما أوازن ولحكمة بالغةٍ بالغة قد يضعني الله عز وجل في ظرف صعب، فالأبواب كلها مغلقة، مفتوح باب في معصية، من أجل كسب المال في باب واحد مفتوح فيه معصية صريحة، والأبواب الأخرى لحكمة أرادها الله مغلقة، أنا ماذا أفعل ؟ حينما يغلب علي حب الله عز وجل، ويغلب علي خوفي من الله عز وجل، ويغلب علي طمعي بالآخرة، ويغلب علي خوفي من أن أنقطع عن الله عز وجل أضع مصالحي المادية المتوهمة القريبة تحت قدمي، وأقول: الله الغني، ولا أعصي الله يا رب، وليكن ما يكن، الآن تأتي الآية الكريمة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً(2))

(سورة الطلاق)

حينما يعلم الله من عبده هذا الإصرار، وهذا التمسك، وذاك الحرص، وهذا التوجه، وهذه المؤاثرة، وتلك التضحية، يخضعه لمنظومة قوانين أخرى لا نعلمها نحن، قوانين العناية الإلهية، فيجمع الله له بين عطاء الدنيا ورضاه عنها.

الأستاذ عدنان:

سيدي، لسنا الآن في مجال ذكر شواهد حقيقية عما تقول، لكنني أشير بشيء ما إلى ما يشبه الشاهد، إنسان في دولة ما متمسك بدينه، كان له مكان تجاري، حتى يكون على مرحلة متفوقة يجب أن تباع فيه أشياء بالنسبة للشرع الإسلامي هي ممنوعة، آثر أن يترك المكان كله حتى لا ينخرط في هذا، ومن حوله قالوا: إنها خسارة، بعث الله له من يأتي إليه في بلاد بعيدة ليقول له: سأشتري مكانك الذي فتحته في المكان الفلاني بالسعر الذي ترغب، فباعه بأكثر مما يستحقه سعراً، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

الأستاذ راتب:

جزاك الله خيراً، أنا أعتقد أن زوال الكون أهون على الله من أن مؤمناً آثر رضوان الله عز وجل، ولا يجد ثمرة لهذا الإيثار، مستحيل، دققوا في هذا القول:

((ما ترك عبد لله أمرا لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر]

الأستاذ عدنان:

لكن بالمناسبة دكتور علينا أن لا نقول في مثل هذا المثال: أن طبقوه، وانتظروا فوراً النتائج، قد تكون النتائج سريعة، وقد تكون بطيئة.

الأستاذ راتب:

جزاك الله خيراً، الآن أنا مضطر أن أعالج الموضوع من هذه الزاوية، أنا حينما يكون في محلي التجاري تباع مادة محرمة، وحينما ألغي بيعها خوفاً من الله عز وجل كان من الممكن أن تتضاعف الغلة اليومية، والله على كل شيء قدير، لكن لحكمة بالغة تهبط الغلة إلى الربع، هذا شيء ينبغي أن يكون معلوماً لدينا، أن الله أراد بهذا أن يجعلك أيها الإنسان المؤمن الذي اتخذت هذا القرار الخطير، أن تدفع ثمن قرارك ليكون منزلة عالية في الجنة، بدليل: حينما نهى الله المؤمنين أن يستقبلوا الطرف الآخر في بلادهم قال:

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً)

(سورة التوبة الآية: 28)

أنتم حينما تنفذون هذا التوجيه ربما تصابون، أو ربما تقعون في أزمة اقتصادية.

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة الآية: 28)

لا بد من مرحلة امتحان، محل تجاري يبيع مادة محرمة، صاحب هذا المحل حج بيت الله الحرام، وعاد تائباً، وألغى بيع هذه المادة، فإذا بالغلة تهبط إلى العشر، مثلاً، هذا امتحان، هل هو صادق في قراره، هل أراد بهذا القرار الله ورسوله، هل مستعد أن يدفع ثمن هذا القرار البطولي، حينما يعلم الله منه صدقاً بعد حين يأتي التوفيق الإلهي،

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

هذا البند في الحديث دقيق جداً، يفهم فهمًا ساذجًا سطحيًّا، أنه نعم أنا أحب الله ورسوله أكثر مما سواهما، أن تحب الله في أمره القرآني، وفي نهيه القرآني، وأن تحب رسول الله في أمره النبوي الصحيح، وفي نهييه النبوي الصحيح عند التعارض، حينما تتعارض مصلحة مادية، يعني حينما تجد أن طريق الغنى يجب أن يكون معه نفاق، أو معه معاصٍ، أو معه بيع محرمات مثلاً، فحينما تؤثر الغنى مطلقاً على طاعة الله ورسول الله هنا المشكلة، أما حينما يكون طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تسلكه، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

أستاذ عدنان، الممكّن في الأرض كلما مكنه الله أكثر تتسع دائرة مسؤوليته، وتتسع دائرة أعماله الصالحة، يعني خياراته الممكنة في الأرض في الأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيف))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

فإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن أكون غنياً، لأن الغني قوة، ولأن المؤمن القوي الغني يستطيع أن يفعل من الأعمال الصالحة ما لا يستطيعه الفقير، وإذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله عز وجل ينبغي أن أكون قوياً، لأن المؤمن القوي يستطيع أن يفعل من الأعمال الصالحة وهو زاده في الآخرة، ما لا يستطيع أن يفعله الفقير أما إذا كان طريق الغنى محفوفاً بالمعاصي والآثام، وإغضاب الواحد الديان، فالفقر وسام شرف للمؤمن، لأن المؤمن ولد في الحياة الدنيا من أجل أن يعبد الله، فلا يمكن أن يصرفه شيء مهما كان تهديداً أو إغراءً عن عبادة الله عز وجل، فالمؤمن الصادق المضحي لا تفتنه عن عبادته لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، أحدٌ أحد، فهذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً من أن البند الأول في الحديث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما عند التعارض، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية: 33)

حار علماء التفسير في هذه الآية، في حياة النبي معنى واضح جداً، مادام النبي بين ظهرانيهم فالمعنى واضح، لكن ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى ؟ قال العلماء: ما دامت سنة النبي قائمة في حياتهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في علاقاتهم، في كل شؤون حياتهم، مادام منهج النبي مطبقاً فهم في بحبوحة من عذاب الله، هم في مأمن من عذاب الله، وفي مأمن آخر:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

وحينما يقع الإنسان في خطأ، حينما تزل قدمه، ويستغفر الله عز وجل هو في بحبوحة ثانية، لكن متى يأتي العقاب الأليم ؟ حينما يخرج المرء عن منهج الله، ويصر على هذا الخروج، ولا يعبأ عندئذٍ يأتيه العقاب الأليم، هذا هو البند الأول، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، العلماء قالوا: هناك حب في الله، وحب مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشرك، أنا حينما أجعل ولائي ومحبتي وتأييدي ونصري مع المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء فأنا مؤمن، أما حينما أجعل ولائي وحبي وتأييدي ونصري للطرف الآخر الذين يكيدون للمؤمنين فأنا في بذلك خرجت من أصل إيماني، لا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً إلا بالولاء والبراء، أن يوالي المؤمنين، وأنا أضيف ولو كانوا ضعافاً وفقراء، وأن يتبرأ من الطرف الآخر ولو كانوا أغنياء وأقوياء، لأن هوية المؤمن أنه من المؤمنين، المؤمنون بعضهم لبعض ولي، يعني يوالون بعضهم بعضاً، فنحن ولو عند من حولنا أخطاء يجب أن ننصحهم، يجب أن نرشدهم، يجب أن نحمل همومهم، يجب أن نبذل طاقتنا من أجلهم، هذا الذي يرتضيه الإيمان، أما الذي ينسحب من مجتمعه، من أمته، من وطنه ينسحب ويوالي الطرف الآخر فهو قد خرج من الإيمان، فلذلك أن يحب المرء لا يحبه إلا لله هذا هو الولاء والبراء، وأنا أرى أن الولاء والبراء فريضة ثالثة، فريضة، يجب أن توالي المؤمنين، أن تحبهم، أن تحمل همومهم، أن تسعد لما يسرهم، أن تتألم لما يؤلمهم، أن تجعل طاقاتك في خدمتهم، أن تسعى ولو بشكل بسيط إلى رفع شأنهم هذا علامة إيمانك، أما إذا انسحبت منهم ولم تنتمِ إليهم، ونظرت إليهم من فوق، واتهمتهم بالتخلف والضياع، وواليت أعداءهم، وأعنت أعداءهم عليهم وجعلت علمك في خدمة الطرف الآخر، فهذا مما يرقد إيمان المؤمن فالحب في الله أن تحب المؤمنين، الحب في الله أن تحب رسول الله فرع من محبته، وأن تحب المؤمنين، وأن تحب نشر هذا الدين، وأن تحب الأعمال الصالحة، هذا حب في الله عين التوحيد، لا يتناقض الحب في الله مع حب رسول الله، بدليل أن الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة الآية: 62)

بضمير المفرد، لأن إرضاء الله عز وجل عين إرضاء رسول الله ، ولأن إرضاء رسول الله عين إرضاء الله، فأن يكون الله ورسوله أحب إليه البند الأول، أما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله هذا هو الولاء والبراء.

الأستاذ عدنان:

قبل أن ننتقل إلى هذه الناحية دكتور، هناك ناحية أشرت إليها، وما سوف نتعرض لها ضمن هذا الجملة الاعتراضية، إن صح القول، لا تنطبق عليه البنود التي تحدثت عنها من صدق الإيمان، وصدق المحبة، وإلخ.... نحن في المجتمعات التي نعيشها هناك المؤمنون، هناك الشاردون، هناك المنكرون، يأتي الإنسان المسلم يقول: أنا أتعامل مع الجميع في حكم الحياة الاجتماعية، وقد تربطني مع فلان الشارد محبة قلبية، وفي الأصل هي علاقة عمل، ولكن توسعت إلى محبة قلبية، أما علاقتي مع فلان الآخر فهو دائم الارتباط بالأقوال الإسلامية، هنا وأود أن أقول: بالأقوال الإسلامية أتعامل معه، ولكن من بعيد لبعيد كما يقولون، أين الموضع:

((وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ))

يعني في الحياة الاجتماعية نعيش هذا الواقع حتماً.

الأستاذ راتب:

الحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال دقيقة جداً، ذلك أن للإنسان فطرةً، لو أنه عامل إنساناً، ولم يكن منه، أو من عقيدته، أو من جبلته، لكن عامله فوجده صادقاً، أو وجده وفياً، أو وجده مخلصاً، ينبغي أن يحبه، هذا الحب لا علاقة له بهذا الموضوع، هذا حب فطري، لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فأنا كإنسان ومؤمن أعرف أن محبتي للمؤمنين، ولكن هناك فرع من هذه المحبة للكاملين، فلو أنني عاملت إنسان لا ألتقي معه في عقيدتي، ولكن وجدت منه وفاء، وجدت منه صدقاً مثلاً، فأنا أميل إليه بطبعي بأصل فطرتي، فهذا الميل لإنسان متمسك ببعض القيم الأخلاقية هذا شيء ينطبق على الفطرة، ولا ألام عليه، أنا لا أحبه لشيء آخر، أحبه لمواقف أخلاقية وقفها مني، فأنا أحبه، وهذا يؤكده هذا الأثر: " يا داوود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ".

حينما يقول الله عز وجل:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: 7)

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة الآية: 8)

فهذا فرع جزاك الله خيراً، وإشارتك مهمة جداً، إنني قد أحب إنساناً آخر لأنه وقف موقفاً أخلاقياً، أو وقف موقفاً معتدلاً أو كان منصفاً، فأنا أحبه، لكنني أنا أرى أن هذا الأخلاقي الصالح مادام وقف هذا الموقف، الله عز وجل يقول:

(وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196))

(سورة الأعراف)

فأنا أرجو له في المستقبل أن يعيده الله إليه، وأن يلهمه سواء السبيل، وأن يلهمه رشده، لذلك عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ))

[متفق عليه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيلَ

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

أنا أرى أن الإنسان حينما يكون قبل أن يصطلح مع الله إذا كان على خلق، فهذا يرجى منه الخير، الإمام ابن القيم يقول: " الدين كله خُلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين "، فأنت حينما ترى إنسانًا ليس يعتقد كما تعتقد، وليس يؤمن بما تؤمن، ولكنه على شيء من أخلاق، أنا أرجو له من أعماق قلبي الهداية لأن الله يأخذ بيده إن هو صالح، ولكن حتى أكون دقيقًا وموضوعيًّا هناك نمط آخر، هو أنني أستخدم القيم الأخلاقية كرأس مال بتجارتي، فقد أنضبط في مواعيدي، وبنوع بضاعتي من أجل أن أنتزع ثقة الزبائن، هذا خلق تجاري، لا ينتمي إلى خلق الديني الذي هو عبادة، لكن بالمناسبة ما أحسن من عبد مسلم أو كافر إلا وقع أجره على الله في الدنيا أم في الآخرة، العمل الصالح له أجره، أما المؤمن ينال أجر الدنيا والآخرة، والطرف الآخر ينال الدنيا لأنه أرادها فقط، ولم يريد الآخرة.

البند الأخير:

((وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ))

هو في الأعماق، هناك حالة أخرى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)

(سورة الحج الآية: 11)

أي مادامت الأمور ميسرة فهو يعبد الله، فإذا جاءه ما يزعجه، فإذا امتحنه الله، فإذا ابتلاه الله بشيء انتكس وعاد إلى ما كان عليه، هذا يعبد الله على حرف، لكن المؤمن من علامة إيمانه القوي، ومن حلاوة الإيمان التي ذاقها يعني مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعود كما كان قبل هدايته لله عز وجل.

إنسان كان غارقاً في وحول، في مياه آسنة، في مياه المجاري، خرج من هذه البركة كلها مياه وحول، ومياه مجارٍ، ومياه آسنة، ودخل إلى الحمام واغتسل، وانتعش، وتعطر، هل هناك بالواحد بالمليار رغبة أن يعود كما كان ؟ مستحيل، ذاق حلاوة الإيمان، ورضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، والذي يشد الإنسان إلى الإيمان معاملة الله له، هو يشده إلى الإيمان ما في الإيمان من تصورات رائعة عن الكون والحياة والإنسان.

ولكن هناك شيء آخر، حينما اصطلح مع الله وجد من الله معاملة لم تكن من قبل، وجد التوفيق، وجد السداد في أقواله وفي أفعاله، وجد حلاوة الإيمان، وجد قلبه منتعشاً بذكر الله، تعامل مع الله، كل هذه الأحوال الجديدة جاءته بعد أن اصطلح مع الله، فلذلك مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعود في الكفر، الإيمان الحقيقي يملك الإنسان شيئاً ثميناً، حتى أن أرى أن دوافع المؤمن للاستقامة على أمر الله هذه الحلاوة التي يجدها في نفسه يحرص عليها، ومن معاني رأس الحكمة مخافة الله هناك معناً آخر الخوف من الله، أن تخاف من أن تنقطع الصلة بينك وبين الله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 14 - 29 : خلق الإنسان ضعيفاً وهلوعاً 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

الإنسان في حياته بطبيعته ينظر إلى ما حوله يريد أن يجعل أشياء كثيرة تحت حوزته، وأن يبتعد عن أشياء كثيرة يمكن أن تكون خطراً عليه، وهذا أمر طبيعي في حياة الإنسان، وعندما يعتمد الإنسان على قواه الذاتية فقط يجد أنه في معزل عن أماني نفسه، لذلك يخاف من بعض الأشياء التي هي بجانبه، ويرغب في الأشياء التي هي أمامه، وقد لا يحصل على الأمن مما يخاف، ولا يحصل على ما يرغب به ليكون في حوزته، لذلك عندما يكون الإنسان قبل أن يتعرف إلى خالقه، وإلى أنه هو القوي، ومن ذا الذي يغلب الله ؟

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

يكون الإنسان على صفات متعددة، منها أن يكون عجولاً، إذ إنه يركض وراء ما يفيده في هذه الحياة، منها ما يكون من خلاله ضعيفاً، لأنه يخاف من أشياء كثيرة لا يقدر عليها، منها، ومنها، أشياء عديدة يمكن من هذا اللقاء أن نتطرق إلى الإنسان قبل أن يتعرف إلى الله تعالى، كيف تكون نفسيته، كيف يكون في الحيلة، كيف، كيف، أشياء كثيرة يمكن أن نتحدث عنها ؟

الأستاذ راتب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، هذا الموضوع دقيق وحساس، بمعنى أن الإنسان عرف نفسه عرف ربه، فالإنسان في القرآن الكريم وردت له صفات كثيرة، بل إن بعض العلماء يقولون: حيثما وردت كلمة الإنسان معرفة بأل فتعني الإنسان قبل أن يعرف الله، ونحن في هذا العصر نتجه بشكل صارخ لمعرفة دقائق الجسد، وهذا شيء طيب، ولكن هناك تقصير في معرفة دقائق النفس، وإذا أردنا أن نتعرف إلى دقائق النفس فمن هي الجهة التي ينبغي أن نصغي إليها ؟ هي الجهة الصانعة، إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وهو خبير به، وقد قال الله عز وجل:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضله الله على خلقه، فنحن في القرآن الكريم أمام آيات كثيرة، والحقيقة هذه الآيات تتحدث عن الإنسان قبل أن يعرف الله تقترب من سبعين آية، ولكن في هذا اللقاء الطيب إن شاء الله سوف نقف عن بعض الآيات المتعلقة بنقاط ضعف في أصل خلق الإنسان، ولكن هذه النقاط الضعيف هي لصالحه .

أريد أن أوضح هذا بمثل: آلة غالية جداً عظيمة النفع، دقيقة في تركيبها، يضع المصنع فيها وصلة ضعيفة كهربائية، تسمى باللغة الدارجة (الفيوز)، هذه الوصلة هي نقطة ضعف في الآلة، لكن لو التيار إذا اقترب نصون الآلة من العطب والعطل، كما أن هذه الآلة غالية جداً نخشى عليها من العطب نضع لها وصلة ضعيفة، فإذا جاء التيار عالياً جداً ذابت هذه الوصلة، وانقطع التيار، و بقيت الآلة سليمة .

كذلك الإنسان في أصل خلقه نقاط ضعف، قطعاً هي لصالحه، فالله عز وجل يقول:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

(سورة الإنسان)

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه إلى الله، فيسعد بافتقراه ، ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته، فشقي باستغنائه .

نحن عندنا تجربه، في السيرة النبوية أصحاب النبي عليهم رضوان الله في بدر افتقروا إلى الله، وقد قال الله عز وجل:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123))

(سورة آل عمران)

أذلة بمعنى مفتقرين إلى الله، أما في حنين فكانوا كثرة، وكانوا أقوياء، فقالوا، لعله قول في أنفسهم ! لن نغلب من قلة، فقال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25))

(سورة التوبة)

كأن في حياتنا درسين بليغين، درس بدر، ودرس حنين، في بدر افتقر الصحابة إلى الله، فنصرهم الله عز وجل، أما في حنين فاعتدوا بعددهم الكثير، فتخلى الله عنهم، معنى ذلك أن الإنسان بين التخلي والتولي، فإما أن تقول: أنا، يعتد الإنسان بعلمه، أو بنسبه، أو بماله، أو بقوته، أو بخبراته المتراكمة، وكلما جلس في مجلس يقول: أنا وأنا، أساساً قال قارون:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص الآية: 78)

وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(الزخرف الآية: 51)

قال قوم بلقيس:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل الآية: 33)

وقد قال علماء التوحيد: أربع كلمات مهلكات، أنا، ونحن، ولي، وعندي، فحينما يعتد إنسان بخبراته الصحيحة المتراكمة، بنسبه، بقوته، بمن حوله، بماله، يتخلى الله عنه، النقطة الدقيقة جداً أن الله عز وجل خلق الإنسان، وكلٌّ يسير وفق أسباب، ولكن الإنسان الجاهل يتوهم أن السبب هو الذي يخلق النتيجة، بينما الموحد يرى أن خلق النتيجة تحتاج إلى مشيئة الله عز وجل، أنا آخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم أتوكل على وكأنها ليست بشيء، من السهولة بمكان أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها، وأن تؤلّهها، وأن تستغني عن الله، كشأن بلاد الغرب، ومن السهل جداً كما هي حال المسلمين، ألا تأخذ بها إطلاقاً، وأن نتوكل على الله توكلاً لا يرضاه عنا، توكل الجاهل، بالعكس هناك من يسميه التواكل، فسهل جداً ألا نأخذ بالأسباب، وندعي أننا نتوكل على الله، وأن نأخذ بها، وأن نعتمد عليها وأن نؤلّهها، وأن ننسى الله عز وجل، وأن ننسى الله عز وجل، كلا الطريقين خاطئ، البطولة أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء .

عندنا مثل منتزع من حياة الإخوة الكرام المشاهدين، عندك سفر طويل، يجب أن تراجع مركبتك مراجعة تامة، هذه المراجعة أخذٌ بالأسباب، لكن لا يكفي أن تراجع المركبة، وأن تضمن السلامة، لا بد من أن تسأل الله السلامة والحفظ .

فهذه نقطة دقيقة، كأن الإنسان يمشي في طريق، عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، فإذا أخذ بالأسباب، واعتمد عليها وقع في وادي الشرك، وإذا لم يأخذ بها وقع في وادي المعصية، الكمال أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على، وكأنها ليست بشيء، الله عز وجل حينما قال:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)

أي خلقه ضعيفاً ليفتقر في ضعفه إلى الله، فيسعد بافتقاره، ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته عن الله فشقي باستغنائه ، والحقيقة أن الإنسان حينما يفتقر إلى الله، تأتيه خبرة خالق الأكوان، يأتيه حفظ خالق الأكوان، يأتيه علم خالق الأكوان، تأتيه الحكمة، يأتيه الدعم، الإنسان كائن ضعيف أقام صلة مع خالق الكون، فكل ما عند الله من خير، من قوة، من تأييد، من توفيق، من حفظ تأتي هذا الإنسان، فأنا ألخص

هذا الكلام بكلمتين، إن قلت: أنا، تخلى الله عنك، وإن قلت: الله، تولاك، فأنت بين التخلي والتولي، في التخلي في حنين، في التولي في بدر، معنا أصحاب رسول الله، وهم نخبة الخلق:

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[أخرجه الطبراني عن عمير بن سعادة]

ومع ذلك هذا الذي وقع في الشرك الخفي لا بد من أن يؤدّبه الله عز وجل، كائناً من كان، لذلك المؤمن يحصل المال، ولا يعتمد عليه، يحصل علماً راقياً، ولا يعتمد عليه ، يحصل مكانة رفيعة، ولا يعتمد عليها، لكنه يعتمد على الله .

أبلغ درس في هذه المناسبة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر أخذ بالأسباب كلها، هيأ رجلاً يأتيه بالأخبار، هيأ رجلاً يمحو الآثار، هيأ من يأتيه بالزاد، اختار خبيراً غلّب فيه الخبرة على الولاء، سار باتجاه معاكس لهجرته، اختبأ في غار ثور، أخذ بالأسباب كلها، وكأنها كل شيء، فلما وصلوا إليه لم يضطرب، هو متوكل على الله، قال أبو بكر: يا رسول الله لقد رأونا، قال:

((ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما))

[رواه البخاري ومسلم]

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بالسباب، واعتمد عليها، ثم وصلوا إليه لانهارت معنوياته، أما هو فأخذ بالأسباب تعبداً لله عز وجل، وقد يسأل سائل: إنه لما هاجر سيدنا عمر متحدياً المشركين، النبي عليه الصلاة والسلام هو الأحكم والأشجع، سيدنا عمر ليس مشرِّعاً، سيدنا عمر يمثل نفسه، فهو اتخذ هذا الموقف الشخصي، لكن النبي عليه الصلاة والسلام مشرّع، لو أنه هاجر كما هاجر عمر لعد اقتحامُ الأخطار واجباً، ولعد أخذ الحيطة حراماً، لهلكت أمته من بعده، النبي عليه الصلاة والسلام مشرع .

فالنقطة الأولى: أن الإنسان خلق ضعيف، ولا سمح الله ولا قدر، لو أن إنسان اطلع على تقرير طبي، عنده مشكلة كبيرة، تنهار معنوياته، خلق ضعيفاً، كيف يربيه الله عز وجل ؟

الأستاذ عدنان:

سيدي، أنت أشرت أصلاً في بدء هذا اللقاء أن كلمة إنسان عندما تأتي معرّفة بأل قال العلماء: إنها تشير إلى ضعف الإنسان، إلى طبيعة الإنسان، وهنا يمكن أن نقول: يسمي علماء اللغة هذا الألف واللام أل التعريف العهدية، هذا عهدنا بالإنسان، وعهدنا بالإنسان الاستمرار في صفته و شخصيته، وهو عليه، والضعف الذي تحدثت عنه ما هو إلا ضمن هذا العهد الذي نعرفه بالإنسان .

الأستاذ راتب:

هناك نقطة دقيقة أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، الإنسان حينما لا يأخذ بالأسباب هو لا يبالي بهذا النظام الدقيق في الكون، وكأن الخضوع لهذا النظام نوع من عبادة لله عز وجل وإذا خُرق هذا نظام للأنبياء لحكمة بالغة، كي يكون هذا الخرق شاهداً على أنهم أنبياء الله ورسله، هذا لا يخرق لمؤمن، فهذا الذي لا يأخذ بالأسباب هو يستهين بالنظام الإلهي، بالنظام الكوني، فبطولة الإنسان أن يتأدب مع هذا النظام . الإخوة

لكن هنا نقطة دقيقة جداً أتمنى أن تكون واضحة عند الإخوة المشاهدين، لو أن إنسانا يركب طائرة، وقد كفر بقانون السقوط، ولم يعبأ به، واستهزأ به، وحقره، ونزل من دون مظلة، ينزل ميتاً، استهزاء الإنسان بقانون السقوط، وعدم احترامه، وعدم المبالاة به وطعنه، لا يلغي مفعوله .

فأنا حينما أعتقد أن هناك أنظمة دقيقة جداً نافذة فيّ شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، قبلت أم لم أقبل، ينبغي أن أتأدب مع هذا النظام الدقيق، حتى في كل شؤون الحياة .

الأستاذ عدنان:

يا سيدي، أيضاً في هذه الناحية من الغريب، والإنسان يعلم هذا أن الذي وضع نواميس الكون هو الله تعالى، وأيضاً الله تعالى هو الذي أنزل القرآن الكريم، فلماذا يعمل الإنسان، أي إنسان إلى الرضوخ أمام نواميس الكون، لأنه لا يستطيع أن يخترقها أو يتحداها، ويعلم من طرف آخر أن القرآن الكريم من عند الله تعالى، ومع هذا يبتعد عنه في كثير من الأحيان، الإنسان عندما يكون عاقلاً يتعامل مع نواميس الكون وهي موجودة، فيا ليته كان عاقلاً أيضاً في الجانب الآخر، لكن الله تعالى أمهله ولا إهمال، أن يا أيها الإنسان خذ ما تشاء لتكون في النهاية محصلاً على الجنة، إنما خذ ما تشاء ليكون أمرك في النهاية حسب ما عملت . هناك

الأستاذ راتب:

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، هناك ملمح رائع جداً في بعض الأحاديث الشريفة يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

[رواه أبو داود، عن عوف بن مالك رضي الله عنه]

العجز أن تستسلم، ألا تعمل، أن تقول: هذا نصيبي في الحياة، هذا حظي، هذا قضاء وقدر، لا:

((إنَّ اللَّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ ـ أي التدبير ـ فإذَا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

أنا متى أقول:

((حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

؟ حينما أبذل قصار جهدي لدرء هذا الخطر فلا أستطيع، عندئذٍ أقول:

((فقُلْ حَسْبيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

أما إنسان فأمامه آلاف الخيارات، وبإمكانه أن يتحرك، وأن يدرس، وأن يسأل وأن يتابع، وأن يحصل خبرة، وأن يأخذ بالأسباب، ويقعد ويكسل ؟ هذا شيء صفة دميمة جداً، لذلك هذا يقودنا إلى إنني كنت أصنف الفقراء ثلاثة، أو أنواع الفقر ثلاثة، فقر الكسل، هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، فقر الكسل الإنسان لا يأخذ بالأسباب، ومن لم يأخذ بالأسباب فقد عصا، أما فقر القدر فإنسان معه عاهة، هذه عاهة تحول بينه وبين كسب الرزق، فكسب القدر صاحبه معذور، لكن فقر الكسل صاحبه مذموم، بينما فقر الإنفاق صاحبه محمود .

الأستاذ عدنان:

قبل أن نتابع هذه الناحية دكتور، هل يمكن لمتسائل أن يقول: فقر الكسل، هل يتعارض هذا مع كون الله تعالى كتب لكل إنسان رزقه ؟

الأستاذ راتب:

الحقيقة أن الرزق يزيد وينقص، وهذا موضوع دقيق جداً يزيد بالاستقامة .

(وَأنْ لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف الآية: 96)

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

(سورة نوح)

فالاستغفار يزيد الرزق، والإيمان والاستقامة يزيد في الرزق، ثم إن صلة الرحم تزيد في الرزق، ثم إن الصلاة تزيد في الرزق .

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132))

(سورة طه)

ثم إن الأمانة تزيد في الرزق، الأمانة غنى، هناك آيات وأحاديث عديدة تصل إلى عشرة بنود، كيف أن الرزق يزيد وينقص، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل الرزق والصحة أحد عنصرين من أجل تربيتنا، فقد يؤدب الله إنساناً برزق، وقد يكافئه برزق، هذا شيء وردت فيه آيات كثيرة وأحاديث، الرزق يزيد وينقص، ولكن يزيد بالإتقان .

النبي عليه الصلاة والسلام دفن أحد أصحابه، فالذي حفر القبر ترك فرجة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه لا تؤذي الميت، ولكنها تؤذي الحي))

[ورد في الأثر]

و

((إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

فالإتقان له علاقة بالرزق، والاستغفار له علاقة بالرزق، وصلة الرحم لها علاقة بالرزق، وإقامة الصلاة في البيت، البيت ليس قبراً، البيت مكان يذكر الله فيه، له علاقة بالرزق، والإيمان له علاقة بالرزق،

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

والاستقامة لها علاقة بالرزق، فإذا أقام أهل الكتاب كتابهم لجاءهم الرزق من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة الآية: 66)

ولو أن المسلمين أقاموا القرآن لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، هناك أشياء ثابتة جداً في الحياة، شروق الشمس ثابت، غروبه ثابت، الله عز وجل خلق ملايين الأشياء، كي نستريح، كي نطمئن، كي تستقر الحياة، كي ينتظم الكون، كي نعرف القوانين، لكن حرك أشياء عديدة، منها الرزق والصحة، فلعل الله سبحانه وتعالى يؤدب عباده بصحتهم إذا، انحرفوا بدليل أن عز وجل حينما يقول:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80))

(سورة الشعراء)

فالإنسان أحياناً يخالف المبادئ العامة، أو يكون بكما يقال بلغة العصر (أخطاء عامة)، المعلبات مثلاً، الجو ملوث، هناك أخطاء في هذا العصر، هذه تسبب بعض الأمراض، الإنسان أحياناً يغير خلق الله، يخترع أغذية كلها كيماوية، يغلب على الطب أن الأغذية كلها كيماوية، فإما أن يكون هناك خطأ في العصر، أو خطأ فردي، لكن الإنسان مصمم تصميمًا رائعًا، مصمم ألا يمرض في الأساس .

الأستاذ عدنان:

في بعض الأحيان دكتور إن كان الإنسان مصمماً من أجل ألا يمرض، هناك في جسم الإنسان أشياء، أولاً: خلْقُ الإنسان كان في أحسن تقويم، لكن في جسم الإنسان ما لو شُلّ فيه شيء بسيط جداً لقضي على حياته، فما موضوع أن يكون الإنسان قد خلق في أحسن تقويم، مع أن في جسمه أشياء عديدة سريعة العطب .

الأستاذ راتب:

يا سيدي، عندك في غرفة الضيوف طاولة من أجل أنك إذا جاءك ضيف، وقدمت له ضيافة، فنجان قهوة، أو كأس شاي يوضع على هذه الطاولة، هذا الطاولة لو وقف عليها اثنان تتحمل، هي مصممة لفنجان قهوة، أو لكأس شاي، أو لكأس ماء فقط، لكن تتحمل 400 كيلو، إذاً ماذا نقول في هذه الطاولة ؟ فيها احتياط كبير جداً، فكان من الممكن أن يكون لكل عضو من أعضائنا، ولكل جهاز من أجهزتنا احتياطي كبير جداً، إذاً ليس هناك مرض، ولكن شاءت حكمة الله أن نكون سريعي العطب، لأن الله يؤدبنا عن طريق صحتنا ، كان من الممكن للإنسان ألا يمرض أبداً، إذا كانت هذه الطاولة نستخدمها عشرات السنين بل خمسين سنة، وهي سليمة، لأن احتياطها 200 ضعف، إذا وقف إنسان فوقها، أو وقف إنسانين وزنهما مثلاً150 كيلو، الفجان وزنه 200 غرام فرضاً، ففيها احتياط كبير، كان من الممكن بكل شيء بالإنسان احتياط غير معقول إذاً ما في مرض، ولكن المرض أحد الوسائل الفعالة في تربية الإنسان، الإنسان حينما يمرض يقترب من الله، الإنسان حينما يمرض تفتح له نافذة إلى السماء، الإنسان حينما يمرض يشعر بضعفه، الإنسان حينما يشعر بضعفه يلتجئ إلى ربه، يعني كيف يكون لهذا الإنسان أن يلتجئ إلى الله وهو قوي، الإنسان قبل أن يعرف الله .

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

إذا استغنى عن الله عز وجل يطغى، وكلّ شيء بيد الله عز وجل، الإنسان يدعو الله في الطائرة أحياناً، أو في الباخرة، لكن بيته المبني من إسمنت مسلح، هذا قد يهتز في ثوانٍ، ويصبح:

(قاعاً صَفْصَفاً (106))

(سورة طه)

فالضمان أن تكون مع الله، والإنسان حينما يكون مستقيماً على أمر الله يشعر أن الله سبحانه وتعالى يحفظه .هناك نقطة دقيقة جداً، عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

أسلوب الحوار أسلوب رائع من أساليب النبي في الدعوة، الآن دققوا أيها الإخوة المشاهدون، الآن قال له ـ

((يَا مُعَاذُ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه]

سبحانك يا رب ما أكرمك، أنشأت لنا حقاً عليك .

أنت حينما تتعرف إلى الله تستقيم على أمره، أنشأ الله لك حقاً عليه، الذات الكاملة، الإله المطلق أنشأ لك حقاً عليه، بل هؤلاء الذين قالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية: 18)

الله عز وجل ما قبل دعواهم، ولو قبل دعواهم لما عذبهم، الدليل:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

الآن لو أن المسلمين قالوا نحن أمة محمد، الجواب:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

لذلك لما تقرأقوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

فهناك أسئلة كبيرة تنشأ حينما تقرأ هذه الآية، حلت القضية بالمقولة التالية، أمة محمد أمتان، أمة الاستجابة، وأمة التبليغ،

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

إذا استجبتم لله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 24)

هذه أمة الاستجابة هي خير أمة أخرجت للناس، والدليل أن هذه الخيرية لها علة

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

أما إن لم نستجب فنحن أمة التبليغ،

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

ما لكم ولا ميزة، هذا كلام فيه عدل، وفيه حث على طاعة الله عز وجل، فالإنسان حينما يدل بمكانته عند الله من دون عمل، من دون استقامة، من دون التزام، هذا كلام فارغ لا يؤخذ به .

قبل أن يموت، وفي بعض الروايات أن النبي ألبسه هذا الذي طلب قميص النبي بنفسه قميصه، فلما مات، قال: الآن استقر في جهنم حجر كان يهوي به سبعين ، والرواية تقول: إن النبي ألبسه بنفسه كان خريفاً، الذي لبس قميص النبي منافقاً، فيقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عن أم سلمة]

نرجو الله تعالى أن نكون من عباده الذين علموا ضعفهم، وعلموا أنهم قد خلقهم الله، وفيهم كما ذكرت نقطة ضعف دائماً تذكرهم بالله تعالى، إن وقعوا بالضعف وآثاره ذكروا الله تعالى، والتجئوا إلى القوي، ومن ذا الذي يغلب الله،

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

الأستاذ راتب:

كلمة أخيرة صغيرة، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 15 - 29 : خلق الإنسان ضعيفاً وهلوعاً 2 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-06-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

دكتور، في حلقة سبقت تحدثتم عن الإنسان ضعفه، عجلته، كيف يكون هلعاً، كيف تكون عنده بعض نقاط ضعف هي لمصلحته، مع أنه يمكن أن يتصورها في بعض الأحيان إن لم يكن معتمداً على الله لبعض أمور تقصيرية، إنما في الحقيقة هي لذات الإنسان لتذكره بأن الله تعالى هو الذي يحمي من يلتجئ إليه، فإن فقد نقاط الضعف هذه، أو لم تكن في ذاته فإنه يمكن من خلال قوته أن يستغني عن الله تعالى، والاستغناء عن الله تعالى يورثه الشقاء في الحقيقة، إذ مهما عظم الإنسان أو قوي أو تجبر فإن الله هو الغالب على أمره، والله تعالى هو الذي يقهر عباده بالموت، ولا يستطيع إنسان أن يتخطى نواميس الكون الذي أرادها الله تعالى أيضاً .

نتابع معكم فيما يتصل بضعف الإنسان، والإنسان عندما يكون بعيداً عن الله تعالى كيف يكون، وعندما يتقرب إلى الله تعالى وإن كان ضعيفاً فإن الله يبدله بضعفه قوة، وإن كان في الأصل متعجلاً يبدله الله تعالى عن هذا برَوِيّة وهدوء، وإن أصابه ما يصيبه في الحياة فإنه يتلقاه بشكر ورضًى في الأحوال كلها، شكر في النعم، ورضًى في الضراء، ويبقى معتمداً على الله تعالى في كل الأحوال، نتابع معكم .

الأستاذ راتب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

ذكرت في حلقة سابقة كما تفضلتم أن هذه النقاط نقاط الضعف هي لصالح إيمان المؤمن، ولصالح مستقبله الأخروي، ولصالح سعادته الأبدية، فالإنسان صاحب النظر البعيد يرى أن هذه الأشياء لصالحه، بل إن بعض العلماء يرى أن النعم نوعان، نعم ظاهرة معروفة مألوفة، ونعم باطنة هي المصائب، فالإنسان كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

ما معنى هلوع ؟ القرآن فسر الهلوع، قال:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21))

(سورة المعارج)

يعني أن الإنسان لا يحتمل المصيبة، يفرُق منها، تضعف قواه عن تحملها، فهذا الإنسان هذا شأنه، لأنه خلق كما قلنا في حلقة سابقة ضعيفاً،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

الله عز وجل كيف يؤدب هذا الإنسان ؟ لأنه لا يحتمل المرض، لا يحتمل الفقر، لا يحتمل القهر، لا يحتمل الذل، بنيته النفسية لا تحتمل، بنيته النفسية شديدة الجزع .

حدثني أخ كان في طائرة أوشكت على السقوط، هو مضيف الطائرة، وصف لي وضع الركاب بشكل مهيب، الهلع، والجزع، والبكاء، والصراخ، والعويل، وأراد أن يسكتهم، أو يدعوهم إلى السكينة فلم يجد أحداً يسمعه إطلاقاً، لكنه توسم خيرًا في واحد هادئ، اقترب منه فإذا هو مغمًى عليه،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

لو أن الإنسان لا سمح الله ولا قدر وجد في تقرير صحي أن فيه ورمًا خبيثًا، يكاد يبرك، فإن الإنسان خلق هلوعا، وهو حريص على رزقه، حريص على صحته، حريص على سعادته، لكن في الناحية الدقيقة جداً أن الإنسان في أصل فطرته يحب ذاته، يحب وجوده، يحب سلامة وجوده، يحب كمال وجوده، يحب استمرار وجوده، من أين يأتي الشقاء ؟ من نقص العلم .

في حلقات سابقة ذكرت مثلاً لا بد من ذكره الآن، إنسان يتجه بمركبته إلى حمص في أيام الشتاء القارصة، والثلوج متراكمة في الطرقات، في ظاهر دمشق رأى لوحة وضعتها إدارة المرور كتب عليها: " الطريق إلى حمص ليست سالكة بسبب تراكم الثلوج عند النبك "، أي إنسان عاقل، أو أي إنسان عنده حد أدنى من العقل يتوقف ويعود، لو أن دابة تمشي أين تقف ؟ إذاً الإنسان يحكمه النص والبيان، والإنسان عندما يعطل عقله يحكمه الواقع، لذلك قال الله عز وجل في معرض الحديث عن قول بعض الأنبياء:

(فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88))

(سورة يونس)

فالذي يخاف بعقله إنسان، والذي يخاف بعينه ابتعد عن مستوى الإنسانية، الذي يخاف بعقله إنسان، فالإنسان العاقل يحكمه النص، فالإنسان خلق هلوعا يخاف عند الخطر، لكن من هو الأعقل ؟ الذي يخاف عند النص، الذي يخاف عند البيان، هذا الأعقل .

هذا مثل منتزع من واقع الحياة: الذي يمتنع عن التدخين بعد إصابته بالسرطان هذا إنسان عطل عقله، أما الذي يمتنع عن التدخين بعد قراءة العلمية، أو الحكم الشرعي في التدخين فهذا إنسان عاقل، ينبغي

أن تكف عن الشيء لا عندما يتفاقم الخطر، بل عندما يأتيك بيان في ذلك .

بالمناسبة أستاذ عدنان، جزاكم الله خيراً، الله عز وجل له أسلوب في تربية عباده، يبدأ بهم بالهدى البياني، وأنت صحيح قوي معافًى، في مكانة علية، ، تصغي إلىيأتيك القرآن، تستمع إلى القرآن، تستمع إلى حديث للنبي العدنان خطبة تلقى عميقة، تقرأ كتاباً، فالإنسان يبدأ الله معه بالهدى البياني، بيان، كلام، كلام يلقى عليك، كتاب تقرأه، خطبة تسمعها، موضوع يعالج أمامك، هذا الهدى البياني أكمل موقف فيه أن تستجيب إلى الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 24)

الإنسان إن لم يستجب يخضعه الله لمعالجة ثانية، التأديب التربوي:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

(سورة الروم)

فالإنسان حينما لا يستجيب للهدى البياني لا يستجيب للنص، لا يستجيب للبيان يعطل عقله، يخضع لشهوته ونزوته ومصلحته، ولا يعبأ بالمنهج الإلهي افعل ولا تفعل، هذا الإنسان عنده مشكلة، قد يقول الطبيب للمريض: إذا امتنعت عن هذه الأطعمة تعافى من مرض قرحة المعدة، أما إن لم تمتنع فلا بد من عملية جراحية، بالضبط، فهناك وسائل لو اتبعها الإنسان لنجا من عذاب الله، وهو في الدنيا، أما إن لم يتبعها، وركب رأسه، وأسرف في شهواته، وانحاز إلى مصالحة، ولم يعبأ بمنهج الله افعل ولا تفعل، عندئذٍ يخضعه الله لمرحلة في التربية جديدة، اسمها التأديب التربوي .

حينما حدثنا ربنا جل جلاله عن أصحاب الجنة:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20))

(سورة القلم)

أتلفت هذه المحاصيل كلها، في اليوم التالي:

(فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22))

(سورة القلم)

فلما رأوها دهشوا وصعقوا:

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26))

(سورة القلم)

ليست هذه مزارعنا، ثم تأكدوا أنها مزارعهم فقالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29))

(سورة القلم)

يعنينا من هذه القصة كلمة واحدة، قال الله عز وجل بعدها:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم الآية: 33)

يعني: يا عبادي، كل أنواع الشدائد التي أسوقها لكم في الدنيا من هذا النوع، كي تعودوا إلي، الإنسان حينما لا يستجيب للهدى البياني، بالنص، بالقرآن، بالسنة، بخطبة تلقى رصينة، بكتاب مفيد تقرأه، حينما لا تستجيب بالنص يخضع الإنسان إلى معالجة أقسى ـ بالسين ـ يعني فيها شدة، الآية الكريمة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

المرحلة الثانية أكبر موقف فيها أن تتوب إلى الله، فإن لم يتب الإنسان أخضعه الله لمعالجة ثالثة، لكن نسبة النجاح في الثانية كبير، أما في الثالثة فقليل، اسمه الإكرام الاستدراجي .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام)

إذا بين الله للإنسان الحقيقة والهدى فلم يستجب، ثم ساق له بعض الشدائد فلم يتب، الآن يخضعه للإكرام الاستدراجي، نسبة النجاح في المرحلة الثالثة ضعيفة جداً، فإن لم يشكر قصمه الله عز وجل،

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

فالبطولة أن تكون خاضعاً لله في المرحلة الأولى،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

فالإنسان خلق هلوعاً كي يؤدبه الله عز وجل، كي يستجيب له، أنا أؤكد لكم، وكأنني واثق من هذا التأكيد، أنك إذا دخلت إلى مسجد، ورأيت فيه المصلين، فاعلم علم اليقين أن 90% من هؤلاء جاؤوا عقب تأديب إلهي، التربية الإلهية نجحت .

مرة هارون الرشيد كان إذا نظر إلى سحابة يقول: اذهبي أينما شئت، فإنه يأتيني خراجك، أنا أردت أن أسحب هذه المقولة على شيء آخر، هذا الإنسان الشارد نقول له: اذهب أينما شئت، في النهاية لا بد من رجوعك إلى الله، في النهاية إلى المسجد، لأن الإنسان حينما يحس بالخطر يخاف، الإنسان حريص على سلامة وجوده، هذا في أصل فطرته، الله عز وجل خلقه هلوع،

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

كي يؤدبه، كي يعود إليه، كي ينيب إليه، كي يلجئه إلى بابه، الخير كله عند الله، فإذا عدنا إلى الله كان الله معنا، قال تعالى:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

للإنسان معمل حريص عليه، حريص على ما في يديه، من مال، من قوة، من خبرة، قد يمن بخبرته على أحد، قد لا يعلّم أحداً إذا كان صاحب مصلحة بالتعبير الشائع، وهو يكسب منها رزقًا كبيرًا لا يعلّمها لأحد، حريص على خبراته، حريص على مكتسباته، حريص على علمه، حريص على مكانته، حريص على منصبه حريص على ماله،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

الآن:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

المصلون مستثنون من هذا الضعف، المصلي اكتفى بالقوة العظمى، اكتفوا بالمطلق، اكتفوا بالحكمة المطلقة، اكتفوا بالقوة المطلقة، بالرحمة المطلقة، فاعتمد على الله عز وجل، الإنسان الشارد عن الله مع النعمة، بينما المؤمن مع المنعم، الإنسان الشارد عن الله كل أفقه في الدنيا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، لكن المؤمن أُفقه يمتد إلى أبد الآبدين، هو لماذا يتحمل كل متاعب الحياة ؟ لأن الله وعده بالجنة فقال سبحانه:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

فالإنسان موعود بجنة عرضها السماوات والأرض .

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

(سورة النساء)

سألني أحدهم سؤالا قبل يومين، قال: لي صديق عنده مشكلة، هل عندك دليل عقلي لا نقلي على أن الله يفي بوعده فيضع المؤمنين في الجنة، أنا طبعاً داعبته، قلت له:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

قال لي: هذه آية، أنا أريد دليلا عقليًّا، قلت له: لو أن إنسانًا تبرع بمئة مليون لأعمال البر، وإنشاء المساجد، ثم بلغك أنه سرق عشر ليرات هل تقبل هذا ؟ قال لي: أبداً، قلت له هذا الدليل العقلي . إله عظيم مطلق في قدرته، في قوته، في حكمته، في كماله، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، إذاً:

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

لماذا نرقى نحن إذا أنفقنا المال ؟ لأن الله حبب إلينا المال .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

فالشيء المحبب نظن به ونبخل، هذا في أصل فطرتنا، هذا في أصل بنيتنا، هذا في أصل جبلتنا،

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

لكن هناك فقرة دقيقة جداً في هذا الموطن، لو قلت: إنسان، هذه الكلمة تغطي كم ؟ تغطي ستة آلاف مليون، لو أضفت كلمة واحدة، إنسان مسلم، تغطي مليارًا ومئتي مليون، أضف كلمة ثالثة، إنسان مسلم عربي، تصبح أربعمئة مليون، ينزل، كلما أضفت صفة تضيق الدائرة، إنسان مسلم عربي مثقف، قد يكون مئتي ألف، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب، كلما تضيف كلمة تضيق الدائرة، الآن نحن حتى لا نتوهم أن أي إنسان صلى أخذ ميزات هذه الآية،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35))

(سورة المعارج)

وليس كل مصلٍّ يصلي .

الأستاذ عدنان:

يمكن أن يقول قائل: إن الله تعالى قد ضيق علينا الدائرة الواسعة أصلاً إلى أضيق وأضيق وأضيق، حيث لن يبقى لنا شيئاً .

الأستاذ راتب:

أرادك أن تصلي صلاةً حقيقية، أرادك أن تنهاك عن الفحشاء والمنكر، الحديث القدسي: قال الله عز وجل:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة نورا، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

أستاذ عدنان، عندنا في النصوص شيء دقيق جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((أعْلَمَنَّ أقْوَاماً مَنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، بيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

إذاً:

((ليس كل مصل يصلي))

النبي الكريم سأل أصحابه مرةً من المفلس ؟ فكروا في الإجابة عن هذا السؤال بحسب الواقع، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ لَمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[رواه مسلم]

أستاذ عدنان، العبادات الخمس كل عبادة أحياناً تنقض، الإنسان إذا ذهب إلى حج بيت الله الحرام، وكان ماله حراماً، ووضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، ينادى أن لا لبيك، ولا سعديك، وحجك مردود عليك .

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة)

حتى لو أن الإنسان أنفق ماله وهو غارق في المعاصي والآثام، غير مقبول ذلك، الالتزام يجب أن يكون كاملا، الآن حتى الصيام، فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أنْ يَدَعَ طعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري]

الله عز وجل قال:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

من هم المصلون ؟ الملتزمون بأمر الله ونهيه، الذين نهتهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، الذين عقدوا مع الله صلة في صلاتهم، الذين طهرت قلوبهم من الأغلال والأدران، الذين سمت نفوسهم إلى الواحد الديان، فالصلاة التي أمرنا الله بها أنا أتصور أنها غير هذه الصلاة التي يؤديها المسلمون، وهم في انحراف، أو في تقصير، أو في خروج عن منهج الله عز وجل .

الأستاذ عدنان:

يا سيدي، هذه الناحية أيضاً في الأصل ذكرتني بشيئين اثنين، أولاً: كما قلت، هل هذه هي الصلاة المطلوبة ؟ ثانياً: قبلها كنتَ تحدثت أن الإنسان الذي نجده يأتي إلى المسجد، ويصلي إذا ما سألناه، ترى ماذا حدث معك من أشياء تذكرك بالله ؟ تارةً يقول: حادثة، وتارةً يقول: حلم، وتارةً يرى شيئاً يعجب أمامه، ورابعاً: يخاطب نفسه في بعض الأحيان، يتأمل في شيء عظيم مِن صنع الله، أشياء عديدة يمكن وهي من حوله باستمرار أن تدعوه ليكون متقرباً إلى الله تعالى، أما الناحية الأولى، وهي في مرتبتها زمن، ذكرتها ثانياً، موضوع الصلاة، نحن الآن في كثير من الأحيان بعد فراغه من صلاته يمكن أن يصف لك ما حدث إلى جانبه، مع أنه بين يدي الله تعالى، على حين كنا نسمع عن السلف الصالح، وهذا ليس مبالغة، ولا تأليفاً غير صحيح، كان إذا ما وقف أحدهم في صلاته وسجد يحط الطائر على ظهره مدة، ولا يتحرك، لماذا ؟ لأنه مستغرق في صلاته، كان يقع عمود جسر في مسجد، وكان الإنسان يصلي فيه فيسمع صوت الارتطام كل من حول هذا المكان، ولا يسمعه هذا المصلي .

عروة الذي كان لا بد له من إجراء عملية جراحية في إحدى أطرافه، قال: إذا ذكرت الله، ورأيتموني قد استغرقت فما أردتم فافعلوه، استغرق، وقطعوا له طرفاً، ولما شم في النهاية رائحة الزيت علم أنه قد انتهت العملية، وقال: الحمد لله أن أخذتَ لي طرفًا، وأبقيتَ لي أطرافاً .

هذه الناحية هي التي يمكن ومعها تضيق الدائرة كما تحدثت في موضوع الدوائر، هذه هي الناحية المطلوبة، ولكن الإنسان مع أن الدوائر تضيق يسعد بها أكثر بكثير، ويجد اللذة بها أكثر بكثير ممن يمتلك الدوائر العريضة .

الأستاذ راتب:

هذا الفرق بين أرحنا بها وأرحنا منها، هذا الفرق بين الحب والواجب، هذا الفرق بين إنسان انعقدت له مع الله صلة، وإنسان يؤدي حركات الصلاة لكنه لا يصلي، الحقيقة أنا أرى والله أعلم أنه حينما ضعفت معرفتنا بالله عز وجل، ونمت معرفتنا بأمره هذه المفارقة هي وراء هذه الظاهرة المرَضية في الصلاة، فأنت حينما تعرف الآمر، ثم تعرف الأمر، تتفانى في طاعة الآمر، فإذا تفانيت في طاعة الآمر أقبلت عليه .

مثلاً، جندي التحق بالخدمة الإلزامية لتوه، أقل مرتبة له في الجيش اسمه الجندي الغر، هل يستطيع هذا الدخول على اللواء بلا إذن ؟ مستحيل في الأنظمة العسكرية في العالم كله، هناك تسلسل طويل، بينه وبين اللواء عشرات الرتب، لكن بحالة واحدة يدخل عليه بلا إذن، لو رأى ابنه كاد يغرق فأنقذه، يدخل عليه بلا إذن، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية: 110)

أنت حينما تعمل عملاً صالحاً لخدمة خلق الله تسعد، لأن:

((الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[رواه الطبراني وأبو النعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود]

أنت حينما تكون في خدمة الخلق لا تكذب عليهم، لا تحتال عليهم، لا تبتز أموالهم، لا ترهقهم، لا تهينهم، أنت حين تنصحهم وتخدمهم، وتقدم لهم كل ما عندك إرضاء لله عز وجل فالطريق إلى الله سالك .

الأستاذ عدنان:

دكتور، أيضاً هنا يمكن أن يطرح السؤال التالي: مع أن الإجابة عليه يمكن أن تكون طويلة، لكن يمكن أن نعطى لها عنوانًا فقط، قد يقول قائل: طيب، نحن في حياتنا هذه، في الزمن المتأخر عن زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته، وكلما تأخر زمان تضعف هذه النواحي التي تذكرنا بها، فهل لنا من واقعنا ما يشفع لنا في تقصيرنا ؟ أو أنه لا بد من وجود الإنسان الذي تحدثت عن صفاته

الإيمانية، والتي يتقرب من خلالها إلى الله تعالى، فإذا وقع عمود وهو في صلاته لا يشعر، ولا يسمع صوته، وإذا حط الطائر على ظهره من طول سجوده، وهو مستغرق في دعائه، وموضوع أرحنا بها يا بلال، وأرحنا منها، وهذا الفارق الذي تحدثت عنه، ترى هل يشفع تأخر الزمن بالنسبة لنا عما تحدثت، أم لا بد من وجده أيضاً ؟ الإجابة أرجو أن تكون عنواناً .

الأستاذ راتب:

الاستقامة حدية، والبذل نسبي، الاستقامة حدية، هناك شروط أساسية لضرب حقنة لمريض يطيقها أعلى طبيب في الأرض وأقل ممرض، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، في أمور الاستقامة، الاستقامة حدية، لا تزيد ولا تنقص ولا علاقة لها بالتطور، بينما الأعمال الصالحة لها علاقة بالظروف والبيئات، فالأعمال الصالحة التي فيها بذل هذه نسبية، بحسب إيمان الإنسان، بحسب العصر، بحسب الحاجات، بحسب الظروف، أما الاستقامة فلا تستطيع في أي زمان أن تأكل حق امرئ، وأن تكذب، ولا أن تحتال، فالاستقامة حدية، والعمل الصالح نسبي، هذا الجواب الدقيق، دائماً الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

(سورة التوبة الآية: 119)

كأنه يقول: ولكنكم لا تستطيعون إلا:

(وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119))

(سورة التوبة)

فلابد لك من بيئة صالحة، من بيئة تذكرك بالله عز وجل، أما حينما ينسلخ الإنسان من المؤمنين، ويعيش مع الشاردين يصعب عليهم أن يستقم .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 16 - 29 : العلم بالله وبأمره وبخلقه 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

كل ما يمكن أن يُتحدث عن الإنسان تجد نفسه ضائعاً، ذلك إذا كانت الجنة، إذا أراد الإنسان وصفها بأي وصف فإنها تنفر من أي وصف، لأنها فوق أي وصف، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فما يتصل بالله تعالى هو أكثر من ذلك وصفاً وأدق، لا يستطيع الإنسان إلا أن يتحدث عن آثار خلقه، إلا عن الأشياء التي يراها أحياناً من قدرته تعالى، من هذه الأشياء التي يراه ومن الآثار التي يراها منعكسة أمام عينيك ما كان بسبب العلم، والعلم له إطارات واسعة، يمكن أن يكون الإنسان قد درس عن الله تعالى موضوع التوحيد، توحيد الألوهية والربوبية، يمكن أن يكون قد درس آثار قدرة الله تعالى مما في الكون من أشياء معجزة، ونواميس كثيرة، يمكن أن يدرس عن الله تعالى قدرته العجيبة، فهو الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، الآثار إذاً كثيرة، وما يريد الإنسان أن يتحدث عنه يبقى إطاره واسعاً كبيراً، لكن الحد الذي سوف نتناوله في هذه الحلقة بإذن الله ما يتصل بالعلم عنه، وبالعلم عن بعض الأمور المتعلقة بخلقه، أي بخلق الله تعالى للمكونات، ممكن أن نتناول هذا الموضوع.

الأستاذ راتب:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أستاذ عدنان، جزاكم الله خيراً، قبل أن نبدأ البحث لا بد من تعقيب لطيف على الحديث الذي تفضلتم به، وهو في السيرة، وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[أخرجه البخاري ومسلم و أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة]

هناك دائرة المرئيات، وهي محدودة، فالواحد منا يسافر إلى بضعة بلدان في العالم، لكن الذي يسمعه عن بلدان الأرض كثير جداً، نسبة المرئيات إلى المسموعات قليل جداً ، فالله عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ـ لكن دائرة الخواطر لا تعد ولا تحصى ـ ولا خطر على قلب بشر))

الإنسان في الأصل مخلوق للجنة، والبشر يمكن أن يقسموا إلى زمرتين لا ثالث لهما.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

(سورة الليل)

الحسنى هي الجنة، الذي يصدق أنه مخلوق للجنة يحرص حرصاً بالغاً على طاعة الله، ثم إنه يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، يعني اتقى أن يعصيه، وبنى حياته على العطاء لأنه صدق بالحسنى، الرد الإلهي أنه ييسره إلى ما خلق له من الجنة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

الزمرة الثانية: البشر طبعاً على اختلاف انتماءاتهم وأعراقهم وألوانهم ومذاهبهم ودياناتهم هم زمرتان، الزمرة الثانية:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9))

(سورة الليل)

كذب بهذه الجنة، كذب بأنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، آمن بالدنيا فقط، ولا شيء غير الدنيا.

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

(سورة الروم)

لأنه آمن بالدنيا، وآمن بالمادة، وآمن بالمتعة، إذاً هو مستغنٍ عن طاعة الله، الآن بين المؤمن وغير المؤمن بون شاسع، المؤمن بنى حياته على العطاء، يعطي من وقته، من ماله، من خبرته، من عضلاته، من جهده ليتقرب إلى الله لخدمة خلقه، بينما الذي لم يؤمن يبني حياته على الأخذ، المؤمن يعطي، والذي لم يؤمن يأخذ، لذلك حينما ألف بعضهم كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له تقديماً رائعاً قال له: " يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من زكيت سيادة العقل ونهنهت غريزة القطيع، يا من هيأك تفوق لتكون واحداً فوق الجميع، فعشت واحداً بين الجميع، يا من كانت الرحمة مهجتك، والعدل شريعتك والحب فطرتك، والسمو حرفتك، ومشكلات الناس عبادتك ".

شيء دقيق جداً أن هؤلاء البشر ستة آلاف مليون هؤلاء زمرتان، زمرة صدقت بالحسنى، أن هذا الإنسان هو المخلوق الأول عند الله، مخلوق للجنة، يقتضي هذا الإيمان أن يتقي أن يعصي الله، له منهج يسير عليه، هناك ضوابط، في حياته ممنوعات، في حياته مباحات، في حياته أوامر نواهٍ، إنسان يتحرك وفق منظومة قيم، وفق منظومة مبادئ، ويقتضي ذلك التقرب إلى الله عز وجل، إذاً بنى حياته على العطاء، الآن الله عز وجل ييسره لهذه الجنة، إما يلهمه الأعمال الصالحة، أو يمكنه من الدعوة إلى الله، أو يمكنه من أعمال البر.

الزمرة الثانية: آمنت بالدنيا، آمنت بالمادة فقط، آمنت بالشهوة، أعضاء الفريق الآخر جعلوا شهوتهم إلههم.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية الآية: 23)

هذا الذي أمن بالدنيا فقط، واستغنى عن الإيمان بالآخرة لا يجد حاجة إلى أن ينضبط، استغنى عن طاعة الله، ثم إنه بنى حياته على الأخذ، يرى بطولته في أن يعيش على أنقاض الآخرين، في أن يبني حياته على موتهم، في أن يبني عزه على إذلالهم، كما نسمع ونرى فيما يجري في العالم، فهذه الآية دقيقة جداً، إنها تفرز البشر على اختلاف انتماءاتهم إلى زمرتين، ولا ثالث لهاتين الزمرتين، هذا تعقيب سريع على ما تفضلتم به من الحديث الشريف الذي يروي النبي عن ربه:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

موضوع هذا اللقاء الطيب إن شاء الله قضية العلم، الإنسان هو المخلوق الأول رتبةً، ميزه الله بأن أودع فيه قوة إدراكية، فالإنسان حينما يعزف عن طلب الحقيقة وعن طلب المعرفة، حينما يعزف عن أن يعرف الذي خلقه، والذي كونه، ولماذا خلقه، الإنسان حينما يعرض عن طلب الحقيقة يهبط إلى مستوى لا يليق به، لأنه ما من صفة في الإنسان غير العلم والإيمان إلا وفي المخلوقات ما يفوقه بها، تصور أن أكبر عالم في الأرض في الزلازل لا يستطيع أن يتنبأ بالزلزال ولا قبل ثانية، إن بعض البهائم تتنبأ قبل ربع ساعة، ما من صفة في الإنسان إلا وفي المخلوقات ما يفوقه بها، لكن الإنسان متفوق في طلب الحقيقة، وفي معرفة الله عز وجل، فالإنسان حينما يلغي من حياته طلب العلم يهبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

فلذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: " إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أدرتهما معاً فعليك بالعلم ".

لكن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطيك شيئاً ".

وقيل: " يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل ".

فلمجرد أن تشعر أنك أحطتَ بالعلم فهذا عين الجهل، وفي العقيدة الإسلامية مقولة رائعة: " عين العلم بالله عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به "، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة الآية: 255)

إذا اتجه الإنسان إلى معرفة الله عز وجل يمكن أن يصل إليه، لا أن يحيط به، وفرق كبير بين أن أركب مركبة، واتجه بها إلى الساحل، هذه المركبة توصلني إلى الساحل، ولكنني لا أستطيع بهذه المركبة أن أغوص في عباب البحر، فأنا أصل إلى الله، ولكن لا أستطيع أن أحيط به.

إذاً العلم من اختصاص هذا الكائن الأول الذي خلقه الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان قبل حمل الأمانة، إذاً:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية: 13)

فالمسخر له أعظم عند الله من المسخر، فالإنسان الكائن الأول، ولو عرف الإنسان قيمته، وعرف أنه المخلوق الأول لذاب في محبة الله، والعمل من أجل التقرب إليه.

إذاً العلم هو الذي يميز الإنسان، ولكن هناك من العلماء من أعطى لهذا العلم بعض التبويبات، هناك علم بخلقه، الله عز وجل خلق المجرات، وخلق الشمس والقمر، وخلق الأرض ببحارها وبحيراتها، وبجبالها ووديانها، وصحاريها، وخلق الأطيار، وخلق الأسماك، وخلق النباتات، هذا كله خلق الله، لذلك هناك علم بالفلك، هناك علم بالنبات، علم بالحيوان، علم بالإنسان، علم الطب، هناك الفيزياء والكيمياء، هناك الجيولوجيا، هناك الجغرافيا، هناك الفيزياء النووية، هذه كلها علوم الأرض، هذه كلها من اختصاص الجامعات في العالم، كل هذه العلوم تبحث عن القانون، عن العلاقة الثابتة بين المتغيرات، وهذه العلوم تصل إلى أعلى درجة حينما تقلب أوصافها إلى علاقات رياضية، الهدف الأول لهذه العلوم الوصول إلى علاقات ثابتة بين المتغيرات، القانون ما فائدته ؟ إنه يعيننا على التنبؤ، قانون التمدد، المعادن تتمدد بالحرارة، فلو أننا لم نراع القانون في بناء البيوت لتتداعى البناء في الصيف، إذاً حينما نكشف هذا القانون يمكن نتنبأ بما سيكون فيما لو خالفنا، فهذه كلها علوم الأرض، العلم بخلق الله، يحتاج

إلى ما يسمى المدارسة، المدارسة كلمة جامعة في نشاطات عديدة، تحتاج ليكون لك أستاذ، تحتاج إلى أن تحضر محاضراته، تحتاج إلى كتاب، تحتاج إلى قراءة، تحتاج إلى مراجعة، تحتاج إلى مذاكرة، تحتاج إلى أداء امتحان، تحتاج إلى أن تعيد الامتحان، تحتاج إلى أن تنال شهادة، تحتاج إلى أن تنال ورقة عمل، فالحضور والدوام، والقراءة والمراجعة، والبحث والدرس، والرجوع إلى المراجع، والاستفسار من الأستاذ، ثم حفظ هذه المعلومات، ثم أداؤها في الامتحان، ثم نيل الشهادة، هذه العمليات المتعددة يمكن أن نلخصها بكلمة

((المدارسة))

، وعلوم الأرض تحتاج إلى مدارسة، ما هي المدارسة ؟ أو ما هدف هذه المدارسة ؟

أن يستقر في ذهن الإنسان مجموع هذه الحقائق، ومجموع هذه القوانين، ومجموع المشكلات، وكيف تحل، هذا هو العلم، لكن الذي يلاحظ أن الإنسان حينما يجمع هذه الحقائق، ويخزنها في ذاكرته، ويتفوق في الحديث عنها هذا الجانب عقلي فقط، أما جانبه النفسي فقد يكون على حالة لا ترضي، أما سلوكه فقد يكون على حالة لا ترضي، فهذا العلم، العلم بخلق الله يحتاج إلى مدارسة، ولكن نتائجه أنها لا تزيد على معلومات دقيقة محفوظة في دماغ هذا الإنسان.

يمكن أن نضيف إلى هذا العلم، العلم بأمر الله، هناك علم الفقه، وهناك علم أصول الفقه، وهناك تاريخ الشريعة، وهناك الفقه المقارن، وهناك أحكام الزواج والطلاق، أحكام العارية، وأحكام والحوالة والكفالة، هذه كلها معلومات أيضاً معلومات وأدلة شرعية، وعقلية، ونقلية، وفروع، وكتب، ومؤلفات، وجامعات إسلامية، وكليات شريعة، العلم بأمره أيضاً يقتضي المدارسة.

ولكن التركيز في هذا اللقاء الطيب على علم قلّمَا ينتبه الناس إليه، المدارسة ثمن مقدور عليه، وأيّ إنسان يتمتع بوقت فارغ، وعنده إدراك جيد، وأتيح له معلم كبير، وكتاب واضح، ومتفرغ، فهذا الثمن مقدور عليه، والنتائج أنه يتفوق في هذا الاختصاص.

ولكن العلم بالله شيء آخر، ثمن العلم بالله ليس المدارسة فقط، ثمن هذا العلم المجاهدة، فالإنسان حينما يتعرف إلى الله من خلال خلقه، ويتعرف إلى الله من خلال فعله، ويتعرف إلى الله من خلال كلامه، اصطُلِح على أن هناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، الآية العلامة الدالة على عظمة الله عز وجل، فهناك آية كونية كالشمس والقمر، والليل والنهار، والجبال، والماء، والأمطار والنبات، والطعام والشراب، كل شيء تقع عينك عليه من آيات الله الدالة على عظمته، بل إن هذا الكون بأكمله هو مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، آياته الكونية تدل عليه، الآن أفعاله تدل عليه، قد يقوي هؤلاء، يضعف هؤلاء، ينصر هؤلاء، لا يسمح لهؤلاء أن ينتصروا، هذه أفعاله، ولها حكمة بالغة، وحكمة ناصعة.

مثلاً من آياته الخلقية التكوينية أو الكونية، وقع تحت يدي قبل أيام بحث معنون بالغشاء العاقل، فالبحث لطيف جداً، لكن فيه آيات صارخة في الدلالة على عظمة الله عز وجل، المرأة حينما تحمل، وحينما تلد ينزل مع الجنين قطعة لحم دائرية على شكل قرص يسميها علماء الطب المشيمة، ويسميها عامة الناس الخلاص، حقيقة هذه المشيمة أنها مكان تلتقي به دورة دم الأم ودورة الجنين، الجنين له دورة دموية، والأم لها دورة دموية، هاتان الدورتان الدمويتان تلتقيان في المشيمة، والشيء الذي يلفت النظر أنه قد تكون زمرة دم الأم غير زمرة دم الجنين، الزمرتان مختلفتان، وتلتقيان، ولا تختلطان، زمرتان مختلفتان تلتقيان في المشيمة، ولا تختلطان، بين الزمرتين غشاء هذا الغشاء يقوم بوظائف يعجز عنها العلماء، بماذا يقوم هذا الغشاء ؟ هذا الغشاء ينتقي بحكمة بالغة من دم الأم ما يحتاجه الجنين، ينتقي البوتاس، المعادن، الفيتامينات، البروتينات، المواد الدسمة، السكريات بنسب دقيقة جداً تتناسب مع الجنين، بل إن هذا الانتقاء يتبدل يومياً، بحسب نمو الجنين، ما هذا الغشاء الذي يختار من دم الأم ما يحتاجه الجنين بحكمة بالغة، وبعلم بالغ، وبنسب دقيقة جداً، وهذه النسب متبدلة ومتطورة مع نمو الجنين ؟!

الأستاذ عدنان:

حتى إن حليب الأم يختلف تقريباً من رضعة إلى أخرى حسب متطلبات ونمو الطفل الرضيع.

الأستاذ راتب:

تأكيداً لما تفضلتم به فإن نسب الدسم في حليب الأم تتبدل في أثناء الرضعة الواحدة، فتبدأ الرضعة بـ 60% ماءً، و40 % دسما، في نهاية الرضعة تكون النسبة معكوسة 60 % دسمًا، 40 % ماء، في أثناء الرضعة الواحدة، لذلك هناك شعار تلتزم به كل معامل حليب الأطفال، " لا شيء يعادل حليب الأم".

فهذا الغشاء العاقل يأخذ من دم الأم ما يحتاجه الجنين، الآن إذاً هو جهاز هضم، هذه المشيمة جهاز هضم، ثم إنه يأخذ من دم الأم الأوكسجين، ويعطيه لدم الجنين كي يسهم هذا الأكسجين في خرق المواد الدسمة، إذاً هو جهاز تنفس.

ثم إن هذا الغشاء يأخذ من دم الأم المناعة التي تملكها، هذه الأم مرت بمناعات وتلقيحات، وخبرات في جسمها، محصلة هذه الأمراض التي أصيبت بها، ومحصلة اللقاحات التي تناولتها تشكل عندها مناعة، هذه المناعة تنتقل من دم الأم إلى دم الجنين عبر هذا الغشاء العاقل، هذا الغشاء العاقل له عمل معاكس،

الجنين ينمو، ويأخذ أوكسجين،، ويأخذ مواد دسمة، وهذه المواد احترقت، وأصبحت إما بناء أو طاقة، فنواتج هذا الاحتراق ثاني أوكسيد الكربون، نواتج هذا الاحتراق المواد السامة، نتائج هذا الاحتراق حمض البول، الغشاء العاقل ينقلها من دم الجنين إلى دم الأم، إذاً هذه المشيمة كليتان، المشيمة بالضبط جهاز تنفس، جهاز هضم، جهاز مناعة مكتسب، كليتان، الشيء الذي لا يصدق أن الأم قد تصاب بمرض في أثناء الحمل، فقد يكون مرضًا جرثوميًا، الغشاء العاقل لا يسمح لهذه الجراثيم التي في دم الأم أن تنتقل إلى الجنين.

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14))

(سورة المؤمنون)

شيء آخر، هذا الغشاء العاقل يقوم بدور البنكرياس، فهو الذي يفرز الأنسولين الذي يعين على حرق السكري في الجنين، بل إن هذا الغشاء العاقل له خاصة دقيقة جداً، وهي أنك إذا أدخلت إلى الجسم شيئاً غريباً يرفضه، وكم من عملية زرع كلية لم تنجح، لأن الجسم رفض هذه الكلية، الغشاء العاقل يستطيع أن يرسل مضادات تمنع رفض الجنين كائنًا غريبًا في جسم المرأة، ثم إن الغشاء العاقل يسهم في تهيئة الحليب في ثدي الأم التي توشك أن تلد، كل هذه الوظائف قوم بها هذا الغشاء، قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

لو أن الإنسان تفكر في خلقه فقط، وجسمه أقرب شيء إليه لذاب تعظيماً لله عز وجل، و لذاب محبة له.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

أستاذ عدنان، الإنسان إذا تفكر في مخلوقات الله دخل من أوسع باب إلى الله، ومن أقصر طريق إليه، التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله، وأقصر طريق نصل به إليه.

شيء آخر، مثلاً، الله عز وجل قال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية: 26)

آية قرآنية، وما من مخلوق أهون على البشر من البعوضة، الله عز وجل ذكرها في القرآن،

(لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً)

البعوضة في رأسها مئة عين، وفي فمها 48 سناً، وفي صدرها 3 قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، وفي كل قلب أذينان، وبطينان، ودسامان، والبعوضة تملك أجهزة لا تملكها الطائرات، تملك جهاز استقبال حراريًا، فهي ترى الأشياء لا بشكلها، ولا بحجمها، ولا بلونها، ولكن بحرارتها فقط، فإذا

كان الطفل نائمًا في سرير لا ترى البعوضة إلا الطفل، لأن حرارته 37 درجة، تتجه إلى جبينه، طبعاً البعوضة ما كل دم يناسبها، معها جهاز تحليل، فقد تختار أخاً، وتدع الثاني، معها جهاز تخدير حتى لا تُقتَل في أثناء امتصاص الدم، ومعها جهاز تمييع.

هذه البعوضة خرطومها فيه ست سكاكين، أربع سكاكين تحدث جرح مربعاً في الوعاء الدموي، وسكينان تلتئمان على شكل أنوب، والبعوضة مزودة بمخالب كي تقف على السطح الخشن، ومزودة بمحاجم كي تقف على السطح الأملس،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً)

البعوضة تشم رائحة عرق الإنسان من 60 كيلومترا.

فالله عز وجل حينما يذكر في كتابه أمراً فهذا الأمر يقتضي الوجوب، وحينما يذكر نهياً فهذا النهي يقتضي الترك، وحينما يذكر آية كونية، فهذه الآية الكونية تقتضي التفكر، الله عز وجل يقول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 17 - 29 : العلم بالله وبأمره وبخلقه 2 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

تحدثتم في حلقة ماضية عن جوانب عديدة فيما يتصل بالعلم بالله تعالى من خلال المكونات، والنعم التي خلقها، وكانت لعباده، وعن الجنة للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وعن الغشاء العاقل، وإذا كانت المخترعات الحديثة قد سُمِّيت بأسماء متعددة يعنون بها مزيداً من العلم والتقدم، فإذا الغشاء العاقل هو من إحدى النعم التي أهداها الله تعالى لعباده يفوق كل شيء، ومما أذكر أن في جسم الإنسان مادتين جبذتا إلى نفسيهما قدرة مغناطيسية بسيطة، وهذه المادة إذا وضع منها كأس في بيروت، وهذه المادة إذا ذهب إنسان إلى اللاذقية، وغرف من ماء البحر، وحلل يمكن أن يجد آثار هذه المادة، فالجاذبية بسيطة، هذه الجاذبية لو ألغيت نهائياً لتسمم جسم الإنسان، وتبارك الله أحسن الخالقين، أشياء عديدة، وكما ذكرتم سابقاً،

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ {)

لابد للإنسان من أن يتابع، ويدرس ليدرك عظيم نعم الله تعالى عليه، وكما ذكرتم باب العلم أنه أقرب، وأوسع الأبواب للتحدث عن الله تعالى، ومعرفة شيء عنه، الآن وبعد أن ذكرتم أشياء متعددة في حلقة سابقة نتابع عن أفعاله تعالى، وكتابه القرآن الكريم.

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحقيقة أننا في الحلقة سابقة تحدثنا عن الله عز وجل، عن أن العلم هو علم بخلقه، وبأمره، ويحتاجان إلى مدارسة، كل إنسان أتيح له وقت فراغ، أعطي قوة إدراكية جيدة، أتيح له معلم وكتاب يبرع في هذا العلم، ثم بينت أن العلم بالله شيء آخر، فالعلم بالله ثمنه باهظ، لكن نتائجه باهرة، من بنود الثمن التفكر في خلق السماوات والأرض، وهذا التفكر بخلق الله عز وجل، وهذا الكون كما قلت في حلقة سابقة:

مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، والتفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله، وأقصر طريق إليه، إنك تقف وجهاً لوجه أمام عظمة الله عز وجل، بل إن الله سبحانه وتعالى يبين في بعض الآيات الكريمة أن خلق السماوات والأرض هو سبب معرفة الله عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

والذي يلفت النظر في الآية أن الله اختار من أسمائه القدير والعليم، وهذان الاسمان كافيين كي يستقيم الإنسان على أمر الله.

أنت حينما ترى الإشارة حمراء لا تتجاوزها، لأن الشرطي واقف، هذا عين واضع القانون، لكن تتجاوزها في الثالثة ليلاً، لأن واضع القانون لا يطول المواطن، يستطيع أن يتلفت، فمتى يستقيم الإنسان؟ إذا أيقن أن خالق السماوات والأرض يطوله علمه، وتطوله قدرته في كل وقت وزمان.

لذلك هذا الأعرابي قال له سيدنا عمر: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب، قال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ هذا هو الدين، هذا الأعرابي وضع يده على جوهر الدين، فالدين أن تطيع الله، وتخشاه، أن تقول: أين الله، وأن تلتزم بما أمر، وتنتهي عما عنه نهى وزجر، فالتفكر في خلق السماوات والأرض يشعر بالخشية، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر)

أنت حينما تتفكر في خلق السماوات والأرض تعرف من هو الله، وماذا عنده إذا أطعته، وماذا ينتظر العاصي إذا عصاه.

المذيع:

يمكن أن نتوقف قليلاً، وكنت قد طرحت مثل هذا السؤال في حلقات قديمة جداً، لأن بعض الإخوة المشاهدين يمكن أن يتطرق إلى أذهانهم أن بعض العلماء كما تحدثتم يؤمنون، وبعض العلماء الآخرين على غير إيمان، رغم أنهم علماء ومتخصصون، ووصلوا إلى مرحلة مترقية جداً في موضوع اختصاصهم، ترى لماذا لم يؤمنوا ؟ على حين أن الله:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

الأستاذ:

الإجابة واضحة جداً، الإنسان حينما يتخذ قراراً أولياً لطلب معرفة الله أيّ شيء يدل على الله، فالبعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، والماء على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟ فالإنسان حينما يتخذ قراراً أولياً لطلب معرفة الله أيّ شيء يدله على الله، وحينما لا يتخذ هذا القرار لو كان في أضخم محطة فضاء في العالم، وهو يرى المجرات كل يوم بألوانها الزاهية، لو كان في مخبر فيه مجهر إلكتروني يرى الخلية، وعمل الخلية، هذا الإنسان الذي لم يتخذ قرارًا بمعرفة الحقيقة مثله كمثل آلة تصوير غالية جداً، ومتطورة، لكن ليس فيها فيلم، فكل هذه التجريبات والتقنيات والخصائص المتميزة لا معنى لها من دون فيلم يلتقط هذه الصور، فالإنسان على بساطته ومعطيات بيئته المتواضعة إذا اتخذ قراراً بمعرفة الله عز وجل أيّ شيء يدله على الله، ويوصله إليه، ثم يسعد بقربه من الله، والذي يطلب الشهوة والدنيا، والسمعة والمال، والجاه والشأن الكبير في الأرض، ولم يتخذ قراراً لمعرفة خالق السماوات والأرض فقد يعيش مع آيات، واحد بالمليار منها يجعل الإنسان يخشع لله، لكنه لا يخشع، لذلك:

((إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3))

(سورة الجاثية)

هذه الآية عجيبة، كنت أظن أن الإنسان يفكر في الآية فيؤمن !!! إذا اتخذ قراراً أن يكون مؤمناً داخلياً، وقراراً أولياً أن يطلب الحقيقة، تأتي هذه الآيات فتعرفك بالله عز وجل لذلك:

((إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3))

فالإيمان أولاً.

إن للإنسان في الحياة خيارات، فحينما يختار معرفة الحقيقة أيّ شيء في الكون يدله عليها، وحينما لا يختار معرفة الحقيقة لو عاش مع آيات باهرات ناصعات واضحات لا يتأثر بها، والإنسان شهوته قد تعمي بصيرته، حبك الشيء يعمي، هذه إجابة عن أسئلتكم.

المذيع:

مع هذا كيف يأتي قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

الأستاذ:

الحقيقة كلمة علماء يجب أن نفهمها على نحو يتناسب مع الآيات الأخرى، العلماء الذين أرادوا معرفة الحقيقة.

المذيع:

البعض شبّه الأمر بإنسان حلق في طائرة مثلاً من مكان عالٍ مرتفع، ونظر إلى حي من الأحياء، رأى شوارعه، وكيف تتصل، وتلتقي، وإلى أين نهايتها، ومن أين تبدأ، وأين تنتهي، الآن أنزلناه إلى ساحة في وسط هذا الحي يستطيع أن يتحرك في الاتجاهات كلها، فقد سبق عنده هذه المعلومات التي عبرت عنها بأنه إرادة المعرفة والإيمان، وعلم هذا الإنسان، وذكاؤه نفسه لن نضعه في مكان عال، أتينا به مباشرة إلى هذه الساحة في هذا الحي، وقلنا له: انطلق من هذا المكان، وأوصل نفسك إلى المكان الفلاني، لا يعرف ماذا يختار، ومن أين يبدأ، وأين ينتهي، فلا بد في البداية من معرفة الشمولية التي هي تدل على الله تعالى.

الأستاذ:

نضيف إلى العلم بخلق الله العلم بفعل الله، العلم بخلق الله آيات كونية، والعلم بفعل الله، آيات تكوينية، المؤمن ينطلق من أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل، ولا يعقل أن يقع في ملكه ما لا يريد } إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ {، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه، المؤمن يعتقد أن أفعال الله حكمة كلها، ورحمة، وعدل كلها.

فحينما ترى أن في الأرض آلهة غير الله عز وجل هذا نوع من الشرك، الله عز وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

المؤمن حينما يتأمل أفعال الله يكتشف حقيقة أن هذه الأفعال فيها تأديب، وإكرام، وعدل، ورحمة، وسوق الإنسان إلى بابه، فحينما نفهم المصائب التي تقع على بني البشر هذا الفهم التوحيدي ترتاح نفوسنا، والقوة في ملعبنا، أما حينما نفهمها قهراً وظلماً وسحقاً لهذا الإنسان نصاب بحالة خطيرة جداً، اسمها اليأس والخنوع والسوداوية، فالمؤمن حينما يصاب بمصيبة يوقن يقيناً قطعياً أن هذه المصيبة من

عند الله، ولكن السبب منه.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران)

المذيع:

من أفعال الله تعالى يمكن أن يقال: الزلازل والبراكين هي عندما تبرز من ناحية علمية يدرك الدارس أن الأمور الجيولوجية لها تأثير، وهي من الأسباب التي وضعها الله تعالى، ومن النواميس التي تؤدي للزلازل والبراكين، لماذا لا نقول: إن هؤلاء الذين يعيشون في هذه المناطق، والذين يعيشون في مناطق بعيدة عن هذه الأماكن هؤلاء ابتلوا بها، والآخرون لم يبتلوا بهذه الزلازل والبراكين، أفيكون تأديب الله تعالى أو ابتلاؤه أو امتحانه حتماً بهذه الزلازل والبراكين، ويكون بعيداً عمن كانوا بعيدين عن هذه الأرض ؟

الأستاذ:

الحقيقة أن الزلازل والبراكين لها أسباب أرضية، لكن من هو مسبب الأسباب ؟ لا يتناقض مسبب الأسباب الأرضية، كما أنه مقبول أن نفهم أن مسبب الأسباب أراد هذا الشيء، لكن لحكمة بالغة، والآية الكريمة:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

(سورة الأنعام)

الصواعق قد تكون الصواريخ.

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

الزلازل.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

الحروب الأهلية.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

هذا تفسير توحيدي، وهو لا يتناقض مع التفسير المادي للمصيبة، من سبب هذه الأسباب وحركها ؟ هو الله عز وجل، لكن المصائب في الحكم الشرعي لها حكم دقيق جداً، هناك مصائب تصيب المؤمن.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

المصائب التي تصاب للمؤمنين من أجل دفعهم إلى مزيد من الأعمال الصالحة، أو ردعهم، لكن المصائب التي تصيب الشاردين من أجل سحقهم، أو ردعهم، مصائب ردع أو قصم، إنسان كتلة شر، لا يحب الخير إطلاقاً، يحب أن يعيش وحده، هذا ربنا يقصمه أحياناً، يأتيه سؤله، ثم يقصمه، أو يردعه، فهي قصم للشاردين عن الله، ورفع للمؤمنين به، وكشف لأنبيائه.

قد تقع طائرة، وفيها مئة راكب، كل يموت على نيته، من السذاجة أن نتوهم أن هذه المصيبة عامة، ومصيرهم واحد، لا !!! فقد يكون أحد الركاب يطلب العلم بمكان يموت شهيداً، والثاني لسياحة، فحينما تأتي مصيبة عامة كل إنسان له حال مع الله، وشتان بين الحالتين، إنسان أراد الطاعة، وإنسان يريد المعصية، وهما راكبان في طائرة واحدة.

الإنسان أحياناً يعد نفسه ذكياً جداً، إذا فعل شيئاً ضرب عصفورين بحجر، خالق الأكوان يحقق مليون هدف بعمل واحد، هذا الشيء له تفسير في القرآن الكريم.

المذيع:

علماً سيدي، أن في موضوع الزلازل والبراكين صحيح أنها يمكن أن تكون باتجاه أناس سكنوا في هذه المنطقة دون أن يسكنوا في منطقة أخرى، فهنا ولدوا، وهنا عاشوا، وهنا قضوا أعمارهم وحياتهم، فالله سبحانه وتعالى الذي يسبب هذه الأسباب جعل للإنسان عقلاً، يفكر بكيفية التخلص، وتجنب هذه الكوارث الطبيعية، وكثيراً ما نسمع هزة أرضية حدثت في مكان ما بلغت درجتها الدرجة الفلانية، ولا تؤذي أحداً، على حين أنها بلغت أقل من ذلك في مكان آخر، وتهدمت الأبنية، حتى في مجال الكوارث الله وهب للإنسان عقلاً، كيف يحيط نفسه بسياج آمن من خلال ما وهبه الله تعالى ليكون بعيداً عن هذه الكوارث الطبيعية ؟

الأستاذ:

لذلك أنت حينما تتأدب مع قوانين الله عز وجل هذا نوع من العبادة، فالزلزال قانون، وهناك أبنية تقاوم الزلازل، فنحن حينما نكشف قوانين الزلزال، ونبني أبنية تقاوم قوانين هذا الزلزال هذا أخذ بالأسباب،

أقول دائماً: إن الإيمان الكامل أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

سهل جداً أن آخذ بالأسباب، وأعتمد عليها، وأؤلهها، كما هي حال الغرب، وسهل جداً ألا آخذ بها، وأتوكل توكلاً ساذجاً على الله، لكن البطولة أن تأخذ بها، وكأنها كل شيء، ثم نتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، البطولة أن تأخذ بها تأدباً مع الله.

النبي عليه الصلاة والسلام في هجرته أخذ بكل الأسباب، هيأ من يمحو له الآثار، ومن يأتي له بالأخبار، واختار دليلاً ليس مسلماً، بل مشركاً، غلّب الخبرة على الولاء، ترك ابن عمه سيدنا علي في الفراش، أخذ بكل الأسباب، وتوكل على الله، فوصلوا إليه، لو أن اعتماده كان على الأسباب لانهار، لكن اعتماده على مسبب الأسباب، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ:

((لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا ؟))

(صحيح البخاري)

هذه البطولة أن نأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ونتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، كأن الطريق الكامل هو طريق عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، إذا أخذنا بالأسباب، واعتمدنا عليها سقطنا في الشرك، إن لم نأخذ بها سقطنا في المعصية، وكأنني ألخص أن مشكلة الغرب أخذ بالأسباب وألهها، وأن مشكلة الشرق الإسلامي كلاهما وقع في المعصية، البطولة أن نأخذ بها.

مثل بسيط، عندي سفر، أراجع مركبتي مراجعة تامة، وأنا معتقد في أعماق أعماقي أن الله هو الحافظ، آخذ بالأسباب تأدباً مع الله، وأدعو الله عز وجل أن يحفظني في هذا السفر.

الذي يقول: أنا سيارتي ممتازة، قد تصيبه مشكلة كبيرة، والذي لا يراجع السيارة هذا عصى الله عز وجل، لم يأخذ بالأسباب.

المذيع:

في هذا الميدان أفترض أني أريد أن أنشئ عمارة ما لي، وأتيت بأحسن المهندسين، وأخذت آراء من سيسكن في هذه العمارة، كيف تريدون أن تكون مساحة الشرفات، وكل الحاجات الموجودة، نقلها من مكان إلى مكان، درستها، وفصلت فيها، وأخذت الآراء، وأعدت دراستها، وبعد هذه الدراسة المستفيضة من المتخصصين أنشأت العمارة، أنا متأكد أنني سأقول بعد انتهائي من العمارة: لو أنني فعلت هكذا، بإضافة كذا لكان أفضل، ولو فعلت الشيء الفلاني بمقدار كذا، ودليل ذلك ما نشاهده في المقتنيات، السيارات في كل حين نجد تطوراً جديداً، الذي أدخل على أمور السيارات، وكل ما نشاهده في الكون،

مع وجود الاختصاصين، والأخذ بالأسباب، وإعمال العقل لم يوصلنا عقلنا للمدى الذي نريده، أما الإنسان المؤمن فيفعل هذا كله، ثم يا رب، توكلت عليك، هذه هي الأسباب التي أقدر عليها فوفقني.

الأستاذ:

لي مأخذ على موقف بعض المسلمين أنهم يكتفون بالدعاء، وقد قال العلماء: الدعاء من دون سعي استهزاء بالله عز وجل.

سيدنا عمر مر بأعرابي معه ناقة جرباء سيدنا قال: يا أخا العرب سيدنا ماذا تفعل بهذه الناقة ؟ قال: أدعو الله أن يشفيها، قال: يا أخي سيدنا هلا جعلت مع الدعاء قطرانا ؟ هذا الذي ينقصنا، ينبغي أن نتوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب.

عَنْ أَنَس بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا، وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا، وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا، وَتَوَكَّلْ))

(الترمذي)

يمكن أن نتعرف إلى الله من خلال خلقه وأفعاله، والدليل:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

أنا مكلف أن أفهم الأحداث الكبرى فهما توحيدياً، هذا يعينني على معرفة أن الله هو المتصرف، شيء آخر، أعرف الله من كلامه، قال الله عز وجل:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة)

ومن أجمل ما قرأت في تفسير هذه الآية أن نتلوه حق تلاوته، تعني قراءته قراءة صحيحة، تعلموا العربية، فإنها من الدين، ثم تقرأه وفق قواعد التجويد، هذا معروف، ثم تفهم هذه الآيات، لأن النبي عليه الصلاة والسلام فيما ورد في الأثر:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

(ورد في الأثر)

ثم إنه ينبغي أن تتدبر القرآن، فيجب في كل آية فيها نهي أو تفكر أو أمر، أي أين أنا من هذه الآية ؟ هل مطبق لهذا الأمر ؟ هل أنا مجانب لهذا النهي ؟ هل أنا متفكر في هذه الآية ؟ فأن تدرس حالتك من خلال هذه الآية من التدبر، ثم ينبغي أن تطبقه، فالتلاوة حق التلاوة تعني أن تقرأه قراءة صحيحة، أن تفهم معاني القرآن الكريم، ثم تتدبره، بمعنى أن تحافظ نفسك في أوامره ونواهيه، ثم تطبقه، فعَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(الترمذي)

الآن حينما أتعرف إلى الله من خلال خلقه وأفعاله وكلامه أكون قد قطعت شوطاً في معرفة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 18 - 29 : إقرأ 1 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

الحقيقة أن كل ما في القرآن، وما في الحديث النبوي معجز، إن كان في التشريع، أو في الإعجاز العلمي، أو في أي ميدان من ميادين الحياة، فأصول الحياة الشرعية من إرادة الله تعالى الذي خلق البشر، ويعلم ما يضرهم وما ينفعهم، والإنسان بطبيعته مكون من أشياء عديدة، إذا ما درست، ونوقشت هذه الأشياء من خلال أن تكون مظلة الشرع الإسلامي مظللة لها ومسيرة لها، فإنما نجد في هذا الإنسان أشياء كثيرة يمكن أن تكون موضوعاً للبحث، وهذه الأشياء الكثيرة إنما من خلال تكاملها مع فهمها للتشريع الإسلامي تبدو إعجازات عديدة يجب أن نقف عندها معكم.

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

والله عز وجل كرمه أعظم تكريم، فقال:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

إلا أن الإنسان له جوانب، والخطأ الكبير في الفلسفة المادية أنهم رأوه كائناً متحركاً، يأكل، ويشرب، ويستمتع، ورفضوا الجانب العقلي والنفسي، فالإنسان من جوانبه أنه عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، والعقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الحب، والجسم غذاؤه الطعام والشراب، وما لم نروّض هذه الجوانب الثلاثة بمقتضياتها نكون قد وقعنا في خللٍ كبير، فالإنسان فيه عقل يدرك، ففيه جانب معرفي، وجانب إدراكي، وقد ميزه الله على بقية المخلوقات بهذا الجانب الإدراكي، فأي إنسان لا يطلب العلم،

ولا يطلب الحقيقة فقد عطل جانبه الإنساني، وبقي في مستوى آخر لا يليق به، الجانب الآخر أنه قلب يحب، فما لم يتعلق بقيم إنسانية، ما لم يسعَ لهدف، ولا يشعر بمشاعر تسمو به عن بقية المخلوقات فلا يعد إنسانًا، وهذا الجسم له قوانين وحاجات، إن لم تلبَّ حاجات الجسم فإن هذا الإنسان يختل توازنه !

الحقيقة أن هنا إشارة للفرق بين التطرف والتوازن، أنت حينما تلبي حاجات العقل والقلب والجسم معاً فأنت متوازن، أما حينما تلبي حاجة على حساب حاجة فأنت تفقد التوازن، فالتوازن يعني أن تتحرك في خط طلب المعرفة، وفي خط الانضباط بالقيم، وتأمين حاجات الجسم، من طعام وشراب، ومسكن ومأوى، فلن تكون مفلحاً في الحياة، بل إن الخطاب الديني ـ إن صح التعبير ـ لا يفلح إلا إذا نظر الإنسان من كل جوانبه، فأية دعوة تقتصر على عقل الإنسان لا تنجح، أية دعوة تقتصر على قلب الإنسان لا تنجح، أية دعوة تقتصر على جسم الإنسان لا تنجح.

(ألكس كيل) عالم كبير، ألف كتاباً سماه الإنسان ذلك المشهور، بيّن أن الحضارة الحديثة اعتنت عناية خيالية بجسم الإنسان، براحته، وهذا يقودنا إلى موضوع دقيق جداً، هو أن هناك لذّات حسية، وأن هناك سعادة نفسية، اللذات الحسية تحتاج إلى أشياء خارجة عن الإنسان، تحتاج إلى مال وفير، وبيت كبير، وامرأة جميلة، وطعام نفيس، هذه كلها أشياء خارجة عن ذات الإنسان، فإذا بلغها الإنسان أصبحت اعتيادية، ربما أصابه الملل والسقم، وهذا من حكمة الله عز وجل، وهذه الأشياء لو أنه طلبها من طريق غير مشروع لأورثته كآبة، هي عقاب النفس لصاحبها، أما إذا كانت في أمور محرمة فهذه تنتهي إلى عذاب النار، وبئس المصير، اللذات الحسية مشكلتها أنها تأتي من الخارج، ولها شروط ثلاثة، لا بد من أن يكون أحد هذه الشروط مفقودًا في أيّ مرحلة في الحياة

فقال علماء النفس: اللذة تحتاج إلى وقت ومال وصحة، ففي بداية الحياة الصحة متوفرة، والوقت متوافر، لكن ليس هناك مال لتوفير الشهوات، في منتصف العمر الصحة متوافرة والمال متوافر، لكن ليس هناك وقت، هو على رأس عمله، إذا ترك عمله ضاع العمل، في خريف العمر المال موجود، والوقت موجود، لكن الصحة غير موجودة، فهذه اللذات الحسية التي يلهث الناس وراءها دائماً هناك منغصات، فإمّا أن يفتقد الإنسان المال أو الصحة أو الوقت، هذه اللذات مارسها الإنسان من طرقها المشروعة سئمها في النهاية، أما إن مارسها من طرق غير مشروعة أورثته كآبة هي عقاب الفطرة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

أما السعادة فهي تنبع من الداخل، الإنسان حينما يتصل بالله عز وجل يتألق، إذا تألق خلق الله في قلبه السكينة، والسكينة يسعد بها الإنسان ولو فقد كل شي، ويشقى بفقدها ولو ملك كل شيء، سعادة الإنسان

تنبع من داخله، فقد تكون حياته خشنة أو بسيطة، لكن اتصاله بالله يجعله متألقاً لذلك:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

الإنسان حينما يسعى إلى الملذّات الحسية ليلبي حاجات الجسد فقط لا يسعى لسعادته التي أرادها الله له، لا يسعى لما خلق من أجله.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

والعبادة في أدق تعاريفها: طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، هناك جانب معرفي لا بد من طلب العلم، وهناك جانب سلوكي، وهو الدين الحقيقي، هو الالتزام، وهناك جانب جمالي، وهو الثمرة.

الحديث عن جوانب الإنسان متعددة، جانب عقلي غذاؤه العلم، وجانب سلوكي أساسه الانضباط، وجانب جمالي أساسه الاتصال بالله عز وجل، نخلص من هذه المقدمة إلى أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوة إدراكية، الإنسان يدرك، وما لم يسعَ للحقيقة، ولطلب العلم لا يؤكد إنسانيته، يؤكد مستوى آخر لا يليق به، يشترك به مع بقية المخلوقات، يؤكد جانبه المادي.

لذلك أول آية نزلت في القرآن الكريم على ، ما معناها ؟ هي مفتاح العلم،} اقْرَأْ {قلب محمد صلى الله عليه وسلم: وفي اللغة العربية أن الفعل إذا ألغينا مفعوله أطلق معناه، اقرأ في كل شيء، تعلم، ابحث، تأمل، اعرف من أنت، وما سر وغاية وجودك، ولماذا خلقت، واعرف ماذا بعد الموت، وماذا كنت، وإلى أين، ولماذا !!! هذه أسئلة كبيرة الإنسان قد يغفلها في زحمة الحياة، والحياة تستهلكه.

لذلك الله عز وجل وصف عباده فقال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان)

حار العلماء في تفسير هذه الآية، كان عليه الصلاة والسلام إذا مشى كأنه ينحط، يمشي مسرعاً، وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها عن سيدنا عمر: " كان إذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا قال أسمع "، فالذي أثر عن الصحابة الكرام أنهم إذا مشوا أسرعوا، والآية تقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

قال علماء التفسير: لا يسمحون للدنيا بأن تأخذهم، لا يسمحون لقضية جانبية أن تنسيهم سر وغاية وجودهم، أهدافهم واضحة جداً، ولو سألت مئة إنسان لا على التعيين: ما الهدف الذي تعيش من أجله ؟ لقال لك: لا أدري، والمسلمون ينقصهم علم دقيق جداً، هو إدارة الوقت، فهذه العلوم الدقيقة جداً تتلخص في آية واحدة:

(أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22))

(سورة الملك)

المذيع:

دكتور، ألا ترى في موضوع أن المشي على الأرض، وأن يكون هذا المشي هوناً أمر يقتبس بالجانب المادي، والإنسان كما تفضلتم ليس جانباً مادياً فقط، إنما إلى جانبه كما بينتم العقل والقلب والجسم، فتكامل هذه الأشياء هوناً، حتى لتربط ما بين المادة والروح، فلا يطغى جانب على جانب.

الأستاذ:

بارك الله بكم، هذا جانب من المعنى، ينبغي ألا تنسيه الدنيا هدفه الكبير، ومتاعب الدنيا ما أوكل إليه في هذه الدنيا، فالإنسان عنده قدرة إدراكية، الله عز وجل قال له في كتابه:

(اِقْرَأْ)

أي تعلم، أطلق مفعوله، الكون كما قالوا قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، وكلام النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، فسواء قرأت في آيات الله الدالة على عظمته في الكون، أو قرأت في آيات القرآن الكريم، أو قرأت في شرح سيد المرسلين تصل للحقيقة،

(اِقْرَأْ)

لكن الإنسان لأنه مخير فكل شيء حيادي، يمكن أن نقرأ قراءة نفعية، فنطغى بها، ويمكن أن نقرأ قراءة إيمانية، فالله عز وجل حينما أمرنا أن نقرأ قيدنا بالقراءة الإيمانية، لأن هذا العقل خلق لمعرفة الله، وقد استخدم لغير ما خلق له،

(إنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

فالله عز وجل أمرنا أن نقرأ ما في الكون قراءة إيمانية، فهذه الوقفة التأملية في آيات الله العظيمة، في السماوات والأرض، والجبال والبحار، والأسماك والأطيار، وخلق الإنسان، وطعامه وشرابه، وما حوله، وما فوقه وما تحته، هذه القراءة ينبغي أن تنتهي بالإنسان إلى الإيمان بالله.

المذيع:

والرسول عليه الصلاة والسلام حينما نزل عليه الوحي بالآيات الكريمة:

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(سورة البقرة)

في النهاية علّق:

((وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا))

(ابن حبان في صحيحه عن عائشة)

الأستاذ:

ينبغي أن تؤمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وخالقاً، ومربياً، ومسيراً، وبأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، فكأن أستاذ الرياضيات أعطى الطلاب مسألة، ثم كتب في نهاية السؤال الجواب، فإذا حللت المسألة، وانتهى بك الحل إلى هذا الجواب فأنت على صواب، أما إذا انتهى بك الحل إلى جواب غير هذا الجواب فأنت على خطأ، فالله عز وجل حينما أمرنا أن نقرأ قيّدنا بقراءة إيمانية، بدليل أن الله عز وجل يقول في الآية نفسها:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

فينبغي أن تصل للذي خلقك، والجهة التي خلقت هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، الإنسان أعقد آلة في الكون، تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة البالغة الدقة والتعقيد صانع حكيم، وله تعليمات التشغيل والصيانة، فالجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، بدليل أن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة)

وقد قال عن ذاته:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

ونحن في حياتنا اليومية إذا كان عندنا جهاز غال، وله فوائد جمة، وبالغ التعقيد، وأصابه خلل، أو عطب، لا نأخذه إلا للشركة الصانعة، لأنها الشركة الوحيدة التي تجعله يمكن أن يعمل بشكل منتظم،

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

لكن الإنسان ليس مطالباً لأن يركب المركبات الفضائية ليرى الأكوان، لفت الله نظره لآية قريبة منه جداً، قال:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالَم الأكبرُ

في شبكية العين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، بعض آلات الديجيتال يعبرون عن دقتها بستة ملايين في البورصة الواحدة، في الشبكية التي لا يزيد حجمها على حبة العدس مئة وثلاثون مليون نقطة، لدقة الصورة، ولو درجنا لون أخضر ثمانمئة ألف درجة العين السليمة تفرق بين درجتين، الدماغ فيه مئة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد، في رأس الإنسان ما يقارب ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد وشريان، وعضلة، وغدة دهنية وغدة صبغية، قلب الإنسان، أعضاء الإنسان، السمع، عصب الشم، فيه عشرون مليون عصب، كل عصب ينتهي بخمسة أهداب، والهدب مغمس بمادة تتفاعل مع الرائحة تفاعلاً يشكل شكلاً هندسياً، يشحن لذاكرة الروائح في الدماغ، في هذه الذاكرة عشرة آلاف بند، هذه الرائحة تعرض على هذه البنود كلها، فأي بند تطابقت معه يقول لك: هذه رائحة الياسمين مثلاً.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

فالله عز وجل حينما أمرنا أن نقرأ، ولفت نظرنا إلى أن أقرب شيء إليك جسمك، بل إن الإنسان يرى كيف خُلِق من ابنه، نقطة من ماء مهين، حوين واحد من خمسمئة مليون حوين في اللقاء الزوجي يلقح البويضة، ثم هذه البويضة تنقسم لتكون طفلاً وليدًا، له رأس، ويدان، وأرجل، وقلب، ورئتان....

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

لكنه إذا غفل عن الله، واتبع شهوته، وبنى مجده على أنقاض الآخرين:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5))

(سورة التين)

من هنا يقول سيدنا علي رضي الله عنه: " رُكِّبَ الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ".

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق)

هذه القراءة الأولى، قراءة البحث والإيمان، يمكن أن تقرأ ما في الكون قراءة بحث وإيمان، يمكن أن تصل من هذه القراءة إلى الواحد الديان، ولكن هناك قراءة ثانية، وهي:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3))

سميتها قراءة أخلاقية، أو قراءة شكر وعرفان، والله منحنا نعمة الإيجاد، والإمداد، أمدنا بالطعام، والشراب، والهواء وكل ما نحتاج، ومنحنا نعمة الهدى والرشاد، الإنسان مُنِح نعمة الإيجاد.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

لو اطلعت على كتاب طبع قبل تاريخ ميلادك، يوم طبع هذا الكتاب أين كنت ؟ أنا حينما أقرأ كتاباً يحلو لي أن أنظر إلى سنة الطبع، فإن كانت سنة الطبع قبل ولادتي أذكر هذه الآية:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

منحت نعمة الإيجاد، والإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، ولأن الإنسان قبل حمل الأمانة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية)

هذا التسخير كما قال عنه العلماء تسخير تكريم، وتعريف، هذا التسخير تسخير تعريف وتكريم، واجب التعريف أن تؤمن، وواجب التكريم أن تشكر، فإذا آمنت، وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك، لذلك قال سبحانه وتعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

أضرب مثلاً للتوضيح: لو أن ابناً جاء إلى بيته عقب نهاية العام الدراسي، ومعه جلاء، حصل على العلامات التامة في كل المواد، ثم كتب في الملاحظات، إنه طالب ذو خلُق، مهذب، ونظيف، ومرتب، هل هناك أب في الأرض يضربه على هذا النجاح ؟ مستحيل، فإذا كان شأن الإنسان أنه إذا رأى ابنه متفوقا أخلاقياً يكرمه، الإله العظيم إذا رأى العبد مستقيماً، منيباً، ورعاً، نصوحاً يكرمه، لذلك قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

أنت حينما تؤمن وتشكر حققت الهدف من وجودك، فالمعالجة واحدة، لذلك لا تأتي المصائب جزافاً، ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

(سورة آل عمران)

لذلك قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد)

الأمر بيد الله:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

فإن جاءك شيء لا ترضى عنه فقد قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

القراءة الثانية: قراءة الشكر والعرفان، منحنا نعمة الإيجاد، والإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، سخر تسخير تعريف وتكريم، واجب التعريف أن نؤمن، وواجب التكريم أن نشكر، فإذا آمنا، وشكرنا حققنا الهدف من وجودنا، هذه القراءة الثانية:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3))

الأكرم اسم تفضيل، هو الذي أكرمك بأن أوجدك، ولأنه خلقك في أحسن تقويم، ولأنه مرجعك إليه. لكن من أجلّ هذه النعم الذي أنعم بها نعمة البيان:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

نحن الأشياء التي نألفها قد لا ننتبه إليها، تصور لو أن الإنسان لا يتكلم، كيف يعبر عن حاجته ؟ أحياناً الطفل يبكي ساعات، ولا تدري أمُّه ما به، لو أنه تكلم يقول لك: أنا جائع ! تطعمه، فلا يأكل، تقدم له بعض الحاجات فلا يقبلها، عنده حاجة هو عاجز عن يعبر عليها، أما الإنسان فيعبر بالبيان عن حاجاته وأفكاره، ومبادئه وقيمه، ومشاعره، أنا بالبيان أفهم مبادئك وأفكارك، ومشاعرك وحاجاتك، البيان أدق تواصل بين أفراد النوع، ومن نعم الله الكبرى على الإنسان البيان.

أذكر قصة رجل له ابن، وكانوا في سفر، بكى بكاء أقلقهم، بعد ساعات اكتشفوا أن دبوساً في جسمه يؤلمه، أطعموه وأشربوه فلم يسكت، لم يفهموا ما به ! فالإنسان يتكلم، ويقول ما مشكلته، علمه البيان، فهذا البيان شفهي، وهو يحتاج إلى تواصل، لكن البيان الكتابي لو أدركنا قيمته لصعقنا، أنت بالبيان الكتابي تنقل معارفك إلى كل الناس، بتأليف كتاب، بالبيان الكتابي تتعلم من كل الناس، ولو لم تلتق بهم، البيان الكتابي تنتقل المعارف من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أمة عن طريق الترجمة، الآن ما الذي يحصل ؟ الإنسانية كلها معها جعبة واحدة، كل العلوم في جعبة واحدة، فالإنسان إذا أراد أن يتقدم بالعلم يبدأ من آخر خطوة، حتى إنه بلغني أن بعض الجامعات أقامت شبكات إنترنت متواصلة، حيث إن الطالب إذا اختار موضوعًا للدكتوراه، وقد بحث في بلد آخر يعلم بذلك لئلا يكون جهده ضائعاً، اللغة حينما تترجم، أو تكتب تكون المعارف مشتبكة بين كل البشر، هذا معنى قول الله عز وجل:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

المذيع:

هل يتصل هذا المعنى بشكل ما بموضوع بيان اللغة العربية ؟ وهل لهذا تأكيد على أن حملة اللغة العربية يجب أن يكونوا على مستوى راق في تفاقم اللغة والتعامل معها ؟

الأستاذ:

لأنها لغة القرآن، ولأن الله اختارها لغة البيان:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195))

(سورة الشعراء)

القرآن الكريم لغته عربية، لذلك ورد أحاديث وكلمات كثيرة عن فضل تعلم هذه اللغة، لسيدنا عمر قول رائع: " تعلم العربية، فإنها من الدين "، يوجد قول يتفق مع أحدث نظريات اجتماعية: " ليست العربية بأحدكم من أب، أو أم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي " ! من يتكلم هذه اللغة يفهم أفكار أصحابها ومعانيها ومشاعرهم وقيمهم، وكأنه منهم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 19 - 29 : إقرأ 2 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-07-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

بيّنتم في الحلقة السابقة أن الإنسان مكون من مادة وروح، إنما هي في مجموعها يمكن أن تنقسم إلى أقسام ثلاثة، العقل، والقلب، والجسم، ولكل غذاؤه الخاص به، وإذا اختل غذاء قسم بالنسبة لوجود الإنسان حيث نقص أو طغى على موضوع آخر، فإنه يختل توازن هذا الإنسان، ويكون التوازن موجوداً عندما تتكامل الأمور لديه من خلال الشرع الإسلامي الذي وجهه إليه هذا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المطهرة، وبينتم أصول أن يبدأ الإنسان في موضوع أن يتعلم، ويكون علمه باسم الله تعالى، وباسم الإله الأكرم،

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

ثم تأتي بعده أشياء تبين عظمة هذا الخالق وكرمه، وكيف يكون الإنسان تجاه هذا الخالق، ووصلتم كما أذكر إلى موضوع:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

ونتحدث إن شئتم عن:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، في الحلقة السابقة بينت كما تفضلتم أن هناك قراءة إيمانية، وقراءة أخلاقية، وأن هناك قراءة بحث وإيمان، وأن هناك قراءة شكر وعرفان، بقيت قراءة ثالثة، وهي قراءة وحي وإذعان، العقل مهما أوتي من قدرات فائقة محدود في الذي يشاهده، والذي يقع تحت حواسه، فالماضي السحيق لا يعرفه، والمستقبل البعيد لا يعرفه، وطرف من حقيقة الذات الإلهية لا يعرفها، وحقيقة النبوات والرسالات لا يعرفها، وماذا بعد الموت لا يعرفه، فيوجد قضايا وموضوعات كبيرة جداً مهما كان الإنسان عاقلاً وذكياً لا يستطيع أن يصل إليها من عنده .

أنا مثلاً: لو زرت جامعة، فرأيت البناء فخمًا، والقاعات واسعة، فيها عزل للصوت، والمخابر جيدة، وسكن الطلاب متوازن، والحدائق غناء، يمكن أن أستنبط أن لهذه الجامعة إدارة حكيمة، وهناك مهندسون أكفاء، لكن مهما كنت ذكياً في تأملاتي فلن أستطيع أن أعرف من هو رئيس الجامعة، ولا نظامها الداخلي، ولا طريقة النجاح والرسوب، ولا عدد الكليات، ولا أسماء الأساتذة، هذا لا يمكن بالتأمل والتفكر، هذه لا تأتي إلا بكتاب اسمه التقويم الجامعي، فيه كل شيء، فالإنسان يتفكر في خلق السماوات والأرض، وهذا التفكر يقوده أن لهذا الكون إلهاً، أما قضية الجنة والنار، وبدء الخليقة، وأسماء الله الحسنى، هذه لا بد من أن نتلقاها تلقياً من الوحي، لذلك حينما قال الله عز وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

جاءت القراءة الثالثة:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

ما كان له أن يعلم لولا أن الله علمه، فكأن التأمل والتفكر يتكامل مع الوحي، تتأمل فيما تسمعه وتشاهده، وقد تستنبط منه حقائق كثيرة.

وهذا يقودنا إلى حقيقة دقيقة جداً، أن هناك ثلاث دوائر، دائرة المحسوسات، ودائرة المعقولات، ودائرة الإخباريات، ففي دائرة المحسوسات الحواس الخمس أداة اليقين الحسي، شيء محسوس أراه بعيني، أسمع صوته بأذني، ألمسه بيدي، أشم رائحته بأنفي، فالمحسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس، المحسوسات ظهرت عينها، الدائرة الثانية المعقولات، أشياء كثيرة بقيت آثارها، وغابت عينها، أنا حينما أرى دخانًا وراء جدار أقول: لا دخان بلا نار، أنا ما رأيت النار، ولكن حكمت على آثار النار من الدخان، دائرة المعقولات دائرة تعتمد على استنباط المغيب بشيء محسوس، لذلك الله عز وجل كل شيء في هذا الكون يدل عليه، فذات الإله غابت عنا، لقوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)

(سورة الأحزاب)

ولكن آثار الإله بين أيدينا، لذلك العقل هو الأداة الأولى لمعرفته من خلال خلقه، ولمعرفة أن هذا القرآن كلامه من خلال إعجازه، ولمعرفة أن هذا الإنسان الذي قال هو رسول الله هو رسوله من خلال قرآنه، لكن في الدائرة الثالثة أشياء غابت عينها وآثارها، الماضي السحيق، كالمستقبل البعيد، كبدء الخليقة، كحقيقة النبوة، هناك موضوعات كثيرة جداً موضوعات إخبارية، سماها العلماء وعلماء آخرون موضوعات سمعية، هذه لا دور للعقل فيها، بل كأن العقل حصان تركبه إلى باب السلطان، فإذا دخلتَ

دخلت وحدك، أنا بعد أن أصل إلى الله بعقلي أتلقى منه بالوحي، الله عز وجل أمرني أن أصلّي، وأكون صادقاً، وأغضّ بصرر، يوجد أوامر ونواهٍ.

لذلك قضية بدء الخليقة، وفلسفة الكون، والحياة، والإنسان، وسر وجودي، وغاية وجودي، وماذا بعد الموت، وما قبل الموت، هذه كلها إخباريات، لذلك قال تعالى:

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5))

شيء دقيق جداً، مستحيل أن الله على كماله يدع خَلقه من دون توجيه، فلذلك من لوازم كمال الله عز وجل إنزال الكتب، وإرسال الرسل، فالكتب والرسل من لوازم إرسال الله عز وجل، لأن الله عز وجل رحيم، والأب حين يرى ابنه يقترب من المدفأة، لابد من أن يتحرك، إما أن ينهاه، وإن كان لا يفهم الكلام يقوم من مكانه ويمسكه، فإرسال الأنبياء، وإنزال الكتب من لوازم كمال الله، وهناك قاعدة تقول: كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

القراءة الثالثة: أن نقرأ القرآن، ونفهم ما فيه من أوامر ونواهٍ، فالقرآن أوامر ونواهٍ، وتاريخ الأمم السابقة، نهاية الأمم مشاهد يوم القيامة، أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، هذه قراءة وحي وإذعان، وهي كلمة تعني أن العقل ليس له دور في هذه الموضوعات، وأكبر خطا يقع فيه المسلمون حينما يحاورون الطرف الآخر في موضوعات غيبية، هذه الموضوعات لا تؤمن بها إلا إذا آمنت بالذي أخبرك عنها، فإذا كان الذي أخبرك عنها موضع شك فلا معنى للحديث عنها إطلاقاً، لا ينجح داعية في طرح قضايا غيبية على الطرف الآخر، لا يقنع بها، والطرف الآخر يملك حجة قوية على إنكارها، بدليل أنه كيف يمكن أن تقنع إنسانًا بوجود الجن ؟ لا دليل ! إلا الدليل الإخباري السمعي القرآني، كيف أقنع إنسانًا بوجود الملائكة ؟ هكذا أخبرني الله عز وجل، فهنا يقف العقل أمام الإخبار، فعليه أن يذعن، فقراءة البحث والإيمان هذه أساسها العقل، وقراءة الشكر والعرفان أساسها القلب، وقراءة الوحي والإذعان أساسها الدائرة الثالثة السمعية، التصديق الذي أخبرنا أن هناك جنة ونارًا.

الحقيقة أننا قد نتوهم أن هذه هي القراءة، لا، هناك قراءة خطيرة جداً، قراءة الطرف الآخر، قراءة نفعية من أجل المال، الذين يعبدون المال يقرؤون ما في الكون قراءة نفعية، يريدون تجميع الثروات، والهيمنة على بقية الشعوب، وتحقيق مصالحهم بأعلى درجة، لذلك قال تعالى:

(كَلاَّ)

أي ابقَ في هذه القراءات، ابقَ في قراءة الإيمان والإذعان والعرفان، ولا تتعدَّ هذه القراءات إلى قراءة نفعية هدفها العدوان والطغيان.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

الطرف الآخر إذا قرأ يقرأ من أجل السيطرة، من أجل صناعة أسلحة تدمر البشرية والقيم والتجمعات، فلذلك قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

هناك بعض الأدعية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ أَرْبَعٍ، مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ))

(سنن النسائي)

بالمناسبة، لئلا يفهم الإخوة المشاهدون هذا الموضوع فهماً ما أردته، المؤمن مطالب أن يقرأ ما في الكون قراءة قوة، ولكن بعد أن يؤمن، لأن في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ...))

(صحيح مسلم)

والله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال)

أنا ينبغي أن أقرأ لأتعرف إلى الله، ينبغي أن أقرأ لأشكره، ينبغي أن أقرأ لأعرف سر وجودي، وغاية وجودي، وينبغي أن أكون قوياً، هؤلاء في الطرف الآخر يؤمنون أنك إن كنت قوياً فأنت على حق، القوة تعني أنك على حق !! هذه قوة مرفوضة، ولكننا كمؤمنين نؤمن أن الحق ما جاء به الوحي، ولكن الحق يحتاج إلى القوة، يحتاج إلى قوة تدعمه، لذلك النبي أثنى على المؤمن القوي، والعلم قوة، والمال قوة، وأن تكون متمكناً أيضاً قوة أخرى، لذلك الإنسان إذا غفل عن الله، وغفل عن سر وجوده، وغفل عن غاية وجوده، وغفل عن رسالته يقرأ ما في الكون قراءة نفعية، لذلك يتفنن في صنع أسلحة هدفها أن ترغم الإنسان على ما يريده القوي.

المذيع:

لذلك الإسلام والسلطان أخوان شريكان في قرار.

الأستاذ:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

ولئلا يكون الكلام نظرياً لابد من تطبيق عملي، الله عز وجل ضرب لنا مثلاً في القرآن قوم عاد، فقال:

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8))

(سورة الفجر)

أي تفوقت بقراءة الكون تفوقاً شاملاً.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

أستاذ عدنان، عاد تفوقت في الناحية العمرانية، قال تعالى:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129))

(سورة الشعراء)

فيوجد تَفوّق عمراني مذهل، تفوق منشآت، تفوق أبنية، تفوق جسور، تفوق ناطحات سحاب، تفوق مذهل، هذا لهو التفوق الأول، التفوق العمراني، ويوجد تفوق آخر، هو التفوق العسكري، قال تعالى:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

ويوجد تفوق ثالث ورابع، تفوق علمي.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38))

تفوق شمولي، لم يخلق مثلها في البلاد، يوجد تفوق عمراني، منشآت جسور، ويوجد تفوق ثالث، تفوق عسكري:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

وتفوق علمي:

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38))

ماذا فعلت عاد ؟ قال تعالى:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12))

(سورة الفجر)

عدوان وإفساد، وإذا أردت أن تلخص عمل الطرف الآخر لا يزيد على نشاطين، عدوان على الحرمات، وعدوان على الممتلكات، عدوان على الثروات، ثم إفساد للقيم، وانحلال للأخلاق.

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12))

وهناك إشارة في القرآن الكريم دقيقة جداً، هي أن الله عز وجل بين أن عاداً ما كان فوقها إلا الله، لأنه ما أهلك قوماً إلا بين أنه أهلك من هم أشد منهم قوة، إلا عاداً لما أهلكها قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15))

(سورة فصلت)

شيء آخر في عاد، كأنهم ليسوا قوماً وجدوا ثم أهلكوا، عاد نموذج متكرر لكل أمة تنهج نهج عاد، بدليل لفتة رائعة في القرآن، في قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (50))

(سورة النجم)

أي إذا قلت لك: هذه دفعة أولى، فانتظر دفعة ثانية !!

المذيع:

وقد تكون دفعات.

الأستاذ:

فعاد الأولى نموذج لأمم طاغية، بنت مجدها على أنقاض الآخرين، بنت غناها على إفقارهم، بنت أمنها على خوفهم، بنت عزها على ذلهم، بنت حياتها على موتهم، هذه عاد:

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12))

بماذا أدبها الله عز وجل ؟

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8))

(سورة الحاقة)

هذه الأعاصير التي تأكل الأخضر واليابس، وتكلف أموالاً طائلة، هذا من تأديب الله لقوم عاد.

شيء آخر، أن عاداً ماذا كان مصيرها ؟ قال تعالى:

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14))

(سورة الفجر)

والذي يلفت النظر في هذه الآية أن الله بالمرصاد لعاد، ولكل أمة سلكت مسلك عاد، فالله عز وجل ذكر أن هناك قراءة إيمانية، وقراءة عرفان وشكر، وقراءة وحي وإذعان، وقراءة عدوان وطغيان، فالإنسان حينما يقوى ينسى ربه، طغى، وبغى، ونسي المبتدى والمنتهى، ونسي الجبار الأعلى، إذاً نحن أمام هذه القراءات الأربعة، قراءة إيمان، وقراءة عرفان، وقراءة إذعان، وقراءة طغيان، من هنا كان العلم قيمة موقوفة على طريقة الانتفاع به، وقد يستخدم العلم للعدوان، إذاً هو علم مرفوض عند الواحد الديان.

أستاذ عدنان، الإنسان مخير، ولأنه مخير فكل شيء أمامه حيادي، بل إن شهواته حيادية، بل إن حظوظه حيادية، لو أوتي الإنسان طلاقة في اللسان، هذه قوة حيادية، يمكن أن تسخر لنشر الحق، أو لإفساد الناس، لو أن الإنسان أوتي وسامة، الوسامة قد تستخدم لشكر الله على نعمة الخلق التام، أو لإغواء الطرف الآخر، فقضية الحظوظ قضية واسعة جداً، بل أقول: إن الحظوظ، والشهوات، والقدرات التي أودعت في الإنسان كلها حيادية لأنه مخير.

المذيع:

أي أستطيع أن أقول من خلال ما ذكرتم دكتور: إن على الإنسان ضمن هذا الإطار الذي وضحتموه عليه أن يدرك مواضع أقدامه، ليعلم أنه كيف يسير، وإلا فإنه قد يضل، وقد يكون في الهاوية، فإن لم يكن لعقله وللقراءة الإيمانية التي ذكرتموها، ولقلبه الذي يخشع، ولجسمه الذي يغذى بالحلال، إن لم يكن هذا مجتمعاً عند الإنسان فإنه يكون خسرانه مؤكداً، والخسران ليس بالخسران اليسير، كأن يفلس في أمر، ويمكن أن يعود إليه ثانية، الخسران ما كان في الآخرة، الخسران هو الخلود في الخسران، والفوز هو الخلود في الفوز، وشتان ما بين الأمرين، لذلك على الإنسان فعلاً أن يعلم مواقع أقدامه، فإن كان على خطأ عليه أن يرتد إلى مَواطن الصراط المستقيم، ليتم حياته، ويسعد بنفسه، ويسعد الآخرين به، وبالتالي تكون الحياة ناجحة سوية، مستقيمة ترفرف عليها السعادة الأبدية، من خلال ما يشعر به الإنسان، ولتستمر معه أيضاً في الدار الآخرة.

الأستاذ:

يوجد نقطة دقيقة، أنا أقول كلمة حظوظ، المال حظ، الوسامة حظ، الذكاء حظ، القوة حظ، أن يكون لك أولاد حظ، الزوجة حظ، أن تتمتع بقدرات عقلية عالية حظ، هذه الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، فكل مؤمن، أو كل إنسان ممتحن في مادتين، المادة الأولى فيما آتاه الله، والمادة الثانية فيما زواه عنه، فإن كنت غنياً فأنت ممتحن بالمال، وإن كنت فقيراً فأنت ممتحن بالفقر، إن كنت قويًّا فأنت ممتحن بالقوة، إن كنت ضعيفاً فأنت ممتحن بالضعف، فالإنسان ممتحن فيما أوتي، وممتحن فيما زُوِي عنه، وهذا يؤكده النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

(الترمذي)

فهذه الحظوظ في الدنيا مؤقتة،

(آقُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21))

(سورة الإسراء)

المذيع:

هنا لا مانع دكتور من التوقف قليلاً عند الناحية التالية: بعض الناس يتساءلون قائلين: فعلاً كما ذكرتم، لكن لمَ لمْ يؤتني الله من الحظوظ ما أستفيد منها في الدنيا، وأقدم امتحاني من خلال عملي وتأدية واجبي لأصل في الآخرة أيضاً إلى الثواب الذي أحصده، وأحصل عيه من خلال أنني قمت بما يريدني الله تعالى به، لماذا امتحنني مثلاً بالفقر، ولم يمتحنني بالغنى ؟ لماذا امتحنني بأن كنت بسيطاً، ولم يمتحنني بأن كنت ذكياً ؟ ثم علقتم على ذلك إلى أن الدنيا ما هي إلا متاع الغرور، وأنا أستطيع أن أقول: إن الدنيا بالنسبة للآخرة ما هي إلا حلم ومنام، الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وما يدري الإنسان، وما يجعله إذا كان في حلم من الأحلام، وقد رأى نفسه في ضيق أو في شدة، عندما يستيقظ يضحك أن هذا كله كان حلماً.

الأستاذ:

هذا السؤال أستاذ عدنان أجاب عنه الإمام علي رضي الله عنه حين قال: " علِم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ".

الإنسان يتوهم أنه لو كان غنياً أنه سينفق هذا المال، لكن الله يعلم ما إذا كان غنياً كيف كان سينفقه، لذلك الإنسان تلخَّص علاقته بربه يوم القيامة بكلمة واحدة:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

الإمام الغزالي عبر عن هذا المعنى فقال: " ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني ".

أي إنسان مصاب بالتهاب زائدة حاد أين هو المكان المناسب له ؟ غرفة العمليات في المستشفى كي تسكن آلامه، وإنسان تفوق في الامتحان أنسب مكان له التكريم، فليس في إمكان العبد أعظم مما أعطاه الله عز وجل، أحد الصحابة قال: " والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ".

ويوجد قول آخر رائع لأحد الصحابة الكرام: " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي" .

المذيع:

وهذه الناحية تشير إلى عظيم عمل المؤمن في دنياه ليكون في الآخرة من السعداء، إذ إنه يستغل كل ناحية فيما أشرتم إليه أنه لو كان قدره أن تكون نهايته غداً فما يزداد، لأنه قد وصل إلى الحل.

الأستاذ:

يوجد لابن عطاء الله السكندري كلام رائع، قال: " ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وقد يكون المنع عين العطاء ".

فالأب حينما يمنع ابنه من اللهو، ويحمله على الدراسة ليكون شخصاً مهماً في المجتمع، الابن حينما يكبر يحمد أباه على هذه الشدة.

المذيع:

يا سيدي، وهذه أيضاً على المؤمن أن يدركها إدراكاً كاملاً في نفسه، فإنه إذا ما قصرت به دنياه في جانب من الجوانب فإن عليه أن يعلم أن هذا قد يكون عين الرضا من الله تعالى عليه، فكما أشرتم قد يكون العطاء من المنح، والرسول عليه الصلاة والسلام بين في أحاديث كثيرة أن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، حتى يخلصه من ذنوبه، فإذا ما جاءهُ جاءه نقياً من أي شيء أو دنس.

الأستاذ:

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

(مسلم، أحمد)

وليس ذلك لغير المؤمن.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 20 - 29 : العبادات 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-07-31

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

إن من الرجال رجالاً تبقى أسماؤهم حية شامخة، وإن مضى الدهر عليهم والدهور، وإن من الناس أناساً يموتون وهم أحياء، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ترك لنا رجالاً ما تزال سيرتهم العطرة تملأ الأجواء والأكوان، أبو بكر الصديق هو الصديق، خليفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق، عثمان هو المتصدق المبتهل الذي كان ينفق أمواله في سبيل الله، الإمام علي هو بطل الإسلام، وعالمه، وفقيهه، وجاء من بعدهم أناس أيضاً ورجال أئمة في الخير والتقى، والاجتهاد والعمل أيضاً، فكانوا بحق كالملائكة، ولكن في قوالب آدميين، سيرتهم نحتذي بها، وأخبارهم نفتخر بها أيضاً، إذا أردنا أن نتوقف عند شخصية من تلك الشخصيات العظيمة التي نرفع بها رؤوسنا إلى السماء نقية ناصعة بيضاء، من جملة هؤلاء الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا الذي كان يقف على الجبل، وينظر إلى الوادي من تحته، ويذكر أنه كان يرعى لأبيه، وكان يوسعه تأنيباً أحياناً أو شدة، وما إلى ذلك، ويتحدث مخاطباً نفسه هو الذي كان يرعى ما يرعى، ثم صار رعيته أمة محمد عليه الصلاة والسلام عندما صار أميراً للمؤمنين، هذه الشخصية بقدر ما فيها من العنف في الجاهلية هي فيها من الرقة والشعور المرهف في الإسلام مع البقاء على قوته ورجولته، إذا تطلب الموقف ذلك، إذا أردنا أن نخوض في تاريخ هذا الإنسان، سيرته، أعماله يمكن أن نستفيد منه في واقعنا، فماذا يمكن أن نقول ؟ والمحطات كثيرة، والشواهد عديدة ؟

الدكتور راتب:

إن شاء الله تعالى، جزاكم الله عنا خيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام ربى أبطالاً، فكان عهده بحق عهد البطولات، من هؤلاء الأبطال الأفذاذ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

تعقيباً على ما تفضلتم به أنه كان مرة يخطب، فقطع خطبته، وقال: يا عمر، كنت راعياً لإبل على قراريط لأهل مكة، ثم تابع الخطبة، فلما نزل تعجب أصحابه من قطع خطبته، وهذه الكلمة التي لا علاقة لها بسياق الخطبة، جملة اعتراضية، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جاءتني نفسي، وقالت لي: ليس بينك وبين الله أحد، فأردت أن أعرفها قدرها.

فكان على تفوقه وعلى عبقريته متواضعاً أشد التواضع، الحقيقة في هذا اللقاء الطيب أتمنى أن يكون محور هذا اللقاء لقطات من سيرة هذا الخليفة العظيم الراشد، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

[الترمذي وأبو داود وأحمد]

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عين والياً، وأراد أن يمتحنه، قال: " ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده، بحسب الآية الكريمة، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم ـ دقق أستاذ عدنان، إشارة إلى حق العمل ـ لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلها بالمعصية ".

نظرة بعيدة، ورأي ثاقب، أن الإنسان حينما يعمل يتألق، وحينما لا يعمل ينحرف، والحقيقة أن العالم الغربي الآن أكبر مشكلة تقلق المجتمع البطالة، وفي العالم الثالث بطالة وبطالة مقنعة، فالإنسان حينما يعمل يتألق، وحينما يعمل يؤكد ذاته، فحينما يعمل يتزوج، وحينما يتزوج يحل مشكلة فتاة، وحينما تؤسس أسرة يشعر بالمسؤولية والأهمية، أدرك هذا الخليفة العظيم أن العمل حق لكل إنسان، قال: " إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلها بالمعصية ".

الحقيقة أيضاً أنت حينما توفر للإنسان رغيف خبزه وكرامته تأخذ منه كل شيء، أنا أقول: أعطِ الإنسان رغيف خبزه، يعني أعطه حاجاته الأساسية، وأعطه كرامته، وخذ منه كل شيء، يكمل هذه القصة أو هذا التوجيه والامتحان أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه جبلة بن الأيهم مسلماً، وهو ملك الغساسنة، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحب به، والنبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

رحب به على أنه ملك، وأحسن وفادته، جبلة بن الأيهم في أثناء طوافه حول الكعبة بدوي من فزارة داس طرف ثوبه، فانخلع ثوبه عن كتفه، وهو ملك، ولا يزال في عزة الملك، فالتفت إلى هذا البدوي من عامة الناس، من سوقة الناس، من دهمائهم فضربه ضربةً هشمت أنفه، فما كان لهذا البدوي إلا أن

يذهب على عمر ليشتكي، سيدنا عمر استدعى جبلة، وأحد الشعراء المعاصرين صاغ الحوار شعراً

فقال عمر:

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح

فقال جبلة:

لست ممن ينكر شيًّا

أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي

قال عمر:

أرض الفتى، لابد من إرضائه

ما زال ظفرك عالقاً بدمائه

أو يهشمن الآن أنفك

يخاطب ملكاً:

وتنال ما فعلته كفك.

فقال جبلة:

كيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟

هو سوقة، وأنا عرش وتاج

كيف ترضى أن يخرَّ النجم أرضاً ؟

يقول له عمر:

نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها

وأقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً.

فقال جبلة:

كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعزّ

أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

فقال عمر:

عنق المرتد بالسيف تحز

عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى

وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

هذا البدوي من عامة الناس، من طبقة الدهماء، من سوقة المجتمع، استطاع أن يأخذ حقه من علية القوم، إذاً كما قلت قبل قليل: حينما تعطي الإنسان رغيف خبزه، أي حاجاته الأساسية وكرامته تأخذ منه

كل شيء، لذلك علق بعضهم على هذه القصة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضحى بملِك، ولم يضحِّ بمبدأ، وفي المجتمعات كلما عظم المبدأ صغر الشخص.

الأستاذ عدنان: قد يقول قائل: إنه ضحى بالكبير من أجل الإنسان الصغير، إن صح القول، ولكن هذا إنما من أجل المبدأ.

الدكتور راتب: العدل أساس المُلك، يروى أن مجموعة غلمان كانوا في طرق المدينة، فرأوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذا هيبة، فلما رأوه تفرقوا إلا واحداً بقي واقفاً، رابط الجأش، ولكن بأدب، فلفت نظره، قال: يا غلام لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك، هذا الطفل رسم منهجاً لأمة، لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك.

الأستاذ عدنان: دكتور، هنا لابد من أن أتوقف عند ناحية أتصورها هامة بالنسبة لجيل الأطفال الذين يجب أن نعودهم على الشجاعة الأدبية، وهذا المثل الذي ذكرته يوضح الشجاعة الأدبية في أجمل صورها، إذ يجب أن يكون الطفل مهيئاً لها، لا أن يكون مثلاً صفيقاً وقحاً، ولا أن يكون ضعيفاً منهزماً متراجعا.

الدكتور راتب: لذلك يعد احترام شخصية الطفل أحد مبادئ التربية الأساسية، لأن الطفل حينما يقمع، وحينما يمنع من التصرفات السليمة تضعف شخصيته، ويصاب بعقد كثيرة جداً، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

وفي سيرته العطرة مواقف كثيرة تؤكد احترام شخصية الطفل، كان إلى يمينه طفل صغير، فجاءت الضيافة، فبحسب السُّنة يبدأ بمن على يمين رسول الله، استأذن النبي هذا الغلام أن يضيف من هو أكبر منه سناً، فلم يوافق، فأقر النبي عليه الصلاة والسلام موقف الغلام، وإصراره على أن يشرب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا من احترام شخصية الطفل، والحقيقة أنا أرى أن القدوة عامل أساسي جداً في التوجيه.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني "، التعليق اللطيف فصارت القرابة من عمر مصيبة،وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني، التعليق اللطيف: فصارت القرابة من عمر مصيبة.

يروى أنه رأى إبلاً سمينة فقال: " لمن هذه الإبل ؟ قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، وقد غضب، فلما جاء ابنه عبد الله، ورآه غاضباً عجب، قال: لمَن هذه الإبل ؟ قال: هي لي يا أبت، اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت ؟ يعني أية مخالفة ارتكبتها ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنه: ويقول الناس: ارعوا هذه الإبل، فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين.

الأستاذ عدنان: ولا يسمن غيرها طبعاً.

الدكتور راتب: قال: بعْ هذه الإبل، وخذ رأس مالك، ورد الباقي إلى بيت مال المسلمين.

الأستاذ عدنان: هذه ناحية هامة جداً.

الدكتور راتب: خذ رأس مالك، ورد الباقي إلى بيت مال المسلمين، إنها سمنت، لأنك ابني.

الأستاذ عدنان : وحق للناس إذاً أن يبتعدوا عن القرابة منه.

الدكتور راتب: هذا إدراك دقيق جداً لخطورة القدوة في المجتمع، كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني.

يروى أن الذين جاؤوا، بكنوز كسرى، ووضعوا الكنوز أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عجب من أمانتهم جاؤوا بأموال طائلة، جاؤوا بمجوهرات جاؤوا بالذهب حملوه بدقة بالغة إلى المدينة، فقال عمر: سبحان الله ! فهمّ عليه سيدنا علي كرم الله وجهه، وقال: يا أمير المؤمنين، أعجبت من أمانتهم ؟ لقد عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا، كان قدوة، ومن السهل جداً أن تنطق بكلام مقبول، لكن ليس من السهل أن تكون في مستوى كلامك، فعملاق الإسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سِرٌّ بطولته أنه طبق في حياته ما قاله للناس، عففت فعفوا، ولو وقعت لوقعوا.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه رسول عامله على أذربيجان، وهذا ملمح لطيف، أن الدعوة الإسلامية في عهد عمر وصلت إلى أذربيجان، ومع هذا الرسول هدية ثمينة، وصل على المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب عمر، فتوجه إلى المسجد، فإذا في المسجد رجل يبتهل إلى الله، ويقول: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ قال له بعد أن انتهى من صلاته: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا عمر، قال: يا سبحان الله ؟ قال: إني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، وبعد أن صلوا الفجر أخذه إلى بيته، وخيره بين أن يأكل مع فقراء المسلمين، وبين أن يأكل في بيته، فهذا الرسول بحسب المألوف أن طعام الأمير نفيس جداً، فاختار أن يأكل في بيت عمر، فقال: يا أم كلثوم، ماذا عندك من طعام ؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، فقال: هاته لنا، وكان فقراء المسلمين يأكلون اللحم، فأكل، وشرب، وحمد الله على أن أطعمه،

وسقاه، وقال: ما خطبك ؟ قال: جئت بهذه الهدية من عاملك على أذربيجان، فتح الهدية، فإذا هي طعام نفيس، أكل لقمة، فقال: يا هذا، أيأكل عامة المسلمين هذا الطعام ؟ قال: لا، قال: إنه طعام الخاصة، يعني طعام الأغنياء، فلفظ اللقمة من فمه، وقال: لا آكل إلا مما يأكل منه فقراء المسلمين، وكأنه عنف واليه على أذربيجان، وقال: كيف يعنيك ما يعنيهم إن لم تأكل مما يأكلون ؟

الحقيقة ثمة بطولات لا يصدقها العقل، كان من الزهد بمكان.

الأستاذ عدنان: هنا نستطيع أن نعلق قائلين: ولهذا انتشر الإسلام انتشاراً سريعاً، وبشكل سلمي في هذه البقاع التي انتشر فيها ليس هنا في أذربيجان كما قلت، إنما في بقاع كثيرة من العالم، انتشر الإسلام من خلال أن رأى الناس قدوةً يمكن أن يقتدي بها، وكانوا هم المسلمين.

الدكتور راتب: سيدي، أنا كنت أقول دائماً: لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن والله الذي لا إله إلا هو ما خرج الإسلام من مكة، لقد وصل إلى أطراف الدنيا، وصل إلى الصين شرقاً، وإلى المغرب غرباً، لأنه مجموعة قيم مارسها الصحابة الكرام، فلفتوا أنظار الناس، سهل جداً أن تتكلم بالقيم، ولكن البطولة أن تكون في مستواها، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحق قدوة لمن حوله، من تواضعه الشديد أنه حينما تسلم الخلافة بعد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه نزل درجة، لم يقف على الدرجة التي وقف عليها أبو بكر، فقال: ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مقام أبي بكر، ويروي التاريخ أن عثمان لم ينزل هذه الدرجة، ومضت الأيام أحد خلفاء بني أمية سأل وزيره: لمَ لم ينزل عثمان درجة كما فعل عمر ؟ قال: والله يا أمير المؤمنين، لو فعلها لكنت في قعر بئر، فكان متواضعاً أشد التواضع.

كان يقول: كنت سيف رسول الله وخادمه، وجلواده، فكان يغمدني إذا شاء، النبي عليه الصلاة والسلام يمثل الرحمة، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل الشدة، تعلمون أن أحد من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حاطب بن بلتعة، أرسل كتاباً إلى كفار قريش يقول فيه: إن محمداً سيغزوكم، فخذوا حذركم، بلغ النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر، واستدعى المرأة التي معها الكتاب، وفتح الكتاب، فقرأ فيه، فاستدعى حاطب بن بلتعة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: لا يا عمر، إنه شهد بدراً، تعال يا حاطب، لماذا فعلت ما فعلت ؟ قال: والله يا رسول الله ما كفرت، ولا ارتددت، ولكني لصيق في قريش، ولست من أصلابهم أردت بهذا أن أحمي مالي وأهلي، وأنا موقن أن الله سينصرك، فقال عليه الصلاة والسلام: إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً، كان يقبل عذر المعتذر، وهذا من بطولة النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: لا يا عمر، إنه شهد بدراً.

فكان يقول: كنت خادم رسول الله وسيفه المسلول وجلواده، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي عني وهو راض، والحمد لله على هذا كثيراً، ثم كنت خادم أبي بكر وجلواده وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء، وتوفي وهو عني راض، الحمد لله لهذا كثيراً، قال: ثم آلت الأمور إلي، يعني كان عمر يمثل دور القوة، وسيدنا الصديق أو سيدنا رسول الله يمثلان دور الرحمة والعطف، الآن الأمور آلت إلى عمر، قال: أيها الناس، اعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت، وإنما تكون على أهل البغي والعدوان، أما أهل التقوى والعفاف فسأضع خدي لهم ليطئوه بأقدامهم، بعد موت الأم يأخذ الأب دور الأب والأم معاً، ثم قال: أيها الناس، خمس خصال، خذوني بهن، لكم علي ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحق، ولكم علي ألا أنفق المال إلا بحقه، ولكم علي أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، ولكم علي ألا أجمركم في البعوث، فإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، خمس خصال خذوني بهن، هذا من سياسة هذا الخليفة الراشد رحمه الله، ورضي عنه.

الحقيقة هناك ملمح اقتصادي عند هذا الخليفة الراشد رائع جداً، وكأنه سبق عصره بمئات السنين، يروى أنه زار بلدة، فإذا بالفعاليات الاقتصادية كلها بأيدي غير المسلمين، فعنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ أدرك أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، وأن القوة من الإيمان لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف))

[مسلم]

إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً، وإذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون غنياً، أما إذا كان طريق القوة أو طريق الغنى محفوفًا بالمعاصي والآثام يعد الضعف عندئذ وسام شرف، المؤمن مطلوب أن يكون قوياً، المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والمال قوة والمنصب قوة، والعلم قوة، فكان رضي الله عنه يحب أن نكون أقوياء، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم، كأنه أدرك مسبقاً أن هناك معركةً طاحنة بين المنتج والمستهلك، المنتج يتمنى أن يبقى جميع الناس مستهلكين، لتروج تجارته، والمستهلك الفقير يتمنى أن يصنع حتى يكتفي ذاتياً، ويقوى، ويصدر، قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟

الحقيقة، لازلنا في ومضات من مواقف هذا الخليفة الراشد، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وضع له طعام نفيس، ذبحت ناقة، وضع له أطيب ما في لحمها أمامه، فبكى، وقال: بئس الخليفة أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها، هو ينطلق من أن الخلافة تكليف لا تشريف، قال: لست خيراً من أحدكم، ولكنني أثقلكم حملاً، فلما وضع له طعام نفيس قال: بئس الخليفة أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها.

الأستاذ عدنان: من خلال حديثكم هذا يا دكتور أستطيع أن أقول: إن هذه الشخصية نحن لا نتحدث في الحقيقة عن شخصية لمجرد أنها شخصية، إنما نتحدث عن شخصية آثرت أن يكون الإسلام العملي وتشريعاته بينة في شخصيته، ونحن إنما نتحدث عن الشخصية لتوافقها مع المنهل الشريف في الأسلوب السليم، والعمل الصحيح الذي كان على منهج رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، من خلال هذا المنطلق، وأظن أن الوقت بقي فيه دقيقة واحدة.

الدكتور راتب: عالم أمريكي زار بلداً آخر، والتقى مع الجالية الإسلامية، فقال: في المدى المنظور أنا أستبعد أن يستطيع العالم الإسلامي أن يلحق بالغرب، ولكن العالم كله سيركع تحت أقدام المسلمين إذا أحسنوا فهم دينهم، وأحسنوا تطبيقه، وأحسنوا عرضه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 21 - 29 : العبادات2.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-07

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

موضوع العبادة: أنا أعبد الله تعالى، هل عبادتي تراني لأنني وجدت الآن مثلاً في مسجد مع مجموعة من الناس لأؤدي مجموعة من الفرائض، هل هذه هي العبادة ؟ هل العبادة أنني جاءني ضيف فقمت بواجبي، أم قصرت ؟ هل العبادة أن يكون ظرف معين فأديت، أو قصرت ؟ هل هناك دخل للعبادة ؟ هل العبادة لمجموع هذا ؟ هل العبادة شمولية ؟ هل يمكن في وقتنا الحاضر الذي نعيش فيه ما بين صراع الحضارات، أو المدنيات، أو الحضارات وحواراتها، هل هذا أن يقوم الإنسان بدوره بالشكل الجيد ضمن ما يجب أن يكون فيه، ضمن المجموعة البشرية، هل هذا

عبادة ؟ وما معنى العبادة الشمولية بمعنى آخر ؟ الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، نحن في حلقة سابقة بينا أن العبادة علة وجود الإنسان على سطح الأرض، لكن بتعريف آخر، أن الإنسان أعقد آلة على سطح الأرض تعقيد إعجاز، لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة البالغة التعقيد صانع حكيم، هو الله عز وجل، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات الصيانة، فانطلاقاً من حرص الإنسان على سلامته، وسعادته، وعلى حسن مردوده، وتحقيق إحداثه التي خلق من أجلها فلابد من أن يتبع تعليمات الصانع، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، الإنسان مخلوق مكرم.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

والإنسان هو المخلوق المكلف بعبادة الله عز وجل،

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات: الآية 56)

ولكن الإنسان في الأصل هو المخلوق الأول رتبة، بدليل أن الله عز وجل حينما قال:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان قال: أنا لها وطمح في أن يكون في المرتبة الأولى، ولكن إذا وفى بعهده، وحينما لا يوفي بعهده بطاعة ربه يكون في أسفل سافلين.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

ثم إن لم يكن كما أراد الله كان في أسفل سافلين، " ابن آدم أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلمني فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

هذا الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، ولابد من أن يغذى العقل بالعلم، والقلب بالحب، والجسم بالطعام والشراب، الإنسان فيه دوافع للطعام والشراب، وللشهوة والجنس، ولتأكيد الذات، فلا بد من حركة، يوجد دوافع قوية جداً، هذه الحركة كيف تنضبط ؟ لا بد للصانع الحكيم أن يعطيه منهجاً وعقلاً، وأودع فيه شهوة، فالشهوة هي القوة المحركة ، والعقل هو القوة الضاغطة، والطريق هو الشرع، فالبطولة أن يعمل العقل بضبط حركة الإنسان فيبقى على منهج الله، الحركة حركة شهوات، يريد أن يأكل فينبغي أن يعمل، يريد أن يتزوج فيجب أن يستقيم، أو لا يستقيم، يريد أن يؤكد ذاته، إما بالخير أو بالشر.

انطلقنا أن هذا الإنسان قبل حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

فلابد لهذا الإنسان من منهج تفصيل، أكاد أقول، ولا أظن أني أبالغ: يكاد يكون هذا المنهج التفصيلي عشرات ألوف البنود، من هذه البنود بضعة بنود تعينه على الاتصال بالله، هي العبادة الشعائرية، لكن كيف يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويربي أولاده، ويكسب المال، وينفقه، ويفرح، ويحزن، يحارب، يسالم و... أكاد أقول: إن بنود المنهج الإلهي تزيد على بضعة آلاف كيف أن المسلمين نسخوا هذه البنود إلى بنود عديدة فقط، لذلك تخلفوا، وأصبحوا في مؤخرة الأمم، لأن المنهج الإلهي الذي صمم ليكون من أقوى الأمم خلفوه وراء ظهورهم، نشهد من هذا أن العبادة شمولية. في حلقة سابقة تحدثت عن العبادة الشعائرية، أما الآن فمع التعاملية، العبادة بالدرجة الأولى هناك أنواع تنتظرها الزمرة الأولى، عبادة الهوية، من أنت ؟ أنت إنسان غني، العبادة الأولى إنفاق المال أنت لم يقمك الله غنياً إلا لتنفق المال.

لذلك أول عبادة في حق الغني أن يعاون بماله الفقراء والمحتاجين، فالغني نقول له: عبادتك الأولى إنفاق المال، وقد أكد النبي هذه الحقيقة فقال،

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيِ اللَّه عَنْهمَا قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

(صحيح البخاري)

العالم عبادته الأولى تعليم العلم، أقامك الله قوياً عبادتك الأولى إحقاق الحق، وإنصاف الضعيف والمظلوم، هذه العبادة نسميها عبادة الهوية، أنا هويتي في المجتمع غني، أو عالم، أو قوي، أو هوية امرأة عبادتها الأولى حسن رعاية الزوج والأولاد.

قال صلى الله عليه وسلم:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

(ورد في الأثر)

فحبذا لو أن المسلمين يفقهون حقيقة العبادة، المرأة التي تحسن رعاية زوجها وأولادها هي في أعلى درجة، والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام.

المذيع:

وهنا أذكر دكتور أنه يمكن أن يقول بعض الناس: وهل الزوجة فقط لتكون في تبعلها زوجها دون أن يكون الزوج بالمقابل كذلك ؟ أظن أن ابن عباس أشار لهذه الناحية، وبين أن الأمر على التساوي.

الأستاذ:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

إذا كان هناك درجة للرجل هي درجة القيادة فلابد للمركبة من ربان واحد، لا بد من طيار، وطيار مساعد، أما الكلمة الفصل فللأول، هذه درجة القيادة درجة واحدة.

أول زمرة من أنواع العبادات عبادة الهوية، الغني له عبادة، والعالم له عبادة، والقوي له عبادة، والمرأة لها عبادة، القواسم المشتركة في العبادة هي الكم الكبير في البشر.

أن نؤمن بالله واليوم الآخر، وأن نصلي، ونصوم، هذا في حركتنا اليومية، أما الزمرة الثانية فعبادة الظرف.

مثلاً: إنسان عنده ضيف، أول عبادة يرضاها الله منه فضلاً عن الصلاة إكرام الضيف، عنده أب

مريض، قبل أوراده وأذكاره رعاية صحة الأب والمريض، عنده ابن في الجامعة، عنده امتحان، يجب أن يهيئ لهذا الابن الدراسة الجيدة.

فالعبادة عبادة الظرف، أنت في ظرف استثنائي مثلاً: أسرة تعاني مشكلة، كيف تحل هذه المشكلة ؟ هذا الإنسان الحصيف الموفق يقتضي أن يفعل في هذا الظرف الشيء المناسب.

المذيع:

ولنا أن نذكر قصة للعبرة.

الأستاذ:

كان النبي ع وأصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاة، قال أحدهم:

((عليَّ ذبحها، وقال الثاني: عليَّ سلخها، وقال الثالث: عليَّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: عليَّ جمع الحطب، لأن وقتها قام الرابع ليصلي نفلاً، أول عبادة أن تعاون إخوانك، فلما قال له أصحابه: يا رسول الله، نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفوني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

(ورد في الأثر)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

(مسند الإمام أحمد)

في بعض الغزوات أناس أفطروا، وأناس صاموا، فالذين أفطروا هيئوا الطعام للصائمين، فسرّ النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ذهب المفطرون بكل الأجر.

في السفر مندوب أن يفطر الإنسان، لكن كيف هذا الذي أفطر قام بعبادة، هو دور إضافي.

الزمرة الثالثة: عبادة الوقت، هذا وقت الفجر وقت الأذكار، لإن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله في الليل.

أذكر أن سيدنا عمر جاءه مندوب من أذربيجان، فوصل المدينة ليلاً، فكره أن يطرق بابه، فتوجه للمسجد، فليس هناك إضاءة قوية، سمع إنسانًا يناجي ربه، قال: يا رب، هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ قال: من أنت، سبحان الله ؟ قال: أنا عمر، قال: أمير المؤمنين ! قال: نعم، قال: ألا تنام الليل ؟ قال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي عند ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي.

إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله عملاً بالنهار لا يقبله في الليل.

هل يمكن للإنسان أن يستيقظ ليقوم بحسابات وقت الصلاة، هذا وقت صلاة وذكر، وصلاة جمعة، ليس الولي الذي يطير في الهواء، أو يمشي على وجه الماء، لكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام، أن يجدك الله حيث أمرك، ويفتقدك حيث نهاك، هذه عبادة الوقت، بدأنا بعبادة الهوية، ثم عبادة الظرف، ثم عبادة الوقت، والآن عبادة العصر.

لو أن الطرف الآخر أراد إفقار المسلمين، تكاد العبادة الأولى أن تكون كسب المال الحلال، استخراج الثروات، والكفاية الذاتية، وتوفير ظروف العمل للناس، لأن المسلم يحتاج لحاجات دنيوية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ))

(مسلم)

العبادة حينما يريد الطرف الآخر إفقارنا ينبغي أن نسعى لاستخراج ثرواتنا، ونكتفي بصناعتنا، ونوظف أبناءنا في أعمال منتجة، هذه عبادة أيضاً، متى ؟ لمن عرف الله والآخرة، ولمن ائتمر، بما أمر الله، وانتهى عما نهى عنه، الآن حركته في الحياة تلبية حاجات المسلمين، هذا الذي يسميه الناس يحمل هموم المسلمين، وهموم أمته، فيسهم في تخفيف المتاعب وحل المشكلات.

لو أن الطرف الآخر أراد إضلالنا، فأشاع النظريات الفاسدة، والنظريات الهدامة، وبدائل للدين، ودعا إلى التفلت، وجاء بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، وجاء بضلالات وتهم للدين، وانتقض الدين بأشياء فيها افتراء كبير، ما هي العبادة الأولى ؟ أن ترسخ معالم الحق، وتوضح الحق، وتبين الأدلة والبراهين والأهداف، والتجديد في الدين له تعريف دقيق جداً، هو: أن أنزع كل ما علق بالدين مما ليس منه، هذا هو التجديد، أن هذا هو الدين، دين الله توقيفي كامل.

(أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

فالتجديد يعني شيئاً واحداً، أن أنزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه.

فحينما يشيع في الأوساط الثقافية الضلالات، والمبادئ الهدامة، والنقد الجارح للدين، وتهميش الدين، وأنه ليس لهذا الوقت، هذه التهم ينبغي أن يتصدى لها العلماء، وأن يأتوا بالأدلة، ويوضحوا والبراهين، هذه مهمة كبيرة، هذه أول عبادة للعلماء في زمن الضلالات والفساد.

لو أن الطرف الآخر أراد إفساد شبابنا عن طريق الغزو الثقافي والإباحيات، وما إلى ذلك يجب أن ننهض، لأن الشباب مستقبل الأمة، يجب أن نحصنهم بمناهج إسلامية منضبطة، ونملأ أوقات فراغهم،

وننشط حركتهم في الحياة، وهذه عبادة.

حينما نري أبنائنا أعمال فنية فيها تحقير لبعض القيم، والله أنا آتي بالدلائل فيها تكريس لقيم المسلمين، والأخلاق، والشجاعة، والبطولة، والعفة، والوفاء، والصدق والأمانة، هذه أيضاً عبادة، لأن تحصن شباب وأطفال المسلمين من الغزو الذي يأتينا عن طريق هذه الأطباق البعيدة أمرٌ عظيم.

لو أن الطرف الآخر أراد فضلاً عن إفقارنا وإضلالنا وإفسادنا، أراد إذلالنا، ينبغي أن نضحي بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، لنصد هذا العدوان، فالإسلام دين شمولي دين كامل، وأرى ما من طموح يطمح له المسلمون كأن ينتصروا على أعدائهم، لكن هناك منهج الإله، وضع منهجًا، كأن النصر له ثمن، وثمن دقيق جداً.

هناك شرطان للنصر كل منهما شرط لازم غير كاف، لابد من أن نؤمن، أيّ إيمان ؟ الإيمان الذي أراده الله، بدليل أن الله عز وجل حينما قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور)

أي دين وعد بتمكينه ؟ الذي يرتضيه هم، فإن لم يمكّنوا معنى ذلك أن فهمهم للدين، وتعاملهم معه، وعرضه غير مرضيّ، فلذلك لم يمكنوا في الأرض، فإذاً نحن بحاجة ماسّة للإيمان الذي يرضي الله عز وجل، وأنا أقول: الإيمان الذي يرضي الله هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، إن لم يحمل الإيمان صاحبه على طاعة الله فليس إيماناً مجدياً، ولا ينتفع منه، بدليل أن إبليس كان مؤمناً، قال:

(رَبِّ فَبِعِزَّتِكَ)

، وقال:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

وقال:

(خَلَقْتَنِي)

فآمن به خالقاً، وبالآخرة، وبالله رباً وعزيزاً، ومع ذلك فهو إبليس.

الإيمان الذي يحمل المؤمن على طاعة الله شرط لازم غير كاف.

الشرط الثاني: أن نعد للطرف لآخر العدة، القوة، لكن رحمة الله بنا أنه ما طالبنا أن نعد له القوة المكافئة، وقد يكون هذا صعباً، بل بالقوة المتاحة، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال)

أن نؤمن الإيمان الذي يحملنا على طاعة الله، ونعد لأعدائنا العدة التي نستطيعها، عندئذ نكون قد حققنا الإيمان.

الله عز وجل موجود، وغايته دقيقة.

قرأت رسالة جاءتني من عالم كبير في أميركا، هداه الله للإسلام، زار الجالية الإسلامية في بريطانية، قال كلامًا رائعًا: أنا أعتقد أنه في المدى المنظور لا يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن إيمان قطعي أن العالم كله سيركع أمام المسلمين، لأن مع المسلمين منهج فيه خلاص العالم، ولكن بشرط أن يحسنوا فهم دينهم، وثانياً: أن يحسنوا تطبيقه، ثم عرضه، والله الذي لا إله إلا هو لو استطاع المسلمون فهم دينهم على حقيقته لنجحوا.

مثلاً:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير من صيام شهر، واعتكاف في مسجد هذا))

السبب أن سيدنا ابن عباس كان معتكفًا في ، فرأى رجلا مهمومًا، قال: ما لي أراك مكتئباً ؟ قال: ديونεمسجد رسول الله ركبتني، لا أطيق سدادها، قال: لمن ؟ قال: لفلان، قال: أتحب أن أكلمه لك ؟ قال: إن شئت الآن، فخرج ابن عباس من معتكفه، قال له أحدهم: يا ابن عباس، نسيت أنك معتكف ؟ قال: لا، والله ما نسيت، ولكنني سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب، وبكى، يقول:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكاف في مسجد هذا))

(الديلمي في الفردوس)

فحينما أفهم الدين على حقيقته، وأتعامل معه بصدق، وأطبقه، وأعرضه للناس ديناً متوازناً ليس منحرفاً ولا متطرفاً، أكون قد حققت للبشرية طريق الخلاص.

المذيع:

من خلال ما ذكرت نرجو الله تعالى أن يسلك المسلم سبيل الهوية الشمولية، ليكون مطبقاً للعبادة التي أرادها الله له، إن كان من خلال عبادة الشعائر، أو عبادة التعامل، وفي عبادة التعامل ما ذكرته من عبادة الوقت، والظرف، والعصر، و... هذه عملياً تدخل في نطاق العبادة التعاملية، لأنها أشمل في نطاق الإنسان ومن حوله، أما العبادة التعبدية فهي لا شك أنها بين الإنسان وربه، وهي التي تعطيه المدد من أجل أن يكون متعاملاً تعاملاً سليمًا في عبادته التعاملية، فإن كان مقصراً في عبادته الشعائرية انقلب سوءاً على عبادته التعاملية، وإن كان صادقاً في عبادته الشعائرية انعكست خيراً وإيجاباً على عبادته التعاملية، إذ لا نجد إنساناً يوماً يمكن أن يكون صادقاً في عبادته الشعائرية، ونجده بعد ذلك

يروح ذات اليمين وذات الشمال، قد نجد إنسانًا في عبادته الشعائرية يأخذ المظهر، فنجده مع الآخرين على غير السواء، وغير الصراط المستقيم.

نرجو الله تعالى أن تكون عباداتنا لله تعالى عبادة شمولية، نلتزم فيها الشعائرية والتعاملية بالشكل السليم، لنكون مما رضي الله عنهم ورضوا عنه.

الأستاذ:

هذا الدين دين توقيفي، إذا أضفنا عليه تفرقنا، وإذا حذفنا منه ضعفنا، أن ننزع عن الدين كل ما علق منه.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 22 - 29 : الخطاب الديني 1 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-08-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

كثر الحديث، وكنا قد تطرقنا في دروس آخرين إلى موضوع الخطاب الديني، هل يحمل أصول تطوره؟ أم هو في الأصل ثابت لا يتغير، طالما أنه ضمن الحقيقة والحق، أم أن الحق أولى أن يتغير من زمان ومكان إلى زمان ومكان آخر، وبالتالي تتغير أصول هذا الخطاب حسب متطلبات العصر، هل يمكننا أن نقول: إن ما كان صالحاً في الماضي يكون صالحاً في الحاضر ؟ أم لا بد من إجراء بعض التعديل ؟ هل الخطاب الديني يعني في تطوره تطوراً في الثوابت ؟ أم أن الثوابت هي ثوابت آخر، ولكن أسلوب الخطاب فيها يمكن أن يتطور فيما يناسب العصر ؟ مفاهيم كثيرة تدخل ضمن هذا النطاق من القول الذي يحمل عنوان تطوير الخطاب الديني، ترى ما هو التوجيه الإسلامي في هذا، وكيف يكون تطوير الخطاب الديني ؟

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، قبل أن نخوض في الإجابة عن هذه الأسئلة الدقيقة جداً، والتي هي محط اهتمام العالم الإسلامي وغيره لا بد من مقدمة.

الخطاب الديني هو الدعوة إلى الله، هو فرض عين على كل مسلم، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء، ما الدليل على أن الخطاب الديني أو الدعوة لله عز وجل فرض عين على كل مسلم قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

فالإمام الشافعي رحمه الله تعالى عدّ التواصي بالحق حد أركان النجاة، ولئلا يفهم الأخ المشاهد أن كل مسلم عليه أن يكون خطيب مسجد أقول: الدعوة لله كفرض عيني في حدود ما تعلم، ومع من تعرف،

ليس غير، يؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً...))

(صحيح البخاري)

أيْ إنّ أيّ مسلم حضر خطب جمعة، أو ندوة، أو قرأ كتاباً، أو اطلع على موضوع إسلامي، وأعجب به، وشعر أنه مطابق للحقيقة، فهذا الذي قرأه، وتأثر به أسمعه مَن حوله، إلى أولاده، وزملائه، وجيرانه، وأصحابه، في لقاءات متعددة، في كل المناسبات، هذا فحوى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

فالدعوة إلى الله فرض عيني على كل مسلم، بل هي أحد أركان النجاة، هناك دليل آخر، هو قول الله عز وجل:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف)

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة نقف قليلاً عند كلمة بصيرة، دعوة للدليل والتعليل، الدين توقيفي، وهو من عند الله، فتدعو إلى الله وفق منهج الله، وفق ما أمر الله، فالدعوة إلى الله : فرض على كل مسلم، لأن كل مسلم يتبع رسول الله

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة ليس متبعاً لرسول الله

وفي آية أخرى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران)

استنباط آخر، الذي لا يدعو إلى الله وفق منهج الله لا يحب الله عز وجل، فبهذه الآيات وتلك الأحاديث يتضح أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، ولكن في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، ليس غير، وبهذا تتسع دوائر الحق، وتضيق دوائر الباطل، تكون الدعوة لله فرض عيني محافظة على وجود هذا الدين، فضلاً عن تنميته، على أن هناك دعوة لله كفرض كتابي، والتبحر في العلم الشرعي، وعلم العقيدة، والتفسير، والفقه، والسيرة، والتفرغ لها، وامتلاك الأدلة التفصيلية القاطعة المانعة، ثم نقل هذه الحقائق بأسلوب تربوي واقع حكيم، هذا فرض كفاية يقوم به المتخصصون،

هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران)

بعضكم ينبغي أن يتفرغ للتبحر في العلم، والتفرغ له، والدعوة إليه بأسلوب حكيم، تربوي، علمي، جاد.

هذا الكلام يسوقنا إلى فكرة خطيرة، أنه من دعا إلى الله بمضمون هجين، أو بسطحية واضحة، أو دعوة تفتقر للدليل العقلي والواقعي، أو دعا إلى الله بعمق وأدلة، لكن لم يجد المدعو في الداعي مصداقية فيما يقول، قال بعض العلماء: هذا المدعو بهذا المضمون الضحل غير المتماسك، وبأسلوب غير علمي، ولا تربوي، أو بمضمون عميق، وبأسلوب تربوي، لكن يفتقر المدعو إلى المصداقية، لا يعد المبلّغ بهذه الطريقة مبلغًا عند الله عز وجل، ويقع إثم تفلته على من دعاه بهذه الطريقة.

فالدعوة إلى الله فرض كفائي وعيني بأدلة الكتاب والسنة، فلا بد من الدعوة إلى الله، ولكن الحديث في هذه الأيام كثر، كما تفضلتم على تجديد الخطاب الديني، هذا الكلام دقيق جداً، وأنا مضطر على توضيح الحقيقة على الشكل التالي:

الدين توقيفي، أي إنه محصور في الكتاب والسنة، والنصوص تامة، والدليل قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

فالإتمام كما قال علماء التفسير عددي، والإكمال نوعي، أي إن عدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، وان طريقة المعاينة كاملة نوعاً، وأية إضافة على الدين اتهام له بالنقص، وأي حذف للدين اتهام له بالزيادة.

سأضع بين أيدي الإخوة المشاهدين حقيقة أظنها خطيرة، أن المسلمين حينما حذفوا من دينهم ضعفوا، وحينما أضافوا إليه تفرقوا، الدين توقيفي، فلا مجال لكلمة تطوير، أو تجديد إلا بمفهوم آخر، وأنا أتمنى أن يكون الكلام دقيقًا وواضحًا، التجديد في الدين يعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه.

السبب أن الله كامل، وأكبر ثابت في علم العقيدة هذا الكون، يشهد بكمال الكون، ولحكمة ما في الكون، ولرحمة ما في الكون، وقوة، وغنى الخالق الكون كله ينطق بوجود الله، ووحدانيته وكماله، ومن المسلمات أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

مثلاً: برج العقرب فيه نجم صغير، اسمه قلب العقرب، متألق، لونه أحمر، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون كيلو مترًا، والشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، وهذا النجم في برج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، في الكون ما يزيد على مليون مليون مجرة، وفي المجرة الواحدة ما يزيد على مليون مليون نجم، هذا الكون العظيم بالمجرات، بالمذنبات، بالكازارات، بالكواكب، والشموس، والأقمار، بالأرض، بالجبال، بالبحار، بالأطيار بالأسماك، الإنسان بأجهزة معقدة جداً هذا الخالق العظيم لا يمكن أن يكون في كلامه خلل، مستحيل وألف مستحيل أن يكون هناك خلل في الدين، أو في النصوص، لكن الخلل في فهمنا.

لذلك أذكر هذه القصة: عالم كبير من علماء النفس في أميركا هداه الله إلى الإسلام، وزار بريطانيا، والتقى بالجالية العربية الإسلامية هناك، يقول هذا العالم كلامًا رائعً: أنا لا أصدق ـ والكلام مع التحفظ ـ أن يستطيع العالم الإسلامي في المدى المنظور اللحاق بالعالم الغربي، لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان، ومعتقد أبلغ الاعتقاد أن العالم كله سوف يركع أمام أقدام المسلمين، لأن في الإسلام خلاص العالم، ولكن بشرط بعد شروط ثلاثة: أن يحسن المسلمون فهم دينهم، ويحسنوا تطبيقه، ويحسنوا عرضه.

فحينما أتكلم عن التجديد والتطوير أعني أن ننزع عن الدين كل ما علق منه مما ليس منه، لأن هذه الإضافات شوهته، وحملت الناس على رفضه، ومزقت العالم الإسلامي، وجعلت بأس المسلمين فيما بينهم، كما لا بد أن ننزع عن الدين كل ما علق منه مما ليس منه.

أستاذ عدنان في دمشق بناء أثري مشهور، هو محطة الحجاز، هذا البناء مع تراكم الغبار، ودخان المركبات أصبح طبقة سوداء، فجاءت شركة وضربته بالحجر، فأعادت له رونقه، هذا المثل رائع جداً في تطبيقه على الدين، أن ننزع عن هذا البناء كل ما علق به مما ليس منه.

مثل آخر: نبع بردى نبع عذب صاف، لكن هناك روافد كثيرة تصب عليه، جعلت المياه في مصبه مياه سوداء، فالمطلوب العودة إلى ينابيع الدين الصافية كما أنزله الله.

لذلك حدث تطوير سلبي، وإضافات، وتشويهات، ومبالغات جعلت الخطاب الديني مرفوضاً أحياناً، أي هي التي دعت المفكرين والإسلاميين وغير الإسلاميين أن يجدِّدوا أو يطوِّروا في هذا الدين.

المذيع:

دكتور، هنا ناحية عامة، ذكرتم أن ننزع عن الدين كل ما علق منه مما ليس منه، ونحذف ما ليس منه من خلال أعراف وتقاليد الناس، هنا مرحلة ثانية، نحن الآن إذا حذفنا ما أضيف، وأعدنا ما حذف نعود لجوهر الدين، الآن هذا الجوهر هل يمكن عرضه من ألِفه إلى يائه دفعة واحدة، وبالشكل المباشر الذي يتساوى فيه من في نفسه كما قيل: اللهم ارزقنا إيماناً كإيمان العجائز، والطرف الآخر الذي لا يريد أن يأخذ أي فكرة تأتيه إلا من خلال دراستها، وتحريها، والتجربة فيها، إن كان أمر التجربة مقدور عليه.

الأستاذ:

أستاذ عدنان، أعتقد، وأرجو أن أكون مصيباً في اعتقادي أن جوهر الدين ينقسم قسمين، ثوابت ومتغيرات، الثوابت لا يمكن أن تمس، لأنها تمثل الجانب الثابت في الإنسان، في أي مكان وزمان،

وفي أي قطر وعصر ومصر، الإنسان فيه ثوابت، والمشكلة الكبيرة جداً أن العالم الغربي ألغى هذه الثوابت، فجعل كل شيء متغيِّرًا حسب البيئة والوضع، فما كان حرامًا في مكان يعد مباحًا في مكان آخر، هذه فكرة خطيرة جداً، لدرجة أنها تلغي كل القيم الثابتة، فأنا أعتقد أن الشيء الثابت في الإنسان الذي لا يتبدل ولا يتغير، ولا يطرأ عليه تعديل ولا تطوير مغطى بنصوص قطعية الدلالة، لا تحتمل أي تأويل، ولا اجتهاد، ولا تفسير، لو أني كتبت رسالة لإنسان: أنْ أعطِ فلانًا ألف وخمسمئة درهم، هذا الآن قطعي الدلالة، لا يحتاج لمجتهد ولا مؤول، ففي القرآن والسنة كلام من هذا القبيل، قطعي الدلالة يغطي الثوابت في الإنسان.

مثلاً: إنسان ولدته أمه، واعتنت به اعتناء فائقًا، الإساءة إلى الأم من ثوابت الإنسان، محرمة في كل الأديان والأعراف في كيان الإنسان، فهناك ثوابت لو أحصيناها لوجدناها كثيرة، الصدق الإتقان العمل قيمة ثابتة، أما الكذب فشيء محرم، يتلف الحياة البشرية، أما الأشياء المتلفة في الإنسان، والتي يمكن أن تخضع للعصر والتطور فهذه مغطاة بنصوص ظنية الدلالة، لذلك عمل المجتهدين والفقهاء في القسم الثاني من هذه النصوص، لو قلت لإنسان: أعطِ فلانًا ألف درهم، ونصفه، كم هذا المبلغ !!!؟ فهذا النص ظني الدلالة، هو الذي يغطي القسم المتغير في الإنسان.

يوجد قسم ثالث لا علاقة له بالدين إطلاقاً، ألوان الثياب، وأنماط الأثاث، وأنواع الطعام، هذا شيء متعلق هذا، فعَنْ عَائِشَةَ بالدنيا، وقد غطى النبي

((أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ: مَا هَذَا الصَّوْتُ ؟ قَالُوا: النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهَا، فَقَالَ: لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ، فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ فَصَارَ شِيصًا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ))

[ابن ماجه]

عندنا موضوع متعلق بالدين إيجابيّ، النبي نهى عنها، وأشياء سكت عنها أمر به، وأشياء متعلقة بالدين سلبية، النبي ، وسكوته ليس بأقل من حديثه، وتشريعه،النبي إقراره.

المذيع:

دكتور، في موضوع شرب الخمر الإسلام حرم الخمر، إنما جاء ذلك بتدرج، هل هذا التدرج يشير إلى نوع من أصول الخطاب الديني، بمعنى آخر حينما أقول للمسلم الذي يعرف أن شرب الخمر حرام، نقول له: شرب الخمر حرام، أما الذي يعاقر الخمر، وهو على دين غير إسلامي، أو لا يؤمن بدين إطلاقاً، وما إلى ذلك هل نقول له: شرب الخمر حرام مباشرة ؟ أم نتدرج معه ؟ وليس المقصود شرب الخمر فقط، إنما المقصود ما يمكن أن يشير إليه موضوع شرب الخمر، فثمة أمور في الحياة أعطى

الدين حكمه فيها، لكن الحكم يمكن أن يكون عرضه على الآخرين مباشراً الدين أو فيه توطئة الدين أو من خلال: " ما كل ما يعلم يقال، وما كل ما يقال حضر أهله الدين أو جاء زمانه الدين وما إلى ذلك، هل هذا يمكن أن يكون تابعاً لتطوير الخطاب الديني.

الأستاذ:

والله أنا حينما أرى أن الآيات التي نسخت في القرآن بقيت تتلى، فهناك ملمح دقيق جداً، في أن الله ينتظر منا أننا إذا دعونا الآخرين أن نستأنس بهذه الطريقة التي اتبعها القرآن في تحريم القبر. طبعاً أنا لا أستطيع أن أفتي لمسلم أن يشرب الخمر، أما حينما ألتقي بإنسان مدمن على خمر، أنا لا أحب أن أخسره، والدليل، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ، فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَلْعَنُوهُ فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

(صحيح البخاري)

فحينما أكون منصفاً، وأتملك قلباً رحيماً، يحمل هم المسلمين جميعهم، وأرى إنسانًا متلبسًا بمعصية أستوعبه، وأتبع طريقة القرآن في وعظه ونصحه، وهذا في قوله تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

(سورة النحل)

سيدنا عمر كما تفضلتم له صديق ارتد، وشرب الخمر، وسافر إلى الشام، أرسل له عمر كتابًا في منتهى الرقة، فيه: " أحمد الله إليك، غافر الذنب قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول "، ثم نصحه نصيحة بليغة، فإذا بهذا الرجل الذي ارتد عن الإسلام، وشرب الخمر، وتفلت من منهج الله يبكي بكاء شديدًا، وتاب بسبب هذا الكتاب الرقيق، لذلك قال سيدنا عمر: " كونوا عوناً لأخيكم على الشيطان، ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم، افعلوا هذا إن رأيتم أخوكم قد ضل " .

أنا من أنصار أن للدعوة أخلاقًا، وللجهاد أخلاقًا، وهناك مفارقة حادة بينهما.

أخلاق الجهاد:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ)

(سورة التوبة)

هذه في الحرب، في القتال، أما في الدعوة إلى الله:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت)

عندنا دليل آخر، الله عز وجل يخاطب نبيه الكريم:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة آل عمران)

هذه الباء للسببية، بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، وأحبوك.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

كأنها معادلة، الاتصال بالله رحمة، تنعكس ديناً، يلتف الناس حولك، الانقطاع عن الله تعني قسوة، تنعكس غلظة، ينفض الناس من حولك، لذلك الله عز وجل قال:

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل)

أحسن اسم تفضيل، لو أن هناك مئة كلمة حسنة يجب أن تختار أحسنها، في الجدال يوجد أسس، كل إنسان ربط أفكاره مع كرامته، لئلا تكون المشادة مقصودة لذاتها، ينبغي أن تكون مطواعاً مع أخيك، كأن تكون مثلاً أعلى في اللطف، هذه الدعوة إلى الله، وليس هناك منهج آخر، بدليل أن النبي له سُنّتان، سنة افعل، ولا تفعل معروفة، لكن له سنة في الدعوة، كيف دعا أصحابه ؟

عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ:

((قَدِمْتُ مَعَ عُمُومَتِي الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا، فَفَرَكْتُ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَأَخَذَ كِسَائِي، وَضَرَبَنِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَعْدِي عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ، فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ دَخَلَ حَائِطِي، فَأَخَذَ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَفَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا ؟ وَلَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا ؟ ارْدُدْ عَلَيْهِ كِسَاءَهُ، وَأَمَرَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَسْقٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ))

(سنن النسائي)

من هذه المشكلة لم يعالجها النبي آخرها، بل من أسبابها، والعالم اليوم يحتاج إلى هذه المناسبة الحكيمة، حينما أقول: هناك إرهاب في العالم، الإرهاب له أسباب، الإرهاب لا يعالج بإرهاب مثله أو أشد منه، يعالج بتقصي أسبابه وإزالتها، وما لم يستدع الدعوية لا يفلحون في دعوتهم. الدعاة سنة النبي

المذيع:

دكتور، يمكن من خلال أن يدعو الإنسان على الله تعالى على بصيرة وحكمة، والتدرج كما ورد، وأشرتم في موضوع المنسوخ من بعض الآيات من حيث التدرج، وبعضهم يرفض فكرة النسخ الكلي، إنما كلمة نسخ وردت عملياً للتدرج، ويمكن أن يكون التدرج قد غلف موضوع كلمة النسخ بمعناها المطلق.

الآن إذا أردنا أن نهدي إنسانًا من خلال الدعوة، هل نتراجع عن بعض الثوابت مبدئياً لنغرسها فيما تعلو ثانية في هذا المغرس ؟ وما مقدار تخلينا عن بعض هذه الثوابت، إن عممنا وقعنا في الخطأ، وإن جعلنا لكل حاجة ما يناسبها ؟ أظن أننا نسير على الصواب، وإن تفلتنا من موضوع أن نعالج الأمر بحكمة قلنا: هذه ثوابتنا، وعليكم أن تتبعوها.

الأستاذ:

هذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل لطيف وسريع: أنا لا أستطيع أن أقول لإنسان: هذا الشيء الثابت المحرم بالقرآن يقيناً وقطعاً أنه حلال، هذا ليس دعوة، إنما يمكن أن أتغاضى عن شيء ثابت قصر فيه المدعو لحكمة، واتباع التدرج في الدعوة، ليس مهمتي أن أكون قاضياً، ولا وصياً على المدعو، وأحاسبه على كل شيء في بيته، علي أن أقدم له الفكر النير، والتصور الصحيح للكون والحياة والإنسان مبدئياً، أن أدله على الله على عظمته، ثم أتدرج معه، لا أستطيع لكي أرضيه أن أقول له:

الخمر حلال، مستحيل، هذا لعب بالدين، أما أنا أتغاضى عن أنه يشرب الخمر، لا أثير هذا الموضوع أمامه، هذا التفصيل، فيمكن أن أتغاضى عن بعض الثوابت في الدعوة إلى الله دون أن أجعلها حجاباً بيني وبين المدعو، لكن بعد حين أؤكد له أحد الثوابت بأدلتها القوية.

المشكلة أن الناس في مستوى والمنهج في مستوى، والدعاة إلى الله نوعان، نوع أراد أن يرفع الناس للمستوى الشرعي، ودعاة آخرون اجتهدوا أن ينزلوا إلى مستوى الناس، طبعاً حينما ينزلون يصبح هذا الداعية داعية كبيرًا جداً، وعصريًّا، وتفكيره حر، لكن الحقيقة أنه لم يفعل شيئًا، أقر الناس على أخطائهم، فأتمنى أن يسعى دعاة لرفع الناس إلى منهج الله عز وجل، طبعاً العدد سيكون قليلاً، لكن الواحد كألف، أما العدد إذا هبط الداعية إلى المستوى العام يكون كثيرًا جداً، لكن الألف كأف، فبين واحد كألف، وبين ألف كأف فرق.

مرة سيدنا الصديق جاءه طلب نجدة من سيدنا خالد أن يأتيه بخمسين ألف جندي، فبعث له القعقاع، فلما وصل إليه قال: أين المدد ؟ قال: أنا المدد، ومعي هذا الكتاب، فقرأه، فإذا فيه: والذي بعث محمد بالحق

إن جيشًا فيه القعقاع لا يهزم، وفعلاً تم النصر بفضل هذا المدد الأحادي، معنى ذلك حينما أربي الناس تربية صحيحة أجعل من الواحد كألف، وحينما أقر الناس على أخطائهم، وأراعي شعورهم على حساب الدين فعندئذ أجد الألف كأف.

المذيع:

هنا أيضاً ناحية هامة يمكن أن تستخلص من خلال التوضيح، وإن كنتم ذكرتموها في البداية، هي عندما يتغاضى الداعية عن بعض الأمور، لا من أجل أن يستمر التغاضي، لكن لكي تكون مرحلة يرتقي الداعي بالمدعو إلى ما يجب أن يكون عليه من خلال الثوابت، الانتقالات في هذه المراحل يجب أن يكون الداعية فيها عالماً بالشرع، وبأصول الكلام، والحديث، والفكر، وعلم الاجتماع، والفلسفة. هنا نعود للفكرة التي ذكرت في البداية، على أن الإنسان الداعية يجب أن يكون على ثقافة جيدة، يزال منها ما علق بها، وينفى عنها ما أدخل عليها.

الأستاذ:

ما كل عالم بداعية، وكن كل داعية يجب أن يكون عالمًا.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 23 - 29 : الخطاب الديني 2 .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-08-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

فيما مضى من لقاء معكم في موضوع تطوير الخطاب الديني تحدثتم بداية، ووضحتم أن الدعوة هي فرض عين على كل إنسان، إنما في نطاق معين، وأسلوب معين، حيث لا يشمل الناس جميعاً، وبالتالي يمكن أن تقع المسيرة في بعض الأخطاء، كما بينتم أن الداعية يجب أن يكون على علم وفقه في أسلوب الدعوة، ومعارفه التي تؤكد له اختيار الأسلوب الأمثل في دعوة الآخرين، كما أن هناك ثوابت ومتغيرات يجب أن ينتبه الإنسان إليها، فنحن لا نلغي الثوابت، كما أنه يجب أن نزيل ما علق بالدين من زيادات غير صحيحة، وأن نعيد للدين ما حذف منه حذفاً اعتباطياً من خلال أي شيء يمكن أن تبعه الإنسان لوسوسة شيطانية، كما بينتم أن أسلوب الدعوة يجب أن يكون فيه الإنسان قدوة كي يتبعه المقتدي، ويجب أن يكون عالماً فيه حتى لا يكون في الأمر ضحالة وضآلة، حيث يكون المدعو يرى فيمن يدعوه شيئاً سطحياً ساذجاً لا قيمة له، الموضوع يمكن أن تكون له أبواب كثيرة وجوانب عديدة، الآن إذا تابعنا هذا الموضوع بحيث نشير إلى تطوير الخطاب الديني أشرتم بداية، وأكدتم أن نزيل ما علق به، ونعيد ما حذف منه ضمن أسلوب أن: كل كلام لا يقال في أي وقت، وكل زمان لم يأتِ أوانه، ولم يحضر رجاله، وما إلى ذلك.

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ عدنان، جزاك الله خيراً، في هذا اللقاء الثاني موضوع الخطاب الديني، أو تجديده أطرح فكرة، هي أن المشكلة ليست في تطوير الخطاب، ولكن في مصداقيته، وقبل أسابيع جاءتني رسالة من أخ كريم بالبريد الإلكتروني مقيم في بريطانية، الرسالة فيها قصة مؤثرة جداً: إمام مسجد في لندن، نُقِل إلى مركز إسلامي في ظاهر لندن، في مسجد هناك، وكل يوم ينتقل من بيته في لندن إلى خارج لندن، وكان يركب مركبة عامة، ويبدو أن هناك نظامًا دقيقًا في الرحلات، فكان يركب المركبة نفسها، ومع السائق

نفسه كل يوم، في أحد المرات صعد للمركبة، وأعطى السائق قطعة نقود أكبر مما يجب أن يدفعه، فأعاد له الباقي، عدّ البقية فإذا هي تزيد عشرين سنتًا عما ينبغي أن يأخذه، هو كإيمام مسجد قال: أنا مسلم ينبغي أن أعيد هذا المبلغ للسائق، وهو جالس أتته خواطر، كل هذا المبلغ زهيد، والشركة عملاقة، ودخلها فلكي، وأنا أولى به، وكأنه هدية من الله ـ طبعاً هذا التفكير خطأ كبير ـ الاستقامة لا تتجزأ، وهي حدية، بينما العمل الصالح نسبي، فلما آن أوان نزوله من المركبة دون شعور وقف أمام السائق، ومدّ يده، وأعطاه العشرين سنتًا، فابتسم السائق، وقال له: ألست إمام هذا المسجد ؟ قال: له بلى، قال له: والله حدثت نفسي أن أزورك من أيام لتعبد الله في مسجدك، ولكنني أردت أن أمتحنك، فأعطاه الزيادة، هذا الإيمان.

فيما تروي الرسالة فَقَدَ المسلمُ توازنه، ووقع على الأرض، بعد أن نزل، ثم استعاد نشاطه، وتمسك بعمود، ورفع نظره للسماء، وقال: يا رب، كدت أبيع الإسلام بعشرين سنتًا، التعليق على هذه القصة، أن قلة قليلة جداً من الناس يفرقون بين الإسلام والمسلمين، وبين الدين والمتدينين، لكن الخطر العريض في المجتمع لا يميزه، لا يفهمون الدين إلا في المتدينين، ولا الإسلام إلا من المسلمين، فكم من مسلم يبيع إسلامه كله بمبلغ، أو بحصة من شركة، أو ببيت، لذلك القضية فيما أتصور ليست في تطور الخطاب الديني، إنما في مصداقية الخطاب الديني.

المذيع:

هذا ما أشرتم إليه في الحلقة السابقة أن يكون الإنسان الداعي قدوة.

الأستاذ:

سيدنا عمر كما تفضلتم كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إذا رأوكم وقعتم، وقعوا، وايم الله، لا أوتين واحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني "، قال المعلقون: فأصبحت القرابة من عمر مصيبة.

سيدنا عمر رأى إبلاً سمينة، قال: لمن هذه الإبل ؟ قيل: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، وكان غاضباً، فلما جاء به: قال: لمن هذه الإبل ؟ قال: هي لي، اشتريتها بمالي، وبعثت بها للمرعى لتسمن، فماذا فعلت ؟ قال، فيقول الناس: ارعوا هذه الإبل، فهي لأمير المؤمنين، فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين.

كما ورد في الأثر، النبي عليه الصلاة والسلام كان وأصحابه في سفر، وأراد أصحابه أن يأكلوا، فعالجوا شاة، فقال واحد:

((عليّ ذبحها، قال الثاني: عليّ سلخها، قال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقال: نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

النبي عليه الصلاة والسلام قمة المجتمع الإسلامي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ أبي طالبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

(مسند الإمام أحمد)

أقول: الفرق الصارخ بين نبي ومليار داعية أن النبي فعل ما قال، فحينما لا تجد مسافة بين الأقوال والأفعال يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

المذيع:

يا سيدي، هذا إذا قال أحدهم من خلال هذا المثل: إن صاحب هذا المثل هو محمد عليه الصلاة والسلام، وهو من أولي العزم، ولكننا نقول لمن يتساءل أمام هذه الحوادث، نقول له: إن أبا حنيفة النعمان ذات مرة اختلط غنم الغارة بغنم الوقت، ليريد أن يأكل اللحم، وقد يكون فيه شبهة من خلال الاختلاط، سأل كم تعيش هذه الأغنام الفترة الأطول، فقيل له: إن أكثر غنم يمكن أن تعيش سبع سنوات، فامتنع عن أكل اللحم مدة سبع سنوات حتى لا يشارك طعامه شيء من شوائب ! لم يكن أبو حنيفة رسول من عند الله، إنما كان داعية، وصاحب مذهب إسلامي، كما يمكن أن يكون كل إنسان من عامة الناس إن طبق الإسلام فعلاً على نفسه.

الإمام النووي كان يأتي من بلدة نوى إلى دمشق، وكان يجلب معه طعامه وشرابه مخافة أن يختلط ما يأكله، وما يشربه بشيء من شبهة، لأنه يعلم أن أكثر وقف ما في دمشق هو للمسلمين، وقد يكون فيه شيء اختلط، فيخشى من هذا الأمر.

أشياء كثيرة يمكن أن تذكر حتى من رعية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لا من خلال أصحابه، ولا من خلال التابعين، إنما من خلال من جاؤوا أيضاً متأخرين يمكن أن يكون كل إنسان حصيناً لعقيدة الإيمان في قلبه وأعماله.

الأستاذ:

ورد في بعض الأثر:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[ورد في الأثر]

حدثني أخ موظف في دائرة قدم طلبًا للرئيس بإجازة ستة أيام، يبدو أن الرئيس في الدائرة كان متشنجاً، فانفجر عليه في الوقت الحالي، لا يوجد إجازة، قال: هذه استهلكتها، قال: فمتى ؟ قال: كنتُ أذهب إلى الجامع كل يوم ربع ساعة، جمعت هذه الأيام، فهي ستة أيام، فصدم الرئيس، قال: من شيخك ؟ وأين مسجدك ؟ يقول هذا الأخ: والله لم أصدق في حياتي أن يقرأ هذا الإنسان كتاباً دينياً، أو يدخل مسجدًا، رآه في الأسبوع القادم في المسجد، ما الذي شد هذا الإنسان إلى الدين ؟ لا موضوعات عميقة، ولا كتب في العقيدة، ولا محاضرة قوية، شد هذا الإنسان الشارد عن الدين هذا الورع !

لذلك أكرّر للإخوة المشاهدين هذا الحديث:

((استقيموا يستقم بكم))

[ورد في الأثر]

يوجد رجل يعيش في سان فرانسيسكو، ملحد كبير، أستاذ رياضيات في هذه الجامعة، جاءته طالبة شرق أوسطية، ترتدي حجابًا، والحجاب ليس رمزاً، بل هو جزء من الدين، المركبة مثلاً لها رمز، كالمرسيدس، هذه الشارة في مقدمة المركبة رمز للذي صنعها، لكن المكبح ليس رمزاً، بل هو جزء من المركبة، ليضمن لها سلامتها، فجاءته فتاة تحضّر درجة الدكتوراه في الرياضيات، والوقت صيف، فلما رآها بهذا الحجاب والكمال والاحتشام أخذ بقناعاتها الراسخة، مع أن الناس في أميركا في هذا الوقت شبه عرايا، فلما رآها أذكر أنه قال هذه الكلمة: شعرت بقدسيتها، واحترمت مبدأها، ونظرت في أن أعاونها، وعكفت من توّي على قراءة كتب الإسلام ! مع أن هذه الفتاة لم تنطق بكلمة عن الإسلام، إلا أن قناعتها صارخة بهذا الدين العظيم، فما الذي حصل أن جيفري لند داعية إسلامي كبير في أميركا، ألف كتابين، وترجما للغة العربية، وقرأت، وأحضرت أحد كتابيه إلى المسجد.

المذيع:

الفتوحات الإسلامية كان كثيراً منها من خلال أخلاق المسلمين.

الأستاذ:

لذلك:

((استقيموا يستقم بكم))

[ورد في الأثر]

أنا أقول: إن هناك دعوة بيانية، لكن الناس الآن كفروا بالكلمة، الحقيقة مرة، وأنا أنطلق من أن الحقيقة المُرّة أفضل بألف مَرّة من الوهم المريح، الناس كفروا بالكلمة، لماذا ؟ لأن طغاة العالم اقترحوا كلاماً، وفعلوا عكسه، كما نسمع كل يوم أنهم جاؤوا من أجل حريتنا، ورفاهنا، ورخائنا، التدمير، والإفقار، والإذلال، والإفساد، هذا الذي يحصل، فالإنسان حينما يرى ممارسة منحرفة جداً مغطاة بالعسل يكفر بالكلمة.

الأنبياء جاؤوا بالكلمة، لم يأتوا ببوارج، ولا بصواريخ، ولا بكمبيوترات، ولا بأقمار صناعية، بل بكلمة، لكن الكلمة التي قالها الأنبياء لها رصيد لا يصدق.

أحد الصحابة حينما هاجر ألقي القبض عليه من قِبَل المشركين، فقال: عهداً ، وبعد حينε، وفرح به النبي εالله إن أطلقتموني لن أقاتلكم، وصل إلى النبي : ارجع ألم تعاهدهم.εكانت غزوة، فقال له النبي أقول دائماً: والله لو فهم الصحابة الكرام الدين كما نفهمه نحن لما خرج الإسلام من مكة، ولكنه وصل إلى أطراف الدنيا بهذه القيم الأخلاقية والمبادئ، لذلك:

((استقيموا يستقم بكم))

أقول: إن القرآن كون ناطق، وإن الكون قرآن يمشي، أرى الحل في مسلم يمشي، مسلم إذا حدثك فهوقرآن صامت، والنبي صادق، وإذا عاملك فهو أمين، وإذا استثيرت شهوته فهو عفيف.

ألم يقل سيدنا جعفر للنجاشي:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قوْمًا أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ...))

(مسند الإمام أحمد عن أم سلمة)

هكذا الإسلام، مجموعة قيم أخلاقية.

كنت مرة في الحج لفت نظري إنسان غربي، فيبدو أن الذي معي يعرفه، قال: هذا من بلاد غربية، سكن عنده طالب سوري، وكان هذا الطالب متمسكًا بإسلامه تمسكاً قوياً، وعند هذا الرجل الغربي فتاة جميلة جداً، وليس عند الأب هناك أن يكون عنده مانع لقيام علاقة بين الشاب والفتاة، إلا أنه تمنى أن يراه مرة ينظر إلى ابنته، فهذا الانضباط الذي لم يتصوره دعاه إلى حيرته، وانتهى به إلى إسلامه ! الذي أقوله: القضية ليست في الخطاب الديني، بل في مصداقية الخطاب الديني.

إذا أردت أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً فطبق ما تقول، وإذا أردت أن يخرج الناس من دين الله أفواجاً فارفع شعارات إسلامية، وافعل عكسها.

المذيع:

هذا الكلام جميل، وهو في عمق الحقيقة، لكن هناك عقبات أخرى، كيف نستطيع أن نوصل هذا الخطاب الديني بهذا الشكل السريع، مع أن هذا الداعي صاحب الخطاب قدوة صالحة، وحسنة، يقتدي بها الآخرون، إذا كان صاحب الخطاب يملأ صوته في غرفة، وبقية الغرف فيها خطاب آخر يقيّض ما يبنيه هذه الداعية ؟ وإنْ عممنا أكثر حتى إذا قلنا: إن مثل هذا الكلام الواضح الذي يبث من خلال الفضائية، فما بالنا تجاه إعلام وافد يحاول أن يحارب هذا الإعلام النبيل الذي يريد أن ينتقل إلى الحقيقة ليفهم الآخرين الحقيقة.

الظروف الخارجية، والإعلام الوافد، وما يخطط عدونا له بمقدوره أشياء كثيرة أكثر مما في أيدينا.

ترى كيف نستطيع أن نتغلب، لا أقول مباشرة في المراحل، نتغلب في النهاية، بإذن الله، لكن البدء يجب أن يكون سليماً، ويتابع الخطة للوصول للتغلب فيما بعد، كيف يمكننا أن نحافظ على هذا المسلك لنصل إلى النصر في النهاية ؟

الأستاذ:

أرجو أن أكون على صواب، العبرة ألاّ ينفرد الباطل بالساحة، هناك فضائيات تبث السموم، وكتب تبث الضلالات، والباطل قوي الآن، والله عز وجل له حكمة بالغة، فمن امتحاناته الصعبة أن يقوى الباطل، ويقوى، ويقوى، حتى يسيطر على الساحة العامة، لكن العبرة ألاّ ينفرد الباطل في الساحة، قناعتي أن الذي يشد الناس إلى الدين ليس الكتب، ولا المحاضرات، يشد الناس لهذا الدين مجتمع يطبق هذا الدين، ويقطف ثماره، لكن مع الأسف الشديد البلاد التي ترفع شعارات إسلامية لا تجد الإسلام فيها كما ينبغي، فإذا جاء الآخرون إليها لم يروا فيها الثمار المرجوة من تطبيق الدين.

أذكر أن واحدًا في نيويورك طبق الدين تطبيقًا جيّدًا، فكانت تتهافت الشركات على فتح مكان في هذا الحي، وتهافت الناس على وضع أموالهم في هذه الأماكن، لأنهم وجدوا الأمن والصدق، فالذي يشد الناس إلى الدين هو السلوك.

كيف أن الإسلام بدأ بالسلوك، ولا بد من أن ينتهي بالسلوك، لئلا ينفرد الباطل بالساحة، لأن الحق فيه قوة ذاتية، ولا يحتاج إلى عنف وعمل غير شرعي، لكن لتطبيق وترسيخ معالم، فحينما أكون صادقاً فالصدق وحده دعوة، إتقان العمل دعوة، الله عز وجل قال:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل)

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة)

إتقان العمل، عندنا شيء اسمه جهاد بنائي، وهو أن يتقن كل منا عمله إتقاناً، ويهبه لأمته، لأن الغرب سبقنا في إتقان الأعمال بشكل بارع.

أذكر مرة حدثني أنّ أخًا صاحب معمل فقال: عندنا آلة تطريز مصنوعة في سويسرا، يبيع العشرين متر بمئتي ليرة، هذه القصة قديمة في السبعينات، الآلة نفسها بسويسرا تبيع المتر بألف ليرة بسبب إتقانها، فنحن نفتقر للإتقان والحفاظ على الوقت، وعمل المؤسسات، وإدارة الوقت، والهندسة النفسية، وروح العمل الجماعي، هذه المصادر تفوق الغرب، وأنا كمسلم يجب أن أقتبس هذه المصادر، وأن أطبقها في حياتي.

العبرة ألاّ ينفرد الباطل بالساحة، ما دام هناك ساحة، ولو ضيقة، لكنها تقدم مثلاً أعلى في الدين، في الصدق، والإتقان والإنصاف، والعفة، فهذه المساحة الضيقة تتنامى، هكذا فعل الأنبياء، بدؤوا بقلة قليلة، لكن الصدق والانضباط الذي فعلوه هو الذي حقق نتيجة، أما الآن فهناك مظاهر دينية صارخة.

زرت مسجدًا كلّف مليار دولار، مظاهر، مؤتمرات، مساجد، كتب، محاضرات، مؤلفات، كتب، أشرطة، لكن الدين ضعيف، التطبيق بقي ثقافة كأيّ ثقافة.

المذيع:

ليست العبرة بالمكان إنما بالسكان.

الأستاذ:

الآن يقول لك: عنده خلفية دينية، نزعة، اهتمامات، عاطفة، لكن لا يوجد إسلام، ولا تطبيق، وهذا المنهج قيمته في تطبيقه.

أنا أقول: العالم ينتظر من مجتمع صغير أن يطبق هذا الإسلام، أما الشيء الذي حدث فعكس ذلك، دائماً يتهم الإسلام بالعنف والإرهاب، وبأعمال لا ترضي الله، في الأساس هذا شأنه أن ينفر الناس من الدين، فما نريده ألا ينفرد الباطل بالساحة.

هذا الدين دين الله، والله ينصره بأية طريقة، ويمكن أن ينصره بأعدائه، ولكن العبرة أن يستعملك الله عز وجل في نصرة هذا الدين، وكنت أقول دائماً: لا تقلق على هذا الدين، فإنه دين الله، ولكن اقلق ما إن يسمح الله لك أن تكون أحد جنوده، وتقول: ماذا أفعل ؟

عندنا مرض، إما أن تحقق أهداف الدين الكبرى، والتي تبدو مستحيلة الآن، أنا أقول: بإمكانك أن تفعل مليون شيء، ولكي تحقق بعض أهداف الدين الكبرى يمكن أن تفعل في أهلك، تربي أولادك، تتقن عملك، ومع الأسف الشديد لم يبق مع المسلمين من ورقة رابحة إلا أولادهم، فحينما نعتني بأولادنا، فهم المستقبل، إن أردت لأمة أن تنهض فلتبدأ بالصغار، وبالمعلم، وبالبيت.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 24 - 29 : الصلاة 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان :

دكتور ، من طبيعة الإنسان أنه يميل إلى أشياء في حياته ، وتحدثتم فيمنا مضى عن الطبع ، وعن الصبغة ، وعن الفطرة ، ميزتم ، وبينتم الفوارق بين كل كلمة ، وكيف يكون المؤمن في صبغة إيمانية رائعة ، وهو سعيد بها ، ويفلح أيضاً في الدار الآخرة بنتيجة ذلك ، بعد أن يكون قد قضى حياته سعيداً أيضاً .

حب الإنسان لشيء ما ، ميله لشيء ما ، هذا شيء بطبيعة الإنسان ، وهي من الأشياء التي خلق الإنسان عليها ، لكن يمكن أن يوجه هذا الميل إلى أشياء سامية ، أو إلى أشياء عادية ، أو إلى أشياء متردية وبمقدار ما يميل الإنسان في غايته إلى الأشياء التي يرغب بها تكون منزلته ، على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، أنا إن أحببت شيئاً زهيداً مُنايا أن أصل إلى الشيء الزهيد ، وإن أحببت شيئاً راقياً كنت في أعمالي ما يناسب هذا الرقي الذي أحلم به وأتمناه ، وما في حياة الإنسان على الإطلاق مهما ارتفعت غايته فيما يتصل بالدنيا إلا من حطام الدنيا ، إن علا أو هبط ، أما الحب الإلهي فهو الذي يسمو فوق كل شيء ، وبحب الإنسان ربه وخالقه ومولاه ترى في حياته الدنيا قد انفتحت له آفاق ما كانت تفتح له من قبل ، وأحس بأشياء جديدة في تعامله مع الآخرين ، أنا إن أحببت الله الحب الحقيقي رأيتني في ميدان تعاملي مع الآخرين رقيقاً وديعاً ، محباً للخير ، فبحبي لله أحب مخلوقاته وأنفعهم ، أما إن كانت محبتي للإنسان شخصياً لإنسان ما يعني ليس لعموم الناس ، فتنحصر محبتي بهذا الإنسان أو بالتعيين ، وقد تكون على عداوة مع غير هذا الإنسان ، وبالتالي تختلف أمور الحياة .

إذا تحدثنا عن محبة الإنسان ما يتعلق بالدنيا وحطامها وما يتعلق بالله تعالى .

الأستاذ راتب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

قبل أن أبدأ الحديث كتعقيب على كلامك اللطيف ، قل لي من تحب أقل لك من أنت .

الحقيقة أن في حياة الناس تطرفاً أو تفوقاً ، أنا أرى أن التفوق يتأتى من أن تلبي كل حاجات الإنسان العقلية والنفسية والجسمية ، بل إنني قرأت كتاباً أعجبني به هذه الحقيقة ، أن الإنسان فيه جوانب ثلاثة ، علاقته بربه ، وعلاقته بعمله ، وعلاقته بجسمه ، وأي خلل في أحد هذه الجوانب ينعكس على الجانبين الأخريين ، فلذلك الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، فلا بد من غذاء لهذا الجسم ،

غذاء صحي ، ولا بد من أن ينضبط هذا الجسم وفق قوانينه ، ولا بد من غذاء للقلب ، وهو الحب ، وأنا أرى أن الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يحب ، أو إلى أن يحب ليس من بني البشر ، ومن صفات الشاردين عن الله قسوة قلوبهم ، وما نراه في العالم اليوم من أثر قسوة القلب ، المعاني الإنسانية ضاعت، التراحم ضاع بين الخلق ،

((إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خَلقي))

[أخرجه الديلمي عن أبي بكر]

لقوي يأكل الضعيف ، والغني يبتلع الفقير ، فلذلك الإنسان متى يتفوق ؟ إذا لبى حاجة قلبه ، فأحب الأشياء الكاملة ، ولبى حاجة عقله ، فغذاه بالحقائق ، ولبى حاجة جسده ، فغذاه بالطعام والشراب ، هذا تفوق ، أما لو نمّى عقله على حساب قلبه ، قالوا عن أوربة : إن عقلها من ذهب ، وقلبها من حديد قاس لا يرحم ، الإنسان يتفوق إذا لبى كل حاجات جوانبه تلبية كاملة .

الأستاذ عدنان :

دكتور ، هنا لا مانع هنا لهذه المقاطعة إن سمحت ، قلبها من حديد ، وعقلها من ذهب ـ طبعاً علاقته بالحديد القسوة فقط ـ قد يقول قائل ، وكثيراً ما نسمع هذه الأقوال ، ليست من عندي ، ولست مقتنعاً بها، إنما أوردها من خلال ما أسمع : وما يضرنا في ذلك إذا كان العقل من ذهب والقلب من حديد ، طالما أن العقل فسح لي فسحة كبيرة في كيفية التعامل مع الحياة ، ونجحت في كيفية التعامل فأخضعت ما في الحياة لما يناسب وجودي استرحت وأرحت ، وليكن قلبي من حديد .

الأستاذ راتب :

جيد ، الإجابة عن هذا السؤال : لو أن الدنيا هي كل شيء ، هذا أذكى إنسان ، الذي يستخدم عقله ليحقق مصالح على حساب الآخرين ، الإنسان الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين لأنه قوي ، ولأن عقله من ذهب ، ويبني أمنه على إخافة الآخرين ، ويبني غناه على إفقار الآخرين ، ويبني حياته على موت الآخرين ، لأن عقله من ذهب ، وقلبه من حديد ، واستخدم عقله فأصبح قوياً ، أما إرادته على كل من حوله فعاش حياةً تفوق حد الخيال ، هذا الكلام رائع ، لو أن الدنيا كل شيء ، لذلك هؤلاء الشاردون عن الله الذين كان عقلهم من ذهب وقلبهم من حديد حينما استغلوا علمهم لقوتهم ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وإفقارهم ، هؤلاء نجحوا في الدنيا أيما نجاح ، ولكن لأن الله موجود ، ولأن الله خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، هؤلاء حينما يغادرون الدنيا يشعرون بخسارة ما بعدها خسارة :

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 14)

و أن الواحد منا افتراضاً عاش رقمًا العقل لا يصدقه ، واحد في الأرض ، وأصفار إلى الشمس ، وكل ميل صفر ، والمسافة 156 مليون كم ، وخسر الآخرة خسر اللانهاية ، خسر الأبد ، ومعلوم في الرياضيات أن أكبر رقم يتصوره الإنسان إذا وضع صورة لكسر مخرجه اللانهاية فقيمته صفر ، فلو لو أن الدنيا كسب الدنيا ، وخسر الآخرة هو أخسر كائن من كان ، بدليل أن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

الذي فعل ما فعل ذبح الأطفال ، واستحي النساء ، واستعلى في الأرض ، وطغى ، وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، حينما أدركه الغرق قال :

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس الآية : 90)

ما المعنى ؟ المعنى أن الإنسان في مليون قضية مخير خيار قبول أو رفض ، إلا مع الإيمان ، اختياره اختيار وقت فقط ، فإما أن يؤمن في الوقت المناسب فينتفع بإيمانه ، وإما أن يؤمن بعد فوات الأوان فلا ينتفع بإيمانه يوم :

(لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

(سورة الأنعام الآية : 158)

هل يعقل لطالب دخل الامتحان ، ولم يجب إطلاقاً ، ونال الصفر ، رجع إلى البيت ، فتح الكتاب ، وقرأ الإجابة ، فقدم طلبًا لوزارة المعارف أنه أنا الآن جاهز للامتحان ، هل يقبل منه ذلك ؟ عرف الموضوع بعد فوات الأوان ، فأنا مع الإيمان خياري خيار وقت ، فهؤلاء الأقوياء الذي قلبهم من حديد ، وعقلهم من ذهب ، واستغلوا قوتهم لإخضاع الآخرين وبنوا مجدهم على أنقاضهم ، لو لم يكن إلا الدنيا فهم أذكياء جداً ، أما لأن هناك آخرة فهم أغبياء جداً .

الأستاذ عدنان :

بالإضافة إلى هذا دكتور هناك ثلاثة أمور أخرى .

الأمر الأول : العقل من ذهب ، والقلب من حديد .

الأمر الثاني : العقل من حديد ، والقلب من حديد .

الأمر الثالث : وهو الذي ما يدعو إليه الإيمان والإسلام : القلب من ذهب ، والعقل من ذهب .

الأستاذ راتب :

طبعاً هذا الكمال الرائع ، الحقيقة الله عز وجل قال :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78))

(سورة الرحمن)

قدر ما هو عظيم بقدر ما هو كامل ، نحن في حياتنا قد نحب إنسانًا ، ولا نحترمه ، قد يكون قريبًا بسيطًا ساذجًا غير مثقف ، تفكيره سطحي ، تحليلاته مضحكة ، لكن قدم لنا خيرًا ، هناك قرابة وود مثلاً ، هذا نحبه ، ولا نحترمه ، وقد تحترم أستاذًا في الجامعة ، لكنه قاسي القلب ، قد تحترمه ، ولا تحبه مثلاً ، البطولة أن تحب ، وتحترم في وقت واحد ، المؤمن والله أعلم جمع من صفات العقل والتفوق العلمي ، ومن صفات النبل والاستقامة والأخلاق حيث إنك تحبه بقدر ما تجله ، أو تجله بقدر ما تحبه ، هذا هو المؤمن ، الإيمان شخصية فذة ، المؤمن درجة علمية ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه ، يكفي أنه عرف الحقيقة العظمة في الكون ، الإيمان درجة أخلاقية ، المؤمن مقيد بمنهج ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[أخرجه أبو داوود وأحمد]

في الإيمان مستحيلات ، أنا أكاد أقول هذه الكلمة ، واعذرني بها : فيما يبدو للناس أحد أسباب قوة مناورة الطرف الآخر أنه لا منهج يقيده ، وأحد أسباب ما يقال له ضعف للمؤمن أن منهجاً يقيده ، ليس بإمكانه أن يكذب ، ولا أن يحتال ، ولا أن يفعل شيئًا يخالف منهج الله عز وجل ، والدليل لما الفرنجة فتحوا القدس قتلوا سبعين ألفًا في يومين ، فلما فتحها صلاح الدين المقيد بالمنهج لم يؤذِ أحداً ، فالإيمان شيء رائع جداً .

الأستاذ عدنان :

لكن هنا دكتور اسمح لي أن أقول أيضاً هذه الناحية ، ذكرت هذه الناحية ، والتاريخ يذكر هذه الناحية ، لكن يذكر إلى جانب هذا أن الفرنجة عندما جاؤوا إلى القدس مغتصبين ، وقتلوا سبعين ألفاً ، يروي أيضاً عنهم التاريخ أنهم قتلوا المسلمين على أنهم كفار ، وقتلوا المسيحيين على أنهم في خندق وفي صف الكفار والمسلمين ، حتى إنهم قتلوا كلاب أهل المنطقة ، أهل البلد ، وقططهم على أنها تابعة للكفار ، أما ما يتصل بصلاح الدين ، وكما ذكرتم فالتاريخ يذكر عن المرأة التي ماتت عند قبر صلاح الدين الأيوبي ، قال ابنها الذي كان إلى جانبها : دمعة صلاح الدين عندما كانت هذه الأم مع زوجها الذي جاء لقتال المسلمين العرب والمسيحيين في أرض فلسطين ، وكانت هذه المرأة قد فقدت ابنها ، فجاءت مشتكية إلى صلاح الدين ، فبقي واقفاً حتى أعاد لها ولدها .

الأستاذ راتب :

بارك الله بكم ، فنحن نعود إلى موضوعنا ، فالإنسان عقل يدرك ، يحتاج إلى غذاء ، وهو العلم ، وقلب يحب ، يحتاج إلى غذاء ، وهو أن يحب جهة ، وذكرت قبل قليل أن الإنسان الذي لا يجد رغبة في أن يُحِب أو يُحَب ليس من بني البشر ، فهذه الكلمة الكبيرة الكبيرة هي أصل من أصول الدين ، أكاد أقول : لا إيمان لمن لا محبة له ، أكاد أقول : إن الإسلام من دون حب جسد بلا روح ، جثة ، جيفة من دون روح ، فهذا الذي أفقد في الدين المحبة ، أفقد في الدين الإخاء ، أقد في الدين التعاون ، هذا جعل الدين ثقافة ليس غير ، جعله بالتعبير المعاصر فلكلوراً ، جعله عادات وتقاليد ، الدين حب ، بل إن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين قسراً ، لكن هذا الإيمان القسري لا قيمة له إطلاقاً ، ولا يسعد صاحبه ، أراد الله سبحانه وتعالى أن نأتيه طائعين ، وأن نأتيه باختيارنا ، أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نأتيه بمبادرة منا ، فالاختيار الذي منح للإنسان يقيم عمله ، فالحب أساس هذا الدين ، ولا إيمان لمن لا محبة له ، لأنه فقد جانب من الدين ، فالله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 54)

هؤلاء الذين يحبون الله لا يمكن أن يرتدوا عن دينه ، لأنه تعلق بالله تعلقاً لا فكاك منه ، فالإيمان فيه ثبات .

شيء آخر ، هناك من ادعى أنهم أحباب الله ، وقالوا :

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

لا فضل لكم إطلاقاً ، وأن المسلمين على مخالفاتهم لمنهج ربهم وعلى معاصيهم ، وعلى أن أمر الله هين عندهم فهانوا على الله ، لو أن هؤلاء المسلمين ادعوا أنهم أتباع سيدنا رسول الله ، وهو على العين والرأس ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا ، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، قَالَ : إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ : فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[البخاري]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ

رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[البخاري]

فالحب أسلم من أصول الدين ، قد يدعى ، وكثيرون يدعون حب الله ، خاضوا بحار الهوى دعوى وما ابتلوا ، لذلك الله عز وجل لا يمكن أن يقبل دعوى حبه إلا بالدليل .

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب يطيـع

إذاً لو أن الإنسان ادعى أنه يحب الله لا بد من الدليل ، والدليل طاعة رسول الله :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

شيء آخر ، يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

الحقيقة لو سألت مليارًا ومئتي مليون مسلم : ألا تحب الله أكثر من كل شيء ؟ يقول لك : نعم ، ليس هذا هو المعنى ، المعنى عند التعارض ، حينما يتعارض الأمر الإلهي ، أو السنة النبوية الصحيحة ، أو الشرع الإلهي مع مصلحتك القريبة المتوهمة ، إذا تعارضا ، وملت إلى مصلحتك ، إذا حملك حبك لزوجتك أن ترخي لها العنان ، وأن تفعل ما تشاء خلاف منهج الله ، إن حملك حبك لابنك أن تكسبه المال الحرام ، ولا تعبأ بآخرته ، إن كنت في مسكن تغتصبه وكان المسكن جيد جداً ، والقانون معك فرضاً ، ونسيت أن لهذا المسكن صاحباً ، فآثرت هذا المسكن ، إن آثرت تجارة رابحة ، ولكن ليست مشروعة ، التجارة إذا آثرتها على طاعة الله ، والبيت المريح إذا آثرته على طاعة الله ، وإرضاء الزوجة والولد والأقارب والعشيرة والآباء والتقاليد والعادات ، وما ألفه الناس بخلاف منهج الله ، إذا آثرت هذه على طاعة الله فالطريق إلى الله ليس سالكاً ، والدليل :

(فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة الآية : 24)

انتظروا ، لا أمل .

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)

(سورة التوبة الآية : 24)

هناك ملمح آخر رائع جداً .
الأستاذ عدنان :
هذا الملمح دكتور أصلاً ، ذكرت فيه ما يتصل بما يحب الإنسان ، لكن فيه أذى للآخرين ، الآن الملمح فيه أذى للإنسان وللآخرين في وقت واحد معاً ، لكنه إرضاء لله تعالى ، إنما في النهاية الله لا ينسى عبده الذي يسير بأمره ، موضوع سيدنا إبراهيم ، وموضوع ذبح سيدنا إسماعيل ، كيف أن سيدنا إبراهيم على الرغم من أنه رأى الرؤيا ، ولم يأته الوحي ، رؤيا ، ومع ذلك الابن مستسلم ، الأب مستسلم ، ثم كان بعد ذلك الفداء .
الأستاذ راتب :
هذا أعلى مستوى في العبودية ، أنا أرى أن الأمر الإلهي إذا اتضحت حكمته جلية يضعف فيه عنصر التعبد ، فقد ينطلق المرء فقد يكون صادقاً ، لأن الصدق ينجيه من كل مشكلة ، لكن حينما يغيب عن الإنسان حكمة الأمر ، وننفذه بحذافيره تعلو فيه درجة التعبد ، الله جل جلاله تارةً امتحننا بأوامر معقولة وواضحة ، ولمصلحتنا ، وتطبيقها سهل جداً ، وتارةً امتحننا بأوامر لا تبدو حكمتها بادئة ذي ، لذلك عندنا في الإسلام شيء اسمه عبادة ، وشيء اسمه علم ، فالإنسان يعبد الله دون أن يعلم الحكمة ، أنا أقول كلمة دقيقة جداً : إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، قد نضع مكيف ، يأتي دكتور في الفيزياء ، أو صاحب المعمل ، يضغط على مفتاح البدء ، فيأتيه الهواء البارد ، ويأتي إنسان أمي جاهل لا يقرأ ولا يكتب يضغط على مفتاح البدء فيأتيه الهواء البارد ، فالانتفاع بهذا المكيف ليس مرتبطاً بفهم دقائقه الداخلية ، جلت حكمة الله جعل أوامره لمجرد أن تطبقها تقطف ثمارها ، إن علمت الحكمة أو لم تعلمها ، إن علمت الحكمة تدعو إلى الله بها ، العلم مفضل ، لأن هناك عابدا ، وعالما ، ولعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، لكن لو أن إنسانا اكتفى بعبادة الله ، ونجا من الفتن ينجو ، ويقطف ثمار الدين كله ، دون أن يفلسف الأمور ، لا يحتاج إلى فلسفة الأمور ، يكفي أنه نفذ أمر الله عز وجل فقطف ثماره ، أما إن أردت أن تكون داعية تحتاج إلى أن تفهم حكمة الأمور .
إذاً القضية قضية معرفة ، فسيدنا إبراهيم يعد موقفه أعلى درجة في العبودية ، أنه خضع لأمر لا يقبله العقل ولا تقاليد إذاً ولا عادات ولا منطق ، الله عز وجل يمتحننا بما هو واضح الآن ، بما هو ميسور بما هو في متناولنا ، ومع ذلك يسقط معظم الناس في الامتحان .
الأستاذ عدنان :
دكتور ، أيضاً من الأشياء التي يمكن أن تندرج ضمن هذا الإطار ، وما يتصل بموقف سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل من الحادثة التي تطرقنا إليها ، وكيف امتثلا لأوامر الله تعالى ، وبعد ذلك كان الفرج ، وكانت النتيجة المحلقة في الحقيقة ، نحن نسمع كثيراً قولة المرأة العجوز عندما قالت : اللهم ارزقنا

إيماناً كإيمان العجائز ، عندما سمعت أن فلاناً من المفكرين العابدين عنده ألف أو مئة دليل على وجود الله ، كانت تريد من خلال قولتها ألا إنه إن لم يشك بوجود الله تعالى مئة مرة لم يأته الدليل العقلي ليسعفه بعد ذلك أيضاً بمئة إجابة تلغي الشك الأول .

هنا في الحقيقة يمتزج شيئان ، يمتزج الإيمان المطلق عند العموم ، لكنهم ممن أحبوا الله الحب الصادق الكامل ، أما عند البقية المصفاة ، الذي يريدون أن يعرفوا مواضع أقدامهم بالضبط ، وأن يكونوا على بينة ، وأن يدركوا كما ذكرت الحكمة يفكرون إلى جانب الإيمان المطلق بكيفية تأكيد هذا الإيمان لا في نفوسهم ، فهو مؤكد ، إنما في طرحه أمام الآخرين ليتأكدوا من صحته وسلامته .

الأستاذ راتب :

كتوفيق بين ما تفضلت به حينما نكون في مجتمع بسيط غير معقد من غير شبهات، ولا فتن ، ولا شهوات ، ولا ضلالات ، الإيمان الفطري يكفي ، لكنني أعتقد الآن أن مجتمعاً ممتلئاً بالضلالات ممتلئاً بالشبهات ، ممتلئاً بالفتن الإنسان يحتاج إلى درع حصين من علم مكين ، ومن فهم عميق ، وهذا يؤكده قوله تعالى :

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية : 19)

سيدي ، في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحاح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

الحقيقة كلمة حلاوة الإيمان وردت كثيراً في السنة ، وهي مصطلح ، أنا مضطر أن أوضحها بنقيضها ، هناك حقائق الإيمان أو ليست نقيضها ولكن طرف آخر ، هناك حقائق الإيمان ، وهناك حلاوة الإيمان ، أنا شبهت حقائق الإيمان كمخطط لقصر على الورق كله الغرف 7 بـ 8 الشرفات ، الحدائق ، الطوابق، الأبهاء الواسعة الإطلالة الجميلة ، هذا كله على الورق ، هذه على علم مبنية ، كلها فيها حسابات دقيقة ، لكنه ورق هذا ، أما حلاوة الإيمان القصر نفسه ، ففرق كبيرٌ كبير بين أن تمتلك مخططاً لقصر ، وبين أن تسكن هذا القصر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

ومرة ثانية أقول : لو سألت مليار مسلم يقول لك : نحب الله أكثر من كل شيء ، أقول :

عند التعارض ، عندما تجد نصاً صحيحاً وأمراً قويماً ، وآية كريمة ، ومصلحتك بخلافها ، فتضع مصلحتك تحت قدمك ، وتؤثر طاعة الله عز وجل عندئذٍ تذوق شيئاً متميزاً اسمه حلاوة الإيمان ، هذا شيء دقيق جداً ، طبعاً :

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

لذلك في بعض عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْثُرُ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ ، وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ ، وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أخرجه أحمد]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 25 - 29 : الصلاة 2 .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-09-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

تحدثتم في حلقة سابقة عن الصلاة إنما من خلال حديث قدسي، وضحتم فيه بعض الأمور التي تتصل بعبودية الإنسان وهو يقف بين يدي ربه يؤدي الصلاة، وكان في ذلك الحديث القدسي أشياء كثيرة توضح كيفية صلاة المصلي الخاشع المتعبد الذي يبتعد عن الجهالة، وبينتم أن الجهالة هي العنوان الكامل لكل شيء سيئ، حيث ينقلب هذا الإنسان المصلي إلى الخير والسعادة، وإلى كل ما فيه مصلحته في الدين والدنيا والآخرة، ويكون مقرباً من الله تعالى، والله تعالى يحببه بعباده، ويحبب عباده به، ونتحدث معكم اليوم عن الصلاة أيضاً، متابعة للموضوع السابق، إنما من خلال ما ورد في الصلاة من حيث إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، حيث ورد ذلك في القرآن الكريم:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت)

نتابع معكم.

الأستاذ:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين

أستاذ عدنان، جزاكم الله خيراً، الإنسان ينضبط بإحدى طريقتين، إما أن ينضبط بوازع داخلي، أو برادع خارجي، الأنظمة الوضعية بأكملها لا تستطيع أن تضبط الإنسان إلا من الخارج، ولا تستطيع أن تسيطر عليه وهو وحده أو في، خلوته لأن المراقبة مستحيلة.

في بلد غربي بعيد جداً انقطعت الكهرباء عن منطقة كثيفة السكان، ارتكبت في هذه الليلة مئتا ألف سرقة، حجم هذه السرقة ثلاث مليارات دولار !

أما سيدنا عمر فقد التقى براعٍ، وقال له: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب، قال: واللهِ إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟

أنا أقول أستاذ عدنان: إن هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين، أنت حينما تقول: أين الله ؟ ويكون الوازع داخلياً تحل معظم المشكلات والمصائب، ولذلك حينما نجد في دولة متقدمة جداً من أجل ضبط السرعة تضع مراكز ضبط سرعة السيارات، واضع هذا القانون ذكي جداً، والمواطن أذكى منه، اخترع جهازاً في السيارة يكشف له هذه المراقبة، فقبل عدة كيلو مترات يخفض السرعة للسرعة المطلوبة، فينجو من العقاب، الآن الطرف الآخر في صدد اختراع جهاز يكشف واضع الجهاز في السيارة، ذلك لأن واضع القانون ذكي، والمواطن أذكى، وذاك طريق مسدود، أما إذا كان المشرع هو خالق الإنسان عندئذ لا يستطيع أن يحيد شعرة عن منهج الله عز وجل.

المذيع:

هذا الكلام ذكرني بقول الشاعر النابغة عندما قال يخاطب من يستطيع أن يصل إليه:

فكأنك الليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتهى عنك واسع

فالليل عندما يأتي الإنسان إنما يأتيه من يمينه وشماله، وأمامه وخلفه، وفوقه وتحته، لا بد من أن يأتي الليل، هذا إن كان السان، فكيف إ كان رب الأرض جميعاً خالق الأكوان ؟

الأستاذ:

مرة وزير تربية يقول: كل ما نملك من سلطة على مدرس أن نجعله يدخل الصف الساعة الثامنة، وهو في الصف متروك لضميره، وخوفه من الله، النقطة الدقيقة جداً في الصلاة أنها تهيئ للإنسان وازعا دقيقا جداً، الدليل قول الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

والله، أنا أقسم بالله إن حياة الناس لا تستقيم إلا بالوازع الداخلي، أما الرادع الخارجي فيحتال عليه، قد يؤدى أداء شكليًّا، ولا يدخل بواطن الإنسان، آلاف الطرق سالكة مع الرادع الخارجي، هذا يبدو مع حياة الناس جميعاً، لكن ومع الله عز وجل يراقبه.

أوضح مثل: في أيام الصيف الحارة، وكان فيه رمضان، يدخل الإنسان إلى بيته، والحمام، والصنبور ماء بارد، لا يستطيع أن يضع نقطة ماء في فمه هذا هو الوازع الداخلي ! لو أن الصيام ألزمنا الناس فيه بقانون كم إنسان يصوم حقيقة ؟ لا أحد، لذلك الوازع الداخلي شيء مهم جداً في الدين.

نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه، هذا مستوى راقي جداً.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

المذيع:

هنا أيضاً أريد أن أتوقف في ناحية هامة من خلال أبعادها في المجتمع، وفي السلوك السليم، وعدم إسراف الأموال، كيفما كان، عندما يكون الوازع داخليًّا أنضبط دون أن تكون هناك سلطة خارجية موظفة لضبطي، بمعنى آخر أوفر على الدولة أساليب المراقبة، إذ إن المراقبة من داخلي، من ناحية ثانية ألتزم بها على حين المراقبة الخارجية، قد يفلت منها الإنسان في كثير من الأحيان، المراقبة الداخلية تكون من منطلق إيماني، وفيها متابعة، المراقبة الخارجية تكون عن ظهر قلب عندما يلتزمها الإنسان، وقد تعطي تأففاً، إنما المراقبة الداخلية هي انسجام لتصرفات الإنسان مع فكره وعقيدته، وكلها في سبيل الله، ومن هنا يحدث الرضا النفسي الداخلي الذي لا يجده من جعل الرقابة عليه ملتزماً بها خارجياً.

الأستاذ:

أستاذ عدنان، حدثني طبيب أن هناك مرضًا متعلقًا بالكبد، التهاب الكبد الوبائي، وهذا مرض مميت قطعاً، وله دور حضانة طويل، فيكفي أن عاملا في مطعم دخل الحمام، ولم يغسل يديه جيداً، يمكن أن يصيب هذا العامل ثلاثمئة إنسان تناول الطعام في هذا المطعم، من الذي يضمن لي أن هذا العامل يخاف الها، ويغسل يديه جيداً قبل أن يعد الطعام ؟ إن لم يكن هناك خوف من الله يحول بين الإنسان، وبين أن يؤذي خلق الله، فالصلاة لا تستقيم، الصلاة الحقيقية التي أرادها الله تحقق الوازع الداخلي، بينما الأنظمة الوضعية تحقق الرادع الخارجي، ولا مانع أن يجتمعا ويتكاملا، لكن الأصل أن الإنسان يخاف الله.

والله سمعت عن إنسان وجد في مركبته مبلغ فلكي بالملايين ولا زال يبحث عن صاحبه حتى قدمه إليه، ما السبب ؟ الوازع الداخلي، أما الرادع الخارجي ليس مسؤولاً، ولا يضبط أحياناً.

لكن في تتمة الآية شيء رائع جداً:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

قال بعض العلماء: ذكر الله أكبر ما في الأرض.

وقال بعضهم: ذكر الله لك وأنت تصلي أكبر من ذكرك له، أنت إن صليت أديت العبادة، لكن الله إذا ذكرك منحك الحكمة.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة)

أنت بالحكمة تحسن كسب المال وإنفاقه، بالحكمة تكسب الأصدقاء وبغير الحكمة تجعل أصدقاءك أعداء، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة العاشرة، وبغير الحكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

أي شيء أكبر من أن يؤتيك الله الحكمة ؟ وأنت في الصلاة تضع الشيء في مكانه، تتكلم الكلمة المناسبة، مع الشخص المناسب، في الوقت المناسب، بالقدر المناسب، هذه الحكمة، وهي ضالة المؤمن، وأنا أرى أنها لا تؤتى إلا للمؤمن، والدليل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

(سورة محمد)

وقد يكون إنسان في غاية الذكاء، وغاية العقل، ومع ذلك يرتكب حماقة ما بعدها حماقة، لأنه مقطوع عن الله عز وجل، أما إذا اتصل بالله آتاه الله الحكمة، هذا من ذكر الله للإنسان ويأتيه الأمن، وما من نعمة على وجه الأرض تفوق هذا الأمن.

الأمن ليس ألاّ يحدث شيء مزعج، ألا تتوقع شيئاً، فرق كبير بين ألا يقع الشيء وبين ألا تتوقعه.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

والله الذي لا إله إلا هو يتمتع المؤمن في أمن لو وزع على أهل بلد لكفاهم، هذا من ذكر الله لك في الصلاة، والله عز وجل إذا ذكرك يمنحك السعادة،

((أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ))

[أبو داود، أحمد]

أنت حينما تتصلُ تتصل بالمطلق، بمن يملك الجمال المطلق، الحكمة، والقدرة، والرحمة، المطلقة، والغنى المطلق، فمن ذكر الله لك في الصلاة أنه يمنحك السعادة الحقيقية، وهذا مشمول بقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ)) ، أما إذا كان لسان الحال: أرحنا منها، فهناك خلل.

فضلاً عن ذلك الله سبحانه وتعالى يمنح السكينة، ما هي السكينة ؟ هذه السكينة وجدها أهل الكهف في الكهف، ووجدها في الغار، ووجدها يونس عليه السلامεسيدنا إبراهيم في النار، ووجدها النبي في بطن الحوت، السكينة تسعد بها، ولو فقدت كل شيء، وبغير السكينة تشقى، ولو ملكت كل شيء.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125))

(سورة طه)

أي كنت أعمى في الدنيا

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46))

(سورة الحج)

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132))

(سورة طه)

أي ذكر الله لك شيء لا يكاد يصدق.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

من ذكر الله لك أنه يوفقك.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

(سورة هود)

هذه آية جامعة مانعة، لا يحقّق شيء على وجه الأرض إلا بتوفيق الله، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، فأنت إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إذاً من ذكر الله لك في الصلاة أنه يوفقك.

من ذكر الله في الصلاة أنه يحفظك.

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64))

(سورة يوسف)

كان عليه الصلاة والسلام إذا سافر له دعاء رائع، عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ، ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ:

سُبْحَانَ{((الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي}إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ...))

(صحيح مسلم)

أية جهة في الكون يمكن أن تكون معك في السفر، ومع أهلك في الحضر ؟

المذيع:

هنا دكتور أريد أن يكون توضيح ذلك من خلال الواقع الذي يعيشه الإنسان، أنا إن قلت دعاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ثم سافرت، وكان في عقيدتي وفي يقيني أن الله تعالى قد وكّل بحفظ أهلي

وبيتي، كان الفرق كبيرًا بين هذا، وبين من يردد هذا الكلام بلسانه، ولا يعيه قلبه وعقله، ولا يندرج في خواطره ووجدانه، هذا الفارق بين النوعين، هذا الحاجز الكبير الذي يقف بين هذين النوعين، كيف نستطيع أن نخترقه لنصل إلى الحقيقة والكمال ؟ لا أن تكون أقوالنا مجرد تمتمات على اللسان.

الأستاذ:

الحقيقة آية كريمة تجيب عن هذا السؤال اللطيف:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة)

أي إذا دعاني مخلصاً، الإنسان قد يدعو الله على شكل تقليدي، أي ألِف الدعاء فيدعو، لكن ليس موقناً بالإجابة، ليس متوجهاً إلى الله بكليته.

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

قال:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

يجب أن يطيعوني، وقبل أن يطيعوني أن يؤمنوا بي، أي تؤمن، وتطيع، وتخلص، فيستجيب الله لك، لكن رحمة الله اقتضت أن الله يستجيب للمضطر إذا دعاه، ولو لم تتوافر فيه شروط الدعاء، لا بأهليته، بل برحمة الله عز وجل:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)

(سورة النمل)

من حكمة الله عز وجل أنه يستجيب للمظلوم، ولو لم يكن أهلاً للإجابة، لا بأهليته، ولكن بعدل الله عز وجل، لكن:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

أكثر من عشر آيات:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة)

عن المحيض:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ)

(سورة البقرة)

عشر آيات أو أكثر، إلا في آية واحدة ليس فيها قل:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

ليس هناك وسيط بين الداعي وبين الله عز وجل، إذاً أنت حينما تصلي، وتذكر الله في الصلاة، وقد قال الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

ويوجد معنى تكلمت به قبل قليل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

أي أكبر ما في السماء.

لكن المعنى الثاني: أن الله إذا ذكرك أعطاك نوراً في قلبك، كان به الحق حقاً، والباطل باطلاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد)

هذا النور، ما من عمل سيئ إلا وراءه رؤية خاطئة، رؤية قبل العمل، ما من عمل يقع به الإنسان على وجه الأرض من دون استثناء إلا وراءه رؤية، قد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة، لذلك يوم القيامة:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

أستاذ عدنان، الإنسان مخير خيار قبول أو رفض مع مليون قضية، قد يرفض هذه التجارة، يرفض هذه الوظيفة، يرفض الزواج من هذه الفتاة، إلا أنه مع الإيمان خياره خيار وقت فقط، الدليل أن أكثر كفار الأرض فرعون الذي قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص)

حينما أدركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة القصص)

معنى ذلك أن كل البشر عند الاحتضار يعرفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء، فخيارهم مع الإيمان والدين خيار وقت، إذاً:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أول شيء أن الصلاة تنير قلب الإنسان، أي قلما يرتكب مصلٍ حماقة، قلما يرتكب عملاً يدمره، إنه يهتدي بنور الله عز وجل.

أستاذ عدنان، بشكل مبسط جداً، أنت تقود مركبتك في الليل، والإضاءة قوية جداً، فالحجر تبتعد عنه، والحفر تبتعد عنها، وأنت على الطريق، النور القوي ضمان لسلامتك، والصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام، والصلاة طهور، فالحقد، الكراهية، الاحتيال، المخادعة، الكبر، الغطرسة، التجبر، الاستعلاء، هذه كلها أمراض النفس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا))

(صحيح البخاري)

فالصلاة طهور، والصلاة نور، والصلاة حبور، الصلاة عبارة عن اتصال العبد بالله عز وجل، فالعبد ضعيف والله قوي، فتستمد قوتك من الصلاة، تستمد حكمتك من الصلاة، تستمد رحمتك من الصلاة، لا يمكن أن تجد قلب مصلٍ قاسياً، مستحيل، لما اتصل بالرحيم أصبح رحيماً، الله عز وجل يقول:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

أي بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد لِنْتَ لهم،

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران)

كأن الله يقول: كمعادلة، اتصال رحمة، لين التفاف، أو انقطاع قسوة، غلظة انقباض، بالضبط.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

الناس أحياناً لا يرون العطاء إلا مادياً، فلان معه مال، وفلان معه بيت، أحياناً الله عز وجل يمنح السعادة، يمنح السكينة، يمنح الأمن، يمنح الرضا، المؤمن راضٍ عن الله عز وجل، يمنحه الحفظ، يمنحه التوفيق، يمنحه النصر، يمنحه التأييد، هذه كلها من ذكر الله للإنسان.

المذيع:

طيب دكتور، نحن نشهد في كثير من المجتمعات من يصلون، ومن يقومون أحياناً في الصف الأول، ومن يكونون أسرع الناس إلى المساجد حضوراً، وآخرهم خروجاً من المسجد، مع هذا قد نجد في بعضهم خلاف ما ورد، من حيث إن شعورهم يكون مرتبطاً بالله تعالى، وينعكس ذلك على أعمالهم،

إخلاصاً وحكمة، ومعاملة مع الآخرين، ترى كيف نرمم، وهذا له اتصال بما سبق من سؤال، كيف نرمم هذه الناحية ؟

الأستاذ:

أجيب بما أجاب به النبي عليه الصلاة والسلام: النبي الكريم سأل أصحابه مرة من المفلس ؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

(صحيح مسلم)

إذاً هذه الصلاة إذا أديت أداءً شكلياً، ولم تسبقها استقامة، ولم ينعقد اتصال بالله في خلالها، سقط الوجوب !! ولكن لم يحدث المطلوب، أنت قد تدعى إلى طعام نفيس، ولكن لا تأكل شيئاً، لكنك لبّيت الدعوة، ووضع في أسماء الحاضرين، لكنك لم تأكل شيئاً، هذه مشكلة.

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

(سنن ابن ماجة)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا، وَصِيَامِهَا، وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا، بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ...))

(مسند الإمام أحمد)

قضية خطيرة جداً، الصلاة عبارة عن قطف ثمار الاستقامة، فالإنسان ما لم يستقم لا يقطف من ثمار صلاته شيئاً، لذلك أنت ترى المسلمين في شتى بقاع الأرض، يصلون، ولا يصدقون أحياناً، ولا يتقنون أعمالهم، ولا ينصحون، ولا يرحمون، ولا ينصفون، صلاتهم ذهبت أدراج الرياح.

شيء آخر، الصلاة فيها علم، الدليل حينما يقول الله عز وجل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء)

هذه الآية منسوخة طبعاً، لكن فيها ملمح لطيف، فالذي يصلي، ولا يعلم ماذا قال فكأنه لم يصلِّ، معنى ذلك: ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

فأنت حينما تقول:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

أي أننا نحن نعبدك، ونستعين على هذه العبادة بك، ثم تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

من هم المغضوب عليهم ؟ الذين عرفوا وانحرفوا، ومن هم الضالين ؟ الذي انحرفوا، ولم يعرفوا، عرفوا وانحرفوا، ما عرفوا وانحرفوا، فأنت حينما تقرأ الآيات الآن، ماذا تقول:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة الإسراء)

ألم تقل لي يا عبدي أن أهديك الصراط المستقيم ؟ افعل كذا، أنت حينما تقرأ الفاتحة بتمعن ، وتدبر، وكأنك تعيش معانيها:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

تأتي الآية:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

تدعوك إلى التوبة، الآن تركع فالركوع خضوع لله عز وجل، تركع نعبده، تسجد استعانة بالله، معنى الركوع أنك خاضع لأمر الله، معنى السجود أنك تستمد العون من الله، فأنت حينما تحمد الله، وتوحده، وتثني عليه، وتسأله الهداية والتوفيق، ويأتيك الجواب في الآية التي، فتقرأها، ثم تركع وتسجد، هذه صلاة لها معنى، خرجت منها بشيء، لذلك:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

إذاً ينبغي أن نعلم ما نقول.

المذيع:

من ناحية ثانية دكتور، إذا جرب العبد المصلي أن يتقدم خطوة واحدة باتجاه هذه المعاني التي ذكرتموها ليفهم معنى الصلاة، فإنه سيجد من رحمة الله ما تكون قربة له من ربه أكثر وأكثر، فإذا ما أحس بهذا القرب يحدث له مزيد من القرب، إن تابع هذا الطريق.

الأستاذ:

قال تعالى:

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

(سورة العلق)

لذلك يقول بعض العلماء: ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أخرجوني فإخراجي سياحة، إن حبسوني فحبسي خلوة، إن قتلوني فقتلي شهادة، بستاني في صدري.

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19))

لذلك قال هذا العالم: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب.

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

أي ذاقوا طعمها في الدنيا.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

في بعض الأحيان يفسر بعض الذين يريدون أن يفتروا على الإسلام بعض النصوص تفسيرات خاطئة، من ذلك قول الله تعالى من كتابه العزيز:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد)

يستدلون لذلك، ويتمنطقون، نحن نملي إرادتنا على الله تعالى من خلال تصرفاتنا، من خلال صراط مستقيم، فالله معنا، وإن انحزنا عنه، نحن أملينا ما يجب أن يكون من قِبَل الله تعالى، والعياذ بالله، وهذا خطأ في التفسير، وهي مجرد تفسيرات عشوائية وغوغائية في الوقت نفسه، وفيها مغالطة، وكل إنسان يحصل على نتيجة ما فعل، وهذا أمر طبيعي، فإذا كان الطالب مجتهداً يحصل على النجاح، وإن لم يكن كذلك تكن نهايته الرسوب، أشياء طبيعية في حياة الإنسان، وهؤلاء الذين يقولون مثل هذه الأقوال إذا طلبنا منهم أن يتصرفوا على عكس ما يملى عليهم لقالوا: لا يمكن هذا، ففي موضوع:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

أشياء عديدة تطلب من الإنسان أن يكون واضحاً في طريق الحق، هدفاً في سبيل الحق، وموضوعاً للحق، ويسلك السلوك الصحيح ما بينه وبين نفسه و مجتمعه، وبين خالقه، وإذا كانت علاقة الإنسان بينه وبين خالقه سليمة فستسلم بقية العلاقات، والله تعالى في عون العبد، ويكون هذا الأمر مستمراً في حياته طالما أن الإنسان سلك الطريق المستقيم، هل يمكن أن نتابع هذا الموضوع معكم ؟

الأستاذ:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

بارك الله بكم، وجزاكم الله خيراً أستاذ عدنان، يمكن أن تكون هذه الآية محور هذا اللقاء الطيب .

أيها الإخوة الكرام، إن الله لا يغير ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا، ولكن هذا الموضوع كبير جداً، ويحتاج إلى تمهيد:

من النقاط الدقيقة التي ينبغي أن تعلم في مقدمة هذا الموضوع حقيقة خطيرة جداً، وهي أن العبرة ليست فيما حدث، بل في فهم ما حدث، لا بد من توضيح:

إنسان يركب مركبته، تألق في لوحة العدادات ضوء أحمر، رآه بعينه، ورأته زوجته، وأولاده، تألق أو لم يتألق ليست هذه المشكلة، ولكن لماذا تألق ؟ وماذا يعني تألق هذا الضوء الأحمر ؟ لو أنه فهم خطأ أنه ضوء تزييني لاحتراق المحرك، ولوقفت السيارة، وتعطلت الرحلة، وكلفه إصلاح المحرك مبلغًا كبيرًا، أما إذا فهم هذا التألق تألق تحذيرياً لأوقف المركبة، وأضاف الزيت، وسلم المحرك، وتابع الرحلة، الضوء تألق، ليست المشكلة أن الضوء تألق، أم لم يتألق، الآن العالم كله سطح مكتب، كان قرية فأصبح سطح مكتب، فما يجري في القارات الخمس يبلغ أي إنسان بجهاز مذياع صغير، أو بشاشة صغيرة، فنحن نطلع على كل ما يحدث كل يوم، بكل بساطة، وبسهولة، ولكن البطولة في فهم ما حدث.

النقطة الأولى في هذا اللقاء الطيب: يجب أن نتجاوز الذي حدث لحقيقة، أو علة، أو غاية ما حدث، هذه النقطة الأولى، المسلمون كما ترون في محنة شديدة، هذا شيء بديهي، وشيء واضح، ولا ينكره عاقل، ولكن لماذا كانت هذه المحنة ؟ ولماذا ساقها الله لنا ؟ ولماذا قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(سورة النور)

ونحن لسنا مستخلفين .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

ونحن في الحقيقة لسنا ممكَّنين .

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

نحن لسنا آمنين، نحن في محنة لا يختلف فيها عاقلان على وجه الأرض، ولكن لماذا كانت هذه المحنة؟ ألم يقل الله عز وجل:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

ألم يقل الله عز وجل:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

ألم يقل الله عز وجل:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

ألم يق الله عز وجل:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

ألم يقل الله عز وجل:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

ألم يقل الله عز وجل:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

فلماذا شاءت حكمة الله أن نكون في هذه المحنة ؟ هذه النقطة الدقيقة في هذا اللقاء الطيب إن شاء الله .

النقطة الثانية: الله عز وجل له قوانين، وسنن، إن آمنا بها أم لم نؤمن، إن احترمناها وقدرناها، أو لم نقدرها، ولم نحترمها فهي واقعة بنا، شئنا أم أبينا .

مثل يوضح هذا، يوجد في علم الفيزياء ما يسمى علم السقوط، حينما أؤمن بهذا القانون، وأتأدب معه، وأعظمه، فإذا أردت أن أهبط من طائرة أستخدم مظلة، المظلة مبنية على علم دقيق، ومساحة معينة تقاوم حركة الهواء، وهذه المساحة تناسب وزن المظلة، فإذا آمنت بهذا القانون، وتأدبت معه نزلت بالمظلة سالماً إلى الأرض ! أما إذا احتقرت هذا القانون، ولم أؤمن به، وألقيت بنفسي من الطائرة نزلت ميتاً ! عدم إيماني بهذا القانون لا يعطّله، في الكون سنن وقوانين لله عز وجل، سواء آمنا بها، أم لم نؤمن، أو قدرناها أو لم نقدرها، عظمناها أو لم نعظمها، فهي واقعة بنا، شئنا أم أبينا، هذا ما يمليه علينا العقل السليم، نحن ندعو الله .

سيدنا عمر رضي الله عنه رأى أعرابيًّا معه جمل أجرب، قال: يا أخا العرب، ماذا تفعل بهذا الجمل ؟ قال: أدعو الله أن يشفيه، قال: هلاّ جعلت مع الدعاء قطراناً .

الله عز وجل لا يقبل أن ندعوه فقط، نحن في محنة سابقة ألمت قطراً مجاوراً، دَعَوْنَا في كل مساجدنا في الصلوات الخمس أن ينصرنا، يبدو أن هذا الدعاء لم يستكمل شروطه، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

(سورة البقرة)

لا بد من أن نؤمن بالله بأنه الفعال، لا بد من أن نستجيب له، بأن نطيعه، ثم نخلص في الدعاء، عندئذ يكون الدعاء أخلص من أي سلاح، والدعاء سلاح المؤمن، ويرد القضاء، وسلاح خطير بيد المؤمن،

لأن خالق السماوات والأرض يمكن أن ينتفع المؤمن من قوته وعلمه وخبرته، فالحقيقة الثانية هذه، القوانين التي قننها الله، والسنن التي سنها الله هذه القوانين آمنا بها، أو و لم نؤمن، قدرناها أو لم نقدرها، هي واقعة بنا لا محالة .

المذيع:

يمكن أن يتساءل متسائل في الناحيتين التي ذكرتهما أولاً، إن ما مر بنا دليل على شيء، هل آمنا بالله تعالى فعلاً فاستحق العدو أن يكون جباراً مسيطراً ؟ هذه ناحية .

الناحية الثانية: القوانين التي هي سنن الله في الكون نازلة بنا لا محالة، وأشرت إلى موضوع الدعاء، وكم من داع دعا، وما إلى ذلك، ضمن هذه الأجواء أن يكون أمر هذا الدعاء، هذا من جهة ؟ وأين يكون أمر أن غيرنا أيضاً، لم يكن، بل إذا كنا على شيء من الإيمان فهو على كل ما يبتعد عن الإيمان؟

الأستاذ:

أنا مضطر أن أضرب المثل: لو أن طبيباً في أعلى درجة من العلم جاءه مريض معه ورم من الدرجة الخامسة، ولا أمل إطلاقاً من شفائه، وسأله هذا المريض: ما هو الطعام الذي تنصحني أن أتناوله ؟ يقول له الطبيب: كُلْ ما تشاء !

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

هذا قرآن .

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

فالإنسان حينما يطلب الشهوة والعلو في الأرض، والاستمتاع بالحياة الدنيا، ولا يعبأ لا بدين ولا بقيمة، ولا بخلق ولا بآخرة، ولا بمستقبل، يريد شهوته ومصلحته، يريد أن يبني مجده على أنقاض البشر، وقوته على ضعفهم، وأمنه على خوفهم، وغناه على فقرهم، وحياته على موتهم، هذا خرج من العناية الإلهية المشددة ! وينطبق عليه قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

لكن هناك نقطة دقيقة جداً ينبغي أن أشير إليها، هذه الدنيا لها قوانين، أيّ مخلوق أخذ بها، وأتقنها ملك الدنيا، ولو كان كافراً ! من أدق ما قال الله عز وجل في هذا الموضوع:

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأعراف)

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105))

(سورة الأنبياء)

في هذه الآية من أحكم فَهْمَ قوانينها، وأعطى الأسباب حقها نال النتائج، إن الله يعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب .

مثلاً: حينما أتقن دراستي أنال شهادة عالية، وحينما أتقن عملي تروج بضاعتي، وحينما أحكم ضبط أموري يصح جسمي، يوجد قوانين !

عجبي الشديد من المسلم الذي معه وحي السماء، الذي معه منهج خالق الأرض والسماء، لا يطبقه ! لو أن ملحداً أخذ بمنهج الله لقطف ثماره في الدنيا، لأن منهج الله موضوعي .

(مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة)

إنسان ينكر وجود الله، رأى أن الصدق أكثر رواجًا له من الكذب في عمله، وإعطاء الناس حقهم أولى لولائِهم من إهمالهم، والعدل هو الذي يؤلف القلوب، ولا يشتتها، فإذا أدرك إنسان بذكائه وعقله أن مبادئ الإسلام إذا طبقها كانت لصالحه يقطف ثمارها في الدنيا قطعاً، لأن منهج الله منهج موضوعي، فأيّ إنسان أخذ به قطف ثماره في الدنيا، فإن أراد أن يأخذ به لتزداد ثروته تزداد ثروته، إن أخذ بمنهج الله لتزداد قوته، أو ليحكم السيطرة على العالم لنال ما يريد، هذا المنهج موضوعي، كل من أخذ به قطف ثماره، أما إذا أخذ به المؤمن سعد في الدنيا والآخرة، وفي الأبد، إذا أخذ به غير المؤمن قطف ثماره في الدنيا فقط .

(مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

فالشق الأول:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

والشق الثاني: أن الدنيا لها أسباب، والدليل:

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85))

(سورة الكهف)

هذا ذو القرنين، أشار الله أنه أخذ بالأسباب ! هذا الفهم المسلمون في أشد الحاجة إليه الله طريق الإيمان الكامل طريق عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، يقتضي الإيمان أن آخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، وأتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، فإن أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، وألّهتها وقعت في وادي الشرك، كما هي حال العالم الغربي، وإن لم آخذ بها، ولم أعتد بها وقعت في وادي المعصية، فالغرب ألّه الأسباب، وتجبّر وتغطرس، وعلا على خلق الله، وبنى مجده على أنقاض الآخرين، لأنه أخذ بالأسباب، وألّهها، واعتمد عليها، بينما الشرق المتديِّن لم يأخذ بها، فعصى الله عز وجل !

الحق يحتاج إلى قوة، حينما يقول الله لي:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال)

ولا أبالي بهذه الآية لا أربح الدنيا، لأن للدنيا أسباب، لذلك، أنا أقول: هناك ما يسمى الجهاد البنائي، فحينما أبني أعمق اختصاصي، وأتقن عملي، وأستخرج الثروات، وأضع المشاريع، وأهيئ فرص العمل، وأضع نظاماً دقيقاً، أكون قوياً حينما أفعل هذا، وبالمفهوم الاقتصادي قوة العملة ليست في مقدار الذهب المودع في البنك، ولكن في اقتصاد الأمة، هذا هو الجهاد البنائي .

سيدنا عمر في بلدة من بلاد المسلمين رأى أن معظم الفعاليات الاقتصادية فيها ليست في أيدي المسلمين، فعنّفهم تعنيفاً شديداً فيها فقالوا كما يقول الكسالى: إن الله سخرهم لنا، فقال: كيف بكم إن أصبحتم عبيداً عندهم ! أدرك هذا الخليفة العملاق قبل ألف وأربعمئة عام أن المنتج قوي فيها والمستهلك ضعيف .

أحياناً نبيع ثرواتنا الزراعية بثمن بخس، لنستورد قطعة لمصنع عالية التقنية جداً، وثمنه باهظ، تعمير محرك طائرة يكلّف خمسة ملايين دولار، كم طنًّا من القمح والقطن مقابل ذلك ؟ فنحن بحاجة للجهاد البنائي، أن نبني وطننا وأمتنا، ونستخرج ثرواتنا، ونهيئ فرص عمل لشبابنا، ونحسن معيشتنا .

الإنسان إذا كان قوياً يستطيع مجابهة عدوه، هذه نقطة دقيقة، فالغرب أخذ بأسباب الدنيا، وألّهها، فملكوا ناصية الأمر، نحن قصّرنا في ذلك، فهذا الطريق أمامنا .

المذيع:

وما تعليقك حول موضوع الدعاء ؟

الأستاذ:

الدعاء له ملمح لطيف، أنت كأب، لو أن ابناً لك طلب منك شيئاً يؤذي نفسه به، أو يعتدي على الآخرين، لا تستجيب له، مع أنه ابنك، وتحبه، فنحن حينما ندعو، ولم نقدم مع الدعاء أسباب الاستجابة لا يستجاب لنا، وذكرت قبل قليل قوله تعالى:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي)

(سورة البقرة)

فما لم نؤمن بالله عز وجل، وما لم نستجب له فالله لا يستجيب دعائنا، والدعاء كما قال بعض العلماء من دون عمل فيه استهزاء بمن تدعوه، غير معقول أن أكون راكبًا مركبة، وتوقفت، أن أخرج إلى الفلاة وأقول: يا رب، يسّر لي الأمر، لا تفتح غطاء المحرك، أين الخلل ؟ لا يعقل أن يقول طالب: يا رب، اجعلني متفوقاً، ولم يدرس، هذا استهزاء بالدعاء، فحينما أؤدي لكل شيء سببه، وأسأل الله عز وجل عندئذ يستجيب الله لي .

يوجد حديث رائع جداً، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(سنن أبي داود)

أن تستسلم، وتقعد، وتقول: انتهينا، وما بيدنا شيء، الإنسان الكسول يريحه أن يعزو كل أخطائه إلى غيره، ظروف صعبة، والمعيشية صعبة، والإعلام فاسد، والبيئة سيئة، والعدو متمكّن منا، هذا كلام سلبي يقعِد الجبابرة، فنحن حينما نعتمد على الله، ونسعى يمكن أن نصنع كل شيء، ونحن ضعاف ! لأن الضعيف يملك ما لا يملكه القوي، هذا تراه فيما يجري حولنا، المقاوم ضعيف أساساً، لكن يفعل شيئًا يهز أركان وقواعد العدو ! هذا شيء بيد الإنسان، وإذا اعتمد الإنسان على الله ألهمه الله الصواب .

قبل يومين كنت في مؤتمر، أعجبتني كلمة، ماذا يقابل القنبلة الذرية ؟ القنبلة الذُرية أن نربي شبابنا وأولادنا تربية إسلامية، فمن يمنع المسلم اليوم من أن يكون صادقاً، وأميناً، وعفيفاً، ويربي أولاده تربية منضبطة، وأن ينظم حياته، هذا محور هذا اللقاء ! كيف نغير ؟ أن نطمع أن يغيّر الله ما بنا دون أن نغير ـ والله ـ هذه سذاجة، المسلم يتوهم أنه تأتي معجزة فتقضي على أعدائنا، هذا ـ والله ـ شيء مضحك، ويدعو للسخرية، الحياة لها قوانين،

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

الاستسلام، القعود، ليس بيدنا شيء، انتهينا، هذا كلام الكسالى والضعفاء، الله عز وجل لا يتخلى عن المسلمين أبداً،

((وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

أي أن تسعى، وتتحرك، وتسأل، وتسعى، وتأخذ بالأسباب،

((فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

متى أقول: حسبي الله، ونعم الوكيل ؟ حينما أستنفذ كل جهدي، وأوضحُ مثلٍ: طالبٌ لم يدرس، فلم ينجح، فقال: حسبي الله، ونعم الوكيل ! هذا استهزاء، أما حينما أدرس دراسة رائعة، ويأتي مرض

مفاجئ قبل الامتحان، عندئذ أقول: حسبي الله، ونعم الوكيل، أما كلما وقعت في مشكلة سببها أنا، وكلما قطفت نتائج سيئة لعلم سيئ أنا سببه، أقول: حسبي الله، ونعم الوكيل، هذا استهزاء بهذه الآيات .

المذيع:

كما يقال: لله تعالى عند البشر، وفي الكون، وفيما خلق كتابان ! كتاب القرآن الكريم أولاً، وكتاب سننه وقوانينه في الكون، ما بالنا نؤمن مضطرين خاضعين لسنن الله في الكون، فإن طلبت، ودعوت، ومهما قررت أن أطير في الهواء فإنني لن أطير إلا بطائرة، إذاً أخذت الأسباب، ما بالنا نتخذ الأسباب فيما نقهر عليه، ونترك ما يرغبنا القرآن به من إنتاج، وعمل، وفكر، وتعبد، ويقين بالله تعالى ودعاء، مع اتخاذ أسباب، نترك هذا لأننا لم نخضع له إخضاعًا، خضوعنا لقوانين الله وسننه .

الأستاذ:

في العقل الباطن شعور أن الإنسان إذا تفوق يعزو هذا إليه، أما إذا تخلف يعزوه للقضاء والقدر ! وهذا خطا كبير، حينما نستعين بالله عز وجل يمدنا بقوة استثنائية في أيّ ظرف صعب تجد هناك أشخاصًا حججًا على من حولهم .

المذيع:

يا سيدي في تاريخنا الإسلامي، إن كان على مستوى المعارف، أو مستوى الاجتهاد والفقه، والعلوم الدنيوية والدينية، وفي كل مجالات الحياة، نجد أمثلة كثيرة تؤكد ما ذكرته، وما ذهبت إليه، الإنسان عندما يقدم بصدق نية، ولو كان العمل متواضعاً، فإن الله تعالى يهبه من نتائج هذا العمل ما لم يكن متوقعاً .

الأستاذ:

الشيخ أحمد ياسين رحمه الله معاق من أول حياته، وهو في قلوب الملايين، وما من إنسان إلا واستنكر اغتياله، وما من قلب إلا وامتلأ محبة له، وما من مسلم إلا ويتمنى أن تكون هذه نهايته، وكم من إنسان يحمل أجسام البغال، ولم يفعل شيئاً .

لذلك قلت مرة في بعض الخطب: ساقاك واقعنا، وفكرك حلمنا، إنسان معاق فعل ما لا يفعله الأصحاء، الله عز وجل أودع في الإنسان قدرة عجيبة، إذا أراد شيئاً، وصمم عليه لا بد من أن يقع، لأن الله أراد له ذلك .

فكنت أقول دائماً: إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام، إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 27 - 29 : التغير .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

في الحلقة الماضية تحدثتم عن أشياء هامة فيما يتصل بموضوع الآية القرآنية الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد)

وبينتم أن التغيير يمكن أن يكون على طرق متعددة، وأن الدنيا إذا ما دعا إليها الإنسان فإن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب، ومن لا يحب، وإنما يعطي الآخرة والجنة لمن يحب، والنار لمن لا يحب، من خلال عمل الإنسان، وبينتم موضوع الدعاء الذي يجب أن يقترن بما ييسر، فلا يمكن أن أقول في موضوع الجَمَل الأجرب: أنا أدعو الله دون وضع القطران معه، فلا بد من إتيان الأسباب، وبعد هذا إن قصر بالمرء شيء من عمله فإنه يلتجئ إلى الله، ويدعوه، والله تعالى ينقذه، وكثيرة هي أحداث التاريخ والشواهد على ذلك، هذا بينتموه فيما سبق في لقاء سابق، ونتابع الموضوع معكم لنتبين مزيداً من الأمور التي تتصل بموضوع أقرّ، وانتهى الأمر به، وكان القصد أن الله تعالى عندما يحدث التغيير في قوم يكونون قد أحدثوا التغيير في أنفسهم، وهذه قاعدة مستمرة أرادها الله تعالى، وهي باقية ما دامت السماوات والأرض، نتابع معكم.

الأستاذ:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بارك الله بكم، وجزاكم الله خيراً، أستاذ عدنان، نتابع هذا الموضوع الحيوي، العبد الفقير اختصاصي في الدين، لو اطلعت على تخطيط قلب، لا أرى إلا خطوطًا متعرجة منكسرة، أنا في قراءة هذا التخطيط أمّيٌّ، وقد يكون الإنسان يحمل أعلى شهادة في علوم الأرض وهو في الدين أمّيٌّ، هذا تمهيد لفكرة دقيقة.

عند العلماء مقولة: هناك علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، مهندس، طبيب، فيزيائي، اختصاص طب نووي، فيزياء، كيمياء عضوية... مهما كان الاختصاص نادرًا وخطيرًا ومهمًّا، قد يكون هذا الإنسان الذي حصل أعلى درجة من العلم المادي أميًّا في الدين، لذلك هناك علم يجب أن يعلم بالضرورة.

أضرب لك مثلاً بمظليّ، هذا المظلي حينما يهبط من الطائرة قد يجهل شكل المظلة، أدائري هو، أم بيضوي، أم مستطيل، أم مربع ؟ وقد يجهل نوع القماش، من خيوط صناعية، أو طبيعية، وقد يجهل لون المظلة، بيضاء، أو سوداء، وقد يجهل عدد حبالها، وقد يجهل الخيوط التي صنعت منها الحبال، وألوانها، ولكن معلومة واحدة في المظلة إذا جهلها نزل ميتاً، هي طريقة فتحها ! طريقة فتحها علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، أمتلك مركبة، قد أجهل المادة التي صنع منها المكبح، وطريقة صناعة الحديد، وهذا الشكل الإنسيابي، لكنني حينما أجهل كيف أحركها، وأوقفها، وأصونها أكون قد دمرت نفسي.

فلسنا مكلّفين أن نقرأ كل شيء، ولا نفهم كل شيء، ولكن هناك علم ينبغي أن يعلم بالضرورة، لذلك طلب العلم فريضة على كل مسلم، يوجد نوع من العلم الديني فرض على كل مسلم، كبيرًا كان أو صغيرًا، يحمل أعلى اختصاص، أو اختصاصًا من بلاد بعيدة، متفوقًا، الأول على القطر... هناك علم في الدين يجب أن يعلم بالضرورة.

المذيع:

والعلم الآخر ؟

الأستاذ:

لا بد منه لصلاح الدنيا ! ولكن أقصد أن هناك علماً بالله، وعلماً بخلق الله، وعلماً بأمر الله، العلم بخلق الله اختصاص جامعات الأرض، وهو ضروري لصلاح الدنيا، الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات، والطب، والهندسة، والفلك، التاريخ... هذه علوم الدنيا ضرورية لصلاحها، أما العلم بأمر الله ضروري لسلامة الإنسان وسعادته.

قد أكون أحمل أعلى اختصاص، لكنني شقي في الدنيا، أما حينما أتعرف إلى العلم بأمر الله أضمن سلامتي، وسعادتي، لأن الإنسان آلة بالغة التعقيد، والتعقيد تعقيد إعجاز، لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة، فحينما أكون حريصاً على سلامة هذه الآلة، وعلى مردودها الجيد أتبع تعليمات الصانع دون أن أشعر، حينما تشتري آلة غالية الثمن، عظيمة

النفع، معقدة التركيب، من حرصك على سلامتها، وحسن أدائها لا تستخدمها قبل أن تترجم تعليمات الصانع، فأقول: تعليمات الصانع هي التعليمات الوحيدة التي ينبغي أن تتبع، هذه مقدمة.

أيّ إنسان مهما كانت ثقافته وموقعه في الدنيا، وتفوقه هو بحاجة لعلم يضمن له سلامته وسعادته، هذا العلم بأمر الله.

أما العلم بالله فهو الأصل، لأنك إن عرفت الله عرفت كل شيء !

ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأقول: يا رب، ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟

القرآن الكريم يضرب أمثلة رائعة: سيدنا موسى كان وراءه فرعون، وما أدراك ما فرعون، بقدرته، وجبروته، وطغيانه، وقوته المادية، هو وراء شرذمة من أتباع هذا النبي الكريم:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

لمْ يقل: لا ! وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك ؟ نحن كونا مسلمين في أمسّ الحاجة لمثل هذه المعاني ! سيدنا يونس وجد نفسه في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

انتهت القصة، جاء التعليق الذي هو قانوناً:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

فالإنسان حينما يتعرف لله فقد وصل إلى كل شيء، مستحيل وألف مستحيل أن تخطب وده، ويتخلى عنك، سبحانك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، مستحيل أن تطيعه، وتخسر، وتعصيه وتربح، أن تؤذي خلقه وتسلم، مستحيل أن تنصح خلقه إلا، وتسعد، يوجد بديهيات في الدين.

لو أن الإنسان الذي درس، وتعلم، له جانب من ثقافته، ثقافة إيمانية، وإسلامية، ثقافة دينية، عرف من هو.

الله عز وجل ماذا عنده لو أطعته ؟ ماذا ينتظرك لو عصيته ؟ ما حقيقة الدنيا ؟ هل هي كل شيء ؟ لا !! هي مرحلة قليلة جداً.

واحد بالأرض، وأصفار إلى الشمس، كل ميليمتر صفر، ما هذا الرقم ؟ فما بالك في مئة وستة وخمسين مليون كيلومتر، هذا الرقم إذا وضع صورة، وكان مخرجه اللانهاية قيمته صفر، فالدنيا عند الله صفر، الآخرة هي الحياة الحقيقية.

سميت حياة دنيا يعني أن هناك حياة عليا، فنحن خلقنا لحياة عليا.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي)

هذه الدنيا ممر، وليست مقرًّا، أريد من هذه المقدمة أن هناك علماً ينبغي أن يعلم بالضرورة، طلب العلم فريضة على كل مسلم، وتنفس الهواء فريضة، لو لم أتنفس لمتُّ، تناول الطعام، الفرائض هي الأشياء التي تتوقف عليها سلامتك وسعادتك.

تجد إنسانًا درس، وأتقن عمله، لكن في أمور الدين جاهل، ويقع في أخطاء فاحشة ومدمرة.

الإنسان فطر على حب وجوده، وعلى حب سلامة، وكمال واستمرار وجوده، من أين يأتي الشقاء ؟ من الجهل، فالجاهل يفعل في نفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به، فالجاهل عدو نفسه.

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

فهذه حقيقة أولى، أن هناك علماً يجب أن يعلم بالضرورة، كيف أن معرفة فتح المظلة ضروري للمظلي، وإلا يقع ميتاً، وقد يجهل أشياء كثيرة.

فينبغي أن نصطفي، عندي امتحان تخرج، ومادة أساسية، ويبنى على نجاحي في هذا الامتحان تعييني في منصب رفيع، ويبنى على تعييني زواجي، وعلى زواجي إنجاب الأولاد، والسعادة الدنيوية، وعندي مكتبة بأربعة جدران، حتى السقف، كلها كتب، ينبغي أن أقرأ الكتاب المقرر، أما أن أقرأ قصة، والامتحان على الأبواب فهذا نوع من تضييع الوقت، فأجد أن الإنسان مبعثر، يلهو بأي شيء، ويستأنس بأي شيء من دون هدف.

المذيع:

تحديد الهدف، وتحديد الطريق لهذا الهدف يجب أن يكون في ذهن الإنسان، وقد خطط له، وجمع إمكاناته لتكون ممهدة له للوصول لغايته.

الأستاذ:

زارني أخ درس في أميركا، له دكتوراه في التسويق، أقسم لي بالله أن آية في القرآن الكريم هي محور اختصاصه:

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22))

(سورة الملك)

وتوضيح هذه الحقيقة: لو فرضنا طالبًا ذهب إلى فرنسا ليدرس الدكتوراه، إذا كان هدفه واضحًا جداً، هدفه الواضح يحدد له مليون جزئية متعلقة بهدفه، يستأجر بيتًا قريبًا من الجامعة لتوفير الوقت، ويصاحب طالبًا يتقن اللغة التي يتعلمها يستعين به على تعلم اللغة الشفهية، الآن يختار مجلة متعلقة باختصاصه، وطعامًا خفيفًا يعينه على الدراسة، ويشتري منبِّهًا، وينظم وقته، ويختار وسيلة نقل مريحة، وحينما كان هدفه واضحًا يختار ملايين الجزئيات التي تخدم الهدف، وإذا كان الهدف غير واضح يتبعثر، ويتشتت.

لذلك نجد الإنسان أحيانا لا هدف له، لماذا أنت في الدنيا ؟ يقول: (ندفش)، بالتعبير العامي، هذا كلام مضحك، أين هدفك ؟ الإنسان يسمو بالهدف، الحياة من دون قيم ومبادئ لا تعاش، الإنسان عنده حاجة عليا، طلب الحقيقة، وحاجات سفلى، هو والحيوان سواء، أما نوعيتها فراقية، له بيته فخم، الحيوان له بيت يأوي إليه، فالإنسان من دون حاجة عليا لطلب الحقيقة، هذا إنسان تافه، لا يرقى إلى مستوى البشر.

لذلك الإنسان عندما يستجيب للحالات السفلى من طعام وشراب يبتعد عن إنسانيته التي هي أهداف نبيلة يسعى لتحقيقها.

يوجد نقطة دقيقة جداً: لو أن أهداف الإنسان مادية محضة، ما الذي يحصل ؟ ما دامت هذه الأهداف بعيدة عنه فهو يسعد بتصورها، متى تبدأ أزمته ؟ حينما يحققها، فيشعر بفراغ الحياة، لذلك تجد الأغنياء والأقوياء عندهم حالة مللٍ، أكل كل أنواع الطعام التي يحبها، سكن في بيت فخم، وركب سيارة فارهة، شعر أنه تافه، لا هدف له في الحياة !

يأتي إنسان فقير، لا يملك واحدًا بالألف مما عند هذا الغني، لكن تجده يحمل رسالة وهو سعيد.

في موضوع السعادة وجدها النبي الكريم غار ثور، وإبراهيم في النار، ويونس في بطن الحوت، وأصحاب الكهف في الكهف، هذه السكينة التي يسعد بها الإنسان، ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقرها، ولو فقد كل شيء.

المذيع:

ما بال كثير من الناس إذا اجتهدوا، وفعلاً اجتهدوا في أمر مادي دنيوي سعوا إليه سعي من ضربتم مثلاً له، أنه يريد أن يجلس في بلد أجنبي، فاستأجر بيتاً قريباً من الجامعة، ورافق صديقاً يتقن اللغة،

وما إلى ذلك، ما بال كثير من الناس إن اجتهدوا إنما يجتهدون في مثل هذه المواطن، ألا يجتهدون فيما طلب الله تعالى منهم في أمور كمال الدنيا، والسعي إلى تمام الآخرة ؟

أضرب لك بعض الأمثلة السريعة دكتور: من سوريا، الإمام النووي، لم يبلغ إلا العقد الرابع من عمره، توفي بعد ذلك، آثاره ما تزال ينجذب إليها كثير من كبار العلماء، وهي مستمرة، وقويمة، وفي غاية الإتقان، ما بالنا لا نتبع هذا إذا جاء الإنسان إلى نفسه، وقال: إنني في هذه الدنيا مخلوق، ويجب أن أؤدي رسالة طلب مني أن أؤديها، هل انظر في ميدان ما يتصل بالدنيا، وما يتصل بالآخرة، وما يتصل بهما معاً ؟

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)

(سورة القصص)

عندما يدرك الإنسان هذا الأمر هل تراه يتركه الله تعالى في مهمه الحياة يضيع فيها ؟

الأستاذ:

الله رب العالمين يربّيه ! هناك آية دقيقة، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء)

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم)

من باب الطرافة، لو أنّ كل واحد طلب أغلى بيت، وأجمل مصيف، وأغلى سيارة، قال

((مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

تشبيه رائع، إذا سافرت إلى طرطوس، واغمس إصبعك في البحر، واسحبه، وانظر بمَ رجع من ماء البحر ؟!

((مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

أستاذ عدنان، أقول كلمة: المسلمون في محنة، كما بدأت الدرس السابق، لكن حينما أفهم ما حولي من مصائب وشدائد، ومحن فهماً إيجابياً تكون الكرة في ملعبي، كيف ؟! هذه الشدائد فيها دقائق تغطيها، قال:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة القصص)

معنى ذلك أن الله عز وجل له رسل من بني البشر، ورسالات هي كتبه السماوية، وله رسائل يرسلها لأهل الأرض، هي أفعاله، يجب أن نفهم أن هذه المحن رسالة من الله من أجل أن نغير، ذلك لأن الشر المطلق لا وجود له في الكون، ويتناقض مع وجود الله، يوجد شر نسبي، بالنسبة إلينا هو شر، أما بالنسبة لمستقبلنا فهو خير مطلق، لذلك هناك مقولة دقيقة جداً: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، أي إن هذا الذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً يوم القيامة، ولكان نقصاً في حكمة الله ! لكن عقلنا قاصر عن إدراك إيجابيات ما وقع.

الحقيقة توحدنا، والحق أصبح واضحًا، كان فيما مضى أبيض وأسود، ولون رمادي بينهما، الآن يوجد أبيض وأسود حق، وباطل، وليّ، إباحي، مؤمن، غير مؤمن، مستقيم، منحرف، أمين، خائن، الأمور أخذتْ وضعًا حدّيًّا الآن، هذه أكبر انتصار.

قبل خمسين عامًا كان هناك كتل، وقيم، ومبادئ كثيرة في الأرض، لو أنك بحثت عن أقوى هذه الكتل والمبادئ تجد مبادئ الشرق والغرب والإسلام، الشرق تداعى من الداخل، وانتهى الأمر، بقي الغرب والإسلام، الغرب خطف أطفال العالم، كان قدوة كل إنسان، مجتمع قوي جداً، وغني، وطرح شعارات رائعة، الحرية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، والرفق بالحيوان، حق المرأة، التقاضي، تكافؤ الفرص، العلمانية بالمفهوم عندهم احترام جميع الأديان.

عقب الحادي عشر من أيلول سقط الغرب كقيمة بقي قوة، هذا أكبر إنجاز للإسلام، لم يبق في ساحة القيم والمبادئ إلا قيم الإسلام ومبادئُه، لذلك العالم الأمريكي الذي هداه الله للإسلام، وزار بريطانية، والتقى الجالية الإسلامية قال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب لاتساع الهوة

بينهما في المدى المنظور، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لأن في الإسلام خلاص العالم، ولكن بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم، وتطبيقه، وعرضه، معنا أقوى منهج، منهج خالق السماوات والأرض، ومنهج مقطوع بصحته.

فإن أردنا أن يغير الله ما بنا ينبغي أن نعود إلى هذا المنهج القويم، لا أن نختلف على تفاصيله، نتعاون فيما اتفقنا، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا.

في هذه المرحلة نحن في أمسّ الحاجة للتعاون، والتضامن، والتكاتف، ونتعاون فيما اتفقنا، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا، أو يحاور بعضنا بعضاً.

حوار هادئ، الاختلاف بيني وبينك ينبغي ألاّ يفسد المودة بيننا، نحن بحاجة لهذه المعاني الإنسانية الأخلاقية، وبحاجة ماسّة لمنهج إلهي.

الحقيقة أنّ الحضارة الغربية اعتنت بجسم الإنسان عناية تفوق حد الخيال، الهاتف الخلوي فرضاً، الأقمار الصناعية، نقل الأخبار عن القارات، يوجد إنجاز مذهل، لكن هذا الإنجاز لم يوظف في الحق، وضمن شعور الحق، لذلك يوجد فساد عام، فنحن بحاجة حينما نرى أن الطرف الآخر يريد إفقارنا، نريد أن نكسب المال الحلال، ونستخرج ثرواتنا، ونوظف أبناءنا، ونطور أعمالنا، ونكون أقوياء، حتى نقف في وجه عدونا.

لما وجدنا من الغرب تناقضاً مريحاً بين ما يطرحه من قيم وبين ما يخالفه، الآن فيما أعتقد قبل خمسين عاما قلة قليلة جداً من كبار المثقفين يعلمون حقيقة الغرب، لكن الآن أطفالنا في الابتدائي يعلمون حقيقة الغرب، إنسان يقتل ثمانين إنساناً، امرأة، وطفلا بقصف عشوائي، بأسلحة فتاكة، إنسان مدني، آمن لا علاقة له لا بالعير ولا بالنفير، ويقول: جئت من أجل حريتكم !!!

المذيع:

دكتور، هناك ناحية هامة، إذا أراد الإنسان أن يتزوج، يفكر في موضوع البيت وأثاثه، وما يحتاجه تفكيراً دقيقاً، وقد يكتب ذلك على الورق، ليهيئ، ويحذف ما لا حاجة له، كثير كثيرٌ من الناس يقولون: ندفش، لكن يجب أن يفكر الإنسان في حياته أنه مطلوب منه شيء هام، وما وجد في هذه الدنيا إلا مستخلفاً في الأرض، وهذا الاستخلاف يقتضي منه أن يفكر في كل شيء، إذا فكر الإنسان يجب أن أكون أنا على الدين القويم، وأن أفعل كذا، وموضوع تربية الأولاد، والكسب الحلال، والكلمة الحق، وألا أخون غيري، ولا أخون الله ورسوله، وأن أتعلم أن أوازن بين كفتي الروح والمادة، وتتكامل في حياتي ما يتصل في الحياة الدنيا، وما يتصل بالحياة الآخرة، والله لن تمضي فترة طويلة في حياة مجتمع

هكذا يكون أفراده إلا ويتقدمون، ويحققون شيئاً من المطلوب في حياتهم، أما إذا قلنا: ندفش كما استعمل التعبير العامي فيكون قد حق علينا قول الله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

وهذا القول مستمر، إن أحسنا فإحساننا لنفسنا، وإن أسأنا فإساءتنا لأنفسنا، وإن طلبنا العلم فنتيجته خير لنا، وإن تقاعسنا وجهلنا فجهلنا مطبق علينا.

كما تفضلتم في كل حياة الإنسان أمور تستدعيه لأن يطور نفسه، ويعمل، ويفكر، وما هذه ببعيدة عما كان عليه آباؤنا، ونحن الذين نفتخر بهؤلاء الآباء، ونفتخر بأنفسنا لنكون ونحن على سلامة النسب عقيدة وفكراً، كما كنا على سلامة النسب زمناً ونسباً.

الأستاذ:

أريد أن أضيف شيئاً، هناك آية أخرى تتكامل مع الأخرى:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنفال)

بشكل دقيق، يا عبدي، أنت مرتاح، لا تغيِّر لا أغيِّر، مزعوج، يوجد قضية تقلقك كثيراً، غيِّر لنغيِّر، هذا ملخص الملخص، إذا كنت في محنة فغيِّر حتى أغيِّر، وإذا كنت في راحة لا تغيِّر حتى لا أغيِّر.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 28 - 29 : الشعوذة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-06

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

أقول لعل هذه الحلقة تهم كثيراً كم من الإخوة المشاهدين لا على أن الغيب يمكن فعلاً أن يتصل معه الإنسان بعلم بحيث يستطيع الوصول إليه من غير إرادة الله تعالى على الإطلاق لا يمكن هذا أن يكون، وسأضرب قصة سريعة آخذ بعض عناصرها لتكون فاتحةً ومقدمة لهذا الموضوع، حضرت بنفسي لا من قبيل الاعتقاد لكن من قبيل أن أطلع على ما يجري عند بعض المشعوذين، أخذ يتحدث ويتكلم وهو لا يريد نقوداً ولا ولا... إنما يريد أن يصل إلى شيء من حيث إلغاء ما يتلبس به الجن إنساناً من الناس وفي هذه اللحظات دخل عليه رجل وابنته يقول الرجل إنما قد تلبسها شيطان وأخذت تقول كلاماً غير معقول على الإطلاق تشتم الإله وتتحدث حديثاً لا يمكن أن يتحدث به إنسان عاقل وفي الوقت نفسه هي محجبة، هذا المشعوذ هدد الشيطان الذي تلبسها قائلاً إن لم ترتدع عن أقوالك سأؤذيك بالضرب، قال إن ضربتني سأنسحب من جسم هذه التي تلبستها ويكون الضرب لها، وفعلاً ضربها وكان من حديث من هذا النوع، الجالسون اندهشوا وشدهوا لما جرى كان عليّ لزاماً أن أتصرف كما تصرفت التفت إلى هذه التي تقول قد تلبسها الشيطان قلت، أأنت الذي تؤذي وتفعل كذا وكذا قال نعم، قلت أتحداك أمام المجموع أن تؤذيني في هذه اللحظة، لا أريد أن أدخل في هذه التفاصيل لكنه تراجع وانسحبت الفتاة مع أبيها وتبين أن الأمر كان متفقاً عليه بحيث يدخل هذا الرجل مع فتاة ادعى أنها ابنته ولكن الحقيقة على غير هذا، المؤسف أن كثيراً من الناس ينساقوا إلى مثل هذه الأمور ويصدقونها، نحن لا ننكر السحر بشرعنا الإسلامي ولا ننكر وجود الجان في شرعنا الإسلامي ولكن ننكر وجود المشعوذين الذين يتدخلون في أمور ليست من مقام علمهم ولا يعرفون عنها شيئاً على الإطلاق وكثير من الناس يخدعون بهؤلاء المشعوذون، إذاً فلنجعل حلقة اليوم عن هؤلاء.

الدكتور راتب: الحقيقة أن شريحة من المسلمين كبيرة جداً تستجيب إلى هؤلاء المشعوذين، المشعوذون يبتزون أموالهم وأحياناً ينتهكون أعراضهم وهم يقدمون الدجل والكذب والافتراء وعملهم ضار جداً في مجتمع المسلمين، والحقيقة لولا أن هناك قصص يصعب أن تروى في هذا اللقاء الطيب لذكرتها هي عبارة عن مآسي يعاني منها المجتمع بسبب هؤلاء المشعوذين إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، لكن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا

أعطيته بعضك لا يعطك شيئاً، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً بينما الجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً.

ما العلم ؟ هذا الموضوع دقيق جداً تميل إلى موضوع الشعوذة، في تعريف مختصر الوصف المطابق للواقع مع الدليل، بالتعبير المفصل وهو أولى مقولة أو إسناد أو نسبة أو حقيقة مقطوع بصحتها يؤيدها الواقع عليها دليل، لو ألغينا الدليل لكان هذا الكلام تقليداً لا علماً وفي العقيدة لا يقبل التقليد لقوله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

لو أنه فرضاً قبل الله عقيدة تقليداً من عباده لكانت كل الفرق الضالة في تاريخ البشرية ناجية عند الله عز وجل لكن أمور العقيدة لا يقلد بها أبداً أمور العقيدة تؤخذ تحقيقاً وبحثاً ودرساً والله عز وجل يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

إذاً لو ألغينا من هذا التعريف الدليل لوقعنا في التقليد والتقليد مرفوض في العقيدة، لو ألغينا مطابقة الواقع لكان الجهل، هناك من يتوهم أن الجهل وعاء فارغ لا وعاء ممتلئ مقولات خاطئة الجاهل إنسان يمتلك مقولات خاطئة، يعني أنه حينما يتألق ضوء أحمر في مركبتك إذا ظننته ضوءً تزيينياً فهذا هو الجهل، هذا ضوء تحذيري زيت المحرك وصل إلى نهايته الصغرى فإن لم تسعف المحرك بزيت يحترق المحرك فهذا الضوء إن فهمته ضوءاً تحذيرياً هذا هو العلم لأن هذا الفهم مطابق للواقع وإن فهمته ضوءاً تزيينياً فهذا الجهل، فالجاهل ممتلئ معلومات كلها غير صحيحة لذلك أخطر إنسان في الحياة نصف العالم لا هو عالم فينتفع بعلمه ولا هو جاهل فيقبل أن يتعلم، الإمام علي كرم الله وجهه يقول: أركان الدين والدنيا أربعة رجال، قوام الدين والدنيا أربعة رجال عالم مستعمل علمه وجاهل لا يستنكف أن يتعلم وغني لا يبخل بماله وفقير لا يبيع آخرته بدنياه. الآن سنحرك فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره. لذلك العلم هو الهدف الأول لكل المسلمين لأن إذا أراد المسلم الدنيا فعليه بالعلم، إذا أراد الآخرة فعليه بالعلم، إذا أرادهما معاً فعليه بالعلم. مثلاً عامل تنظيف طائرات أثناء تنظيف الطائرة وجد أنه في غرفة تحتلها العجلة واسعة جداً فقال لو جلست في هذا المكان لذهبت إلى بلد بعيد بلا أجرة وبلا تأشيرة دخول وركب بهذا المكان بعد إقلاع الطائرة بقليل هذا المكان أنزله ربان الطائرة كي تصعد العجلة نزل ميتاً، ما الذي قتله ؟ جهله، لذلك الجهل أعدى أعداء الإنسان، لذلك الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به فلذلك الحلم مقولة أو حقيقة أو نسبة، بالمناسبة اللغة تقول على النسبة مثلاً خالد شجاع، نسبنا الشجاعة إلى خالد، أو خالد مجتهد، أسندت الاجتهاد إلى خالد، أو جاء خالد، أسندت المجيء لخالد، علاقة في اللغة

علاقة وليست مفردات، فهذه العلاقة علاقة نسبة أو علاقة إسناد أو علاقة صفة هذه يجب أن يكون مقطوعاً بصحتها، نحن في عندنا فكرة مرجوحة هي الوهم في فكرة يستوي فيها القبول والرفض هي الشك، في فكرة يرجح عندنا أنها صحيحة هي الذم، كله في العلم غير مقبول القطع يعني مئة في المئة، والوهم ثلاثين بالمئة، الشك خمسين بالمئة، الذم تسعين بالمئة، أما القطع مئة بالمئة، فتعريف العلم حقيقة أو مقولة أو نسبة أو إسناد مقطوع بصحتها يؤيدها الواقع عليها دليل، لو حركنا هذا التعريف، ألغينا الدليل وقعنا في التقليد، ألغينا الواقع وقعنا في الجهل، ألغينا القطع وقعنا في الشك والوهم والذنب، الإنسان حينما يجري جرداً لمعتقداته وتصوراته لا بد من أن يرى خرافات ومقولات خاطئة تصورات غير صحيحة هذه تعشعش في عقولنا كيف أن الكومبيوتر إذا في فيروسات وبرامج غير مستعملة تعيق حركته تعيق سرعته فلابد من محو هذه الأشياء الباطلة بكاملها وإنزال برامج جديدة، فالمسلم يجب أن يراجع تصوراته معتقداته أوهامه، أنا والله ما في دعاء أراه أبلغ من هذا الدعاء اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعمل ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

في أوهام معششة في عقول المسلمين في تصورات خاطئة تضعفهم تمزق وحدتهم تعيق تحقيق أهدافهم تنسيهم هدفهم الكبير فالعلم أساسي جداً وما لم يطرح العلم المتوازن المعتدل المؤصل المدلل بالكتاب والسنة فإن بؤرة فارغة يملؤها المشعوذون هذه المشكلة.

الأستاذ عدنان:

ندخل في هذا الموضوع قبل أن يضيق الوقت بنا.

الدكتور راتب:

هذا الذي يتعاون مع الجن، في الحقيقة سبب هذا الموضوع أنني اطلعت على مقالة في مجلة خليجية لمشعوذ كبير في إفريقيا تاب وفضح المشعوذين بتفاصيل مذهلة، قال أنا أستغل خوف مهربي المخدرات من القبض عليهم يأتون إلي ويدفعون مبالغ فلكية من أجل أن يعطيهم حجاب عبارة عن آيات ناقصة وكلام لا معنى له إطلاقاً يوهمهم، مشكلة الوهم الذي يعاني منها الناس، يوهمهم أنهم ينجون بهذا لا يقعون في حبال الجمارك، الآن أية امرأة تهمل زينتها تهمل طاعتها لزوجها تهمل واجبها كأم كمربية يكرهها زوجها بدل أن تتوب إلى الله وأن تصلح شأنها وأن تتبع منهج الله عز وجل تذهب إلى مشعوذ يختلي بها وقد تقع معه بفاحشة ويوهمها أن زوجها سيحبها ويبتز مالها وتكذب وتسرق من مال زوجها هذا هو الجهل. الجهل يدمر الإنسان، الجهل يعيق تقدم المجتمع فالمشعوذون كثر في كل مكان هذا المشعوذ ترك ثروة بالمليارات بعد أن تاب ثروتي كذا وكذا سيارات مئة وخمسة وتسعين بقرة أموال طائلة شاحنات تجارة بن رائجة كلها من شعوذته وابتزاز أموال الناس، كم من مشعوذ يوهم المرأة التي لا تنجب أنها سوف تنجب بفعل الفاحشة معها، أنا أريد أن أبين الحقيقة المرة وهي أفضل ألف مرة من

الوهم المريح، في مشعوذين في كل مكان في العالم الإسلامي يستغلون جهل المسلمين يستغلون بساطتهم يستغلون بعدهم عن ينابيع الإسلام الصافية يستغلون مشكلاتهم المدمرة، أنا حدثني أخ يعمل في وزارة الداخلية قبض على مشعوذة ذكية جداً تبتز أموال من يأتي إليها من النساء اللواتي تشكي إحداهن سوء علاقتها مع زوجها تعلمها كيف تكون مهذبة لطيفة مطيعة له تدلها على السنة النبوية فتتحسن علاقتها مع زوجها تتوهم هذه المرأة الجاهلة أن بفضل هذه المشعوذة عادت علاقتها مع زوجها طيبة، هي دلتها على منهج الله عز وجل.

المشعوذ له دور كبير في أوساط الجهل يبتز أموالهم وقد يهتك أعراضهم وهو لا يصلي ولا يصوم ويفعل كل الموبقات، وهذا والله بحسب عملي في الدعوة إلى الله عز وجل أعاني من أسئلة كثيرة جداً وتأتيني رسائل واتصالات هاتفية تبين أن المجتمع يئن من هؤلاء المشعوذين الدجالين النصابين الكذابين المحتالين، حينما الجهات المسؤولة يصل إلى علمها ما يفعلون توقفهم عند حدهم لا شك لكن المشكلة هناك من يتستر عليهم، سوف أقول كلمات دقيقة هذا الإنسان الذي هو محمد عليه الصلاة والسلام هذا سيد الخلق وحبيب الحق هذا سيد ولد آدم هذا الإنسان الأول، أستاذ عدنان أنت في المقدمة قلت هناك من يتمنى أن يعلم الغيب فيأتي المشعوذ ويحقق له هذه الأمنية إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق يقول الله له:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: 31]

فأي إنسان على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة يدعي أنه يعلم الغيب فهو كذاب دجال منافق، قال تعالى:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف: 188]

هذه واحدة، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

[سورة الزمر: 13]

هذه الثانية، الثالثة قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (21))

[سورة الجن: الآية 21]

الآية الرابعة:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

فلئن لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً من باب أولى فهذا مقام النبوة مقام الرسالة مقام سيد الأنبياء والمرسلين مقام سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، لا يملك للناس نفعاً ولا ضراً، يخاف إن عصى الله عذاب يوم عظيم، مرة كان في بيت أحد أصحابه وقد توفي فسمع امرأة تقول هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله قال وما أدراك أن الله يكرمه ؟ قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

فهذا الإنسان المسلم حينما يعلم أن سيد الخلق لا يعلم الغيب وأن سيد الخلق يخاف إن عصى الله عذاب يوم عظيم وأن سيد الخلق لا يملك لنا نفعاً ولا ضراً بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا فأي إنسان ادعى بخلاف ذلك فهو كذاب دجال مخرف، هذا مقياس، هذا الإنسان الأول هذه صفاته فكل إنسان يدعي أنه يعلم الغيب وسوف يصلح بين الزوجين بتمتمات وبكلمات لا معنى لها وبخور وغرفة مظلمة أشياء كلها تؤذي المسلمين وتضيع أموالهم ووقتهم سدى، الآية الدقيقة:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

[سورة طه: 123]

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، الإنسان عقل يدرك ونفس تسعد أو تشقى، فإذا اتبع الإنسان هدى الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، الآية الثانية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

[سورة البقرة: 38]

لو جمعنا الآيتين من اتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله ولا تشقى نفسه ولا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من سعادة الدنيا والآخرة ؟ لو أن هناك دور أساسي للجن في حياة المسلمين لذكرهم النبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل:

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة البقرة: 102]

وأما الذي يتناقله الناس متوهمين أنه حديث شريف هو ليس بحديث تعلموا السحر ولا تعملوا به، ليس له أصل في الدين، من سحر فقد كفر، أية علاقة مع الجن علاقة محرمة لأنها علاقة إضلال، وفي تفاصيل مذهلة أن هذا الشيطان أو أن هذا الجني لا يعين هذا الإنسان إلا إذا كفر بالرحمن إلا إذا كتب كلام الله بنجاسة في أماكن العورة من الإنسان إلا إذا فعل شيئاً لا يمكن أن يفعله إنس ولا جان حتى يعاونه هذا الجني، إذاً قضية مبنية على انتهاك الحرمات ونشر الضلالات في مجتمع المسلمين إذاً نحن مع الكتاب والسنة.

الأستاذ عدنان:

دكتور حتى نكون واقعيين أكثر فيما يتصل بالسحر وبالتالي الجان الرسول عليه الصلاة والسلام جرب أن يسحر ولكنه أنهى الأمر ولم يؤثر فيه عندما ذهب إلى البئر وأنهى كل شيء، أيضاً الرسول عليه الصلاة السلام جرب من خلال امرأة جنية أن تدس له السم في إبط الشاة وكان يpب ذراع الشاة وكانت تريد أن تختبر وقد أعلمه الله بما فعلت إن كان نبياً فإن الله سيعلمه وإن لم يكن كذلك فإن السم سيسري في جسده، إذاً أمور يمكن أن تحدث الذين يؤمنون بما يتصل بموضوع السحر والجان ويطورون ويكبرون الأمر كثيراً ينطلقون من موضوع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حاول بعضهم أن يسحره وحاولت امرأة أن تدس له السم وما إلى ذلك وورد اسم الجن في القرآن الكريم هذا المنطلق ولكن التهويل فيه والتكبير ووضع كما ذكرتم والتهاويل والوهم في غير الواقع هنا يكون الجهل وتكون الضالة.

الدكتور راتب:

أنتم تفضلتم في المقدمة نحن نؤمن بالجن وفي سورة للجن في القرآن الكريم ونؤمن أن السحر موجود لكن النبي عليه الصلاة والسلام هناك حقيقة دقيقة يجب أن أدلي بها، تصور مركبة مصنعة مضادة للرصاص سواء أطلقت عليها الرصاص أو لم تطلق الرصاص لن يؤثر فيها وحينما يحفظ الله كتابه من التحريف لا يعني هذا أنه لا تجري محاولة لتغييره لكنها لا تنجح، وحينما يحفظ الله النبي الكريم من السحر معنى ذلك أنه لا يمنع أن لا تجري محاولة لسحره لكنها لا تنجح، فالذين ينفون أنه سحر والذين يثبتون أنه جرت محاولة لسحره النتيجة واحدة السحر لن يؤثر فيه أبداً لأنه محصن، قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42))

[سورة الحجر: 42]

(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98))

[سورة النحل: 98]

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4))

[سورة الفلق: 1-4]

هنا الخواطر الإيمانية حول هذه الآية دور الشيطان الأول ودور الجن عامة فصل هذه العرى بين الزوجين، يعني أقدس علاقة بين الزوجين علاقة الزواج فالشيطان مهمته الأولى أن يكره الزوج بزوجته والزوجة بزوجها وأن يحبب إلى كل منهما امرأة أجنبية أو رجل أجنبي فهذا من فعل الشيطان، قال تعالى:

(وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ)

[سورة البقرة: 102]

هذا ما يتعلمه من يتعامل مع الجن، إذاً نحن نعود إلى كتاب الله وإلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام وحينما يقول الله لنا:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة فصلت: 36]

فالاستعاذة بالله تحرق كل شيطان رجيم وتطرد كل جني أثيم هذه حقيقة أولى أنا لا أرى في القرآن الكريم وسنة النبي إلا هذا التوجيه أما أن ألجأ إلى دجال أو إلى ساحر أو إلى إنسان يدعي أنه شيخ يبتز أموال الناس من أجل أن ينزع منهم الجن استعاذتك كما تفضلت في البداية ذكرت قصة يبدو أنك استعذت بالله عز وجل فأبطلت عمله أليس كذلك ؟ إذاً هذا هو التوجيه الذي يجب أن يعلمه كل أخ مشاهد، استعذ بالله قل قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

[سورة الفلق: 1-5]

أستاذ عدنان

الإنسان أعقد آلة في الكون ولهذه الآلة البالغة التعقيد وهو تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز صانع حكيم ولهذا الصانع الحكيم تعليمات تشغيل والصيانة الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها فنحن حينما نعلم الناس أنه في عندنا قرآن اذكر الله عز وجل اقرأ سورة البقرة اقرأ المعوذتين اقرأ آية الكرسي توجه إلى الله استعن بالله لا يبقى شيطان لا حسد ولا سحر ولا جني يتلبس إنساناً هذا كله من الغفلة عن الله عز وجل والانغماس بالمعاصي قال تعالى:

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

[سورة آل عمران: 155]

الإنسان حينما ينحرف وحينما ينحرف بأخلاقه وبعلاقاته وحينما يكسب المال الحرام يجعل لهذا الشيطان مدخلاً عليه، يدخل عليه من هذا القبيل أما الإنسان الذي يعتصم بالله الآية الدقيقة الدقيقة:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

[سورة الحجر: 42]

يعني مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح.
الأستاذ عدنان: بعض المشعوذين يشيرون إلى بعض ما ورد في القرآن الكريم من خلال بعض الآيات الكريمة إلى أنه يصدقون فيما يتصرفون على حين أن استراق السمع ألغي نهائياً مع بعثته صلى الله عليه وسلم.

الدكتور راتب:

هو لأن لكل إنسان قرين من الجن فهذا يعرف أحواله كلها فالمشعوذ قد يستعين بالجن لإعطاء معلومات من قرين هذا الإنسان الذي هو محط الموضوع.

الأستاذ عدنان:

هو أيضاً في الموضوع ما يتصل بعلم النفس والروح وما إلى ذلك ولو أن الدراسات لا يمكن أن تخترق الموضوع كله لكن موضوع التخاطر وموضوعات كثيرة في مثل هذا الأمر وفراسة المؤمن يعني أمور عديدة يمكن أن يتناولها الإنسان من خلال توجيهات الدين ليصل إلى الحقيقة الواضحة التي لا لبس فيها ولا التواء ولا شعوذة.

الدكتور راتب:

لو عدنا إلى الكتاب والسنة مثلاً سوء العلاقة بين الزوجين كيف تفسر في القرآن الكريم وفي السنة ؟ ما تواد اثنان في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما، هذا التفسير الصحيح أما التفسير الآخر الخرافي الذي يعتمده المشعوذون أنه دخل الشيطان، أما حينما أنا أتبع منهج الله عز وجل في علاقتي بزوجتي، أنا أقول دائماً في عقود القران إذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين وإذا بني الزواج على معصية الله يتولى الشيطان التفريق بينهما، لذلك أي عمل يبنى على منهج الله يتولى الله حفظه وتقويته وإنجاحه، ما معنى بسم الله الرحمن الرحيم الذي نلفظها كل يوم مئات المرات يعني أنا أبدأ عملي بسم الله وفق منهج الله، أولاً يجب أن أشكر الله على هذه النعمة أشرب كأس الماء وأقول بسم الله لولا أن الله أنزل من السماء ماء فجعله في باطن الأرض ثم خرج على شكل ينابيع كيف أتمتع بهذا الماء ؟ بسم الله يعني أن أشكر الله على هذه النعمة وبسم الله أن أشرب وفق منهج الله مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً، أن أشربه جالساً أي عمل نقوم به إذا بدأناه بالبسملة يعني ينبغي أن نتذكر فضل الله علينا وأن نتذكر منهج الله في التعامل مع هذا الشيء، هذا الذي يقتضي أن نعرفه في موضوع الشعوذة وأصول الدين.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - الفقه الحضاري في الإسلام - الدرس 29 - 29 : حقوق المرأة .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-13

بسم الله الرحمن الرحيم

المذيع:

من جملة ما يمكن من خلال العنوان، وتدريسكم للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة في كليات أصول الدين والشريعة يمكن أن نطلع على أشياء هامة للمرأة، من حيث الوقفة التي أوقفها الإسلام إياها، فإنه من خلال العلم أيضاً نرى أشياء جديدة تشير إلى أن مستوى المرأة يمكن أن يكون في كذا وكذا، لا نحلق بالأمر أكثر من الواقع، ولا ننزل بالأمر أكثر من الحقيقة، وكذا بالنسبة للرجل، لا نجعله كل شيء، ولا ننخفض به إلى أسفل سافلين.

إن الموازنة عندما تكون سليمة ما بين الرجل والمرأة تأتي النتائج سليمة أيضاً، وإذا حاولنا أن نقول من خلال الموازنة التي تطرح فيها موضوعات المرأة هذه الأيام: إنها مظلومة، ويجب أن نعطيها حقها من خلال الإصلاح والتغيير، ما هذا في حقيقة الأمر إلا إضاعة للمرأة وللرجل، لا على أننا لا نريد الإصلاح، بل على أننا نريد الإصلاح، ولكن في مكانه، الجائع لا نعطيه ماءً فيشبع، ولكن نعطيه طعاماً فيشبع، والعطشان لا نعطيه الطعام فيرتوي، ولكن نعطيه الماء فيرتوي، وحبذا لو يجتمع الطعام مع الشراب ليكون الإنسان قد أخذ حاجته من الطعام والشراب، زيادة على الماء، الذي منه خلق كل شيء حي.

إذا أردنا أن نأخذ بمثل منحى ما يقول، ويدعو إليه دول الاستكبار العالمي من خلال الإصلاح، وللمرأة خاصة، الماء إذا ألقينا فيه إنساناً لا يسبح، ولم ننقذه يموت غرقاً، مع أن الماء خلق منه كل شيء حي، إذاً الموازنة السليمة تعطي النتائج السليمة، والإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة غير منقوصة، ولا نستطيع أن نقول لإنسان فيه نجاح: إنك غير ناجح، ولا العكس سليم أيضاً، العلم الصحيح هو ما طابق الواقع، وهو ما كان من خلال الواقع، عند ذاك يكون العلم السليم الصحيح، ومن هذا المنطلق نقول: الإسلام من خالق الأكوان، أعطى المرأة دورها السليم الصحيح، وليس أن نعطي كما ضربت مثالا بالماء في الغرق، أن نعطي المرأة على غير ما هي عليه، أن يكون هذا من حقوقها، نتابع.

الأستاذ

بارك الله بكم، أستاذ عدنان، الحقيقة الأولى، لابد من تمهيد، هذا التمهيد يقتضي أن الإسلام العظيم، له ينابيع صافية، وقد جاء هذه الينابيعَ روافدُ أساءت له كثيراً، فإذا أردنا أن نعرف حقيقة الإسلام ينبغي أن نعود إلى ينابيعه الأصيلة، خطأ كبير أن تفهم الدين من المتدينين فقط، خطأ كبير أن تفهم الإسلام من ممارسات المسلمين الخاطئة، الحقيقة أن المتعمقين في الفكر لا يفهمون الدين من ممارسات المسلمين، بل يفهمون الدين من أصوله الصافية، إذاً لو ذهبنا إلى نبع بردى لرأينا ماءً صافياً، عذباً زلالاً، أما إذا ذهبنا إلى مصبه لرأينا ماءً آسناً، فنحن حينما نرى ممارسات خاطئة من قِبَل المسلمين تنمّ عن جهلهم، أو عن انحراف سلوكهم هذا لا يقتضي أن نفهم الدين من خلالهم، ينبغي أن نفهم الدين من أصوله، وهذا هو الإنصاف.

الحقيقة أنه كثر الحديث الآن عن المرأة، وعن تميز المرأة، وقد عُقِدت مؤتمرات للسكان في القاهرة، وفي بكين، وفي أمريكا، والآن هناك توجيهات معينة من أجل أن تكون المرأة مساوية للرجل تماماً، والحقيقة الصارخة أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، إنها مكلفة بأركان الإيمان كما هو مكلف، ومكلفة بأركان الإسلام كما هو مكلف، ومشرفة عند الله، وعند الخلق كما هو مشرف.

كنت أقول: قلامة ظفر امرأة صالحة مؤمنة طاهرة عفيفة وفية مخلصة تعدل مليون رجل متفلت، والقرآن الكريم بحسب اللغة العربية التي نزل بها بلسان عربي مبين حينما يخاطب المؤمنين يخاطب حكماً المؤمنات، نحن في اللغة عندنا ما يسمى التغليب، فلو دخل عشرون طالباً، وطالبة، نقول: دخل الطلاب، فأية آية موجهة إلى الذين آمنوا هي موجهة حكماً إلى اللواتي آمنّ بالله عز وجل.

المذيع:

هذا ليس غريباً أصلاً في اللغة العربية، نقول: القمران.

الأستاذ

ولكن القرآن في آيات كثيرة أراد أن يؤكد المساواة التامة بالتشريف، فقال تعالى:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ)

[سورة الأحزاب: 35]

في آية أخرى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

[سورة آل عمران: 195]

أصل الدين هذا الكتاب، وتلك السنة.

عَنْ مَالِك أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ))

[مالك في الموطأ]

المذيع:

دكتور، هنا أريد أن أتوقف قليلاً لأطرح ما كنت سمعته من إحداهن على شاشة فضائية من هذه الفضائيات، طرحت موضوع الذكورة والأنوثة، فبينت أن القرآن الكريم توجه التوجه الإيجابي نحو الذكورة، والغرب نفسه بكل بلدانه أيضاً يتوجه نحو الذكورة إيجاباً، ويهمل جانب الأنثى، ففي القرآن الكريم قدّم في لفظه المؤمنين على المؤمنات، الذاكرين على الذاكرات، وما إلى ذلك، وفي دول الغرب نفسها أشارت إلى أن معظم من يستلم مقاليد الحكم من الذكور، وليس من الإناث، على الرغم من وجود بعض الإناث، وركزت، وعمقت كثيراً في هذا الإطار مطالبة بمساواة أكثر، لم تفرق بين القرآن الكريم والغرب، ولا أي بلد من بلدان العالم، هذه الناحية حبذا أيضاً لو تطرقتم إليها.

الأستاذ:

بارك الله بك، هذه الناحية جزء أساسي من هذا اللقاء الطيب، لكن مكانها بعد قليل، إذاً المرأة مساوية للرجل في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، مسؤولة كما هو مسؤول، هذا واضح في الأحاديث.

مثلاً:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم))

[ورد في الأثر]

وفي زيادة لهذا الحديث:

((وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

خاطب المرأة فقال:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، والإسلام كرم المرأة، وفي سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لقطات رائعة جداً عن تكريم المرأة.

حينما فتح مكة دعته بيوتاتها إلى المبيت عندهم، فقال:

((انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة))

[ورد في الأثر]

لماذا ركز لواء النصر أمام قبرها ؟ ليعلم العالم كله أن هذا الفتح المبين كانت زوجته شريكة له في هذا الفتح.

استشار السيدة أم سلمة، فأشارت عليه في عمرة القضاء، وفعل ما أشارت عليه، وحلت المشكلة مع أصحاب رسول الله، والقرآن يقول:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

لو قرأت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لوجدت أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، ولها عند الله مكانة لا يعلمها إلا الله.

هناك تعليق لطيف، أن الله عز وجل حينما قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 29]

وكلمة السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، فمن آياته الدالة على عظمته خلق السماوات والأرض، ومن آياته الليل والنهار، ومن آياته الشمس والقمر، الآن ندقق، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

هذه المرأة التي معك في البيت هي إنسان، تشعر بما تشعر، تحب ما تحب، تكره كما تكره، تؤمن كما تؤمن، تقصر كما تقصر، تتفوق كما تتفوق، لها عواطف لها أحاسيس، لها فكر، لها عقل، لها جسم، لها

متطلبات، لها كرامة، لها مشاعر، لها ميول، كالرجل تماماً، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((... إنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ))

[الترمذي، أبو داود، أحمد]

لازلنا في المساواة في التكليف، وفي التشريف، وفي المسؤولية، ولكن الحقيقة الصارخة أيضاً، قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

[سورة آل عمران: 36]

الآن جاءت الإجابة عن سؤالكم، جزاكم الله خيراً،

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

الآن بمنطق العلم لا بمنطق الشهوة، بمنطق الشهوة يجب أن تكون في كل مكان، وأن تظهر كل مفاتنها للناس، وأن يستمتع بها كسلعة، هذا منطق الشهوة، أما منطق العلم،

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

بدليل أننا درسنا في الجامعة مادة علم نفس الطفولة، والكتاب الذي ترجم لنا كتاب يعد أول كتاب في علم النفس في العالم، مؤلفه دكتور فرنسي، اسمه بياجيه، الكتاب يقع في ثمانمئة صفحة، هذا الكتاب يتحدث عن الفروق بين الذكور والإناث، فروق في القدرات، والطاقات، وأصول التفكير، والله لو أردت أن تضع له عنواناً ما وجدت عنوانًا أصدق على هذا الكتاب من قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

المذيع:

دكتور، هنا بعضهم يقول في تفسير:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

هذا في موضوع القيام بأعباء المسؤولية، التي يكون بها الذكر الرجل في توليه مقام بيت الله أيام المسيح عندما سيكون، والأنثى لن تستطيع أن تقوم على هذا المكان كما يستطيع.

الأستاذ:

للإجابة عن هذا التساؤل، من عظمة هذا الكتاب أن الآية القرآنية إذا نزعت من سياقها تدل على حقيقة خالدة، وإذا وضعت في سياقها لها معنى آخر، يؤكّد هذا بهذا المثل قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2))

[سورة الطلاق: 2]

هذه الآية جاءت في سياق صورة الطلاق، أي من يتق الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجا في إرجاعها إليه، لأنه طلقها طلاقاً سنياً، فكان طريق الرجوع سهلاً جداً، أما لو نزعنا هذه الآية من سياقها، وأشارت إلى حقيقة مذهلة في التوحيد، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلاف المال، من يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم، من يتق الله في توحيده يجعل الله له مخرجاً من الشرك الخفي، هذه الآية يمكن لو نزعت من سياقها أن نكتب عنها مجلدات، هذه عظمة القرآن الكريم. الحقيقة أن المرأة في بنيتها الفكرية وخصائصها الجسمية، ونفسيتها، وخصائصها الاجتماعية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها، وخصائص الرجل الفكرية والجسمية والاجتماعية، والنفسية كمال مطلق للمهمة التي أناطه الشرع بها.

نضرب مثلاً، أنا معي خمسون راكباً، أريد أن أنقلهم إلى حلب، أستخدم الحافلة، خصائص هذه السيارة أنها أوسع مساحة فيها للركاب، وأقل مساحة للحاجات في أسفل المقاعد، لو أردت أن أنقل خمسة أطنان من الخشب إلى حلب، آتي بشاحنة خصائص هذه الشاحنة أن أكبر مساحة فيها للبضاعة، وأقل مساحة للسائق ومعاونه، هل يمكن أن أوازن بين السيارة السياحية الكبيرة وبين الشاحنة ؟ الموازنة في أصلها غلط، لأن كل مركبة خصائصها كاملة للمهمة التي أنيطت بها، أنا أريد أن أنقل بضاعة إذاً أريد أكبر مساحة للبضاعة، وأحتاج غرفة للسائق ومعاونه فقط، أريد أن أنقل خمسين راكباً، أكبر مساحة للركاب، ولهم حاجات توضع في الأسفل.

المرأة بخصائصها الفكرية والجسمية، والاجتماعية والنفسية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها، وخصائص الرجل الفكرية والاجتماعية والنفسية كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به، لذلك المرأة تتكامل مع الرجل، ولا تشبهه، الموضوعية هي أعلى قيمة علمية أخلاقية، أنت حينما تكون موضوعياً فأنت عالم، وأنت حينما تكون موضوعياً فأنت أخلاقي، وأنا حين أدغدغ عواطف المرأة، وأتملق لها، وأقول لها: كوني في أي مكان، وأبرزي مفاتنك أمام كل إنسان، جعلناها سلعة رخيصة، جعلناها متعة ساقطة، أما حينما نعرف دورها الحقيقي في المجتمع، ونعرف دورها الخطير، هي أم، وأقدس كلمة في الوجود هي كلمة أم، هي أخت، هي زوجة، هي بنت، هي عمة، هي خالة، لكن ما من امرأة في النظام الإلهي عشيقة، وما من امرأة بالمنهج الإلهي لها علاقة آثمة مع رجل، هذا شيء خلاف المنهج الإلهي، نحن نكرمها.

بالمناسبة حينما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

[سورة الروم: 21]

أستاذ عدنان، دقق في هذه الكلمة:

(لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

[سورة الروم: 21]

ما علة السكنى ؟ أنا متى أسكن إلى شيء ؟ حينما أكمل به نقصي، الرجل عنده تفوق قيادي، لكن عنده نقص عاطفي، فإذا جلس إلى امرأته يسكن إليها، لأنه يكمل نقصه العاطفي بزوجته، والمرأة تسكن إلى زوجها، لأنها تكمل نقصها القيادي بزوجها، هي مصممة أن يكون لها زوج تطيعه، لكن الجهلة، والذين ضاق أفقهم كثيراً يظنون أن بين الرجل والمرأة مسافة كبيرة، والله عز وجل قال:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

[سورة البقرة: 228]

درجة واحدة، هي درجة القيادة، مركبة لها ربان واحد ومعاون، طائرة لها قائد واحد، وله معاون، سفينة، مؤسسة، مستشفى، جامعة، معمل، دائرة، سكنة، لا تصح الحياة إلا بقائد، والقائد قد يستعين، قد يشاور، قد يستشير، قد يأتي بمعلومات، قال تعالى:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: 6]

لكن في الأزمات لا بد من قرار بيد واحد من أجل سلامة المركبة، لذلك لما قال الله عز وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

السكنى علتها أن كل طرف يكمل نقصه بالطرف الآخر، إذاً الزوجان متكاملان، كنت أقول دائماً في عقود القران: واجعل كلاً منهما قرة عين للآخر، فالزوج يسكن إلى زوجته، والزوجة تسكن إلى زوجها، وفي المنهج الإلهي الحب يجب أن يكون بين الزوجين، ومن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

لأن من سعادة المرء أن يحب زوجته، لكن الأعمال الفنية التي خرجت عن منهج الله عز وجل توحي بعكس ذلك، الزوجة مملة، لا يملأ دفء الإنسان العاطفي إلا امرأة خارج نطاق الزوجية، هذا خطأ كبير، هذا إذا طرحناه على الناس نكون قد أسأنا إساءة بالغة إلى الخلية الأولى في المجتمع، إذاً السكنى علتها أن كل طرف يكمل نقصه بالطرف الآخر، هذه المؤسسة الإسلامية التي هي الخلية الأولى في المجتمع، عشّ الزوجية، هذا العشّ وجد ليبقى، لكن كيف يبقى ؟ قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

لماذا مودة ورحمة ؟ المودة هي سلوك يعبر به عن الحب، حينما تكون الزوجة ملء عين زوجها، وضمن طموحه يسعد بها، يسرّ إذا رآها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتطيعه إذا أمرها، إذاً هي ضمن طموحه، هي ملء سمعه وبصره، إذاً هو يحبها، إذاً يودّها بكلمة طيبة، بهدية، بلمسة حانية هكذا، وحينما يكون الزوج ملء سمع زوجته وبصره، قويًّا كريمًا، شجاعًا، قائدًا حازمًا، يحبها، يرحمها، يعطيها من ذاته كل شيء، هو ضمن طموحها، وهو ملء سمعها وبصرها، هذا معنى المودة، حينما يكون كل طرف ملء عين الطرف الآخر، حينما يكون كل طرف قرة عين للطرف الآخر تكون المودة بينهما، لكن لا سمح الله ولا قدر لو أن الزوج افتقر فجأة فَقَدَ دخله كله قد تعمل المرأة، فتطعمه، وقد يصيبها مرض عضال لا تصلح زوجة يرعاها، ويعتني بها، ويتمنى الله أن يشفيها له، هذه هي الرحمة، فهذه المؤسسة وجدت لتبقى، فإما أن تبقى بالمودة أو بالرحمة، أو بكليهما.

المذيع:

حتى إ بعضهم قال: عندما يتقدم السن بالزوجين تتبدل، أو لا ؟ أقول: تتبدل، إنما تأتي الرحمة أيضاً رديفاً للمودة، ويتكاملان معاً.

الأستاذ:

في بعض دروسي في جامع النابلسي كان يحضر قاض شرعي، بقي يقضي بين الناس في الأمور الشرعية ثلاثين عاماً، سألته: كم نسب الطلاق في أمريكا ؟ قال لي: 67%، يعني سبعا وستين حالة زواج تنتهي وتفشل، وفي أوربا 36%، قلت له: في سوريا ؟ قال لي: خمسة عشر بالألف، يعني 1.5% سابقاً، الآن 15% بسبب هذه الفضائيات، فصار هناك مشكلة، وموضوع الطلاق موضوع استثنائي، هو صمام أمان، لكن الأصل هو بقاء الزوجية، لذلك قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم: 21]

الأستاذ:

دكتور، أرى أن أتوقف هنا قليلاً لأعرض السؤال التالي، وأنا أحاول دائماً أن أعرض ما يمكن أن يكون في أذهان بعض الإخوة المشاهدين، لا سيما في مجال النقد والاعتراض، أنا لا أحمل هذه الفكرة، لكن أحاول أن أعرضها حتى تتوضح الفكرة، حتى بالنسبة للمعارضين، ، يعني الزوجة، هناك أيضاً

من} خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكم {موضوع: قال: مِن ذات الإنسان، من نفس الإنسان، ذلك أن مادة الإنسان تختلف عن كونه إنساناً، لا أقول مادة من حيث الشيء المادي، إنما الإنسان شيء فرضاً، والدواب شيء آخر، الأشجار شيء، والنباتات الصغيرة شيء آخر، وكل من الأشجار يمكن من خلال نوعها أن تتكامل مسيرة الإنجاب، بالنسبة للإنسان الذرية، وبالنسبة للأشجار متابعة كون مسيرة الغابات، وما إلى ذلك، إنما هذه المسيرة وصفت بأنها من ضلع أعوج، بالنسبة للإنسان، ولكن قيل: إن هذا الضلع الأعوج إذا قومناه انكسر، وتمامه في اعوجاجه، والاعوجاج ليس عيباً في النظر السليم، لأن الحاجة أن يكون أعوجَ حتى يمتلك صدر الإنسان، وما فيه من قلب ورئتين، وما إلى ذلك، وهنا نعود إلى ما ذكرته من تشبيه، أننا لا نستعمل في نقل البضاعة سيارة النقل الجماعي للناس، ولا نستعمل هذا مكان هذا، ولا ذاك مكان هذا، أيضاً حبذا لو وضحتم.

الأستاذ:

هذا الضلع الذي في القفص الصدري كماله في اعوجاجه، ولو كان مستقيماً لآلمنا جداً، كماله في اعوجاجه، وأنت إذا جئت إلى البيت ليس هنا طبخ تأكله، والبيت غير منظف، والأولاد في فوضى كبيرة جداً، الصحون غير نظيفة، لكن زوجتك تستوعب القضايا السياسية بشكل مذهل، وتستطيع أن تحلل كل تصريح لهؤلاء المسؤولين، هل ترضى عنها بهذه العقلية المتفتحة سياسياً، والبيت لا يحتمل ؟ فأنت حينما ترى امرأة تهتم بك، وتهتم بأولادها، وتهتم بلمسات جمالية في البيت، وترعى زوجها وأولادها، وتعطف عليهم، ولا تنام الليل من أجلهم، لولا أن الله سبحانه وتعالى غلب فيها العنصر العاطفي الوجداني على العنصر القيادي الفكري لما عاشت امرأة مع زوجها، هي كمالها في عاطفتها، كمالها باهتمامها، بمظهرها، كمالها في اهتمامها بزوجها، كمالها باهتمامها بأولادها، كمالها في عوجها، فإذا ذهبتَ تقيمه كسرته، وكسره طلاقها، فاستمتعوا بهنّ على عِوجٍ، يجب أن نعتقد أن هذا العوج كمال في خلقها، كمال في شخصيتها، كمال في بنيتها، كمال في عاطفتها، كمال في غيرتها، أنت حينما ترى أن الزوجة تغار عليك، هذا دليل أنها أنثى، لو أنها لا تغار ليست أنثى، والحقيقة أننا عندنا شيء اسمه امرأة، وأنثى، من علامات آخر الزمان أن النخوة تنزع من رؤوس الرجال، وأن الحياء يذهب من وجوه النساء، وأن الرحمة تنزع من قلوب الأمراء، فالمرأة جمالها في حيائها، عبروا عنه بالأنوثة، حياؤها، وخجلها، وأدبها، وطاعتها لزوجها هذا أجمل ما في المرأة، المرأة المسترجلة ليست مقبولة، ننتقل إلى موضوع دقيق.

المذيع:

لم يبق معنا إلا دقيقة ونصف فقط، نتابع الموضوع في حلقة قادمة، لكن أود أن أضع عنواناً لموضوع يمكن أن يطرح في الحلقات القادمة، إذا قلنا: هذا الكلام الذي تفضلتم به صحيح وسليم، ويقبل به كل إنسان، لكن لماذا خلق الله عز وجل الأنثى من الضلع الأعوج، وفي عوجه كماله، واستواءه، ولم يخلق الرجل بهذا المقام، إعطاء مقام هذا إلى مقام ذاك، وذاك لهذا، لماذا جعل في صفات الرجل القيادة والرجولة، وما إلى ذلك، وهي متكاملة، ومن الطرف الآخر تكامل، لكنه وللرجال درجة، لماذا كان هذا الشيء ؟

الأستاذ:

الذي يتولى كسب الرزق، وإدارة دفة هذه الأسرة ورعايتها، وسوقها إلى مصاف الكمال هو الرجل، والتي تتولى تربية الأولاد، ورعاية الزوج، وتوفير الجو العاطفي للجميع في البيت هي الأنثى، هذه أدوار.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ:

((تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}))

[ابن ماجه]

إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضمّتهم إليها جاعوا، هناك أدوار، فالذي يقود هذه السفينة، ويأتي بالرزق، ويناضل، ويجاهد، ويتحمل متاعب الحياة، وهناك عقبات، وهناك ضغوط، وهناك أزمات، هو الرجل، والتي تهيئ لهذا الزوج البطل جواً مريحاً، وجواً انفعالياً لطيفاً، وعاطفة جياشة، وبيتاً فيه لمسات جمالية، وطعامًا طيبًا، وأولادًا ربتهم تربية عالية، هي الأنثى، بالضبط أسرة الأب في العمل، والأم تطبخ، والبنت تمسح البيت، والابن ذهب لإحضار الأغراض، يجلسون ظهراً على مائدة، كرامتهم واحدة، محبتهم واحدة، لكن كل طرف له دور.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(1-31) : القلب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-05-02

بسم الله الرحمن الرحيم

قلْب الجَسَد من أعجب ما خلق الله، إنه مضخَّه مزدوجة تضخُّ الدم الذي يحمل الغذاء والوقود إلى كل خلية، ونسيج، وعضو، وجهاز عن طريق شبكة من الأوعية يزيد طولها عن مئة وخمسين كيلومتر.

إنه يعمل منذ الشهر الثاني من حياة الجنين، وحتى يحين الحين، لا يغفل ولا يغفو، لا ينسى ولا يسهو، ولا يقعد ولا يكبو، ولا يمل ولا يشكو، يعمل من دون راحة، ولا مراجعة، ولا صيانة، ولا توجيه.. والإنسان بجبروته يؤذيه، وبنار الحِقْد يَكويه، وبالأحزان يُبْليه، وهو أساس حياة الإنسان، وشمس عالمه، عليه يعتمد في كل أعماله، وأحواله، ومنه تنبع كل قواه، وحركاته.. وهو آلة خارقة !..

لا يعرف التعب إليها سبيلاً، تزداد قدرتها أضعافاً كثيرة، لتواجه الجهد الطارئ، إنها عضلة من أعقد العضلات، بناء وعملاً وأداء، ومن أمتنها وأقواها، تنقبض وتنبسط ثمانين مرة في الدقيقة، ويصل النبض في الجهد الطارئ إلى مئة وثمانين، ويضخ القلب ثمانية آلاف لتر في اليوم الواحد، أي ما يعادل ثمانية أمتار مكعبة من الدم، ويضخ القلب من الدم في طول عُمُر الإنسان ما يكفي لملء مستودع بحجم إحدى أكبر ناطحات السحاب في العالم..

وينفرد القلب في استقلاله عن الجهاز العصبي، فتأتمر ضرباته وتنتظم بإشارة كهربائية من مركز توليد ذاتي هي أساس تخطيطه، وتتغذى عضلة القلب بطريقة فريدة !! ومن أعجب ما فيه دسَّاماته المحكمة التي تسمح للدم بالمرور باتجاه واحد، وهو مبدأ ثابت في المضخات.

حتى إذا سَكَن القلب في قفصه، واستراح من غُصصه، خلّف وراءه جثة هامدة، كأنها أعجاز نخل خاوية.. فلقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذ قال:

((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب " (1)))

ورحم الشاعر إذ يقول(2):

دقـاتُ قلبِ الـمرء قائلة له   إن الـحياة دقـائقٌ وثواني
فارفعْ لنفسكَ قبل موتَك ذِكرَها   فـالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

(1) جزء من حديث صحيح رواه البخاري (1/ 52) ومسلم (1599) أوله: ((الحلال بيِّن والحرام بيِّن..)) الحديث.
(2) الشاعر أحمد شوقي.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(2-31) :حليب المرأة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-04-13

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

لبن المرأة الذي يُعدُّ مدهشاً ومُبهراً ، تعجز عن تركيبه بخصائصه قوى البشر ، ولو اجتمعت، وأضخم المعامل ولو تضافرت ، فتركيبه في تبدّل مستمر ، بحسب حاجات الرضيع ، ومتَطلباته، وبحسب احتمال أجهزته وأعضائه ، وهو أكثر ملائمة ، وأكثر احتمالاً ، وهو آمن طرق التغذية، من حيثُ الطهارة ، والتعقيم ؛ إذ يؤخذ من الحُلْمة مباشرة ، دون التعرُّض للتلوث الجرثومي ، وحرارته ثابتة خلال الرضعة الواحدة، ومتناسبة مع حرارة الرضيع ، ويصعُب توافر هذه الشروط ، في الإرضاع الصناعي ، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة صيفاً ، دافئ في الشتاء ، وهو سهل الهضم فلا تتجاوز فترة هضمه ، الساعة والنصف ، بينما تزيد فترة هضم حليب القوارير ، عن ثلاث ساعات.

والطفل الذي يرضع من ثدي أمه ، يكتسب مناعة ضدّ كل الأمراض ؛ لأن في حليب الأم كلّ مناعتها، وفيه مواد مضادة للالتهابات المعوية ، والتنفسية ، وموادّ تمنع التصاق الجراثيم بجُدُر الأمعاء ، ومواد حامضية لقتل الجراثيم ، والإرضاع يقي الأم أورام الثدي الخبيثة ، ويقي الرضيع الآفات القلبية والوعائية ، وأمراض التغذية والاستقلاب.

بل إن الفطام السريع يُحدِث عند الطفل ، رضاً نفسياً وانحرافات سلوكية ، وهو ـ أي حليب الأم ـ سهل التحضير ليلاً ونهاراً ، في السفر وفي الحضر ، لأنه جاهز دائماً بالحرارة المطلوبة ، والتعقيم المثالي ، والسهولة في الهضم ، والمناعة الشاملة.. قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

قال عكرمة وابن المسيب: النجدان هما الثديان.

* * *

تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا

وخير كفيل ف ي الحشا قد كفلتنا

وأســكنت قلب الأمهات تعطفاً

علينا وفي الثديين أجريت قوتنـا

وأنشـــأتنا طفـلاً وأطلقت ألسـناً

ونـتـرجـم بـالاقـرار أنـك ربـنا

وعـرفـتنا إياك فـالحـمـد دائمـاً

لـوجهك إذ ألـهمتنا منك رشـدك

*** * ***

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(3-31) :الشمس والأرض
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-10

بسم الله الرحمن الرحيم

روى الإمام مالك في موطئه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال:

((ألا أخبركم بخير أعمالِكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تَلْقوا العدوّ فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟!..))

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: " ذكر الله ".

يبدو من خلال هذا الحديث الشريف، أن الذكر له شأن كبير في حياة المؤمن، كيف لا وقد وَرَد الذكر في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمئة آية.. تؤكد هذه الآيات في مجموعها، أن الذكر ينبغي أن يدور مع الإنسان، في كلّ شؤونه وأحواله وأطواره ؛ لأنّه عبادة القلب، والفكر، واللسان.. فمن الذكر.. أن تذكر الله في آياته الكونية.. وفي آياته القرآنية، وفي آياته التكوينية، وأن تذكره من خلال نعمه الظاهرة والباطنة، وأن تذكره في أمره ونهيه، وأن تذكره لعباده معرفاً به.. وأن تذكره في قلبك، وعلى لسانك مُسبِّحاً وحامداً وموحِّداً ومُكبِّراً، وأن تذكر ربوبيته لك فتدعوه وحدَه، في أحوالك كلّها، وأطوارك جميعها، وأن تذكره ذكراً كثيراً ؛ ليطمئن قلبك، ولينجلي همّك، ولينشرح صدرك، وليتَّسع رزقك، ولتنصرَ على عدوّك.

فمن الذكر التفكُّر في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، وهذا التفكُّر من أجل أن نعرف الله جل وعلا، وأن نُقَدِّره حقَّ قدره.. قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

فمن هذه الآيات التي بثَّها الله في الآفاق، التجاذب الحركي فيما بين الكواكب والنجوم.. قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

فكلمة (ترونها) تفيد ـ فيما تفيد ـ أن الله جل وعلا، رفع السماوات بعمد لا نراها، إنها قوى التجاذب التي تنظم الكون كله، بدءاً من الذرَّة وانتهاء بالمجرَّة..

فالشمس مثلاً تجذِب إليها الأرض بقوة هائلة، بحيث تجري الأرض في مَسَار مُغلق حول الشمس، ولو انعدم جذب الشمس للأرض، لخرجت الأرض عن مسارها حول الشمس، ولاندفعت في متاهات الفضاء

الكوني، حيث الظلمة والتجمد، وبزوالها عن مسارها ـ أي بانحرافها عنه ـ تزول الحياة فيها، إذ تصل درجة حرارتها إلى مئتين وسبعين درجة تحت الصفر.. وهي درجة الصفر المُطلق التي تنعدم فيه حركة الذرات. قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

ولكي ندرك قوة جذب الشمس للأرض، نفترض أن هذه القوة، انعدمت لسبب أو لآخر، ومن أجل أن تبقى الأرض مرتبطة بالشمس، تجري في مسارٍ حولها، لابدَّ من أن نربطها إلى الشمس بأعمدة مرئية من الفولاذ، والفولاذ من أمتن المعادن، ومن أعظمها تحمّلاً لِقوى الشد، فالسلك الفولاذي الذي قطره ميلمتر واحد، يتحمل من قوى الشد ما يعادل مئة كيلو غرام، إننا بحاجة إلى مليون مليون حبل فولاذي، طول كل حبل مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وقطر الحبل الواحد خمسة أمتار، والحبل الواحد من هذه الحبال يتحمل من قوى الشدّ، ما يزيد عن مليوني طن، فكم هي قوة جذب الشمس للأرض ؟.. إنها مليونا طن مضروبة بمليون مليون، ثم إذا زرعنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس، لفوجئنا أننا أمام غابة من الحبال الفولاذية، بحيث تقلُّ المسافة بين الحبلين عن قطر حبل ثالث، هذه الغابة تحجب عنا أشعة الشمس، وتعيق كل حركة وبناء ونشاط.. كل هذه القوى الهائلة من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة ميلمترات كل ثانية.. لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: من آية " 2 ")

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: من آية " 41 ")

هذه آية من آيات الآفاق، فماذا عن آيات النفس ؟؟ قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

لو أن رجلاً كان يتنزَّه في بستان، ولَمَح فجأة كائناً مؤذياً قاتلاً، فما الذي يحدث في جسمه ؟! ينطبع خيال هذا الكائن على شبكية العين، إحساساً، وينتقل هذا الإحساس الضوئي إلى المُخّ، فيصبح إدراكاً للخطر، وعندها يأمر المُخ ـ وهو ملك الجهاز العصبي ـ الغدة النخامية ـ وهي ملكة الجهاز الهرموني ـ بأن تواجه هذا الخطر !! هذه الملكة، تصدر أمراً لغدة الكظر لكي تعطي الجسم الجاهزية القصوى، لمواجهة الخطر، والكَظَر بدوره يعطي أمراً هرمونياً إلى القلب، ليُسرِّع نبضاته، (فالخائف تزداد ضربات قلبه) والكظر يعطي أمراً هرمونياً ثانياً، للرئتين، لتوافق وجيبها مع ازدياد نبضات القلب، (فالخائف يزداد وجيب رئتيه فيلهث)، والكظر يعطي أمراً ثالثاً للأوعية الدموية فتضيق

لمعتها، ليتحول الدم إلى العضلات (فالخائف يصفرُّ لونه)، والكظر يعطي أمراً هرمونياً رابعاً للكبد، ليطرح في الدم كمية من السكر إضافية، والسكر مادة الوقود في العضلات، والكظر يعطي أمراً هرمونياً خامساً، للكبد ليزيد من هرمون التجلط منعاً من نزيف الدم. كلّ هذا في ثوان معدودة ؟!!..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان: من آية " 11 ")

وقال صلى الله عليه وسلَّم فيما رواه البخاري ومسلم:

((مثل الذي يذكر ربّه، والذي لا يذكر ربّه، مثل الحي والميت))

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - درس تلفزيوني - الدرس (04 - 31) : ثلاث من كن فيه.......

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-11

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ .

أيها السادة الأعزاء ... وصف أحد العلماء هذا الحديث : بأنه حديث عظيم ، وهو أصل من أصول الدين . فحقائق الإيمان شيء ، وحلاوة الإيمان شيء آخر؛ حقائق الإيمان يكتسبها الإنسان من خلال المدارسة ، وحلاوة الإيمان تتأتى للمؤمن من خلال المجاهدة ، حقائق الإيمان ـ إن لم يُعمل بها ـ تستقرفي الذاكرة ، ولا تسمو بالإنسان ولا تسعده ؛ بينما حلاوة الإيمان ثمرة يانعة من ثمرات مجاهدة النفس والهوى ، تنبع من القلب ، وتستقر به ، وتسمو بالإنسان وتسعده ، ولا يشدّ الإنسان إلى الدين حقائق الإيمان ـ وحدها ـ بل حلاوة الإيمان ، التي تدفعه إلى بذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، حقائق الإيمان أن تطلع على خارطة لقصر منيف ، بينما حلاوة الإيمان أن تسكن ذلك القصر ، حقائق الإيمان أن تتلفظ بكلمة ألف مليون ، بينما حلاوة الإيمان أن تملكها ، لأن حقائق الإيمان يدركها الإنسان بالعقل ، فيقنع بها ، وقد تغلبه نفسه فيخالفها ، وحلاوة الإيمان يتذوقها القلب ، فتجعله كالمرجل ، تدفعه إلى أجلّ الأعمال ، وأعظم البطولات .

فالمريض يجد طعم العسل مراً ، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه

وكلما نقصت الصحة نقصاً ما ، نقص تذوق الحلاوة بقدر ذلك ، وكذلك الإنسان يذوق حلاوة الإيمان ، بقدر طاعته للواحد الديان.

وقد عبّر النبي (ص) عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة

أما قول النبي (ص) أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

أن يكون الله أي أمره ونهيه من خلال كتابه ، ورسوله أي سنته القولية والعملية والإقرارية ، أحب إليه مما سواهما وإنما قال " مما سواهما " ولم يقل " ممن سواهما " ليعم من يعقل ومن لا يعقل .

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، من حظوظه ، ومن مصالحه ، ولأن الشرع الحنيف لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل ، والعقل يقتضي اتباع تعليمات الصانع ، حتى يصبح هوى المؤمن تبعاً لما جاء به النبي (ص).

المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس ، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله

فالمرء إذا تأمل أن المنعم الحقيقي هو الله تعالى ، وأنه لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه ، وأن ما عداه وسائط ، وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه ، اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه : فلا يحب إلا ما يحب ، ولا يحب من يحب إلا من أجله . وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا . ويخيل إليه الموعود كالواقع ، فتغدو عنده مجالس الذكر رياضاً من رياض الجنة .

محبة الله على قسمين ؛ فرض ، وندب ، فالفرض هي المحبة التي تبعث على امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والرضا بقدره ، فمن وقع في معصية من فعل محرم ، أو ترك لواجب فلضعف محبة لله حيث قدم هوى نفسه المحرم ، أو آثر الراحة ، أو استرسل في المباحات ، واستكثر منها قدمها على طاعة الله فأورثته الغفلة حملته على رجاء ساذج ، وظن موهوم .

والمحبة المندوبة هي التي تدعوه إلى أن يواظب على النوافل ، ويتجنب الوقوع في الشبهات

وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ، وتعني ألا يتلقى شيئا من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ، ولا يسلك إلا طريقته ، ويرضى بما شرعه ، حتى لا يجد في نفسه حرجا مما قضاه ، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها ، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك الالتزام ، وتلك الحلاوة .

وتترجم حلاوة الإيمان بالإقبال على الطاعات ، وتحمل المشاق في المجاهدات ، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا ،باحث مسلم ، عُرف بإنتاجه العلمي على المستوين العربي والدولي ، وهو أستاذ جامعي، له وزنه ، اختصاصه بعلم فزلجة النبات ، وقد اشتهر بتجاربه العلمية الرائدة ، وله تجربة فريدة التي قد لا تصدق إلا أن الواقع أثبتها ، وأكدها قوله تعالى :

تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيهم إنه كان حليما غفورا

يقول هذا الباحث النباتات كما الأجرام السماوية ، وكما مخلوقات الله الأخرى تشعر ، وتسمع ، وتستجيب سلباً أو أيجاباً لما حولها من مؤثرات خارجية ، هذا ملخص البحث .

نصب هذا الباحث في حديقة كلية العلوم ، أربعة بيوت بلاستيكية ، وزرع فيها قمحاً من نوع معين ، هذه البيوت موحدة بحجمها ، ملأها بكميات متساوية من التراب ، وغرس فيها بذور الحنطة على عمق واحد ، وتم تسميدها جميعاً بكميات متساوية السماد المعين ، وسمى اسمه ، وسقيت جميعاً بذات العدد من السقيات ، وبكميات ماء متماثلة ، اختار أحدى طالباته لتقرأ السورة القرآنية يس والفاتحة والإخلاص ، وآية الكرسي ، مرتين في الأسبوع على البيت الأول ، وكلف طالبة ثانية أن تأتي بنبات

أمام نبات البيت الثاني ، وأن تمزق هذا النبات ، وأن تعذبه وأن تقطّع أوصاله ، مرتين في الأسبوع ، وكلف طالبة ثالثة ، بضرب نبات البيت الثالث وكيه ، وتعريض وريقاته للقص . وترك البيت الرابع ينمو نمواً طبيعياً ، وأطلق عليه اسم البيت الضابط ..

فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة عرضها في مؤتمر علمي ، النتيجة نبات البيت الذي استمع إلى القرآن الكريم ازداد طول نباته أربعة وأربعين بالمئة عن طول النبتة في البيت الضابط ، وازداد غلته أربعين بالمئة عن غلة البيت الرابع الضابط ، أما البيت الثاني والثالث الذي تحمل التعذيب أو رأى التعذيب ، فقد تدنى طول نباتاته خمس وثلاثون بالمائة نقصاً ، وهبط إنتاجه إلى ثمانين بالمائة نقصاً ..

قال تعالى :

والنجم والشجر يسجدان

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً.......

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(5-31) :ضعف الإنسان لا يقويه إلا معرفة الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1993-03-12

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان مفطور على حب وجوده وحب سلامة وجوده وحب كمال وجوده وحب استمرار وجوده، وقد " خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين " وهذا الضعف ركب فيه في أصل خلقه لصالحه، لقد خلق ضعيفاً ليفتقر إلى الله بسبب ضعفه، فيسعد بافتقاره، ولو خلقه قوياً لاستغنى عن الله بسبب قوته فشقي باستغنائه

لذلك يبحث الإنسان ـ دائماً ـ عن جهة قوية يحتمي بها ويعتمد عليها ويلجأ إليها ـ وهذا أصل التدين في الفطرة الإنسانية ـ فإن وصل من خلال بحثه العفوي أو الواعي إلى الله خالق السماوات والأرض، والذي بيده ملكوت كل شيء، ومن إليه يرجع الأمر كله، فقد اهتدى وأفلح وسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإن توهم جهة أخرى لا تملك له نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا فقد ضل الطريق وأخطأ الهدف وشقي في الدنيا والآخرة

ذلك لأن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفي القلب نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه وقدره والصبر على ذلك إلى يوم لقائه، وفي القلب فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره والإخلاص له.

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ولا تهرب منه بنعيم الإقبال عليه والإنابة إليه.

وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب.

والآن... كيف نعرفه ؟ إن الكون بسماواته وأرضه وما بث فيهما من دابة مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، والتفكر في خلق السماوات والأرض سبيل إلى معرفته، ومعرفة منهجه سبيل إلى عبادته.

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

قال تعالى:

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

القرآن يخاطب أناساً يعتمدون السَنة القمرية، فالقمر يدور حول الأرض كلَّ شهر دورةً، فلو قِسنا بُعدَ مركزه عن مركزِ الأرض أي نصفَ قطرِ الدائرةِ التي هي مسارُ القمرِ حولَ الأرض، وحسبْنا محيطَ هذه الدائرة بعد معرفةِ نصفِ قُطرها، لعرفنا كمْ من الكيلو مترات يقطع القمرُ في دورته حولَ الأرض كلَّ شهر، لو أخذنا طولَ محيطِ هذه الدائرة، وضربناه باثني عشر شهراً، لعرفنا كم يقطعُ القمرُ من الكيلومترات في رحلته حول الأرض في عامٍ، هذه الكيلو مترات التي يقطعها القمرُ في رحلته حول الأرض في العام، لو ضربناها بألف، لعرفنا كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألفِ عام، هذا الرقم يساوي المسافة مقدرةً بالكيلو مترات التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

فما يقطعه القمر في ألفِ عام، يقطعه الضوءُ في يوم، بدليل أننا لو قسمنا ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام وهي المسافة على ثواني اليوم، وهي أربعة وعشرون ساعةً ضرب ستينْ ضرب ستين وهي الزمن، لو قسمنا المسافة على الزمن لظهر معنا الرقم التالي وهو مئتانْ وتسعٌ وتسعونَ ألفاً وسبعُمئةٍ واثنان وخمسون كيلومترٍ ونصفْ وهذه النتيجة تتفقُ تماماً مع سرعة الضوءْ المعلنةِ دولياً طبقاً لبيان المؤتمر الدولي المنعقدِ في باريسَ وسرعةُ الضوء هي أهمُّ قانون عرفتهُ البشرية في القرن العشرينْ وهذه السرعةُ أعلى سرعةٍ في الكون، فالشيءُ إذا سار بسرعة الضوءِ أصبح ضوءاً، وأصبحت كتلتُه صفراً، وحجمُه لا نهائياً، وعندئذ يتوقف الزمنُ، فإذا سار الجسمُ أسرع من الضوء تراجع الزمنُ، فإذا قصَّر عن الضوء تراخى الزمن.

فالمسافة التي يقطعها القمرُ في مداره الخاص حول الأرض في ألف سنةٍ قمريةٍ تساوي المسافة التي يقطعها الضوءُ في يوم أرضي واحد

وهذه هي النظرية النسبية التي يتيه الغرب بها .

هذا عن آيات الله في الآفاق **!!!** فماذا عن آياته في النفس ؟

يؤكد علماء نفس الطفل، أن الطفل حينما يولد لا يملك أية قدرة إدراكية، بل إن كل ما يتمتع به الراشد من إمكانات وقدرات، و مفهومات و معقولات، وخبرات ومؤهلات، إنما هي نتيجة تفاعله مع البيئة، وهذا فحوى الآية الكريمة:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(سورة النحل)

لكن منعكساً ـ على حدّ تعبير علماء النفس ـ يولد مع الطفل، ولا يحتاج إلى تعليم، إنه منعكس المص، إذ لولاه لما وجدت إنساناً واحداً على سطح الأرض في قاراتها الخمس، إن الطفل الذي يولد من توِّه لا يستطيع أن يتلقى توجيهات والده في ضرورة التقام ثدي أمه، وإحكام إطباقهما، ثم سحب الهواء، كي يأتيه الحليب، لا يستطيع أن يتلقى هذه التوجيهات بالفهم فضلاً عن التطبيق

حليب الأم من آيات الله الكبرى الدالة على عظمته فهو يتغيَّر تركيبه خلال الرضعة الواحدة، يبدأ حليب الأم بماءٍ كثير، يقلُّ الماء ويزداد الدسم، إلى أن تصبح المواد الدسمة في نهاية الرضعة أربعة أمثال هل بالإمكان أن تغذي طفلاً بقارورةٍ وتتغيَّر نسب الدسم، والمواد السكرية والمواد البروتينية، في أثناء الرضعة الواحدة ؟

شيءٌ آخر.. تتغيَّر تراكيب مقوّمات لبن الأم، بالكميات المعادلة لنمو الصغير، كلما نما الصغير الرضيع، تزداد الأحماض الأمينية، والأملاح المعدنية، والمعادن النادرة، والفيتامينات

أما الشيء الذي يلفت النظر... فهو أن هذا الطفل الذي خلقه الله عزَّ وجل، أودع فيه خمائر هاضمة بمقادير تتناسب مع حليب الأم، فلو أرضعناه حليب البقر، ولو كان طازجاً، أو كان مجففاً، يعجز الطفل عن هضمه، وتبقى كميّاتٌ كبيرة من المواد الدسمة والبروتينيات والأحماض الأمينية دون هضم، وطَرْح هذه المواد عن طريق الكلية يجهدها لذلك نجد الطفل الذي يرضع حليب البقر تجهد كُليتاه في طرح المواد الدسمة، والأحماض الأمينية، والبروتينات التي لم يستطع هضمها، فخمائر الهضم عنده متوافقةٌ مع حليب الأم، وليست مع حليب البقر، في حليب البقر أربعة أمثال ما في حليب الأم من الأحماض الأمينية

قال العلماء : ارتفاع نسبة الأحماض الأمينية في الدم تسبب للطفل الرضيع القصور العقلي، والآفات القلبية، والآفات الوعائية، وأمراض جهاز الهضم والكبد، الأمراض المزمنة التي تلازم الإنسان طوال حياته ولو سألت أطباء الأورام الخبيثة لأجابوك إن المرأة التي ترضع ابنها من ثديها أقلُّ عرضةً للإصابة بورم الثدي من المرأة التي لا ترضع ابنها من ثديها.. أي أن نسب أورام الثدي الخبيثة في النساء اللواتي يرضعن أولادهن قليلةٌ جداً، أما نسب الأورام الخبيثة في النساء اللواتي لا يرضعن أولادهن نسبٌ عالية..

أيها الأخوة المشاهدون...

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه في الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل عن طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع. وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك. وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(6-31) :الحليب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-25

بسم الله الرحمن الرحيم

كأس الحليب الذي تشربونه، أو طبق اللبن الذي تحتسونه على مائدة الإفطار، وما أشتق منهما من خيرات حِسان، آيات بينات دالة على عظمة الخالق وجلاله، وتربيته ورعايته وفضله وإنعامه.
قال تعالى:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66))

(سورة النحل: 66)

هذا الحليب الذي يحتوي على نسب دقيقة وجليلة، من الماء والدسم والسكريات، والمواد المرممة، وأملاح المعادن، والفيتامينات وعدد ليس بقليل من الغازات المنحلة، من حدد هذه المكونات ؟ من ضبط هذه النسب ؟

(أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61))

(سورة النمل: 61)

ثم إن هذه البقرة التي نأخذ منها الحليب، من خلقها ؟ وخلق لها أجهزتها ؟ ومن ذللها للإنسان ؟ ومن جعل نتاجها من الحليب غذاء مناسباً لنا ؟ لأنه يفوق بكميته أضعافاً كثيرة عن حاجة وليدها، ومن جعله اقتصادياً ؟ لأنه يزيد بثمنه عن مصاريف العناية بها وإطعامها.
يذكر العلماء أيها الأخوة الأكارم: أن الغدة الثديية للبقرة هي المعمل الحيوي، الذي يقوم بتركيب الحليب وإفرازه، ويعد السنخ الوحدة الوظيفة لتصنيع الحليب في البقرة والسنخ ؟ مجموعة من الخلايا على شكل كرة مجوفة، محاطة بشبكة من الشعريات الدموية التي تمد الصمغ بالمواد الأولية اللازمة لتصنيع الحليب، وتصنع هذه الخلايا قطرات الحليب من المواد الأولية التي تأخذها من الدم، ثم تطرحها في جوف النسيج لتجتمع في قنوات تصب في ضرع البقرة هل تستطيع هذه الخلايا غير العاقلة، أن تختار وحدها مواد الحليب من دم البقرة، لتكون غذاءً كاملاً للإنسان ؟ وهل تستطيع هذه الخلايا غير العاقلة وحدها أن تصنع من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين يحبه الصغار والكبار...؟.
يقول العلماء يا أيها الأخوة الأكارم: إن طبيعة عمل هذه الخلايا وسر تصنيع الحليب فيها غير معروف تماماً حتى الآن، وهل تصدقون أيها الأخوة، أن اللتر الواحد من الحليب المصنع في هذه الغدد، يحتاج إلى أربعمائة لتر من الدم، يجول في شعريات محاطة في هذا السنخ.

سبحان الله، سبحان الله، من سخر لنا هذه البقرة لتكون معملاً عظيماً لتصنيع الغذاء الأول للإنسان، خلقها، وسخرها، وذللها نأكل من لحمها، ونشرب من لبنها، وننتفع من خدماتها.

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73))

(سورة يس: 71 - 72 - 73)

أيها الأخوة الأحباب: أن يتفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة، وأن ينظر الإنسان مما خلق، وأن ينظر الإنسان إلى طعامه، وأن ينظر إلى من حوله، من مخلوقات وإلى ما حوله من كائنات، وأن ينظر إلى ما فوق من أطيار، وأنواع وأن ينظر إلى ما تحته من بحار، وأسماك، أن يفكر وينظر في ملكوت السماوات والأرض.

أنه باب واسع من أبواب معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى أصل الدين وأصل التكليف، وأصل العبودية، وسر السعادة وثمن الجنة.

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران: 190 - 191)

أيها الأخوة المشاهدون: الإنسان يحكم بعقله من خلال تأمله لأن لهذا الكون خالق عظيماً، يوقن بوجوده، ويوقن بوحدانيته ويوقن بكامله، ولكن من هو ؟ ولماذا خلق ما خلق ؟ وماذا يريد من الإنسان؟ هنا يأتي دور الرسل الكرام، وهم صفوة الله من خلقه اصطفاهم، وأيدهم بالمعجزات لتكون دليلاً قطعياً على إرسالهم من قبل خالق الأرض والسماوات.

وهناك تتوقف العقول، ويبدأ دور الرسل في فهم الذين يخبروننا من خلال ما أنزل عليهم من وحياً، أن الله هو خالق السماوات والأرض، وهو بكل شئ عليم، وهو على كل شئ قدير إليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وأن السماوات والأرض خلقتا بالحق، وسخرتا للإنسان، تسخير تعريفاً وتكريم ليؤمن ويشكر.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: 2 - 3)

وأن الله أودع في الإنسان عقلاً، يدله على خالقه، وأودع فيه فطرة نقية، تدله على خطئه، وأودع فيه الشهوات، قوىً محركةً ليرقى بها صابراً، وشاكراً إلى رب الأرض والسماوات، ومنحه حرية في الكسب، وأمده بقوة فيما يبدو لتحقيق كسبه ليصح التكليف والابتلاء وليكون النجاح فيهما ثمن العطاء، وجعل الشرع ميزان على ميزانا العقل والفطرة، فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبح الشرع وأن الله خلق الإنسان ليعبده، وليوحده، والعبادة في أدق مفهوماتها طاعة قولية ممزوج بمحبة قلبية تسبقها معرفة يقينه تفضي إلى سعادة أبدية، وأن الحياة الدنيا دار ابتلاء وانقطاع وعمل، وأن الآخرة دار جزاء وخلود وتشريف، وأن الإنسان لم يخلق عبثا، ولم يترك سدى وأنه على نفسه بصيرة ولو ألق معاذيره.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(7-31) :الزكاة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-27

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان، شهر التقوى والقرآن، شهر التوبة والغفران شهر الإنفاق والصدقات، شهر الزكاة والقربات.

الزكاة أيها الأخوة:

حارس على الأموال، وعلى أصحابها فإذا شبع الجائع واكتسى العاري، عم الأمن والسلام، إنها تطبع الفرد على حب البذل والسخاء، وتغرس في المجتمع بذور التعاون والإخاء وهي لا تحل المشكلة المالية بالعصا والسوط، ولكن بإيقاظ الضمائر وتنوير العقول.

المال مال الله، والغني مستخلف فيه، والفقراء عيال الله وأحب خلفاء الله إلى الله أبرهم بعياله، والبر ذمة وفريضة، لا منة وعطاء.

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103))

(سورة التوبة: 103)

هذه الآية أيها الأخوة:

أصلٌ في فرضية الزكاة، لذلك سنقف عندها وقفة متأنية وعند كلماتها كلمة كلمة...

فيستنبط من كلمة " خذ " في هذه الآية أن الزكاة ليست مجرد عملٍ طيب، من أعمال البر، وليست خلة حسنة من خلال الخير، بل هي ركن أساسيٌ من أركان الإسلام، وشعيرة من شعائره الكبرى، بل هي حجر الزاوية في نظام الإسلام، وأساساً من أسس التكافل الاجتماعي، إنها ليست إحسان اختياريا، ولا صدقة طوعيه، إنما هي فريضة، تتمتع بأعلى درجات الإلزام الشرعي والخلقي، لذلك لم يأمر الله المؤمنين بدفعها، بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وأولي الأمر من بعده بأخذها، فالزكاة تأخذ ولا تعطى، تفترض ولا تستجده.

ويستنبط من كلمة " من " التي هي للتبعيض، في هذه الآية أن الزكاة لا تطول جميع المال، بل بعضه.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

وقد بينت السنة الشريفة مقادير هذا البعض، بحسب أنواع الأموال، وبحسب طريقة تحصيلها، ومقدار الجهد المبذول في جمعها.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

ويستنبط من كلمة " أموالهم "، التي وردت جمعاً في هذه الآية أن الزكاة تطول كل أنواع المال، فتجب الزكاة في كل ما أخرجته الأرض من إنتاج زراعي، وفي الثروة الحيوانية، وفي المنتجات الحيوانية، وفي الذهب والفضة، وفي كل أنواع النقد المتداول والسندات والديون والسلف، وفي عروض التجارة بشتى أنواعها وفي الحلي التي ليست للاستعمال الشخصي، بل وتجب الزكاة في الثروات الباطنية والمعدنية.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

ويستنبط من ضمير الجمع في كلمة " أموالهم "، أن الزكاة مفروضة على جميع المسلمين، كافة، ممن يملكون النصاب، التي بينته السنة الشريفة من دون استثناء ولا إعفاء ولا تخفيضٍ ولا طيٍ.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

ويستنبط من كلمة " صدقة " في الآية الكريمة، أن المسلم حينما يدفع زكاة ماله، يؤكد صدقه، أي تطابق فعله مع اعتقاده ويؤكد تصديقه بأمر الله، وتصديقه بيوم الدين، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه: الصدقة برهان.

فالزكاة: عبادة مالية، يؤكد بها المسلم تصديقه، وصدقه، فلو لم يطالبه بها السلطان، طالبه بها القرآن.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

ويستنبط من كلمة " تطهرهم " في هذه الآية الكريمة، أن الزكاة تطهر نفس الغني، من الشح البغيض، تلك الآفة النفسية الخطرة، التي قد تدفع صاحبها إلى الدم فيسفكه، أو إلى العرض فيبذله، أو إلى الوطن فيبيعه، ولن يفلح فردٌ أو مجتمعٌ سيطر الشح عليه، وملك ناصيته، قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9))

(سورة الحشر: 9)

والزكاة أيضاً تطهير لنفس الفقير، من الحسد، والحقد والضغينة على ذلك الغني الكانز لمال الله، والذي يمنعه عن عباد الله فمن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، ومن شأن الحرمان أن يملأه بالبغض والحقد.

والزكاة أيها الأخوة:

تطهر المجتمع كله، من عوامل الهدم والتفرقة، والصراع والفتن، وهي فضلا عن كل ذلك تطهر المال من تلوثه بتعلق حق الغير به، فالحجر المغصوب في الدار سببٌ في خرابها، وكذلك الدرهم الذي استحقه الفقير في المال رهنٌ بتلويث كله، قال عليه الصلاة والسلام: إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره.

وقال أيضاً: حصنوا أموالكم بالزكاة.

وقال أيضاً: ما تلف مال في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ)

ويستنبط من كلمة " وتزكيهم بها " في هذه الآية، أن التزكية معناها النماء والزيادة ؛ نماء للغني والفقير ولمال كل منهما، نماء للعلاقات الاجتماعية، وللقيم الإنسانية.

فهي أولاً نماء لشخصية الغني ولكيانه المعنوي...

فالإنسان الذي يسدي الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه، ويده، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله عليه، يشعر بامتداد في نفسه، وانشراح واتساع في صدره ويحس بما يحس به من أنتصر في معركة، وهو فعلاً لقد أنتصر على ضعفه، وأثرته وشيطان شحه وهواه، فهذا هو النمو النفسي، والزكاة المعنوية، ولعلى هذا ما عنته كلمة " وتزكيهم بها ".

والزكاة أيها الأخوة:

زكاة لمعنى نماء لشخصية الفقير، يحس يشعر الفقير، أنه ليس ضائعاً في المجتمع، ولا هيناً عليه، ولا متروكاً لضعفه وفقره إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرة، ويحمل عنه أثقاله، ويمد له يد المعونة، بكل ما يستطيع، وبعد ذلك، لا يتناول الزكاة من يد فردٍ يشعر بالضعف أمامه، بل يأخذها من أولي الأمر، حرصاً على كرامته من أن تخدش، ولو قدر للأفراد أن يعطوا فإن القرآن الكريم يحذرهم من المن والأذى، قال تعالى:

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263))

(سورة البقرة: 263)

أيها الأخوة الأكارم:

والزكاة بعد ذلك نماء للمال نفسه وبركة فيه، وكيف يكون ذلك ؟ وهي في الظاهر نقص في المال بإخراج بعضه، ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهر، وراءه زيادة حقيقية، زيادة في المال المجموع، وزيادة في مال الغني نفسه فتأدية الزكاة ترفع القوة الشرائية عند الفقير، وهذا يعود بالنفع على دافع الزكاة، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

(سورة سبأ: 39)

وقوله تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: 276)

وقد يزيد مال دافع الزكاة بالعناية الإلهية المباشرة لغيري ما نعرف من الأسباب.

والزكاة بعد ذلك، وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي، الذي جاء به الإسلام، فالإسلام يأبى أن يوجد في مجتمعه، من لا يجد القوت الذي يكفيه، والثوب الذي يستره، والمسكن الذي يؤويه فالمسلم مطالبٌ أن يحقق هذه الضروريات، وما فوقها من جهده وكسبه فإن لم يستطع، فالمجتمع المسلم يكفله ويضمنه، ولا يدعه فريسة للجوع والعري والتشريد، فالمسلمون كالجسد الواحد، إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(8-31) :الذكر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-01

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن في رمضان شهر التوبة والغفران، شهر الطاعة والإحسان، شهر الذكر والحب، شهر التقوى والقرب.

روى الإمام مالك في مسنده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند ملكيكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا العدو فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟!. قالوا بلى يا رسول الله، قال " ذكر الله ".

أيها الأخوة الأحباب:

يبدو من خلال هذا الحديث الشريف، أن الذكر له شأن كبيرٌ في حياة المؤمن.

كيف لا ! وقد ورد الذكر في القرآن الكريم، في أكثر من ثلاثمائة موضع، في كل هذه الآيات التي ورد فيها الذكر، هناك تأكيد على أن الذكر ينبغي أن يدور مع الإنسان، في كل شؤونه وفي كل أحواله وفي كل أطواره ؛ لأنه عبادة القلب.. وعبادة الفكر.. وعبادة اللسان..

فمن الذكر أيها الأخوة:

أن تذكر الله في آياته الكونية.. ومن الذكر أن تذكره في آياته القرآنية.. ومن الذكر أن تذكره في آياته التكوينية.. وأن تذكره في نعمه الظاهرة والباطنة، وأن تذكره في أمره ونهيه، وأن تذكره لعباده معرفاً به، وأن تذكره في قلبك ولسانك مسبحاً وحامداً وموحداً ومكبراً وأن تذكر ربوبيته لك فتدعوه وحده في أحوالك كلها وأطوارك جميعها وأن تذكره ذكراً كثيراً طيباً ليطمئن قلبك، ولينجلي همك، ولينشرح صدرك، وليتسع رزقك ولينصرك الله على عدوك.

أخوتي المؤمنون، أعزائي المشاهدين:

من الذكر التفكر في آيات الله في الآفاق، وفي الأنفس، وهذا التفكر من أجل أن نعرف الله جل وعلا، أن نعرفه حق المعرفة، وأن نقدره حق التقدير.

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران: 190 - 191)

أيها الأخوة الأكارم:

من هذه الآيات التي بثها الله في الآفاق التجاذب الحركي فيما بين الكواكب والنجوم، هذه آية دالة على عظمة الله عز وجل.

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: 2)

فكلمة " ترونها " في هذه الآية، تفيد فيما تفيد، أن الله جل وعلا، رفع السماوات بعمد لا نراها، إنها قوى التجاذب التي تنظم الكون كله، بدءاً من الذرة، وانتهاء بالمجرة، كالشمس مثلاً تجذب إليها الأرض بقوة هائلة، بحيث تجري الأرض في مسار مغلق حول الشمس، ولو انعدم جذب الشمس للأرض، لخرجت الأرض عن مسارها حول الشمس، ولاندفعت في متاهات الفضاء الكوني، حيث الظلمة و التجمد، وبزوالها عن مسارها، أي بانحرافها عن خط سيرها تزول الحياة فيها إذ تصل درجة حرارتها إلى مائتين وسبعين درجة تحت الصفر.

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: 41)

فا بانحرافها عن سيرها زوال للحياة فيها.

أيها الأخوة الأحباب:

لكي ندرك قوة جذب الشمس للأرض نفترض على سبيل الافتراض، أن هذه القوة التي هي في الشمس والتي تجذب الأرض قد انعدمت لسبب أو لآخر، ومن أجل أن تبقى الأرض مرتبطة بالشمس، تجري في مسار حولها، لابد من أن نربط الأرض إلى الشمس بأعمدة مرئية، نبحث عن أعمدة فلا نجد أمتن من الفولاذ، إن السلك من الفولاذ الذي قطره ميلمتر واحد يتحمل قوى شد تزيد عن مائة كيلو غرام، إننا بحاجة إلى مليون مليون حبل فولاذي طول كل حبل مائة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وقطر كل حبل خمسة أمتار، إن الحبل الواحد من هذه الأحبال يستطيع أن يتحمل قوة شد تزيد عن مليوني طن، فهذه الحبال مليون مليون حبل، وكل حبل يتحمل قوى شد مقدارها مليوني طن، هذا الرقم الخيالي هو ما يسميه العلماء قوة جذب الشمس إلى الأرض.

أيها الأخوة الأكارم:

إذا زرعنا هذه الحبال على وجه الأرض المقابل للشمس لفوجئنا بغابة من الحبال الفولاذية، بين كل حبلين مسافة حبل واحد عندئذٍ تحجب أشعة الشمس، وتستحيل الحركة على سطح الأرض يستحيل

عليها أي نشاط.

أيها الأخوة الأكارم:

هل تدرون أن كل هذه القوة الهائلة من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة ميليمترات في كل ثانية !.

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد: 2)

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: 41)

هذه آية من آيات الله في آفاقه

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: 53)

فماذا عن آية الله في النفس ؟.

أيها الأخوة الأكارم يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات: 21)

من آيات الله الدالة على عظمته في النفس، أن الإنسان إذا كان يتجول في بستان، ورأى فجأةً حشرةً مؤذية قاتلة، ما الذي يحصل في بدنه ؟.

أول شيء أن صورة هذه الحشرة تنطبع في شبكية عينه، وهذا هو الإحساس.

وثانياً أن هذه الصورة تنتقل إلى المخ فتصبح إدراكاً بحسب المفاهيم.

يا أيها الأخوة الأكارم:

المخ ؟ ملك الجهاز العصبي، يتصل بملكة الجهاز الهرموني وهي الغدة النخامية، فيأمرها أن تهيئ جاهزية قصوى لمواجهة هذا الخطر، ماذا تفعل هذه الغدة النخامية ؟ تعطي أمراً إلى غدة الكظر التي فوق الكلية من أجل أن تواجه هذا الخطر.

الكظر يصدر أربعة أوامر هرمونية.

الأمر الأول يصدره إلى الأوردة والشرايين، ولا سيما الأوردة والشرايين، هذه الأوردة تنقبض وتضيق لمعتها، ليتوفر الدم للعضلات، لذلك الخائف مصفر اللون.

ويتجه أمر آخر إلى القلب ليسرع في نبضاته، ولينقل الدم سريعاً إلى العضلات، لذلك تجد الخائف يضطرب قلبه وتزداد نبضاته.

ويتجه أمر هرموني ثالث إلى الرئتين ليزداد وجيبها، وليتوافق وجيبها مع دقات القلب السريعة، لذلك تجد الخائف يزداد وجيب رئتيه حتى يلهث.

ويتجه أمر رابع إلى الكبد ليحرر كمية من السكر زائدةً في الدم حتى يكون السكر وقوداً للعضلات.

والكظر يعطي أمراً خامساً، للكبد ليزيد من هرمون التجلط منعاً من نزيف الدم.

كل هذا أيها الأخوة: في ثوان، في أجزاء الثانية قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

أيها الأخوة الأكارم:

الآيات التي بثها الله في الكون، وفي أنفسنا، وفي طعامنا وفي شرابنا، كلها تؤكد عظمة الله عز وجل تؤكد أنه موجود وتؤكد وحدانيته، وتؤكد كماله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(9-31) :الرقائق
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-03-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن بالعشر الأخير من رمضان، وفيه ليلة عظيمة القدر هي خير عند الله من ألف شهر، ويطيب الحديث في هذا العشر، عن النفس الإنسانية، وكيف أن الإنسان إذا طهر نفسه، من المعاصي والآثام، وعرفها بربها وحملها على طاعته والتقرب إليه فقد زكاها.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

وهذه بعض الرقائق المتعلقة بتزكية النفس

الإمام الجليل أبي حامد الغزالي، خاطب نفسه التي بين جنبيه مشيراً إلى واعظين بليغين، ناطقاً وصامتاً.

فالناطق هو القرآن الكريم، والصامت هو الموت.

وفيهما كفاية لكل متعظ، قال الإمام الغزالي: أم أنت يا نفس مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، فإن الله تعالى يقول في كتابه الكريم:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16))

(سورة هود: 15 - 16)

فيا نفس لقد وعدك الله سبحانه وتعالى، بالنار على إرادة الدنيا وحبها، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا، ولو أن طبيباً وعدك بالمرض على تناول ألذ الأكلات لتحاشيتها واتقيتها، أيكون الطبيب يا نفس أصدق عندك من الله ؟!!.. فإن كان كذلك فما أكفرك وإن كان المرض أشد عندك من النار، فما أجهلك !! ويتابع الإمام الغزالي خطابه لنفسه فيقول: ثم وعظتها بالواعظ الصامت وهو الموت فقلت لها: لقد أخبر الواعظ الناطق عن الواعظ الصامت، حيث قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء: 205 - 206 - 207)

ثم ذكر نفسه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ألا يارب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يارب مكرمٍ بنفسه وهو لها مهين، ألا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يارب متخوضٍ ومتنعمٍ ما له عند الله من خلاق، ألا

أن عمل الجنة حزن بربوةٍ، ألا و إن عمل النار سهلٌ بسهوةٍ، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزن طويلاً.

أخوة الأحباب:

يقول الإمام علي كرم الله وجهه: إنه ليس شيءٌ شرٌ من الشر إلا العقاب، وليس شيءٌ خيرٌ من الخير إلا الثواب، وكل شيء في الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفيكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر، واعلموا إنما ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح، وكم من مزيد خاسر، وأعلموا أن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه وما أحل لكم أوسع مما حرم عليكم، فذروا ما قلى لما كثر، وما ضاق لما أتسع، قد تكفل لكم بالرزق، وأمرتم بالعمل، فلا يكن المضمون لكم أولى بكم من المفروض عليكم، فبادروا بالعمل، وخافوا بغتة الأجل.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سهى ولهى ونسي المقادر والبلى، بئس العبد عبد عتى وطغى، ونسي المبتدى والمنتهى بئس العبد عبد يختله، أي يخلط، يختله الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختله الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوىً يضله، بئس العبد عبد رغب يذله.

أيها الأخوة الأحباب:

يروى عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال من حمل ذنبه على ربه فقد فجر، وإن الله تعالى لا يطاع استكراهاً ولا يعصى بغلبة، فإن عمل الناس بالطاعة، لم يحل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أمرهم، ولو أجبرهم على الطاعة لأسقط الثواب، ولو أمرهم بالمعصية لأسقط العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة، فإن عملوا بالطاعة، فله المنة عليهم وإن عملوا بالمعصية، فله الحجة عليهم.

ورحم الله بن عطاء الله السكندري حيث يقول في حكمه: من ذم انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره، وربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك وقد يكون العطاء من الخلق حرمان، وقد يكون المنع من الله إحسان، ومتى فتح لك باب الفهم، في المنع عاد المنع عين العطاء، ومتى أوحشك من خلقه فليفتح لك باب الأنس به، وربما وجدت من الفاقات مالا تجده في الصوم والصلاة، فلا تستبطئ منه النوال، ولكن استبطئ من نفسك الإقبال، وما لم تفرغ قلبك من الأغيار فلن يملأه بالمعارف والأسرار، فكما أن الله تعالى، لا يحب العمل المشترك، لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك، أي العمل الذي

فيه شرك فكما أن الله تعالى لا يحب العمل المشترك، لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه.

أعزائي المشاهدين، أخوتي المؤمنين: هذه بعض الرقائق في تطهير النفس وتزكيتها

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

فرغم أنف عبد قد أدرك رمضان فلم يغفر له، إلا لم يغفر له متى، فمتى ؟

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(10-31) : الأخلاق : التلازم الضروري بين التديّن الصحيح والخُلق القويم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-06

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته موضوع لقائنا اليوم التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم:

النبي صلوات الله وسلامه عليه، حدد الغاية الأولى من بعثته والمنهج الأمثل من دعوته، فقال فيما رواه الإمام مالك: إنما بعثت معلماً، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

الهدف هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد والمجتمع، والوسيلة هي التعليم لا التعنيف، والمتتبع لنصوص القرآن الكريم، وللسنة المطهرة الثابتة، يجد ذلك التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم.

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون: 1 - 2)

هو نفسه، وقال صلى الله عليه وسلم: لا إيمان من لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وقال عليه الصلاة والسلام: الإيمان والحياء قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر.

فالإيمان أيها الأخوة:

أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام، أن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً، وأن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً، وأن من أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً، وأن من أقرب المؤمنين مجلساً للرسول الله يوم القيامة أحسنهم خلقاً، وأن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن، وأنه ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وأما المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، بل إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، والخلق الحسن كما قال عليه الصلاة والسلام: يذيب الخطاية كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

أيها الأخوة الأحباب:

الناجح كل النجاح، والفلاح كل الفلاح، والفوز كل الفوز والسعادة كل السعادة باتصال النفس بربها، وتطهيرها من أدرانها وتحليتها بمكارم الأخلاق، والخيبة كل الخيبة، والخسارة كل الخسارة والشقاء كل الشقاء، في بعد النفس عن ربها، وتمرغها في وحول المادة، وتخبطها في ظلمات الشهوات.

قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

وقال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية: 21)

ومما يؤكد أيها الأخوة، ومما يؤكد هذا التلازم الضروري بين التدين الصحيح والخلق القويم، ما أورد الإمام أحمد في مسنده، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن رجلاً قال له يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاته، إن فلانة تذكر من كثرة صلاته، وصيامه، وصدقته غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال هي في النار.

وقد ورد في صحيح مسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأل أصحابه يوماً، أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار.

ومن خلق النبي العظيم عليه أتم الصلاة والتسليم، أن عكرمة ابن أبي جهل، كان والده من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ويوم فتح مكة، جاءت زوجته إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأسلمت وقالت يا رسول الله: لقد هرب عكرمة إلى اليمن خوفاً منك فأمنه أمنك الله، فقال عليه السلام: هو أمن، فخرجت من ساعتها في طلبه وأدركته وقالت يا ابن العم: جئتك من عند خير الناس، من عند أفضل الناس، من عند ابر الناس، من عند محمد بن عبد الله، فقال ؟.... قالت نعم أنا سلمته فأمنك، وما زالت به تؤمنه وتطمئنه حتى عاد معها، فلما دنى عكرمة من مكة، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسب أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، هذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ولما التقى عكرمة النبي صلى الله عليه وسلم، قال له والله ما دعوة إلا إلى حق، وما أمرت إلا بخير، وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً.

ومن خلق أصحابه الأطهار رضوان الله عليهم، أن ابن عباس رضي الله عنهما، كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المسجد ليمشي في حاجة أخ له فقيل له، أنسيت أنك معتكف،

قال لا، ولكن سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب فدمعة عيناه، وهو يقول من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها، كان خير له فيها من اعتكاف عشر سنين.

وقد سأل زيد الخير رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ما علامة الله فيمن يريد؟ وما علامته فيمن لا يريد ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: كيف أصبحت يا زيد، قال أصبحت أحب الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرت إليه، وإن فاتني حزنت عليه، وحننت إليه، فقال هذه علامة الله فيمن يريد.

وقد أخرج البخاري رضي الله عنه في صحيحه، وصحيحا البخاري ومسلم، هما أصح كتابين بعد كتاب الله، أخرج البخاري أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: تبسمك في وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلوي أخيك لك صدقة.

وفي الحديث القدسي: ليس كل مصلي يصلي... إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي و جلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً فيدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها.

أيها الأخوة المؤمنون: هذه التوجيهات النبويه، سواء أكانت أقولاً أو أفعالاً، أو إقراراً، يجب العمل بها، لأن الله تعالى يأمرنا أن نعمل بها حيث يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7))

(سورة الحشر: 7)

بل إن علماء الأصول يقولون إن ما ثبت من السنة المطهرة هو وحياً غير متلو، استنباطا من قوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم: 3 - 4)

ويبدو أن الأخلاق الكريمة في الأصل مواقف يقفها الإنسان بدافع من مشاعر سامية، تملئ قلبه من خلال اتصاله بربه مصدر الحق والخير والجمال.

أيها الأخ الكريم:

من أجل أن يكون لك قلب كبير يفيض رحمة وحناناً، من أجل أن تحب معالي الأمور، وتكره سفسافها ودنيها شرع الصيام ليكون فرصة سنوية لإخراج المرء من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات ومن وحول الشهوات إلى معارج القربات، من السير المضني وراء جمع المال والثروات، إلى نعيم التقلب

في رحمة رب الأرض والسماوات، من الأثرة إلى المأثرة، من المصلحة إلى المبدأ، من الشهوة إلى العقل، من دنس المادة إلى طهر الروح، من شقاء الحياة إلى نعيمها، من مدافعة التدني إلى متابعة الترقي.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(11-31) :القرآن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)

في هذه الآية الكريمة أيها الأخوة، إشارة لطيفة إلى علاقة وشيجة، بين شهر رمضان وبين فضل القرآن، فالقرآن أنزل في رمضان، أو رمضان أنزل في فضل قرآن، وربما كان شهر رمضان إعداداً للإنسان كي يفوز بالقرآن.

والقرآن الكريم كلام الله المنزل على نبيه، المنقول بتواتر المتعبد بتلاوته، المتحد بنظمه، المعجز بمضمونه، قطعي الثبوت قطعي الدالة، لا ريب فيه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يهدي للتي هي أقوم، ولا يحزن قارئه.

وهو كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، نوراً لا يطئفه مصباحه، وسراج لا يخمد توقده، وبحر لا يدرك قعره، ومنهاج لا يضل سالكه، وفرقان لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعز لا يهدم أنصاره، وحقاً لا يخذل أعوانه، وهو معدن الإيمان، وينبوع العلم، ورياض العدل.

أيها الأخوة الأحباب:

حينما يقتني أحدنا آلة بالغة التعقيد غالية الثمن، ذات نفع عظيم، تراه حريصاً حرصاً لا حدود له، على اقتناء الكتيب، التي تصدره الجهة الصانعة، والذي يتضمن طريقة الاستعمال، وأسلوب الصيانة، فهو حريص على اقتناء هذا الكتيب حريص على ترجمته حريص على فهمه، حريص على تنفيذ تعليماته بدقة بالغة، وهذا الحرص نابعٌ من حرصه على سلامة هذه الآلة وعلى مستوى أدائها.

وهذا الإنسان أيها الأخوة بجسده، الذي يعد أعقد آلة في الكون، ففي خلاياه وأنسجته، وفي أعضائه وأجهزته، من التعقيد والدقة والإتقان، ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها أعلم علماء الطب، وفي هذا الإنسان نفس تتعرج فيها المشاعر والعواطف وتصطرع فيها الشهوات والقيم، ما يعجز عن تحليلها وتفسيرها أعلم علماء النفس، وفي هذا الإنسان عقلاً، فيه من المبادئ والمسلمات والقوى الإدراكية، والتحليلية، والإبداعية، ما أهله ليكون سيد المخلوقات.

والآن أيها الأخوة:

ألا يحتاج هذا المخلوق الأول ـ كما تحتاج هذه الآلة ـ إلى كتاب من خالقه ومربيه ومسيره، يبن له فيه الهدف من خلق، والوسائل الفعالة التي تحقق هذا الهدف ؟.

ألا يحتاج هذا المخلوق الأول إلى كتاب فيه منهج يسير عليه يضبط حركاته ونشاطه من الخلل، والخطأ، والعبث ؟.

ألا يحتاج هذا المخلوق الأول إلى كتاب فيه مبادئ سلامته سلامة جسده من العطب، وسلامة نفسه من التردي، وسلامة عقله من التعطيل والتزوير ؟.

ألا يحتاج هذا المخلوق الأول إلى كتاب فيه مبادئ سعادته فرداً ومجتمعاً في الدنيا والآخرة ؟.

إنه القرآن الكريم يا أختي، الذي لا يقل في عظمة إرشاده وتشريعه عن عظمة إيجاد السموات والأرض.

قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ)

(سورة الأنعام: 1)

وقال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف: 1)

فكما أن الله سبحانه وتعالى يحمد على نعمة الإيجاد، إيجاد السماوات والأرض، كذلك يحمد بالقدر نفسه على نعمة الإرشاد إرشاد الإنسان من خلال القرآن، إلى طريق سلامته وسعادته الأبدية فالكون خلقه، والقرآن كلامه، وفضل كلامه على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

أيها الأخوة المؤمنون:

إنه القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في كل جانب من كل جوانب الحياة، المادية والنفسية، والاجتماعية والعقلية قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: 9)

إنه القرآن الذي إن اهتدى الإنسان بهديه، واتبع أحكامه، فلن يضل عقله، ولن تشقى نفسه.

قال تعالى:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه: 123)

إنه القرآن الذي إن سار الإنسان على نهجه، واستمسك بحبله فلن يخاف في الدنيا، ولن يحزن على ما فاته منها، قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

(سورة البقرة: 38)

إنه القرآن الكريم، الذي يعد المؤمن من ذكر وأنثى بالحياة الطيبة التي عز نوالها على كثير من الناس، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

إنه القرآن الذي يضمن للمؤمنين الشعور بالأمن ذلك الشعور الذي يعد أثمن ما في الحياة الإنسانية، بل هو أساس الصحة النفسية قال تعالى:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام: 82)

أيها الأخوة:

لو أن طبيباً حذر مريضه من بعض الأكلات التي يحبها، وبين له الخطر الذي إذا تناولها، أغلب الظن أن هذا المريض يتحاشى هذه الأكلات حفاظاً على صحته.

وفي القرآن الكريم أوامر ونواهي، ووعد ووعيد، فيا عجباً كيف نفسر موقف الإنسان الذي يخالف أوامر الله ونواهي، ولا يعبئ بوعد ولا وعيده، أيكون الطبيب أصدق عنده من الله، إن كان هذا فما أكفره، وإن كان وعيد الطبيب أشد عنده من وعيد الله فما أجهله، حقاً كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه.

أعزائي المشاهدين، أخوتي المؤمنين:

في ختام هذا الحديث هناك ومضة من إعجاز القرآن، فمن إعجاز القرآن العلمي، ما اكتشف مؤخراً، من أن من بين كل بحرين مالحين حاجزاً، تم تصويره من سفن الفضاء، هذا الحاجز يمنع مياه كل بحر من الاختلاط بمياه البحر الآخر، فلا يبغي بحرٌ على بحر بل يحافظ كل بحرٍ على كثافة مياهه، ودرجة ملوحته، ونوع مكوناته وهذا الحاجز ليس ثابتاً بل هو متحرك بفعل الرياح، وحركة المد والجزر، وحينما اطلع العالم المكتشف ـ وهو في نشوة اكتشافه ـ أن في القرآن الكريم إشارةً إلى هذا الكشف العلمي، وهو قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن: 19)

أخذته الدهشة وأعلن إيمانه بالقرآن.

وقد اكتشف أيضاً أن بين البحرين الملح الأجاج، والعذب الفرات شيئين: حاجزاً يمنع مياه كل بحر من أن تطغى على الآخر كما هو بين البحرين المالحين، وحاجزاً يمنع أسماك المياه المالحة من أن تنتقل إلى المياه العذبة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الكشف العلمي الثاني، وسمى الحاجز الأول برزخاً، وسمى الحاجز الثاني حجراً، فقال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (53))

(سورة الفرقان: 53)

أما طبيعة هاذيين الحاجزين فلا تزال موضع دراسة.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(12-31) :التربية النفسية : القلب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-11

بسم الله الرحمن الرحيم

العبادات في الإسلام لها غايات كبرى وحكم عظمة، فإن لم نبلغها فلا أقل من أن نتعرفها، حتى نسير نحوها، وإذا خلت العبادات من هذه الحكم والغايات انقلبت إلى طقوس ومبهمات.

وقد بين القرآن الكريم هذه الحكم، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والزكاة تطهر وتزكي، والصيام شرع من أجل التقوى.

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183))

(سورة البقرة: 183)

والتقوى نور يقذفه الله في القلب، فيرى به الحق حقاً فيتبعه والباطل باطلاً فيجتنبه، ولا بد لهذا القلب من أن يكون مهيئاً لتلقي هذا النور، ومن هنا شرع الصيام، لتنمية إخلاصه في العبادة، وتقوية إرادته على الطاعة، وترسيخ معاني عبودية لله عز وجل، فضلاً على أن الصيام يحقق وقاية الجسد، وصيانة أجهزته، من الإجهاد والعطب.

فالعبادات أيها الأخوة:

في مجموعها، وعلى اختلاف أنواعها وأشكالها، تهدف إلى تطهير القلب من أمراضه، وتحليته بالكمالات التي أرسلها الله لها كي يسمو إلى خالقه ويسعد بقربه، وينعم بجنته.

أيها الأخوة المؤمنون:

القلب له في جسم الإنسان المكان الأول وعليه في جميع الأمور معوال، ولا عجب فهو القائد، والجوارح جنود له وخدم، وهو الآمر الناهي، والأعضاء أتباع له وحشم وحسبك فيه قول الله تبارك وتعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37))

(سورة ق: 37)

والقلب أيها الأخوة:

حقيقة الإنسان، ومن عجيب أمر الله تعالى فيه، أنه جعل ببقائه قلب الجسد وصحته وانتظام عمله، حياة الجسد ونشاطه، وجعل بطهارة قلب النفس وسلامته حياة الروح وازدهارها.

والقلب هو الجانب المدرك من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب، والمعاتب، وهو محل العلم، والتقوى، والإخلاص والذكرى، والحب، والبغض، والوساوس، والخطرات، وهو موضع الإيمان، والكفر، والإنابة، والإصرار، والطمأنينة والاضطراب.

والقلب هو العالم بالله، والمتقرب إلى الله، وهو المقبول عند الله، إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله، إذا استغرق لغير الله، وهو الذي يسعد بالقرب من الله، ويشقى بالبعد عنه، قال تعالى في الحديث القدسي: عبدي طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة، والقلب هو منظر الرب، ولا يفلح الإنسان ولا يطيب إلا إذا زكاه، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه.

مشاهدي العزيز:

لعلك إن فتشت عن أعجب ما خلق الله في السماء والأرض لم تجد لا أعجب، ولا أروع، ولا أدق، ولا أجمل من قلب الإنسان.

تصلح أوتاره فيفض رحمةً، وشفقةً، وحباً، وحناناً، ومعانياً لطافاً، وشعوراً رقيقاً، حتى يتجاوز في سموه الملائكة المقربين.

وتفسد أوتاره، فينضح قسوة ولؤماً، وسوءاً حتى يهوى إلى أسفل سافلين، حوى على دقته كره العالم، فما أدقه وأجله، وما أصغره وأعظمه.

يكبر ولا نرى كبره، فيتضاءل أمامه كل كبير.

ويصغر ولا نرى صغره، فيتعاظم عليه كل صغير.

اتحد شكل القلب، واختلفت معانيه، فقلب كالجوهرة، الكريم صفى لونه، وراق مائه، وقلب كالصخر قوي متين، ينفع ولا يلمع وقلب هواء خف وزنه وحال لونه، يموت القلب ثم يحيى، ويحيى ثم يموت، ويرتفع إلى الأوج، ويهبط إلى الحضيض، وبينما هو يسامي النجوم رفعة إذا هو يلامس الطاعة طاعة، أليس أعظم بناة العالم قد امتازوا بكبر القلب، وصدق الشعور، وقوة الإرادة، إنما إن وجد كل شيءٍ وفقد قلبه لم يجد شيئاً.

أيها الأخوة الأحباب:

أما قلب الجسد، فهو من أعجب ما خلق الله، إنه مضخة مزدوجة، تضخ الدم الذي يحمل الغذاء والوقود إلى كل خليةٍ، ونسيج وعضوٍ، وجهاز، عن طريق شبكة من الأوعية يزيد طولها عن مائة وخمسين كيلومتر.

إنه يعمل منذ الشهور الأولى من حياة الجنين، وحتى يحين الحين، لا يغفل ولا يغفو، ولا ينسى ولا يسهو، ولا يقعد ولا يكبو ولا يمل ولا يشكو، يعمل من دون راحة، ولا مراجعة، ولا صيانة ولا توجيه. الإنسان بجبروته يؤذيه، وبنار حقده يكويه، وبالأحزان يبليه وهو أساس حياة الإنسان، وشمس عالمه،

عليه يعتمد في كل أعماله وأحواله، ومنه تنبع كل قواه، وحركاته.. وهو آلة خارقة!.. لا يعرف التعب إليها سبيلا، تزداد قدرتها أضعاف كثيرة، لتواجه الجهد الطارئ، إنه عضلة من أعقد العضلات، بناءً وعملاً وأداءاً، ومن أمتنها وأقواها، تنقبض وتنبسط، ثمانين مرةً في الدقيقة، ويصل النبض في الجهد الطارئ إلى مائة وثمانين، ويضخ القلب ثمانية آلاف لتر في اليوم الواحد، أي ما يعادل ثمانية أمتار مكعبة من الدم ويضخ القلب من الدم في طول عمر الإنسان ما يكفي لملئ مستودع بحجم إحدى أكبر ناطحات سحاب في العالم.

وينفرد القلب باستقلاله عن الجهاز العصبي، فتأتمر ضرباته وتنتظم بإشارة كهربائية من مركز توليد ذاتي هي أساس تخطيطه وتتغذى عضلة القلب بطريقة فريدة فذى !! ومن أعجب ما فيه دساماته المحكمة التي تسمح للدم بالمرور باتجاه واحد، وهو مبدأ ثابت بالمضخات.

حتى إذا سكن القلب في قفصه، واستراح من غصصه، خلف وراءه جثة هامدة كأنها أعجاز نخلة هاوية، لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

ورحم الله الشاعر إذ يقول:

دقــاتُ قلبِ المرء قائـــلة لــه   إن الحياةَ دقائــقٌ وثوانـــي

فارفع لنفسِكَ قبل موتكَ ذكرهـــا   فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثـــاني

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(13-31) :آيات في الآفاق وفي أنفسهم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-13

بسم الله الرحمن الرحيم

يطيب الحديث في رمضان عن القرآن لأنه أنزل فيه، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يكثر فيه من تلاوته وتدبره، فالقرآن هو المنهج الأقوم، والطريق الأمثل، لسعادة الإنسان في كل زمان ومكان، فيه دعوة إلى الإيمان بالله من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض، حيث تتابع الأمر بالتفكر في سور القرآن، وعُد الأساس الأول لبناء العقيدة والإيمان.

قال تعالى:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101))

(سورة يونس: 101)

وقال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7))

(سورة الطارق: 5 - 6 - 7)

فالتفكر في خلق السماوات والأرض، عبادة من أرقى العبادات وقربة من أعظم القربات، من أرقى العبادات، وقربة من أعظم القربات، وهي باب لمعرفة الله، من أوسع الأبواب.

كيف لا ؟ وأصل الدين معرفة الله.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28))

(سورة فاطر: 28)\

بل إن أول آية نزلت في القرآن ترسم المنهج لمعرفته، وهي في قوله تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2))

(سورة العلق: 1 - 2)

أيها الأخوة الأحباب:

في صحيح بن حبان، عن عطاء، أن عائشة رضي الله عنها قالت: أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلتي وقال: يا عائشة، ذريني أتعبد لربي عز وجل، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم أضطجع على جنبه، حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر الله لك، ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال عليه الصلاة والسلام: ويحك يابلال ! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران: 190)

ثم قال عليه الصلاة والسلام: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وقال عليه الصلاة والسلام: أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من لم يكن كلامه حكمةً فهو لغوُ، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره عبرة فهو لهو.

أيها الأخوة المشاهدون: الحق جل وعلا، الذي خلق السماوات والأرض بالحق يقول:

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(سورة فصلت: 53)

والحق هو القرار والثبات، والسمو والعلو، ونقيضه الباطل وهو الزوال والزهوق، والتردي والعبث.. سنريهم آياتنا في الآفاق فأين هي آيات الله في الآفاق ؟..

ورد في بعض الأحاديث الشريف: أن عدد النجوم في السماء بعدد ما في الأرض من مدر وحجر، أي بعدد ذرات التراب والحجارة فعلماء الفلك أيها الأخوة في الماضي، كانوا يعدون النجوم بالألوف وبعد أن ارتقت كفاءة مراصدهم، صاروا يعدونها بالملايين، ثم وصلوا إلى المليارات ؛ أي ألوف الملايين، أما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم في مجرتنا، درب التبانة، من خلال المراصد العملاقة بثلاثين ملياراً، علماً أن مجرتنا مجرة متوسطة في حجمها، وهي واحدة من عشرات ألوف الملايين من المجرات، التي لا يعلم عددها إلا الله، لقد صدق الله العظيم إذ يقول:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا)

(سورة ق: 6)

هذا عن عدد النجوم، فماذا عن حجومها ؟!.. إذا علمنا أيها الأخوة أن حجم الأرض مليون مليون كيلومتر مكعب، وأن الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، وأن المسافة بينهما مائة وخمسون مليون كيلومتر، وأن نجماً من النجوم في برج العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وأن نجماً أسمه منكب الجوزاء يزيد حجمه عن حجم الشمس بمائة مليون مرة... لقد صدق الله العظيم إذا يقول:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47))

(سورة الذاريات: 47)

هذا عن أعدادها وأحجامها، فماذا عن المسافات بينها ؟.. إن ما بينها من مسافات تقدر بالسنين الضوئية، فالضوء يقطع بالثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر، إذاً فهو يقطع في السنة عشرة آلاف مليار من الكيلومترات، فإذا علمنا أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة، وأن الشمس تبعد عنا ثمانية دقائق ضوئية، وأن المجموعة الشمسية، لا يزيد قطرها عن ثلاث عشرة ساعة ضوئية، وأن أقرب نجم ملتهب إلى الأرض، يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ولكي نعلما ماذا تعني أربع سنوات ضوئية نقول: لو اتجهنا إلى هذا النجم بمركبة تساوي سرعتها سرعة مركبة القمر، لاستغرقت الرحلة اكثر من مائة ألف عام، ولو ساوت سرعة هذه المركبة سرعة السيارة، لاستغرقت الرحلة هذه قريباً من خمسين مليون عام **!!**. هذا ما تعنيه أربع سنوات ضوئية **!!**.

فما القول في سديم المرأة المسلسلة، التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية، بل ما القول في مجرة اكتشفت حديثاً، تبعد عنا ست عشرة ألف مليون من السنوات الضوئية، لقد صدق الله إذ يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة: 75 - 76)

هذا ولم نتحدث عن حركات النجوم، وسرعتها العالية، ولا عن مداراتها الواسعة، ولا عن شدتها، ولا قوة إضاءتها، ولا عن قوى التجاذب التي تربطها، ولا عن توازنها الحركي، وما تفعل دقائق عشر في مثل هذا الموضوع وعلى كل فالعجز عن الإدراك إدراك قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67))

(سورة الزمر: 67)

أيها السادة الأعزاء:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

فماذا عن الآيات التي في أنفسنا، أن من هذه الآيات، لبن المرأة الذي يعد مبهراً ومدهشاً، تعجز عن تركيبه بخصائصه، قوى البشر ولو اجتمعت، وأضخم المعامل ولو تظافرت، فتركيبه في تبدل مستمر، بحسب حاجات الرضيع، ومتطلباته، وبحسب احتمال أجهزته وأعضائه، وهو أكثر ملائمة، وأكثر احتمالا، وهو آمن طرق التغذية من حيث الطهارة والتعقيم ؛ إذا يأخذ من الحلمة مباشرة، دون التعرض إلى التلوث الجرثومي، وحرارته ثابتة خلال الرضعة الواحدة متناسبة مع حرارة الرضيع، ويصعب توافر هذا الشروط، في الإرضاع الصناعي، وفوق ذلك فهو لطيف الحرارة في الصيف، دافئ في الشتاء، وهو سهل الهضم، ولا تتجاوز فترة هضمه الساعة والنصف، بينما تزيد فترة هضم حليب القوارير عن ثلاث ساعات.

والطفل الذي يرضع من ثدي أمه، يكتسب مناعة ضد كل الأمراض ؛ لأن في حليب الأم كل مناعاتها، وفيه مواد مضادة للالتهابات المعوية والتنفسية، ومواد تمنع التصاق الجراثيم بجدر الأمعاء، ومواد حامضية لقتل الجراثيم، والإرضاع يقي في المرضعة أورام الثدي الخبيثة، ويقي في الرضيع الآفات القلبية والوعائية وأمراض التغذية والاستقلاب.

بل إن الفطام السريع يحدث عند الطفل، رضاً نفسياً وانحرافات سلوكية، وهو ـ أي حليب الأم ـ سهل التحضير ليلاً ونهاراً، في السفر والحضر، لأنه جاهز دائماً بالحرارة المطلوبة، وبالتعقيم المثالي والسهولة في الهضم، والمناعة الشاملة.

قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد: 4 - 10)

قال عكرمة وابن المسيب النجدان هما الثديان.

يا رب تداركتنا باللطف في ظلمة الحشا وخير كفيل بالحشا قد كفلتنا

وأسكنت قلب الأمهات تعط فاً علينـــا وفي القلبين أجريت قوتنـــا

وأنشأتنا طفلاً وأطلقت ألســـناً تترجم بالقراري أنك ربنـــا

وعرفتنا إيـــاك فالحمد دائماً لوجهك إذا ألهمتنا منــك رشدنـــا

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(14-31) :التوبة (الطمأنينة والسكينة) لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-15

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن في رمضان شهر التقوى، شهر التوبة والغفران، شهر الطاعة والإحسان، شهر الذكر والقرب، شهر التقوى والحب، لقد فرضه الله علينا الصيام في كل عام، ليكون موسماً يرقى فيه عباده الطائعون، وفرحة لعباده الصالحين، وفرصة يتوب فيه عباده المسيئون، ويصطلحون فيه مع ربهم.

والتوبة أيها الأخوة:

إنما شرعها الله سبحانه وتعالى، لتكون صوناً للهداية، وسبيلاً للنجاة، فهو جل جلاله، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

ويا أيها الأخوة الأكارم:

التوبة في حقيقتها مخرج النجاة للإنسان حينما تحيط به خطيئاته وهي صمام الأمان حينما تضغط عليه سيئاته، وهي تصحيح للمسار حينما تضله أهواؤه، وهي حبل الله المتين، حينما تغرقه زلاته وهي الصراط المستقيم حينما تنحرف به شهواته.

قال عليه الصلاة والسلام: رغم أنف عبد ـ أي خاب وخسر أدرك رمضان فلم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ؟ إن الله سبحانه وتعالى لأفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، والعقيم الوالد والظمآن الوارد.

كيف لا والله جل في علاه ؟ وقال في الحديث القدسي: وعزتي وجلالي إن أتاني عبدي ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته وإن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن مشى إلي، هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني ألقلته، وإن تاب إليّ قبلته، وإن أقبل عليّ تلقيته من بعيد، وإن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن استعان بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردته ما يريد، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل طاعتي أهل كرامتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لطهرهم من الذنوب والمعايب، أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها.

والآن تعالوا يا أيها الأخوة:

لنرى ثمار التوبة اللامعة، إنها الطمأنينة والأمن، فلا خوف ولا حزن، ولا قلق، ولا هم، فالإنسان حينما يلبي نداء فطرته السليمة فيؤمن بخالقه ومربيه وينطلق في طريق طاعته، والإحسان إلى خلقه عندئذٍ تتصل هذه النفس التائبة المنيبة بربها، فإذا كل طمأنينتها وسعادتها بالقرب منه.

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

(سورة فصلت: 30 - 31)

أيها الأخوة الأكارم:

أي قلق يبقى ؟ إذا كان الله وليك، وأي خوف يستحوذ عليك إذا كان الله معك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويارب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ ابن أدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء.

أيها الأخوة الأكارم:

التائب ينفذ توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم ينفذ توجيهاته السديدة، في شأن الدنيا، وهموم المعاش فالنبي عليه الصلاة والسلام أمين وحي السماء، ومبعوث العناية الإلهية وهو الرحمة المهداة والنعمة المزجاة...

يقول عليه الصلاة والسلام في ما رواه الترمذي: من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبته الهموم، لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك.

وقد ورد في الأثر: أن خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر وإن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها، أرغبهم فيها.

أيها الأخوة الأحباب:

لقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام: أن يستعينوا بالله في النجاة من هموم الحياة الضاغطة ومقلقاتها الساحقة.

قال أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: دخل النبي عليه الصلاة والسلام المسجد ذات يوم، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامه، فقال: يا أبى أمامه، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة ؟ قال يا رسول الله: هموم لزمتني وديون، قال عليه الصلاة والسلام: أفلا أعلمك كلاماً إن قلته

أذهب الله همك وقض دينك ؟ قلت بلى يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت اللهم: إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال، قال: ففعلت فأذهب الله همي وقضى ديني.

يا أيها الأخوة الأكارم:

طوبى لمن عرف ربه، عرفه قبل فوات الأوان، طوبى لمن تاب إليه قبل أن لا تكون توبة، طوبى لمن أطاعه مخلصاً، طوبى لمن أحسن إلى خلقه مخلصاً، طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكملت علانيته، وعزل عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، قال تعالى:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29))

(سورة الرعد: 29)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(15-31) :الوقت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-18

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع لقائنا اليوم قيمة الوقت في حياة الإنسان، لقد سئلت السيدة رابعة رحمها الله، وكانت تناجي ربها وتقول:

فليـتكَ تحلُو والحـيـاة مريرة ٌ   وليتك ترضى والأنامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ   وبيني وبين العـــالمين خرابُ

إذا صحَ منك الود فالكل هينٌ   وكل الذي فوق التراب تـــبُ

أيها الأخوة الأحباب:

سئلت هذه العاشقة، العارفة، سئلت ما الإنسان ؟ فقالت: هو بضعة أيام، كلما انقضى يوم، انقضى بضع منه، إنه إذاً وقت محدود ومعلوم، إن الوقت وعاء لعمله، ومحل لكسبه، وهو رأس ماله الحقيقي.

يا أيها الأخوة الأحباب:

من خصائص الوقت، سرعة انقضائه أو هكذا يشعر الإنسان هكذا يشعر الإنسان لأن دقيقة الألم ساعة، وساعة اللذة دقيقة، إن الوقت يمر مر السحاب ويجري جري الرياح.

قال الله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)

(سورة يونس: 45)

ومن خصائص الوقت أيضاً، أنه إذا مضى لا يعود ولا يعوض.

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها وما من يوم ينشق فجره، إلا وينادي يا ابن آدم، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

هذا الوقت أيها الأخوة:

الذي هو عمر الإنسان، قصيرٌ جداً إذا قيس بحياته الأبدية في الدار الآخرة، فأي رقم مهما كبر، ولو كان الرقم فلكياً إذا قيس باللانهاية، إذا قيس بالحياة الأبدية، فإنه يغدو صفراً.

لذلك يتحسر الإنسان يوم القيامة، حينما يكتشف أنه ضيع الحياة الأبدية الباقية، من أجل حياته الفانية،

قال تعالى:

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر: من 22 - إلى 25)

قيل أيها الأخوة:

إن الدنيا ساعة، فجعلها طاعة.

أعزائنا المشاهدين:

في القرآن الكريم إشارات كثيرة، إلى قيمة الوقت في حياة الإنسان، وفي القرآن الكريم حضٌ كثير على الاستفادة منه، بل إن كلمات " وسارعوا " " وسابقوا " في كتاب الله تؤكد هذا المعنى.

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

(سورة البقرة: 148)

يأيها الأخوة الأكارم:

هذه الآية بالإضافة إلى معناها السياقي تشير في مقطعها الأول " ولكل وجهة هو موليها " تشير إلى أن وجهة الإنسان الصحيحة، أو المنحرفة، ومواقفه المشرفة، أو غير المشرفة وأعماله الصالحة، أو غير الصالحة، هي من كسبه وحده "ولكل وجهة هو موليها " وسوف يسأل عنها، ويجازى عليها، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر: 92)

وأن هذه الحرية في الكسب، هي التي تثمن عمله، وعمله الطوعي، الصالح، والخالص، سر سعادته الأبدية، وهذه الحرية بالكسب، عارية مسترده، فما دامت المهمة جليلة وما دام الوقت محدوداً، دعانا الله جل وعلا إلى الاستفادة من الوقت، وحضنا على فعل الخيرات فيه.

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

ففي هذا المقطع كما ترون معي حض على الاستفادة من الوقت في فعل الخيرات، وترك المنكرات.

ولكن يا أخوة الإيمان يا أيها الأخوة المشاهدون:

هذه الحرية في الكسب لن تدوم طويلاً لابد من أن تسترد إنها تسترد عند الموت والدليل المقطع الثالث.

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

أيها الأخوة الأحباب:

من جهل قيمة الوقت، وهو يملك أن ينتفع به، فسيأتي عليه حين يعرف قيمته، ويعرف قدره، ويعرف نفاسته، ولكن بعد فوات الأوان عندما يعتصر الندم قلبه، ولات ساعة مندم.

قال تعالى:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10))

(سورة المنافقين: 10)

ماذا كان جواب الله عز وجل ؟ جاء الجواب !.

(وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11))

(سورة المنافقين: 11)

وهذا الإنسان الذي يجهل قيمة الوقت سوف يعرف قيمته مرةً ثانية، ولكن يوم القيامة، حين توفى كل نفس بما عملت، وحينما تجزى كل نفس بما كسبت، وحينما يدخل أهل الجنة الجنة، وحينما يدخل أهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار، لو يعودون مرةً أخرى إلى حياة التكليف ليعملوا الصالحات !.

قال تعالى:

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)

(سورة فاطر: 37)

ويأتي الجواب:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: 37)

ولكن ما النذير أيها الأخوة ؟ جاء في تفسير القرطبي أن النذير هو القرآن الكريم، لأنه خطاب الله للإنسان، إنه تعليمات الصانع إنه نور يضيء له الطريق، ويهدي للتي هي أقوم، والنذير أيضاً هو النبي عليه الصلاة والسلام بسنته التي بين أيدينا.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45))

(سورة الأحزاب: 45)

والنذير هو الشيب، يقول الله في الحديث القدسي: عبدي كبرت سنك، وشاب شعرك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك فاستح مني، فأنا أستحي منك.

والنذير أيها الأخوة سن الأربعين، فمن بلغ الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة.

والنذير هي المصائب:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة: 21)

أيها الأخوة الأكارم: من أشد الأحاديث النبوية الشريفة، دلالة على قيمة الوقت قوله صلى الله عليه وسلم: بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ـ أي إذا جعل المرء الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، إذا وضع كل آماله في الدنيا، ونسي المبتدى والمنتهى ونسي الجبار الأعلى، ماذا ينتظر من الدنيا

يأتي الجواب ـ هل تنتظرون إلا غنىً مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر.

وقد قيل، إن الليل والنهار يعملان فيك أيها الإنسان ؛ أي يقربانك من أجلك، فاعمل فيهما الصالحات، ليكون الوقت مستثمراً لا مستهلكاً، فمن علامات المقت إضاعة الوقت.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(16-31) :التوبة بعد رمضان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-20

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن في اليوم الأخير أو قبل الأخير من شهر رمضان شهر التوبة والغفران، شهر الإحسان والقرآن، شهر القرب والرحمة، شهر الزلفى والتقوى، لقد شرع الصيام لتقوية إرادة الإنسان، على طاعة ربه، ولتنمية الإخلاص في قلبه، ولتمتين الصلة بخالقه، ولترسيخ معاني العبودية له لقد شرع الصيام، من أجل انتصار الإنسان على نفسه، كي يقودها نحو سعادتها الأبدية.

فقد ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كيلهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله، أصبح دون الحيوان.

أيها السادة الأعزاء:

ليست البطولة أن ننتصر على النفس في رمضان، ثم ننخذل أمامها بقية العام، ولكن البطولة أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران وتقلبات الزمان والمكان.

ليست البطولة أن نضبط ألسنتنا في رمضان، فننزهها عن الغيبة والنميمة وقول الزور، ثم نطلقها بعد رمضان، إلى حيث الكذب والبهتان، ولكن البطولة أن تستقيم منا الألسنة، وأن تصلح فينا القلوب ما دامت الأرواح في الأبدان.

ليست البطولة أن نغض أبصارنا عن محارم الله، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان، ثم نعود على ما كنا عليه بعد رمضان، إنا إذاً كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ولكن البطولة أن تصوم جوارحنا عن كل معصية، في رمضان، وبعد رمضان، فلا تفطر حتى تلقى الواحد الديان.

ليست البطولة أن نتحرى الحلال في رمضان، خوفاً من أن يرد علينا صيامنا، ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان، على أنه عادة من عوائدنا، ونمط شائع من سلوكنا، ولكن البطولة أن يكون الورع مبدأ ثابتاً وسلوك مستمراً.

ليست البطولة أن نبتعد عن المجالس، التي لا ترضي الله إكراماً لشهر رمضان، ثم نعود إليها بعد رمضان، وكأن الله ليس لنا بالمرصاد في بقية الشهور والأعوام.

ليست البطولة أن نراقب الله في أداء واجباتنا، وأعمالنا ما دمنا صائمين، فإذا ودعنا شهر الصيام، آثرنا حظوظ أنفسنا على أمانة أعمالنا ووجباتنا.

أيها الأخوة المشاهدون:

مثل هذا الإنسان لم يفقه حقيقة الصيام، ولا جوهر الإسلام إنه كالناقة عقلها أهلها، ثم أطلقوها، فلا تدري لمَ عقلت، ولا ولم أطلقت، لا يدري لم صام، ولا لم أفطر.

أيها الأخوة المؤمنين:

لو أديت العبادات ـ والصيام من العبادات ـ لو أديت العبادات على النحو الذي أراده الله عز وجل، لجعلت من المؤمن شخصية فذة إليها تنجذب النفوس، وبها تتعلق الأبصار، ومن نورها تهتدي القلوب.

لو أديت العبادات، على النحو الذي أراده الله عز وجل لجعلت من المؤمن رجلاً نير الذهن والقلب معاً، حاد البصر والبصيرة جميعاً، تتعانق فكرته وعاطفته، فلا تدري أيهما أسبق ؟ صدق أدبه أم حسن معرفته، ولا تدري أيهما أروع ؟ خصوبة نفسه الجياشة، أم فطانة عقله اللماح.

لو أديت العبادات على النحو الذي أراده الله عز وجل، لجعلت المؤمن ذا أفق واسع، ونظر حديد، ومحاكمة سليمة، ولجعلته منغمساً في سعادة، لا تقوى متع الأرض الحسية، أن تصرفه عنها، ولجعلته ذا أخلاقٍ أصيلة، لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا الضغوط المانعة أن تقوضها.

المؤمن الحق أيها الأخوة:

كما أراده الله أن يكون، كالجبل رسوخاً، وكالصخر صلابة وكالشمس ضياءً، وكالبركان تدفقاً، وكالبحر عمقاً، وكالسماء صفاءً وكالربيع نضارةً، وكالماء عذوبة، وكالعذراء حياءً، وكالطفل وداعة.

مشاهدي الأعزاء:

ومع أن شهر رمضان، شهر التوبة والغفران، لكن هذا لا يعني أن التوبة مقصورة عليه، محصورة فيه، بل إن أبواب التوبة مفتحة على مصاريعها في كل أشهر العام.

كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر: 53)

إنه جل وعلا يدعوا المسرفين إلى التوبة، فكيف بالمقتصدين ؟

كيف لا ؟ والحق جل وعلا يقول في كتابه العزيز:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

(سورة التحريم: 8)

والتوبة النصوح كما قال بعض العلماء، ندم في القلب واستغفار باللسان، وإقلاع عن الذنب.

كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شئ لأتيتك بقرابها مغفرة.

كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى، أفرح بتوبة عبده، من الظمآن الوارد، ومن القيم الوالد، ومن الضال الواجد " فمن تاب إلى الله توبة نصوحة أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه".

كيف لا ؟ والحق جل وعلا يقول في الحديث القدسي: أهلي ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من الذنوب والمعايب.

كيف لا ؟ وإذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى مناد في السماوات والأرض، أن أيتها الخلائق، هنئوا فلان فقد اصطلح مع الله.

والتوبة أيها الأخوة:

علم وحال وعمل... فهي علمٌ لأن المذنب لا يتوب إلا إذا علم ضرر الذنب، وكيف أن الذنوب حجابٌ بينه وبين المحبوب، وهذا العلم يولد حالة نفسية، هي الشعور بالندم، على ما أقترف من الذنوب وعلى ما فاته من الخيرات، وهذه الحالة من الندم تولد إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال، وبالماضي، وبالاستقبال.

كيف لا، أيها الأخوة ؟

والتائب يترك الذنب الذي كان متلبساً به في " الحال "، ويعزم بقلبه على ألا يعود إليه في " الاستقبال "، والتائب يسعى للإصلاح ما كان في " الماضي "، وقد لخص النبي عليه الصلاة والسلام هذه المراحل الثلاث بالندم، فقال فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس ابن مالك: " الندم توبة ".

حيث لا يخلو الندم، من علم أوجبه، ومن عمل أثمره.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(17-31) :حقيقة العبادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

صيام رمضان عبادةٌ من عبادات الإسلام، والعبادات أيها الأخوة لا تتضح حقيقتها، إلا إذا ربطت بأصول الدين.

لماذا وجدتُ ؟!. وما مهمتي في هذا الوجود ؟!.

وماذا بعد الموت ؟!.

سؤال كبير ! واجب على كل إنسانٍ أن يطرحه على نفسه وأن يفكر ملياً في الإجابة عنه.

فإن كل جهل، مهما عظمت نتائجه، قد يغتفر، إلا إن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه.

فعليه إن يعرف، من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟.

وأكبر عارٍ أيها الأخوة:

وأكبر عارٍ على هذا المخلوق الأول، والمكرم (الإنسان) الذي أوتي العقل، والإرادة، إن يعيش غافلاً، يأكل، ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يدري شيئاً عن حقيقة نفسه، ولا عن طبيعة دوره في الحياة.

قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: 130)

ومعنى " سفه نفسه " ؛ أي ما عرف قدرها.

وليست قصة الإنسان أيها الأخوة ـ كما يتوهم الماديون ـ أرحاماً تدفع، وأرضاً تبلع، والإنسان بين صرخة الوضع، وأنة في النزع يعاني ما يعاني، ولا خلود ولا جزاء، يستوي في ذلك من أحسن غاية الإحسان، ومن أساء كل الإساءة، يستوي في ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس، يستوي في ذلك من ضحى بحياته في سبيل الحق، ومن اعتدى على حياة الآخرين في سبيل الباطل.

قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40))

(سورة القيامة: من 36 إلى 40)

وقال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

(سورة المؤمنون: 115)

وفي آية أخرى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21))

(سورة الجاثية: 21)

أيها الأخوة المشاهدون:

لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفته في الأرض قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: 30)

وأول شيءٍ في هذه الخلافة، أن يعرف الإنسان ربه، حق المعرفة.

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق: 12)

وثاني شيءٍ في هذه الخلافة، أن يعبد الإنسان ربه حق العبادة قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات: 56)

فالماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟.. الإنسان لله، لمعرفة الله لعبادة الله ؛ ليسعد الإنسان بهذه المعرفة، وتلك العبادة، وذلك القرب لا ليعبد بشر، ولا حجر، ولا بقر، ولا شجر، ولا شمس، ولا قمر " ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء ".

يارب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا الله عليك فمن معك، إن معرفة الله موجوداً وواحداً، وكاملاً، نهاية العلم، وإن طاعة الله، والتقرب إليه نهاية العمل، وهاتان الحقيقتان هن فحوى رسالات الأنبياء جميعاً... قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء: 25)

معرفة الألوهية والعبودية لله عز وجل فحوى رسالات الأنبياء جميعاً.

أيها الأخوة المشاهدون:

العبادة هي غاية الخضوع، مع غاية الحب، فمن خضع، ولم يحب، لا يكون عابداً، ومن أحب ولم يخضع، لا يكون عابداً،

تعصي الإله وأنت تظهر حبـه   ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـــه   إن المحب لمن يحب مطيــع

الخضوع والحب هو ما فطر عليه الإنسان، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: 30)

لذلك أيها الأخوة، نلمح في العبادة أمرين أثنين:

الأول: الالتزام بما شرعه الله عز وجل، أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً، فليس عبداً لله، ولا عابداً له، من أستكبر عن إتباع منهجه، واستكبر عن أن ينقاد لشرعه، وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه، وإن دعاه في الكربات، واستغاثه في الشدائد.

أساس الخضوع أيها الأخوة:

أساس الخضوع لله هو الشعور الواعي بوجود الله، ووحدانيته وعلمه، ومحاسبته، وبأنه وحده، يملك النفع والضر، والخير والشر والحياة والموت، له الخلق والأمر، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إليه يرجع الأمر كله، فعبده وتوكل عليه، والله يحكم لا معقب لحكمه، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. وكلما أزداد ذلك الشعور الواعي عمقاً، وأتساعاً، قوي الاتجاه إلى الله، والاعتماد عليه، والسعادة بقربه.

الشيء الثاني أيها الأخوة:

أن يصدر هذا الالتزام، عن قلباً يحب الله تعالى، فليس في الوجود من هو أجدر من الله، بأن يحب، فهو صاحب الفضل والإحسان، خلق الإنسان، ولم يكن شيئاً مذكورا، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه، خلق في أحسن تقويم، وكرمه أعظم تكريم، فضله على كثير من العالمين، رزقه الطيبات، ويسر له القربات، استخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فمن عرف الله أحبه، وبقدر درجته في المعرفة، تكون درجته في المحبة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم، أشد الناس حباً لله، لأنه كان أعرفهم بالله، وكانت قرة عينه في الصلاة، لأنها الصلة المباشرة بين قلبه وبين الله، قال عليه الصلاة والسلام: أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

فالصيام أيها الأخوة: عبادة، ومن لوازم هذه العبادة، الخضوع لأمر الله في كل ما أمر، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(18-31) :رحمة الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-03-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد ورد في كتاب الترغيب والترهيب، عن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، وينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل))

(رواه الطبراني وقال رواته ثقات)

أيها الأخوة المشاهدون:

أن نصل إلى رحمة الله، ونحظى بها، هو سر وجودنا وغاية عبادتنا، فرحمة الله مقصد كل مؤمن، إليها تشتاق الأنفس وبها تطمئن القلوب، قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: 118- 119)

بل إن رحمة الله تعالى هي محط الرحال، ونهاية الآمال وغاية الغايات، قال تعالى:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

(سورة آل عمران: 106)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107))

(سورة آل عمران: 107)

ولكن يا أخوة الإيمان، ما حقيقة رحمة الله ؟..

إنها كروح في الجسد، بها يقف، وبها يتحرك، وبها يفكر وبها يتكلم، وبها يستمع، يسعد بها الإنسان، ولو فقد كل شيء ويشقى بفقدها، ولو ملك كل شيء، رحمة الله ليست ملك أحد فيمسكها أو يرسلها، ولكنها في متناول كل واحد من البشر، إذا هو دفع ثمنها.

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

(سورة فاطر: 2)

وقال تعالى:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف: 56)

مشاهدي الأعزاء:

ما من نعمة ـ يمسك الله معها رحمته ـ إلا وتنقلب بذاتها نقمة وما من محنة تحفها رحمة الله، إلا وتكون هي بذاتها نعمة، ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو مهاد وثير، وينام على الحرير، وقد أمسكت عنه رحمة الله، فإذا هو شوك القتاد.

يعالج المرء أعسر الأمور برحمة الله، فإذا هي هوادة ويسر ويعالج أيسر الأمور، وقد تخلت عنه رحمة الله، فإذا هي مشقة وعسر ويخوض المخاوف والأخطار، ومعه رحمة الله، فإذا هي أمنٌ وسلام ويعبر المناهج والسبل، وقد أمسكت عنه رحمة الله، فإذا هي مهلكة وبوار.

رحمة الله لا تعز على طالب كائناً من كان، في أي زمان ومكان، وفي أي حال ومآل، وجدها إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار، ووجدها يوسف عليه الصلاة والسلام، في الجب كما وجدها في السجن، ووجدها يونس عليه الصلاة والسلام، في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى عليه الصلاة والسلام، في اليم، وهو طفلٌ مجرد من كل قوة وحراسة، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حينما افتقدوها في الدور والقصور، فقال بعضهم لبعض:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الكهف: 16)

ووجدها عليه الصلاة والسلام، وصاحبه في الغار، والأعداء يتعقبون ويقصون الآثار، ويجدها كل مؤمنٍ أوى إليه، يائساً ممن سواها، قاصداً باب الله وحده، من دون كل الأبواب.

أيها الأخوة الأحباب:

يبسط الله الرزق مع رحمته، فإذا هو متاع طيبٌ، ورخاء وإذا هو رغد في الدنيا، وزادٌ إلى الآخرة، ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان، ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط واستهتار.

يمنح الله الذرية مع رحمته، فإذا هي زينة الحياة الدنيا ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح ويمسك رحمته، فإذا الذرية بلاءٌ، ونكدٌ، وعنتٌ، وشقاءٌ، وسهرٌ بالليل، وتعب بالنهار.

يهب الله الصحة والعافية، مع رحمته، فإذا هي نعمة وحياة طيبة، ويمسك رحمته، فإذا الصحة والعافية،

بلاءٌ يسلط الله على الصحيح المعافى، فينفق الصحة والعافية، فيما يحطم الجسم ويفسد الروح، ويزخر السوء إلى يوم الحساب.

ويعطي الله الجاه والقوة مع رحمته، فإذا هي أداة إصلاح ومصدر أمنٍ، ووسيلةٌ لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر ويمسك رحمته، فإذا الجاه والقوة مصدرا قلق على فوته، ومصدرا طغيان وبغيٍ، ومصدرا حقدٍ وكراهية، لا يقر لصاحبها قرار، ويدخر بها للآخرة، رصيداً ضخماً إلى النار.

أيها الأخوة المشاهدون:

بعد هذا الوصف الدقيق لآثار رحمة الله، تطمح كل نفس إلى أن تنال من رحمة الله ما يسعدها في الدنيا والآخرة، فتسأل النفس كيف السبيل إلى رحمة الله ؟ وهل في القرآن إشارات إلى موجباتها ؟.

نعم أيها الأخوة:

في القرآن إشارات كثيرة إلى موجبات الرحمة، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10))

(سورة الحجرات: 10)

أي إذا اتقيت أيها الإنسان ؛ أن تعصي الله عز وجل، فقد حققت أحد موجبات رحمته.

وقال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132))

(سورة آل عمران: 132)

أي إذا أتبعت المنهج الذي رسمه القرآن للإنسان ؛ وتفاصيله التي بينتها سنة النبي العدنان، فقد حققت أحد موجبات الرحمة.

وقال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56))

(سورة النور: 56)

فالصلاة أيها الأخوة:

هي العبادة الشعائرية، التي إن صحت بالتزام أمر الله والإحسان إلى خلقه، تتعرض نفس صاحبها من خلالها لرحمة الله وكان عليه الصلاة والسلام، إذا دخل المسجد، يدعو ويقول: اللهم أفتح لي أبواب رحمتك.

وقال تعالى:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآَنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204))

(سورة الأعراف: 204)

فإذا أردت أن تناجي ربك فادعه، وإذا أردت أن يناجيك ربك فاقرأ القرآن، ومن خلالها تجد رحمته.
وقال تعالى:

(إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف: 56)

فإذا أحسنت إلى الخلق كافة، بكل أنواع الإحسان، عندئذ تكون الرحمة قريبة منك، وفي الحديث القدسي: " إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ".

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(19-31) :تأملات في سورة العصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-26

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في الحديث الشريف: أن رغم أنف عبدٍ ـ أي خاب وخسر ـ أدرك رمضان فلم يغفر له، إلا لم يغفر له فمتى ؟ لذلك ينبغي للمرء أن يخرج في رمضان، من ظلمات الجهل والوهم، إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحُول الشهوات، إلى جنات القربات، ومن مدافعة التدني، إلى متابعة الترقي، فلعل هذا الإنسان، يرى الحقيقة الكبرى التي تتمحور حولها كل الحقائق، فينطلق إلى الهدف الكبير، الذي ينتظر كل الخلائق، فيهتدي ويهدي، ويسعد ويُسعد .

أيها الأخوة الكرام:

في القرآن الكريم سورة قصيرة، كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا التقيا لن يتفرقا حتى يتلو أحدهما على الآخر هذه السورة، وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم .

هذه السورة:

ترسم حدود منهج كامل للحياة البشرية، كما يريدها خالق البشرية، فعلى امتداد الزمان في جميع العصور، وعلى امتداد المكان في جميع الدهور، ليس أمام الإنسان إلا منهجٌ واحدٌ رابح وطريق واحد سالك، إلى جنة الخلد، وكل ما وراء ذلك، ضياعٌ وخسارٌ وشقاء .

أيها الأخوة المشاهدون:

لعلكم تسألون ما هذه السورة ؟ إنها سورة العصر:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

لقد أقسم الله جل جلاله بمطلق الزمن، العصر للإنسان الذي هو في حقيقته، زمن، فهو بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وما من يوم ينشق فجره، إلا وينادي يا ابن آدم، أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

لقد أقسم الله بالزمن، للإنسان، أنه في خسر بمعنى أن مضي الزمن وحده، يستهلك عمر الإنسان، الذي هو رأس ماله، ووعاء عمله الصالح، الذي هو ثمن الجنة التي وعد بها .

وهل الخسارة أيها الأخوة: في العرف التجاري، إلا تضيع رأس المال من دون تحقيق الربح المطلوب، لكن الإنسان إذا أستثمر الوقت فيما خلق، يستطيع أن يتلافى هذه الخسارة، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

أولاً: الإيمان ..

الإيمان هو اتصال هذا الكائن الإنساني، الصغير، الضعيف الفاني، المحدود، بالأصل المطلق الأزلي الباقي، الذي صدر عنه هذا الوجود وعندئذٍ ينطلق هذا الإنسان من حدود ذاته الصغيرة، إلى راحبة الكون الكبير، ومن حدود قوته الهزلية، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة، ومن حدود عمره القصير، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله، هذا الاتصال فضلاً على أنه يمنح الإنسان القوة، والامتداد والانطلاق، فإنه يمنحه السعادة الحقيقية التي يلهث ورائها الإنسان وهي سعادة رفيعة، وفرح نفيس، وأنس بالحياة، كأنس الحبيب لحبيبه وهو كسب لا يعدله كسب، وفقدانه خسران لا يعدله خسران، وعبادة إله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، فلا يذل لأحد، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار، فليس هناك إلا قوة واحدة، ومعبودٌ واحد وعندئذ تنتفي من حياة الإنسان المصلحة، والهوى، ليحل محلها الشريعة والعدل .

والاعتقاد بكرامة الإنسان أيها الأخوة:

وهو من لوازم الإيمان، الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله يرفع من قيمته في نظر نفسه، ويثير في نفسه الحياء، من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها .

ثانياً:

" وعملوا الصالحات "، ولأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة كان العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، فما إن تستقر حقيقة الإيمان في ضمير المؤمن حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها، في صورة عمل صالح، فلا يمكن أن يظل الإيمان في نفس المؤمن خامداً لا يتحرك، كاماً لا يتبدى، فإن لم يتحرك الإيمان هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف، أو ميت، شأنه شأن الزهرة ينبعث أريجها منها انبعاثاً طبيعياً، فإن لم ينبعث منها أريج فهو غير موجود .

والعمل الصالح أيها الأخوة:

ليس فلتة عارضة، ولا نزوةً طارئة، ولا حادثةٌ منقطعة، إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه المؤمنون .

فالإيمان ليس انكماشاً، ولا سلبية، ولا انزواءً، ولا تقوقعاً بل هو حركةٌ خيرةٌ، نظيفة، وعمل إيجابي، هادف، وإعمار متوازنٌ للأرض، وبناء شامخ للأجيال، يتجه إلى الله، ويليق بمنهج يصدر عن الله .

ثالثاً:

" وتواصوا بالحق "، ولأن النهوض بالحق عسير، والمعوقات كثيرة، والصوارف عديدة، فهناك هوى النفس، ومنطق المصلحة وظروف البيئة، وضغوط العمل، والتقاليد، والعادات، والحرص والطمع، عندئذٍ يأتي " التواصي بالحق "، ليكون مذكراً، ومشجعاً ومحصناً للمؤمن الذي يجد أخاه معه يوصيه، ويشجعه، ويقف معه ويحرص على سلامته، وسعادته، ولا يخذله، ولا يسلبه، وفضلاً عن ذلك، فإن " التواصي بالحق " ينقي الاتجاهات الفردية ويوقيها فالحق لا يستقر، ولا يستمر إلا في مجتمع مؤمن، متواص، متعاونٍ متكافل، متضامن

فالمرء بالإيمان، والعمل الصالح يكمل نفسه، وبالتواصي بالحق يكمل غيره، وبما أن كيان الأمة مبني على الدين الحق الذي جاءنا بالنقل الصحيح، وأكده العقل، وأقره الواقع، وتطابق مع الفطرة، فلابد من أن يستمر هذا الحق ويستقر، حتى تشعر الأمة بكيانها، ورسالتها، فالتواصي بالحق، قضية مصيرية فما لم تتنامى دوائر الحق في الأرض، تنامت دوائر الباطل وحاصرته فالتواصي بالحق، يعني الحفاظ على وجوده، والأداء لرسالته .

رابعاً:

" وتواصوا بالصبر "، وقد شاءت حكمة الله جل جلاله أن تكون الدنيا دار ابتلاء بالشر والخير، ودار صراع بين الحق والباطل لذلك كان التواصي بالصبر ضرورةً للفوز بالابتلاء، والغلبة في الصراع .

إذاً:

لابد من التواصي بالصبر، على مغالبة هوى النفس وعناد الباطل، وتحمل الأذى، وتكبد المشقة، لذلك يعد الصبر وسيلةً فعالةً لتذليل العقبات، ومضاعفة القدرات، وبلوغ الغايات، إن تكونوا تألمون، فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(20-31) :جهاز المناعة المكتسب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-28

بسم الله الرحمن الرحيم

في سورة التين في القرآن الكريم، آية جاءت جواب لقسم قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6))

أيها الأخوة الكرام:

مع أن الله جل جلاله، أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، وأنك.

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: 3)

من حيث كمال الخلق، فقد خص الله الإنسان في هذه الآية وفي آيات أخرى بحسن التركيب:

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8))

(سورة الإنفطار: 8)

وبحسن التقويم:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

وبحسن التعديل:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7))

(سورة الإنفطار: 7)

وهذا يا أيها الأخوة الكرام:

فضل عناية بهذا المخلوق، فضل عناية بهذا المخلوق الأول والمخلوق المكرم، وإشارة إلى أن لهذا الإنسان شأناً عند الله جل جلاله، وأن له وزناً في نظام الكون.

فهذا الإنسان الذي هو أعقد آلة في الكون، ففي خلاياه وأنسجته، وفي أعضائه، وأجهزته، من التعقيد، والدقة، والإتقان ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها أعلم العلماء.

وفي هذا الإنسان نفس تعترج فيها المشاعر والعواطف وتصطرع فيها الشهوات والقيم، والحجات، والمبادئ، بحيث يعجز عن إدراك خصائصها أعلم علماء النفس.

وفي هذا الإنسان عقل، فيه من المبادئ والمسلمات والقوى الإدراكية، والتحليلية، والإبداعية، ما أهله ليكون سيد المخلوقات.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ)

(سورة الإسراء: 70)

ومما يبين، ويوضح أن خلق الإنسان في أحسن تقويم، جهاز المناعة المكتسب، أو خط الدفاع الثالث في جسم الإنسان.

أيها الأخوة المشاهدون:

لقد خص المولى جل وعلا، الإنسان بأجهزة دفاع بالغة الدقة أول هذه الأجهزة، الجلد، وهو درع سابغة على البدن، ترد عنه الجراثيم، والأوبئة، وهو خط الدفاع الأول، وخص المولى جل وعلا كل عضو في الإنسان، وكل جهاز، وكل حاسة، بجهاز دفاع خاص به.

فاللعين مثلاً الأهداب، والأجفان، والدمع، وهذه الأجهزة الخاصة هي خط الدفاع الثاني.

وأما خط الدفاع الثالث: فهو الدم بجنوده من الكريات البيضاء وعدد هذه الكريات ؛ التي هي جنود خط الدفاع الثالث، خمسة وعشرون مليون كرية، في أيام السلم، ويتضاعف هذا العدد، في حال الإستنفار، وقد يصل إلى مئات الملايين، في حال القتال، في فترة لا تتجاوز الساعات، أو الأيام، ولهذه الجيوش الجرارة، من الكريات البيضاء سلاح إشارة مؤلف من بضع مواد كيماوية يعد وسيلة الاتصال، والتفاهم فيما بينها.

أما خطة جهاز المناعة، في الدفاع عن الجسم، فهي من الدقة والتنسيق والفعالية، بحيث يصعب تصديقها، ذكية جداً، خلايا الدم البيضاء، كما يقول بعض العلماء، إن في نظام عملها، أو في توزيع الأدوار القتالية على أفرادها، أو في تحقيق المهمات المنوطة به، فبعد ثوان معدودة، من اجتياز أي جسم غريب، لخطوط الدفاع الأولى والثانية، تتوجه إلى الجسم الغريب، كرايات مهمتها، أخذ الشفرة الكيماوية الخاصة بهذا العدو، والاحتفاظ بها، ثم نقلها، إلى المراكز الليمفاوية، حيث تقوم الخلايا المحصنة بتفكيك رموز الشفرة، تمهيد لصنع المصل المضاد.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

وبعد صنع المصل المضاد، تتوجه الخلايا المقاتلة حاملة هذا السلاح، وهو المصل لتهاجم به الجسم الغريب، وبعد أن تصرعه بهذا السلاح الفعال تأتي الخلايا اللاقمة، لتنظيف ساحة المعركة من بقايا جثث الأعداء خلايا مستطلعة، تأخذ الشفرة، وتنقلها إلى المراكز وخلايا مصنعة تفكك رموز هذه الشفرة، وتصنع السلاح الفعال وخلايا مقاتلة تحمل السلاح وتهاجم العدو، وخلايا منظفة، تلتقم الجثث وبقايا المعركة ليعود الدم كما كان نقياً سليما، وهذه الكريه البيضاء التي هي العنصر الأساسي، في جهاز المناعة، لا يزيد قطرها عن خمسة عشر ميكروناً.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

أما قوله تعالى:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5))

فحينما ينحرف الإنسان عن منهج ربه، ويستجيب لنداء غريزته من دون ضابط من شرع، أو رادع من فطرة، أو زاجر من عقل حينما ينحرف الإنسان يبطل عمل هذا الجهاز، ويموت الإنسان لأدنى مرض، وما مرض نقص المناعة المكتسب، الذي يهدد العالم المتفلت إلا تأكيد لهذه الحقيقة.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5))

أيها الأخوة المشاهدون:

ربما كان تركيز الآيات على الجانب الروحي من الإنسان، فهو مهيأ إذا عرف ربه، وسار على منهجه، وتقرب إليه بالعمل الصالح إن يبلغ من الرفعة ما يفوق الملائكة المقربين، لقد خلقنا الإنسان في أحس تقويم، أما إذا أعرض الإنسان عن ربه، وتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه، هوى إلى دركات لا يصل إليه مخلوق قط.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5))

حيث تصبح البهائم، أرفع منه وأقوم لاستقامتها على فطرتها وتسبيحها لربها، وحسن أدائها لوظيفتها.
يقول الإمام علي كرم الله وجه: ركب الملك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما فإن سما عقله على شهوته، أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله، أصبح دون الحيوان.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تلك العقيدة التي هي لب الإسلام، بل هي محور رسالات السماء، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء: 25)

إله واحد، خالق كل شيء، ورب كل شيء، له الخلق والأمر، وإليه المصير، في السماء إله، وفي الأرض إله.

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107))

(سورة هود: 107)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: 123)

هو وحده الجدير، أن يعبد فلا يجحد، وأن يشكر فلا يكفر وأن يطاع فلا يعصى.

روى الشيخان البخاري ومسلم: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي يا معاذ ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال عليه الصلاة والسلام: حق الله على العباد أن يعبدوه، لأن العبادة هي علة وجودهم.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات: 56)

حق العباد على الله أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً.

أيها الأخوة المشاهدون:

تحدثت عن تعريف التوحيد، وها أنا ذا أنتقل إلى لوازم التوحيد، من لوازم التوحيد:

أن لا يتخذ الإنسان من دون الله رباً يعظمه كما يعظم الله

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: 164)

فلو اعتقد أن جهة غير الله، يمكن أن تعطي، أو أن تمنع يمكن أن تخفض، أو أن ترفع، يمكن أن تعز أو تذل، مستقلة عن إرادة الله فقد أشرك.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26))

(سورة آل عمران: 26)

أيها الأخوة الأكارم:

ومن لوازم التوحيد أيضاً:

أن لا يتخذ الإنسان من دون الله ولياً، يحبه كحب الله.

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأنعام: 14)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32))

(سورة فصلت: 30 - 31 - 32)

أيها الأخوة الأكارم:

ومن لوازم التوحيد أيضا:

أن لا يتخذ الإنسان غير الله حكما، يطيعه كما يطيع الله.

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)

(سورة الأنعام: 114)

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: 36)

أيها الأخوة المشاهدون:

من ثمار التوحيد اليانعة، أن التوحيد هو في الواقع تحرير للإنسان، من كل عبودية، إلا لربه الواحد الديان، الذي خلقه فسواه وكرمه، التوحيد تحرير لعقله من الخرافات والأوهام، التوحيد تحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام، التوحيد تحرير لحياته من تسلط الأرباب والمتألهين.

ومن ثمار التوحيد اليانعة أيضاً، أن التوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي توضحت في الحياة وجهتها، وتوحدت غايتها وتحدد طريقها، فليس لها إلا إله واحد، تتجه إليه في الخلوة، والجلوة وتدعوه في السراء والضراء، وتعمل على ما يرضيه، في الصغيرة والكبيرة، ففي القرآن:

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39))

(سورة يوسف: 39)

وفي آية أخرى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29))

(سورة الزمر: 29)

ومن ثمار التوحيد أيضاً: أن التوحيد يملئ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة فلا تسترد بها المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك، فقد سد الموحد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم، الخوف على الرزق، والخوف على الأجل، والخوف على النفس، والخوف على الأهل والأولاد، والخوف من الإنس، والخوف من الجن، والخوف من الموت، والخوف من ما بعد الموت.

أما المؤمن الصادق، الموحد فلا يخاف إلا الله، ولا يخشى إلا الله، ولهذا تراه أمناً إذا خاف الناس، مطمئناً إذا قلق الناس هادئاً إذا اضطرب الناس.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام: 81 - 82)

وقال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة الشعراء: 213)

يا أيها الأخوة الأكارم:

من ثمار التوحيد اليانعة أيضاً، أن التوحيد مصدر لقوة النفس إذ يمنح التوحيد صاحبه، قوة نفسية هائلة، حيث تمتلئ نفسه من الرجاء بالله تعالى، والثقة به، والتوكل عليه، والرضى بقضائه والصبر على بلائه، والاستغناء به عن خلقه، فهو راسخ كالجبل، لا تزحزحه الحوادث، ولا تزعزعه الكوارث.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

(سورة يونس: 107)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود: 55)

ومن ثمار التوحيد أيضاً: أن التوحيد أساس الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية، لأن الأخوة والمساواة، لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض، أما إن كان الناس جميعاً عباداً لله والله فوق الخلق فيها وحده، هو الخالق، المربي، المسير، الرازق هو الحكم، إليه المصير، عندئذٍ تتحقق المساواة بين الناس، ويأتلف بعضهم بعضاً.

وهذه بعض ثمار التوحيد، وقد قيل ما تعلمت العبيد، أفضل من التوحيد وقيل أيضاً: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة سوريا الفضائية - درس تلفزيوني - الدرس (22 - 31) : القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-30

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله إلى الله ، وتلا على قومه آيات الله ، وعلمهم الكتاب والحكمة ، وزكى الذين آمنوا به وساروا على نهجه حتى صاروا أبطالاً ، رهباناً في الليل ، فرساناً في النهار ، يقومون الليل إلا قليلاً ، ينفقون أموالهم سراً وعلانية ، يدرؤون بالحسنة السيئة ، في صلاتهم خاشعون ، عن اللغو معرضون للزكاة فاعلون ، لفروجهم حافظون ، لأماناتهم وعهدهم راعون ، يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، هم تائبون ، عابدون ، حامدون ، سائحون راكعون ، ساجدون ، آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر ، حافظون لحدود الله ، يجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، إذا قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، زادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل هم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، كانوا قوامين لله شهداء بالقسط ، أذلةً على المؤمنين ، أعزةً على الكافرين ، أحبوا الله وأحبهم ، ورضي عنهم، ورضوا عنه .

نحن إذ نحدد ملامح شخصية أصحابه ، والتي هي ثمرة من ثمار دعوته ، صلى الله عليه، وعلى آله ؛ نقف عند الجانب التربوي في دعوته ، ونستنبط بعض القواعد من أقواله، ومن أفعاله ، ومن إقراره ، هذه القواعد التي يمكن أن تكون منارات للدعاة إلى الله من بعده ، يهتدون بها .

المسلمون من دون دعاة إلى الله جُهَّال تتخطفهم شياطين الإنس والجن ، من كل حدب وصوب ، وتعصف بهم الضلالات من كل جانب لذلك كان الدعاة إلى الله مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وحجة الله في أرضه ، بهم تُمحق الضلالات وتنقشع الغشاوات ، هم ركيزة الإيمان وغيظ الشيطان ، وهم قوام الأمة ، وعماد الدين ، هم أمناء على دين الله يدعون الناس إلى الله بلسان صادق ، وجنان ثابت ، وخلق كريم فأعمالهم تؤكد أقوالهم ، لذا فهم أسوة ونبراس يصلحون ما فسد ويقوموِّمون ما اعوجَّ ، لا يستخفون من الناس ولا يخشون أحداً إلا الله ولا يقولون إلا حسناً .

ولن يفلح الدعاة إلى الله في دعوتهم ، إلا إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم الذي عصمه الله عن الخطأ في الأقوال ، والأفعال والأحوال وأوحى إليه وحياً متلواً وغير متلو ، وألزمنا أن نأخذ منه كل ما أمرنا به ، وأن ندع كل ما نهانا عنه ، وأن نتأسى بمواقفه وسيرته ، لأنه القدوة ، والأسوة الحسنة والمثل الأعلى فمن القواعد المستنبطة من دعوته صلى الله عليه وسلم :

ـ القاعدة الأولى : القدوة قبل الدعوة ..

كان صلى الله عليه وسلم عابداً متحنثاً ، وقائداً فذاً ، شيَّد أمَّةً من الفُتات المتناثر ، ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش وأباً عطوفاً وزوجاً تحققت فيه المودة والرحمة والسكن وصديقاً حميماً وقريباً كريماً وجاراً تشغله هموم جيرانه ، وحاكماً تملأ نفسه مشاعر محكوميه يمنحهم من مودته وعطفه ما يجعلهم يفتدونه بأنفسهم ، ومع هذا كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض ، الدعوة التي حققت للإنسان وجوده الكامل ، وتغلغلت في كيانه كله ورأى الناس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تتمثل فيه هذه الصفات الكريمة كلها فصدقوا تلك المبادئ التي جاء بها كلها ورأوها متمثلة فيه ولم يقرؤوها في كتاب جامد بل رأوها في بشر متحرك فتحركت لها نفوسهم ، وهفت لها مشاعرهم وحاولوا أن يقتبسوا قبسات من الرسول الكريم ، كلٌّ بقدر ما يُطيق فكان أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل وكان هادياً ومربياً بسلوكه الشخصي ، قبل أن يكون بالكلم الطيب الذي ينطق به .

ولأن القدوة هي اعظم وسائل التربية ذلك لأن دعوة المترف إلى التقشف دعوة ساقطة ، ودعوة الكذوب إلى الصدق دعوة مضحكة ودعوة المنحرف إلى الاستقامة دعوة مخجلة ، لذلك كانت مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله وفضائله ومكارمه قدوةً صالحة وأسوة حسنة ومثلاً يُحتذى وهي ليست للإعجاب السلبي ، ولا للتأمل التجريدي ن ولكنها وُجدت فيه لنحققها في ذوات أنفسنا ، كل بقدر ما يستطيع .

وقد ورد في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا معاذ أن " يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ولين الكلام ، وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، وأنهاك أن تَسُبَّ حكيماً أو تكذب صادقاً أو تُطيع آثماً ، أو تعصي إماماً عادلاً أو تُفسد أرضاً .. وأوصيك ؛ باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تُحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية " .

[أخرجه البيهقي في كتاب الزهد]

يستطيع الإنسان أن يكون عالماً جهبذاً في الطب أو العلوم أو الهندسة من دون أن تتطلب هذه العلوم ممن يتعلمها قيداً سلوكياً ، ولا يُفسد حقائقها أن يتبع النابغ فيها هوى نفسه ، في حياته الخاصة ، إلا علم

الدين ، فإنك إن كنت من المتدينين المخلصين ، أو من علمائه أو الداعين إليه ، فلا بد من أن تكون قدوة حسنة لمن تدعوهم إليه ، وإلا ما استمع إليك أحد ، ولو كنت أكثر الناس اطلاعاً وعلماً في دين الله ، ولن ينظر إليك أحد نظرة احترام جديرة بك ، إلا إذا كان سلوكك وفقاً لقواعد الدين .

قال ملك عمان وقد التقى النبي صلى الله عليه وسلم : والله ما دلني على هذا النبي الأمي، إلا أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد وينجز الوعد .

قال أحد كُتاب السيرة الغربيين الذين أسلموا :

" كان محمد ملكاً وسياسياً ومحارباً وقائداً ومشرِّعاً وقاضياً ، وفاتحاً ومهاجراً ، مارس بالفعل جميع المبادئ التي كان يلقنها للناس ، ولن تجد في القرآن حُكماً أو أمراً لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا كان يمارس بالفعل كل ما كان يدعو إليه بالقول ، فالمرء مثلاً لن يكون عفواً ، إلا أن يكون له عدو يلقى منه أشد الإساءة ثم تدور الدائرة على هذا العدو فيقع في قبضته ، ويصبح تحت رحمته ، ثم يملك القدرة على الانتقام منه ، ثم يعفو عنه .. ثم يقول الكاتب : " تأمل دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخول الظافر المنتصر ، وقد خرَّت جزيرة العرب صريعة تحت قدميه ، وأصبحت مكة قلعة العدو تحت رحمته ، فلو شاء لقطع رؤوس القوم ، الذين كانوا بالأمس ألد أعدائه ، الذين اتخذوه هزواً ، وأمعنوا في اضطهاده والاستخفاف به ، ولو أنه عاقبهم بذنبهم لكان مُحقاً ، ولم يكن ملوماً ، ولم تظهر فضيلة العفو قط بصورتها الكاملة في تاريخ أي دين من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطلة إلى الأبد " .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(23-31) : فوائد التمر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-31

بسم الله الرحمن الرحيم

في رمضان: كان عليه الصلاة والسلام يفطر على تمرات قبل أن يصلي فإن لم تكن تمرات ، حسا حسواتٍ من الماء. رواه الأمام أحمد ، وأبو داوود والترمذي في صحيح الجامع الصغير.
وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمرٍ فإنه بركة فإن لم يجد تمراً فالماء طهور. أخرجه الترمذي ، وأبو داوود في صحيح الجامع الصغير.

التمر أيها الأخوة ؛ الذي يتناوله الصائم مع الماء ، فيه خمس وسبعون بالمائة من جزئه المأكول مواد سكرية أحادية ، سهلة الهضم سريعة........ إلى درجة أن السكر الذي فيها ينتقل من الفم إلى الدم في أقل من عشر دقائق ، وفي الحال يتنبه مركز الإحساس بالشبع في الجملة العصبية فيشعر الصائم بالاكتفاء فإذا أقبل بعدها على الطعام أقبل عليه باعتدال وكأنه في أيام الإفطار.
بينما المواد الدسمة إذا بدأ بها الصائم ، يستغرق هضمها وامتصاصها أكثر من ثلاث ساعات ، فمهما أكثر الصائم من الطعام الدسم لا يشعر بالشبع ولكن يشعر بالامتلاء.
لذلك كان عليه الصلاة والسلام من سنته العملية أنه يفطر على تمرات ثم يصلي المغرب، ثم بعدها يجلس إلى الطعام ، ومن لم يطبق سنة النبي صلى الله عليه وسلم في إفطاره فاته خير كثير من صيامه صحياً ، ونفسياً ، ودينياً.
أخوتنا المشاهدين:
تتركب التمور من السكريات الأحادية ، وهذا النوع من السكر هو أسرع السكاكر على الإطلاق امتصاصاً في جسم الإنسان ، ففي عشر دقائق كما قلنا ينتقل سكر التمر من الفم إلى الدم.
وتتركب التمور أيضاً: من الألياف السللوزية ، التي لها أثار مدهشة في عملية الهضم ، وفي امتصاص الشحوم ، وفي وقاية الأمعاء من الأمراض الوبيلة.
وتتركب التمور أيضاً: من المواد البروتينية المرممة للأنسجة ومن نسب ضئيلة من الهون ، ويحتوي التمر ، ودققوا في هذه الحقائق ويحتوي التمر على خمسة أنواع من الفتامينات الأساسية التي يحتاجها الجسم.
كما يحتوي التمر: على ثمانية معادن أساسية لبناء الجسم ومائة غرام من التمر فيها من نصف إلى خمس حاجة الجسم من المعادن يومياً.

ويحتوي التمر أيضاً: على اثني عشر حمضاً أمينياً ، وفي التمر مواد ملينة ومهدئة.

أيها الأخوة الكرام:

هناك خمسون مرضاً يسببها الإمساك ، والتمر يقي الإنسان من الإمساك بل إن له آثار إيجابية في الوقاية من فقر الدم ، ومن ارتفاع الضغط ، بل ويعين على التئام الكسور ، وهو ملين ، ومهدئ ، وقد أثبت الأبحاث أن التمر لا يتلوث بالجراثيم إطلاقاً لأن شدة تركيز السكر العالي فيه يمتص ماء الجرثوم.

هذا التوجيه النبوي الكريم من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

أعزائنا المشاهدين:

ومن دلائل النبوة صلى الله عليه وسلم ، أنه أمرنا عند ذبح الحيوان الذي نعده لطعامنا أمرنا أن نقطع أوداجه ؛ أي شرايين رأسه فقط ، من دون أن نقطع رأسه ، وليس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم لا في الجزيرة العربية ، ولا في مراكز الحضارات شرقاً وغرباً من معطيات العلم ما يسمح بتعليل هذا التوجيه بل ولا في العصور التي تلت عصره صلى الله عليه وسلم ، إلى أن اكتشف أخيراً أن القلب ينبض بتنبيه ذاتي يأتيه من القلب ، لا يأتيه من المخ ، بل من القلب نفسه من مركز كهربائي ، وهناك مركزان كهربائيان إحتياطيان لهذا المركز يعملان عند تعطله ، ولكن هذا التنبيه الذاتي الذي يأتي القلب من القلب إنه يعطي النبض الطبيعي ، يعني ثمانين نبضة بالدقيقة مثلاً ، أما حينما يواجه الكائن خطراً ويحتاج إلى مائة وثمانين نبضة في الدقيقة ليسرع الدم في الأوعية لابد عندئذٍ من أن يأتي هذا الأمر الاستثنائي من الجملة العصبية ، وعلى رأسها الدماغ أن يكون هذا الأمر كهربائياً ، ومن الكظر بأمر من الدماغ هرمونياً.

أيها الأخوة:

إن القلب ينبض إذا جاءه أمر استثنائي مائة وثمانين نبضة في الدقيقة ، والمعلوم أن مهمة القلب عند ذبح الحيوان هي إخراج الدم كله من جسم الدابة ، والنبض الطبيعي لا يكفي لإخراج الدم من جسم الذبيحة ، فإذا قطع رأس الذبيحة حرم القلب من التنبيه الاستثنائي الكهربائي ، والهرموني ، عندئذٍ يبقى دم الدابة فيها ، ولا يخفى ما في ذلك من أذى يصيب آكلي هذه الذبيحة ، فالدم طاهر في أثناء حياة الدابة أما إذا ماتت يصبح الدم نجساً ، وخطراً على صحة الإنسان ، فالدم في أثناء حياة الدابة يصفى عن طريق الرئتين ، والكليتين ، و التعرق أما بعد ذبح الدابة يصبح الدم بيئةً صالحة لنمو الجراثيم الفتاكة.

ونشير هنا إلى أن اللحم غير المزكى ؛ أي الذي لم يخرج منه دمه محرمٌ أكله.

أيها الأخوة الكرام:

ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: لكل داء دواء ، فإذا أصيب داء الدواء برء بإذن الله.

أخرجه مسلم في صحيحه.

وفي هذا الحديث معانٍ عظيمة ، فقوله صلى الله عليه وسلم لكل داء دواء يرفع روح المريض المعنوية، وحالته النفسية التي تساعد كثيراً على شفائه من مرضه ، وفي هذا الحديث الشريف تشجيع للعلماء والباحثين ، على الاجتهاد والبحث عن دواء لكل داء لم يكتشف له علاج ، وفي هذا الحديث الشريف تنبيه على دقة التشخيص وصولاً لاختيار العلاج المناسب.

وقوله صلى الله عليه وسلم: فإذا أصيب داء الدواء.

ففي قوله إشارة إلى ضرورة دقة التشخيص للمرض ، وإشارة إلى ضرورة حسن اختيار الدواء المناسب لهذا المرض ، من حيث النوع و الكم وتقصي أقل الأعراض الجانبية حدوثاً.

لكن البرءة في النهاية لا يكون حتماً عند الإصابة في التشخيص والإصابة في اختيار الدواء المناسب بالكمية المناسبة ، وفي الوقت المناسب هذه كلها شروط لازمة ولكنها غير كافية لا بد من أن يسمح الله للدواء أن يفعل فعله في العامل الممرض شفاءاً أو تخفيفاً.

لذلك قال عليه الصلاة والسلام: برىء بإذن الله.

إذاً مما يكمل الأخذ بالأسباب التوجه إلى الله بالدعاء لأنه مسبب الأسباب لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال داووا مرضاكم بالصدقات ، فصدقت السر تطفئ غضب الرب وباكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(24-31) : ثمرة الصيام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-02

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلم في رمضان يدع الطعام والشراب، وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غياب الشمس بنية أداء العبادة، والتقرب إلى الله عز وجل، والطعام والشراب مباح في الأصل، ولأن الإنسان أيها الأخوة، لا يستطيع أن يتوازن مع نفسه حينما يدع ما هو مباح، ثم يقترف ما هو محرم.

ورد في الحديث الشريف: من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه.

عندئذٍ يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، لذلك شاءت حكمة الله تعالى أن يكون رمضان تدريباً على الطاعة والإحسان ومناسبة ليذوق المؤمن حلاوة القرب، فلعل طاعته وإحسانه، ولعل حلاوة القرب التي ذاقها في رمضان تنسحب على أشهر العام، وبهذا يصبح رمضان قفزة نوعية في السلوك، وقفزة نوعية في المعرفة وقفزة نوعية في القرب، فالمرء حينما يعرف الآمر قبل الأمر، يتفان في طاعة الآمر، وحينما يعرف الأمر ولا يعرف الآمر، يتفنن في التفلت من أمره، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: 28)

بل إن العلم لله محيطاً علمه بكل شيء، وقادراً على كل شيء هو علة وجودنا في الحياة الدنيا، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق: 12)

أيها الأخوة الكرام:

حينما يوقن الإنسان، أن الله تعالى، محيط علماً وقدرة بالإنسان، وأنه سوف يحاسبه عن كل أعماله، وأنه في قبضته، في كل وقت، عندئذ لا يتوازن الإنسان مع عقله ولا يتوازن مع نفسه، إلا بطاعته لربه، والتوجه إليه والقرب منه.

من أجل أن نعرف الله ينبغي أن نفكر في ملكوت السماوات والأرض، نعرفه كي نقبل على طاعته.

أيها الأخوة:

أرسلت مركبة فضائية قبل ستة سنوات، وقد وصلت قبل خمسة أشهر قريباً من المشتري، وعلى هذه المركبة، مرصد للنجوم عملاق، وقد ألتقط هذا المرصد، أثراً لمجرة تبعد عنا ـ دققوا في الرقم ـ ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، أي أن هذه المجرة كانت في مكان انطلاق ضوئها، قبل ثلاثمائة ألف

بليون سنة ضوئية، فأين هي الآن ؟ وبعض المجرات تسير بسرعة تقترب من الضوء، نشر هذا الخبر في إحدى محطات الأخبار العالمية.

أيها الأخوة:

الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلومتر، فكم يقطع في الدقيقة وكم يقطع في الثانية ؟ وكم يقطع في اليوم ؟ وكم يقطع في السنة ؟ تبعد هذه المجرة عنا، ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية دققوا في قوله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة: 75 - 76)

من أجل أن نعرف هذه المسافة تقديراً، أضع بين أيديكم هذه الحقيقة، إن أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض، يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، ولكي نصل إلى هذا النجم القريب جداً، بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام، فكم نحتاج إلى أن نصل إلى مجرة تبعد عنا ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64))

(سورة غافر: 64)

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: 101)

أيها الأخوة المشاهدون:

لو انتقلنا من مجرة تبعد عنا ثلاثة مائة ألف بليون سنة ضوئية إلى نملة صغيرة سواد، على صخرة صماء، في ليلة ظلماء، وللنظر إليها مع سيدنا علي بن أبي طالب حيث يقول: انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافت هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها، وصبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدها في مستقرها، تجمع بحرها لبردها، وفي وردها لصدرها، مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها، لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان، ولو في الصفا اليابس، والحجر الجانس.

يقول الإمام علي: ولو فكرت في مجال أكلها، في علوها وسفلها، وما في الجو من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجبا، وللقيت من وصفها تعبا، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على قدرتها قادر.

ولقد أثبت الله جل جلاله للنملة التخاطب والمعرفة في القرآن الكريم.

فقال تعالى:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل: 18)

وفي كل آية، وفي كل شيء له آية تدل على واحد.

أيها الأخوة المشاهدون:

والمهم أن يعلم الصائم علم اليقين أنه مالم يرقى الصيام بالمسلم من ترك المباحات، إلى ترك المحرمات، وفعل الخيرات، فليس في صيامه جدوى يقطف ثمارها في رمضان.

أيها الأخوة:

الإمام جعفربن أبي طالب رضي الله عنه، حدث النجاشي ملك الحبشة، حدثه عن الإسلام فقال أيها الملك: كنا قوم أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف صدقه، وأمانته، وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، ونخلع ما كان يعبدوا آبائنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

هذا النص الدقيق الذي يشرح فيه الإمام جعفر الصادق، يشرح فيه حقيقة الإسلام يشير إلى أن العبادات منها ما هو شعائري، ومنها ما هو تعاملي، فمن العبادات الشعائرية، الصيام، والعبادات الشعائرية لا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافي في مسجد هذا.وترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(25-31) :الدعاء المستجاب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-04-04

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلم حين يصوم نهار رمضان ، يصوم فمه عن الطعام والشراب وتصوم أعضائه وجوارحه عن كل معصية ، ثم يقوم ليلة رمضان ، مصلياً فتسمو نفسه ، وترقى ، وتسعد بربها ، عندئذ يكون الصائم قد أقترب من معاني ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر والدعاء مستجاب ، ممن استجاب لله ورسوله ولا سيما في هذه الليلة قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60))

(سورة غافر: 60)

واستنباطاً من هذه الآية ، قال عليه الصلاة والسلام: الدعاء هو العبادة.

فالمسلم حينما يدعو الله عز وجل ، كما ينبغي إن يدعوه ينطلق من أن الله تعالى ، يسمعه ، ولو ناده نداءاً خفياً ، وأن الله تعالى رءوف به رحيم ، وأنه عليم به وخبير ، وأنه جل جلاله على كل شيء قدير، لهذا يعد من يدعو الله حقاً على علماً ومعرفة به.

أيها الأخوة المشاهدون:

وما دام الصائم قد ذاق حلاوة القرب في شهر رمضان ، فهو سيتجه بالشكر لله عز وجل، على ما أولاه من نعم المعرفة والقرب وهنا يناسب أن يقول الله عز وجل عقب آيات الصيام:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

(سورة البقرة: 186)

أيها الأخوة الكرام:

قال الله تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي)

ولم يقل وإن سألك لأن إذا تفيد تحقق الوقوع ، بينما إن تفيد احتمال الوقوع أي أن من لوازم معرفة الله عز وجل ، والوصول إليه والتنعم بقربه ، التوجه إليه وحده ، بالسؤال والدعاء ، وهذه هي حقيقة التوحيد.

فقد قال عليه الصلاة والسلام: ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء.

ويقول الله عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين.

أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة.

أيها الأخوة المشاهدون:

لو تأملتم في آيات القرآن الكريم ، لوجدتم مادة السؤال ، ورد في جوابه قل.

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة: 219)

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً (105))

(سورة طه: 105)

إلا في هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي)

إلا في هذه الآية وحدها فلم يرد في جوابه قل ، أشعاراً بأنه ليس بين العبد وبين ربه في سؤاله له ودعائه إياه وسيط.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

(سورة البقرة: 186)

سئل عليه الصلاة والسلام أقريب ربك فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه لأن البعيد ينادى ، والقريب يناجى ، فنزل قوله تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

وكلمة عباد أيها الأخوة ، غير كلمة عبيد ، فكل من في الأرض من البشر عبيد لله عز وجل ، لأنهم مفتقرون في وجودهم ، وفي استمرار وجودهم وخصائصهم وحاجاتهم ، ومقهورون في هذا كله إلى الله عز وجل ، ولكن العباد هم الذين تعرفوا إليه ، والتزموا منهجه وتقربوا منه ، مبادرةً منهم وبمحض اختيارهم ، وبدافع من حبهم له فالعبد الذي جمعه عبيد هو عبد القهر.

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46))

(سورة فصلت: 46)

بينما العبد الذي جمعه عباد ، هو عبد الشكر.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أيها الأخوة المشاهدون:

ولكن لماذا قال الله عن ذاته [فإني قريب] ؟ قال [فإني قريب] ليشعر المؤمن أن الله معه في كل مكان ، وفي كل زمان ، وفي كل حال ، وأنه ما عليه إلا أن يدعوه مؤمناً ومخلصاً ، والله يجيب دعوته لكن

الإنسان لضعف إيمانه ، أو لضعف توحيده ، يدعو غير الله لذلك قال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)

(سورة فاطر: 14)

ولكن لماذا لا يستجاب الله أحياناً لمن يدعوه ؟ أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال.

قال عليه الصلاة والسلام: إن الرجل ليطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يقول يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام ، وغذيه بالحرام ، فأنى يستجاب له.

رواه مسلم في صحيحه.

لذلك قال الله تعالى:

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي)

تؤمن به ، فتستجيب لأمره ، فيجيب دعائك ، ثم إن الله سبحانه وتعالى حينما ختم هذه الآية بقوله الكريم:

(لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

أشار المفسرون إلى أنه لعلهم يرشدون إلى الدعاء المستجاب أو إلى سعادة الدنيا والآخرة، وحينما لا يستجاب الدعاء ، يعزى ذلك إما إلى فساد الداعي وانحرافه عن منهج الله، أو أنه ليس من الرحمة والحكمة ، أن يستجاب له ، يدخر هذا له في الآخرة ، فلو كشف الغطاء لاخترتم الواقع ، وعلى كل فحظ المؤمن من الدعاء الإجابة ، أو العبادة فالدعاء هو العبادة ، بل هو مخ العبادة ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(26-31) :حكمة الصيام
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيء المهم، الذي ينبغي أن نستوعبه، في هذا الشهر الكريم، أن الله سبحانه وتعالى، لم يصطفِ رمضان، من بقية الشهور، ليكون شهر الطاعة والقرب فحسب، بل أراده شهراً يتدرب فيه الإنسان على الطاعة، حتى يذوق حلاوة القرب، وعندها تنسحب هذه الطاعة، وذلك القرب وتلك السعادة، على كل شهور العام، فيكون رمضان، قفزةً نوعيةً مستمرة، في مجال الطاعة والقرب.

والحكمة من أن الله سبحانه وتعالى، أمرنا بالإمساك عن الطعام والشراب، وسائر المفطِّرات، من طلوع الفجر الصادق، إلى غياب الشمس، الحكمة ؛ هي أن الإنسان حينما يدع ما هو مباح امتثالاً لأمر الله، لا يستطيع، ولا يتوازن، أن يقترف ما هو محرم في هذا الشهر فترك المحرمات أولى من ترك المباحات، ومن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه.

حينما يصطفي الله شهراً من الشهور ؛ لتصفوَ فيه العلاقة بالله عز وجل، يصطفيه ؛ من أجل أن يشيع هذا الصفاء مع الله في كل الشهور؛ لأن الله مع المؤمن في كل زمان.

وحينما يصطفي الله مكاناً، كبيته الحرام، ويدعو المؤمنين إليه ؛ ليذوقوا حلاوة القرب فيه، يريد أن ينسحب على كل الأمكنة، لأن الله مع المؤمن في كل كان.

وحينما يصطفي الله إنساناً، فيكشف له الحقائق، إنما يصطفيه ليكشف من خلاله الحقائق لكل الناس، وحينما يصطفي الله إنساناً ؛ ليوحي إليه الأمر والنهي والمنهج القويم، إنما يصطفيه ليكون هذا المنهج مطبقاً لدى كل الناس.

" إن الله أمر المؤمنين بما أمر المرسلين "

وحينما يصطفي إنساناً ؛ ليسعده سعادة أبدية، إنما يصطفيه ليسعد بدعوته كل الناس.

ومجمل القول، حينما يصطفى الله زماناً كرمضان، ومكاناً كبيته الحرام وإنساناً كسيد الأنام، محمد عليه الصلاة والسلام، إنما شاء الله جل جلاله أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس، واصطفاء المكان في كل الأمكنة واصطفاء الزمان في كل الأزمنة.

***

ليست القصد أن ننتصر على النفس في رمضان، ثم ننخذل أمامها بقية العام، ولكن الصيام الحقيقي، أن نحافظ على هذا النصر على طول الدوران، وتقلبات الزمان والمكان.

ليست القصد أن نضبط ألسنتنا في رمضان، فننزهها عن الغيبة والنميمة، وقول الزور، ثم نطلقها بعد رمضان، إلى حيث الكذب والبهتان، ولكن الصيام الحقيقي، أن تستقيم منا الألسنة وأن تصلح فينا القلوب ما دامت الأرواح في الأبدان.

ليست القصد أن نغض أبصارنا عن محارم الله، وأن نضبط شهواتنا غير المشروعة في رمضان، ثم نعود إلى ما كنا عليه بعد رمضان.

إننا إذاً كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ولكن الصيام الحقيقي أن تصوم جوارحنا عن كل معصية، في رمضان وبعد رمضان، فلا تفطر حتى تلقى الواحد الديان.

ليست القصد أن نتحرى الحلال خوفاً من أن يرد علينا صيامنا في رمضان، ثم نتهاون في تحريه بعد رمضان، على أنه عادة من عوائدنا ونمط شائع في سلوكنا، ولكن الصيام الحقيقي، أن يكون الورع مبدأ ثابتاً وسلوكاً مستمراً في حياتنا.

لست القصد أن نبتعد عن المجالس، وعن المشاهد، التي لا ترضي الله إكراماً لشهر رمضان، ثم نعود إليها، وكأن الله ليس لنا بالمرصاد في بقية الشهور والأعوام.

ليست القصد أن نراقب الله في أداء واجباتنا وأعمالنا، مادمنا صائمين فإذا ودَّعنا شهر الصيام، آثرنا حظوظ أنفسنا، على أمانة أعمالنا وواجباتنا، مثل هذا الإنسان لم يفقه حقيقة الصيام، ولا جوهر الإسلام إنه كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كالناقة حبسها أهلها ثم أطلقوها فلا تدري لا لمَ حُبست ولا لمَ أطلقت))

***

ما دام الصائم قد ذاق حلاوة القرب في شهر الصيام، فهو سيتَّجه بالشكر لله عز وجل على ما أولاه من نعمة المعرفة والقرب، وحينما يسعد الإنسان هذه السعادة، يتوجه بالشكر إلى الله عز وجل، وهنا من يناسب أن يقول الحق جل جلاله عقب آيات الصيام:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

[سورة البقرة]

قال تعالى: إذا سألك عبادي عني، ولم يقل إنْ سألك عبادي عني؛ لأن إذا تفيد تحقق الوقوع، بينما إنْ تفيد احتمال الوقوع.

***

التنعم بقرب الله عز وجل هو جنة الدنيا، والتوجه إليه وحده بالسؤال والدعاء، هو حقيقة العبادة والتوحيد، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

قال عليه الصلاة والسلام:

((ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء، يقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(27-31) :الوقت في حياة الانسان
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-01-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

أكثر الناس، يدعون لمن يحبونهم، أو لمن يسدي إليهم معروفاً يدعون له بطول العمر، وهل يطول العمر ؟.. وإذا كان العمر يطول، فما الذي يطيله ؟..

الإنسان ـ أيها الإخوة ـ أي إنسان مفطور على حب وجوده، وعلى سلامة وجوده، وعلى استمرار وجوده، قال تعالى:

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96))

[سورة البقرة]

والدين نفسه، يعد طول العمر نعمة إذا اقترن بالعمل الصالح، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم:

((أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ))

[رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وأحمد والدارمي]

لكن الموت ينغص على الإنسان حياته، فكثيراً ما يختطف الشابَّ وهو في ريعان شبابه، والعروس ليلة زفافها، والوحيد لمدلل من بين يدي أهله والغني المترف من أحضان نعمته، لهذا سُمي الموت هادم اللذات مُفرِّق الأحباب مُشتت الجماعات، وفي الحديث الشريف:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مُفارقه، واعمل ما شئت فإنك مُجزي به))

[قال العجلوني في كشف الخفاء 77/2: رواه أبو الشيخ وأبو نعيم والحاكم وصحح إسناده، وحسنه العراقي]

ولم يستطع الطب ـ أيها الإخوة ـ الذي وصل إلى زرع قلب مكان قلب ولا العلم الذي صل بالإنسان إلى سطح القمر، أن يُقاوم الهرم، وأن يُعيد الشيخ إلى شبابه، بعد أن رُدَّ إلى أرذل العمر، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً))

[أخرجه البخاري، وابن ماجة، وأحمد]

ما دام عمر الإنسان محدوداً بهذه الصورة فأنى له أن يُطيله ؟

وكيف يستطيع ؟.

الحقيقة أنه ليس عمر الإنسان الحقيقي، هو تلك السنوات التي يعيشها الإنسان من يوم ولادته إلى يوم وفاته، بل إنَّ عمر الإنسان الزمني هو أتفه أعماره، إنما عمره الحقيقي، هو حجم العمل الصالح الخالص في دوافعه.

صاحب الحكم ابن عطاء الله السكندري:

((رُبَّ عُمُرٍ اتَّسعت آماده وقلت أمداده، ورُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آماده، كثيرة أمداده، ومن بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن، من المنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة ولا تلحقه ومضة الإشارة))

لهذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو ويقول:

((لا بورك لي في طلوع شمس يوم، لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يوم، لم أزدد فيه من الله قُرباً))

الإنسان يستطيع أن يُطيل عمره، بمقدار ما يُفقُ إليه من عبادة لله تعالى وإحسان إلى خلقه، وكلما توافر لعمله، الإخلاص والإتقان كان الأجر والفضل أعظمَ عند الله.

وكلما اتسعت رقعة العمل، فشملت أعداداً كبيرة من البشر، حتى دخلت فيه الأمم والشعوب، وكلما امتد أمد العمل وطال، حتى توارثت ثماره أجيال وأجيال، وكلما تغلغل العمل، في كيان الإنسان كله المادي والنفسي والاجتماعي والروحي، حتى تحقق به وجود الإنسان، وتألقت من خلال إنسانيته، وكان كما أريد له أن يكون، كلما اتسعت رقعة العمل وعمَّ خيره وطال أمده، واشتد تأثيره كان أعظم عند الله.

فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرج الناس من الظلمات إلى، النور ومن دركات الجاهلية، إلى أعلى مراتب الإنسانية، وغير وجه التاريخ البشري كله، إلى اليوم وإلى ما شاء الله، في ثلاثٍ وعشرين سنة أقام فيها ديناً جديداً وربى عليه جيلاً فريداً، وأنشأ أمة مثالية، وأسس دولة عالمية في هذا الزمن اليسير، على الرغم من كل الصعوبات والمعوِّقات التي اعترضت سبيله من أول يوم.

***

يزداد ثقل العمل في ميزان الحق، وتتضاعف قيمته ومثوبته، عند الله كلما كثرت المعوقات في سبيله، وعظمت الصوارف عنه، قل المُعين عليه.

ويزداد ثقل العمل في ميزان، الحق وتتضاعف قيمته ومثوبته، عند الله حينما تفسد المجتمعات، وتضطرب الأحوال فيجور، وفي الحديث الصحيح:

((قَـالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[أخرجه مسلم والترمذي وأحمد وابن ماجة]

وهنا محلُّ الإشارة ـ أيها الإخوة ـ إلى أنَّ الإنسان إذا رُزق التوفيق في إنفاق وقته، يستطيع أن يُطيل عمره إلى ما شاء الله، بعد موته، فيحيى وهو ميت، ويؤدي رسالةً وهو تحت التراب، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد والدرامي]

وفي حديث آخر تضمن تفصيلات لهذه الثلاث، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))

[والترمذي والنسائي وأبو داود وأحمد والدارمي، وابن خزيمة في صحيحه]

وأخرج مسلم في صحيحه:

((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

[رواه مسلم والترمذي والنسائي وبن ماجة وأحمد والدارمي وللحديث تتمة]

وويل لمن انقضت آجالهم، وضلالاتهم وآثامهم باقية من بعدهم وهنيئاً لمن كانوا تحت الثرى والناس مهتدون بهديهم سعداء بأعمالهم.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(28-31) :الزكاة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-01-07

بسم الله الرحمن الرحيم

شهر رمضان شهر الإنفاق، شهر الصدقات، شهر الزكاة، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103))

[سورة التوبة]

هذه الآية ـ أيها الإخوة ـ أصل في فرضية الزكاة، وفيها من دقة النظم وروعة الدلالة، وقوة الاستنباط الشيء الكثير.

فيستنبط من كملة خذ في هذه الآية، أن الزكاة ليست مجرد عمل طيب من أعمال البر، يفعله المرء أو لا يفعله، وليست خلةً حسنة من خلال الخير، يتصف بها المسلم أو لا يتصف بها، بل هي ركن أساسي من أركان الإسلام، وشعيرة من شعائره الكبرى، بل هي حجر الزاوية من نظام الإسلام الاقتصادي، وأساس من أسس التكافل الاجتماعي، إنها ليست إحساناً اختيارياً، ولا صدقة تطوعية، وإنما هي فريضة تتمتع بأعلى درجات الإلزام الشرعي، والخلقي، لذلك لم يأمر الله عز وجل المؤمنين بدفعها، بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وألي الأمر من بعده بأخذها، لأن الزكاة، تؤخذ ولا تُعطى، تُفترض ولا تُستجدى.

ويُستنبط من كلمة " منْ " التي هي للتبعيض، في هذه الآية، أنَّ الزكاة لا تطول جميع المال، بل تطول بعضه، وقد بينت السنة المطهرة مقادير هذا البعض، بحسب أنواع الأموال وبحسب طريقة تحصيلها أو مقدار الجهد المبذول فيه.

ويُستنبط من كلمة " أموالهم " التي وردت في الآية جمعاً، أن الزكاة تطول كل أنواع المال، فتجب الزكاة في كل ما أخرجته الأرض من إنتاج زراعي، وفي الثروة الحيوانية، ومُنتجاتها، وفي الذهب والفضة وفي كل أنواع النقد المتداول، والسندات، والديون، والسُلف، وفي عروض التجارة بشتى أنواعها، وفي الحلي التي ليست للاستعمال الشخصي، بل وتجب الزكاة في الثروات الباطنية التي تحت الأرض وما تلف مال في بر أو بحر، إلا بحبس الزكاة..

ويُستنبط من ضمير الجمع في " أموالهم " أن الزكاة مفروضة على جميع المسلمين كافة، ممن يملكون النصاب الذي بينته السنة المطهرة من دون استثناء، ولا إعفاء، ولا تخفيض ولا طي..

كما أنه يُستنبط من كلمة " صدقة " في الآية الكريمة، أن المسلم حينما يدفع زكاة ماله، يؤكد صدقه، أي تطابق فعله مع اعتقاده، ويؤكد تصديقه لأمر الله، وتصديقه باليوم الآخر، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((الصدقة برهان..))

[أخرجه مسلم]

فالزكاة عبادة مالية، يؤكد بها المسلم تصديقه وصدقه، فلو لم يُطالبه بها السلطان، طالبه بها القرآن.

كما أنه يُستنبط من كلمة " تطهرهم " في هذه الآية الكريمة، آية الزكاة التي هي أصل في فرضية الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103))

يُستنبط من كلمة " تطهرهم " أن الزكاة تطهر نفس الغني، من الشحِّ البغيض، تلك الآفة النفسية الخطرة، التي قد تدفع صاحبها إلى الدم فيسفكه، أو إلى العرض فيبذله، أو إلى الوطن فيبيعه، ولن يُفلح فرد ولا مجتمع سيطر الشحَّ عليه، وملك ناصيته، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9))

[سورة الحشر]

والزكاة فضلاً عن أنها تطهر نفس الغني من الشحِّ، إنها تطهر نفس الفقير من الحسد والضغن، على ذلك الغني الكانز لمال الله، والذي يمنعه عن عباد الله، فمن شأن الإحسان أن يستميل القلوب، ومن شأن الحرمان أن يملأه بالحقد والكراهية.

فالزكاة تطهر نفس الغني من الشح، الذي هو من أكبر الآفات النفسية كما أنها تطهر نفس الفقير، من الحقد الذي له مضاعفات كثيرة.

بل إن الزكاة، تطهر المجتمع كله، من عوامل الهدم، والتفرقة والصراع، والفتن.

وتطهير للمال أيضاً، من تلوثه بتعلق حق الغير به، فالحجر المغصوب في الدار سبب خرابها.

((إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره))

[رواه ابن خزيمة وصححه الحاكم على شرط مسلم]

وقال وقال عليه الصلاة والسلام:

((حصنوا أموالكم بالزكاة))

[رواه الطبراني والبيهقي مرفوعاً متصلاً، ورواه أبو داود في المراسيل]

يُستنبط أيضاً من كلمة " وتزكيهم " في هذه الآية، والزكاة هنا بمعنى: النماء والزيادة، نماء للغني وللفقير، ولمال كل منهما، ونماء للعلاقات الاجتماعية، وللقيم الإنسانية.

فهي نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي ؛ فالإنسان الذي يُسدي الخير ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله، يشعر بامتدادٍ في نفسه، وانشراح واتساع في صدره، ويُحسُّ بما يُحسُّ به من انتصر في معركة، وهو فعلاً قد انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شُحِّه وهواه.

هي نماء لشخصية الفقير، حيث يشعر أنه ليس ضائعاً في المجتمع ولا هيناً عليه، ولا متروكاً لضعفه وفقره، إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته، ويحمل عنه أثقاله، ويمدُّ له يد المعونة، بكل ما يستطيع والزكاة بعد ذلك، نماء للمال، وبركة فيه، فأداء الزكاة ترفع القوة الشرائية عند الفقير، وهذا يعود بالنفع على دافع الزكاة، وقد يزيد المال بالعناية الإلهية المباشرة، بغير ما يُعرف من الأسباب، قال تعالى:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276))

[سورة البقرة]

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فمن أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه، ومن أعجب الأشياء أيضاً أن تحبه ثم لا تطيعه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرَّض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تتطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق العذاب عند تعلُّق القلب بغيره ثم لا تهرب إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه. وأعجب من هذا، علمك أنك لابد لك منه، وأنك أحوج شيءٍ إليه وأنت عنه مُعْرِض، وفيما يبعدك عنه راغب.

أيها الإخوة الأحباب... قبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان لاثني عشرة قرناً أو تزيد، ويوم كان العالم كله لا ينظر إلى الإنسان إلا من جهة ما عليه من الواجبات يطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق، جاء الإسلام ليؤكِّد جهرةً أن للإنسان حقوقاً ينبغي أن ترعى، كما أن عليه واجباتٍ يجب أن تؤدَّى، وكما أنه يسأل عما عليه، يجب أن يعطى ما له.

ومن هذه الحقوق أيها الإخوة التي أعلنها الإسلام جهرةً قبل خمسة عشر قرناً ؛ حق الحياة، وحق الكرامة الإنسانية، وحق التفكير، وحق التديّن، وحق الاعتقاد، وحق التعبير، وحق التعلّم، وحق التملك، وحق الكفاية، وحق الأمن من الخوف.

إخوة الإيمان... لقد قدَّس الإسلام حق الحياة، وحماه بالتربية والتوجيه، وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية، وعدَّ الحياة هبةً من الله تعالى، لا يجوز لأحدٍ كائناً مَن كان أن يسلبها منه، فالإنسان بنيان الله، وملعونٌ من هدم بنيان الله، وقد أنكر الإسلام على أهل الجاهلية قتلهم أولادهم سفهاً بغير علم، قال تعالى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

ولم يفرِّق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريكٍ ووضيع، ولا بين حرٍ وعبد، ولا بين رجلٍ وامرأة، ولا بين كبيرٍ وصغير، حتى الجنين في بطن أمه له حرمةٌ لا يجوز المساس بها، ومن هنا جاء تحريم الإجهاض، حتى الجنين الذي ينشأ من طريقٍ حرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه، لأنه نفسٌ بريئة لا يحل الاعتداء عليها..

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الزمر: من آية " 7 ")

لذلك شرع القصاص صوناً لحياة كل الأطراف، وشرعت الديَّة والكفَّارة في القتل الخطأ، وقد حمى

الإسلام أيضاً حياة الحيوان إن لم يكن منه أذىً، وفي الحديث الصحيح:

((أن امرأةً دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

(متفقٌ عليه)

وأما حق الكرامة وحماية العرض، فقد أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، مع حرمة الدماء والأموال، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع الغفيرة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله حرَّم عليكم دماءكم، وأعراضكم، وأموالكم))

(من صحيح البخاري: عن " ابن عمر ")

فلا يجوز أن يؤذى الإنسان في حضرته، ولا أن يهان في غيبته، سواءٌ أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول، فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط والسنان.

لقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يضرب إنسانٌ بغير حق، وأن يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة مَن ضرب إنساناً ظلماً، ومَن شهده يضرب ولم يدفع عنه، كما حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان، حرم الهمز، وحرم اللمز، والتنابذ بالألقاب، والسخرية، والغيبة، وسوء الظن بالناس، وكفل الإسلام صون كرامة الإنسان بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسل المَيِّت وتكفينه ودفنه، والنهي عن كسر عظمه، أو الاعتداء عليه أو على جثته، وقد جاء هذا في الحديث النبوي:

((كسر عظم الميت ككسره حياً))

(من الجامع لأحكام القرآن)

وكما حمى الإسلام جسم الميت بعد الموت، حمى عرضه وسمعته، لئلا تلوكها الأفواه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا تذكروا موتاكم إلا بخير))

(من تخريج أحاديث الإحياء: عن " السيدة عائشة ")

أيها الإخوة الأحباب... وأما حق الكفاية التامَّة، فمن حق كل إنسانٍ أن تهيأ له كفايته التامة من العيش، بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة ؛ من مأكلٍ، وملبسٍ، ومسكنٍ، وعلاجٍ، والأصل أن يكون للإنسان دخلٍ كافٍ يحقق كفايته منه عن طريقٍ مشروعٍ ؛ من زراعةٍ، أو تجارةٍ، أو صناعةٍ، أو وظيفة، أو حرفة، فإن لم يكن للإنسان دخلٌ يكفيه كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه لأنه جزءٌ منهم، قال تعالى:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)

(سورة الأنفال: من آية " 75 ")

فإن لم يكن له أقارب موسرون يستطيعون حمله وجبت كفايته من مال الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، والزكاة فُرضَت لتحقيق تمام الكفاية للإنسان، وذكر الفقهاء أن الزواج لمَن لا زوجة له من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية، وأن كُتب العلم لطالب العلم من تمام الكفاية، وهذه الكفاية التامَّة تجب للإنسان الفقير له ولأسرته مدة عامٍ بأكمله على مذهب، ومدة العمر كله على مذهبٍ آخر، بحيث يغدو آخذ الزكاة دافعاً للزكاة. يقول عمر رضي الله عنه: " إذا أعطيتم فأغنوا".

أيها الإخوة الأكارم... في خلافة عمر رضي الله عنه وأرضاه، جاء إلى المدينة جبلة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه، فيرحب به عمر أشد الترحيب، وفي أثناء الطواف ـ طواف هذا الملك حول الكعبة ـ داس بدويٌّ طرف إزار الملك الغساني، فيغضب الملك، ويلتفت إلى هذا البدوي فيضربه ويهشِّم أنفه، فما كان من هذا البدوي من فزارة إلا أن توجه إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب شاكياً، فيستدعي عمر رضي الله عنه الملك الغسَّاني إلى مجلسه، ويجري بينهما حوارٌ صيغ على الشكل التالي:

ـ قال عمر: جاءني هذا الصباح مشهدٌ يبعث في النفس المرارة، بدويٌّ من فزارة، بدماءٍ تتظلل، في جراحٍ تتكلل، مقلةٌ غارت، وأنفٌ قد تهشم، وسألناه، فألقى فادح الوزر عليك بيديك، أصحيحٌ ما أدعى هذا الفزاري الجريح ؟

ـ قال جبلة: لست ممن ينكر أو يكتم شيئاً، أنا أدَّبت الفتى أدركت حقي بيدي.

ـ قال عمر: أي حقٍ يا ابن أيهم ؟ عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم، عند غيري جبهةٌ بالإثم بالباطل تلطم، نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديدا، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا، يا جبلة ارضِ الفتى لابد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يُهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك.

ـ قال جبلة: كيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟! هو سوقةٌ وأنا عرشٌ وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضا؟!!

ـ قال " دعك من هذا، نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناه.

ـ فقال جبلة: كان وهماً ما مشى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتدٌ إذا أكرهتني.

ـ قال عمر: عالمٌ نبنيه، كل صدعٍ فيه بشذى السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

أما جبلة فلم يستوعب هذا المعنى الكبير في الإسلام، وفرَّ من المدينة هارباً مرتداً، ولم يبالِ عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة، لأن ارتداد رجلٍ عن الإسلام أهون بكثيرٍ من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئه. وخسارة فردٍ لا تقاس بخسارة مبدأ.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(30-31) :سورة العصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-12-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في القرآن الكريم سورة لو تدبرها الناس لوسعتهم هي سورة العصر ، فالله سبحانه و تعالى يقسم في مطلعها فيقول:

(وَالْعَصْرِ (1))

[سورة العصر: الآية 1]

و العصر كما يقول بعض المفسرين مطلق الزمن.

أيها الإخوة الأحباب:

النقطة إذا تحركت رسمت خطاً ، و الخط إذا تحرك شكل سطحاً ، و السطح إذا تحرك شكل حجماً ، و الحجم إذا تحرك أصبح زمناً ، ففي تعريف الزمن إنه البعد الرابع للأشياء و لازالت حقيقة الزمن موضع نقاش طويل ، على كل الله سبحانه و تعالى يقسم بالزمن و هو خالق الكون فيقول:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر]

جواب القسم أن الإنسان خاسر ، ما نوع خسارته ؟ ذلك أن الإنسان في حقيقته زمن و في أدق تعريف الإنسان ، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، ما من يوم ينشق فجره ـ القول للتابعي الجليل الحسن البصري ـ إلا و ينادي يا بن آدم أنا خلق جديد و على عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ، ما وجه الخسارة ؟ قال بعضهم إن مضي الزمن وحده يستهلك الإنسان ، هو بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، ذلك أن الإنسان في حقيقته زمن أو أن أثمن شيء يملكه هو الزمن ، أو أن رأسماله الوحيد هو الزمن فكأن الله سبحانه و تعالى أقسم بمطلق الزمن لهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن فقال:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

[سورة العصر]

فالخسارة كما قلت قبل قليل أنه كائن متحرك يتحرك نحو نقطة ثابتة ، فكل ثانية تمضي تقربه من هدفه، و على الإنسان أن يعد عمره عداً تنازلياً لا عداً تصاعدياً ، ليسأل نفسه هذا السؤال المحرج كل حين كم بقي لي ؟ هل بقي لي بقدر ما مضى ؟

أيها الإخوة الأحباب:

عند الإنسان أيام خمسة يوم مفقود و لا جدوى من الحديث عنه إطلاقاً، ويوم مشهود و هو أخطر أيامه، و يوم مورود و هو يوم موته ، و يوم موعود و هو يوم القيامة ، و يوم ممدود و هو الخلود في الجنة أو في النار: فالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، ذلك أن الله سبحانه و تعالى قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2))

[سورة الملك: الآية 2]

قدم الموت لأن في الموت خيارين اثنين لا ثالث لهما كما قال عليه الصلاة و السلام فالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

أيها الإخوة الأحباب:

هذه خسارة محققة و لكن هل تتلافى ؟ هل يستطيع الإنسان أن ينجو منها ؟ إن الآية الكريمة في قوله تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 3]

قبل أن أنتقل إلى شرح هذه الكلمات في الآية لابد من لفتة رائعة إلى أن هذا الزمن الذي هو حقيقة الإنسان أو هو رأسماله الثمين أو هو أثمن شيء يملكه هذا الزمن إما أن ينفق إنفاقاً استهلاكياً و إما أن ينفق إنفاقاً استثمارياً ، هذا بمنطق التجارة ، و الإنسان حينما يأكل و يشرب و يستريح و يستجم و يبيح لنفسه كل المتع الصالحة أو الطالحة ، المقبولة أو المرذولة ، الشرعية أو غير الشرعية ، هذا إنفاق للوقت إنفاق استهلاكي ، ما مضى فات و المؤمل غيب و لك الساعة التي أنت فيها و لكن حينما نمضي أيامنا في معرفة الله:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة العصر: الآية 3]

و معرفة الله جل جلاله هي أصل الدين ، و حينما نعرف الله عز وجل نعرف لماذا خلقنا في الدنيا ؟ نعرف علة وجودنا ؟ و نعرف غاية وجودنا ؟ و نعرف الرسالة التي حملنا إياها و نعرف الطريق المجدي لأن الله سبحانه و تعالى يقول:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

[سورة الكهف]

إذا تأملنا في خلق السماوات و الأرض وجدنا أن الكون بكل ما فيه ينطق بوجود الله و بكماله و بوحدانيته ، و أن الله عز وجل صاحب الأسماء الحسنى و الصفات الفضلى فحينما نؤمن بالله نؤمن أيضاً بالمهمة التي أوكلت إلينا:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب: الآية 72]

و الإيمان أيها الإخوة هو الذي يحقق إنسانية الإنسان ، هو أذلي يحقق وجوده الذي أراده الله عز وجل لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: الآية 24]

الحياة الحقيقية ، الحياة التي تليق بالإنسان ، الحياة التي يسعد بها الإنسان ، الحياة التي أرادها الله لهذا الإنسان هي حياة الإيمان بالله و العمل وفق منهجه و التقرب إليه ، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات: الآية 56]

و يقول أيضاً:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود: الآية 119]

فالإيمان أيها الإخوة ما إن تستقر حقيقته في نفس المؤمن حتى يعبر عن ذاته بحركة و ليس الإيمان تقوقعاً ، و ليس الإيمان انسحاباً من الحياة ، و ليس الإيمان انعزالاً ، لكن الإيمان حركة إيجابية نافعة ، فلذلك فرق كبير جداً بين المؤمن و غير المؤمن:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

[سورة السجدة: الآية 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

[سورة القلم]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

[سورة القصص: الآية 61]

المؤمن أيها الإخوة يعيش في جنة و قد قال بعض العلماء في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، يؤكد هذا قوله تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

[سورة محمد: الآية 6]

في الدنيا ، أي أنه ما إن تستقر حقيقة الإيمان في نفس المؤمن حتى تعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق ، فالإيمان خير كله ، الإيمان عطاء كله ، مرة قرأت كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و قد لفت نظري إهداؤه يخاطب النبي عليه الصلاة و السلام يقول: يا من جئت الحياة فأعطيت و لم تأخذ ، يا من قدست الوجود كله و رعيت قضية الإنسان ، يا من زكيت سيادة العقل و نهنهت غريزة القطيع ، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع ، يا من كانت الرحمة مهجتك ، و العدل شريعتك ، و الحب فطرتك ، و السمو حرفتك ، و مشكلات الناس عبادتك.

أيها الإخوة الأحباب:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة العصر: الآية 3]

ورد في بعض الأدعية لا بورك لي في طلوع شمس يوم لم أزدد فيه من الله علماً:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة العصر: الآية 3]

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح لقوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: الآية 19]

أنت حينما تستقيم على أمر الله تمهد الطريق إلى الله و تجعله سالكاً أما حركتك على هذا الطريق لا تكون إلا بالعمل الصالح لأن العمل الصالح هو الذي ينفع الإنسان ، و لأن حجم الإنسان الحقيقي عند الله هو حجم عمله الصالح:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: الآية 19]

بل أيها الإخوة إن هناك من الأعمال ما يبقى بعد الموت ، أنا حينما أؤمن بالله الإيمان الحق و حينما أعمل عملاً صالحاً خالصاً لله عز وجل و بالمناسبة الأعمال لا تقبل عند الله إلا إذا كانت خالصة و صواباً قيل ما خالصة و ما صوابها ؟ قال خالصة ما ابتغي بها وجه الله و صواباً ما وافقت السنة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم ، الترمذي ، النسائي ، أبو داود ، أحمد ، الدارمي]

إن أعظم الأعمال خيرية هي الأعمال التي تبقى بعد موت صاحبها صدقة جارية إلى أبد الآبدين:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

[سورة العصر: الآية 3]

الدعوة إلى الله أيها الإخوة فرض عين و فرض كفاية ، هي فرض كفاية لقوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران: الآية 104]

أي ليكن بعضكم يدعون إلى الخير ، هؤلاء المتخصصون ، هؤلاء المتفرغون ، هؤلاء الذين تعمقوا بالعلم و لكن الدعوة إلى الله كفرض عين أن تبلغ عن رسول الله و لو آية كما قال عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً........))

[البخاري ، الترمذي ، أحمد ، الدارمي]

و أن تنقل إلى الناس ما سمعته من كلام الحق في حدود ما تعلم و مع من تعرف:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر: الآية 3]

ينبغي أن تصبر على قضاء الله و قدره ، و عن معصيته و على طاعته ، هؤلاء الأربع أركان النجاة من الخسارة المحققة ، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

[سورة العصر]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية -قناة سورية الفضائية- درس تلفزيوني -الدرس(31-31) :أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-06-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

كما ورد في الأثر:

((عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إنما بعثت معلماً إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

يبدو من خلال هذا الحديث أن جوهر دعوته صلى الله عليه وسلم التحلي بالقيم الأخلاقية بعد الإيمان بالله وبعد التقرب إليه بالأعمال الصالحة، لذلك حينما سأل النجاشي سيدنا جعفر بن أبي طالب عن رسول الله والإسلام فقال:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ....أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

(مسند الإمام أحمد)

سيدنا جعفر رضي الله عنه يبين أن منظورة القيم الأخلاقية بعد الإيمان بالله هو جوهر دعوة النبي عليه الصلاة والسلام.

لذلك حينما كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر وأرادوا أن يعالجوا شاة فقال أحدهم: علي ذبحها وقال الآخر علي سلخها وقال الثالث: علي طبخها فقال عليه الصلاة والسلام ووعلي جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني ولكن الله يكره أن ير عبده متميزاً على أقرانه وفي معركة بدر حينما كان أصحابه يزيدون على الألف وكانت الرواحل تقل عن ثلاثمائة راحلة أصدر النبي عليه الصلاة والسلام توجيهاً فقال: كل ثلاثة على راحلة، كلام طيب قال:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَقَالَا نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ فَقَالَ مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

(مسند الإمام أحمد)

هكذا كانت أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم.

أيها الاخوة الكرام: في الطائف حينما دعا أهل الطائف لهذا الدين العظيم بالغ أهلها في الإساءة إليه فسخروا منها ونالوه بالأذى المادي حتى قال في دعائه المشهور: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبة حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي، ثم جاءه ملك الجبال فقال: يا محمد أمرني ربي أن أكون تحت إرادتك لو شئت لطبقت عليهم الجبلين فقال عليه الصلاة والسلام قولته الشهيرة: لا يا أخي اللهم اهدي قومي إنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده، من يتبرأ من قومه انتسب إليهم قال: الله اهدي قومي ودعا لهم واعتزل عنهم ورجى لهم في المستقبل أن يوحدوا الله عز وجل.

أيها الأخوة الأحباب:

((عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

(مسند الإمام أحمد)

أيها الأخوة: هذه القصة تندرج في أي موضوع ؟ مع رحمته أم مع وفائه أم مع تواضعه أم مع حنكته في امتصاص المشكلة، كان عليه الصلاة والسلام قد أوتي من الخلق العظيم مالا سبيل إلى وصفه.

أيها الأخوة الكرام:

((عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ قَدِمْتُ مَعَ عُمُومَتِي الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا فَفَرَكْتُ مِنْ سُنْبُلِهِ فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ فَأَخَذَ كِسَائِي وَضَرَبَنِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَعْدِي عَلَيْهِ فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ دَخَلَ حَائِطِي فَأَخَذَ مِنْ سُنْبُلِهِ فَفَرَكَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا وَلَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا ارْدُدْ عَلَيْهِ كِسَاءَهُ وَأَمَرَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَسْقٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ))

(سنن النسائي)

من أين عالج المشكلة ؟ من نهايتها أم من بدايتها ؟ وما أحوج العالم اليوم إلى أن يقتضي بهذا النبي الكريم ليحل المشكلات لا من نهايتها بل يحلها من بدايتها.

أيها الأخوة: فيما ورد في الأثر:

((صحابي آخر في أثناء الهجرة ألقي القبض عليه، فقال لمن قبض عليه عهد علي إن أطلقتموني لن أقاتلكم، فلما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقصى عليه ما حدث فرح به النبي عليه الصلاة والسلام، بعد سنوات عدة كانت غزوة فانخرط هذا المهاجر في جنود هذه الغزوة فرآه النبي قال له: ارجع ألم تعاهدهم.))

أيها الأخوة: النبي عليه الصلاة والسلام كان ذو خلق عظيم.

((أَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

(صحيح البخاري)

لأن النبي عليه الصلاة والسلام إقراره تشريع، لو أنه سكت لكان كلامها صحيحاً.وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم، هذا من تواضعه، بل كان إذا دخل عليه أحد الأعراب يسأل الحاضرين: من محمد منكم ؟ أيكم محمد ؟ ليست له علامة معينة ولا ثياب معينة ولا كرسي معين، كان مع أصحابه، من رآه بديهة هابه ومن عامله أحبه، وكان عليه الصلاة والسلام يقول أنا محمد، ومرة دخل أعرابي

قال: أيكم محمد فقال أحد أصحابه ذاك الوضيء.

كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجة من التواضع، قلبه ممتلئ رحمة، كان يصلي الفجر ومن عادته أن يطيل القرآن في صلاة الفجر:

((عن أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَإِنِّي أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ لِوَجْدِ أُمِّهِ بِبُكَائِهِ))

(سنن ابن ماجة)

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ قَدْ أَتَاهُ فَجَرْجَرَ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ قَالَ بَهْزٌ وَعَفَّانُ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَاتَهُ وَذِفْرَاهُ فَسَكَنَ فَقَالَ مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَهَا اللَّهُ إِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

(مسند الإمام أحمد)

في أثناء الهجرة تبعه سراقة ليأخذ مائة ناقة لمن يأتي بالنبي حياً أو ميتاً، هو مهاجر مهدور دمه، مائة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً تقول له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى.

أيها الأخوة المشاهدين دققوا في هذا الكلام: أي أني سأصل ثقة بالله عز وجل وسأنشئ دولة وسأحارب أقوى دولتين في العالم وسأنتصر عليهما وستأتيني كنوز كسرى إلى المدينة ويا سراقة لك سوار كسرى.

أيها الأخوة الكرام: هذا غيض من فيض أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وينبغي أن نقول كما قال الله عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4))

(سورة القلم)

لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر، لما كان سيد البشر، فهو سيد البشر لأنه انتصر على بشريته.

والحمد لله رب العالمين